

تفسير القشيري

المسمى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن قنوان بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع موابيه رَعَى عَلَيْهِ

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - آخر سورة التوبة



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsir al-Quşayri

"Laṭā'if al-ʿIṣārāt"

(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quşayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Raḥmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري

المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير هـ ر أ ن

المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري

المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)



9 782745 128379



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عزمون ، القببة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠ / ١١ / ١٢
فاكس: ٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣
ص. ب: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان
رياض الصلح بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الاستوائي القشيري النيسابوري الشافعي، المحدث الصوفي. ولد سنة ٣٧٦هـ في شهر ربيع الأول في بلدة «إستوا» ونسبته «القشيري» إلى بني قشير بن كعب.

توفي أبوه وهو صغير، فرُبِّيَ يتيماً؛ ولكن النجابة ظهرت فيه من صغره؛ فتثقف بالأدب والعربية، ولكنه لم يكن يعلم الحساب فذهب إلى «نيسابور» ليتعلم طرفاً من الحساب، حتى يتمكن من إدارة قرية له بإستوا. وأرادت المقادير، أن يحضر درس أبي عليّ الدقاق، فيرى إخلاصاً ويرى تقوى، ويرى نوراً يرتسم على وجهه، ويشرق من كلماته فينبير قلوب السامعين ويجذبهم إلى الله. وكانت فطرة القشيري النقية على استعداد تام لسلوك الطريق، ورأى الإمام أبو عليّ الدقاق فيه النجابة، فقبله في زمرة أخصائه، وزوجه ابنته، مع كثرة أقاربها.

وانتهى الأمر بالقشيري إلى أن أصبح - كما يقول عنه الإمام عبد الغافر النيسابوري - «الإمام مطلقاً، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب، النحوي، الكاتب الشاعر، لسان عصره وسيد وقته، وسر الله بين خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة، من جمع بين الشريعة والحقيقة، كان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي...».

ولقد ترجم له صاحب كتاب: «دمية القصر» أبو الحسن الباخري فقال:

«جامع لأنواع المحاسن تنقاد له صعابها ذلل المراسن، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ارتبط إبليس في مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب في فصل المنطق المستطاب، ماهر في التكلم على مذهب الأشعري، خارج في إحاطته بالعلوم عن الحد البشري،

كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد، وأعقاب منبره للعارفين وسائل. ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حَبْوَتَه، ورأوا قربته من الحق وحظوته، تضاءلوا بين يديه، وتلاشوا بالإضافة إليه، وطواهم بساطه في حواشيه، وانقسموا بين النظر والتفكير فيه. وله شعر يتوَّج به رؤوس معاليه، إذا ختمت به أذنان أماليه».

وقد توفي الإمام القشيري صبيحة يوم الأحد في السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥هـ، بمدينة نيسابور، ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق.

ومن تصانيفه التي ذكرها إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين:

- أربعون في الحديث.
- استفاضة المرادات.
- بلغة المقاصد.
- التخيير في علم التذكير في معاني اسم الله تعالى.
- التيسير في علم التفسير.
- عيون الأجوبة في فنون الأسئلة.
- الفصول في الأصول.
- كتاب المعراج.
- لطائف الإشارات في تفسير القرآن. وهو الكتاب الذي بين أيدينا.
- المنتهى في نكت أولي النهى.
- ناسخ الحديث ومنسوخه.
- نحو القلوب.
- حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح.
- شكايه أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة.
- متشور الخطاب في شهود الألباب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبُّ يَسْرُ

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه، لمن أراد طريقه، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، وأنزل الفرقان هدىً وتبياناً، على صفيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله - معجزةً وبياناً، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ورزقهم الإيمان بمُحكِّمه ومتشابهه وناسخه، ووعدته ووعيده، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأن (واره) لاستبصار ما ضمَّته من دقيق إشاراته، وخفي رموزه، بما لَوَّحَ لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون وإليه يشيرون، وعنه يفصحون، والحُكْمُ إليه في جميع ما يأتون به ويذرون.

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيري رحمه الله: وكتابتنا هذا يأتي على ذكر طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة، إما من معاني مقولهم، أو قضايا أصولهم، سلكتنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملل، مستمدين من الله تعالى عوائد المِنَّة، متبرئين من الحول والمِنَّة^(١) مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوفقين لأصوب القول والعمل، ملتزمين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سَلِّمْ)، ليختم لنا بالحسنى بمنه وأفضاله. وتيسر الأخذ في ابتداء هذا الكتاب في شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجل.

(١) المِنَّة: القوة. جمع مَن.

سورة فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة بدا (ية) الكتاب، ومفاتحة الأحباب بالخطاب والكتاب منه أجل الثعمى، وأكْرَمُ الحسنَى إذ هي (...) ^(١) وابتداء وفي معناه قيل:

أفديك بل أيام دهري كلها تفسدين أياماً (...) ^(١)
سُقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ما كان قلبي للصبابة معهدا
ولقد كان ﷺ غير مُرتَقِبٍ لهذا الشأن، وما كان هذا الحديث منه على بال،
وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ في الفرار، وأثر التباعد لهذا
الأمر آوى (...) ^(١) قائلا: «دثروني دثروني، زملوني زملوني» ^(٢) وكان يتحسّث في
جِراء ^(٣)، ويخلو هنالك (...) ^(٤) فجأة، وصادفته القصة بغتة كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكّنا
وكان صلوات الله عليه وسلم رَضِيَ بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه
وتعالى أرادته لأن) ^(٥) يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾
[يس: ٢] (رفعه إلى) أشرف المنازل وإن لم يسم إليه بطرف التأمل سُنَّة منه تعالى وتقدّس
(...) ^(٦) إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه، ولذلك ما قصّوا العَجَب من شأنه
(...) ^(٦) يتيم أبي طالب من بين البرية، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم في سابق
(علمه) سبحانه وتعالى مُقدِّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه، وفي معناه قيل:

هَذَا (...) أَطْمَار وكان في فقر من السيار

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) والطبري في (التاريخ ٢/٣٠٤)، وابن أبي شبة في (المصنف ١٤/٣/٧٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

(٣) تحسّث: تعبد ليالي كثيرة. جِراء: جبل بمكة يسمى جبل النور وفيه غار تعبد فيه النبي ﷺ قبل البعثة (بنون ولا بنون).

(٥) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) بياض في الأصل.

(٦) بياض في الأصل.

آثَرُ عِنْدِي (بمالأكبار) مِنْ أَخِي وَمِنْ جَارِي
وصاحب الدرهم (والدينار) فَإِنْ صَاحِبَ الْأَمْرِ مَعَ الْإِكْثَارِ^(١)

ولقد كان ﷺ قبل النبوة حميد الشأن، (محمود) الذكر، ممدوح الاسم، أميناً لكل واحد. وكانوا يسمونه محمداً الأمين، ولكن (الكافرين) (...) ^(٢) حالته، بدلوا اسمه، وحرّفوا وصفه، وهجّنوا ذكره، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (...) ^(٣) وثالث يقول كاذب، ورابع يقول شاعر:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حرباً
وهكذا صفة المُحِبِّ، لا ينفك عن الملام ولكن كما قيل:

أجد الملامة في هواك لذينة حباً لذكرك فليلمني اللؤم
وماذا عليه من قبيح قاله (من) يقول، (والحق سبحانه يقول): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧] أي استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا.

فصل: وتسمى هذه السورة أيضاً أم الكتاب، وأم الشيء أصله، وإمام كل شيء مقدّمه. وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية، والثناء على الله بجمال الربوبية، ثم كمالها من الفضائل - لا تصح الفرائض إلا بها. وقوله ﷺ مخبراً عنه سبحانه وتعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»^(٤) يعني قراءة هذه السورة، فصارت أم الكتاب، وأصلاً لما تنبني عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

الباء في بسم الله حرف التضمين؛ أي بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر وغبر، وغير من حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل - إلا بالحق وجوده، والحق مَلِكُهُ، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده، فيه وَجَدَ من وَحَدَ، وبه جحد من الحد، وبه عرف من اعترف، وبه تخلف من اقترف.

(١) أبيات الشعر مضطربة بالأصل فأضيفت الكلمات التي بين الأقواس ليستقيم الوزن والمعنى بعض الشيء.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٩٥٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣٧/٢، ٣٨، ٣٩، ٣٧٥) والحميدي في (المسند ٩٧٣)، والربيع بن حبيب في (المسند ٤٦/١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣٦٧/٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٥٠/٣، ١٥١ - ١٨٤)، وابن عبد البر في (التمهيد ٢/٢٣٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٤/٤١٣)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٤٩، ٢١١) والسهمي في (تاريخ جرجان ١٨٥).

وقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفرق بين هذا وبين القسم عند الآخرين، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان، ليكون ورود قوله ﴿اللَّهُ﴾ على قلب مُتَّقٍ وسِرٍ مُصَفَّى. وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره) بأوليائه ومن السين سره مع أصفياه ومن الميم منته على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سره، وبمنته عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، وبالسين سلامته سبحانه عن كل عيب، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه، وعند السين سناؤه، وعند الميم ملكه، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعني بسم الله الرحمن الرحيم في كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر في كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة، وإشارات غير معادة، فلذلك نستقصي القول ها هنا وبه الثقة.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

حقيقة الحمد الشاء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام ها هنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمّا وصفاً وإمّا خلقاً، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر لوفور إحسانه. والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْلُهُ، وحمد الخَلْقِ له على إنعامه وطَوْلُهُ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفاتا لعلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود (قدرة)^(١) القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطول، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمدته، وحقه يقينه، وثبوتة عينه، ودوامه بقاءه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته. تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!

فصل: عَلِمَ الحق سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حَمِدَ نفسه بما افتتح به خطابه بقوله: «الحمد لله» فانتعشوا بعد الذلة، وعاشوا بعد الخمود، واستقلت أسرارهم

(١) بياض في الأصل.

لكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال. وقالوا:

ولو جھها من وجھها قمر ولعينها من عينها كحل
هذا خطيب الأولين والآخرين، سيد الفصحاء، وإمام البلغاء، لما سمع حمده لنفسه، ومدحه سبحانه لحقه، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به في هذه الحالة فقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

داود لو سمعت أذناه قالتها لما ترنم بالألحان داود
غنّت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داود من الخجل

فصل: وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم في أحوالهم؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعي صفة نفعه ودفعه، وإزاحته وإتاحته، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من عجائب لطائفه، وأودع سرائرهم من مكنونات بره، وكاشف أسرارهم به من خفي غيبه، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده. وقوم حمدوه عند شهود ما كاشفهم به من صفات القدم، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم، وتأمل خصائص القيسم، و(فرق بين) من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله، كما قال قائلهم:

وما الفقر عن أرض العشيرة ساقنا ولكننا جئنا بلقياك نسعد
وقوم حمدوه مُسْتَهْلَكِينَ عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده، فهم به منه يعبرون، ومنه إليه يشيرون، يُجري عليهم أحكام التصريف، وظواهرهم بنعت التفرقة مرعية، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع^(٢) الجمع، كما قالوا:

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معاني الغيب أنت لسانه

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥٨/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧١/٢).

(٢) جاءت في الأصل (جميع الجمع) لكن القشيري قال في رسالته: بأن الاصطلاح الصوفي جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع ويختلف الناس في هذه الجملة حسب تباين أحوالهم وتفاوت درجاتهم، فمن أثبت نفسه أثبت الخلق، ولكن شاهد الكل كان قائماً بالحق، فهذا هو جمع، وإذا كان مختلطاً عن شهود الخلق مصطلحاً عن نفسه، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكل ما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية، وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص ٦٥، ٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الرب هو السيد، والعالمون جميع المخلوقات، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنشئها، ومُوجد الرسوم والديار بما فيها.

ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق، فهو مُرب نفوس العابدين بالتأييد ومرب قلوب الطالبين بالتسديد، ومرب أرواح العارفين بالتوحيد، وهو مرب الأشباح بوجود النعم، ومرب الأرواح بشهود الكرم.

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمر عباده من ربيت العديم أربه؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته، ومصلح أمور الواجدين بقديم عنايته، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقاءه، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقاءه، قال قائلهم:

ما دام عزك مسعوداً طوالعه فلا أبالي أعاش الناس أم فقدوا

قوله جل ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمة صفة أزلية وهي إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق.

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم في الإفادة، وغير الحق سبحانه لا يسمى بالرحمن على الإطلاق، والرحيم ينعت به غيره، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن، وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة، أو نفس النعمة كما هي عند قوم فالنعم في أنفسها مختلفة، ومراتبها متفاوتة فنعمة هي نعمة الأشباح والظواهر، ونعمة هي نعمة الأرواح والسرائر.

وعلى طريقة من فرّق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام المعنى، والرحيم عام الاسم خاص المعنى؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم، فالرحمن بما رُوح، والرحيم بما لُوح؛ فالترويح بالمبَار، والتلويح بالأنوار؛ والرحمن بكشف تَجَلّيه والرحيم بلطف تَوَلّيه، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم بما أسدى من العرفان، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تَوَلّى من الغفران، بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يَنْعُ به من الرضوان، بل الرحمن بما يكتّم به والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان، بل الرحمن بما يوفق، والرحيم بما تحقق، والتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين، والمواصلات للواجدين، والرحمن بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية.

قوله جل ذكره: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

المالك من له المُلْك، ومُلْك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع، فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك، وله المُلْك. وكما لا إله إلا هو فلا قادر على الإبداع إلا هو، فهو بالهيته متوحد، وبملكه متفرد، ملك نفوس العابدين فصرفها في خدمته، وملك قلوب العارفين فشرَّفها بمعرفته، وملك نفوس القاصدين فثَبَّتْها، وملك قلوب الواجدين فهَيَّأها. ملك أشباح مَنْ عِبَدَه فلاطفها بنواله وأفضاله، وملك أرواح مَنْ أَحَبَّهُمْ (١) فكاشفها بنعت جلاله، ووصف جماله. ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفَّقهم حيث شاء على ما شاء كما شاء، ولم يَكُنْ لهم إلههم لحظة، ولا مَلِكُهُمْ من أمرهم سِتَّةٌ ولا خطرة، وكان لهم عنهم، وأفناؤهم له منهم.

فصل: مَلِكٌ قلوب العابدين إحسانه فطمعوا في عطائه، وملك قلوب الموحدين سلطانه فقتلوا ببقائه. عرَّفَ أرباب التوحيد أنه مالِكهم فسقط عنهم اختيارهم، علموا أن العبد لا ملك له، ومن لا ملك له لا حكم له، ومن لا حكم له لا اختيار له، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض، ولا في اختياره معارضة، ولا لمخالفته تعرُّض، ﴿ويوم الدين﴾. يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر - الحق سبحانه وتعالى يجزي كلاً بما يريد، فَمِنْ بين مقبول يوم الحشر بفضلُه سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه سبحانه وتعالى لا بِجُزْمِهِمْ. فأما الأعداء فيحاسِبهم ثم يعذبهم وأما الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم:

قَوْمٌ إِذَا ظَفَرُوا بِنَا جَادُوا بَعَثَ رِقَابَنَا

قوله جل ذكره: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

معناه نعبدك ونستعين بك. والابتداء بذكر المعبود أتم من الابتداء بذكر صفته - التي هي عبادته واستعانته، وهذه الصيغة أجزل في اللفظ، وأعذب في السمع. والعبادة الإتيان بغاية ما في (بابها) من الخضوع، ويكون ذلك بموافقة الأمر، والوقوف حيثما وقف الشرع.

والاستعانة طلب الإعانة من الحق.

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمُتَّة، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمُتَّة، فبالعبادة يظهر شرف العبد، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد. في العبادة وجود شرفه، وبالاستعانة أمان تلفه. والعبادة ظاهرها تدلل، وحقيقتها تعزز وتُجَمِّلُ:

(١) بياض في الأصل.

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرِّقَابَ تَقَرِّباً مِّنَّا إِلَيْكَ، فَعَزُّهَا فِي ذُلِّهَا
وفي معناه:

حِينَ أَسْلَمْتَنِي لِذَالِ وَلَا مِ الْقِيْتَنِي فِي عَيْنِ وَزَاي
فصل: العبادة نزهة القاصدين، ومستروح المریدین، ومربع الأنس للمحبين،
ومرتع البهجة للعارفين. بها قُرَّةُ أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم.
وإليه أشار ﷺ بقوله: «أرحنا بها يا بلال»^(١) ولقد قال مخلوق في مخلوق:

يَا قَوْمِ ثَارِي عِنْدَ أَسْمَائِي يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عِبْدَهَا فَإِنَّهُ أَصْدَقُ أَسْمَائِي

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزلك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد
حكمه، فتقصده بأمل فسيح، وتخطو إليه بخطو وسيع، وتأمل فيه برجاء قوي، وتثق
بكرم أذلي، وتتكلم على اختيار سابق، وتعتمص بسبب جوده (غير ضعف).

قوله جل ذكره: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

الهداية الإرشاد، وأصلها الإمالة، والمهدي من عرف الحق سبحانه، وأثر
رضاه، وآمن به. والأمر في هذه الآية مضمرة؛ فمعناه اهدنا بنا - والمؤمنون على
الهداية في الحال - فمعنى السؤال الاستدانة والاستزادة. والصراط المستقيم الطريق
الحق وهو ما عليه أهل التوحيد. ومعنى اهدنا أي مل بنا إليك، وحُذْنَا لك، وكن
علينا دليلنا، وَيَسِّرْ إِلَيْكَ سَبِيلَنَا، وأقم لنا هممنا، واجمع بك همومنا.

فصل: اقطع أسرارنا عن شهود الأغيار، ولوح في قلوبنا طوابع الأنوار، وأفرّد
قصودنا إليك عن دَسِّ الآثَار، ورقنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى جَمْعِ ساحات
القرب والوصال.

فصل: حُلْ بيننا وبين مساكنة الأمثال والأشكال، بما تلاطفنا به من وجود
الوصال، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال.

فصل: أرشدنا إلى الحق لثلاث نتكل على وسائط المعاملات، ويقع على وجه
التوحيد غبار الظنون وحسبان الإغلال.

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٦/ ٣٤٠)، وابن كثير في (التفسير ٥/ ٤٥٦)، والهيتمي في
(مجمع الزوائد ١/ ١٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، والعراقي في
(المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٦٥)، (وتحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة
١٦)، والزبيدي في (إنحاف السادة المتقين ٣/ ١٣٧).

اهدنا الصراط المستقيم أي أزل عنا ظلمات أحوالنا لنستضيء بأنوار قُدُيبِكَ عن التفيؤ بظلال طلبنا، وارفع عنا ظل جهننا لنستبصر بنجوم جودك، فنجدك بك.

فصل: اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها، أو يصدنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون لي معتاد من التلقين، وتستهوينا آفة من نشو أو هوادة، وظن أو عادة، وكلل أو ضعف إرادة، وطمع مالٍ أو استزادة.

فصل: الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل. الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد، ونهت عليه شواهد التحقيق، الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة، ونطقت بصوابه دلائل العبرة. الصراط المستقيم ما باين الحفظ سالكه، وفارق الحقوق قاصده. الصراط المستقيم ما يُفْضِي بسالكه إلى ساحة التوحيد، ويُشْهِدُ صاحبه أثر العناية والجود، لئلا يظنه موجبٌ (ببدل) المجهود.

قوله جل ذكره: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

يعني طريق من أنعمت عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم، وهم الأولياء والأصفياء. ويقال طريق من (أنيتهم) عنهم، وأقمتهم بك لك، حتى لم يقفوا في الطريق، ولم تصدهم عنك خفايا المكر. ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم.

ويقال صراط من (طهرتهم) عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك.

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس ومخايل الظنون، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشر (ية).

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك، والتبري من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار، والعلم بتوحيذك فيما تُمضيه من المسار والمضار.

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة، واستشعار نعت الهيبة.

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات (بواده) الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يُخْلُوا بشيء من أحكام الشريعة. ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم

تطفئ شمسُ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيئُوا شيئاً من أحكام الشرع^(١).
ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجس الخذلان^(٢). وأدركتهم مصائب
الحرمان، وركبتهم سطوة الرد، وغلبتهم بؤاده الصد والطرده.

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان، وأصابهم سوء الخسران، فشغلوا في الحال
باجتلاب الحظوظ - وهو في التحقيق (شقاء)؛ إذ يحسبون أنهم على شيء، وللحق
في شقائهم سر.

ويقال هم الذين أنسوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق سبحانه في بابهم
شاناً؛ بذلوا بالوصول بعداً، وطمعوا في القرب فلم يجدوا مراداً، أولئك الذين ضل
سعيهم، وخاب ظنهم.

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق، والتعامي عن رؤية التأييد. ولا
الضالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان التصاريف والأقدار.

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة، وتقصيرهم في أداء شروط
الطاعة.

ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا في مفاوز الغيبة، وتفرقت بهم
الهموم في أودية وجوه الحساب.

فصل: ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين، والتأمين سُنَّة، ومعناه يا رب
افعل واستجب، وكأنه يستدعي بهذه القالة التوفيق للأعمال، والتحقيق للآمال، وتحط
رِجلُه بساحات الافتقار، ويناجي حضرة الكرم بلسان الابتهاال، ويتوسل (بتبريه) عن
الحول والطاقة والمُنة والاستطاعة إلى حضرة الجود. وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه
بدوام الاستعانة لتحقيقه بصدق الاستغاثة.

(١) إن القشيري يؤكد على الالتزام بآداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الانمحاء واستلبه سلطان
الفناء، وبهذا يجب أن نخرج على اصطلاح في مذهب القشيري وهو (الفرق الثاني) الثاني ويُعد هذا
حالة عزيزة وهو أن يرد عندها العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض
في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد. (الرسالة القشيرية ص ٦٦).

(٢) يقول القشيري في رسالته: فمنهم من تفسيره البوادة وتصرفه الهواجس، ومنهم من يكون فوق ما
يفجوه حالاً وقوة أولئك سادات القوم. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

السورة التي تذكر فيها البقرة

قوله تعالى: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾.

الاسم مشتق من السمو والسَّمة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهيمته إلى مَحَالِّ المشاهدات. فمن عَدِمَ سمة المعاملات على ظاهرة، وَفَقَدَ سُمُو الهِمَّةِ للمواصلات بسريره لم يَجِدْ لطائف الذكر عند قائلته، ولا كرائم القرب في صفاء حالته.

فصل: معنى الله: الذي له الإلهية، والإلهية استحقاق نعوت الجلال. فمعنى بسم الله: باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة. الرحمن الرحيم من تَوَحَّد في ابتداء الفضل والنصرة. فسماع الإلهية يُوجِبُ الهيبة والاصطلام، وسماع الرحمة يوجِبُ القربة والإكرام. وكُلُّ مَنْ لاطفه الحق سبحانه عند سماع هذه الآية رَدَّه بين صحو ومحو، وبقاء وفناء، فإذا كاشفَه بنعت الإلهية أشهده جلاله، فحاله محو. وإذا كاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فحاله صحو:

أغيب إذا شَهِدْتُكَ ثم أحيا فكم أحيا لَدَيْكَ وكم أبيدُ
قوله جل ذكره: ﴿الْعَمَّ﴾.

هذه الحروف المقطعة في أوائل السورة من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله - عند قوم، ويقولون لكل كتاب سر، وسر الله في القرآن هذه الحروف المقطعة. وعند قوم إنها مفاتيح أسمائه، فالألف من اسم «الله»، واللام يدل على اسمه «اللطيف»، والميم يدل على اسمه «المجيد» و«الملك».

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه. وقيل إنها أسماء السور.

وقيل الألف تدل على اسم «الله» واللام تدل على اسم «جبريل» والميم تدل على اسم «محمد» ﷺ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد ﷺ.

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في

الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

ويقال يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تَقْدُسُ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان؛ فإن سائر الحروف لها محل من الخلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه.

ويقال يطالب العبد في سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه في (مراعاة) حقه، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه.

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظي بالرتبة العليا، وفاز بالدرجة القصوى، وصلاح للتخاطب بالحروف المنفردة التي هي غير مركبة، على سنة الأحباب في ستر الحال، وإخفاء الأمر على الأجنبي من القصة - قال شاعرهم:

قلت لها قفي قالت قاف

لا تحسبي أننا نسبنا لا يخاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل:

«قالت قاف».

ويقال تكثر العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص، أَسْمَعَ موسى كلامه في ألف موطن، وقال لنبيّنا محمد ﷺ: أَلِفٌ... وقال عليه السلام: «أوتيت جوامع الكلم فاخترت لي الكلام اختصاراً»^(١) وقال بعضهم: قال لي مولاي: ما هذا الدنف؟ قلت: تهواني؟ قال: لام ألف.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

قيل ذلك الكتاب أي هذا الكتاب، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد ٧، ٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٥٠، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١)، وابن كثير في (التفسير ٧٢/٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١١٣/٧) والبيهقي في (دلائل النبوة ١٤/١)، وسعيد بن منصور في (السنن ٢٨٦٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١١/٤٨٠)، والمثني الهندي في (كتر العمال ٣٢٠٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/١٤ - ٣٠٨).

وقيل ذلك الكتاب الذي وعدتكم إنزاله عليكم يوم الميثاق .
لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذي كتبت فيه الرحمة على
نفسي لأمتك - لا شك فيه ، فتحقق بقولي .
وقيل الكتاب الذي هو سابق حكمي ، وقديم قضائي لمن حكمت له بالسعادة ،
أو ختمت عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكمي الذي أخبرت أن رحمتي سبقت على غضبي لا شك فيه) .
وقيل إشارة إلى ما كتب في قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان ، والمحبة
والإحسان ، وإن كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند فقد اللقاء ، وكتاب
الأحباب سلوتهم وأنسهم ، وفيه شفاؤهم ورؤوهم ، وفي معناه أنشدوا :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم
وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أقر عيوننا وشفى القلوب فئلن غايات المنى
وتقاسم الناس المسرة بينهم قسماً وكان أجلهم حظاً أنا^(١)
قوله جل ذكره : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

أي بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات
الجهل ، وبصره بأنوار العقل ، واستخلصه بحقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء
شفاء ، وعلى الأعداء عَمَى وبلاء . المتقي من اتقى رؤية تقاه ، ولم يستند إلى تقواه ،
ولم ير نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق
بالعقل والتحقيق ببذل الجهد ، في حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالمؤمنون هم الذين
صدّقوا باعتقادهم ثم الذين صدّقوا في اجتهادهم .

وأما الغيب فما يعلمه العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر ديني أدركه العبد
بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد بالإيمان به غَيْبِي . فالرب سبحانه وتعالى غيب .
وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب والمآب ، والحساب والعذاب - غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيدوا ببرهان العقول

(١) آيات الشعر مضطربة فصحت قدر الإمكان .

آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين، فأوردهم صدق الاستدلال ساحات الاستبصار، وأوصلهم صائب الاستشهاد إلى مراتب السكون؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعي الريب. ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية، وطلب بخواطر ذكية، وردّ وردع لدواع ردية، فطلعت شمس أسرارهم فاستغنوا عن مصاييح استدلالهم، وفي معناه أنشدوا:

لَيْلِي مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَا وظلامه في الناس ساري^(١)
والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار^(٢)
وأنشدوا:

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِنْ أَحْبَبِّكَ لَيْلًا فاستضاءت وما لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب^(٣)

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيباً يغيب.
وأما إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلِّي
له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجري عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفسهم مستقبل القبلّة، وقلوبهم مستغرقة في حقائق الوصلة:

أراني إذا صَلَّيْتُ يَمُمْتُ نحوها بوجهي وإن كان المُصَلِّي ورائي
أصلي فلا أدري إذا ما قضيتها اثنتين صليت الضحا أم ثمانيا؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الفرض، ولكن عن أودية الغفلة ما يرجعون. أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون؛ فشأن بين غائب يحضر أحكام الشرع ولكن عند أوطان الغفلة، وبين غائب يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

الرزق ما تمكّن الإنسان من الانتفاع به، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إمّا نفلاً وإما فرضاً على موجب تفصيل العلم. وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله

(١) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص ٧٦:

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مَشْرِق وظلامه في الناس ساري

(٢) السدف: جمع السدفة: وهي الظلمة.

(٣) أبيات الشعر مضطربة صُححت بما يتلاءم مع الوزن والمعنى.

سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم؛ فينفقون نفوسهم في آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية. فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال، فهؤلاء يكتفي منهم عشرين بنصف ومن المائتين بخمس، وعلى هذا السّنن جميع الأموال يعتبر فيه النّصاب. وأمّا أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم - لأنفسهم ولحظوظهم - لحظة قامت عليهم القيامة.

فصل: الزاهدون أنفقوا في طريقة متابعة هواهم، فأثروا رضاء الله على مناهم، والعابدون أنفقوا في سبيل الله وسعهم وقواهم، فلازموا سرّاً وعلناً نفوسهم. والمريدون أنفقوا في سبيله ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شيء من دنياهم وعقباهم. والعارفون أنفقوا في سبيل الله ما هو سوى مولاهم فقرّبهم الحق سبحانه وأجزأهم، ويحكم الأفراد به لقّاهم.

فصل: الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم. والفقراء أنفقوا من همهم على متّابيتهم^(١). ويقال العبد بقلبه وبيدنه وبماله فيإيمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم، وبإنفاقهم قاموا بأموالهم، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم، وحين قاموا ليحقّه بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن، ولكنه أعاد ذكر الإيمان ها هنا على جهة التخصيص والتأكيد، وتصديق الوساطة ﷺ في بعض ما أخبر يوجب تصديقه في جميع ما أخبر، فإن دلالة صدقه تشهد على الإطلاق دون التخصيص، وإنما أيقنوا بالآخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة^(٢) لما قال له رسول الله ﷺ: «كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، وكأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاونون وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله ﷺ: أصبت فالزّم»^(٣).

(١) قال القشيري في حديثه عن التوبة: التوبة على ثلاثة أقسام أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة أوسطها، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة. (الرسالة القشيرية ص ٩٤).

(٢) هو حارثة بن بدر بن حصين التميمي القداني (٦٤ هـ - ... - ٦٨٤ هـ) تابعي من أهل البصرة. له أخبار في الفتوح وقصة مع عمر ومع علي ومع زياد، أقر على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر تيرا فلما أرقه دخل سفينة بمن معه ففرقت بهم. (الأعلام ١٥٨/٢، والإصابة ٣٧١).

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٥٧/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٣٨/٢ - ٢٨٠)، والعقيلي في (الضعفاء ٤٥٥/٤).

وهذا عامر بن عبد القيس^(١) يقول: «لو كشف الغطاء ما ازدادت يقيناً». وحقيقة اليقين التخلص عن تردد التخمين، والتقصي عن مجوزات الظنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني على بيان من ربهم ويقين وكشف وتحقيق، وذلك أنه تجلّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلّى لها بصفاته ثم تجلّى لها بحقه وذاته.

وقوم ﴿على هدى ربهم﴾ بدلائل العقول؛ وضعوها في موضعهما فوصلوا إلى حقائق العلوم، وقوم على بصيرة ملاطفات التقريب بمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين، وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ الفلاح الظفر بالبُغية، والفوز الطلبة، ولقد نال القوم البقاء في مشهد اللقاء فظفروا بقهر الأعداء، وهي غاغة^(٢) النفوس من هواجسها، ثم زلات القلوب من خواطرها^(٣)، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل، أو رجوع إلى ذكر وفكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ من كان في غطاء وصفه محجوباً عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من دلّه على الحق، وقول من أعاناه على استجلاب الحظ، بل هو إلى دواعي الغفلة أميل، وفي الإصغاء إليها أرغب. كيف لا؟ وهو يَكِّي الفرقة موسوم، وفي سجن الغيبة محبوس، وعن محل القرية ممنوع، لا يحصل منهم إيمان، لأنه ليس لهم من الحق أمان؛ فلماً لم يؤمنوا لم يؤمنوا. حكم سبق من الله حتم، وقول له فصل، وإن القدرة لا تُعَارَضُ، ومن زاحم الحق في القضية كبسته سطوات العزة، وقصّمته بواده^(٤) الحكم.

(١) هو عامر بن عبد الله، المعروف بابن عبد قيس العنبري (... - نحو ٥٥ هـ = ... - نحو ٦٧٥ م) تابعي من بني العنبر وهو أول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة. هاجر إليها وتلقن القرآن من أبي موسى الأشعري، ثم قدم إلى البصرة وعلم أهلها القرآن. توفي ببيت المقدس في خلافة معاوية. الأعلام ٣/ ٢٥٢ - ٢٥٣، وحلية ٢/ ٨٧، والعقد الفريد ٣/ ٤١٤.

(٢) الغاغة: نبات يشبه الهريون. أَر: الحبق. (اللسان ٨/ ٤٤٤).

(٣) قال القشيري في رسالته: الخواطر خطابات ترد على الضمائر فإذا كان من قبل النفس قيل له: الهواجس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق. (الرسالة القشيرية ص ٨٣، ٨٤).

(٤) قال القشيري في حديثه عن البوادة: البوادة ما يفعأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

ويقال إن الكافر لا يرعوي عن ضلالتِهِ لِمَا سَبَقَ من شقاوته، وكذلك المربوط بأغلال نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه، فهو لا يبصر رشدَه، ولا يسلك قصده. ويقال إن الذي بقي في ظلمات رعونته سواء عنده نصيح المرشدين وتسويلات المُبْطِلين، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركات الإنصاف، فلا يدرك بسمع القبول، ولا يُصغي إلى داعي الرشاد، كما قيل:

وعلى النصوح نصيحتي وعلي عَصِيان النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِثَّةِ عليه في سابق القسمة تَوَهَّم أن الأمر من حركاته وسَكَاتِهِ فأتَكَلَّ على أعماله، وتعامى عن شهود أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الختم على الشيء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه، وكذلك حَكَمَ الحق سبحانه بالألّا يُفَارِقَ قُلُوبَ أعدائِهِ ما فيها من الجهالة والضلالة، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية. على أسمع قلوبهم غطاء الخذلان، سُدَّتْ تلك المسامع عن إدراك خطاب الحق من حيث الإيمان، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلته عن استماع خواطر الحق. وأمّا الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل في قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة، وإنما ذلك لخاص الخاص، لذا قال رسول الله ﷺ: «لقد كان في الأمم مُحَدِّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي فَعَمْرٌ»^(١) فهذا المحدِّث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام. وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق، ولهم عذاب عظيم لحسانهم أنهم على شيء، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنة (و...)^(٢) في الحال والمال، في العاجل فُرْقته، وفي الآجل حُرْقته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ثبتوا على نفاقهم، ودأبوا على أن يلبسوا على المسلمين، فهتَكَ الله أستارهم بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كذا قيل:

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدعيه

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٢٥٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠٢٦)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/٢٣).

(٢) بياض في الأصل.

ولما تجردت أقوالهم عن المعاني كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذي توهموه فيها، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ولولا نفاقهم لم يزد عذابهم.

ويقال لما عَدِمُوا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال، فإن الله تعالى قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فكانوا يقولون نشهد أنك لرسول الله، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال، وقيل:

أيها المدعي سليمى هواها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت في هواها كواوٍ ألصقت في الهجاء ظلماً بعمرو
قوله جل ذكره: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَسْتَعْبِدُونَ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه إلى أنفسهم فصاروا في التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم، فما استهانوا إلا بأقذارهم، وما استخفوا إلا بأنفسهم، وما ذاق وبال فعلهم سواهم، وما قطعوا إلا وتينهم. ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه.

والإشارة في هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لي وبني ومني وأنا يقع في وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت، وهذا التوهم أصعب العقوبات^(١) لأنه يرى سراباً فيظنه شراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوقاه حسابه.

قوله جل ذكره: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

في قلوب المنافقين مرض الشك، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبسوا على المسلمين، ثم لهم عذاب أليم مؤلم، يَخْلُصُ وجعه إليهم في المآل. (وفي) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظه، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم في الإرادة بقدّم، ويتأخر بالاحظوظ ومتابعة النفس بأخرى، فهو لا يريد صادق ولا عاقل متثبت. ولو أن المنافقين أخلصوا في عقائدهم لآمنوا في الآخرة من العقوبة كما آمنوا في الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة، كذلك لو صدق المرید في إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة، ولأدركته بركات الصدق فيما رامه من الظفر بالبغيّة، ولكن حاله كما قيل:

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ولو خلصنا تخلصنا من المحن

(١) قال القشيري في حديثه عن التوحيد: إسقاط الباءات فلا تقل: لي وبني ومني وإلي. (الرسالة القشيرية ص ٣٠٢).

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القُرْبِ والمناجاة. وأمّا من ركن إلى الدنيا واتبَعَ الهوى فسكوئُهم إلى دار الغرور سقم لقلوبهم، والزيادة في علتهم تكون بزيادة حرصهم؛ كلما وجدوا منها شيئاً - عَجَلَ لهم العقوبة عليه - يتضاعف حرصهم على ما لم يجدوه.

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتت همومهم ثم تبغض عيشهم فيبغون بها عن مولاهم، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هواهم، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مولاه، وفي معناه قيل:

تبدلت فتبدلنا واحسرتنا لمن ابتغى عوضاً ليسلو فلم يجد
والإشارة في العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هي الحسرة يوم الكشف إذا
رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا، ورأوا أنفسهم كيف خسروا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منها: أنه إذا دعاهم واعظ في قلوبهم من خفي خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا رخص التأويل، ولَبَسُوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم، وحين جحدوا برهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم، وأبدلهم تصامماً عن الحق، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة وسلبهم الإيمان بها.

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والعادة فهو أشد الناس إنكاراً لهذه الطريقة، وأبعد من أهلها، وفي المثل: من اخترق كُدسه^(١) تمنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه.

ورفاق المرتدين عن طريق الإرادة - عند الصادقين منهم - غير مقبول كما أن رسول الله ﷺ لم يقبل زكاة ثعلبة.

ويقال كفى لصاحب الكذب فضيحة بأن يقال له في وجهه كذبت، فهم لما قالوا إنما نحن مصلحون، أكذبهم الحق سبحانه فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إِنَّا نَعْلَمُهُمْ فَتَفْضَحُهُمْ.

قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة منها أن المنافقين لما دُعُوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسُّفَهَاء، وكذلك

(١) الكُدْس: القَرْمَة من الطعام والتمر والدراهم ونحو ذلك، والجمع أكُداس (لسان العرب ٦/١٩٢).

أصحاب الغنى إذا أُمروا بِتَرْكِ الدنيا وصفوا أهل الرشد بالكسل والعجز، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شيء، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش، وفي الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة؛ وقعوا في الذل مخافة الذل، ومارسوا الهوان خشية الهوان، شيدوا القصور ولكن سكنوا القبور، زينوا المهد ولكن أدرجوا للحد، ركضوا في ميدان الغفلة ولكن عشروا في أودية الحسرة، وعن قريب سيعلمون، ولكن حين لا ينفعهم علمهم، ولا يغني عنهم شيء.

سوف ترى إذا انجلى الغبار أَفَرَسَ تَخَنُّكَ أم حمأُ قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾.

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عشرة الكفار وصحبة المسلمين، فإذا برزوا للمسلمين قالوا نحن معكم، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الكفار أظهروا الإخلاص لهم، فأرادوا الجمع بين الأمرين فَتَفَوَّاهُمَا. قال الله تعالى: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] وكذلك من رام أن يجمع بين طريق الإرادة وما عليه أهل العادة لا يلتئم ذلك، فالضدان لا يجتمعان، و«المُكَاتَّبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ»^(١)، وإذا ادلهم الليل من ها هنا أدير النهار من ها هنا، ومن كان له في كل ناحية خليط، وفي زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق، ينتابه كل قوم، وينزل في قلبه كل (..)^(٢)، فقلبه أبداً خراب، لا يهناً بعيش، ولا له في التحقيق رزق من قلبه، قال قائلهم:

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ولما قال المنافقون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم على استهزائهم، كذلك لما ألقى القوم أَرْمَتَهُمْ في أيدي الشهوات استهوتهم في أودية التفرقة، فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوحوا في متاهات الغيبة، وكما يمد المنافقين في طغيانهم يعمهون يطيل مدة هؤلاء في مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملاً، وأسوأ ما كانوا عملاً، ذلك جزاء ما عملوا، ووبال ما صنعوا. وتحسين أعمالهم القبيحة في أعينهم من أشد العقوبات لهم، ورضاؤهم بما فيه من الفترة^(٣) أَجَلٌ مصيبة لهم.

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٢) بياض في الأصل.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨١.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

الإشارة منها أن من بقي عن الحقوق بالبقاء في أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم، وما ربحت تجارتهم. والذي رضي بالدنيا عن العقبى لفي خسران ظاهر. ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا. وإذا كان المصاب بفوات النعيم مغبونا فالذي مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وانحاز بقلبه عن مولاه، وبقي في أسير الشهوات، لا إلى قلبه رسول، ولا لروحه وصول، ولا معه مناجاة، ولا عليه إقبال، ولا في سرّه شهود - فهذا هو المصاب والمُمتَحَن. وإن من فاته وقت فقد فاته ربه، فالأوقات لا خَلَفَ عنها ولا بَدَلَ منها، ولقد قال بعضهم:

كنت السواد لمقلتي فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾.

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمنافقين بمن استوفد ناراً في ابتداء ليلته ثم أطفئت النيران فبقي صاحبها في الظلمة، كذلك المنافق ظهر عليه شيء من العوافي في الدنيا بظاهره ثم امتحِنُوا في الآخرة باليم العقوبة، أو لاح شيء من إقارهم ثم بقوا في ظلمة إنكارهم.

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة؛ يسلك طريق الإرادة، ويتعنى مدة، ويقاسي بعد الشدة شدة، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشرية. أ ورق عودُه ثم لم يثمر، وأزهر غصنه ثم لم يدركه، وعجل كسوف الفترة على أقمار حضوره، وردّته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف، فوطن عن القرب قلبه، وغلّ من الطالبين نفسه، فكان كما قيل:

حين قرّ الهوى وقلنا سرّزنا وحسبنا من الفراق أمناً
بعث البين رُسل في خفاءٍ فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة في هذه الآية لمن له أدنى شيء من المعاني فيظهر الدعاوى فوق ما هو به، فإذا انقطع عنه (...) (١) ماله من أحواله بقي في ظلمة دعاواه.

(١) بياض في الأصل.

وكذلك الذي يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها، فإذا استتبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد - برز عليه الموت من مكامن المكر فيترك الكل ويحمل الكل.

قوله جل ذكره: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

صم عن سماع دواعي الحق بأذان قلوبهم، بكم عن مناجاة الحق بالسنة أسرارهم، عمي عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم، فهم لا يرجعون عن تماديهم في تهتكهم، ولا يرتدعون عن انهماكهم في ضلالتهم.

ويقال صم عن السماع بالحق، بكم عن النطق بالحق، وعمي عن مطالعة الخلق بالحق. لم يسبق لهم الحكم بالإقلاع، ولم تساعدهم القسمة بالارتداد.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَيُرَىٰ يَمْجَلُونَ أَسْمِعُ بِهِمْ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إما بهذا وإما بذلك شبه القرآن بمطر ينزل من السماء، وشبه ما في القرآن من الوعد والوعيد بما في المطر من الرعد والبرق، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد. كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظ الواعظين، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة؛ ولو أقلعوا عما هم فيه من الغفلة لسعدوا، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة، وأصروا على طريقتهم الفاسدة، وتعللوا بأعذار واهية، ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، ويسعون في الخطر بأيمانهم:

إن الكريم إذا حباك بوذه شتر القبيح وأظهر الإحسانا

وكذا الملول إذا أراد قطيعة مل الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من تمام مثل المنافقين - كذلك أصحاب الغفلات - إذا حضروا مشاهد الوعظ، أو جنحت قلوبهم إلى الرقة، أو داخلهم شيء من الوهلة تقرب أحوالهم من التوبة، وتقوى رغبتهم في الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم، وشاوروا إلى قرنائهم، أشار الأهل والولد عليهم بالعود إلى دنياهم، وبسطوا فيهم لسان النصيح، وهذؤهم بالضعف والعجز، فيضعف قسودهم، وتسقط إرادتهم، وصاروا كما قيل:

إذا ارعوى، عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ يعني سمع المنافقين الظاهر

وأبصارهم الظاهرة، كما أصمهم وأعماهم بالسر، فكذلك أرباب الغفلة، والقانون من الإسلام بالظواهر - فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات، كما سلبهم التحقيق فيما يستبطنونه من صفاء الحالات.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ عَبْدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

العبادة موافقة الأمر، وهي است فراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم.

ويقال عبده بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعرّيج في منازل الكسل والاستهانة.

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تقرب الأمر عليهم وتسهيله، ولقد وقفهم بهذه الكلمة - أعني لعل - على حد الخوف والرجاء.

وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)^(١) عن متوعدات العقاب.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تعرف إليهم بذكر ما من به عليهم من خلق السماء لهم سقفاً مرفوعاً، وإنشاء الأرض لهم فرشاً موضوعاً، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً. ويقال أعتقهم عن مئة الأمثال بما أراح لهم من العلة فيما لا بُد منه، فكافاهم السماء لهم غطاءً، والأرض وطاءً، والمباحات رزقاً، والطاعة حرفةً، والعبادة شغلاً، والذكر مؤنساً، والرب وكيلاً - فلا تجعلوا لله أنداداً، ولا تعلقوا قلوبكم بالأغيار في طلب ما تحتاجون إليه؛ فإن الحق سبحانه وتعالى متوحد بالإبداع، لا مُخِدِّث سواه، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر، أو خير أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك - في التحقيق شركاً.

وقوله عز وجل: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن من له حاجة في نفسه لا يصلح أن ترفع حاجتك إليه. وتعلق المحتاج بالمحتاج، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد في الفقر، ولا يزيل هو أجم الضر.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق وضعت استناداً إلى قول القشيري في حديثه عن التقوى بالرسالة ص ١٠٥: وحقيقة الإتياء التحرز بطاعة الله من عقوبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا زَكَّيْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَتَىٰ أَهْلُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

لبس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه، فتأهوا في أدوية الظنون لما فقدوا نور العناية، فلم يزد الرسول عليهم إتياناً بالآيات، وإظهاراً من المعجزات إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه، لا يزيده ضياء الحجج إلا عُمى عن الحقيقة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِي إِلَيْنَاكَ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وليلبغ عليهم في إلزام الحجة عزفهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن الذي قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم، وقدر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم، واعتضدوا بأشكالهم، واستفرغوا كنه طاقتهم واحتياهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة القرآن. ثم قال: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرون على ذلك ولا يفعلون فقال: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فكان كما قال - فانظروا لأنفسكم، واحذروا الشرك الذي يوجب لكم عقوبة النار التي من سطوتها بحيث وقودها الناس والحجارة، فإذا كانت تلك النار التي لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها (١) فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم، وحين أشرفت قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم التثبيت فقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ففي ذلك بشارة للمؤمنين. وهذه سُنَّةٌ من الحق سبحانه: إذا خوّف أعداءه بَشَّرَ مع ذلك أولياءه.

وكما أنّ كيد الكافرين يضمحل في مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى المُلْسِيسِ تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين، وأمرة المُبْطِلِ في دعواه رجوع الزجر منه إلى القلوب، وعلامة الصادق في معناه وقوع القهر منه على القلوب. وعزيز من فصل وميز بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

هذه البشارة بالجنات تتضمن تعريفاً بنعم مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذي يُشْرَحُ بلسان التفسير. ويشير إلى البشارة للخواص بنعم مُعَجَّلَةٌ مضافة إلى تلك النعم يتيح (ها) الله لهم على التخصيص، فتلك المؤجلة جنات المثوبة وهذه جنات القربة، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزلفة (٢)، بل تلك حدائق الأفضال وهذه

(١) بياض في الأصل.

(٢) الزلفة: وهو ماء شرقي سميراء.

حقائق الإِصال، وتلك رفع الدرجات وهذه رُوح المناجاة، وتلك قضية جوده، هذه الاشتغال بوجوده، وتلك راحة الأَبشار وهذه نزهة الأسرار، وتلك لطف العطاء للظواهر وهذه كشف الغطاء عن السرائر، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُنْشِئِينَ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد عليهم النعم في كل وقت، فالثاني عندهم - على ما يظنون - كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم - فكذلك أهل الحقائق: أحوالهم في السرائر أبداً في الترقّي، فإذا رُقي أحدهم عن محلّه توهم أن الذي سيلقاه في هذا النّفس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف، كما قال قائلهم:

ما زلت أنزل من وداك منزلاً
تتحيّر الألباب دون نزوله
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التّرك، فإذا وصف نفسه بأنه يستحي من شيء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحي فمعناه لا يبالي بفعل ذلك .

والخلق في التحقيق - بالإضافة إلى وجود الحق - أقلّ من ذرة من الهباء في الهواء، لأن هذا استهلاك محدود في محدود، فسيان - في قدرته - العرش والبعوضة، فلا خلُق العرش أشق وأعسر، ولا خلُق البعوضة أخف عليه وأيسر، فإنه سبحانه مُتَقَدِّسٌ عن لحوق العُسر واليُسْر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف، فلا يستحي أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحي أن يضرب بالعرش - فما دونه - مثلاً .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاءت فَرُث وطارَت، وإذا شَبِعَت تشققت فَتَلَفَّت - كذلك ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦] .

وقيل ما فوقها يعني الذباب، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته، حتى أنه ليعود عند البلاغ في الذب، ولو كان ذلك في الأسد لم ينبُج منه أحد من الخلق، ولكنه لما خلُق القوة في الأسد خلق فيه تنافراً من الناس، ولما خلق الوقاحة في الذباب خلق فيه الضعف، تبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته، ونفاذ قدرته .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ .

فأما من فتحت أبصار شرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار، وأما الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضرب الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

هذا الكتاب لقوم شفاء ورحمة، ولآخرين شقاء وفتنة. فمن تعرّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] تذكروا عند ورود الوسطة - صلوات الله عليه وعلى آله - قديم عهده، وسابق وده فازدادوا بصيرة على بصيرة، ومن رَسَمَهُ بِذُلِّ القطيعة، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة النبوية إلا جُحِداً على جُحْد، وما خفي عليهم اليوم صادق الدلالة، إلا لِمَا تقدم لهم سابق الضلالة. لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَقَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة، قال بتزك نفسه ثم لم يصدق حين عزم الأمر، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة^(٢)، وكما أن من سلك الطريق بنفسه - ما دام يبقى درهم في كيسه - فغير محمود رجوعه فكذلك من قصد بقلبه - ما دام يبقى نفس من روحه - فغير مرضي رجوعه:

إن الألى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلاً معلولاً
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل: وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخلق، ولا يتم وصل ماله إلا بقطع ما لك، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد.
ومما أمر العبد بوصله: حفظه دِمام أهل هذه الطريقة، والإنفاق على تحصيل

(١) الأنكال: القيود الشديدة (مفرده) التكل.

(٢) قال القشيري في رسالته: إذا أحكم المريد بينه وبين الله تعالى عقده، فيجب أن يحصل من علم الشريعة إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدي به فرضه، وإن اختلفت عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد دائماً الخروج من الخلاف، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. ولهذا قيل: إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى. (الرسالة القشيرية ص ٣٨٠).

ذلك بصدق الهمم لا يبذل النعم، فهمهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة. وفساد هذه الطريقة في الأرض: أما من لهم حواشي أحوالهم، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشاد مريد بكلامهم، وإشحاذ قاصد بهمهم؛ وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم.

ومن نقض العهد أيضاً أن يحيد سرك لحظة عن شهوده، ومن قطع ما أمرت بوضله أن يتخلل أوقاتك نفس لحظك دون القيام بحقه، ومن فسادك في الأرض ساعة تجري عليك ولم تره فيها. ألا إن ذلك هو الخسران المبين، والمحنة العظيمة، والرزية الكبرى.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد، أي لا ينبغي مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبه.

ويقال تعرف إلى الخلق بلوائح دلالاته، ولوامع آياته. فقال: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ يعني نطفة، أجزاؤها متساوية، ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾: بشراً اختص بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً، وبعضها بكونه لحماً، وبعضها بكونه شغراً، وبعضها بكونه جلدًا. . إلى غير ذلك.

﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ بأن يجعلكم عظماً ورفاتاً، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتاً، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة.

ويقال: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ بجهلكم عنا، ثم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بمعرفتكم بنا، ثم يميتكم عن - شواهدكم، ثم يحييكم به بأن يأخذكم عنكم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق^(١).

ويقال ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك لثلاث تلاحظوه فيفسد عليكم، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقليبكم في قبضته سبحانه وتعالى.

ويقال يحبس عليهم الأحوال؛ فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية، كلما قالوا هذه حياة - وبيناهم كذلك - إذ أدال عليهم فأفناهم، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم،

(١) انظر هامش (١) من الصفحة ١٥.

فهم أبدأ بين نفي وإثبات، وبين بقاء وفناء، وبين صحو ومحو. . كذلك جرت سنته سبحانه معهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

سخر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شيء منها، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون، وبالنجم يهتدون، وبكل مخلوق بوجه آخر يتفنون، لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون.

ويقال مهّد لهم سبيل العرفان، ونبّههم إلى ما خصّهم به من الإحسان، ثم علمهم علوّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. فالأكوان بقدرته استوى، لا أن الحق سبحانه بذاته - على مخلوق - استوى، وأنى بذلك! والأحادية والصدئية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه، إذ المكان به استوى، لا الحق سبحانه على مكان بذاته استوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا ابتداء إظهار سيره في آدم وذريته. أمر حتى سلّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينه أربعين صباحاً، وكل واحد من الملائكة يفضي العَجَب: ما حكم هذه الطينة؟ فلما ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها في بديع الصنعة وعجيب الحكمة، فحين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تَرَجَّمَتِ الظنون، وتقسّمت القلوب، وتجنّبت الأقاويل، وكان كما قيل:

وكم أبصرتُ من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يقل في شأن شيء منه ما قال في حديث آدم حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة لو كان من المخلوقين. والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة، ولم يقل إني خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً، وإنما قال تشریفاً وتخصيصاً لآدم إني جاعل في الأرض خليفة.

فصل: ولم يكن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام، فإن حَمَلَ الخطاب على ما يوجب

تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون.. قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦].

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكن في قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب؛ فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾. ثم إن الحق سبحانه عرفهم أن الفضيلة بالعلم أتم من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه، وآدم كان أكثر علماً وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته.

ويقال لم يقل الحق سبحانه أتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، من غفراني لهم.

ويقال: في تسبيحهم إظهار فعلهم واشتجار خصائصهم وفضلهم، ومن غفرانه لمعاصي بني آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته، والحق سبحانه غني عن طاعات كل مطيع، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه.

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم في محبتنا، وذكاء سرائرهم في حفظ عهودنا وإن تدنس بالعصيان ظاهرهم، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنُه بألفٍ شفيع

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من محبتي لهم، وأنتم تظهرون أحوالكم، وأنا أخفي عليهم أسراي فيهم، وفي معناه أنشدوا:

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مغتاب
كانهم أثَّنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا^(١)

ويقال إني أعلم ما لا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم، وصولاً قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم، فأنتم في رتبة وفاقكم وفي عصمة أفعالكم، وفي تجميل تسبيحكم، وهم مُنكرون عن شواهدهم، متدللون بقلوبهم، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لزماناً قوياً.

ويقال أي خطر لتسبيحكم لولا فضلي، وأي ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوي؟
ويقال لبسْتُكم طاعتكم ولبستهم رحمتي، فأنتم في صدر^(٢) طاعتكم وفي خلَّة

(١) أبيات الشعر مضطربة صُححت قدر الإمكان.

(٢) الصدر: ثوب بلا كُمَيْن يغطى به الصدر أو هو قميص صغير يغطي الصدر.

تقديسكم وتسييحكم، وهم في تغمد عفوي وفي ستر رحمتي ألبستهم ثوب كَرَمِي، وجللتهم رداء عفوي.

ويقال إن أسعدتكم عصمتي فلقد أدركتهم رحمتي.

وإيصال عصمتي بكم عنده وجودكم وتعلق رحمتي بهم في أزلي.

ويقال: لئن كان مُحْسِنُكُمْ عتيق العصمة فإن مجرمهم غريق الرحمة.

ويقال: اتكأهم علي زَكَيَ أحوالهم فألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يثبوا عن المعارف إلا بمقدار ما من به الحق عليهم فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

عموم قوله الأسماء يقتضي الاستغراق، واقتران قوله سبحانه بكلها يوجب الشمول والتحقيق، وكما علمه أسماء المخلوقات كلها - على ما نطق به تفسير ابن عباس^(١) وغيره - علمه أسماء الحق سبحانه، ولكن إنما أظهر لهم محل تخصصه في علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بأن رجحانه عليهم، فأما انفراده بمعرفة أسمائه - سبحانه - فذلك سر لم يطلع عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ. ومن ليس له رتبة مساواة آدم في معرفة أسماء المخلوقات فأبي طمع في مداناته في أسماء الحق، ووقوفه على أسرار الغيب؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يتقضى أن يصح (به سجود) الملائكة فما الظن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه؟ ما الذي يُوجِبُ لِمَنْ أَكْرَمَ به؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسييح والتقديس وهذه طاعات تليق بالمخلوقين؛ فإن الطاعة سِمَةُ العبيد ولا تتعداهم، والعلم في الجملة صفة مدح يجب في نعت الحق سبحانه واجبا لا يصح لغيره، فالذي يُكْرَمُ بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات).

ويقال أكرمه في السر بما علمه ثم بيّن تخصيصه يوم الجهر وقدمه. ويقال قوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ثم: حرف تراخ ومهلة. . إما على آدم؛ فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك في قلبه، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذٍ استخبره عما تحقّق به واستيقنه. وإما

(١) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس (٣ق هـ - ٦٨هـ = ٦١٩ -

٦٨٧م) حبر الأمة الصحابي الجليل، ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة. لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وشهد مع علي الجمل وصفين وكف بصره آخر عمر فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً ويُنسب إليه كتاب في «تفسير القرآن».

الأعلام ٥٩/٤، والإصابة ٤٧٧٢، وصفة الصفوة ٣١٤/١، والرسالة القشيرية ص ٤٢.

على الملائكة؛ فقال لهم على وجه الوهلة: «أنبئوني» فلمّا لم يتقدم لهم تعريف تحيّرُوا، ولمّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر، ونطق وأفصح، إظهاراً لعنايته السابقة - سبحانه - بشأنه .

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنهم تعرّضوا لدعوى الخصوصية، والفضيلة والمزية على آدم، فعرفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه في قديم تخصيصه . ولمّا علّم الحق سبحانه تقاضر علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلّفهم الإنشاء عنها صار فيه أوضح دلالة على أن الأمر أمره، والحكم حكمه، فله تكليف المستطيع، ردّاً على من توهم أن أحكام الحق سبحانه معلّلة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء، الحسن ما حكم بتحسينه والقيح ما حكم بتقيحه .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

قدّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به، ونزّها حقيقة حكمه عن أن يكون يعرض وهم المعترضون، يعني لا علم لنا بما سألتنا عنه، ولا يتوجّه عليك لوم في تكليف العاجز بما علمت أنه غير مستطيع له، إنك أنت العليم الحكيم أي ما تفعله فهو حقّ صديق ليس لأحد عليك حكم، ولا منك سفة وقبح .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُهُمْ بِإِنْتَابِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِإِنْتَابِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنه لمّا قال للملائكة: «أنبئوني» داخلهم من هبة الخطاب ما أخذهم عنهم، لا سيما حين طأّبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط به علومهم . ولما كان حديث آدم عليه السلام ردّه في الإنشاء إليهم فقال: ﴿أُنَبِّئُهُمْ بِإِنْتَابِهِمْ﴾ ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق في الهبة . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني ما تقاصرت عنه علوم الخلق، وأعلم ما تبدون من الطاعات، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة .

فصل: ولمّا أراد الحق سبحانه أن يُنجي آدم عصمه، وعلمه، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نسي في الحضرة عهده، وجاوز حدّه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥] فالوقت الذي ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان، والوقت الذي أمضى عليه الحكم ردّه إلى حال النسيان والعصيان،

كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجري وتمضي، ذلٌ بحكمه العبيد، وهو فعّال لما يريد.

فصل: ولما توهما حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرفهم أن بساط العز مقدس عن التجميل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد، فرّدهم إلى السجود لآدم أظهر الغناء عن كل وفاق وخلاف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِهِ ولكن لموافقة أمره سبحانه، فكان سجودهم لآدم عبادة لله؛ لأنه كان بأمره، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشریفاً لشأنه، فكان ذلك النوع خضوعاً له ولكن لا يسمى عبادة، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصح لغيره سبحانه.

ويقال بيّن أن تقدّسه - سبحانه - بجلاله لا بأفعالهم، وأن التّجمل بتقديسهم وتسبيحهم عائذٌ إليهم، فهو الذي يجل من أجله بإجلاله لا بأفعالهم، ويعز من أعزّ قدره سبحانه بإعزازه، جلّ عن إجلال الخلق قدره، وعزّ عن إعزاز الخلق ذكره.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبى بقلبه، واستكبر عن السجود بنفسه، وكان من الكافرين في سابق حكمه وعلمه. ولقد كان إبليس مدّة في دلال طاعته يخال في صدار موافقته، سلّموا له رتبة التّقدم، واعتقدوا فيه استحقاق التّخصيص، فصار أمره كما قيل:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا فهبّت به ريح من البين فانطفأ
كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية، ويحسب استحقاق الزلفة والخصوصية:

فبات بخير والدني مطمئنة وأصبح يوماً والزمان تقلباً
فلا سالف طاعة تفعه، ولا آتف رجعة رفعه، ولا شفاعة شفيع أدركته، ولا سابق عناية أمسكته. ومن غلبه القضاء لا ينفعه العناء.

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية، فتداركت رحمة أحدية، وأما إبليس فأدركته شقوة أزية، وغلبته قسمة وقضية. خاب رجاؤه، وضلّ عناؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

أسكنه الجنة ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة، ولولا سابق التقدير لكان

يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولاً، وبالخضرة ييبساً، وبالوجود فقداً، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه - ويقع منه ما يقع.

ولو تناولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدّها لم يقع في شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم.

ولا مكاناً أفضل من الجنة، ولا بشرٌ أكيس من آدم، ولا ناصح يقابل قوله إشارة الحق عليه، ولا غريبة (منه) قبل ارتكابه ما ارتكب، ولا عزيمة أشد من عزمته - ولكن القدرة لا تكابر، والحكم لا يعارض.

ويقال لما قال له: ﴿أَتَكْفُرُ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ كان فيه إشارة إلى أن الذي يليق بالخلق السكون إلى الخلق، والقيام باستجلاب الحظ، وآدم عليه السلام وخذه كان بكل خير وكل عافية، فلمّا جاء الشكل والزوج ظهرت أنياب الفتنة، وانفتح باب المحنة؛ فحين سَاكَنَ حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل، فوقع فيما وقع، ولقد قيل:

دَاءٌ قَدِيمٌ فِي بَنِي آدَمَ صَبُوَةُ إِنْسَانٍ بِإِنْسَانٍ

فصل: وكل ما منع منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه.

فهذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها ونُهِيَ عن شجرة واحدة، فليس في المنقول أنه مدّ يده إلى شيء من جملة ما أبيح، وكان عَيْلٌ صبره حتى واقع ما نُهي عنه - هكذا صفة الخلق.

فصل: وإنما نَبّه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإذا أخبر أنه جاعله خليفته في الأرض كيف يمكن بقاؤه في الجنة؟

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة، مسجود الكافة، على رأسه تاج الوصلة، وعلى وسطه نطاق القرّبة، وفي جيده (. . .)^(١) الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة، ولا شخص مثله في الرفعة، يتوالى عليه النداء في كل لحظة يا آدم يا آدم. فلم يُمنس حتى نُزِعَ عنه لباسه، وسلب استثناسه، والملائكة يدفعونه بعنف أن يخرج بغير مُكْتَب:

وَأَمْسَتْهُ فَاتَّحَ لِي مِنْ مَّأْمَنِي مَكْرَأً، كَذَا مِنْ يَأْمَنِ الْأَحْبَابِ

ولمّا تاه آدم عليه السلام في مشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب، وكان كما قيل:

لِلَّهِ دَرُهُمْ مِنْ فِثْيَةٍ بَكْرُوا مِثْلَ الْمُلُوكِ وَرَاحُوا كَالْمَسَاكِينِ

(١) بياض في الأصل.

فصل: نهاه عن قرب الشجرة بأمره، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره، ولبس عليه ما أخفاه فيه من سره.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

أزلهما أي حملهما على الزلة، وفي التحقيق: ما صرّفنهما إلا القدرة، وما كان تقلبهما إلا في القضية، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهراً، ولكن ما ازداد - في حكم الحق سبحانه - شأنهما إلا رفعة وقدرًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالهم بالظفر).

فصل: لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فصل: لو كان لإبليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكان في هداية نفسه، وكيف يكون ذلك؟ والتفرد بالإبداع لكل شيء من خصائص نعمته سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُرْ فِي الْأَرْضِ مُمْسِقًا وَمَنْعَ إِلَٰك حِينًا﴾.

مشهد الأشباح ومآلفها أقطار الأرض، ومعهد الأرواح ومرتها رداء العرش، ولفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون للهمم بالجذات تعلّق، ولصعود القصور إلى الحقائق على الأغيار وقوع.

قوله جل ذكره: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

جرت على لسان آدم مع الحق - سبحانه - كلمات، وأسمع الحق - سبحانه - آدم كلمات، وأنشدوا:

وإذا خُفْنَا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحق سبحانه القول في ذلك إجمالاً ليُبقي القصة مستورة، أو ليكون للاحتمال والظنون مساع، ولما يحتمله الحال من التأويل مطروح^(١).

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلاً، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلاً. وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له: أفرأراً منا يا آدم؟ كذلك قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣٠] وقوله: أخرجني أنت من الجنة؟ فقال: نعم، فقال أتردني إليها؟ فقال: نعم.

(١) المطروح: الموضع يطرح فيه شيء.

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعته إياه من عزيز خطابه زاداً، ليكون له تذكرة وعتاداً:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على على كبدي من خشية أن تقطعاً

ومخاطبات الأحياء لا تحتل الشرح، ولا يحيط الأجانب بها علماً، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه ذلك يحتمل في حال الأحياء عند المفارقة، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندي فلا تنس عهدي، وإن تقاصر عنك يوماً خبري فأياك أن تؤثر عليّ غيري، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فاتني وصولك فلا يتأخرنّ عني رسولك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب في عين القربة قال الله تعالى: ﴿أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ بعد أن كان لكم في محل القربة قرار ومتاع إلى حين، يستمتعون يسيراً ولكن (في) آخرهم يعودون إلى الفقر، وأنشدوا:

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بشره بأنه يردّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلمهم عذاب اليم مؤجل، وفراق معجل.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبَيِّنْ إِنَّا أَدْكُرُؤُا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.

حقيقة النعمة على لسان العلماء لذة خالصة عن الشوائب، وما يوجب مثلها فهي أيضاً عندهم نعمة، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المُنعم أو ما ذكرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى المنعم أو ما لم يحجبك عن المنعم.

وتنقسم إلى نعمة أبشار وظواهر، ونعمة أرواح وسرائر، فالأولى وجوه الراحة والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات. فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر.

فصل: ويقال أمر بني إسرائيل بذكر النعم وأمر أمة محمد ﷺ بذكر المنعم، وفرق بين من يقال له: ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ١١٠] وبين من يقال له: ﴿مَّا ذَكَّرْتَنِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

عهده - سبحانه - حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب.

أوفوا بعهدي بحفظ السر أوف بعهدكم بجميل البر، أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق أوف بعهدكم الذي ضمنتم لكم يوم التلاق، أوفوا بعهدي في ألا تؤثروا عليّ غيري أوف بعهدكم في ألا أمنع عنكم لطفي وخيري، أوفوا بعهدي برعاية ما أثبت فيكم من الودائع أوف بعهدكم بما أديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع^(١)، أوفوا بعهدي بحفظ أسراري أوف بعهدكم بجميل مباري، أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني أوف بعهدكم في إدامة إحساني، أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي أوف بعهدكم في المنة عليكم بقبولها منكم، أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوف بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة، أوفوا بعهدي بالتبري عن الحول والمنة أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمنة، أوفوا بعهدي بالتفضيل والتوكل أوف بعهدكم بالكفاية والتفضل، أوفوا بعهدي بصدق المحبة أوف بعهدكم بكمال القرية، أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي أوف بعهدكم أرضي بكم عنكم، أوفوا بعهدي في دار الغيبة على بساط الخدمة بشد نطق الطاعة، وبذل الوسع والاستطاعة أوف بعهدكم في دار القرية على بساط الرصلة بإدامة الأئس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة، أوفوا بعهدي في المطالبات بترك الشهوات أوف بعهدكم بكفائتكم تلك المطالبات، أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبدأ: ربي ربي أوف بعهدكم بأن أقول لكم عبي عبي وإياي فارهبون، أي أفرؤوني بالخشية لانفرادي بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا مئة.

(١) قال القشيري في حديثه عن اللوائح والطوالع واللوامع برسائله: اللوامع تسبق الطوالع في الظهور والطوالع أبقي وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدوم مكثاً، وأذهب للظلام، وأنفى للثمة لكنها موقوفة على خطر الأقول ليست برفيعة الأوج، ولا بدائمة المكث وأوقات حصولها وشبكة الارتحال وأحوال أفولها طويلة الأذيال. (الرسالة القشيرية ص ٧٧).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّمُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَتَّبِعُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنقُوتُ﴾.

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث البيان بإيمانه من حيث البرهان، وجمهور المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق الإقبال، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله، وآخر أحوالهم الإيمان من حيث العيان، وذلك لخواص الخواص.

ولا تكونوا أول كافر به، ولا تَسْتُوا الكفر سُنَّةً فَإِنْ وُزِّرَ المبتدئ فيما يَسُنُّ أعظم من وزر المقتدي فيما يتابع.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تؤثروا على عظيم حقي خسيس حظكم. ﴿وَإِنِّي فَأَنقُوتُ﴾ كثير من يتقي عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾.

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين، والكون في حالة واحدة في محلين، (فالعبد) إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ، وأما حصول الأمرين فمحال من الظن.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ تدنيس، ﴿وَتَكُونُوا الْحَقَّ﴾ تلبيس، ﴿وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ أن حق الحق تقديس، وأنشدوا:

أيها المنكح الشريا سهيلا عمرك الله، كيف يلتقيان؟!

هي شامية إذا ما استهلّت وسهيل إذا استهل يمانى!

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآذِكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾.

احفظوا آداب الحضرة؛ فحفظ الآداب أتم في الخدمة من الخدمة، والإشارة في إيتاء الزكاة إلى زكاة الهمم كما تؤدي زكاة النعم، قال قائلهم:

كل شيء له زكاة تُودى وزكاة الجمال رحمة مثلى

فيفيض من زوائد هممه ولطائف نظره على المتبعين والمربين بما ينتعشون به و (.. .) (١)، ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾: تقتدي بآثار السلف في الأحوال، وتجنب سنن الانفراد فإن الكون في غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة.

قوله جل ذكره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَقْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أتحرضون الناس على البدار وترضون بالتخلف؟ ويقال أندعون الخلق إلينا

وتقعّدون عنّا؟ أتسرحون الوفود وتقصرون في الورود؟ أتنافسون الخلق وتنافرونهم بدقائق الأحوال وترضون بإفلاسكم عن ظواهرها؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقال الذرّ ومقياس الحبّ وتساهمون لأنفسكم أمثال الرمال والجبال؟ قال قائلهم:

وتبصر في العين مني القذى وفي عينك الجذع لا تبصر؟!

ويقال أَسْقَوْنَ بِالْجُبِّ^(١) ولا تشربون بالتؤب؟

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجحدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إن ذلك ذمّ من الخصال وقبيح من أفعال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

الصبر فطم النفس عن المألوفات، والصلاة التعرّض لحصول المواصلات، فالصبر يشير إلى هجران الغير، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على من تجلّى الحق لِسِرِّهِ فإن في الخبر المنقول: «إن الله تعالى إذا تجلّى لشيء خضع له»^(٢). وإذا تجلّى الحق، خَفَّ وَسَهَّلَ ما توقّى الخلق؛ لأن التوالي للطاعات يوجب التكليف بموجب مقاساة الكلفة، والتجلي بالمشاهدات - بحكم التحقيق - يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة.

ويقال استعينوا بي على الصبر معي، واستعينوا بحفظي لكم على صلاتكم لي، حتى لا تستغرقكم واردات الكشف والهيبة، فلا تقدرون على إقامة الخدمة.

وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب في أوان الكشف حتى يقوى العبد على القيام بأحكام الفرق لِمِنَّةٍ عظيمة من الحق^(٣).

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر في الله، والصبر لله، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن الله:

والصبر يحسن في المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم^(٤)

(١) النجب: الكريم الحسن، وربما كانت النخب: الشربة العظيمة أو الشربة من الخمر أو غيرها يشربها الرجل لصحة حبيب أو محتقن به.

(٢) أخرجه النسائي في (السنن ٣/١٤٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/٣٣٣)، والدارقطني في (السنن ٢/٦٥).

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٦.

(٤) رواية البيت في الرسالة القشيرية ص ١٨٤:

الصبر يجمل في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يجمل

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الظن يُذكر، ويقال المراد به اليقين، وهو الأظهر ها هنا.

ويذكر ويراد به الحساب فَمَنْ ظَنَّ ظَنًّا يَقِين فصاحب وصلة.

ومن ظَنَّ ظَنًّا تخمين فصاحب فرقة. ومُلاقو ربهم، صيغة تصلح لماضي الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم في المستقبل. ولكن القوم لتحقيقهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعدَ لهم تَقَرَّرَ، والغيب لهم حضور.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْنَئِ بِإِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا بِنِعْمَةِ آلِي أَنَّمَتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وأشهد المسلمين من أمة محمد ﷺ فضل نفسه فقال: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

فشتان بين مَنْ مشهوده فضل نفسه، وبين مَنْ مشهوده فضل ربه؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب، وشهود العبد فضل الحق - الذي هو جلاله في وصفه وجماله في استحقاق نعته - يقتضي الشاء وهو يوجب الإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

العوام خوْفهم بأفعاله فقال: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾ «واتقوا النار».

والخواص خوْفهم بصفاته فقال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا يَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

وخاص الخاص خوْفهم بنفسه فقال: ﴿وَيَعَذِّبُكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨].
والعدل: الفداء.

يوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له، وأذن فيه، فهو الشفيع الأكبر - على التحقيق - وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف. وفي معناه قيل:

الحمد لله شكرا فكل خير لـديهِ
صار الحبيب شفيعاً إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وما لهم من ناصرين،

فلا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ، وَلَوْ افْتَدَوْا بِمَلْءِ السَّمَوَاتِ وَمَلْءِ الْأَرْضِينَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ بَغَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَعْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوضه الله صحبة أوليائه، وأتاح له جميل عطائه؛ فهو لاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤث أحداً من العالمين. ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة. وفي الحقيقة ما كان من الله - في الظاهر - محنة فهو - في الحقيقة لمن عرفه - نعمة ومِنَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمَجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾.

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سرّاً، وبذلك جرت سُنته سبحانه، وكل من كان أشحذً بصيرة كان الأمر عليه أغمض، والإشارات معه أوفر، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً»^(١).

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون - دَاخَلَهُمْ رَيْبٌ؛ فقالوا: إنه لم يغرق حتى قذفهم البحر، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرّقون. وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله ﷺ وعلى آله، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء^(٢) الناس: «كأنني بأهل الجنة يتزاورون وكأنني بأهل النار يتعاوون وكأنني أنظر عرش ربي بارزاً»^(٣) فشأن بين من يُعاين فيرتاب مع عيانه، وبين مَنْ يسمع فكالعيان حاله من قوة إيمانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد ٧، ٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٠٥، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١)، وابن كثير في (التفسير ٧٢/٤)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١١٣/٧)، والبيهقي في (دلائل النبوة ١/١٤)، وسعيد بن منصور في (السنن ٢٨٦٢)، وابن أبي شيبه في (المصنف ١١/٤٨٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٠٦٨)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/١٤ - ٣٠٨).

(٢) أفتاء وفتاء: (ج) فتى: وهو الشاب من إنسان أو حيوان.

(٣) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ١/٥٧)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/٢٣٨ - ٢٨٠)، والعقبلي في (الضعفاء ٤/٤٥٥).

شَتَان بين أمة وأمة؛ فأمة موسى عليه السلام - غاب نبئهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجْلَ معبودهم، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً، فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَسِي﴾ [طه: ٨٨] وأمة محمد المصطفى ﷺ مضى من وقت نبئهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيهاً لما أَبْقَوْا على حشاشتهم^(١) ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم.

ويقال إن موسى - صلوات الله عليه - سلم أتمته إلى أخيه فقال: اخلفني في قومي، وحين رجع وجدهم وقعوا في الفتنة، ونبئنا - صلوات الله عليه - توكل على الله فلم يُشِرْ على أحدٍ في أمر الأمة وكان يقول في آخر حاله: الرفيق الأعلى. فانظر كيف تولّى الحق رعاية أتمته في حفظ التوحيد عليهم. لعمرى يُضَيِّعون حدودهم ولكن لا يتقضون توحيدهم. قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

سرعة العفو على عظيم الجُرم تدل على حقارة قدرة المعفو عنه، يشهد لذلك قوله تعالى: (مخاطباً أمهات المسلمين): ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يَضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] هؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد ﷺ): ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فرقان هذه الأمة الذي اخْتَصَّصُوا به نور في قلوبهم، به يُفَرِّقُونَ بين الحق والباطل، قال النبي ﷺ لوابصة: «استفت قلبك»^(٢).

وقال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٣).

وقال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنَفَّوْا اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وذلك الفرقان ميراث ما قدّموه من الإحسان.

(١) الحشاشة: رمق الحياة، وبقيّة الروح في المريض والجريح (ج) حشاشات.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ١٣١ - ١٦٠، ٤٢/ ٧ - ٤٢ - ٦٠ - ٢٩٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧) وأبو حنيفة في (المسند ١/ ١٨٩) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩٤/ ٤، ١١٨/ ٦) والطبراني في (المعجم الكبير ٨/ ١٢١) (والبغوي ١٤/ ٣١) وابن كثير في (التفسير ١/ ٤٧٩، ٤/ ٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٥٤٤، ٧/ ٢٥٩) وابن حجر في (فتح الباري ١٢/ ٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٣٠) وابن حجر في (لسان الميزان ٥/ ١١٥٤) وصاحب ميزان الاعتدال (٨٠٩٨) والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٥) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٢) والسيوطي في (الدار المشرقة ٤/ ١٠٣) والعقبلي في (الضعفاء ٤/ ١٢٩).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْوُجُوهَ﴾.

أي ما أضرتكم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم، فأما الحق سبحانه فعزير الوصف، لا يعود إلى عزه من ظلم الظالمين شيء، ومن وافق هواه وأتبع مناه فعجله ما علّق به همه، وأفرد له قصده.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَوَوُّا إِلَى بَارِيكُمْ﴾.

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

التوبة بقتل النفوس غير (...) ^(١) إلا أن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سرّاً، فأوّل قَدَمٍ في القصد إلى الله الخروج عن النفس.

فصل: ولقد توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق، ولا كما توهموا؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة، وأما أهل الخصوص من هذه (الأمة) ^(٢) ففي كل لحظة قتل، ولهذا:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
وقتل النفس في الحقيقة التبري عن حوّلها وقوتها أو شهود شيء منها، ورد دعواها إليها، وتشويش تدبيرها عليها، وتسليم الأمور إلى الحق - سبحانه - بجملتها، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها، وانمحاء آثار البشرية عنها، فأما بقاء الرسوم والهيكل فلا خطر له ولا عبرة به.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْوَّابُ الرَّجِيمُ﴾.

كونه لكم عنكم أنتم من كونكم لأنفسكم:

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَتُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ فَاخِذْكُمْ الصَّنُوعَةُ وَانظُرُوا﴾.

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاح بتزكّ الحُرمة، وذلك من أمارات البعد والشقوة.

وإثبات نعت التولي بمكاشفات العزة مقروناً بملاطفات القربة من علامات الوصلة ودلالات السعادة.

(٢) يقصد أنه محمد (ﷺ).

(١) بياض في الأصل.

فلا جَزَمَ لما أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة .
قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاء لهم بمقتضى الحكم، وإجراء للسنة في الصفح عن الجُرم، ومن قضايا الكرم إسبال الستر على هنات الخدم .

قوله جل ذكره: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

لما طرحهم في متاهات الغربة لم يرَضَ إلا بأن ظلَّلَهُم، ولبسة الكفایات جَلَّلَهُم، وعن تكلف التكسب أغناهم، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولأهم؛ فلا شعورهم كانت تطول، ولا أظفارهم كانت تنبت، ولا ثيابهم كانت تسيخ، ولا شعاع الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سُنَّته لمن حال بينه وبين اختياره، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

(...) (١) بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يؤمرون، حتى قاله أوصوا بحفظها فَبَدَّلُوهَا، وحالة من السجود أمروا بأن يدخلوا عليها فحَوَّلُوهَا، وعَرَضُوا أَنفُسَهُمْ لِسَهَامِ الْغَيْبِ . ثم لم يطبقوا الإصابة بقرعها، وتعرضوا المفاجآت العقوبة فلم يشبثوا عند صدمات وقيها . قوله جل ذكره: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتياهم، أو يصدوا من دونهم أسباب البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم، فزعوا من الندم لما عضهم ناب الألم، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحساب .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .

إن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصماء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه، وإيصال محل الاستغاثة إليه، وليكون على موسى

(١) بياض في الأصل .

عليه السلام - أيضاً في نقل الحجر - مع نفسه شغل، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساة نوع من معالجة ما أمضى حكمه عند استسقاؤه لقومه^(١).

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّةٍ، ملازماً لحَدِّه، غير مُزَاجِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامة يعرفون بها مشربهم، فهؤلاء لا يَرِدُونَ مشرب الآخرين، والآخرين لا يَرِدُونَ مشرب الأولين.

وحين كفاهم ما طلبوا أمرهم بالشكر، وحَفِظَ الأمر، وتَزَكَّى اختيار الوزر، فقال:

﴿وَلَا تَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

والمناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكلُّ يَرِدَ مشربه فمشرب عَذْبُ فُرات، ومشربٌ مِلْحٌ أَجاج^(٢)، ومشربٌ صَافٍ زلال، ومشرب رتق أوشال^(٣). وسائق كل قوم يقودهم، ورائد كل طائفة يسوقهم؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المني والشهوات، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك في حقيقة الوجود والذات.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُؤْمِنُونَ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا هُوَ أَذًى هُوَ أَذًى هُوَ خَيْرٌ أَمِطُوا مَضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا إِنَّهُمُ الْكَافِرُونَ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّبِيلَ وَكَانُوا مُصِئِينَ﴾.

لم يرضوا بحسن اختياره لهم، ولم يصبروا على قيامه بتولي ما كان يَهْمُهُم من كفاية مأكولهم وملبوسهم، فنزلوا في التحير إلى ما جرت عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام، والرضا بالدون من الحال، فردَّهم إلى مقاساة الهوان، وربطهم بإدامة الخذلان، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلَّةِ الاستحياء، وتَزَكَّى الاروعاء، فعاقبهم على قبيح فعالهم، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم، وحين لم تنجح فيهم النصيحة، أدركتهم النقرة والفضيحة. ويقال كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم مُشْتَبِي القصود؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد، ولم يكتفوا في تدينهم بمعبود واحد، حتى قالوا لموسى عليه السلام - لَمَّا رَأَوْا قَوْمًا يَعْبُدُونَ الصَّنَمَ - يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم

(١) انظر مذهب القشيري في التوكل في الرسالة القشيرية ص ١٦٢، ١٧٣.

(٢) الأجاج: الشديد الملوحة أو المرارة.

(٣) الأوشال: (ج) الوشل: الماء القليل الذي يتحلب من صخرة أو جبل يقطر قليلاً قليلاً ولا يتصل قطره.

إله، وهكذا صفة أرباب التفرقة. والصبر مع الواحد شديد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مِّنْ ءَمَنٍ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول، فمن صدق الحق سبحانه في آياته، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته، فتباين الشرع واختلاف وقوع الاسم غير قادح في استحقاق الرضوان، لذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ ثم قال: ﴿مِّنْ ءَمَنٍ بِهِمْ﴾. أي إذا اتفقوا في المعارف فالكُلُّ لهم حُسْنُ الْمآبِ، وجزيل الثواب. والمؤمن مَنْ كان في أمان الحق سبحانه، وَمَنْ كان في أمانه - سبحانه وتعالى - فبالحرى ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَّادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أخذ سبحانه ميثاق جميع المُكَلَّفِينَ، ولكن قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرف إليهم فوَّخَدُوهُ وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور - وهو الجبل - ولكن عَدِمُوا نورَ البصيرة، فلا ينفعهم عيان البصر. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾، أي رجعتُم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان، ولولا حكمه بإمهاله، وجَلَّمَهُ بأفضاله لتعاجلكم بالعقوبة، وأحلَّ عليكم عظيم المصيبة ولخسرت صفقتكم بالكُلِّيَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي النَّبْتِ فَعَلْنَا لَهُمْ كُونًا قَرْدَةً خَاسِرِينَ﴾.

منح هذه الأمة حصل على القلوب، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما ألزموا به من الشرع - عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النص، فهذه الأمة مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ ورفض الحدِّ عوقبت بمسخ القلوب، وتبديل الأحوال، قال تعالى: ﴿وَنَقُلُّبُ أَتَدْرِكُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس، وفي معناه أنشدوا:

يا سائلي: كيف كنتَ بَعْدَهُ؟ لقيتُ ما ساءني وسرَّه
ما زلت أختال في وصالِي حتى أمنت من الزمانِ مَكْرَهُ^(١)

(١) هذا البيت مضطرب صحيح ليستقيم المعنى والوزن.

طال علي الصدود حتى لم يُبْقِ مما شَهِدَتْ ذَرَّةُ
قوله جل ذكره: ﴿جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

هكذا مَنْ مُنِيَ بالهجران، ووُسِمَ بالخذلان؛ صارت أحواله عِبرة، وتجرُّع - مِنْ
مُلاحظته لحاله - عليه الحسرة، وصار المسكين - بعد عِزِّه لكلِّ خسيس سُخْرَةً. هكذا
آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر:

وقد أهدق الصبيان بي وتَجَمَّعوا علي وأشلوا بالكلاب ورائيا
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾.

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهمًا
بأن يكون لهم (...) (١) تَفْضِي بالإخلاد إلى الاعتدال (٢) عن عهدة الإلزام فتضاعفت
عليهم المشقة وحل بهم ما حذَّروه من الافتضاح.

فصل: ولما قال: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكُرُّ عَوَادُ بَيْتِكَ ذَلِكَ﴾ أي ليست بِفَتِيَّةٍ
ولا مُسِنَّة بل هي بين السُّنَيْنِ. حصلت الإشارة أن الذي يصلح لهذه الطريقة مَنْ لا
يستهو به نَزَقُ (٣) الشباب وسُكْرُه، ولم يُعْطَلْهُ عجزُ المشيب وضعفه، بل هو صاح
استفاق عن سُكْرِه، وبقيت له - بَعْدُ - نضارة من عمره.

قوله جل ذكره: ﴿صَفَرَاءَ فَافِقَ لَوْنُهَا تَسْرُّ التَّنْظِيرَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ
إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة يستغرق
شاهدُه القلوب لِمَا ألبس من رداء الجبروت، وأقيم به من شاهد الغيب حتى أن من
لاحظَه تناسى أحوال البشرية واستولى عليه ذكر الحق، كذا في الخبر المنقول: «أولياء
الله الذين إذا رأوا ذكر الله» (٤) (...) (٥).

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَوْتَ مُسَلَّمَةٌ لَا
شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

كما أن تلك البقرة لم يذللها العمل، ولم تُبْتَذَلْ في المكاسب، لا لونَ فيها
يخالف عِظَمَ لَوْنِهَا فالإشارة منه أن أهل الولاية الذين لم يتبدلوا بالأغيار لتحصيل ما
طلبوا من الأسباب، ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال، ولم يتكلوا على

(١) بياض في الأصل.

(٢) الاعتدال: الرجوع عن الشيء.

(٣) الآية (٦٩) غير موجودة.

(٤) أخرجه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١٧٣٣).

(٥) بياض في الأصل.

الاختيار والاحتيايل، وليسوا نهياً لمطالبات المني، ولا صيداً في مخلب الدنيا، ولا حكم للشهوات عليهم، ولا سلطان للبشرية تملكهم، ولم يسعوا قط في تحصيل مرادهم، ولم يشقوا لدرك بُغيتهم، وليس عليهم رقم الأغيار، ولا سبحة الأسباب - فهُمْ قانمون بالله، فانون عما سوى الله، بل هم محو، مُضَرَّفهم الله. والغالب - على قلوبهم - الله.

وكما أن معبودهم الله كذلك مقصودهم الله.

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله، وموجودهم الله، بل هم محو بالله و (...)^(١) عنهم الله، وأنشد قائلهم:

إذا شئت أن أرضى وترضى وتملكي زمامي - ما عشنا معاً - وعناني
إذن فارمقي الدنيا بعيني واسمعي بأذني وانطقي بلساني

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَإِنَّ جَنَّةَ يَالْحَقِّ فَدَّجُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحيل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات، ولو أنهم فعلوا ما أمروا به لما تضاعفت عليهم المشاق.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرَةَ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

الخائن خائف، ولخشية أن يظهر سره يركن إلى التلبيس والتدليس، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عواره، وتتضح أسرارُه، وتهتك عن شين فعله أستاؤه. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعِصْيَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُزَيِّدُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أراد الله سبحانه أن يحيي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتلهم قتل حيوان لهم، صارت الإشارة منه:

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه؛ فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حيي قلبه بأنوار المشاهدات، وكذلك من أراد الله حياة ذكوره في الأبدال أمان في الدنيا ذكره بالخمول.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

بَيَّنْ أَنَّهُمْ - وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات - فحين لم تساعدكم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية، لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تثبت ولا تزكو، وكذلك قلوبهم لا تفهم، ولا تغنى. ثم بيَّن أنها أشد (....) ^(١) من الحجارة، فإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهار، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله ^(٢)، وأما قلوبهم فخالية عن كل خير، وكيف لا وقد مُنِيَتْ بإعراض الحق عنها، وُخِصَّت بانتزاع الخيرات منها.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنحَرُّونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أنباهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله - سبحانه - حرَّفوا وبذلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يبقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذي لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِهمْ إِلَىٰ بَعْضِهمْ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُم أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾.

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق، وإخفاء الحال على المسلمين، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسوله عليه السلام على أسرارهم، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفئ بمزاولة الأغيار. وموافقة اللسان مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفُرقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ، ثُمَّ قَلِيلًا﴾.

أخبر أنهم متفاوتون في نقائص كفرهم، فقومٌ منهم أحْسُ درجةً وأكثر جهلاً ركنوا إلى التقليد، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها، دون معرفة معانيها. ومنهم مَنْ أَكْثَرُ شأنه ما يتمناه في نفسه، ولا يساعده إيمان، ولا لظنونه قط تحقيق. ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره:

(١) بياض في الأصل.

(٢) هنا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾

[الحشر: ٢١].

﴿قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيَهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

أي خَسِرُوا في الحال والمآل، والإشارة في هذه الآية لمن عَدِمَ الإخلاص في الصلحة في طريق الحق؛ يَنْضُمُ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِب، وله مع هذه الطريقة جانب، كلما دَعَتْهُ هوائف الحظوظ تَسَارَعُ إلى الإجابة طوعاً، وإذا قادت دواعي الحق - سبحانه - بتكلف شيئاً، فَبُشِيتِ الحالة حين لم يخلص، وما أشد ندمه فيما ادَّخَرَ عن الله ثم لا يُفْلَح.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة، وغلب عليه حسبانته، فحكم لنفسه - لفرط غفلته - بأنه من أهل القصة وَيَخْلُدُ إلى هواجس مناه، فيحكم على الغيب بأنه يُتَجَاوَز عنه؛ نَسِيَ قبائح ما أسلفه، ويذكر مغاليط ما ظنَّه، فهو عَبْدٌ نَفْسِهِ يغلب عليه حسن ظنه، وفي الحقيقة تعتريه نتائج غفلته ومكره، قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصْبِرْهُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَكِينَةً وَأَخْلَصَ فِيهَا خَلِيلًا فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الذي أحاطت به خطيئته هو الكافر - على لسان العلم.

ولكن الإشارة منه إلى مَنْ سَكَنَ قلبه على استغاثاته على وجه الدوام، فإن أصحاب الحقائق كالحب على المَقْلَى - في أوقات صحوهم، فَمَنْ سَكَنَ فَلَفَرَطُ عَزَّتِهِ - لا يفترون^(١).

وَمَنْ استند إلى طاعة يتوسَّلُ بها وَيَظُنُّ أنه يقرب بها ينبغي أن يتباعد عن السكون إليها وَمَنْ تَحَقَّقَ بالتوحيد عِلْمَ ألا وسيلة إليه إلا به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

في الحال جنان الوصل

.....

.....

(٢)

.....

(١) من الفترة انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨١.

(٢) بياض في الأصل. والآية (٨٣، ٨٤) لم يرد لهما ذكر.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَبْتَغُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

... أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، الإشارة فيه أن نصرتكم لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصره عليهم بما فيه شقاؤهم، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ اسْتَرَىٰ تُقَاتِلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

أي كما تراعون - بالفداء عنهم - حقوقهم، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كف أيديكم عنهم، وترك إزعاجهم عن أوطانهم، فإذا قُمتُم ببعض ما يجب عليكم فما الذي يقعدكم عن الباقي، حتى تقوموا به كما أمرتُم؟ أما علمتم أن مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَا أَمَرَ بِهِ فَأَمَّنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَقَطَّ حَبْطٌ - بما ضيَّعه - أَجْرٌ مَا عَمِلَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ إِلْفِيكُمُ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا كَانَ لَآلِهَةٍ يَفْعَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي ظنوا أن ما فعلوه نفعهم، فانكشف لهم في الآخرة أن جميع ما فعلوه - لما مزجوه بالآفات وجردوه عن الصدق والإخلاص - غير مقبول منهم.

والأسراء أصناف: فَمِنْ أُسِيرَ غَرِقَ فِي بَحَارِ الْهَوَىٰ فَإِنْقَاذُهُ بِأَن تَدْلَهُ عَلَى الْهُدَى. وَمِنْ أُسِيرَ بَقِيَ فِي أَيْدِي الْوَسَاوِسِ فَافْتَدَاؤُهُ أَنْ تَرْشِدَهُ إِلَى الْيَقِينِ بِلَوَائِحِ الْبَرَاهِينِ لِتَنْقَذَهُ مِنَ الشَّكِّ وَالتَّخْمِينِ، وَتُخْرِجَهُ عَنْ ظُلُمَاتِ التَّقْلِيدِ فِيمَا تَقُودُهُ إِلَى الْيَقِينِ. وَمِنْ أُسِيرَ تَجَدَّه فِي أَسْرِ هَوَايَاهِ اسْتَأْصَرَتْهُ غَاغَةُ نَفْسِهِ، فَفَكَ أَسْرَهُ بِأَن تَدْلَهُ عَلَى شُهُودِ الْغَيْبِ، يَتَبَرَّيْهِ عَنْ حِسَابِ كُلِّ حَوْلٍ بِخَلْقٍ وَغَيْرِ. وَمِنْ أُسِيرَ تَجَدَّه فِي رِبِيضَةِ ذَاتِهِ فَفَكَ أَسْرَهُ إِنْشَادَهُ إِلَى إِقْلَاعِهِ، وَإِنْجَادَهُ عَلَى ارْتِدَاعِهِ. وَمِنْ أُسِيرَ تَجَدَّه فِي أَسْرِ صِفَاتِهِ فَفَكَ أَسْرَهُ أَنْ تَدْلَهُ عَلَى الْحَقِّ بِمَا يَحِلُّ عَلَيْهِ مِنْ وَثَائِقِ الْكُفْرِ، وَمِنْ أُسِيرَ تَجَدَّه فِي قَبْضَةِ الْحَقِّ فَتُخْبِرُهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَسْرَائِهِمْ فِدَاءٌ، وَلَا لِقَتْلِهِمْ عَوْدٌ، وَلَا لَرَبِيطِهِمْ خِلَاصٌ، وَلَا عَنْهُمْ بُدٌّ، وَلَا إِلَيْهِمْ سَبِيلٌ، وَلَا مِنْ دُونِهِمْ حِيلَةٌ، وَلَا مَعَ سِوَاهُمْ رَاحَةٌ، وَلَا لِحُكْمِهِمْ رَدٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا في الدنيا والآخرة كما قالوا:

أَنَاسٌ أَعْرَضُوا عَنَّا بَلَا جُزْمَ وَلَا مَعْنَى
فَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَغْنَوْا فَإِنَّا عَنْهُمْ أَغْنَى

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

الإشارة: أوصلنا لهم الخطاب، وأردفنا رسولا بعد رسول، والجميع دعوا إلى واحد. ولكنهم أضغوا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس قبلوه، وما استقلته أهواؤهم جحدوه، فإذا كان الهوى صفتهم ثم عبدوه، صارت للمعبود صفات العابد، فلا جزم الويل لهم ثم الويل!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعاني، ولكن عند مطالبات التحقيق تفتّر أنياب المتلبسين عن أسنان شاحذة بل (١) وقيل:

إذا انسكبت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى
قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء، ووعد من نفسه تحقيق الوفاء، ونشر أعلام النشاط عند البروز إلى القتال، تنادى بالنزال وصدق القتال - انهدم عند التفات الصفوف، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المحذور، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

قوله جل ذكره: ﴿بَشَرًا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَصِيٍّ عَلَى عَصِيٍّ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أنزلهم التحاسد عن مقر العز إلى حضيض الخزي (٢)، وسامهم ذل الصغر حين لم يرضوا بمقتضى الحكم، فأضافوا استيجاب مقت أنف إلى استحقاق مقت سالف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزْمِنُ بِنَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا رُكُودَاتٍ بِنَا وَرَأَاهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَلْيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الإشارة فيه: إذا قيل لهم حققوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال

(١) بياض في الأصل.

(٢) الحضيض: ما سفلى من الأرض. والخزي: الذل والهوان والفضيحة.

وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم، (...) ^(١) بعداً عن زمرة الخواص، غير معدودين في جملة أرباب الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

أي دعاكم إلى التوحيد، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود، ولكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عجل اتخذتموه، وصنم تمنيتموه. فرفع ذلك من بين أيديهم، ولكن بقيت آثاره في قلوبهم وقلوب أعقابهم، ولذلك يقول أكثر اليهود بالتشبيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

كرّر الإخبار عن غلوهم في حبّ العجل، ونُبُوهم عن قبول الحق، و (...) ^(١) وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل، فلا النصح نجع فيهم، ولا العقوبة أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم، ولا بالذم فيهم احتفلوا، ولا بموجب الأمر عملوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافي؛ فمن وثق بأن له الجنة قطعاً - فلا محالة - يشتااق إليها، ولما لم يتمنوا الموت - وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوه أبداً - صار هذا التعريف معجزة للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال.

وفي هذا بشارة للمؤمنين الذين يشتااقون إلى الموت أنهم مغفور لهم، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة، وقديماً قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء. قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّ عَنْهُمْ الْقُرْصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَخَذْتُم

لَوْ يَعْمُرُ آلَفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجٍ، مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمُرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

حُبُّ الحياة في الدنيا نتيجة الغفلة عن الله، وأشد منه غفلة أحبهم للبقاء في الدنيا.. وحال المؤمن من هذا على الضد. وأما أهل الغفلة وأصحاب التهلكة فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم؛ فالعبد الآبِقُ^(١) لا يريد رجوعاً إلى سيِّده. والانقلاب إلى مَنْ هو خيرُهُ مَرَجُوْ خَيْرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّهُ غيرُ مأمون، ثم إن امتداد العمر مع يقين الموت (لا قيمة له) إذا فاجأ الأمرُ وانقطع العُمْرُ. وكلُّ ما هو آتٍ فقريب، وإذا انقضت المدة فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتي بالخير، وأنهم لا يحبونه، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به، فأكذبهم الحق سبحانه فقال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ لأنه لا يأتي بالخير فأَيُّ خير أعظم مما نزل به من القرآن؟!!

ثم قال إن مَنْ عادى جبريل وميكائيل فإن الله عدو له؛ فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَورِدِ - كريمِ المنزلة، عظيم الشرف. وما ضرَّتْ جبريلَ - عليه السلام - عداوةُ الكفار، والحق سبحانه وتعالى وليُّه، وَمَنْ عادَى جبريلَ فالحقُّ عدوُّه، وما أعزَّزَ بهذا الشرف وما أجَلَّه! وما أكبر علوه!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُهُ، وسبقت من الله بالشقاوة قِسْمَتُهُ، ولا عقلَ لِمَنْ يجحدُ أنَّ النهارَ نهار، وكذلك لا وُضَلَ لِمَنْ لم تساعده من الحق أنوارٌ واستبصار. أو كَلَّمَا عاهدوا عهداً سابقَ التقدير لهم كان يشوْش عليهم، وينقض عَهْدَهُمْ لاجِقُ التدبير منهم، والله غالبٌ على أمره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) الآبِق: الهارب من مالكة.

جحدوا رُسُلَ الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر، وكذبوا رسلهم الذين أتوهم في الظاهر، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان! ويا حرماناً قَارَنَهُ خِذلان!

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوا السَّيِّطِينَ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ السَّيِّطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا هُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾.

مَنْ فَرَّقَتْهُ الأَهْوَاءُ وَقَعَ فِي كُلِّ مَطْرَحٍ مِنْ مَطَارِحِ الْغَفْلَةِ، فَيَسْتَقْبِلُهُ كُلُّ جِنْسٍ مِنْ قَضَايَا الْجَهَالَةِ، ثُمَّ إِنْ مَنْ طَالَتْ بِهِ الْغَيْبَةُ صَارَ لِلنَّاسِ عِبرَةً، وَلِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ فِتْنَةٍ، فَمَنْ اقْتَدَى بِهِ فِي غِيهِ انْخَرَطَ فِي سَلْكِهِ، وَالتَّحَقَّقَ بِجِنْسِهِ، هَكَذَا صَفَةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ^(١) فِيمَا اسْتَقْبَلَهُمَا، صَارَا لِلخَلْقِ فِتْنَةٌ بَلْ عِبْرَةٌ، فَمَنْ أَصْغَى إِلَى قِيلِهِمَا، وَلَمْ يَتَعَبَّرَ بِجَهْلِهِمَا تَعَلَّقَ بِهِ بِلَاؤُهُمَا، وَأَصَابَهُ فِي الْآخِرَةِ عَنَاؤُهُمَا.

وَالْإِشَارَةُ مِنْ قِصَّتِهِمَا إِلَى مَنْ مَالَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِلَى تَمْوِيهِ وَتَلْبِيسٍ، وَإِظْهَارِ دَعْوَى بَتْدِيسٍ، فَهُوَ يَسْتَهْوِي مَنْ اتَّبَعَهُ، وَيَلْقِيهِ فِي جَهَنَّمَ بِيَاظِهِ، (.....)^(٢).

وَمَنْ تَهْتَكُ بِالْجَنُوحِ إِلَى أَبَاطِيلِهِ تَهْتَكُ أَسْتَازَهُ، وَظَهَرَ لَذَوِي الْبَصَائِرِ عَوَازُهُ. وَإِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ لَمَّا اغْتَرَّا بِحَاصِلِ مَا اعْتَادَاهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ بَسَطَا لِسَانَ الْمَلَامَةِ فِي عُصَاةِ بَنِي آدَمَ، فَلَمَّا رُكِبَ فِيهِمَا مِنْ نَوَازِعِ الشَّهَوَاتِ، وَدَوَاعِي الْفِتَنِ وَالْآفَاتِ، اقْتَحَمَا فِي الْعَصِيَانِ، وَظَهَرَ مِنْهُمَا مَا انْتَشَرَ ذِكْرُهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْقِصَاصِ، وَهُمَا مُتَكَسِّانَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَوْ لَا الرِّفْقُ بِهِمَا وَبِشَأْنِهِمَا لَمَّا انْتَهَى فِي التِّيَامَةِ عَذَابُهُمَا، وَلَكِنْ لَطَفَ اللَّهُ مَعَ الْكَافَةِ كَثِيرًا. وَلَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ عَلِمَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ أَنَّ الْعِلْمَ بِكُلِّ مَعْلُومٍ - وَإِنْ كَانَ صِفَةً مَدْحٍ - فَبِهِ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهِ، بَلْ هُوَ مُسْتَعَاذٌ مِنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

لَوْ عِلْمُ الْمَغْبُورِ مَاذَا أَبْقَى وَمَاذَا أَبْلَى لَتَقَطَّعَتْ أَحْشَاؤُهُ حَسْرَاتٍ، وَلَكِنْ سَيَعْلَمُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطَّارِقُ: ٩] الَّذِي فَاتَهُ مِنَ الْكَرَائِمِ.

(١) هَارُوتَ وَمَارُوتَ: مَلَكَانِ هَبْطَا بَبِلَ فَعَلَّمَا النَّاسَ السِّحْرَ.

(٢) بِيَاضٌ فِي الْأَصْلِ.

(٣) أَخْرَجَهُ صَاحِبُ (مِيزَانِ الْإِعْتِدَالِ ٤١١٩)، وَالزَّيْدِيُّ فِي (إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ ٢٢٧/١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ولو آثروا الإقبال على الله على اشتغالهم عن الله، لحصلوا دُخْر الدارين، ووصلوا إلى عِزِّ الكَوْنَيْنِ، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطوات القهر، فأثبَّتْهُمْ في مواطن الهجر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قصود الأعداء في جميع أحوالهم - من أعمالهم وأقوالهم - قصود خبيثة؛ فهم - على مناهجهم - يبنون فيما يأتون ويذرون. فسيبيل الأولياء التحرر عن مشابعتهم، والأخذ في طريق غير طريقهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصلة مستدامة، ولكن الحسود لا يسود، ولا يحصل له مقصود. وخصائص الرحمة للأولياء كافية - وإن زعم من الأعداء أفاك أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف.

قوله جل ذكره: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

النسخ الإزالة أي ما ينقلك من حال إلى ما هي فوقها وأعلى منها، فعُصِنَ وُضِّلِكَ أبداً ناضراً، ونجم عزك أبداً ظاهراً، فلا ننسخ من آثار العبادَةِ شيئاً إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية، ولا نسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أعمار العبودية^(١).

فأبداً سيرك في الترقى، وقدرك في الزيادة بحسن التولي.

وقيل ما رقاك عن محل العبودية إلا سلكك بساحات الحرية، وما رفع شيئاً من صفات البشرية إلا أقامك بشاهد من شواهد الألوهية.

(١) قال القشيري في حديثه عن العبودية برسالته: العبادَة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص والعبودية (الطاعة والاسترقاق) لخواص الخواص. العبادَة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودية لمن له حق اليقين، والعبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودية صفة أهل المشاهدات. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص ١٩٧).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

سُنَّتُهُ - سبحانه - أن يجذب أوليائه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مُلْكِهِ، ثم يأخذهم من مُطالعة مُلْكِهِ إلى شهود حَقِّهِ، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

إن بني إسرائيل آذوا موسى عليه السلام، فنهى المسلمون عن فعل ما أسلفوه، وأُمرُوا بمراعاة أن حشمة الرسول ﷺ بغاية ما يتسع في الإمكان. فكانوا بحضرته كأن على رؤوسهم الطير. قال تعالى: ﴿وَتَعَزَّزُوا وَتَوَقَّروا﴾ [الفتح: ٩] وحسن الأدب - في الظاهر - عنوان حسن الأدب مع الله في الباطن.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

مَنْ لِحِقَّةُ خسران الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألا يطلع لأحدٍ بالسلامة نجم، ومن اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمس.

وكذلك كانت صفات الكفار، فأرغم الله أنفهم، وكبهم على وجوههم.

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة في البداية إذا رغبوا في السلوك، فمن لم يساعده التوفيق (في الصلابة، وعاشر أناساً مترسّمين بالظواهر)^(١) فإنهم يمشعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصيح، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة، أولئك أعداء الله حقاً، أدركهم مقت الوقت. وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق.

﴿فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا﴾ فسيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سرّه، ويستعمل مع كل أحد ضلة، ويبدل في الطلب رفعة، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(١) ما بين قوسين صحح لكي يتضح المعنى طبقاً مع وصايا القشيري للمريدين في رسالته ص ٣٧٨.

الواجب على المرید إقامة المواصلات، وإدامة التوسل بفنون القربات، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدرك ثمرته في أواخر الحالات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

كلّ حزبٍ يُمَهّد الأمل لنفسه، ويظنّ النجاة لحاله، ويدعي الوسل^(١) من سهمه. ولكن مجرد الحسابان دون تحقق البرهان لا يأتي بحاصل، ولا يجوز بطائل.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أسلم وجهه أي أخلص لله قصده، وأفرد الله وجهه، وطهر عن الشوائب عقله. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. عالمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله، وهو محسن في المآل كما أنه مسلم في الحال.

ويقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» فتكون مستسلماً بظاهرك، مشاهداً بسرّاترك، في الظاهر جهد وسجود وفي الباطن كشف ووجود.

ويقال: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ بالتزام الطاعات، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ قائم بأداب الخدمة بحسن آداب الحضور، فهو لا ليس عليهم خوف الهجر، ولا يلحقهم خفي المكر، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية على العكس من حكم الظاهر؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعض اليوم، والأولياء من وجه كذلك، ولذا قالوا: لا زالت الصوفية بخبر ما تنافروا، ولا يُقبل بعضهم بعضاً لأنه لو قبل بعضهم بعضاً بقي بعضهم مع بعض.

لكن الأعداء كلهم على الباطل: عند تَبَرُّي بعضهم من بعض أمّا الأولياء فكلهم على الحق - وهذه ما ذكرنا من حكم العكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا

(١) الوسل: من الوسيلة أي ما يتقرب به إلى الشيء، أو الوسيلة إلى الله سبحانه ما يوصل إلى ثوابه وذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي.

كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٣﴾.

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات، وأوطان العبادة نفوس العابدين. وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالمُنَى والعلاقات، وأوطان المعرفة قلوب العارفين. وخَرَّبَ أوطان المحبة بالحطوط والمساكنات، وهي أرواح الواجدين. وخَرَّبَ أوطان المشاهدات بالانتفات إلى القربات وهي أسرار الموحدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لأهل الإشارة خزي الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ الشَّرِيفُ وَالْعَزِيزُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها. وللقلوب شوارق وطوارق. وطوارقها هواجس النفوس تطرق في ظلمات المنى والشهوات.

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف.

فما دامت الشوارق طالعة فقبيلة القلوب، واضحة ظاهرة، فإذا استولت الحقائق خَفَى سلطانُ الشوارق، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس، كذلك عند ظهور الحق يحصل اضطلام وقهر، فلا شهود رسم، ولا بقاء جسّ وفهم، ولا سلطان عقل وعلم، ولا ضياء عرفان. فإن وجدان^(١) هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية، وإذا صار الموصوف محوًّا فأئى لهم ببقاء الصفة.

قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ما دام يبقى من الإحساس والتمييز بقية - ولو شظية - فالقبيلة مقصودة، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة. وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائل بكلّ وجه، ولا معرفة بالقبيلة تساوت الجهات في جواز الصلاة إلى كل واحد منها إذا لم يكن للنية ترجيح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾.

مَكَّرَ بهم لم يُفْنِهم - من الإفناء - في الحال، بل جعل هوهب اغترارهم طول الإمهال، فنطقوا بعظيم الفرية على الله، واستنبطوا عجيب الجزية في وصف الله، فوصفوه بالولد! وأئى بالولد وهو أحدي الذات؟! لا حدّ لذبحه، ولا تجوز المشهوة في صفاته.

(١) القشيري يفضل استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الدقيق (التواحد بداية، والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية). (الرسالة القشيرية ص ٦٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَيْنُونَ﴾.

أي ليس في الكون شيء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادي عليه آثار الجِلْفَةِ، وتفصح منه شواهد الفطرة، وكل صامت منها ناطق، وعلى وحدانيته - سبحانه - دليل وشاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

البديع عند العلماء مُوجِدُ العين لا على مثل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مثله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثل عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، والصمد الذي لا أمدّ يقطعه، والحق الذي لا وهم يصوره، والموجود الذي لا فهم يقدره. وإذا قضى أمراً فلا يعارض عليه مقدور، ولا ينفك من حكمه محذور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)، لكن من عدم سمع الفهم تصامم عن استماع الحق، فإنه - سبحانه - خاطب قوماً من أهل الكتاب، وأسمعهم خطابه، فلم يطبقوا سماعه، وبعدما رأوا من عظيم الآيات حرّفوا وبدّلوا. وفي الآيات التي أظهرها ما يزيح العِلَّةَ من الأغيار، ويشفي العِلَّةَ من الأخيار، ولكن ما تُغني الدلائل - وإن وُضِّحَتْ - عن حُجَّتْ لهم الشقاوة وسبقت؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُنْتَلِ عَنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ﴾.

أفردناك بخصائص لم نُظهِرْها على غيرك؛ فالجمهور والكافة تحت لوائك، والمقبول من وافقك، والمردود من خالفك، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال، ولا عنك لأحد (...)^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَن رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

لا تبال برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم، ودون ذلك لهم حظ القتال فأغلبن التبري منهم، وأظهر الخلاف

(١) بياض في الأصل.

معهم، وانصب العداوة لهم، وأعلم أن مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالك، وادع - إلى البراءة عنهم وعن طريقتهم - أمتك، وكُن بنا لنا، مُتَبَرِّياً عمن سوانا، واثقاً بنصرتنا، فإنك بنا ولنا.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبُ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾.

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وكلنا أسمع قلوبهم بسمع خطابنا، وخصصناهم بإسبال نور العناية عليهم، وأيدناهم بتحقيق التعريف في أسرارهم، يقومون بحق التلاوة، ويتصفون بخصائص الإيمان والمعرفة فهم أهل التخصيص، ومن سواهم أصحاب الرد.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَىٰ تَرْوِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَضَّلْتُكَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

جرت سُنته - سبحانه - في الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء العلامة فيقول: يا بني إسرائيل اذكروا، أي يا بني يعقوب، ومنع هذه الأمة أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنقُضُوا يَوْمًا لَا تَجْزَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أما الأعداء فلا يقبل منهم شيئاً، وأما الأولياء فقال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمر»^(١)، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمة مع نبيها، وأما المؤمنون - فعلى التخصيص - تنفعهم شفاعة نبيهم ﷺ.

وكل أحد يقول يومئذ نفسي نفسي ونبيئنا ﷺ يقول: «أمتي أمتي»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ١٢٦/٢، ٢٤/٤، ٨/٨ - ١٤٠ - ١٤٤، ١٨١/٩)، ومسلم في (صحيحه الزكاة ٢٨) والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٠٥/٣، ١٠٦) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٨٩ - ١٥٩٣٩ - ١٦٠٨٨) والسيوطي في (الدر المنثور ٣٥٥/١، ٣٨٢/٦)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٤٣/١) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤٣٣/١، ٢٧٤/٥) وصاحب ميزان الاعتدال (٦٤٥ - ١٠٦٨ - ٩٥٨٠)، وابن حجر في (اللسان الميزان ١٠٨٩/٢، ٩٤٢/٦) (أستار ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٦، ٩٣٧) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٧٠/١٠، ٢٦١/٦) وابن السني في (عمل اليوم والليلة ٣١٥) والعقيلي في (الضعفاء ٢/٢١٥، ٢٢/٤، ١٢٢، ٤٥٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٨٢/١) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٥١٠/٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦٤/٥) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٨٧/١٠) وابن حجر في (فتح الباري ٤٢٨/١١، ٤٤٣) وابن أبي عاصم في (السنة ٣٨٠/٢) وابن أبي شيبة في (المصنف ٣١/١١). وقد وقع الناسخ في خطأ حين نقلها «كل عهد يقول...» والصواب ما ورد في رسالة القشيري قال: =

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ .

البلاء تحقيق الولاء، فأصدقهم ولاءً أشدّهم بلاءً .

ولقد ابتلى الحق - سبحانه - خليله عليه السلام بما فرض عليه وشرع له، فقام بشرط وجوبها، ووُفّي بحكم مقتضاها، فأثنى عليه سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ هَبْنَا إِلَيْهِ﴾ [النجم: ٣٧] - من التوفية - أي لم يُقَصِّر بوجه ألبته .

يقال حملّه أعباء النبوة، وطالبه بأحكام الخلّة، وأشدّ بلاء له كان قيامه بشرائط الخلّة، والانفراد له بالتجافي عن كل واحد وكل شيء، فقام بتصحيح ذلك مختلياً عن جميع ما سواه، سراً وعلناً .

كذلك لم يلاحظ جبريل عليه السلام حين تعرض له وهو يُقذف في لُجة الهلاك، فقال: هل من حاجة؟ فقال: أمّا إليك... فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام في تلك الحالة، وأي بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساغ كائناً من كان؟! .

وفي هذا إشارة دقيقة إلى الفرق بين حال نبينا ﷺ وحال إبراهيم عليه السلام، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه:

فقال: أمّا إليك... فلا . ولم يُطِقْ جبريل صحبة النبي ﷺ فنطق بلسان العجز وقال:

لو دُثِرْتُ أنملة^(١) لاحتَرَقْتُ .

وشتان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قُوّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه، وبين حالة يعترف للحبيب - صلوات الله عليه - فيها بعجزه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيكَ مَتَابَعَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾ .

الإمام مَنْ يُقْتَدَى به، وقد حَقَّقَ له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالافتداء به فقال: ﴿وَلَوْلَا أَيْبُكُمْ إِذْ هَبْنَا﴾ [الحج: ٧٨] أي اتبعوا ملة إبراهيم يعني التوحيد، وقال: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ إِزْرِهِمْ مِصَلًّى﴾ .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يُفْهَمَ عن الحق ثم يُفْهَمَ الخلق؛ فيكون

= سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: لا يكون كمال هذا الخلق إلا لرسول الله ﷺ فإن كل واحد يوم القيامة يقول: نفسي نفسي، ونبينا ﷺ يقول: أمّتي أمّتي . (الرسالة القشيرية ٢٢٦) .

(١) الأنملة: رأس الإصبع أو المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر (ج) أنامل وأنملات .

واسطة بين الحق والخلق، يكون بظاهره مع الخلق لا يفتر عن تبليغ الرسالة، وبياطنه مشاهداً للحق، لا يتغير له صفاء الحالة، ويقول للخلق ما يقوله له الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

نطق بمقتضى الشفقة عليهم، فطلب لهم ما أكرم به. فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نسب، أو باستيجاب سبب، وإنما هي أقسام مضت بها أحكام فقال له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها، فهي لا ادّخار لها عن أحد وإن كان كافراً، ولذلك قال جل ذكره: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُم مِّنْ أَمْنٍ مِّنْهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فقال الله تعالى: ﴿وَمِن كَفَرٍ قَلِيلًا﴾.

يعني ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار، ولكن عهدي لا يناله إلا من اخترته من خواص عبادي.

أمّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد.

أمّا الإسلام والمحاب فغير مبذول لكل أحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت - يعني الكعبة - مثابة للناس إليه يثوبون، ومأمناً لهم إليه يرجعون، وإياه من كل نحو يقصدون.

هو بيت خلقته من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخلقة انفصل، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل، وكل من التجأ إلى ذلك البيت آمن من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام، والتوبة عن الآثام.

ويقال بُني البيت من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد.

بيت من وقع عليه ظلّه أناخ بعقوة^(١) الأمن.

بيت من وقع عليه طرّفه بُشّر بتحقيق الغفران.

بيت من طاف حوله طافت اللطائف بقلبه، فطوّفة بطوفة، وشوطة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار والمحلة. (لسان العرب ٧٩/١٥).

بَيْتٌ مَا خَسِرَ مَنْ أَنْفَقَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ مَالَهُ .

بَيْتٌ مَا رُبِعَ مَنْ ضَنَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ مَنْ زَارَهُ نَسِيَ مَزَارَهُ، وَهَجَرَ دِيَارَهُ .

بَيْتٌ لَا تُسْتَبَعَدُ إِلَيْهِ الْمَسَافَةُ، بَيْتٌ لَا تُتْرَكُ زيارته لحصول مخافة، أو هجوم آفة،
بَيْتٌ لَيْسَ لَهُ بِمَهْجَةِ الْفُقَرَاءِ آفَةٌ .

بَيْتٌ مَنْ قَعَدَ عَنْ زيارته فَلَعَدَمِ قُوَّتِهِ، أَوْ لِقَلَّةِ مَحَبَّتِهِ .

بَيْتٌ مَنْ صَبَرَ عَنْهُ فَقَلْبُهُ أَقْسَى مِنَ الْحِجْرَةِ . بَيْتٌ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ شِعَاعُ أَنْوَارِهِ
تَسَلَّى عَنْ شُمُوسِهِ وَأَقْمَارِهِ .

بَيْتٌ لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ بَقِيَ (عنه) ^(١) كَيْفَ يَصْبِرُ، إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ حَضَرَهُ كَيْفَ
يَرْجِعُ !

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ بُرْهَنِهِمْ مُصَلًّى﴾ .

عَبْدٌ رَفَعَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ قَدَمًا فِإِلَى الْقِيَامَةِ جَعَلَ أَثَرَ قَدَمِهِ قِبْلَةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ إِكْرَامًا
لَا مَدَى لَهُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ بُرْهَنِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا يَبْقَىٰ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَلَإِذَا قَالَ بُرْهَنُ رَبِّ أَجَعَلَ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّعْرَةِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ . .

الْأَمْرُ فِي الظَّاهِرِ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ، وَالْإِشَارَةُ مِنَ الْآيَةِ إِلَىٰ تَطْهِيرِ الْقَلْبِ .

وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ بِصُورَتِهِ عَنِ الْإِنْسَانِ وَالْأَوْضَارِ، وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ بِحِفْظِهِ عَنْ مِلَاحِظَةِ
الْأَجْناسِ وَالْأَغْيَارِ .

وَطَوَافُ الْحِجَاجِ حَوْلَ الْبَيْتِ مَعْلُومٌ بِلِسَانِ الشَّرْعِ، وَطَوَافُ الْمَعَانِي مَعْلُومٌ لِأَهْلِ
الْحَقِّ؛ فَقُلُوبُ الْعَارِفِينَ الْمَعَانِي فِيهَا طَائِفَةٌ، وَقُلُوبُ الْمُوَحِّدِينَ الْحَقَائِقُ فِيهَا عَاكِفَةٌ،
فَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ التَّلْوِينِ ^(٢) وَهَؤُلَاءِ أَرْبَابُ التَّمْكِينِ .

وَقُلُوبُ الْقَاصِدِينَ بِمِلَازِمَةِ الْخُضُوعِ عَلَىٰ بَابِ الْجُودِ أَبَدًا وَاقِفَةٌ .

(١) مَا بَيْنَ قَوْسَيْنِ زِيَادَةٌ يَقْتَضِيهَا السِّيَاقُ .

(٢) قَالَ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ التَّلْوِينِ وَالتَّمْكِينِ: التَّلْوِينُ صِفَةُ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ وَالتَّمْكِينُ
صِفَةُ أَهْلِ الْحَقَائِقِ فَمَا دَامَ الْعَبْدُ فِي الطَّرِيقِ فَهُوَ صَاحِبُ تَلْوِينٍ لِأَنَّهُ يَرْتَقِي مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ وَيَنْتَقِلُ
مِنْ وَصْفٍ إِلَىٰ وَصْفٍ وَيَخْرُجُ مِنْ مَرَحِلٍ وَيَحْصِلُ فِي مَرِيعٍ فَلِذَا وَصَلَ تَمَكَّنَ وَصَاحِبُ التَّلْوِينِ دَائِمًا
فِي الزِّيَارَةِ وَصَاحِبُ التَّمْكِينِ قَدْ وَصَلَ ثُمَّ اتَّصَلَ، وَأَمَارَةٌ أَنَّهُ اتَّصَلَ أَنَّهُ بِالْكَلِيَّةِ عَنْ كَلِيَّتِهِ بَطَلَ وَاعْلَمْ
أَنَّ التَّغْيِيرَ بِمَا يَرِدُ عَلَى الْعَبْدِ يَكُونُ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ إِمَّا لِقُوَّةِ الْوَارِدِ أَوْ لَضَعْفِ صَاحِبِهِ وَالسَّكُونُ مِنْ
صَاحِبِهِ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ إِمَّا لِقُوَّتِهِ أَوْ لَضَعْفِ الْوَارِدِ عَلَيْهِ . (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٧٨، ٧٩) .

وقلوب الموحدين على بساط الوصل أبداً راحة .

وقلوب الواجدین على بساط القرآن أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة ، وسوامي قصود المريدين بمشهد الجود أبداً طائفة ، ووفود همم العارفين بحضرة العز أبداً عاكفة . .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحظ العبد كان مستجاباً ، ولم يكن سؤال إبراهيم هذا لحظ نفسه ، وإنما كان لحقّ ربّه عزّ وجلّ .

ولمّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم وفي الذين لم يؤمنوا . ولمّا قال في حديث الإمامة : «ومن ذُرِّيَّتِي» من غير إذن مُنِعَ وقيل له : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

نَجَحَ السُّؤال في صدق الابتهاال؛ فلما فرغا إلى الخضوع في الدعاء أتاها الممدد، وتحقيق السؤال .

﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالنا ﴿العليم﴾ بأحوالنا .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

«مسلمين» : منقادين لحكمك حتى لا يتحرك منا عرق بغير رضاك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا في القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله ، وبين من يطلب نائباً بعده يقوم بطاعته في أحواله .

﴿وآرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ إذ لا سبيل إلى معرفة الموافقات إلا بطريق التوفيق والإعلام .

﴿وتب علينا﴾ : بعد قيامنا بجميع ما أمرتنا حتى لا نلاحظ حركاتنا وسكناتنا ، ونرجع إليه عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشُّركِ الخفي في توهم شيء منا بنا .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

إن الواجبات لما كانت من قبيل الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدى ، وألا يخليهم عن رسول وشرع . وطلب في ذلك الموقف أن يكون الرسول

«منهم» ليكونوا أَسْكَنَ إليه وَأَسْهَلَ عليهم، ويصحُّ أن يكون معناه أنه لما عَرَفَهُ - سبحانه - حالَ نَبِيِّنا ﷺ سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذي به (أمره).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أخبر أنه أثر الخليل صلوات الله عليه على البرية، فجعل الدين دينه، والتوحيد شعاره والمعرفة صفته؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحة، والكفر مهواه؛ إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإسلام هو الإخلاص وهو الاستسلام، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس، قال: ﴿أَسْلَمْتُ لرب العالمين﴾: قابلت الأمر بالسمع والطاعة، واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة. ولم يدخل شيئاً من ماله وبدنه وولده، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح، وحين قال له خلّه من الأسر (عمل) ما أُمِرَ به، فلم يكن له في الحالين «اختيار» ولا تدبير.

ويقال إن قوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾: ليس بدعوى من قَبْلِهِ لأن حقيقة الإسلام إنما هو التَّبري من الحَوْل والقوة، فإذا قال: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ فكأنه قال أَقْمَنِي فيما كلفتنِي، وَحَقَّقَ مِنِّي ما به أُمِرْتِي. فهو أحوال الأمر عليه، لا لإظهار معنى أو ضمان شيء من قَبْلِ نفسه. ويقال أَمَرَهُ بأن يستأثر بمطالبات القدرة؛ فإن من حلَّ في الخلَّة محلَّه يحل به - لا محالة - ما حلَّ به.

وُسأَلْها هنا سؤال فيقال: كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ ولم يَقُلْ نَبِيَّنا ﷺ حينما قيل له اعلم «علمت»؟.

والجواب عن ذلك من وجوه: منها أن النبي ﷺ قال «أنا أعلمكم بالله»^(١) ولكن لم يَرِدْ بعده شرع فكان يخبر عنه بأنه قال علمت.

ويقال إن الله سبحانه أخبر عن الرسول عليه السلام بقوله: ﴿آمن الرسول﴾ لأن الإيمان هو العلم بالله سبحانه وتعالى، وقول الحق وإخباره عنه أتم من إخباره - عليه السلام - عن نفسه.

والآخر أن إبراهيم لما أخبر بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ اقترنت به البلوى، ونبيُّنا - ﷺ - يتحرز عما عو صورة الدعوى فَحُفِظَ وَكُفِّيَ.

(١) أخرجه ابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) (١٣٩).

والآخر أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بما يجرى مجرى الأفعال، فإن الاستسلام به إليه يشير. ونبينا ﷺ أُمِرَ بالعلم، (ولطائف العلم أقسام).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِبَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أخبر أن إبراهيم عليه السلام وصّى بنيه، وكذلك يعقوب عليه السلام قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام. فشرائعهم - وإن اختلفت في الأفعال - فالأصل واحد، ومشرب التوحيد لا ثاني - له في التقسيم - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ إشارة بما تقوي به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ﴾.

جروا كلهم - صلوات الله عليهم - على منهاج واحد في التوحيد والإسلام، وتوارثوا ذلك خَلْفًا عن سَلَفٍ، فهم أهل بيت الزلفة، ومستحقو القربة، والمُطَهَّرُونَ من قِبَلِ اللَّهِ - على الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لم يقولوا إلها مراعاة لخصوصية قُذَرِه، حيث سلموا له المزية، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيعَ له بقولهم ﴿ونحن له مسلمون﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

أنزل الحق - سبحانه - كُلاًّ بمحلّه، وأفرد لكل واحدٍ قُذراً بموجب حكمه، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر، وكلٌّ في إقليمه مَلِكٌ، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

معناه إذا تجاذبتك الفِرَق، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة، فاحكم بتقابل دعاواهم، وأزِد من توجهك إلينا، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام في اعتزال الجملة، سواء كان أباه، أو كان ممن لا يوافق مولاه، ولذا قال ﴿وَاَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] للحق بالحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لما آمن نبينا ﷺ بجميع ما أنزل من قبله أكرم جميع ما أكرمّه من قبله، فلما أظهر موافقة الجميع أمر الكل بالكون تحت لوائه فقال: «أدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»^(١).

ولما آمنت أمته بجميع ما أنزل الله على رسله، ولم يفرقوا بين أحد فهم ضربوا في التكريم بالسهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نُؤَلِّقُ فِئَمًا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَبِّئِكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إن سلكوا طريقتم، وأخذوا بسبيلكم، أكرموا بما أكرمتم، ووصلوا إلى ما وصلتتم، وإن أبوا إلا امتيازاً أبينا إلا هوانهم، فإن نظّرنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة، وأعراضنا عمن بآيتك وخالفك (...) (٢)، من خالفك فهو في شق الأعداء، ومن خدمك فهو في شق الأولياء.

﴿فسيكفيكم الله وهو السميع العليم﴾: كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة، فمن نابذكم قصمته أيادي النصره، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام، العليم باستحقاقكم (منا) خصائص اللطف والإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾.

معناه الزموا صبغة الله، فهو نصب بإضمار فعل.

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد، فما يتكلفه الخلق فيألي الزوال ماله، وما أثبت الحق عليه الفطرة فيأثباته العبرة.

(١) أخرجه العجلوني في (تشف الخفاء ١/١٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٣٠١).

(٢) بياض في الأصل.

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة. صبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَتَمَّاجُوتُنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلُصُوا﴾.

كيف تصحُّ حاجة الأجانب وهم تحت غطاء الغيبة، وفي ظلال الحجة. والأولياء في ضياء الكشف وظَّهر الشهود؟

ومتى يستوي حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو حكم الاختصاص والإخلاص لانغراقه في قُرْبَتِهِ؟ هيهات لا سواء!

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ نَظَرَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى الْخَلْقِ يَتَخَيَّلُ كُلَّ بَرَقَةٍ، وبحسب الجميع بنعت مثله؛ فلما كانوا بحكم الأجنبيَّة حَكَمَ الأنبياء - عليهم السلام - بمثل حالتهم، فردَّ الحقُّ - سبحانه - عليهم ظَنَّهُمْ و (...) (١) فيهم رأيهم. وهل يكون المجذوب عن شاهده كالمحجوب في شاهده؟ وهل يتساوى المختطف عن كُله بالمردود إلى مثله؟ ذلك ظن الذين كفروا فتعسَّأ لهم!

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

حالت بينكم وبينهم حواجز من القسمة؛ فهم على الفرقة والغفلة أسسوا بنيانهم، وأنتم على الزلفة والوصلة ضربتم خيامكم. وعتيق (٢) فضلنا لا يشبه طريد قهرنا.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

سقمت بصائر الكفار فلم يُلْخِ لهم وجه الصواب في جميع أحوال المؤمنين، فطالعوها بعين الاستقباح، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض في كل ما كان ويكون منهم، فلم يروا شيئاً جديداً إلا أَوَّأوا عليه باعتراض جديد.

(٢) العتيق: الحر أو الكريم.

(١) بياض في الأصل.

فمن ذلك تغير أمر القبلة حينما حُولَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذي ولأهم عنها؟ فقال جل ذكره:

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ مُسْتَقِيمٌ﴾.

يتعمّد العباد إلى أي قطر و (.. .) ^(١) ونحو شاؤوا، وكذلك أصحاب الغيبة والخجبة - عن شهود تصريف الحق لأوليائه - يطلبون وجوهاً من الأمر، يحملون عليها أحوالهم، ولو طالعا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم تورع الفكر، وشغل ترجّم خاطر، ومطالبات تقسم الظنون، ولكن الله يهدي لنوره من شاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

الوسط الخيار، فجعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار. فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة فهذه الطائفة هم الأصول، وعليهم المدار، وهم القطب، وبهم يحفظ الله جميع الأمة، وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردته قبولهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراستهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم عصم جميع الأمة (عن) الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ في النظر والحكم، والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول ﷺ. وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول عليه السلام فهو عليه رد، وصاحبه على لا شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

بيّن أن الحكم في تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق لتمييز الصادق من المارق، ومن نظر إلى الأم بعين التفرقة لكبر عليه أمر التحويل، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب. ثم قال: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلب واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة، فسواء غير أو قرّر، وأثبت أو بدّل، وحقق أو حوّل فهم به له في جميع الأحوال، قال قائلهم:

(١) بياض في الأصل.

كيفما دارت الزجاجة دُزنا يحسب الجاهلون أننا جُنُنًا
 فإن قابلوا شرقاً أو واجهوا غرباً، وإن استقبلوا حجراً أو قاربوا مدرأً، فمقصود
 قلوبهم واحد، وما كان للواحد فحكمُ الجميع فيه واحد.
 قوله جل ذكره: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

حَفِظَ - صلوات الله عليه - الآداب حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمناه من أمر
 القبلة بقلبه، فلاحظ السماء لأنها طريق جبريل عليه السلام، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ
 نَرَى ثَقَلَبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي علمنا سؤلك عما لم تُفصِّح عنه بلسان الدعاء،
 فلقد غيرنا القبلة لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب.
 كل العبيد يجتهدون في طلب رضائي وأنا أطلب رضاك ﴿فلنولينك قِبْلَةً
 تَرْضَاهَا﴾ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: ولكن لا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِالْأَحْجَارِ
 والآثار، وأفرد قلبك لي، ولتكن القبلة مقصود نفسك، والحق مشهود قلبك، وحيثما
 كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره، ولكن أخلصوا قلوبكم لي وأفردوا شهودكم
 بي.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَكْتُبَ لَكُمْ أَنْتُمْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
 يَفْعَلُونَ﴾

ولكنه علم لا يكون عليهم حجة، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة، ﴿وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ تهويلاً على الأعداء، وتأميلاً على الأولياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا أَكْتُبَ بِكُلِّ عَائِمَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ
 بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
 الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

سبق لكم من قديم الحكم (...) (١) انفراداً بطريق الحق، ووقوع أعدائكم في
 شق البُعد، فبينكما برزخ لا يبغيان، فما هم بتابعي قبلتكم وإن أريتهم من الآثار ما هو
 أظهر من الشمس والأقمار، ولا أنت - بتابعي قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال، حُكماً من
 الله - سبحانه - بذلك في سابق الأزل.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبَ يَرْفَعُوهُمْ كَمَا يَرْفَعُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَلَئِنْ قَرَيْتَهُمْ
 لَيَكُونُنَّ أَهْلَ الْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

حَمَلْتَهُمْ مُسْتَكِنَاتٍ الْحَسِدَ عَلَى مَكَابِرِهِ مَا عَلِمُوهُ بِالْأَضْطِرَارِ، فَكَذَلِكَ الْمَغْلُوبُ فِي ظِلْمَاتِ نَفْسِهِ، أَلْقَى جَلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِ مَلَأَمٌ، وَلَمْ يَزِدْغَهُ عَنْ انْهِمَاكِهِ كَلَامٌ.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

أي بعدما طلعت لك شمس اليقين فلا تدأ عن إلى مجوزات التخمين. والخطاب له والمراد به الأمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهٌ مَوْ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الإشارة منه: أن كل قوم اشتغلوا عنا بشيء حال بينهم وبيننا، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبناء، وأنشد بعضهم:

إذا الأشغال ألّهوني عنك بشغليهم جعلتك أشغالي فألستني شغلي

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

كما تستقبلون أينما كنتم القبلة - قُرْبُكُمْ مِنْهَا أَمْ بَعْدُكُمْ - فكذلك أَقْبِلُوا عَلَيْنَا بقلوبكم كيفما كنتم؛ خطيتم منا أو مُيْتَم.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيل، ولا يقع لمخلوق عليك ظل، ولا تصل إليك بالسوء يد، فحيثما كنت وأينما كنت وكيفما كنت كن لنا وكُنْ مِنَّا، فَإِنَّ مِنْ انْقِطَع إِلَيْنَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ حَدَثَانٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

إذا كانوا محوا عن كونهم رسوماً تجري عليهم أحكامنا - فأنتي بالخشية منهم؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُؤْتُوا نَفْسًا عَلَيْكُمْ وَلَا تَزُولُ﴾.

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده، وفي معناه أنشدوا:

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه - يا أهل وُدِّي - أنكم غيبٌ ونحن الحُضُور

قوله جل ذكره: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

إرسال الرسول مفاتحة لأبواب الوصول، فكان في سابق علمه - سبحانه - أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقاءه. ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل؛ فأقوام ألزمهم - بإرسال الرسل إليهم - الكُلف، وآخرون أكرمهم - بإرسال الرسل إليهم - بفنون القرب والرُف، وشتان بين قوم وقوم!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

الذكر استغراق الذاكر في شهود المذكور، ثم استهلاكه في وجود المذكور، حتى لا يبقى منك أثر يذكر، فيقال قد كان مرة فلان.

﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي كونوا مستهلكين في وجودنا، نذكركم بعد فنائكم عنكم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦] كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائماً^(١):

أناس حديث حسن فكن حديثاً حسناً لمن وعنى^(٢)

وطريقة أهل العبارة ﴿فاذكروني﴾ بالموافقات ﴿أذكركم﴾ بالكرامات، وطريقة أهل الإشارة ﴿فاذكروني﴾ بتذك كل حظ ﴿أذكركم﴾ بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم.

﴿فاذكروني﴾ مكتفين بي عن عطائي وأفضالي ﴿أذكركم﴾ راضياً بكم دون أفعالكم.

﴿فاذكروني﴾ بذكري لكم ما تذكرون، ولولا سابق ذكري لما كان لاحق ذكركم.

﴿فاذكروني﴾ بقطع العلائق ﴿أذكركم﴾ بنعوت الحقائق.

ويقال اذكروني لكل مَنْ لَقِيْتَهُ أَذْكُرْكَ لِمَنْ خَاطَبْتَهُ، «فمن ذكرني في مَلاذِ ذِكرته في مَلاذِ خَيرِ منهم»^(٣).

ويقال ﴿واشكروني﴾ على عظيم المِنَّةِ عليكم بأن قُلْتُ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

ويقال الشكر من قبيل الذكر، وقوله: ﴿ولا تكفرون﴾ النهي عن الكفران أمرٌ بالشكر، والشكر ذكر، فكرر عليك الأمر بالذكر، والثلاث أول حدّ الكثرة، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة لأنّ في الخبر: «من أحب شيئاً أكثر ذكره» فهذا - في الحقيقة - أمرٌ بالمحبة أي أُخْبِنِي أُحِبُّكَ؛ ﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي أُحِبُّونِي أُحِبِّكُمْ.

ويقال: ﴿فاذكروني﴾ بالتذلل ﴿أذكركم﴾ بالتفَضُّل.

(١) قال القشيري في رسالته: سُئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص ٣١٧).

(٢) البيت مضطرب.

(٣) أخرجه البخاري (توحيد ١٥)، والترمذي (دعاء ١٣١)، وأحمد بن حنبل ٢/٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٨٠، ٤٨٢، ٣/١٣٨.

﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بالانكسار ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالمبار .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ باللسان ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالجنان .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بقلوبكم ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بتحقيق مطلوبكم .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ على الباب من حيث الخدمة ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالإيجاب على بساط
 القرية بإكمال النعمة .

﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بتصفية السر ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بتوفية البر .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بالجهد والعناء ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بالجود والعطاء .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بوصف السلامة ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ يوم القيامة يوم لا تنفع الندامة .
 ﴿فَإذْكُرُونِي﴾ بالرهبة ﴿أذْكُرْكُمْ﴾ بتحقيق الرغبة .
 قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .
 استعينوا بالصبر على الصلاة أي بصبركم - عند جريان أحكام الحق عليكم -
 استحقاقكم صلاة ربكم عليكم، ولذا فإنه تعالى بعد ﴿وبشر الصابرين﴾ يقول:
 ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ .
 ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر، وعلو القدر حيث نالوا معية الله قال
 تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا
 تَشْعُرُونَ﴾ .

فاتتهم الحياة في الدنيا ولكن وصلوا إلى الحياة الأبدية في العقبى، فهم في
 الحقيقة أحياء، يجدون من الله فنون الكرامات .
 ويقال هم أحياء لأن الخلف عنهم الله وَمَنْ كَانَ الْخَلْفُ عَنْهُ اللَّهُ لَا يَكُونُ مِيتًا،
 قال قائلهم في مخلوق:

إن يكن عتًا مضى بسبيله فما مات من يبقى له مثل خالد
 ويقال هم أحياء بذكر الله لهم، والذي هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى
 ليس بميت .

ويقال إن أشباحهم وإن كانت متفرقة، فإن أرواحهم - بالحق سبحانه - متحققة .
 ولئن قَيِّتَ بالله أشباحهم فلقد بَقِيَتْ بالله أرواحهم لأن من كان فناؤه بالله كان
 بقاؤه بالله .

ويقال هم أحياء بشواهد التعظيم، عليهم رداء الهيبة وهُم في ظلال الأئس،
 يسطهم جماله مرة، ويستغرقهم جلاله أخرى .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

ابتلاهم بالنعمة ليُظهر شكرهم، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم، فلما أدخل المعلوم من حالهم في الوجود، ورسمهم بالرقم الذي قَسَمَهُ، وأثبتهم على الوصف الذي علمه، (ابتلاهم) بالخوف وفيه تصفية لصدورهم، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم، ونقص من الأموال تركو به نفوسهم، وبمصائب النفوس يعظم بها عند الله أجرهم، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم.

﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ يعني الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه.

ويقال طال بهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوع ابتغاء قربه وكرامته، ونقص من الأموال بتصدق الأموال والخروج عنها طلباً للخير منه بحصول معرفته.

«والأنفس» تسليمًا لها إلى عبادته «والثمرات» القول بترك ما يأملونه من الزوائد في نعمته ﴿وَبَشِّرِ الصَّادِقِينَ﴾ على استحسان قضيته، والانقياد لجريان قدرته.

ومطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب؛ فمن أوقف المال لله فله النجاة، ومن بذل لحكمه النفس فله الدرجات، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والفُرُبات، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ... الآية.

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشكر لا بل بالفرح والفخر.

ومن طالع الأشياء ملكاً للحق رأى نفسه أجنبياً بينه وبين حكمه؛ فمِنْشِئُ الْخَلْقِ أولى بالخلق من الخلق.

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله، ومن شاهد المُبْلِي عِلِمَ أن ما يكون من الله فهو عبد بالله، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله؛ الذي كان لله فصابراً واقفاً، والذي هو بالله فساقط الاختيار والحكم، إن أثبتته ثَبَّتْ، وإن محاه انمحي، وإن حرَّكه تحرك، وإن سَكَّنَهُ سَكَّنَ، فهو عن اختياراته فأن، وفي القبضة مُضَرَّف.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ﴾.

بصلواته عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير، لا بصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة.

قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهَدُونَ﴾ لما رحمهم في البداية اهتدوا في النهاية.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

تلك المشاهد والرسوم، وتلك الأطلال والرقوم، تُعَظَّم وتُزَار، وتُشَدُّ إليها الرحال لأنها أطلال الأحباب، وهنالك تلوح الآثار:

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها وليس في الدار هم ولا طُرب وإن لثرابِ طريقهم بل لغبار آثارهم - عند حاجة الأحباب - أقداراً عظيمة، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم) لأعزُّ من المسك الأذفر^(١):

وما ذاك إلا أن مشيت عليه أَمِمةٌ في تربها وجرَّت به بُرداً^(٢) قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

حَطَى الصفا والمروة^(٣) بجوار البيت فَشَرَعَ السعي بينهما كما شرع للبيت الطواف، فكما أن الطواف ركن في التمسك فالسعي أيضاً ركن، والجار يُكْرَم لأجل الجار.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾.

الإشارة في هذه الآية لمن كاشفه الحق سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضمن بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قُصِّر فيه لما أخر من تعليم المستحق.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرجعى، والقيام للمريدين على وجه النصيحة، وبيَّنوا لهم - بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون - حسن قيامهم بمعاملاتهم. فَإِنَّ أَظْهَرَ الْحَجَجِ لِبَيَانِ أَفْعَالِكَ وَأَصْدَقُ الشَّهَادَةِ لِتَصْحِيحِ مَا تَدْعُو بِهِ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ - أَلَا يُخَالِفُ بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

(١) المسك الأذفر: أي الجيد ذو الرائحة الطيبة.

(٢) البُرد: ثوب مخطط أو موشى يلتحف به (ج) برود، وأبراد، وأبرد.

(٣) الصفا: اسم أجد جبلي المسعى من مشاعر الحج بمكة. والمروة: إحدى شعائر الحج يسعى بينها الحاج وبين الصفا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإرادة (أن) يرجعوا إلى أحوال العادة، ثم في تلك الوحشة قُبضوا، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا، أولئك أصحاب الفرق، فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران، ولا لأحد عليهم ترحم، خسروا في الدنيا والآخرة، يلعنهم البق في الهواء والتنع على الماء.

﴿خَالِدِينَ﴾ أي مقيمين أبداً في هوانهم وصغرهم، لا تخفيف ولا إسعاف ولا رفق ولا ألطاف.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

شرفهم غاية التشريف بقوله ﴿وَاللَّهُمَّ﴾. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا: علامة من يعلِّمه من خاص الخواص أن يقول له: عبدي، وذلك أتم من هذا بكثير لأن قوله: ﴿وَاللَّهُمَّ﴾: وإضافة نعتيه أتم من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لك بلا علة، وكونك له عبد يعوض كل نقصك وأفتك. ومتى قال لكم ﴿وَاللَّهُمَّ﴾.

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حين، ولا أوان، ولا رسم ولا حدثان.

﴿وَالْوَحْدُ﴾ من لا مثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا نديم يؤانسه. لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده.

أحدني الحق صمدي العين ديمومي البقاء أبدي العز أزلني الذات.

واحد في عز سنانه قر في جلال بهائه، وثر في جبروت كبريائه، قديم في سلطان عزه، مجيد في جمال ملكوته. وكل من أظن في وصفه أصبح منسوباً إلى العمى (ف) علواً أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبد إذا تعرض لعرفانه عند أول ساطع من بدياب عزه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَشَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته، وأمارات وجوده، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله. ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوجدانية بما أثبت فيها من براهين تُلطف عن العبارة، ووجوه من الدلالات تدق عن الإشارة، فما من عين من العدم محصورة - من شخص أو طفل، أو

رسم أو أثر، أو سماء أو فضاء، أو هواء أو ماء، أو شمس أو قمر، أو قطر أو مطر، أو رمل أو حجر، أو نجم أو شجر - إلا وهو على الوجدانية دليل، ولمن يقصد وجوده سبيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة، فسَّغَلَهُمْ بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم أن يحبوا كل ما هَوَتْه أنفسهم، فرضوا بمعمول لهم أن يعبدوه، ومنحوت - من دونه - أن يحبوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام، ولكن من أحبَّ حبباً استكثر ذكره، بل استحسن كل شيء منه.

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس للجنس، وقد يميل الجنس إلى الجنس، وتلك محبة من ليس بجنس لهم فذلك أعزُّ وأحق.

ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه، وليس بعجيب محبة ما هو لك مشهود، وأما المؤمنون فإنهم أحبوا من حال بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه.

ويقال الذين آمنوا أشدَّ حباً لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإن عَذَّبَهُم. والكافر تبرأ من الصنم والصنم من الكافر كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية.

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهي أتم، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ومحبتهم للأصنام من قضايا هواهم.

ويقال محبة المؤمنين أتم وأشدَّ لأنها على موافقة الأمر، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التي كانوا يعبدونها قبل ذلك في حال فقرهم؛ فكانوا يتخذون من الفضة - عند غناهم - أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد... وعلى هذا القياس! وأما المؤمنون فأشدَّ حباً لله لأنهم عبدوا إلهاً واحداً في السراء والضراء.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

إذا بَدَتْ لَهُمْ أَوَائِلُ الْعَذَابِ اتَّضَحَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقِفُوا مِنَ الصَّدَقِ عَلَى قَدَمٍ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَسْلُبُهُمْ أَرْوَاحُهُمْ وَأَمْلَاكُهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، وَيُسَكِّنُ (أُولَئِكَ) (١) فِي الْقُبُورِ سَنِينَ ثُمَّ يَتِلِّيهِمْ فِي الْقِيَامَةِ بِطُولِ الْأَجَالِ وَسُوءِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ يَلْقِيهِمْ فِي النَّارِ.

(أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ) (٢) فَيَأْتِي عَلَيْهِمْ طُولُ الْأَيَّامِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا يَزْدَادُونَ إِلَّا مَحَبَّةَ (عَلَى مَحَبَّةٍ) وَلِلذَلِكَ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كَرَّةً فَفَتَّرْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

عند ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ حَنَاقًا طَيْبًا وَلَا تَدْعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾.

الحرام - وإن استلذ في الحال - فهو وبىء في المآل، والحلال - وإن استكره في الحال - فهو مريء في المآل.

والحلال الصافي ما لم ينس مَكْتَسِبُهُ الحق في حال اكتسابه (٣).

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمكتسب على شهود الحق في كل حال.

وكل ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لاجترائه على الله يدعوكم به إلى افتراءك على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

لا ترفع أبصارهم عن أشكالهم وأصنافهم، من أضرابهم وأسلافهم، فَبَنَوْا عَلَى مَنَاجِمِهِمْ، فَلَا جَرَمَ انْخَرَطُوا فِي النَّارِ، وَانْسَلَكُوا فِي سُلُوكِهِمْ، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ أَسْلَافَهُمْ لَا عَقْلَ يَرُدُّعُهُمْ، وَلَا رُشْدَ يَجْمَعُهُمْ لَنَابَذُوهُمْ مَنَاصِبِينَ، وَعَانَدُوهُمْ مُخَالَفِينَ، وَلَكِنْ سَلَبُوا أَنْوَارَ الْبَصِيرَةِ، وَخَرِمُوا دَلَائِلَ الْيَقِينِ.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) القشيري هنا استفاد من تعريف سهل بن عبد الله التستري للحلال الصافي. سئل سهل عن الحلال الصافي فقال: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وقال سهل: الحلال الصافي هو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص ١١٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

عذبوا سمع الفهم والقبول، فلم ينفعهم سمع الظاهر، فنزلوا منزلة البهائم في الخلوص عن التحصيل، ومن رضي أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلال ما لا شبهة عليه، والطيب الذي ليس لمخلوق فيه منة، وإذا وجد العبد (طعاماً) ما يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب.

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس في غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَن اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حرّم على الظواهر هذه المعدودات وهي ما أهل به لغير الله، وحرّم على السرائر صفة غير الله بل شهود غير الله، فمن اضطر - أي لم يجد إلى الاستهلاك في حقائق الحق وصولاً - فلا يسلك غير سبيل الشرع سبيلاً، فيما أن يكون محوفاً في الله، أو يكون قائماً بالله، أو عاملاً لله، والرابع همج لا خطر له.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمناً قليلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

العلماء مطالبون بنشر دلائل العلم، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السر فإن كتم هؤلاء براهين العلوم أجموا بلجام من النار، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عوجلوا ببعاد الأسرار، وسلب ما أوتوا من الأنوار. ولكل جد، وعلى كل أمر قطيعة.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

إن الذين آثروا الغيّر على الغيب، والخلق على الحق، والنفس على الأنس، ما أقسى قلوبهم، وما أوقع محبوبهم ومطلوبهم، وما أخس قدرهم، وما أفضح لذوي الأبصار أمرهم! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق، وأمضى القضاء والحكم فيه

بالصدق، وأوصلهم إلى ماله أهلهم، وأثبتهم على الوجه الذي عليه جبلهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

والإشارة أن الظواهر ليس لها كثير اعتبار إنما الخبر عن الله عزيز.

وكثرة الأوراد - وإن جلت - فحرفة العجائز، وإخلاص الطاعات - وإن عز - فصفة العوام، ووصل الليل بالنهار في وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر في استحقاق الثواب، ولكن معرفة الحق عزيزة.

وما ذكر في هذه الآية من فنون الإحسان، ووجوه قضايا الإيمان، وإيتاء المال، وتصفية الأعمال، وصلة الرحم، والتمسك بفنون الذم والعصم، والوفاء بالعهود، ومراعاة الحدود - عظيم الأثر، كثير الخطر، محبوب الحق شرعاً، ومطلوبه أمراً لكن قيام الحق عنك بعد فنائك، وامتحائك من شاهدهك، واستهلاكك في وجود القدم، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك - أتم وأعلى في المعنى؛ لأن التوحيد لا يُقْبَى رسماً ولا أثراً، ولا يغادر غيراً ولا غيراً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُثِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّهِ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْدَائِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَكُلُوا مِمَّا كَفَرَ عَذَابُ إِلِيمٍ﴾.

حق القصاص مشروع، والعفو خير، فمن جنح إلى استيفاء حقه فمُسَلَّم له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمُحْسَن، فالأول صاحب عبادة بل عبودية، والثاني صاحب فتوة بل حرية.

والدم المراق يجري فيه القصاص على لسان أهل العلم، وأما على لسان الإشارة لأهل القصة فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرية قال:

وإن فؤداً رعته لسك حامداً وإن دماً أجريته بك فاجراً

وسفك دماء الأحباب (فوق) بساط القرب خلوف أهل الوصال، قال النبي ﷺ: «اللون لونُ الدم والريح ريح المسك»^(٢).

(١) الغير: السوى، وإغير: غبر: بقي أو مضى.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٣٨٤).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .
 في استيفاء القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قَتَلَ قَتِلَ أَمْسَكَ عن القتل وفي ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص - على بيان الإشارة - فيه أعظم الحياة لأنه إذا تَلَفَ فيه (سبحانه) فهو الخَلْفُ عنه، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه . وإذا كان الوارث عنهم الله والخلف عنهم الله فبقاء الخلف أعزُّ من حياة مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ .

مَنْ تَرَكَ مَالاً فالوصية له ماله مُسْتَحَبَّةٌ، وَمَنْ لم يترك شيئاً فأئى بالوصية!! في حالة الأغنياء يوصون في آخر أعمارهم بالثلث، أما الأولياء فيخرجون في حياتهم عن الكل، فلا تبقى منهم إلا همة انفصلت عنهم ولم تتصل بشيء؛ لأن الحق لا سبيل للهمة إليه، والهمة لا تَعْلَقُ لها بمخلوق، فبقيت وحيدة منفصلة غير متصلة، وأنشدوا:

أحبكم ما دمتُ حياً فإن أُمْتُ يحبكُم عظمى في التراب رميم

هذه وصيتهم: وقال بعضهم:

(١)

لا بل كما قال قائلهم:

وأتى الرسول فأخبر أنهم رحلوا قريباً
 رجعوا إلى أوطانهم فجري له دمعي صيباً

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .
 من حَرَفَ نُطْقاً جرى بِحَقِّهِ لِحَقِّهِ شَوْمٌ ذلك ووباله .

وعقوبته أن يُحَرِّمَ رائحة الصدق أن يشمه . فمن أعان الدين أعانه الله، ومن أعان على الدين خذله الله .

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِنْمَاءً فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الإشارة فيه: أن من تَفَرَّسَ في بعض المريدين ضعفاً، أو رأى في بعض أهل

البداية رخاوة قصد أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله - فرأى أن يرفق بذلك المرید بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطي مباح - فلا بأس به فإن خَمَلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثير أجر. فالزَّفَق بأهل البداية - إذا لم يكن لهم صارم عزم، ولا صادق جهد - رُكُن في ابتغاء الصلاح عظيم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾.

الصوم على ضربين: صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السر عن الملاحظات.

ويقال صوم العابدين شرطه - حتى يَكْمَلَ - صَوْنُ اللسان عن الغيبة، وصون الطَّرْف عن النظر بالريبة كما في الخبر: (مَنْ صَامَ فَلْيَصُمْ سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ...) (١)

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق، قال ﷺ: «صوموا وأفطروا لرؤيته» (٢): الهاء في قوله عليه السلام - لرؤيته - عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال، وأما الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطروهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله، والذي هم به محو - الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَتْ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله، فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القرية. الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة. الصوم لله صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد. الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله قيام بالضمائر. الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة.

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ١/٢٠١).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (الصيام ٨، ب ١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٤٣٠٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٩٠٩)، وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان ١/١١٦).

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك في جميع أوقاته عن شهود المخلوقات.

من صام بنفسه سقي شراب السلسبيل والزنجبيل، ومن صام بقلبه سقي شراب المحاب بنعمة الإيجاب.

ومن صام بسرّه فهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وَسَقَّيْنَاهُمْ مِنْ شَرَابٍ طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

شراب يا له من شراب!! شراب لا يُدار على الكف لكنه يبدو له من اللطف.

شراب استثناس لا شراب كأس.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي من أفطر لهذه الأعدار فعليه صوم عدة أيام بعدد ما أفطر قضاء لذلك. الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلّة قوة واحتمال، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة فليُتمهل حتى تقوى عزيمته وتشدّ إرادته، فعند ذلك يُستدرك منه ما رُخص له بالأخذ بالتأويل، وتلك سنّة الله سبحانه وتعالى في التسهيل على أهل البداية، ثم استيفاء ذلك منهم واجب في آخر الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ (.....)﴾ ^(١) طَعَامٌ مِثْلِهِ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

الإشارة منه أنّ من فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقي له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبتى مجرداً للواحد.

فصل: ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضي المشقة خففه عليك ذلك بأن قلّل أيام الصوم في قلبك فقال: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أي مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨] ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] أي لا يلحقكم كثير مشقة في القيام بحق جهاده.

قوله جلّ ذكره: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

رمضان يُرْمِضُ^(١) ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم، وشتان بين من تحرق ذنوبه رحمته وبين من تحرق رسومه حقيقته.

شهر رمضان شهر مفاتحة الخطاب، شهر إنزال الكتاب، شهر حصول الثواب، شهر التقريب والإيجاب. شهر تخفيف الكلفة، شهر تحقيق الزافة، شهر نزول الرحمة، شهر وفور النعمة. شهر النجاة، شهر المناجاة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

أراد بك اليسر (وأتت نظن) أنه أراد بك العسر.

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه (أقامه) بطلب اليسر؛ ولو لم يُرِدْ به اليسر لما جعله راعياً في اليسر، قال قائلهم:

لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أُرْجُو وأُطْلِبُهُ من فيضِ جودِكَ ما علمتني الطلبُ
حقّق الرجاء وأكّد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾
لينفّي عن حقيقة التخصيص مجوزات الظنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِتُكْمِلُوا أَلَمَدَةَ﴾.

على لسان العلم تكملوا مدة الصوم.

وعلى لسان الإشارة لتقربوا بصفاء الحال (وفاء) (المال).

﴿وَلِتُكْمِلُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ وَلَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ في النفس الأخير، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم. والتوفيق في أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عذرك بالسعادة - أعظم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

سؤال كل أحد يدل على حاله؛ لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. وليس هؤلاء من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠] ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ولا من جملة من قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحُمُرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

(١) رمض: وجد حر الرمضاء (الرمضاء: شدة حر الشمس).

هؤلاء قوم مخصوصون: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾^(١).

أي إذا سألك عبادي عني فبماذا تجيبهم؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد، فأنت وإن كنتَ السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (رَفَعَ) الوسطة من الأغيار عن القربة فلم يَقُلْ قل لهم إني قريب بل قال جل شأنه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾^(٢).

ثم بَيَّنَّ أن تلك القربة ما هي: حيث تقدَّس الحق سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وإن الحق سبحانه قريب - من الجملة والكافة - بالعلم والقدرة والسمع والرؤية، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة، وجلُّ وتقدَّس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة؛ فإنه أحدي لا يتجعة في الأقطار، وعزيز لا يتصف بالكنه والمقدار.

قوله جل ذكره: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

لم يبعد إجابة من كان باستحقاق زهد أو في زمان عبادة بل قال دعوة الداعي متى دعاني وكيفما دعاني وحيثما دعاني ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ هذا تكليف، وقوله: ﴿أُحِبُّ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ تعريف وتخفيف، قدَّم التخفيف على التكليف، وكأنه قال: إذا دعوتني - عبي - أجبتك، فأجبتني أيضاً إذا دعوتك، أنا لا أرضى برّد دعائك فلا ترّض - عبي - برّدي من نفسك. إجابتي لك بالخير تحملك - عبي - على دعائي، ولا دعاؤك يحملني على إجابتك. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: وليثقوا في، فإني أجب من دعائي، قال قائلهم:

يا عَزَّ أَقْسَمَ بالذي أنا عبده وله الحجيج وما حوت عرفات^(٣)
لا أبتغي بدلاً سِوَاكِ خليلَ فشقي بقولي والكرام ثقات
ثم قال في آخر الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي ليس القصد من تكليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَلْ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَاةِ الرَّفَّتْ إِلَىٰ يَسَابِكُمْ مِّنْ لِّبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ

(١) بياض في الأصل. (٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) عرفات: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة.

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ
ثُمَّ أْتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴿١﴾

أخبر أنه - في الحقيقة - لا يعود إليه عائد من أوصاف الخلق؛ إن كنت في العبادة التي هي حق الحق أو في أحكام العادة من صحبة جنسك التي هي غاية النفس والحظ، فسيان في حالك إذا أورد فيه الإذن.

نزلت الآية في زلزلة بدرت من الفاروق^(١)، فجعل ذلك سبباً رخصاً لجميع المسلمين إلى القيامة. وهكذا أحكام العناية.

ويقال علم أنه لا بد للعبد عن الحظوظ فقسم الليل والنهار في هذا الشهر بين حقه وحظك، فقال أما حقي ﴿أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، وأما حظك ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُبْشِرُوا مَنَاسِكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ بِمَا كُنتُمْ تَقْرَبُونَ﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢﴾.

أخبر أن محل القدرة مقدس عن اجتلاب الحظوظ، وقال إذا كنتم مشاغل بنفوسكم كنتم محجوبين بكم فيكم، وإذا كنتم قائمين بنا فلا تعودوا منا إليكم. ويقال غير الحق سبحانه على الأوقات أن يمزج الجد بالهزل، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام: «ذريتي يا ابنة أبي أبكر أتعبد ربي»^(٢) وقال ﷺ: «لي وقت لا يسعني غير ربي»^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إذا تحاكمتم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم، وعلمه محيط بكم، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه، ولئن كان المخلوقون عالمين بالظواهر فالحق - سبحانه وتعالى - متولي السرائر.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾. الأهلة - جمع هلال - مواقيت للناس؛ لأشغالهم ومحاسباتهم.

(١) الفاروق: من يفرق بين الحق والباطل، ولقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/١٦٢).

(٣) أخرجه علي الفاري في (الأسرار المرفوعة ٢٩٩).

وهي مواقيت لأهل القصة في تفاوت أحوالهم؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم، وأما أقوام مخصوصون فهي لهم مواقيت لحالاتهم، قال قائلهم.

أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد كنت قدماً لا أعد الليالي
وقال آخر:

ثمان قد مضين بلا تلاقٍ وما في الصبر فضل عن ثمانٍ
وقال آخر:

شهورٌ يَنْقُضِينَ وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرارٍ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

يعني ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيَّاكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ﴾.

لتكن نفوسكم عندكم ودائع الحق؛ إن أمر بإمساكها أمسكوها وصونها، وإن أمر بتسليمها إلى القتل فلا تدخروها عن أمره، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْسِدُوا﴾ وهو أن تقف حيثما أوقفت، وتفعل ما به أمرت.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَثْتُمْ﴾.

يعني عليكم بنصب العداوة مع أعدائي - كما أن عليكم إثبات الولاية والموالة مع أوليائي - فلا تثنفثوا عليهم وإن كان بينكم وأصد الرحم وشائج^(٢) القرابة.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ﴾: أولاً أخرجوا حبّهم وموالاتهم من قلوبكم، ثم (...)^(٣) عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جارياً عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

والإشارة: أنَّ المحنة التي ترد على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التي ترد على النفوس من بذل الروح، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النفس، إذ النفوس حياتها بمألوفاتها، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله.

(١) سر الشهر وسراره: آخر ليلة منه (اللسان ٣٥٧/٤).

(٢) الشوائج: (ج) وشيجة: وهي القرابة المشتبكة المتصلة.

(٣) بياض في الأصل.

ويقال الفتنة أشد من القتل: أن تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

الإشارة منه: لا تشوش وقتك^(١) مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك وإن كانت نوافل من الطاعات، فإن زاحمك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الإشارة منه: إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك، مما يخرجك عنه ويزاحمك، فليكن حديث النفس ودغ مجاهداتها؛ فإن من طولب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس؛ فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. أي استوف أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء، وتسلم النفس والقلب لله، فلا يكون معارض ولا منازع منك لا بالتوقي ولا بالتلقي، لا بالتدبير ولا بالاختيار - بحال من الأحوال؛ تجري عليك صروفه كما يريد، وتكون محوياً عن الاختيارات، بخلاف ما يرد به الحكم، فإذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير. فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام.

قوله جل ذكره: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة فيه: إذا تقابل حقان كلاهما لله فسلم الوقت بحكم الوقت، ودل مع إشارات الوقت، وإياك أن ترجع أحدهما على الآخر بمالك من حظ - وإن قل - فتحجب عن شهود الحق، وتغمى بصيرة قلبك. وكل ما كان إلى خلاف هواك أقرب،

(١) قال القشيري في حديثه عن الوقت برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: (الوقت ما أنت فيه) وإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان. (الرسالة القشيرية ص ٥٥).

وَعَنْ اسْتِجْلَالِكَ وَسُكُونِكَ إِلَيْهِ أَبْعَد - كَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ أَصَوَّبَ .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ : الَّذِينَ اتَّقُوا إِثَارَ هَوَاهُمْ عَلَى مَا فِيهِ رِضَاءٌ ، فَإِذَا قَامُوا لِلَّهِ - فِيمَا يَأْتُونَ - لَا لَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّصْرَةِ مَعَهُمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنْ نَشَأْوَ اللَّهُ يُصَرِّكُمْ﴾ [محمد : ٧] .

قوله جلّ ذكره : ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حُبِّهِ .

إنفاق الأغنياء من النعم وإنفاق الفقراء من الهمم .

إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفُسِ النفس ، وإنفاق الموحدين إخراج الخلق من السُرِّ .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ؛ فمن أمسك يده وأدّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضا .

ويقال ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال تَوَهُّمُ أَنْكَ تَعِيشَ مِنْ دُونِ لُطْفِهِ وَإِقْبَالِهِ لِحَظَّةٍ .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة في كل نفس .

قوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان أن ترفق مع كل أحد إلا معك ؛ فإحسانك إلى نفسك في صورة إساءتك إليها في ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظيمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك إلى قضاء حق كل أحد علّق عليك حديثه . والإحسان أن تعبده على غير غفلة . والإحسان أن تعبده وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿وَأَنِمُوا نَجْعَ وَالْمَمَرَةَ لِلَّهِ﴾ .

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيها (دون) التقصير في بعض أحوالها .

وفي التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القَصْد؛ فَقَصَدَ إلى بيت الحق وقصد إلى الحق، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص.

وكما أن الذي يحج بنفسه يُحْرِمُ وَيَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق، فكذلك من يحج بقلبه؛ فأحرامه بعقد صحيح على قصد صريح، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهوته، ثم باشتماله بثوبي صبره وفقره، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى، وإطلاق خواطر المنى، وما في هذا المعنى. ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك.

وأفضل الحج الشَّجَّ والعَجَّ؛ الشَّجُّ صَبُّ الدَّمِّ والعَجُّ رفع الصوت بالتلبية، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف، ورفع أصوات السُّرِّ بدوام الاستغاثة، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة. وموقف النفوس عَرَافَات وموقف القلوب الأسامي والصفات لِعَزِّ الذات (عند) المواصلات. ثم طواف القلوب حول (مشاهدة) العز، والسعي بالأسرار بين صَفَيِّ كشف الجلال ولطف الجمال.

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات، والمنى والمعارضات: بكل وجه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَحْصَيْتُمْ فَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

الحصر بأمرين بعدو أو مرض.

والإشارة فيه إن استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرُّخَصِ وتأويلات العلم فعند ذلك تحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحُكْمِ. ﴿الْهَدْيِ﴾ الذي يهدي به عند التحلل بالعذر، والخروج عن المعلوم، وتسليمه للفقراء، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر. وإن مَرَضَتْ الواردات وَسَقِمَتْ القصود وآل الأمر إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه في الحج الظاهر يجتهد ألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك - بشرط الفدية.

ثم إن عجز، اشترط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد في أوصاف القصد وأحكام الإرادة، فإن رجع - والعياذ بالله - لم يُقَابَلْ إلا بالردِّ والصد، وقيل:

فلا عن قلى كان التقرب بيننا ولكنه دهر يُشِثُّ ويجمع^(١)

وقال الآخر:

ولست - وإن أحببت من يسكن الفضا بأول راج حاجة لا ينالها

(١) القلى: البغض والكراهة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحِلُّوا زُرُّوْكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَنَ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِدَاءٍ أَدَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلُوْءٍ﴾.

يَبْذُلُ مَا أَمَكْنَهُ، وَيُخْرِجُ عَنْ جَمِيعٍ مَا يَمْلِكُهُ، وَعَلَيْهِ أَثَارُ الْحُسْرَةِ، وَاسْتِشْعَارِ أَحْزَانِ الْحُجَّةِ.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا... الخ: الإِشَارَةُ مِنْهُ أَنْ يَتَهَلَّ وَيَجْتَهِدَ بِالطَّوْفِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ، وَالْخِدْمَةِ لِلْفُقَرَاءِ، وَالتَّقَرُّبِ بِمَا أَمَكْنَهُ مِنْ وَجُودِ الْإِحْتِيَالِ وَالِدَعَاءِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَنِ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَنَ لَمْ يَحِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَوْا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فَإِذَا تَجَلَّتْ أَقْمَارُ الْقَصُودِ عَنْ كَشُوفِ التَّعَزُّزِ، وَانْجَلَّتْ غِيَابَةُ الْحُجَّةِ عَنْ شُمُوسِ الْوَصْلَةِ وَأَشْرَفَ نُورُ الْإِقْبَالِ فِي تَضَاعِيفِ أَيَّامِ الْوَقْفَةِ، فَلَيْسَتْ أَنْفُ لِلْوَصْلَةِ وَقْتًا، وَلِيَفْرَشَ لِلْقُرْبَةِ بَسَاطًا، وَلِيَجِدَّ لِلْقِيَامِ بِحَقِّ السَّرُورِ نَشَاطًا، وَلِيَقْلُ: حَيَّ عَلَى الْبَهْجَةِ! فَقَدْ مَضَتْ أَيَّامُ الْمَحْنَةِ.

وَلِيُكْمِلَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَلِيَسْتَدِيمَ الْقِيَامَ بِأَحْكَامِ الصَّحْبَةِ وَالْخِدْمَةِ.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بِالْحِجَابِ لِمَنْ لَمْ يَرِهِ أَهْلَةُ الْوَصْلَةِ وَالْإِقْتِرَابِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾.

كَمَا أَنَّ الْحَجَّ بِالنَّفُوسِ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ لَا يَنْعَقِدُ الْإِحْرَامُ بِهِ إِلَّا فِيهَا، وَلَا يَجُوزُ فِعْلُ الْحَجِّ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ إِلَّا فِي وَقْتٍ مُخْصُوصٍ، مِنْ فَاتِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ فَاتِهِ الْحَجِّ - فَكَذَلِكَ حُجَّ الْقُلُوبِ لَهُ أَوْقَاتٌ مَعْلُومَةٌ لَا يَصُحُّ إِلَّا فِيهَا، وَهِيَ أَيَّامُ الشَّبَابِ؛ فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ إِرَادَةٌ فِي حَالِ شَبَابِهِ فَلَيْسَتْ لَهُ وَصْلَةٌ فِي حَالِ مُشْيَبِهِ، وَكَذَلِكَ مِنْ فَاتِهِ وَقْتُ قَصْدِهِ وَحَالِ إِرَادَتِهِ فَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْعِبَادَةِ الَّتِي آخَرَهَا الْجَنَّةُ، فَأَمَّا الْإِرَادَةُ الَّتِي آخَرَهَا الْوَصْلَةُ.. فَلَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ وَضَّ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾.

كَذَلِكَ الْإِشَارَةُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْإِرَادَةِ أَلَا يُعْرَجُ عَلَى شَيْءٍ فِي الطَّرِيقِ، وَلَا يَمْزِجُ إِرَادَتَهُ بِشَيْءٍ. فَمَنْ نَازَعَهُ أَوْ عَارَضَهُ أَوْ زَاحَمَهُ - سَلَّمَ الْكُلَّ لِلْكَلِّ، فَلَا لِأَجْلِ الدُّنْيَا مَعَ أَحَدٍ يَخَاصِمُ، وَلَا لِشَيْءٍ مِنْ حِظْوِظِ النَّفْسِ وَالْجَاهِ مَعَ أَحَدٍ يَزَاحِمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَنِيزُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾.

تكتفي بعلمه وحكمه عن شهود خلقه وحكم خلقه وعلم خلقه .
قوله جل ذكره: ﴿وَسَكَرُوا فَإِنِّي خَيْرٌ لِّزَادِ النَّفْثِ وَأَنْتُمْ إِنَّمَا تَأْتُونَ مِنَ الْآلِبِ﴾ .

تقوى العامة مجانبية الزلات، وتقوى الخواص مجانبية الأغيار بالسرائر .
قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغي من فضل الله مما يُعينك على قضاء حقّه، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين - فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك - فهو معلول .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى فمت بحق طلبه فاذكر فضله معك؛ فلولاً أنه أَرَادَكَ لما أَرَدْتَهُ، ولولاً أنه اختارك لما آثرت رضاه .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر؛ لا بلبسة ولا بخرقه ولا بصفة، بل تكون كواحد من الناس، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفر الله، وجدّد إيمانك فإنه شركٌ خفيٌّ خامر قلبك .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ .

﴿قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ إشارة إلى القيام بحق العبودية .

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيامً بالنفس .

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق

العمر .

ويقال كما أن الأغيار يفتخرون بأبائهم، ويستبشرون بأسلافهم فليكن افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لأبائكم عليكم حق التربية فحقنا عليكم أوجب، وأفضلنا عليكم أتم .

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب، فاستحقاقنا لنعموت الجلال فوق ما لأبائكم من حسن الحال .

ويقال إنك لا تملُ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك، فاستدِمْ ذِكْرنا، ولا تَعْتَرِضْكَ ملالة أو سامة أو نسيان.

ويتال إن طَعَنَ في نَسَبِكَ طاعِنٌ لم تَرْضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبدع فذُبْ عَنَّا.

ويقال الأب يُذَكِّرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكُرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القرية بحسن التربية.

وقال ﴿كَذِّكُّوْا أَبَاءَكُمْ﴾ ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذَكِّرُ احتراماً والأم تُذَكِّرُ شفقةً عليها، والله يَرْحَمُ ولا يُزَحِمُ.

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ لأن الحقُّ أحقُّ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك، والحقُّ سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضي الواجب حتى إن كان ذرة. وقوله ﴿كَذِّكُّوْا أَبَاءَكُمْ﴾ الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه.

قوله جل ذكره: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَئِنْ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾.

خطاب لو قاله مخلوقٌ لك كان شاكرًا، ولو أنه شكَا منك كما شكَا إليك لساءت الحالة، ولكن بفضلَه أَحَلَّكَ محل أن يشكو إليك فقال: مِنَ النَّاسِ مَن لا يجنح قلبه إلينا، ويرضى بدوننا عَنَّا، فلا يبصر غير نفسه وحظّه، ولا يمكن إيمان له بربه وحقّه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَاكَ الْفُسْطَ﴾.

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات، والحسنة التي بها تحصل جميع الحسنات في الدنيا - حفظ الإيمان عليهم في المآل؛ فَإِنَّ مَنْ خرج من الدنيا مؤمنًا لا يخلد في النار، وبفوات هذا لا يحصل شيء. والحسنة التي تنتظم بها حسنات الآخرة - المغفرة، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير.

ويقال الحسنة في الدنيا العزوف عنها، والحسنة في الآخرة الصون عن مساكنتها. والوقاية من النار ونيران الفرقه إذ اللام في قوله ﴿الْفُسْطَ﴾ لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقه ونيران الفرقه جميعاً.

ويقال الحسنة في الدنيا شهود بالأسرار وفي الآخرة رؤية بالابصار.

ويقال حسنة الدنيا ألا يُغْنِيكَ عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك.

ويقال حسنة الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ للعوام في الفرصة، وللخواص في كل نفس.

ويقال ذكر فريقين: منهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا، والثاني يقول في الدنيا والعقبى، وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه، المستسلمون لأمره، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هذه صفة أواخر النسك، وهو الرمي في أيام منى لما قدموا بأركان الحج خفف عنهم بأن خيرهم في المقام والإفاضة والتعجيل في التفريق. والإشارة منه أن من خدمت نفسه، وحى قلبه واستدام بحقائق الشهود (سره). فإن سقط عنه شيء من فروع الأوراد ففيما هو له مستديم من آداب الحضور عوض عن الذي يفوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم في الظاهر بسطة في اللسان ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان؛ فهم في غطاء جهلهم، ليس وراءهم معني، ولا على قولهم اعتماداً، ولا على إيمانهم اتكالاً، ولا بهم ثقة بوجوه. والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان، ولا بهذه الجملة استبصار، فالواحب صون الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار^(١)، وإن أهل الوداعة من العوام الذين في قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثير ممن عدّ نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

الإشارة لمن سعى مقصوداً على استجلاب حظوظه، فهو لا يبالي بما يتحل من

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٨.

عُرِيَ الدين، ويهوى من أسباب الإسلام، بعدما تشد حبال دنياهم، وتتنظم أسباب مناهم، من حرام جمعه، وخطام حصّله. فإذا خلّوا لوساوسهم وقصودهم الردية سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدنيا، واستعمالهم مَنْ يستعينون بهم في تمشية أمورهم مِنْ القوم الذين نَزَعَ الله البصيرة من قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾: ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفاسد الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُهُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ إِلَهِكَ﴾.

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبر، وزال عنهم خضوع الإنصاف؛ فَشَمَخَتْ أَنافُهُمْ عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال: ألمثلنى يقال هذا؟! وأنا كذا وكذا! ثم يكبر عليك (...) (١) فيقول: وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا.

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة، وتقلّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه، ونبهه على سوء وصفه، لم يطوّر على نصيحة جنبيه وتبقى في القلب - إلى سنين - آثارها.

قال تعالى: ﴿فَحَسِبُّهُ جَهَنَّمَ﴾ يعني ما هو فيه في الحال من الوحشة وظلمات النَّفْسِ وضيق الاختيار حتى لا يسعى في شيء غير مراده. فيقع في كل لحظة غير مرة في العقوبة والمحنة، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة، ونعتتهم سوابق القسمة، فأثروا رضا الحق على أنفسهم، واستسلموا بالكلية لمولاهم، والله رؤوف بالعباد: ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كلّف المؤمن بأن يسالِمَ كل أحدٍ إلا نفسه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده؛

فَإِنْ مَنْ سَأَلَ نَفْسَهُ فَتَرَّ عَنْ مُجَاهِدَاتِهِ، وَذَلِكَ سَبَبُ انْقِطَاعِ كُلِّ قَاصِدٍ، وَمَوْجِبُ فِتْرَةٍ كُلِّ مُرِيدٍ.

و ﴿حُطُّوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ مَا يُوَسَّوِسُهُ إِلَيْكَ مِنْ عَجْزِكَ عَنِ الْقِيَامِ بِاسْتِيفَاءِ أَحْكَامِ الْمَعَامَلَةِ، وَتَرْكِ نَزْعَاتٍ لَا عِبْرَةَ بِهَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَفَتَ إِلَيْهَا، بَلْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَيْهِ فِي أَلِيمٍ﴾ [القصص: ٧] ثُمَّ أَبْصَرَ مَا الَّذِي فَعَلَ بِهِ حِينَ أَلْفَقَتْهُ، وَكَيْفَ رَدَّهُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَجَّاهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ زَكَرْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الرَّزْلَةُ الْوَاحِدَةُ بَعْدَ كَشْفِ الْبَرْهَانِ أَقْبَحُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَنْ عُرِفَ فِي الْخِيَانَةِ لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْأَمَانَةِ. وَمَحَنَةُ الْأَكَابِرِ إِذَا حَلَّتْ كَانَ فِيهَا اسْتِثْصَالُهُمْ بِالْكَلِيَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

اسْتَبْطَأَ الْقَوْمُ قِيَامَ السَّاعَةِ فَأَخْبَرُوا عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ بِتَفْصِيلِ مَا ذَكَرَ.

وَتِلْكَ أَعْمَالٌ فِي مَعْنَى الْأَحْوَالِ، يَظْهَرُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَا يَزِيلُ عَنْهُمْ الْإِشْكَالَ فِي عُلُوِّ شَأْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَنَفَازِ قُدْرَتِهِ فِيمَا يَرِيدُ. ﴿وَفُصِّحَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ أَيِ انْهَتْكَ سِتْرُ الْغَيْبِ عَنْ صَرِيحِ التَّقْدِيرِ السَّابِقِ. وَلَقَدْ اسْتَغْنَتْ قُلُوبُ الْمُوَحِّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَارِ الْبَصَائِرِ عَنْ طَلَبِ التَّأْوِيلِ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا إِذِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مُتَنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ انْتِقَالٍ وَزَوَالٍ، وَاخْتِصَاصٍ بِمَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ، تَقْدَسُ عَنْ كُلِّ حَرَكَةٍ وَإِتْيَانٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فَائِدَةُ السُّؤَالِ لِيَقَرَّرَ عَلَيْهِمُ بِالسُّؤَالِ الْحُجَّةَ، لَا لِيُقَرَّرَ لِلرَّسُولِ ﷺ بِسُؤَالِهِمْ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَاضِحِ الْمَحَبَةِ.

﴿وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بِزَوَالِ تِلْكَ النِّعْمَةِ. وَعِنْدَ ذَلِكَ يَعْرِفُونَ قُدْرَهَا، ثُمَّ يَنْدُبُونَهَا وَلَا يَصْلُونَ إِلَيْهَا قَطُّ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

سَتَهْجُرْنِي وَتَتْرَكْنِي فَتَطْلُبْنِي فَلَا تَجِدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مَكْرُوا فَلَمْ يَشْعُرُوا، وَحَمَلَهُمْ اشْتِدَادُ الظُّلْمَةِ عَلَى بَصَائِرِهِمْ عَلَى الْوَقِيعَةِ فِي

أوليائه سبحانه، والسخرية منهم، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (.....) (١)

علموا مَنْ الخاسر منهم مِنَ الذي كان في ضلال بعيد.

قوله جل ذكره: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُتْرِكَ لَهُمْ أَلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ فَهُمْ الْبَائِنَتُ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

يعني الغيبة عن الحق جمعهم، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب ما رزقوا من أنوار البصيرة وحُرموها. ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم، ويمحي الرسل تهود قوم وتَنْصُر قوم، ثم في العقابة يُرَدُّ كل واحد إلى ما سبق له من الممدير، وإن الناس اجتمعوا كلهم في علمه سبحانه ثم تفرَّقوا في حكمه، فقوم هداهم وقوم أغروهم، وقوم حببهم وقوم جذبهم، وقوم ربطهم بالخدلان وقوم بسطهم بالإحسان، فلا يزال المقبولين أمر مكتسب، ولا لمرد المردودين سبب، بل هو حُكْمُ بُتٍ وقضاء جُرم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْكَيْسَ بِمَا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزَقُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

خلق الله الجنة وحققها بالمصائب، وخلق النار وحققها بالشهوات والرغائب، فمن احتشم ركوب الأهوال بقي عن إدراك الآمال. ثم إن الحق سبحانه ابتسى الأولين بشؤون من مقاساة الشدائد، وكل من ألحق بهم من سلب الأولياء أدخلهم في سلبهم، وأدرجهم في غمارهم، فمن ظنَّ غير ذلك فسَوَّابٌ (٢) ماء، وحكم لم يحصل على ما ظنَّ تأويلاً. ولقد مضت سنة الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنَجِّحُونَ بِعُقُودِ الظُّفْرِ إِلَّا بِعَدِ إِشْرَافِهِمْ عَلَى عَرَصَاتِ الْيَأْسِ، فحين طاب بهم الترفُّبُ صادفهم اللطفُ بغتةً وحقق لهم المُبْتَغَى فجأة. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَآلِيتَنِي وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

علموا أن العبد غير مسرور بالفاعلية أن يفعل، فإنَّ العبد ليس له فعل شيء إلا بإذن مولاه فتوقفوا في الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن، لأنَّ العبودية الوقوف حيشما أوقفك الأمر.

(١) بياض في الأصل.

ويقال لم ينفقوا على إشارات الهوى . وإنَّ ما طالعوه تفاصيل الأمر وإشارات الشرع . والواو في هذه الآية في قوله : ﴿وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى﴾ تشير إلى نوع من الترتيب ؛ فالأولى بمعروفك والذاك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذي قاله .

قوله جل ذكره : ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

صبت على النفوس مباشرة القتال ، فبيّن أن راحات النفوس مؤجلة لأنها في حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحات القلوب فإنها معجلة إذ هي في وصف التقريب ، فالسعادة في مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلى ، كما أن السعادة في موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السنة العليا .

وبشرى ضمان الحق باليسر أولى أن تقبل من محذرات هواجس النفوس في حلول العسر وحصول الضر .

قوله جل ذكره : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرَاخِ قُلْ فِيهِ قِتَالٌ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْأَعْرَابِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ﴾ .

من المعاصي ما يكون أشد من غيره وأصعب في المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يوجب ما يوجب على البساط ، فإذا حصلت الزلة بالنفس فأثرها بالعقوبة المؤجلة وهي الاحتراق ، وإذا زلّ القلب فالعقوبة معجلة وهي بالفراق . وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ بَازِغِينَ عَنْ دِينِهِمْ فَمَسَتْ مَا كَانُوا فَالِقَاتِ الْوَعْدِ الْأُولَى وَالْآخِرَةَ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صرفك إلى ما هم عليه من الغفلة ، فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ؛ ومن فسخ مع الله عهده مسح قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

إن الذين صدقوا في قصدهم ، وأخلصوا في عهدهم ، ولم يرتدوا في الإرادة على أعقابهم ، أولئك الذين عاشوا في روح الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾.

الخمر ما خامر العقول، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُّكْر حرام بقوله ﷺ: «حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَالسُّكْرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ»^(١)، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات، فكما أن السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السُّكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود، فمن لم يَصْدُقْ فَلْيُجَرِّبْ.

ومعنى القمار موجود في أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الحيل والخداع والكذب في المقال. وبذل الصدق والإنصاف عزيز.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

قيل العفو ما فضل عن حاجتك، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر كفاياتهم، فأما خواص الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يؤثر به غيره على نفسه وبه فاقه إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذي يؤثر به غيباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَآخِزُونَهُمْ﴾.

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتم من إصلاح مالهم، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع بذل النصيح، و (مفارقة المال من من إرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه على فرضيهم)^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْهُ غَيْرُهُ حَكِيمٌ﴾.

فيُعاملُ كلاً على سواكن قلبه من القُصُود لا على ظواهر كُتُبِهِ من جميع الفنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلِأَمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

(١) أخرجه أبو حنيفة في (جامع مسانيد ١٨٣/٢، ١٨٤).

(٢) ما بين قوسين عبارة مضطربة.

صلة حبلى الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهي إلى أحد يسلك إلى الكفر، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة في فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره، هذا في الكتابيات اللاتي يجوز مواصلةهن، فأما أهل الشرك فحرام مواصلةهم قطعاً، وأوجه مباينتهم في هذا الباب حُكْمُ جَزْمٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرَنَّ فَإِذَا ظَهَرَ فَأْتُوهُنَّ مِمَّا أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور مما هو باختيار العبد، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كسب، وهو ابتداء حكم الحق، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم من تلك الحالة، ثم أُمرنَ باعتزال المُصَلَّى في أوان تلك الحالة، فالمصلى مناج ربّه، فيُحْيِي عن محل المناجاة حكماً من الله لا جُزْماً لهن. وفي هذا إشارة فيقال: إنهن - وإن مُنِعْنَ عن الصلاة التي هي حضور بالبدن فلم يحجب عن استدامة الذكر بالقلب واللسان، وذلك تعرض بساط القرب، قال ﷺ مخبراً عنه تعالى: «أنا جليس من ذكرني»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾.

يقال يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من العيوب.
ويقال التوابين من الزلة، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة.
ويقال التوابين من ارتكاب المحظورات، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات.

ويقال التوابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانكسار.
ويقال التوابين من الزلة، والمتطهرين من الغفلة.
ويقال التوابين من شهود التوبة، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُكُمْ خَرَجُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرِّكُمْ أَنْتُمْ شَرُّكُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوْنَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لما كانت النفوس بوصف الغيبة أباح لها السكون إلى أشكالها إذا كان على وصف الإذن، فلما كانت القلوب في محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات.

(١) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتبهة ٢٤).

﴿وَقَدْ مَوَّأُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم، لذلك قال :
 ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ فانظروا لأنفسكم بتقديم ذا يسركم وجدانه عند ربكم .
 قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ إِنَّكُمْ لَفِي ثَبَرٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾
 الثَّانِي وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

نزهوا ذكر ربكم عن ابتذاله بأي حدث من الحفظ .
 ويقال لا تجعلوا ذكر الله شركاً بينكم وبينه حطام الدنيا .
 قوله جل ذكره : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّسْوَةِ فِي أَيْمَانِكُمْ أَكُنْتُمُ يَاطِرَ يَأْتِيكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ﴾ وَاللَّهُ
 عَزِيزٌ حَلِيمٌ .

ما جرى به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطر في الخير والشر،
 ولكن ما انطوت عليه الضمائر، واحتوت عليه السرائر، من قصود صحيحة، وعزائم
 قوية فذلك الذي يزج به إن كان خيراً فجزاءه جميل، وإن كان شراً فعناءه طويل .
 قوله جل ذكره : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّعُ أَرْبَعَةٍ أَشْهُرٍ﴾ .

إذا كان حتى صحبة الأشكال محفوظاً عليك - حتى لا أخللت به - وأخذك بحكمه :
 فحق الحق أحق بأن تجب مراعاته . «فإن فاؤوا» أي رجعوا إلى إحياء ما أماتوا، واستدراك
 ما ضيئوا ف﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَلِيمٌ﴾ فلما تقاصر لسان الزوجة - لكونها أسيراً في يد الزوج
 - أزل الله - سبحانه - الأمر بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .
 قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إن مل حق صحبتها، وأكد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره،
 فإن بدا له باد من ندم فلا يلبس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلقها .
 ولما كان الفراق شديداً عزى المرأة بأن قال إنه ﴿السَّمِيعُ﴾ أي سمعنا موحش
 تلك القالة، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَرْجِعْنَ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَ قُرُوءٍ﴾ .

أمر المطلات بالعودة احتراماً لصحبة الأزواج، يعني إن انقطعت العلاقة بينكما
 فأقيموا على شرط الوفاء لما سلف من الصحبة، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة؛
 فاصبروا حتى يمضي مقدار من المدة. ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة
 حيث لم تقم بينهما صحبة؟

ثم قال جل ذكره : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَكُنْ مِمَّا يَكُنْنَ مَا حَلَّ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

يعني إن اقطع بينكما سبب فلا تقطعوا ما أثبت الله من النسب.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾.

يعني من سبق له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع في النكاح من الثلثة.

﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾.

يعني أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة

عليها بأن يعزم على طلاقها به ما أرجعها.

﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾.

يعني إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال.

﴿وَلَهُنَّ أَهْقُ بِرِّهِنَّ﴾.

في التمضية، ولهن مزية في الضعف وعجز البشرية.

قوله جل ذكره: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾.

ندب إلى تفريق الطلاق فلا تسارع إلى إتمام الفراق، وقيل في معناه:

إِنْ تَبَيَّنْتُ أَنَّ عَزْمَكَ قَتْلِي فَذَرِينِي أَهْمَنِي قَلِيلًا قَلِيلًا

ثم قال جل ذكره: ﴿فَإِنْ سَأَلْتَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَعَنَ اللَّهُ عَصَاكِ وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ بِأَفْوَاحِكُمْ﴾.

إما صحبة جميلة أو فُرقة جميلة. فأما سوء العشرة بعد ذلك لذة العيش بالأخلاق

الذميمة غير مَرْضِي في الطريقة، ولا محمود في الشريعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَوَاسِئِكُمْ فَمَا تَيَمَّمْنَ شَيْئًا﴾.

فإن في الخبر «العائد في نيته»^(١) والرجوع فيما خرجت عنه حِسَّة.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/٢١٥)، وأبو داود في (السنن ٣٥٣٨)، والنسائي في (السنن ٦/٢٦٦، ٢٦٧)، والرقبي ب ٢، وابن ماجه في (السنن ٢٣٨٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/٣٢٧)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٦/١٨٠)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/٣٥٢، ١١/٤٦٦، ١٧٩، ٣٢٧، ٣٤٤)، والهشمي في (مجمع الزوائد ٤/١٥٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٦١٦٤، ٤٦١٧٥)، والبغوي في (شرح السنة ٨/٢٩٥)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٢٨٨)، والزبيري في (نصب الراية ٤/١٢٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/٢٣٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٦/٦٢)، وابن عبد البر في (التمهيد ٧/٢٤٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٦/٤٧٨)، والعقيلي في (الضعفاء ٣/٤٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/٥٤)، والطبراني في (المعجم الصغير ٢/١١٤)، (وصاحب شرح معاني الآثار ٤/٧٧)، والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين ١٥)، وابن الجارود في (المنتقى ٩٩٣).

ثم قال جلّ ذكره: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

يعني إن أرادت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال، فإن النفس تساوي لصاحبها كل شيء، والرجال إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقل من ذلك، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. هذه آداب يُعَلِّمُكُمُهَا اللَّهُ وَيَسْتُهَا لَكُمْ، فحافظوا على حدوده، وداوموا على معرفة حقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا﴾. الرجل يُشَقُّ عليه أن ينكح زوجته غيره فمنعه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُغْيَة المنع لما بيّن أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثاني لِيُخَذَرَ الطلاق ما أمكنه. ثم قال: «فَإِنْ طَلَّقَهَا» يعني الزوج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ يعني تزوج بالزوج الأول.

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يُهَوِّنُ مَقَاسَةَ كُلِّ شَدِيدَةٍ؛ فلو انطوى الزوجان بعد الفُرقة على التَحَسُّرِ على ما فاتهما من الوصلة، وندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا، والمرأة في هذه الحالة كأنها (.. .) ^(١) من الزوج الأول بمكان الزوج الثاني والزوج كالآتي على نفسه في احتمال ذلك.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿إِنْ طَلَّأَ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. يعني لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه، قال قائلهم:

ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ألا أعود إلى فراقك ثانية
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأُنِيسُوهُنَّ مِمَّنَّ هُنَّ مِمَّنَّ مَعْرُوفٌ وَلَا تُنِيسُوهُنَّ فِي مَنَازِلِكُنَّ لِيَعْتَدُوا وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْدِي اللَّهِ هُزُوًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تضمنت الآية الأمر بمحسن العشرة، وترك المغايظة مع الزوجة، والمحك على وجه اللجاج؛ فإِذَا تخلية سبيل من غير جفاء أو قيام بحق الصحبة على شرط الوفاء.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تضمنت الآية نهي الأولياء عن مضارتهن، وترك حمية الجاهلية، والانقياد لحكم الله في تزوج النساء إن أردن النكاح من دون استئجار الأنفة^(١) والحمية. بل إذا رضيت بكفو يخطبها فحرام عليكم ظلمها. والتذويب عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشد مجاهدة وأصدق معاملة لله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾. غاية الرحمة التي يضرب بها المثل رحمة الأمهات؛ فأمر الله سبحانه الأمهات بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حولين كاملين، وقطع الرضاعة عنه قبل الحولين إشارة إلى أن رحمة الله بالعبد أتم من رحمة الأمهات.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. يعني الأب عليه رزقهن وكسوتهن - أي الممرضعات - بالمعروف. لما يتبين عنك وجب حقهن عليك، فإن من لك كله فعليك كله.

ثم قال جل ذكره: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾. إدخار المستطاع بخُل، والوقوف - عند العجز - عذر.

ثم قال جل ذكره: ﴿لَا تُضَاكِرُ وَلِدَةً يُولَدُهَا﴾. في الإرضاع وما يجب عليه.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُوهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

يعني الوالد بولده يعني فيما يلزم من النفقة والشفقة. فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود.

ثم قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يعني فطاماً قبل الحولين، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح. اشتملت الآية على تمهيد طريق الصحبة، وتعليم محاسن الأخلاق في أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ.

(١) الأنفة: العزة والحمية.

وقال ﷺ لمن ذكر أنه لم يُقَبَّل أولاده: «إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقي»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لَمَّا كَانَ حَقُّ الْمَيِّتِ أَعْظَمَ لِأَن فِرَاقَهُ لَمْ يَكُنْ بِإِلْخِيَارٍ كَانَتْ مَدَةُ الْوَفَاءِ لَهُ أَطْوَلَ. وَكَانَتْ عِدَّةُ الْوَفَاءِ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ سَنَةً، ثُمَّ رُدَّتْ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ لِتَتَحَقَّ بَرَاءَةُ الرَّحِمِ عَنِ مَاءِ الزَّوْجِ، ثُمَّ إِذَا انْقَضَتْ الْعِدَّةُ أُبِيحَ لَهَا التَّزْوِجُ بِزَوْجٍ آخَرَ. وَالْمَيِّتُ لَا يَسْتَدِيمُ وَفَاءَهُ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ أَحَدٌ كَمَا قِيلَ:

وَكَمَا تَبْلَى وَجُودَ فِي الشَّرَى فَكَذَا يَبْلَى عَلَيْهِنَ الْحَزَنُ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَبْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

أُبِيحَ مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ فِيهِ اسْتِجْلَابٌ لِلْمُودَةِ، وَتَأْسِيسٌ لِحَالِ الْوَصْلَةِ. وَحُرِّمَ مِنْهُ مَا فِيهِ ارْتِكَابُ الْمُحْظُورَاتِ مِنَ الْإِمَامِ بِذَنْبٍ أَوْ عِدَّةٍ بِجُرْمٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.
أَيُّ تَنْقِضِي عِدَّةِ الْأَوَّلِ فَإِنْ حُزِمَ الْمَاضِي لَا تَضِيعُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

إِنْ ابْتِلَاءٌ تَمَّ بِوَصِيلَةٍ أَشْكَالِكُمْ ثُمَّ بَدَالِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي اخْتِيَارِ الْفِرْقَةِ - إِذَا أَرَدْتُمْ - فَإِنَّ الَّذِي لَا يَجُوزُ اخْتِيَارَ فِرْقَتِهِ - وَاحِدٌ؛ فَأَمَّا صَحْبَةُ الْخَلْقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فَلَيْسَ بِوَاجِبٍ، بَلْ غَايَةُ وَصْفِهِ أَنَّهُ جَائِزٌ.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِنَ اسْمُكُمْ فَانْصَفَ الْمَسْمَى يَجِبُ لَهُنَّ، فَإِنَّ الْفِرَاقَ - كَيْفَمَا كَانَ - فَهُوَ شَدِيدٌ، فَجَعَلَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعَوْضِ كَالْخَلْفِ لَهَا عِنْدَ تَجَرُّعِ كَأْسِ الْفِرْقَةِ.
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْمَى فَلَا يَخْلُو الْعَقْدُ مِنْ مَتْعَةٍ؛ فَإِنْ تَجَرَّعَ الْفِرْقَةَ - مُجَرِّدًا عَنِ الرَّاحَةِ - بَلَاءٌ عَظِيمٌ.

(١) أخرجه أبو داود (أدب ٥٨)، والترمذي (بز ١٦)، وأحمد بن حنبل ٣٠١/٢، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَمَنْدَ فَرَضْتُمْ مِنْهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوَّيْعُوَ الَّذِي يَدِيهِ عُقْدَةُ الْكَفَّ وَالَّذِي يَقْرَبُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن، إمّا من جهة المرأة في النصف المستحق لها، أو من قبل الزوج في النصف العائد إليه.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فعن قريب يخل بالفرض.

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل، وإن من سُنّة الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشحذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم في اقتناء أسباب الفضل.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهيبة، ويخرج بالتعظيم، ويستديم بدوام الشهود بنعت، الأدب، والصلاة الواسطة أيهم ذكرها على البيت لتراعي الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هي لثلا يقع منك تقصير في شيء منها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

أي لا تخلصوا بمناجاتي لأوقاتها على الوصف الذي أمكنكم فإن ما تحسونه من أعدائكم أنا سلطتهم عليكم، فإذا خلوتكم بي بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم، وجعلت لكم الظفر عليهم، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم في الاعتكاف بحضرتي سرّاً وجهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَقْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

كانت عِدّة الوفاة في ابتداء الإسلام سنة مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث يقول قائلهم:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومن لبّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر
ثم نُسِخ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد ولقد
قال قائلهم:

قال: لو ميت لم أعش قلت: نافقت فاسكت

أَي حَيِّ رَأَيْتَهُ مَاتَ وَجَدًا بِمَيِّتٍ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الدلائل، فتأدبوا بما أشير عليكم، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حكيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

لما استبعدوا قدرة الله في الإعادة أراهم في أنفسهم عياناً، ثم لم ينفع إظهار ذلك لِمَنْ لم يشحذ بصيرته في التوحيد. ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أخبروا، لما آمنوا به بالغيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يعني إن مَسَّكُمْ أَلَمٌ فتصاعد منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لأنينكم، عليم بأحوالكم، بصير بأموركم. والآية توجب تسهيل ما يقاسونه من الألم، وقالوا:

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحَةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمع.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

سُمِّي القرض قرضاً لأنه يقطع من ماله شيئاً ليعطيه للمقرض، والمتصدق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً، فالقرض القطع، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحباب حيث خاطبك في باب الصدقة باسم القرض ولفظه.

ويقال دلت الآية على عِظَم رتبة الغِنَى حيث سأل منه القرض، ولكن رتبة الفقير في هذا أعظم لأنه سأل لأجله القرض، وقد يسأل القرض من كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد. وفي الخبر «مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند أبي شحمة اليهودي على شعير أخذه لقوت عياله أَبْصَرَ مِمَّنْ اقترض ولأجل مَنْ اقترض»^(١).

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطلب بسببه العِوَض.

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة، وإنما يعطى عن شهود.

(١) أخرجه البخاري (جهاد ٨٩)، (مغازي ٨٦)، والترمذي (بيوع ٧)، والنسائي (بيوع ٥٨، ٨٣)، وابن ماجه (رهون ١)، والدارمي (بيوع ٤٤)، وأحمد بن حنبل ٢٣٦/١، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٦١، ٣/١٠٢، ١٣٣، ٢٠٨، ٢٣٨، ٤٥٣/٦، ٤٥٧.

ويقال القرض الحسن من العلماء إذا كان عند ظهر الغني، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لا بد منه.

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خُمسة، وعلى لسان القوم بذل الكل، وزيادة الروح على ما يبذل.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَصْطُطُّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله، ويبسط عليهم بسط خلفه.

ويقال يقبض الرزق أي يُضَيِّق، يبسط الرزق أي يوسع؛ يقبض على الفقراء ليمتحنهم بالصبر، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر.

ويقال يقبض تسليّة للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء، ويبسط لئلا يتقلدوا الميثة من الأغنياء.

ويقال قال للأغنياء: إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تذروهم، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم.

ويقال قَبَضَ القلوب بإعراضه وبَسَطَهَا بإقباله.

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء.

ويقال القبض لقهره والبسط لبرّه.

ويقال القبض لسرّه والبسط لكشفه.

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرادين.

ويقال القبض للمتسابقين^(١) والبسط للعارفين.

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به.

ويقال القبض حقه، والبسط حظك.

ويقال القبض لمن تولّى عن الحق، والبسط لمن تجلّى له الحق.

ويقال يقبض إذا أشهدك فِعْلَكَ، ويبسط إذا أشهدك فضله.

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَئِنْ لَمْ يَنْجَوْا لَهُمْ

أَنْتَ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

استقبلوا الأمر بالاختيار، واقترحوا على نبيهم بسؤال الإذن لهم في القتال، فلمّا

(١) ربما «المتسابقين» إشارة إلى سورة الواقعة آية ١٠: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

أجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التكاسل، وعرجوا في أوطان التجادل والتغافل. ويقال إنهم أظهروا التصلب والجِد في القتال ذَبًّا عن أموالهم ومنازلهم حيث:

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يخلص - لحق الله - عزمهم، ولو أنهم قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله لأنه قد أمرنا، وأوجب علينا، فإنه سيدنا ومولانا، ويجب علينا أمره - لعلهم وفقروا لإتمام ما قصدوه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُكُمْ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له، فبين لهم أن الفضيلة باختيار الحق، وأنه وإن عديم المال فقد زاده الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرذ عظيم البنية فإن في المثل: «فلان اسم بلا جسم» أي ذكر بلا معنى.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمده بنأييد من قبله، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيهم في اختياره، فرد عليهم التابوت الذي فيه السكينة، فاتضحت لهم آية ملكه، وأن نبيهم عليه السلام صدقهم فيما أخبرهم.

ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بني إسرائيل في التابوت الذي رَضُوا عن الألواح، وعصا موسى عليه السلام، وأثار صاحب نبوتهم. وجعل سكينة هذه الأمة في قلوبهم، فقال: «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» ثم إن التابوت كان تتداوله أيدي الأعداء وغيرهم؛ فمرة كان يُدْفَن ومرة كان يُغَلَب عليه فيُحْمَل، ومرة يُرَد ومرة ومرة... وأما قلوب المؤمنين فَحَالٌ بين أربابها وبينها، ولم يستودعها ملكاً ولا نبياً، ولا سماء ولا هواء، ولا مكاناً ولا شخصاً، وقال ﷺ:

«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١) يعني في قبضة الحق سبحانه، وتحت تغليبهِ وتصريفهِ، والمراد منه «القدرة»، وشتان بين أمة سكينتهم فيما للأعداء عليه تَسَلُّطُ وأمة سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه لِسْطَانُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾.

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخلق بصحبة الخلق وبالدنيا وبالنفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدّ الاضطراب بمقدار القوام، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ^(٢)، ومن جاوز حد الاضطراب وانبسط في صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس والخلق بموجب الشهادة والاختيار - فليس من الله في شيء إن كان ارتكاب محظور، وليس من هذه الطريق في شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ.

ثم قال جلّ ذكره: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾.

كذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يجعل قدرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فَدَاخَلَهُمْ شيء من رعب البشرية، فربط الله على قلوبهم بما ذكّره من نصرته الحق سبحانه لأوليائه إذا شاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

لا بهم ولكن بإذن الله، بمشيئته وعونه ونصرته، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَسِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو، ثم بعده النصره عليهم، فإن الصبر حق الحق، والنصرة نصيبهم، فقدّموا تحقيق حقه - سبحانه - وتوفيقه لهم، ثم وجود

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٨/٢، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ٩٩/١)، والطبري في (التفسير ١٢٦/٣)، وابن عساکر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/٢٥٥٧).

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٢، ٨٣.

حظهم من النصرة، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصرة عليهم - لا للانتقام منهم لأجل ما فاتهم من نصيبهم - ولكن لكونهم كافرين، أعداء الله.
فقاموا بكل وجه لله بالله؛ فلذلك نصروا ووجدوا الظفر.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾.

هيب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدي داود. وكان كما في القصة رُبْع القامة غير عظيم الجثة، مختصر الشخص، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلع، ولكن الظفر كان له لأن نصرة الله سبحانه كانت معه.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فلم يبق منهم أثر ولا عين، وقتل داود جالوت وداود بالإضافة إلى جالوت في الضخامة والجسامة كان بحيث لا تتوهم غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدا معذول

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

لو تظاهر الخلق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بتشاغلهم شرهم عن قوم.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

لم يكن في علمك ولا في وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التي سلفت، وإنما وقفت عليها بتعريف من قبِل الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الرُّسُلِ فَذَلَّلْنَا بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا في خصائص التفضيل، لكل واحد منهم أنوار، ولأنوارهم مطارح، فمنهم من هو أعلى نورا، وأتم من الرفعة وفورا. فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم، بل حُكْم بالحسنى أدركهم، وعاقبة بالجميل تداركتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ

اٰخْتَلَفُوْا فَيَنْتَهُم مِّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اَفْتَنَلُوْا وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيْدُ ﴿٦٤﴾

ولكنهم مُصْرَفُونَ بالمشيئة الأزلية، ومسلوبون من الاختيار الذي عليه المدار وبه الاعتبار. والعبودية شُدُّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

يعني اغتنموا مساعدة الإمكان في تقديم الإحسان قبل فتور الجلد وانقضاء الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

«الله» اسم تفرّد به الحق - سبحانه فلا سميّ له فيه. قال الله تعالى: ﴿هَلْ نَقُلُّ لَكَ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] أي هل تعرف أحداً غيره تسمّى «الله»؟.

من اعتبر في هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمعارض، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال لا على اشتقاق الألفاظ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال.

قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: إخبار عن نفي النظير والشبيه، بما استوجب من التقديس والتنزيه. ومن تحقق بهذه القالة لا يرى ذرّة من الإثبات بغيره أو من غيره؛ فلا يرفع إلى غيره حاجته، ولا يشهد من غيره ذرة، فيُضدّقُ إليه انقطاعه، ويدّيم لوجوده انفرادَه، فلا يسمع إلا من الله وبالله، ولا يشهد إلا بالله، ولا يُقْبَلُ إلا على الله، ولا يشتغل إلا بالله، فهو محوّ عما سوى الله، فَمَالُهُ شكوى ولا دعوى، ولا يتحرك منه لغيره عِزٌّ، فإذا استوفى الحق عبداً لم يَبْقَ للحفظ - البتة - مساع.

ثم إن هذ القالة تقتضي التحقق بها، والفناء عن الموسومات بجملتها، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق - سبحانه، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعد، فإن ذلك أجمع آفات لا تليق بالقَدَم.

وقوله: ﴿الحَيُّ الْقَيُّومُ﴾: المتوليّ لأمر عباده، القائم بكل حركة، و (المحوي)، لكل عين وأثر.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أحدي لا ترهقه غفلة، وصمد لا تمسه علة، وعزيز لا تقاربه قلة، وجبار لا تميزه عزلة، وفَرْدٌ لا تضمه جثة، ووتر لا تحده جهة، وقديم لا تلحقه آفة، وعظيم لا تدركه مسافة.

تَقْدَسُ مِنْ جَمَالِهِ جَلَالُهُ، وَجَلَالُهُ جَمَالُهُ، وَسَنَاوُهُ بَهَاوُهُ، وَبَهَاوُهُ سَنَاوُهُ، وَأَزَلُهُ أَبَدُهُ، وَأَبَدُهُ سَرْمَدُهُ، وَسَرْمَدُهُ قَدَمُهُ، وَقَدَمُهُ وَجُودُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَمْ يَمَعْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ملكاً وإبداعاً، وخلقاً واختراعاً.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

من ذا الذي يتنفس بنفس (.. .)^(١) إلا بإجرائه، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه. ومن ظنّ أنه يتوسل إليه باستحقاق أو عمل، أو تدلل أو أمل، أو قرينة أو نسب، أو علة أو سبب - فالظنّ وطنه والجهل مألّفه والغلط غايته والبعد قُصاراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

لأنه لا يخرج عن علمه معلوم، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

يعني من معلوماته، أي تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه. فأبي طمع لها في الإحاطة بذاته وحقه؟ وأنتى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه في عزّه أمد، ولا يدركه حد؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

خطاب لهم على قدر فهمهم. وإلا فأبي خطرٍ للأكوان عند صفاته؟

جلّ قدره عن التعزز بعرش أو كرسي، والتجمل بجنٍ أو إنسي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يُؤْذُوا حِفْظُهُمْ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

كيف تُثعب المخلوقات من خلق الذرة والكون بجملته - لو سواء؛ فلا من القليل له تيسر، ولا من الكثير عليه تعسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

فإن الحجج لائحة، والبراهين ظاهرة واضحة.

﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضياءه، والحقوق الأزلية معلومة، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العدم.

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾.

وطاغوت كل واحد ما يشغله عن ربه.

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾.

والإيمان حياة القلب بالله.

﴿فَقَدْ اسْتَسَمَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾.

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهي، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

﴿لَا أَنْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فمن تحقق بها سرّاً، وتعلّق بها جهراً فاز في الدارين وسعد في الكونين.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الولي بمعنى المتولي لأموالهم، والمتفرد بإصلاح شؤونهم، ويصح أن يكون الولي على وزن فاعيل في معنى المفعول فالمؤمنون يقولون طاعته. وكلاهما حق: فالأول جمع والثاني فرق، وكلّ جمع لا يكون مقيداً بفرق وكلّ فرق لا يكون مؤيداً بجمع فذلك خطأ وصاحبه مبطل^(١) والآية تُحمّل عليهما جميعاً.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

يعني بحكمه الأزلي صانهم عن الظلمات التي هي الضلال والبدع، لأنهم ما كانوا في الظلمات قط في سابق علمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ما استهواهم من دواعي الكفر.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

باستيلاء الشبه على قلوبهم، فيجحدون الربوبية، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً.

ويقال يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره.

ويقال يخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم يتوسلون أو يصلون إليه بشيء من سكناتهم وحركاتهم.

ويقال يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلّ أنفسهم ويدخلهم في ظل عنايته.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٦.

ويقال يخلصهم عن حساب النجاة بهم .

ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْطِي وَيُعِيتُ قَالَ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ١٢٠﴾ .

عَجَّلَ الحق سبحانه لأعدائه عقوبة الفرقة قبل أن يعاقبهم بالحرقة، وهذه العقوبة أشد أثراً في التحقيق - لو كانت لهم عين البصيرة . وإن الحق سبحانه أخبر أن إبراهيم عليه السلام انتقل مع العدو اللعين من الحجة الصحيحة إلى أخرى، أَوْضَحَ منها - لا لِيُخَلِّلَ في الحجة - ولكن لقصور في فهم الكافر، ومحكٌ مَنْ سُدَّتْ بصائرُه عن التحقيق تضييع الوقت بلا فائدة تُجِدِّي، لا بمقدار ما يكون من الحاجة لأمر لا بُدَّ منه .

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْطِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢١﴾ .

لم يكن لك سؤال جحد، ولا قضية جهل، ولا دلالة شك في القدرة، فإن هذا الخبر عن عُزْرِ النبي عليه السلام، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الشك والجهل، ولكنه كان سؤال تعجب، وأراد بهذه المقالة زيادة اليقين، فأراه الله ذلك في نفسه، بأن أماته ثم أحياه ثم بعث حماره وهو ينظر إليه، فازداد يقيناً على يقين . وسؤال اليقين من الله، والحيلة في ردِّ الخواطر المشككة، دَيْدُنُ^(١) المتعرفين، ولذلك (...)^(٢) الله سبحانه عُزيراً في هذه المقالة حتى قَدَّرَ عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال ﴿واعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ من الإحياء والإماتة أي ازدادت معرفة بذلك، وأراني من عظيم الآيات ما ازداد به يقيناً؛ فإنَّ طعامه وشرابه لم يتغيرا في طول تلك المدة، وحماره مات بلا عظام والطعام والشراب بالتغيير أولى .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ تَوْحِينَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٢٢﴾ .

(١) الديدن: العادة والدأب .

(٢) بياض في الأصل .

قيل كان في طلب في زيادة اليقين، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلًا من عين اليقين^(١).

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ ۖ كُنتَ أَوْمَنَ وَلَكِنِّي اشْتَقْتُ إِلَىٰ قَوْلِكَ لِي: أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ، فَإِنْ بِقَوْلِكَ لِي: ﴿أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ تطميناً لقلبي. والمحِبُّ أبداً يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

وقيل: إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وإن موسى - عليه السلام - لما سأل الرؤية جهراً وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فَرَدَّ بالجهر صريحاً وقيل له ﴿لَنْ تَرَنِي﴾.

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور، وفي الطيور الأربعة طاووس، والإشارة إلى ذبحه تعني زينة الدنيا، وزهرتها، والغراب لجرحه، والديك لمشيته، والبط لطلبه لرزقه.

ولما قال إبراهيم عليه السلام ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾؟ قيل له: وأرني كيف تذبح الحي؟ يعني إسماعيل، مطالبة بمطالبة. فلماً وُقِيَ بما طولب به وُقِيَ الحق سبحانه بحكم ما طلب.

وقيل كان تحت ميعاد من الحق - سبحانه - أن يتخذ خليلاً، وأمانة ذلك إحياء الموتى على يده، فجرى ما جرى.

ووصل بين قصة الخليل ﷺ فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عَزِيرَ إِذْ أَرَاهُ فِي نَفْسِهِ؛ لأن الخليل يَرْجُحُ على عزيز في السؤال وفي الحال، فإن إبراهيم - عليه السلام - لم يَرُدَّ عليه في شيء ولكنه تَلَطَّفَ في السؤال، وعَزِيرَ كلمه كلام من يُشَبِّهُ قوله قولَ الْمُسْتَبْعِدِ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتم دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التمس على نمرود ما قال إبراهيم - عليه السلام - ربي الذي يحيي ويميت، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد إبراهيم أن يُرِيَهُ الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذي ادَّعى.

وفي هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادة اليقين من الله سبحانه وتعالى في حال النظر.

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام، فقيل له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ يعني أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شيء رأيتُه ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] فلم تَذَرِ كيف بَلَّغْنَاكَ إلى هذه الغاية، فكَذَلِكَ يوصلك إلى ما سَمَّيْتُ إِلَيْهِ هِمَّتُكَ.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٥ و ٣١١ - ٣١٧.

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعني النفس؛ فَمَنْ لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يَخَيِّ قلبه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قَطَعَ بيدك هذه الطيور، وَفَرَّقْ أجزاءها، ثم ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا، فما كان مذبحاً بيد صاحب الخلعة، مقطوعاً مُفَرَّقاً بيده - فإذا ناداه استجاب له كل جزء مُفَرَّقٌ . . كذلك الذي فَرَّقَهُ الحق وشَتَّتَهُ فإذا ناداه استجاب :

ولو أَنَّ فَوْقِي تُرْبَةً وَدَعَوْتَنِي لَأَجِبْتُ صَوْتَكَ وَالْعِظَامُ رُفَاتٌ^(١)

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

فَالْخَلْفُ لَهُمُ الْجَنَّةُ، والذين ينفقون أرواحهم في سبيل الله فَاَلْخَلْفُ عَنْهُمْ الْحَقُّ سبحانه، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته، وَمَنْ أنفق حاله فوجد قربته؛ فَإِنْفَاقُ الْمَالِ فِي سَبِيلِهِ بِالْصَّدَقَةِ، وَإِنْفَاقُ الْأَحْوَالِ فِي سَبِيلِهِ بِمِلَازِمَةِ الصَّدَقِ، وبِنَفْيِ كُلِّ حَظٍّ وَنَصِيبٍ، فترضى لجريان حكمه عليك من غير تعيس القلب، قال قائلهم:

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

والإنفاق على ضربين: إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أمَّا العابدون فإذا أنفقوا حَبَّةً ضَاعَفَ لَهُمْ سَبْعِينَ إِلَى مَا لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ، وَأَمَّا الْوَاجِدُونَ فَمَا قِيلَ:

فَلَا حَسَنٌ نَّاتِي بِهِ يَقْبَلُونَهُ وَلَا إِنْ أَسَانَا كَانَ عِنْدَهُمْ مَحْوٌ

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

الْمَنْ شَهِدَ مَا تَفْعَلُهُ، وَالْأَذَى تَذَكِيرُكَ - لِمَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ - إِحْسَانُكَ .

وَيَقَالُ يَنْفِقُونَ مَا يَنْفِقُونَ ثُمَّ لَا يَشْهَدُونَ أَلْبَتَ أَعْمَالَهُمْ وَلَا أَعْمَالَهُمْ .

وَيَقَالُ كَيْفَ يَمْنُونَ بِشَيْءٍ تَسْتَغْذِرُونَهُ وَتَسْتَحَقُّونَهُ .

وَيَقَالُ لَا يَمْنُونَ بِفَعْلِهِمْ بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَنَّةَ اللَّهُ بِتَوْفِيقِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَفِيفٌ

حَلِيمٌ﴾ .

يعني قَوْلٌ - للفقير المجرد - يرد به من تعرض له بإظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجبِ بفعله، وما يتبع من إلزام المنة فيه .

(١) الرُّفَاتُ: الحُطَامُ أي كل ما تكسر وبلي فتفتت .

لينظر كل واحد ما الذي ينفقه لأجل نفسه، وما الذي يخرج به بأمر ربه. والذي يخرج عليك من ديوانك: فما كان لحظك ففائس ملكك، وما كان لربك فخصائص مالك الذي لله (فَاللَّقْمَةُ لِقْمَتُهُ)، والذي لأجلك فأكثرها قيمة وأكملها نعمة.

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه، بل أبصر كيف يقبله منك، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك؛ الكل منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً، ثم يُولي عليك عطاءه ويسمي العطاء جزاءً، يوسعك بتوفيقه برأً، ثم يملأ العالم منك شكراً.

قوله جل ذكره: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يَعِدُ الشَّيْطَانُ الْفَقْرَ لفقره، والله يَعِدُ المغفرة لكرمه.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الْفَقْرَ فيشير عليكم بإحراز المعلوم، ويقال يشير عليكم - بطاعته - بالحرص؛ ولا فقر فوقه.

يَعِدُكُم الْفَقْرَ بالإحالة على تدبيركم واختياركم.

يَعِدُكُم الْفَقْرَ بنسيان ما تَعَوَّذْتُمُوهُ مِنْ فضله - سبحانه.

ويقال يَعِدُكُم الْفَقْرَ بأنه لا يزيد شكائتك.

ويقال يَعِدُكُم الْفَقْرَ بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه.

ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي الرغبة في الدنيا، ويقال بالأسباب التي تقوي

الحرص، ويقال بكثرة الأمل ونسيان القناعة، ويقال بمتابعة الشهوات، ويقال بإيثار الحظوظ، ويقال بالنظر إلى غيره، ويقال بإخطار شيء سواه ببالك.

ويقال بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق.

ويقال بالرجوع إلى ما تركته الله.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾: الفضل الموعود - في العاجل - القناعة، وفي

الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (....) ^(١) والغفران.

ويقال في العاجل الظفر بالنفس، ويقال فتح باب العرفان، ونشر بساط القرب،

والتلقي لمكاشفات الأنس.

قوله جل ذكره: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا

وَمَا يَدَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

الحكمة: يحكم عليكم خاطر الحق لا داعي النفس، وتحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان.

ويقال الحكمة صواب الأمور.

ويقال هي ألا تحكم عليك رعونات البشرية.

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره).

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى، والسفاهة مخالفة أمره.

ويقال الحكمة شهود الحق والسفاهة شهود الغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

قوم توعدهم بعقوبته، وآخرون توعدهم بمثوبته... وآخرون توعدهم بعلمه؛ فهؤلاء العوام وهؤلاء الخواص. قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] فلا شيء يوجب سقوط العبد من عين الله كمخالفته لعهوده معه بقلبه، فليحذر المريد من إزلال^(١) نفسه في ذلك غاية الحذر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعَائِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

إن أظهرت صحتك معنا وأعلنت فلقد جوذت وأحسن، وإن حفظت سرتنا عن دخول الوسائط بيننا ضنت شروط الوداد، وشيدت من بناء الوصلة العماد.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

لك المقام المحمود، واللواء المعقود، والرتب الشريفة، والمنازل العلية، والسنن المرضية. وأنت سيد الأولين والآخرين، ولا يدانيك أحد - فضلاً عن أن يساميك، ولكن ليس عليك هداهم فالهداية من خصائص حقنا، وليس للأغيار منه شطية. يا محمد: أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم.

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُوا ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْعَقْفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

(١) أزله: حمله على ارتكاب الذنب أو الخطيئة.

أخذ عليهم سلطان الحقيقة كل طريق، فلا لهم في الشرق مذهب، ولا لهم في الغرب مضرب. كيفما نظروا رأوا سرادقات^(١) التوحيد محدقة بهم:

كَأَنَّ فَجَاجَ الْأَرْضِ ضَاغَتْ بِرَحِيحِهَا عَلَيْهِمْ فَمَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرْضًا
ولا يسلم لهم نفس مع الخلق، وأنى بذلك ولا خَلَقَ!! وإذا لم يكن فإثبات ما
ليس نَبْرُكُ (.....)^(٢) في التوحيد.

والفقير الصادق واقف مع الله بالله، لا إشراف للأجانب عليه، ولا سبيل
لمخلوق إليه تنظره عين الأغيار في لبسة سوى ما هو به؛ قال تعالى: ﴿يَحْجُبُهُمُ
الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾ فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من
أحراهم. تعرفهم يا محمد - أنت - بسيماهم، فليست تلك السيماء مما يلوح للبصر
ولكنها سيماء تدركها البصيرة. لا إشراف عليهم إلا بنور الأحدية.

ويقال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾: استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم، وصياح
أسرارهم إلى العرش (نشاطاً عنه) عند ذبول ظاهريهم عن الانتعاش.

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس
إلحافاً، فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال - لما يشير إليه دليل الخطاب
- فذلك صيانة لهم ولسرقتهم، لئلا يلاحظهم الخلق بعين السؤال، وليس على
سرهم ذرة من الإثبات للأغيار.

ويقال: ﴿أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وقفوا على حكم الله، وأخضروا
نفوسهم على طاعته وقلوبهم على معرفته، وأرواحهم على محبته، وأسرارهم على
رؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْإِثْمِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ما دام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً، فإذا نفذ المال لا يفترون
عن شهوده لحظة ليلاً ونهاراً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ
مِنَ الْمَمَنِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ
فَأَنشَأَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١) السرادقات: (ج) السرادق: ما يمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار. أو هو الخيمة الواسعة.

(٢) بياض في الأصل.

مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْأَمْرِ، وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ بِمَا يَسْأَلُهُ لَهُ خَاطِرُهُ مِنَ التَّأْوِيلِ فَلَا اسْتِقْلَالَ لَهُمْ فِي الْحَالِ وَلَا اتِّعَاشَ فِي الْمَالِ؛ خَسِرُوا فِي عَاجِلِهِمْ وَلَمْ يَرْبِحُوا فِي آجِلِهِمْ .
وَمَنْ اتَّبَعَ بِزَوَاجِرِ الْوَعظِ، وَكَبَّحَ لِحَاجَمِ الْهَوَى، وَلَمْ يُطْلِقْ عَنَانَ الْإِصْرَارِ فَلَهُ الْإِمْهَالُ فِي الْحَالِ، فَإِنْ عَادَ إِلَى مَذْمُومِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ فَلْيَنْتَظِرُوا أَوْشَكَ الْإِسْتِصَالَ وَفَجَاءَ النَّكَالُ .

قوله جل ذكره: ﴿يَمَحُقْ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ .

ما كان بإذن منه - سبحانه - من التصرفات فمقرون بالخيرات، ومصحوب بالبركات . وما كان بمتابعة الهوى يُسَلِّطَ عليه المَحْقُ، وكانت عاقبة أمره الخسران .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

إن الذين كانوا لنا يكفيهم ما يجدون ميثاً، لا نضيع أجر من أحسن عملاً .
قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

الاكتفاء بموعود الرب خير للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .
ومقصودك من تسويلات النفس، وموعودك مما ضمنه الحق .
قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُدُّهُنَّ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ .

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار، ولا قَدْرٌ ولا أخطار .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

إذا تقرر عند القاضي إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حَبْسِهِ، وإن ظهرت لذي الحق حجة المفلس فذلك مرتين بحق خصمه، ولكنه في إمهال وإنظار . والرب لا يحكم بهذا علينا؛ فمع علمه بإعسارنا وعجزنا، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له - يرحمنا .

قوله: ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ . ليس للمفقر المفلس وجه يحصل له منه شيء إلا من حيث ما جعل الله سبحانه من سهم الغارمين، فأما من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد . . . وأنى للمفلس به؟!

وأما الربح في التجارة من تقليب رأس المال والتصرف فيه . . فأنى للمفلس به؟!

ما بقي للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (.....) (١) وإن كان ضعيفاً،

فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما المفلس عن قوته - كما هو مفلس عن ماله - ما بقي له وجه إلا ما يسبب له مولاه .

قرله جل ذكره: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْمَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

الرجوع على ضريبين : بالأبشار والنفوس غداً عند التوفي ، وبالأسرار والقلوب في كل نفس محاسبة ؛ نقد و وعد ، فنقد مطالبته أحق مما سيكون في القيامة من وعده .

وقال للعوام : ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ﴾ وقال للخواص : ﴿وَأَتَى قَائِلُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَانِيَتْهُم بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْكُتُوا وَلْيَكُتِبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتِبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلْيُكْتُبْ بِالْمَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْب الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُتُبُوا صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَّآ أَجْلاً ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّآ أَنْ تَكُونَ تَحَدُّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكُتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ سُوءٌ بِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُتُبُوا الشَّهَدَةَ وَمَنْ يَكُتُبْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ .

أمر الله سبحانه الخلق بالقيام بالصدق ، وعلمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لثلاث يُجْرِي - بعضهم على بعض - حيفاً ، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم ، وموجب رفق بهم كيلا يتخاصموا . فأمر بتحصيل الحقوق بالكتابة والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليوم ما يقطع الخصومة بينهم فبالحري أن يجري ما يرفع في الآخرة آثار الخصومة بينهم ، وفي الخبر المنقول : «تواهبوا فيما بينكم فقد وهبت منكم مالي عليكم ، فإن الكريم إذا قدر غفر» .

وفيما شرع من الدين رفق بأرباب الحاجات ، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتياط ، ويضيق به الصدر عن الاحتمال ، ويمنعه حفظ التجمل عن الكدية والسؤال ، فأذن له في الاستدانة ليجبر أمره في الحال ، وينتظر فضل الله في المال ،

وقد وعد على الإدانة الثواب الكثير، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

من المعاني والدعاوى، ويقال من القصود والרגائب، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما «تبدية»: العبادة، «وما تخفيه» الإرادة .

ويقال ما «تخفيه»: الخطرات و«ما تبدية»: «العبارات» .

ويقال ما «تخفيه»: السكنات والحركات .

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة، فلا تغفل خطرة

ولا تحمل وقتك نفساً .

قوله جل ذكره: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

هذه شهادة الحق - سبحانه - لنبيه - ﷺ وعلى آله - بالإيمان، وذلك أتم له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقال آمن الخلق كلهم من حيث البرهان وآمن الرسول - عليه السلام - من حيث العيان .

ويقال آمن الخلق بالوسائط وآمن محمد - ﷺ - بغير واسطة .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر فقال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ ، ولم يقل آمنت، كما تقول لعظيم الشأن من الناس: قال الشيخ، وأنت تريد قلت .

ويقال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ، ولكن شتان بين إيمان وإيمان، الكل آمنوا استدلالاً، وأنت يا محمد آمنت وصلاً .

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ .

لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير، كل ذلك رفق منه وفضل .

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ .

من الخيرات .

﴿وَعَلَيْهَا مَا أَكْسَبَتْ﴾ .

ما تكسبه من التوبة التي تُنجي من كسب .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ .

كان إذا وقعت حاجة كلموه بلسان الواسطة. قالوا: ﴿يُمَوِّسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّنَا﴾ [الأعراف: ١٣٤] وهذه الأمة قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وكانت الأمم (السالفة) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة، وفي هذه الأمة قال ﷺ: «الندم توبة»^(١).

وكانت الأمم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم، وخصائصهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح. قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾.

في الحال.

﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾.

في المال.

﴿وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك، فأنت مولانا فاجعل النصر لنا على ما يشغلنا عنك.

ولما قالوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ خَسَفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة. والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤٢٥٢) وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٧٦/١، ٤٢٣، ٤٣٣) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٤/١٠) والحاكم في (المستدرک ٢٤٣/٤) والحميدي في (المسند ١٠٥) وأبو حنيفة في (جامع مسانيد ٩٨/١) وابن حجر في (فتح الباري ١٠٣/١١) والطبراني في (المعجم الصغير ٣٣/١) وابن عبد البر في (التمهيد ٤٥/٤) والمنذري في (الترغيب والترهيب ٩٧/٤، ٩٨) والبيهقي في (شرح السنة ٩١/٥) والطحاوي في (مشكل الآثار ١٩٩/٢) والشجري في (آمال ١/١٩٥، ١٩٦) والهيثم في (مجمع الزوائد ١٩٩/١٠، ٢٠٠) وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢٥١/٨ - ٣١٢، ٣٩٨/١٠) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٠٣٠١ - ١٠٣٠٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/٣٤١) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٩٧/٧) والعراقي في (المفني عن حمل الأسفار ٣/٤) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٣٦/٢ - ٧٩٧) والهروي (١٠٩/٤) (وصاحب شرح معاني الآثار ٢٩١/٤) والسيوطي في (الدر المنثور ٤٤/٥) والسهمي في (تاريخ جرجان ٧٣، ١٦٢) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان ١/١٤٠ - ٢٠٩) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٩/٤٥٥) وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ١٨١٦ - ١٨٤١ - ١٨٨٩ - ١٩١٨) والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٥/١) وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢٠٣/١، ١٣٢٩/٤ - ١٣٨١ - ١٣٦٤ - ١٤٩٩، ٢٦٦٨/٧).

السورة التي يذكر فيها آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلف أهل التحقيق في اسم «الله» هل هو مشتق من معنى أم لا؟ فكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنى، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص يجري في وضعه مجرى أسماء الأعلام في صفة غيره، فإذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فهمهم ولا علمهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه. وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب فإذا قال بلسانه «الله» أو سمع بأذانه شهد بقلبه «الله».

وكما لا تدل هذه الكلمة على معنى سوى «الله» لا يكون مشهوداً قائلها إلا «الله» فيقول بلسانه «الله»، ويعلم بفؤاده «الله»، ويعرف بقلبه «الله»، ويحب بروحه «الله»، ويشهد بسره «الله»، ويتعلق بظاهره بين يدي الله، ويتحقق بسرّه الله، ويخلو بأحواله الله وفي الله؛ فلا يكون فيه نصيب لغير الله، وإذا أشرف على أن يصير محوياً في الله الله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله الرحمن الرحيم استبقاءً لمهجتهم أن تلتف، وإرادةً في قلوبهم أن تنقى؛ فالتلطف سُنّة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية. قوله جل ذكره: ﴿الْعَلَمَ اللَّهُ﴾.

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك، وهو مجرّ ما يجبرك، وكافٍ بما ينصرك، فبغير سؤالك - بل بغير علمك بحالك - يكفيك من حيث لا تشعر، ويعطيك من غير أن تطلب.

والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السرّ حتى أنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يثبتك فيه. والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلقات الطلّبة من الأولياء، فلا يتحرك في العالم شيء، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال في قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء - لم يكن ذلك ببعيد.

ويقال تفرّق عن القلوب - باستماع هذه الحروف المقطعة التي هي خلاف عادة الناس في التخاطب - كلّ معلوم ومرسوم، ومعتاد وموهوم، من ضرورة أو جسّ أو اجتهد، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات، وعقّى الأسرار عن

المعتادات والمعهودات يَرِدُ هذا الاسم وهو قوله: «الله» على قلب مقدس من كل غير، وسِرُّ مصفى عن كل كيف؛ فقال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ الْغَيْبُ﴾.

فهو الذي لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه، فهو على عموم أحوالك رقيب سرك؛ إذ خلوت فهو رقيبك، وإن توسطت الخلق فهو رقيبك، وفي الجملة - كيفما دارت بك الأحوال - فهو حبيبك.

قوله جل ذكره: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾.

وما كنت يا محمد تدري ما الكتاب، ولا قصة الأحباب، ولكنما صادفك اختيار أزلني فألقاك في أمر عجيب شأنه، جلي برهانه، عزيز محلّه ومكانه. ﴿مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي محققاً لموعوده لك في الكتاب على السنة الرسل عليهم السلام. ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هَٰذَا هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

أي إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُبَنَا على المرسلين فما أخلينا كتاباً من ذكرك، قال قائلهم:

وعندي لأحبابنا الغائبين صحائفُ ذكركُ عنوائها

وكما أتمنا بك أنوار الأنبياء زيننا بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وهو ذلّ الحجاب، ولكنهم لا يشعرون.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ على أوليائه ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ من أعدائه، عزيز يطلبه كل أحد، ولكن لا يجده - كثيراً - أحد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

لا يتنفس عبدٌ نفساً إلا والله سبحانه وتعالى مُخَصِّيه، ولا تحصل في السماء والأرض ذرة لا وهو سبحانه مُخَدِّثُهُ ومُبْدِيهِ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه.

هذا على العموم، فأما على الخصوص: فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيا، ولا رجع أحدٌ إليه في نازلة إلا وهو كافيا.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدّر أحوالكم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

فلا يُعَقَّبُ حكمه بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

جَسَسَ عليهم الخطاب؛ فَمِنْ ظاهرٍ واضح تنزيله، ومن غامضٍ مشكل تأويله .
القِسْمُ الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر، والقِسْمُ الثاني لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها، فسيّل العلماء الرسوخ في طلب معناه على ما يوافق الأصول، فما حصل عليه الوقوف فمُقَابِلٌ بالقبول، وما امتنع من التأثير فيه بمعلول الفكر سلّموه إلى عالم الغيب .

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب، فما سنح لفهومهم من لائح التعريفات بَنَوْا (عليه) إشارات الكشف .

إِنْ (طولبوا) باستدامة الستر وطَيَّ السَّرَّ تخارسوا عن النطق، وَإِنْ أُمِرُوا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق، ونطقوا عن تعريفات الغيبة، فأَمَّا الَّذِينَ أُيِّدُوا بأنوار البصائر فمستضيئون بشعاع شمس الفهم، وَأَمَّا الَّذِينَ أَلْبَسُوا غطاء الريب، وحرّموا لطائف التحقيق، فتنقسم بهم الأحوال وَتَتَرَجَّمُ بهم الظنون، ويطيحون في أودية الرِّيب والتليس، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ .

وَمَنْ وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور، وصافيات اليقين . وَأَمَّا أصحاب العقول الصاحبة ففي صحبة التذكر، لظهور البراهين و(.....)^(١) أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب ويقال حين صدقوا في حسن الاستغانة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعِدَادُ﴾ .

(١) بياض في الأصل .

اليوم جمع الأحزاب على بساط الاقتراب، وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب، اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال، وغداً جمع الأبشار لشهود الأحوال، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

فلا فداء ينفعهم، ولا غناء يدفعهم، ولا مال يقبل منهم، ولا حجاب يرفع عنهم، ولا مقال يسمع فيهم، بهم يسعّر الجحيم، ولهم الطرد الأليم، والبعاد الحميم.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أصروا في العتو على سننهم، وأذمنا لهم في الانتقام سننا، فلا عن الإصرار أقلعوا، ولا في المبار طعموا، ولعمري إنهم هم الذين ندموا وتحسروا على ما قدّموا - ولكن حينما وجدوا الباب مسدوداً، والندم عليهم مردوداً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ تَحْتَثَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَنَسُّ إِلَيْهَا﴾.

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق في الآجل^(١)، ولا تكون لهم لذة عيش في العاجل، والذي يلقونه في الآخرة من شدة العقوبة بالخرقة فوق ما يصيبهم في الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة، ولكن سقمت البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَةَ مَن يَشَاءُ لِمَا فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

إذا أراد الله إمضاء أمر قلل الكثير في أعين قوم، وكثر القليل في أعين قوم، وإذا لبس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّينَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ﴾.

(١) يشير القشيري إلى سورة آل عمران الآية (٧٧): ﴿لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِيهِمْ﴾.

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو في معناها، وفي الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها. وأصعب العوائق في هذه الطريق الشهوة الخفية. وأداء الطاعات على وجه الاستحلاء معدودٌ عندهم في جملة الشهوة الخفية. ومن المقاطع المشككة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك، وكأنه في حال ما يناجيك يناغيك، فإنه بكل لطيفة يصفك فيطريك وتحتها خُدْعٌ خافية. ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا)^(١) بإثباته في لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أُو۟تِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

بيّن فضيلة أهل التقوى على أرباب الدنيا، فقال: هؤلاء لهم متابعة المني وموافقة الهوى وأولئك لهم الدرجات العلى، والله بصير بالعباد؛ أنزل كل قوم منزله، وأوصله إلى ما له أهله.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَرَحِمَا عَذَابَ النَّارِ﴾. أي ينقطعون إلينا بالكلية، ويتضرعون بين أيدينا بذكر المحن والرزية، أولئك ينالون منا القربة والخصوصية، والدرجات العلية، والقسم المرضية.

قوله جل ذكره: ﴿الْمُحْسِنِينَ وَالْمُكْسِرِينَ وَالْمُفْسِدِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾. الصبر حبس النفس، وذلك على ثلاث مراتب:

صبر على ما أمر به العبد، وصبر عما نُهي عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد؛ إمّا في فوات محبوبك أو هجوم ما لا تستطيعه^(٢).

فإذا ترقيت عن هذه الصفة - بألا تصيبك مشقة أو تنال راحة - فذلك رضا^(٣) لا صبر ويقال الصابرين على أمر الله، والصادقين، فيما عاهدوا الله.

و﴿الْقَانِئِينَ﴾، بنفوسهم بالاستقامة في محبة الله.

و﴿الْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم في الله.

ويقال: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ بقلوبهم و﴿الْمُكْسِرِينَ﴾ بأرواحهم و﴿الْمُنْفِقِينَ﴾ بنفوسهم، و﴿الْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ بالسستهم.

(١) ربما تكون (لا) زائدة.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨.

(٣) انظر الفرق بين الرضا والصبر في الرسالة القشيرية، فصل الصبر ص ١٨٣ - ١٨٩، وفصل الرضا ص ١٩٢ - ١٩٧.

ويقال «الصابرين» على صدق القصود «الصادقين» في العهود «القانتين» بحفظ الحدود و«المستغفرين» عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد.

ويقال «الصابرين» الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كل راحة وطلب. وصبروا على البلوى، ورفضوا الشكوى، حتى وصلوا إلى المولى، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى.

و«الصادقين» الذين صدقوا في الطلب فقصدوا، ثم صدقوا حتى وردوا، ثم صدقوا حتى شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا. فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود.

و«القانتين» الذين لازموا الباب، وداوموا على تجرّع الاكتئاب، وتركوا المحاب، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب.

و«وَالْمُتَّقِينَ» الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل والآجل، استهلاكاً عند القرب والوصال بما لقوا من الاضطلام والاستتصال^(١).

و«وَالْمُسْتَغْفِرِينَ» عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني ظهور الإسفار، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار.

قوله جل ذكره: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي عَلِمَ اللَّهُ وأخبر الله وَحَكَمَ اللَّهُ بأنه لا إله إلا هو، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق، وَأَوَّلُ مَنْ شَهِدَ بأنه الله - الله، فشهد في آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلي، وأخبر عن وجوده الأحدي، وكونه الصمدي، وعونه القيومي، وذاته الديمومي، وجلاله السرمدى، وجماله الأبدي. فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ ثم في آباده، «شهد الله» أي بَيَّنَّ اللَّهُ بما نَصَّبَ من البراهين، وأثبت من دلائل اليقين، وأوضح من الآيات، وأبدى من البينات. فكل جزء من جميع ما خلق وفطر، ومن كتم العدم أظهر، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل، من أعيان مستقلة، وآثار في (ثاني) وجودها مضمحلة، وذوات للملاقاة قابلة، وصفات في المَحَال متعاقبة - فهو لوجوده

(١) الاستتصال ما عبر عنه القشيري قال: كأس وأي كأس تصطلحهم عنهم وتفنيهم، وتخطفهم منهم ولا تبقيهم كأس لا تبقي ولا تذر، تمحوهم كلياً ولا تبقي شظية من آثار البشرية، كما قال قائلهم:

ساروا فلم يبق لا رسم ولا أثر

(الرسالة القشيرية ص ٧٦).

مُفْصِح، ولربوبيته مَوْضِح، وعلى قَدَمِهِ شاهد، وللعقول مُخْبِر بأنه واحد، عزيز ماجد، شهد سبحانه بجلال قَدْرِهِ، وكَمال عِزِهِ، حين لا جحد ولا جهود ولا عرفان لمخلوق ولا عقل، ولا وفاق، ولا كفر، ولا حدثان، ولا غير، ولا إلحاد، ولا شُرْك، ولا فهم ولا فكر، ولا سماء ولا فضاء، ولا ظلام ولا ضياء، ولا وصول للمزدوجات، ولا فضول باختلاف الآفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمَلَكُ﴾.

لم يؤيد شهادته بوحدانيتها بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيّدهم، حين وقّفهم بشهادة وسدّدهم، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأُولُوا الْأَلْمِ﴾.

وهم أولياء بني آدم إذ علموا جلال قدرته، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم، فشهدوا عن شهود وتعيين، لا عن ظن وتخمين، إن لم يدركوه - اليوم - ضرورة وجسّاً، لم يعتقدوه ظناً وحسّاً؛ تعرّف إليهم فعرفوه، وأشهدهم فلذلك شهدوا، ولو لم يقلّ لهم إنه من هو لَمَّا عرفوا من هو.

ولكنّ العلماء يشهدون بصحو عقولهم، والمُؤخّدون يشهدون بعد خمودهم؛ فهم كما قيل:

مُسْتَهْلِكُونَ بقهر الحق قد هَمَدُوا واسْتُطِيقُوا بعد افتنائهم بتوحيد

فالمُجْري عليهم ما يبدو منهم - سواهم، والقائم عنهم بما هم عليه وبه - غيرهم، ولقد كانوا لكنهم بانوا، قال قائلهم:

كتابي إليكم بعد موتي بليلة ولم أدري أني بعد موتي أكتب

وأولو العلم على مراتب: فَمِنْ عَالِمٍ نَعْتُهُ وفاق ورهبانية، ومن عالم وصفه فناء ورهبانية، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله، ومحكمه وتنزيله، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوي حججه وتوحيده بحديث يخرج به (....) (١)، وعالم لطفه حتى أحضره ثم كاشفه فقهره، فالاسم باقي، والعين محو، والحكم طارق والعبد محق، قال قائلهم:

بنو حق غدوا بالحق صرفاً فنعت الخلق فيهمو مستور

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم، وعند علمهم بأنفسهم، فأما أعمالهم أعيانهم فمخلوقة، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمبسوقة، وذات الحق

لا توصف بقبول حدثان، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات، تقدس الحق عن كل ضدّ ونذ، ووصل وفصل، وجمع وفرق، وعين وخلق، وملك وفلك، ورسم وأثر، وعبد وبشر، وشمس وقمر، وشخص وغيّر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأُولِيْكُمْ﴾.

الذين الذي يرتضيه، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه، وبالفضل يُلقبه - هو الإسلام.

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام، وما سواه فمردود، وطريق النجاة على صاحبه مسدود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

جاءهم العلم الذي عليهم حجة، لا المعرفة التي لها بيان ومحجة، فأصروا على الجحود، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِمِيزِ الْوَعْدِ عَلِيمٌ﴾.

طالِبُهُمْ بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال في شهود اختلافهم وتباين أطوارهم؛ فَإِنَّ مَنْ طَالَعَ الكائنات بعين القدرة علم أن المُثْبِتَ للكل - على ما اختص به كل واحد من الكل - واحد.

فأذعهم جهراً بجهر، واشهد تصريفنا إياهم سراً بسر، واشغل لسانك بنصحهم، وفرغ قلبك عن حديثهم، وأفرد سيرك عن شهودهم، فليس الذي كلفناك من أمورهم إلا البلاغ، والمُجْرِي للأمور والمبدي - نحن.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

إن الذين ربطناهم بالخدلان ووسمناهم بوصف الحرمان - أخبرهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنان إلى دار الهوان، من الخدلان والحرمان إلى العقوبة والنيران.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾.

أولئك الذين ليس لهم - اليوم - توفيق بأعمالهم، ولا غداً تحقيق لآمالهم، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا، ولم يشهدوا عزنا وقدرتنا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُعْرِضُونَ﴾.

امتحانك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون، فاصبر على ما أُمِرتَ فيهم، واعلم سوء أحوالهم، فإنهم أهل التولي عن الإجابة، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَقَرُّونَ﴾.

عاقبتهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم، ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون. ظن المخطئون حكماً...

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم، وانقطاع دواعيهم، وانخلاع قلوبهم من مكانها، وتراقبها إلى تراقبهم، ثم ما يلحقونه من الحساب والعتاب، والعذاب والعقاب، وعدم الإكرام والإيجاب، وما في هذا الباب.

وقيامة الكفار يوم الحشر، وقيامه الأحياء في الوقت، ولشرح هذا تفسير طويل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾.

«اللهم» معناها يا الله والميم في آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا. فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق، أي صِفني بما أَسْتَحِقُّه من جلال القَدْر قُلْ: يا مالِكُ المُلْكِ لا شريك لك ولا مُعِين، ولا ظهير ولا قرين، ولا مُقَاسِمَ لك في الذات، ولا مُسَاهِمَ في المُلْك، ولا مُعَارِضَ في الإبداع.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾.

حتى نعلم أن الملك لك، والمَلِكُ من المخلوقين مَن تَذَلَّلَ له، ومنزوع المُلْكُ ممن تكبر عليه؛ فَتَجْمَلُ الخَلْقِ في تذللهم للحق، وعزهم في محوهم فيه، ويقاؤهم في فناءهم به.

﴿وَعِزُّ مَنْ نَشَأَ﴾.

بعز ذاتك .

﴿وَتَذِلُّ مَنْ نَشَأَ﴾.

بخذلانك .

وتعز من نشأ بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من نشأ بأن يجحدك ويفقدك وتعز من نشأ بمن إقبالك، وتذل من نشأ بوحشة إعراضك . وتعز من نشأ بأن تؤنسك بك، وتذل من نشأ بأن توحشه عنك . وتعز من نشأ بأن تشغله بك، وتذل من نشأ بأن تشغله عنك . وتعز من نشأ بسقوط أحكام نفسه، وتذل من نشأ بغلبة غاغة نفسه . وتعز من نشأ بطوالع أنسه وتذل من نشأ بطوارق^(١) نفسه . وتعز من نشأ ببسطه بك، وتذل من نشأ بقبضه عنك .

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ نَشَأَ﴾ يشد نطاق خدمتك، ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ نَشَأَ﴾ بنفيه عن بساط عبادتك . تؤتي الملك من نشأ بإفراد سيره لك وتنزع الملك ممن نشأ بأن تربط قلبه بمخلوق، ﴿وَعِزُّ مَنْ نَشَأَ﴾ بإقامته بالإرادة، ﴿وَتَذِلُّ مَنْ نَشَأَ﴾ يردّه إلى ما عليه أهل العادة .
﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ .

ولم يذكر الشر حفظاً لأداب الخطاب، وتفاوتاً بذكر الجميل، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

من الحجب والجذب، (والنصرة)^(٢) والخذلان، والأخذ والرد، والفرق والجمع، والقبض والبسط .

قوله جل ذكره: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَأَ بِمَعْرِ حِسَابٍ﴾ .

تولج الليل في النهار حتى يغلب سلطان ضياء التوحيد فلا يبقى من آثار النفس وظلماتها شيء، وتولج النهار في الليل حتى كأن شمس القلوب كُسِفَتْ، أو كأن الليل دام، وكان الصبح فقيداً .

وتخرج الحي من الميت حتى كأن الفترة لم تكن، وعهد الوصال رجع فتياً، وعود القلوب صار غصاً طرياً .

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(١) الطوارق: (ج) الطارق: الآتي ليلاً .

وتخرج الميت من الحي حتى كأن شجرة البرم أورقت شوكة وأزهرت شوكة، وكأن اليانس لم يجد خيراً، ولم يشم ريحاً، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة.

﴿وَتَرْزُقْ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

حتى لا (كدر) ولا جهد ولا عرق جبين، ولا تعب يمين. لينله روح وراحة، ونهاره طرب وبهجة، وساعاته كرامات، ولحظاته قُرُبات، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان، ولا يأتي على استقصاء كتبها عبارة ولا بيان.

وفيما لوحنا من ذلك تنبيه على طريق كيفية الإفصاح عنه.

ويقال لما قال: ﴿وَتَنْزِيعُ الْمُلْكِ مِمَّن تَشَاءُ﴾ انكسر خَمَارُ كُلِّ ظَانٍّ أَنَّهُ مَلِكٌ لأنه شاهد ملكه يعرض للزوال فَعَلِمَ أَن التذلل إليه في استبقاء ملكه أولى من الإعجاب والإدلال.

ويقال الْمَلِكُ في الحقيقة - مَنْ لا يشغله شيء بالالتفات إليه عن شهود من هو الْمَلِكُ على الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

من حقائق الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله.

وأولى مَنْ تسومه الهجران والإعراض عن الكفار - نَفْسُكَ؛ فإنها مجبولة على المجوسية حيث تقول: لي ومني وبني^(١)، وقال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا لِلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وإن الإيمان في هذه الطريقة عزيز، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام - وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً - فليسوا بأهل لموالاة الكفار، والشكل بالشكل أليق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَعِزِّدْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم - ألبته.

﴿وَيَعِزِّدْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾: هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة، فأما الذين نزلت رُبَّتْهُمْ عَنْ هذا فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي﴾ [آل عمران: ١٣١] وقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ...﴾ [البقرة: ٢٨١]. إلى غير ذلك من الآيات.

ويقال: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ أن يكون عندكم أنكم وصلتم؛ فإن خفايا المكر تعري الأكاير، قال قائلهم:

وَأَمِنْتُهُ فَأَتَانِي مَنْ مَأْمَنِي مَكْرًا، كَذَا مَنْ يَأْمَنُ الْأَحْبَابَا
ويقال: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ لأن يجري في وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق،
أو يسطر العِزَّ قَدَمَ همة بشر، جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ وَعَزَّتْ!
وإنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّهُ أَبْعَدُهُمْ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُتَدَوِّعُوا بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يَغْزُبُ معلوم عن علمه، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك، فعن قريب سيايتك الغوث والإجابة، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة، وَيُجَلُّ المَدَدَ والكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُنْصَرًّا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

وَدَّ أَهْلُ الطَّاعَاتِ أَنْ لَوْ اسْتَكْثَرُوا مِنْهَا، وَوَدَّ أَهْلُ الْمَخَالَفَاتِ أَنْ لَوْ كَبَحُوا لَجَاهَهُمْ عَنِ الرِّكْضِ فِي مِيَادِينِهِمْ، قال قائلهم:

ولو إِنِّي أُعْطِيتُ مِنْ دَهْرِي الْمُنَى وَمَا كُلُّ مَنْ يُعْطَى الْمُنَى بِمُسَدِّدٍ
لَقُلْتُ لِأَيَّامٍ مَضِيْنٍ: أَلَا ارْجِعْ عَنِّي وَقُلْتُ لِأَيَّامٍ أَتِيْنٍ أَلَا ابْعِدْ عَنِّي
قوله جل ذكره: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

الإشارة من قوله: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ للعارفين، ومن قوله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للمستأنفين، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة.

ويقال لَمَّا قَالَ: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ اقتضى أسمع هذا الخطاب تحويلهم فقال مقرونًا به ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ لتحقيق تأميلهم، وكذلك سُئِلَ يطمعهم في عين ما يروهم.

ويقال أُنَاهُمْ بقوله ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ ثم أحياهم وأبقاهم بقوله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ فرق، و﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ﴾ جمع.

﴿تُجَوِّنُ اللَّهُ﴾ مشوب بالعلة، و ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ بلا علة، بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضي منه تلك الحالة إثارة - سبحانه - على كل شيء وعلى كل أحد.

وشرط المحبة ألا يكون فيها حظٌ بحال، فَمَنْ لم يَفْنَ عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبة شظية.

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه إليه ولطفه به، وهي إرادة فضل مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه، فعلى هذا تكون من صفات فعله.

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك، قال قائلهم:

وما الحبُّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب^(١) والخليل؛ قال الخليل: ﴿فَمَنْ يَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال الحبيب: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

فإن كان مُتَّبِعُ الخليل «منه» إفضالاً فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه، وكفى بذلك قرينة وحالاً.

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحد نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.

ويقال في هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد عن آفة لأنه قال: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحب الله ويحبه الله.

ويقال قال أولاً: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ والواو تقتضي الترتيب ليُعْلَمَ أَنَّ المحبة سابقة على الغفران؛ أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه، فالمحبة توجب الغفران لأن العفو يوجب المحبة.

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان^(٢) وهو صفاؤها.

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر.

(١) المقصود بالحبيب سيدنا محمد ﷺ.

(٢) جاءت: الإنسان وهي خطأ (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٢٠).

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب.

والحُبُّ حِرْفَانُ حَاءٍ وَبَاءٍ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن،
فالمُحِبُّ لَا يَدْخِرُ عَنْ مَحْبُوبِهِ لَا قَلْبَهُ وَلَا بَدَنَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

أمرهم بالطاعة ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي قَصُرُوا فِي الطَّاعَةِ بِأَنْ خَالَفُوا، ثم قال:
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لم يَقُلْ الْعَاصِينَ بَلْ قَالَ الْكَافِرِينَ، ودليل الخطاب أنه يجب
المؤمنين وإن كانوا عُصَاةً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالٍ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اتفق آدم وذريته في الطينة، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قبيله، لا
بالنسب ولا بالسبب.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

المُحَرَّرُ الذي ليس في رِقٍّ شيء من المخلوقات، حرَّره الحق سبحانه في سابق
حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال. فلما نذرت أم مريم ذلك،
ووضعتها أنثى خجلت، فلما رأتها قالت ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وهي لا تصلح أن تكون
محراً فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ ولعمري ليس الذكر كالأنثى في الظاهر،
ولكن إذا تَقَبَّلَهَا الحق - سبحانه وتعالى - طلع عنها كل أعجوبة.

ولما قالت ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ فاستجاب،
وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها، ونجا بحديثها عَالَمٌ وَهَلَكَ بسببها عَالَمٌ،
ووقعت الفتنة لأجلهما في عَالَمٍ.

قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ استجارت بالله
من أن يكون للشيطان في حياتها شيء بما هو الأسهل، لتمام ما هم به من أحكام القلوب.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

حيث بَلَّغَهَا فوق ما تَمَنَّتْ أمها، ويقال تَقَبَّلَهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ حتى أفردا لطاعته،
وتولَّاهَا بما تَوَلَّى به أولياءه، حتى أفضى جمع مَنْ في عصرها الْعَجَبَ مِنْ حُسْنِ تَوَلِيهِ
أمرها، وإن كانت بتأ.

ويقال القبول الحسنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه - سبحانه - بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال، فلم يُبالِ بِقُبْحِ مقال الأعداء.

أجد الملامة في هواكِ لذيذة حُبّاً لذكرك فليلمني اللوم
وكما قيل:

ليقل من شاء ما شاء فلاني لا أبالي
ويقال القبول الحسن أن ربّاه على نعت العصمة حتى كانت تقول: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ [مريم: ١٨].

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ حتى استقامت على الطاعة، وآثرت رضاه - سبحانه - في جميع الأوقات، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام، وهذا هو النبات الحسن، وكفلها زكريا. ومن القبول الحسن والنبات الحسن أن جعل كافلها والقَيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: إِنْ رَأَيْتَ لِي طَالِباً فَكُنْ لَهُ خَادِماً.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزِعُ أَنَّ لَّيْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

من أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبّد فيه وهناك يوجد المحراب - فذلك عبّد عزيز.

ويقال من القبول الحسن أنه لم يطرح أمرها كُله وشغلها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدا بطعام وجدّ عندها رزقاً ليغلّم العاملون أن الله - سبحانه - لا يُلقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء. وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء.

ثم كان زكريا عليه السلام يقول: ﴿أَنِّي لَلَّيْ هَذَا؟﴾ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره يغلبه ويتنزه فرصة تعهدا ويسبقه بكفاية شغلها، فكان يسأل ويقول: ﴿أَنِّي لَلَّيْ هَذَا؟﴾ ومن أتاك به؟

وكانت مريم تقول: هو من عند الله لا من عند مخلوق، فيكون لزكريا فيه راحتان: إحداها شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدا، ولم يسبق به. قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ فلفظة كلّمَا للتكرار وفي هذا إشارة: وهو أن زكريا عليه السلام لم يَلْزَمْ تعهدا - وإن وجد عندها رزقاً - بل كل يوم وكل وقت كان يتفقد حالها لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم

ذلك قطعاً؛ فيجوز أن يظهر الله ذلك عليهم دائماً، ويجوز ألا يظهر، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله: ﴿يَتَرَمَّزُ أَنَّى لِلَّهِ هَذَا؟﴾ لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس، فإنه لا واجب على الله سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إيضاح عن عين التوحيد، وأن رزقه للعباد، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعتهم ووسيلة عباداتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أي لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين، ورجاء على رجاء؛ فسأل الولد على كبر سنّه، وإجابته إلى ذلك كانت نقضاً للعادة.

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولد ليكون عوناً له على الطاعة، ووارثاً من نسله في النبوة، ليكون قائماً بحق الله، فلذلك استحق الإجابة؛ فإن السؤال إذا كان لحق الحق - لا لحظ النفس - لا يكون له الرد.

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف، فسأل الولد في حال الكبر ليكون آية ومعجزة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

لما سأل السؤال، ولأزم الباب أتته الإجابة.

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة.

ويقال حكم الله - سبحانه - أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته، فأما مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه في ذلّ الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَبْلِ مِثْقَالٍ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قل سماء يحيى لحياة قلبه بالله، ولسان التفسير أنه حي به عقر أمه.

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه.

قوله: مصداقاً بكلمة من الله: أن تصديقه بكلمة «الله» فيما تعبد به أو هو مكوّن بكلمة الله.

وقوله ﴿وَسَيِّدًا﴾: السيّد من ليس في رق مخلوق، تحرّر عن أسر هواه وعن كل

مخلوق، ويقال السيد من تحقق بعلوته سبحانه، ويقال السيد من فاق أهل عصره، وكذلك كان يحيى عليه السلام.

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاماً، ولا شأهً لنفسه قُدراً. ولما أخلص في تواضعه لله بكل وجهٍ رَفاه على الجملة وجعله سيداً للجميع.

وقوله ﴿وَحَصُورًا﴾ أي مُعْتَقاً من الشهوات، مكفياً أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر. ويقال متوقياً عن المطالبات، مانعاً نفسه عن ذلك تعزراً وتقرباً، وقيل منعه استتصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فضل لحظ.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مستحقاً لبلوغ رتبهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال: أنى يكون لي غلام؟ ويحتمل أنه قال: بأي استحقاقٍ مني تكون له هذه الإجابة لولا فضلك؟ ويحتمل أنه قال أنى يكون هذا: أعلى وجه التبني أم على وجه التناسل؟ ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التي طعنت في السن أو من جهة التَّسْرِي بمملوكة؟ أم من هذه؟

فقيل له: لا بل من هذه؛ فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معاً، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾.

طلب الآية ليعلم الوقت الذي هو وقت الإجابة على التعيين لا لشك له في أصل الإجابة.

وجعل آية ولايته في إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح، أي لا تمتنع عن خطابي فإني لا أمنع أوليائي من مناجاتي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك.

﴿وَسَيِّحٌ بِالسَّيِّحِ وَالْإِنْبَكْرِ﴾.

في الصلاة الدائمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريم من قبيلهم رفعاً بشأنها، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها: إن الله اصطفاك بتفضيلك، وإفرادك من أشكالك وأندادك، وطَهَّرَك من الفحشاء والمعاصي بجميل العصمة، وعن مباشرة الخلق، واصطفاك على نساء العالمين في وقتك.

وفائدة تكرار ذكر الاصطفاء: الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثاني اصطفاك بأن حَمَلْتَ بعمسى عليه السلام من غير أب، ولم تشبهك امرأة - ولن تشبهك - إلى يوم القيامة، ولذلك قال ﴿عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمْرُؤُا أَفْتَى لِرَبِّكَ وَأَسْجُدَى وَأَرْكَبَى مَعَ الرُّكْبَانِ﴾.

لازمي بساط العباد، وداومي على الطاعة، ولا تُقْصِرِي في استدامة الخدمة، فكما أفردك الحق بمقامك، كوني في عبادته أَوْحَدَ زمانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَكْفَلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي هذه القصص نحن عرفناكها و(خا) طبناك بمعانيها، وإن قَصَصْنَا نحن عليك هذا - فعزِزْ خطابنا، وأعزْ وأتم مِنْ أَنْ لو كنت مشاهداً لها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم يُبَشِّرْها بنصيب لها في الدنيا ولا في الآخرة من حيث الحظوظ، ولكن بَشَّرْها بما أثبت في ذلك من عظيم الآية، وكونه نبياً لله مؤيداً بالمعجزة.

ويقال عَرَفْها أَنْ مَنْ وقع في تغليب القدرة، وانتهى عند حكمه يَلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد. ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت، والاشتهار بالعفة، فشَوَّسَ عليها ظاهر تلك الحال بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام، ولكن - في التحقيق - ليس كما ظَنُّهُ الأغبياء الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير.

وقيل إنه (...) ^(١) عَرَفْها ذلك بالتدرّج والتفصيل، فأخبرها أن ذلك الولد يعيش حتى يُكَلِّمَ الناس صبيّاً وكهلاً، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه.

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء.

ويقال ربط على قلبها بما عَرَفْها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحتها يُنْطِقُ اللَّهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ .

كما شاهدت ظهور أشياء ناقضة للعادة في رزقنا فكذلك ننقض العادة في خلق ولد من غير ميسس بشر .

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ .

أي أراد إمضاء حكم .

﴿فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يوم حتى قال :

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

طَيْرًا يَّاذِنُ اللَّهُ وَأُفْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ يَٰأَيُّهَا اللَّهُ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا

تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وتلك آياته الظاهرة، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمة^(١)

والأبرص^(٢)، والإخبار عما عملوه مُسرِّين به، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخير أنه

مصدق لما تقدمه من الشرائع، ومختص بشريعة تنسخ بعض ما تقدمه، وأقرهم على

البعض - على ما نطق به تفصيل القرآن^(٣) .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ الآية .

حين بلغهم الرسالة واختلفوا - فمنهم من صدقه ومنهم من كذبه وهم الأكثرون -

علِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعداء، فقطع عنهم قلبه، وصدق إلى الله

قصده، وقال لقومه: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ لِيَسَاعِدُونِي عَلَى التَّجَرُّدِ لِحَقِّهِ وَالْخُلُوصِ فِي

قصده؟ فقال مَنْ انبسطت عليهم آثار العناية، واستخلصوا بآثار التخصيص: نحن

أنصار الله، آمنا بالله، واشهد علينا بالصدق، وليس يشكل عليك شيء مما نحن فيه .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آتَاكَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

وأما الباقون فجدُّوا في الشقاق، وبالغوا في العداوة، ودسُّوا له المكائد،

ومكروا ولكن أذاقهم الله وبال مكروهم، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام

(١) الأكمة: من ولد أعمى أو من فقد بصره .

(٢) الأبرص: من ابتلي بالبرص (البرص: بياض يظهر في الجسد لعله) .

(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ غير مذكورتين .

وقتلوه، وذلك جهل منهم، وَلَبَسَ عَلَيْهِمْ. فاللَّهُ - سبحانه - رفع عيسى عليه السلام نبيه ووليه، وَحَقُّ الطَّرْدُ وَاللَّعْنُ عَلَى أَعْدَائِهِ، وهذا مَكْرُهُ بهم:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مَتُوفِيكَ﴾.

الإشارة فيه إني متوفيك عنك، وقابضك منك، ورافعك من نعوت البشرية، ومطهرك من إرادتك بالكلية، حتى تكون مُصَرِّفًا بنا لنا، ولا يكون عليك من اختيارك شيء، ويكون إسبال التولي عليك قائماً عليك. وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة - جَلَّتْ.

ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار، ومشاهدة الأمثال والآثار، في جميع الأحوال والأطوار.

﴿وَيَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَدْ كُنْتَ كَذِبًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

بالنصرة والقهر والحجة.

ومتبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دينه وَمَنْ هو على عقيدته في التوحيد - وهم المؤمنون، فَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، إلى يوم القيامة لهم النصرة، ثم إن الله سبحانه يحكم - يوم القيامة - بينه وبين أعدائه. فأما الكفار ففي الجحيم وأما المؤمنون ففي النعيم.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾.

ذلك نتلوه عليك يا محمد، نعرفك معانيه بما نوحى إليك، لا بتكلفك ما تصل إلى عِلْمِهِ، أو بتعلُّمِك من الأمثال، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية.

خَصَّهَما بتطهير الروح عن التناسخ في الأصلاب وأفرد آدم بصفة البدء؛ وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز، وهما وإن كانا كبيرى الشأن فَنَقُصُ الحَدِثَانِ والمخلوقية لازِمٌ لهما:

﴿ثُمَّ قَالَ لِيُكُنْ فَيَكُونُ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد، فلا تُشَكَّن في أنه - سبحانه - لا يماثله في الإيجاد أَحَدٌ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة. والموجودات التي (...) ^(١)، وجودها عن كتم العَدَم - من الله مبدؤها وإليه عَوْدُهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ الآية.

يعني بعدما ظَهَرَتْ على صدق ما يُقال لك، وَتَحَقَّقَتْ بقلبك معرفة ما خاطبك، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة، وثق بأن لك القهر والنصرة، وأنتا توليناك، وفي كنف قُرْبنا أويْنَاك، ولو أنهم رغبوا في هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة، ولكن أخر الله - سبحانه - ذلك عنهم لعلهم يَمَنُّ في أصلابهم من المؤمنين.

والإشارة في هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخست آثار هؤلاء فلا إقرار، ولا عنهم آثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة، ولا يدرك سر حكمه وهم مخلوق، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود، أو موهوم يصوره التقدير.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

فإن تولوا - يا محمد - فإنه لا ثبات عند شعاع أنوارك لشبهة مُبْطِل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ إما يجتاحهم، أو يحلم حتى إذا استمكنت ظنونهم يأخذهم بغتة وهم لا يُنصرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية.

هي كلمة التوحيد وإفراد الحق سبحانه في إنشاء الأشياء بالشهود.

وقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: لا تطالع بِسْرُك مخلوقاً. وكما لا يكون غيره معبودك فينبغي ألا يكون غيره مقصودك ولا مشهودك، وهذا هو اتقاء الشُرْك، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم.

﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ ويظهر صدق هذا بترك المدح والذم لهم.

ونفي الشكوى والشك عنهم، وتنظيف السر عن حساب ذرة من المحو والإثبات منهم. قال ﷺ «أصدق كلمة قالها العرب قول لبيد»:

«ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل»^(١)

فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مُضَيِّقٌ عليهم

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤٣/٨)، ومسلم في (الصحيح الشعر المقدمة ٣)، وابن ماجه في (السنن ٣٧٥٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٣٩/٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٧٨٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢٤٩/٧).

في الوظائف والأوراد، فسييلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب، لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله جل ذكره:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية.

ضرب على خليله - صلوات الله - نقاب الضئيلة وحجاب الغيرة، فقطع سببه عن جميعهم بعد ادعاء الكل فيه، وحكم بتعارض شبهاتهم، وكيف يكون إبراهيم - عليه السلام - على دين من أتى بعده؟! إن هذا تناقض من الظن.

ثم قال:

﴿هَكَانَتْ هَؤُلَاءِ حُجَجَتُهُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يعني ما كان في كتابكم له بيان، ويصح أن يكون لكم عليه برهان، فخصهم في ذلك إما بحق وإما بباطل، فالذي ليس لكم البتة عليه دليل ولا لكم إلى معرفته سبيل فكيف تصدقتم للحكم فيه، وادعاء الإحاطة به؟!

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مِّنْ قَبْلُ﴾.

الحنيف^(١) المستقيم على الحق، والأحنف هو المستقيم في حلقة الرجل، ويسمى مائل القدم بذلك على التفاؤل وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق، ولا زائغاً عن الشرع، ولا معرجاً على شيء وفيه نصيب للنفس، فقد سلم ماله ونفسه وولده، وما كان له به جملة - إلى حكم الله وانتظار أمره.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ لَإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر، بقي أهل الحق في كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى، فكانوا حزباً واحداً، فبعضهم أولى ببعض. وإبراهيم صاحب الحق، ومن دان بدينه - كمثل رسولنا ﷺ وأمه - على الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم تولوا دينه، ووافقوا توحيدَه، وولاية الله إنما تكون بالعون والنصرة والتخصيص والقربة.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾.

(١) الحنف: الاعوجاج، والاستقامة (ضد).

من حَلَّتْ به فتنه، وأصابته محنة، واستهوته غواية - رَضِيَ لجميع الناس ما حلَّ به، فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره، وأن يعودَ إليهم وبأل فعلهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

قَبْلَ بعثه - ﷺ - على صحة نبوته، فما الذي يحملكم على غيكم حتى جحدتم ما علمتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

تكتمون الحق في شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبي الصادق، وهل هذا إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان، ثم أخبر أن منهم من ينافق في حالته، فيريد أن يدفع عنه أذى المسلمين، ولا يخالف إخوانه من الكافرين، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً، والخلوص في عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُ لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِفَ للمسلمين، وأن ذلك لا ينفعهم أمّا في الدنيا فَلَا ظِلَاعَ الله نبيّه عليه السلام والمؤمنين - عليه، وأمّا في الآخرة فَلَيَقْدِرُ إِخْلَاصُهُمْ فِيهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين، والإشارة فيه ألا تعاشرُوا الأضداد، ولا تفشوا أسراركم للأجانب.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾.

فهو الذي يختص من يشاء بأنوار التعريف، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يختص من يشاء بفضون إنعامه، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أَرَادَهُ. ولا بُدُّ من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجري الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية.

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التي يختص - بشيء منها - عبداً من عباده، فيدخل تحت قوله: ﴿يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي بنعمته.

فقومٌ اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بعباء الأبخار، وآخرين ببقاء الأسرار، قال تعالى: ﴿وَأِنْ تَقُودُوا يَمَوتَ اللَّهُ لَا تُحْصَوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ويقال لما سمعوا قوله: ﴿يَخْفَضُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، علموا أن الوسائل ليست بهادية^(١)، وإنما الأمر بالابتداء والمشئة.

ويقال: ﴿يَخْفَضُ رَحْمَتَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَيَتَّهِمُ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ الآية.

أخبر أنهم - مع ضلالتهم وكفرهم - متفاوتون في أخلاقهم، فكُلُّهم حَوَنَةٌ في أمانة الدين، ولكن منهم من يرجع إلى سداد المعاملة، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك في إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب؛ إذ الكفار مُطالَبُونَ بتفصيل الشرائع، فإذا كانوا في كفرهم أقل ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقل عذاباً، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبدة.

ثم يبين أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا:

﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُورِ سَبِيلٌ﴾.

فلا تجري عليهم هذه الحالة، أو تنفعهم هذه القالة، بل الحكم لله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الذين آثروا هواهم على عُقباهم، وقَدَّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم في الآخرة؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا في الدارين.

بقوا عن الحق، وما استمتعوا بحظ، جَمَعَ عليهم فنون المَحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم، لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم، ثم مع هذا يُخَلَّدُهم في العقوبة الأبدية.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ

(١) أصاب الرسول الكريم حين قال: «إنه لن يدخل الجنة أحدًا عمله...» أخرجه أحمد بن حنبل ٦/

وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين في الدعاوى في هذه الطريقة .

يزينون العبارات، ويطلقون ألسنتهم بما لا خَبَرَ في قلوبهم منه، ولا لهم بذلك تحقيق، تلبساً على الأغبياء والعوام وأهل البداية؛ يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم . قال تعالى في صفة هؤلاء ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾، كذلك أرباب التلبيس والتدليس، يُرَوِّجون قائلتهم على المستضعفين، فأما أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة .

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي يعلمون أنهم كاذبون، كذلك أهل الباطل والتلبيس في هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خربة، وأسرار محجوبة، نعوذ بالله من استحقاق المقت!

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

أي ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوَّة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلق إلى نفسه، أو يقول بإثبات نفسه وحظّه، لأن اختياره - سبحانه - إياهم للنبوَّة يتضمن عصمتهم عمّا لا يجوز، فتجوز ذلك في وصفهم مُنَافٍ لحالهم، وإنما دعاء الرسل والأولياء - للخلق - إلى الله سبحانه وتعالى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ﴾ أي إنما أشار بهم على الخلق بأن يكونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب كما يقال فلان دقياني ولحياني . . . وبابه .

وهم العلماء بالله الحكماء في الله القائمون بفنائهم عن غير الله، المستهلكة حظوظهم، المستغرقون في حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم، ينطقون بالله ويسمعون بالله، وينظرون بالله، فهم بالله مَخَوِّ عمّا سوى الله .

ويقال الرباني من ارتفع عنه ظِلُّ نفسه، وعاش في كنف ظلّه - سبحانه .

ويقال الرباني الذي لا يُثَبِّتُ غير ربّه مَوْحِداً، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو مِنْ غيره .

ويقال الرباني من هو مَخَوِّ في وجوده - سبحانه - ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غَيْرُهُ، والمُخْجَرِي لِمَا عليه سواه .

ويقال الرباني الذي لا تُؤَثِّرُ فيه تصاريف الأقدار على اختلافها .

ويقال الرباني الذي لا تُغَيِّرُهُ محنة ولا تَضُرُّهُ نعمة - فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

ويقال الرباني الذي لا يتأثر بورود وارد عليه، فَمَنْ استنطقته رقة قلب، أو استمَّاله هجومُ أمر، أو تفاوتت عنده أخطار حادث - فليس برباني.

ويقال إنَّ الرباني هو الذي لا يباي شيء من الحوادث بقلبه وسيره، ومن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

﴿يَمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكُتَّابَ وَيَمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ مِنْ تَوَالِي إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ، وتضاعف نعمتي لديكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أي لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات في الخير والشر.
ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية.

ويقال يأمركم بتوقيفهم من حيث الأمر والشرعية، وتحقير قدر الخلق - بالإضافة إلى الربوبية. ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يأمركم بإثبات الخلق بعد شهود الحق؟

ويقال: «أَيَأْمُرُكُمْ بمطالعة الأشكال، ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاحت في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شمس التفريد.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية.

أخذ الله ميثاق محمد ﷺ على جميع الأنبياء عليهم السلام، كما أخذ ميثاقهم في الإقرار بربوبيته - سبحانه، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام، فقد قرَنَ اسمه باسم نفسه، وأثبت قُدْرَةَ كما أثبت قدر نفسه، فهو أُوحد الكافة في الرتبة، ثم سَهَّلَ سبيل الكافة في معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الإشارة فيه: فَمَنْ حَادٍ عَنْ سُنَّتِهِ، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبِثَتْ درجتهم، ووجب المقت عليهم لجحدهم، وسقوطهم عن تعلُّق العناية بهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

مَنْ لَاحِظُهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ، أَوْ طَالَعَ سِوَاهُ فِي تَوْهَمِ الْأَهْلِيَّةِ^(١) كَرَأِ السَّرَابَ ظَنَّهُ مَاءً فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ هَبَاءً. ومغاليط الحسابات مُقَطَّعَةٌ مُشْكَلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بِهَا نَزَلَ بِوَادٍ قَفَرٍ. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ لإجراء حكم الإنهية على وجه القهر عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حولنا أو قوتنا.

وآمنا بما أنزل علينا بالله، وأننا لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ - بالله سبحانه - لا بحولنا واختيارنا، وجهدنا واكتسابنا، ولولا أنه عَرَفْنَا أَنَّهُ مَنْ هُوَ مَا عَرَفْنَا وَإِلَّا فَمَتَى عَلِمْنَا ذَلِكَ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. مَنْ سَلَكَ غَيْرَ الْخُمُودِ تَحْتَ جَرِيَانِ حُكْمِهِ سَبِيلًا زَلَّتْ قَدَمُهُ فِي وَهْدَةٍ^(٣) من المغاليط لا مدى لقعرها.

ويقال من توسّل إليه بشيء دون الاعتصام به فُخْصَرَانَهُ أَكْثَرَ مِنْ رِبْحِهِ.

ويقال من لم يَفْنِ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل.

ويقال مَنْ لَمْ يَمْشِ تَحْتَ رَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ الْمُعْظَمِ فِي قَدْرِهِ، الْمُعْلَى فِي وَصْفِهِ، لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا ذَرَّةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ الآية.

مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ اسْتِحْقَاقِ الْوَصْلَةِ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ فَمَتَى يَقْرِبُهُ مِنْ بَسَاطَةِ الْخِدْمَةِ بِفَعْلِهِ فِي وَقْتِهِ؟

ويقال: الذي أقصاه حكم (الأول) متى أدناه صدق العمل؟ والله غالبٌ على أمره.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْنَاهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

(١) الأهلية للأمر: الصلاحية له.

(٢) هنا أجرى مقارنة بقول ذي النون المصري عندما سُئِلَ: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة القشيرية ص ٣١٥).

(٣) الوهدة: الأرض المنخفضة كأنها حفرة. والهوة تكون في الأرض (ج) وهاد، ووهذ.

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه في ابتداء أمرهم، ابتداءهم ردُّ القسمة، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

خالدين في تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة، ولم يكونوا في شق السبق من تلك الجملة، وإن كانوا في توهم الخلق من تلك الزمرة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

الإشارة منه: أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة، وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى، ثم أنكروا على أهل الطريقة، وازدادوا في وحشة ظلماتهم - لن تُقبل توبتهم، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة. وعقوبتهم أنهم على ممر الأيام لا يزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة، ولا يتحسرون على ما فاتهم من صفاء الحالة. ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لقبلت توبتهم، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة في هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأسفوا على ما مضى من أوقاتهم.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْ لَا مَرْفَءَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وإن المرتد عن الإسلام لأشدَّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلي، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشدَّ إنكاراً لها وأكثر إغراضاً عن أهلها من الأجنبي عنها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

الإشارة منه: لمن مات بعد فترته - وإن كانت له بداية حسنة - فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه القصة، ولو تشفع له ألف عارف، بل من كمال المكر به أنه يلقي شبهه في الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو - فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغي أن يشفع له.

قوله جل ذكره: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّنَا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾.

لَمَّا كَانَ وجود البرِّ مطلوباً ذكر فيه «مِنْ» التي للتبويض فقال: ﴿وَمَا تُحِبُّونَ؟﴾
فَمَنْ أَرَادَ البرَّ فَلْيَنْفِقْ مِمَّا يَحِبُّهُ أَيُّ البَعْضِ، وَمَنْ أَرَادَ الْبَارَّ فَلْيَنْفِقْ جَمِيعَ مَا يَحِبُّهُ. وَمَنْ
أَنْفَقَ مَحْبُوبَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَجَدَ مَطْلُوبَهُ مِنَ الْحَقِّ تَعَالَى، وَمَنْ كَانَ مَرْبُوطاً بِحُظُوظِ نَفْسِهِ
لَمْ يَحِظْ بِقَرَبِ رَبِّهِ.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وأنت
تؤثر عليه حظوظك. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلَيْهِ﴾ منهم من ينفق على
ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن، ومنهم من
ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً - عند سلمى - شمائله
قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى
نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌ فذلك
من الحق - سبحانه - توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فإن الله - سبحانه -
وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به
من أحكام القلوب، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر
مضيقٌ عليهم في الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم
بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ إلى أحوال
أهل الدعاوى والمغاليط؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله - سبحانه -
هواجسها، والله بريء عنها. وعزيرٌ عبدٌ يفرق بين الخواطر والهواجس.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحُكْمِهِ من غير أن تبقى بقية؛
فإثبات ذرة في الحِسبان من الحدّثان شرك - في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ مَا بَدَأْتُمْ
بَيْنَكُمْ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنَى الْعَالَمِينَ﴾.

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدَرَةٌ، فَرَبَطَ المَدَرَةَ بالحَجَرَةِ، فالمدّر مع الحجر. وتعزّز
وتقدّس من لم يزل.

لَمَّا كَانَ وجود البرِّ مطلوباً ذكر فيه «مِنْ» التي للتبويض فقال: ﴿وَمَا يُحِبُّونَ﴾؛ فَمَنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أي البعض، وَمَنْ أراد البارَّ فلينفق جميع ما يحبه. ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربه.

ويقال إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وأنت تؤثر عليه حظوظك. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَ عِلْمِهِ﴾ منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحزن، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه، قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتذكر يوماً - عند سلمى - شمائله
قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فَلْ قَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاثْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم، فما لا يوجد فيه حدٌ فذلك من الحق - سبحانه - توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سبحانه - وَسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ما هم به من أحكام القلوب، فإن الذي على قلوبهم من المشاق أشد. وأما أهل البداية فالأمر مضيقٌ عليهم في الوظائف والأوراد؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعاني، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط.

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله - سبحانه - هواجسها، والله بريء عنها. وعزيزٌ عبدٌ يفرق بين الخواطر والهواجس.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
ملة إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية، والتسليم لحكمه من غير أن تبقى بقية؛ فإثبات ذرة في الحسبان من الحدثان شركٌ - في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ مَا بَنَيْنَاً مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدْرَةٌ، فَرَبَطَ المدرة بالحجرة، فالمدر مع الحجر. وتعزَّز وتقدَّس من لم يزل.

ويقال البيت مطاف النفوس، والحق سبحانه مقصود القلوب!

البيت أطلال وآثار وإنما هي رسوم وأحجار ولكن:

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بَعْدْنَا إِلَى الْآثَارِ

ويقال البيت حجر، ولكن ليس كل حجر كالذي يجانسه من الحجر.

حَجَرٌ وَلَكِنْ لِقُلُوبِ الْأَحْبَابِ مَزْعَجٌ بَلْ لَأَكْبَادُ الْفُقَرَاءِ مَنْفَعٌ^(١)، لا بل لقلوب قومٍ مِثْلُجٍ مَبْهَجٍ، ولقلوب الآخرين منفج مزعج.

وهم على أصناف: بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم.

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب، ومن لاحظته بعين الإضافة حظي بكل تقريب وإيجاب، كما قيل:

إِنْ الدِّيارَ - وَإِنْ صَمَمْتُ - فَإِنَّ لَهَا عَهْدًا بِأَحْبَابِنَا إِذْ عِنْدَهَا نَزَلُوا

بيت من زاره بنفسه وجد الطافه، ومن شاهده بقلبه نال كشوفاته.

ويقال قال سبحانه: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦] وأضافه إلى نفسه، وقال ها هنا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وفي هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع.

وسميت (بكة) لازدحام الناس، فالكل يتناجزون على البدار إليه، ويزدحمون في الطواف حوالته، وبذلون المهج في الطريق ليصلوا إليه.

والبيت لم يخاطب أحداً منذ بَنِيَ بُنْيَةً، ولم يستقبل أحداً بحظوة، ولا راسل أحداً بسطر في رسالة، فإذا كان البيت الذي خلقه من حجر - هذا وصفه في التعزز فما ظنك بمن البيت له. قال ﷺ مخبراً عنه سبحانه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»^(٢).

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى رب البيت بالهوينى دون تحمّل المشقات ومفارقة الراحة؟!.

ويقال لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِأَوَّلِ بَيْتٍ وَضَعْتَ لَكَ وَلَكِنْ أَفْرِذْ سِرِّكَ لِأَوَّلِ حَبِيبٍ أَتَرَكَ.

ويقال شتان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِعَ له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له.

(١) نفج الشيء: ارتفع، والنفج: الفخر والكبر أي فخر المرء بما ليس عنده.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٤١٤)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣٢٨، ٨/

٣٣٦، ٩/٢٨٧)، والهيتمي في (موارد الظمآن ٤٩)، وأبو حنيفة في (جامع المسانيد ١/٨٨ -

١١٣) وفي (المسند ١٦٠)، والبيهقي في (الاسماء والصفات ١٣٨).

ويقال لا يكون دخول البيت - على الحقيقة - إلا بخروجك عنك، فإذا خرجت عنك صَحَّ دخولك في البيت، وإذا خرجت عنك أُمِنْتَ.

ويقال دخول بيته لا يصحُّ مع تعريضك في أوطانك ومعاهدك، فإن الشخص الواحد لا يكون في حالة واحدة في مكانين؛ فمن دخل بيت ربّه فبالحرّي أن يخرج عن معاهد نفسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا﴾.

شرط الغني ألا يدخّر عن البيت شيئاً من ماله، وشرط الفقير ألا يدخّر عن الوصول إلى بيته نفساً من روحه.

ويقال الاستطاعة فنون؛ فمستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم، ومستطيع بغيره وهو الزمّين المعصوب، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطاياها.

ويقال حج البيت فَرَضَ على أصحاب الأموال، ورب البيت فَرَضَ على الفقراء فرض حتم؛ فقد يَنْسُدُ الطريق إلى البيت ولكن لا يَنْسُدُ الطريق إلى رب البيت، ولا يُمنَعُ الفقير عن رب البيت.

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظَّمُ: فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت، فشتان بين حج وحج، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فريضهم، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم، فأما القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام، وأما القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ عَنِ الْعَالَمِيْنَ﴾.

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء في كد التأويل، ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ عَنِ الْعَالَمِيْنَ﴾ وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص.

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن يفسخ كلّ عَقْدٍ يصدّه عن هذا الطريق، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق، وإذا طَهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء، فإذا تجرّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوس له من الأخلاق الذميمة، وإذا لبّي بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنِهِ إلا وقد استجابت لله. فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسيره حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام، ولا تعرض لتخصيص؛

فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه، وعرف له تعالى حقّه على نفسه، ويتعرّف إلى الله تعالى بِتَبَرِّيهِ عَنْ مُنْتَهَى وَحَوْلِهِ، والحق سبحانه يتعرّف إليه بِمُنْتَهَى وَطَوْلِهِ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه، ولا يصحّ ذكره لربّه مع ذكره لنفسه، فإذا بلغ مِنِّي نفي عن قلبه كل طلب ومُنَى، وكل شهوة وهوى.

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى.
وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية، وتقرّب به إلى الحق سبحانه، فإذا دخل الحرم عزم على التباعد عن كل مُحَرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة.
وإذا وقع طَرَفُهُ على البيت شهد بقلبه ربّ البيت، فإذا طاف بالبيت أخذ سيره بالجولان في الملكوت.

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية.
فإذا خلّق قطع كل علاقة بقيت له.
وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربّه يخرج من بيت ربّه إلى ربّه تعالى.
فمن أكمل نُسكّه فإنما عمل لنفسه، ومن تكاسل فإنّ الله غني عن العالمين وقال ﷺ: «الحاج أشعث^(١) أغبر»، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.
الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم، ومن حيث الحقيقة والقهر يسدّ الحجة عليهم، فهم مدعوون - شرعاً وأمرأ، مطرودون - حُكماً وقهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوْهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

كيف يصد غيره من هو مصدود في نفسه؟ إنّ في هذا لَسرّاً للربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كُفْرِينَ﴾.

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها، بل هي متعديّة إلى كل من يحوم حول أهلها، فمن أطاع عدوّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء) ألفاه في هدمته.

(١) الشعث: التلبّد والتغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

لا ينبغي لمن أشرفت في قلبه شמושُ العرفان أن يوقع الكفر عليه ظله، فإنه إذا أقبل النهار من ها هنا أدبر الليل من ها هنا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم﴾ الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله، فأما مَنْ لم يَهْدِهِ الله فمتى يعتصم بالله؟ فالهداية منه في البداية توجب اعتصامك في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وحقيقة الاعتصام صدق اللجوء إليه، ودوام الفرار إليه، واستصحاب الاستغاثة إليه. وَمَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصِمُ به؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ﴾.

وَمَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محوياً عن حوله وقوته في اعتصامه - فالشِرْكُ وطنه وليس يشعر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

حق التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِهِ ولا ينقص.

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه، وأمره على وجهين: على وجه الحشم وعلى وجه التذنب وكذلك القول في النهي على قسمين: تحريم وتنزيه، فيدخل في جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقي عن كل خلة ثم التنقي من كل علة، فإذا تَقَيَّتْ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْتْ حق تقواك.

وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُزْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يقبل أحداً بَعْلَةً ولا يَرُدُّ أحداً بَعْلَةً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

لا تُصَادِفُكُم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعِصُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِإِذِكُمْ أَنْتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

الاعتصامُ بحبله - سبحانه - التمسكُ بآثارِ الواسطة - العزيز صلوات الله عليه - وذلك بالتحقق والتعلق بالكتاب والسنة.

ويصح أن يقال: الخواص يُقال لهم ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، وخاص الخاص قبل لهم ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾، ولمن رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلّاه، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره - فمرفوع عنه ظل العناية، وموكل إلى سوء حاله.

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرُّوا﴾: التفرقة أشد العقوبات وهي قرينة الشُّرك.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾. وكانوا أعداء حين كانوا قائمين بحظوظهم، مُعْرِجِينَ على ضيق البشرية، متزاحمين بمقتضى شُحِّ النفوس.

﴿قَالَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾: بالخلاص من أسْرِ المكنونات، ودَفَعَ الأخطار عن أسرارهم، فصار مقصودهم جميعاً واحداً؛ فلو أَلْفَ أَلْفَ شخص في طلب واحد - فهم في الحقيقة واحد.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ نعمته التي هي عصمته إياكم، إخواناً مُتَّفِقِي القصد والهمة، متفانين عن حظوظ النفس وخفايا البخل والشح.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾: بكونكم تحت أسْرِ مُناكم، ورباط حظوظكم وهواكم.

﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: بنور الرضاء، والخمود عند جريان القضاء، وتلك حقاً هي المكانة العظمى والدرجة الكبرى، ويدخل في هذه الجملة تركُ السكون إلى ما منك من المناقب والثقى، والعقل والحجا، والتحصيل والنهى، والفرار إلى الله - عزَّ وجلَّ - عن كل غير وسوى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

هذه إشارة إلى أقوام قاموا بالله الله، لا تأخذهم لومة لائم، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة، وقفوا جملتهم على دلالات أمره، وقصروا أنفاسهم واستغرقوا أعمارهم على تحصيل رضاه، عملوا لله، ونصحوا الدين لله، ودَعَوْا خَلْقَ الله إلى الله، فَرَبِحَتْ تجارتهم، وما خَسِرَتْ صفقتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقوم الطلب، ثم وسمهم في الانتهاء بِكَيِّ

الفرقة، فباتوا في شق الأحباب، وأصبحوا في زمرة الأجانب.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أرباب الدعاوى تسود وجوههم، وأصحاب المعاني تبيض وجوههم، وأهل الكشوفات غداً تبيض بالإشراق وجوههم، وأصحاب الحجاب تسود بالحجبة وجوههم، فتعلوها غبرة، وترهقها قشرة.

ويقال مَنْ ابيض - اليوم - قلبه ابيض - غداً - وجهه، وَمَنْ كان بالصد فتحاله العكس.

ويقال مَنْ أعرض عن الخلق - عند سوانحه - ابيض وجهه بروح التفويض، وَمَنْ علّق بالأغيار قلبه عند الحوائج اسود محياه بغبار الطمع؛ فأما الذين ابيضت وجوههم ففي أنس وروح، وأما الذين اسودت وجوههم ففي محن ونوح.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

نديم مخاطبتنا معك على دوام الأوقات في كل قليل وكثير، عمارة لسبيل الوداد: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ وأنى يجوز الظلم في وصفه تقديرًا ووجوداً - والخلق كلهم خلقه - والحكم عليهم حكمه؟

﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ حكماً.

قوله جل ذكره: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

لما كان المصطفى صلوات الله عليه أشرف الأنبياء كانت أمته - عليه السلام - خير الأمم. ولما كانوا خير الأمم كانوا أشرف الأمم، ولما كانوا أشرف الأمم كانوا أشوق الأمم، فلما كانوا أشوق الأمم كانت أعمارهم أقصر الأعمار، وخلقهم آخر الخلائق لثلاث بطول مكثهم تحت الأرض. وما حصلت خيريتهم بكثرة صلواتهم وعبادتهم، ولكن بزيادة إقبالهم، وتخصيصه إياهم. ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولكن لما خرج الإذن بالدخول تقدّم المتأخرون:

وكم باسطين إلى وُضِلْنَا أَكْفَهُمْ لم ينالوا نصيبا

قوله جل ذكره: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

المعروف خدمة الحق، والمنكر صعبة النفس.
 المعروف إثارة حق الحق، والمنكر اختيار حظ النفس.
 المعروف ما يُؤْلَفُكُ إليه، والمنكر ما يحجبك عنه.
 وشرط الأمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف، وحق الثأبي عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر.

﴿وَلَوْ مَأَمَّنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
 لو دَخَلَ الكافة تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العز في الدنيا والعقبى، ولكن
 بَعُدُوا عن القبول في سابق الاختيار فصار أكثرهم موسوماً بالشرك.
 قوله جل ذكره: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ أَلَذَّابًا ثُمَّ لَا
 يُنصَرُونَ﴾.

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله
 فرارهم، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم، وإن استطالوا على الأولياء بموجب
 حسابهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَنْ مَاتُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا
 بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ
 بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

عَلِمَ الهجران لا ينكتم، وَسِمَةُ البُغْدِ لا تَخْفَى، ودليل القطيعة لا يستتر؛ فهم في
 صغار الطرد، وذُلُّ الرد، يعتبر بهم أولو الأبصار، ويغتر بهم أضربهم من الكفار
 الفجار.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ
 اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

كما غَايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك تضاد فكذلك أثبت منافاة بين
 أحوال الأولياء وأحوال الأعداء، ومتى يستوي الضياء والظلمة، واليقين والتهمة،
 والوصلة والفرقة، والبعد والألفة، والمعتكف على البساط والمنصرف عن الباب،
 والمتصف بالولاء والمنحرف عن الوفاء؟ هيهات يلتقيان! فكيف يتفقان أو يستويان؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ﴾.
 لن يخيب عن باب قاصد، ولم يخسر عليه (تاجر)، ولم يستوحش معه
 مصاحب، ولم يذل له طالب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ ضَالُّونَ﴾.

لا في الحال لهم بدل ولا في المال عنهم خلف. في عاجلهم خسروا، وفي آجلهم في قطع وهجر، وبلاء وخسر، وعذاب ونكر:

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْسِرَةَ لِمَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِسُلْمَى فَلَمْ يَجِدَ

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَكُنَّ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسرات متتابعة، وما حصلوا من حساباناتهم إلا على محن مترادفة، وذلك جزاء من أعرض وتولى.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الركون إلى الضد - بعد تبين المشاق - إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو، فأشار الحق - سبحانه - على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض، وإظهار البراءة عن كل غير، ودوام الخلو للحق - سبحانه - بالقلب والسر. وأخبر أن مضادات القوم للرسول ﷺ أصلية غير طارئة عليهم، وكيف لا؟ وهو صلوات الله عليه محل الإقبال وهم محل الإعراض. ومتى يجتمع الليل والنهار؟!.

قوله جل ذكره: ﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَكُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَالِيَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

أنتم بقضية كرمكم تصفو - عن الكدورات - قلوبكم؛ فتغلبكم الشفقة عليهم، وهم - لعتوهم وخلفهم - يكيّدون لكم ما استطاعوا، ولفرط وحشتهم لا تترشح منهم إلا قطرات غيظهم. ففرغ - يا محمد - قلبك منهم.

﴿قُلْ مَوْتُيَ يُعْطِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

دعهم يتفردوا بمقاساة ما تداخلهم من الغيظ، واستريحوا بقلوبكم عما يحل بهم، فإن الله أولى بعباده؛ يوصل إلى من يشاء ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْفَ تَمُوتُ وَإِنْ تَصْنَعُوا سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة، الراجعين إلى أحوال

أهل العادة؛ لا يعجبهم أن يكون لمريد نفاذ، وإذا رأوا فترةً لقاصِد استراحوا إلى ذلك. وإنَّ الله - بفضله ومِثته - يُثِمُّ نورَه على أهل عنايته، ويَذَرُ الظالمين الزائغين عن سبيله في عقوبة بعادهم، لا يبالي بما يستقبلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أقامه - ﷺ - بتبويئه الأماكن للقتال، فانتدب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سره، فالمدار على قضائه وقدره، والاعتبار بإجرائه واختياره.

قوله جلت قدرته: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يُبْرِزُ الجميع في صدار الاختيار؛ كأن الأمر إليهم في نفهم وإتيانهم، وفعلهم وتركهم، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصريف القبضة، وتقلب القدرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

تذكير ما سَلَفَ من الإنعام فتح لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأْنَف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

كان تسكين الحق سبحانه لقلب المصطفى - ﷺ - بلا واسطة من الله - سبحانه، والربط على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول ﷺ - فلولا بقية بقيت عليهم ما رُدَّهم في حديث النصرة إلى إنزال الملك، وأنى بحديث الملك - والأمر كله بيد الملك؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَمَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أجرى الله - سبحانه - سُنتَه مع أوليائه أنه إذا ضعفت نيَّاتهم، أو تناقصت إرادتهم أو أشرفت قلوبهم على بعض فترة - أراهم من اللطاف، وفنون الكرامات ما يُقَوِّي به أسباب عزفانهم، وتؤكد به حقائق يقينهم.

فعلى هذه السُّنة أنزل هذا الخطاب. ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

(١) استأنف الشيء: أخذ أوله، ابتداءه، استقبله.

قوله جل ذكره: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

إنَّ الله لا يُشْمِئُ بأوليائه عدوًّا؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة، فعدوه لا محالة يكبه الله في الفتنة والعقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإله من له الأمر والنهي، فلما لم يكن له في الإلهية نظير لم يكن له - (ﷺ) (١) - من الأمر والنهي شيء.

ويقال جرَّده - بما عرَّفه وخاطبه - عن كلِّ غير ونصيب ودعوى، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شيء، فإذا لم يَجْزُ أن يكون لسيد الأولين والآخرين شيء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبته عن منزلته فمتى يكون له شيء من الأمر؟

ويقال استأثر (بِسُتْرِ عبادته في حكمه) فقال أنا الذي أتوب على من أشاء من عبادي وأعذب من أشاء، والعواقب عليك مستورة، وإنك - يا محمد - لا تدري سرى فيهم.

ويقال أقامه في وقتٍ مقاماً فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه، وقال له في وقت آخر: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ثم زاد في البيان فقال: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. فإذا كان المُلْكُ ملكه، والأمر أمره، والحكم حكمه - فَمَنْ شاء عذبه، ومن شاء قرَّبه، ومن شاء هداه، ومن شاء أغواه.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

حرَّم الربا على العباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردهما، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى ما لا نهاية له، والإشارة فيه أن الكرم لا يليق بالخلق وإنما هو صفة الحق سبحانه.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: دليل الخطاب أنَّ المؤمن لا يُعَذَّبُ بها، وإنَّ عَذْبَها مُدَّةٌ فلا يُخْلَدُ فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْرِهِ، وتخفيفاً على

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

الامة حيث رُدَّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم، فإنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكَنُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالنَّصِيبِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

معناه سارعوا إلى علم يوجب لكم المغفرة، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال ﷺ: «الندم توبة» وإنما توجب المغفرة التوبة لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران.

والناس في المسارعة على أقسام: فالعابدون يسارعون بقدِّمهم في الطاعات، والعارفون يسارعون بهمهمهم في القربات، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات. فَمَنْ سارع بِقَدِّمِهِ وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته.

ولمَّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العرض، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض، فقوِّم قالوا: المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُهُ بالتجاوز عن العبد وهو كلامه، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض.

ومن قال: مغفرته من صفات فعله قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية، إشارة إلى استغراقه جميع الذنوب.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

لا يَدْخِرُونَ عن الله شيئاً، ويؤثرونه على جميع الأشياء، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد، وأموالهم في إفشاء الخيرات وإبتغاء القربات بوجوه الصدقات، وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراعاة، وأرواحهم على صفاء المحبَّات والوفاء على عموم الحالات، وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات؛ ينتظرون إشارات المطالبات، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات.

قوله: ﴿وَالْكَبِيرِ وَالنَّصِيبِ﴾: يتجاوزون عن الخلق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة، وأقوام يَحْلُمُونَ على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمِهِمْ فيشهدونهم بعين التسلسل، وآخرون يكظمون الغيظ تحقّقاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهنَّ عليهم التحمل، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافي الدرجات في الدَّلَّ لأن نفوسهم ساقطة فانية، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء؛ فعلموا أنَّ المنشئ الله؛ فزال خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمَّا أفردوه

بالإبداع انقادوا لحكمه؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه، فأكرمهم الحق سبحانه بيزد الرضاء، فقاموا له بشرط الموافقة.

قوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فرضاً رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس، قال قائلهم:

رُبَّ رام لي بأحجار الأذى لم أجذبُ بدءاً من العطف عليه
﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. هذا في معاملة الحق، وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تدع جميع حقك بالكلية كم كان على من كان، وتقبل (...)^(١) منه ولا تقلده في ذلك مئة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام «قل للظلمة حتى لا يذكرني فإني أوجبت أن أذكر من ذكرني وذكرني للظلمة باللعنة». وقال لظلمة هذه الأمة.

﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ويقال فاحشة كل أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم وإن خطوط المخالفات ببال الأكابر كفعلها من الأغيار، قال قائلهم:

أنت عيني وليس من حق عيني غرض أجفانها على الأقداء^(٢)
فليس الجُرم على البساط كالذنب على الباب.

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم، فاستغفروا لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به، فخلصهم من ظلمات نفوسهم. وإن رؤية الأحوال والأفعال لظلمات عند ظهور الحقائق، ومن طهره الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بردهم إلى شهود الربوبية، وما سبق لهم من الحسنى في سابق القسمة.

﴿وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مؤجلاً من الفراديس، ومُعجلاً في روح المباحات وتمام الأنس.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الأقداء (ج) القذى: وهو ما يتكون في العين من زَمَصٍ وَغَمَصٍ. أو ما يقع في العين من تَبَنٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني اعتبروا بمن سلف، وانظروا كيف فعلنا بمن وآلى وكيف انتقمنا ممن عاذى، وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، ولآخرين من حيث مكاشفات القلوب، ولآخرين من حيث تجلّى الحق في الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يعني إذا قلتُم بالله (ووصلتم) بالله فلا ينبغي أن تخافوا من غير الله، ولا تهنوا ولا تضعفوا فإن النصره من عند الله، والغالب الله، وما سوى الله فليس منهم ذرة ولا منهم سيئة.

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ينبغي للمؤمن ألا تظله مهابة من غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَوْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَوْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَوِلُّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

إن نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم، ومُنُوا بمثل ما به مُنِيتُم، فمن صبر منهم ظفر، ومن ضجر من حُمِلَ ما لقي خسر، والأيام ثَوْبٌ والحالات دُولٌ، ولا يخفى على الحق شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيَصْحَبَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

اختبارات الغيب سبب للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله.

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ في أودية التفرقة. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾.

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألغته أمانيه في مهواة الهلاك، وإن من عرف قَدْرَ مطلوبه سَهَّلَ عليه بذلُ مجهوده: (.....) ^(١) وهو بلذاته على من يظن يخلع العذار وقال قائلهم:

إذا شام ^(٢) الفتى برق المعاني فاهون فائت طيب الرقاد

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

(٢) شام: أي ظهرت بجلده الشامة.

(١) بياض في الأصل.

طوارق التمني بعد الصبر على احتمال المشاق ولكن :

إذا انسكبت دموع في خُدودٍ تبين من بكى ممن تباكى
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنفَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .
إن الرسل موقوفون حيشما وقفوا، ومخبرون عما عرفوا بمقدار ما عرفوا؛ فإذا
أيدوا بأنوار البصائر أطلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أعطوا من
الإشراق بوظائف البلوغ.

﴿أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ﴾ لما تُوفِّي المصطفى - ﷺ - سقمت
البصائر إلا بصيرة الصديق رضي الله عنه فأمدّه الله بقوة السكينة، وأفرغ عليه قوة
التولي فقال: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات»^(١) فصار الكل مهوورين تحت
سلطان قائلته لما انبسط عليهم من نور حالته، كالشمس بطلوعها تندرج في شعاعها
أنوار الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم.
وإنما قال: ﴿أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ لأنه ﷺ مات. وقيل أيضاً لأنه قال: «ما زالت
أكلة خبير تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ
ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ .
الأنفاس محصورة؛ لا زيادة فيها، ولا نقصان منها.

﴿وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة.
﴿وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم
الرضوان.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ : وجزاء الشكر الشكر.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .

إن الذين درجوا على الوفاء، وقاموا بحق الصفاء، ولم يرجعوا عن الطريق،

(١) أخرجه البخاري (جناز ٣)، (فضائل أصحاب النبي ٥)، (مغازي ٨٣)، وابن ماجه (جناز ٦٥)،
وأحمد بن حنبل (٦، ٢٢٠).

(٢) أخرجه القاضي عياض في (الشفاء ٦٠٩/١)، والخطابي في (إصلاح خطأ المحدثين ٢٣) والقرطبي
في (التفسير ١٦٣/٥)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢١٨٩)، (وصاحب ميزان الاعتدال
٣٢١٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١٢٣٩/٣).

وطالبوا نفوسهم بالتحقيق، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق - وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث صبرهم، وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم، فما زاغوا عن شرط الجهد، ولا زاغوا في حفظ العهد، وسلموا تسليماً، وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقيماً مستديماً، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَكَيْتَ أَفْئَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

تحققوا بحقائق المعنى فخرسوا عن إظهار الدعوى، ثم نطقوا بلسان الاستغفار، ووقفوا في موقف الاستحياء، كما قيل:

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسنته آثام

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا﴾.

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس في الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح ببقائه، ثم استقلال السر بوجوده.

﴿وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يعني دخولهم الجنة محررون عنها، غير داخلين في أسرها.

ويقال ثواب الدنيا والآخرة الغيبة عن الدارين برؤية خالقهما^(١).

ولما قال ﴿تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ قال في الآخرة ﴿وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةَ﴾ فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصه بوصف الحسن، وتلك المزية دوامها وتماها وثمارها، وأنها لا يشوبها ما ينافيها، ويوقع آفة فيها.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تُلَيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُودُكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

يعني إن طاوعم الأضداد جزوكم إلى أحوالهم، فآلقوكم في ظلماتهم، بل الله مولاكم: ناصرکم ومعينکم وسيدکم ومصلح أمورکم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾: لأنه يعينكم على أنفسكم ليكيفيكم شرها، ومن سواه يزيد في بلاككم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لأن من سواه بمن عليك بنصرته إياك، وهو يجازيك على استنصارك به.

(١) قال القشيري في حديثه عن الغيبة برسالته: الغيبة في المصطلح الصوفي هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحسن بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب. (الرسالة القشيرية ص ٦٩).

ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تُعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرت - سبحانه - يعطيك كل لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك.

قوله جل ذكره: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَتْوًى الظَّالِمِينَ﴾.

إن الله سبحانه خص نبينا - ﷺ - بإلقاء الرعب منه في قلوب أعدائه، قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بالرعب»^(١). فكذلك أجرى هذه السُّنة مع أوليائه؛ يطرح الهيبة منهم في القلوب، فلا يكاد يكون محق إلا ومنه - على المبطلين وأصحاب الدعوى والتمويه - هيبة في القلوب وقهر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرت - سبحانه - يعطيك كل لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك).

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أوليائه بحق حقه، وأعدهم عن تحصيل حظوظهم، وقام سبحانه بكفائتهم بكل وجه، فمن لازم طريق الاستقامة، ولم يزغ عن حده ولم يُزِغ في عهده، فإنه سبحانه يصدق وعده له بنجمل الكفاية ودوامها، ومن ضل عن الاستقامة - ولو خطوة - عثر في مشيته، واضطربت عليه - بمقدار جُرمه - حاله وكفايته، فمن زاد زيد له، ومن نقص نقص له.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ سَرَفْنَا عَنْهُمْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قيمة كل أحد إرادته؛ فمن كانت همته الدنيا فقيمتُه خسيصة فقيرة كالدينا، ومن كانت همته الآخرة فشریف خطره، ومن كانت همته ربانية فهو سيد وقته. ويقال من صفا عن إرادته وصل إليه، ومن وصل إليه أقبل - بلطفه - عليه، وأزلفه بمحل الخصوصية لديه.

قوله: ﴿ثُمَّ سَرَفْنَا عَنْهُمْ﴾: الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه، وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا،

(١) أخرجه النسائي في (سننه ٣/٦)، وأحمد بن حنبل (المسند ٢/٢٦٤، ٢٦٨، ٣١٤، ٣٩٦، ٤١٢، ٤٥٥، ٥٠١)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١/٢٦٠، ٢٥٨/٨)، والحميدي في (المسند ٩٤٥).

والإشارة في قوله تعالى: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لهؤلاء أنهم يتحيرون في أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة، ولا إعراض بالكلية، يحيلون فترتهم على سوء اختيارهم، ويضيفون صفوة - لو كانت لقلوبهم - إلى اجتهدهم، وينسئون ربهم في الحالين، فلا يصرون تقدير الحق سبحانه. قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: فَمَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمُنْشِئَ اللَّهَ انْسَلَخَ عَنْ اخْتِيَارِهِ وَأَحْوَالِهِ كَانْسِلَاخِ الشَّغِيرِ عَنِ الْعَجِينِ، وَسَلَّمْ أُمُورُهُ إِلَى اللَّهِ بِالْكَلِيَّةِ. وأما مَنْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ أَنَّ يَسْتَرِيحُ مِنْ كَدِّ تَدْبِيرِهِ، وَيَعِيشُ فِي سَعَةِ شُهُودِ تَقْدِيرِهِ.

وقوله: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾: لَمْ يُخْلِصُوا فِي عَقَائِدِهِمْ، وَأَضْمَرُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا، وَأَعْلَنُوا غَيْرَ مَا سَتَرُوا، وَأَحَالُوا الْكَائِنَاتِ عَلَى أَسْبَابٍ تَوْهَمُوهَا.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾. أخبر أن التقدير لا يزأحم، والقدر لا يكابر، وأن الكائنات محتومة، وأن الله غالب على أمره.

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: فأما أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفة وحجة، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة، فتصبح قلوبهم خالصة من الشوائب، صافية عن العلائق، منفردة للحق، مجردة عن الخلق، مُحَرَّرَةٌ عَنْ الْحِظِّ وَالنَّفْسِ، ظَاهِرَةٌ عَلَيْهَا آثَارُ الْإِقْبَالِ، غَالِبًا عَلَيْهَا حُسْنُ التَّوَلَّى، بَادِيَةٌ فِيهَا أَنْوَارُ التَّجَلِّي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من سَقَمَتْ إِرَادَتُهُمْ، وَضَعُفَتْ نِيَّتُهُمْ، وَقَادَهُمُ الْهَوَى، وَمَلَكَتُهُمُ الْفِتْرَةُ.

قَابَلَهُمْ نَصْحُ النَّاصِحِينَ، وَدَعَاةُ الْمُنَى، وَوَسَاوِسُ الشَّيَاطِينِ فَرَكْنُوا إِلَى الْغِيْبَةِ، وَأَثَرُوا الْهَوَى عَلَى التَّقَى فَبَقُوا عَنْهُ، وَلَمْ يَتَهَنُوا بِمَا آثَرُوهُ عَلَيْهِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَمُيَسِّرُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

مَنْ تَعَوَّدَ أَنْ يَتْلَهَفَ عَلَى مَاضِيهِ وَسَالِفِهِ، أَوْ يَتَدَبَّرَ فِي مُسْتَقْبَلِهِ وَآئِفِهِ، فَأَقْلُ عَقُوبَةٍ لَهُ ضَيْقُ قَلْبِهِ فِي تَفْرِقَةِ الْهَمُومِ، وَامْتِحَاءِ نَعْتِ الْحَيَاةِ عَنْ قَلْبِهِ لَغْفَلَتِهِ وَقَالَتِهِ لَيْتَ كَذَا

ولعلّ كذا، وثمرَةُ الفكرة في ليت ولعلّ - الوحشة والحسرة وضيق القلب والتفرقة.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مَتَّعْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَكِنْ مَّتَّعْ أَوْ قُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشُرُونَ﴾.

بذل الروح في الله خير من الحياة بغير الله، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من البقاء مع غير الله، وما يؤثره العبد على الله فغير مبارك، إن شئت: والدنيا، وإن شئت: والعقبى.

قوله: ﴿وَلَكِنْ مَّتَّعْ أَوْ قُلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشُرُونَ﴾: إذا كان المصير إلى الله طاب المسير إلى الله: وإن سَفَرَهُ إليه بعدها نَحْطُ رَحَالَنَا لِمُقَاسَاتِهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ!

قوله جل ذكره: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

جرّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلقه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟!

ويقال إن من خصائص رحمته - سبحانه - عليه أن قَوَاهُ حتى صَحِبَهُمْ، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم - مع سلطان ما كان مستغرقاً له ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطلق صحبتهم؟!

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان تريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يعجره إليه؟

ويقال لولا أنه ﷺ شاهدتهم محوياً فيما كان يَجْرِي عليهم من أحكام التصريف، وتحقّق أن منشئها الله - لما أطاق صحبتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: لو سَقَيْتَهُمْ صِرَفَ شراب التوحيد غير ممزوج بما فيه لهم حظٌ لتفرقوا عنك، هائمين على وجوههم، غير مطيقين للوقوف لحظة، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يكون تقصيراً منهم في حقك وتوقيعك، وما عثرت عليه من تفریطهم في خدمتنا وطاعتنا - فانتصّب لهم شافعاً إلينا.

ويقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فاعف - أنت - عنهم فإن حكمك حكمنا، فأنت لا تغفو إلا وقد عَفَوْنَا، ثم رُدّه عن هذه الصفة بما أثبتته في مقام العبودية، ونقله إلى وصف

التفرقة فقال: ثم قِفْ في محل التذلل مبتهلاً إلينا في استغفارهم. وكذا سُنَّته - سبحانه - مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه، يردُّهم مِنْ جمع إلى فرقي ومن فَرَّقِي إلى جمع، ف قوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ جمع، وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فرق.

ويقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ وتجاوز عنهم في حقوقك، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالاً للكرم؛ ولهذا كان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ويقال ما يُقَصِّرُون في حَقِّكَ تعلُّق به حَقَّان: حَقِّك وحقي، فإذا عفوت أنت فلا يكفي هذا القَدْرُ بل إن لَمْ أتجاوز عنهم في حقي كانوا مستوجبين للعقوبة؛ فمن أَرْضَى خصمه لا يَنْجِبِرْ حاله ما لم يغفر الله له فيما ترك من أمره.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي أثبت لهم محلاً؛ فإنَّ المعفو عنه في صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة، فإذا شاورتهم أزلت عنهم انكسارهم، وطبَّيْتُ لهم قلوبهم.

ويقال تجسَّسوا في أحوالهم: فَمِنْ مُقَصِّرٍ في حقه أَمِرٌ بالعفو عنه، ومن مرتكب لذنوبه أَمِرٌ بالاستغفار له، ومن مطيع غير مقصرٍ أَمِرٌ بمشاورته.

ثم قال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي لا تتكل على رأي مخلوق وكلِّ الأمور إلي، فإننا لا نخليك عن تصريف القبض بحال.

وحقيقة التوكل شهود التقدير، واستراحة القلوب عن كد التدبير.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لغب^(١) ونَصَب، وإنه يعامل كلاً بما يستوجه؛ فقومٌ يغنيهم - عند توكلهم - بعطائه، وآخرون يكفيهم - عند توكلهم - ببقائه، وقوم يرضيهم في عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه، ويقفون معه به له - على تلوينات قَدْرِهِ وقضائه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

المؤمنون نصرته لهم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح.

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد السرائر.

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. والنصرة على النفس بأن تهزم دواعي مُتَّبِعِهَا بعواصم رحمته حتى تَنْفَضَّ جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شهبات الدواعي التي هي أوصاف

(١) اللغب: التعب والإعياء الشديد. والنَّصَب: التعب.

البشرية، وشهوات النفوس وأمانيتها، التي هي آثار الحجة وموانع القربة.

﴿وَإِنْ يَخْذُكُمُ الْخِذْلَانِ التَّخْلِيَةَ مَعَ الْمَعَاصِي، فَمَنْ نَصَرَهُ قَبْضَ عَلَى يَدَيْهِ عَنْ تَعَاظِي الْمَكْرُوهِ، وَمَنْ خَذَلَهُ أَلْقَى حَبْلَهُ عَلَى غَارِبِهِ، وَوَكَّلَهُ إِلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِ، فَيَفْتَرِقُ عَلَيْهِ الْحَالُ فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، فَمَرَّةٌ يُشْرَقُ غَيْرُ مُحْتَشِمٍ، وَتَارَةً يُغْرَبُ غَيْرُ مُحْتَرِمٍ، أَلَا وَمَنْ سَبَّهَ الْحَقُّ فَلَا أَخْذَ بِيَدِهِ، وَمَنْ أَسْلَمَهُ فَلَا مَجِيرَ لَهُ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: في وجدان الأمان عند صدق الابتهاال، وإسبال ثوب العفو على هناة الجُزم عند خلوص الالتجاء، بالتبري من المنة والحول.

ويقال لما كان حديث النصرة قال: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ولما كان حديث الخذلان لم يقل «فلا ناصر لكم» بل قال بالتلويح والرمز: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِي؟﴾: وفي هذا لطيفة في مراعاة دقائق أحكام الخطاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نزّه أحوال الأنبياء عن الدنس بالخianات، فمن حَمَلْنَاهُ مِنَ الرِّسَالَةِ إِلَى عِبَادِنَا يُوصلها إِلَى مُسْتَحَقِّهَا وَاجِبًا، وَلَا يَعْنِي بِشَأْنٍ حَمِيمٍ لَهُ مِنْ دُونِ أَمْرِنَا، وَلَا يَمْنَعُ نَصِيبُ أَحَدٍ أَمْرِنَاهُ بِإِيصَالِهِ إِلَيْهِ، بِحَقْدٍ يَنْطَوِي عَلَيْهِ. أَلَا تَرَى كَيْفَ قَالَ: «أَذْهَبْ فَوَارِهِ» لَأَبِي طَالِبٍ لَمَّا قَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَاتَ عَمُّكَ ^(١) الضَّالُّ. وَكَيْفَ قَبِلَ الْوَحْشِيُّ ^(٢) قَاتِلَ حِمْزَةٍ لَمَّا أَسْلَمَ؟

ويقال ما كان لنبي من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضل أسرارنا في غير أهلها، بل يُنْزِلُونَ كُلَّ أَحَدٍ عِنْدَمَا يَسْتَوْجِبُهُ، وَفِي الْأَثَرِ «أَمْرُنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ».

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُلُهُ جَهَنَّمُ وَيَتَّبَعَ الْمُصِيرُ هُمْ دَرَجَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

(١) أخرجه النسائي في (السنن ١/ ١١٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/ ١٣٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٥٨/٣، ٣٩٨، ٦٧/٧)، وابن حبان في (المجروحين ١/ ١١١)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ١/ ١٨٠)، والساعاني في (منحة المعبود ٢٣٢٧)، وفي (بدائع المنن ٥٥٥)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٣٤٨).

(٢) هو وحشي بن حرب الحبشي أو دسمة، مولى بني نوفل (... - نحو ٢٥هـ - ... - نحو ٦٤٥م) صاحب من سودان مكة كان من أبطال الموالى في الجاهلية وهو قاتل الحمزة عم النبي ﷺ قتله يوم أحد. شهد اليرموك وشارك في قتل مسيلمة وكان يقول قتلت بحريتي هذه خير الناس وشر الناس، وسكن حمص فمات بها في خلافة عثمان.
(الأعلام ٨/ ١١١) (الإصابة ت ٩١١١) والاستيعاب بهامشها (٣/ ٦٠٧ - ٦١٠).

لا يستوي مَنْ رضي عنه في آزاله وَمَنْ سخط عليه فخذله في أحواله، وجعله متكللاً على أعماله، ناسياً لشهود أفضاله، واتباع الرضوان بمفارقة زُجر عنه، ومعانقة ما أُمِرَ به، فَمَنْ تجرَّد عن المزجور، وتجلَّد في اعتناق المأمور فقد اتبع الرضوان، واستوجب الجنان.

﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي هم أصحاب درجات في حكم الله، فَمِنْ سعيدٍ مُقَرَّب، وَمِنْ شقيٍّ مُبْعَد.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

أجزل لديهم العارفة، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله، وعرفهم دينهم، وأوضح لهم براهينهم، وكان لهم بكل وجه فلا نعمة شكروا، ولا حقه وقروا، ولا بما أرشدهم استبصروا، ولا عن ضلالتهم أقصروا. . هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا. وأما المؤمنون فتقلدوا المنة في الاختيار، وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار، فسعدوا في الدنيا والعقبى، واستوجبوا من الله الكرامة والزلفى^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا فَلَمْ أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

عادة الخلق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان، والرجوع إلى الله بالتهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران، وفنون المكارة والافتتان، وإنْ مَنْ تعاطى^(٢) . . . الإجماع فحقيق بألا ينسى حلول الانتقام.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذْقِعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَنْتَبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

هوَّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أحد، بأن قال إن ذلك أجمع كان بإذن الله، وإنْ بلاء يصيب بإذن الله لِمَنْ العسل أحلى، ومن كل نعيم أشهى. ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم في الصعبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكاسلوا:

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصال وقال كان وكانا

(٢) يياض في الأصل.

(١) الزلفى: المنزلة والدرجة والقربة.

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فلا جَرَمَ (سَقَوْا الْعَسَلَ وَدَسُّوا لَهُ فِيهِ الْحَنْظَلُ) ^(١)، ومكروا ومكر الله والله خبر الماكرين.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الذين ركنوا إلى ما سئلت لهم نفوسهم من إثارة الهوى، ثم اعترضوا على من يصرف أحكام القضاء وقالوا لو تَحَرَّزُوا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة. . لَمَذْمُومَةٌ تلك الظنون، وَلَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب.

قُلْ لَهُمْ - يا محمد - استديموا لأنفسكم الحياة، وادفعوا عنها هجوم الوفاة!
ومتى تقدرون على ذلك؟! هيهات هيهات!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس في رضاء الحق أتم من البقاء بنعمة الخلق مع الحجة عن الحق.

ويقال إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل فليس بميت - وإن قُتِلَ:

وإن كانت العبدان للموت أَثْبِتَتْ فقتل امرئ في الله - لا شك - أفضل

قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: مَنْ علم أن أحبائه ينتظرونه وهم في الرَّفَّةِ والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإمام بهم والنزول عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

عَلَّه استبشارهم وموجبه فضل من الله ونعمة منه، أي لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى استبشروا؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عباده وأنه مولاهم ^(٢)، ولولا فضله ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة.

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديدة المرارة، كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُرْوَع في الحداثات الطبية.

(٢) قال القشيري: سمى الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية. ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾، وقال تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به، وفي هذا المعنى أنشدوا:

لا تدعنني إلا بعبادتها فإنه أشرف أسمائني
(الرسالة القشيرية ص ٢٠٠).

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العربية وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرهاً، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستحلاء تحمُّل الحُكم. فالاستجابة للحق بوجوده، والاستجابة للرسول - عليه السلام - بالتحلُّق بما شرع من حدوده.

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء في حق الربوبية، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء في إقامة العبودية.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: في ابتداء معاملاتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم، وابتسام الحقائق في أسرارهم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه...» - وهو المشاهدة والتقوى -... فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١) - وهو المراقبة في حال المجاهدة.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لاهل البداية مؤجلاً، ولاهل النهاية مُعجلاً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

لم يلتبس على ظواهرهم شيء من أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم - في أسرارهم - طوابع من الكشوفات، فازدادوا يقيناً على يقين.

ومن أمارات اليقين استقلال القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِنَ الخَلْق في توهم الإنجاد والإعانة.

قوله جل ذكره: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِ وَفَضَّلَهُمْ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

كذا سُنة الحق - سبحانه - مع مَنْ صَدَقَ في التجائه إليه أن يمهد مقيله في ظل كفايته؛ فلا البلاء يمسه، ولا العناء يصيبه، ولا النَّصَب يَظْلُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخْوَفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في (صحيحه ١٤٤/٦). والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠) وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤) والهيتمي في (موارد الظمان ١٦) وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨)، والزيدي في (تحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨، ٩٤/١٠)، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

الإشارة في تسليط دواعي الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله؛ كالصبي الذي يخوف بشيء يفزع الصبيان، فإذا خاف لم يهتد إلى غير أمه، فإذا أتى إليها آوئته إلى نفسها، وضمته إلى نحرها، وألصقت بخده خدها.

كذلك العبد إذا صدق في ابتهاله إلى الله، ورجوعه إليه عن مخالفته، آواه إلى كنف قربته، وتداركه بحسن لطفه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

زاد في قوة قلبه بما جدّد من تأكيد العهد، بأنه لا يشمت به عدواً، ولا يوصل إليه من قبلهم سوءاً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن أضروا فما أضروا إلا بأنفسهم، وإن أضروا فما أضروا إلا على خسرانهم:

فما نحن عذبتنا ببغدي ديارهم ولا نحن ساقطنا إليهم نوازغ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ومن تمام المكر بهم، والمبالغة في عقوبتهم أننا نعدّبهم وهم لا يشعرون؛ ﴿سَنَنْدِرْجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] نملي لهم فيظنون ذلك إنعاماً، ولا يحسبونه انتقاماً، فإذا برزت لهم كوامن التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفي خسران، وقد اتضح لكل ذي بصيرة أن ما يكون سبب العصيان وموجب النسيان غير معدود من جملة الإنعام.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

جمعهم اليوم من حيث الأشخاص والمباني، ولكنه فرقهم في الحقائق والمعاني؛ فمن طيبة سجيته^(١)، وزمن خبيثة طبيئته. وهم وإن كانوا مشائب^(٢) ففي بصيرة الخواص هم ممتازون.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾: فإن أسرار الغيب لا تظهر للمتلوئين بأدناس

(١) السجّة: الخلق والغريزة والطية (ج) سجيات وسجايا.

(٢) مشائب: من الشوب: وهو الخلط والغش، وما اختلط بغيره من الأشياء.

البشرية، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلّ وقلّ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسرارهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَخْصَى الَّذِينَ يَسْلُطُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

مَنْ أثر شيئاً على الله لم يبارك له فيه؛ فلا يدوم له - في الدنيا - بذلك استمتاع، ولا للعقوبة عليه - في الآخرة - عنه دفاع.

والبخل - على لسان العلماء - منع الواجب، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شيء ولو ذرة من المال أو نفساً من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونُوا عَذَابَ الْخَرْيِقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى. والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سئة الأحاب.

ويقال علم أن في المؤمنين مَنْ يغتاب الناس، وذلك قبيح من قالتهم، فأظهر ثبناً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار، فكانه قال: لئن قبحت قالتهم في الاغتيال فأقبح من قولهم قول الكفار حيث قالوا في وصفنا ما لا يليق بنعمتنا.

وفيه أيضاً إشارة إلى الدعاء إلى الخلق، والتجاوز عن الخصم، فإن الله - سبحانه - لم يسلبهم ما أولاهم مع قبح ما ارتكبوه من التقصير في حقوقه.

قوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدق إشارة؛ يعني أنهم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإننا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم:

صحائف عُنْدِي لِلْعِتَابِ طَوِيلَتَا سَتُنَشِّرُ يَوْمًا وَالْعِتَابُ يَطُولُ

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا فَإِنْ نَلَقَيْ يَوْمًا فَسَوْفَ أَقُولُ

قوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ هذا لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه العذر مما عمله به، فكانه - سبحانه - يقول: «عبدى هذا الذي تلقاه - اليوم - من العقوبة لأن الذنب لك، ولو لم تفعله لما عذبتك».

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ إِلَّا رَسُولِي حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَازِي قُلْتُمْ قَلِيلَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

تقولوا على الله - سبحانه - فيما تعللوا به من ترك الإيمان، فقالوا: لقد أمرنا ألا نصدق أحداً إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى للسماء، وتنزل نار من السماء، فتأخذ القربان عياناً ببصر، فقال تعالى قل لهم إن من تقدمني من الأنبياء عليهم السلام أتوكم بما اقترحتم علي من القربان، ثم لم تؤمنوا، فلو أجبتكم إليه لن تؤمنوا بي أيضاً؛ فإن من أقصته السوابق - فلو خاطبته الشمس بلسان فصيح، أو سجدت له الجبال رآها بلحظ صحيح - لم يبلغ العرفان في قلبه، وما ازداد إلا شكاً على شك.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي عادة الكفار تكذيب الرسل: وعلى هذا النحو درج سلفهم، وبهديهم اقتدى خلفهم.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْخِجَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾.

أي كأس الموت توضع على كف كل حي فمن تحلأها طيبة نفسه أوزنته سُكَّرَ الوجد، ومن تجرعها على وجه التعبس، وقع في وهدة الرَّد، ووسيم بكِّي الصَّد، ثم يوم القيامة: فمن أجبر من النار وصل إلى الراحة الكبرى، ومن ضلَّى بالسعير وقع في المحنة الكبرى.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾: لأن ما هو آتٍ فقريب.

قوله جل ذكره: ﴿لَتَنبَلُوهُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُولَى﴾.

كفاهم أكثر أسباب الضرر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم، وعرفهم أن خير الأمرين لهم إيثار الصبر واختيار السكون تحت مجاري الأقدار.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبَسَّ مَا بَشَرُوكَ﴾.

أخبر أنهم أبرموا عهودهم أن لا يزولوا عن وفائه، ولكنهم نقضوا أسباب الدِّمام

بما صاروا إليه من الكفران، ثم تبين أن ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبَارَكْ لهم فيه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَكُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إن من باشر رؤية الخلق قلبه، ولأحظهم بسره فلا تظن أن عقوبتهم مؤخرة إلى يوم القيامة، بل ليسوا من العذاب - في الحال - بمفازة، وأي عذاب أشد من الرد إلى الخلق والحجاب عن الحق؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية ها هنا إلى غناه - سبحانه - عما في الكون، وكيف يحتاج إليهم؟! ولكنهم لا يجدون عنه خلفاً، ولا عليه بدلاً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

الآيات التي تعرّف الحق سبحانه وتعالى بها إلى العوام هي التي في الأقطار من العبر والآثار، والآيات التي تعرّف بها إلى الخواص فالتى في أنفسهم. قال سبحانه: ﴿سَرِّبْنَاهُمَا إِيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين، والآيات انباطنة توجب عين اليقين.

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالي العباد؛ فليالي أهل الوصلة قصيرة، وليالي أهل الفراق طويلة؛ فهذا يقول:

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سرار
ويقول:

صباحك سكر والمساء خمار فنمت وأيام السرور قصار
والثاني يقول:

ليالي أقر الظاعنين^(١) (...) ^(٢)شكوت وليلُ العاشقين طويل
وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قصره فهو لما غلب عليه يقول:

لست أدري أطلال ليلى أم لا؟ كيف يدري بذاك من يتقلّى؟!
لو تفرغت لاستطالة ليلى ورغيت النجوم كنت مجلاً

(٢) بياض في الأصل.

(١) الظاعنين: (ج) ظاعن: السائر والمرتحل.

قوله تعالى: ﴿لَاؤُلَى الْأَلْبَابِ﴾: أولو الأبواب هم الذين صَحَّتْ عقولهم من سكر الغفلة. وأما مَنْ كان كذلك أن يكون نظره بالحق؛ فإذا نظر من الحق إلى الحق استقام نظره، وإذا نظر من الخلق إلى الحق انتكست نعمته، وانقلبت أفكاره مُورَثَةً للشبهة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا﴾ الآية.

استغرق الذكر جميع أوقاتهم؛ فإن قاموا فبذكره، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها^(١).
ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القربة.
وَمَنْ لَمْ يَسْلَمْ فِي بَدَايَةِ قِيَامِهِ عَنِ التَّقْصِيرِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ قَعُودٌ فِي نَهَائِهِ بِوَصْفِ الحضور.

والذكر طريق الحق - سبحانه - فما سلك المريدون طريقاً أصح وأوضح من طريق الذكر، وإن لم يكن فيه سوى قوله: «أنا جليس من ذكرني» لكان ذلك كافياً.
والذاكرون على أقسام، وذلك لتباين أحوالهم: فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره من تَقْصِيفِ سَلَفٍ له، أو قُبْحِ حَصلٍ منه، فيمنعه خجله عن ذكره، فذلك ذكر قبض.

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم تقرب الحق إياه بجميل إقباله عليه.

وذاكر هو محو في شهود مذكوره؛ فالذكر يجري على لسانه عادةً، وقلبه مُضْطَلَمٌ فيما بدا له.

وذاكر هو محل الإجلال بأنف من ذكره ويستقذر وصفه، فكأنه لتصاغر عنه لا يريد أن يكون له في الدنيا والآخرة (ثناء) ولا بقاء، ولا كون ولا بهاء، قال قائلهم:

ما إن ذكرتك إلا هم يلعنني قلبي وروحي وسرى عند ذكراكا
حتى كأني رقيباً منك يهتف بي إياك ويحك والتذكاري إياكا

والذكر عنوان الولاية، وبيان الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومُنْشَأَةٌ عن الذكر.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٣.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا كَرِّرْ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ .

التفكر نعمة كل طالب، وثمرته الوصال بشرط العلم، فإذا سلم الذكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق، وإذا حصل الشهود والحضور سما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر، فالذكر سرمد^(١).

ثم فكر الزاهدين في فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها. وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه. وفكر العارفين في الآلاء والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار في بحار التعظيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ . من ابتليته في الآجل بالحرقة فقد أخزيت، ومن ابتليته بالفرقة في العاجل فقد أشقيته، ومن أوليته بيمين الوصله فقد آوئته وأذنيته.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ .

يعني أجبنا الداعي ولكن أنت الهادي، فلا تكلنا إلينا، ولا ترفع ظلّ عنايتك عنا.

والإيمان الدخول في موجبات الأمان، وإنما يؤمن بالحق من آمنه الحق، فأمان الحق للعبد - الذي هو إجارته - يوجب إيمان العبد بالحق الذي هو تصديقه ومعرفته.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ : وهم المختصون بحقائق التوحيد، القائمون لله بشروط التفريد، والواقفون مع الله بخصائص التجريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

حقّق لنا ما وعدتنا على السنة الوسائط من إكمال التعمى (....)^(٢) وغفران كل ما سبق منا من متابعت الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع . انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٣.

(٢) بياض في الأصل.

وَلَا ذُنُوبُهُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٠٠﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذي لَقَّنَهُم الدعاء، وهو الذي ضمن لهم الإجابة، ووَعَدَهُ جميل الثواب على الدعاء زائد على ما يدعون لأجل الحوائج.

﴿قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا﴾: يعني الديار والمزار، وجميع المخالفين والموافقين من الأغيار.

﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾: إلى مفارقة معاهدهم من مألوفاتهم.

﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾: غُيِّرُوا بالفقر والملام، وفتنوا بفنون المحن والآلام.

﴿وَقَتَّلُوا وَقُتِّلُوا﴾: ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر.

﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: يعني لنعطينهم فوق آمالهم وأكثر، مما استوجبوه بأعمالهم وأحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَغْرِبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَتَسَّاتِرُ إِلَيْهَا﴾.

لا تتداخلنك تهمة بأن لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هي أيام قلائل وأنفاس معدودة، ثم بعدها حسرات مترادفة، وأحزان متضاعفة.

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾.

الذين وسمناهم بذل الفرقه بثست حالتهم، والذين رفعوا قدماً لأجلنا فنعمت الحالة والزلفة؛ وصلوا إلى الثواب المقيم، وبقوا في الوصلة والنعيم، وما عند الله مما أذخرنا لهم خير مما أملوه باختيارهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِنَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يريد من ساعدتهم القسمة بالحسني فهم مع أولياء الله نعمة كما كانوا معهم قسمة.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الصبر فيما تفرد به العبد، والمصابرة مع العدو.

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص .

ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاضطبار وهو نهاية^(١) .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ورابطوا بالاستقامة في الصحبة في عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم، ورابطوا بأسراركم .

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب، وصابروا على ابتغاء القربة، ورابطوا في محل الدنو والزلفة - على شهود الجمال والعزة .

والصبر مُرٌّ مذاقه إذا كان العبد يتحسّاه على الغيبة، وهو لذيذ طعمه إذا شربه على الشهود والرؤية .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ : الْفَلَاحُ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ، وَهَمَّتْهُمْ الْيَوْمَ الظَّفَرُ بِنَفْسِهِمْ، فعند ذلك يتم خلاصهم، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيف المجاهدة، وصلبوها على عيدان المكابدة، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله .

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٨٣ - ١٨٩ (الصبر) .

السورة التي يذكر فيها النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلفوا في الاسم عن ماذا اشتق؟ فمنهم من قال إنه مشتق من السمو وهو العلو. ومنهم من قال إنه مشتق من السمة وهي الكيئة.

وكلاهما في الإشارة: فَمَنْ قال إنه مشتق من السمو فهو اسمٌ مَنْ ذَكَرَهُ سَمَتْ رَتْبُهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ سَمَتْ حَالَتُهُ، وَمَنْ صَحِبَهُ سَمَتْ هِمَّتُهُ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المشويات والمبار، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار في الأسرار، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقْ الأغبار.

ومن قال أصله من السمة فهو اسمٌ مَنْ قَصَدَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْعِبَادَةِ، وَمَنْ صَحِبَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْإِرَادَةِ، وَمَنْ أَحَبَّهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْخَوَاصِ، وَمَنْ عَرَفَهُ وَبَسَمَ بِسْمَةِ الْإِخْتِصَاصِ. فِسْمَةُ الْعِبَادَةِ توجب هبة النار أن ترمي صاحبها بشرها، وسمة الإرادة توجب حشمة الجنان أن تطمع في استرقاق صاحبها - مع شرف خطرهما، وسمة الخواص توجب سقوط العُجْبِ من استحقاق القرية للماء والطينة على الجملة، وسمة الاختصاص توجب امتحاء الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة.

ويقال اسمٌ مَنْ واصله سما عنده (عن) الأوهام قَدْرُهُ (سبحانه). ومن فاصله وَبَسَمَ بِكَيْيِ الْفُرْقَةِ قَلْبُهُ.

وعلى هذه الجملة يدل اسمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾.

الناس اسم جنس، والاشتقاق فيه غير قوي. وقيل سمي الإنس إنساً لظهوره^(١) فعلى هذه الإشارة: يا مَنْ ظهرت من كتم العدم بحكم تكليفي، ثم خصصت مَنْ

(١) الإنس: البشر وواحد إنسي، والجمع أناسي، وهنا ربما قصد القشيري إلى ذلك حتى يقابل الجن: وقد خلقهم الله من مارج من نار، وقد سموا بذلك لاستئثارهم واختفائهم عن الأبصار.

شئتُ منكم بتشريفي، وحرمتُ من شئتُ منكم هدايتي وتعريفي، ونقلتكم إلى ما شئتُ بل أوصلتكم إلى ما شئتُ بحكم تصريفي.

ويقال لم أظْهِرَ مِنَ الْعَدَمِ أمثالكم، ولم أظْهِرَ عَلَى أَحَدٍ ما أظْهِرْتُ عَلَيْكُمْ من أحوالكم.

ويقال سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِنَسْيَانِكَ، فَإِنْ نَسِيتَنِي فلا شيءَ أَحْسَنَ مِنْكَ، وَإِنْ نَسِيتَ ذَكَرِي فلا أَحَدَ أَحْطَ مِنْكَ.

ويقال من نَسِيَ الحقَّ فلا غايةَ لمحتته، ومن نسي الخَلْقَ فلا نهايةَ لعلوِّ حالته.

ويقال يقول للمُذْنِبِينَ، يَا مَنْ نَسِيتَ عَهْدِي، ورفضتُ ودي، وتجاوزت حدِّي حَانَ لَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى بَابِي، لَتَسْتَحِقَّ لَطْفِي وإِجَابِي. ويقول للعارفين يَا مَنْ نَسِيتَ فِينَا حَظَّكَ، وَصُتَ عَنْ غَيْرِنَا لِحَظِّكَ وَلَفْظِكَ - لقد عَظُمَ عَلَيْنَا حَقُّكَ، وَوَجِبَ لَدِينَا نَصْرُكَ، وَجَلَّ عِنْدَنَا قَدْرُكَ.

ويقال يَا مَنْ أُنِسْتَ بِنَسِيمِ قُرْبِي، واستروجتُ إلى شهود وجهي، واعتززتُ بجلال قَدْرِي - فَأَنْتَ أَجَلُ عِبَادِي عِنْدِي.

قوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾: التقوى جماع الطاعات، وأوله ترك الشُّرُكِ وآخره اتقاء كل غير، وأولُ الأغيار لك نَفْسُكَ، وَمَنْ اتَّقَى نَفْسَهُ وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال، و (وقف) لله.. لا لشهود حظُّ في الدنيا والعقبى.

قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهو آدم عليه السلام، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضاً كذلك، لَمَّا ظَهَرَتْ مِزْيَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ عَلَى جَمِيعِ المَخْلُوقِينَ والمَخْلُوقاتِ فَكَذَلِكَ وَصَفْنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَّلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

ولفظ «النفس» للعموم والعموم يوجب الاستغراق.

قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: حَكَمَ الحقُّ - سبحانه - بمساكنة الخلق مع الخلق لبقاء النسل، ولرُدِّ المِثْلِ إِلَى المِثْلِ فَرَبَطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ.

قوله: ﴿وَبَنَىٰ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾: تعرَّفَ إِلَى العقلاء عَلَى كَمَالِ القُدْرَةِ بِمَا أَلَحَ مِنْ بَرَاهِينِ الرُّبُوبِيَّةِ ودلالات الحكمة؛ حيث خَلَقَ جَمِيعَ هَذَا الخَلْقِ مِنْ نَسْلِ شَخْصٍ وَاحِدٍ، عَلَى اخْتِلَافِ هَيْئَتِهِمْ، وَتَفَاوُتِ صُورِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَخْلَاقِهِمْ، وَإِنْ اِثْنَيْنِ مِنْهُمْ لَا يَتَشَابَهُانِ، فَلكل وجه في الصُّورَةِ والخَلْقِ، والهِمَّةِ والحَالَةِ، فَسَبْحَانِ مَنْ لَا حَدَّ لِمَقْدُورَاتِهِ وَلَا غَايَةَ لِمَعْلُومَاتِهِ.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تَكرِيرُ الأَمْرِ بِالتَّقْوَى يَدُلُّ عَلَى تَأْكِيدِ حُكْمِهِ.

وقوله: ﴿نَسَاءً لَّوْنٌ بِهِ وَالْأَرْحَامُ﴾: أَيِ اتَّقُوا الأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا، فَمَنْ قَطَعَ الرَّحِمَ قُطِعَ، وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: مطلعاً شهيداً، يعدُّ عليك أنفاسك، ويرى حواسك، وهو مُتَوَلٍّ خطراتك، ومنشئ حركاتك وسكناتك. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَسْتَحْيِي مِنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَتُوا بِالْحَقِّ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَبِثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي أَمْوَالُكُمْ إِنَّكُمْ كَانُوا حُوبًا كَبِيرًا﴾.

مَنْ أَقِيمَ بِمَحَلِّ الرِّعَايَةِ فِجَاءً عَلَى رِعِيَّتِهِ فَخَضَمُهُ رَبُّهُ؛ فَإِنَّهُ - سَبْحَانَهُ - يَنْتَقِمُ لِعِبَادِهِ مَا لَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ. قَوْلِي الْيَتِيمَ إِنْ أَنْصَفَ وَأَخْسَنَ فَحَقُّهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى فَخَضَمُهُ اللَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْمِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

أَبَاحَ اللَّهُ لِلرِّجَالِ الْأَحْرَارِ التَّزْوِجَ بِأَرْبَعٍ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَوْجَبَ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَرَاعِيَ الْوَاجِبَ فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقُومُ بِحَقِّ هَذَا الْوَاجِبِ آثَرَ هَذَا الْمُبَاحِ، وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَقْصُرُ فِي الْوَاجِبِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْمُبَاحِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مَسْئُولٌ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾.

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ طَعَامَ الْفَتَيَانِ^(١) وَالْأَسْخِيَاءَ مَرِيءٌ لَأَنَّهُمْ لَا يُطْعَمُونَ إِلَّا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ، وَطَعَامُ الْبِخْلَاءِ رَدِيءٌ لَأَنَّهُمْ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَإِنَّمَا يُطْعَمُونَ عَنْ تَكَلُّفٍ لَا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ. قَالَ ﷺ: «طَعَامُ السَّخِيِّ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

السُّفَهَاءُ مَنْ يَمْنَعُكَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَشْغَلُكَ عَنِ الرَّبِّ.

وَالسُّفَهَاءُ مِنَ الْعِيَالِ وَالْأَوْلَادِ مَنْ تَوَثَّرَ حِظْوُظُهُمْ عَلَى حَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى.

قوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾: حِفْظُ التَّجَمُّلِ فِي الْحَالِ أَجْدَىٰ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلتَّبْذُلِ وَالسُّؤَالِ، وَالْكَدِيَّةُ^(٣) وَالْإِحْتِيَالُ. وَإِنَّمَا يَكُونُ الْبَذْلُ خَيْرًا مِنَ الْإِمْسَاكِ

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦ - ٢٣١ في حديث القشيري عن الفتوة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ١٧٥)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٠٨).

(٣) الكدية: حرفة السائل المُلِحِّ (الشحاذة).

عند تحرُّر القلب والثقة بالصبر. فأما على نية الكدية وأن تجعل نفسك وعيالك كلاً على الناس فحفظك ما جعله الله كفاية لنفسك أولى، ثم الجود بفاضل كفايتك.

قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويفضل فلا تدخره عما تدعو إليه حاجتهم معلومك خشية فقر في الغد، فإن ضاقت يدك عن الإنفاق فلا يتسعين لسانك بالقبيح من المقال.

ويقال إذا دعيتك نفسك إلى الإنفاق في الباطل فأنت أسفه السفهاء فلا تطع نفسك.

قوله جل ذكره: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفٍّ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

إناس الرشد العفة والديانة، والسخاء والصيانة، وصحبة الشيوخ، والحرص على مشاهدة الخير، وأداء العبادات على قضية الأمر.

ويقال الرشيد من اهتدى إلى ربه، وعندما تسنح له (حاجة) من حوائجه لا يتكل على حوله وقوته، وتدبيره واختياره.

قوله جل ذكره: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب؛ فلو مات رجل وخلف ابنين تساوي في الاستحقاق وإن كان أحدهما براً تقياً والآخر فاجراً عصياً، فلا للثقي زيادة لتقواه، ولا للفاجر بخس لفجوره، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطية من قبل الله، فيتساوى فيه البر والفاجر. كذلك حكم الإيمان ابتداء عطية للمسلمين: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ...﴾ [فاطر: ٣٢] الآية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالسَّكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان والمستحقون، وحضر من لا نصيب لهم في الميراث من المساكين فلا تحرمهم من ذلك. فإن كان المستحق مؤلى عليه، فعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا: «إذا بلغ الصبي قلنا له حتى يعطيك شيئاً» وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾. وفي هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لعرضته غداً، والحق سبحانه يغفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم، فمن كان منكم من فقراء

المسلمين لا يحرمهم الغفران إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً، ولا لك استحقاق سابق فبفضله ما أهلك لمعرفة مع علمه بما يحصل منك في مستأنف أحوالك من زلتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

يَبَيِّنُ في هذه الآية أن الذي ينبغي للمسلم أن يدخره لعياله التقوى والصلاح لا المال؛ لأنه لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنه يتولى الصالحين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْفُونَ سَعِيرًا﴾.

إنما تولّى الحق سبحانه خصيمة اليتيم، لأنه لا أحد لليتيم غيره، وكل من وكل أمره إليه فثبراً من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه.

قوله جل ذكره: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُشُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُشُ مِنْ بَيْنِ وَصِيٍّ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

الوصية ها هنا بمعنى الأمر، فإنه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين:

١ - الفرض ٢ - التعصيب، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصْبَةَ قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً، ثم العَصْبَةُ وهم أقوى استحقاقاً. قال ﷺ:

«ما أَبْقَتْ الفرائض فَلَأُولَى عَصْبَةٍ ذَكَرَ»^(١) كذلك أبداً سنته، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قَدَّمَ الظالم على السابق، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنْكَسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة.

وقوله: ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. لو كان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أُولَى لضعفها، ولعجزها عن الحراك، ولكن حُكْمَهُ - سبحانه - غير معلل.

(١) أخرجه القرطبي في (التفسير ٧١/٥ - ١٦٧)، وصاحب (شرح معاني الآثار ٤/٣٩٠).

قوله جل ذكره: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الأبناء ينفعونكم بالخدمة، والآباء بالرحمة؛ الآباء في حال ضعفك في بداية عمرك، والأبناء في حال ضعفك في نهاية عمرك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّو يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدٍ وَصِيَّةً يُّوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِن بَعْدٍ وَصِيَّةً يُّوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدٍ وَصِيَّةً يُّوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنسب؛ والسبب أن الميت إذا مات تحمّل القريب أحزانه فعوض الله الوارث على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجع مآل الموروث... وكذا سنّه - سبحانه - التعويض على مقاساة الأذى - جوداً منه لا وجوباً عليه^(١) - كما تؤمهم قوم. وكل من كان أقرب نسباً أو أقوى سبباً من الميت كان أكثر استحقاقاً لميراثه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوباً على أريحية^(٢) (... ..) (عقب النوى موت الفتى ظل مغرماً

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

حدوده: أوامره ونواهيه، وما تعبد به عباده.

وأصل العبودية حفظ الحدود، وصون العهود، ومن حفظ حده لم يصبه مكروه ولا آفة، وأصل كل بلاء مجاوزة الحدود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَقْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وإنما هما عقوبتان: معجلة ومؤجلة، ويقترن بهما جميعاً الذل؛ فلو اجتهد الخلاق على إذلال المعاصي بمثل الذل الذي يلحقهم بارتكاب المعصية لم يقدموا عليها؛ لذلك قال قائلهم: من بات ملماً بذنب أصبح وعليه مذلته، فقلت ومن أصبح مبراً ببر ظل وعليه مهابته.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٩١ - ٩٧ في حديث القشيري عن التوبة.

(٢) الأريحية: الارتياح للكرم والمعروف.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْئَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

إنما اعتبر في ثبوت الفاحشة - التي هي الزنا - زيادة الشهود إسبالاً لستر الكرم على إجرام العباد، فإن إقامة الشهود - على الوجه الذي في الشرع لإثبات تلك الحالة - كالمُتَعَذِّرِ.

وفي قوله - ﷺ - لَمَّا عَزَّ لَمَّا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ - صلوات الله عليك - إِنِّي زَنَيْتُ فَطَهَّرْنِي. فقال: لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ^(١). ثم قال في بعض المرات: «استنكهوه»^(٢).

ففي هذا أقوى دليل لما ذكرت من إسباله الستر على الأعمال القبيحة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِفُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ شيء في الردع والمنع منه بالرفع، لعل العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

لا استغفار مع الإصرار: فإن التوبة مع غير إقلاع سِمَةِ الكذابين.

وقوله: ﴿السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾: يعني عَمِلَ عَمِلَ الْجَهَالِ.

وذنب كل أحد يليق بحاله، فالخواص ذنوبهم حسبانهم أنهم بطاعتهم يستوجبون محلاً وكرامة، وهذا وَهْنٌ فِي الْمَكَانَةِ؛ إذ لا وسيلة إليه إلا به.

قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾: على لسان أهل العلم: قبل الموت، وعلى لسان المعاملة: قبل أن تعود النفس ذلك فيصير لها عادة، قال قائلهم:

قُلْتُ لِلنَّفْسِ إِنْ أَرَدْتَ رَجوعاً فارجعي قبل أَنْ يُسَدَّ الطَّرِيقُ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَّا وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/٢٣٨، ٢٨٩)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/٣٣٨) والدارقطني في (السنن ٣/١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/١٠٥).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٦/٢٧٩).

استنكهوه: شم رائحة فمه.

يعني إذا كُثِفَ الغطاء وصارت المعارف ضرورية^(١) أُغْلِقَ بابُ التوبة؛ فإن من شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً. ثم إن في هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حَقِيقَةُ الصدق. قال داود - عليه السلام - في آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تَبْكِي يا داود، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك وقبلت توبتك؟

فقال: إلهي، الوقت الذي كان بي رُدَّةُ إليّ.

فقال: هيهات يا داود، ذاك وُدٌّ قد مضى!!

وفي معناه أنشدوا:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبَكَاءِ فَلَيْسَ لِأَيَّامِ الصَّفَاءِ رَجُوعُ
قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

التلبيسُ على المستضعفين، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين - غير محمودين عند الله. فمن تعاطَ ذلك انتقم الله منه، ولم يبارك له فيما يختزل من أموال الناس بالباطل والاحتيال. ومن استصغر خصمه في الله فأهون ما يعاقبه الله به أن يخرجه الوصول إلى ما يأمل من محبوبه.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: أي بتعاليم الدين والتأدب بأخلاق المسلمين وحُسنِ الصحبة على كراهة النفس، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملهن كلف خدمتك، وتتعامى عن مواضع خجلتهن.

قوله: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا...﴾ كل ما كان على نفسك أشقَّ كانت عاقبته أهناً وأمرأً.

واعلم أن الحق سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِهِ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون الخيرة فيه أتم. وقد حكم الله - سبحانه - بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى المنازل، وبالعكس ذلك موافقتها، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة، وبالعكس ذلك موافقتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٌ وَءَاتَيْتُمْهُنَّ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٠٠.

يعلمهم حسنَ العهد ونعتَ الكرم في العشرة، فيقول لا تجمعُ الفرقةَ واستردادَ المال عليها، فإن ذلك تزكُّ الكرم؛ فإن خَوَّلْتَ واحدةً مالاَ كثيراً ثم جفوتها بالفراق فما آتيتها يسيراً في جنب ما أَدَقَّتْهَا من الفراق.

قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ...﴾: يعني أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة، فقفوا عند مراعاة الذمام، وأوفوا بموجب الميثاق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

تشير الآية إلى حفظ الذمام، والوقوف على حدِّ الاحترام، فإن السَّجِيَّةَ تتداخلها الأنفةُ من أن ينكح فراشه غيره، فمنهى الأبناء عن تخطي حقوق الآباء في استغراش منكوحة الأب.

قوله جل ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تكلفُ انتزاع المعاني التي لأجلها حصل هذا التحريم محالٌ من الأمر؛ لأن الشرعَ غيرُ مُعَلَّلٍ، بل الحقُّ تعالى حرَّم ما شاء على من شاء، وكذلك الإباحة، ولا عِلَّةٌ للشرائع بخال، ولو كانت المحرَّماتُ من هؤلاء محلَّلاتٍ [محرمات] ^(١) لكان ذلك سائغاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَتَزَوَّجُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

إذا حافظت الحدود، وراعت العهود، وحصل التراضي بين النساء بحكم الشرع فما لا يكون فيه للخلق خصيمة، ولا من الحق سبحانه منه تبعه، فذلك مباحٌ طلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَاذْكُرُوهُنَّ بِإِذْنِ

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

أَهْلِيهِمْ وَآثُورَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ مُحَصَّنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَاةٍ فَعَلَيْنَ نَفْسَ مَا عَلَى الْمُحَصَّنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

الرخص جعلت للمستضعفين، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدَّة، والأخذ بالاحتياط والتضييق؛ إذ لا شغل لهم سوى القيام بحق الحق، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ في الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أولى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر، لأنه ترك بعض الأمور لما هو الأهم والأجل، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فمباح له الانحدار إلى وصف الترخص^(١).

ثم قال في آخر الآية: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾: يعني على مقاساة ما فيه الشدة، وفي هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾. قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَبِهِدْيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

لما عرّف النبي - ﷺ - وأُمَّته أخبار مَنْ مضى من الأمم، وما عملوا، وما عاملهم به انتظروا ما الذي يفعل بهم؛ فإن فيهم أيضاً من ارتكب ما لا يجوز، فقالوا: ليت شِعرنا بأي نوع يعاملنا... أبا لخسف أو بالمسخ^(٢) أو بالعذاب أو بماذا؟

فقال تعالى: ﴿وَبِهِدْيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ نعرفكم ما الذي عملنا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أمّا أنتم فأتوب عليكم، أمّا من تقدّم فلقد دمرت عليهم. ويقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ﴾: أي يكاشفكم بأسراره فيظهر لكم ما خفي على غيركم.

ويقال يريد الله ليبين لكم انفرادَه - سبحانه - بالإيجاد والإبداع، وأنه ليس لأحد شيء. ﴿وَبِهِدْيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء، والاستسلام للحكم والقضاء.

وقيل: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتقبل توبتكم بعدما خلق توبتكم، ثم يُثَبِّتُكُمْ على ما خلق لكم من توبتكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَقْتُلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨٠ في حديثه عن الوصية للمريدين.

(٢) الخسف: الظلم والإذلال. والمسخ: تحويل صورة إلى ما هو أقرب منها.

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد الله توبته فلا يُشْمِتْ به عدوًّا، ولا يناله في الدارين سوء .

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ : إرادتهم منكوسة ، وهي عند إرادة الحق - سبحانه - ضائعة مردودة .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ : يعني ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم آتاعب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

ويقال يخفف عنكم آتاعب الطلب بروح الوصول .

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ : وصف بهذا فقرهم وضُرهم ، و(. . .)^(١) بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ بِحُكْمٍ عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا ظَلَمًا فَنُصِيبْهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ .

كل نفقة كانت لغير الله فهي أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلة ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، فكل ذلك باطل ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ : يعني بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطه سبحانه . ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باستحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضا الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإننا لا نُخلِيه من عقوبة شديدة ، وهو أن نكلها إلى صاحبها ، ونلقي حبلها على غاربها .

قوله جل ذكره : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ .

الكبائر - على لسان العلم - ها هنا الشرك بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشرك الخفي . ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد فهو بعيد عن التكفير .

ويقال أكبر الكبائر إثباتك نفسك فإذا شاهدت نفيها تخلّصت من أسر المحن .
﴿وَذُلِّكُمْ﴾ في أموركم ﴿مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ إدخالاً حسناً لا ترون منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما ترون المصْرَفَ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعني لا بالتمني ، ولسان التوحيد أن الأمر بالحُكم والقضاء لا بالإرادة والمنى . ويقال اسلكوا سبيل من تقدّمكم في قيامكم بحق الله ، ولا تعرضوا لنيل ما خُصّوا به من فضل الله . قوموا بحق مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم .

ويقال لا تمنوا مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهُمْ ، وتلازموا سيرهم ، وتعملوا عملهم . . فإن ذلك جَوْرٌ من الظن .

ويقال : كُن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أي وجه شئت : دنيا وآخرة (وَأَلَّا)^(١) أشركت في توحيدك من حيث لم تشعر .

ويقال لا تتمنّ مقامات الرجال فإن لكل مقام أهلاً عند الله ، وهم معدودون ؛ فما لم يمت واحد منهم لا يورث مكانه غيره ، قال تعالى : ﴿جَعَلَكُمْ خَلَفًا﴾ [الأنعام : ١٦٥ ، وفاطر : ٣٩] والخليفة من يخلف من تقدّمه ، فإذا تمثّيت مقام وليّ من الأولياء فكأنك استعجلت وفاته ؛ على الجملة تمنيت أو على التفصيل ، وذلك غير مُسَلَّم .

ويقال خمودك تحت جريان حكمه - على ما سبق به اختياره - أخطى لك من تعرضك لوجود مناك ، إذ قد يكون حتفك في مُنيّتك .

ويقال مَنْ لم يؤدّب ظاهره بفنون المعاملات ، ولم يهذّب باطنه بوجوه المنازل فلا ينبغي أن يتصدّى لنيل المواصلات ، وهيئات هيات متى يكون ذلك !

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ : الفرق بين التمني وبين السؤال من فضله من وجوه :
يكون التمني للشيء مع غفلتك عن ربك ؛ فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله ، فإذا سألت الله فلا محالة تذكره ، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيخمله صدق الإرادة على التملّق والتضرع ، والتمني يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمني ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبك ما

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

أعطاه ويعطيك إياه، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .
ويقال لا تتمُّ العطاء وسئل الله أن يعطيك من فضله الرضا بِفَقْدِ العطاء وذلك
أتمُّ من العطاء، فَإِنَّ التَّحَرُّرَ مِنْ رِقِّ الْأَشْيَاءِ أَتَمُّ مِنْ تَمَلُّكِهَا .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ
أَيْمَانُكُمْ فَأَتَاؤُهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ .

جعل المعاهدة في ابتداء الإسلام نظيرة النسب في ثبوت الميراث بها فَنَسَخَ حكم
الميراث وبقي حكم الاحترام، فإذا كانت المعاهدة بين الناس بهذه المثابة فما ظنك
بالمعاهدة مع الله؟ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .
وأنشدوا:

إِنَّ الْأَلَى مَاتُوا عَلَى دِينِ النُّهَى وَجَدُوا الْمَنِيَّةَ مِنْهُلًا مَعْسُولًا
قوله جل ذكره: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا
أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرْتُمْ فَسَوْفَ يَكْفُلُونَ كَفْلَهُنَّ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي يَخَافُونَ فَتَوَارَءِيَهُنَّ
فَيَقْطَعُونَ وَأَفْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

خصَّ الرجال بالقوة فزید بالحمل عليهم؛ فالحمل على حسب القوة. والعبرة
بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث.

قوله: ﴿وَالَّذِي يَخَافُونَ فَتَوَارَءِيَهُنَّ فَيَقْطَعُونَ وَأَفْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾: أي
ارتقوا في تهذيبهن بالتدريج والرفق، وإن صَلَحَ الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا
بالضرب، فالآية تتضمن آداب العشرة.

ثم قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: يعني إن وَقَفْتَ في الحال عن
سوء العشرة (.....) (١) ورجعت إلى الطاعة فلا تَنْتَقِمَ منها عما سَلَفَ، ولا تمنع
من قبول عذرها والتأني عليها.

يقال: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب من نَقْمَتِكَ .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حُكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا
إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

يقال لك عليها الطاعة بالبدن، فأما المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله، فلا

تكلّفها ما لا يرزقك الله منها؛ فإن القلوب بقدرة الله، يُحبّب إليها من يشاء، ويُبغضُ إليها من يشاء.

ويقال: ﴿فَإِنْ أَمَنَّاكُمْ فَلَا لَبَغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي لا تنسَ وفاءها في الماضي بنادر جفاء يبدو في الحال فربما يعود الأمر إلى الجميل.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ الشُّركُ جُلِيَّةُ اعتقادٍ معبودٍ سواه، وخَفِيَّةُ: ملاحظةٌ موجودٍ سواه، والتوحيد أن تعرف أنَّ الحادثات كلها حاصلةٌ بالله، قائمةٌ به؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها، وليس لأحد ذوة ولا شظية^(١) ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع.

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلق، واستحلاء مدحهم والذبول تحت رذمهم وذمهم - كلُّ ذلك من الشُّركِ الخَفِيِّ.

قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾ الإحسان إلى الوالدين على وجه التدرّيج إلى صحبة فإنك أُمِرْتَ أولاً بحقوقهما لأنهما من جنسك ومنها تربيتك، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك. وإذا صَلَّحْتَ للصحبة والعشرة مع ذوي القربى والفقراء والمساكين واليتامى ومن في طبقهم - رُقِيتَ عن ذلك إلى استيجاب صحبته - سبحانه.

قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾... الآية من جيرانك (...).^(٢) فلا تؤذهما بعصيانك، وراعِ حقهما بما تُؤلي عليهما من إحسانك.

فلذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجار نفسك - وهو قلبك - أولى بالأرضية ولا تُغفل عنه، ولا تُمكن حلول الخواطر الرديئة به.

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك - وهو روحك - أولى أن تحامي على حقها، ولا تُمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها. وجار روحك - وهو سِرُّك - أولى أن ترعى حقه، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات.

(١) الشظية: جمع شظايا، وهي فلقة العود أو العظم ونحوها.

(٢) بياض في الأصل.

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوي التحقيق.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾... الآية البخل على لسان العلم منع الواجب، وعلى بيان الإشارة ترك الإيثار في زمان الاضطراب. وأمر الناس بالبخل معناه منعه عن مطالبات الحقائق في معرض الشفقة عليهم بموجب الشرع، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن العلائق وحذف فضولات الحالة فمن نصحه بأن يقول: «ربما لا تقوى على هذا، ولأن تكون مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كلاً على المسلمين - ويؤذي له في هذا الباب الأخبار والآثار أمثال هذا...» فلولاً بخله المستكن في قلبه لأعانه بهيمته فيما يسبح لقلبه بذل أن يمنع عنه ما (يجب أن) يقول في معرض النصيح. ومن كانت هذه صفته أدركه عاجل المقت حيث أطفأ شرر إرادة ذلك المستضعف بما هو عند نفسه أنه نصيحة وشفقة في الشرع.

وقوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: إن كان الله أغناهم عن طلب الفضيلة بما خولهم وآتاهم كتموا ذلك طمعاً في الزيادة على غير وجه الإذن. ويقال يكتمون ما آتاهم الله من فضله إذا سألهم مريد شيئاً عندهم فيه نجاته، وضنوا عليه بإرشاده.

ويقال بخل الأغنياء بمنع النعمة، وبخل الفقراء بمنع الهمة. قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيشَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

أدخل هؤلاء أيضاً تحت قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ فعقوبتهم في العاجل أنهم ليسوا من جملة محبيه، وكفى بذلك محنة.

والمختال الذي ينظر إلى نفسه والمرائي الذي ينظر إلى أبناء جنسه، وكلاهما مسؤومان بالشرك الخفي والله لا يحب المشركين. والفخور من الإبل كالمصراة من الغنم وهو الذي سُدَّتْ أخلافه ليجتمع فيها الدر^(١)، فيتوهم المشتري أن جميع ذلك معتاد لها وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالاً ورتبة وهو في ذلك مدع وهو الفخور، والله لا يحبه، وكذلك المرائي الذي ينفق ماله رياء الناس.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

ليس في إيمانهم بالله عليهم مشقة، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عِزِّ الدنيا والآخرة، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَّةً وَإِن تَكْ حَسَنَةٌ يَضْعَفُهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم - من غير استحقاقهم - بفضل، وبضاعف أجورهم على أعمالهم؛ فأما الظلم فمحالٌ تقديره في وصفه لأن الخلق خلقه، والمُلك ملكه. والظالم من يعتدي حداً رُسيمَ له - وهو في وصفه مُحالٌ لعِزِّه في جلال قدره.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَ يَوْمِ يَوْمِ يَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا لَوَسَّوْا بِهِمُ الْآرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

إذا كان الرسول - ﷺ - الشهيد على أمته، وهو الشفيع لهم، فإنما يشهد بما يُبقي للشفاعة موضعها.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَوْمِ يَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية: يحصلون على ندم ثم لا ينفعهم، ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم، فيتقنعون بِخِمار^(١) الذل، وينقلبون إلى أوطان المحن والضر.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُمْ مَرْهُقًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَمْ يَأْتِ الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

النهي عن موجب السكر من الشراب لا من الصلاة، أي لا تصادفكم الصلاة وأنتم بصفة السكر، أي امتنعوا عن شُرْبِ ما يُسكر فإنكم إن شربتم سكرتم، ثم إذا صادفكم الصلاة على تلك الحالة لا تُقبل منكم صلاتكم.

والسكر ذهاب العقل والاستشعار، ولا تصحُّ معه المناجاة مع الحق.

المُصَلِّي يناجي ربه؛ فكلُّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملحق بهذا من حيث الإشارة؛ ولأجل هذه الجملة حصَّل، والسكر على أقسام:

فسكر من الخمر وسكر من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا.

وأصعب السكر سكر من نفسك فهو الذي يلقيك في الفرقة عنه، فإن من سكر من الخمر فقصاراه الحرقه - إن لم يُغفر له. ومن سكر من نفسه فحال الفرقة - في الوقت - عن الحقيقة.

(١) الخمار: ما تغطي به المرأة رأسها (ج) أخمرة وخمر وخمر.

فَأَمَّا السُّكْرُ الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ الْقَوْمُ ^(١) فَصَاحِبُهُ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِ وَقْتُهُ حَتَّى يَصْلِيَ وَالْأَمْرُ مَخْفَفٌ عَلَيْهِ: (فإذا خرج عن الصلاة هجم عليه غالبه فاخطفه عنه ومن لم يكن محفوظاً) ^(٢) عليه أحكام الشرع (فمَشُوبٌ بحظ) ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾... الآية: أذن للمضطر أن يترخص في عبور المسجد وهو على وصف الجنابة، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت في القيام بشرائط الوقت فمرفوعة عن صاحبه المطالبة به.

ثم إنه - سبحانه - بفضلُه جعل التيمم ^(٤) بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفرقِ عن ارتقاء ذرة الجمع - يَقْدَرُ ما يحصل من الضعف - بَدَلُ لأهل الحقائق.

ثم إن التيمم - الذي هو بَدَلُ الماء - أعمُّ وجوداً من الماء، وأقلُّ استعمالاً من الأصل، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب.

ثم في الظاهر أَمَرْنَا باستعمال التراب وفي الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول.

ورَدَّ التيمم إلى التقليل، وراعى فيه صيانة لرأسك عن التراب ولَقَدَمِكَ؛ فَإِنَّ الْعَزَّ بِالْمُؤْمِنِ - ومولاه باستحقاق الجلال - أولى من الذلِّ لِمَا هو مفلس فيه من الحال، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذللُ فعرفانه بجلال سيده يوجب كلَّ تَعَزُّزٍ وَتَجَمُّلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالسِّنِّهِمْ وَطَعَنَّا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومكروا مكرأ ولم يشعروا وجهة مكهرم أن أعطوا الكتاب ثم حُرِمُوا بركاتِ الفهم حتى حَرَفُوا وَأَصْرُوا.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٧١ - ٧٢ في حديث القشيري عن الصحو والسكر.

(٢) ما بين قوسين زيادة من الهامش.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٢.

(٤) التيمم: تيمم للصلاة: مسح وجهه ويديه بالتراب الظاهر على هيئة مخصوصة، عوض الوضوء.

قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾... الآية: تركوا حشمة الرسول - ﷺ - ورفضوا حرمة، فعوقبوا بالشك في أمره، ولذلك لم يترك أحد حشمة (محتشم)^(١) إلا حيل بينه وبين نيل بركات صحبتة وزوائد خدمته. ولو أنهم عاجلوا في نفي ما داخلهم من الحسد وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعتة، فأسعدوا به في الدارين، وكيف لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة؟ وإنَّ مَنْ قعدت به الأفذار لم ينهض به الاحتياال.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا فَرَدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَهْلَ النَّبِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر في رفض الدنيا فعاد لا يصبر عن جميعها ومنعها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

العوام طولبوا بترك الشرك الجلي، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي، فمن توسل إليه بعمله ويظنه منه، أو توهم أن أحكامه - سبحانه - معلولة بحركاته وسكناته، أو راعى خلقاً أو لاحظ نفساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق^(٢).

والله لا يغفر أن يُشرك به وكذلك من توهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملتحق بهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فَنِيلاً أَنْظَرْ كَيْفَ يَقَرُّونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ وَكَيْفَ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾.

مَنْ ركن إلى تزكية الناس له، واستحلى قبول الخواص له - فضلاً عن العوام - فهو من زكى نفسه، ورؤية النفس أعظم حجاب، ومن توهم أنه يتكلفه يزكي نفسه: بأوراده^(٣) أو اجتهداه، بحركاته أو سكناته - فهو في غطاء جهله.

قوله: ﴿أَنْظَرْ كَيْفَ يَقَرُّونَ﴾... الآية: الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق، والمُفتري - في قائلته في هذا الأمر - لا ينطق بشيء إلا أجبته الأذان وانزجرت له القلوب، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ

(١) المحتشم: إنسان يتمتع بالحياء، ويقصد به إنسان من الأعيان والوجهاء.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٦ حديث القشيري عن الجمع والفرق.

(٣) الورد: النصيب من القرآن أو الذكر (ج) أوراد.

وَالظَّالِمُونَ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿١﴾

طاغوت كل أحد نفسه وهواه وجبته وهو (١) (....) مقصوده من الأغيار، فمن لاحظ شخصاً أو طالع سبباً أو عرج على علة أو طاع هوى، فذلك جبته وطاغوته. وأصحاب الجبب (٢) والطاغوت (٣) يستوجبون اللعن؛ وهو الطرد عن بساط العبودية، والحجاب عن شهود الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَمْ نَمِيتْ بَيْنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

من جُبِلَ على الشُّخ لا يزداد بسعة يده إلا تأسفاً على راحة ينالها الخلق، كأنَّ مَنْ شَرِبَ قطرة ماءٍ قد تحسَّى بل رَشَفَ من ماء حياته!

قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾: بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال، وسنة الله سبحانه مع أوليائه مضت بالتعزيز والتوقير لهم. ودأب الكافرين جرى بالارتياح في القدرة؛ فمنهم من آمن بهم، ومنهم من رد ذلك وجحد، وكفى بعقوبة الله متقماً عنهم.

قوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾: الملْك العظيم معرفة الملْك، ويقال هو الملْك على النفس.

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شيء.

ويقال الاطلاع على أسرار الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء، يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم في وحشة الإنكار؛ كلما لاح لقلوبهم شيء من هذه القصة جرهم إنكارهم إلى ترك الإيمان بها والإزراء بأهلها على وجه الاستبعاد، فهم مؤبدة عقوبتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

(١) بياض في الأصل.

(٢) الجبب: كل ما عُبد من دون الله تعالى، والصنم والسحر والساحر والكاهن.

(٣) الطاغوت: الشيطان أو كل ما عُبد من دون الله من الجن والإنس والأصنام (ج) طاغوت.

الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّمْ فِيهَا أَرْزَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿١٠﴾ .

هم اليوم في ظل الرعاية، وغداً في ظل الحماية والكفاية، بل هم في الدنيا والعقبى في ظل العناية .

والناس في هذه الدنيا متفاوتون: فمنهم من هو في ظل رحمته، ومنهم من هو في ظل رعايته، ومنهم من هو في ظل كرامته، ومنهم من هو في ظل عنايته، ومنهم من هو في ظل قربته .

قوله جل ذكره: ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٢﴾ .

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم .

ويقال لله - سبحانه وتعالى - أماناتٌ وَضَعَهَا عِنْدَكَ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله - سبحانه - سالمةً مِنْ خِيَانَتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السرِّ ملاحظتك إياها .

وَالْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ تسويةً القريب والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مخامرةٌ حقدٍ على انتقام لنفسٍ .

قوله جل ذكره: ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿١٤﴾ .

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول - ﷺ - تفخيماً لشأنه ورفعاً لِقُدْرِهِ .

وأما أولو الأمر - فعلى لسان العلم - السلطان، وعلى بيان المعرفة العارف ذو الأمر على المستأنف، والشيخُ أولو الأمر على المريد، وإمامُ كل طائفةٍ ذو الأمر عليهم .
ويقال الولي أولى بالمريد (من المريد)^(١) للمريد .

قوله: ﴿١٥﴾ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ ﴿١٦﴾ على لسان العلم - إلى الكتاب والسنة، وعلى بيان التوحيد فَوْضَ ذلك وَوَكَّلَ عِلْمَهُ إلى الله سبحانه، وإذا اختلف الخاطران في قلب المؤمن فإن كان له اجتهد العلماء تأمل ما يستحق لخطره بإشارة فهمه، ومن كان صاحب قلب وكلَّ ذلك إلى الحق - سبحانه - وراعى ما خطب به في سرائره، وألقبى - بلا واسطة - في قلبه .

قوله جل ذكره: ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

(١) ما بين قوسين استدراك من الهامش .

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ. وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾.

أظهروا الإخلاص، وناقضوا في السر، ففضحهم - سبحانه - على لسان جبريل عليه السلام بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي يرفضوه. فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والذم. قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

كل شيء سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين، فأما التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص، وأهل الفترة في الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق؛ لأن خلاف الهوى يَشُقُّ على غير الصديقين. وكما أن ناظرَ الخلق لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك المنافقون لم يطبقوا الثبات له - ﷺ - فلذلك كان صدودهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَى اللَّهِ مُتَبَلِّغُونَ﴾. قوله جل ذكره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَّا إِلَى اللَّهِ مُتَبَلِّغُونَ﴾.

تَضَرُّعُ غير المخلص عند هجوم الضر لا أصل له، فلا ينبغي أن يكون به اعتبار لأن بقاءه إلى زوال المحنة، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)^(١).

ويقال من المصيبة أن يمحقك وقتك فيما لا يجدي عليك^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أَبْطَأَ لهم لسان الوعظ بمقتضى الشفقة عليهم، ولكن انقبض بقلبك عن المبالاة بهم والسكون إليهم، واعلم أن من لا نكون نحن له لا يغني عنه أن تعينه شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُطَاعُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

ما أَمَرْنَا الرسل إلا بدعوة الخلق إلينا.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾. لو جعلوك ذريعتهم^(٣) لوصلوا

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٥ - ٦٦ حديث القشيري عن الوقت.

(٣) الذريعة: الوسيلة والسبب إلى الشيء (ج) ذرائع.

إلينا، ويقال لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة^(١) المبار .
قوله جل ذكره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ .

سدَّ الطريق - إلى نفسه - على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ، فَمَنْ لم يمشِ تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .
قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا﴾ : فلا بُدَّ لك من (...) ^(٢) تلك المهالك بوجه ضاحك، كما قال بعضهم :

وحبيب إن لم يكن منصفاً كنتُ منصفاً أتحنسى له الأمرُ وأسقيه ما صفا
إن يقل لي انشقق اخترتُ رضا لا تكلِّفَا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَلَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنَزُّيَاتٍ إِذَا لَا تَعْنِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ .

أخبر عن سُقْم إخلاصهم وقوة إفلاسهم، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم .
خلاهم عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة، وشدوا نطاق الطاعة لكان ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاء مقيماً .

والأمر - على بيان الإشارة - يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المآلوفات، والخروج من ديار (تَقْبُلُ النَّفْسُ)، ومفارقة أوطان (إرادة) الدنيا .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ .

جعل طاعة المصطفى - ﷺ - مفتاح الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذي يصح للأمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ : جرَّد عليهم محلهم عن كل علة واستحقاق وسبب؛ فإن ما لاح لهم وأصابهم صرفُ فضله وابتداء كرمه .

(١) العقوة: الساحة وما حول الدار والمحلة، وجمعها عقاء .

(٢) بياض في الأصل .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَدِّلُ فَإِنْ أصَبَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لِي بِهِمْ فَوَرَاعَهُمْ فَهُمْ لَا يَصِلُونَ﴾ .

الفرار إلى الله من صفات القاصدين، والفرار مع الله من صفات الواصلين؛ فلا يجد القرار مع الله إلا من صدق في الفرار إلى الله. والفرار من كل غير شأن كل مؤخذ. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَدِّلُ﴾ الآية: أي لم تستقر عقائدهم على وصف واحد، فكانوا مرتبطين بالحفظ؛ فإذا رأوا مكروهاً يظل المسلمون شكروا وقالوا: الحمد لله الذي حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم، وإن كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم، وتمنوا أن لو كانوا معكم، خسروا في الدنيا والآخرة: فَهُمْ لَا كَافِرٌ قَبِيحٌ وَلَا مُؤْمِنٌ مُخْلِصٌ.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾: يعني طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم.

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

من لم يقتل نفسه في نفسه لا يصح جهاده بنفسه؛ فأولا (إخراج خطر الروح) من القلب ثم تسليم النفس للقتل.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني بقاؤنا بعده خير له من حياته بنفسه لنفسه، قال قائلهم:

ألست لي عوضاً مني؟ كفى شرفاً فما وراءك لي قصد ومطلوب

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ .

أي شيء يمنعكم عن القتال في سبيل الله؟ وما الذي لا يرغبكم في بذل المهجة لله؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم في الله والله؟ أتخافون أن تخسروا على الله؟ أم لا تعلمون أنكم تحشرون إلى الله؟ فلم لا تكفون ببقائه بعد فناءكم في الله؟

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَيَقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

المخلصون لله لا يؤثرون شيئاً على الله، ولا يضنون بشيء عن الله، فهم أبدأ على نفوسهم لأجل الله، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين. ثم قواهم

وشَجَّعَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَقِيلُوا أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تُضْمِرُوا لَهُمْ مَخَافَةَ، فَإِنِّي مَتَوَلِيكُمْ وَكَافِيكُمْ عَلَى أَعْدَانِكُمْ.

قَوَاهِ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أُخْرِجُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ أُمُورِكُمْ، وَكُلُّوْهَا إِلَى مَعْبُودِكُمْ.

وَيَقَالُ اقْصِرُوهَا عَنْ اخْذِ الْحَرَامِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ.

وَيَقَالُ امْتَنِعُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ.

وَيَقَالُ: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ إِلَّا عَنْ رَفْعِهَا إِلَى اللَّهِ فِي السُّؤَالِ بِوصفِ الْإِبْتِهَالِ.

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ اسْتَثْقَلُوا أَمْرَهُ، وَاسْتَعْجَلُوا لَطْفَهُ. وَالْعِبُودِيَّةُ فِي تَرْكِ الْإِسْتِثْقَالِ، وَنَفْيِ الْإِسْتِعْجَالِ، وَالتَّبَاعِدِ عَنِ التَّبَرُّمِ وَالْإِسْتِثْقَالِ.

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

مَكَّنَكَ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فَلَمْ يَعْطِهَا شَيْئاً لَكَ ثُمَّ لَوْ تَصَدَّقْتَ مِنْهَا بِشَقِّ تَمْرَةٍ لَتَخَلَّصْتَ مِنَ النَّارِ، وَحُظِّيتَ بِالْجَنَّةِ، وَهَذَا غَايَةُ الْكَرَمِ.

وَاسْتِقْلَالُ الْكَثِيرِ مِنْ نَفْسِكَ - لِأَجْلِ حَبِيبِكَ - أَقْوَى أُمَارَاتِ صُحْبَتِكَ.

وَيَقَالُ لَمَّا زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَلَّلَهَا فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَهُونَ (عَلَيْهَا) تَرْكُهَا.

وَيَقَالُ قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا بِجَمَلَتِهَا قَلِيلٌ، وَالَّذِي هُوَ نَصِيْبُكَ مِنْهَا أَقْلٌ مِنَ الْقَلِيلِ، فَمَتَى يَنَاقِشُكَ لِأَجْلِهَا (بِالتَّخْلِيلِ)، وَلَوْ سَلِمَ عَهْدُكَ مِنَ التَّبْدِيلِ؟

وَإِذَا كَانَتْ قِيَمَةُ الدُّنْيَا قَلِيلَةً فَأَخْسُ مِنَ الْخَسِيسِ مَنْ رَضِيَ بِالْخَسِيسِ بَدَلاً عَنِ النَّفْسِ.

وَقَدْ اخْتَلَعَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكُونِ بِالتَّدرِجِ. فَقَالَ أَوَّلًا: ﴿قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ (فَأَحْفَظْهُمْ) عَنِ الدُّنْيَا بِالعَقْبَى، ثُمَّ سَلَبَهُمْ عَنِ الْكُونَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه ٧٣].

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقِيقَةً﴾.

الْمَوْتُ فَرَحٌ لِلْمُؤْمِنِ، فَالْخَيْرُ عَنْ قَرْبِهِ بِإِشَارَةٍ لَهُ، لِأَنَّهُ سَبَبٌ يُوصلُهُ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ.

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فالاستسلام لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرهاً.

ثم أخبر أنهم - لضعف بصائرهم ومرض عقائدهم - إذا أصابتهم حسنة فرحوا بها، وأظهروا الشكر، وإن أصابتهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العزق المجوسي^(١) فأضافوه إلى المخلوق، فردّ عليهم وقال: قل لهم يا محمد كل من عند الله خلقاً وإبداعاً، وإنشاء واختراعاً، وتقديراً وتيسيراً.

قوله جل ذكره: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

هذه الآية تشير إلى الجُمع لحال الرسول - ﷺ، فقال سبحانه طاعته طاعتنا، فمن تقرب منه تقرب منا، ومقبوله مقبولنا، ومردوده مردودنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

يعني إذا حضروك استسلموا في مشاهدتك، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك، فعادوا إلى ظلمات، كما قالوا:

إذا ارعوى عباد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه
قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْحَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

تدبر إشارة المعاني بغوص الأفكار، واستخراج جواهر المعاني بدقائق الاستنباط.

قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾: لما كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم فأظهروا السرّ بعضهم لبعض. فأما المؤمنون فعالم أسرارهم مولاهم، وما

(١) المجوس: معزب عن (منج كوش) بالفارسية ومعناها: صغير الأذنين. وهم أمة يعبدون الشمس أو النار، وواحد مجوسي.

يسنح لهم خَاطَبُوهُ فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السِّر لمخلوق؛ فسامعُ نجواهم الله، وعالمُ خطابهم الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي لو بشوا أسرارهم عند من هو (...).^(١) ومن هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكال، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد^(٢).

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم في الوقت.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِصَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

استقيم معنا بتسليم الكل منك إلى أمرنا؛ فإنك - كما لا يقارنك أحد في ربتك لعلوك على الكل - فنحن لا نكلف غيرك بمثل ما تكلفت، ولا نحمل غيرك ما تحملت لانفرادك عن أشكالك في القدوة.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِلًا﴾.

الشفيع يخلص للمشفوع له حاله. ويستوجب الشفيع - من الله سبحانه على شفاعته - عظيم الرتبة، ومن سعى في أمرنا بالفساد تحمّل الوزر واحتقّب^(٣) الإثم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَيُؤْخَذُ بِهَا فَأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

تعليم لهم حُسْنُ العِشْرَةِ وآداب الصحبة. وإن من حمّلك فضلاً صار ذلك - في ذمتك - له قرضاً، فإمّا زِدْتَ على فعله وإلا فلا تنقص عن مثله.

(١) بياض في الأصل.

(٢) أشار القشيري في هذا الخصوص في حديثه عن الوصية للمريدين قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: تجب البداية بتصحيح الاعتقاد بينه وبين الله تعالى. صافٍ عن الظنون والشبه خالٍ من الضلال والبدع، صادر عن البراهين والحجج، ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة، وليس انتساب الصوفي إلى مذهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة، فإن حجج هؤلاء في مسائلهم أظهر من حجج كل واحد، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب. فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال. (الرسالة القشيرية ص ٣٧٨).

(٣) الوزر: الإثم والذنب أو الحمل الثقيل. احتقّب الإثم: ارتكبه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتاً؛ فالنفي يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه، والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفي فيما أثبتته.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

(.....)(١) العهد فيهم أنهم أعدائي، لا ينالون مني في الدنيا والعقبى رضائي، وإنكم لا تثقون بهمكم من أقمته بقسمتي فإن المدار على القسم دون (.....)(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَرُهُمْ وَأَفْسَلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ مِمَّنْهُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يَفْتَلِكُكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ أَلْسِنَتَهُمُ فَأَجَمَلُ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم، وهيئات أن يكون لمناهم تحقيق! وما دام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالفوهم ولا تطابقوهم بحال، ولا تعاشرهم، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً؛ وموافق لك في قصدك خير لك من مخالف على الكره تعاشره.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ الإشارة من هذه الآية أن عند الأعذار أذن في معاشره في الظاهر رفقاً بالمستضعفين.

﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين في أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقتكم وسلموا لهم أحوالهم. فإن أمكنكم أن تلاحظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتمكم وإلا فسلموا لهم أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى أَلِفْنَةٍ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِنَّ لَكُمْ يَمْعًا لَكُمْ وَإِلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُمْ فَحُذَرُهُمْ وَأَفْسَلُوهُمْ حَيْثُ يَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

إن من رام الجمع بين الضدين خاب سعيه، ولم يرتفع عزمه، فكما لا يكون شخص

واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقيماً على أحكام أهل العادة .
فإن الإرادة والعادة^(١) ضدان، والواجب مباينة الأضداد، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ لِأَيِّمٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

خفف أمر الخطأ على فاعله حتى حمل موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛
فالخواص عاقلة المستضعفين من الأمة، وأهل المعرفة عاقلة المريدين، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسيئ لهم أن يحملوا أثقال المستضعفين فيما ينوبهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

كما يحرم قتل غيرك يحرم قتل نفسك عليك، ومن اتبع هواه سعى في دم نفسه،
ومن لم ينصح مريداً بحسن وعظه ولم يُعنه بهمته فقد سعى في دمه، وهو مأخوذ بحاله وخليق بأن تكون له عقوبة الأذية بألا يتمتع بما ضن به على المريدين من أحواله : ولقد قال - سبحانه - : يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له (خادماً) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلْفًا إِلَيْنَا أَلْسَلْنَاكُمْ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَكَانٌ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَلَىٰكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

عاشِرُوا النَّاسَ عَلَى مَا يُظْهِرُونَ مِنْ أحوالهم، وَلَا تَتَفَرَّسُوا^(٢) فِيهِمْ بِالْبَطْلَانِ؛

(١) قال القشيري برسالته : وقد تكلم الناس في معنى الإرادة فكلٌ عبّر حسب ما لاح لقلبه فأكثر المشايخ قالوا: الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب التعرّيج في أوطان الغفلة، والركون إلى اتباع الشهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه المنية، والمريد منسلخ عن هذه الجملة، فصار خروجه أمانة ودلالة على صحة الإرادة فسميت تلك الحالة إرادة، وهي خروج عن العادة فإذا ترك العادة أمانة الإرادة، وأما حقيقتها فهي نهوض القلب في ترك الحق سبحانه وتعالى، ولهذا يقال: إنها لوعة تهون كل روعة . (الرسالة القشيرية ص ٢٠١ - ٢٠٢) .

(٢) الفراسة: المهارة في تعرّف بواطن الأمور من ظواهرها . والثبّ والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال، وقد تكون وهبية إلهامية يخلقها الله من القلب وهي المراد غالباً عند القوم .

فَإِنْ مَتَوَلَّى الْأَسْرَارَ اللَّهُ . هذا إذا كان غرضُ فاسدٍ يحملكم عليه من أحكام النفس ، فأما من كان نظره بالله ولم يَسْتَسِرْ عليه شيءٌ فَلْيَحْفَظْ سِرَّ اللَّهِ فيما كُشِفَ به ، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الْقَرْرَةِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

الحق سبحانه جمع جميع أوليائه في أفضاله لكنه غايَر بينهم في الدرجات ، فمن غني ومن عبدٍ هو أغنى منه ، ومن كبير ومن هو أكبر منه ، هذه الكواكب ذرية ولكن القمر فوقها ، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها !

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُتَضَاعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَ مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝﴾ .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجل وهو في أسر نفسه وفي رقٍ شهواته - ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظل قُربته ليتخلص من هوى نفسه إذ لا حجاب بينك وبين هذا الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا الْمُسْتَضَعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

الإشارة منه إلى الذين ملكتهم المعاني فأفنتهم عنهم ، فبقُوا مُضْرَفِينَ له ، لا لهم حَوْلٌ ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجْرِيه - سبحانه - عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحق محو عنهم ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا ينتقسون لغيره نفساً .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فعسى أن يتفضل الحق - سبحانه - عليهم بالعفو .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ .

مَنْ هَاجَرَ فِي اللَّهِ عما سوى الله ، وصحح قَصده إلى الله وَجَدَ فسحة في عقوبة الكَرَم ، ومقيلاً في ذرى القبول ، وحياة وسعة في كنف القرب .

والمهاجر - في الحقيقة - من هجر نفسه وهواه ، ولا يصح ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، وَمَنْ قَصده ثم أدركه الأجل قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محط روحه إلا أوطان قربه .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَرَّكُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

القَصْرُ في الصلاة سُنَّةٌ في السفر، وكان في ابتداء الشرع عند الخوف، فأقر ذلك مع زوال الخوف رفقا بالعباد، فلما دخل الفرض القصر لأجل السفر عوضوا بإباحة الثفل^(١) في السفر على الراحة أينما توجهت به دابته من غير استقبال، فكذاك الماشي؛ ليُعلم أنَّ الإذن في المناجاة مستديم في كل وقت؛ فإن أردت الدخول فمتى شئت، وإن أردت التباعد مترخصاً فلك ما شئت، وهذا غاية الكرم، وحفظ سُنَّة الوفاء، وتحقيق معنى الولاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْيَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نفس من الاختيار لا في الخوف ولا في الأمن، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة، ولا عند استيلاء سلطان الحقيقة إذا كنت بعين الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَنُحُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

الوظائف الظاهرة موقته وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع؛ أما بالرسوم فوقاً دون وقت، وأما بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال.. الذكر كيفما كنتم وكما كنتم، وأما الصلاة فإذا اطمأننتم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قوموا بالله وليكن استنادكم في جهادكم إلى الله.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾: القوم شاركوكم في إحساس الألم، ولكن خالفوكم في شهود القلب، وأنتم تشهدون ما لا يشهدون، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون، فلا ينبغي أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد.

(١) الثفل: ما شرع زيادة على الفريضة والواجب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

لم يأمرُك بالحكم بينهم على عمى ولكن بما أراك الله أي كاشفك به من أنوار البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك.

قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾: أي لا تناضل عن أرباب الحظوظ ولكن مع أبناء الحقوق، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى، ومن ركن إلى أنواع نوازع المنى خان فيما طولب به من الحياء لاطلاع المولى.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ لا متك؛ فإننا قد كفييناك حديثك بقولنا: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُجَدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

هم المؤثرون حظوظهم على حقوقه، والراضون بالتعريج في أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيذلهم - لا جرم - ولا يكرمهم.

قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ الغالب على قلوبهم رؤية الخلق ولا يشعرون أنَّ الحق مُطْلِعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَ الله قلوبهم بوسم الفرة.

قوله جل ذكره: ﴿هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

أي ندفع عنهم - بحرمتك - لأنك فيهم، فكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتكم أيها المؤمنون؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ثم: «حرف يدل على التراخي؛ أي يزجون عمرهم في البطالات والمخالفات ثم في آخر أعمارهم يستغفرون الله.

وقوله: ﴿يَجِدِ اللَّهَ﴾: الوجود غاية الحديث^(١)، والمعاصي لا يطلب غير الغفران، ولكن الله - سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله - إذا شاء، فسُئله تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٦١ - ٦٤ في حديث القشيري عن التواجد والوجد والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .
الحق غني عن طاعة المطيعين، وزلة العاصين، فمن أطاع فحفظه حصّل، ومن عصى فحفظه أخذ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيًّا فَقَدْ آخَضَ آخِذًا وَيُنَاقِضُ مُنَاقِضًا﴾ .

من نسب إلى بريء ما هو صفته من المخازي عكس الله عليه الحال، وألبس ذلك البريء ثواب محاسن راميّه، وسحب ذيل العفو على مساويه، وقَلَبَ الحال على المتعدّي بما يفضحه بين أشكاله، في عامة أحواله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

الفضل^(١) إحسانٌ غيرُ مستحق، والإشارة ههنا - من الفضل - إلى عصمته إياه، فالحق - سبحانه - عَصَمَهُ تخصيصاً له بتلك العصمة، وكما عصمه عن تركِ حقه - سبحانه - عصمته بأن كفَّ عنه كيد خلقه فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ الآية.

كلّا، لن يكون لأحد سبيلٌ إلى إضلالك فانت في قبضة العزة، وما يُضِلُّونَ إلا أنفسهم، وما يضرّونك بشيء، إذ المحفوظ منا محروس عن كلّ غير، وإنّ الله سبحانه قد اختصك بإنزال الكتاب، واستخلصك بوجوه الاختصاص والإيجاب، وعلمك ما لم تكن تعلم، ولم يمن عليك بشيء بمثل ما منّ به على من خصّه به من العلم. ويحتمل أنه أراد به علمه - صلى الله عليه - بالله وبيجلاله، وعلمه بعبودية نفسه، ومقدار حاله في استحقاق عزّه وجماله.

ويقال علمك ما لم تكن تعلم من آداب الخدمة إذ لم تكن ملتبساً عليك معرفة الحقيقة.

ويقال أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحد نور إلا مُقْتَبَساً مِنْ نورك، ومن لم يمش تحت رايتك لا يصل إلى جميع برّنا، ولا يحظى بقرينا ووصلنا.

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: في الآباد؛ أنّك كنت - لنا بشرف العز وكرم الربوبية في الآزال - معلوماً. ويقال وعلمك ما لم تكن تعلم من علو رُتبتك على الكافة.

ويقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أَنَّ أَحَدًا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُنَا إِلَّا بِمِقْدَارِ مُوَافَقَتِهِ لِأَمْرِنَا.

قوله جل ذكره: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتعدى صاحبه إلى غيره؛ ففضيلة الصدقة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه، والفتوة أن يكون سعيك لغيرك، ففي الخبر: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَخَذَهُ» وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة.

قال ﷺ في قُصْرِ الصلاة في السفر: «هذه صدقة تصدقها الله عليكم فاقبلوها صَدَقَتَهُ»^(١).

والصدقة على أقسام: صدقتك على نفسك، وصدقتك على غيرك؛ فأما صدقتك (على نفسك فحُمِّلَهَا على أداء حقوقه تعالى، وَمَنَعَهَا عن مخالفة أمره، وقصرُ يدها عن أذية الخَلْقِ وَصَوْنُ خواطرها وعقائدها عن السوء. وأما صدقتك)^(٢) على الغير فَصَدَقَةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن.

فصدقة بالمال بإنفاق النعمة، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد الهمة.

والصدقة على الفقراء ظاهرة لا إشكال فيها، أما الصدقة على الأغنياء فتكون بأن تجود عليهم بهم، فتقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم.

وأما المعروف: فكلُّ حَسَنٍ في الشرع فهو معروف، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما لهم فيه قربة إلى الله، وزلفى عنده، وإعلاء النواصي^(٣) بالطاعة.

ومن تصدَّق بنفسه على طاعة ربه، وتصدَّق بقلبه على الرضا بحكمه، ولم يخرج بالانتقام لنفسه، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه، وأصلح بين الناس بِصِدْقِهِ في حاله - فَإِنَّ لِسَانَ فعله أبلغ في الوعظ من لسان نطقه، فهو الصَّدِيق في وقته. ومن لم يؤدِّبْ نَفْسَهُ لم يتأدَّب به غيره، وكذلك من لم يهذَّب حاله لم يتهذَّب به غيره.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ غير سائل به مالا أو حائز لنفسه به حالا فعن قريب يبلغ رتبة الإمامة في طريق الله، وهذا هو الأجر الموعود في هذه الآية.

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٣/٢٦٤)، والقرطبي في (التفسير ٥/٣٦٣).

(٢) ما بين قوسين مستدرَك من الهامش يقتضيه السياق

(٣) الزلفى: المنزلة والدرجة والقربة. والنواصي (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُضَاقِ الرَّسُولُ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

خواطر الحق سفرأوه تعالى إلى العبد، فمن خالف إشارات ما طولب به من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب، ومنها أن يغمى عن إِبصار رُشدِه. وكما أن مخالف الإجماع عن الدين خارج فمخالف ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق - ساقط.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۚ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا إِنْتَا ۚ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۚ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخَادِنُ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۚ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَنْكِحْنِ ۚ إِذَا كُنَّ أَتْنَعَم ۚ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْفِرْ ۚ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾: إثبات الغير في توهم ذرة من الإبداع عين الشرك، فلا للعفو فيه مساغ. وما دون الشرك فللعفو فيه مساغ، ومن توسل إليه سبحانه بما توهم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم. كلاً، بل هو الله الواحد.

قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا إِنْتَا﴾: أوقعوا على الجمادات تسميات، وانخرطوا في سلك التوهم، وركنوا إلى مغاليط الحسبان، فضلوا عن الحقيقة.

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾، أي ما يدعون إلا إبليس الذي أبعد الحق عن رحمته، وأسحقه ببعده، وما إبليس إلا مقلَّب في القبضة على ما يريده المنشئ، ولو كان به ذرة من الإثبات لكان به شريكاً في الإلهية. كلاً، إنما يجري الحق - سبحانه - على الخلق أحوالاً، ويخلق عقيب وساوسه للخلق ضلالاً، فهو الهادي والمضل، وهو - سبحانه - المصرف للكل، فيخلق (...) (١) في قلوبهم عَقَب وساوسه إليهم طول الآمال، ويحسن في أعينهم قبيح الأعمال، ثم لا يجعل لأمانيتهم تحقيقاً، ولا يعقب لما أملوه تصديقاً، فهو تعالى مُوجِد تلك الآثار جملةً، ويضيفها إلى الشيطان مرةً، وإلى الكافر مرةً، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ﴾... الآية ومعنى قوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۚ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

الذين قسم لهم الضلالة في الحال حكم عليهم بالعقوبة في المال، ولولا أنه

(١) بياض في الأصل.

أظهر ما أظهر بقدرته وإلا متى كانت شظية من الضلالة والهداية لأربابها؟! والوقوف على صدق التوحيد عزيز، وأرباب التوحيد قليل.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

الذين أسعدناهم حكماً وقولاً، أنجدناهم حين أوجدناهم كرمًا وطولاً، ثم إننا نحقق لهم الموعد من الثواب، بما نكرمهم به من حسن المآب.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

مَنْ زَرَعَ الحنظل^(١) لم يجتنِ الورد والعبر^(٢)، ومن شرب السمِّ الرِّعاف^(٣) لم يجد طعم العسل، كذلك مَنْ ضَيَّعَ حقَّ الخدمة لم يستمكِنْ على بساط القربة، وَمَنْ وُسمَ بالشَّقوة لم يُرزَقِ الصَّفوة، وَمَنْ نَفَثَ القضية فلا ناصر له من البرية.

قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. مَنْ تَعَنَّى في خدمتنا لم يبق عن نيل نعمتنا، بل من أغنيانا في طلبنا أكرمناه بوجودنا، بل من جرَّعناه كأسَ اشتياقنا أنلناه أنسَ لقائنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

لا أحد أحسن دِيناً ممن أسلم وجهه لله؛ يعني أفرد قصده إلى الله، وأخلص عقده لله عما سوى الله، ثم استسلم في عموم أحواله لله بالله، ولم يدخِر شيئاً عن الله؛ لا من ماله ولا من جسده، ولا من روحه ولا من جلده، ولا من أهله ولا من ولده، وكذلك كان حال إبراهيم عليه السلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: الإحسان - بشهادة الشرع - أن تعبد الله كأنك تراه، ولا بد للعبد من بقية^(٤) من عين الفرق حتى يصح قيامه بحقوقه - سبحانه - لأنه إذا حصل

(١) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب، ويُزرع في الحدائق الطبية.

(٢) العبر: الياسمين، سمي به لنعمته، وقيل: النرجس، وقيل: هو نبت ولم يُحلَّ (اللسان ٥٣٦/٤).

(٣) سم زعاف: سريع القتل.

(٤) أي يجب أن يرد إلى الفرق الثاني وهو أن يرد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله تعالى. (الرسالة القشيرية ص ٦٦).

مستوفي بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه، وهذا أتباع إبراهيم عليه السلام الحنيف الذي لم يبق منه شيء على وصف الدوام.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾: جرد الحديث عن كل سعي وكيد وطلب وجه حيث قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ فعلم أن الخلّة لبسة يلبسها الحق لا صفة يكتسبها العبد.

ويقال الخليل المحتاج بالكلية إلى الحق في كل نفس ليس له شيء منه بل هو بالله لله في جميع أنفاسه وأحواله، اشتقاقاً من الخلّة التي هي الخصاصة وهي الحاجة. ويقال إنه من الخلّة التي هي المحبة، والخلّة أن تبشير المحبة جميع أجزائه، وتتخلل سيره حتى لا يكون فيه مساغ للغير.

فلما صفاه الله - سبحانه - (عليه السلام) عنه، وأخلاه منه نصبه للقيام بحقه بعد امتحائه عن كل شيء ليس الله سبحانه.

ثم قال: ﴿وَأُذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] لا يلبي الحاج إلا الله، وهذه إشارة إلى جمع الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَمَنَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَكْفُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَيْنَ مِنْ أَوْلَادِنَ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّتْنَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

نهاهم عن الطمع الذي يحملهم على الحيف^(١) والظلم على المستضعفين من الشّوان واليتامى، ويبيّن أن المتقيّم به لهم الله، فمن راقب الله فيهم لم يخسر على الله بل يجد جميل الجزاء، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليم البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

صحبة الخلق بعضهم مع بعض إن تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة، وممازجة النفرة والسامة^(٢). فمن أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلق عن مراعاة حقه، وخرج الكافة عليه باستصغار أمره واستحقار قدره. ومن رجع إلى الله بقلبه، استوى له - في الجملة والتفصيل - أمره، واتسع لاحتمال ما يستقبل من

(١) الحيف: الجور والظلم.

(٢) النفرة: من الأمر: الانتفاض منه. والسامة: الملل والضجر.

سوء خُلِقَ الخَلْقُ صدره فهو يسحب ذيل العفو على هَنَاتٍ جميعهم، ويؤثر الصلح بترك نصيبه وتسليم نصيبهم قال الله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

واتضاعك في نفسك عن منافرة مَنْ يخاصمك أجدى عليك، وأحرى لك من تطاولك على خصمك باغياً الانتقام، وشهود مَالِكَ في مزية المقام. وأكثر المنافقين في أسر هذه المحنة.

قوله تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾: وشح النفس قيام العبد بحظه.

فلا محالة مَنْ حُجِبَ عن شهود الحق رُدَّ إلى شهود النفس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾: يعني يكن ذلك خيراً لكم. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

﴿وَتَتَّقُوا﴾: يعني عن رؤيتكم مقام أنفسكم، وشهود قَدْرِكُمْ، يعني وأن تروا ربكم، وتنفوا برؤيته عن رؤية قَدْرِكُمْ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: يعني إذا فنيتم عنكم وعن عملكم، فكفى بالله عليمًا بعد فنائكم، وكفى به موجداً عقب امتحانكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يعني أنكم إذا (...) (١) في أموركم انعكس الحال عليكم، وانعكس صلاح ذات بينكم فساداً لكم، فإذا قمتم بالله في أموركم استوى العيش لكم، وصفا عن الكدر وقتكم.

ويقال مَنْ حَكَمَ الله بنقصان عقله في حاله فلا تقتدرون أن تجبروا نقصانهم بكفائتكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾: يعني لا تزيغوا (٢) عن نهج الأمر. قفوا حيثما وقفتكم، وأنفذوا فيما أمرتكم.

وقوله: ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ يعني أنكم إذا منعمتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتن بهن من الوجهين؛ لا منكم نصيب، ولا إلى غيركم سبيل، وإن هذا الحيف عظيم. والإشارة من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فَتَحَ - سبحانه - عليك شهود حقه، ووجود لطفه؛ فإن من كان في الله تلفه فالحق - سبحانه - خَلَفَهُ، وإن تُصْلِحُوا ما بينكم وبين الخلق،

(٢) الزيغ: الميل عن الحق.

(١) بياض في الأصل.

وتثقوا فيما بينكم وبين الحق فإن الله غفور لعيوبكم، رحيم بالعفو عن ذنوبكم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ .

الصحة التي لا بُدَّ منها صحة القلب مع دوام افتقار إلى الله؛ إذ الحق لا بُدَّ منه . فأما الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر، وذلك في ظنون أصحاب التفرقة، فأما أهل التحقيق فلا تحرية لهم أن حاجة الخلق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ .

كلَّف الكافة بالرجوع إليه، ومجانبة مَنْ سواه، والوقوف على أمره، ولكن فريقاً وُفِّق وفريقاً خُذِل . ثم عرَّف أهل التحقيق أنه غنيٌّ عن طاعة كلٍّ وليٍّ، وبريء عن زلة كل غويٍّ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

قَطَعَ الأسرار عن التعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفرادهم بمُلْك ما في السموات والأرض، ثم أطمعهم في حسن تولُّيه، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يصلح يملك حالك ولا يختزل مالك .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ .

من استغنى عنه في آزاله فلا حاجة له إليه في آباده . ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغنى عنه في نفسٍ .

ويقال لا نهاية للمقدورات فإن لم يكن عمرو فزَيْدٌ، وإن لم يكن عبدٌ فعبيد، والذي لا بَدَل عنه ولا خَلَف فهو الواحد احد .

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

لَمَّا عَلَّمُوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكَّروهم حديث الآخرة، فقال: ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تعريفاً لهم أنَّ فوق همهم من هذه الخسيسة ما هو أعلى منها من نعيم الآخرة، فلمَّا سَمَتْ إلى الآخرة قصودهم قطعهم عن كل مرسوم ومخلوق بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣] .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ

أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرْتُمْ فَلِلَّهِ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٠﴾

القسط العدل، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك، واستيفاء حقوقه من كل مَنْ هو لك عليه أمر، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إمّا أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق.

ومن بقي لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره لله.

وأصل الدين إثبات حق الحق على حق الخلق، فمن أثر على الله - سبحانه أحداً إمّا والدأ أو أمأ أو ولدأ أو قريباً أو نسيباً، أو أذخر عنه نصيباً فهو بمعزل عن القيام بالقسط.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِينَ نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

يا أيها الذين آمنوا من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

ويقال يا أيها الذين آمنوا تصديقاً آمنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم.

ويقال يا أيها الذين آمنوا في الحال آمنوا باستدامة الإيمان إلى المآل.

ويقال يا أيها الذين آمنوا وراء كل وصل وفصل ووجد وفقد.

ويقال يا أيها الذين آمنوا باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا أنختم بعقوة الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة وغلطات الذهول ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمنوا أن الذي كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد، ووصل وفصل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّهُمْ يَكُنِ اللَّهُ لِعِيفَةِ لَّهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا بُشِّرِ الْمُتَّقِينَ يَأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم، أولئك الذين قصمتهم سطوة العزة حكماً، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً - فالحق سبحانه لا يهديهم لقصد، ولا يدلهم على رشد، فبشرهم بالفُرقة الأبدية، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية^(١).

(١) السُرمَد: الدائم الذي لا ينقطع.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكُفْرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

من اعتصم بمخلوق فقد التجأ إلى غير مُجير، واستند إلى غير كهف، وسقط في مهواة من الغلط بعيد قعرها، شديد مكرها. أيبتون العِزَّ عند الذي أصابه ذلُّ التكوين؟! متى يكون له عزٌّ على التحقيق؟ ومن لا عزُّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدى إلى غيره؟

ويقال لا ندري أي حالهم أقبح: طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبضة أم حسابان ذلك وتوهمه من غير الله؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشيء من غير وجهه فالإخفاق غاية جهده، ومن رام الغنى في مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كده.

ويقال لو هُذُوا بوجدان العِزِّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهُمْ إِلَى من ليس بيده شيء من الأمر.

قوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ العِزُّ على قسمين: عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفاً، وعزٌّ حادثٌ يختص به سبحانه من يشاء فهو له - تعالى - ملكاً ومنه لطفاً.

قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية: لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلمات أنفسهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يَرُدُّونَ من أنفاسهم، فمن كان بوصفٍ ما متحققاً شاركة حاضره فيه؛ فجليسٌ مَنْ هو في أنسٍ مستأنسٍ، وجليسٌ من هو في ظلمةٍ مستوحشٍ.

ويقال هجرانُ أعداء الحق فرضٌ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين، والركون إلى أصحاب الغفلة قرعُ بابِ الفرقة.

قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ﴾: أوضح برهانٍ على سريرة (.....) (١) صحبة من يقارنه وعشرة مَنْ يخادنه؛ فالشكل مقيد بشكله، والفرع متشيزٌ عن أصله.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ يَكُفُّونَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَاتْلُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَعِذْ عَلَيْنَا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

(١) بياض في الأصل.

لَمَّا عَدِمُوا الْإِخْلَاصَ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمَا ذُقُوا فِيمَا اسْتَشْعَرُوا مِنَ الْعَقِيدَةِ،
امْتَاذُوا^(١) عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحُكْمِ، وَبَايَنُوا الْكَافِرِينَ فِي الْأَسْمِ، وَوَجِبَ عَلَى أَهْلِ
الْحَقِّ التَّحَرُّزُ عَنْهُمْ وَالتَّحَفُّظُ مِنْهُمْ، ثُمَّ ضَمِنَ لَهُمْ - سُبْحَانَهُ - جَمِيلُ الْكَفَايَةِ بِقَوْلِهِ:
﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وهذا على العموم؛ فَإِنْ وَبَالَ كَيْدِهِمْ إِلَيْهِمْ
مَصْرُوفٌ، وَجِزَاءُ مَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ مَوْقُوفٌ، وَالْحَقُّ - مَنْ قَبِلَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ - مَنْصُورٌ
أَهْلُهُ، وَالْبَاطِلُ - بَنَصَرَ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ - مُجْتَنَّتْ أَصْلُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُدَّبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

خداع المنافقين: إظهار الوفاق في الطريقة واستشعار الشريك في العقيدة.

وخداع الحق إياهم: ما توهموه من الخلاص، وحكموا به لأنفسهم من
استحقاق الاختصاص، فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذي ظنَّوه شراً بآبِ كِبَانٍ سَرَاباً، قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَبَدَّلَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا﴾ الآية: علامة النفاق وجود النشاط عند
شهود الخلق، وفطور العزم عند فوات رؤية الخلق.

وقوله: ﴿مُدَّبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الآية: أَحْسَنُ الْخَلْقِ مِنْ يَدْعُ صِدَارَ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَمْ
يَجِدْ سَبِيلًا إِلَى حَقِيقَةِ الْحَرِيَّةِ^(٢)، فَلَا لَهُ مِنَ الْعِزِّ شُطْبِيَّةٌ، وَلَا فِي الْغَفْلَةِ عَيْشَةٌ هَنِةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَنْخِذُوا الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَتُرِيدُونَ أَنْ جَمَعُوا لَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

كُرِّرَ عَلَيْهِمُ الْوَعْدُ، وَأُكِّدَ بِمَبَايِنَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، إِبْلَغاً فِي الْإِنْذَارِ،
وَتَغْلِيظاً فِي الزَّجْرِ، وَالْزَاماً لِلْحُجَّةِ (...)^(٣) موضع العذر.

قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ جَمَعُوا لَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾: تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَوَالَاتِهِمْ
لِلْكَفَارِ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدْ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَخَالَفَاتِ، لَمَا فِيهِ مِنْ إِثَارِ الْغَيْرِ عَلَى الْمَعْبُودِ؛
وَإِثَارُ الْغَيْرِ عَلَى الْمَحْبُوبِ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ فِي أَحْكَامِ الْوُدَادِ. فَإِذَا شَغَلَ مِنْ قَلْبِهِ

(١) امتاذا الشيء: اعتزل وانفرد، أو بان من غيره لا يختلط ولا يلتبس.

(٢) قال القشيري برمائه: إن الحرية تتحدد في أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فتتساوى عنده أخطار الإعراض. (الرسالة القشيرية ص ٢١٨ - ٢١٩).

(٣) بياض في الأصل.

محلاً - كان للمؤمنين - بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه - هو للحق - بالغير؟!

والعقوبة التي تَوَعَّدَهُم بِهَا أَنْ يَكِلَهُمْ وما اختاروه من موالاة الكفار، وبش البدل! كذلك مَنْ بقي عن الحق تركه مع الخَلْق؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلق، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

دَلَّتْ الآية على أَنَّ المنافق ليس بِمُسْتَأْمِنٍ لِأَنَّ الإيمان ما يوجب الأمان، فالمؤمن يتخلَّص بإيمانه من النار، فما يكون سبب وقوعه في الدرك الأسفل من النار لا يكون إيماناً، ويقال هذا تحقيق قوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤، والأنفال: ٣٠] أي مَكْرُهُ فوق كل مَكْرٍ. لَمَّا أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر بكفره.

ويقال نقلهم في آجلهم إلى أشد ما هم عليه في عاجلهم، لِمَا في الخبر: «من كان بحالة لقي الله بها» فالمنافق - اليوم - في الدرك - الأسفل من الحجر - فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار. والدرك الأسفل من الحجر - اليوم - لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر.

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة. ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب في حال حضورهم بالستهم، وسوء الأدب يوجبُ الطرد.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يشترط كل هذه الشرائط في رجوع أحدٍ عن جُزْئِهِ ما اشترط في رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم في كفرهم. وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل من المؤمنين، وفي هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبهم وإن تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آفتهم، وفي معناه أنشدوا:

والعُذْرُ مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين، فالتوبة ههنا أي رجعوا عن نفاقهم، وأصلحوا - بصدقهم في إيمانهم، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم، وشاهدوا المِثَّةَ لله عليهم حيث هداهم، وعن نفاقهم نجاهم.

قوله: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾: ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم في الحال، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال.

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله في أن يشبتهم على الإيمان، ويعصمهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق.

ويقال: تابوا عن النفاق، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء - في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

هذه الآية من الآيات التي توجب حُسْنَ الرجاء وقوة الأمل، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين: الشكر والإيمان، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان؛ فإن الشكر حالة، والإيمان حالة، ولقد هوّن السبيل على العبد حين رضي منه بقلته وحالته. والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأما الكافر فلا يصح منه الشكر؛ لأن الشكر طاعته والطاعة لا تصح من غير المؤمن.

وقوله: ﴿وَءَامَنْتُمْ﴾ يعني في المال؛ فكأنه بيّن أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد، إن شكرتم في الحال وأمتم في المال.

ويقال: إن شكرتم وأمتم صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشكركم وإيمانكم. ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة، فكأنه قال: إن شاهدتم النعمة من الله فلا يقطعكن شهودها عن شهود المنعم.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي والله شاكر عليم، ومعنى كونه شاكرًا أنه مَادِحٌ للعبد ومُشْهِدٌ عليه فيما يفعله لأن حقيقة الشكر وحْدَهُ الثناء على الْمُخْسِنِ بذكر إحسانه؛ فالعبد يشكر الله أي يشني عليه بذكر إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والرب يشكر للعبد أن يشني عليه بذكر إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله يشني عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوباً كثيرة.

ويقال يشكره - وإن عَلِمَ أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله. ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصي وقصده مخالفة ربه ولكنه يُذَيَّبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبية. ويقال يشكره لأن العبد يعلم في حالة ذنوبه أنه له رباً يغفر له.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

قول المظلوم في ظالمه - على وجه الإذن له - ليس بسوء في الحقيقة، لكنه يصح وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] والجزاء ليس بسيئة.

ويقال مَنْ عَلِمَ أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثير مما تدعو نفسه إليه. ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تحدث في نفسك من مساءة الخلق؛ فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون في أنفسهم بما (يعد) لا يطالب به كثير من العوام فيما يسمع منهم الناس. قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾: قيل ولا من ظلم. وقيل معناه ولكن مَنْ ظلمَ فله أن يذكر ظالمه بالسوء.

ويقال من لم يؤثّر مدح الحق على القذح^(١) في الخلق فهو المغبون في الحال. ويقال من طالع الخلق بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم يبسط فيهم لسان اللوم؛ يقول الرجل لصاحبه: «أنا أحتمل من (...)»^(٢) خدمتك لك ما لا أحتمله من ولدي، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلق فالعبد ي مراعاة هذا الأدب - بينه وبين مولاه - أولى.

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام، ولا يحب ذلك بخطوره من الخواص.

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول في صفة الله ما لم يرذ به الإذن والتوفيق.

والجهر بالسوء من القول في صفة الخلق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه، وتقول في صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً، وفي صفة الخلق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان - وإن كنت فيه صادقاً.

قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: سميعاً لأقوالكم، عليمٌ بعيوبكم، يعني لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمشابتهم.

ويقال سميعاً لأقوالكم عليماً ببراءة ساحة مَنْ تَقَوَّلْتُمْ عليه، فيكون فيه تهديد للقاتل - لبريء الساحة - بما يتقوّل عليه.

(٢) بياض في الأصل.

(١) القذح: الطعن والذم.

ويقال سميعاً: أيها الظالم، عليمّاً: أيها المظلوم؛ تهديدٌ لهؤلاء وتبشيرٌ لهؤلاء.
 قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.
 ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ تخلقاً بأداب الشريعة، وتخفوه تحقّقاً بأحكام الحقيقة.
 ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخلق.
 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لعبوبكم ﴿قَدِيرًا﴾ على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم.
 ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسْتُون وما تعينون غيركم على ما يُهْدُون به من سلوك سُئْتكم، وإن تخفوه اكتفاءً بعلمه، وصيانةً لنفوسكم عن آفات التصنّع، وثقةً بأن من تعملون له يرى ذلك ويعلمه منكم، وإن تعفوا عن سوءٍ أي تركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون، وهو قادر على أن يتليكم بما ابتلى به الظالم، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المنة، وتنبهاً على أن يستعيذوا أن يُسلبوا العصمة، وأن يُخذلوا حتى يقعوا في الفتنة والمحنة.
 ويقال إن تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس، أو تخفوه بأن تدعوا لهم في السرّ، أو تعفوا عن سوءٍ إن ظلمتم.

ويقال من أحسن إليك فأبد معه خيراً جهراً، ومن كفاك شره فأخلص بالولاء والدعاء له سراً، ومن أساء إليك فاعف عنه كرمًا وفضلاً؛ تجذ من الله عفوه عنك عما ارتكبت، فإن ذنوبك أكثر، وهو قادر على أن يُعطيك من الفضل والإنعام ما لا تصل إليه بالانتصاف من خصمك، وما تجده بالانتقام.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُد من ذمهم فعلهم، ثم بيّن أنه ضاعف من عذابهم ما كان جزاء جرمهم، لتعلم أنه لأهل الفساد بالمرصاد.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا﴾.

لما آمنوا بجميع الرسل، وصدّقوا في جميع ما أمروا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء. وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان، فكما أنه لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (...)(١) إلى آخر ما له - كذلك لا يقبل

(١) بياض في الأصل.

إيمان من لم يستغفر إيمانه جميع من أُمِرَ بالإيمان به؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله. فالإشارة في هذا أن من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية، قال ﷺ: «الحجُّ عرفة»^(١) فمن قطع المسافة - وإن كان من فج عميق - ثم بقي عن عرفات^(٢) بأدنى بقية لم يُدرك الحج.

وقال ﷺ: «المكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم»^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّوَاعِقُ يَطْلِمُهُمْ ثُمَّ أَتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه: أحدهما سؤالهم الرؤية والثاني عبادة العجل بعدما ظهرت لهم الآيات الباهرة.

فأما سؤالهم الرؤية فذموا عليه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عذرهم بإقامة المعجزات، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم، أو على موجب التصديق به، أو على ما تحملهم عليه شدة الاشتياق، وكل ذلك سوء أدب.

الإشارة فيه أيضاً أن مَنْ يكتفي بأن يكون العجلُ معبوده - متى - يسلم له أن يكون الحقُ مشهوده؟

ويقال القومُ لم يباشروا العرفانُ أسرارهم فلذلك عكفوا بقولهم^(٤) على ما يليق بهم من محدودٍ جوَّزوا أن يكون معبودهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

حجة ظاهرة، بل تفرداً صائمه من التمثيل والتعطيل.

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه.

(١) أخرجه أبو داود في السنن (المناكب ب٦٩)، والترمذي في (السنن ٨٨٩)، والنسائي في (السنن ٥/ ٢٥٦، ٢٦٤)، وابن ماجه في (السنن ٣٠١٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٢/ ٥ - ١٧٣) والحاكم في (المستدرک ١/ ٢٦٤، ٢/ ٢٧٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/ ٩٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٤/ ٢٥٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤/ ٢٨٩)، والزيلعي في (نصب الراية ٣/ ٩٢، ٩٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٢/ ٢٥٥)، وابن الجوزي في (زاد المسير ١/ ٢١٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٢٠٦١، ١٢٠٦٥)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/ ١١١، ٥/ ٢٤٢)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٨٢٢)، والعقيلي في (الضعفاء ٢/ ٣٢) والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٤٤٠)، والدارقطني في (السنن ٢/ ٢٤١).

(٢) عرفات: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة.

(٣) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٧٨.

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة .

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً، وهو بقاؤهم في حال لقائهم - قال ﷺ : « لا تضامون في رؤيته »^(١) - في خبر الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

ما زادهم في الظاهر آية إلا زادوا في قلوبهم جحداً ونكراً، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام؛ لما لم تنفتح لشهودها بصائر قلوبهم، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

قوله جل ذكره : ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَيَّانَتِ اللَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِخَيْرٍ حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

معناه لارتكابهم هذه المناهي، ولاتصافهم بهذه المخازي، أحللتناهم منازل الهوان، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لِحَقِّهِمْ شُؤْمُ المخالفات حالة بعد حالة، لأن من عقوبات المعاصي الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهي؛ فَيَنْقُضُهُمُ الميثاق، ثم لم يتوبوا، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات، ثم لشُؤْمِ كفرهم خذلوا حتى قتلوا أنبياءهم - عليهم السلام - بغير حق، ثم لشُؤْمِ ذلك تجاسروا حتى ادَّعَوْا شِدَّةَ التَّفَهُّمِ، وقالوا: قلوبنا أوعية العلوم، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم وقال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فَحَجَبَهُمْ عَنْ محلِّ العرفان، فعمهوا في ضلالتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

مجاورة الحدِّ ضلالاً، كما أن النقصان والتقاصر عن الحقِّ ضلالاً، فقومٌ تَقَوَّلُوا على مريم ورموها بالزنا، وآخرون جاوزوا الحدَّ في تعظيمها فقالوا: ابنتها ابنُ الله، وكلا الطائفتين وقعوا في الضلال .

ويقال مريم - رضي الله عنها - كانت وليَّةَ الله، فَشَقِيَ بِهَا فرقتان: أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه - سبحانه - فمُنْكَرُهُمْ يَشْقَى بِتَرْكِ احترامهم،

(١) أخرجه مسلم (مساجد ٢١١)، والبخاري (توحيد ٢٤)، (مواقيت ١٦، ٢٦)، (تفسير سورة ٥٠،

٢)، وأبو داود (سنة ١٩)، والترمذي (جنة ١٦، ١٧)، وابن ماجه (مقدمة ١٣)، وأحمد بن حنبل

والذين يعتقدون فيهم ما لا يستوجبونه يَشْقَوْنَ بالزيادة في إعظامهم، وعلى هذه الجملة دَرَجَ الأكثرون من الأكابر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قيل أوقع الله شُبَّهُه على الساعي به فقتل وصلب مكانه، وقد قيل: مَنْ حفر بئراً لأخيه وقع فيها.

وقيل إن عيسى عليه السلام قال: مَنْ رَضِيَ بَأْسَ يُلْقَى عليه شُبِّهِي فيقتل دوني فله الجنة، فرضي به بعض أصحابه، فيقال لما صبر على مقاساة التلف لم يعدم من الله الخلف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ويقال لما صَحَّتْ صحبة الرجل مع عيسى - عليه السلام - بِنَفْسِهِ صَحْبَهُ بروحه، فلما رُفِعَ عيسى - عليه السلام - إلى محل الزلفة، رفع روح هذا الذي فداه بنفسه إلى محل القربة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

لما حكم بأن لا أمان لهم في وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان في تلك الحالة، فعُلِمَ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِأَمَانِ الْحَقِّ لا بإيمان العبد.

قوله جل ذكره: ﴿فَيُظَاهَرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبَصَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُولُ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المباحات.

فَمَنْ ركب محظوراً بظاهره حُرِمَ ما كان يجده من الأحوال المباحة، والألطف الحاصلة في سرائره.

قوله جل ذكره: ﴿لَٰكِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الراسخ في العلم هو ألا يكون في الدليل مُقْلَدًا، كما لا يكون في الحكم مقلداً، بل يضع النظر موضعه إلى أن ينتهي إلى حد لا يكون للشك في عقله مساغ.

ويقال الراسخ في العلم من يرتقي عن حد تأمل البرهان ويصل إلى حقائق البيان.

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عاملاً حتى يفيد علم ما خفي على غيره، ففي الخبر: «من عمل بما علمه ورثه الله علم ما لم يعلم».

وخصّ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ في الإعراب فنصب اللفظ بإضمار أعني على المدح لِمَا للصلاة من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن، ولأن الله - سبحانه - أمر الرسول ﷺ (بها) ^(١) ليلة المعراج ^(٢) بغير واسطة جبريل عليه السلام... وغير هذا من الوجوه.

قوله تعالى ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: الأجر العظيم هو الذي يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زُكْرًا﴾.

إفراد النبي ﷺ من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو، فاشتركا في الأفراد لكنهما تباينا في الفضيلة على حسب المقام، فتفرد واحد من بين أشكاله بغير فضائل، وتفرد آخر من بين أضرابه بألف فضيلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

سنة الله في أوليائه ستر قوم، وشهر قوم، وبذلك جرت سنته أيضاً في الأنبياء - عليهم السلام - أظهر أسماء قوم وأجمل تفصيل آخرين. والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلاً، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها، فما أظهرها لهم - طالبهم بالإخلاص فيها، وما سترها عليهم - فلا نه غار ^(٣) على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بحقائق أفردهم بمعانيها.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) المعراج: ما عرج عليه النبي ﷺ ليلة الإسراء.

(٣) جاء في حديث القشيري عن الغيرة: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أغبر من الله تعالى، ومن غيرته حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار وغيره الله تعالى أن يأتي العبد المؤمن ما حرم الله تعالى عليه». فالغيرة كراهية مشاركة الآخرين، وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة غيره معه، فيما هو حق له من طاعة عبده. (الرسالة القشيرية ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾: إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة.
قوله جل ذكره: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

وقَفَ الخلق عند مقاديرهم؛ وبين أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتباء ثوابهم، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم، وأنه ليس للخلق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما في الحال أو في المال.

قوله جل ذكره: ﴿لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.
أنى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حجة؟! ولكن الله خاطبهم على حسب عقولهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلُهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

سأله الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه، ولذلك قال:
﴿وكفى بالله شهيدًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُمْ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

جعل صدهم المؤمنين من اتباع الحق كفرهم بالله، والله تعالى عظم حقوق أوليائه كتعظيم حق نفسه، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا﴾ جعل ظلمهم سبيل كفرهم، فعَلَّقَ استحقاق العقوبة المؤبدة عليها جميعاً. والظلم - وإن لم يكن كالكفر في استحقاق وعيد الأبد - فليشؤم الظلم لا يبعد أن يخذله الله حتى يوافي ربه على الكفر.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: أخبر أنه سبحانه غني عنهم، فإن آمنوا فحفظوا أنفسهم اكتسبوها وإن كفروا فبَلَايَاهُمْ لأنفسهم اجتلبوها. والحق - تعالى - مُنَزَّه الوصف عن (الجهل) لوفاق أحد، والنقص لخلاف أحد.

قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني إن خرجوا عن استعمال العبودية - فعلاً، لم يخرجوا عن حقيقة كونهم عبيده - خلقاً، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

غُلُّوهم في دينهم جَزَيْهِم على مقتضى حسابانهم؛ حيث وصفوا - بمشابهة الخلق - معبودهم، ثم مناقضتهم؛ حيث قالوا الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، والتمادي في الباطل لا يزيد غير الباطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْمِلُهُ إِلَهِهِ جِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شرفه، وكيف يستكبر عن التذلل وفي استكباره تَلَفُّه، ولهذا الشأن نطق المسيح أول ما نطق بقوله: إني عبد الله، وتجمل العبيد في التذلل للسادة، هذا معلوم لا تدخله ريبه.

وقوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ لا يدل على أنهم أفضل من المسيح، لأنه إنما خاطبهم على حسب عقائدهم، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بني آدم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه أبداً بعدما عرفوا جلاله، فإذا صارت معارفهم ضرورة فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا، فَحَسَرَاتِهِمْ حيثُ على ما فاتهم أشد عقوبة لهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

البرهان ما لاح في سرائرهم من شواهد الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا﴾.

وهو خطابه الذي في تأملهم معانيه حصول استبصارهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدِ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ وَفَضْلِهِ﴾.

﴿فَسُيِّدِ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ﴾: والسين للاستقبال أي يحفظ عليهم إيمانهم في المال عند التوفي، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان في الحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

هذه الهداية هي إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم، ولا بتعبهم وكدهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرْتُكُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَكُمْ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قطع الخصومة بينهم في قسمة الميراث فيما أظهر لهم من النص على الحكم، فإن المال محبب إلى الإنسان، وجبِلَت النفوس على الشح؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابله الأشباه) في الاجتهاد، فكان يؤدي ذلك إلى التجاذب والتواذب؛ فحَسَمَ تلك الجملة بما نص على المقادير في الميراث قطعاً للخصام. ولتوريثه للنسوان - وإن لم يوجد منهن الذب عن العشيرة - دلالة على النظر لضعفهن. وفي تفضيل الذكور عليهن لِمَا عليهم مِنْ حَمْلِ الْمُؤْن وكذا السعي في تحصيل المال، والقيام عليهن.

السورة التي تذكر فيها المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَمِعُ اسم الله يُوجِبُ الهيبة، (والهيبة)^(١) تتضمن الفناء والغيبة، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة، والحضور يتضمن البقاء والقربة.

فمن أسمع «بسم الله» أدهشه في كشف جلاله، ومن أسمع «الرحمن الرحيم» عَيْشه يُلْطِفُ أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

«يا» حرف نداء، و «أي» اسم منادى، «ها» تنبيه و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صلة المنادى. ناداهم قبل أن بداهم، وسمّاهم قبل أن يراهم، وأهلهم في آزاله لِمَا أوصلهم إليه في آباه.

شَرَّفهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكَلَّفهم بقوله ﴿أَوْفُوا﴾ ولَمَّا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قَدَّمَ التشريف بالثناء على التكليف الموجب للعناء.

ويقال الإيمانُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجود، والثاني إلى بذل المجهود. فَبَذَلَ المجهودِ خِدْمَتَكَ، وعين الجود قِسْمَتُهُ؛ فبخدمتك عناء الأشباح، وبقسمته ضياء الأرواح.

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب.

ويقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يا مَنْ دخلوا في إيماني، ما وصلتكم إلا أمانى إلا بسابق إحساني. ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتَهم لشهود حقي حتى لا يكونوا كمن أعرضت عنهم مِنْ خَلْقِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

كُلُّ مُكَلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعقده، والعقد، ما ألزمك بسابق إيجابه، ثم وفَّقك -

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

بعدما أظهر ك عند خطابه - بجوابه^(١)، فانبرم العقد بحصول الخطاب، والقبول بالجواب.

ويدخل في ذلك - بل يلتحق به - ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا سِرًّا؛ من خلوص له أضمره، أو شيء تَبَيَّنَ، أو معنى كُشِفَ به أو طُوبِ به فُقِبَ به.

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد، ولا يكون ذلك إلا بالتبري من المُنَّة، والتحقق بتولي الحق - سبحانه - بلطائف المِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُزْم سَبَقَ منها، وتحريم بعضها والمنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها - دليل على أَلَّا عِلَّةً لصنعه.

وحُزْم الصيد على المُحَرِّم خصوصاً لأن المُحَرِّم متجرد عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كُفُّ الأذى عن كل حيوان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

لا حَجَرَ عليه في أفعاله، فيخص من يشاء بالثغمي، ويفرد من يشاء بالبلوى؛ فهو يُنْضِي الأمور في آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى في آزاله.

قوله جل ذكره: ﴿يُنَادِي السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْبُيُوتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الشعائر معالم الدين، وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير، والتزام الأمر بجميل الاعتناق، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا أَبْشَرُ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدَى وَلَا الْفَلْتَةَ﴾.

تعظيم المكان الذي عظمه الله، وإكرام الزمان الذي أكرمه الله. وتشريف الإعلام على ما أمر به الله - هو المطلوب من العبيد أمراً، والمحبوب منه حالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا آيِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَفَوَّنُونَ فُضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾.

وبالحري لمن يقصد البيت ألا يخالف رب البيت.

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقي موجبات السخط، ومجانبة العصيان.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ مَدُّوْكُمْ عَنِ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

(١) يلمح هنا القشيري إلى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] شهدوا بذلك (اللسان ٣٠٤/٤).

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأما ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم، وإنكم لنا.

قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ...﴾ أي لا يحملكم بغض قوم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حد الإذن في الانتقام، أي كونوا قائمين بنا، متجردين عن كل نصيب وحظ لكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾.

البرُّ فعل ما أمرت به، والتقوى ترك ما رُجرت عنه.

ويقال البرُّ إثبات حقه - سبحانه، والتقوى ترك حظه.

ويقال البرُّ موافقة الشرع، والتقوى مخالفة النفس.

ويقال المعاونة على البرِّ بخسني النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين، والمعاونة على التقوى بالقبض على أيدي الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ وبلغ الزجر، وتامام المنع على ما يقتضيه شرط العلم.

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدين، فيكون قولك الذي تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةٌ تظهرها و (عليك) نبؤٌ وزرّها. وكذلك المعاونة على البر والتقوى أي الاتصاف بجميل الخصال على الوجه الذي يُقتدى بكل فيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

العقوبة ما تعقب الجُرم بما يسوء صاحبه. وأشد العقوبة حجاب المُعاقِب عن شهود المُعاقِب؛ فإنَّ تجرّع كاساتِ البلاء بشهود المُبلي أحلى من العسل والشهد.

قوله جل ذكره: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾.

وأكل الميتة أن تتناول من عِرَضِ أخيك على وجه الغيبة، وليس ذلك مما فيه رخصة بحالٍ لا بالاضطرارٍ ولا بالاختيار، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ في حالِ الضرورة.

ويقال كما أنَّ في الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً وكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطَهَّرَ نفسه - مُباحٌ قربه، حلال صحبته. ومن ماتت نفسه في ظلمة غفلته حتى لا إحساس له بالأمر الدينية فخبثته نفسه، محظورُ قربه، حرام معاشرته، غيرُ مباركة صحبته.

وإنَّ السلف سموا الدنيا خنزيرةً، ورأوا أنَّ ما يُلْهِي قربه، ويُنْسِي المعبود ركوته، ويحمل على العصيان جنوحه - فهو مُحَرَّمٌ على القلوب؛ ففي طريقة القوم

حب الدنيا حرام على القلوب، وإن كان إمساك بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَهْلَ لَيْعٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَّةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ﴾.

كما أن المذبح على غير اسمه ليس بطيب فمن بدل روحه فيه وجد روحه منه، ومن تهارشته^(١) كلاب الدنيا، وقلته مخالب الأطماع، وأسرت مطالب الأغراض والأعراض - فحرام ماله على أهل الحقائق في مذهب التعزز، فللشريعة الظرف والتقدير.

وأما المنخفة فالإشارة منه إلى الذي ارتبك في جبال المني والرغائب، وأخذ خناق الطمع، وخنقته سلاسل (الجزص) فحرام على السالكين سلوك خطتهم، ومحذور على المريدين متابعة مذهبيهم.

وأما الموقوذة فالإشارة منها إلى نفوس جُبلت على طلب الخسائس حتى استملكتها كلها فهي التي ذهبت بلا عوض حصل منها، وأمثال ذلك حرام على أهل هذه القصة.

والإشارة من المتردية إلى من هلك في أودية التفرقة، وعمي عن استبصار رشد الحقيقة؛ فهو يهيم في مفاوز الظنون، وينهك في متاهات المني.

والإشارة من النطيحة إلى من صارع الأمثال، وقارع الأشكال، وناطح كلاب الدنيا فحطموه بكل حرصهم، وهزموه بزيادة تكليهم، وكذلك الإشارة من:
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّيِّئُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

وأكلة السيئ ما ولغت^(٢) فيه كلاب الدنيا، فإن الدنيا جيفة، وأكله الجيف الكلاب ويستثنى منه المزكى وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله؛ لأن زاد المؤمنين من الدنيا: ما كان لله فهو محمود، وما كان للنفس فهو مذموم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْقِمُوا بِالْأَزْلَرِ﴾.

فهو ما أُرْصِدَ لغير الله، ومقصود كل حريص - بموجب شرعه - معبوده من حيث هواه قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] يعني اتخذ هواه إلهه.

﴿وَأَنْ تَسْقِمُوا بِالْأَزْلَرِ﴾، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصاحبة بُنيَتْ على استجلاب الحظوظ الدنيوية - لا على وجه الإذن - إذ القمار ذلك معناه. وقلَّت المعاملات المجردة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت.

(١) تهارشت الكلاب: توائت وتقاتلت.

(٢) ولغ الكلب وغيره من السباع في الإناء، ومنه، وبه: شرب ما فيه بطرف لسانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكُمْ فَتَنُّ﴾ .

أي إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدين .

قوله جلّ ذكره: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ .

أي بعدما أَرَحْتُمْ عن قلوبكم آثار الحسبان، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن فلا تلاحظوا سواي، ولا يُظَلِّلَنَّ قلوبكم إشفاقاً من غيري .

ويقال إذا كانت البصائر متحققة بأن النفع والضرر، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق - سبحانه، فمن المحال أن تنطوي - من مخلوق - على رَغَبٍ أو رَهَبٍ .

قوله جلّ ذكره: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

إكماله الدين - وقد أضافه إلى نفسه - صَوْنُهُ العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أَمْلَهَا بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَهُ من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور:

ويقال إكمال الدين تحقيقُ القَبُولِ في المَالِ، كما أن ابتداء الدين توفيقُ الحصول في الحال: فلولوا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق - سبحانه - من أوصافه وقد عَلَّمَك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته - على التفصيل - أكرمك بأن عَرَفَك ذلك من جهة الإخبار .

وإنما أراد بذكر ﴿الْيَوْمَ﴾ وقتَ نزول الآية . وتقييد الوقت في الخطاب بقوله ﴿الْيَوْمَ﴾ لا يعود إلى عين إكمال الدين، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدين موهوبٌ ومطلوبٌ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله، والموهوب ما سبق منه حصوله .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ .

النعمة - على الحقيقة - ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه والنعمة المذكورة ها هنا نعمة الدين، وإتمامها وفاء المَالِ، واقتران الغفران وحصوله . فإكمال الدين تحقيق المعرفة، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة . وهذا خطاب لجماعة المسلمين، ولا شك في مغفرة جميع المؤمنين، وإنما الشك يعتري في الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

وذلك لما قَسَمَ لِلخَلْقِ أديانهم؛ فخصّ قوماً باليهودية، وقوماً بالنصرانية، إلى غير ذلك من النحل والملل، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران.

وقدّم قومَ الإكمال على الإتمام، فقالوا: الإتمام يقبل الزيادة، فلذلك وصّف به النعمة لقبول النعم للزيادة، ولا رتبة بعد الكمال فلذلك وصف به الدين.

ويقال لا فرق بين الدين والنعمة المذكورة ها هنا، وإنما ذكّر بلفظين على جهة التأكيد، ثم أضافه إلى نفسه فقال: ﴿نِعْمَتِي﴾ وإلى العبد فقال: ﴿دِينَكُمْ﴾. فوجه إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخلق. فالدين من الله عطاء، ومن العبد عناء، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاع في السر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالك فترة، أو لمريد في السلوك وقفة، ثم تنبّه لعظيم وقاعة فبادر إلى جميع الرجعة باستشعار التحسّر على ما جرى تداركته الرحمة، ونظر الله - سبحانه - إليه بقبول الرجعة.

والإشارة من قوله ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي غير معرّج على الفترة، ولا مستديم لعقدة الإصرار، ويحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجده في الحال فربما تجري معه مساهلة إذا لم يفسخ عقد الإرادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ وَأَقْوُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لما علموا أن الحسن من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرّفوا ذلك من تفصيل الشرع، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ثم قال:

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ وهو الحلال الذي تحصل من تناوله طيبة القلوب فإن أكل الحرام يوجب قسوة القلب، والوحشة مقرونة بقسوة القلب، وضياء القلوب وطيب الأوقات متصل بصون الخلق عن تناول الحرام والشبهات.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾: ولما كان الكلب المعلن ترك حظه، وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته، وجاز اقتناؤه، واستغرق في ذلك حكم خساسته فكذلك من كانت أعماله وأحواله لله - سبحانه - مختصة، ولا يشوبها حظ تجلّ رتبته وتعلو حالته.

ويقال حسن الأدب يلحق الأخصّة برتبة الأكابر، وسوء الأدب يرذّ الأعزّة إلى حالة الأصاغر.

ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوا أَنَّمَا اللَّهُ عَلَّمَهُ﴾: بَيَّنَّ أَنَّ الْأَكْلَ - عَلَى الْغَفْلَةِ - غَيْرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ (فِي الْقِيَمَةِ).

﴿وَأَقْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بحيث لا يشغله شأن عن شأن، وسريع الحساب - اليوم - مع الأحباب والأولياء، فهم لا يُسامحون في الخطوة ولا في اللحظة، معجِّل حسابهم، مُضَاعَفٌ - فِي الْوَقْتِ - ثَوَابُهُمْ وَعِقَابُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكَنِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب ما يوجد فيه رضاء الحق - سبحانه - فتوجد عند ذلك راحة القلوب.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾: الْقَدْرُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوِفَاقِ فِي إثبات الربوبية لم يَعمُر من أثر في القرية فقال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وكذلك الأمر في المحصنات من نسائهم. وأُحِلَّ الطَّعَامُ وَالذَّبِيحَةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ من الوجهين فيحل لنا أكل ذبائحهم، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا، ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُغْلَى.

ثم قال ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكَنِينَ﴾ يعني إنهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحبتهم بغير نكاح تعظيماً لأمر السُّفَاح، وتنبهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق. وكذلك ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ لأنه إذا لم يجز تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة^(١) فمتى يسلم ذلك مع الكفار الذين هم الأعداء؟

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.

كما أن في الشريعة لا تصح الصلاة بغير الطهور فلا تصح - في الحقيقة - بغير طهور.

وكما أن للظاهر طهارة فللسرائر أيضاً طهارة، وطهارة الأبدان بماء السماء أي المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل.

وكما يجب غسلُ الوجه عند القيام إلى الصلاة يجب - في بيان الإشارة - صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .
وكما يجب غسلُ اليدين في اليدين في الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد .
وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ .

كما يقتضي غسل جميع البدن في الطهارة، كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء؛ وذلك عندما تقع للمريد فترة فيقوم بتجديد عقد، وتأكيده عهد، والتزام عزيمة، وتسليم وقت، واستدامة ندامة، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهر الماء ففرضه التيمم فكذا ذلك إذا لم يجد المريد من يفيض عليه صوب همته، ويغسله ببركات إشارته، ويعينه بما يؤوب به من زيادة حالته - اشتغل بما تيسر له من اقتفاء آثارهم، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سيرهم، وما ورد من حكاياتهم .

وكما أن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذا ذلك المطالبات على إصفاء هذه الحالة تكون أخف لأنه وقت الفترة وزمان الضعف .

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليخطط رجله بساحات العبادة، فإذا عديم اللطائف في سرائره فليستدِّم الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام الحقيقة فليخلق بآداب الشريعة، وإن لم يتخرج عن تزكته الفضيلة فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

أي يظهر ظواهركم عن الزلة بعصمته، ويظهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .
ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال، ويظهر ظواهركم عن الوقوع في شباك الأشغال .

ويقال يطهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدنس المقادير بالأعلال .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِيُخَبِّرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّمَا أَوْفَوْتَ عَلَيْهِمْ حَبْلَ الْوَعْدِ﴾.

إتمام النعمة على قوم بنجاة نفوسهم، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم، وشئان بين قوم وقوم!

ويقال إتمام النعمة في وفاء العاقبة؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد تمت سعادته، وصفت نعمته.

ويقال إتمام النعمة في شهود المنعم؛ فإن وجود النعمة لكل أحد ولكن إتمامها في شهود المنعم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الّذِي وَافَقْتُمْ بِهِ﴾.

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذي لولاه ما علمت أنه من هو.

ويقال أمرهم بتذكّر ما سبق لهم من القسّم وهم في كتم العدم، فلا للأغيار عنهم خبر، ولا لهم عين ولا أثر، ولا وقع عليهم بصيرة، وقد سماهم بالإيمان، وحكم لهم بالغفران قبل حصول العصيان، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرفهم التوحيد قبل أن كلفهم الحدود، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة وحذرهم الخيانة، فقابلوا قوله بالتصديق، ووعدوا من أنفسهم الوفاء بشرط التحقيق، فأمدهم بحسن التوفيق، وثبتهم على الطريق، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

ثم قال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾: يعني في نقض ما أبرمتم من العقود، والرجوع عما قدمتم من العهود، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَايَ الصُّدُورِ﴾ لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾.

لا يُعَوِّقُكُمْ حصول نصيب لكم في شيء عن الوفاء لنا، والقيام بما يتوجب عليكم من حقنا.

ويقال من لم يقسط عند مواعيد رغائبه، ولم يمح عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يحم لله بحق ولم يف لواجباته بشرط.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنبات الحيف فإن مرتع الظلم وبيء، ومواضع الزيف مهلكة.

ثم صرح بالأمر بالعدل فقال: ﴿اعدلوا﴾ ولا تكون حقيقة العدل إلا بالعدول عن كل حظ ونصيب.

والعدلُ أقربُ إلى التقوى، والجَزُورُ أقربُ من الرَّذَى، ويوقِعُ عن قريبٍ في عظيمِ البلى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

والمغفرة لا تكون إلا للذنوب، فوصفهم بالأعمال الصالحات، ثم وعدهم المغفرة ليُعْلَمَ أن العبد تكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها، بخلاف ما تَوَهَّم مَنْ قال إن المعاصي تُخْبِطُ الطاعات.

ويقال بيّن أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عَفْوِهِ وغفرانه، ولولا ذلك لَهْلَكَ، خلافاً لمن قال إنه لا يجوز أن يَعَذَّبَ البريء ويجب أن يثيب المحسنين.

ويقال لو كان ثواب المحسنين واجباً، وعقوبة البريء غير حسنة لكان التجاوز عنه واجباً عليه، ولم يكن حيثنذ فضل يمن به عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

لهم عقوبتان: معجلة وهي الفراق، ومؤجلة وهي الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَسْطُورَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يذكرهم ما سلف لهم من نِعَمِ الدفع وهو ما قصر عنهم أيدي الأعداء، وذلك من أمارات العناية. ولقد بالغ في الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهَرُ لك الغيب من غير التماس أو سبق شفاعة فيك، أو رجاء نفع من المستأنف منك، أو حصول ربح في الحال عليك، أو وجود حق في المستأنف لك.

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني كما أحسنت إليكم في السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحساني في الغابر من غير استيجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

يذكرهم حُسْنَ أفضاله معهم، وقبح (فعلهم) في مقابلة إحسانه بتقصهم عهدهم. وعرف المؤمنين - تحذيراً لهم - ألا ينزلوا منزلتهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.

أي لئن قمتم بحقي لأوصلن إليكم حظوظكم، ولئن أجللتم أمري في العاجل لأجلن قذركم في الآجل.

وإقامة الصلاة أن تشهد من تعبد، ولذا قال النبي ﷺ: «اغبد الله كأنك تراه»^(١).

ويقال إقامة الصلاة شرطها أن تُقبل على ما من تناجيه بأن تستقبل القطر الذي الكعبة فيه.

وأما إيتاء الزكاة فحقه أن تكسب المال من وجه، وتصرفه في حقه، ولا تمنع الحق الواجب فيه عن أهله، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته، ولا تُخرج الفقير إلى طلبه فإن الواجب عليك أن توصل ذلك إلى مستحقه.

وتعزيز الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال، واعتناق أمرهم بتمام الجِد والاستقلال، وإيثارهم عليك في جميع الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

الأغنياء ينفقون أموالهم في سبيل الله، والفقراء يبذلون مهبتهم وأرواحهم في طلب الله، (فأولئك) عن مائتي درهم يُخْرِجُونَ خَمْسَةَ، وهؤلاء لا يدخرون عن أمره نفساً ولا ذرة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا كُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَدْخَلَكُمْ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

التكفير هو الستر والتغطية، وإنه يستر الذنوب حتى عن العاصي فيمحو من ديوانه، وينسي الحفظ سواك عصيانه. وينفي عن قلبه تذكر ما أسلفه، ولا يوقفه في العرصة^(٢) على ما قُدِّم من ذنبه، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضلته كما قال: ﴿وَلَا دُخْلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، كما قيل:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/١٣٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢/٤٠، ٤/٢١٨) وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦ - ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١/٢٦٨، ٣/٥٩٢، ٤/٢٤٧)، وابن كثير في (التفسير ٢/١٧٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/١١٥) وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٣٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/١٢٤، ٧/٤٥٣، ١٠/٥٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/١٠٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ١/٢٩٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٥٠ - ٥٢٥١ - ٥٢٥٦ - ٥٢٧٩ - ٤٤١٥٤) وابن أبي شيبه في (المصنف ١٣/٢٢٥).

(٢) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراض.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .
فَمَنْ جَحَدَ هذه الأيادي بعد اتصاحها فقد عَدَلَ عن نَهْجِ أهل الوفاء، وحاد عن سَنَنِ أصحاب الولاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ .
جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْيسَةً يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ .
وتحريفهم الكلم عن مواضعه نوعٌ عصيان منهم، وإنما حرّفوا لقساوة قلوبهم .
وقسوة القلب عقوبة لهم مِنْ قِبَلِ الله تعالى على ما نقضوه من العهود، ونقض العهد أعظمُ وزرٍ يلم به العبد، والعقوبة عليه أشد عقوبة يُعاقَبُ بها العبد، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنُ به من الصدّ، وعن قريبٍ يُمتَحَنُ بمحنة الرد بعد الصدّ، وذلك غاية الفراق، ونهاية البعد.

ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصفة ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام القسوة، فإن لم يتفق إقلاع من هذه الجملة فهو تمام الشقوة.

ومن تحريف الكلم - على بيان الإشارة - خَمَلُ الكلم على وجوه من التأويل مما تسوّل لصاحبه نَفْسُهُ، ولا تشهد له دلائل العلم ولا أصله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ .
أَوَّلُ آفَاتِهِمْ نسيانهم، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا، فالنسيان أول العصيان، والنسيان حاصلٌ من الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ .
الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد، وعليهم أشد وأصعب . ومن تعود اتباع الشهوات، وأَشْرَبَ في قلبه حُبُّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُقُ إلى آخر عمره، اللهم إلا أن يجود الحق - سبحانه - عليه بجميل اللطف.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْفُفْنَا عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .
قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كل أحدٍ أهلاً للعقاب . وللصفح على العفو مزية وهي أن في العفو رفع الجناح، وفي الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب، فمن تجاوز عن الجاني، ولم يلاحظه - بعد التجاوز - بعين الاستحقار والازدراء^(١) فهو صاحب الصفح.

(١) ازدراء: احتقره.

والإحسان تعميم - للجُمهور - بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ اتِّفَاقًا فَمِنْهُمْ قَوْمٌ لَقِئُوا اللَّهَ بِمَا دُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

الإشارة في هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ﴾ وسموا نصارى لتناصرهم، وبدعواهم حرّفوا وبدّلوا، وأما المسلمون فقال: ﴿هُوَ سَتَنَكِّمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] .

كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٢] فلا جَرَمَ ألا يسموا بالتناصر . ولما سَمَّاهم الحق بالإسلام ورضي لهم به صانهم عن التبديل فَعَصِمُوا .

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم، وفساد ذات البين^(١)؛ فأرباب الغفلة لا ألفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض، قال ﷺ: «المؤمنون كنفس واحدة»^(٢)، وقال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصفات: ٤٤] .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ .

وصف الرسول - ﷺ - بإظهار بعض ما أخفوه، وذلك علامة على صدقه؛ إذ لولا صدقه لما عَرَفَ ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم، وذلك من أمارات خُلُقِهِ؛ إذ لولا خُلُقُهُ لَمَا فعل ذلك؛ فإظهار ما أبداه دليل عِلْمِهِ، والعفو عما أخفى برهان جِلْبِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عن البصيرة، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحن عن سِرِّهِ شواهد الأغيار، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ

(١) ذات البين: ما بين القوم من العداوة والبغضاء أو القرابة والصلة والمودة .

(٢) هناك رواية أخرى للحديث: «المؤمنون كرجل واحد» أخرجه مسلم (بر ٦٧ - ٦٨) .

يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٠﴾

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوائف^(١) متى يفارقه نَقْصُ الخَلْقَةِ؟

وَمَنْ لاحَت عليه شواهدُ التَّغْيِيرِ أُنَّى يليقُ به نعتُ الربوبية؟

ولو قَطَعَ البقاءُ عن جميع ما أوجد فأي نقصٍ يعود إلى الصمد؟

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلُوبَهُمْ فَلَمَّ يُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

البنوة تقتضي المجانسة، والحقُّ عنها مُنْزَعٌ، والمحبةُ بين المتجانسين تقتضي الاحتفاظ والمؤانسة، والحق سبحانه عن ذلك مُقَدَّسٌ.

فردَّ الله - سبحانه - عليهم فقال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾.

والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم؛ فالقديم لا بعض له لأن الأحدية حقه، فإذا لم يكن له عدد لم يجوز أن يكون له ولد. وإذا لم يجوز له ولد لم تجز - على الوجه الذي اعتقدوه - بينهم وبينه محبة.

ويقال في الآية بشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾.

ويقال بيِّن في هذه الآية أن قصارى الخلق إمَّا عذاب وإمَّا غفران ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكَتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يقال في: كل زمان تقع فَتْرَةٌ في سبيل الله ثم تجدد الحال، ويُعَمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العَدَم، ولقد كان زمانُ الرسول - ﷺ - أكثرَ الأزمنة بركةً، فأحيا بظهوره ما اندرس من السبيل، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل، وبذلك مَنْ عليهم، وذكرهم عظيمَ نعمته فيهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَلْقَوُكُمْ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾.

(١) طمئت المرأة: حاضت أول ما تحيض فهي طامث أي: حائض.

كان الأمر لبني إسرائيل - على لسان نبيهم - بأن يتذكروا نعمة الله عليهم، وكان الأمر لهذه الأمة - بخطاب الله لا على لسان مخلوق - بأن يذكروه فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وشتان بين من أمره بذكره - سبحانه - وبين من أمره بذكر نعمته! ثم جعل جزاءهم ثوابه الذي هو فضله، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذي هو قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾.

الْمَلِكُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَنْ عَبْدَ الْمَلِكِ الْحَقِيقِي.

ويقال الْمَلِكُ مَنْ مَلَكَ هَؤُلَاءِ، والعبد من هو في رِقِّ شهواته.

ويقال ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾: لم يخرجكم إلى أمثالكم، ولم يحجبكم عن أنفسه بأشغالكم، وسَهَّلَ إليه سبيلكم في عموم أحوالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

لئن آتى بني إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإيتاء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده، والاستقلال بوجوده أتمّ من الاستغناء بمقتضى جوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

من الفرق بين هذه الأمة وبين بني إسرائيل أنه أباح لهم دخول الأرض المقدسة على الخصوص فقال: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة، وبعد جهد وشدة، وقال في شأن هذه الأمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابة تكليف ثم قصرُوا، وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشريف، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصرُوا.

وقال: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وقال لهذه الأمة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا﴾ [الملك: ١٥] فهؤلاء ذُلِّلَ لهم وسَهِّلَ عليهم، وأولئك صَعَّبَ عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيما أنزل الله عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَزِدُّوا عَلَى آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

الارتداد على قسمين: عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل، وعن الإرادة وذلك يوجب الشَّقْوَةَ - التي هي الفراق - على القلوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا

فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان، وداخلتهم هواجم الرعب فأصروا على ترك الأمر. ومن طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدتهم في أسر التقدير قوالب متعربة عن إمكان الإيجاد، ولم يقع على قلبه ظل التوهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أنعم الله (عليهما)^(١) بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين، وعلمنا أن من رجع إليه بنعت الاستكفاء تداركته عواجل الكفاية ثم قال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي من شأن المؤمنين أن يتوكلوا، وينبغي للمؤمن أن يتوكل.

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان. وظاهر التوكل الذي لعوام المؤمنين العلم بأن قضاءه لا راد له، وحقائق التوكل ولطائفه التي لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومن الله والله، فإن من فقد ذلك انتفى عنه اسم الإيمان.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَسُوءُ إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

من أقصته سوابق التقدير لم يزده تواتر (العظة) إلا نفوراً وجحوداً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.

تركوا آداب الخطاب فصرّحوا ببيان الجحد ولم يحتشموا من مجاهرة الرد.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

لما ادّعى أنه يملك نفسه عرف عجزه عن ملكه لنفسه حيث أخذ برأس أخيه يجره إليه.

ويقال: لا أملك إلا نفسي أي لا أدرها عن البذل في أمر. لا أملك إلا أخي فإنه لا يؤثر نفسه عن الذي أكلفه من قبلك.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

مجاهرة الرد تعجل العقوبة؛ فإن من مآكر الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكامن التقدير ما يلجئه إلى التطوُّح في أوطان الدُّل.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال حيَّره في مفاوزهم حتى عموا عن القصد؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون، بعد طول التعب وإدامة السير، وكذلك من حيَّره الله في مفاوز القلب يتقلب ليلاً ونهاراً في مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الحيرة، فيحطون بحيث يرحلون عنها، فلا وجه للرأي الصائب يلوح لهم، ولا خلاص من بعده للتجوز يساعدهم، والذي التجأ إلى شهود الصمدية استراح عن نقلة فكره، ووقع في روح الاستبصار بعد أتعاب التوهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

كانت الدنيا بحذافيرها في أيديهما فحسد أحدهما صاحبه، فلم يصبر حتى أسرع في شيء بإتلافه، وحين لم يُقبَلْ قربانه اشتد حسده على صاحبه، ورأى ذلك منه فهذَّه بالقتل.

فأجابه بنطق التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

يعني إنما يُتَقَبَلُ القربان^(١) مِمَّنْ طَالَع في القربان مساعدة القدرة، وألقى توهم كونه باستحقاقه واستيجابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

لئن بدأتني بالإثارة لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أكلُ أمري إلى من بيده مقاليد الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِيمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

تحقق بأن العقوبة لا حجة به على ما يسلفه من الذنب فَرَضِي بانتقام الله دون انتقامه لنفسه.

وقوله: ﴿أَنْ تَبْوَأَ بِإِيمِي وَإِنَّكَ﴾ الذي تستوجهه بسبب قتلك إياي، فأضافه إلى نفسه، وإذا رأى المظلوم ما يحل بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

(١) القربان: ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله من ذبيحة وغيرها (ج) قرابين.

لا تستولي هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق، فإذا توالى العزائم الرديئة، واستحكمت القصود الفاسدة من العبد صارت دواعي الحق خفية مغمورة. والنفس لا تدعو إلا إلى اتباع الشهوات ومتابعة المعصية، وهي مجبولة على الأخلاق المجوسية. فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَّتِيْ أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ فَأُورِى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

إرادة الحق - سبحانه - وصول الخلق إلى لطف الاحتياط في أسباب التعيش، فإذا أشكل عليهم وجه من لطائف الحيلة سبب الله شيئاً يعرفهم ذلك به.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْهَ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

هذا قريب مما قال النبي ﷺ:

«من سنَّ حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

السعي في الفساد على ضربين: بالظاهر وعقوبته معلومة في مسائل الفقه بلسان العلم، وفي الباطن وعقوبته واردة على الأسرار، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق، وكسوف شمس العرفان، والستر بعد الكشف، والحجاب بعد البسط. والحجاب استشعار الوحشة بعد الأُنس، وتبديل توالي التوفيق بصنوف الخذلان، والنفي على بساط العبادة، والإخراج إلى متابعة النفوس، وذلك - والله - جزئي عظيم وعذاب أليم.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم (زكاة ٦٩)، (علم ١٥)، والنسائي (زكاة ٦٤)، وابن ماجه (مقدمة ١٤).

من أقلع عن معاصيه، وارتدع عن ارتكاب مساويه، قبل أن يهتك عنه ستر السداد لا تقام عليه - في الظاهر - حدود الشريعة لاشتباهاها على الإمام، ولا يؤاخذ به الحق سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهر ما يثبت من حاله ماله في استيجاب السداد، فإذا بدا للإمام جُرْمُهُ أُقيم عليه الحدُّ وإنْ تَقَنَّعَ بِنِقَابِ التَّقْوَى .

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقرب الحق - سبحانه .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

ابتغاء الوسيلة التبري عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطول والمِنة .

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقرب إليه بما سبق لك من إحسانه .

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة .

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل .

ويقال الوسيلة خلوص (العقد) عن الشك .

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصديق في الولاء إلى آخر العمر .

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء، وتجريد الأحوال عن الإعجاب،

وتخليص النفس عن الحظوظ .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

اليوم - يقبل من الأحباب مثقال ذرة، وغداً - لا يقبل من الأعداء ملء الأرض ذهباً، كذا يكون الأمر .

ويقال إفراط العدو في التقرب موجبٌ للمقت، وتستر الولي في التردد إحكامٌ لأسباب الحب .

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ .

كما أن الأعداء لا محيص^(١) لهم من النار كذلك المُبْعَدُونَ عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً عن التهلك أدركهم - من فجأة الخذلان - ما يركسهم في وهدة^(٢) العناء .

(١) المحيص: المهرب والمفر .

(٢) ركس الشيء: ردّ أوله على آخره وقلبه على رأسه . والوهدة: الأرض المنخفضة كأنها حفرة .

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أَنَّ ولياً من الأولياء سرق نصاباً^(١) من جرد، ووجد فيه استحقاق القطع، أقيم عليه الحدُّ كما يقام على المتهمك، ولا يَنْسَقُطُ الحدُّ لصلاحه. والإشارة فيه أن أمرَ الملك مُقَابِلٌ بالتعظيم، بل كل من كان أعلى رتبةً فَخَطَرُهُ أتمُّ وأخفى، والمطالبة عليه أشد. فلا يَسْتَخِفُّ أحدُ الإلمام بزلة ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. من استوفى أحكام التوبة فتَذَارَكَ ما ضَيَّعَهُ، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده - أقبل الله عليه بفضلِهِ فَعَفَرَهُ، وعاد إليه باللطف فَجَبَّرَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بَيَّنَّ أنه لا يعذب مَنْ يعذبُ بِعِلَّةٍ، ولا يرحم من يرحم بعلة، وإنما يتصرف في عبده بحق ملكه، وأنَّ الحكمَ حكمه، والأمرُ أمره.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّانًا لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾.

مَنْ أَقْصَاهُ الْحَقُّ عَنْ محلِّ التقريب، وأرْخَى له عنان الإمهال وَكَلَّهُ إلى مكروه، وَلَبَسَ عليه حاله وسِرَّهُ، فهو ينهمك في أودية حسبانهِ، وإنما يسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وبأله، فأمرُ نبيِّهِ - ﷺ - بترك المبالاة بأمثالهم، وقلة الاهتمام بأحوالهم، وعرفه أنهم بمعزلٍ عن رحمتِهِ؛ وإنَّ مَنْ رَدَّتْهُ القسمة الأزلية لا تنفعه الأعلال في الاستقبال، فقال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني إنَّ أَهْلَهُ الله للحرمان، وقيدَه بشباك الخذلان فشفاعَةُ الأغيار فيه غير مقبولة، ولطائف القبول إليه غير موصولة.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُمْ فَلَاحِقٌ لَهُمُ الْبُزْءُ﴾.

أولئك الذين لم تعجن طينتهم بماء السعادة فَجَبِلُوا على نجاسة الشِرْكِ فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقى بفنون المعاملات.

(١) النصاب: القدر من المال الذي تجب فيه الزكاة إذا بلغه.

ويقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾: مَنْ أُرْسِلَ عَلَيْهِ غَاغَةُ الْهَوَى، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ نَوَازِعَ الْمُنَى، وَأَذَلَّهُ (....) ^(١) الْقَضَاء، فَلَيْسَ يَلْقَى عَلَيْهِ غَيْرَ الشَّقَاء.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿كُلُّهُمْ فِي الْأُذُنَا خِرَئٍ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وَرَزَدُوا مِنَ الْهَوَانِ إِلَى الْهَوَانِ، وَوَعِدُوا بِالْفِرَاقِ، وَرَزَدُوا إِلَى الْإِحْتِرَاقِ، فَلَا تَدْرِي أَيَّ حَالِهِمْ أَقْرَبُ مِنْ اسْتِجَابِ الدَّلِّ؟ بِدَايَتِهِمْ فِي الرَّدِّ أَمْ نِهَائَتِهِمْ فِي الشَّرِّكَ وَالْجَحْدِ؟

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿سَتَجِدُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

يعني إنهم طرخوا حشمة الدين، وقنعوا بالحظوظ الخسيسة واكتفوا بالأعواض النذرة، فإذا تحاكموا إليك فأجللهم من حلمك على ما يستحق أمثالهم من الأزال، وأنت مُخَيَّرٌ فيما تريد؛ فسواء أقبلت عليهم فحكمت أو أعرضت فرددت فلاختيار لك.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: الإِقْسَاطُ الْوُقُوفُ عَلَى حَدِّ الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ (حَتْفٍ) ^(٢) إِلَى الْحِظِّ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

يعني أنهم قارفوا الجحد، وأصرُّوا على الغي، وتعودوا الإعراض عن الإيمان، فمتى تَوَثَّرَ فِيهِمْ دَعْوَتُكَ، وَقَدْ سُدَّتْ مَسَامِعُهُمْ عَنِ الْقَبُولِ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ سَابِقُ الْحُكْمِ؟

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ آسَلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيْنِوْنَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾. يخبر أنه استحفِظَ بني إسرائيل التوراة فحرفوها، فلما وَكَلَّ إِلَيْهِمْ حِفْظَهَا ضَيَّعُوهَا.

وأما هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن، وتولَّى - سبحانه - حفظه عليهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فلا جَرَمَ لو غَيَّرَ وَاحِدٌ حَرَكَةً أَوْ سَكُونًا مِنَ الْقُرْآنِ لَنَادَى الصَّبِيَّانِ بِتَخْطِئِهِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشَوْنَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الحَتْفُ: الاعوجاج والاستقامة (ضد).

إِنَّ الْخَلْقَ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْقُدْرَةِ وَأَقْسَامُ التَّصْرِيفِ؛ فَالْخَشْيَةُ مِنْهُمْ فَرَعٌ مِنَ الْمَحَالِ، فَإِنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ شُطْبِيَّةٌ مِنَ الْإِبْجَادِ فَأَتَى تَصَحُّهُ مِنْهُ الْخَشْيَةُ؟! قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

لا تأخذوا على جحدِ أوليائي والركونِ إلى ما فيه رضاء أعدائي عوضاً يسيراً فتبقوا بذلك عني، ولا يُبَارِكْ لَكُمْ فيما تأخذون من العوض. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾ فمن اتخذ بغيره حكماً، ولم يجد - تحت جريان حكمه - رضى واستسلاماً ففي شركٍ خامر قلبه، وكفرٍ قارنٍ سيره. وهيهات أن يكون على سِوَاء!

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ عَتَبَارَ الْعَدَالَةِ كَانَ حَتْمًا فِي شَرْعِهِمْ، وَلَمَّا جَنَحُوا إِلَى التَّضْيِيعِ اسْتَوْجَبُوا الْمَلَامَ. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾، يَعْنِي فَمَنْ أَثَرَ تَرَكَ مَالَهُ بِاعْتِنَاقِ الْعَفْوِ لَمْ يَخْصِرْ عَلَيْنَا بِاسْتِجَابِ الشُّكْرِ، وَمَنْ أَبَى إِلَّا تَمَادِيًا فِي إِجَابَةِ دَوَاعِي الْهَوَى فَهُمْ الَّذِينَ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؛ أَيِ اسْتَبَدَّلُوا بِلُزُومِ الْحَقَائِقِ مُتَابَعَةَ الْحُظُوظِ، وَبِإِثَارِ الْفِتْنَةِ^(١) مُوَافَقَةَ الْبَشَرِيَّةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى مَاءِ نَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يعني أتبعناهم بعيسى ابن مريم، وخصصناه بالإنجيل، وفي الإنجيل تصديق لما تقدّمه، وتحقيق لِمَا أوجب الله وألزمه، فلا الدينَ قضاوا حقه، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه، ولا الرسولَ حفظوا أمره؛ ففسقوا وضلوا، وظلموا وزلوا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلْيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال في موضع آخر ﴿... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال في هذه الآية ﴿... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أما في الأول فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ﴿فَأُولَئِكَ

هُمْ الْكَافِرُونَ ﴿١٠﴾ لأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر.

وفي الثاني قال: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأن من جاوز حد القصاص واعتبار المماثلة، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظلم بعضهم على بعض.

وأما ما هنا فقال: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَقْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أراد به معصية دون الكفر والجحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾.

قدّم تعريفه... - قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدّمه فيستوجب ما استوجبه.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾.

لا تملكك مودة قريب أو حميم، واعتنق ملازمة أمر الله - تبارك وتعالى - بترك كل نصيب لك.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يعني طريقة وسنة؛ أي أفردنا كل واحد منكم - معاشير الأنبياء - بطريقة، وأما أنت فلا يدانيك في طريقتك أحد، وأنت المقدّم على الكافة، والمفضل على الجملة، ولو شاء الله لسوّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاء، وفصل بعضكم على بعض امتحاناً.

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَفِؤْا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾.

مسارعة كل أحد على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد، والعارفون همتهم من حيث المواجد.

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا، واستباق العابدين بقطع الهوى، واستباق العارفين بنفي المني، واستباق الموحدين بترك الوري، ونسيان الدنيا والعقبى.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنِّي أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

ثم بالله فيما تحكم بينهم، وأقم حقوقه فيما تؤخر وتقدم، ولا تلاحظ الأغيار فيما (تؤثر) أو تذر، فإن الكل محو في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

يعني (عِظْهُمْ) بلسان العلم فإن أبوا قبولاً فشاهدهم بعين الحكم. ويقال: أشدُّ عليهم باعتناق لوازم التكليف، فإن أعرضوا فعانهم بعين التصريف؛ فإن الحق - سبحانه - بشرط التكليف يلزمهم؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم، فالتكليف فيما أوجب، والتصريف فيما أوجد، والعبرة بالإيجاد والإيجاب.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

أيعودون في ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فجرُ العرفان، وطلعت شمسُ التحقيق، وانتهكت أستارُ الرب؟

ويقال أيطالبون منك أن تحيدَ عن المحبة المثلى، وقد اتضحت لك البراهين وتجلَّى اليقين؟

ويقال أيطمعون في استتار الحقائق في السرائر وقد تجلت شمس اليقين؟

ويقال أتحسبون أن (. . . .) ^(١) ظلمة الشك لها سلطان، وقد متَّعَ نهارُ الحقائق؟ كلاً، فإن ذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه - سبحانه - إشاراً للسكون إلى الحظ، أو احتشاماً من القيام للحق، أو ركوناً إلى قرابة نسب، أو استحقاقاً لمودة حميم، أو تهيئاً من استيحاش صديق. بل صمموا عقودكم على التبري منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ التحق بهم، وانخرط في سلكهم، وعُدَّ في جملتهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ وَيَقُولَ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُؤَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

يعني إن الذين سقمت ضمائرهم، وضعفت في التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة الأعداء خوفاً من معاداتهم، وطمعاً في المأمول من صحبتهم، ولو استيقنوا أنهم في أسر العجز وذل الإعراض ونفي الطرد لأمَلُوا الموعود من كفاية

(١) بياض في الأصل.

الحق، والمعهود من جميل رعايته، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد؛ فتفرَّقوا في أودية الحساب والظنون، وعن قريب يأتِيكم الفَرَجُ - أيها المؤمنون، وتَزْرُقُونَ الفَتْحَ بحسن الإقبال، والظفر بالمسؤول لسابق الاختيار، فيشعرون الندم، ويقاسون الألم، وأنتم (تعلون) رؤوسكم بعد الإطراق، وتصفوا لكم مَشَارِبُ الإكرام، وتضيء بزواهر القرب مَشَارِقُ القلوب. حينئذ يقول الذين آمنوا هؤلاء اللذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ليعاینون بأبصارهم ما تحققوه بالغيب في أسرارهم، وَيَصِلُونَ من موعودهم إلى ما يوفي ويربو على مقصودهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ وِثْقِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾.

جعل صفة من لا يرتد عن الدين أن الله يحبه ويحب الله، وفي ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين لأنه يجب أن يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإن الله يحبه. وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه. وفي الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد.

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه: إما أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه، والمدح والثناء عليه. أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله.

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبته إرادته لإكرامه، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعام مخصوص، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبة أخص من الرحمة، واللفظان يعودان إلى معنى واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر إراداته، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق.

وأما محبة العبد لله - سبحانه - فهي حالة لطيفة يجدها في قلبه، وتحمله تلك الحالة على إيثار موافقة أمره، وترك حظوظ نفسه، وإيثار حقوقه - سبحانه - بكل وجه.

وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد في الوقت الذي يعبر عنه؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب، ويقال المحبة ذهاب المُحِبِّ بالكلية في ذكر المحبوب، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبيه بكل وجه، والمحبة بلاء كل كريم، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همة أعلى فمحبته أصفى بل أوفى بل أعلى.

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحو فيه وذهش في لقاء المحبوب يوجب التعطل عن التمييز، ويقال المحبة بلاء لا يُزجى شفاؤه، وسقام لا يعرف دواؤه. ويقال المحبة

غريمٌ يلازمك لا يبرح، ورفيقٌ من المحبوب يستوفي له منك دقائق الحقوق في دوام الأحوال، ويقال المحبة قضية توجب المحبة؛ فمحبة الحق أوجبت محبة العبد^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لولا أنه يحبهم لما أحبههم، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنى تكون للطينة ذكرُ المحبة؟ ثم بيّن الله تعالى صفة المحبين فقال: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. يبذلون المَهْجَ في المحبوب من غير كراهة، ويبذلون الأرواح في الذَّبِّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور.

ثم قال تعالى في صفتهم: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات، ويجاهدون بأسرارهم بالاستقامة على الشهود في دوام الأوقات.

ثم قال: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي لا يلاحظون نُضَحَ حميم، ولا يركنون إلى استقلال حكم، ولا يجنحون إلى حظ ونصيب، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحالٍ.

ثم بيّن - سبحانه - أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال: ﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ متفضلٌ عليهم بِمَن يَخُصُّ بذلك من عبده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾.

الولي أي الناصر، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق - سبحانه - فأعداء الحق هم أعداء الدين.

و «إنما» حرفٌ يقتضي أن ما عداه بخلافه، وأعدى عدوك نفسك - كما في الخبر - وَمَن عَادَى نَفْسَهُ لَمْ يَخْرُجْ بِالْمَخَاصِمَةِ عَنْهَا مَعَ الْخَلْقِ وبالمعارضة فيها مع الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصمٌ للحق على أنفسهم لا خصمٌ لأنفسهم على مولاهم، والغلبة بالحُجَّةِ والبرهان دون اليد.

ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِلٍ. ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل الباطل.

(١) انظر حديث القشيري بالرسالة عن المحبة ص ٣١٧ - ٣٢٩.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾.

نَبَّهَهُمْ عَلَى وجوب التحيز عنهم والتميز منهم، فإن المخالف في العقيدة لا يكون موافقاً في الحقيقة.
ويقال: أَمَرَهُمْ بِأَنْ يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.
الآذَانُ دَعَاءٌ إِلَى محلّ النجوى، فَمَنْ تَحَقَّقَ بَعْلُوَ المحلّ فسماعُ الأذانِ يوجب له رُوحُ القلب واسترواح الروح، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء، وذلك حكمُ الله: غَايَرَ بَيْنَ عِبَادِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِثَآءَ مَا أَنَا بِإِلَهِ إِلٰهِنَا وَمَا أُزِيلُ مِن قَبْلِ وَأَن أَكْثُرُ فَسِقُونَ﴾.

ما لنا عندكم عيبٌ إلا أننا تحققنا أننا محو في الله وأن الكائنات حاصلة بالله ولا نتقى أثراً سوى الله في الله، وهذا - والله - عيبٌ زائلٌ، ونقصٌ ليس له - في التحقيق - حاصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ أُتَيْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنَّهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

يعني أخسُّ من المذكورين قذراً، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذلة، وأبعده عن نعت التخصيص فأضله، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده، وحجبه عن شهود الحقيقة وطرده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

أظهروا الصدق، وفي التحقيق نافقوا، واقتضحوا من حيث أوهموا ولبسوا؛ فلا حالهم بقيت مستورة، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة، وهذا نعتٌ كل مبطل. وعند أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة في أنوار فراستهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبِّى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْبَاهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ﴾.

تَمَلَّكَتْهُمُ الأطماعُ فاستهوتهم في متاهات العناء، وذلك نعت كل (طالع) في غير مطمع؛ ذُلٌّ حاضر، وصَغَارٌ مستول.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِلَٰهَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَلَّيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

الرباني من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله.

ويقال الرباني الذي ارتقى عن الحدود.

والرباني من توفى الآفات ثم ترقى إلى الساحات، ثم تلقى ما كوشف به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لربه وبربه.

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدين، فهم خلفاء ينهون الخلق بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يؤمنون إليه، وتحقق ما علقوا همهم به.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِدَّكَ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنَا وَكُفِّرُوا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْمَدَوَّةَ وَالْعَصَاةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

صغر سوء قالة الموحدين - في اغتياب بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين وبالشهادة ناطقين - بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول في الله؛ يعني أنهم وإن أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم من نسبنا إلى ما نحن عنه منزّه، وأطلق في وصفنا ما نحن عنه مقدّس.

ثم إن الحق - سبحانه قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ فلا ربح الصدق يشمون، ولا نفساً من الحق يجدون.

ثم أنشئ على نفسه فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي بل قدرته بالغة ومشيته نافذة، ونعمته سابقة وإرادته ماضية.

ويقال ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي يرفع ويضع، وينفع ويدفع، ولا يخلو أحد عن نعم النفع وإن خلا عن نعم الدفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَخْلَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

إنما وعدهم الغفران بشرط التقوى. ودليل الخطاب يقتضي أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم.

وقال لظالمي هذه الأمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

لِنَفْسِهِ. ﴿فَاطِرُ: ٣٢﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣] أي أهل التقوى لأنه أهل المغفرة، فَإِنْ تَرَكْتُمُ التَّقْوَىٰ فَهُوَ أَهْلٌ لَّأَن يَغْفِرَ.

ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم، ولكنهم وَقَفُوا فَوْقَهُوا. قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

أي لو سلكوا سبيل الطاعة لو سَعْنَا عَلَيْهِمْ أسباب المعيشة وسَهَّلْنَا لَهُمُ الحال حتى إن ضربوا بيمينٍ ما لقوا غيرَ اليُمْنِ، وإن ذهبوا يعسرة ما وجدوا إلا اليُسْرَ. قوله جل ذكره: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

المقتصد الواقف على حد الأمر؛ لا يَقْصُرُ فَيَقْصُصَ، ولا يجاوزُ فيزيد. ويقال المقتصد الذي تساوى في هِمَّتِهِ الفَقْدُ والوجودُ في الحادثات.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ﴾.

لا تكتُم شيئاً مما أوحينا إليك مُلَاحَظَةً لِغَيْرٍ، إذ لا غير - في التحقيق - إلا رسوم موضوعة، وأحكام القدرة عليها جارية.

ويقال بَيَّنُّ لِلْكَافَةِ أَنَّكَ سَيِّدٌ وَلَدَ آدَمَ، وَأَنَّ آدَمَ دُونَ لَوَائِكَ.

ويقال بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنِّي أَغْفِرُ لِلْعَصَاةِ وَلَا إِبَالِي، وَأَرُدُّ مِنَ الْمُطِيعِينَ مَنْ شِئْتُ وَلَا أَبَالِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أَذَاهُمْ، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدو، أو يصون سِرِّكَ عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم.

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هم؛ وجوداً بين طرفي العَدَمِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيْدَتٌ كَثِيْرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مُطْعِنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم، ولا قَدْرُكم في الدنيا والعقبى، ولا مقداركم ولا منزلكم في حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهي، والمحافظة على أحكام الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئُونَ وَالنَّاصِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

بَيَّنَّ أَنَّهُمْ - وَإِنْ تَجَسَّسَتْ أحوالهم - فبعدما تجمعهم أصول التوحيد فلهم الأمان من الوعيد، والفوز بالمزيد.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ قَرِيبًا كَذَبُوا وَفَرَّقُوا بِقُتُلُونِ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَكْمُلُونَ﴾ .

داروا مع الهوى فوقعوا في البلاء. ومن أمارات الشقاء الإصرار على متابعة الهوى، وحسبوا ألا تكون فتنة، فعموا وصموا. واغتروا بطول الإمهال فأصروا على قبيح الأعمال، فلما أخذتهم فجاءة الانتقام لم ينفعهم الندم، وبرَّح بهم الألم.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ﴾ .

سَقَمَتْ بصائرهم والتبست عليهم أمارات الحدوث، فخلطوا في عقائدهم استحقاق أوصاف القدم بنعوت الحدوث!

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَن يَدْعُ إِلَىٰ إِلَهِ إِلَّا إِلَهًُ وَاحِدًا وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

بلغ الخذلان بهم حداً أن كابروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة، ولا يخفى فساد هذا على مجنون... فكيف على عاقل؟!!

قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لم يُغْلِقْ باب التوبة عليهم - مع قبيح أقوالهم، وفساد عقائدهم - تضعيفاً لأمال المؤمنين بخصائص رحمته.

قوله جل ذكره: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَنَّهُ مُصَدِّقَةٌ كَمَا يَكْلَأُ الْفُلُكَا أُنظِرَ كَيْفَ تَبَيَّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أُنظِرَ أَنَّ يُوقَعُونَ﴾ .

مَنْ اشتملت عليه الأرحام، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنى يليق بوصف الإلهية؟

ثم مَنْ مَسَّتْهُ الْحَاجَةُ حَتَّى اتَّصَفَ بِالْأَكْلِ وَأَصَابَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَنْ يَخْلُصَ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ فَأَتَى يَلِيقُ بِهِ اسْتِجَابُ الْعِبَادَةِ وَالتَّسْمِيَةُ بِالْإِلَهِيَّةِ؟
انظر - يا محمد - كيف نزيد في إيضاح الحجة وكيف تلبيس عليهم سلوك المحجة؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

تعلقُ القلوب - بدون الرب - في استدفاع الشر واستجلاب الخير تمحيق للوقت فيما لا يُجدي، وإذهاب للعمر فيما لا يُغني؛ إذ المتفرد بالإيجاد بريء عن الأنداد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

التعمق في الباطل قطع لآمال الرجوع؛ فكلما كان بُعد المسافة مِنَ الْحَقِّ أتمَّ كان اليأس من الرجعة أوجب، ومُتَّبِعُ الضلالة شرٌّ مِنْ مَبْتَدِعِهَا؛ لأن المبتدع يبني والمُتَّبِع يقيم البناء، ومن به كمال الشرُّ شرٌّ ممن منه ابتداء الشر.

قوله جلّ ذكره: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

أمر الأنبياء - عليهم السلام - حتى ذكروا الكفار بالسوء، وأما الأولياء فخصّهم بذكر نفسه فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فلعنة الكفار بلسان الأنبياء، وذكر المؤمنين بالجميل بلسان الحق - سبحانه، ولو كان ذلك ذكراً بالسوء لكان فيه استحقاق فضيلة، فكيف وهو ذكر بالجميل؟! ولقد قال قائلهم:

لئن ساءني أن تلقني بمساءة فقد سرّني أني خطرتُ ببالكا
قوله جلّ ذكره: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

الرضا بمخالفة أمر الحبيب موافقة للمخالف، ولا أنفة بعد تميز الخلاف. والسكوت عن جفاء تعامل به كرم، والاعضاء عما يُقال في محبوبك دناءة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

شرّ خصال اللثام مطابقة مَنْ يصاد الصديق، فإذا كان سخط الله في موالة أعدائه فرحمته - سبحانه - في معاداة أعدائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.

صَرَّحَ بِأَنَّ مُوَافِقَ مَنْ نَاوَأَكَ أَثَرَ التَّبَاعَدِ عَنْكَ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ بَيْنَكُمَا شَفَرَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ لَأَخْلَصْتَ فِي مَوَالَاتِهِ، وَأَخْلَصَ فِي مَصَافَاتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَجْجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجْجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَآتٍ بِهُمْ فَنَقِصِبْهُمْ وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ كَذِبًا﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ صِفَةَ الْعَدَاوَةِ وَإِنْ كَانَتْ تَجْمَعُهُمْ فَمَعَادَاةٌ بَعْضُهُمْ تَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ، وَبِقَدْرِ مَا لِلنَّصَارَى مِنَ التَّرْهُّبِ أَثَرٌ فِيهِمْ بِالْمُقَارَبَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْخِلَاصُ فَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - بِمُقَارَبَةِ أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وَمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

هَذِهِ صِفَةٌ مِنْ نَظَرِ إِلَيْهِ الْحَقِّ نَظَرَ الْقَبُولِ، فَإِذَا قَرَعَتْ سَمْعُهُمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ ابْتَسَمَتِ الْبَصِيرَةُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَسَكَنُوا إِلَى الْمَسْمُوعِ لَمَّا وَجَدُوا مِنَ التَّحْقِيقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

وَأَيُّ عَذْرِ لَنَا فِي التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْإِرْتِيَابِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ لِقُلُوبِنَا الْحُجُجُ؟ ثُمَّ مَا نُؤْمِلُهُ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ... مَتَى بِدُونِهِ يُمْكِنُ أَنْ نَطْلُبَهُ؟

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لَمَّا صَدَّقَتْ أَمَالُهُمْ قَابِلُهَا بِالتَّحْقِيقِ، سُنَّتْ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ - أَلَا يَخِيبُ رَاجِيَهُ، وَلَا يَرُدُّ مُؤْمِلِيَهُ، وَإِنَّمَا عَلَّقَ الثَّوَابَ عَلَى قَوْلِ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ شَهَادَةٌ عَنْ شَهْوَدِهِ، فَأَمَّا النَّظَرُ الْمُنْفَرِدُ عَنِ الْبَصِيرَةِ فَلَا ثَوَابَ عَلَيْهِ وَلَا إِجَابَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(هَذَا) أَثَرُ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَعْدَاءِ فِي مُقَابَلَةِ أَثَرِ الْإِقْبَالِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ مُعْجَلًا وَمُؤْجَلًا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيعَتِ مَا آتَى اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَلِينَ﴾.

من أمارات السعادة الوقوف على حد الأمر؛ إن أَبَاحَ الْحَقُّ شَيْئاً قَبْلَهُ، وقابله بالخشوع، وإنْ خَطَرَ شَيْئاً وَقَفَ وَلَمْ يَتَعَرَّضَ لِلْجُحُودِ.

ومما أَبَاحَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الْإِسْتِرَاحَ إِلَى نَسِيمِ الْقَرَبِ فِي أَوْطَانِ الْخُلُوعِ، وَتَحْرِيمِ ذَلِكَ: إِنَّ اسْتِبْدَالَ تِلْكَ الْحَالَةِ بِالْخُلُوعِ دُونَ الْعِزَّةِ؛ وَالْعِشْرَةِ دُونَ الْخُلُوعِ، وَذَلِكَ هُوَ الْعُدْوَانُ الْعَظِيمُ وَالْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَانْقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِمُؤْمِنُونَ﴾. الْحَلَالُ الصَّافِي بِأَنْ يَأْكُلَ الْعَبْدُ مَا يَأْكُلُ عَلَى شَهْوَةٍ - سَبْحَانَهُ - فَإِنْ نَزَلَتْ الْحَالَةُ عَنْ هَذَا فَعَلَى ذِكْرِ - سَبْحَانَهُ - فَإِنَّ الْأَكْلَ عَلَى الْغَفْلَةِ حَرَامٌ فِي شَرِيعَةِ الْإِرَادَةِ. قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَلَتْهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الإشارة منه إلى وقت يغلب على قلبك التعطش إلى شيء من إقباله أو وصاله، فتُقَسِّمُ عَلَيْهِ بِجَمَالِهِ أَوْ جَلَالِهِ أَنْ يَرْزُقَكَ شَطِئَةً مِنْ إقباله، فكذلك في شريعة الرضا نوع من اليمين، فيعفو عنك رحمةً عليك لضعف حالك. والأولى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت ما يُجْرِي عَلَيْكَ مِنْ أَحْكَامِهِ فِي الرَّدِّ وَالصَّدِّ، وَأَنْ تَوْثِرَ اسْتِقَامَتَكَ فِي آدَاءِ حَقِّهِ عَلَى إِكْرَامِكَ بِحَسَنِ تَقْرِيْبِهِ وَإقباله، كما قال قائلهم:

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

وَمِنَ اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ - عِنْدَهُمْ - مَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِمْ فِي حَالِ غَلَبَاتِ الْوَجْدِ مِنْ تَجْرِيدِ الْعَهْدِ وَتَاكِيدِ الْعَقْدِ، فيقول:

وَحَقُّكَ مَا نَظَرْتُ إِلَى سِوَاكَ، وَلَا قُلْتُ بِغَيْرِكَ. . . وَلَا خُلْتُ عَنْ عَهْدِكَ، وَأَمْثَالُ هَذَا. . .

وَكُلُّهُ فِي حَكْمِ التَّوْحِيدِ لِقَوْلِهِ، وَعَنْ شَهْدِ عَهْدِ الْأَحْدِيَةِ سَهْوً. . . وَمَنْ أَنْتَ فِي الرُّفْعَةِ حَتَّى تَغْدِمَ نَفْسَكَ؟ وَأَيْنَ فِي الدَّارِ دَيَّارٌ حَتَّى تَقُولَ بِتَرْكِهِ أَوْ تَتَحَقَّقَ بِوَصْلِهِ أَوْ هَجْرِهِ؟ كَلَّا. . . بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١).

(١) قال القشيري برسالته في حديث مشابه عندما تحدث عن التوحيد: سئل الشبلي عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال: ويحك من أجاب عن التوحيد بالعبرة فهو ملحد، ومن أشار إليه فهو ثنوي ومن أومأ إليه فهو عابد وثني، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن وهم أنه واصل فليس له حاصل، ومن رأى قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بخيالكم وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم، فهو مصروف مردود إليكم. فحدث مصنع مثلكم. (الرسالة القشيرية ص ٣٠١).

وكما أن الكفارة الشرعية إمّا عتق أو إطعام وإما كسوة فإن لم تستطع فصيام ثلاثة أيام: فكفارتهم - على موجب الإشارة - إمّا بذل الروح بحكم الوجد، أو بذل القلب بصحة القصد، أو بذل النفس بدوام الجهد، فإن عجزت فإمساك وصيام عن المناهي والزواج.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا فَعَلْنَا لَكُمْ خَيْرًا وَلَآ أَلَمَّا أَتَىٰ لَمَّا عَلِمَ﴾.

الخمير ما خامر العقول، والخمر حرام.

والإشارة فيه أنه يزيد نقاذ العقل بما يوجب عليه من الالتباس.

وَمَنْ شَرِبَ مِنْ خمر الغفلة فسكّره أصعب؛ فشرب الغفلة يوجب البعد عن الحقيقة.

وكما أن من سكّر من خمر الدنيا ممنوع عن الصلاة فمن سكّر من خمر الغفلة فهو محجوب عن المواصلات.

وكما أن من شرب من خمر الدنيا وجب عليه الحد فكذلك من شرب شراب الغفلة فعليه الحد إذ يضرب بسياط الخوف.

وكما أن السكران لا يقام عليه الحد ما لم يفق فالغافل لا ينجح فيه الوعظ ما لم ينته.

وكما أن مفتاح الكبائر شرب الخمر (فالغفلة)^(١)، أصل كل زلة، وسبب كل ذلة وبدء كل بُعد وحجة عن الله تعالى.

ويقال لم يحرم عليه الشراب في الدنيا إلا وأباح له شراب القلوب؛ فشرب الكبائر محظور وشراب الاستثناس مبدول، وعلى حسب المواجد حظي القوم بالشراب، وحيثما كان الشراب كان السكر، وفي معناه أنشدوا:

فما ملّ ساقيتها وما ملّ شارب عقال لحاظ كأسه يسكر اللب

فصحوك من لفظي هو الوصل كله وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا

وحُرّم الميسر^(٢) في الشرع، وفي شريعة الحب القوم مقهورون؛ فمن حيث الإشارة أبدانهم مطروحة في شوارع التقدير، يطؤها كل عابر سبيل من الصادرين من عين المقادير، وأرواحهم مستباحة بحكم القهر، عليها خرجت القرعة من (...).^(٣) قال تعالى ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١].

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق. (٢) الميسر: قمار العرب في الجاهلية.

(٣) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

طال بُغْضُهُم عن الحقيقة ففاسوا الهوان في مطارح الغربة، وصاروا سخرة للشيطان؛ فبقوا عن الصلاة التي هي محل النجوى وكمال الراحة، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهِمْ بما تولد من الشحناء والبغضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾.

كما كان العبد أعرف بربه كان أخوف من ربه، وإنما ينتفي الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] وذلك عند دخول الجنة. وحقيقة الحذر نهوض القلب بدوام الاستغاثة مع مجاري الأنفاس.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾.

من حافظ على الأمر والنهي فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يضايق فيها، وإنما المقصود من العبد التأدب بصحبة طريقه سبحانه، فإذا اتقى الشِرْكَ تعرّف، ثم اتقى الحرام فما تصرف، ثم اتقى الشحّ فأثر وما أسرف.

وقوله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ يعني اتقوا المنع وأحسنوا للخلق - وهذا للعموم. ثم اتقوا شهود الخلق؛ فأحسن الشهود الحق، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه - وهذا للخواص.

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (أعمالاً) والمحسنين أحوالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَقِيٍّ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا يَبْلُغُ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثْرَةٌ طَعَمَاءُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أباح الصيد لمن كان حلالاً، وحرّم الصيد على المخرم الذي قصده زيارة البيت. والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغي أن يكون الصيد منه في الأمان، لا يتأذى منه حيوان بحال، لذا قالوا: البرّ من لا يؤذي الدر ولا يضر الشر.

ويقال الإشارة في هذا أن من قصدنا فعليه نبذ الأطماع جملة، ولا ينبغي أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال.

وكما أَنَّ الصيدَ على المُحَرَّمِ حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار - على الواجد - حرامٌ ما دام مُحَرَّمًا بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحَرَّمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ ، أو طمع أو رغب في شيءٍ أو اختار لَزِمَتَهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده - على الحقيقة - عن كل غير ، قليل أو كثير ، صغير أو كبير .

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَمًا لَكُمْ وَاللَّيْتَارَ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

حُكْمُ الْبَحْرِ خِلَافَ حُكْمِ الْبَرِّ . وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حكمه ، فصيد البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محوًّا ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌّ ، واللَّهُ غالبٌ على أمره .

قوله جلَّ ذكره: ﴿جَمَلَ اللَّهُ الْكَفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهَرَ الْحَرَامَ وَالْمَدَنَى وَالْقَلْبَدُ ذَلِكَ لِمَتَلَمَّوْا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

حَكَمَ اللهُ سبحانه - بأن يكون بيته - اليومَ ملجأ يلوذ به كل مؤمل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذي أَرْبٍ . والبيتُ حَجَرٌ والعبدُ مَذْرُؤٌ^(١) ، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذي لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير .

قوله جلَّ ذكره: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إن زاغوا عن الشهود لحظةً ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة .

قوله جلَّ ذكره: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْغَيْبُ وَالظَّاهِرُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْغَيْبِ فَاْتَقُوا اللَّهَ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَسَ لَمَلَكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ .

المتفرِّدُ بالإلهية اللُّهُ . والرسولُ - وإنَّ جلَّ قَدْرُهُ - فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره) .

(١) المدر: قطع الطين اليابس المتماسك .

قوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾: الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى في حالة اكتسابه، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق.

ويقال الخبيث ما لم يُخْرِجْ منه حقُّ الله تعالى، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه - سبحانه. ويقال الخبيث ما ادخرته لنفسك، والطيب ما قدمته لأمره.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلم أخفي عنكم، فيتغنص (بالتجسس...) (١) - عليكم - عيشكم.

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر - حيث لا تستوجبون ذلك - فيسوءكم تقاصر رتبك.

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من التفال ولا تطلبوا أسرار الباري، واركنوا إلى روح المني في استدفاع ما ظلكم ولا تبحثوا عن سر ذلك، وراعوا الأمر مجملًا.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

يعني توهم قوم أنهم محرورون عن التأثير فيما يصادفهم في فجاءة التقدير، وذلك منهم ظن، كما يقول بعضهم:

تبين يوم البين أن اعتزامه على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

قوله جل ذكره: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّبُوا لَا يَقُولُونَ﴾.

هذه أحكام ابتدعوها، فردهم الحق - سبحانه - عن الابتداع، وأمرهم بحسن الاتباع، وأخبر أن ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عبادتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

إذا هتفت بهم دواعي الحق بالجنوح إلى وصف الصدق صدّهم عن الإجابة ما مرونا عليه من سهولة التقليد، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلا في ضلال.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصْرُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

يكفي للفقير أن يمشي وقد جبر بعض كسره، فأما إذا ادعى التقدم أو الطمع في إنجاد من سواه فمحال من الحدث والظن.

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرغ إلى غيره.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ حَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تُحْسِنُونَهَا مِنْ بَعْدِ الْمَعْلُومَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَئِمِّينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَيْهِمَا وَمَا أَعْتَدْنَا إِثْمًا إِذَا لَمِنَ الْغُلَامَيْنِ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَنْتُمْ اللَّهُ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ١٠٦﴾.

حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ونسخ، وفي بيان التفسير تفصيله. والنسخ هو الإزالة، وذلك جائز في العبادات.

ومعنى النسخ يوجد في سلوك المريدين؛ فهم في الابتداء فرضهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر، فهو كالنسخ من حيث الصورة.

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. واتصافهم بمراعاة القلوب أتم بتأديبهم بأحكام المعاملات.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّا كُنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبُ ١٠٧﴾.

يكاشفهم بنعت الجلال فتختس فهوهم وعلومهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق ويقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، وهكذا تكون الحالة غداً: مَنْ قال لشيء، أو مَال لشيء مما يكون نعتاً بمخلوق فعند ظهور وابل التعرُّز تتلاشى الجملة، فالملائكة يقولون: «ما عبدناك حق عبادتك» والأنبياء يقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ بِالْيَسِّنِّ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٠٨﴾.

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحب والهيمنان في المذكور وكل وقتٍ للأحباب يمضي يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم: إما عليهم وإما عنهم .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ .

وإنما خصَّهم بالوحي إلهاماً وإكراماً لانسباط ضياء عيسى عليهم^(١)، وفي الأثر: «هُم الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسٌ»^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

طلبوا المائدة لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة، فغذروا وأجيبوا إليها؛ إذ كان مرادهم حصول اليقين وزيادة البصيرة .

ويقال كل يطلب سؤله على حسب ضرورته وحالته، فمنهم من كان سكونه في مائدة من الطعام يجدها، ومنهم من يكون سكونه في (فائدة) من الموارد يردها، وعزيز منهم من يجد الفناء عن برهان يتأمله، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

شأن بين أمة طلب لهم نبئهم سكوناً بانزال المائدة عليهم، وبين أمة بداهم - سبحانه بانزال السكينة عليهم، من غير سؤال أحد، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] .

وقال في صفتهم: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ وَايْتُهُمُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] .

وفرق بين من زيادة إيمانه بآياته التي تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُباح لهم .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُتْلِمِينَ﴾ .

أجابه إلى سؤاله لهم، ولكن توعدهم بالليم العقاب لو خالفوا بعده ليغلم السالكون أن المراد إذا حصل، وأن الكرامة إذا تحققت - فالخطر أشد والحال من الآفة أقرب،

(١) هذا شبيه بفكرة الفشيري في الولاية . (انظر الرسالة في حديثه عنها ص ٢٥٩ - ٢٦٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (دعوات ١٢٩)، وأحمد بن حنبل ٢، ٢٥٢، ٣٥٩، ٣٨٣ .

وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى، ومحن الأكابر إذا حلت جلّت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَبُ ابْنُ مَرْيَمَ هَآأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أُخْذُونِي وَأُمِّيَ إِلَىٰ هَاتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث^(١)، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشریف.

ثم إن عيسى - عليه السلام - حفظ أدب الخطاب فلم يُزكّ نفسه، بل بدأ بالثناء على الحق - سبحانه - فقال: تنزيهاً لك! إنني أنزهك عما لا يليق بوصفك.

ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي إنني إن كنت مخصوصاً من قبلك بالرسالة - وشرط النبوة العصمة - فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لي؟

ثم إنني ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾: كان واثقاً بأن الحق - سبحانه - عليم بنزاهته من تلك القالة.

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾: أي علمك محيط بكل معلوم.

﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعرّفني بإعلامك.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ الذي لا يخرج معلوم عن علمك، ولا مقدور عن حكمك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما دعوتهم إلا لعبادتك، وما أمرتهم إلا لتوحيدك وتقديسك، وما دمت حياً فيهم كنت (...)(٢) على هذه الجملة، فلما فارقتهم كان تصرفهم في قبضتك على مقتضى مشيئتكم، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وُضْعِي وفاقهم وخلافهم، وِنِعْمَتِي اقتصادهم وإسرافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَلَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

بيّن أن حكم المولى في عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه، فقال إن تعذيبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك، وإن تغفر لهم فلأنك أنت العزيز الحكيم أي المُعِز لهم بمغفرتك لهم.

(١) التثليث: ما كَوّن من ثلاثة، ومنه الثالوث الأقدس رمزاً للأقانيم الثلاثة عند النصارى الأب والابن وروح القدس.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال أنت العزيز الحكيم الذي لا يضررك كفرهم.

ويقال ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند) القدرة سِمَةُ الكرم، وعند العجز أمارَةُ الدُّل.

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن تتجمل بطاعة مطيع أو تنتقص بِزِلَّةِ عاصٍ. وقوله ﴿الْحَكِيمُ﴾ ردُّ على من قال: غفران الشُّركِ ليس بصحيح في الحكمة.

قوله جَلَّ ذكره: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

مَنْ تعَجَّلَ ميراثَ صدقه في دنياه من قبولٍ حصل له من الناس، أو رياسةٍ عقدت له، له أو نفع وصل إليه من جاءه أو مالٍ. فلا شيء له في آجله من صواب صدقه، لأن الحق - سبحانه - نصَّ بأنَّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم.

قوله جَلَّ ذكره: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ورضاء الحق - سبحانه - إثباتٌ مَحَلٌّ لهم، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله. ورضاؤهم عن الحق - سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى.

قوله جَلَّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾.

تَمَدَّحٌ لحق - سبحانه - بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات، الصالحة لإيجاد المصنوعات، ولم يتجمل بإضافة غيرٍ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ، أو عينٍ أو طلل.

قوله جَلَّ ذكره: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من الإبعاد والإسعاد، والصد والرد، والدفع والنفع، والقمع والمنع.

السورة التي تذكر فيها الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسمه استنارت القلوب واستقلت، وباسمه زالت الكروب واضمحلت، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت، وبأ... (١) انْخَسَتْ (٢) العقول فطاحت.

ويقال باسم الله نال كل مؤمل مأموله، وبرحمة الله وجد كل واجد وصوله.
قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

بدأ الله - سبحانه - بالثناء على نفسه، فحمد نفسه بشنائه الأزلي وأخبر عن سنائه الصمدي، وعلائه الأحدي فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: «فالذي» إشارة و ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ عبارة. استقلت الأسرارُ بسماع «الذي» لتحقيقها بوجوده؛ ودوامها لشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع «الذي» إلى سماع الصلة لأن «الذي» من الأسماء الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.
خَلَقَ ظِلْمَةَ الليل وضياء النهار، ووحشة الكفر والشرك، ونور العرفان والاستبصار.

ويقال جعلَ الظلمات نصيب قوم لا لجُزْمِ سَلَفٍ، والنور نصيب قوم لا لاستحقاق سبق، ولكنه حُكْم به جرى قضاؤه.

ويقال جعلَ ظلمات العصيان محنة قوم، ونور العرفان نزهة قوم.
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمَعُّونَ﴾.

(٢) الانخاس: التأخر والتخلف.

(١) بياض في الأصل.

أثبت الأصل من الطين وأدعها عجائب (السير) وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق، فالعبرة بالوصل لا بالأصل؛ فالوصل قُرْبَةٌ والأصل تَرْبَةٌ، الأصل من حيث النطفة والقطرة، والوصل من حيث القرية والنصرة.

قوله ﴿ثُمَّ قَفَّيْ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ﴾: جعل للامتحان أجلاً، ثم جعل للامتحان أجلاً، فأجل الامتحان في الدنيا، وأجل الامتحان في العقبى.

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلاً وهو وقت المهلة، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة؛ فالمهلة لها مدى ومنتهى، والوصلة بلا مدى ولا منتهى؛ فوقت الوجود له ابتداء وهو حين تطلع شمس التوحيد ثم يتسرد فلا غروب لها بعد الطلوع.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

وهو الذي هو معبود من في السماء، مقصود من في الأرض، وهو الموجود قبل كل سماء وفضاء، وظلام وضياء، وشمس وقمر، وعين وأثر، وغير وغير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. أي لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابله جحداً وكفراً، ولا يؤليهم إقبالاً إلا قابله بإعراض، ولا يلقاهم بسطاً إلا (١) بانقباض.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَدَّيْنِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

إنهم أصرُّوا على الخلاف مستكبرين، وعن قريب يقاسون وبال أمرهم، ويدوقون غب جحدهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُرٍّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

يعني من تقدَّمهم كانوا أشدَّ تمكناً في إمهالنا، وأكثر نصيباً - في الظاهر - من أقوالنا؛ سهلنا لهم أسباب المعاش، وسعنا عليهم أبواب الانتعاش، فحين وطَّئوا على كواذب المنى قلوبهم، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من اللذم، وذاقوا دونه طعم الألم. ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين، وأورثناهم مساكنهم، وأسكناهم

(١) بياض في الأصل.

أماكنهم، فلما انخرطوا - في الغي - عن سلوكهم، ألحقناهم في الإهلاك بهم، سُنَّةٌ مِنَّا في الانتقام قضيناها على أعدائنا، وعادة في الإكرام أجريناها لأوليانا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

يُخْبِرُ عن كمال قدرته في إبداء ما يريد بعد ما قَضَى لهم الضلال، فلو أشهدهم كُلَّ دليل، وأوضح لهم كل سبيل ما ازدادوا إلا تمادياً في الضلال والنفرة، وانهماكاً في الجهل والغي.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾.

بَيِّنَ أَنَّ العبرة بالقسمة دون الاعتبار بالحجة، وما يغني السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر؟ كذلك ما تغني الحجج عند مَنْ عدم عناية الأزل؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ﴾.

مَنْ لم يُقَدِّسْ سِرَّهُ لَبَسَ عليه أمره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلِ بَيْنَ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

أَي سَبَقَكَ - يا محمد - مَنْ كَذَّبَ به كما كُذِّبْتَ، فحقَّ لهم نصرنا، فانتقمنا ممن ناوئهم، فعاد إليهم وبأل كيدهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

قُلْ دوخوا في الأرض، وسيحوا^(١) في سيركم فيها من الطول والعرض، ثم انظروا هل أَفَلَّتْ من حكمنا أحد، وهل وجد من دُونِ أَمْرنا مُلْتَحِداً^(٢)؟.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ

لِيَجْمَعَنَّهُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَبَّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

سَلِّهُم هل في الدار ديار؟ وهل للكون - في التحقيق - عند الحق مقدار؟ فَإِنْ بقوا عن جوابٍ يَشْفِي، فَقُلْ: الله في الربوبية يكفي.

قوله: ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾: أَخْبَرَ وَحَكَّمَ وأَرَادَ على حسب ما عَلِمَ، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِنجاته عِلْمُهُ سَبَقَ بدرجاته حُكْمُهُ، وَمَنْ عَلِمَهُ فِي آزاله أَنَّهُ يَشْقَى فبقدر شقائه في البلاء يبقى.

(١) ساح فلان في الأرض: ذهب في الأرض أو سار فيها.

(٢) التحد إلى الحصن أو الصديق: لجأ إليه أو اعتمد عليه. والملجأ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمْ مَّا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

الحوادث لله ملكاً، وبالله ظهوراً، ومن الله بدءاً، وإلى الله رجوعاً. وهو ﴿السَّمِيعُ﴾ لأنّين المشتاقين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحنين الواجدين .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَمْعِدُ وَلِيًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

أبعد ما أكرمني بجميل ولايته أتولى غيره؟ وبعد ما وقّع عليّ ضياء عنايته أنظر في الدارين إلى أحد؟ إنّ هذا محال في الظن والتقدير .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ .

له نعت الكرم فلذلك يطعم، وله حقّ القدم فلذلك لا يطعم .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

أي إنّني بعجز متحقق، ومن عذاب ربي مشفق، وبمتابعة أمره متخلّق .

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ .

من أدركه سابق عنايته صرف عنه لاحق عقوبته .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

إنّه من ينجيك من البلاء، ومن يُلقيك في العناء . وإذا المتفرّد بالإبلاغ واحد فالأغيار كلهم أفعاله؛ وإن الإيجاد لا يضلح من الأفعال .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ .

علت رتبة الأحدية صفة البشرية، فهذا لم يزل لم يكن فحصل . ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد؟ .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهَيْتُمْ لِتَشْهَدُونَ أَتَى مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

غلبت شهادة الحق - سبحانه - كلّ شهادة، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائق الشيء علومهم، والحق - سبحانه - هو الذي لا يخفى عليه شيء، ثم أخبره - ﷺ أنه مبعوث إلى الكافة ومن سيوجد إلى يوم القيامة .

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِمِرْثَتِهِمْ كَمَا بِمِرْثَتِ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أحاط علمهم بصدق المصطفى - ﷺ - في نبوته، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية

فَعَقَدْتَ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الْإِقْرَارِ بِهِ؛ فَجَحَدُوهُ جَهْرًا، وَعَلِمُوا صِدْقَهُ سِرًّا.
 قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى، ثم لم يستحيوا من اطلاعه، ولم يخشوا من عذابه.
 قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمَاعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

يجمعهم ليوم الحشر والنشر، لكنه يفرقهم في الحكم والأمر، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لَوْ فَكَّنْهُمْ لَآ أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.
 هذا الذي أخبر عنهم غاية التمرد؛ حيث جحدوا ما كذبوا فيه وأقسموا عليه، ولو كان لهم بالله علم بأنه يعلم سرهم ونجواهم، ولا يخفى عليه شيء من أولاهم وعقباهم، لكن الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.
 هذه كلمة تعجب؛ يعني إن قصتهم منها ما هو محل التعجب لأمثالكم.
 قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

بَيَّنَّ أَنْ السَّمْعَ - فِي الْحَقِيقَةِ - سَمْعُ الْقَبُولِ، وَذَلِكَ عَنْ عَيْنِ الْيَقِينِ يَصْدُرُ، فَأَمَّا سَمْعُ الظَّاهِرِ فَلَا عِزَّةَ بِهِ.

ويقال مَنْ ابْتَلَاهُ الْحَقُّ بِقَلْبٍ مُطْبِقٍ، وَوَضَعَ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ غِطَاءَ التَّلْبِيسِ لَمْ يَزِدْهُ ذَلِكَ إِلَّا نَفْرَةً عَلَى نَفْرَةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾.

يعني مَنْ أَقْصَتْهُ الْقِسْمَةُ الْأَزَلِيَّةُ لَمْ تَنْعَشْهُ الْحِيلَةُ الْأَبَدِيَّةُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

في هذه الآية إشارة صعبة (لمن) يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتي بذلك سراً.
 ويقال خَالَفَتْ أحوالهم قضايا أقوالهم، وجرى إجرامهم مجرى مَنْ ألقوا جبالهم على غاربيهم، وكذلك من أبعدته عن القسمة لم يقربه فعله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يعني حين ينجز للعبد ما وعده له من القربة يشغل من شاء بنوع من العلة حتى لا يطلع أحد على محل الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

غداً يوم تنتهك الأسرار، وتظهر الأسرار - فكم من مجلّل بشوب تقواه، وبخكم له معارفه بأنه زاهد في دنياه، راغب في عقباه، محب لمولاه، مفارق لهواه، فيكشف الأمر عن خلاف ما فهموه، ويفتضح عندهم بغير ما ظنوه.

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه! ظن الكل أنه خليع العذار هيئ الأعلال، مشوش الأسرار، فظهر لذوي البصائر جوهره، وبدت عن خفايا الستر حقيقته.

ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون؛ فقال لو رُدُّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم، وكذلك لو رُدُّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى حسن أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

يا حسرة عليهم من موقف الخجل، محل مقاساة الوجّل، وتذكر تقصير العمل! فهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أسنان الندز حين لا ندم ينفعهم، ولا شكوى تُسمع منهم، ولا رحمة تنزل عليهم.

وحين يقول لهم: أليس هذا بالحق؟ يُقِرُّون كارهين، ويصرخون بالتبري عن كل غير.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَى مَا قَرَّرْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ أَلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

خسران وأي خسران! لم يخسروا مالا، ولا مقاماً ولا حالاً، ولكن كما قيل:

لعمري لئن أنزفتُ دمعِي فإنه لفرقهِ مَنْ أفْنَيْتُ في ذكره عمري
المصيبة لهم والحسرة على غيرهم، وَمَنْ لم يَعْرِفْ جلال قدره متى تأسف على ما يفوته من حديثه وأمره!

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو من الدنيا، وما كان من الدنيا فإنه - لا محالة - يلهيك عن مولاك، وما يشغلك عن الحق ركونه فغير مبارك قربة.

قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾: هذه تعزية للرسول - ﷺ - وتسلية. أي قد نعلم ما قالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسببنا ولأجلنا. ولقد كنت عظيم الجاه فيهم قبل أن أوقعنا عليك هذا الرقم؛ وكانوا يسمونك محمداً الأمين، فإن أصابك ما يصيبك فلا أجل حديثنا، وغير ضائع لك هذا عندنا، وحالك فينا كما قيل:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة
وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حرباً
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّى آتَيْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ﴾.

يعني إن من سلك سبيلنا صبر على ما أصابه من حديثنا، فلا خسرنا فينا صفقته، ولا خفيت علينا حالته، وما قابل حكمنا من عرفنا إلا بالمهيج، وما حملوا ما لقوا فينا إلا على الحق:

إن الألى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنية منهلاً معسولا
قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَغْفَتْ أَنْ تَبْنِيَ نَقًّا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

لفرط شفقتهم - ﷺ - استقصى في التماس الرحمة من الله لهم، وحمل على قلبه العزيز بسبب ما علم من سوء أحوالهم ما أثر فيه من فنون الأحزان. فعرفه أنهم مبعدون عن التقريب، منكوبون بسالف القسمة.

ولو أراد الحق - سبحانه - لخفف عنهم، ولو شاء أن يهديهم لكان لهم مقيل في الصدور، ومثوى على النشاط، ولكن من كبسته العزة لم تُعشه الحيلة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. من فقد الاستماع في سرائره عدم توفيق الاتباع بظاهره، والاختيار السابق في معلومه - سبحانه - غالب.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذبح العذر، ولم يعلموا أن الله

المانع لهم فلولا ما (.. .) ^(١) من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَتَيْنَاهُ مَّا فَرَقْنَاهُ
 فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ .

يعني تساوت المخلوقات، وتماثلت المصنوعات في الحاجة إلى المُنشئ : في
 حال الإبداع ثم في حال البقاء، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت
 عن الإيجاد والاختيار، فما من شيء من عين وأثر، ورسم وظلل . . . إلا وهو على
 وحدانيته شاهد، وعلى كون أنه مخلوق . . . دليل ظاهر .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُوءُ بِكْرِهِمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلَّهُ وَمَن
 يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

الذين فاتتهم العناية الأزلية. سدّ الحرمان أسماعهم، وغشى الخذلان أبصارهم .
 والإرادة لا تعارض، والمشية لا تراحم، والحق - سبحانه - في جميع الأحوال
 غالب .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أَوْ أَتَيْنَاكُمْ بِسَاعَةٍ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِنِّي بِمَا تَدْعُونَ فِيكَتِفٌ مَّا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَسْأَلُونَ مَا تُنْشَرُونَ﴾ .

إذا مسّكم الضرّ، ونابكم أمرٌ فيمّن ترومون كشفه؟ ومن الذي تؤملون لطفه؟
 أم مخلوقاً شرقياً أم شخصاً غريباً؟ أم ملكاً سماوياً أم عبداً أرضياً؟

ثم قال: ﴿بَلْ إِنِّي بِمَا تَدْعُونَ﴾ : أي إنكم - إن تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً
 بقلوبكم - لن تجدوا من دونه أحداً، ولا عن حكمه ملجأ، فتعودون إليه في
 استكشاف الضر، واستلطاف الخير والبر، كما قيل:

ويرجعني إليك - وإن تناءث
 وقد تركناك للذي تريد ديارى عنك - معرفة الرجال
 فعسى إن خبّرتّه أن تعودا
 فإذا جرّبت الكل، ودقّت الحلو والمرّ، أفضى بك الضرّ إلى بابه، فإذا رجعت
 بنعت الانكسار، وشواهد الذل والاضطرار، فإنه يفعل ما يريد: إن شاء أتاح اليسر
 وأزال العسر، وإن شاء ضاعف الضرّ وعوّض الأجر، وإن شاء ترك الحال على ما
 (قبل) السؤال والابتهاال .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
 يَضُرَّعُونَ﴾ .

(١) بياض في الأصل .

يخبر عن سالف سنته في أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم، وما أحلّ بمن خالفه من الألم وفنون النقم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

يعني أنهم لما أظلمهم البلاء، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهاال والتملق لكشفنا عنهم المحن، ولأتحننا لهم المنن، ولكن صدّهم الخذلان عن العقبي فأصروا على تمردهم، فقسّت قلوبهم وتضاعفت أسباب شقوتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يخبر عن خفيّ مكره بهم، وكيف أنه استدريجهم، ثم أذاقهم وبال أمرهم فقال: لما طالث عن الحضرة غيبتهم، ولم تنجح مواعظنا فيهم سهّلنا لهم أسباب العوافي وصببنا عليهم عزالي^(١) النعم، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتة وعذبناهم فجأة، وأدقناهم حسرة فإذا هم من الرحمة قانطون، ولما خامر قلوبهم - من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة - آيسون.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَقُطِعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبق منهم عين ولا أثر، ولم يرّد حديث منهم أو خبر، والله - سبحانه وتعالى - بنعت العزّ واستحقاق الجلال لا عن فقدهم له استيحاش، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَبُونَ﴾.

عرّفهم محلّ عجزهم، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم.

وحذّره فقال: إنّ لم يُدْم عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم، ولم يوجب لهم ما ألبسهم من العوافي - بكل وجه في كل لحظة - فمن الذي يهب ما سلبه، أو يضع ما منعه، أو يعيد ما نفاه، أو يرّد ما أبداه؟ كلا... بل هو الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أُنْكَمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول إنّ عجل موعوده لكم من العقاب أفترون أن غير المستوجب يُنتلّى؟ أو أن

(١) العزالي: يقال: أرسلت السماء عزاليها: كثر مطرها على المثل (اللسان ١١/٤٤٣).

المستحق له يجد من دونه مهراً ومنجى؟ إن هذا محال من الظن.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بِمَسْئُمِ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ﴾.

يعني ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم، ثم بجميل الوعد لهم، ومفارقة ما فيه هلاكهم، ثم باليم العقوبة في الآجل ما يحل من خلافهم.
فَمَنْ ءَامَنَ وَصَدَّقَ أَنْجَزْنَا لَهُ الْوَعْدَ، وَمَنْ كَفَرَ وَجَحَدَ عَارَضْنَا عَلَيْهِ الْأَمْرَ، وَأَدْخَلْنَا عَلَيْهِ الضَّرَّ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

يعني قل لهم إني لا أتخطى خطي، ولا أتعدى حدي، ولا أثبت من ذات نفسي شيئاً، وإنما يقال لي أبلغت؟ وأقول: أجل، أوصلت.

ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾: هل يتساكل الضوء والظلام؟ وهل يتمثل الجحْد والتوحيد؟ كلا... لا يكون ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الإنذارُ إعلَامٌ بمواضع الخوف، وإنما خصص الخائفين بالإنذار كما خصص المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لأن الانتفاع والاتباع بالتقوى، والإنذار اختص بهم.

ويقال: الخوف ها هنا العلم، وإنما يخاف من علم، فأما القلوب التي هي تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارق الخوف.

قوله: ﴿مَنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] يعني كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمد لهم من أفعالهم، ولا مستند من أحوالهم، ولا يؤمنون شيئاً سوى صرف العناية وخصائص الرحمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدُوَّةِ وَالْمَشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَقْطِرُ دَهْمًا فَتُكُونُ مِنَ الْأَلْدَلِيِّينَ﴾.

هذه وصية له - ﷺ - في باب الفقراء والمستضعفين، وذلك لما قصروا لسان المعارضه عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - مجلسه منهم، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله أراد أن يبين له أثر حسن الابتغال فتولّى - سبحانه - خصيمتهم.

وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: لا تنظر يا محمد إلى خرقتهم على ظاهريهم وانظر إلى خرقتهم في سرائريهم.

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهريهم بأن أظهر قصتهم، ولولا أنه - سبحانه - قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق - في التحقيق - إلا بالحدوث، وحقيقة الصمدية متقدمة عن الاتصاف بالحدثان، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها^(١).

فيقال تكلم الناس في الإرادة: وأثر تحقيقها أنها احتياج يحصل في القلوب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، ولا يجد من دون وصوله إليه - سبحانه - سكناً ولا قراراً، كما قال قائلهم:

ثم قطعت الليل في مهمّة لا أسداً أخشى ولا ذيباً^(٢)

يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوباً

ويقال تقيدت دعوتهم بالغداة والعشي لأنها من الأعمال الظاهرة، والأعمال الظاهرة مؤقتة، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة، والأحوال الباطنة مسرمة غير مؤقتة، فقال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ثم قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يريدون وجهه فهي في موضع الحال.

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم، ولا مطالبة من عقابهم، ولا هم سوى حديث مولاهم، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم، فتولّى حديثهم وقال: ولا تطردهم - يا محمد - ثم قال: ما عليك من حسابهم من شيء؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مؤنة؛ قال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك، بل كل يتولى الحق - سبحانه - حساب؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه، وإن كان شراً فهو مقاسيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

أما الفاضل فليشكر، وأما المفضول فلينصّر.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٠١ في حديث القشيري عن الإرادة.

(٢) المهمة: المفازة البعيدة (ج) مهامه.

ويقال سبيل المفضل على لسان المحبة الشكر، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل، قال قائلهم في معناه:

أتاني منك سبك لي فسبني أليس جرى بفيك اسمي؟ فحسبي وقال آخر:

وإن فؤاداً بغته - لك شاكر - وإن دماً أجريته - لك حامد
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أحلّه محل الأكابر والسادة، فإن السلام من شأن الجاني إلا في صفة الأكابر؛ فإن الجاني أو الآتي يسكت لهيبة المأتي حتى يتبدى ذلك المقصود بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتي.

ويقال إذا قاسوا تعب المجيء فازل عنهم المشقة بأن قل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. ويقال السلام هو السلامة أي قل لهم سلام عليكم؛ سلمتم في الحال عن الفرقة وفي المال عن الحزقة.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾
إن وكل بك من كتب عليك الزلة فقد تولّى بنفسه لك كتابة الرحمة. ويقال كتب بمعنى حكّم، وإنه ما حكم إلا بما علم. ويقال كتابته لك أزية، وكتابته عليك وقية، والوقية لا تبطل الأزية.
قوله جل ذكره: ﴿أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ شَرَّ تَابٍ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

يعني من تعاطى شيئاً من أعمال الجهال ثم سوف في الرجوع والأوبة قابلناه، يعني من تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بكل لطف وقبول.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَقَدْ رَفَعْنَا سَيْلَ الْمُجْرِمِينَ﴾.
نزيل الإشكال، ونقص طريق الاستدلال، ونطّل شمس التوحيد، ونمد أهله بحسن التأيد، ونسّم قلوب الأعداء بوسم الخذلان، ونذيقهم شؤم الحرمان لئلا يبقى لأحد عذر، ولا في الطريق إشكال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

يعني صرح بالاعتراف بجميل ما خصصناك به من وجوه العصمة والنعمة،

وأخبرهم أنك في كنف الإيواء مُتَقَلِّبٌ، وفي قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ؛ فلا للهوى عليك سلطان، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِيَ مَا تُسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۚ﴾.

قل إن الله - سبحانه - لم يغادرني في قطر الطلب والتباس التحير، وأغواني عن (كُد) الاستدلال، وروّحني بشموس الحقيقة. ولئن بقيتم في ظلمة الالتباس فليس لي قدرة على إزالة ما مُننيتم به من التحير، ونفي ما أمّختنتم به من الجهالة والتردد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا تُسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ۚ﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۚ.

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم عليّ - شفقةً عليكم، لكن المتفرد بالحكم لا يُعَارِضُ فيما يريد.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾: المفتاح ما به يرتفع العَلَقُ، والذي يحصل مقصود كل أحد، وهو قدرة الحق - سبحانه؛ فإن التأثير لها في الإيجاد، والموصوف بقدره الإيجاد هو الله.

ويقال أراد بهذا شمول علمه، أي هو المتفرد بالإحاطة بكل معلوم، وقطعاً لا يُسأل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

ويقال عندك مفاتيح الغيب وعنده مفاتيح الغيب فإن أمنت بغيبه مدّ الشمس على غيبك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ﴾.

إنه يتوفّى الأنفس في حال النوم وفي حال الوفاة، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك - إذا توفّاك - على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك، فبالحرى ألا يعذبك عدأً - إذا توفّاك - على ما علمه من قبيح أحوالك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ۚ﴾.

فوق عباده بالقهر والرفعة، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذَّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَانُهُمْ الْحَقُّ ۖ لَا لَهُ الْخَلْقُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ .

ردّهم إلى نفسه . وما غابوا عن القبضة .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْمَلًا مِنْ هَٰذِهِ ۖ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة في المحبة، فإنه إذا عرف جميلاً أسداه تمكّن من قلبه الحبّ .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ .

المتفرّد بالقدرة على إيجادكم منها، والذي هو (الخَلْفَ) عما يفوتكم الله، والذي حكّم بنجاتكم الله، والذي يأخذ بأيديكم كلما عثرتم الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ ۖ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾ .

إذا أراد الله هلاك قوم أمر البلاء حتى يحيط بهم سرادقه^(١) كما يحيط بالكفار غداً إذا أدركتهم العقوبة، وخرج بعضهم على بعض؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع، والمتبوع من التابع .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ .

لا طعم أردأ للإنسان من طعم الإنسان: إن شئت من الولاية والمحبة، وإن شئت في العداوة والبغضة؛ فَمَنْ مُنِيَ بِالْبَغْضَةِ مع أشكاله تنغص عليه عيشه في الدنيا، وَمَنْ مُنِيَ بِمَحَبَّةِ أمثاله تكدر عليه حاله مع المولى، ومن صانه عن الخلق فهو المحفوظ (المعاني) .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۚ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُنْتَزَقٌ وَسَوْفَ يُعْلَمُوْنَ﴾ .

يعني قل لهم إنما على تبليغ الرسالة، فأما تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ۖ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ .

لا توافقهم في الحالة، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذرهم ووحشتهم بحسن الإعراض عنهم، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحسن الانقباض .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا يُنْسِفْنَا الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

(١) السُّرَادِقُ: ما يُمد فوق صحن الدار وهو ستر الدار .

أَيُّ إِنَّ بَدَرَ مِنْكَ تَغَافَلَ فِتْدَارُكَتَهُ بِحَسَنِ التَّذَكُّرِ وَجَمِيلِ التَّنْبِيْهِ، فَاجْتَهِدْ أَلَا (تَزَلْ) فِي تِلْكَ الْغَلْطَةِ قَدُمُكَ ثَانِيَةً لِثَلَا تَقَاسِي أَلِيمِ الْعُقُوبَةِ مِنَّا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ إِجْسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أَيُّ مَنْ كَانَ نَقِيًّا (الثوب) عَنْ ارْتِكَابِ الْإِجْرَامِ يُغْزَلُ يَوْمَ نَشْرِهِ عَنْ مَلَاقَةِ تِلْكَ الْأَلَامِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَعَرَنَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

أَيُّ كُلِّهِمْ وَمَا اخْتَارُوهُ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ (مَنْ خَفِيَ الْمَكْرَ مَا إِذَا أَحْلَلْنَاهُ بِهِمْ كَسْرَنَا عَلَيْهِمْ) خُمَارُ الْوَهْمِ وَالْغِلْظَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُوَيْدَتْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ لَشَكِرٌ﴾.

أَيُّ كَانَ الْكُفَّارُ يَدْعُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجُوعِ عَنِ الدِّينِ وَالْعُودِ إِلَى الشِّرْكِ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: قُلْ لَهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - : أَنْتُمْ زُرُّ الضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى بَعْدَ طُلُوعِ شَمْسِ الْبِرْهَانِ؟

وَنَدْعُ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ؟ وَنَتْرِكُ عِقَاقَةَ الْجَنَّةِ وَقَدْ نَزَّلْنَاهَا؟ وَنَطْلُبُ الْجَحِيمَ مَثْوًى بَعْدَ مَا كُفِينَاهَا؟ إِنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْمَعْقُولِ، مُحَالٌ مِنَ الظُّنُونِ.

وَكَيْفَ يَسَاعِدُ أَتْبَاعُ الشَّيْطَانِ مَنْ وَجَدَ الْخَلَاصَ مِنْ صَحْبَتِهِمْ، وَأَبْصَرَ الْغِيَّ مِنْ صِفَتِهِمْ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أَيُّ أَمَرْنَا بِمَلَازِمَةِ مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ لِأَنَّ اللِّسَانَ إِنْ تَعُودَ نَجْوَى السُّلْطَانِ مَتَى يَنْطِقُ (بِمَكَالِهِ) الْأَخْسُ؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنَّا أَلْفَيْ سَنَةٍ وَهُوَ فَالْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

يعني أنه لا يعترض على قدرته - سبحانه - حدوث مقصود، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الأصل متهم في الجحود، والنسب متصف بالتوحيد، والحق - سبحانه - يفعل ما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

لاطفه بسابق العناية، ثم كاشفه بإلحاق الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق في قضاء سيره شظية من غبار العيب، فلما صحا من غيم التجوز سما سيره فقال بنفي الأغيار جملة، وتبرأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ يَهْدِينِ رَبِّي أَأَكُونُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِرُونَ إِلَيَّ بِرِيٍّ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾.

يعني أحاطت به (سجوف)^(١) الطلب، ولم يتجل له بعد صباح الوجود، فطلع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان، فقال: هذا ربي ثم يزيد في ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان، فقال ﴿هَذَا رَبِّي﴾.

ثم أسفر الصبح ومتع النهار فطلعت شمس العرفان من برج شرفها فلم يبق للطلب مكان، ولا للتجويز حكم، ولا للتهمة قرار فقال: ﴿يُنْقِرُونَ إِلَيَّ بِرِيٍّ وَمَا تُشْرِكُونَ﴾ إذ ليس بعد العيان ريب، ولا عقب الظهور ستر.

ويقال قوله - عند شهود الكواكب والشمس والقمر - ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله، ثم طالع الأغيار محواً في الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أفردت قصدي لله، وطهرت عقدي عن غير الله، وحفظت عهدي في الله الله، وخلصت وجدي بالله، فإني لله بالله، بل محو في الله والله الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾

(١) السجف: أحد السترين المقرونين؛ بينهما فرجة، وأسجف الليل: أظلم.

بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .

يعني قال لهم أترومون ستر الشمس بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذبولكم وأن تُسَدِّلُوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانه وتوالى بيانه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يعني وأي خوف يقع على قلبي ظله ولم أَلَمْ بِشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قَطُّ إلى جحد؟ وأنتم ما شئتم رائحة التوحيد في طول عمركم، ولا ذبتم طعم الإيمان في سالف دهركم! ثم بسوء ظنكم تجاسرتم وما ارعويتم، وخسرتم وما باليتهم. فأينما أولى أن يُغْلِنَ بسرّه ما هو بصدده من سوء مكره وعاقبة أمره؟

قوله جلّت قدرته: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

أي الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله؛ فإن من قال «الله» ثم رجع بالفضل - عند حاجاته أو مطالباته أو شيء من حالاته إلى غير الله فخصمه - في الدنيا والعقبى - الله .

والظلم - في التحقيق - وضع الشيء في غير موضعه، وأصعبه حساب أن من الحدثان ما لم يكن وكان؛ فإن المنشئ الله، والمُجْرِي الله، ولا إله إلا الله، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا حُجَّتَنَا آتَيْنَاهَا إِِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أشار إلى ترفّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته، وذلك ترتيب أهل السلوك في وصولهم إلى الله، فالتحقق بالآيات التي هي أفعاله ومراعاة ذلك وهي الأولى؛ ثم إثبات صفاته وهي الثانية، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول، فبرسومه يعرف العبد نعوته، وبنعوته يعرف ثبوته .

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ مِن دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِن آبَائِهِمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ اللَّهُ بِعَثَرٍ مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ ﴾ .

ذَكَرَ عَظِيمَ الْمِنَّةِ عَلَى كَأْفَتِهِمْ - صلوات الله عليهم، وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لَوْلَا تَخْصِيصُهُ إِيَّاهُمْ بالتعريف، وتفضيله لهم على سواهم بغاية التشريف، وإلا لم يكن لهم استيجاب ولا استحقاق.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَمْلِكُونَ﴾ يعني لو لاحظوا غيراً، أو شاهدوا - من دوننا - شيئاً، أو نسبوا شظية من الحدثان - إلى غير قدرتنا - في الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم، فإن الله - سبحانه - لا يغفر الشُّركَ بحالٍ، وإن كان (يغفر) ما دونه لمن أراد.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

يعني إن أعرض قومك - يا محمد - فليس كل من (....) ^(١) على الجحود أظهرناهم، بل كثير من عبادنا نزهنا - عن الجحود - قلوبهم، وعَجَبْنَا بماء السعادة طينتهم وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظة، ولا يزيغون عن التحصيل شمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾. إن هو إلّا ذِكْرِي لِلْمَكِينِ.

أولئك الذين طهر الله عن الجحد أسرارهم، ورفّع على الكافة أقدارهم، فافتق - يا محمد - هداهم، فإن من سلك الجادة أمين من العناء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْمَلُونَهُ قِرَاطِينَ بُدُونَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَو تَقَالَوُا أَنَّهُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

من توهم أن العلوم تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة في نعته، كما أن الإدراك غير جائز في وصفه، وكما أن الإشراف مُحَالٌ على ذاته.

ثم قال: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ أي سلّمهم عن الأحوال، وخاطبهم في معاني أحكام الرسوم والأطلال، فإن بقوا في ظلمة (الحيرة) فقل: الله تعالى، ثم ذرهم. يعني صرح بالإخبار عن التوحيد، ولا يهولئك تماديهم في الباطل، فإن تمويهات الباطل لا تأثير لها في الحقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

كتاب الأحباب عزيز الخطر جليل الأثر، فيه سلوة عند غلبات الوجد، ومن بقي عن الوصول تذلل للرسول، وقيل:

وَكُتِبَ لِحَوْلِي لَا تَفَارِقْ مُضْجِعِي وفيها شفاء للذي أنا كاتِبُ
كَأَنِّي مَلْحُوظٌ مِنَ الْجِنِّ نَظْرَةً وَمِنْ حَوَالِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ
آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

يعني إن الذين ينزلون منزلة المحدثين، ولم تلق إلى أسرارهم خصائص
الخطاب - فالحق - سبحانه عنهم بريء. والمتشع بما لم يسئل كلابس ثوبي زور، وفي
معناه أنشدوا:

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ
ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ
عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾.

دَخَلَتْ الدُّنْيَا بِخَرْقَةٍ، وَخَرَجَتْ مِنْهَا بِخَرْقَةٍ، أَلَا وَتِلْكَ الْخَرْقَةُ أَيْضاً (....)^(٢)،
وما دخلت إلا بوصف التجرد، ولا خرجت إلا بحكم التفرد. ثم الأنفال والأوزار،
والأحمال والأوضاع^(٣) لا يأتي عليها حصر ولا مقدار؛ فلا ما لكم أغني عنكم ولا
حالكم يزفع منكم، ولا لكم شفيع يخاطبنا فيكم؛ فقد تقطع بينكم، وتفرق وصلكم،
وتبدد شملكم، وتلاشى ظنكم، وخانكم - في التحقيق - وسعكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

موجد ما في العالم من الأعيان والآثار والرسوم والأطلال يسלט العدم على ما
يريد من مصنوعاته، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته، فلا لحكمه رد، ولا لحقه
جحد.

(١) الرقى: (ج) الرقية، كلام يطلب به شفه المريض ونحوه.
التمايم: (ج) التهمة: الفتوة، وهي ما يعلق في العنق لدفع العين.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الأوضاع: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا الْإِصْبَاحُ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وكما قلنا صبح الكون فأشرقَّت الأنوار كذلك قلنا صبح القلوب فاستنارت به الأسرار، وكما جعل الليل سَكَنًا لِتَسْكُنَ فيه النفوس من كد التصرف عن أسباب المعاش كذلك جعل الليل سَكَنًا للأحباب يَسْكُنُونَ فيه إلى روح المناجاة إذا هدأت العيون من الأغيار.

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان معلوم على حد معلوم، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَتْ لم تنقص ولم تزد، والقمر لا يبقى ليلة واحدة على حالة واحدة فأبدأ في الزيادة والنقصان، ولا يزال ينمو حتى يصير بدرًا، ثم يتناقص حتى لا يرى، ثم يأخذ في الظهور، وكذلك دأبه دائماً إلى أن تُنْقَضَ عليه العادة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

كما أن نجوم السماء يهتدى بها في الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها في معرفة رب الأرضين والسماوات.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

ذكرهم وصفهم حين خَلَقَهُمْ من آدم عليه السلام. وكما أن للنفس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع، فمن عبد مُسْتَقَرَّ قلبه أوطان الشهوات والمنى، ومن عبد مستقره موقع الزهد والثقى، ومن عبد مستقره - حيث لا مسكن ولا مأوى - وراء الورى.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَبِهِ أَفْطَرُوا إِلَهًا ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَهُ إِذَا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطار الكون، وتباين النبات في اللون والطعم واختلفت الأشياء، ودل كل مخلوق بلسان فصيح، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُسْتَقِيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُصِفُونَ﴾.

سُدَّتْ بصائرهم فاكتفوا بكل منقوص أن يعبدوه، وتلك عقوبة لأرباب الغفلة عن الله تعالى عَجَلَتْ.

قوله جل ذكره: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

البديع الذي لا مثل له، أو هو المنشئ لا على مثال، وكلاهما في وصفه مستحق.

والواحد يستحيل له الولد لاقتضائه البعضية، والتوحيد ينفيه.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

تعرف إليهم بآياته، ثم تعرف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته.

فقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريف للسادات والأكابر، وقوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تعريف للعوام والأصاغر.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. قَدَسَ الصمدية عن كل لحوقٍ ودرك، فأنى بالإدراك ولا حد له ولا طرف؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي أحاط علمه بكل معلوم. قوله جل ذكره: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

أوضح البيان والآخ الدليل، وأزاح العَلَلِ وأنار السبيل، ولكن قيل:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم
قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَلْقَوْنَ يَتْلُمُونَ﴾.

أوقع الفتنة في قلوبهم فَحَنَسَتْ عليهم الأحوال: فَمِنْ شُبْهَةٍ دَاخَلْتَهُمْ وَمِنْ خَيْرٍ مَلَكَتَهُمْ. ومن تحقيق أدركه قوم، وتعريف توقف على آخرين.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^(١).

العَجَبُ ممن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده، وكيف يصف معبوده بجواز ألا يرتفع في ملكه مراده؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

(١) الآية (١٠٦) من سورة الأنعام غير مذكورة.

يعني خَاطِبُهُمْ بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفي الشبهة، ولا تُكَلِّمُهُمْ على موجب نوازع النَّفْسِ والعادة، فَيُجَمِّلُهُمْ ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابقُهُمْ على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في غيهم، فسيكون فِعْلُكَ سبباً وعلّة لزيادة كفرهم وفسقهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

لَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيح جميلاً، ولم يَرَوْا لسوء حالتهم تبديلاً، فركنوا إلى الهوى، ولم يميزوا بين العوافي والبلا .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنِّي إِذًا بَلَغْتُكُمْ آيَةً لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم، وما يُغْنِي وضوح الأدلة لمن لا تساعده سوابق الرحمة، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

العَجَبُ ممن تَبَقَّى على قلبه شبهة في مسألة القَدَرِ^(١)، والحق - سبحانه - يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾، لا بل من حقائق التقلب بقاء إشكال هذا الأمر - مع وضوحه - على قلوب مَنْ هو مِنْ جملة العقلاء، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا لَإِنَّمَا الْمَلَائِكَةُ وَكَلَمُهُمْ نُفُوءٌ وَحِشْرَانَا عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ .

لأن الآيات وإن توالى، وشموس البرهان وإن تعالت فَمَنْ قَصَمَتْهُ الْعِزَّةُ وَكَبَسَتْهُ الْقِسْمَةُ لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضللاً، ولم يستنجز إلا للشقوة حالاً .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ .

كلما كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى، والمطالبات أقوى، فلما كانت رتبُ

(١) هنا إشارة إلى القدرية: تقابل الجبرية: مذهب من يرى أن للمرء حرية فيما يريد أو يفعل، وقدرة واستطاعة عليه (مو) .

الأنبياء - عليهم - السلام - أشرف كانت العداوة معهم أشد وأصعب .
قوله جل ذكره: ﴿وَلِصَلَّى إِلَيْهِ أَقْبَدَهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ .

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فَرَضُوا لأنفسهم أخس الأنبياء^(١) .
قوله جل ذكره: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتَعَيَّ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

قل لهم أترون أنى - بعد ظهور البيان ووضوح البرهان - أذُرُ اليقين، وأوثر التخمين وأفارق الحق، وأقارن الحظ؟ إن هذا محال من الظن .
قوله جل ذكره: ﴿وَتَنَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

تَقَدَّسَتْ عن التغيير ذاته، وتنزهت عن التبديل صفاته . والتمام ينفي النقصان . وكل نقصان فمن الحديث أصله، وأنى بالنقص - والقِدْم وصفه؟
قوله جل ذكره: ﴿وَأَن تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ .

أهل الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخطراً، وأما الأعداء ففيهم كثرة . فإن لاحظتْهم - يا محمد - فتتوَكَّ، وإن صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوكَ .
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .
تقاصرت علوم الخلق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عَرَفَهم من أمره، والذي لا يخفى عليه شيء فهو الواحد - سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنَّمُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ .
هذا في حكم التفسير مختص بالذبيحة، وفي معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة، فإن من أكل على الغفلة فما دامت تلك القوة باقية فيه فخواطره إما هواجس النفس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنَّمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْتَرِينَ﴾ .

(١) الأنبياء: (ج) النصيب: الحصة والحظ من كل شيء .

يعني أي شيء عليكم لو تركتم الغفلة؟ وما الذي يضركم لو استدمتم الذكر؟
وقد تبين لكم الفرق بين أنس الذكر ووحشة الغفلة في الحال والوقت، ألا تعرفوا حكم الثواب والعقاب في المال.
قوله جل ذكره: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع، وباطن الإثم هو سر بينك وبين الله، لا وقوف لمخلوق عليه.

ويقال باطن الإثم خفي العقائد و (....) ^(١) اللاحاظ.

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل.

ويقال باطن الإثم - على لسان أهل المعرفة - الإغماض عما لك فيه حظ،
ويقال باطن الإثم - على لسان أهل المحبة - دوام التغاضي عن مطالبات الحب؛ وإن بناء مطالبات الحب على التجني والقهر، قال قائلهم:

إذا قلت: ما أذنبت؟ قالت مجيبة: حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

ويقال أسبغت عليكم النعم ظاهراً وباطناً، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً، فإن من شرط الشكر ترك استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجَنِّبُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ما كانت (....) ^(١) من الأحوال عاصياً ولربّه ناسياً فتوقيه شرط عند أصحاب (....) ^(١).

ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيُجَنِّبُوكُمْ﴾ فهذا يدل على أن من توقى ذلك اتحدت له خواطره، وانقطعت عنه خواطر الشيطان. وأصل كل فسوة متابعة الشهوات، ومن تعود متابعتها فليودغ صفوة القلب.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإيمان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله. وأهل الغفلة إذ لهم الذكر فقد صاروا أحياء بعد ما كانوا أمواتاً، وأرباب الذكر لو اعتراهم نسيان فقد ماتوا بعد الحياة. والذي هو في أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفي روح الاستبصار لا يدانيه من هو في (أسر) الظلمات، ولا يساويه من هو رهين الآفات.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَتَّقُونَ﴾. ﴿وَمَا يَتَّقُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

لَبَّسْنَا عليهم حقائق التوحيد، وسوّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمَكُرُونَ، وهم في التحقيق مخادعون، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبُيْبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا كَانُوا يَمَكُرُونَ﴾.

بعد إزاحة العلة، وبيان الحجة، وزوال الشبهة (فالتعلل) باستزادة البصيرة إعلام عن سوء الأدب، وذلك منهم من التعدي؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بمن جاء بنوع من تسويلات النفس يوجب مقاساة الهوان. وملازمة الحدود. وترك التعدي على الحق قضية التوفيق.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾.

المُسْلِمُ لا يتحرك في باطنه عِزٌّ للمنازعة مع التقدير، فإن الإسلام يقتضي تسليم الكل بلا استثناء، ومن استنقل شيئاً من التكليف أو بقي منه نفسٌ لكرامية شيء فيعدُّ غير مستسلم لحُكْمِهِ.

ويقال نورٌ في البداية هو نور العقل، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم ونور في النهاية هو نور العرفان؛ فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة حكم العيان.

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شيء من ذوات الصدور عند ظهور النور، وقال ﷺ: «اتَّبِعُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

ويقال أول أثر لأنوار الغيب في العبد يُنبِّهه إلى نقائص قَدَرِهِ ومساوئ غِيهِ، ثم

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٩٤/٤، ١١٨/٦) والطبراني في (المعجم الكبير ٨/١٢١)، (البغوي ١٤/٣١) وابن كثير في (التفسير ١/٤٧٩، ٤/٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٥٤٤، ٧/٢٥٩)، وابن حجر (فتح الباري ١٢/٤٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/١٢٩).

يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه، ثم غلبت الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السِّرُّ بعد ما كان يشهد؛ كالثَّائِر في قُرْصِ الشمس تُسْتَهْلِكُ أنوار بصره في شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة في حقائق الشهود، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُصِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرُهُ صَبِيحًا حَرِيمًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وذلك حتى لا يسعى في غير مراد الحق سبحانه، وحدُّ البشرية ضيق القلب، وصاحبه في أسرِ الحدثان والأعلال، ولا عقوبة أشدَّ من عقوبة الغفلة عن الحق. قوله جل ذكره: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

الصراط المستقيم إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيَّد بجمع، وجمع مقيد بشرع، وإثبات للعرفان بغاية الوسع، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد، والتحقيق بأنَّ المُجْرِي واحد لا شريك له، ثم ترك الاعتماد ونفي الاستناد، لا على (حركاته) يعتمد، ولا إلى سكناته يستند، (بل)^(١) ينتظر ما يفتح به التقدير، فإن زاع صاحب الاستقامة لحظة، والتفت يمنة أو يسرة سقط سقوطاً لا ينتعش.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

دار السلام أي دار السلامة، ومن كان في رِقِّ شيء من (الأغراض) والمخلوقات لم يجد السلامة، وإنما يجد السلامة من تحرر عن رِقِّ المُكُونَات، والآية تشير إلى أنَّ القوم في الجنة لكنهم ليسوا في أسرِ الجنة، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكُون.

ويقال من لم يُسلم - اليوم - على نفسه وروحه وكلِّ ماله من كل كريمة وعظيمة تسليم وداع لا يجد - غداً - ذلك الفضل، فمن أراد أن يُسلم عليه ربه - غداً - فليُسلم على (الكون) بجملته، وأولاً على نفسه وروحه.

ويقال دار السلام غداً لمن سلم - اليوم - لسانه عن الغيبة، وجنانه عن الغيبة، وأبشاره وظواهره من الزُّلَّة، وأساراه وضمائره من الغفلة، وعقله من البدعة، ومعاملته من الحرام والشبهة، وأعماله من الرياء والمصانعة، وأحواله من الإعجاب.

ويقال شرفٌ قَدْرُ تلك الدار لكونها في محل الكرامة، واختصاصها بعندية الزُّلَّة، وإلا فالأقطار كلها ديار، ولكن قيمة الدار بالجار، قال قائلهم:

إني لأحسد داراً في جواركم طوبى لمن أضحي لدارك جارا^(٢)

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الطوبى: الحُسنى، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال، وغنى بلا فقر.

يا ليت جارك يعطيني من داره شبراً إذا لأعطيه شبر داراً
ويقال: وإن كانت الدار منزهة عن قبول الجار، وليس القرب منه بتداني
الآقطار، فإطلاق هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنس، بل لو جاز القرب في وصفه من
حيث المسافة لم يكن لهذا كبير أثر، وإنما حياة القلوب بهذا، لأن حقيقته مقدسة عن
هذه الصفات؛ فهو لأجل قلوب الأحباب يُطلق هذا ويقع العلماء في كد التأويل،
وهذا هو أمانة الحب، قال قائلهم:

أنا من أجلك حُمِلْتُ الأذى الذي لا أستطيع
قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ لأنه إذا كان - سبحانه -
هو وليهم فإنَّ المنازل بأسرها طابت كيفما كانت، قال قائلهم:

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها وليس في الدار لي هم ولا وطْرُ^(١)
هو وليهم في دنياهم، وليهم في عقابهم، هو وليهم في أولادهم وفي
أخراهم، وليهم الذي استولى حديثه على قلوبهم، فلم يدع فيها لغيره نصيباً ولا سوى
وليهم الذي هو أولى بهم منهم وليهم الذي آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فآثروه في
جميع أحوالهم وليهم الذي تطلب رضاهم، وليهم الذي لم (يكلهم) إلى هواهم، ولا
إلى دنياهم، ولا إلى عقابهم.

وليهم الذي بأفضاله يلاطفهم، وبجماله وجلاله يكشفهم.

وليهم الذي اختطفهم عن كل حظ ونصيب، وحال بينهم وبين كل حميم
وقريب، فحرَّروهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب، وليهم الذي هو مؤنس
أسرارهم.

مَشَاهِدُهُ مُغْتَكِفُ أَبْصَارِهِمْ، وَحَضْرَتُهُ مَرْثَعُ أَرْوَاحِهِمْ.

وليهم الذي ليس لهم سواه، وليهم الذي لا يشهدون إلا إياه، ولا يجدون إلا
إياه، لا في بدايتهم يقصدون غيره، ولا في نهايتهم يجدون غيره، ولا في وسائلهم
يشهدون غيره.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَنْعَشَرُ الْإِنِّ قَدْ اسْتَكْرَرُوا مِنَ الْإِنِّ وَقَالَ
أُولَئِكَ لَهُمْ مِنَ الْإِنِّ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آلَاءَكَ الَّتِي أَتَلَّتْ لَنَا قَالِ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ
خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) الوطر: الحاجة والبغية (ج) أوطار.

يعتذرون فلا يسمع، ويحتجون بما لا ينفع، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقل منه قُبِلَ منهم، لكن سبقت القسمة فحققت لهم الشقوة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُوْثِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

يعني نجمع بين الأشكال، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض، والأعداء مجموعون يفرّ بعضهم من بعض.

قوله جل ذكره: ﴿يَمْعَشِرَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهِى وَيُذَرُّوْكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَحِيوَةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

عرّفهم أنه أراح لهم العِلَل من حيث التزام الحجة، لكنه حكم لهم بالشقوة في الأزل، (فلبس) عليهم المحجة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

متى يصح في وصفة توهم الظلم والملك ملكه والخلق خلقه؟

ومتى يقبح منه تصرف في شخص بما أراد، والعبد عبده والحكم حكمه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

المحسن في روح الثواب متنعم، والمذنب في نوح العذاب متالم.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

الغني يشير إلى كشفه وذو الرحمة يشير إلى لطفه.

أخبرهم بقوله الغني عن جلاله، ويقول: ذو الرحمة عن أفضاله؛ فبجلاله

يكاشفهم فيفتيهم، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم.

ويقال سماع غناه يوجب محوهم، وسماعه رحمته يوجب صحوهم، فهم في

سماع هذه الآية مترددون بين بقاء وبين فناء، وبين إكرام وبين اصطلام، وبين تقريب

وبين تدويب، وبين اجتياح وبين ارتياح.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْشَدَكُمْ بِمُغْنِينَ﴾.

الإشارة من هذه الآية إلى قصر الأمل، ومن قصر أمله حسن عمله، وكل ما هو

آت قريب أجله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان في صيغة الأمر.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

لما بنوا قاعدة أمرهم على موجب الهوى صارت فروغهم لاثقة بأصولهم؛ فهو كما قيل:

إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القروء^(١)

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك؛ إذ الأشكال يتناصرون، فالنفس لا تدعو إلا إلى الأجنبية، لأنها مدعية تنوهم أن منها شيئاً، وأصل كل شرك الدعوى، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر، فهم أعوان يتناصرون. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ صرح بأن المراد على المشيئة، والاعتبار (بسابق) القضية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِمْ سَجَيرَهُم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَحْرَمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ يَكُنْ مِنْهُ فِيهِمْ شُرَكَاءُ سَجَيرَهُمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا، وأمور شرعوها على الوجه الذي اعتادوا، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول، والإشارة فيه أن من (نحا نحوهم) في زيادة شيء في الدين، أو نقصان شيء من شرع المسلمين فمضاه لهم في البطلان، ينخرط في سلكهم في الطغيان.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشية الفقر على قتل الأولاد، ولذلك

(١) ابن آوى: حيوان مفترس من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم (أكلات اللحوم) وطائفة الثدييات، وهو أصغر حجماً من الذئب، يتغذى من الطيور الدواجن والثدييات الصغيرة والجيف (ج) بنات آوى.

قال أهل التحقيق: من أمارات اليقين وحقايقه كثرة العيال على بساط التوكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّحْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُمْتَشِكُهَا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾.

يعني كما أنشأ في الظاهر جناتٍ وبساتين كذلك أنشأ في السر جناتٍ وبساتين، ونزهة القلوب أثم من جنات الظاهر؛ فأزهار القلوب موزقة، وشموس الأسرار مشرقة، وأنهار المعارف زاخرة.

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا، وإن اشتركت في كونها أحوالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَاكُمْ حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

حق الواجب يوم الحصاد إقامة الشكر، فأما إخراج البعض فيبانه على لسانه العلم، وشهود المنعم في عين النعمة أثم من الشكر على وجود النعمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

الإسراف - على لسان العلم - مجاوزة الحد.

وعلى بيان الإشارة للإسراف كل ما أنفقته في حظ نفسك - ولو كانت سمسة، وما أنفقته في سبيله - سبحانه - فليس بإسراف، ولو أربى على الآلاف.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾.

يعني تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية في الفضيلة على المخلوقات. وكما سخر الأعيان للإنسان كذلك سخر الأزمان في تصريف الحداث لخواص الإنسان.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ تَمَنَّى أَرْوَجَ مِنْ الصَّانِ أَتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَتَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائع في جميع ما يحصل به الانتفاع.

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكرم بل الخمود في وجود القدم.

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان، وللسر رزق وهو الشهود الذي يكون للعبد وهو قرين العيان.

قوله ﴿تَمَنَّى أَرْوَجَ مِنْ الصَّانِ أَتَيْنِ﴾ الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدب العبد

باستدامة السكون والتزام حُسن الخُلُق، فإنَّ الضَّانِيَّةَ مستسلمةٌ لمن يلي عليها، فلا بصياحها تُؤذي ولا (ب... ها)^(١)، يعني كذلك سبيل من وَطِئَ هذا البسَاط.

وكذلك «في الإبل آيات» منها انقيادها لمن جَرَّ زَمَامَهَا، واستناعتها حيثما تُنَاخ، بلا نزاع ولا اختيار. ومنها ركوبها عند الحَمَل، ومنها صبرها على مقاساة العطش، وذوبانها في السير.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُورًا أَوْ لَحْمَ خَازِرٍ فَإِنَّهُمْ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أِهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَعَنِ اضْطِرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بيِّن أنَّ الشارعَ اللّهُ، والمانع عن الخلق هو الله، وما كان من غيرِ الله فضائع باطلٌ عند الله. بيِّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي طُفْرٍ وَبَيْنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِحُكْمٍ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

بيِّن أن ما حَرَّمَ عليهم ضيَعوه؛ إذ لَمَّا لم يعاقبهم عليه لم يشهدوا مَكْرَهَ العظيم فيما ابتدعوه من قِبَلِ نفوسهم - فأهملوه ولم يحافظوا عليه، فاستوجبوا عظيم الوزر وأليم العجر.

قوله جل ذكره: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

الإشارة منه بيان تخصيص الأولياء بالرحمة وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة. والصورة الإنسانية جامعة ولكن القسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَاوُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَتَّبِعْتُمْ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

كذبت إقالتهم لأنها لم تضدُّز عن تصديق، فذمُّوا على جهالتهم وإن كانت (...)^(١) في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُكْمُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

صَرَخَ بِأَنِ إِرَادَتِهِ - سُبْحَانَهُ - لَا تَتَقَاصِرُ عَنْ مَرَادٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ اعْتِرَاضٌ .
 قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ .

أشار إلى أَنَّ مَنْ تَجَرَّدَ عَنْ بَرَهَانٍ يُصَرِّحُهُ وَبَيَانٍ (يُوضِّحُهُ) فَغَيْرُ مَقْبُولٍ مِنْ فَاعِلِهِ .
 قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلُفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشرك فإنه رأس المحرمات، والذي لا يقبل معه شيء من الطاعات، وينقسم ذلك إلى شرك جلي وشرك خفي؛ فالجلي عبادة الأصنام، والخفي ملاحظة الأنام، بعين استحقاق الإعظام .
 والثاني من هذه الخصال ترك، العقوق، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق، وإراقة دمائهم بغير استحقاق .
 ثم ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما بدا وما استتر، ويدخل في ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النفس بغير الحق، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .
 ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .
 ثم بذل الإنصاف في المعاملات والتوقي من جميع التبعات .
 ثم الصدق في القول والعدل في الفعل .
 ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فَمَنْ قَابِلَ هَذِهِ الْأَوَامِرَ بِجَمِيلِ الْإِعْتِنَاءِ سَعِدَ فِي دَارِيهِ وَحَظِيَ بِعِظَائِمِ مَنَزَلَتِهِ .
 قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ زَاهِدًا رَّغِيذًا يُؤْمِنُونَ﴾ .

يَهُونُ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةُ مَقَاسَةِ التَّكْلِيفِ بِمَا ذَكَرَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِأَنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَنَا كَانُوا فِي الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ مِثْلَهَا، ثُمَّ صَبَرُوا فَظَفَرُوا، وَأَخْلَصُوا فَخَلَصُوا.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب، وإذا بقي العبد عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب، ومن لم يجذ في قراءة القرآن كمال العيش والإنس فلأنه يقرأ ترسماً لا تحققاً^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ آلُكِتَابٍ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

أزاح كلّ علة، وأبدى كل وصلة، فلم يبق لك تعللا، ولا في آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

عقوبة كلّ جُزْم مؤجلة، وعقوبة التكذيب معجلة، وهي ما يوجب بقاءهم في أسر الشك حتى لا يستقر قلبهم على شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوْ كُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾.

أخبر أنه بعدما (أزاح) لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم، واغتروا بطول السلامة لهم، ثم بين أنه إذا أمضى عقوبة عبد حكماً فلا معارض لتقديره، ولا مناقض لتدبيره.
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ فِي شَيْءٍ لِنَمَّا أَمَرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَلِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم، فكانوا مجتمعين جهرًا بجهر؛ متفرقين - في التحقيق - سرًا بسِر.

قوله: ﴿لَسْتَ فِي شَيْءٍ لِنَمَّا أَمَرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾. لا نجمعك وإياهم، يعني شِقْ شِقُّ الحقائق، وشِقُّهُمْ شِقُّ الباطل، ولا اجتماع للضدين.

(١) انظر رأي القشيري من موضوع «السماع» في رسالته ص ٣٣٥ - ٣٥٠.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

هذه الحسنات للظاهر: وأما حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة.

ويقال الحسنة من فضله تعالى تَصُدَّر، وبلطفه تحصل، فهو يُجْزِي، ثم يَقْبَلُ ويشني، ثم يجازي ويعطي.

ويقال إحسانه - الذي هو التوفيق - يوجب إحسانك الذي هو الوفاق، وإحسانه - الذي هو خلق الطاعة - يوجب لك نعت الإحسان الذي هو الطاعة؛ فالعناء منك فِعْلُهُ والجزاء لك فَضْلُهُ.

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيّةُ الخدمة، وإحسان القلوب حفظ الحرمة، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة.

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه في السرائر فالذي منك مجاهدتك، والذي إليك مشاهدتك.

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا، وإحسان المريدين رفض الهوى، وإحسان العارفين قطع المني، وإحسان الموحدين التخلي عن الدنيا والعقبى، والاكتفاء بوجود المولى.

ويقال إحسان المبتدئين الصدق في الطلب، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب، فشرط الطلب ألا يبقى ميسورٌ إلا بذلته، وشرط الأدب ألا تسمو لك همة إلى شيء إلا قطعت وتركته.

ويقال للزهاد والعباد، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاء محصور محدود ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

يعني (يُكَال) عليه بالكيل الذي يكيل، وَيُوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أرشده إلى الطريق الصحيح. ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى سواه. وَمَنْ وَجَدَ سَبِيلًا إلى مخلوق عرج في أوطان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميراً أو قدّم عليهم تعويلاً، فقد استشعر تسويلاً، وجُرّع تضليلاً.

و «الصراط المستقيم» ألا ترى من دونه مثبتاً للذرة ولا سنة .
و «الدين القيم» ما لا تمثيل فيه ولا تعطيل، ولا نفي للفرق الذي يشير إلى
العبودية، ولا رد للجمع الذي هو شهود الربوبية^(١) .

والحنيف المائل إلى الحق، الزائغ عن الباطل، الحائل عن ضد الحقيقة .
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَّهُ
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

مَنْ كَوِّفَ بحقائق التوحيد شَهِدَ أَنَّ القائم عليه والمجري عليه والممسك له
والمُنْقَلُ إياه من وصفٍ إلى وصف، و (...) ^(٢) عليه فنون الحدثان - واحد لا
يشاركه قسيم، وما جِدَّ لا يضارعه نديم .

ويقال مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ بِاللَّهِ عِلْمَ أَنَّهُ اللَّهُ، فإذا علم الله لم يَبْقَ فيه نصيب لغير الله؛ فهو
مستسلم لحكم الله، لا مُعْتَرِضٌ على تقدير الله، ولا مُعَارِضٌ لاختيار الله، ولا مُعْرِضٌ
عن اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْفِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا
عَلَيْهَا وَلَا يُزْرُ وَازِدٌ وَزِدْ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ .

كيف أُوْثِرَ عليه بَدَلًا وإني لا أجد عن حكمه جولا، وكيف أقول بغير أو ضد أو
شريك؟ أو أقول بدونه معبود أو مقصود؟ وإن لاحظتُ يمنة ما شاهدتُ إلا مُلْكُهُ، وإن
طالعتُ يسرة ما عاينتُ إلا مُلْكُهُ! بل إني إن نظرتُ يمنة شهدتُ يُمْنَهُ، وإن نظوتُ
يسرة وجدتُ نحوي يُسْرَهُ! .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفَعُولٌ رَّحِيمٌ﴾ .

صير التوبة إليكم، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم، فأنتم المقصودون اليوم دون

(١) يمكن أن نوضح مقصود القشيري هنا من خلال أقواله أو حديثه عن الجمع والفرق برسالته قال: إن
ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق
من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من
شهود الأفعال، فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالفرقة، ومن
أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع فإثبات الخلق من باب
الفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولا بد للعبد من الجمع والفرق فإن لا تفرق لا عبودية له،
ومن لا جمع له لا معرفة له، فقله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ إشارة إلى الفرق، وقوله: ﴿وإياك
نستعين﴾ إشارة إلى الجمع. (الرسالة القشيرية ص ٦٤ - ٦٥).

(٢) بياض في الأصل.

من هو سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافاً ، وخلقكم أخياراً^(١) فمن مُسَخَّرٍ له ، مُرَفَّعٌ ، مُرَوَّحٌ ، يتعب لأجله كثيرٌ . ومن مُعَنَّى ، وذو مشقةٍ أدير عليه رأسه . وجاء البلاء ليختبركم فيما آتاكم ، ويمتحنكم فيما أعطاكم . إنَّ حسابَه لَكُمْ لاجِقٌ ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

(١) الأخيار: من الناس: الضروب المختلفة الأخلاق والأشكال . وإخوة أخيار ، أي: أهمهم واحدة والآباء شتى .

السورة التي يذكر فيها الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباء مكسورة في نفسها وعملها خفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء، وهي صغيرة القائمة في الخط، ونَقَطُها الذي تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القِلَّة، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف، فهي تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه.

والسين «من بسم الله» حرف ساكنٌ فالإشارة من الباء ألا تَدَّرَ - في الخضوع والتذلل، والجهد والتوسل - ميسوراً، ثم تسكن منتظراً للتقدير؛ فَإِنْ مَنَّ القبول بفضله.

فذلك المأمول، وإنْ رَدَّ بحكم فله الحكم، فتوافق تقديره بالموافقة في الرضا به، إذا الميم تشير إلى مِنته إن شاء، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إنْ لم يَمُنْ.

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق - سبحانه - بذلك من دون الخلق، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلق، فالغيب لهم كشف، والخبر لهم عيان، وما للناس عِلْمٌ فلهم وجود.

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقرّيبات البسط بما (...) (١) فيه من وجوه المراعاة! وصنوف لطائف المناجاة، فهم في جنات النعيم، وعيشٍ بسطٍ وتكريم، ودوام رُوحٍ مقيم

والميم تشير إلى محبة الحق - سبحانه - لهم بدءاً فإنها هي الموجبة لمحابّتهم، إذ عنها صَدَرَ كل حب فبمحبة لهم أحبوه، ويقصده إليهم طلبوه، وبإرداته لهم أرادوه.

ويقال نزهة أسرار الموحدين في الإناخة بعقوة بسم الله، فَمَنْ حَلَّ تلك الساحة رَنَعَ في حدائق القدس، واستروح إلى نسيم الأُنس.

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم؛ فللاغنياء موقفهم عرفات، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات.

(١) بياض في الأصل.

ويقال قاله «بسم الله» ربيع الأحاب؛ أزهارها لطائف الوصلة، ونورُها زوائد القربة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمَصَّ﴾ [الأعراف: ١].

هذه الحروف من المتشابه في القرآن على طريقة قوم من السلف، والحق - سبحانه - مستأثر بعلمها دون خلقه. وعلى طريقة قوم فلها معانٍ تُعرَف، وفيها إشارات إلى أشياء توصف: فالألف تشير إلى ألفة الأرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأرواح العطرة، فهي - في التحقيق - في ذلك المعنى كالم المتحدة؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكين، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون.

ويقال أَلِفَ القلبُ حديثه فلم يحتشم من بذل روحه.

ويقال الألف تجرّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه.

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف؛ فمرة أصبحت مفتوحة، ومرة مسكونة، ومرة مرفوعة، وأمّا الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي.

وأما الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين في القصد، وصدق أحوال العارفين في الوجد، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب، إذ العطش نعت كلّ قاصد، كما أن الدهشة وصف كل واحد.

ويقال الصاد تبدي محبةً للصدور وهو بلاء الأحاب.

ويقال الصاد تطالبك بالصدق في الود، وأمانة الصدق في الود بلوغ النهاية والكمال، حتى لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالمنع.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذَرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

كتاب الأحاب تحفة الوقت، وشفاء لمقاساة ألم البعد، وهو لداء الضنى مُزِيل، ولشفاء الشك مُقِيل، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ ولم يقل: في قلبك؛ فإن قلبه - عليه السلام - في محل الشهود، ولذلك قال ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] وكذلك قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي﴾. وقال للمصطفى صلوات الله عليه: ﴿أَلَمْ تَسْرِحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]. فإن القلب في محل الشهود، وهو أبداً بدوام أنس القرب، قال ﷺ: «تنام عيني ولا ينام

قلبي»^(١) وقال: «أسألك لذة النظر»^(٢) وصاحب اللذة لا يكون له حرج.

قوله جل ذكره: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

استسلموا لمطالبات التقدير، قفوا حيثما وقفتهم، وتحققوا بما عرفتم، وطالعوا بما كوشفتم، ولا تلاحظوا غيراً، ولا تركنوا إلى علة، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَفْلَكْنَهَا فَبَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

يعني كم من قرية ركنوا إلى الغفلة، واغتروا بطول المهلة؛ باتوا في (خَفُض) الدعة وأصبحوا وقد صادقتهم البلايا بغتة، وأدركتهم القضية فجأة، فلا بلاء كُشِف عنهم، ولا دعاء سُمِعَ لهم، ولا فرار نَفَعَهُمْ، ولا صرخ أنقذهم. فما زالوا يفرعون إلى الابتهاال، ويصيحون: الويل! ويدعون إلى كشف الضر، ويبكون من مسّ السوء؟! بادوا وكأنه لا عين ولا أثر، ولا لأحد منهم (خبر). تلك سُنَّة الله في الذين خَلَوْا من الكافرين، وعادته في الماضين من الماردين.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ سؤال تعنيف وتعذيب.

﴿ولنسأل المرسلين﴾ سؤال تشريف وتقريب.

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ عن القبول فيتقنعون بذل الخجل.

﴿ولنسألن المرسلين﴾ عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة، فالكل بِسْمَةِ العبودية والتوقير، والحق بنعت الكبرياء والتقدير.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلَّتِهَا كَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

فلنخبرهم يوم الفضل ما هم عليه اليوم، ونوقفهم على ما أسلفوه، ونقيمهم في مقام الصغار ومحل الخزي، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير.

ويقال أجرى الحق - سبحانه - سُنَّتَهُ بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوَّفهم بعقوبته تارة؛ فقال تعالى: ﴿وَأَنْقَضُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨] يعني العذاب الواقع في ذلك

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٢٣٢/٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٥١، ٤٣٨) وابن الجارود في (المنتقى ١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ١/١٨٥).

اليوم، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] وهذا أبلغ في التخويف، وقال ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

قوله جل ذكره: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص، وأحوالهم بميزان الصدق. فَمَنْ كانت أعمالهم بالرياء مصحوبة لم يَقْبَلْ أعمالهم، وَمَنْ كانت أحوالهم بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾. سَهَّلْنَا عليكم أسباب المعيشة، وبَسَّرْنَا لكم أحوال التصرف، ثم أراد منكم أَنْ تتخذوا إليه سبيلاً، ولم يعتصم عليه فراد.

﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ لاستعمالكم - في الخلاف - أبدانكم، ولإنفاقكم - بالإسراف - أحوالكم، ولاستغراقكم - في الحظوظ - أوقاتكم. فلا نعمة الفراغ شكرتم، ولا من مَسَّ العقوبة شكوتهم... خسرتهم وما شعرتم!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذي أردناكم، وأقمناكم في الشواهد التي اخترنا لكم؛ فمِنْ قَبِيح صورته خُلِقَ ومن مَلِيح، ومن سَقِيم حالته خُلِقَ، ومن صَحِيح. ثم إنا نعرفكم سَابِقُ آيَاتِنَا إلى أبيكم، ثم لَاحِقُ خلافة بما بقي عِزُّ مَنْ فِيكُمْ، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم) ويعاديكم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

أي لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجود لآدم لو كُنْتَ تُعَظِّمُ أمري؟ فيتحقق الموحدون أن مُوجِبُ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصل، ولو ساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود.

قال: ﴿أنا خير منه﴾ ادَّعى الخيرية، وكان الواجب عليه - لولا الشقوة - أَنْ يُثَبِّرَ التذللَ على التكبر، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحق.

ثم إنه وإن سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفْسِ لأنه يَحْطُ، فلم يَزِدْه قياسه إلا في استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه - سبحانه - وقسمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .
فارق بساط القرية؛ فإنّ التكبر والترفع على البساط ترك للأدب، وترك الأدب يوجب الطرد.

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبر، والمتكبر بعيد عن الحق سبحانه، ورؤية المقام قَدْح في الربوبية إذ لا قَدَر لغيره تعالى، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلاً فقد نازع الربوبية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ .

أجاب دعاءه في الحال ولكن كان ذلك مكرراً به لأنه مكّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقْوَةً. ليعلم الكافّة أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمة ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكرراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

جَاهَرَ الحقيقة بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غاية الخلوص في العبودية، فعُلم أن جميع ما كان منه في سالف حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبهم، ويتسلط عليهم من جميع جهاتهم، ولم يعلم أن الحق سبحانه قادر على حفظهم عنه، فإنّ ما يكيد بهم من القدرة حَصَلَ، وبالمشيئة يوجد، ولو كان الأمر به أو إليه لَكَانَ أَوْلَى الخلق بأن يؤثّر فيه كذخه نفسه، وحيث لم ينفعه جهده في سالف أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْهُوً وَمَا مَذْهُورًا لَمَنْ يَمْلِكْ مِنْهُمْ لَأُمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

أخرجه من درجته، ومن حالته ورتبته، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته، ثم تخليده أبداً في عقوبته، ولا يذيقه ذرةً من يَزِدْ رحمته، فأصبح وهو مقدّم على الجملة، وأمسى وهو أبعد الزمرة، وهذه آثار قهر العزة. فأَيُّ كَيْدٍ يسمع هذه القصة ثم لا يفتت؟! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَعَادُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

لما أسكن آدم الجنة خلق معه سبب الفتنة، وهو ما أكرمه به من الزوجة، وأي نقص يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة؟ .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

نُسَبَتْهُ مَا حَصَلَ مِنْهُمَا إِلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَمَارَاتِ الْعَنَاءِ، كَانَتْ الْخَطِيئَةُ مِنْهُمَا لَكِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

ويقال التقى آدمُ ببليس بعد ذلك فقال: يَا شَقِيّ! وَسَوَسْتَ إِلَيَّ وَفَعَلْتَ!، فقال إبليس لآدم: يَا آدَمُ! هَبْ أَنِّي إِبْلِيسُكَ فَمَنْ كَانَ إِبْلِيسِي؟! .

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَ تَيْهَمَا﴾.

وفي ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمَا﴾ فلم يطلع على سواتهما غيرهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مَا تَهَنَّكُمَا رُبَّكُمَْا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكَيْنِ - لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام - ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما.

ويقال لَمَّا طَمَعَا فِي الْخُلُودِ وَقَعَا فِي الْخُمُودِ، ووقعَا فِي الْبَلَاءِ وَالْخَوْفِ؛ وَأَصْلُ كُلِّ مُحَنٍ الطَّمَعُ.

ويقال إذا كان الطمع في الجنة - وهي دار الخلود - أَوْجَبَ كُلَّ تِلْكَ الْمُحَنِ فَالطَّمَعُ فِي الدُّنْيَا - الَّتِي هِيَ دَارُ الْفَنَاءِ - مَتَى يَسْلَمْ صَاحِبُهُ مِنْ ذَلِكَ؟ وَيُقَالُ إِنْ يَكُونَا إِنَّمَا رَكْنَا إِلَى الْخُلُودِ فَلَا لِنَصِيبِ أَنْفُسِهِمَا، وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْبَقَاءِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا أَوْلَىٰ لِأَنَّهُ يُوجِبُ تَنْزِيهِه مَحَلَّ النُّبُوَّةِ. وَقِيلَ سَاعَاتُ الْوَصَالِ قَصِيرَةٌ وَأَيَّامُ الْفِرَاقِ طَوِيلَةٌ، فَمَا لَبِثَا فِي دَارِ الْوَصْلَةِ إِلَّا بَعْضًا مِنَ النَّهَارِ؛ دَخَلَا ضُحْوَةَ النَّهَارِ وَخَرَجَا نِصْفَ النَّهَارِ! وَيُقَالُ إِنْ الْفِرَاقَ عَيْنٌ تَصِيبُ أَهْلَ الْوَصْلَةِ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالَ قَائِلُهُمْ:

إِنْ تَكُنْ عَيْنٌ أَصَابَتْكَ فَمَا إِلَّا لَأَنَّ الْعَيْنَ تَصِيبُ الْحَسَنَاتِ
ويقال حين تَمُتَ لهما أسباب الوصلة، وَوَطَأَ نَفُوسُهُمَا عَلَى دَوَامِ الْبَرَّةِ بَدَا الْفِرَاقُ مِنْ مَكَامَتِهِ فَأَبَادَ مِنْ شَمْلِهِمَا مَا انْتَضَمَ، كَمَا قِيلَ:

حِينَ تَمَّ الْهَوَىٰ وَقَلْنَا سُرْرِنَا وَحَسِبْنَا مِنَ الْفِرَاقِ أَمْنًا
بَعَثَ الْبَيْنَ رُسْلَهُ فِي خَفَاءٍ فَأَبَادُوا مِنْ شَمْلِنَا مَا جَمَعْنَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَاسَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَيْنَ النَّاصِيحَاتِ فَدَلَّهُمَا بِمُرُورٍ﴾.

حُسْنُ ظَنِّ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَمَلَهُ عَلَى سَكُونِ قَلْبِهِ إِلَى يَمِينِ الْعَدُوِّ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْطُرُ بِيَالِهِ أَنْ يَكْذِبَ فِي يَمِينِهِ بِاللَّهِ، ثُمَّ لَمَّا بَانَ لَهُ أَنَّهُ دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ تَابَ إِلَى اللَّهِ بِصَدَقِ النَّدَمِ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ أَسَاءَ وَأَجْرَمَ، فَعَلِمَ - سَبَحَانَهُ - صِدْقَةَ فِيمَا نَدِمَ، فَتَدَارَكَهُ بِجَمِيلِ الْعَفْوِ وَالْكَرَمِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ .

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشير العقاب؛ وتَنَغَّصَ الحال، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق - سبحانه - شيئاً يبقيه عنه، فلا يكون له بما آثر استمتاع. وكذلك مَنْ أَدْخَرَ عن الله - سبحانه - نَفْسَهُ أو مَالَهُ أو شَيْئاً بوجهٍ من الوجوه - لا يبارك الله فيه، قال تعالى في صفة الأعداء: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الحج: ١١].

ويقال مَا بَدَتْ سَوَاتُهُمَا احتالاً في السُّتْرِ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة فبعدما كانت كسوتهما حُلُلَ الجنة ظُلا يستتران بورق الجنة، كما قيل:

لله دَرَاهِمُ مِنْ فِثْيَةٍ بَكُرُوا مثل الملوك، وراحوا كالمساكين
وأنشدوا:

لا تعجبوا لمذلتني فأنا الذي عَبَبْتُ الزمان بمهجتي فأذلّها
ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان في الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلها تتطاوّل وتأبى أن يأخذ آدم - عليه السلام - شيئاً من أوراقها. وقيل ذلك كان لا يلاحظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال:

وكانت - على الأيام - نفسي عزيزة فلمّا رأت صبري على الذلّ ذلّت
ولمّا أخرج آدم من الجنة وأُسْكِنَ الأرض كَلَّفَ العملَ والسعيَ والزرع والغرس، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدد بكاؤه، وجبريل - عليه السلام - يأتيه ويقول: أهذا الذي قيل لك: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨].

فَلَمْ تَعْرِفْ قدره. «فَذُقْ جزايا خِلافِكَ» فكان يسكن عن الجزع. ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل:

وجاءت إليّ النفسُ أوّلَ مرةٍ وزيدت عليّ مكروهاها فاستقرت
قوله جلّ ذكره: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

كانت لا تصل يده إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة - التي هي شجرة المحنة - لكان ذلك عنايةً بشأنه، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة، تنمّة للبلاء والفتنة، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر - إبلاغاً في القهر - لَمَّا خَالَفَ الأمر، وَلَمَّا حَصَلَ ما حَصَلَ.

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ : فكان ما دَاخَلَهُمَا من الخجل أشدّ من كل عقوبة؛ لأنهما لو كانا من الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة،

فلما ناداهما بالعتاب خَلَّ بهما من الخجل ما حلَّ، وفي معناه أنشدوا:

واخجلتا من وقوفي وَسَطَ دَارِهِمْ إِذْ قَالَ لِي مَغْضِبًا: مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلٌ؟
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغْفِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةٌ لَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.
اعترفا بالظلم جهراً، وعرفا الحكم في ذلك سراً؛ فقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ اعتراف بالظلم من حيث الشريعة، وعرفان بأن المدار على الحكم من حيث الحقيقة، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخلق طوى الشريعة، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فَقَدْ جَحَدَ الحقيقة، فلما أقرّا بالظلم قالوا: ﴿وَإِنْ لَنَا تَغْفِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةٌ لَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ نطقاً على عين التوحيد حيث لم يقولوا بظلمنا خسرنا، بل قالوا: فَعَلْنَا فَإِنْ لم تغفر لنا خسرنا، فَبِتَرَكِ غفرانك تخسر لارتكاب ظلمنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَهْطُوا بِعَصَاكُمْ لِيَقْضِ عَذَابٌ﴾.

أَهْطَطَهُمْ، ولكنه أهبط إبليس عن رتبته فوقع في اللعنة، وأهبط آدم عن بقعته فتداركته الرحمة.

ويقال لم يُخْرِجْ آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإن أُخْرِجَ عن دار الكرامة، فلذلك قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنِبْهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢] وأما إبليس - لعنة الله عليه - فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة؛ فلم ينتعش قط عن تلك السقطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ هذا عامٌ ﴿وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: أراد به إبليس على الخصوص.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

أخبر أنه يستقبلهم اختلاف الأحوال في الدنيا، ويتعاقب عليهم تفاوت الأطوار، فَمِنْ عُشِيرٍ ومن يُسَرِّ، ومن خير ومن شر، ومن حياة ومن موت، ومن ظَفَرٍ ومن قَوْتٍ... إلى غير ذلك من الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ فَذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تَكْوَمٍ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

سترناكم عن الأسباب الظاهرة، وبيّرنا لكم ما تدفعون به صنوف المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع.

ثم قال: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فإن اللباس الظاهر يقي آفات الدنيا، ولباس التقوى يصون عن الآفات التي توجب سخط المولى، ولباس التقوى بجميع أجزائه العبد وأعضائه. وللنفس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب، لباس من

التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . وللسر لباس من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاوان من الملاحظات .

ويقال تقوى العباد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفي مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره: ﴿يَبْنِيْٓ أَدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا﴾ .

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشك بين وسواس^(١) الشيطان وهاجس النفس، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطر وزواجر العلم مغمورة مقهورة - فعن قريب تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها، وينخرط في سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة^(٢)، فإذا لم يحصل تدارك بوشيك التوبة صارت الحالة قسوة في القلب، وإذا قسا القلب فارقت الحياة وتم له البلاء .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ يَرٰنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق - سبحانه - بقلبه، فيستغيث إليه من كيده، فيُدخله - سبحانه - في كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

استروحوا في التعلل إلى سلوكهم نهج أسلافهم، فاستمسكوا بحبل وإه فزلت بهم أقدام الغرور، وقعوا في هذه المحنة .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ .

القسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق نفسك؛ فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر من غير تقصير في الأمور به أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئاً مما حوّل، ثم لا تؤزر عليه شيئاً فيما

(١) الوسواس: (ج) وساوس، وهو الاسم من وسوس ويعني الشيطان، أو مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن، أو حديث النفس مما يخطر بالقلب من شر ومما لا خير فيه .

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٣ - ٨٥ في حديث القشيري عن الخواطر .

أحلّ لك . وأمّا العدل مع الخلق - فعلى لسان العلم - بذل الإنصاف، وعلى موجب الفتوة ترك الانتصاف . وأمّا العدل في حق نفسك فإدخال العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نفس .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ .
الإشارة منه إلى استدامة شهوده في كل حالة، وألا تنساه لحظة في كل ما تأتية وتذرّه وتقدمه وتؤخره .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ .

من كانت قِسمته - سبحانه - له بالسعادة كانت فطرته على السعادة، وكانت حالته بنعت السعادة، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد، قال رسول الله ﷺ: «من كان بحالة لقي الله بها» .

وجملة العلم بالقضاء والقدر أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون، وأراد أن يكون كما علم . وما عِلِمَ ألا يكون - مما جاز أن يكون أَرَادَهُ ألا يكون - أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذي أخبر، وقضى على العبد وقدر أجرى عليه ما سبق به الحكم، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْقَىٰ هَآدِمٌ يُدْأَىٰ وَيُنْتَكَرُ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ .
على لسان العلم: يجب ستر العورة في الصلاة، وعلى موجب الإشارة: زينة العبد بحضور الحضرة، ولزوم الشدة، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود؛ فالعبد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتان بين عبد وعبد!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ .
الإسراف ما تناولته لك ولو بقدر سمسة .

ويقال الإسراف هو التعدي عن حد الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظاً بأي وجه كان .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

الإشارة منها إلى زينة السرائر؛ فزينة العابدين آثار التوفيق، وزينة الواصلين أنوار

التحقيق، وزينة القاصدين ترك العادة، وزينة العابدين حسن العبادة.

ويقال زينة النفوس صدارُ الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة.

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر.

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود.

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلات من حيث المشاهدات.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي﴾ يعني إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها، فمن تصدى لطلبها فهي مباحة له من غير تأخير قصود. قوله جل ذكره: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى. ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾. ما ظهر منها الزُّلَّةُ، وما بطن منها الغفلة.

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة، وما بطن بإشارة الحقيقة.

ويقال لقوم ترك الرخص يكون علة، والأولى بهم والأفضل لهم الأخذ به. وقوم لو ركنوا إلى الرخص لقامت عليهم القيامة.

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة ولو بذرة أو سيئة.

ويقال فاحشة الأحباب الصبر على المحبوب^(١).

ويقال فاحشة الأحباب أن تبقى حياً وقد منيت بالفراق، قال قائلهم:

لا عيشَ بعد فراقهم هذا هو الخطب الأجل

ويقال فاحشة قوم أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق، قال قائلهم:

يا قُرَّةَ العين سلَّ عيني هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عيني؟

ويقال فاحشة قوم أن تبقى لهم قطرة من الدمع ولم يسكبوها للفرقة، أو يبقى لهم نفس لم يتنفسوا به في حسرة، وفي معناه أنشدوا:

لئن بقيت في العين مني دمة فإني إذًا في العاشقين دخيل

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١٧ - ٣٢٩.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْصِثُونَ﴾.

لكل قوم مدة مضروبة، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة؛ فلنعمة المُتَرْفِين مُدَّةٌ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشدة، ولمحنة المستضعفين مدة فإذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة.

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمة.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَى مَادَمٌ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَقِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزات الظنون، واحملوا الأمر على الجد فإننا - مع استغنائنا عن الأغيار، وتقدُّسنا عن المنافع والمضار - نطالب بالقليل والكثير، ونحاسب على النقيير والقطمير^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

مَنْ قَابَلَ ربوبيَّتنا بالجُحْدِ، وحكمتنا بالرد، لقي الهوان، وقاسى الآلام والأحزان، ثم العجز يلجئه إلى الخنوع، ولكن بعد ألا ينفع ولا يسمع.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَرْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آتِنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم، فمن جرى بسعادته الحكم وقع عليه رقم السعادة، ومن سبق بشقاوته الحكم حُقَّ عليه عِلْمُ الشقاوة.

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع في قعر اللَّطَى تداركته العناية وأخرجته الرحمة، وَمَنْ سَبَقَتْ لَهُ قِسْمَةُ الشقاوة.. فلو نزل الفراديس^(٢) تداركته السخطة وأخرجته اللعنة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ أُمَّةً أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا

(١) النقيير: النقطة في ظهر النواة كالثقبه فيها، ويضرب بها المثل في القلة.

القطمير: القشرة الرقيقة الملتفة على النواة أو الشيء الهين يضرب مثلاً للتافه القليل الشأن.

(٢) الفراديس: (ج) الفردوس: حديقة في الجنة (مذكر ومؤنث)، وفردوس النعيم: اسم الجنة.

فَقَاتِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَمْلِكُونَ وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَدُوهُنَّ مِنَ الْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٠﴾

آثار إعراض الحق عنهم أورثت لهم وحشة الوقت؛ تبرم بعضهم ببعض، وضاق كل واحد منهم عن كل شيء حتى عن نفسه، فدعا بعضهم على بعض، وتبرأ بعضهم من بعض، وكذلك صفة المطرودين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴿١١﴾

فلا دعاؤهم يُسمع، ولا بكاؤهم ينفع، ولا بلاؤهم يكشف، ولا عناؤهم يُزفع. قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ قُوَّتِهِمْ عَوَاشِرٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا فَتَدْتَسُّ بِالْغَفْلَةِ بَاطِنُهُمْ، وتَلَوَّتْ بِالزُّلَّةِ ظَاهِرُهُمْ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم؛ فَمَنْ فَوْقَهُمْ عَذَابٌ وَمَنْ تَحْتَهُمْ عَذَابٌ، وكذلك من جوانبهم في القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فَيَسِّرْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَاتِ بِحَسَنِ التَّوْفِيقِ، وَخَفَّفْنَا عَنْهُمْ الْعِبَادَاتِ بِتَقْلِيلِ التَّكْلِيفِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

طهرنا قلوبهم من كل غش، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة. وَظَهَّرَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ مِنْ كُلِّ حَظٍّ وَعِلَاقَةٍ، كما طَهَّرَ قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ عَنْ كُلِّ رَغْبَةٍ وَمُتْنِيَةٍ، وَطَهَّرَ قُلُوبَ الْعَابِدِينَ عَنْ كُلِّ تَهْمَةٍ وَشَهْوَةٍ، وَطَهَّرَ قُلُوبَ الْمُحِبِّينَ عَنْ مَحَبَّةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَعَنْ غِلِّ الصَّدْرِ - كل واحد على قدر رتبته.

ويقال لَمَّا خَلَقَ الْجَنَّةَ وَكُلَّ تَرْتِيبِهَا إِلَى رِضْوَانٍ، وَالْعَرْشَ وَلِي حِفْظِهِ إِلَى الْجَمَلَةِ، وَالْكَعْبَةَ سَلَّمَ مِفْتَاحَهَا إِلَى بَنِي شَيْبَةَ، وَأَمَّا تَطْهِيرُ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَوَلَّاهُ بِنَفْسِهِ.

وقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾.

ويقال إذا نزع الغل من الصدور مِنْ قَبْلِهِ فَلَا مَحَلَّ لِلْغَرَمِ الَّذِي لَزِمَهُمْ بِسَبَبِ الْخُصُومِ حَيْثُ كَانَ مِنْهُ سَبْحَانَهُ وَجْهٌ آدَاهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنُحْمَدَ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

في قولهم اعتراف منهم وإقرار بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطايات، وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تسكين لقلوبهم، وتطبيب لهم، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

اعترف أهل النار بحقيقة الدين، وأقروا بسوء ما عملوا، ولكن حين لم ينفعهم إقرار بحال من الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق؛ لما حُجِبُوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبُوا في الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة.

ويقال حجاب وأي حجاب! لا يُرْفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة.

حجاب سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرم.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾.

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم.

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب، وآخرون موسومون بأنوار الرد والحجب.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

سَلِّمُوا اليوم عن النكرة والجحود، وأكبرُوا بالعرفان والتوحيد.

وسلموا غداً من فنون الوعيد، وسعدُوا بلطائف المزيد. وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب ما لم يَسْمُ إليه طَرْفُ تأميلهم، ولم يُحِطُ بتفصيله كُنْهُ عقولهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْكَ أَمْحَبَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

إنما يصرف أبصارهم اليوم تقديرًا عليهم عظيم المنة التي بها نجاتهم، فيزيدون في الاستغاثة وصدق الابتهاء، فتكمل بهم العارفة بإدامة ما لطفهم به من الإيواء والحفظ.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِبًّا لَا يَذْكُرُهُمْ بِسْمِئِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ذلك ما يرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد، وهي مما لا يخفى على ذي عينين، فيقولون لهم: هل يغني عنكم ما ركنتم إليه من أباطيلكم، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم، وباطل تأويلكم؟ فشاهدوا - اليوم - تخصيص الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم، وانظروا هل يغني عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ﴾.

دلّت الآية على أن من أواخر ما يبقى على الإنسان الأكل والشرب؛ فإنهم في تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوع والعطش حتى يتضرعون كل ذلك التضرع؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم في غاية الآلام، والعادة - اليوم - أن من كان في ألم شديد لا يأكل ولا يشرب، وهذا شديد.

ثم أبصر كيف لا يسقيهم قطرة - مع استغناؤه عن تعذيبهم، وقدرته على أن يعطيه ما يريدون! ولكنه قهر الربوبية وعز الأحدثية، وأنه فعّال لما يريد. فكما لم يرزقهم - اليوم - من عرفانه ذرة، لا يسقيهم غداً في تلك الأحوال قطرة، وفي معناه أنشدوا:

وَأَقْسَمْنَ لَا يَسْقِينَنَا - الدهر - قطرة
ويقال إنما يطلبون الماء لبيكوا به بعدما نفدت دموعهم، وفي هذا المعنى قيل:
يَا نَازِحًا نَزَقْتَ دَمْعِي قَطِيعَتَهُ هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ
وفي هذا المعنى أنشدوا.

جرف البكاء دموع عينك فاستعز عينا لغيرك دمعها مدرار
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَار؟

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ﴾.

كما تركوا أمره وضيّعوه تركهم في العقوبة، ولا (....) (١) فيما يشكون، فتأتي عليهم الأحقاب، فلا كشف عذاب، ولا بَرْد شراب، ولا حسن جواب، ولا إكرام بخطاب. ذلك جزاء لِمَنْ يعرف قَدْرَ الوصلة في أوقات المهلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قبلوه بالتصديق وصاحبوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد، ونالوا لضياء بقرب الوداد، ووصلوا في الدنيا والعقبى إلى جميل المراد، ولكنه - سبحانه أبى القسمة في نصيبهم إلا الشفوة.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسِيتُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَيَّرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

إذا كُشِفَ جلال الغيب، وانتفت عن قلوبهم أغطية الرّيب، فلا بكاء لهم ينفع، ولا دعاء منهم يُسمع، ولا شكوى عنهم ترفع، ولا بلوى من دونهم تقطع.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْإِلَهَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تعرف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله، وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فشتان بين قوم وقوم!

ثم كما يدخل في الظاهر الليل على النهار والنهار على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض. ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب: فَمِنْ عِبَادِ أَحْوَالِهِ أَجْمَعِ قَبْضٌ، ومن عِبَادِ أَحْوَالِهِ أَجْمَعِ بَسْطٌ، ومن عبيد يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط كما أن بعض أقطار العالم فيها نهار بلا ليل، وفي بعضها ليل بلا نهار، وفي بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فمنه الخير والشر، والنفع والضرر، فإن له الخلق والأمر.

(١) بياض في الأصل.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ هذه الكلمة مجمع الدعاء الاشتمالها على إفادة معنى قَدَمِهِ ودوام ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء .

وأفادت معنى جلاله الذي هو استحقاقه لنعوت العِزِّ لأنه قد تبارك أي تعظم . وأشارت إلى إسداد النعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البركة هي الزيادة فهي مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .

الأمر بالدعاء إذن - في التسلي - لأرباب المحنة، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى رُوح المناجاة في حال الدعاء؛ والدعاء نزهة لأرباب الحوائج، وراحة لأصحاب المطالبات، ومعجل من الإنس بما (...)(١) إلى القلب عاجل التقريب. وما أخلص عبد من دعائه إلا رُوح - سبحانه - في الوقت قلبه .

ويقال علمهم آداب الدعاء حيث قال: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وهذا أدب الدعاء؛ أن يدعوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطراب. ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكك عن دعائه - الذي لا بد منه - اعتداء منك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

من الإفساد بعد الإصلاح إحمال النفس عن المجاهدات بخلع عذارها(٢) حتى تتبع هواها بعدما كَبَحَتْ لجأها مدةً عن العَدْوِ في ميدان الخلاف، ومن ذلك إرسال القلب في أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة، ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ومن ذلك استشعار محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بالألا تحب سواه، ومن ذلك الجنوح إلى تتبع الرخص في طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشق، ومن ذلك الانحطاط بِحَظٍّ إلى طلب مقام منه أو إكرام، بعد القيام معه بترك كل نصيب .

وفي الجملة: الرجوع من الأعلى إلى الأدنى إفساد في الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً، فالأول العابدون والثاني العاصون .

(١) بياض في الأصل .

(٢) العذار: يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهمك في الفتي ولم يستع منه واتبع هواه .

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربِّه ولا ناسياً لحقِّه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

ويقال المحسن الذي لم يخرج (. . .)^(١) عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ .

تباشير القرب تتقدم فيتأذى نسيْمُه إلى مشام الأسرار، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض في الباطن، فظلُّ الوحشة يتقدمها، ونسيم الوصلة بعدها، وفي قريب منه قال قائلهم:

ولقد تشمّنتُ القضاء لحاجتي فإذا له من راحتك نسيم
قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ يَلْدِ مِثْبَ قَائِلُنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبْرِخُ به الوجه ويُنحَلُ به الجسم، بل يُبْطِلُ كلَّ البعد، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً، ويصير دارس حاله عقيب السقوط ندياً، كما قال بعضهم:

كُنَّا كَمَنْ أُلْبِسَ أَكْفَانُهُ وَقُرْبُ النِّعَشِ مِنَ اللَّحْدِ
فَجَالَتْ الرُّوحُ فِي جِسْمِهِ وَرَدُّهُ الْوَصْلُ إِلَى الْمَوْلِدِ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ .

إذا زكا^(٢) الأصلُ نما الفرع، وإن خبُثَ الجوهر لم يَطْبُ ما تحلّل منه، وإن طاب العنصر فالجزء يحاكي أصله، والأسيرة تدل على السريرة، فَمَنْ صفا باطن قلبه زكا ظاهر فعله، ومن كان بالعكس فحاله بالضد .

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

بَلَّغَ الرسالة فلم ينبج فيهم ما أظهر من الآلاء، لأن محروم القسمة لا ينفعه مجهود الحيلة .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(٢) زكا: نما وزاد .

(١) بياض في الأصل .

قوله: ﴿لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾: نسبوا نوحاً - عليه السلام - إلى الضلالة، فتولّى إجابتهم بنفسه فقال ﴿يَقَوْمُ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾، ونبينا - ﷺ - نُسِبَ إليه فتولّى الحق - سبحانه - الردّ عنه فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] فشتان بين مَنْ دافع عن نفسه، وبين مَنْ دافع عنه ونفى عنه ربّه!

قوله جلّ ذكره: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. إني أعلم أنّي وإن بالغت في تبليغ الرسالة فمن سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحي، ولا يؤثّر فيه قلبي، فمن أسقطته القسمة لم تنعشه النصيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ أَنْتُمْ تُنذِرُونَ وَلْتَقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

عجبوا من كون شخص رسول الله، ولم يتعجبوا من كون الصنم شريكاً لله، هذا فزط الجهالة وغاية الغباء

قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾.

تسرّبوا غيباً^(١) التكذيب لما ذاقوا طعم العقوبة، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أملوه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِلَّا عَادِ آلَهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ آلُ الْإِثْمِ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِمْ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ أَنْتُمْ تُنذِرُونَ﴾.

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم، فوقعوا في هدّتهم، ومثّلوا بحالهم فلا خير فيمن أثر هواه على رضا الله، ولا ربح من قدّم هواه على حق الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

جعل الله الخلق بعضهم خلفاً عن بعض، فلا يُفني فوجاً منهم من جنس إلا أقام فوجاً منهم من ذلك الجنس. فأهل الغفلة إذا انقضوا خلف عنهم قوم، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم، ولا ينبغي للعبد أن يسمو طَرْفُ تأمله إلى الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله، فما لم تنته نوبة أولئك لا تنتهي النوبة إلى هؤلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾.

(١) تسرّب: لبس. الغيب: العاقبة.

كما زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق زاد قوماً على من تقدمهم في بسطة الخلق، وكما أوقع التفاوت بين شخص وشخص فيما يعود إلى المباني أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعاني.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التعماء عام، والآلاء خاص، فتلك تتضمن ترويح الظواهر، وهذه تتضمن التلويح في السرائر، تلك بالترويح بوجود المبار، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

طاحوا في أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً في ساحات التوحيد، فشق عليهم الإعراض عن الأغيار، وفي معناه قال قائلهم:

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام ويقال شخص لا يخرج من غش التفرقة، وشخص لا يحيد لحظة عن سنن التوحيد فهو لا يعبد إلا واحداً، وكما لا يعبد إلا واحد لا يشهد إلا واحداً، قال قائلهم:

لا يهتدي قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْجِدُونَنِي فَتَاسَمَوْا سَبَيْتُمُوهُمَا أَتَمَّ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾.

إذا أراد الله هوان عبده طَرَحَهُ في مفايزات التفرقة؛ وإن من علامات غضبه وإعراضه ردَّ العبد إلى شهود الأغيار، وتغريقه إياه في بحار الظنون، إذ لا تحصيل للأغيار في معنى الإثبات.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَجْنِبْنَاهُ وَالدِّينَ مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَلَّمُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة.

وأخبر - سبحانه - أنه نجى هوداً برحمته، وكذلك نجى الذين آمنوا معه برحمته، ليَعْلَمَ أَنَّ النجاة لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون بابتداء فضل من الله ورحمته؛ فما نجا من نجا إلا بفضل الحق سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عَبْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَابَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾

غايير الحق - سبحانه - بين الرسل من حيث الشرائع، وجمع بينهم في التوحيد؛ فالشرائع التي هي العبادات مختلفة، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد. ثم أخبر عن إمضاء سُنته تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام، وإمهال أُممهم ريثما ينظرون في معجزات الرسل.

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه في مقابلتهم الرسل بالكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله - فيما كان يقاسي من بلاء قومه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخِفُّونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنَحَّيُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أزاح علتهم في بسط الدلالة، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتهم. فلا الدليل تأملوه، والسبيل لازموه، ولا النعمة عرفوا قدرها، ولا المنة قدّموا شكرها، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَن ءَامَنَ مِنْهُمْ أَعْطَلْتُمْ أَنكُم صُلَحًا ثُمَّ رَسَلْنَا مِنْ رَبِّنَا قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّفَاةَ وَرَعَتْنَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا فَقَوْلَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَهْلَفْتُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ﴾.

أجرى الله - سبحانه - سُنته ألا يخصص بأفضاله، وجميل صنعه وإقباله - في الغالب من عباده - إلا مَنْ يسمو إليه طَرَفُهُ بالإجلال، وألا يوضح له قَدْرَهُ بين الأضراب والأشكال؛ فأنصار كل نبي إنما هم ضعفاء وقته، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام، ولا كما يعتقد فيهم الأنام، بل الجواهر مستورة في معادتها، وقيمة المَحَالِّ بساكنيها، قال قائلهم:

وما ضرَّ نصل السيف إخلاق غمده
إذا كان غَضْباً حيث وجهته وترا
وقال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره»^(١).

(١) هناك رواية أخرى للحديث «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له...» أخرجه الترمذي (مناب) (٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَبِرُونَ النَّصِيحِينَ﴾ الحيلة تدعو إلى وفاق الهوى؛ فتستثقل النفس قول الناصحين، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم الغائبون، قال قائلهم:

وكم سُقْتُ في آثارك من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح
قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ لَأَرْجَالُ شَهْوَةٍ مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظْهَرُونَ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا تُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَدِيرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أباح الحق - سبحانه - في الشرع ما أراح به العذر، فمن تخط هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه، واستوجب إذلاله، واستجلب - باختياره - صغره.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوُا غُفْرًا اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَاءَ هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

خسئت هم قوم شعيب فقنعوا بالتطفيف^(١) في المكيال والميزان عند معاملاتهم، ثم إن الحق - سبحانه - لم يسألهم في ذلك ليغلم أن الأقدار ليست من حيث الأخطار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

من المعاصي ما لا يكون لازماً لصاحبه وحده بل يكون متعدياً عنه إلى غيره. ثم يقدر الأثر في التعدي يحصل الضر للمبتدئ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَّرْكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

من عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشي الأمور ويحصل المراد. ويقال كما أن كل أمر بالأعوان والأنصار خيراً أو شراً، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار في الخير، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان في الشر.

(١) التطفيف: نقص المكيال أو البخس في المكيال والميزان.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي يَلِينًا قَالَ أُولُو كُنَا كَرِيمِينَ﴾.

كما أن (أهل) الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم، والأوحد في بابه من باين نهج أضرابه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا: ﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾، ثم أفررو بالشكر حيث قالوا: ﴿بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، ثم تبراوا عن حولهم وقوتهم حيث قالوا: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ يعني إن يلبسنا لباس الخذلان نرُدُّ إلى الصغر والهوان.

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي به وثقنا، ومنه الخير أَمَلْنَا.

ثم قوضوا أمورهم إلى الله فقالوا: ﴿رَبُّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ فتداركهم الحق - سبحانه - عند ذلك بجميل العِصْمة وحسن الكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا لِنُكْفِرَنَّ بِهِ وَإِنَّا لَنَخْلَعُونَ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾.

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيهم، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته، وكانوا مخطئين في حكمهم، مبطلين في ظنهم، فعلم أن كل نصيحة لا يجب قبولها، وكل إشارة لا يَحْسُنُ اتباعها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَيْئًا كَانَتْ لَهُمْ غُلَبَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ﴾، ولكن لما اندرست أيامهم سَقَطَ صِيَتُهُمْ، و (خمد) ذكرهم، وانقشع سحاب من تَوَهُم أن منهم شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شَيْئًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

الحق غالب في كل أمر، والباطل زاهق بكل وصف، وإذا كانت العِزَّةُ نعت من هو أزلُّ الوجود، وكان الجلال حق من هو المَلِكُ فأَيُّ أثر للكثرة مع القدرة؟ وأي خطر للعلل مع الأزل؟ ولقد أنشدوا في قريب من هذا:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحداً معذول
قوله جل ذكره: ﴿فَنُؤَلِّ عَنْهُمْ وَنَقُولُ وَقَالَ يَقْوِي لَقَدْ أَتَيْنَاهُمْ وَسَلَّيْتُ رِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آمَنَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُ رَاعَى حَدَّ الْأَمْرِ؛ فَإِذَا خَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ التَّكْلِيفِ فِي التَّبْلِيغِ فَمَا عَلَيْهِ مِنْ إِقْرَارِهِمْ أَوْ إِنْكَارِهِمْ، مِنْ تَوْحِيدِهِمْ أَوْ جُحُودِهِمْ؛ إِنْ أَحْسَنُوا فَالْمِيرَاثُ الْجَمِيلُ لَهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَالضَّرَرُ بِالتَّأَلُّمِ عَائِدٌ عَلَيْهِمْ، وَمَالِكُ الْأَعْيَانِ أَوْلَى بِهَا مِنَ الْأَغْيَارِ، فَالْخَلْقُ خَلَقَهُ وَالْمُلْكُ مُلْكُهُ؛ إِنْ شَاءَ هَدَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ أَغْوَاهُمْ، فَلَا تَأْسُفُ عَلَى نَفْسٍ وَفَقْدٍ، وَلَا أَثَرٍ مِنْ كَوْنٍ وَوُجُودٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَاهَانَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

حَرَّكَهُمْ بِالْبَلَاءِ الْأَهْوَنِ تَحْذِيرًا مِنَ الْبَلَاءِ الْأَصْعَبِ، فَإِذَا تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ، وَلَمْ يَنْتَبَهُوا مِنْ غَفْلَتِهِمْ مَدَّ عَلَيْهِمْ ظِلَالُ الْإِسْتِدْرَاجِ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ سَبَابِ التَّفْرِقَةِ مَكْرًا بِهِمْ فِي الْحَالِ، فَإِذَا وَطَّئُوا - عَلَى مَسَاعِدَةِ الدُّنْيَا - قُلُوبَهُمْ، وَرَكَنُوا إِلَى مَا سَوَّلَتْ لَهُمْ مِنْ امْتِدَادِهَا، أَبْرَزَ لَهُمْ مِنْ مَكَامِنِ التَّقْدِيرِ مَا تَغُصُّ عَلَيْهِمْ طَيْبُ الْحَيَاةِ، وَانْدَبَقَ بَغْتَةً عُتُقُ السُّرُورِ، وَشَرِّقُوا بِمَا كَانُوا يَنْهَلُونَ مِنْ كَاسَاتِ الْمُنَى، فَتَبَدَّلَ ضِيَاءُ نَهَارِهِمْ بِسُدُفَةِ الْوَحْشَةِ، وَتَكَدَّرَ صَافِي مَشْرِبِهِمْ بِيَدِ النُّوَابِثِ، كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْقِسْمَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَاتَّقَوْا الشِّرْكَ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِأَسْبَابِ الْعَطَاءِ - وَلَكِن سَبَقَ بِخِلَافِهِ الْقَضَاءُ - وَأَبْوَابُ الرِّضَاءِ، وَالرِّضَاءُ أَتَمُّ مِنَ الْعَطَاءِ. وَيُقَالُ لَيْسَتْ الْعِبْرَةُ بِالنِّعْمَةِ إِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْبَرَكَةِ فِي النِّعْمَةِ، وَلِذَا لَمْ يَقُلْ أَضَعَفْنَا لَهُمُ النِّعْمَةَ وَلَكِنه قَالَ: بَارَكْنَا لَهُمْ فِيمَا خَوَّلْنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

أَكْثَرُ مَا يَنْزِلُ الْبَلَاءُ يَنْزِلُ فَجَاءَةً عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهِ، وَيُقَالُ مَنْ حَذَرَ الْبَيَاتِ لَمْ يَجِدْ رُوْحَ الرُّقَادِ.

وَيُقَالُ رَبُّ لَيْلَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِالْفَرَحِ مُخْتَمَةٌ (بِالْتَّرَج). وَيُقَالُ رَبُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ شَمْسُهُ مِنْ أَوْجِ السَّعَادَةِ قَامَتْ ظَهِيرَتُهُ عَلَى قِيَامِ الْفِتْنَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

يُقَالُ مَنْ عَرَفَ عِلْوَ قَدْرِهِ - سَبَّحَانَهُ - خَشِيَ خَفْيَ مَكْرِهِ، وَمَنْ آمَنَ خَفْيَ مَكْرِهِ نَسِيَ عَظِيمَ قَدْرِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

أو لا يعلم المغترون بطول سترنا أن لو أردنا لعجلنا لهم الانتقام، أو بلغنا فيهم الاصطلام، ثم لا ينفعهم ندم، ولا يشكى عنهم ألم.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ الْأَفْئِدَةُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

سلخوا طريقاً واحداً في التمرد، واجتمعوا في خط واحد في الجحد والتبليد؛ فلا للإيمان جنحوا، ولا عن العدوان رجعوا، وكذلك صفة من سبقت بالشقاء قسمته، وحقت بالعذاب عليه كلمته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

نجم في الغدر طارقيهم، وأقل من سماء الوفاء شارقيهم، فعديم أكثرهم رعاية العهد، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد.

ويقال: شكا من أكثرهم إلى أقلهم، فالأكثر من ردتهم القسمة، والأقلون من قبلتهم الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأُوهُ فَقُلُومًا بِهَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

لما انقضت أيامهم، وتقاصر عن بساط الإجابة إقدامهم بعث موسى نبيه، وضم إليه هارون صفيه، فقويلا بالتكذيب والجحود، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرَعُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَقِيَّ إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

الرجوع إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعب شديد، ولكنه لما ورد الأمر قابله بحسن القبول، فلما ترك اختيار نفسه أيده الحق - سبحانه - بنور التأييد حتى شاهد فرعون محواً في التقدير فقال: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق؛ فالخلق محو فيما هو الوجود الأزلي فأي سلطان لآثار التفرقة في حقائق الجمع؟

قوله: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: من المعلوم أن مجرد الدعوى لا حجة فيه، ولكن إذا ظهر برهان لم يبق غير الانقياد لما هو الحق،

فَمَنْ اسْتَسْلِمَ (....) ^(١)، وَمَنْ جَحَدَ الْحَقَائِقَ بَعْدَ لَوْحِ الْبَيَانِ سَقَطَ سَقُوطاً لَا يَتَعَشَّى.
قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾.

إنما أظهر له المعجزة مِنْ عَصَاهُ لَطُولِ مِقَارِنَتِهِ إِيَّاهَا، فالإنسانُ إلى ما أَلْفَهُ أَسْكَنُ بقلبه. فلَمَّا رَأَى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحقيقه بأن ذلك من قهر الحقائق، وفي هذا إشارة إلى أَنَّ السكونَ إلى شيءٍ غِرَّةٌ وغفلةٌ أيش ما كان، فَإِنَّ تَقَلُّبَ الْعَبْدِ فِي قَبْضِ الْقُدْرَةِ، وهو في أَسْرِ التَقَلُّبِ، وليس للطمع في السكون مساعٌ بحال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَعَ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾.

العصا - وإن كانت معه من زمن - فَيَدُهُ أَخْصُ بِهِ لِأَنَّهَا عَضُو لَهُ، فكَاشَفَهُ أَوَّلًا بِرَسَمٍ مِنْ رَسْمِهِ ثُمَّ أَشْهَدَهُ مِنْ ذَاتِهِ فِي ذَاتِهِ مَا عَرَفَ أَنَّهُ أَوَّلَى بِهِ مِنْهُ، فلَمَّا رَأَى انْقِلَابَ وَصَفٍ فِي يَدِهِ عَلمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ بِيَدِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَإِذَا تَأَمَّرُوكَ﴾.

إذا أراد اللّه هوان عبدٍ لا يزيد الحقَّ حُجَّةً إلا ويزيد لذلك المُبْطِلَ فيه شبهةً؛ فكلُّما زاد موسى - عليه السلام - في إظهار المعجزات ازدادوا حيرةً في التأويلات.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا أَنِجْه وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾.

تَوَهَّمَتِ النَّاسُ أَنَّهُمْ بِالتَّأخِيرِ، وتقديم التدبير، وبذل الجهد والتشمير يُعَيِّرُونَ شَيْئاً مِنَ التَّقْدِيرِ بِالتَّقْدِيمِ أَوْ بِالتَّأخِيرِ، ولم يعلموا أَنَّ الْقَضَاءَ غَالِبٌ، وَأَنَّ الْحُكْمَ سَابِقٌ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم، والتسرع والحلم... كلا، بل هو الله الواحد القهار العلّام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

ظنوا أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ بما يسحرون، ولم يعلموا أَنَّ تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثير سحرهم، وأنه لا يرد عنهم ما زَوَّرُوهُ في أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكيد لهم، فهو كما قيل:

ورماني بأسهم صائب
وتعمدته بسهم فظاشا

فَبَيَّنَّا لَهُمْ فِي تَوْهُمَ أَنَّ الْغَلْبَةَ لَهُمْ فَتُخَّ عَلَيْهِمْ - مِنْ مَكَامِنَ الْقُدْرَةِ - جَيْشٌ، فَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ - فِي فَتْحِ الْقُدْرَةِ - مَقْهُورِينَ بِسَيْفِ الْمَشِئَةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَافِيلَ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

مَوْهُوا بِسِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ غَلِبُوا، فَأَدْخَلَ اللَّهُ - سَبْحَانَهُ - عَلَى تَمْوِيهَاتِهِمْ قَهَرَ الْحَقِّ، وَطَاشَتْ تِلْكَ الْحَيْلُ، وَخَابَ مِنْهُمْ الْأَمَلُ، وَجَذَبَ الْحَقُّ - سَبْحَانَهُ - أَسْرَارَهُمْ عَلَى الْوَهْلَةِ فَأَصْبَحُوا فِي صَدْرِ الْعَدَاوَةِ، وَكَانُوا - فِي التَّحْقِيقِ - مِنْ أَهْلِ الْوُدِّ. فَسَبْحَانَ مَنْ يُبْرِزُ الْعَدُوَّ فِي نَعْتِ الْوَلِيِّ؛ ثُمَّ يَقْلِبُ الْكِتَابَ وَيُظْهِرُ الْوَلِيَّ فِي نَعْتِ الْعَدُوِّ، ثُمَّ يَأْبَى الْحَالَ إِلَّا حَصُولَ الْمَقْضِيِّ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِمُوسَىٰ قَبْلَ أَنْ ءَاْدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

خَاطَبَهُمْ مَعْتَقِدًا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا^(١)، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَسْرَارَ قَدْ خَرَجَتْ عَنْ رِقِّ الْأَشْكَالِ، وَأَنَّ قُلُوبَهُمْ طَهَّرَتْ عَنْ تَوْهُمِ التَّفَرُّقَةِ، وَأَنَّ شَمْسَ الْعُرْفَانِ طَلَعَتْ فِي سَمَاءِ أَسْرَارِهِمْ، فَأَشْهَدُوا الْحَقَّ بِنَظَرٍ صَحِيحٍ، وَلَمْ يَبْقَ لِتَخَوُّيْفَاتِ النَّفْسِ فِيهِمْ سُلْطَانٌ، وَلَا لَشَيْءٍ مِنَ الْعِلَلِ بَيْنَهُمْ مَسَاغٌ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

لَمَّا كَانَ مَصِيرُهُمْ إِلَى اللَّهِ سَهْلًا عَلَيْهِمْ مَا لَقُوا فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَاْمَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾.

لَمَّا عَمِلُوا لِلَّهِ، وَأَوْدَعُوا فِي اللَّهِ، صَدَقُوا الْقَصْدَ إِلَى اللَّهِ، وَطَلَبُوا الْمَعُونَةَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ، كَذَا سُئِلَ مَنْ كَانَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ كُلُّهُ عَلَى اللَّهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْرِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقْلِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

لَمَّا اسْتَزَادُوا مِنْ فِرْعَوْنَ فِي التَّمَكِينِ مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ اسْتَنْكَفَ أَنْ يَقْرَءَ بِعَجْزِهِ، وَيَعْتَرِفَ بِقُصُورِ قُدْرَتِهِ، فَتَوَعَّدَ مُوسَى وَقَوْمَهُ بِمَا عَكَسَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَدْبِيرَهُ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ تَقْدِيرُهُ.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١٧.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أحالهم على الله فإن رجوعه إليه، فقال لهم: إن رجوعي - عند تحيري في أموري - إلى ربي، فليكن رجوعكم إليه، وتوكلكم عليه، وتعرضوا لنفحات يسره، فإنه حكّم لأهل الصبر بجميل العقبى.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَنَسْتَنْزِلَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

خفي عليهم شهود الحقيقة، وغشي على أبصارهم حتى قالوا توالى علينا البلاء؛ ففي حالك بلاء، وقبلك شقاء.. فما الفضل؟ فأجابهم موسى - عليه السلام - بما علق رجاءهم بكشف البلاء فقال: ﴿عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ﴾ فوقفهم على الانتظار. ومن شهد بصر الأسراء شهد تصاريफ الأقدار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعْلَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

شدّد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة، فلا الوطأة أصلحتهم شدتها ولا النعمة نبهتهم كثرتها، لا بل إن مسهم يسرّ لاحظوه بعين الاستحقاق، وإن مسهم عسر حملوه على التطيّر بموسى - عليه السلام - بمقتضى الاغترار.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ سَيَأْتِيُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾.

الكفور لا يرى فضل المنعم؛ فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق، ثم إذا اتصل بشيء مما يكرهه تجنّى وحمل الأمر على ما يتمنى:

وكذا الملول إذا أراد قطيعة ملّ الوصال وقال كان وكان

إن الكريم إذا حبّاك بوّده ستر القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مسدودة، وأفهامهم عن إدراك المعاني مردودة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

جعلوا الإصرار على الاستكبار شعارهم، وهتكوا بألسنتهم - في العتو - أستارهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۖ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ .

جَسَسَ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَاتِ لَمَّا نَوَّعُوا وَجَنَسُوا فَنَوْنَ الْمُخَالَفَاتِ، فلا إلى التكفير عادوا، ولا إلى التطهير تصدوا، وعوقبوا بِصَرْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَقَائِقِ وَذَلِكَ أَبْلَغُ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ .

لم يقولوا ادع لنا ربنا، بل ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبُّكَ﴾ فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنيبة .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ فَأَنصَبْنَا لَهُمُ الْمُغْرَقَتِمْ فِي أَلِيمٍ يَأْتِيهِمْ كَذْبًا يَتَّيِنُنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ .

أبرزوا العهد ثم نقضوه، وقدموا العهد ثم رفضوه، وكما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه^(١)

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا ۚ آلَتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكَمَتَ كَمَتُ رَبِّكَ ۚ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ .

مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ مِقَاسَةِ الذُّلِّ فِي اللَّهِ وَضَعَ اللَّهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةً^(٣) العرفان، فهو العزيز سبحانه، لا يُشْمِتُ بِأَوْلِيَائِهِ أَعْدَاءَهُمْ، ولا يَضِيعُ مِنْ جَمِيلِ عَهْدِهِ جَزَاءَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمُكِّنُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ ۖ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ۚ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ ۖ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ۚ﴾ .

لم تَخْلُصْ فِي قُلُوبِهِمْ حَقَائِقُ التَّوْحِيدِ فَتَأَقَّتْ نَفُوسُهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، حتى قالوا لِنَبِيِّهِمْ مُوسَى - عليه السلام -: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبه من إثبات الأشغال والأعلال، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال .

(١) ارعوى عن القبيح والجهل ارعوا: كف عنه ورجع .

(٢) الرمس: القبر أو ترابه (ج) أرماس ورموس .

(٣) القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال (ج) قلانس .

ويقال مَنْ ابْتغى بالصنم أن يكون معبوده متى يُتَوَهَّم في وصفه أَنْ يُخْلِصَ إِلَى اللَّهِ قَصُودَهُ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَعْبَدُوا اللَّهَ أَفَبِعَيْنِكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.
ذَكَرَهُمْ انْفِرَادَهُ - سُبْحَانَهُ - بِإِنْشَائِهِمْ وَإِبْدَاعِهِمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِبْدَاعِ، وَتَبَهُهُمُ أَيْضاً عَلَى عَظِيمِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَيْسَ حَقٌّ إِيْتِمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ مَقَابِلَتَهُمْ بِإِيَّاهَا بِالتَّوَلَّى لغيره والعبادة لِمَنْ سِوَاهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَجَبْتَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبَنَاءَ كُمْ وَنَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

ما ازداد موسى - عليه السلام - في تعديد إناعام الله عليهم، وتنبههم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً، ويُغَدُّ بِالْقُلُوبِ - عن محل العرفان - على بُغْدٍ، وهذه أَمَارَةٌ من بلاء - سُبْحَانَهُ - في السابق بالقطع والرد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَزْبَحِينَ لَيْلَةً﴾.

عِدَّةُ الْأَحْبَابِ عَزِيزَةٌ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَوَاعِدَةُ بَيْنَ الْأَحْبَابِ، فَهِيَ عَذْبَةٌ حُلْوَةٌ كَيْفَمَا كَانَتْ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى أُنْشِدُوا:

أَمَطَلِينَا وَسَوْفِي وَعِدِينَا وَلَا تَفِي^(١)
ويقال عَلَّلَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - مُوسَى بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُ بِأَنْ يُسْمِعَهُ مَرَّةً أُخْرَى كَلَامَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ابْتَلَاهُ بِالْإِسْمَاعِ مِنْ غَيْرِ وَعَدٍ، فَلَا انْتِظَارَ وَلَا تَوَقُّعَ وَلَا أَمَلٍ، فَأَخَذَ سَمَاعُ الْخَطَّابِ بِمَجَامِعِ قَلْبِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَعَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمِيقَاتِ الْمَعْلُومِ لِيَكُونَ تَأْمِيلُهُ تَعْلِيلًا لَهُ، ثُمَّ إِنْ وَعَدَ الْحَقُّ لَا يَكُونُ إِلَّا صَدَقًا، فَاطْمَأَنَّ قَلْبُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِلْمِيعَادِ، ثُمَّ لَمَّا مَضَتْ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً أَتَى كَمَا سَلَفَ الْوَعْدُ فَزَادَ لَهُ عَشْرًا فِي الْمَوْعِدِ. وَالْمَطْلُ فِي الْإِنْجَازِ غَيْرُ مُحْبُوبٍ إِلَّا فِي سُنَّةِ الْأَحْبَابِ، فَإِنَّ الْمَطْلَ عِنْدَهُمْ أَشْهَى مِنَ الْإِنْجَازِ، وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أُنْشِدُوا:

أَقِمْ لِعَمْرِكَ لَا تَهْجِرِنَا وَمَثِينَا الْمُنَى، ثُمَّ امْطَلِينَا
عِدِينَا مَوْعِدًا مَا شِئْتَ إِنَّا نَحِبُّ وَإِنْ مَطَلْتَ تَوَاعِدِينَا
فَإِمَّا تَنْجِزِي وَعَدَكَ أَوْ فَإِنَّا نَعِيشُ نَوْمِلُ فَيْكَ حِينَا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

(١) مطله: أجل موعد الوفاء به مرة بعد أخرى. التسويف: المطل والتأخير.

كان هارون - عليه السلام - حمولاً بحسن الخلق؛ لما كان المرور إلى فرعون استصحب موسى - عليه السلام - هارون، فقال الله - سبحانه - : ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه : ٣٢] بعد ما قال : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص : ٣٤] . ولما كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه، فقال : ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي﴾ وهذا غاية الحُمل من هارون ونهاية التصبر والرضا، فلم يَقُلْ : لا أقيم في قومك . ولم يقل : هلاً تحمِلني مع نفسك كما استصحبتني حال المرور إلى فرعون؟ بل صبر ورضي بما لزم، وهذه من شديديات بلاء الأحباب، وفي قريب منه أنشدوا :

قال لي من أحب والبين قد حلّ وفاقاً لفرعتي وشهيتي
ما تُرى في الطريق تصنع بعدي قلت : أبكي عليك طول الطريق
ثم إن موسى لما رجع من سماع الخطاب، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العجل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون - عليه السلام - في الخطاب، فقال : ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِطَبَاقِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه : ٩٤] .

ويقال لو قال هارون - عليه السلام : إن لم تعوضني عما فاتني من الصحبة فلا تعاتبني فيما لم أذنب فيه بحال ذرة ولا حبة . . لكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنبُ كان من بني إسرائيل، والعتاب جرى مع هارون، وكذا الحديث والقصة، فما كلُّ مَنْ عصى وجنى استوجب العتاب، فالعتابُ ممنوعٌ عن الأجانب .

قوله جلّ ذكره : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا﴾ .

جاء موسى مجيء المشتاقين مجيء المهيّمين، جاء موسى بلا موسى، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شيء لموسى . آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى﴾ .

ويقال لما جاء موسى لميقات باسط الحق - سبحانه - سقط بسماع الخطاب، فلم يتمالك حتى قال : ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ، فَإِنْ غَلَبَاتِ الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود، وكذا قالوا :

وأبرح ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دثت الخيامُ من الخيام
ويقال صار موسى - عليه السلام - عند سماع الخطاب بعين الشكر فنطق ما نطق، والسكران لا يؤخذ بقوله، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّمَاعِ فخرج لسانه عن طاعته جرياً على مقتضى ما صاحبه مِنَ الْأَزِيحَةِ وَبَسَطِ الْوَصْلَةَ.

ويقال جمع موسى - عليه السلام - كلمات كثيرة يتكلم بها في تلك الحالة؛ فإن في القصص أنه كان يتحمل في أيام الوعد كلمات الحق، ويقول لمعارفه: ألكم حاجة إلى الله؟ ألكم كلام معه؟ فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته.

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر - مما دبره في نفسه، وتحمله من قومه، وجمعه في قلبه - شيئاً ولا حرفاً، بل نطق بما صار في الوقت غالباً على قلبه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ وفي معناه أنشدوا:

فيا ليل كم من حاجة لي مهمة إذا جئتكم ليلى فلم أدر ما هي

ويقال أشدُّ الخَلْقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب؛ هذا موسى عليه السلام، وكان عريق الوصلة، واقفاً في محل المناجاة، محدقة به سجوف التولي، غالبية عليه بوادهُ الوجود، ثم في عين ذلك كان يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ كأنه غائب عن الحقيقة. ولكن ما ازداد القومُ شرباً إلا ازدادوا عطشاً، ولا ازدادوا تيمناً إلا ازدادوا شوقاً، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال، والحق - سبحانه - يصون أسرار أصفياه عن مداخلة الملal.

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولا أقل من نظرة - والعبد قتيل هذه القصة - فقول بالرد، وقيل له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ وكذا قهر الأجباب ولذا قال قائلهم:

جَوْرُ الهوى أحسن من عَذْلِهِ وبخله أظرف من بذله

ويقال لما صرَّح بسؤال الرؤية، وجهر صريحاً رُدُّ صريحاً ف قيل له: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، ولما قال نبينا - ﷺ - بِسِرِّهِ في هذا الباب، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْسَكَ بِقَلْبَةٍ رَضَمَهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] فردّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعز من أن يطمح إلى شهوده - اليوم - طَرْفَ، بل الألاحظ مصروفة موقوفة - اليوم - على الأغيار.

ويقال لما سَمَتِ هُمَّتُهُ إلى أسنى المطالب - وهي الرؤية - قول «بَلَنْ»، ولما رجع إلى الخلق وقال للخضر ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] فقابله بلن، فصار الرد موقوفاً على موسى - عليه السلام من الحق ومن الخلق، ليكون موسى بلا موسى،

ويكون موسى صافياً عن كل نصيب لموسى من موسى، وفي قريب منه أنشدوا:

(.....) ^(١) نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فينا ينشق ^(٢)

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فأجيب بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفرق. فزع موسى حتى خرَّ صعقاً ^(٣)، والجبل صار دكاً. ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القلب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية، ويكون الحق - بعد امتحاء معالم موسى - خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى، فعلى الحقيقة: شهود الحقائق بالحق أتم من بقاء الخلق بالخلق، كذا قال قائلهم:

ولوجهها من وجهها قمرٌ ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذي ورد على موسى بقوله: ﴿إِنْ أَسْقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أتم وأعظم منه قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ لأن ذلك صريخ في الرد، وفي اليأس راحة. لكنه لما قال فسوف أطمعه فيما منعه فلما اشتد موقفه جعل الجبل دكاً، وكان قادراً على إمساك الجبل، لكنه قهر الأحابب الذي به جَرَتْ سُنَّتُهُمْ.

ويقال في قوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ بلاء شديد لموسى لأنه نُفِيَ عن رؤية مقصوده ومُنِيَ برؤية الجبل، ولو أذن له أَنْ يُغْمِضَ جَفَنَهُ فلا ينظر إلى شيء بعدما بقي عن مراده من رؤيته لكان الأمر أسهل عليه، ولكنه قال له: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾.

ثم أشد من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجَلِّيَ؛ فالجبل رآه وموسى لم يَرَهُ، ثم أَمَرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذي قدم عليه في هذا السؤال، وهذا - والله - لصعب شديد!! ولكن موسى لم ينازع، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرك لا أنظر إلى غيرك بل قال: لا أرفع بصري عما أمرتني بأن أنظر إليه، وفي معناه أنشدوا:

أريدُ وصالَه ويريد هجري فأترك ما أريد لما يسريد

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ تداركه قلب موسى - عليه السلام - حيث لم يترك على صريح الرد بل علله برفق كما قيل:

فذريني أفني قليلاً قليلاً

(١) بياض في الأصل.

(٢) الغراب: جنس طير من الجواثم. يطلق على أنواع كثيرة، منها الأسود. والعرب يتشاءمون به إذا نعت قبل الرحيل، ويسمون غراب البين، ويضرب به المثل في السواد والبكور والحذر والبعد.

(٣) أي غشي عليه.

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال: ﴿تَبَّتْ
إِلَيْكَ﴾ يعني إن لم تكن الرؤية هي غايه المرتبة فلا أقل من التوبة، فَقَبِلْهُ - تعالى -
لسمو همته إلى الرتبة العلية.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾.

هذه إناخة بعقوة العبودية، وشرط الإنصاف ألا تبرح محلّ الخدمة وإن حيل
بينك وبين وجود القربة؛ لأن القربة حظّ نفسك، والخدمة حقّ ربك، وهي تتم بألا
تكون بحظ نفسك.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ
وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

هذا الخطاب لِنَدَارِكِ قلب موسى - عليه السلام - بكل هذا الرفق، كأنه قال: يا
موسى، إني منعتك عن شيء واحد وهو الرؤية، ولكنني خصصتك بكثير من الفضائل؛
اصطفيتك بالرسالة، وأكرمك بشرف الحالة، فاشكر هذه الجملة، واعرف هذه
النعمة، وكن من الشاكرين، ولا تتعرض لمقام الشكوى، وفي معناه أشدوا:

إِنْ أَعْرَضُوا فَهُمْ الَّذِينَ تَعَطَّفُوا وَإِنْ جَنَوْا فَاصْبِرْ لَهُمْ إِنْ أَخْلَفُوا
وفي قوله سبحانه: ﴿وَكَنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إشارة لطيفة كأنه قال: لا تكن من
الشاكرين، أي إِنْ منعَكَ عن سؤْلِكَ، ولم أعطِكَ مطلوبَكَ فلا تَشْكُنِي إذا انصرفت.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ﴾.

وفي الأثر: أن موسى عليه السلام كان يسمع صرير القلم، وفي هذا نوع لطف
لأنه إِنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد علله بالأثر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَذَاهَا بِقُوَّةٍ﴾.

فيه إشارة إلى أن الأخذ يُشير إلى غاية القرب، والمراد ها هنا صفاء الحال، لأن
قرب المكان لا يَصْغُ على الله سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمْرَ قَوْمِكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

فَرَّقَ بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ،
أَخَذَ موسى عليه السلام من الحق على وجه من تحقيق الزلقة وتأكيد الوصلة، وَأَخَذَهُمْ
أخذ قبول من حيث التزام الطاعة، وشتان ما هما!.

قوله: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ بمعنى بِحُسْنِهَا، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة

يعني: بأحسنها ألا تعرج على تأويل وارجع إلى الأولى^(١).

قوله جل ذكره: ﴿سَأُزِيكُ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

يعني عليها غبرة العقوبة، خاوية على عروشها، ساقطة على سقفوها، منهة بنيانها، عليها قتره العقاب.

والإشارة من دار الفاسقين إلى النفوس المتابعة للشهوات، والقلوب التي هي معادن المني وفساد الخطرات، فإن الفسق يوجب خراب المحل الذي يجري فيه؛ فمن جرى على نفسه فسق خربت نفسه. وآية خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات، فكما تعطل المنازل عن قاطناتها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصي فتنتفي عنها لوازم الطاعات ومعتادها، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة، حتى لو خير بين ركعتي صلاة وبين مقاساة كثير من المشاق أثر تحمل المشاق على الطاعة.. وعلى هذا النحو ظلم القلوب وفسادها في إيجاب خراب محالها.

قوله جل ذكره: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾.

سأخرم المتكبرين بركات الاتباع حتى لا يقابلوا الآيات التي يكشفون بها بالقبول، ولا يسمعوها ما يخاطبون به بسمع الإيمان.

والتكبر جحد الحق - على لسان العلم، فمن جحد حقائق الحق فجحدته تكبره واعتراضه على التقدير مما يتحقق جحدته في القلب.

ويقال التكبر توهم استحقاق الحق لك.

ويقال من رأى لنفسه قيمة في الدنيا والآخرة فهو متكبر.

ويقال من ظن أن شيئاً منه أو له أو إليه - من النفي والإثبات - إلا على وجه الاكتساب فهو متكبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ السَّيِّئِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تبين بهذا أنه لا يكفي شهود الحق حقاً وشهود الباطل باطلاً بل لا بد من شهود الحق من وجود التوفيق للحق، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل.

(١) هنا يلمح إلى موضوع الرخص (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٨٠ - ٣٨١).

ويقال إِنَّ الْجَا حِدَ لِلْحَقِّ - مع تحقّقه به - أَقْبَحُ حَالَةً مِنَ الْجَاهِلِ بِهِ الْمُقْصِرِ فِي تَعْرِيفِهِ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيفَتِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمُ خُورًا﴾ .

لَمْ يُطَهَّرْ قُلُوبُهُمْ - في ابتداء أحوالهم - عن توهم الظنون، ولم يتحقّقوا بخصائص القِدَمِ وشروط الحدوث، فعثرت أقدام فكرهم في وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجَلِ . أن يكونَ معبودَهُم متى تشم أسرارَهُم نسيَمَ التوحيد؟ هيهات لا! لا ولا مَنْ لاحظَ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثرى، أو الجنَّ أو الورى . وإنَّ مَنْ لَحِقَهُ ذَلِكَ أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان، أو صَحَّ في التجويز أن ترتقي إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية .

ويقال شَتَانُ بَيْنَ أمةٍ وأمةٍ! أمةٌ خرجَ نبيُّهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجْلَ، وأمةٌ خرجَ نبيُّهم - عليه السلام - من بينهم وأتى نيف وأربعمئة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشمس والأكمار أو شيئاً من الرسوم والإطلال تستحق الإلهية أحرفوه بهمهم .

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما في معناه، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَانَّةُ الأجرام الصلبة، والتوحيد الأزلي ينافي هذه الجملة .

ويقال أَجْهَلُ بِقَوْمٍ آمَنُوا بِأن يكونَ مصنوعُهُم معبودَهُم! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء - فأَيُّ عقلٍ يَقِرُّ مثل هذا التلبس؟!

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ .

جعل من استحقاقه نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت بأن متكلِّمٌ في حقائق أزاله، وأنه متفردٌ بهداية العبد لا هاديٍّ سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق - سبحانه - وتكليمه مع العبد، وإنَّ الملوك إذا جَلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم:

وما عَجَبٌ تناسيَ ذِكْرِ عَبْدٍ على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ
وبخلاف هذا أجرى الحق - سنَّته مع عباده المؤمنين، أما الأعداء فيقول لهم:
﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وأما المؤمنون فقال ﷺ: «ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان»^(١)، وأنشدوا في معناه .

(١) هناك رواية أخرى للحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان يوم القيامة» . =

وما تزدهينا الكبرياء عليهم إذا كلّمونا أن نكلّمهم مرّداً
قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ
جِثًّا مِثْلَهُ مِدادًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَفَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا
وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرّعوا كاسات الأسف ندماً، واعترفوا بأنهم خسروا
إن لم يتداركهم من الله جميل لطفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَيْفًا قَالَ يَبَسَ مَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي
أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

لو وجد موسى قومه بألف ألف وفاق لكان متنغص العيش لِمَا مني به من حرمان
سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار.. فكيف وقد وجد قومه قد ضلّوا وعبدوا
العجل؟ ولا يُدْزِي أيّ المحن كانت أشدّ على موسى:

أفقدان سماع الخطاب؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية؟ أو ما شاهد من افتنان بني
إسرائيل، واستيلاء الشهوة على قلوبهم في عبادة العجل؟ سبحان الله! ما أشدّ بلاءه
على أوليائه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ
اسْتَفْضَعْتُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

إن موسى عليه السلام وإن كان سَمِعَ من الله فتنّ قومه فإنه لما شاهدَهُم أثرت
فيه المشاهدة بما لم يؤثر فيه السماع، وإن عَلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة
تأثيراً آخر.

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارون في الخطاب.

فقال: ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ [طه: ٩٤] فَذَكَرَ الْأُمَّ هُنا للاسترفاق والاسترحام.

= أخرجه مسلم في الصحيح (الزكاة ٦٨، ٦٨ مكرر)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٧٧/٤) والبيهقي
في (السنن الكبرى ١٧٦/٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١٠/٢)، والطبراني في (المعجم
الكبير ٨٢/١٧)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢٦٩/١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣٥٥/١)،
والمفتي الهندي في (كتر العمال ١٥٩٤٢)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٤٣٣/١)، والبيهقي
في (الأنساب والصفات ٢١٨).

وكذلك قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: ٩٤] يريد بهذا أنه قد توالى المحن علي فذرني وما أنا فيه، ولا تزد في بلائي، خلفتني فيهم فلم يستنصحنوني. وتلك علي شديدة. ولقيت بغدك منهم ما ساءني، ولقد علمت أنها كانت علي عظمة كبيرة، وحين رجعت أخذت في عتابي وجر رأسي وقصدت ضربي، وكنت أود منك تسليتي وتعزيتي. فرفقا بي ولا تُشمت بي الأعداء، ولا تضاعف علي البلاء.

وعند ذلك رُق له موسى - عليه السلام، ورجع إلى الابتهاال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد في عموم الأحوال، والتحقيق بأن له - سبحانه - تعذيب البريء؛ إذ الخلق كُلُّهم مَلَكُه، وتَصَرَّفُ المالك في مَلَكه نافذ.

ويقال: ارتكاب الذنب كان من بني إسرائيل، والاعتذار كان من موسى وهارون عليهما السلام، وكذا الشرط في باب خلوص العبودية.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

يعني إن الذين اتخذوا العجل معبوداً سَيَنَالُهُمْ في مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم. والسين في قوله «سَيَنَالُهُمْ» للاستقبال، وَمَنْ لا يضره عصيان العاصين لا يبالي بتأخير العقوبة عن الحال، وَفَرَّقَ بين الإمهال والإهمال، والحق - سبحانه - يمهل ولكنه لا يهمل، ولا ينبغي لِمَنْ يذنب ثم لا يُؤَاخِذُ في الحال أَنْ يَغْتَرَّ بالإمهال. قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَصَفَّهُم بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها، ثم قال: ﴿مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. والإيمان الذي هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يضره عصيان، أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله، أو آمنوا أي عَدُوا ما سبق منهم من نقض العهد شِزْكَاً.

ويقال استداموا للإيمان فكان موافاتهم على الإيمان.

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَصْفُ أَخَذَ أَلْأَلْوَابَ وَفِي نُفُسِهِمْ هُمُومٌ وَلَئِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

تشير إلى حسن إمهاله - سبحانه - للعبد إذا تَغَيَّرَ عن حد التمييز، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردّه من بواده الغيب.

وإذا كانت حالة الأنبياء - عليهم السلام - أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بمن دونهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ .

شأن بين أمة وأمة؛ أمة يختارهم نبئهم - عليه السلام، وبين أمة اختارها الحق - سبحانه، فقال: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِي عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] .

الذين اختارهم موسى قالوا: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] والذين اختارهم الحق - سبحانه - قال الله تعالى فيهم: ﴿وَجُودٌ بِوَمِيزٍ قَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] .

ويقال إن موسى - عليه السلام - جاهر الحق - سبحانه - بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ثم وكل الحكم إليه فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ ثم عقبها ببيان التضرع فقال: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾، ولقد قدم الشاء على هذا الدعاء فقال: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿رَأَيْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ .

نطق بلسان التضرع والابتهاال حيث صُنِّيَ إليه الحاجة، وأخلص له في السؤال فقال: ﴿رَأَيْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي اهدنا إليك .

وفي هذه إشارة إلى تخصيص نبينا - ﷺ - في التبري من الحول والقوة والرجوع إلى الحق لأن موسى - عليه السلام قال: ﴿رَأَيْتُ لَنَا فِي...﴾ ونبينا ﷺ قال: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»^(١) ولا أقل من ذلك، وقال: «واكفلني كفالة الوليد» ثم زاد في ذلك حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك»^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ﴾ .

أي ملنا إلى دينك، وصيرنا لك بالكلية، في غير أن نترك لأنفسنا بقية .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

وفي هذا لطيفة؛ حيث لم يقل: عذابي لا أخلي منه أحداً، بل علَّقه على المشيئة . وفيه أيضاً إشارة؛ أن أفعاله - سبحانه - غير مُعَلَّلة بأكساب الخلق؛ لأنه لم

(١) أخرجه صاحب (الجامع الكبير المخطوط الجزء الثاني ٧٠٣/٢) .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٥٨/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧١/٢) .

يقول: عذابي أصيب به العصاة بل قال: ﴿مَنْ أَشَاءَ﴾؛ وفي ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال: ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءَ﴾ فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك، وإلا لم يكن حينئذ مختاراً.

ثم لما انتهى إلى الرحمة قال: ﴿وَرَحِمْنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لم يعلقها بالمشيئة؛ لأنها نفس المشيئة ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم. فلما كان العذاب من صفات الفعل علقه بالمشيئة، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات.

ويقال في قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ مجالاً لآمال العصاة؛ لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعبادين والعارفين فهم ﴿شَيْءٌ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ لَا يَنْفُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي سأوجبها لهم، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحد شيء على الله إذ لا يجب عليه شيء لعزّه في ذاته.

قوله ها هنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَنْفُونَ﴾ أي يجتنبون أن يروا الرحمة باستحقاقهم، فإذا اتقوا هذه الظنون، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللة بأكسابهم - استوجبوا الرحمة، ويحكم بها لهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بما يكشفهم به الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال، وبما يلاطفهم به في الأسرار مما يجدونه في أنفسهم من فنون الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾.

أظهر شرف المصطفى - ﷺ - بقوله: ﴿النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ﴾ أي أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، أو من تعلمه وتكلفه، أو من اجتهاده وتصرفه. بل ظهر عليه كل ما ظهر مِنْ قَبْلِهِ - سبحانه - فقد كان هو أمياً غير قارئٍ للكتب، ولا مُتَّبِعٍ للسَّيْرِ.

ثم قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: والمعروف هو القيام بحق الله، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى، والتعريض في أوطان المُنَى، وما تصوّره للعبد تزيورات الدعوى. والفاصل بين الجسمين، والمميز بين القسمين - الشريعة، فالحسن من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلهم ذلك، والقيح ما كان موافقاً لِلنَّهْيِ والزجر فليس لهم فعل ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإصرُ الثقل، ولا شيء أثقل من كَدِّ التدبير، فَمَنْ ترك كد التدبير إلى روح شهود التقدير، فقد وُضِعَ عنه كلُّ إصر، وكُفِيَ كلُّ وِزر وأمر.

والأغلالُ التي كانت عليهم هي ما ابتدعوه مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ باختيارهم في التزام طاعات الله ما لم يُفترض عليهم، فَوَكَّلُوا إلى حَوْلِهِمْ وَمُتَّيِّهِمْ فيها؛ فأهملوها، ونقضوا عهودهم.

وَمَنْ لَقِيَ - بخصائص الرضا - ما تجري به المقادير، وشَهِدَ الحقُّ في أجناس الأحداث، فقد خُصَّ بكلِّ نعمة وفضل.

قوله جل ذكره: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

اعترف لهم بنصرة الرسول - ﷺ - وإلا فالنبي ﷺ كان الله حسيبه، وَمَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ۚ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلَّذِي يَؤْمِنُ ۖ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

صَرَّحَ بما رُقِّيَاكَ إليه من المقام، وأفصح عما لقيناك به من الإكرام، قُلْ إني إلى جماعتكم مُرسَلٌ، وعلى كافتكم مُفضَّلٌ، وديني - لِمَنْ نظر واعتبر، وفكر وسبر - مُفضَّلٌ. فاللهي الذي لا شريك له ينازعه، ولا شبيه يضارعه له حق التصرف في ملكه بما يريد من حكمه. ومن جملة ما حكم وقضى، ونفذ به التقدير وأمضى - إرسالي إليكم لتطيعوه فيما يأمركم، وتحذورا من ارتكاب ما يجركم. وإن مما أَمَرَكم به أنه قال لكم: آمِنُوا بالنبي الأمي، واتبعوه لتفليحوا في الدنيا والعقبى، وتستوجبوا الزُلْفَى والحسنى، وتخلصوا من البلوى والهوى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ قَوْرِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ ٱلْحَقَّ وَبِهِ ۖ يَعْدِلُونَ﴾.

هم الذين سبقت لهم العناية، وصدق فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل، وأدركتهم الرحمة السابقة، فلم تنطرق إليهم مفاجأة تغيير، ولا خفي تبديل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَفْنَؤَ عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ ۖ أَنِى اضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْعَجْرَۃَ ۖ فَٱنْبَجَسَتْ مِنْهُ ١٢٠ عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلغَمَمَ ۖ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّۥ وَٱلسَّلَوىۥ كُلُوا مِنْ مَّطِينَتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فَرَّقَهُمْ أَصْنَافًا، وجعلهم في التحزب أخفافاً، ثم كفاهم ما أقمهم، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابهم؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرِّ والبرد، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوَى مما نفى عنهم تعب الجوع والجهد والسعي والكد، وفَجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونها عياناً، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين، ولكن ليست العبرة بأفعال الخلق ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق، سبحانه وتعالى فيما يُمضي عليهم من فنون أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعِرْ لَكُمْ حَطَّتِ عَنْكُمْ سَيِّئَاتُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود، وما حصل منهم من نقض العهود. وعما ألزمهم من التكليف، ولقاهم به من صنوف التعريف، وإكرامه من شاء منهم بالتوفيق والتصديق، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً، وأذاقهم من سوء الجزاء، حُكماً - من الله - حتماً، وقضاء جزماً.

قوله جل ذكره: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

جاء في التفسير أنهم زادوا حرفاً في الكلمة التي قيلت لهم فقالوا: حنطة بدل «حِطَّة» فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادة في الدين، والابتداع في الشرع عظيم الخطر، ومجاوزة حد الأمر شديد الضرر.

ويقال إذا كان تغيير كلمة هي عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب - فما الظن بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات المعبود؟

ويقال إن القولَ أَثَقَصَ من العمل بكل وجه - فإذا كان التغيير في القول يُوجب كل هذا.. فكيف بالتبديل والتغيير في الفعل؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَّتَاهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

كان دينهم الأخذ بالتأويل، وذلك رَوَعَانٌ^(١) - في التحقيق، وإن الحقائق تأتي إلا الصدق، وإن التعرّيج في أوطان الحظوظ والجنوح إلى احتملات الرخص فسخ

لأكيد موثيق الحقيقة، ومن شاب شوب له، ومن صفى صفى له .
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَعَلَّمَهُم بِتَقْوَىٰ﴾ .

الحقائق - وإن كانت لازمة - فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذرة بل الوجوب يفترض شرعاً، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

إذا تمادى العبد في تهتكه، ولم يُبالِ بطول الإمهال والسَّتر لم تُهمل يد التقرير عن استئصال العين، ومحو الأثر، وسرعة الحساب، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر . ثم البرء في فضاء السلامة، وتحت ظل الحفظ، ودوام روح التخصيص ويزد عيش التقريب .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ .

إذا انتهت مدة الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال، وإذا سقط العبد من عين الله لم ينتعش بعده أبداً، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الرد، وفي معناه أنشدوا:

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تكذ إليه بوجه آخر الدهر تُثبِلُ

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِيَتَعَذَّبَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

إذا الحق - سبحانه - أمضى سُنَّته بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كل أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداء للعذر - وإن جلت رتبته عن كل عذر - فإن يَنْجَع فيهم القول ولا دَمَرٌ عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْمًا مِّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَرَبُّهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالشَّيْئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاح وسداد، ومَعَاصٍ وفساد . ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محن أزاحها، ومن مِنن أناحها، وطالبهم بالشكر على ما أسدى، والصبر على ما أبلى، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرهم في الخلاف والوفاق، والإخلاص والنفاق؛ فأما الحسنات فهي ما يُشهدهم المُجْري، ولا يُلْهِيمهم عن المُبْدي، وأما السيئات فالتردد بين الإنجاز والتأخير، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنْسِيكَ نفسك، والسيئة أن يُشْهَدَكَ نفسك.

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن. والسيئات التي ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَـدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرَوُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

استوجبوا الذم بقوله - سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَـدْرِهِمْ خَلْفٌ﴾ لأنهم آثروا العَرَضَ الأدنى، وركنوا إلى عاجل الدنيا، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المنى فقالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

ويقال من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزلة، والاغترارُ بزمانِ المُهْلَةِ، وحملُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ مَا أَخَذُوا﴾.

أخبر عن إصرارهم على الاغترار بالمنى، وإيثار متابعة الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ يَمِثُّ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا﴾.

استفهام في معنى التقرير، أي أمروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال، واستحقاق صفات الكمال، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأتِ منه خبر، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوج البيان وظهور البرهان. يعني التعرّض لنفحات فضله - سبحانه - خيرٌ لمن أمَلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بذلَ - في تحصيل هواه - مجهودَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

يمسكون بالكتاب إيماناً، وأقاموا الصلاة إحساناً، فبالإيمان وجدوا الأمان، وبالإحسان وجدوا الرضوان؛ فالأمانُ مُعْجَلُ الرضوان مؤجل. ويقال ﴿يمسكون بالكتاب﴾ سبب النجاة، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة. فالنجاة في المال والمناجاة في الحال.

ويقال أفرد الصلاة ها هنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلَمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

مَنْ أَمَّلَ سَبَبَ إِنْعَامِنَا لَمْ تَخْصِرْ لَهُ صَفَقَةً، وَلَمْ تَخْفِقْ لَهُ فِي الرِّجَاءِ رَفَقَةً، وَيُقَالُ مَنْ نَقَلَ (. . .)^(١) إِلَى بَابِهِ قَدَمَهُ لَمْ يَغْدَمْ فِي الْآجِلِ نِعَمَةً، وَمَنْ رَفَعَ إِلَى سَاحَاتِ جُودِهِ هِمَمَهُ نَالَ فِي الْحَالِ كَرَمَهُ.

وَيُقَالُ مَنْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِجُودِهِ نَالَ فِي الدَّارَيْنِ شَرَفَهُ. وَمَنْ اِكْتَفَى بِجُودِهِ كَانَ اللَّهُ عَنْهُ خَلْفَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ليس من يأتي طوعاً كمن يأتي جبراً، فإن الذي يأتي قهراً لا يعرف للحق - سبحانه - قدراً، وفي معناه أنشدوا:

إذا كان لا يرضيك إلا شفاععة فلا خير في ود يكون لشافع
وأنشدوا:

إذا أنا عاتبتُ المملولَ فلئنما أخطُ بأقلامي على الماءَ آخرُفا
وهبتهُ ازعوى بعد العتاب ألم يكن تودده طبعاً، فصار تكلفاً؟
ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبه طوعاً، كذلك لما قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق وعده، وتأکید عناج^(٢) وده، بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سُقياً لليلَى والليالي التي كُنَّا بَلِيلِي نَلْتَقِي فِيهَا
أفديكِ بل أيامُ دهري كلها يفدين أياماً عَرَفْتُكِ فِيهَا
ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بصراً، أو ظهر في قلوبهم لمصنوع أثر، أو كان لهم من حميم أو قريب أو صديق أو شفيق خبر، وفي معناه أنشدوا:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى وصَادَفَ قلبي فارغاً فتمكناً

(١) بياض في الأصل.

(٢) العِناج: خيط أو سير يُشد في أسفل الدلو ثم يُشد في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠).

ويقال جمعهم في الخطاب ولكنه فَرَّقَهُمْ في الحال . وطائفة خاطبهم بوصف القربة فعرفهم في نفس ما خاطبهم، وفِرْقَةٌ أَبْقَاهُمْ في أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم .

ويقال أقوام لَاطَفَهُمْ في عين ما كاشَفَهُمْ فأقروا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود .

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فالزَمَهُمْ بالإشهاد بيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد، وآخرين أشهدهم وَاضَحَّ الحجة (...) (١) .

ويقال تجلَّى لقوم فتولَّى تعريفهم فقالوا: «بلى» عن حاصل يقين، وتَعَزَّزَ عن آخرين فأثبتهم في أوطان الجحد فقالوا: «بلى» عن ظنٍ وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غاير بينهم في الرتب؛ فَجَذَبَ قُلُوبَ قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المَبَارَ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار .

ويقا فرقة رَدَّهُمْ إلى الهيبة فهماموا، وفِرْقَةٌ لَاطَفَهُمْ بالقربة فاستقاموا .

ويقال عَرَّفَ الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم، وَلَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفي نفس أحضرهم، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم، رَفَمَ عنهم فأنطقهم بحكم التعريف، وحفظ عليهم - بحسن التولي - أحكام التكليف وكان - سبحانه - لهم مُكَلَّفًا، وعلى ما أَرَادَهُ مُصَرَّفًا، وبما استخلصهم له مُعَرَّفًا، وبما رَقَاهم إليه مُشَرَّفًا .

ويقال كاشف قوماً - في حال الخطاب - بجماله فطوحهم في هيمان حبه، فاستمكنت محابثهم في كوامن أسرارهم؛ فإذا سمعوا - اليوم - سماعاً تجددت تلك الأحوال، فالانزعاجُ الذي يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ مَا سَلَفَ لهم من العهد المتقدم .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصحاهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق، وأسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختَصَّ بالأنوار التي رشت عليهم قوماً، فَمَنْ حَرَمَهُ تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة، وَمَنْ أَصَابَتْهُ تلك الأنوارُ أَفْصَحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كَلْفَةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إذا سُدَّتْ عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الحجة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

الحق - سبحانه - يظهر الأعداء في دار الخلّة ثم يردّهم إلى سابق القسمة، ويبرز الأولياء بنعت الخلاف والزلة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال أقامه في محل القرية، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدّ له من سابق التقدير؛ فأصبح والكلّ دونه رتبة، وأمسى والكلب فوقه - مع خساسته.. وفي معناه أنشدوا:

فبينما بخير والذنى مطمئنة وأصبح يوماً - والزمان ثقلاً

ويقال ليست العبرة بما يلوح في الحال، إنما العبرة بما يؤول إليه في المآل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية، ولكن من قصته السوابق لم تنعشه اللواحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

إذا كانت مساكنة آدم للجنة وطعمه في الخلود فيها أوجبا خروجه عنها، فالركون إلى الدنيا - متى يوجب البقاء فيها؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

موافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العز إلى تراب الذل، وتلقيه في وهدة الهوان؛ ومن لم يصدق علماً فعن قريب يقاسيه وجوداً.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَنَلَّهُمْ كَشَلِّ الْكَلْبِ﴾.

من أخلاق الكلب التعرض لمن لم يخفه على جهة الابتداء، ثم الرضاء عنه بلقمة.. كذلك الذي ارتد عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر، سبب الخلق، يبدأ بالجفاء كلّ بريء، ثم يهدأ طياشه ينيل كلّ عريض خسيس.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءة والإحسان (سيان)^(١)، فهو في الحالين:

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

إمّا صاحب ضَجَرٍ أو صاحب بَطَرٍ؛ لا يحمل المحنة إلا زوال الدولة، ولا يقابل النعمة إلا بالنهمة، فهو في الحالين محجوبٌ عن الحقيقة.

ويقال الكلب نجاسته أصلية، وخساسته كلية، كذلك المردوده في الصفة؛ له نقصان القيمة وحرمان القسمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾. أي صفته أدنى من نعتي من يُليّ بالإعراض الأزلّي، وأي نعت أعلى من وصف من أُكْرِمَ بالقبول الأبدي؟ وأي حيلة تنفع مع من يخلق الحيلة؟ وكيف تُصيح الوسيلة إلا لمن منه الوسيلة؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ليست الهداية من حيث السعاية، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد ونظيره، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

مَنْ خَلَقَ لجهنم - متى يستوجب الجنّات؟

وَمَنْ أَهْلَهُ لِلسخطة - أئى يستحق الرضوان؟

ولولا انسداد البصائر وإلا فأئى إشكال بقي بعد هذا الإيضاح؟

ويقال هم - اليوم - في حجيم الجحود، مُقَرَّنِينَ في أصفاد الخذلان، مُلَبَّسِينَ ثياب الحرمان، صعائمهم ضريع الوحشة، وشرابهم خميم الفرقه، وغداً هم في حجيم الحرقة كما فُضِّلَ في الكتاب شرع تلك الحالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

أي لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهم المُحَدِّثُونَ، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرُونَ بها شواهد التوحيد وعلامات اليقين؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: لَأَنَّ الْأَنْعَامَ قد رُفِعَ عنها التكليف، وإن لم يكن لها وفاق الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر.

والأنعام لا يهّمها إلا الاعتلاف، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس، فكَذَلِكَ مَنْ أَقِيمَ بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النَّفْسِ، وفي معناه أنشدوا:

نهارك يا مغرورٌ سهوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ والرّدى لك لازمٌ

وسعيك فيها سوف تكره غِبَّهُ كذلك في الدنيا تعيش البهائم
قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ الْأَتَمُّهُ الْخُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

سبحان مَنْ تَعَرَّفَ إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرفهم أنه مَنْ هو، وبأي وصف هو، وما الواجب في وصفه، وما الجائز في نعته، وما الممتنع في حقّه وحكمه؛ فتجلى لقلوبهم بما يكشفهم به من أسمائه وصفاته، فإن العقول محجوبة عن الهجوم بذواتها بما يَصِحُّ إطلاقه في وصفه، وإن كانت واقفة على الواجب والجائز والممتنع في ذاته، فللعقل العرفان بالجملة، وبالشرح الإطلاق والبيان في الإخبار، والقول فيما وَرَدَ به التوفيق يُطْلَقُ، وما سَكَتَ عنه التوفيق يُنْتَع. ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصف من صفاته ذَكَرَهُ بما يقتضي هذا الوصف؛ فمن كان مكاشفاً بَعْطَاهُ، مربوط القلب بأفضاله فالغالب على قائلته الشناء عليه بأنه الروهاب والبار والمُعْطِي وما جرى مجراه. ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام، مكاشفاً بنعت الرحمة فالذي يغلب على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما في معناه. وَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ عن شهود وجوده، واستهلك في حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق. ولذلك فأكثر أقوال العلماء في الإخبار عنه: «البارى» لأنهم في الترقى في شهود الفعل إلى شهود الفاعل. وأما أهل المعرفة فالغالب على لسانها «الحق» لأنهم مُخْتَطِفُونَ عن شهود الآثار، متحققون بحقائق الوجود.

وقال إنَّ الله - سبحانه - وقف الخلق بأسمائه فهم يذكرونها قاله، وتعزَّرَ بذاته، والعقول - وإن صَفَتْ لا تهجم على حقائق الإشراف، إذ الإدراك لا يجوز على الحق؛ فالعقول عند بواده الحقائق متفنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات، والأبصار حسيرة عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية، والحق سبحانه عزيز، وباستحقاق نعوت التعالي مُتَفَرِّد.

قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الإلحاد هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا فالحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فالحدوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

أجرى الحق - سبحانه - سُنتَهُ بالآي يُخْلِجِي البسيطة من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق في الظهور، وفي معناه قالوا:

إذا لم يكن قطب فمن ذا يديرها؟
فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق، ويدلون على الحق، ويتحركون بالحق،

ويسكنون للحق بالحق، وهم قائمون بالحق؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غيات الخلق؛ بهم يُسْقَوْنَ إذا قحطوا، وَيُمْطَرُونَ إذا أجذبوا، وَيُجَابُونَ إذا دَعَوُا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

الاستدراج أن يلقي في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة، وفي الحقيقة: السابق لهم من القسمة حقائق الفرقة.

ويقال الاستدراج انتشار الصيت بالخير في الخلق، والانطواء على الشر - في السر - مع الحق.

ويقال الاستدراج ألا يزداد في المستقبل صحة إلا ازداد في الاستحقاق نقصان رتبة.

ويقال الاستدراج الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال، ولو كان صادقاً في حاله لكان معصوماً في أعماله.

ويقال الاستدراج دعاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة.

ويقال الاستدراج إفاضة البر مع (...)(١) الشكر.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنٍّ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله - عليه السلام - ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرس.

ويقال إن برود الوساطة - صلوات الله عليه وعلى آله - كانت بنسيم القربة معطرة، ولكن لا يُذَرَكُ ذلك الثَّشْرُ إِلَّا بِشَمِّ العرفان، فَمَنْ فَقَدَ ذلك - فأَي خبر له عن حقيقة حاله - صلوات الله عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أطلع الله - سبحانه - أعمار الآيات، وأماط عن ضيائها سحب الشبهات؛ فَمَنْ استضاء بها تَرَقَّى إلى شهود القدرة.

ويقال ألاح الله تعالى - لقلوب الناظرين بعيون الفكر - حقائق التحصيل؛ فَمَنْ لم يُعْرَجْ في أوطان التقصير أَثَرَلَتْهُ مراكبُ السَّرِّ بساحات التحقق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ فَيَأْتِي حَذِيثٌ بِمَدْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الناس في مغاليط آمالهم ناسون لو شيك آجالهم، فكم من ناسجٍ لأكفانه! وكم من بانٍ لأعدائه! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه!

(١) بياض في الأصل.

هيئات! الكباش يعتلف والقصابُ مستعدُّ له!.

ويقال سرعة الأجل تُنْغَصُ لذة الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيِّ لُؤْلُؤٍ يَبْدُرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

من حرمة أنوار التحقيق فهو في ضباب الجهل، فهو يزل يميناً ويسقط شمالاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لِوَفَّيَّ إِلَّا هُوَ نُفِّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيفٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

السائل عن الساعة رجلاً؛ مُنْكَرٌ يَتَعَجَّبُ لِفَرْطِ جهله، وعارفٌ مشتاقٌ يستعجل لِفَرْطِ شوقه، والمتحقق بوجوده ساكنٌ في حاله؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة.

ويقال الحق - سبحانه - استأثر بعلم الساعة؛ فلم يُطْلِعْ على وقتها نبياً ولا صفيّاً، فالإيمان بها غيبي، ويقين أهل التوحيد صادق عن شوائب الرّيب. ثم مُعْجَلُ قيامتهم يُوجِبُ الإيمان بمُؤْجَلِها^(١).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَمَا مَسْنِي السُّوءُ إِنَّا إِنَّا لَا نَذِيرُ بِشَرِّ الْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ﴾.

أمره بتصريح الإقرار بالتبني عن حوله ومُنْتَهَى، وأن قيامه وأمره ونظامه بطول ربه ومُنْتَهَى؛ ولذلك تتجسّس على الأحوال، وتختلف الأطوار؛ فَمِنْ عُسْرِ يَمَسُّنِي، وَمِنْ يَسْرِ يَخْصِنِي، ولو كان الأمر بمرادي، ولم يكن بيد غيري قيادي لتشابهت أحوالي في اليسر، ولتشاكلت أوقاتي في البعد من العسر.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَجَا﴾.

أخرج النّسمة من نفس واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهمهم متباينة، كما أن الشخص من نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاءه مختلفة. فَمَنْ قَدِرَ على تنويع النطفة المتشاكله أجزاؤها فهو القادر على تنويع أخلاق الخلق الذين أخرجهم من نفس واحدة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَكُنَّ إِلَهًا فَلَمَّا تَشَاءُ حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَا صَدِيقًا لَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٧٨ قال القشيري في حديثه عن الوصية للمريدين: إن الناس إما أصحاب النقل والأثر، وإما أرباب العقل والفكر، وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف مقصود، فلهم من الحق سبحانه موجود، فهم أهل الوصال، والناس أهل الاستدلال.

ردَّ المِثْلَ إِلَى المِثْلِ، وربط الشَّكْلَ بالشَّكْلَ، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ سَكُونَ الْخَلْقِ
مَعَ الْحَقِّ لَا إِلَى الْحَقِّ، وَكَذَلِكَ أُنْسِلَ الْخَلْقُ مِنَ الْخَلْقِ لَا مِنَ الْحَقِّ، فَالْحَقُّ تَعَالَى
قَدُوسٌ؛ مِنْهُ كُلُّ حَظٍّ لِلْخَلْقِ خَلْقًا، مَنْزَعٌ عَنْ رَجُوعِ شَيْءٍ إِلَى حَقِيقَتِهِ حَقًّا.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليْعًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾.

شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ هُجُومِ الْبَلَاءِ بِخُلُوصِ الدُّعَاءِ، وَشِدَّةِ التَّضَرُّعِ
وَالْبُكَاءِ، فَإِذَا أزيلتْ شَكَائِهِ، وَذُفِعَتْ - بِمَنْتِهِ - آفَاتُهُ ضَيِّعَ الْوَفَاءِ، وَنُسِيَ الْبَلَاءُ، وَقَابِلُ
الرَّفْدِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَأَبْدَلِ الْعَقْدِ بَرَفْضِ الْوَدِّ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ فِي سَابِقِ
الْحُكْمِ، وَخَرَطَهُمْ فِي سِلْكِ أَهْلِ الرَّدِّ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ مَخْلُوقًا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الرَّبِّ خَالِقًا، فَمَنْ
وَصَفَّ الْحَقَّ بِخَصَائِصِ وَصْفِ الْخَلْقِ فَقَدْ أُلْحِدَ، وَمَنْ نَعَتَ الْخَلْقَ بِمَا هُوَ مِنْ
خَصَائِصِ حَقِّ الْحَقِّ فَقَدْ جَحَدَ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

مَنْ حَكَمَ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي مَقْدُورِ الْحَقِّ شَيْءٌ لَوْ فَعَلَهُ اسْمُ الْجَاهِلِ طَوْعًا إِلَّا فَعَلَهُ
فَقَدْ وَصَفَ بِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ فَمُضَاهِ الَّذِي يَعْبُدُ الْجَمَادَ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَاةِ
عَنِ الرَّشَادِ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
صَافِرُونَ﴾.

الْمَعْبُودُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى هِدَايَةِ دَاعِيهِ، وَعِلْمُ الْعَبْدِ بِقُدْرَةِ مَعْبُودِهِ يَوْجِبُ تَبَرُّيَهُ عَنْ
حُوزِهِ وَقُوَّتِهِ، وَإِفْرَادَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - بِالْقُدْرَةِ عَلَى قِضَاءِ حَاجَتِهِ، وَإِزَالَةِ ضَرُورَتِهِ
فَتَقَاصِرُ عَنْ قَعْصِدِ الْخَلْقِ خَطَاةً، وَتَنْقَطِعُ أَمَالُهُ عَنْ غَيْرِ مَوْلَاهُ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُنثَالِكُمْ قَدْ دَعَوْهُمْ فَلَيْسَ تَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إِذَا قُرِنَتْ الضَّرُورَةُ بِالضَّرُورَةِ تَضَاعَفَ الْبَلَاءُ، وَتَرَادَفَ الْعَنَاءُ؛ فَالْمَخْلُوقُ إِذَا
اسْتَعَانَ بِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ أَزْدَادَ بُغْذٍ مَرَادِهِ عَنِ النُّجْحِ. وَكَيْفَ تَشْكُو لِمَنْ هُوَ ذُو شَكَايَةٍ؟!
هِيَاهُ! إِنَّ ذَلِكَ خَطَا مِنَ الظَّنِّ، وَبَاطِلٌ مِنَ الْحِسَابِ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

بَيَّنْ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي عِبَدُوهَا دُونَهُمْ فِيمَا اعْتَقَدُوا فِيهِ صِفَةُ الْمَدْحِ، ثُمَّ لَمْ يَعْبُدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكَيْفَ اسْتَجَاوَزُوا عِبَادَةً مَا فَاقَهُمْ فِي النَقْصِ؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾.

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله، كيف لا.. والمتفرّد بالقدرة - على النفع والضرر، والخير والشر - الله؟

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

مَنْ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ تَوَلَّى أُمُورَهُ عَلَى وَجْهِ الْكِفَايَةِ، فَلَا يَخْرُجُهُ إِلَى مِثَالِهِ، وَلَا يَدْعُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِ إِلَّا أَجْرَاهُ عَلَى مَا يَرِيدُهُ بِحُسْنِ أَفْضَالِهِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا يَرِيدُهُ جَعَلَ الْعَبْدَ رَاضِيًا بِمَا يَفْعَلُ، وَرَزَحَ الرِّضَا عَلَى الْأَسْرَارِ أَتَمَّ مِنْ رَاحَةِ الْعَطَاءِ عَلَى الْقُلُوبِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمَدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَكْتُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عَنْ رُؤْيَيْهِ بِبِصَائِرِ أَسْرَارِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ فَلَمْ يُعْتَدِّ بِرُؤْيَيْهِمْ.

ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾.

من خصائص سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْكَرَمِ أَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - بِالْأَخْذِ بِهِ، إِذِ الْخَيْرُ وَرَدَ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ خُلُقًا حَسَنًا. وَكَلِمَا كَانَ الْجُزْمُ أَكْبَرَ كَانَ الْعَفْوُ عَنْهُ أَجْرًا وَأَكْمَلَ، وَعَلَى قَدَرِ عِظَمِ رَتْبَةِ الْعَبْدِ فِي الْكَرَمِ يَتَوَقَّفُ الْعَفْوُ عَنِ الْأَصَاغِرِ وَالْخُدَمِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْجَرَاحَاتِ الَّتِي أَصَابَتْهُ فِي حَرْبِ أُحُدٍ^(١): «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢).

(١) أُحُدُ: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أُحُد، بينه وبين المدينة قرابة ميل شمالها وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي قُتل فيها حمزة عم النبي ﷺ وسبعون من المسلمين، وكسرت رباعية النبي ﷺ، وشج وجهه الشريف، وكُلِّمَت شفته، وكان يوم بلاء وتمحيص، وذلك لستين وتسعة أشهر وسبعة أيام من مهاجرة النبي ﷺ، وهو في سنة ثلاث. (معجم البلدان ١/١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٢١٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١/٤٤١)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٦/١١٧)، والطبري في (التفسير ١/١٣)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٤١٩)، والقرطبي في (التفسير ٤/١٩٩، ٨/٢٧٣، ١٤/١٥٦)، والقاضي عياض في (الشفا ١/٢٢٢)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٣/١٨٩)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/٣١٣)، =

قوله ﴿وَأُمِرُّ بِالْعُرْفِ﴾: أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء، وبذلك عامل الرسول - صلى الله عليه - وعلى آله - الناس .

قوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: الإعراض عن الأغيار بالإقبال عن من لم يزل ولا يزال، وفي ذلك النجاة من الحجاب، والتحقيق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إِنْ سَنَحَ فِي بَاطِنِكَ مِنَ الْوَسَاوِسِ أَثَرٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِحَسَنِ التَّوْفِيقِ، وَإِنْ هَجَسَ فِي صَدْرِكَ مِنَ الْحِظْوِظِ خَاطِرٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِإِزَالَةِ كُلِّ نَصِيبٍ، وَإِنْ لَحِقَتْكَ فِي بَذْلِ الْجُهِدِ فِتْرَةٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِإِدَامَةِ آلَائِهِ، وَإِنْ اغْتَرَّتْكَ فِي التَّرْقِيِّ إِلَى مَحَلِّ الْوُصُولِ وَقْفَةٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يَدْرُكَكَ بِإِدَامَةِ التَّحْقِيقِ، وَإِنْ تَقَاصَرَ عَنْكَ شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْقُرْبِ - صِيَانَةٍ عَنْ شُهُودِ الْمَحَلِّ - فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ يُثَبِّتْكَ لَهُ بَدَلًا مِنْ لَكَ بِكَ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ .

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطانِ في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مَسَّهُمْ طائفُ الشيطان، فإن الشيطان لا يَقْرُبُ قَلْبًا فِي حَالِ شُهُودِهِ اللَّهَ؛ لأنه ينخس عند ذلك . ولكن لكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة، ولكل عابد شدة، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقمة، ولكل عارف حجة، قال ﷺ: «إِنَّ لُبَّانَ عَلَى قَلْبِي . . .»^(١) أخبر أنه يعتريه ما يعتري غيره، وقال ﷺ: «الْحِجْدَةُ تَعْتَرِي خِيَارَ أُمَّتِي»^(٢)، فأخبر أن الأمة - وإن جَلَّتْ رُتْبَتُهُمْ لَا

= ٢٨٣ - ٦٨ / ٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشرعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣ / ٩٥)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٤٦ / ٦ - ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٤ / ٥)، ٩٣ / ٧ - ١٠٨ - ٣٦٠، ٢٥٨ / ٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣ - ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩ - ٩٨٧٢) وابن حجر في (فتح الباري ٣٧٣ / ٧، ٢٨٢ / ١٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٣ / ٢١٥) .

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤ / ٢١١، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥٢ / ٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١ / ٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٧ / ٥، ٨ / ٢٩٩، ٥١٧، ٥٩ / ٩ - ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣ / ٢)، (البغوي ٦ / ١٨٠)، والسيوطي (الدر المنثور ٦ / ٦٣)، والألباني في (فتح الباري ١١ / ١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧) .

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ١١ / ١٩٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٧ / ٢ - ٦١) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٨٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨ / ١٣)، وابن حجر في =

يتخلصون عن جِدَّةٍ تعترِبهم في بعض أحوالهم، فَتُخْرِجُهُم عن دوام الجَلَمِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

إخوان الشيطان أرباب دوام الغيبة؛ فهم في كمال الغفلة تدوم بهم الحجة؛ فمنهم بالزُّلَّة مَنْ لم يُلِمَّ، أو أَلَمَ ولكن لم يُصِرْ فهم خياره، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترَّ. وعلى دوام العيبة أَصَرَ - فهم المحجوبون قطعاً، والمُبْعَدُونَ - عن محلّ القرب - صدّاً وردّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتِيْتُكُمْ بِالْحَقِّ إِنِّي مِنَ رُسُلِ اللَّهِ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

مَنْ شَاهَدَ الْحَقَّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ سَقَطَ فِي مَهْوَاةِ الْمَغَالِيطِ، فَهُوَ فِي مَتَاهَاتِ الشُّكِّ يَجُوبُ مَنَازِلَ الرِّيبِ، وَلَا يَزْدَادُ إِلَّا عَمًى عَلَى عَمًى. وَمَنْ طَالَعَ الْخَلْقَ بَعَيْنِ تَصْرِيفِ الْقُدْرَةِ إِيَاهُمْ تَحَقُّقُ بَأْنِهِمْ لَا يَظْهَرُونَ إِلَّا فِي مَعْرِضِ اخْتِيَارِ الْحَقِّ لَهُمْ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِنُورِ الْبَصِيرَةِ، وَيَسْتَدِيمُ شُهُودَ التَّصْرِيفِ بِوَصْفِ السَّكِينَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

اسْتَمِعُوا بِسَمْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ، وَأَنْصِتُوا (بصون) الْخَوَاطِرَ عَنْ مَعَارِضَاتِ الْإِعْتِرَاضِ، وَمَطَالِبَاتِ الْإِسْتِكْشَافِ. وَمَنْ بَاشَرَ التَّحْقِيقَ سِرَّهُ لَازِمَ التَّصَدِيقِ قَلْبَهُ.

وَالْإِنْصَاتُ - فِي الظَّاهِرِ - مِنْ آدَابِ أَهْلِ الْبَابِ، وَالْإِنْصَاتُ - بِالسَّرَائِرِ - مِنْ آدَابِ أَهْلِ الْبَسَاطِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نَعْتِ تَوَاصِي الْجَنِّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عِنْدَ شُهُودِ الرُّسُولِ ﷺ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ فإِذَا كَانَ الْحَضُورُ إِلَى الْوَسَاطَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْجِبُ هَذِهِ الْهَيْبَةَ فَلِزُومِ الْهَيْبَةِ وَحِفْظِ الْآدَابِ عِنْدَ حَضُورِ الْقَلْبِ بِشُهُودِ الرَّبِّ أُولَى وَأَحَقَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

التَضَرُّعُ إِذَا كُوشِفَ الْعَبْدُ بِوَصْفِ الْجَمَالِ فِي أَوَانِ الْبَسْطِ، وَالْخِيفَةُ إِذَا كُوشِفَ بِنَعْتِ الْجَلَالِ فِي أَحْوَالِ الْهَيْبَةِ، وَهَذَا لِلْكَابِرِ.

= (المطالب العالية ٣٢٣١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٦٤)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٦٥/١ - ٤٢٢)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٠٤/٢)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١١٤٨/٣)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٠)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢٤٧/٢)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٧٤)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٢٦).

فَأَمَّا مَنْ دُونَهُمْ فَتَنُوهُمْ أَحوَالَهُمْ مِنْ حَيْثُ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ. وَمَنْ
فَوْقَ الْجَمِيعِ فَأَصْحَابُ الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ، وَالصَّحْوِ وَالْمَحْوِ وَوَرَاءَهُمْ أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ مُتَّبِعُونَ
فِي أَوْطَانِ التَّمَكِينِ، فَلَا تَلَوُّنَ لَهُمْ وَلَا تَجَسُّسَ لِقِيَامِهِمْ بِالْحَقِّ، وَامْتِحَانَهُمْ عَنْ
شَوَاهِدِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ
يَسْجُدُونَ﴾.

أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية لئلا ينفك حال جمعهم
عن نعت فرقهم، وهذه سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى مع خواص عباده؛ يلقاهاهم بخصائص عين
الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفَرْقِ لئلا يُخْلُوا بِآدَابِ الْعِبُودِيَّةِ فِي أَوَانِ وَجُودِ
الْحَقِيقَةِ.

السورة التي تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحسن الدفاع؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده، وبنصرته وخذ من وخذ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لَهَا لِلَّهِ مِلْكًا، ولرسوله - عليه السلام - الحكم فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

أي أجبوا لأمر الله، ولا تطيعوا ذواعي مناكم والحكم بمقتضى أحوالكم، وابتغوا إيثارَ رضا الحق على مراد النفس، وأصلحوا ذات بَيْنِكُمْ، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْسِ، وإيثار حق الغير على مآلِكُمْ من النصيب والحظ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

أي في الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي سبيل المؤمنين ألا يخالف هذه الجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الْوَجَلُ شِدَّةُ الخوف، ومعناه ها هنا أَنْ يُخْرِجَهُم الْوَجَلُ عَنْ أوطان الغفلة، ويزعجهم عن مساكن الغيبة. فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وفاؤوا إلى مشاهيد الذكر

نالوا السكون إلى الله - عز وجل؛ فيزيدهم ما يُثَلَّى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق. فإذا طالعوا جلال قُدْرِهِ، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه، توكلوا عليه في إمدادهم بالرعاية في نهايتهم، كما استخلصهم بالعبادة في بدايتهم.

ويقال سُنة الحق - سبحانه مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهُم بين كَشْفِ جلالٍ ولُطْفِ جمال، فإذا كاشفهم بجلاله وَجَلَّتْ قلوبُهُم، وإذا لطفهم بجماله سَكَنَتْ قلوبُهُم، قال الله تعالى: ﴿وَنَظْمِينَ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. ويقال وجلت قلوبهم بخوف فراقه، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروح وصاله. وذكر الفراق يُقْنِيهِمْ وذكر الوصال يُضَحِّيهِمْ ويُخَيِّهِمْ.

ويقال الطالبون في نُوحِ رهبتهم، والواصلون في رُوحِ قربتهم، والموحدون في محو غيبتهم؛ استولت عليهم الحقائق فلا لهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستفزههم خوف أو يجرفهم طمع، ولا لهم إحساس فتَمْلِكُهُمْ لذة؛ إذ لَمَّا اضْطَلِمُوا ببواده ما مَلَكَهُمْ فَهْمٌ عنهم مَخَوٌ، والغالب عليهم سواهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لا يَرْضُونَ في أعمالهم بإخلال، ولا يتصفون بجمع مال من غير حلال، ولا يُعْرَجُونَ في أوطان التقصير بحال، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل.

﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي حققوا حقاً وصدقوا صدقاً. ويقال حق لهم ذلك حقاً.

قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ على حسب ما أَهْلَهُمْ له من الرُتَبِ؛ فَيَسَابِقُ قِسْمَتِهِ لهم استوجبوها، ثم بصادقِ خِدْمَتِهِمْ - حين وفَّقَهُم لها - بلغوها.

ولهم مغفرة في المَالِ، والسَّتْرِ في الحال لأكابرهم، فالمغفرة الستر، والحق سبحانه يستر مثالبِ العصاة ولا يفضحهم لئلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم، ويستر مناقبِ العارفين عليهم لئلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم، وفَرَّقَ بين سَتْرٍ وَسَتْرٍ، وَشَتَانِ ما هما!

وأما الرزق الكريم فيتحمل أنه الذي يعطيه من حيث لا يُحْتَسَبُ، ويحتمل أنه الذي لا يَنْقُصُ بإجرامهم، ويحتمل أنه ما لا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

بَيَّنَّ - سبحانه - أن الجدالَ منهم عادةٌ وَسَجِيَّةٌ، ففي كل شيء لهم جدال واختيار؛ ففكروا خروجَه إلى بَدْرٍ، كما جادلوا في حديث الغنيمة، قال تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقرب إلى الصفح عنه والتجاوز، فأما إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب.

ويقال ما لم تباشر خلاصة الإيمان القلب يوجد كمال التسليم وترك الاختيار، وما دام يتحرك من العبد عزق في الاختيار فهو بعيد عن راحة الإيمان.

ولقد أجرى الله سُنتَه مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمال الثغمي إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان، والتجرد عن مساكنة ما فيه حظ ونصيب من كل معهود.

ويقال إن في هجرة الأنبياء - عليهم السلام - عن أوطانهم أماناً لهم من عادية الأعداء، وإحياء لقلوب قوم تقاصرت أقدامهم عن المسير إليهم.

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه؛ فيها لهم خلاص من البلايا، واستخلاص للكثيرين من البلايا.

قوله جل ذكره: ﴿يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

جحدُ الحق بعد وضوح برهانه عَلمٌ لاستكبار صاحبه، وهو - في الحال - في وحشة غيّه، مُعَاقَبٌ بالصد وتنعص العيش، يملُ حياته ويتمنى وفاته؛ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوا أَنْ غَيَّرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُوْتُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

التعريبُ في أوطان الكسل، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النفس، فهي بطبعها تؤثر في كل حال نصيبها، وتتعجل لذّة حظّها. ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النعم إلا بتجرّع كاسات الشدائد، والانسلاخ عن معهودات النصيب. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي إذا أراد الله - سبحانه - تخصيص عبد بولايته قضى على طوارق نفسه بالأقوال، وحكم لبعض شهواته بالذبول، وإلى طوالع الحقائق بإشراقها، ولجامع الموانع باستحقاقها.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

ليحق الحق بالتوفيق فيما يحصل ببذل المجهود، والتحقيق لما يظهر من عين الجود.

ويقال ليحق الحق بنشر أعلام الوصل، ويبطل الباطل بقره أقسام الهزل.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلِكِ مَرْبُوفٍ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة. والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاسة تيسيراً للمسؤول وتحقيق للمأمول. فإذا صدقت الاستغاثة بتعجل الإجابة حصلت الآمال وقضيت الحاجة.. بذلك جرت سُنَّةُ الكريمة.

ويقال بشرهم بالإمداد بالملك، ثم رفقهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من الملك، ولم يذره في المساكنة إلى الإمداد بالملك فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۝﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فالنجاة من البلاء حاصلة، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة، والدعوات مسموعة، والإجابة غير ممنوعة، وزوائد الإحسان متاحة، ولكن الله عزيز.

الطالب واجد ولكن بعطائه، والراغب واصل ولكن إلى مباره. والسيبل سهل ولكن إلى وجدان لطفه، فأما الحق فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقرب وبُعد، وما وصل أحد إلا إلى نصيبه، وما بقي أحد إلا عن حظه، وفي معناه أنشدوا:

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٍ وَلَا نُقْرِي
فَلَا بَذَلٌ إِلَّا مَا تَزَوَّدَ نَاطِرٌ وَلَا وَصَلَ إِلَّا بِالْجَمَالِ الَّذِي يَسْرِي

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يُنَشِّكُكُمْ الثُّعَاسُ أَمْنَهُ مِنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ۝﴾

عَشِيَمُ الثُّعَاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم ونفوسهم كد الأغيار والكلال، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن، وأمطرت السماء فاغتسلوا بعدما لزمتهم الطهارة الكبرى بسب الاحتلام، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام في رملها، وانفضى عن قلوبهم ما كانت الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناية بسلوك رملها وبالانتفاء عن الغسل، فلما (...) (١) الإحساس، واستمكن منهم الثُّعَاسُ، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قبل الله لا بسكونهم وحركتهم، وأشهدهم صرف التأيد وإتمام الكفاية.

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء المساء طَهَّرَ سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كل غير وكل علة، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوسوس، وربط على قلوبهم

(١) بياض في الأصل.

بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجري الحق من فنون التصريف .

قوله جل ذكره: ﴿وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ .

أقدام الظاهر في مَشايد القتال، وأقدام السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجاري التقدير .

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ .

عَرَفْنَا أَنَّ الملائكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وتثبيت الملائكة للمؤمنين: قيل كانوا يَظْهَرُونَ للمسلمين في صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم، وهم لا يعرفون أنهم ملائكة .

وقيل تثبتهم إياهم بأن كانوا يلقون في قلوبهم ذلك مِنْ جهة الخواطر، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك، فكما يُوصَلُ الحق سبحانه - وساوس الشيطان إلى القلوب يوصل خواطر المَلَكِ، وأيديهم بإلقاء الخوف والرعب في قلوب الكفار .

قوله جل ذكره: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ .

وذلك بأمر الله وتعريفه من جهة الوحي والكتاب، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم على أي وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليتهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً يوجب قتلهم؛ لأنه لا حياة بعد ضَرْبِ العُنُقِ . ولفظ فوق يكون صلة .

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي ضرباً يعجزهم عن الضرب ومقاتلة المسلمين؛ لأنه لا مقاتلة تحصل بعد فوات الأطراف .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بين أنهم في مغاليط حسابهم وأكاذيب ظنونهم والمُنشِئ - بكل وجه - الله؛ لانفراده بقدرة الإيجاد .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

يُنْهَلُ المجرم أياً ما ثم لا يهمله، بل يَذيقه بأس فعله، ويزيل عنه شبهة ظنه .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ .

ذلك العذاب فذوقوه - أيها المشركون - مُعْجَلًا، واعلموا أن للكافرين عذاباً مُؤْجَلًا، فللعاصين عقوبتان مُحْصَلٌ بنقد ومؤخَّرٌ بوعد .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُولَوْهُمْ الْأَدْبَارَ

وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَهُ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتْرَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِمَقْصَرٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يقول إذا لقيتم الكفار في المعركة زحفاً مجتمعين فائتوا لقتالهم، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفي الجهاد مع العدو، فالواجب الثبات عند الصولة - هذا في الظاهر، وفي الباطن جهاد مع الشيطان، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الرّلة؛ فَمَنْ وقف على حدّ الإمساك عن إجابته، بلا إنجاز لما يدعوه بوساوسه فَقَدْ وفى الجهاد حقّه.

وكذلك في مجاهدة النفس، فإذا وقف العبدُ عن إجابة النَّفس فيما تدعوه بهواجسها، ولم يُطِغْ شهوته فيها تحمله النفسُ عليه من البلاء إلى ابتغاء حظّه فقد وفى الجهاد حقّه.

والإشارة في قوله: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ بإيثار بعض الرُّخص ليتقوى على ما هو أشد؛ كأكله مثلاً ما يقيم ضلّته ليقوى على السَّهر، وكترفقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش، أو نفى مقاساة جوع أو بَرْدٍ أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه، ولاستدامة اتصال قلبه به، فإن تَرَكَ بعضُ أروادِ الظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة في أحكام واردة السرائر أَخَذَ في حقّ الجهاد بحزم.

والإشارة في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه في المجاهدة، ويُبقي شهوداً ما هم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته. ثم باستمداده من همم الشيوخ؛ فإن المريد ربيبُ هُمة شيخه، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهِمْ من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مرّيديهم من هِمَمِهِمْ، يجبرون كَسْرَهُمْ، ويتوبون منهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم. وَمَنْ أهمل مریداً وهو يعرف صِدْقَهُ، أو خَالَفَ شيخاً وهو يعرف فضله وَحَقَّهُ فقد بَاءَ من الله بسخطٍ، واللّه تعالى حسيبه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

الذي نفى عنهم من القتل، هو إماتة الروح وإثبات الموت، وهو من خصائص قدرته - سبحانه، والذي يوصفُ به الخلق من القتل هو ما يفعلونه في أنفسهم، ويحصل ذهاب الروح عقبيه.

وفائدة الآية قطع دعاوهم في قول كل واحد على جهة التفاخر قتلُ فلاناً، فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي لم تكن أفعالكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشئ والمبدئ هو الله عزّ وجل. وصانهم بهذه الآية وصان نبيّه - عليه السلام - عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ رَمَيْتَ اللَّهَ رَمِيًّا﴾.

أي ما رميت بنفسك ولكنك رميت بنا، فكان منه (صلوات الله عليه)^(١) قبضُ التراب وإرساله من يده ولكن من حيث الكسب، وكسبه موجد من الله بقدرته، وكان التبليغ والإصابة من قبل الله خلقاً وإبداعاً، وليس الذي أثبت ما نفي ولا نفي ما أثبت إلا هو، والفعل فَعَلَ واحد ولكن التغاير في جهة الفعل لا في عينه.

فقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فَرَّقَ، وقوله: ﴿وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ جمع. والفرق صفة العبودية، والجمع نعت الربوبية، وكل فرق لم يكن مُضْمَنًا بجمع وكل جمع لم يكن - في صفة العبد - مُؤَيِّدًا بفرق فصاحبه غير سديد الوتيرة.

وإن الحق - سبحانه - يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم، فيتيهون في أودية الحساب ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم، وذلك منه مكر بهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبْ أَنْهُمْ يَحْسِبُونَ ضَنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وأما أرباب التوحيد فيشهدهم مطالع التقدير، ويعرفهم جريان الحكم، ويريههم أنفسهم في أسر التصريف، وقهر الحكم. وأما الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيجري عليهم ما يُجْزِي (ما) لهم إحساس بذلك، مأخوذون يشبههم بشواهد النظر والتقدير، ويتولَّى حفظهم عن مخالفة الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾.

البلاء الاختبار، فيختبرهم مرة بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم، أو ذكْرهم أو نسيانهم.

«البلاء الحسن»: توفيق الشكر في المنحة، وتحقيق الصبر في المحبة، وكل ما يفعله الحق فهو حَسَنٌ من الحق لأنَّ له أن يفعله. وهذه حقيقة الحَسَن: وهو ما للفاعل أن يفعله.

ويقال حَسَنُ البلاء لأنه منه و (.. .)^(٢) البلاء لأنه فيه.

ويقال البلاء الحسن أن تشهد المُبْلِي في عين البلاء.

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إن كان نعمة، ولا شكوى إن كان محنة.

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إن كان عُسرًا، ولا بطر إن كان يسرًا.

ويقال بلاء كل أحد على حسب حاله ومقامه؛ فأصفاهم ولأه، قال عليه

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيهما السياق.

(٢) بياض في الأصل.

السلام: «أشدُّ الناس بلاءَ الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»^(١).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تنفيسٌ لقوم وتهديدٌ لقوم؛ أصحابُ الرِّفق يقول لهم إن الله «سميعٌ» لأنينكم؛ فَيَرْوِّحَ عليهم بهذا، وَقَتَّهْم، ويحمل عنهم ولاءهم، وأنشدوا:

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحةً
تمنى أن أشكو إليك فتسمعا
وقالوا:

قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنْفُسِ كيف أنت وكيف حالك؟
وأما الأكابر فلا يُؤدِّدُ لهم في التَّنْفُسِ، وتكون المطالبة متوجهة عليهم بالصبر،
والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهار ولا شكوى، فيقول: لو ترشح منك ما
كُلِّفْتَ بِشَرْهِهِ تَوَجَّهْتَ عليك الملامة، فإن لم يكن منك بيانٌ فإنني لقاتلك، عليهم
بحالتك.

ويقال في قوله «عليم» تسلية لأرباب البلاء؛ لأنَّ من عَلم أن مقصوده يعلم حاله
سهل عليه ما يقاسيه فيه، قال - سبحانه - لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَصِيقُ صَدْرَكَ بِمَا
يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

قوله جلَّ ذكره: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾.

موهن كيدهم: بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين، والثبات على انتظار الفضل
من قِبَلِ الله، وموهن كيدهم: بأن يأخذ الكافرين من حيث لا يشعرون، ويظفر جندُ
المسلمين عليهم.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾.

قال المشركون - يوم بدر^(٢) - اللهم انصر أَحَبَّ الْفِتْنَيْنِ إليك، فاستجاب دعاءهم
ونصر أَحَبَّ الْفِتْنَيْنِ إليه. . وهم المسلمون، فسألوا بالسنتهم هلاك أنفسهم، وذلك
لانجرارهم في مغاليط ما يُعَلَّقُونَ من ظنونهم، فهم توهَّموا استحقاق القرية، وكانوا في
عين الفرقة وحُكْمِ الشُّقَّةِ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم، والوقوع في شقائهم؛
فاختيارهم مُنُوا ببوارهم.

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣٢٥٣ - ٣٢٥٥ - ٦٧٨٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١١٦/٥، ١٢١/٨، ٥٦٠، ٥٢٣/٩).

(٢) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة. (معجم البلدان ١/٣٥٧، ٣٥٨).

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فزَلُّوا، فلما كُشِفَ السُّتْرُ خابوا وذَلُّوا، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا في ظنهم وضلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

فيغفر لكم ما قد سَلَفَ من خلاف محمد ﷺ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ليس المراد منه المبالغة؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثاني ليس في شر، وترك موافقتهم للرسول ﷺ - بكل وجه - هو شرٌ لهم، ولكنه أراد به في الأحوال الدنيوية، وعلى موجب ظنهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾.

يعني إن عُدْتُمْ إلى الجميل من السيرة عُدْنَا عليكم بجميل المِثَّةِ، وإن عاودتم الإقدام على الشرّ أعُدْنَا عليكم ما أذقناكم من الضّرّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنْ تَقِيَّ عَنَّا فَتُكْرِمُوا شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَنْ غَلَبَتْهُ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ لَمْ تَغْنِ عَنْهُ كَثْرَةُ الْعِدَّةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

الناس في طاعة الله على أقسام: فمطيعٌ لخوف عقوبته، ومطيعٌ طمعاً في مشوبته، وآخر تحقّقاً بعبوديته، وآخر تشرفاً بربوبيته.

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ! وأنشدوا:

أحبك يا شمسَ النهارِ وبَذَرَهُ وإن لأمني فيك السُّها والفراق^(١)

وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخرٌ وذاك لأنَّ العيشَ عندك باردٌ

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وفي ذلك نوع تخصيص، وحزب تفضيل يُلطَفُ عن العبارة وَيُبْعَدُ عن الإشارة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

أي تسمعون دعاءه إياكم، وتسمعون ما أنزَلَ عليه من دعائي إياكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

لا تكونوا ممن يشهد جهرًا، ويجحد سِرًّا.

ويقال لا تُقِرُّوا بلسانكم، وتصيروا على كفرانكم.

(١) السُّها: نجم خفي الضوء ملاصق للنجم الأوسط من الذيل في بنات نعش الكبرى. الفرقد: اسم لنجمين من نجوم الدب الأصفر، وهما فرقدان.

ويقال مَنْ نطق بتلبيسه تشهد الخبرة بتكذيبه .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

دواعي الحق بحسن البيان ناطقة، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة، وخواطر الغيب بكشف ظلم الرئب مُفَصِّحة، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة. فَمَنْ صُمَّ عَنْ إدراك ما خطب به سره، وعمي عن شهود ما كوشف به قلبه، وخَرَسَ - عن إجابة ما أرشده إليه من حجة - فَهَمُّهُ وعقله قُدُونٌ رُتْبَةُ البهائم قَدْرُهُ، وفوق كل (...) (١) من حكم الله ذلُّه وصغره .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ .

مَنْ أَقْصَتْهُ سوابقُ القسمة لم تُذِنه لواحقُ الخدمة، ومن عَلِمَهُ اللَّهُ بنعت الشُّقْوة حَرَمَهُ ما يوجب عَفْوَه .

ويقال لو كانوا في متناولات الرحمة لألبسهم صدار العصمة، ولكن سبق بالحرمان حكمهم، فختم بالضلالة أمرهم .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ .

أجاب واستجاب بمعنى مثل أوقد واستوقد، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية بأنها تكون طوعاً لا كرهاً، وفَرَّقَ بين من يجيب لخوفٍ أو طمع وبين من يستجيب لا بِعَوَضٍ ولا على ملاحظة غَرَضٍ . وحق الاستجابة أن تجيب بالكُلية من غير أن تَذَر من المستطاع بقية .

والمستجيبُ لربه محوٌّ عن كُله باستيلاء الحقيقة، والمستجيب للرسول - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له - سبحانه، وبالإستجابة للرسول؛ فالعبدُ المستجيبُ - على الحقيقة - مَنْ قام بالله سرّاً، واتصف بالشرع جهراً فيُفَرِّده الحقُّ - سبحانه - بحقائق الجمع و (...) (١) في مشاهدة الفرق، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير، ولا لمطالبات الشرع على أحواله تكير .

قوله جل ذكره: ﴿لِمَا يُمَيِّكُمُ﴾ .

إذ لَمَّا أفناهم عنهم أحياءهم به .

ويقال العابدون أحياءهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته، وأما العالمون

(١) بياض في الأصل .

فأحياءهم بدلائل ربوبيته، بعد ما أفناهم عن الجهل وظلمته. وأمّا المؤمنون فأحياءهم بنور موافقته بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم. وأمّا الموحّدون فأحياءهم بنور توحيده بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غير، والملاحظة لكل حدثان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

يصون القلب عن تقلب أربابها فيقلّبها كما يشاء هو، من بيان هداية وضلال، وغيبية ووصال، وحجبة وقربة، ويقين ومرية، وأنس ووحشة.

ويقال صان قلوب العبّاد عن الجنوح إلى الكسل، فجّدوا في معاملاتهم، وصان قلوب المريدين عن التعرّيج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلاتهم، وصان قلوب العارفين - على حدّ الاستقامة - عن الميل فتحققوا بدوام مواصلاتهم.

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لثلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله، فإذا سنع لهم أمر فليس لهم إلا الأغيار سبيل، ولا على قلوبهم تعويل. وكم بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربّه! كما قيل:

لا يهتدي قلبي إلى غيركم لأنه سُدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنفُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَكِيدُ الْعِقَابِ﴾.

احذروا أن ترتكبوا زلّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمّ شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطاها.

وغير المجرم لا يؤخذ بجُرم من أذنب، ولكن قد ينفرد أحدٌ بجرم فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرم، كأن يتعصبوا له إذا أُخذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً في الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقتها معه، ورضاه به، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر. فأما من جهة الإشارة: فإن العبد إذا باشر زلّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهي العقوبة المعجلة، وتصيب النُفس منها العقوبة المؤجلة، والقلب إذا حصلت منه فتنة الزلّة - عندما بهم بما لا يجوز - تعدّت فتنته إلى السّر وهي الحُجبة.

والمُقَدّم في شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى مُتَّبِعِيهِ وتلامذته، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً. ويقال إن

الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تَرْكِهم الأذكار أصابتهم فتنة ما فعلوه؛ فلقد قيل إنَّ السفية إذا لم يُثَّه مأمورٌ. فعلى هذا تصيب فتنة الزَّلة مرتكبها ومن تَرَكَ النَّهي عن المنكر - مثل مَنْ ترك الأمر بالمعروف - يؤخذ بِجُزْمِهِ.

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية - وإن كان من وجهٍ حلال - تؤدي فتنته إلى من يخرج به من المبتدئين، فبجملة ما أبدى من الرغبة في الدنيا، وتَرَكَ التقليل يؤدي إلى الانهماك في أودية الغفلة والأشغال الدنيوية.

والعابد إذا جَنَحَ عن الْأَشَقُّ وتَرَكَ الْأُولَى تعدَّى ذلك إلى من كان ينشط في المجاهدة؛ فيستوطنون الكسل، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة.

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حَظٌّ له، نَظَرَ إليه المريد، فتتداخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف.

وفي الجملة إذا غفل المَلِكُ، وتَشَاغَلَ عن سياسة رعيته تَعَطَّلَ الجندُ والرعية، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّةُ، وفي معناه أنشدوا:

رُعَاتُكَ ضَيَّعُوا - بالجهل منهم - غَنَائِمَاتٍ فَاسَتْهَا ذُنَابُ
﴿اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بتعجيله ذلك، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً لِيُعَاقِبَهُ لَا يُمَكِّنُهُ من تلافي موجب تلك العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَأَنْزَلَكُمْ وَيَذَرَكُمْ يَصْرَوْ﴾.

يَذْكُرُهُمْ ما كانوا فيه من الْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ وصنوف (.. .) ^(١) ثم ما نَقَلَهُمْ إليه من الإِمْكَانِ وَالْبَسْطَةِ، ووجوه الأمان والحيطة، وقَرَّبَهُمْ إلى إقامة الشكر على جزيل تلك الْقِسَمِ، وإدامة الحمد على جميل تلك النعم، فمَهَّدَ لَهُمْ في ظل أبوابه مقيلاً، ولم يجعل للعدوِّ إليهم - بِيَمْنٍ رعايته - سبيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

رَزَقَ الْأَشْبَاحَ وَالظَّوَاهِرَ من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف

(١) بياض في الأصل.

الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق في شهود المُنعم .
قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤمِّل منك بحق التعويل ، فخيانة الله بتضييع ما
 ائتمنتك عليه ، وذلك بمخالفة النصح في دينه ، وخيانة الرسول بالانصاف بمخالفة ما
 تبدي من مشايعته .

والخيانة في الأمانات بترك الإنصاف ، والانصاف بغير الصدق .
 وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن أوْثَمَنَ في مالٍ
 فتصرَّف فيه بغير إذن صاحبه - خيانة ، ومن أوْثَمَن على الحرْم فملاحظته إياهن -
 خيانة . فعلى هذا: الخيانة في الأعمال الدعوى فيها بأنها من قِبَلِك دون التحقيق بأنَّ
 مُثْبِتُهَا اللهُ .

والخيانة في الأحوال ملاحظتُك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في
 شهود الحق ، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحق . وإذا أَخْلَلْتَ بِسُنَّةٍ من السُّنَنِ أو
 أدبٍ من آداب الشَّرْع فلك خيانة الرسول ﷺ .

والخيانة في الأمانات - بينك وبين الخلق - تكون بإيثار نصيب نفسك على
 نصيب المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .
قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمُولُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ﴾ .

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرء - لأجل جمع ماله ولأجل أولاده -
 يرتكب ما هو خلاف الأمر ، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنة الاختبار؛ فيختبرك بالأموال . . هل تؤثرها على حق الله؟
 وبالأولاد . . هل تترك لأجلهم ما فيه رضاء الله؟
 فإن آثرتم حقَّه على حقِّكم ظهرت به فضيلتكم ، وإن اتصفتم بضدِّه عوملتكم بما
 يوجبه العكس من محبوبكم .

ويقال المال فتنة إذا كان عن الله يشغلكم ، والأولاد فتنة إذا لأجلهم قَصَرْتُمْ في
 حقِّ الله أو فَرَطْتُمْ .

ويقال المال - ما للكفاف والعفاف - نِعْمَةٌ ، وما للتقاصر والتفاخر فتنة ، وفي
 الجملة ما يشغلك عن الله فهو فتنة .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقْتُلُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ
 سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

الفرقان ما به يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهام قاهر، فالعلماء فرقائهم مجلوبٌ برهانهم، والعارفون فرقانهم موهوبٌ عرفانهم؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم، وهؤلاء بمقتضى جُودِ رَبِّهِمْ.

العرفانُ تعريفٌ من الله، والتكفيرُ تخفيفٌ من الله، والغفرانُ تشریفٌ للعبد من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَكَبَّرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَتَكَبَّرُونَ وَيَتَكَبَّرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

ذكره عظيمٌ مِثَّتِه عليه حيث خَلَّصَه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، وهموا بقتله، وحاولوا أن يمكروا به في السّر، فأعلمه الله ذلك.

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءة في السّر، والمكرُ من الله الجزاءُ على المكر، ويكون المكرُ بهم أَنْ يُلقِي في قلوبهم أَنَّهُ مُخْسِنٌ إليهم ثم - في التحقيق - يُعَذِّبهم، وإذا شَغَلَ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومهم إليها حتى يَنْسُوا أمر الآخرة، وذلك مكرٌ بهم، إذ يُوظِّنون نفوسهم عليها، فيتبيح لهم من مآمنهم سوءاً، ويأخذهم بغتةً.

ومن جملة مكره اغتزاز قوم بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس، وإجراء كثير من الطعاعات عليهم، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطة، وهم عن الله غافلون، وعند الناس أنهم مُكْرَمون، وفي معناه قيل:

وقد حسدوني في قرب داري منكم وكمن من قريب الدار وهو بعيد
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

قَرُطُ جهلهم، وشؤم جحدهم سَتَرَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان، وقديماً قيل:

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَ الامتحان ما يدعيه
ويقال لما لاحظوا القرآن بعين الاستصغار خرموا بركات الفهم فعُدَّوه من جملة أساطير الأولين، وكذلك من لا يراعي على حرمة الأولياء، يعاقبُ بأن تُسَتَرَ عليه أحوالهم، فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه، فيطلق فيهم لسان الوقية، وهو بذلك أحقُّ، كما قيل: «رَمَثْنِي بِدَائِهَا وَأَسَلَّتْ».

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ذَلَّ سِوَالِهِمُ الْعَذَابَ عَلَى تَصْمِيمِ عَقْدِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرِّسُولِ ﷺ، وَاسْتَيْقَنُوا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يُسْتَجَابُ فِيهِمْ مَا يَدْعُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

رَفِي هَذَا أَظْهَرَ دَلِيلَ عَلَى أَنَّ سَكُونَ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ لَيْسَ بِعِلْمٍ؛ لِأَنَّهُ كَمَا يَوْجَدُ مَعَ الْعِلْمِ يَوْجَدُ مَعَ الْجَهْلِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ أَسْلَافَهُمْ وَأَنْتَ فِي أَصْلَابِهِمْ، وَلَيْسَ يُعَذِّبُهُمُ الْيَوْمَ وَأَنْتَ فِيهِمْ إِنْجِلَالًا لِقُدْرِكَ، وَإِكْرَامًا لِمَحَلِّكَ، وَإِذَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْنِهِمْ فَلَا يُعَذِّبُهُمْ وَفِيهِمْ خَدَمُكَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ، فَلَا آيَةَ تَدُلُّ عَلَى تَشْرِيفِ قُدْرِ الرِّسُولِ - ﷺ.

وَيَقَالُ لِلْجَوَارِ حُرْمَةً، فَجَارُ الْكِرَامِ فِي ظِلِّ إِنْعَامِهِمْ؛ فَالْكَفَارُ إِنْ لَمْ يَنْعَمُوا بِقَرَبِ الرِّسُولِ - ﷺ - مِنْهُمْ فَقَدْ انْدَفَعَ الْعَذَابُ - بِمَجَاوِرَتِهِ - عَنْهُمْ:

وَأَحْبُهَا وَأَحَبُّ مَنْزِلِهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأَحَبُّ أَهْلِ الْمَنْزِلِ
وَيَقَالُ إِذَا كَانَ كَوْنُ الرِّسُولِ - ﷺ - فِي الْكَفَارِ يَمْنَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ فَكَوْنُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقُلُوبِ أَوْلَى بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهَا.

وَيَقَالُ إِنْ الْعَذَابَ - وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ مَدَّةَ مَقَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا مَا دَامَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمْ - فَلَا مُحَالَةَ يَصِيبُهُمُ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا الْإِعْتِبَارُ بِالْعَوَاقِبِ لَا بِالْأَوَاقَاتِ وَالطَّوَارِقِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

عِلْمُ أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَتَأَبَّدُ مُكُتُّهُ فِي أُمَّتِهِ إِذْ قَالَ لَهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَنْ قَبْلِكَ أَلَلَةً﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٤]، فَقَالَ إِنِّي لَا أَضِيعُ أُمَّتَهُ وَإِنْ قَضَى فِيهِمْ مُدَّتَهُ، فَمَا دَامَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ مُتَطَلِّعَةً فَصَنُوفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ مَرْتَفَعَةً.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾.

نَفَى الْعَذَابَ عَنْهُمْ فِي آيَةٍ، وَأَثْبَتَهُ فِي آيَةٍ، فَالْمَنْفِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْمُثَبَّتُ فِي الْآخِرَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ إِيصَالَ الْعَذَابِ إِلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ دَلِيلُ الْخُطَابِ أَنَّ إِعَانَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا فِيهِ قِيَامُ بِحَقِّ الدِّينِ يَوْجِبُ اسْتِحْقَاقَ الْقَرْبَةِ وَالثَّوَابِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَوْلِيَاءَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ فَإِذَا

عَذَّبَ مَنْ لَمْ يَكُونُوا أَوْلِيَاءَهُ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَعَذَّبُ مَنْ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ أَوْلِيَاءِهِ . وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَأَنَّهُ قَالَ : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة : ٢٥٧] . وَالْمُؤْمِنُونَ - وَإِنْ عَذَّبَ بِمِقْدَارِ جُزْئِهِ زَمَانًا فَإِنَّهُ لَا يُخْلَدُ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ ، فَمَا يُقَاسُونَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَأْيِيدِ الْخَلَاصِ جَلَلٌ ، وَقِيلَ :

إِذَا سَلِمَ الْعَهْدُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا فَوُذِيَ وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارُ سَلِيمٌ
قوله جل ذكره : ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وَلَيْسَ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ، وَهُمْ الَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرْكَ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا كَانَ صَبْلَانِهِمْ عِنْدَ آلِيبَتِ إِلَّا مُكَاةً وَتَصْدِيَةً﴾ .

تَجَرَّدَتْ أَعْمَالُهُمْ بِظَوَاهِرِهِمْ عَنْ خُلُوصِ عَقَائِدِهِمْ ، فَلَمْ يَوْجَدْ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَهَا احْتِسَابًا ؛ فَزَكَاءُ الْقَالَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ صَفَاءِ الْحَالَةِ ، وَعِنَاءِ الظَّاهِرِ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَعَ ضِيَاءِ السَّرَائِرِ .

قوله جل ذكره : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

كَانَ الْعَذَابُ مُعْجَلًا وَهُوَ حِسَابُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى .

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُخْسِرُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف : ١٠٤] ، وَمُؤْجَلًا وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد : ٣٤] .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ .

يُزَوِّمُونَ بِإِنْفَاقِهِمْ صُنُوفَ أَمْوَالِهِمْ صِلَاحًا وَنِظَامًا لِأَحْوَالِهِمْ ، ثُمَّ لَا يَخْطُونَ إِلَّا بِخُسْرَانٍ ، وَلَا يَحْصِلُونَ إِلَّا عَلَى نَقْصَانٍ . خَسِرُوا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَخَابُوا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ :

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفْرَسَ تَحْتِكَ أَمْ جِمَارٌ ؟

قوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ إِنَّهُمْ وَإِنْ أَلْهَتْهُمْ أَمْوَالُهُمْ فَلِإِلَى الْهَوَانِ وَالذُّلَّةِ مَالُهُمْ ، لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ، وَلَمْ تَنْفَعَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ، بَلْ خُتِمَتْ بِالشَّقَاوَةِ أَحْوَالُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَالِدُونَ﴾ .

الْخَبِيثُ مَا لَا يَصْلَحُ لِلَّهِ ، وَالطَّيِّبُ مَا يَصْلَحُ لِلَّهِ .

الْخَبِيثُ مَا حَكَمَ الشَّرْعُ بِقُبْحِهِ وَفَسَادِهِ ، وَالطَّيِّبُ مَا شَهِدَ الْعِلْمُ بِحُسْنِهِ وَصِلَاحِهِ .

ويقال الخبيث الكافر، والطيب المؤمن.

الخبيث ما شغل صاحبه عن الله، والطيب ما أوصل صاحبه إلى الله.

الخبيث ما يأخذه المرء وينفقه لحظ نفسه، والطيب ما ينفقه بأمر ربه.

الخبيث عمل الكافر يُصوّر له ويُعَذَّب بِإِلْقائه عليه، والطيب عمل المؤمن يُصوّر له في صورة جميلة فيحمل المؤمن عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إن كبّحوا لجام التمرد، وأقلعوا عن الركض في ميدان العناد والتجبر أزلنا عنهم صغار الهوان، وأوجبنا لهم رَوْح الأمان.

ويقال إن حلّوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد.

ويقال إن أبصروا قُبْحِ فعالهم جُذْنَا عليهم بإصلاح أحوالهم.

ويقال إن جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاعتذار.

ويقال إن عادوا إلى التَّصُلُّ^(١) أبحنا لهم حُسْنَ التَّقْضُل:

أناسٌ أعرضوا عَنَّا بلا جُرم ولا معنى

أساءوا ظَنُّهم فينا فهل أحسنوا الظنًّا

فإن كانوا لنا - كُئِيا، وإن عادوا لنا عُدنا

وإن كانوا قد استَغْنَوْا فإنا عنهم أغنى

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَلِّبُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلِمَةُ اللَّهِ فَلِإِنْ أَنْتَهُوا فَلِإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أمرهم بمقاتلة الكفار والإبلاغ فيها حتى تُستأصل شأفتهم بحيث يَأْسَ المسلمون مَضَرَّتْهم، ويَكْفُونَ بالكلية فتنهم. . . وَحَيَّةُ الوادي لا تُؤْمَنُ ما دامت تبقى فيها حركة؛ كذلك العدو إذا قُهر فحقه أن تُقتلَع جميع عروقه، وتُنْقَى رِبَاغُ الإسلام من كل شكيره^(٢) تنبت من الشرك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يَوْمَ الْمَوْتِ وَفَعَمَ الصَّيْرُ﴾.

فإن أبوا عُدُّوا، وعن الإيمان إلا بُبُوا، فلا على قلوبكم ظلّ مخافة منهم؛ فإن

(١) تنصّل فلان من ذنبه: تبرأ.

(٢) شكرت الشجرة تشكر شاكراً أي خرج منها الشكير: وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها. (اللسان ٤٢٦/٤).

اللَّهُ - سبحانه - وليُّ نصرتكم، ومتوليُّ كفايتكم؛ إن لم تكونوا بحيث نِعَمَ العبيد فهو نِعَمَ المولى لكم ونِعَمَ الناصر لكم.

ويقال نِعَمَ المولى لكم يوم قسمة العرفان، ونِعَمَ الناصر لكم يوم نعمة الغفران ويقال نِعَمَ المولى لك حين لم تكن، ونِعَمَ الناصر لك حين كنت.

ويقال نعم المولى بالتعريف قَبْلَ التكليف، ونِعَمَ الناصر لكم بالتخفيف والتضعيف؛ يُخَفِّفُ عنكم السيئات ويضاعف الحسنات:

وهو اك أول ما عَرَفْتُ مِنَ الهوى والقلب لا ينسى الحبيب الأول

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ النَّبِيِّ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَلَجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الغنيمة ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند المجاهدة والقتال معهم. فإذا لم يكن قتال - أو ما في معناه - فهو فَيْءٌ.

والجهاد قسمان: جهاد الظاهر مع الكفار، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان وهو الجهاد الأكبر - كما في الخبر^(١).

وكما أن في الجهاد الأصغر غنيمة عند الظفر، ففي الجهاد الأكبر غنيمة، وهو يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو: الهوى والشيطان. فبعد ما كانت ظواهره مقرًا للأعمال الذميمة، وباطنه مستقرًا للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مسكنَ الرضا، ومقرُّ الشهوات والمُنَى مُسَلِّمًا لِمَا يَرُدُّ عليه من مطالبات المولى، وتصير النفس مُسْتَلَبَةً مِنْ أَسْرِ الشهوات، والقلب مُخْتَلَفًا من وصف الغفلات، والروح مُنْتَزَعَةً من أيدي العلاقات، والسُّرُّ مَضُونًا عن الملاحظات. وتصبح غَاغَةُ النَّفْسِ مُنْهَزِمَةً، ورياسةُ الحقوق بالاستجابة لله خَافِقَةً.

وكما أن من جملة الغنيمة سَهْمًا لله وللرسول، وهو الخُمُسُ فمما هو غنيمة - على لسان الإشارة - سهمٌ خَالِصٌ لله؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب، لا من كرائم العُقبى، ولا من ثمرات التقريب، ولا من خصائص الإقبال، فيكون العبد عند ذلك

(١) الخبر هو قول الرسول ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٣٧٩، ٧/٢١٨)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/٧) والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٥١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٠٦)، والفنني في (تذكرة الموضوعات ١٩١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المتثرة في الأحاديث المشتهرة ٨٩).

مُخْرَرًا عَنْ رِقِّ كُلِّ نَصِيبٍ، خَالصًا لِلَّهِ بِاللَّهِ، يَمْحُو مَا سِوَى اللَّهِ، كَمَا قِيلَ :

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِيًا عَنْ حِظِّهِ وَعَنِ الْهَوَى وَالْإِنْسِ وَالْأَحْبَابِ
فَكَانَهُ - بَيْنَ الْمَرَاتِبِ - وَاقِفٌ لِمَنْتَالِ حِظٍّ أَوْ لِحُسْنِ ثَوَابٍ
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ .

يخبر - سبحانه - أنَّ ما جرى يَوْمَ بدرٍ من القتال، وما حَصَلَ من فنون الأحوال كان بحكم التقدير، لا بما يحصل من الخلق من التدبير، أو بحكم تقتضيه زَوِيَّة التفكير. بل لو كان ذلك على اختيار وتَوَاعُد، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتَبَاعُد، فجرى على ما جرى لِيَقْضِيَ الله أَمْرًا كان مقضيًا، وحصل من الأمور ما سَبَق به التقدير.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

أَي لِيُضِلَّ مَنْ زَاغَ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ لُزُومِهِ الْحُجَّةِ، وَيَهْتَدِيَ مَنْ أَقَامَ عَلَى الْحَقِّ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ.

ويقال الحقُّ أَوْضَحُ السَّبِيلِ وَنَضَبُ الدَّلِيلِ، وَلَكِنْ سَدَّ بَصَائِرَ قَوْمٍ عَنْ شُهُودِ الرُّشْدِ، وَفَتَحَ بَصَائِرَ آخَرِينَ لِإِدْرَاكِ طَرُقِ الْحَقِّ.

الهالك من وقع في أودية التفرقة، والحيُّ مَنْ حَيَّيَ بنور التعريف.

ويقال الهالك من كان بحظه مربوطًا، والحيُّ من كان من أسِرِ كُلِّ نَصِيبٍ مُسْتَلَبًا معذوبًا.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبًا لَفُتِنْتُمْ فَلْيُفْتِنُوا فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّرُورَ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَغْنَيْنِكُمْ قَلِيلًا يَقُولُ لَكُمْ فِي أَغْنِيَتِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

قِيلَ أَرَاهُ إِيَّاهُمْ فِي نَوْمِهِ - يُفْتِنُهُمْ - بوصف القلة، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة^(١) عليهم.

«قِيلَ أَرَاهُ فِي مَنَامِهِ أَي فِي مَحَلِّ نَوْمِهِ أَي فِي عَيْنِهِ، فَمَعْنَاهُ قَلَّلَهُمْ فِي عَيْنِهِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ اسْتَكْشَرُوهُمْ لَفُشِلُوا فِي قِتَالِهِمْ، وَلَا تَكْسُرَتْ بِذَلِكَ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ» .

(١) الجسارة: الشجاعة.

وفي الجملة أراد الله جريان ما حصل بينهم من القتال يوم بدر، وإنَّ الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه؛ فقلَّل الكفار في أعين المسلمين فزادوا جسارَةً، وقلَّل المسلمين في أعين الكفار فزادوا - عند نشاطهم إلى القتال - صغراً في حكم الله وخسارة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]: وكيف لا؟ ومنه تصدُر المقادير، وإليه تُرجع الأمور.

ويقال إذا أراد الله نصرة عبده فلو كاذ له جميع البشر، وأراده الكافة بكل ضررٍ، لا ينفع من شاء مَضَرَّتْهُ كَذٌّ، ويحصل بينه وبين متاح لطفه به سُدٌّ.

وإذا أراد بعبدٍ سوءاً فليس له رَدٌّ، ولا ينفعه كَذٌّ، ولا ينعشه بعد ما سقط في حكمه جهْدٌ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أراد إذا لقيتم فئة من المشركين فاثبتوا. والثبات إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة، والتحقق بالله، وشهود الحادثات كلها منه، فعند ذلك يستسلم الله، ويرضى بحكمه، ويتوقع منه حُسن الإعانة، ولهذا أحالهم على الذكر فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ويقال إنَّ جميع الخيرات في ثبات القلب، وبه تبيّن أقدار الرجال، فإذا وَرَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجِسٌ في نفسه يهيجه... فَمَنْ كان صاحب بصيرة تَوَقَّفَ ريثما تَتَبَيَّنَ له حقيقة الوارد، فيثبت لكونه رابط الجأش، ساكن القلب، صافي اللب... وهذا نعت الأكابر.

قوله جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

الموافقة بين المسلمين أصل الدين. وأول الفساد ورأس الزلل الاختلاف. وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة.

قال تعالى في صفة الكفار: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، وإنما تتحد عزائم المسلم لأنهم كلهم يجمعهم التبري من حولهم وقوتهم، ويتمحضون في رجوعهم إلى الله، وشهودهم التقدير، فيتحذون في هذه الحالة الواحدة.

وأما الذين توهَّموا الحادثات من أنفسهم فضَّلُوا في ساحات حسابانهم، وأجزوا الأمور على ما يسنح لرأيهم، فكلُّ يَبْنِي على ما يقع له ويختار، فإذا تنازعوا تَشَعَّبَتْ

بهم الآراء، وافترقت بهم الطرق، فيضعفون، وتختلف طُرُقهم. وكما تجب في الدين طاعة رسول الله - ﷺ - تجب طاعة أولي الأمر، ولهذا يجب في كل وقت نَصُبُ إمام للمسلمين، ثم لا تجوز مخالفته، قال النبي - ﷺ -: «أطيعوه ولو كان عبداً مجده»^(١) وكان الرسول - ﷺ - إذا بعث سرية^(٢) أمر عليهم أميراً وقال: «عليكم بالسواد الأعظم»^(٣).

وإجماع المسلمين حُجَّةٌ، وصلاة الجماعة سُنةٌ مؤكدة، والاتباع محمودٌ والابتداع ضلالة.

قوله ﴿واضربوا﴾ الصبر حَبْسُ النَّفْسِ على الشيء، والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يتولى بالكافية إذا حصل منهم الثبات وحسن التفويض. قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

يريد أن أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير^(٤) مَلَكْتَهُمُ العِزَّةَ، واستمكن منهم البَطَرُ، ودَاحَلَهُمُ رِثَاءُ النَّاسِ، فارتكبوا في شَبَاكِ غَلَطِهِمْ، وحصلوا على ما لم يحتسبوه. وأما المؤمنون فَنَصَرَهُمْ نَصْرًا عَزِيزًا، وأزال عن نبيّه - عليه السلام - ما أَظْلَمَهُ من الخوف وبِصْدَقِ تبريه عن حوله ومُتَيْتِهِ - حين قال: «لا تكنني إلى نفسي»^(٥) - كفاه بحسن التوليّ فقال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الشيطان إذا زَيْنَ للإنسان بوساوسه أمراً، والنفس إذا سَوَّلَتْ له شيئاً عَمِيَتْ بصائرُ أرباب الغفلة عن شهود صواب الرُّشد، فيبقى الغافل في قياد وساوسه، ثم تلحقه هواجمُ التقدير من كوامن المكر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يفي بما

(١) هناك رواية أخرى للحديث: «إن أمر عليكم عبدٌ مجذع...» أخرجه مسلم (حجج ٣١١) والترمذي (جهاد ٢٨)، وابن ماجه (جهاد ٣٩)، وأحمد بن حنبل ٤، ٧٠، ٥، ٣٨١، ٦، ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢) السرية: قطعة من الجيش (ج) سرايا.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة ٣٩/١)، والقرطبي في (التفسير ٥٦/١٤).

(٤) العير: القوم معهم حملهم من الميرة. يقل للرجال وللجمال معاً، ولكل واحد منهما دون الآخر.

(٥) سبق تخريجه.

يَعِدُّهُ، ولا النفس شيئاً مما تتمنّاه تجده، وكما قال القائل :

أَحْسَنْتَ ظَنُّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالِمْتُكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَخْدُثُ الْكَدَرُ
قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمَنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إن أصحاب الغفلة وأرباب الغرّة إذا هبّت رياح صَوْلَتِهِمْ في زمان غفلتهم يلاحظون أهل الحقيقة بعين الاستحقار، ويحكمون عليهم بضعف الحال، وينسبونهم إلى الضلال، ويعدونهم من جملة الجهّال، وذلك في زمان الفترة ومدة مهلة أهل الغيبة.

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم، يرون الغائبات عن الحواس يعيون البصيرة من وراء ستر رقيق؛ فلا الطوارق تهزمهم، ولا هواجس الوقت تستفزهم^(١)، وعن قريب يلوح علّم اليُسْرِ، وتنجلي سحائب العُسر، ويمحق اللّه كيد الكائدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْهَبْنَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

يُسْلِيهِمْ عندما يُقَاسُونَ من اختبارات التقدير بما يُذكّرهم زوال المحنة، وشك رُوح اليسر، وسرعة حصول النصر، وحلول النقم بمرتكبي الظلم. والمؤمن كثير الظفر؛ فإذا شاهد بأرباب الجرائم حلول الانتقام رقّ قلبه لهم، فلا ينخرط في سلك الشماتة؛ إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام، بل يجب أن يكون كل أحد بحسن الصفة، وكما قيل.

قَوْمٌ إِذَا ظَلَمُوا بَنَانَا جَانَدُوا بَعِثَتْ رِقَابِنَا

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

يُعرفهم أنّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الْوَطْأَةِ جَزَاءٌ لَهُمْ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ مِنْ قَبِيحِ الزَّلَّةِ، كما قيل:

سَأَلْنَتْ فِينَا سَنَنَا قَذَفَ الْبَلَايَا عُقْبَهُ

يَصِيرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ بَرَّ يَوْمَ رَبِّهِ

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن البوادة والهجوم: الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع. (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّغَافِلٍ﴾ أي كيفما يعاملهم في السراء والضراء فذلك منه حسن وعذل، إذ المُلْكُ مُلْكُهُ، والخلقُ خلقُهُ، والحكمُ حُكْمُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنٌ وَالَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوْبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

لَمَّا سَلَكُوا مَسْلَكَ أَهْلِ فِرْعَوْنَ فِي الضَّلَالِ، سَلَكْنَا بِهِمْ مَسْلَكَهُمْ فِيمَا أَذَقْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَسُوءِ الْحَالِ، وَسُئَةُ اللَّهِ أَلَا تَغْيِيرَ فِي الْإِنْعَامِ، وَعَادَتُهُ أَلَا تَبْدِيلَ فِي الْإِنْتِقَامِ، وَمَنْ لَمْ يَغْتَبِزْ بِمَا يَشْهَدُ اغْتَبَزَ بِمَا يَصْنَعُهُ بِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُعَيَّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفِرُّوا مِمَّا بَنَفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إِذَا أَنْعَمَ الْحَقُّ - سبحانه - عَلَى قَوْمٍ نِّعْمَةً وَأَرَادَ إِمْهَالَهُمْ أَكْرَمَهُمْ بِتَوْفِيقِ الشُّكْرِ، فَإِذَا شَكَرُوا نِعْمَتَهُ فَبَقَدَرَ الشُّكْرَ دَامَتْ فِيهِمْ.

وَإِذَا أَرَادَ - سبحانه - إِزَالََةَ نِعْمَةٍ عَنْ عَبْدٍ أَذَلَّهُ بِخِذْلَانِ الْكُفْرِ، فَإِذَا خَالَ عَنْ طَرِيقِ الشُّكْرِ عَرَّضَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ. فَمَا دَامَ الْعَبْدُ يَشْكُرُ النِّعْمَةَ مَقِيمًا كَانَ الْحَقُّ فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِ مُدِيمًا، فَإِذَا قَابَلَ النِّعْمَةَ بِالْكَفْرِ انْتَشَرَ مَسْلُكُ نِظَامِهِ، فَبَقَدَرَ مَا يَزِيدُ فِي إِصْرَارِهِ يَزُولُ الْأَمْرُ عَنْ قَرَارِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فِرْعَوْنٌ وَالَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُّوْبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

تَنَوَّعَتْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ الذُّنُوبُ فَتَنَوَّعَ لَهُمُ الْعُقُوبَةُ، وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ: عُوقِبُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ لَمَّا ارْتَكَبُوا أَنْوَاعًا مِنَ الزُّلَّةِ.

وفائدة تكرار ذكرهم تأكيد في التعريف أنه لا يهمل المُكَلَّفَ أصلاً، وإن أهمله حيناً ودهراً.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: فِي سَابِقِ عِلْمِهِ وَصَادِقِ حُكْمِهِ؛ إِذَا كَانُوا فِي عِلْمِهِ شَرُّ الْخَلَائِقِ فَكَيْفَ يَسْعُدُونَ بِاخْتِلَافِ السَّعَايَاتِ وَصُنُوفِ الطَّوَارِقِ؟

هيئات أن تتبدل الحقائق!

وَإِذَا قَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ - وَكَلَامُهُ صِدْقٌ وَقَوْلُهُ حَقٌّ - فَلَمْ يَبْقَ لِلرَّجَاءِ فِيهِمْ مَسَاحٌ، وَلَا يَنْجِعُ فِيهِمْ نَضْجٌ وَإِبْلَاحٌ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقَوْنَ﴾.

أي الذين صار نقض العهد لهم سجية؛ فلم يذروا من استفراغ الوسع في جهلهم بقية.

وإن من الكبائر التي لا غفران لها من هذه الطريق أن ينقض العبد عهداً، أو يترك عهداً التزمه بقلبه مع الله. أولئك الذين سقطوا عن (...) (١) الله، فرفع عنهم ظل العناية والعصمة.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّهٗمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مِّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

يريد إن صادفت واحداً من هؤلاء الذين دأبهم نقض العهد فاجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم لئلا يسلكوا طريقهم فيستوجبوا عقوبتهم.

كذلك من فسح عقده مع الله بقلبه برجوعه إلى رخص التأويلات، وتزوله إلى السكون مع العادات يجعله الله نكالا لمن بعده، بحرمانه ما كان خوِّله، وتنغيصه عليه ما من حظوظه أمَّله، فيفوته حق الله، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله:

تبدلت وتبدلنا واحسرتا لمن ابتغى عوضاً ليلي فلم يجد
قوله جل ذكره: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِنِينَ﴾.

يريد إذا تحققت بخيانة قوم منهم فصرح بأنه لا عهد بينك وبينهم، فإذا حصلت الخيانة زال سمُّ الأمانة، وخيانت كل أحد على ما يليق بحاله، ومن ضن بميسور له فقد خان في عهده، وزاغ عن جده، وعقوبته مُعَجَّلة، فهو لا يحبُّه الله، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾.

كيف يعارض الحق أو ينازعه من في قبضته ثقله، وبقدرته تصرفه، وبتصرفه إياه عدمه وثبوته.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

أعدوا لقتال الأعداء ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة، وأنتمها قوة القلب بالله، والناس فيها مختلفون: فواحد يقوى قلبه بموعود نصره، وآخر يقوى قلبه بأن الحق عالم بحاله، وآخر يقوى قلبه لتحقيقه بأن يشهد من ربه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وآخر يقوى قلبه بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه، وآخر يقوى قلبه برضاء بما يفعله مولاه به.

ويقال أقوى محبة للعبد في مجاهدة العبد وتبريه عن حاله وقوته .

قوله جل ذكره: ﴿ تَرْهَبُونَ يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها، أو لاشتفاء صدره من قضية حق، بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا .

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

بعث الله نبيه - ﷺ - بالرحمة والشفقة على الخلق، وبمسالمة الكفار رجاء أن يؤمنوا في المستأنف فإن أبوا فليس يخرج أحد عن قبضة العزة .

ويقال العبودية الوقوف حيثما وقفت؛ إن أمرت بالقتال فلا تقصُر، وإن أمرت بالمواعدة فمرحبا بالمسالمة، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ في الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخير، فيوفقك لما فيه الأولى، ويختار لك ما فيه من قسبي الأمر - في الحرب وفي الصلح - ما هو الأعلى .

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّيْلِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَفْتَقَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

أي إن لبسوا عليك، وراموا خداعك بطلب الصلح منك - وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه - فإن الله كافيك، فلا تشغل قلبك بغفلتك عن شر ما يكيدونك؛ فإني أعلم ما لا تعلم، وأقدر على ما لا تقدر .

هو الذي بنصره أفرذك، وبلطفه أيدك، وعن كل سوء ونصيب طهرك، وعن رق الأشياء جرذك، وفي جميع الأحوال كان لك .

هو الذي أيدك بمن آمن بك من المؤمنين، وهو الذي ألفت بين قلوبهم المختلفة فجَمَعَهَا على الدين، وإيثارِ رضا الحق. ولو كان ذلك يحيل الخلق ما انتظمت هذه الجملة، ولو أبلغت بكل ميسور من الأفعال، وبذلت كل مستطاع من المال - لما وصلت إليه .

قوله جل ذكره: ﴿ يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أحسن التأويلات في هذه الآية أن تكون «مَنْ» في محل النصب؛ أي ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله .

ومن التأويلات في العربية أن تكون «مَنْ» في محل الرفع أي حسبك مَنْ اتبعك من المؤمنين .

وقد عَلِمَ أن استقلال الرسول - ﷺ - كان بالله لا بمن سوى الله، وكلُّ مَنْ هو سوى الله فمحتاجٌ إلى نصرته الله، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرته الله.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلا ازداد بقلبه قوة، لأن الاستقلال بقوة النفس نتيجة الغفلة، وقوة القلب بالله - سبحانه - على الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُونَ يَقْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَقْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَقْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَقْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هذا لهم، فأما النبي - ﷺ - فهو بتوحيده كان مؤملاً بأن يثبت لجميع الكفار لكمال قوته بالله تعالى، قال عليه السلام: «بك أصول»^(١)، وفي تحريضه للمؤمنين على القتال كانت لهم قوة، وبأمر الله كانت لهم قوة؛ فقوة الصحابة كانت بالنبي - عليه الصلاة والسلام، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه... وشأن ما هما!

قوله: ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: والضعف الذي علم فيهم كان ضعف الأشباح فحققت عنهم، أما القلوب فلم يتداخلها الضعف فحمل من ممارسة القتال بالعدو المذكور في الكتاب.

والعوام يحملون المشاق بنفوسهم وجسومهم، والخواص بقلوبهم وهمهم، وقالوا: «والقلب يحمل ما لا يحمل البدن» وقال آخر.

وإن تروني أعاديها فلا عجب على النفوس جنائيات من الهَمَم
قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرٌّ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي لا ينبغي لنبي من الأنبياء - عليهم السلام - أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفداء، بل الواجب عليه أن يثخن في الأرض أي يبالغ في قتل أعدائه - إذ يقال أثنخه المرض إذا اشتد عليه. وقد أخذ النبي - ﷺ - يوم بدر منهم الفداء، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصمته، ولكن لو قاتلتم كان أولى. وأراد «بعرص الدنيا» أخذ الفداء، والله جعل الفداء، والله جعل رضا في أن يقتلهم،

(١) أخرجه العقيلي في (الضعفاء ٢٩٩/٣).

وحرمة الشرع خلافاً رحمة الطبع؛ فشرط العبودية أن يؤثر العبدُ الله، وإذا كان الأمر بالغِلظة فكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾: بالانتقام من أعدائه «حكيم»: في جميع ما يصنع من التملك والإملاك، والتيسير والتدبير.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. لولا أن الله حكم في آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد ﷺ وأُمَّته لَمَسَّكُمْ - لأجل ما أخذتم من الفداء منهم يوم بدر - عذاب عظيم، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿تَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. الحلال ما كان مأذوناً فيه، والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلاً، وليس لك من قبلك استحقاقاً.

ويقال الحلال الصافي ما لم ينس صاحبه فيه معبوده^(١).

ويقال هو الذي لا يكون صاحبه عن شهود ربه - عند أخذه - غافلاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ مِّنْ أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَضِلَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الذي يغفرونه خير مما أخذ منهم. ويحتمل أن يكون ما في الآخرة من حسن الثواب، ويحتمل أن يكون ما في الدنيا من جميل العوض. ويقال هو ما يوصلهم إليه من توفيق الطاعات، وحلاوة الإيمان، وهو خير مما أخذ منهم.

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر، بعدما كانوا أغنياء في حال الشرك.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد إن عادوا إلى قتالك بعدما مننت عليهم بالإطلاق وخانوا عهدك، فالخيانة لهم دأب وطريقة، ثم إننا نمكّنك منهم ثانياً كما أمكّنك من أسرهم أولاً، وقيل:

إِنْ عَادَتْ الْعَقْرِبُ مَعْدُنَا لَهَا وَكَانَتِ السُّغُلُ لَهَا حَاضِرَةً
نُونُهُ جَلْ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
رَأَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ شَيْءٍ

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١١٢.

حَتَّىٰ يَهِاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾

ذَكَرَ صِفَةَ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ الرَّسُولِ - ﷺ - وَصَفْتَهُمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ هَاجَرُوا مَعَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، ثُمَّ ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ.

أَمَّا الَّذِينَ آوَوْا فَهُمْ الْأَنْصَارُ؛ آوَوْا الرَّسُولَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَالْمُؤْمِنِينَ.

فَهَذَانِ الْفَرِيقَانِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي النَّصْرَةِ وَالدِّينِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ لَمْ يَهِاجِرُوا فَلَيْسَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْمَوَالَاةُ إِلَى أَنْ يَهِاجِرُوا، وَإِنْ اسْتَعَانُوا بِكُمْ فَعَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ وَهُمْ الْمُعَاهِدُونَ مَعَكُمْ.

وَكَمَالُ الْهَجْرَةِ مَفَارَقَةُ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، وَهَجْرَانِ النَّفْسِ فِي تَرْكِ إِجَابَتِهَا إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ شَهَوَاتِهَا. وَمِنْ ذَلِكَ هَجْرَانِ إِخْوَانِ السُّوءِ، وَالتَّبَاعِدُ عَنِ الْأَوْطَانِ الَّتِي بَاشَرَ الْعَبْدُ فِيهَا الزَّلَّةَ، ثُمَّ الْهَجْرَةُ مِنْ أَوْطَانِ الْحُظُوظِ إِلَى أَوْطَانِ رِضَاءِ الْحَقِّ^(١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَفَضَرُوا﴾ فَهُمْ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ إِخْوَانَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، عَوَّامٌ هَؤُلَاءِ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَخَوَاصُّهُمْ فِي الْكَرَائِمِ فِي الْآخِرَةِ، وَخَاصُّ الْخَاصِّ فِي كُلِّ مَا يَصُحُّ بِهِ الْإِثْبَاتُ مِنْ سُنَنِ الْأَحْوَالِ إِلَى مَا لَا يَدْرِكُ الْوَهْمَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَفَضَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

قَطَعَ الْعَصْمَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَالْمُؤْمِنُ لِلْأَجَانِبِ مُجَانِبٌ، وَلِلْأَقَارِبِ مُقَارِبٌ. وَالْكَفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ، كَمَا قِيلَ: «طِيرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْفِ تَقَعُ».

سَوَّلَهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يُرِيدُ مَنْ سَلَكَ مَسَلَكَهُمْ فِي الْحَالِ، وَمَنْ سِيلَحَقَ بِهِمْ فِي الْإِسْتِقْبَالِ وَآتَى الْأَحْوَالَ فَالْإِئْتِاقُ تَجْمُعُهُمْ، وَالْوِلَايَةُ تَشْمَلُهُمْ، فَلَهُمْ مِنَ اللَّهِ فِي الْعَقَبَىٰ جَزِيلُ الثَّوَابِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ. وَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا الْوِلَايَةُ وَالتَّنَاصُرُ، وَالْمُودَّةُ وَالتَّقَارُبُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) قال القشيري برسانته مؤكداً على أهمية السفر: «... والشأن الذين يخرجون إلى الحج من هؤلاء القوم من غير إشارة الشيوخ فهي بدلالات نشاط النفوس، فهم متوسمون بهذه الطريقة، وليس سفرهم عملياً أصلاً، والذي يدل على ذلك أنه لا يزداد سفرهم، إلا وتزداد تفرقة قلوبهم، فلو أنهم ارتحلوا من أنفسهم بخطوة، لكان أسخطى لهم من ألف سفرة...» (الرسالة القشيرية ص ٣٨٥، ٣٨٤).

السورة التي تذكر فيها التوبة

جرّد الله - سبحانه - هذه السورة عن ذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» ليُعْلَمَ أنه يَخُصُّ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ، ويُفَرِّدُ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ، ليس لِصُنْعِهِ سَبَبٌ، وليس له في أفعاله عَرَضٌ ولا أَرَبٌ، وَاتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ في الكتاب لأنها مُنَزَّلَةٌ، وبالأمر هنالك مُحَصَّلَةٌ.

وَمَنْ قال: إنه لم يذكر التسمية في هذه السورة لأنها مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو - وإن كان وجهاً في الإشارة - فضعيفٌ، وفي التحقيق كالبعيد؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١] وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِعْكِالُ هُمْزٍ لَمَزَتْ﴾ [الهمزة: ١] وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] وقوله: ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]... هذه كلها مفاتيح للسور... وبسم الله الرحمن الرحيم مُثَبَّتَةٌ في أوائلها - وإن كانت مُتَضَمِّنَةٌ ذِكْرَ الكفار - على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإن تَضَمَّنَتْهُ تلويحاً، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة.

ويقال إذا كان تجرّد السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحزني أن يُخْشَى أن تجرّد الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١٠].

الفراق شديدٌ، وأشدُّه ألا يَعْقُبَهُ وصال، وفراق المشركين كذلك لأنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويقال مَنْ مُنِيَ بفراق أحبائه فبُهِتَتْ صحبته. وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد، ولا شك أنهم كانوا قد وطّنوا نفوسهم عليه، فنزل الخبر من الغيب بغتةً، وأتاهم الإعلام بالفرقة فجأةً، فقال: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١]، أي هذه براءة من الله ورسوله، كما قيل:

فَبِتَّ بخيرٍ - والدُّنَى مطمئنةٌ وأصبحت يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا
وما أشدَّ الفُرْقَةَ - لا سِيَّما إذا كانت بغتةً على غير تَرْقُبٍ - قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وأنشدوا:

وكان سراج الوصلِ أزهَر بيننا فهبَّت به ريح من البين فانطفأ
قوله جلّ ذكره: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

إِنْ قَطَعَ عَنْهُمْ الْوَصْلَةَ فَقَدْ ضَرَبَ لَهُمْ مَدَّةً عَلَى وَجْهِ الْمُهْلَةِ، فَأَمَّنْهُمْ فِي الْحَالِ لِيَتَأَهَّبُوا لِتَحْمِلِ مَقَاسَةِ الْبِرَاءَةِ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ فِي الْمَالِ.

والإشارة فيه: أنهم إِنْ أَقْلَعُوا فِي هَذِهِ الْمُهْلَةِ عَنِ الْعَيِّ وَالضَّلَالِ وَجَدُوا فِي الْمَالِ مَا فَقَدُوا مِنَ الْوَصَالِ، وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا التَّمَادِي فِي تَرْكِ الْخِدْمَةِ وَالْحَرَمَةِ انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم مِنَ الْعَصْمَةِ.

ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ والإشارة فيه: إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَى قَبِيحِ آثَارِكُمْ سَعَيْتُمْ إِلَى هَلَاكِكُمْ بِقَدَمِكُمْ. وَنَدِمْتُمْ فِي عَاجِلِكُمْ عَلَى سَعْيِكُمْ، وَحَصُلْتُمْ فِي آجِلِكُمْ عَلَى خَسْرَانِكُمْ؛ وَمَا خَسِرْتُمْ إِلَّا فِي صَفَقَتِكُمْ، وَمَا ضَرَّ جُزْمُكُمْ سِوَاكُمْ وَأَنْشَدُوا:

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْسَرْتَا مَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِلَّيْلِ فَلَمْ يَجِدِ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.

أَي لِيَكُنْ إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِلنَّاسِ بِنَقْضِ عَهْدِهِمْ، وَإِعْلَانٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مَا انْقَطَعُوا عَنْ مَأْلُوفِهِمْ مِنَ الْإِهْمَالِ وَمَعْهُدِهِمْ، وَقَدْ بَرَحَ الْخِفَاءُ مِنَ الْيَوْمِ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وِلَاءٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ بِمَا عَقَدُوا وَفَاءً، فَلْيَعْلَمِ الْكَافَّةُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ، وَأَنْشَدُوا:

أَشَاعُوا لَنَا فِي الْحَيِّ أَشْنَعَ قِصَّةٍ وَكَانُوا لَنَا سِلْمًا فَصَارُوا لَنَا حَرْبًا
قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

مَنْ رَأَى مِنَ الْأَغْيَارِ - شَطِيئَةً مِنَ الْآثَارِ، وَلَمْ يَرَ حَصُولَهَا بِتَضْرِيْفِ الْأَقْدَارِ فَقَدْ أَشْرَكَ - فِي التَّحْقِيقِ - وَاسْتَوْجَبَ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ.

وَمَنْ لَاحَظَ الْخُلُقَ تَصْغَةً، أَوْ طَالَعَ نَفْسَهُ إِعْجَابًا فَقَدْ جَعَلَ مَا لِلَّهِ لَغِيرِ اللَّهِ، وَظَنَّ مَا لِلَّهِ لَغَيْرِ اللَّهِ، فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِن تَبُتُّمْ فَأَنْتُمْ لَكُفَّارٌ لِّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَشَرِّ الْأَلْبَانِ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيِهِ﴾.

إِنْ عَادُوا إِلَى الْبَابِ لَمْ يَقْطَعْ رَجَاءَهُمْ، وَمَدَّ إِلَى حَدِّ وَضُوحِ الْعُذْرِ إِرْجَاءَهُمْ. وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ إِنْ أَصْرَرُوا عَلَى عُتُوبِهِمْ فَلَيْ مَا لَا يُطِيقُونَ مِنَ الْعَذَابِ مُنْقَلِبُهُمْ، وَفِي النَّارِ مَثْوَاهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لَبِئِهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

من وفى الحق في عقده فزده على حفظ عهده؛ إذ لا يستوي من وفاه ومن جفاه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾.

يريد إذا انسَلَخَ الْحُرُمُ فاقتلوا من لا عهد له من المشركين، فإنهم - وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حُرُمًا - جعل لهم الأمان في مدة هذه المهلة، (....) (١) فكرتم يأمر بترك قتال من أبى كيف يرضى بقطع وصال من أتى؟!

قوله جل ذكره: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

أمرهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء.

وأغدى عدوك نفسك التي بين جنبيك؛ فسيل العبد في مباشرة الجهاد الأكبر مع النفس بالتضييق عليها بالمبالغة في جميع أنواع الرياضات، واستفراغ الوسع في القيام بصدق المعاملات. ومن تلك الجملة ألا ينزل بساحات الرخص والتأويلات، ويأخذ بالأسق في جميع الحالات.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حقيقة التوبة الرجوع بالكلية من غير أن تترك بقية. فإذا أسلم الكافر بعد شركه، ولم يقصّر في واجب عليه من قسَمَ فعله وتركه، حصل الإذن في تخلية سبيله وفكه: إن وجدنا لما ادّعينت شهوداً لم تجذ عندنا الحق حدوداً

وكذلك النفس إذا انخنست، وآثار البشرية إذا اندرست، فلا خرج - في التحقيق - في المعاملات في أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكاشفات. والجلوس مع الله أولى من القيام بباب الله تعالى، قال تعالى فيما ورد به الخبر: «أنا جليس من ذكرني» (٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَأْمَنُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

(٢) أخرجه المعجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

إذا استجار المُشْرِكُ - اليوم - فلا يُرَدُّ حتى يسمع كلام الله، فإذا استجار المؤمن طول عمره من الفراق - متى يُنْتَعَم من سماع كلام الله؟ ومتى يكون في زمرة من يقال لهم: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وإذا قال - اليوم - عن أعدائه: ﴿فَأَجِرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ فإن لم يؤمن بعد سماع كلامه نُهي عن تعرضه حيث قال: ﴿ثُمَّ أُتِلِّغَهُ مَا أَنَّمُ﴾ - أترى أنه لا يؤمن أولياءه - غداً - من فراقه، وقد عاشوا اليوم على إيمانه ووفائه؟! كلا... إنه يمتحنهم بذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا كان هذا برّه بمن لا يعلم فكيف برّه بمن يعلم؟

ومتى نُضَيِّعَ مَنْ يَنْبِيحُ بِبَابِنَا والمُغْبِرِضُونَ لَهُمْ نَعِيمٌ وإفِرُّ؟! قوله جل ذكره: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِيبُ الْمُتَّقِينَ﴾.

كيف يكون المُفْلِسُ من عرفانه كالمخلص في إيمانه؟

وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده؟

كيف يكون مَنْ يقول «أنا» كمن يقول «أنت»؟ وأنشدوا:

وأحبابنا شتان: وافٍ وناقص ولا يستوي قطُّ مُحِبٍّ وباغض

قوله: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، إن تَمَسَّكُوا بحبل وفائنا أحللناهم ولأنا، وإن زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدنا، ثم لم يَزْبُحُوا في بُغْدِنَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾: المتقي الذي يستحق محبة مَنْ يَتَّقِي؛ وذلك حين يتقي محبة نفسه، وذلك بِتَرْكِ حظه والقيام بحق ربه.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْفَرُكُمْ فَاتِغَوَّسُوا﴾.

وَصَفَّهِم بلُؤْم الطبع فقال: كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمره لكم من سوء الرضاء؟ فلو ظفروا بكم واستولوا عليكم لم يُراعوا لكم حُرْمَةً، ولم يحفظوا لكم قرابة أو ذِمَّةً.

وفي هذا إشارة إلى أنَّ الكريم إذا ظفِرَ غَفَرَ، وإذا قدر ما غَدَرَ، فيما أسرَّ وجَهَرَ.

قوله: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا عَجَبَ مِنْ طَبْعِهِمْ؛ فإنهم في

حقناً كذلك يفعلون: يُظهِرُونَ لِبَاسِ الْإِيمَانِ وَيُضْمِرُونَ الْكُفْرَ. وإنهم لذلك يعيشون معكم في زِيِّ الْوَفَاقِ، ويستبطنون عين الشَّقَاقِ وسوء التَّفَاقِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بِغَيْرِ اللَّهِ أَرْخَصَ فِي صَفَقَتِهِ ثُمَّ إِنَّهُ خَسِرَ فِي تِجَارَتِهِ؛ فَلَا لَهُ - وهو عن الله - أثر استمتاع، ولا له - في دونه سبحانه - اقتناع؛ بَقِيَ عن الله، ولم يستمتع عن الله. وهذا هو الخسران المبين.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾. كيف يراعي حق المؤمنين مَنْ لا يراعي حقَّ الله في الله؟ أخلاقهم تشابهت في تَرْكِ الحُرْمَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَنُّوا فِي الَّذِينَ وَنَفَصِلَ آلَآبَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

معناه: وإن قبلناهم وصلحوا لولائنا فلُحْمَةٌ^(١) النَّسَبِ في الدِّينِ بينكم وبينهم وشيعة^(٢)، وإلا فليكن الأجانبُ مِنَّا على جانبٍ منكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِن تَكُونُوا آمَنْتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا﴾.

إذا جنحوا إلى الغَدْرِ، ونكثوا ما قدَّموه من ضمان الوفاء بالعهد، ويسطوا ألسنتهم فيكم باللوم فاقصدوا مَنْ رَحَى الْفِتْنَةَ عليه تدور، وغَضَضُ الشَّرِّ مِنْ أَصْلِهِ يَتَشَعَّبُ، وهم سادة الكفار وقادتهم.

وحقُّ القتالِ إعدادُ القوةِ جهراً، والتبرُّي عن الحول والقوة سراً.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا لَتُنِيلُنَّ قَوْمًا أَنْكَرُوا آمَنْتَهُمْ وَهَكُنُوا إِيْخْرَاجَ الرُّسُلِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

حَرَضَهُمْ على القتال - على ملاحظة أمرِ الله بذلك - لا على مقتضى الانطواء على الحقد لأحد، فَإِنَّ مَنْ غَضِبَ لِنَفْسِهِ فمذموم الوصف، وَمَنْ غَضِبَ لله فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

وقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾: فالخشية من الله بشير الوضلة، والخشية من غير الله نذير الفُرْقَةِ. وحقيقة الخشية تَقْضُ الشَّرَّ عن ارتكاب الرُّجْر ومخالفة الأمر.

قوله جل ذكره: ﴿فَتِلْكَ لَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ اللَّهِ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ

(١) اللُّحْمَةُ: القرابة. (٢) الوشيعة: القرابة المشتبكة المتصلة (ج) وشائج.

صُدُّورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيَذْهَبُ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

هوَنَ عليهم كلفةُ المخاطرة بالمهجة بما وَعَدَهُم مِنَ الظَّفَرِ والنصرة، فإنَّ شهودَ خِزْيِ العدوِّ مما يَهُونُ عليهم مقاساةُ السوءِ. والظَّفَرُ بالأَرْبِ (١) يَذْهَبُ تَعَبَ الطَّلَبِ.

وشفاءُ صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات؛ فمنهم مَنْ شفاء صدره في قَهْرِ عدوِّه، ومنهم مَنْ شفاء صدره في نيلِ مَرْجُوِّه. ومنهم مَنْ شفاء صدره في الظَّفَرِ بمطلوبه، ومنهم مَنْ شفاء صدره في لقاء محبوبه. ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهابُ غيظِ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتنوعُ أبوابه، وفيما ذَكَرْنَا تلويحٌ لِمَا تركنا.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ حتى يكون استقلاله بمحوِّ الأحوال.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُقْنَعُ منه بالدعوى - دون التحقق بالمعنى - فهو على غَلَطٍ في حسابه. والذي طال بهم به من حيث الأمر صِدْقُ المجاهدة في الله، وتركُ الركونِ إلى غير الله، والتباعدُ عن مُسَاكَنَةِ أعداءِ الله.. ثِقَّةً بالله، واكتفاءً بالله، وتبرياً من غير الله.

وهذا الذي أمرهم به ألا يتخذوا من دون المؤمنين وليجةً (٢) فالمعنى فيه: ألا يُقْسُوا في الكفارِ أسرارَ المؤمنين.

وأولُ مَنْ يهجره المسلم - لثلا تَطَّلَعَ على الأسرار - نَفْسُهُ التي هي أعدى عدوِّه، وفي هذا المعنى قال قائلهم:

كنابي إليكم بعد موتي بليلةٍ ولم أدِرْ أُنِّي بعد مَوْتِي أَكْتُبُ

ويقال: إن أبا يزيد (٣) - فيما أُخْبِرَ عنه - أنه قال للحقِّ في بعض أوقات مكاشفاته: كيف أطلبك؟ فقال له: فَارِقُ نَفْسِكَ.

(١) الأرب: الحاجة والبغيَّة والأمنية (ج) آراب.

(٢) الوليجة: من تتخذ معتمداً عليه من غير أهلك. (ج) ولائج.

(٣) هو طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، ويقال: بايزيد (١٨٨ - ٢٦١ هـ = ٨٠٤ - ٨٧٥ م) زاهد مشهور له أخبار كثيرة. نسبة إلى بسطام أصله منها، ووفاته فيها، وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء، ويُعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية. الاعلام ٣/ ٢٣٥، وطبقات الصوفية ٦٧ - ٧٤، ووفيات الأعيان ١/ ٢٤٠، وميزان الاعتدال ١/ ٤٨١، وحلية ١٠/ ٣٣، والشعراني ١/ ٦٥، الرسالة القشيرية ص ٣٩٥ - ٣٩٧.

ويقال إن ذلك لا يتم، بل لا تحصل منه شطيئة إلا بكَيِّ غُرُوقِ الأطماع والمطالبات لِمَا في الدنيا وَلِمَا في العقبى وَلِمَا في رؤية الحال والمقام - ولو بِذَرَّةٍ. والحرية عزيزة... قال قائلهم:

أتمنى على الزمان مُحَالاً أن ترى مُقْلَسَايَ طُلْعَةً حُرّاً
قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

عمارة المساجد بإقامة العبادة فيها، والعبادة لا تُقْبَلُ إلا بالإخلاص، والمُشْرِكُ فاقِدُ الإخلاص، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحدّثان بتأثير الأسباب، فمن أثبت في عقده جواز ذَرَّةٍ في العالم من غير تقديره - سبحانه - شارك أرباب الشُرْك في المعنى الذي لزمهم به هذه السُمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَوْ يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ فَمَسَوْنِ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية، فالعابد يُعْمَرُها بتخريب أوطان شهوته، والزاهد يعمرها بتخريب أوطان مُنيته، والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته، والمؤخِّد يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُساكنته. وكلّ واحدٍ منهم واقفٌ في صفته؛ فلصاحب كلّ موقفٍ منهم وصفٌ مخصوص.

وكذلك رَتَّبَهُم في الإيمان مختلفة؛ فإيمانٌ من حيث البرهان، وإيمان من حيث البيان، وإيمان من حيث العيان، وشتان ما هم! قال قائلهم:

لا تغرِضَنَّ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِمْ ليس الصحيح - إذا مشى - كالمُقْعَدِ
قوله جلّ ذكره: ﴿أَجْعَلْنِي سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سرائره، ولا مَنْ اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشمس معارفه، ولا مَنْ نُصِبَ الباب من حيث الخدمة كمن مُكِّن من البِساط من حيث القربة وليس نغثٌ مَنْ تَكَلَّفَ نِفَاقاً كوصفٍ مَنْ تَحَقَّقَ وَفَاقاً، بينهما بَوْنٌ^(١) بعيد!

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

(١) البون: مسافة ما بين الشيتين. يقال: بينهما بون بعيد؛ أي: بين درجتيهما أو بين اعتبارهما في الشرف.

﴿أَمْنُوا﴾ أي شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبق في سماء يقينهم سحاب رَيْب، ولا في هواء معارفهم ضباب شك.

﴿وَهَاجَرُوا﴾: فلم يُعْرَجُوا في أوطان التفرقة؛ فَتَمَحَّضَتْ^(١) حركاتهم وسكناتهم بالله الله.

﴿وَجَهَدُوا﴾: لا على ملاحظة غَرَضٍ أو مطالعة عَوَضٍ؛ فلم يَدَّخِرُوا لأنفسهم - مِنْ ميسورهم - شيئاً إلا أثروا الحق عليه؛ فَظَفِرُوا بالنعمة؛ في قيامهم بالحق بعد فنائهم عن الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

البشارة من الله تعالى على قسمين: بشارة بواسطة المَلَك، عند التوفي:

﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَك، إذ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ برحمة منه، وذلك عند الحساب. يبشرهم بلا واسطة بِحُسْنِ التولي؛ فعاجلُ بشارتهم بنعمة الله، وأجلُ بشارتهم برحمة الله، وشتان ما هما!

ويقال البشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان، فأصحاب الإحسان صَلَحَ أمرهم للشهرة فَأَظْهَرَ أَمْرُهُمُ لِلْمَلَكِ حتى بَشَرُوهم جَهْرًا، وأهل العصيان صلح حالهم للسر فتولَّى بشارتهم - مِنْ غير واسطة سرًّا.

ويقال إن كانت للمطيع بشارة بالاختصاص فإنَّ للعاصي بشارة بالخلاص. وإن كان للمطيع بشارة بالدرجات فإن للعاصي بشارة بالنجاة.

ويقال إنَّ القلوب مجبولة على محبة من يُبَشِّرُ بالخير؛ فأراد الحق - سبحانه - أن تكون محبة العبد له - سبحانه - على الخصوص؛ فتولَّى بشارته بعزیز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١] وفي معناه أنشدوا:

لولا تَمَتُّعٌ مُّقْلَتِي بلقائه لوَهَبْتُهَا بُشْرَى بِقرب إيايه

ويقال بَشَّرَ العاصي بالرحمة، والمطيع بالرضوان، ثم الكافة بالجنة؛ فقدم العاصي في الذكر، وقدم المطيع بالبر، فالذكر قوله وهو قديم والبر طوُّه وهو عميم وقوله الذي لم يزل أعزُّ مِنْ طوِّه الذي حصل. قدَّم العصاة على المطيعين لأنَّ ضَعْفَ الضعيف أولى بالرفق من القوي.

(١) المنحصر من كل شيء: الخالص.

ويقال قدّم أمر العاصي بالرحمة حتى إذا كان يوم العَرْضِ وحضور الجمع لا يفتضح العاصي.

ويقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ﴾ يُعَرِّفُهُمْ أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من تلك الدرجات بسعيهم وطاعتهم، ولكن برحمته - سبحانه - وصلوا إلى نعمته، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يُنَجِّيه عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(١).

قوله: ﴿لَمْ يَهَيِّأْ نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾: قوم نعيمهم عطاء ربهم على وصف التمام، وقوم نعيمهم لقاء ربهم على نعت الدوام؛ فالعابدون لهم تمام عطائه، والعارفون لهم دوام لقائه.

ثم قال: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ والكناية في قوله «فيها» كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة، سيما وقد ذكر الأجر بعدها؛ فكما لا يقطع عطائه عنهم في الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا في الجنة، قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ﴾ [الواقعة: ٣٣] أي لا مقطوعة عنهم نعمته، ولا ممنوعة منهم رؤيته.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. من لم يضلخ بطاعته لربه لا تستخلصه لصحة نفيسك.

ويقال من أثر على الله شيئاً يبارك له فيه؛ فيبقى بذلك عن الله، ثم لا يبقّي ذلك معه، فإن استبقاه بجهد - كيف يستبقى حياته إذا أذن الله في ذهاب أجله؟ وفي معناه أنشدوا:

مَنْ لَمْ تَزَلْ نَعْمَتُهُ قَبْلَهُ زَالَ مَعَ النِّعْمَةِ بِالمَوْتِ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمْ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ليس هذا تخبيراً لهم، ولا إذناً لهم، ولا إذناً في إشار الحظوظ على الحقوق، ولكنه غاية التحذير والزجر عن إشار شيء من الحظوظ على الدين،

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٤٤، ٥١٩)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/

٤١٦، ١٨٤/٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٩٧)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/

٢٩٥)، وأبو نعيم (حلية الأولياء ٨/ ٣٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣/ ٣٦٣).

ومرور الأيام حَكَمَ عَذْلٌ يَكْثِفُ في العاقبة عن أسرار التقدير، قال قائلهم:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أَقْرَسَ تَحْتِكَ أم حمار؟

ويقال علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران المعهودات والاكتفاء بالله في دوام الحالات.

ويقال مَنْ كَسَدَتْ سَوْقٌ دَيْنَهُ كَسَدَتْ أسواقُ حظوظه، وما لم تَخُلْ منك مَنَازِلُ الحظوظ لا تَعْمُرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

النصرة من الله تعالى في شهود القدرة، والمنصور مَنْ عَصَمَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ عن التوَهُم والحسبان، ولم يَكَلِّهِ إلى تدبيره في الأمور، وأثبتته الحق - سبحانه - في مقام الافتقار متبرياً عن الحَوْل والمُنَّة، مُتَحَقِّقاً بشهود تصاريف القدرة، يَأْخُذُ الحق - سبحانه - بيده فيخرجه عن مهواة تدبيره. ويوقفه على وصف التصبُّر لقضاء تقديره.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾.

يعني نَصَرَكُم يَوْمَ حُنَيْنٍ^(١) حين تَفَرَّقَ أكثرُ الأصحاب، وافترت أنياب الكَرَّة عن نِقَاب القَهْر فاضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها، ولم تُغْنِ عنكم كَثْرَتُكُمْ، فاستخلص الله أسراركم - عند صدق الرجوع إليه - بِحُسْنِ السكينة النازلة عليكم، فَقَلَبَ الله الأمرَ على الأعداء، وَخَفَقَتْ راياتُ النصر، ووقعت الدائرة على الكفار، وارتدت الهزيمة عليهم فرجعوا صاغرين.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

السكينة ثُلُجُ القلب عند جريان حُكْم الرب بنعت الطمأنينة، وخمود أثار البشرية بالكلية، والرضاء بالبادي من الغيب من غير معارضة اختيار.

ويقال السكينة القرار على بساط الشهود بشواهد الصحو، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة، وبلا تحريك عزقٍ لمعارضة حُكْم. والسكينة المنزلة على ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ خمودهم تحت جريان ما وَرَدَ من الغيب من غير كراهة بنوازع البشرية، واختطاف الحق إياهم عنهم حتى لم تستفزهم رهبة من مخلوق؛ فَسَكَنَتْ عنهم كلُّ إرادة واختيار.

(١) يوم حُنَيْن: وهو اليوم الذي ذكره جل وعز في كتابه الكريم وهو قريب من مكة، وقيل: هو واد قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز. (معجم البلدان ٢/٣١٣).

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّهُ تَرَوُّهَا﴾ من وفور اليقين وزوائد الاستبصار .
 ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتطوح في متاهات التفرقة ، والسقوط في وهدة ضيق
 التدبير ، ومِحْنَةِ الْعُقْلَةِ ، والغَيْبَةِ عن شهود التقدير .

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .
 ردهم من الجهل إلى حقائق العلم ، ثم ثَقَلَهُمْ من تلك المنازل إلى مشاهد
 اليقين ، ثم رَقَّاهُمْ عن تلك الجملة بما لَقَّاهُمْ به من عين الجمع .
 قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَكَذَا﴾ .

فقدوا طهارة الأسرار بماءٍ بالتوحيد؛ فبقوا في قذورات الظنون والأوهام ، فَمُنِعُوا
 قُرْبَانَ المساجد التي هي مشاهد القرب . وأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فطَهَّرَهُمْ عن التدنُّس بشهود
 الأغيار ، فطالعوا الحقَّ قَرْدًا فيما يُبَيِّنُهُ مِنَ الْأَمْرِ وَيُضَيِّعُهُ مِنَ الْحُكْمِ .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّهُ
 اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

تَوَقَّعُ الْأَرْزَاقِ مِنَ الْأَسْبَابِ من قضايا انغلاق باب التوحيد ، فَمَنْ لَمْ يَفْرُدْ مَعْبُودَهُ
 بالقسمة بقي في فقرٍ مُسَرَّمِدٍ .
 ويقال مَنْ أَنَاخَ بِغُفْوَةٍ كَرَّمَ مَوْلَاهُ ، واستمطر سَحَابَ جُودِهِ أَغْنَاهُ عن كل سبب ،
 وكفاه كل تَعَبٍ ، وقضى له كلَّ سُؤْلِ وَأَرْبٍ ، وأعطاه من غير طلب .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا
 حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ
 يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

مَنْ اسْتَوْجَبَ الْهَوَانَ لَا يَنْجِيكَ مِنْ شَرِّهِ غَيْرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِذْلَالِ عَلَى صَغَرِهِ ،
 وَمَنْ دَاهَنَ عَدُوَّهُ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَلْقَى سُوءَهُ .
 وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ لَكَ عِدَاوَةً ، وأبعدهم عن الإيمان - نَفْسُكَ الْمَجْبُولَةُ عَلَى الشَّرِّ
 فَلَا تُقْلِعُ إِلَّا بِذَبْحِهَا بِمُذَيَّةِ الْمَجَاهِدَاتِ . وهي لا تَوْمِنُ بِالتَّقْدِيرِ ، ولا يَزُولُ شَكُّهَا قَطْ ،
 وكذلك تَخْلُدُ إِلَى التَّدْبِيرِ ، ولا تَسْكُنُ إِلَّا بِوُجُودِ الْمَعْلُومِ ، ولا تَقْبَلُ مِنْكَ إِلَّا كَاذِبَ
 المواعيد ، ولذلك قالوا:

وَأَكْذِبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَتْهَا فَإِنَّ صِدْقَ الْقَوْلِ يَذِرِي بِالْأَمَلِ
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ
 اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ .

لو كان هذا في مخاطب المخلوقين لكان عين الشكوى؛ والشكوى إلى الأحياء تشير إلى تحقق الوصلة.

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم، وكم بين من تشكو منه وبين من تشكو إليه!!

قوله جل ذكره: ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَّ يُؤْتِكُون﴾.

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية، وهؤلاء أقروا بالله، ثم لما أثبتوا له الولد نقضوا ما أقروا به من التوحيد، فصاروا كالكفار قبلهم.

ويحتمل أن تكون مضاهاة قولهم في وصف المعبود بأن عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقول الكفار قبلهم إن الملائكة بنات الله.

ويقال لما وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفعهم صدقهم في الإقرار بربوبيته مما أضافوا إليه من سوء القالة. وكل من أطلق في وصفه ما يتقدس - سبحانه - عنه فهو للأعداء مشاكيل في استحقاق الندم والتوبخ.

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ آيَاتٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كما لا تجوز مجاوزة الحد في وضع القدر لا تجوز مجاوزة الحد في رفع القدر، وفي الخبر: «أُمرنا أن نُنزل الناس منازلهم»^(١).

فمن رأى من المخلوقين شظية من الإبداع أنزلهم منزلة الأرباب، وذلك - في التحقيق - شذو، وما أخلص في التوحيد من لم ير جميع الحادثات بصفاتها (...)^(٢) من الله.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾: فمن رفع في عقده مخلوقاً فوق قدره فقد أشرك بربه.

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيعَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (المقدمة ٦)، والسيوطي في الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المنتشرة ٢١)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٢٤، ٢/ ٢٦٢).

(٢) بياض في الأصل.

من رام أن يستر شعاع الشمس بدخان يوجهه من نيرانه، أو عالج أن يمنع حكم السماء بحيلته، وتدبيره، أو يُسْقِطَ نجوم الفَلَكِ بسهام قوسه - أظهرُ رُعوْنته ثم لم يَخْطُ بمراحه. كذلك مَنْ تَوَهَّم أن سُنَّةَ التوحيد يعلوها وَهَجُ الشُّبْه فقد خاب في ظنِّه، وانفضح في وهمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

أزاح العِلَل بما ألح من الحُجَج، وأزال الشُّبْه بما أفصح من النهج؛ فشموسُ الحق طالعة، وأدلة الشرع لامعة، كما قالوا:

هي الشمسُ إلا للشمس غيبةٌ وهذا الذي نعينه ليس يغيب
قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَبَاءُكُونِ
أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَسْطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

العالمُ إذا ارتفق بأموال الناس عَوْضاً عما يُعلِّمهم زالت بركاتُ علمه، ولم يَطْبُ في طريق الزهد مَطْعَمُه.

والعارفُ إذا انتفع بخدمة المريد، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثارُ هِمَّتِه، ولم تُجَدِ في حكم التوحيد حالته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لهم في الآجل عقوبة. والذين لا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلهم في العاجل حجة. وقليلٌ من عباده من سَلِمَ من الحجاب في مُحْتَظَرِه والعقاب في مُنْتَظَرِه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

لَمَّا طلبوا الجاه عند الخلق بما لهم، وبخلوا بإخراج حقِّ الله عنه شَانِ وجوهمهم. ولَمَّا أسندوا ظهورهم إلى أموالهم. قال تعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ويقال: لَمَّا (عبسوا) في وجوه العفاة وعقدوا حواجِبهم وَضِعَتْ الكِيَّةُ على تلك الجباه المقبوضة عند رؤية الفقراء، وَلَمَّا طَوَّزُوا كَشْحَهُم دون الفقراء - إذا جالسوهم - وَضَعَ العِكَوَّةُ على جُنُوبِهِم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.

لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يُدَاوِمُونَ عَلَى مُلَازِمَةِ الْقُرْبِ أَفْرَدَ بَعْضَ الشُّهُورِ بِالْتَفْضِيلِ، لِيُخَصِّصَهَا بِاسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ فِيهَا. فَأَمَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عِبَادِهِ فَجَمِيعُ الشُّهُورِ لَهُمْ شِعْبَانُ وَرَمَضَانُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ لَهُمْ جُمُعَةٌ، وَجَمِيعُ الْبُقَاعِ لَهُمْ مَسْجِدٌ... وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشُدْ بَعْضَهُمْ.

يَا رَبُّ إِنِّي جِهَادِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ وَكُلُّ أَرْضٍ لِي تُغْرُ طَرَسُوسُ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قَالَ لِلْعَوَامِّ: لَا تَظْلِمُوا فِي بَعْضِ الشُّهُورِ أَنْفُسَكُمْ، يَعْنِي بَارْتِكَابِ الزُّلَّةِ. وَأَمَّا الْخَوَاصُّ فَمَأْمُورُونَ أَلَّا يَظْلِمُوا فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ قُلُوبَهُمْ بِاحْتِقَابِ الْغَفْلَةِ. وَيُقَالُ: الظُّلْمُ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ زِمَامَهُ بِيَدِ شَهْوَاتِهِ، فَتُورِدُهُ مَوَاطِنَ الْهَلَاكِ.

وَيُقَالُ: الظُّلْمُ عَلَى النَّفْسِ بِخِدْمَةِ الْمَخْلُوقِينَ بَدَلِ طَاعَةِ الْحَقِّ.
وَيُقَالُ: مَنْ ظَلَمَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْمُضَاجَعَاتِ امْتَحِنَ بِعَدَمِ الصَّفْوَةِ فِي مَرُورِ الْأَوْقَاتِ.
﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: وَلَا سِلَاحَ أَمْضَى عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ تَبَرُّكِكَ عَنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ^(٢) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُبْغِلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُمْ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّهُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

الدِّينُ مِلَاحِظَةُ الْأَمْرِ وَمُجَانِبَةُ الْوِزْرِ^(٣) وَتَرْكُ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سَبِيحَانَهُ - فِي جَمِيعِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ، فَالْأَجَالَ فِي الطَّاعَاتِ مُضْرُوبَةٌ، وَالتَّوْفِيقُ فِي عِرْفَانِهِ مُتَّبَعٌ، وَالصَّلَاحُ فِي الْأُمُورِ بِالْإِقَامَةِ عَلَى نَعْتِ الْعِبَادِيَّةِ؛ فَالشَّهْرُ مَا سَمَّاهُ اللَّهُ شَهْرًا، وَالْعَامُ وَالْحَوْلُ مَا أَغْلَمَ الْخَلْقُ أَنَّهُ قَدَرُ مَا بَيَّنَّهُ شَرْعًا.

(١) طرسوس: مدينة في تركيا (قيليقيا). كانت من العواصم. فتحها المأمون ٧٨٨ م. وفيها دفن الرسالة القيسرية ص ٢٧٥.

(٢) النسيء: تأخير حرمة المحرم إلى صفر زمن الجاهلية لكي يُستباح القتال فيه.

(٣) الوزر: الإثم والذنب.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

عائبهم على ترك البدار عند توجيه الأمر، وانتهاز فرصة الرخصة. وأمرهم بالجد في العزم، والقصد في الفعل؛ فالجنوح إلى التكاسل، والاسترواح إلى التناقل أمارات ضعف الإيمان إذ الإيمان غريم ملازم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشق، وملابسة الأخق. قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: وهل يَجْمَلُ بالعابد أن يختار دنياه على عقباه؟

وهل يحسن بالعارف أن يؤثر هواه على رضا مولاه؟ وأنشدوا.
أيجمل بالأحباب ما قد فعلوا مضوا وانصرفوا يا ليتهم قفلوا
إن غيبة يوم للزاهد عن الباب تغدل شهوراً، وغيبة لحظة للعارف عن البساط
تعدل دهوراً، وأنشدوا:

الإلف لا يضير عن إلفه أكثر من طرفة عين^(١)
وقد صبرنا عنكم ساعة ما هكذا فعل محبين
قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

العذاب الأليم إذا أعرض العبد عن الطاعة ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما يرده إلى الباب.

العذاب الأليم أن ينلته حلاوة التجوى إذا أب.

العذاب الأليم الصدود يوم الورود، وقيل:

واعدونى بالوصال - والوصال عذب - ورموني بالصدود والصد صعب

العذاب الأليم الوعيد بالفراق، فأما نفس الفراق فهو تمام التألف، وأنشدوا:

ورعمت أن البين منك غداً هذ بذلك من يعيش غداً

قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يصرف ما كان من إقباله عليه إلى غيره من أشكاله، وليس كل من حفر بشراً يشرب من معينها، وأنشدوا:

تسقي رباحين الحفاظ مدامعي وسواي في روض التواصل يزتع

(١) الإلف: المألوف.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

من عزيز تلك النصرة أنه لم يستأنس بثانية الذي كان معه بل رد الصديق إلى الله، ونهاه عن مساكته إياه، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١).

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

ويقال من تلك النصرة إبقاؤه إياه في كشوفاته في تلك الحالة، ولولا نصرته لتلاشى تحت سطوات كُشفه.

ويقال كان - عليه السلام - أماناً أهل الأرض على الحقيقة، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وجعله - في الظاهر - في أمان العنكبوت حين نَسَجَ خَيْطَهُ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَخَلَصَهُ مِنْ كَيْدِهِمْ.

ويقال لو دخل هذا الغار لا تشق نسيج العنكبوت... فيا عجباً كيف سَتَرَ قِصَّةَ حَبِيْبِهِ - صلوات الله عليه وعلى آله وسلم!.

ويقال صحيح ما قالوا: للبقاع دول، فما خَطَرَ بَبَالٍ أَحَدٍ أَنَّ تِلْكَ الْغَارَ تَصِيرُ مَأْوَى ذَلِكَ السَّيِّدِ - ﷺ! ولكنه يختص بقسمته ما يشاء ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ويقال ليست الغيران كلها مأوى الحيات، فمنها ما هو مأوى الأحياب. ويقال علق قلب قوم بالعرش فطلبوا الحق منه، وهو تعالى يقول:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فهو سبحانه - وإن تقدَّس عن كل مكان - ولكن في هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وأنشدوا:

يا طالبَ الله في العرشِ الرفيعِ به لا تطلب العرش إن المجد في الغار

وفي الآية دليل على تحقيق صحبة الصديق - رضي الله عنه - حيث سمَّاه الله سبحانه صاحبه، وعَدَّ ثانيه، في الإيمان ثانيه، وفي الغار ثانيه ثم في القبر ضجيعه، وفي الجنة يكون رفيقه.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٥، ٦، ٨٣)، ومسلم في (الصحيح فضائل الصحابة ب ١ رقم ١) وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦٨/٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٣/١٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٣٢٥/٨)، وابن أبي عاصم في (السنن ٢/٥٧٦) وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١٤٩/١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٤٤٠/٣)، وصاحب (الأذكار النورية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤٣٥/٥، ٤٣٤/١١، ١٣٤/١٢) وابن حبان في (المجروحين ٢٩٥/١).

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ﴾.

الكناية في الهاء من «عليه» تعود إلى الرسول عليه السلام، ويحتمل أن تكون عائدة إلى الصديق رضي الله عنه، فإن حُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الانفراد، فقد قال عز وجل لجميع المؤمنين: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤].

وقال للصديق - على التخصيص - فأنزل الله سكينته عليه، كما قال النبي ﷺ: «إن الله يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة».

وإنما كان حزن الصديق ذلك اليوم لأجل الرسول - ﷺ - إشفاقاً عليه . . لا لأجل نفسه . ثم إنه - عليه السلام - نفي حزنه وسلاّه بأن قال: ﴿لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ النَّاسِ﴾، وحزن لا يذهب إلا لِمَعِيَةِ الْحَقِّ لا يكون إلا «لِحَقِّ الْحَقِّ»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّكُمْ يَجُودُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْفُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد به النبي ﷺ. وتلك الجنود وفود زوائد اليقين على أسرارته بتجلي الكشوفات.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ بإظهار حُجج دينه، وتمهيد سُبُل حَقِّه وبقينه؛ فرايات الحق إلى الأبد عالية، وتمويهات الباطل واهية، وجزب الحق منصورون، ووفد الباطل مهجورون.

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام في الغار، وأشرقت على سيره أنوار صحبة الرسول عليه السلام، ووقع عليه شعاع أنواره، واشتاق إلى الله تعالى لفقد قراره - أزال عنه لواجمه^(٢) بما أخبره مِنْ قُرْبِهِ - سبحانه - فاستبدل بالقلق سكوناً، وبالشوق أنساً، وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة.

ويقال كان الرسول - ﷺ - ثاني اثنين في الظاهر بشبه ولكن كان مُسْتَهْلَكَ الشاهد في الواحد بِسِرِّهِ.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/١٩)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٨٢) والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٣٠٥)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٤٧٦)، والسيوطي في (اللائل المصنوعة ١/ ١٤٨، ٢/ ١٤٤)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٢٨٥، ٢/ ٥٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٥٨) وابن الجوزي في (الموضوعات ١/ ٣٠٦ - ٣٠٧).

(٢) اللوامع: (ج) اللاعج: الهوى المحرق.

قوله جل ذكره: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره في جميع أحوالهم.
«خفافاً» يعني في حال حضور قلوبكم، فلا يمُسُّكم نَصَبُ المجاهدات.
«وثقالاً» إذا رُدِّدْتُمْ إليكم في مقاساة تعب المكابدات. فَإِنَّ البيعةَ أَخَذَتْ عليكم في (...) (١) و (...) (١).

ويقال «خفافاً» إذا تحررتم من رِقِّ المطالبات والاختيار، «وثقالاً» إذا كان على قلوبكم ثقل الحاجات، وأنتم تؤمِّلون قضاء الحقِّ مَارِبِكُمْ.
قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْهُمْ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يريد به المتخلفين عنه في غزوة «تبوك» (٢)، بَيَّنَّ سبحانه أنه لو كانت المسافة قريبة، والأمر هيناً لَمَا تَخَلَّفُوا عنك؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ مُتَحَقِّقٍ فِي قَضَائِهِ كَانَ غَيْرَ بَالِغٍ فِي جِهده، يعيش على حَرْفٍ، ويتصرَّف بحرف، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].
فإذا رأيت المريد يتبع الرُّخْصَ وَيَجْنَحُ إلى الكسل، ويتعلَّل بالتأويلات... فاعلم أنه مُنْصَرِّفٌ عن الطريق، متخلفٌ عن السلوك، وأنشدوا:

وكذا الْمَلُولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال: كان وکانا
وَمَنْ جَدَّ في الطلب لم يُعْرِجْ في أوطان الفشل، ويواصل السير والسرى، ولا يحتشم من مقاساة الكدِّ والعناء، وأنشدوا:

ثم قطعْتُ الليلَ في مهمِّ لا أسداً أخشى ولا ذنباً
يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوباً
قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢]:
يمين المتعلِّل والمتأوِّل يمينٌ فاجرةٌ تشهد بكذبها عيون الفراسة، وتنفر منها القلوب، فلا تجد من القلوب محلاً.

(١) بياض في الأصل.

(٢) تبوك: موضع بين وادي القُرى والشام، وقيل: تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط نسب إلى النبي ﷺ. وبه كانت آخر غزوات الرسول ﷺ سنة تسع للهجرة. (معجم البلدان ١٤/٢، ١٥).

قوله جل ذكره: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

لم يكن منه ﷺ خرقٌ حدٌ أو تعاطي محظور، وإنما نذر منه ترك ما هو الأولى. قدّم الله ذكراً العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب بقوله: ﴿لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ﴾. أو مِنْ جواز الزّلة على الأنبياء - عليهم السلام - إذ لم يكن ذلك في تبليغ أمر أو تمهيد شرع بقول قائله: أنشدوا بالعفو قبل أن وقف للعذر وكذا سُنّة الأحباب مع الأحباب، قال قائلهم:

ما حطّك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مُغْتَاب
كأنهم أثّنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا
ويقال حسناً الأعداء - وإن كان حسناً - فكالمردودة، وسيئات الأحباب -
وإن كانت سيئات - فكالمغفورة:

مَنْ ذا يَؤَاخِذُ مَنْ يَحِبُّ بِذَنْبِهِ وله شفيعٌ في الفؤاد مُشْفِع
قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

المخلص في عقده غير مؤثر شيئاً على أمره، ولا يدخر مستطاعاً في استفراغ وسعيه، وبذل جهده، ومقاساة كده، واستعمال جدّه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِيدُونَ﴾.

مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً انتهز للتأخير والتخلف فرصة لعدم إيمانه وتصديقه، ولا استمكان الريبة في قلبه وسره. أولئك الذين يتقلبون في ربهم، ويرددون في شكهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

أي لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سَقَمَتْ إرادتهم، فحصلت دون الخروج بلادتهم، وكذلك قيل:

لو صَحَّ مِنْكَ الْهَوَى أُرْشِدْتَ لِلْحَيْلِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِبَاءَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ألزّمهم الخروج من حيث التكليف، ولكن ثبّتهم في بيوتهم بالخذلان؛ فبالإلزام.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِكرَ مَا رَادُّوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَضْعَافًا ضَلَّالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِكرَ سَمْعُونَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وذكر ما علم أنه لا يكون أن لو كان كيف يكون، فقال: ولو ساعدوكم في الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم في الفتنة بينكم، والنميمة فيكم، والسعي فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلّفهم من نقصان عددكم. ومن ضرره أكثر من نفعه فعدّته خير من وجوده، ومن لا يحصل منه شيء غير ضرره فتخلّفه أنفع من حضوره.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَبِلُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

إنهم وإن أظهروا وفاقكم فقد استبطنوا نفاقكم؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيدهم تشويش أموركم، حتى كشف الله عوراتهم، وفصحهم، حتى تحذرت منهم بما تحققتم من أسرارهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا نَفْعِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

أبرزوا قبيح فعلهم في مغرض التخرج، وراموا أن يلبسوا على الرسول - صلى الله وسلم وعلى آله - وعلى المسلمين خبث سيرتهم وسريرتهم، فبين الله أن الذين (...) (١) بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم، وكذلك المتجلّد بما يهواه متطوح في وادي بلواه، وسيلقى في الآخرة من الهوان ما يغني عن الحاجة إلى البرهان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِيبُونَ﴾.

هكذا صفة الحسود، يتصاعد أنين قلبه عند شهود الحسنی، ولا يسر قلبه غير حلول البلوى، ولا دواء لجروح الحسود؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا:

كلّ العداوة قد تُزجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وإن الله تعالى عجل عقوبة الحاسد، وذلك: حزن قلبه بسلامة محسوده؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

المؤمن لا تلحقه شماته عدوه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليه، فهو يتحقق أن ما يناله مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبه ما يهواه، ويستقبله بروح رضاه فيغذّبُ عنده ما كان يَصْغُبُ مِنْ بلواه، وفي معناه أنشدوا:

إِنْ كَانَ سَرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحُجْرٍ - إِذَا أَرْضَاكُمْ - أَلَمْ .

ويقال شهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تَعَبُ كُلِّ عسير .

قوله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾: تعريفٌ للعبد أن له - سبحانه - أن يفعل ما يريد، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ في ملكه، فهو يُبْدي ويُجْري ما يريد بحقِّ حُكْمِهِ .

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيانُ أمورِك بما يغلبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكلُ سكونُ السُّرِّ عند حلولِ الأمر ونهاية التفويض، وفيها يتساوى الحلُّ والمرُّ، والنعمةُ والمحنةُ .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَنَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْضُونَ﴾ .

بيّنَ اللهُ في هذه الآيةَ الفرقَ بين المؤمنين وبين الكفار، فقال قُلْ للذين ينتظرون: أيها الكفار إن كان من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم في القتال، أو أن القتلَ ينالهم فأَيُّ واحدٍ من الأمرين ينالهم فهو لهم من الله نعمة؛ لأنّا إن ظفّرنا بكم فنَضِرُ وغنيمه، وعِزٌّ للدين ورفعة، وإن قُتِلْنَا فشهادةٌ ورحمة، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى^(١) . وإن كان الذي يصيبنا في الدنيا هزيمة ونكبة، فذلك مُوجِبٌ للأجرِ والمثوبة، فإذا لن يستقبلنا إلا ما هو حُسْنَى ونعمة .

وأما أنتم، فإن ظفّرنا بكم فتعجيلُ لذلّكم ومحنة، وإن قُتِلْتُمْ فعقوبةٌ من الله وسخطة، وإن كانت اليد لكم في الحال فخذلانٌ من الله، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نعمة .

ويقال: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أمّا قيامُ بحقِّ الله في الحال فنكون بوصفِ الرضاء وهو - في التحقيق - الجئةُ الكبرى، وأمّا وصولُ إلى الله تعالى في المال بوصفِ الشهادة، ووجدانِ الزلْفَى في العقبى وهو الكرامة العظمى .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ .

(١) الزُلْفَى: المنزلة والدرجة والقربة .

المردود لا يقبل منه توصل، ولا يُغَيَّر حُكْمُ شقاوته بتكثير التكلف والتعمل .
ويقال تقرب العدو يوجب زيادة المقت له، وتحبب الحبيب يقتضي زيادة العطف عليه، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْعُ اللَّهُ بِسَفَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُؤْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾.

فقدوا الإخلاص في أموالهم فعدموا الاختصاص في أحوالهم، وحرّموا الخلاص في عاجلهم وفي مآلهم.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾: مَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ الْعَادَةُ - مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَيْهَا لَوْعَةُ الْإِرَادَةِ - لَمْ يَجِدْ لَطَاعَتَهُ رَاحَةً وَزِيَادَةً.

ويقال مَنْ لَاحَظَ الْخَلْقَ فِي الْجَهْرِ مِنْ أَعْمَالِهِ، وَرَكَنَ إِلَى الْكُسَالِ فِي السِّرِّ مِنْ أحواله فَقَدْ وَسِمَ بِالْخِلَالِ، وَخُتِمَ بِالْحِرْمَانِ، وَهَذِهِ هِيَ أَمَارَةُ الْفِرْقَةِ وَالْقَطِيعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ مَا حَسَبُوهُ نِعْمَةً وَاعْتَدُوهُ مِنَ اللَّهِ مِثَّةً فَهُوَ - فِي التَّحْقِيقِ - مِخْنَةٌ، وَسَبَبُ شِقَاءٍ وَفُرْقَةٍ، وَإِنَّمَا دَسَّ التَّقْدِيرُ لَهُمْ سُمُومَ الصَّابِ، فِيمَا اسْتَلْذَوْهُ مِنَ الشَّرَابِ؛ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسَبِّحُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَإِنَّا نَسْأَعُ لَهُمْ فِي الْغَيْبِ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦].

قوله جل ذكره: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

التَّقَرُّبُ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ لَا يَوْجِبُ لِلْقُلُوبِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ الْقُبُولِ .
ويقال إِنَّ إظهار التلبيس لا (...).^(١) الأسرار بَرْدُ السكون، ولا يَشْفِي البصائر بَرْدُ الثِّقَةِ وَالْيَقِينِ.. فما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدًا، وما هو كائنٌ سيكون..

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَخْتَفُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْنَا وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ .
إِنَّ الْمَمَادِيقَ^(٢) فِي الْخَلَّةِ يَنْسَلُّ عَنْ سِلْكِهَا بِأَضْعَفِ خَلَّةٍ، وَإِنْ وَجَدَ مَهْرَبًا أَوْى إِلَيْهِ، وَيَأْمَلُ أَنْ يَنَالَ فُرْصَةً مَا يَتَعَلَّلُ بِهَا عِنْدَ ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ﴾.

(٢) مَذَقُ الزُّدِّ: لَمْ يُخْلَصْهُ.

(١) بِيَاضٍ فِي الْأَصْلِ.

أولئك أصحاب الأطماع؛ يتملقون في الظاهر ما دامت الأرفاق واصله إليهم، فإن انقطعت انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة.

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب، وسُخْطُهُ في عدم ما يوصله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء، إنما هو قائمٌ بحظّه، غيرُ صالحٍ للصحة، وأما المتحقّق فكما قيل:

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

لو وقفوا مع الله بسِرِّ الرضا لأنّهم فننوّ العطاء وتحقيقات المنى، ولحفظوا مع الله - عند الوجدان - مالهم من الأدب، من غير معاناة تعبٍ، ولا مُقاساة نَصَبٍ.. ولكنهم عَرَجُوا في أوطانِ الطمع فوقعوا في الدَّلّ والحرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

تكلّم الفقهاء في صفة الفقير، والفرق بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه في قسمة الزكاة المفروضة.. فأبو حنيفة^(١) رحمة الله عليه - يقول: المسكينُ الذي لا شيء له. والفقيرُ الذي له بُلْغَةٌ من العيش.

ويقول الشافعي رحمة الله عليه: الفقير الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بُلْغَةٌ من العيش - أي بالعكس.

وأهل المعرفة اختلفوا فيه؛ فمنهم من قال بالأول، ومنهم من قال بالقول الثاني، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء؛ وذلك لأن كل واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه. فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أَنَّ أَخْذَ الزَّكَاةِ المفروضة أولى، قالوا إلى الله تعالى جعل ذلك مِلْكًا للفقير، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه.

(١) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء الكوفي (٨٠ - ١٥٠ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٧ م) أبو حنيفة، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أضله من أبناء فارس ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخبز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للإفتاء والتدريس وأرادَه عمر بن هبيرة على القضاء فامتنع ورعاً، وأرادَه المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى فحبسه إلى أن مات. له «مسند» في الحديث، و«المخارج» في الفقه، و«الفقه الأكبر» وغير ذلك. توفي ببغداد وأخباره كثيرة.

(الأعلام ٨/٣٦، وتاريخ بغداد ١٣/٣٢٣ - ٤٢٣، وابن خلكان ٢/١٦٣، والنجوم الزاهرة ٢/١٢ والبداية والنهاية ١٠/١٠٧).

ومنهم من قال: الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى من أن يزاحموا أرباب السهمان - مع احتياجهم أخذ الزكاة - وقالوا: نحن أثرنا الفقر اختياراً. . فَلِمَ نأخذ الزكاة المفروضة؟

ثم على مقتضى أصولهم في الجملة - لا في أخذ الزكاة - للفقر مراتب: أولها الحاجة ثم الفقر ثم المسكنة؛ فذو الحاجة مَنْ يرضى بدينه وتسُد الدنيا فقره، والفقير مَنْ يكتفي بعقبه وتجبرُ الجنة فقره. والمسكين مَنْ لا يرضى بغير مولا؛ لا إلى الدنيا يلتفت، ولا بالآخرة يشتغل، ولا بغير مولا يكتفي؛ قال رسول الله ﷺ «اللهم أحيني مسكيناً وأمّني سكيناً، واحشرنى في زمرة المساكين»^(١) وقال ﷺ «أعوذ بك من الفقر»^(٢) لأن عليه بقية؛ فهو ببقية محجوب عن ربه.

ويحسن أن يقال إن الفقر الذي استعاذ منه ألا يكون له منه شيء، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلغة ليتفرغ بوجود تلك البلغة إلى العبادة؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شغل فقره عن أداء حقه، ولذلك استعاذ منه.

وقوم سمّوا همهم عن هذا الاعتبار - وهذا أولى بأصولهم - بالفقير الصادق عندهم مَنْ لا سماء تظله ولا أرض تقله ولا معلوم يشغله، فهو عبد بالله الله، يردّه إلى التمييز في أوان العبودية، وفي غير هذا الوقت فهو مُصْطَلَمٌ^(٣) عن شواهد، واقف بربه، مُشْتَقٌّ عن جملته.

ويقال الفقير من كُسِرَتْ فقاره - هذا في العربية.

والفقير - عندهم - مَنْ سَقَطَ اختياره، وتعطلت عنه دياره، واندرست -

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٥٢)، وابن ماجه في (السنن ٤١٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٢/٧)، والحاكم في (المستدرک ٣٢٢/٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٥٩٢ - ١٦٥٩٣ - ١٦٦٦٨ - ١٦٦٦٩)، والقرطبي في (التفسير ١٦٩/٨)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢٦٢/١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٠)، والعجلوني في (كشف الخفا ٢٠٦/١)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٣٠٤/٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٨٩/٦، ١٥٢/٨، ٢٧٢/٩)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٠٥٦٠)، والفنّي في (تذكرة الموضوعات ٥٩)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١١١/٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٣٥٨/٣، ٢٧٢/٦)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٤٥ - ٥٢٤٤)، والبخاري في (التاريخ الكبير ١٩٤/٧، ٧٥/٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٧٤/١١)، والسيوطي (اللائل المصنوعة ١٧٤/٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢٠٦/٢، ٢٢٩/٣، ١٨٩/٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٠٢، ٩٧٠٣، ٩٧٠٤)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٥٨/٦)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٤١/٣، ١٤٢)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٤٤).

(٢) أخرجه النسائي (استعاذة ١٤، ١٦)، وأحمد بن حنبل (٣٠٥/٢، ٣٢٥، ٣٥٤).

(٣) اصطلم: استوصل.

لاستِلاء مَنْ اضْطَلَمَهُ - آثاره، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخباره، وأنشدوا:

أَمَّا الرُّسُومُ فَخَبَّرْتُ أَنَّهُمْ رَحَلُوا قَرِيباً

ويقال المسكين هو الذي أسكنه حاله بباب مقصوده، لا يبرح عن سُدَّتِهِ، فهو مُتَكَيِّفٌ بقلبه، ولا يغفل لحظةً عن ربِّه.

وَأَمَّا ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْنَا﴾ فعلى لسان العلم: مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة. وعلى لسان الإشارة: أَوْلَى الناس بالتصاوت عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ في أعماله لله، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عَوْضاً، ولا يتطلبون في مقابلة أحوالهم عَرْضاً، وأنشدوا:

وما أنا بالباغي على الحب رِشْوَةً قبيحٌ هوئِ يُرْجَى عليه ثواب

وَأَمَّا المؤلِّفَةُ قلوبهم - على لسان العلم - فَمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه، ليتوفَّر في الدين نشاطه؛ فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم، وبيان ذلك مشهورٌ في مسائل الفقه.

وحاشا أن يكون في القوم مَنْ يكون حضوره بسبب طَمَعٍ أو لثبيل ثوابٍ أو لرؤية مقامٍ أو لاطلاع حال... فذلك في صفة العوام، فأما الخواص فكما قالوا.

من لم يكن بك فانياً عن حظه وعن الهوى والإنس والأحباب
أو تيمته صباية جمعت له ما كان مفترقاً من الأسباب
فلأن بين المراتب واقفٌ لِمَنَالٍ حظٌ أو الحُسنِ مآبٍ
قوله جل ذكره: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

وهم على لسان العلم: المكاتبون، وشرحه في مسائل الفقه معلوم.

وهؤلاء لا يتحررون ولهم تعريج على سبب، أو لهم في الدنيا والعقبى أرب، فهم لا يستفزُّهم طلب، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله: «المكاتبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم»^(١) وأنشد بعضهم:

أتمنى على الزمان مُحالاً أن ترى مقلتي طُلْعَةَ حُرٍّ
قوله جل ذكره: ﴿وَالْعَدْرَمِينَ﴾.

وهم على لسان العلم: مَنْ عليهم ذَنْبٌ في غير معصية.

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١)، والترمذي (بيع، ٣٥)، والموطأ (مكاتب، ١، ٢).

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقضى دينه.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وعلى لسان العلم: مَنْ سلك سبيل الله وَجَبَ له في الزكاة سهم على ما جاء بيانه في مسائل الفقه.

وفي هذه الطريقة: مَنْ سلك سبيل الله تتوجَّب عليه المطالبات؛ فيبذل أولاً ماله ثم جاهه ثم نفسه ثم روحه.. وهذه أول قَدَمٍ في الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلَ﴾.

وهو على لسان العلم: مَنْ وقع في الغربة، وفارق وطنه على أوصاف مخصوصة.

وعند القوم: إذا تَغَرَّبَ العبدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قِرَى^(١) الحق؛ فالجوع طعامه، والخلوة مجلسه، والمحبة شراؤه، والأنس شهوده، والحق - تعالى - مشهوده. قال تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]: لقوم وَغَدَّ في الجنة، ولآخرين نَقَدَ في الوقت؛ اليوم شراب المحابِّ وغداً شراب الثواب، وفي معناه أنشدوا:

وَمُقْعِدِ قَوْمٍ قَدْ مَشَى مِنْ شَرَابِنَا وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَ

وَأُخْرَسَ لَمْ يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَذْرَنَا عَلَيْهِ الْكَأْسَ يَوْمًا فَأَخْبَرَ

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

عين العداوة بالمساوىء مؤكَّلة، وعين الرضا عن المعاييب كليلة.

بسطوا اللائمة في رسول الله ﷺ فعابوه بما هو أمانة كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه بحسن خُلُقِهِ يسمع ما يقال له، فقال عليه السلام: «المؤمن غرٌّ كريم والمنافق خبٌّ لئيم»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ بَلَاءٌ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقيل: مَنْ العاقل؟ قالوا: الْفَطْنُ الْمُتَعَاظِلُ. وفي معناه أنشدوا:

وَإِذَا الْكَرِيمُ أَتَيْتَهُ بِخَدِيعَةٍ وَلِقِيَّتَهُ فِيمَا تَرُومُ يُسَارِعُ

(١) القرى: ما يقدم إلى الضيف.

(٢) أخرجه أبو داود (أدب، ٥)، والترمذي (بز، ٤١)، وأحمد بن حنبل ٢/٢٩٤.

فاعلمُ بأنَّك لم تُخادعْ جاهلاً - إنَّ الكريمَ - بفضلِهِ - يتخادعُ
قوله جلَّ ذكره: ﴿يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر أنَّ من تزَيَّن للخلْق، وتقرَّب إليهم وأدامَ رضاهم، واتَّبَعَ في ذلك هواهم، فإنَّ الله سبحانه يُسْقِطُ به عن الخلقِ جاهَهُم، ويُشِينُهُمْ فيما توهَّمُوا أَنَّهُ يزيْنُهُم، والذي لا يَضِيْعُ ما كان الله، فأما ما كان لغير الله فَوَبَّالٌ لِمَنْ أَصَابَهُ، ومُحَالٌ ما طَلَبَهُ.
ويقال إنَّ الخلقَ لا يصدقونك وإنَّ حَلَفْتَ لهم، والحقُّ يَقْبَلُكَ وإنَّ تَخَلَّفْتَ عنه؛ فالاشتغالُ بالخلقِ محنةٌ أنتَ غيرُ مأجورٍ عليها، والإقبالُ على الحقِّ نعمةٌ أنتَ مشكورٌ عليها. والمغبونُ مَنْ تَرَكَ ما يُشْكُرُ عليه ونُوْثِرَ ما لا يُؤْجِرُ عليه.
قوله جلَّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُوا آتَاءُ مَنْ يَخَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيلًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

مَنْ كَفَرَ بالله وأشركَ في توحيدِهِ بإثباتِ موهومٍ استحقَّ ما هو حقُّ الله: تعَجَّلُ عقوبته في الحالِ بالفرقة، وفي المآلِ بالخلود في الحرقة.
فليس كلُّ مَنْ مُنِيَ بمصيبةٍ يعلم ما ناله من المحنة، وأنشدوا:

عَدَا يَتَفَرَّقُ أَهْلُ الْهَوَى وَيَكْثُرُ بَاكٍ وَمُسْتَرْزِجٌ
قوله جلَّ ذكره: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِلَيَّ اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾.

ظَنُّوا أَنَّ الحقَّ - سبحانه - لا يفضحهم، فَذَلَّسُوا عَلَيْكُمْ، وأنكروا ما انطوت عليه سرائرهم، فأرْخَى اللهُ - سبحانه - عَنَانَ إِمهالِهِمْ، ثم هتَكَ السَّترَ عن نفاقِهِمْ؛ فَفَضَّحَهُمْ عند أهل التحقيق، فتقنموا بِخِمار الخجل، وكشف لأهل التحقيق مكامن الاعتبار. ونعوذ بالله من عقوبة أهل الاغترار! ﴿وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَلَا لِلَّهِ وَإِيَّائِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

مَنْ استهانَ بالدين، ولم يَحْتَشِمِ مِنْ تَرْكِ حُرْمَةِ الإسلام جعله الله في الحالِ نكالاً، وسامَهُ في الآخرة صِغْراً وإذلالاً، والحقُّ - سبحانه - لا يرضى دون أن يذيق العتاة بأسه، وَيَسْقِي كُلَّ - على ما يستوجبه - كأسه.

قوله جلَّ ذكره: ﴿لَا تَمْنَدُوهَا قَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ إِنْ نَفَعَكُمْ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ نَعِدْكُمْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

جَزَدَ الْعَفْوَ وَالْعَذَابَ مِنْ عِلَّةِ الْجُزْمِ، وَسَبَبِ الْفِعْلِ مِنْ حُجَّةِ الْعَبْدِ؛ حَيْثُ أَحَالَ الْأَمْرَ عَلَى الْمَشِيئَةِ. . . إِذْ لَوْ كَانَ الْمَوْجِبُ لِعَفْوِهِ أَوْ تَعْذِيهِ صِفَةً الْعَبْدِ لَسَوَّى بَيْنَهُمْ عِنْدَ تَسَاوِيهِمْ فِي الْوَصْفِ، فَلَمَّا اشْتَرَكُوا فِي الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ، وَعَفَا عَنْ بَعْضِهِمْ وَعَذَّبَ بَعْضَهُمْ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَخْتَصُّ مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾.

الْمُؤْمِنُ بِالْمُؤْمِنِ يَتَّقَوْنِ، وَالْمَنَافِقُ بِالْمَنَافِقِ يَتَعَاضِدُ، وَطُيُورُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَامِ تَقَعُ. فَالْمَنَافِقُ لِصَاحِبِهِ أَسْ^(١) بِهِ قَوَامُهُ، وَأَصْلُهُ بِهِ قِيَامُهُ؛ يُعِينُهُ عَلَى فُسَادِهِ، وَيُعْمِي عَلَيْهِ طَرِيقَ رَشَادِهِ.

وَالْمُؤْمِنُ يَنْصُرُ الْمُؤْمِنَ وَيُبَصِّرُهُ عِيُوبَهُ، وَيُبْغِضُ لَدِيهِ وَيُقْبَحُ - فِي عَيْنِهِ - ذُنُوبَهُ، وَهُوَ عَلَى السَّدَادِ يُنْجِدُهُ، وَعَنِ الْفَسَادِ يُبْعِدُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

عن طلب الحوائج من الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿سُئِلَ اللَّهُ فَسَيِّبُهُمْ﴾.

جَازَاهُمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ، فَسُمِّيَ جَزَاءُ النِّسْيَانِ نِسْيَانًا. . . تَرَكَوا طَاعَتَهُ، وَآثَرُوا مُخَالَفَتَهُ، فَتَرَكَهُمْ وَمَا اخْتَارَهُ لَأَنْفُسِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَزَكْنَاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وَعَذَابُهُمُ النَّارُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَهُمُ الْعَذَابُ الْمَقِيمُ فِي الْحَاضِرَةِ، فَمَوْجُلُ عَذَابِهِمُ الْحَرْقَةُ، وَمُعْجَلُهُ الْفُرْقَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا أَمْوَالًا وَأَوْلَدُوا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلِيِّهِمْ فَأَسْتَأْتَمَّتْهُمْ بِطُلُوقِ كَمَا أَسْتَأْتَمُّعُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ يَخْلَقِيهِمْ وَخُضَّتْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَفْعَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

يَقَالُ: سَلَكَتُمْ طَرِيقَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَقَدْ كَافَأْنَاكُمْ. وَيَقَالُ الَّذِينَ تَقْدِمُوكُمْ زَادُوا عَلَيْكُمْ فَكَافَأْنَاكُمْ كَمَا نَكَفَى أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ؛ فِي كَثَرَةِ الْمَدَّةِ وَقُوَّةِ الْعُدَّةِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ فِي الدُّنْيَا، وَالِاغْتِرَارِ بِالْإِنْخِرَاطِ فِي سِلْكِ الْهَوَى. . .

(١) الْأَسْ: الْأَسَاسُ: أَي: أَصْلُ الْبِنَاءِ (ج) أُسَاسٌ.

ولكن لم تَدُم في الراحة مُدَّتْهم، ولم تُغْنِ عنهم يومَ الشِّدَّةِ عُدَّتْهم، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُمْ ما لَحِقَ بالذين هم قبلكم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ألم يَنْتَه إِلَيْهم خبرُ القرون الماضية، ونَبَأُ الأمم الخالية كيف دَمَرْنَا عليهم جَمْعَهُم، وكيف بَدَدْنَا شَمْلَهُم؟ قَضَيْنَا فيهم بِالْعَدْلِ، وَحَكَمْنَا بِاسْتِثْصَالِ الْكُلِّ، فلم يَبْقَ منهم نافعُ نارٍ، ولم يحصلوا إِلَّا على عارٍ وشارٍ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يُعِين بعضهم بعضاً على الطاعات، ويتواصون بينهم بترك المحظورات؛ فَتَحَابُّهم في الله، وقيامهم بحق الله، وصحبتهُم لله، وعداوتهم لأجل الله؛ تركوا حظوظهم لحق الله؛ وآثروا على هواهم رِضاء الله. أولئك الذين عَصَمَهُمُ اللَّهُ في الحال، وسيرحمهم في المال.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَعَدَهُمُ جميعاً الجنة، ومساكن طيبة، ولا يطيب المسكن إِلَّا برؤية المحبوب، وكلُّ مُجِبٍ يطيب مَسْكَنُهُ برؤية محبوبه، ولكنهم مختلفون في الهمم؛ فَمِنْ مربوط بحظٍّ مردودٍ إلى الخلق، وَمِنْ مجذوب بحقٍّ موصول بالحق، وفي الجملة كما يقال:

أَجِيرَانَنَا مَا أَوْحَشَ الدَّارَ بَعْدَكُمْ إِذَا غِبْتُمْ عَنْهَا وَنَحْنُ حُضُورًا
ويقال قومٌ يطيب مسكنهم بوجود عَطَائِهِ، وقومٌ يطيب مسكنهم بشهود لقائه، وأنشدوا:

وَأُنِّي لِأَهْوَى الدَّارِ لَا يَسْتَقِرُّ لِي بِهَا الْوُدُّ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ دِيَارِكَا
ثم قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وأمارَةُ أهل الرضوانِ وجدانُ طَعْمِهِ؛ فهم في رُوحِ الأُنْسِ، وروح الأُنْسِ لا يتقاصر عن راحة دارِ الْقُدُسِ بل هو أتمُّ وأعظم.

(١) الشَّار: أقيح العيب أو العار.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾.

دعا نبينا - ﷺ - كافة الخلق إلى حُسن الخلق.

قال لموسى عليه السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤].

وقال لنبينا - ﷺ -: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] ويقال إنما هذا بعد إظهار الحجج، وبعد أزاح عُذْرَهُمْ بأيام المهلة؛ ففي الأول أَمَرَهُ بِالرَّفْقِ حيث قال: ﴿إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبا: ٤٦]، فلما أصرروا واستكبروا أَمَرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ. والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان، وإيضاح الحجج والبيان، ثم إن حَصَلَ من العدو جُحْدٌ بعد إزاحة العذر، فبالوعيد والزجر، ثم إن لم ينجح الكلام ولم ينفع الملام فالقتال والحرب وبذل الوسع في الجهاد.

قوله جل ذكره: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

تَسَرَّوْا بِأَيْمَانِهِمْ فَهَتَكَ اللَّهُ أَسْتَارَهُمْ وكشف أسرارهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾: وهي طَعْنُهُمْ فِي نُبُوَّةِ رَسُولِهِ - ﷺ -. وكلُّ مَنْ وَصَفَ الْمَعْبُودَ بِصِفَاتِ الْخَلْقِ أو أضاف إلى الخلق ما هو من خصائص نعت الحق فقد قال كلمة الكفر.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

أي أظهروا من شعار الكفر ما دَلَّ على جُحْدِهِمْ بِقُلُوبِهِمْ بعد ما كانوا يُظْهِرُونَ الموافقة والاستسلام، وهُمُوا بما لم ينالوا من قتلٍ لرسول الله ﷺ، وما سَوَّلَتْ أَنْفُسُهُمْ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْأَعْرُضَ مِنْهَا الْأَذَلَّ، وغير ذلك.

يقال تمنوا زوال دولة الإسلام فأبى الله إلا إعلاء أمرها.

ثم قال: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: أي ما عابوه إلا بما هو أَجَلُّ خصاله، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكافة بما لا عذر لهم فيه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ يَتُوبَا بِكَ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ يَسْتَوُكُوا يَمِدَّ بِهِمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بجميع حق الأمر على وجه الاستقصاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدَّقَنَّهُ وَلَنُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ .

منهم من أكّد العقد مع الله، ثم نقضه، فلحقه شؤم ذلك؛ فبقي خالداً في نفاقه . ويقال تطلب إحسان ربّه، وتقرّب إليه بإبرام عهده فلما حقق الله مسؤوله واستجاب مأموله، فسخّ ما أبرمه، وانسلخ عما التزمه، واستولى عليه البخل، فضنّ بإخراج حقه، فلحقه شؤم نفاقه، بأن بقي إلى الأبد في أسره .

وحذّ البخل - على لسان العلم - منع الواجب . وبخل كل أحد على ما يليق بحاله، وكل من أثر شيئاً من دون رضا ربّه فقد اتصف ببخله، فمن يبخل بماله تزلّ عنه البركة حتى يؤول إلى وارث أو يزول بحارث . ومن يبخل بنفسه ويتعاسر عن طاعته تفارقه الصحة حتى لا يستمتع بحياته . والذي يبخل بروجه عنه يُعاقب بالخذلان حتى تكون حياته سبباً لشقائه .

قوله جل ذكره: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ .

أعقبهم ببخلهم نفاقاً في قلوبهم، ويصحّ أعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم، وفي الجملة: من نقض عهده في نفسه رفض الوعد من أصله، وكل من أظهر في الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق بقسطه . والمنافق في الصف الأخير في دنياه، وفي الدرك الأسفل من النار في عقباه .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ .

خوفهم بعلمه كما خوفهم بفعله في أكثر من موضع من كتابه .

و ﴿سِرَّهُمْ﴾ ما لا يطلع عليه غير الله .

و ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ ما يتسارون بعضهم مع بعض . ويحتمل أن يكون ما لنفوسهم عليه إشراف من خواطرهم^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن السر: يُحتمل أن الأسرار لطيفة مودعة في القالب الإنساني كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف، وقالوا: السر مالك عليه إشراف، وسر السر ما لا إطلاع عليه لغير الحق ويطلق لفظ السر على ما يكون مصنوعاً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه في الأحوال، وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم . (الرسالة القشيرية ص ٨٨) .

وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾.

عابوا الذين قُصِرَتْ أيديهم عن الإكثار في الصدقة وجادوا بما وصلَّت إليه أيديهم، فَشَكَرَ اللَّهُ سَخِي مَنْ أَخْلَصَ في صدقته بعدما عَلمَ صِدْقَهُ فيها. وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ من كثيرِ أهلِ النفاقِ.

ولمَّا أوجدوا المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - نفسه بما يستحيل في وصفه - على التحقيق - هو السخرية بأحدٍ . . تطيباً لقلوبِ أوليائه، فقد تقدَّس عن ذلك لِعِزَّةِ ربوبيته.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشرك والنفاق، فلا تنفعهم الوسائل، ولا ينتعش منهم الساقط.

ويقال: مَنْ غَلَبَتْهُ شِقْوَتُنَا لم ينفعه تضرعه ودعوته.

ويقال: صرِعَ القدرة لا يُنْعِشُهُ الجُهد والحيلة.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

استحوذ عليهم سرورهم بتخلفهم، ولم يعلموا أن ثبورهم في تأخرهم وما أثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله، والخروج في صحبة رسول الله - ﷺ، فنزع الله الراحة بما عاقبهم، وسيضلون سعيراً في الآخرة بما قدّموه من نفاقهم، وسوف يتحسرون ولات حين تحسّر.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

بَدَّلَ الله مَسَرَّتَهُمْ بِحَسْرَةٍ، وَقَرَحَتَهُمْ بِتَرْحَةٍ، وراحتهُم بِعَبْرَةٍ، حتى يكثُر بكاءهم في العقبى كما كثر ضحكهم في الدنيا، وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بربه.

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْكَ بِالْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾.

يقول: بعدما ظهرت خيانتهم، وتقرر كذبهم ونفاقهم، لا تُخَدِّغْ بتملقهم، ولا تَتَّقِ بقولهم، ولا تُمَكِّنْهُمْ مِنْ صُحْبَتِكَ فيما يُظْهِرُونَهُ مِنْ وفاقك. فإذا وَهَنَ سِلْكُ الْعَهْدِ فلا يَحْتَمِلْ بَعْدَهُ الشَّدَّ، وإذا اتسع الخرقُ لا ينفع بَعْدَهُ الرَّفْعُ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَوْفِيقِي﴾.

ليس بعد التَّبَرِّي التَّوَلَّى، ولا بعدَ الفراقِ الوفاق، ولا بعد الحجةِ قربة. مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة، أو لرجائهم مساع، أو لظنهم تحقيق، ولكن سَبَقَ لهم القضاء بالشقاوة، ونعوذ بالله من سوءِ الخاتمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَحْجِبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعْزِيَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

يقول لا تحسبن تمكين أهل النفاق من تنفيذ مرادهم، وتكثير أموالهم إساءة معروف منّا إليهم، أو إسباغ إنعام من لدنّا عليهم، إنما ذلك مكر بهم، واستدراج لهم، وإمهال لا إهمال. وسيلقون غيبه^(١) عن قريب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الظُّلُمِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُتَعَذِّينَ﴾.

إذا تَوَجَّه عليهم الأمرُ بالجهاد، واشتدّ عليهم حكمُ الإلزام، تعلّلوا إلى السّعة، وركنوا إلى اختيار الدّعة واحتالوا في موجبات التّخلف، أولئك الذين خصّهم بخذلانه، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه.

قوله جل ذكره: ﴿رُسُلُوا يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

بعدوا عن بساط العبادة فاستطابوا الدّعة، ورضوا بالتعريح في منازل الفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بصدق النّدم لقابلهم بالفضل والكرم، ولكن القضاء غالب، والتكلف ساقط.

قوله جل ذكره: ﴿لَنَكِينِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ليس من أقبل كمن أعرض وضدّ، ولا من قبل أمره كمن ردّ، ولا من وخذ كمن جحد، ولا من عبد كمن عندّ، ولا من أتى كمن أبى... فلا جرّم ربح تجارّتهم، وجلّت رتبّتهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

تشير الآية إلى أن راحتهم موعودة، وإن كانت الأتعاب في الحال موجودة مشهودة.

(١) الغيب: العاقبة.

ويقال صادق يقينهم بالثواب يهون عليهم مقاساة ما يلقونه - في الوقت - من الاتعاب .
قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وهم أصحاب الأعذار - في قول أهل التفسير - طلبوا الإذن في التأخر عن رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك فسقط عنهم اللوم .

أما الذين تأخروا بغير عُذر فقد توجه عليهم اللوم، وهو لهم في المستقبل الوعيد .
قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَفْقُوثُ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قيمة الفقر تظهر عند سقوط الأمر، ولو لم يكن في القلة خير إلا هذا لكفي لها بهذا فضيلة؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجه عليهم بالجهاد أمر، ولا بمفارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب، واعتقاد أن لو قدروا لخرجوا .

وأصحاب الأموال امتحنوا - اليوم - بجمعها ثم بحفظها، ثم ملكتهم محنتها حتى شقت عليهم الغيبة عنها، ثم توجه اللوم عليهم في ترك إنفاقها، ثم ما يعقبه - غداً من الحساب والعذاب يربو على الجميع .

وإنما رفع الحرج عن أولئك بشرط وهو قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإذا لم يوجد هذا الشرط فالحرج غير مرتفع عنهم .

قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ : المحسن الذي لا تكون للشرع منه مطالبة لا في حق الله ولا في حق الخلق .

ويقال هو الذي يعلم أن الحادثات كلها من الله تعالى .

ويقال هو الذي يقوم بحقوق ما يبط به أمره؛ فلو كان طير في حكمه وقصر في علفه - لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُثَا مَا يُفْقُوثُ﴾ .

منهم الفقير عن الحراك فالتمسوا من الرسول - ﷺ - أن يحملهم معه ويهيئ أسبابهم، ولم يكن في الحال للرسول عليه السلام سعة ليوافق سؤالهم، وفي حالة ضيق صدره - ﷺ - خلف إنه لا يحملهم، ثم رآهم يتأهبون للخروج، وقالوا في ذلك، فقال عليه السلام: «إنما يحملكم الله»^(١) .

(١) أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٦/ ١٤) .

فلَمَّا رَدَّهِمُ الرَّسُولَ - ﷺ - عَنِ الْإِجَابَةِ فِي أَنْ يَحْمِلَهُمْ رَجَعُوا عَنْهُ بِوصفِ الْخِيبةِ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

قَالَ لِي مَنْ أَحِبُّ وَالْبَيْنِ قَدْ حَلَّ وَدَمْعِي مَرِافِقُ لَشَهِيْقِي
مَا تُرَى فِي الطَّرِيقِ تَصْنَعُ بَعْدِي؟ قُلْتُ: أَبْكِي عَلَيْكَ طَوْلُ الطَّرِيقِ

قوله: ﴿حَزَنًا أَلَّا يَحْدُثُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ شَقٌّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ - ﷺ -
بَسْبِيهِمْ شُغْلٌ فَتَمَنَّوْا أَنْ لَوْ أَزِيدَ هَذَا الشُّغْلُ، لَا مِيلًا إِلَى الدُّنْيَا وَلَكِنْ لثَلَا تَعَوَّدَ
إِلَى قَلْبِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ قَبْلِهِمْ كَرَاهَةً، وَلِهَذَا قِيلَ:

مَنْ عَفَّ خَفَّ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَأَخُو الْحَوَائِجِ مُنْجِحٌ مَمْلُولٌ

ثُمَّ إِنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ - لَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَتَمَحَّضَتْ قُلُوبُهُمْ لِلتَّعَلُّقِ بِاللَّهِ،
وَحَلَّتْ عَقَائِدُهُمْ عَنْ مُسَاكِنَةِ مَخْلُوقٍ تَذَارَكَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
أَنْ يَحْمِلَهُمْ.. بِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّتُهُ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْفِتْنَةَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾
[الشورى: ٢٨].

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.

يُرِيدُ السَّبِيلَ بِالْعُقُوبَةِ وَالْمَلَامَةِ عَلَى الَّذِينَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْكَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ
وَلَهُمُ الْأَهْبَةُ وَالْمُكْنَةُ، وَتُسَاعِدُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ الْإِسْطَاعَةُ وَالْقُدْرَةُ؛ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ وَأَظْهَرُوا لَمْ يَضِدُّوْا، فَهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ لِلنَّكِيرِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ مَنْ صَدَّقَ فِي الْوَلَاءِ
لَا يَحْتَشِمُ مِنْ مَقَاسَةِ الْعَنَاءِ، وَالَّذِي هُوَ فِي الْوَلَاءِ مِمَّا ذُقَ وَلِلصَّدِّيقِ مَفَارِقُ يَتَعَلَّلُ بِمَا
لَا أَصْلَ لَهُ، لِأَنَّهُ حَرَّمَ الْخُلُوصَ فِيمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ، وَكَذَا قِيلَ:

إِنَّ الْمَلُولَ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الْوَصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

قِيلَ فِي التَّفْسِيرِ: مَعَ النِّسَاءِ فِي الْبُيُوتِ.

وَالْإِسْلَامُ يَثْنِي عَلَى الشُّجَاعَةِ، وَفِي الْخَبَرِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ الشُّجَاعَةَ، وَلَوْ
عَلَى قَتْلِ حَيَّةٍ»^(١)، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُخَصَّنَاتِ جُرُّ الذِّيُولِ^(٢)

وَمَنْ اسْتَوَظَنَ مَرْكَبَ الْكَسَلِ، وَاکْتَسَى لِبَاسَ الْفَسَلِ، وَرَكَنَ إِلَى مَخَارِقِ الْحَيْلِ -

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي (قَضَاءِ الْحَوَائِجِ ٤٤).

(٢) الْمُخَصَّنَاتُ: (ج) الْمُحَصَّنَةُ: الْحُرَّةُ أَوِ الْعَفِيفَةُ أَوِ الْمَتَزَوِّجَةُ.

حُرِّمَ استحقاقُ القربة. وَمَنْ أَرَادَ اللَّهَ - تعالى - هَوَانَهُ، وَأَذَاقَهُ خِذْلَانَهُ، فَلَيْسَ لَهُ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ مَنَاصُ.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَاءِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُدْرِكُوا إِلَى عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أراد إذا تَقَوَّلُوا بما هم فيه كاذبون، وضللوا عما كانوا في تخلفهم به يَتَّصِفُونَ - فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّا عَرَفْنَا اللَّهَ كَذِبَكُمْ فيما تقولون، واتضح لنا فضائلكم، وَتَمَيَّزَ - بما أظهره الله لنا - سَيِّئُكُمْ وصالحكم، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أحوالكم، وَسَتَلْقَوْنَ عِبَ أَعْمَالِكُمْ فِي آجَلِكُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَلْقَوْنَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعَرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

يريد أنهم في خَلِيفِهِم بِاللَّهِ لكم أن يدفع السوء مِنْ قِبَلِكُمْ، وليس قصدهم بذلك خلوصاً في اعتذارهم، ولا ندامة على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لَتُعْرِضُوا عنهم... فَأَعْرِضُوا عنهم؛ فَإِنَّ ذَلِكَ ليس بِمُنْجِيهِمْ مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فَإِنَّ اللَّهَ يُنْهَلُ الْعَاصِيَ حَتَّى يَتَوَهَّمْ أَنَّهُ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْهُ، وما ذلك إِلَّا مَكْرٌ عُومِلَ بِهِ، فإذا أذاقه ما يستوجبُه عِلِمَ أن الأمر بخلاف ما ظنَّه، وما ينفع ظاهر مغبوط، والحال - في الحقيقة - يَأْسُ من الرحمة وقنوط، وفي معناه قالوا:

وقد حسدوني في قُرْبِ داري مِنْهُمْ وكم من قَرِيبِ الدارِ وهو بعيد! قوله جل ذكره: ﴿يَلْقَوْنَ لَكُمْ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا تَرْضَ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

من كان مسخوط الحق لا ينفعه أن يكون مرضي الخلق، وليست العبرة بقول غير الله إنما المدار على ما سَبَقَ من السعادة في حُكْمِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَمْلَأُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

جَبِلَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْقِسْوَةِ فلم تَقَرَّعْهَا هَوَاجِمُ الصَّفْوَةِ، وكانوا عن أشكالهم في الْخَلْقَةِ مستأخرين بما (...).^(١) من سوء الخلق؛ فَهُمْ مِنْ اسْتِبَانَةِ الْحَقَائِقِ أَبْعَدَ، ومن استيجاب الهوان أقرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَخْذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

حَبِئَتْ عَقَائِدُهُمْ فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول الوحن بهم، فأبى الله إلا أن يحقق بهم مكرهم، ولهذا قيل في المثل: إذا حَفَرْتَ لِأَخِيكَ قَوْسُغَ فربما يكون ذلك مقيلك!

ويقال مَنْ نَظَرَ إِلَى وراثته يُوفَّقُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَرَأْيِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تَنَوُّعُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ عَشَّ وَلَمْ يَرْبِحْ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَحَ فَلَمْ يَخْسِرْ، فَأَمَّا الَّذِينَ
مَذَقُوا فَهَمَ فِي مَهْوَاةٍ هَوَانِهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا فَفِي رَوْحٍ إِحْسَانِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

السابقون مختلفون؛ فَمِنْ سَابِقِ بِصِدْقٍ قَدَمِهِ، وَمِنْ سَابِقِ بِصِدْقٍ هِمَمِهِ.

وَيَقَالُ السَّابِقُ مَنْ سَاعَدْتَهُ الْقِسْمَةُ بِالتَّوْفِيقِ، وَأَسْعَدَتْهُ الْقَضِيَّةُ بِالتَّحْقِيقِ، فَسَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتُهُ.

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .

وَيَقَالُ جَمَعَ الرِّضَاءَ صَفِيهِمْ : السَّابِقَ مِنْهُمْ وَالْآخِرَ بِهِمْ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَالْآخِرُونَ ﴾ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

ويقال ليس اللاحق كالسابق، فالسابق في رَوْحِ الطَّلَبِ، واللاحق في مقاساة التعب، ومُعَانَاةِ النَّصَبِ، وأنشدوا:

السُّبَّاقُ السُّبَّاقُ قَوْلاً وَفِعْلاً حَذَرُوا النَّفْسَ حَسْرَةً الْمَسْبُوقِ .

ويقال رِضَاهُمْ عن اللّهِ قَضِيَّةٌ رِضَاءُ اللَّهِ عَنْهُمْ؛ فَلَوْلَا أَنَّهُ رَضِيَ عَنْهُمْ فِي
إِزَالِهِ... فَمَتَى وَصَلُوا إِلَى رِضَاهُمْ عَنْهُ؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّقِفُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْأُنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

تشاكل المخلص والمنافق في الصورة فلم يَتَمَيَّزَا بالمباني، وإن تنافيا في الحقائق

والمعاني وتقاصر علمهم عن العرفان فهتكت الله لنيئه أستارهم . . فعرفهم، وهم بإشرافه عليهم جاهلون، وعلى الإقامة في أوطان نفاقهم مصروفون، فلم ينفعهم طول إمهاله لهم.

﴿سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾: الأولى في الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عوض ولا أجر ولا مسرة، والثانية عذاب القبر.

وقيل المرة الأولى بقبض أرواحهم، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمتحنون بالعذاب الأكبر.

ويقال المرة الأولى ظنهم أنهم على شيء، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إن اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم. والإقرار توكيد الحقوق فيما بين الخلق في مشاهد الحكم، ولكن الإقرار بحق الله - سبحانه - يوجب إسقاط الجرم في مقتضى سنة. كرم الحق - سبحانه، وفي معناه أنشدوا:

قيل لي: قد أساء فيك فلان وسكوت الفتى على الضيم عار

قلت: قد جاءني فأحسن عذرا دية الذنب عندنا الاعتذار

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾: ففي قوله: ﴿وَأَخَرَ سَيِّئًا﴾ بعد قوله: ﴿صَالِحًا﴾ دليل على أن الزلة لا تحيط ثواب الطاعة؛ إذ لو أحبطته لم يكن العمل صالحاً.

وكذلك قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾: وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شيء فقد يتوب وقد لا يتوب. ولأن قوله صدق . . فإذا أخبر أنه يجيب فإنه يفعل، فيجب منه لا يجب عليه.

ويقال قوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾: يحتمل معناه أنهم يتوبون؛ فالتوبة عمل صالح. وقوله: ﴿وَأَخَرَ سَيِّئًا﴾: يحتمل أنه نقضهم التوبة، فتكون الإشارة في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم إن نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زلتهم فواجب منا أن نتوب عليهم، ولئن بطلت - بنقضهم - توبتهم . . لما اختلث - بفضلنا - توبتنا عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الْأَعْوَاضِ عَلَيْهَا، وتركيبهم عن ملاحظتهم إياها.
 تطهرهم بها عن شُحِّ نفوسهم، وتركيبهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم؛ فَيَرَوْا عَظِيمَ
 مِثَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بوجدان التجرد منها.
 ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾: إِنْ تُعَاشِرْهُمْ بِهَيْئَتِكَ مَعَهُمْ أَثْمَنُ لَهُمْ مِنْ
 استقلالهم بأموالهم.
 قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
 هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

تمدَّح - سبحانه - بقبول توبة العاصين إذ بها يُظْهِرُ كَرَمَهُ، كما تمدَّح بجلال عِزِّهِ
 ونَبِّهَهُمْ عَلَى أَنْ يَعْرِفُوا بِهِ جَلَالَهُ وَقِدَمَهُ.
 وكما تَوَحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُزْمِهِ وَزَلَّتِهِ.
 فكما لا شبيهة له في جماله وجلاله لا شريك له في أفضاله وإقباله؛ يأخذ الصدقات -
 قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ، فَقَدَّرَ الصَّدَقَةَ وَخَطَرُهَا بِأَخْذِهِ لَهَا لَا بِكَثْرَتِهَا وَقِلَّتِهَا؛ قَلَّتْ فِي الصُّورَةِ
 صَدَقَتُهُمْ وَلَكِنْ لَمَّا أَخَذَهَا وَقَبِلَهَا جَلَّتْ بقبوله لَهَا، كما قيل:

يكون أجاجاً - دونكم، فإذا انتهى إليكم تَلْقَى طَيْبَكُمْ فَيْطِيبُ^(١)
 قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا نَسِيرِيَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

خَوْفُهُمْ بِرُؤْيَتِهِ - سبحانه - لأعمالهم، فلَمَّا عَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ تَتَقَاصَرُ حَالَتُهُ عَنْ
 الاحتشام لأطلاع الحقِّ قال: ﴿وَرَسُولِي﴾، ثُمَّ قَالَ لِمَنْ نَزَلَتْ رُبَّتُهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. وقد
 خَسِرَ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ، وَلَا يردعه الاحتشام، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ مَنْ هَتَكَ جَلَابِ
 الْحَيَاءِ، كما قيل:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَآؤُهُ
 وَمَنْ لَمْ يَمْنَعْهُ الْحَيَاءُ عَنْ تَعَاطِي الْمَكْرُوهَاتِ فِي الْعَاجِلِ سَيَلْقَى غَيْبَ ذَلِكَ،
 وَخَسْرَانَهُ عَنْ قَرِيبٍ فِي الْآجِلِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالْآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ﴾.

لَمْ يُصْرِّحْ بقبول توبتهم، وَلَمْ يَسْمَعْهُمْ بِالْيَاسِ مِنْ غَفْرَانِهِ، فَوَقَفُوا عَلَى قَدَمِ
 الْخَجَلِ، مَتَمِيلِينَ بَيْنَ الرُّهْبَةِ وَالرَّغْبَةِ، مَتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. أَخْبَرَ اللَّهُ -

(١) الأجاج: الشديد الملوحة أو المرارة.

سبحانه - أنه إن عَذَّبَهُمْ فلا اعتراض يتوجه عليه، وإن رَحِمَهُمْ فلا سبيل لأحد إليه، قال بعضهم:

ويشبعني من الآمال وعدٌ ومن علمي بتقصيري وعيد
قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالرِّصَادَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ﴾.

من لم يكن مخلصاً في ولائه لم يأنس القلب بكده وعنايه، فتَوَدَّه في الظاهر
ينادي عليه بالتوائه، وبقوله بالتكلف شهادة صدق على عدم صفاته:

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب
قوله جل ذكره: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ
فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

المقام في أماكن العصيان، والتعريض في أوطان أهل الجحود والطغيان - من
علامات الممالة مع أربابها، وسكائها وقطانها.

والتباعد عن مساكنهم، وهجران من جَنَحَ إلى مساكنهم علم لمن أشرب قلبه
مخالفتهم، وباشرت سيره عداوتهم.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾: يتطهرون عن المعاصي وهذه سمة العابدين،
ويتطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين، ويتطهرون عن محبة
المخلوقين، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين.

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: أسرارهم عن المساكنة إلى كل مخلوق، أو
ملاحظة كل مُخَدِّث مسبوق.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيُوتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أُتْسِسَ بُيُوتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

المريد يجب أن يؤسس بنيانه على يقين صادق فيما يعتقد، ثم على خلوص في
العزيمة ألا ينصرف قبل الوصول عن الطريق الذي يسلكه، ثم على انسلاخه عن جميع
مناه وشهوآته، ومآربه ومطالبه، ثم يبني أمره على دوام ذكره بحيث لا يعترضه نسيان،
ثم على ملازمة حق المسلمين وتقديم مصالحهم... بالإيثار على نفسه. والذي ضيَّع
الأصول في ابتدائه حرَمَ الوصول في انتهائه، والذي لم يُخَيِّم الأساس في بنائه سَقَطَ
السَّقْفُ على جدرانها.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَزَالُ يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رَبُّهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

عروق النفاق لا تُقْتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمَنْجَلِ التَّحَقُّقِ بصحيح البرهان؛ فَمَنْ أَيْدٍ لِإِدَامَةِ الْمَسِيرِ، وَوَقَفَ لِتَأْمَلِ الْبِرْهَانِ وَصَلَ إِلَى ثُلُجِ الصِّدْرِ وَرَوْحِ الْعِرْفَانِ. وَمَنْ أَقَامَ عَلَى مُغْتَاذِ التَّقْلِيدِ لَمْ يَسْتَرْخِ قَلْبُهُ مِنْ كَذِّ التَّرَدُّدِ، وَظُلْمَةِ التَّجْوِيزِ، وَجَوَلَانَ الْخَوَاطِرِ الْمَشْكَلَةِ فِي الْقَلْبِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمَظْمُورُ﴾.

لَمَّا كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْلِيمُ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِحُكْمِ اللَّهِ، وَكَانَ مِنَ اللَّهِ الْجَزَاءُ وَالثَّوَابُ؛ أَيْ هُنَاكَ عَوَاضٌ وَمُعَوَّضٌ، فَلَمَّا بَيَّنَّ ذَلِكَ وَبَيْنَ التَّجَارَةِ مِنْ مِثَابَةِ أَطْلُقَ لَفْظَ الْاِشْتِرَاءِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَذْكَاءٌ عَلَى تَحَرُّفٍ...﴾ [الصف: ١٠]، وَقَالَ: ﴿فَمَا رَحِمْتَ بِتَحَرُّفِهِمْ﴾ [البقرة: ١٦].

وَفِي الْحَقِيقَةِ لَا يَصُحُّ فِي وَصْفِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - الْاِشْتِرَاءُ لِأَنَّهُ مَالِكٌ سِوَاهُ، وَهُوَ مَالِكُ الْأَعْيَانِ كُلِّهَا. كَمَا أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَحْدِثْ مِلْكًا لَا يُقَالُ إِنَّهُ - فِي الْحَقِيقَةِ - بَاعَ.

وَلِلْمَقَالِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَجَالٌ... فَيُقَالُ: الْبَائِعُ لَا يَسْتَحِقُّ الثَّمَنَ إِذَا امْتَنَعَ عَنِ تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ، فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ الْجَزَاءَ الْمَوْعُودَ إِلَّا بَعْدَ تَسْلِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ عَلَى مُوجِبِ أَوَامِرِ الشَّرْعِ، فَمَنْ قَعَدَ أَوْ قَرَطَ فَعَيَّرَ مُسْتَحِقَّ الْجَزَاءِ.

وَيُقَالُ لَا يَجُوزُ فِي الشَّرْعِ أَنْ يَبِيعَ الشَّخْصُ وَيَشْتَرِيَ شَيْئًا وَاحِدًا فَيَكُونَ بَائِعًا وَمُشْتَرِيًا إِلَّا إِذَا كَانَ أَبًا وَجَدًّا وَلَكِنْ ذَلِكَ هُنَا بِلَفْظِ الشَّفَقَةِ؛ فَالْحَقُّ بِإِذْنِهِ كَانَتْ رَحْمَتُهُ بِالْعَبْدِ أَتَمَّ، وَنَظَرُهُ لَهُ أَبْلَغَ، وَكَانَ لِلْمُؤْمِنِ فِيهِ مِنَ الْغِبْطَةِ، مَا لَا يَخْفَى، فَصَحَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ حُكْمُهُ لَا يَقَاسُ عَلَى حُكْمِ غَيْرِهِ.

وَيُقَالُ إِنَّمَا قَالَ: ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ «قُلُوبَهُمْ» لِأَنَّ النَّفْسَ مَحَلَّ الْآفَاتِ فَجَعَلَ الْجَنَّةَ فِي مَقَابِلَتِهَا، وَجَعَلَ ثَمَنَ الْقَلْبِ أَجَلٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَهُوَ مَا يَخْصُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ فِي الْجَنَّةِ مِنْ عَزِيزِ رُؤْيَتِهِ.

وَيُقَالُ النَّفْسُ مَحَلُّ الْعَيْبِ، وَالكَرِيمُ يَرْغَبُ فِي شِرَاءِ مَا يَزْهَدُ فِيهِ غَيْرُهُ.

وَيُقَالُ مَنْ اشْتَرَى شَيْئًا لِيَتَنَفَّعَ بِهِ اشْتَرَى خَيْرَ مَا يَجِدُهُ، وَمَنْ اشْتَرَى شَيْئًا لِيَتَنَفَّعَ بِهِ غَيْرُهُ يَشْتَرِي مَا رَدَّ عَلَى صَاحِبِهِ لِيَتَنَفَّعَ بِهِ مِنْهُ.

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء - عليهم السلام -: يا بني آدم، ما خلقتكم لأربح عليكم ولكن خلقتكم لتربحوا عليّ.

ويقال اشترى منهم نفوسهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسهم، وأمّا القلب فاستأثره قهراً، والقهر في سئة الأحباب أعزُّ من الفضل، وفي معناه أنشدوا:

بُنِيَ الحُبُّ عَلَى القَهْرِ فلو عَدَلَ المحبُّوبُ يوماً لَسَمِعَ^(١)
ليس يُسْتَحْسَنُ في حكم الهوى عاشِقٌ يَطْلُبُ تَأْلِيفَ الحُجَجِ

وكان الشيخ أبو علي الدقاق^(٢) رحمه الله يقول: «لم يقل اشترى قلوبهم لأن القلوب وَقَفَتْ على محبته، والوقف لا يُشْتَرَى».

ويقال الطير في الهواء، والسَّمَكُ في الماء لا يصحُّ شراؤهما لأنه غير ممكن تسليمهما، كذلك القلب.. صاحبه لا يمكنه تسليمه، قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ يُحَوِّلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَوَلَدِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفي التوراة: «الجنة جنتي والمال مالي فاشتروا جنتي بمالي فإن ربحتم فلکم وإن خسرتم فعليّ».

ويقال عَلِمَ سوءَ خُلُقِكَ فاشتراك قبل أن أوجدك، وغالي بثمانك لثلا يكون لك حقُّ الاعتراض عند بلوغك.

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصّب لنفسه بحالٍ لأنها ليست له، والذي اشتراها أولى بها من صاحبها الذي هو أجنبي عنها.

ويقال أخبر أنه اشتراها لثلا يدعي العبدُ فيها؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعَجِّبُ بها.

قوله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ بيان عندهم أن يقتلوا أو يُقْتَلُوا، قال قائلهم:

وإن دَمًا أَجْرِيته لك شاكِرٌ وإن فؤاداً خِرَته لك حامِدٌ

ويقال قال: ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بَيْعَكُمْ﴾ ولم يقل بثمان مبيعكم لأنه لم يكن مئاً بَيْعٌ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فجعل بَيْعَهُ بَيْعَنَا، وهذا مثلما قال في صفة نبيه - ﷺ -: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] وهذا عين الجَمْع الذي أشار إليه القوم.

(١) سمج الشيء: قبح.

(٢) هو أبو علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق (الرسالة القشيرية ص ٩) وهو أستاذ القشيري.

قوله جل ذكره: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ﴾.

مَدَحَهُمْ بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ...﴾ وَمَنْ رَضِيَ بما اشتراه فَإِنَّ له حَقَّ الرَّدِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشُّراءِ، فأَمَّا إذا كان عالماً به فليس له حَقُّ الرَّدِّ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْغُلَامِينَ﴾ [الدخان: ٣٢].

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فَوَجَدَ به عيباً رَدَّه على مَنْ منه اشتراه ولكنه - سبحانه - اشترى نفوسنا منه، فإذا أراد الرَّدُّ فلا يرُدُّ إلا على نَفْسِهِ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وكما أَنَّ الرَّدَّ إليه فلو رَدُّنا كان الرَّدُّ عليه.

قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أي الراجعون إلى الله، فَمِنْ راجع يرجع عن زَلَّتِهِ إلى طاعته، وَمِنْ راجع، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، وَمِنْ راجع يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه، وَمِنْ راجع يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جَنَسِهِ إلى الاستغراق في حقائق حَقِّه.

ويقال تَائِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله؛ فيجد غداً فنونَ أفضاله، وصنوفَ لطفه ونواله، وتائبٌ يرجع عن كل غيرٍ وضدٍ إلى رَبِّه لربِّه بِمَخَوِّ كُلِّ أَرْبٍ، وَعَدَمِ الإحسان بكلِّ طلب.

وتائبٌ يرجع لحظَّ نَفْسِهِ من جزيل ثوابه أو حَدَرَأَ - على نفسه - من أليم عذابه، وتائبٌ يرجع لأمره برجوعه وإيابه، وتائبٌ يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أَوْضَارِهِ^(١)، ويخلص من شؤم أوزاره، وتائبٌ يرجع لَمَّا سمع أنه قال: إِنَّ اللَّهَ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ من الأعرابي الذي وَجَدَ ضَالَّتَهُ - كما في الخبر، «وَشَتَّانِ مَا هُمَا!» وأنشدوا:

أَيَا قَادِمًا مِنْ سَفَرَةِ الْهَجَرِ مَرْحَبًا أَنَادِيكَ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصُّبَا

وأما قوله ﴿الْعَمِيدُونَ﴾: فهم الخاضعون بكلِّ وجه، الذين لا تَسْتَرِقُّهُمْ كرائمُ الدنيا، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقُوبِ. ولا يكون العبدُ عبداً لله - على الحقيقة - إلا بعد تجرُّده عن كل شيءٍ حادثٍ. وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخَلْقَةُ؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿الْمُتَّوِّبُونَ﴾.

هم الشاكرون له على وجود أفضاله، الْمُتَّوِّبُونَ عليه عند شهود جلاله وجماله.

(١) الأَوْضَارُ: (ج) الوَضَرُ: الوسخ من الدسم أو غيره.

ويقال: الحامدون بلا اعتراض على ما يحصل بقدرته، وبلا انقباض عما يجب من طاعته.

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه.

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا قُوَّةَ^(١) له المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءة له.

ويقال الشاكرون له إن أذناهم، الحامدون له إن أقصاهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُتَكَبِّرُونَ﴾.

الصائمون ولكن عن شهود غير الله، الممتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله.

ويقال السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكير في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على مُثَبِّثِها، والتحقق بحكمة خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت فيجدون رَوْحَ الوصال، ويعيشون بنسيم الإنس بالتحقق بشهود الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُزَكَّيْنَ﴾.

الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلي، وفي الخبر: «إن الله ما تجلّى لشيءٍ إلا خَسَعَ له»^(٢).

وكما يكون - في الظاهر - راعياً يكون في الباطن خاشعاً، ففي الظاهر بإحسان الحق إليه يُحَسِّنُ تولّيه، وفي الباطن كالعيان للعيان للحق بأنوار تجليّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمُسْتَجِدِّينَ﴾.

في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية. والسجود على أقسام: سجود عند صحة القصد فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال. وسجود عند الشهود إذا تجلّى الحق لقلبه سَجَدَ بقلبه، فلم ينظر بعده إلى غيره، وسجود في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن الفتوة: سألت شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال: ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إن أعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، فقال جعفر بن محمد: الكلاب عندنا بالمدينة تفعل كذلك، فقال شقيق: يا ابن بنت رسول الله: ما الفتوة عندكم؟ فقال: إن أعطينا أثرنا، وإن منعنا شكرنا. (الرسالة القشيرية ص ٢٣٠).

(٢) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢).

قوله جل ذكره: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هم الذين يَدْعُونَ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ. يَتَوَاصُونَ بِالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ وَتَرْكِ الْإِسْتِغْثَالِ بِغَيْرِ اللَّهِ. يَأْمُرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّزَامِ الطَّاعَاتِ بِحَمْلِهِمْ إِيَّاهَا عَلَى سَنَنِ الْإِسْتِقَامَةِ، وَيَنْهَوْنَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْمُنَى وَالشَّهَوَاتِ بِتَرْكِ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْغَفْلَةِ، وَمَا تَعُودُهُ مِنَ الْمَسَاكِنَةِ وَالْإِسْتِنَامَةِ.

والحافظون لحدود الله، هم الواقفون حيث وقفهم الله، الذين لا يتحركون إلا إذا حُرِّكَهُمْ وَلَا يَسْكُنُونَ إِلَّا إِذَا سَكَنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْفُسَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أَصْلُ الدِّينِ التَّبَرُّيُّ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَالتَّوَلَّى لِلْأَوْلِيَاءِ، وَالْوَلِيُّ لَا قَرِيبَ لَهُ وَلَا حَمِيمٍ، وَلَا نَسِيبَ لَهُ وَلَا صَدِيقٍ؛ إِنْ وَالَى فَيَأْمُرُ، وَإِنْ عَادَى فَلْيَزْجُرْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّبَرُّيِّ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَالْإِنْقِبَاضِ عَنِ الْإِسْتَفْغَارِ لَهُمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا سَبِيلُ الْأَوْلِيَاءِ، وَطَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَإِنْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ فَإِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ تَحَقُّقِهِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ أَظْهَرَ الْبَرَاءَةَ مِنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ يُخِصِّلَ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ بِضَلَالِكُمْ وَذَهَابِكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِاسْتَفْغَارِكُمْ لِلْمُشْرِكِينَ إِلَّا بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنْكُمْ مَنُهِيُونَ عَنْهُ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ تُنْهَيْتُمْ عَنْ اسْتَفْغَارِكُمْ لَهُمْ فَإِنْ أَقْدَمْتُمْ عَلَى ذَلِكَ فَحِينَئِذٍ ضَلَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بِفَعْلِكُمْ بَعْدَ مَا تُنْهَيْتُمْ عَنْهُ... هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ لِلآيَةِ، وَالْإِشَارَةُ فِيهَا أَنَّهُ لَا سَلْبَ لِعَطَائِهِ إِلَّا بِتَرْكِ أَدَبِ مَنْكُم.

وَيَقَالُ مَنْ أَحَلَّهُ بِسَاطِ الْوَصْلَةِ مَا مُنِيَ بَعْدَهُ بِعَذَابِ الْفِرْقَةِ، إِلَّا لِمَنْ سَلَفَ مِنْ تَرْكِ حُرْمَةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الحقُّ لا يَتَجَمَّلُ بوجود مملوكاته، ولا يلحق نَقْصُ بَعْدَم مخلوقاته، فَقَبْلَ أَنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً - والمَلِكُ أكثر مبالغة من المالك - ومُلْكُهُ قدرته على الإبداع؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه، فإذا أَوْجَدَهُ فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكه، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يحيي مَنْ يشاء بعرفانه وتوحيده، ويميت من يشاء بكفرانه وجحوده.

ويقال يُحْيِي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات، ويميت نفوسَ العابدين بآثار المنازلات.

ويقال يُحْيِي مَنْ أَقْبَلَ عليه بِتَفَضُّله، ويميت من أَعْرَضَ عنه بِتَكْبَرِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾.

قَبْلَ تَوْبَتِهِمْ، وتَابَ على نَبِيِّهِ - ﷺ - في إِذْنِهِ للمنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك، وَأَمَّا على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هَمُّوا بالانصراف لِمَا أَصَابَهُمْ من العُسرة من الجوع والعطش والإعياء في غزوة تبوك، كما قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾: وتوبته عليهم أنه تدارَكَ قلوبهم حتى لم تَزِغْ، وكذا سُنَّةُ الْحَقِّ - سبحانه - مع أوليائه إذا أَشْرَفُوا على الْعَطَبِ، وقاربوا من الشلف، واستمكن اليأس في قلوبهم من النصر، وَوَطَّنُوا أنفسهم على أَنْ يذوقوا البأسَ - يُعْطِرُ عليهم سحائب الجود، فيعود عودُ الحياة بعد يَبْسِه طرياً، وَيُرْدُ وَرْدُ الْأَنْسِ عقب ذبوله غصاً جَنِيّاً، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم:

كُنَّا كَمَنْ أَلَيْسَ أَكْفَانُهُ وَقُرْبُ النَّفْسِ مِنَ اللَّحْدِ
فَجَالَ مَاءُ الرُّوحِ فِي وَخْشَةٍ وَرَدَّهُ الْوَصْلُ إِلَى الْوَرْدِ
تَبَارَكَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَا (...) (١) هُوَ بِالسَّرْمَدِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

لَمَّا صَدَقَ مِنْهُمْ اللّجاء تداركهم بالشفاء وأسقط عنهم البلاء، وكذلك الحقُّ يَكْوَرُ

نهار اليُسْرِ على ليالي العُسْرِ، ويُطْلَعُ شَمْسُ المَحَنَةِ على نحوسِ الفِتْنَةِ، ويُدِيرُ فَلَكَ السَّعَادَةَ فيمَحَقُ تأثير طَوَارِقِ النِّكَايَةِ؛ سُنَّةٌ مِنْهُ - تعالى - لَا يُبَدِّلُهَا، وَعَادَةٌ مِنْهُ فِي الْكَرَمِ يُجَرِّبُهَا وَلَا يَحْوِلُهَا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

يا أيها الذين آمنوا برُّسُلِ الله، يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب... كونوا مع الصادقين المسلمين، يا أيها الذين آمنوا في الحال كونوا في آخر أحوالكم مع الصادقين؛ أي استديموا الإيمان. استديموا في الدنيا الصدق تكونوا غداً مع الصادقين في الجنة.

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم.

ويقال الصدق نهاية الأحوال، وهو استواء السر والعلانية، وذلك عزيز. وفي الزُّبُو: «كذب مَنْ ادَّعَى محبتي وإذا جَنَّةُ اللَّيْلِ نام عَنِّي».

والصدق - كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتم أقسامه.

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لا يجوز لهم أن يؤثروا على النبي - ﷺ - شيئاً من نفس وروح، ومالٍ وولَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأئى ذلك...؟ وإنهم لا يرفعون لأجله خطوة إلا قَابَلَهُمْ بِأَلْفِ خُطْوَةٍ، ولا ينقلون إليه قدماً إلا لَقَّاهُمْ لُطْفاً وكرماً، ولا يقاسون فيه عَطْشاً إلا سَقَاهُمْ مِنْ شَرَابِ مَحَابَّةِ كَاسَا، ولا يتحملون لأجله مشقة إلا لَقَّاهُمْ لُطْفاً وإيناساً. ولا ينالون من الأعداء أذى إلا شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُمْ بما يوجب لهم سعادة الدارين!

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

لو اشتغل الكل بالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ لَتَعَطَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَعَاشُ، ولَبَقِيَ الْكَافَةُ عَنْ دَرْكِ ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية.

ويقال جعل المسلمين على مراتب: فعوامهم كالرعية للملك، وكتبته الحديث

كَخَزَّانِ الْمَلِكِ، وَأَهْلُ الْقُرْآنِ كَحَفَازِ الدَّفَاتِرِ وَنَفَائِسِ الْأَمْوَالِ، وَالْفُقَهَاءُ بِمَنْزِلَةِ الْوُكَلَاءِ لِلْمَلِكِ إِذَ الْفَقِيهِ (...)^(١) عَنْ اللَّهِ، وَعُلَمَاءُ الْأَصُولِ كَالْقَوَادِ وَأَمْرَاءُ الْجِيُوشِ، وَالْأَوْلِيَاءُ كَأَرْكَانِ الْبَابِ، وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ وَأَصْحَابُ الصَّفَاءِ كَخَوَاصِ الْمَلِكِ وَجُلَسَائِهِ.

فِيَسْتَغْلِقُونَ قَوْمَ بِحِفْظِ أَرْكَانِ الشَّرْعِ وَآخَرُونَ بِإِمْضَاءِ الْأَحْكَامِ، وَآخَرُونَ بِالرَّدِّ عَلَى الْمَخَالِفِينَ، وَآخَرُونَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَوْمٌ مُفَرَّدُونَ بِحُضُورِ الْقَلْبِ وَهُمْ أَصْحَابُ الشَّهَادَةِ، وَلَيْسَ لَهُمْ شُغْلٌ، يَرَاعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ أَصْحَابُ الْفَرَاغِ، لَا يَسْتَفْزَهُمْ طَلَبٌ وَلَا يَهْزُهُمْ أَرْبٌ، فَهُمْ بِاللَّهِ اللَّهُ، وَهُمْ مَحْوَ عَمَّا سِوَى اللَّهِ^(٢).

وَأَمَّا الَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ فَهُمْ الدَّاعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا يُفْهِمُ الْخَلْقَ عَنْ اللَّهِ مَنْ كَانَ يُفْهِمُ عَنْ اللَّهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أَقْرَبُ الْأَعْدَاءِ إِلَى الْمُسْلِمِ مِنَ الْكُفَّارِ، الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ مَنَازَعَتُهُ هُوَ أَعْدَى عَدُوِّهِ أَيْ نَفْسُهُ. فَيَجِبُ أَنْ يَبْدَأَ بِمُقَاتَلَةِ نَفْسِهِ ثُمَّ بِمُجَاهَدَةِ الْكُفَّارِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(٣).

قَوْلُهُ: ﴿وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ مِنْ حَابِي عَدُوِّهِ قَهْرُهُ، وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ الَّذِي يَنْزِلُ عَنْ مَطَالِبَاتِ الْحَقِيقَةِ إِلَى مَا يَتَطَلَّبُهُ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ يَفْسَخُ عَهْدَهُ، وَيَنْقُضُ عَقْدَهُ، وَذَلِكَ كَالرَّدَّةِ لِأَهْلِ الظَّاهِرِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَيْنَكُم بِذِكْرِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَّادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

جَعَلَ اللَّهُ^(٤) - سُبْحَانَهُ - أَنْزَالَ الْقُرْآنَ لِقَوْمٍ شِفَاءً. وَلِقَوْمٍ شِقَاءً؛ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ جَدِيدَةٌ زَادَ شُكُّهُمْ وَتَحْيِيرُهُمْ، فَاسْتَعْلِمَ بَعْضُهُمْ حَالَ بَعْضٍ، ثُمَّ لَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا تَحْسُرًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فَصَلَتْ: ٤٤] وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَرَّادَتْهُمْ السُّورَةُ إِيْمَانًا

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ - ٢٨٣ عند حديث القشيري عن التصوف.

(٣) أخرجه الزبيدي في [إتحاف السادة المتقين ٣٧٩/٦، ٢١٨/٧]، والعراقي في (المنفي عن حمل الأسفار ٧/٣)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٥١١/١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٠٦)، والفنّي في (تذكرة الموضوعات ١٩١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المنتشرة ٨٩).

(٤) الآية (١٢٥) لم ترد.

فارتقوا مِنْ حَدِّ تَأْمَلِ البرهان إلى رُوحِ البيان، ثم مِنْ رُوحِ البيان إلى العيان، فالتجوير والتردد و (....) ^(١) والتحير مُتَنَفِّىً بِأَجْمَعِهِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وشموسُ العرفانِ طالِعَةٌ على أسرارهم، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم، فلا لَهُمْ تَعَبُ الطَلَبِ، ولا لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَى التَّدْبِيرِ، ولا عَلَيْهِمْ سُلْطَانُ الْفِكْرِ. وَأَشِعَّةُ شَمُوسِ الْعِرْفَانِ مُسْتَغْرَقَةٌ لِأَنْوَارِ نَجُومِ الْعِلْمِ، يَقُولُ قَائِلُهُمْ:

ولما استبانَ الصُّبْحُ أدرك ضوؤه بِإِسْفَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ الْكُوَاكِبِ
قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾.

لم يُخَلِّ الْحَقُّ - سبحانه - أربابَ التكليف من دلائل التعريف، التعريفُ لَهُمْ في كل وقت بنوع من البيان، والتكليفُ في كل أوان بضرب من الامتحان؛ فما لم يزد لَهُمْ في إيضاح البرهان لم يتجدد لَهُمْ من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان. وأما أصحاب الحقائق فما للأغيار في كل عام مرة أو مرتين فلهُمْ في كل نَفْسٍ مرة، لا يخليهِمُ الْحَقُّ - سبحانه - من زواجرٍ توجبُ بصائر، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وَأوامِرَ قال قائلُهُمْ:

كَأَنْ رَقِيباً مِنْكَ حَلَّ بِمَهْجَتِي إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلاً عَلَيَّ تَصَعَّبَا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَكَذَا بَرَكْتُ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

تَفَقَّعُوا بِخِمَارِ التَّلْبِيسِ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَبْقُونَ فِي سِرٍّ بِتَكْلِفِهِمْ، وَالْحَقُّ أَبِي إِلَّا أَنْ فَضَحَهُمْ، وَكَمَا وَسَمَهُمْ بِرَقْمِ الثُّكْرَةِ أَطْلَعَ أَسْرَارَ الْمُؤَحِّدِينَ عَلَى أحوالِهِمْ فَعَرَفُوهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أوصافِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾.

جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم في البشرية، فَلَمَّا أَفْرَدَنَاهُ بِهِ مِنَ الْخُصُوصِيَةِ الْبَشَرِيَّةِ لِبَاسِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَمْنَاهُ بِشَوَاهِدِ الْعُطْفِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى جَمَلَتِكُمْ، قَدْ وَكَلَ هِمَمَهُ بِشَأْنِكُمْ، وَأكْبَرُ هِمَمِهِ إيمانُكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

أَمْرُهُ أَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ إِلَى التَّوْحِيدِ، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِجَابَةِ فَكُنْ بِنَا
بِنَعْتِ التَّجْرِيدِ.

وَيَقَالُ قَالَ لَهُ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ، ثُمَّ أَمْرُهُ بِأَنْ يَقُولَ حَسْبِيَ اللَّهُ... وهذا
عين الجمع، وقوله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فَرَّقَ... بل هو جمع الجمع أي: قُلْ،
ولكنك بنا تقول، ونحن المتولي عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد؛ فأنت بنا،
وَمَحْوٌ عَنْ غَيْرِنَا.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني
وأوله: سورة يونس عليه السلام

فهرس المحتويات

٣١	تفسير الآية : ٢٧	٣	ترجمة المؤلف
٣٢	تفسير الآية : ٢٨	٥	مقدمة المؤلف
٣٣	تفسير الآيتين : ٢٩ و ٣٠		
٣٥	تفسير الآية : ٣١		
٣٦	تفسير الآيتين : ٣٢ و ٣٣	٨	تفسير الآية : ١
٣٧	تفسير الآيتين : ٣٤ و ٣٥	٩	تفسير الآية : ٢
٣٩	تفسير الآيتين : ٣٦ و ٣٧	١١	تفسير الآية : ٣
٤٠	تفسير الآيات : ٣٨ - ٤٠	١٢	تفسير الآيتين : ٤ و ٥
٤٢	تفسير الآيات : ٤١ - ٤٤	١٣	تفسير الآية : ٦
٤٣	تفسير الآية : ٤٥	١٤	تفسير الآية : ٧
٤٤	تفسير الآيات : ٤٦ - ٤٨		
٤٥	تفسير الآيات : ٤٩ - ٥١		
٤٦	تفسير الآيتين : ٥٢ و ٥٣	١٦	تفسير الآية : ١
٤٧	تفسير الآيتين : ٥٤ و ٥٥	١٧	تفسير الآية : ٢
٤٨	تفسير الآيات : ٥٦ - ٦٠	١٨	تفسير الآية : ٣
٤٩	تفسير الآية : ٦١	٢٠	تفسير الآية : ٤
٥٠	تفسير الآيات : ٦٢ - ٦٥	٢١	تفسير الآيتين : ٥ و ٦
٥١	تفسير الآيات : ٦٦ - ٧١	٢٢	تفسير الآيتين : ٧ و ٨
٥٢	تفسير الآيات : ٧٢ - ٧٤	٢٣	تفسير الآيتين : ٩ و ١٠
٥٣	تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٩	٢٤	تفسير الآيات : ١١ - ١٣
٥٤	تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٢	٢٥	تفسير الآيتين : ١٤ و ١٥
٥٥	تفسير الآيتين : ٨٥ و ٨٦	٢٦	تفسير الآيتين : ١٦ و ١٧
٥٦	تفسير الآيات : ٨٧ - ٩١	٢٧	تفسير الآيات : ١٨ - ٢٠
٥٧	تفسير الآيات : ٩٢ - ٩٦	٢٨	تفسير الآيتين : ٢١ و ٢٢
٥٨	تفسير الآيات : ٩٧ - ١٠١	٢٩	تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٥
		٣٠	تفسير الآية : ٢٦

تفسير الآية: ١٠٢	٥٩	تفسير الآية: ١٨٧	٩٠
تفسير الآيات: ١٠٣ - ١٠٦	٦٠	تفسير الآيتين: ١٨٨ و ١٨٩	٩١
تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١٠	٦١	تفسير الآيتين: ١٩٠ و ١٩١	٩٢
تفسير الآيات: ١١١ - ١١٤	٦٢	تفسير الآيات: ١٩٢ - ١٩٤	٩٣
تفسير الآيتين: ١١٥ و ١١٦	٦٣	تفسير الآيتين: ١٩٥ و ١٩٦	٩٤
تفسير الآيات: ١١٧ - ١٢٠	٦٤	تفسير الآية: ١٩٧	٩٦
تفسير الآيات: ١٢١ - ١٢٣	٦٥	تفسير الآيات: ١٩٨ - ٢٠٠	٩٧
تفسير الآيتين: ١٢٤ و ١٢٥	٦٦	تفسير الآية: ٢٠١	٩٨
تفسير الآية: ١٢٦	٦٨	تفسير الآيات: ٢٠٢ - ٢٠٥	٩٩
تفسير الآيات: ١٢٧ - ١٢٩	٦٩	تفسير الآيات: ٢٠٦ - ٢٠٨	١٠٠
تفسير الآيتين: ١٣٠ و ١٣١	٧٠	تفسير الآيات: ٢٠٩ - ٢١٢	١٠١
تفسير الآيات: ١٣٢ - ١٣٥	٧١	تفسير الآيات: ٢١٣ - ٢١٥	١٠٢
تفسير الآيات: ١٣٦ - ١٣٨	٧٢	تفسير الآيات: ٢١٦ - ٢١٨	١٠٣
تفسير الآيات: ١٣٧ - ١٤٢	٧٣	تفسير الآيات: ٢١٩ - ٢٢١	١٠٤
تفسير الآية: ١٤٣	٧٤	تفسير الآيتين: ٢٢٢ و ٢٢٣	١٠٥
تفسير الآيات: ١٤٤ - ١٤٦	٧٥	تفسير الآيات: ٢٢٤ - ٢٢٨	١٠٦
تفسير الآيات: ١٤٧ - ١٥١	٧٦	تفسير الآية: ٢٢٩	١٠٧
تفسير الآية: ١٥٢	٧٧	تفسير الآيتين: ٢٣٠ و ٢٣١	١٠٨
تفسير الآيتين: ١٥٣ و ١٥٤	٧٨	تفسير الآيتين: ٢٣٢ و ٢٣٣	١٠٩
تفسير الآيات: ١٥٥ - ١٥٧	٧٩	تفسير الآيات: ٢٣٤ - ٢٣٦	١١٠
تفسير الآيات: ١٥٨ - ١٦٠	٨٠	تفسير الآيات: ٢٣٧ - ٢٤٠	١١١
تفسير الآيات: ١٦١ - ١٦٤	٨١	تفسير الآيات: ٢٤١ - ٢٤٥	١١٢
تفسير الآيتين: ١٦٥ و ١٦٦	٨٢	تفسير الآية: ٢٤٦	١١٣
تفسير الآيات: ١٦٧ - ١٧٠	٨٣	تفسير الآيتين: ٢٤٧ و ٢٤٨	١١٤
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٦	٨٤	تفسير الآيتين: ٢٤٩ و ٢٥٠	١١٥
تفسير الآيتين: ١٧٧ و ١٧٨	٨٥	تفسير الآيات: ٢٥١ - ٢٥٣	١١٦
تفسير الآيات: ١٧٩ - ١٨٢	٨٦	تفسير الآيتين: ٢٥٤ و ٢٥٥	١١٧
تفسير الآيتين: ١٨٣ و ١٨٤	٨٧	تفسير الآية: ٢٥٦	١١٨
تفسير الآية: ١٨٥	٨٨	تفسير الآية: ٢٥٧	١١٩
تفسير الآية: ١٨٦	٨٩	تفسير الآيات: ٢٥٨ - ٢٦٠	١٢٠

تفسير الآيات : ٢٦١ - ٢٦٣ ١٢٢	تفسير الآية : ٧٩ ١٥٥
تفسير الآيات : ٢٦٤ - ٢٦٧ ١٢٣	تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٣ ١٥٦
تفسير الآيتين : ٢٦٨ و ٢٦٩ ١٢٤	تفسير الآيات : ٨٤ - ٨٧ ١٥٧
تفسير الآيات : ٢٧٠ - ٢٧٣ ١٢٥	تفسير الآيات : ٨٨ - ٩٢ ١٥٨
تفسير الآيتين : ٢٧٤ و ٢٧٥ ١٢٦	تفسير الآيات : ٩٣ - ٩٧ ١٥٩
تفسير الآيات : ٢٧٦ - ٢٨٠ ١٢٧	تفسير الآيات : ٩٨ - ١٠٠ ١٦٣
تفسير الآيتين : ٢٨١ و ٢٨٢ ١٢٨	تفسير الآيات : ١٠١ - ١٠٣ ١٦٤
تفسير الآيات : ٢٨٣ - ٢٨٦ ١٢٩	تفسير الآيتين : ١٠٤ و ١٠٥ ١٦٥
سورة آل عمران	
تفسير الآية : ١ ١٣١	تفسير الآيات : ١٠٦ - ١١٠ ١٦٦
تفسير الآيات : ٢ - ٦ ١٣٢	تفسير الآيات : ١١١ - ١١٥ ١٦٧
تفسير الآيات : ٧ - ٩ ١٣٣	تفسير الآيات : ١١٦ - ١٢٠ ١٦٨
تفسير الآيات : ١٠ - ١٤ ١٣٤	تفسير الآيات : ١٢١ - ١٢٦ ١٦٩
تفسير الآيات : ١٥ - ١٧ ١٣٥	تفسير الآيات : ١٢٧ - ١٣٢ ١٧٠
تفسير الآية : ١٨ ١٣٦	تفسير الآيتين : ١٣٣ و ١٣٤ ١٧١
تفسير الآيات : ١٩ - ٢٢ ١٣٨	تفسير الآيتين : ١٣٥ و ١٣٦ ١٧٢
تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٦ ١٣٩	تفسير الآيات : ١٣٧ - ١٤٣ ١٧٣
تفسير الآية : ٢٧ ١٤٠	تفسير الآيات : ١٤٤ - ١٤٦ ١٧٤
تفسير الآية : ٢٨ ١٤١	تفسير الآيات : ١٤٧ - ١٥٠ ١٧٥
تفسير الآيات : ٢٩ - ٣١ ١٤٢	تفسير الآيتين : ١٥١ و ١٥٢ ١٧٦
تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٧ ١٤٤	تفسير الآيتين : ١٥٣ و ١٥٤ ١٧٧
تفسير الآيتين : ٣٨ و ٣٩ ١٤٦	تفسير الآيتين : ١٥٥ و ١٥٦ ١٧٨
تفسير الآيات : ٤٠ - ٤٢ ١٤٧	تفسير الآيتين : ١٥٨ و ١٥٩ ١٧٩
تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٦ ١٤٨	تفسير الآية : ١٦٠ ١٨٠
تفسير الآيات : ٤٧ - ٥٣ ١٤٩	تفسير الآيات : ١٦١ - ١٦٣ ١٨١
تفسير الآيات : ٥٤ - ٦٠ ١٥٠	تفسير الآيات : ١٦٤ - ١٦٧ ١٨٢
تفسير الآيات : ٦١ - ٦٤ ١٥١	تفسير الآيات : ١٦٨ - ١٧١ ١٨٣
تفسير الآيات : ٦٥ - ٦٩ ١٥٢	تفسير الآيات : ١٧٢ - ١٧٥ ١٨٤
تفسير الآيات : ٧٠ - ٧٤ ١٥٣	تفسير الآيات : ١٧٣ - ١٧٩ ١٨٥
تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٨ ١٥٤	تفسير الآيات : ١٨٠ - ١٨٢ ١٨٦
	تفسير الآيات : ١٨٣ - ١٨٧ ١٨٧

تفسير الآيات: ٩٢ - ٩٤	٢٢٠
تفسير الآيات: ٩٥ - ١٠٠	٢٢١
تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٤	٢٢٢
تفسير الآيات: ١٠٥ - ١١٠	٢٢٣
تفسير الآيات: ١١١ - ١١٣	٢٢٤
تفسير الآية: ١١٤	٢٢٥
تفسير الآيات: ١١٥ - ١٢١	٢٢٦
تفسير الآيات: ١٢٢ - ١٢٦	٢٢٧
تفسير الآيتين: ١٢٧ و ١٢٨	٢٢٨
تفسير الآية: ١٢٩	٢٢٩
تفسير الآيات: ١٣٠ - ١٣٥	٢٣٠
تفسير الآيات: ١٣٦ - ١٣٨	٢٣١
تفسير الآيات: ١٣٩ - ١٤١	٢٣٢
تفسير الآيات: ١٤٢ - ١٤٤	٢٣٣
تفسير الآيتين: ١٤٥ و ١٤٦	٢٣٤
تفسير الآية: ١٤٧	٢٣٥
تفسير الآية: ١٤٨	٢٣٦
تفسير الآيات: ١٤٩ - ١٥٢	٢٣٧
تفسير الآية: ١٥٣	٢٣٨
تفسير الآيات: ١٥٤ - ١٥٨	٢٣٩
تفسير الآيات: ١٥٩ - ١٦٢	٢٤٠
تفسير الآيتين: ١٦٣ و ١٦٤	٢٤١
تفسير الآيات: ١٦٥ - ١٧٠	٢٤٢
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٥	٢٤٣
تفسير الآية: ١٧٦	٢٤٤

سورة المائدة

تفسير الآية: ١	٢٤٥
تفسير الآية: ٢	٢٤٦
تفسير الآية: ٣	٢٤٧
تفسير الآية: ٤	٢٥٠

تفسير الآيات: ١٨٨ - ١٩١	١٨٨
تفسير الآيات: ١٩٢ - ١٩٥	١٩٠
تفسير الآيات: ١٩٦ - ٢٠٠	١٩١

سورة النساء

تفسير الآية: ١	١٩٣
تفسير الآيات: ٢ - ٥	١٩٥
تفسير الآيات: ٦ - ٨	١٩٦
تفسير الآيات: ٩ - ١١	١٩٧
تفسير الآيات: ١٢ - ١٤	١٩٨
تفسير الآيات: ١٥ - ١٨	١٩٩
تفسير الآيات: ١٩ - ٢١	٢٠٠
تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٥	٢٠١
تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٨	٢٠٢
تفسير الآيات: ٢٩ - ٣١	٢٠٣
تفسير الآية: ٣٢	٢٠٤
تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥	٢٠٥
تفسير الآيتين: ٣٦ و ٣٧	٢٠٦
تفسير الآيتين: ٣٨ و ٣٩	٢٠٧
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣	٢٠٨
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٢٠٩
تفسير الآيات: ٤٧ - ٥٢	٢١٠
تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٧	٢١١
تفسير الآيات: ٥٨ - ٦٠	٢١٢
تفسير الآيات: ٦١ - ٦٤	٢١٣
تفسير الآيات: ٦٥ - ٧٠	٢١٤
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٦	٢١٥
تفسير الآيتين: ٧٧ و ٧٨	٢١٦
تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٣	٢١٧
تفسير الآيات: ٨٤ - ٨٦	٢١٨
تفسير الآيات: ٨٧ - ٩١	٢١٩

٢٨٣	تفسير الآيات: ١١١ - ١١٦	٢٥١	تفسير الآيتين: ٥ و ٦
٢٨٤	تفسير الآيات: ١١٦ - ١١٨	٢٥٣	تفسير الآيتين: ٧ و ٨
٢٨٥	تفسير الآيتين: ١١٩ و ١٢٠	٢٥٤	تفسير الآيات: ٩ - ١٢

سورة الأنعام

٢٨٦	تفسير الآيتين: ١ و ٢	٢٥٦	تفسير الآية: ١٣
٢٨٧	تفسير الآيات: ٣ - ٦	٢٥٧	تفسير الآيات: ١٤ - ١٧
٢٨٨	تفسير الآيات: ٧ - ١٢	٢٥٨	تفسير الآيات: ١٨ - ٢٠
٢٨٩	تفسير الآيات: ١٣ - ٢٠	٢٥٩	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢
٢٩٠	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٦	٢٦٠	تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦
٢٩١	تفسير الآيات: ٢٧ - ٣٣	٢٦١	تفسير الآيات: ٢٦ - ٣٠
٢٩٢	تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٧	٢٦٢	تفسير الآيات: ٣١ - ٣٤
٢٩٣	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٢	٢٦٣	تفسير الآيات: ٣٥ - ٣٧
٢٩٤	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٧	٢٦٤	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤١
٢٩٥	تفسير الآيات: ٤٨ - ٥٢	٢٦٥	تفسير الآيات: ٤٢ - ٤٤
٢٩٦	تفسير الآية: ٥٣	٢٦٦	تفسير الآيات: ٤٥ - ٤٧
٢٩٧	تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٦	٢٦٧	تفسير الآيتين: ٤٨ و ٤٩
٢٩٨	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦١	٢٦٨	تفسير الآيات: ٥٠ - ٥٣
٢٩٩	تفسير الآيات: ٦٢ - ٦٨	٢٦٩	تفسير الآية: ٥٤
٣٠٠	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٣	٢٧٠	تفسير الآيتين: ٥٥ و ٥٦
٣٠١	تفسير الآيات: ٧٤ - ٨٠	٢٧١	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦٢
٣٠٢	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٨	٢٧٢	تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٥
٣٠٣	تفسير الآيات: ٨٩ - ٩٢	٢٧٣	تفسير الآيات: ٦٦ - ٦٨
٣٠٤	تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٥	٢٧٤	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٥
٣٠٥	تفسير الآيات: ٩٦ - ١٠٠	٢٧٥	تفسير الآيات: ٧٦ - ٨٠
٣٠٦	تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٨	٢٧٦	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٧
٣٠٧	تفسير الآيات: ١٠٩ - ١١٢	٢٧٧	تفسير الآيتين: ٨٨ و ٨٩
٣٠٨	تفسير الآيات: ١١٣ - ١١٩	٢٧٨	تفسير الآية: ٩٠
٣٠٩	تفسير الآيات: ١٢٠ - ١٢٢	٢٧٩	تفسير الآيات: ٩١ - ٩٥
٣١٠	تفسير الآيات: ١٢٣ - ١٢٥	٢٨٠	تفسير الآيات: ٩٦ - ١٠٠
٣١١	تفسير الآيتين: ١٢٦ و ١٢٧	٢٨١	تفسير الآيات: ١٠١ - ١٠٥
		٢٨٢	تفسير الآيات: ١٠٦ - ١١٠

تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٩ ٣٤٥	تفسير الآيات: ١٢٨ ٣١٢
تفسير الآيات: ١٠٠ - ١٠٦ ٣٤٦	تفسير الآيات: ١٢٩ - ١٣٥ ٣١٣
تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١٦ ٣٤٧	تفسير الآيات: ١٣٤ - ١٤٠ ٣١٤
تفسير الآيات: ١١٧ - ١٢٧ ٣٤٨	تفسير الآيات: ١٤١ - ١٤٤ ٣١٥
تفسير الآيات: ١٢٨ - ١٣٢ ٣٤٩	تفسير الآيات: ١٤٥ - ١٤٩ ٣١٦
تفسير الآيات: ١٣٣ - ١٣٩ ٣٥٠	تفسير الآيات: ١٥٠ - ١٥٤ ٣١٧
تفسير الآيات: ١٤٠ - ١٤٢ ٣٥١	تفسير الآيات: ١٥١ - ١٥٩ ٣١٨
تفسير الآية: ١٤٣ ٣٥٢	تفسير الآيتين: ١٦٠ و ١٦١ ٣١٩
تفسير الآيتين: ١٤٤ و ١٤٥ ٣٥٥	تفسير الآيات: ١٦٢ - ١٦٥ ٣٢٠
تفسير الآيتين: ١٤٦ و ١٤٧ ٣٥٦	
تفسير الآية: ١٤٨ ٣٥٧	
تفسير الآيات: ١٤٩ - ١٥١ ٣٥٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢ ٣٢٣
تفسير الآيات: ١٥٢ - ١٥٤ ٣٥٩	تفسير الآيات: ٣ - ٧ ٣٢٤
تفسير الآيتين: ١٥٥ و ١٥٦ ٣٦٠	تفسير الآيات: ٨ - ١٢ ٣٢٥
تفسير الآية: ١٥٧ ٣٦١	تفسير الآيات: ١٣ - ١٩ ٣٢٦
تفسير الآيات: ١٥٨ - ١٦٠ ٣٦٢	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٢ ٣٢٧
تفسير الآيات: ١٦١ - ١٦٣ ٣٦٣	تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦ ٣٢٩
تفسير الآيات: ١٦٤ - ١٦٨ ٣٦٤	تفسير الآيات: ٢٧ - ٢٩ ٣٣٠
تفسير الآيتين: ١٦٩ و ١٧٠ ٣٦٥	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢ ٣٣١
تفسير الآيات: ١٧١ - ١٧٣ ٣٦٦	تفسير الآية: ٣٣ ٣٣٢
تفسير الآيات: ١٧٤ - ١٧٦ ٣٦٨	تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٩ ٣٣٣
تفسير الآيات: ١٧٧ - ١٧٩ ٣٦٩	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٣ ٣٣٤
تفسير الآيتين: ١٨٠ و ١٨١ ٣٧٠	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦ ٣٣٥
تفسير الآيات: ١٨٣ - ١٨٥ ٣٧١	تفسير الآيات: ٤٧ - ٥١ ٣٣٦
تفسير الآيات: ١٨٦ - ١٨٩ ٣٧٢	تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٤ ٣٣٧
تفسير الآيات: ١٩٠ - ١٩٥ ٣٧٣	تفسير الآيتين: ٥٥ و ٥٦ ٣٣٨
تفسير الآيات: ١٩٦ - ١٩٩ ٣٧٤	تفسير الآيات: ٥٧ - ٦١ ٣٣٩
تفسير الآيتين: ٢٠٠ و ٢٠١ ٣٧٥	تفسير الآيات: ٧٠ - ٧٣ ٣٤١
تفسير الآيات: ٢٠٢ - ٢٠٥ ٣٧٦	تفسير الآيات: ٧٤ - ٧٩ ٣٤٢
تفسير الآية: ٢٠٦ ٣٧٧	تفسير الآيات: ٨٠ - ٨٧ ٣٤٣
	تفسير الآيات: ٨٨ - ٩٣ ٣٤٤

سورة الأعراف

سورة الأنفال

تفسير الآيتين : ٢ و ٣	٤٠٧
تفسير الآيات : ٤ - ٦	٤٠٨
تفسير الآيتين : ٧ و ٨	٤٠٩
تفسير الآيات : ٩ - ١٥	٤١٠
تفسير الآية : ١٦	٤١١
تفسير الآيات : ١٧ - ٢٠	٤١٢
تفسير الآيتين : ٢١ و ٢٢	٤١٣
تفسير الآيتين : ٢٣ و ٢٤	٤١٤
تفسير الآيتين : ٢٥ و ٢٦	٤١٥
تفسير الآيات : ٢٧ - ٣٠	٤١٦
تفسير الآيتين : ٣١ و ٣٢	٤١٧
تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٥	٤١٨
تفسير الآيتين : ٣٦ و ٣٧	٤١٩
تفسير الآيتين : ٣٨ و ٣٩	٤٢٠
تفسير الآية : ٤٠	٤٢١
تفسير الآيتين : ٤١ و ٤٢	٤٢٣
تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٦	٤٢٤
تفسير الآيات : ٤٧ - ٥١	٤٢٥
تفسير الآيتين : ٥٢ و ٥٣	٤٢٦
تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٨	٤٢٧
تفسير الآيتين : ٥٩ و ٦٠	٤٢٨
تفسير الآية : ٦١	٤٣١
تفسير الآيات : ٦٢ - ٦٦	٤٣٢
تفسير الآيات : ٦٧ - ٦٩	٤٣٣
تفسير الآيات : ٧٠ - ٧٢	٤٣٤
تفسير الآيتين : ٧٣ و ٧٤	٤٣٥
تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٩	٤٣٦
تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٤	٤٣٧
تفسير الآيات : ٨٥ - ٨٩	٤٣٨
تفسير الآيات : ٩٠ - ٩٢	٤٣٩
تفسير الآية : ٩٣	٤٤٠

تفسير الآيتين : ١ و ٢	٣٧٨
تفسير الآيات : ٣ - ٥	٣٧٩
تفسير الآيات : ٦ - ٨	٣٨٠
تفسير الآيات : ٩ - ١١	٣٨١
تفسير الآيات : ١٢ - ١٦	٣٨٢
تفسير الآية : ١٧	٣٨٣
تفسير الآيتين : ١٨ و ١٩	٣٨٥
تفسير الآيتين : ٢٠ و ٢١	٣٨٦
تفسير الآيات : ٢١ - ٢٤	٣٨٧
تفسير الآية : ٢٥	٣٨٨
تفسير الآية : ٢٦	٣٨٩
تفسير الآيات : ٢٧ - ٢٩	٣٩٠
تفسير الآيات : ٣٠ - ٣٢	٣٩١
تفسير الآيتين : ٣٣ و ٣٤	٣٩٢
تفسير الآيات : ٣٥ - ٣٧	٣٩٣
تفسير الآيات : ٣٨ - ٤٠	٣٩٤
تفسير الآية : ٤١	٣٩٥
تفسير الآيات : ٤٢ - ٤٤	٣٩٦
تفسير الآيتين : ٤٥ و ٤٦	٣٩٧
تفسير الآيتين : ٤٧ و ٤٨	٣٩٨
تفسير الآيات : ٤٩ - ٥١	٣٩٩
تفسير الآيات : ٥٢ - ٥٦	٤٠٠
تفسير الآيات : ٥٧ - ٦٠	٤٠١
تفسير الآيات : ٦١ - ٦٤	٤٠٢
تفسير الآيات : ٦٥ - ٦٧	٤٠٣
تفسير الآيات : ٦٨ - ٧٢	٤٠٤
تفسير الآيات : ٧٣ - ٧٥	٤٠٥

سورة التوبة

تفسير الآية : ١	٤٠٦
-----------------------	-----

٤٤٨	تفسير الآية: ١١٢	٤٤١	تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٧
٤٥٠	تفسير الآيات: ١١٣ - ١١٦	٤٤٢	تفسير الآيات: ٩٨ - ١٠١
٤٥١	تفسير الآيتين: ١١٧ و ١١٨	٤٤٣	تفسير الآيتين: ١٠٢ و ١٠٣
٤٥٢	تفسير الآيات: ١١٩ - ١٢٢	٤٤٤	تفسير الآيات: ١٠٤ - ١٠٦
٤٥٣	تفسير الآيتين: ١٢٣ و ١٢٤	٤٤٥	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١٠٩
٤٥٤	تفسير الآيات: ١٢٦ - ١٢٩	٤٤٦	تفسير الآيتين: ١١٠ و ١١١

تفسير القشيري

المستقى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن قواز بن عبد الملك

القشيري النيسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلوه عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

المجتمعة الثانية

المترى:

أول سورة يونس - آخر سورة العنكبوت



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsīr al-Quṣayri

"Laṭā'f al-'iṣārāt"

(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quṣayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Rahmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري
المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير قرآن
المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري
المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الثانية

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)



9 782745 128379



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

Tel : +961 5 804 810/11/12

Fax: +961 5 804813

P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon

Riyad al-Saloh Beirut 1107 2290

عربون ، القبعة

مبنى دار الكتب العلمية

هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠ / ١١ / ١٢

فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣

ص. ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة سماعها يوجب شفاء كل عابد، وضياء كل قاصد، وعزاء كل فاقد، وبلاء كل واجد، وهُدًى كل خائف، وسُلُو كل عارف. وأمان كل تائب، وبيان كل طالب. قلوب العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله، وكروب الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله.

قوله جل ذكره: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

الألف مفتاح اسم «الله»، واللام مفتاح اسم «اللطيف» والراء مفتاح اسم «الرحيم». أقسم بهذه الأسماء إن هذه الكتاب هو الموعود لكم يوم الميثاق. والإشارة فيه أنا حققنا لكم الميعاد، وأطلعنا لكم عنان الوداد... وانقضى زمان الميعاد، فالعصاة مُلقاة، والأيام بالسرور مُتلقاة، فبادروا إلى شرب كأسات المحاب، واستقيموا على نهج الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾.

تعجبوا من ثلاثة أشياء: من جواز البعث بعد الموت، ومن إرسال الرسل إلى الخلق، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة من بين الخلق. ولو عرفوا كمال ملكه لم يُنكروا جواز البعث، ولو علموا كمال ملكه لم يجحدوا إرسال الرسل إلى الخلق، ولو عرفوا أن له أن يفعل ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد ﷺ - بالنبوة من بين الخلق، ولكن سُدت بصائرهم فتأهوا في أودية الحيرة، وعثروا - من الضلالة - في كل هدة. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق - رحمه الله - يقول: جَوَّزُوا أن يكون المنحوت من الخشب والمعمول من الصخر إلهاً معبوداً، وتعجبوا أن يكون مثل محمد ﷺ - في جلاله قَدْرُه رسولاً...!! هذا هو الضلال البعيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسِّرِ الْبَلَدَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْهُمْ﴾.

وهو ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدَّقوا في القيام بقضائها.

ويقال هو ما قدم الحق لهم يوم القيامة، مع مقتضى العناية بشأنهم، وما حكّم لهم من فنون إحسانه بهم، وصنوف ما أفردهم به من امتنانهم.

ويقال: ﴿قَدَّمَ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان إرادتهم، فإن لأقدام المرادين المرفوعة لأجل اللّهِ حُرْمَةٌ عند الله، ولأيامهم الخالية في حال تردّدهم، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةٍ تحيرهم... مقادير عند الله. وقيل:

مَنْ يَنْسَ دَارًا قَدْ تَخَوَّنَهَا رَيْبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي لَسْتُ أَنْسَاكَ
وقيل:

تلك العهود تشدّها لتخلّها عندي كما هي عقدها لم يخلل
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لا يحتاج فعله إلى مُدَّة، وكيف ذلك ومن جملة أفعاله الزمان والمدة؟ فخلّق السموات والأرض في ستة أيام، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خلّق الله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلّي والظهور للحشَم والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهِمْ في ألوان مشاهدهم. فأخبر الحق - سبحانه - بما يُقْرُب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراجه بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدّس الجبّار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي الحادثات صادرة عن تقديره، وحاصلة بتدبيره، فلا شريك يعضده، وما قضى فلا أحد يرده. ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: هو الذي يُنْطِق مَنْ يخاطبه، وهو الذي يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطَالِيه.

﴿ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: تعريف وقوله: ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾: تكليف؛ فحصول التعريف بتحقيقه، والوصول إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوفيقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح، فإن لها في مواطن

التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند مُحبيه وذويه، كما قيل:

أيا قداماً من سَفَرَةِ الهجر مرحباً أناديك لا أنساك ما هبَّت الصُّبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزُّلفى، والثواب والحسنى. والعاصي إذا رجع إلى ربه فبُغِبَ الإفلاس وخسران الطريق؛ فيتلقي لباس الغفران، وخُلَّة الصّفح والأمان، فرحمة مولاه خيرٌ له من نُسكِهِ وتقواه.

قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: موعودُ المطيع الفراديسُ العُلَى، وموعودُ العاصي الرحمة والرّضى. والجنة لُطْفُ الحقِّ والرّحمة وصفُ الحقِّ؛ فاللُّطْفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل، واللُّغْتُ لم يزل.

قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: مَنْ كان له في جميع عمره نَفْسٌ على وصفٍ ما ابتدأ الحقُّ سبحانه به ففي الإشارة: تكون لذلك إعادة، وأنشدوا:

كلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فإليه الماء يوماً سيعود
قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرُوا مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أنوار العقول نجومٌ وهي للشياطين رجوم، وللعلوم أقمار وهي أنوار واستبصار، وللمعارف شمس ولها على أسرار العارفين طلوع، كما قيل:

إنَّ شمسَ النهار تَغْرُبُ بالليل وشمسُ القلوب ليست تَغِيْبُ

وكما أنَّ في السماء كوكبين شمساً وقمرأ؛ الشمسُ أبداً بضياؤها، والقمرُ في الزيادة والنقصان؛ يُسْتَرُ بمحاقبه ثم يكمل حتى يصير بدرأ بنعت إشراقه، ثم يأخذ في النقص إلا أن لا يبقى شيء منه لتمام امتحاقه، ثم يعود جديداً، وكل ليلة يجد مزيداً، فإذا صار بدرأ تماماً، لم يجد أكثر من ليلة لِكَمَالِهِ مقاماً، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يَخْفَى شَخْصُهُ وَيَتِمَّ نَقْصُهُ.

كذلك مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ قَبْضِهِ وَبَسْطِهِ، وَصَخْرِهِ وَمَخْرِهِ، وَذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ؛ لَا فَنَاءَ فَيَسْتَرِيحُ، وَلَا بَقَاءَ لَهُ دَوَامٌ صَحِيحٌ، وَقِيلَ:

كَلَّمَا قُلْتُ قَدْ دَنَا حُلَّ قَيْدِي كَبَلُونِي فَأَوْثَقُوا الْمِسْمَارَا

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

اخْتَصَّ النهارُ بضياؤه، وانفرد الليلُ بظلماته، من غير استيجابٍ لذلك، ومن غير استحقاق عقاب لهذا، وفي هذا دليلٌ على أَنَّ الرَّدَّ والقبول، والمنع والوصول، ليست

معلولة بسبب، ولا حاصلة بأمرٍ مُكْتَسَبٍ؛ كلاً.. إنها إرادةٌ ومشيئةٌ، وحُكْمٌ وقضية.
النهارُ وقتُ حضورِ أهلِ الغفلة في أوطانِ كَسْبِهِمْ، ووقتُ أربابِ القرية والوصلة
لانفرادهم بشهود ربِّهم، قال قائلهم:
هو الشمس، إلا أن للشمس غيبَةً وهذا الذي نعنیه ليس يغيبُ
والليل لأحدٍ شخصين: أمّا للمُجِبِّ فوقَّت النجوى، وأمّا للعاصي فَبَثَّ
الشكوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ نَارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أنكروا جوازَ الروية فلم يرجوها، والمؤمنون آمنوا بِجَوَازِ الرؤية فأمَلُّوها.
ويقال: لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشتاقوا إليه، ولم يشتاقوا إليه لأنهم لم يُحِبُّوه
لأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أراد ألا يطلبوه، قال
تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهْنَ﴾ [النجم: ٤٢].

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبُّوا، ولو
أحبُّوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا لرجوا، ولو رجعوا لأمَلُّوا لقاءه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا
لَآلَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدْنَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾: أصحاب الدنيا رضوا بالحياة الدنيا
فَحَرَمُوا الجنة، والزُّهَادُ والعَبَادُ رَكَنُوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة، وقد
عَلِمَ كُلُّ أناسٍ معشرهم، ولكلِّ أحدٍ مقام.

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فمأواهم العذاب والفرقة، فدلُّل الخطاب أن
الذي يرجو لقاءه رآه، ومآله ومتناه الوصلة واللقاء والزُّلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ
مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

كما هداهم اليوم إلى معرفته من غير ذريعة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير
نصيرٍ من المخلوقين ولا وسيلة.

ويقال أمّا المطيعون فنورهم يسعى بين أيديهم وهم على مراكب طاعتهم،
والملائكة تتلقاهم والحق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الْرَحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم:
٨٥] نحشرهم، والعاصون يَبْقَوْنَ منفردين متفرقين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحون
في مطاحات^(١) القيامة.

(١) المطاح والمطاحة: المسلك الوعر المهلك (ج) مطروح.

والحق - سبحانه - يقول لهم: عبادي، إن أصحاب الجنة - اليوم - في شغل عنكم، إنهم في الثواب لا يتفرغون إليكم، وأصحاب النار من شدة العذاب لا يرقبون لكم معاشر المساكين .

كيف أنتم إن كان أشكالكم وأصحابكم سبقوكم؟ وواحد منهم لا يهديكم فانا أهديكم . لأنني إن عاملتكم بما تستوجبون . . . فأين الكرم بحقنا إذا كنا في الجفاء مثلكم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

قالتهم الشاء على الله، وذلك في حال لقائهم . وتحيتهم في تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: والحمد ها هنا بمعنى المدح والثناء، فيثنون عليه ويحمدونه بحمد أبدى سرمدي، والحق - سبحانه - يحييهم بسلام أزلي وكلام أبدي، وهو عزيز صمدي ومجيد أحدي .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

أي لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند غيظهم وضجرهم لعجلنا إهلاكهم، ولكن نَحْمَلُنَا أَلَا نُجِيبُهُمْ، وبرحمتنا عليهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبد بأن الرب لا يجيب دعاءه، ولو عَلِمَ أنه تَرَكَ إجابته لُطْفًا منه وأن في ذلك بلاء لو أجابه، كما قيل:

أُتِيسَ أَعْرَضُوا عَنَّا بَلَا جُزْمَ وَلَا مَعْنَى
أَسَاءُوا ظَنُّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

إذا امتحن العبد وأصابه الضر أزعجته الحال إلى أن يروم التخلص مما ناله، فيعلم أن غير الله لا يُنْجِيهِ، فتحمله الضرورة على صِدْق الالتجاء إلى الله، فإذا كَشَفَ اللَّهُ عنه ما يدعو لِأَجَلِهِ شَغَلَتْهُ راحة الخلاص عن تلك الحالة، ورَأَيْلَهُ ذلك الالتجاء، وصار كأنه لم يكن في بلاء قط:

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَغْرُ يَوْمًا إِذْ اكْتَسَبَ وَلَمْ يَكْ صُغْلُوكَا إِذَا مَا تَمَوَّلَا
ويقال بلاء يُلْجِئُكَ إِلَى الانتصاب بين يَدَيِ معبودك أجدى لك من عطاء ينسبك ويكفيك عنه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

أخبر الحق سبحانه بإهلاك الظالمين، كما في الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب». والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فإذا وضع العبد قُضده - عند حوائجه - في المخلوقين، وتعلق قلبه بهم في الاستعانة، وطلب المأمول فقد وضع الشيء في غير موضعه، وهو ظلم؛ فعقوبة هذا الظلم خراب القلب، وهو انسداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله؛ لأنه لو رجع إلى الله لأعانه وكفاه، ولكنه يصير على تعليق قلبه بالمخلوق فيبقى عن الله، ولا ترتفع حاجته من غيره، وكان من فقره وحاجته في مَصْرَةٍ. فإن صار إلى مصرة المذلة والحاجة إلى اللئيم فتلك محنة عظيمة.

وعلى هذا القياس إذا أحب مخلوقاً فقد وضع محبته في غير موضعها، وهذا ظلم؛ وعقوبته خراب روحه لعدم صفاء وده ومحبته لله، وذهاب ما كان يجده من الأنس بالله، إذا بقي عن الله يُذيقه الحق طعم المخلوقين، فلا له مع الخلق سلوة، ولا من الحق إلا الجفوة، وعدم الصفوة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. عرفناكم بسير من قبلكم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإذا اعتبرتم بهم نجوئهم، ومن لم يعتبر بما سمعه اعتبر به من تبعه. ويقال أحللتنا بهم من العقوبة ما يعتريكم، ومن لم يعتبر بمن سبقه اعتبر به من لحقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشْرَآءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيْنَا إِنَّ عَصِيتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم تأمر به، أو تُريهم ما لم تُظهر عليك من الآيات... فأخبرهم أنك غير مُستقل بك، ولا موكل إليك؛ فنحن القائم عليك، المصرف لك، وأنت المتبوع لما تُجربه عليك غير مُبتدع لما يحصل منك.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قد عشت فيكم زماناً، وعرفت أحوالي فيما تطلبون مني عليه برهاناً، فما أفتيموني (...)(١) بل وجدتموني في السداد مستقيماً، وللرشاد مستديماً، فلولا أن

(١) بياض في الأصل.

الله تعالى أرسلني، ولَمَّا حَمَلْنِي مِنْ تَكْلِيفِهِ أَهْلَنِي لَمَّا كُنْتُ بِهَذَا الشَّرْعِ آتِيًّا وَلَا لِهَذَا الْكِتَابِ تَالِيًّا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما لكم تعترضون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟
قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ الْجُبْنُ وَلَا الْغِنَىٰ عَنْهُمْ وَلَا يَغْنَبُ الْإِنسَانُ شَيْئًا﴾.

الكذب في الشرع قبيح، وإذا كان على الله فهو أقبح.
ومن المفترين على الله: الذين يُظهرون من الأحوال ما ليسوا فيه صادقين، وجزاؤهم أَنْ يُخْرَمُوا ذَلِكَ أَبَدًا، فلا يصلون إلى شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَبَعَثْنَا هَارُونَ شُعْبُونًَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

دَمَهُمْ على عبادة ما ليس منه ضَرٌّ ولا نَفْعٌ.
فدليل الخطاب يقتضي أَنْ يَكُونَ المعبودُ مِنَ الضَّرِّ والنفع، ومن قَرِط غباوتهم أنهم انتظروا في المَالِ الشفاعة ممن لا يوجدُ مِنَ الضَّرِّ والنفع في الحال. ثم أخبر أنهم يخبرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً، ولو كان كما قالوا لَعَلِمُوا أنه سبحانه لا يَغْرُبُ عن علمه معلوم.

ومعنى قوله: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾: خلافه. وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بالمخلوقين في استدفاع المضار واستجلاب المنار فكالسالك سبيل مَنْ عَبَدَ الأصنام؛ إذ المُنشِئ والموجد للشيء مِنَ العدم هو الله - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وذلك مِنْ زمان آدم عليه السلام إلى أن تحاربوا، والحق - سبحانه - سبق قضاؤه بتأخير حسابهم إلى الآخرة، ولذلك لا يُجِيبُهُمْ إلى ما يستعجلونه من قيام القيامة.
وإنما اختلفوا لأن الله خَصَّ قومًا بعنائه وقبوله، وآخرين بإهوانه وإبعاده، ولولا ذلك لَمَا كانت بينهم هذه المخالفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَأَنْتُمْ رَايَافُ الْغِيبِ﴾.

أخبر أنه - عليه السلام - في سِرِّ الغيبة وخفاء الأمر عليه في الجملة لتقاصر

علمه عما سيحدث، فهو في ذلك بمنزلتهم، إلا في مواطن التخصيص بأنوار التعريف، فكما أنهم في الانتظار لما يحدث في المستأنف فهو أيضاً في انتظار ما يوجد - سبحانه - من المقادير. والفرق بينه - عليه السلام - وبينهم أنه يشهد ما يحصل به - سبحانه - ومنه، وهم مُتَطَوِّحُونَ في أودية الجهالة؛ يُحِيلُونَ الأمر مرةً على الدهر، ومرةً على النجم، ومرةً على الطبع. . . وكل ذلك حَيْرَةٌ وَعَمَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَمَرُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.

يعني إذا أصابهم ضرٌّ ومحنة فرحمتهم وكشفنا عنهم، أحالوا الأمر على غيرنا، وتوهموه مما هو سوانا مثل قولهم: «مُطَرِّزْنَا بنوء كذا»^(١)، ومثل قولهم إن هذه سعادة نجم أو مساعدة دولة أو تأثير فلّك أو خيرات دهر.

فهذا كان مكْرهم أما مكر الله - سبحانه - بهم فهو جزاؤهم على مكرهم. والإشارة في هذا أنه ربما يكون للمريد أو للطالب حجة أو فترة. . . فإذا جاء الحق بكشف أو تجلّ أو إقبال فمن حقهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها، لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكّر الله بهم بأن شتّهم في تلك الأحوال من غير ترقّ عنها أو وجود زيادة عليها، وهذا مكْره بخواصهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفِكَ وَجَرَيْنَ بِحَمِ يَرْبِحُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَنْ أُنَجِّيَنَّا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

يريد أنهم يُصْبِحُونَ في النعم يجرون أذيالهم، ثم يُمَسُونَ ليكون لِيَالِيَهُمْ. وقد يَبِثُونَ والبهجة ملكتهم ثم يصبحون وخفايا التقدير أهلكتهم، وأنشدوا:

أَقَمْتُ زَمَانًا وَالْعَيُونُ قَرِيرَةٌ وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجَفُونَ سَوَافِكُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص الدعاء يجود عليهم بكشف البلاء.

فلما أنجاهم بالإجابة لدعائهم إذا هم إلى غيره يرجعون، وعلى مناهجهم - في تمردهم يسلكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أُنْجِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّخُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِآيَاتِنَا النَّاسُ لَمَّا

(١) أخرجه البخاري (أذان ١٥٦)، (استسقاء ٢٨)، (مغازي ٣٥)، ومسلم (إيمان ١٢٥)، وأبو داود (طب ٢٢)، والترمذي (تفسير سورة ٤٠٥٦)، والنسائي (استسقاء ١٦)، والدارمي (رفاق ٤٩)، والموطأ (استسقاء ٤)، وأحمد بن حنبل ١، ٨٩، ١٠٨، ١٣١، ٢، ٤١٥، ٤٥٥، ٥٢٥، ٣، ٤٢٩، ٤، ١١٧.

بَعِيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعِيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ معناه: تُمَتِّعُكُمْ أَيَّاماً قَلِيلًا، ثُمَّ تُلْقَوْنَ غِبًّا
 ذَلِكَ وَتَبْدَأُونَ تَقَاسُونَ عَذَابًا طَوِيلًا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا
 أُنْزِلْنَا أَثَرَهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَتَفَكَّرُونَ﴾.

شَبَّهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالمَاءِ الْمُنْزَلِ مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُتُ بِهِ النَّبَاتُ وَتَخْضِرُ الْأَرْضُ وَتُظْهِرُ
 الثَّمَارَ، وَيُوْطِنُ أَرْبَابُهَا عَلَيْهَا نَفْسَهُمْ، فَتَصِيبُهُمْ جَائِحَةٌ سَمَاقِيَّةٌ بَغْتَةً، وَتَصِيرُ كَأَن لَّمْ
 تَكُنْ.

كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ بَعْدَ كَمَالِ سِنِّهِ وَتَمَامِ قُوَّتِهِ وَاسْتِجْمَاعِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ فِيهِ
 تَخْتَرِمُهُ الْمَنِيَّةُ^(١)، وَكَذَلِكَ أُمُورُهُ الْمُنْتَظِمَةُ تَبْطُلُ وَتَخْتَلُ لُوفَاتِهِ، كَمَا قِيلَ:

فَقَدَرْتَاهُ لَمَّا تَمَّ وَاخْتَمَّ بِالْعُلَى كَذَلِكَ كَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ

وَمِنْ وَجْهِ تَشْبِيهِ الْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالمَاءِ الْمُنْزَلِ مِنَ السَّمَاءِ أَنَّ الْمَطَرَ لَا يَنْزِلُ
 بِالْحِيلَةِ، كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تُسَاعِدُهَا إِلَّا الْقِسْمَةُ.

ثُمَّ إِنْ الْمَطَرُ إِنْ كَانَ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالتَّقْدِيرِ فَقَدْ يُسْتَنْقَى.. كَذَلِكَ الرِّزْقُ - وَإِنْ
 كَانَ بِالْقِسْمَةِ - فَقَدْ يُلْتَمَسُ مِنَ اللَّهِ وَيُسْتَعْطَى.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ فِي مَوْضِعِهِ سَبَبُ حَيَاةِ النَّاسِ، وَفِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ سَبَبُ خَرَابِ
 الْمَوْضِعِ، كَذَلِكَ الْمَالُ لِمُسْتَحَقِّهِ سَبَبُ سَلَامَتِهِ، وَانْتِفَاعِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ، وَعِنْدَ مَنْ لَا
 يَسْتَحِقُّهُ سَبَبُ طَغْيَانِهِ، وَسَبَبُ بَلَاءٍ مَنْ هُوَ مُتَصِلٌ بِهِ، كَمَا قِيلَ: نَعْمُ اللَّهُ لَا تُعَابُ وَلَكِنَّهُ
 رُبَّمَا اسْتَعْجَلَ عَلَى إِنْسَانٍ، وَكَمَا قِيلَ:

يَا دَوْلَةً لَيْسَ فِيهَا مِنَ الْمَعَالِي شُظْيَةٌ زُولَى فَمَا أَنْتَ إِلَّا عَلَى الْكِرَامِ بَلِيَّةٌ^(٢)

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِمَقْدَارٍ كَانَ سَبَبُ الصَّلَاحِ، وَإِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ كَانَ سَبَبُ
 الْخَرَابِ.. كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ وَالْكَفَافِ فَصَاحِبُهُ مُنْعَمٌ، وَإِذَا زَادَ وَجَاوَزَ
 الْحَدَّ أَوْجَبَ الْكُفْرَانَ وَالطَّغْيَانَ.

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ مَا دَامَ جَارِيًا كَانَ طَيِّبًا، فَإِذَا طَالَ مَكْثُهُ تَغَيَّرَ.. كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا

(١) اخترمت المنية فلاناً: أخذته.

(٢) الشظية: عظم الساق أو العظم الصغير الوحشي من عظمي الساق.

أنفقه صاحبه كان محموداً، فإذا أدخره وأمسكه كان معلولاً مذموماً.

ومنها أن الماء إذا كان طاهراً كان حلالاً يصلح للشرب ويصلح للظهور ولازالة الأذى، وإذا كان غير طاهر فبالعكس. . كذلك المال إذا كان حلالاً، وبعكسه لو كان حراماً.

ويقال كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أنواره، وتخضر رباغته، وتزوين بالنبات وهأذه وتلاعه^(١) لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب. كذلك من الناس من تكون له أحوال صافية، وأعمال بشرط الخلو صافية؛ غصون أنسه متذلية، ورياض قربه موقنة. . ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وتنسد أبواب عوائد إقباله، كما قيل:

عين أصابتك إن العين صائبة والعين تسرع أحياناً إلى الحسد
قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

دعاهم إلى دار السلام، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام؛ وهو اعتناق أوامره والانتهاة عن زواجره. والدعاء من حيث التكليف، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف.

ويقال الدعاء تكليف والهداية تعريف؛ فالتكليف على العموم والتعريف على الخصوص.

ويقال التكليف بحق سلطانه، والتعريف بحكم إحسانه.

ويقال الدعاء قوله والهداية طوله؛ دخل الكل تحت قوله، وانفرد الأولياء بتخصيص طوله. دار السلام دار الله لأن السلام اسم من أسمائه.

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أي أهلها سالمون فيها؛ سالمون من الحرقة وسالمون من الفرقة؛ سلموا من الحرقة فحصلوا على لذة عطائه، وسلموا من الفرقة فوصلوا إلى عزيز لقائه.

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سلمت نفسه عن السجود للصنم، وسلم قلبه عن الشرك والظلم.

ويقال تلك الدار درجات؛ والذي سلم قلبه عن محبة الأغيار درجته أعلى من درجة من سلمت نفسه من الذنوب والأوزار.

ويقال قوم سلمت صدورهم من الغل والحسد والحقد؛ وسلم الخلق منهم؛

(١) التلاع: (ج) التلعة: ما ارتفع من الأرض وأشرف، أو هي ما انهبط منها (ضد).

فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة، وليس لهم على أحد شيء؛ «فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمحسن من سلم الخلق بأجمعهم من قلبه»^(١).

﴿أَلَصِرَظَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: طريق المسلمين، فهذا للعوام بشرط علم اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخاص بشرط حق اليقين؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُحْسَنٍ وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿أَحْسَنُوا﴾: أي عملوا وأحسنوا إذ كانت أفعالهم على مقتضى الإذن.

ويقال: «أحسنوا»: لم يقصروا في الواجبات، ولم يخلوا بالمندوبات.

ويقال: «أحسنوا»: أي لم يبق عليهم حق إلا قاموا به؛ إن كان حق الحق فمين غير تقصير، وإن كان من حق الخلق فأداء من غير تأخير.

ويقال «أحسنوا»: في المآل كما أحسنوا في الحال؛ فاستداموا بما فيه واستقاموا، والحسنى التي لهم هي الجنة وما فيها من صنوف النعم.

ويقال: الحسنى في الدنيا توفيق بدوام، وتحقيق بتمام، وفي الآخرة غفران معجل، وعيان على التأيد مُحصل.

قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: فعلى موجب الخبر وإجماع السلف النظر إلى الله. ويحتمل أن تكون «الحسنى»: الرؤية، «والزيادة»: دوامها. ويحتمل أن تكون «الحسنى»: اللقاء، «والزيادة»: البقاء في حال اللقاء.

ويقال الحسنى عنهم لا مقطوعة ولا ممنوعة، والزيادة لهم لا عنهم محجوبة ولا مسلوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري (إيمان ٥)، (رقاق ٢٦)، ومسلم (إيمان ٦٤ - ٦٥)، وأبو داود (جهاد، ٢) والترمذي (قيامة ٥٢)، (إيمان ١٢)، والنسائي (إيمان ٨، ٩، ١١)، والدارمي (رقاق ٤، ٨) وأحمد بن حنبل ١٦٠/٢، ١٦٣، ١٨٧، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٥، ٢٢٤، ٣٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤٤/٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤)، والهيثمي في (موارد الظمان ١٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨) والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨، ٩٤/١٠)، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦)، والمفتي الهندي في (كتر العمال ٥٢٤٩، ٥٢٥٤).

لا يقع عليهم غبارُ الحجاب، وبعبسه حديث الكفار حيث قال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠].

«والذلة» التي لا تصيبهم أي لا يُردُّوا من غير شهود إلى رؤية غيره، فهم فيها خالدون في فنون أفضالهم، وفي جميع أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَتْ أَغْشِيَتٌ وَجُوهَهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

والذين كسبوا السيئات وعملوا الزلات لهم جزاء سيئة مثلها، والباء في «بمثلها»: صلة أي للواحد واحد.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: هو تأييد العقوبة.

﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي ما لهم من عذابه من عاصم، سيموا ذل الحجاب، ومثوا بتأييد العذاب، وأصابهم هوان البعاد. وأثار الحجاب على وجوههم لائحة فإرا الأسيرة تدل على السرية.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَتَّبِعُونَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله، فتقول الأصنام: ما أمرناكم بعبادتنا. فيدعون على الشياطين التي أطاعوها، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها، وتقول الأصنام: كفى بالله شهيداً، على أننا لم نأمركم بذلك؛ إذ كنّا جماداً. وذلك لأنّ الله يُخَيِّبُها يوم القيامة وينطقها.

وفي الجملة... يتبرأ بعضهم من بعض، ويدوق كل وبال فعله.

وفائدة هذا التعريف أنه ما ليس لله فهو وبال عليهم؛ فاشتغالهم - اليوم - بذلك مُحَال، ولهم في المآل - من ذلك - وبال.

قوله جل ذكره: ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُبَدِّلُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إنما يقفون على خسرانهم إذا ذاقوا طعم هوانهم؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا إلا البعد عن الله، والطرز من قبل الله، وذلك جزاء من أثر على الله غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

كما تَوَحَّدَ الحقُّ - سبحانه - بكونه خالقاً تَفَرَّدَ بكونه رازقاً، وكما لا خالقٌ سواه فلا رازقٌ سواه.

ثم الرزق على أقسام: فللأشباح رزق: وهو لقوم توفيق الطاعات، ولآخرين خذلان الرِّلات. وللأرواح رزق: وهو لقوم حقائق الوصلة، ولآخرين - في الدنيا - الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهلة.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾: فيكمل بعض الأبصار بالتوحيد، وبعضها يعميها عن التحقيق.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ...﴾ ولكن ظناً... لا عن بصيرة، ونطقاً... لا عن تصديق سريرة.

قوله جل ذكره: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَإِنَّكُمْ تَصْرَفُونَ﴾. ما يكون من موضوعات الحق، ومتعلقات الإرادة، ومتناولات المشيئة، ومُجَسَّسات التقدير، ومُصَرِّقات القدرة - فهي أشباح خاوية، وأحكام التقدير عليها جارية.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. سَبَقَ لَهُمُ الْحُكْمُ، وَصَدَقَ فِيهِمُ الْقَوْلُ؛ فلا لِحُكْمِهِ تحويل ولا لقوله تبديل، فإنَّ العِلْلَ لا تُغَيِّرُ الْأَزْلَ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَإِنَّهُ تَوَفَّكَونَ﴾.

كَشَفَ قَبِيحَ مَا انطوت عليه عقائدهم من عبادتهم ما لا يصحُّ منه الخلق والإعادة، وأثبت أن المعبودَ مَنْ مِنْهُ الْخَلْقُ وَالْإِعَادَةُ.

قوم جعلوا له في الإيجاد شركاء بدعوى القَدَرِ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة. وكل هذا جنوحٌ إلى الكُفْرِ وذهابٌ عن الدين.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَأَلْكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه، ومعناه أنه موجود، وأنه ذو الحق، وأنه مُجِئُ الحق.

والحقُّ من أوصاف الخلق ما حَسَنَ فعله وصحُّ اعتقاده وجاز النطق به.

وَاللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ: أي إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعني؛ فَمَنْ هَدَاهُ الْحَقُّ لِلْحَقِّ وَفَقَّهَهُ عَلَى الْحَقِّ، وَعَزِيزٌ مَنْ هَدَاهُ الْحَقُّ إِلَى الْحَقِّ لِلْحَقِّ، فَمَالَهُ نَصِيبٌ وَمَا لَهُ حَظٌّ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَمْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
فَعَلُونَ﴾.

الظَّنُّ يُنَافِي اليقين، فإنه ترجيح أحد طَرَفَيِ الحكم على الآخر من غير قَطْع.
وأربابُ الحقائق على بصيرة وقطع؛ فالظَّنُّ في أوصاف الحقِّ معلولٌ، والقطع -
في أوصاف النَّفس - لكل أحدٍ معلول. والعَبْدُ يجب أن يكون في الحال خالياً عن
الظنِّ إذ لا يَعْرِفُ أحدٌ غَيْبَ نَفْسِهِ في مَالِهِ.

وفي صفة الحق يجب أن يكون العبد على قطع وبصيرة؛ فالظن في الله معلول، والظن فيما من الله غير محمود. ولا يجوز بوجه من الوجوه أن يكون أهل المعرفة به سبحانه - فيما يعود إلى صفته - على الظن، كيف وقد قال الله تعالى فيما أمر نبيه - عليه السلام - أن يقول: ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨]؟ وكما قلنا:

وَأَتَى الْيَقِينَ فَلَات حِينَ حِجَاجٍ
 مِنْ عَقْدِ أَلُوبَةِ وَحُلِّ رِتَاجٍ ^(١)
 وَالْوَصْلُ وَكَذَّ سَجَلَه ^(٢) بِعِاجٍ ^(٣)
 لِهَوَاجِمِ الْأَحْزَانِ بِالْإِزْعَاجِ
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

انسَدَّتْ بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عمى على عمى، كما أن أهل الحقيقة ما ازدادوا إلا هُدَى على هدى، فسبحان مَنْ جعل سماعَ خطابه لقوم سببَ تحيُّرهم، ولآخرين موجبَ تبصُّرهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

(١) الرتاج: الباب العظيم.. أو الباب المفلق وعليه باب صغير (ج) رُتَج.

(٢) السَّجَلُ: الدلو العظيمة مملوءة. أو فيها ماء قل أو كثر (ج) سجال وسجول.

(٣) العنّاج: خيط أو سير يُشدّ في أسفل الدلو ثم يُشدّ في عروتها أو عرقوتها (اللسان ٢/ ٣٣٠).

كَلَّتِ الْقَرَائِحُ، وَخَمَدَتْ نيرانُ الفصاحة، واعترف كلُّ خطيبٍ ومصفّعٍ بالعجز عن معارضة هذا الكتاب، فلم يتعرض لمعارضته إلا مَنْ افتضح في قائلته.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَزْدَى مِنَ قبلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

قابلوا الحقّ بالتكذيب لتقاصر علومهم عن التحقيق، فالتحقيق من شرط التصديق، وإنما يؤمن بالغيب مَنْ لَوْح - سبحانه - لقلبه حقائق البرهان، وصرف عنه دواعي الرّيب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

فأما الذين آمنوا فهم الذين كحلّ الحقّ أبصار قلوبهم بنور اليقين، والذين لم يؤمنوا فهم الذين وسّم قلوبهم بالعمى فزلّوا - بالضلالة - عن الهدى. . . تلك سنّة الله في الطائفتين، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

برح الخفاء، واستبانة الحقائق، وامتاز الطريقان، فلا المحسن يجرم المسيء معاقب، ولا المسيء يجرم المحسن معاتب، كلٌّ على حدة بما يعمله وعلى ما يفعله محاسب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

من استمع بتكلفه ازداد في تخلفه بزيادة تصرفه، ومن استمع الحقّ بتفضله - سبحانه - استغنى في إدراكه عن تعلمه. والحقّ - سبحانه - يُسمع أوليائه ما يناجيهم به في أسرارهم، فإذا سمعوا دعاء الوسطة قابلوه بالقبول لما سبق لهم من استماع الحقّ. ومن عديم استماع الحقّ إياه من حيث التفهيم لم يزد سماع الخلق إلا جحداً على جحد، ولم يخط به إلا بُعداً على بُعد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

من سُدَّتْ بصيرته بالغفلة والغبية لم يزد إدراك البصر إلا حجةً على حجية، ومن لم ينظر إلى الله بالله، ولم يسمع من الله بالله، فقصاراه العمى والصمم، ﴿فَأَن تَبْهَلَ أَعْمَى أَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعَمَّى الْقُلُوبُ أَلْوَنُ فِي الضُّلُومِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله: «فبي يسمع وببي يبصر»^(١).

(١) هذا حديث قدسي يُروى هكذا «فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به...» أخرجه البخاري (رقاق ٣٨).

وأنشد قائلهم:

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً إلى منظرٍ منه إليه يعود
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
[يونس: ٤٤].

نفى عن نفسه ما يستحيل تقديره في نعته، وكيف يوصف بالظلم وكل ما يتوهم
أن لو فعله كان له ذلك؟ إذ الحق حقه والمُلك ملكه. ومن لا يصح تقدير قبيح منه -
أتى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُبِّهِمْ كَيْدٌ وَاسِعٌ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

الأيام والشهور، والأعوام والدهور بعد مضيتها في حكم اللحظة لمن تفكر فيها،
ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتي من الوقت قريب، وكأن قذر الماضي من
الدهر لم يُعْهَد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا نُزُتُّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوبُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى
مَا يَفْعَلُونَ﴾.

معناه أن خبره صدق، ووعدته ووعدته حق، وبعد النشْر حشر، وفي ذلك الوقت
مُطَالَبَةٌ وحساب، ثم على الأعمال ثواب وعقاب، وما أسرع ما يكون المعلوم مُشَاهِداً
موجوداً!

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ﴾.

لم يُخل زماناً من شرع، ولم يُخلِ شرعاً من حكم، ولم يُخلِ حكماً مما يُعْهَد
من ثواب وعقاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الاستعجال بهجوم الموعود من أمارات أصحاب الكذب، فأما أهل التحقيق
فليس لهم لوارِد يَرُدُّ عليهم اشتغال قبل وجوده، أو استعجال على حين كونه، ولا إذا
وَرَدَ استقال لما تضمنه حكمه؛ فهم مطروحون في أسر الحكم، لا يتحرك منهم -
باختيارهم - عِرْق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي صَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾.

الملك متى يكون له ملك؟!

وإذا كان سيّد البرايا - عليه الصلاة والسلام - لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً .
فَمَنْ نَزَلَتْ رُبُّتُهُ، وتفاصرت حالته متى يملك ذرة أو تكون باختياره وإيثاره شمة؟
طاح الذي لم يكن - في التحقيق، وتفرّد الجبار بنعت الملكوت .
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

مَنْ عَرَفَ كَمَالَ الْقُدْرَةِ لم يَأْمَنْ فَجَاءَ الْأَخْذِ بالشدة، ومن خاف البيات لم يستلذ
السُّبَاتِ .
ويقال مَنْ تَوَسَّدَ الْغَفْلَةَ أَيْقَظَتْهُ فِجَاءُ الْعُقُوبَةِ، وَمَنْ اسْتَوَطِنَ مَرْكَبَ الزَّلَّةِ عَثَرَ فِي
وَهْدَةِ الْمَحْنَةِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَتُنذِرُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ؕ ءَآلَتُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .
بعد انتهاك سِرِّ الْغَيْبِ لَا يُقْبَلُ تَضَرُّعُ الْمَعَاضِيرِ .

ويقال لَا حُجَّةَ بَعْدَ إِزَاحَةِ الْعِلَّةِ، وَلَا عَذْرَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ .
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ﴾ .

لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا تَجَرُّعَ مَا مِنْهُ سَقَتْ، وَلَا يَحْصِدُ زَارِعٌ غَلَّةَ مَا مِنْهُ زَرَعَ، وَفِي
مَعْنَاهُ قَالُوا:

سَنَنْتَ فِينَا سَنَنًا قَذَفَ الْبَلَايَا عَقْبَهُ
يَصْبِرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ بِرَّ يَوْمًا رُبَّهُ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسْتَغْنِيكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَيْحٍ إِنْهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

صَرَخَ بِالْإِخْبَارِ عِنْدَ اسْتِخْبَارِهِمْ، وَأَغْلِمَ بِمَا يَزِيلُ الشُّبْهَةَ عَمَّا التَّبَسَّ عَلَى
جُهَالِهِمْ، وَأَكْثَدَ إِخْبَارَكَ بِمَا تَذَكَّرَهُ مِنَ الْقَسَمِ وَالْيَمِينِ، مُضَافًا ذَلِكَ إِلَى مَا تُسَلِّفُهُ مِنَ
التَّبْيِينِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ نُضْحُكَ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ وَعْظُكَ . . . كَيْفَ لَا؟ وَقَدْ جَرَّعُوا
شَرَابَ الْحُجْبَةِ، وَوَسَّموا بِكَيْيِ الْفُرْقَةِ؛ فَلَا بِصِيرَةَ لَهُمْ وَلَا (....) (١) وَلَا فَهَمَ وَلَا
حِصَافَةَ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ؕ وَأَسْرِوا أَلْدَامَةً لَمَّا
رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُتِنُوا بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

(١) بياض في الأصل .

لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَذْلٌ وَلَا سَرَفٌ^(١)، ولا يحصل فيما سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الْوَعِيدِ خَلْفٌ .
ولا ندامة تنفعهم وإنَّ صَدَقُوا، ولا كرامة تنالهم وإنَّ طَلَبُوا، ولا ظَلَمَ يجري عليهم
ولا حيف، كلا... بل هو اللَّهُ الْعَدْلُ في قضائه، الْقَرْدُ في علائه بنعت كبريائه .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

الحادثات بأمرها لله مُلْكًا، وبه ظهوراً، ومنه ابتداء، وإليه انتهاء؛ فقولُه حَقٌّ،
ووعدهُ صِدْقٌ، وأمره حَتْمٌ وقضاؤه بَأْتٌ . وهو الْعَلِيُّ، وعلى ما يشاء قويٌّ .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .
يحيي القلوب بأنوار المشاهدة، ويميت النفوس بأنواع المجاهدة فنفسُ
العابدين تَلْفُها فنون المجاهدات، وقلوب العارفين شَرْفُها عيون المشاهدات .
ويقال يحيي مَنْ أَقْبَلَ عليه، ويميت مَنْ أَعْرَضَ عنه .

ويقال يحيي قلوب قوم بجميل الرجاء، ويميت قلوب قوم بِوَسْمِ القنوط^(٢) .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

الموعظة للكافة . . ولكنها لا تنجع في أقوام، وتنفع في آخرين؛ فَمَنْ أَصْغَى
إليها بَسْمَعِ سِرِّهِ اتضح نورُ التحقيق في قلبه، وَمَنْ أَسْتَمَعَ إليها بنعتِ غَيْبَتِهِ ما اتصف
إلا بدوام حجبته .

ويقال الموعظة لأرباب الغيبة لِيُؤْوُوا، وَالشِّفَاءُ لأصحاب الحضور ليُطِيبُوا .
ويقال «الموعظة»: للعوام، «والشفاء»: للخواص، «والهدى» لخاص الخاص،
«الرحمة» لجميعهم، وبرحمته وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ .

ويقال شفاء كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَسَبِ دَائِهِ، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء
المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجود القربة، وشفاء الواجدین بشهود
الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاء
العارفين بالقرب والمناجاة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .
«الفضل»: الإحسانُ الذي ليس بواجبٍ على فاعله «والرحمة» إرادة النعمة وقيل
هي النعمة .

(٢) القنوط: اليأس .

(١) السرف: مجاوزة الحد .

والإحسان على أقسام كذلك النعمة، ونِعَمُ اللَّهِ أكثر من أَنْ تَحْصِيَ.
ويقال الفضل ما أتاح لهم من الخيرات، والرحمة ما أراح عنهم من الآفات.
ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجزاء الطاعات، ورحمته مَا عَصَمَهُمْ بِهِ مِنْ
ارتكاب الزَّلَّات. ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق.
ويقال فضل الله ما يُخَصُّ بِهِ أَهْلُ الطاعات من صنوف إحسانه، ورحمته يخصُّ
به أَهْلُ الزَّلَّات من وجوه غفرانه.

ويقال فضل الله الرؤية، ورحمته إبقاؤهم في حالة الرؤية.
ويقال فضل الله المعرفة في البداية، ورحمته المغفرة في النهاية.
ويقال فضل الله أَنَّ أَقَامَكَ بِشُهُودِ الطَلَب، ورحمته أَنَّ أَشْهَدَكَ حَقَّهُ بِحُكْمِ الْبَيَان
إِلَى أَنَّ تَرَاهُ غَدًا بِكَشْفِ الْعَيَان.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِذْ لَكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي بما أَهْلَهُمْ لَهُ، لا بما يَتَكَلَّفُونَ مِنْ
حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، أَوْ يَصِلُونَ إِلَيْهِ بِنَوْعٍ مِنْ تَكْلِفِهِمْ وَتَعْمَلِهِمْ. ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ﴾: أي مَا تُتَحَفُّونَ بِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ الزَّكَايَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ الْوَافِيَةِ.
ويقال الذي لَكَ مِنْهُ - في سابق القسمة - خَيْرٌ مِمَّا تَتَكَلَّفُهُ مِنْ صُنُوفِ الطَّاعَةِ
وَالْخِدْمَةِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ
مَّا اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّونَ﴾.

يَعْتَقُهُمْ وَيَقْرَعُهُمْ^(١) على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم، وَيُظْهِرُ كَذِبَهُمْ فِيمَا
تَقُولُوهُ مِنْ نَسْبَتِهِمْ ذَلِكَ إِلَى إِذْنِ وَشَرِّعِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا عَلَيْنَا لِيُنْفِرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

هذا على جهة التهويل والتعظيم لما أسلفوه من الكذب.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في إمهال مَنْ أَجْرَمَ، وَالْعِصْمَةِ لِمَنْ لَمْ
يُجْرِمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

(١) قرّعه: عتقه وأوجعه باللوم والعتاب.

خَوْفَهُمْ بما عرفَهُمْ من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤية ما سيفعلونه من فتون أعمالهم. والعَلَمُ بأنه يراهم يوجب استحياءهم منه، وهذه حال المراقبة، والعبد إذا عَلِمَ أن مولاه يراه استحي منه، وتَرَكَ متابعة هواه، ولا يَحُومُ حَوْلَ ما نهاه، وفي معناه أنشدوا:

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ حَالٌ بِمَهْجَتِي إِذَا رُمْتُ تَسْهِيلاً عَلَيَّ تَصَعُّباً
وَأَنشَدُوا:

أَعَاتِبُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي كُلِّ خَضَلَةٍ تَعَاتِبُنِي فِيهَا وَأَنْتَ مُقِيمٌ
﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: وكيف يخفى ذلك عليه، أو يتقاصر علمه عنه، وهو منشئه وموجدُه؟ وبعض أحكامه الجائزة مخصصة، وإنما قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: رَدُّهُمْ إِلَى كِتَابَتِهِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ - لعدم اكتفائهم في الامتناع عما نُهِوا عنه - برؤيته وعلمه.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىَٰ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾.
الوليُّ على وزن فعيل مبالغة من الفاعل، وهو مَنْ تَوَالَّت طَاعَاتُهُ، من غير أن يتخللها عصيان.

ويجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول؛ فيكون الوليُّ مَنْ يتوالى عليه إحسانُ الله وأفضاله، ويكون بمعنى كونه محفوظاً في عامة أحواله من المحن.

وأشدُّ المحن ارتكابُ المعاصي فيعصمه الحقُّ - سبحانه - على دوام أوقاته من الزلات.

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا معصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً.
والفَرْقُ بين المحفوظ والمعصوم أن المعصوم لا يَلُمُّ بِذَنْبِ الْبَيْتَةِ، والمحفوظ قد تحوَّلَ مِنْهُ هَنَاتٌ، وقد يكون له - في الندرة - زَلَّاتٌ، ولكن لا يكون له إصرار: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىَٰ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

حسنٌ ما قيل إنه ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾: في الدنيا، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: في العاقبة. ولكن الأولى أن يقال إن الخواص منهم لا خوف عليهم في الحال - لأن حقيقة الخوف توقع محذور في المستقبل، أو ترهب محبوب يزول في المستأنف. - وهم بِحُكْمِ الوقت؛ ليس لهم تطلُّع إلى المستقبل. والحزن هو أن تنالهم حُزُونَةُ في الحال، وهم في رَوْحِ الرضا بكلِّ ما يجري فلا تكون لهم حُزُونَةُ الوقت. فالوليُّ لا خوف عليه في الوقت، ولا له حزن بحال، فهو بحكم الوقت.

ولا يكون ولياً إلا إذا كان موثقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات. وكلُّ خُضْلَةٍ حميدة يمكن أن يُعْتَبَرَ بها فيقال هي صفة الأولياء. ويقال الولي مَنْ فيه هذه الخصلة.

ويقال الولي مَنْ لا يُقْصَرُ في حقِّ الحق، ولا يؤخَّرُ القيام بحق الخلق؛ يطيع لا لخوف عقاب، ولا على ملاحظة حسن مآب، أو تطلع لعاجل اقتراب، ويقضي لكلِّ أحدٍ حقاً يراه واجباً، ولا يقتضي من أحدٍ حقاً له، ولا ينتقم، ولا ينتصف ولا يشمت ولا يحقد، ولا يقلد أحداً مئةً، ولا يرى لنفسه ولا لما يعملُه قذراً ولا قيمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

هذه صفة الأولياء؛ آمنوا في الحال، واتقوا الشُّركَ في المآل. ويقال ﴿ءَامَنُوا﴾ أي قاموا بقلوبهم من حيث المعارف. ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف.

ويقال «آمنوا» بتلقي التعريف. «واتقوا»: بالتقوى عن المحرمات بالتكليف.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ أَلْفَوْزٌ الْعَظِيمُ﴾.

القيام بالأمر يدل على الصحة؛ فإذا قاموا بما أمروا به، واستقاموا بِتَرْكِ ما رُجروا عنه بِشَرَّتْهُمْ الشريعة بالخروج عن عهدة الإلزام، وبشَرَّتْهم الحقيقة باستجباب الإكرام، بما كوشفوا به من الإعلام.. وهذه هي البُشْرَى في عاجلهم. وأما البُشْرَى في آجلهم: فالحق - سبحانه - يتولّى ذلك التعريف، قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١].

ويقال البشارة العُظْمَى ما يجدون في قلوبهم مِنْ ظَفَرِهِمْ بنفوسهم بسقوط مآربهم، وأيُّ مُلْكٍ أتم من سقوط المآرب، والرضا بالكائن؟ هذه هي النعمة العظمية، ووجدان هذه الحالة هو البُشْرَى الكبرى.

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لهم وبين البشارة التي للخلق أنّ للخلق عِدَّةٌ بالجميل، والذي له نَقْدٌ ومحصول.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْفِئَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

العبد ما دام متفرقاً يضيّق صدره ويستوحش قلبه بما يسمع ويشهد من الأغيار والكفار ما تَقَدَّسَ عنه صفة الحق، فإن صار عارفاً زالت عنه تلك الصفة لتحقيقه بأنّ الحق سبحانه وراء كل طاعة وزلّة، فلا له - سبحانه - من هذا استيحاش، ولا بذلك استئناس.

ثم يتحقق العارف بأن المُجَرِّي لطاعة أرباب الوفاق - الله، والمنشئ لأحوال أهل الشقاق - الله. لا يبالي الحق بما يجري ولا يبالي العبد بشهود ما يجري، كما قيل:

بنو حق قضاوا بالحق صرفاً فَنَعَتْ الخَلْقَ فِيهِمْ مُسْتَعَار
قوله جل ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

لله مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض ملكاً، وييدي عليهم ما يريد، حكماً جزماً؛ فلا لقبوله علة، ولا موجب لردّه زلة، كلا... إنها أحكام سابقة، لم تُوجِبها أجرام لاحقة، ولا طاعات وعبادات صادقة.

قوله جل ذكره: ﴿مُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾.

الليل لأهل الغفلة بُغْدٌ وغيبة، ولأهل الندم توبة وأوبة^(١)، وللمحبين زُلْفَةٌ وقربة؛ فالليل بصورته غير مؤنس، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل:

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ تُخْبِرُ أن المانوية تكذب^(٢)
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الولدُ بعض الوالد، والصمدية تجلُّ عن البعضية، فتزّه الله نفسه عن ذلك بقوله ﴿سبحانه﴾.

ثم إنه لم يعجل لهم العقوبة - مع قبيح قائلهم ومع قدرته على ذلك - تنبيهاً على طريق الحكمة لعباده.

ولا تجوز في وصفه الولادة لِتَوَحُّده، فلا قسيم له، ولا يجوز في نعتة التبني أيضاً لِتَفَرُّده وأنه لا شبيه له.

قوله: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾: الغنى نفى الحاجة، وشهوة المباشرة حاجة، ويتعالى عنها سبحانه.

(١) الأوبة: المرة من الأوب. والأوب: العادة أو الجهة والناحية.

(٢) المانوية: أتباع ماني بن فاتن وهو رجل ظهر في زمن سابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام وادعى النبوة وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وقال: إن العالم مصنوع من النور والظلمة وأنهما لم يزالا قديمين حساسين سميعين بصيرين. المانوية مذهب تأثر بالبوذية والغنوصية، كما أخذ عن الزرداشتية قضت النصرانية على هذا المذهب حوالي ٥٠٠ م. (صبح الأعشى ١٣/٢٩٨).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

ليس لهم بما هم فيه استمتاع، إنما هو أيام قليلة ثم تتبعها آلام طويلة، فلا قدم لهم بعد ذلك ترفع، ولا ندم ينفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَارًا نُّوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لنبيه - ﷺ - لما كان يمسه من مقاساة الشدة من قومه، فإن أيام نوح - وإن طالت - فما لبثت كثيراً إلا وقد زالت، كما قيل:

وأحسن شيء في النوائب أنها إذا هي نابت لم تكن خلداً

ثم بين أنه كان يتوكل على ربه مهما فعلوا. ولم يحتشم عبداً - ما وثق بربه - من كل ما نزل به. ثم إن نوحاً - عليه السلام - قال: «إني توكلت على الله»^(١) وهذا عين التفرقة، وقال لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] وهذا عين الجمع فبانت المزية وظهرت الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأِمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إذا كان عمله لله ثم يطلب الأجر عليه من غير الله، وهكذا سئته في جميع أولياء الله.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبُوا فَتَجَنَّبَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلَيْنِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾.

أغرق قومه بأموال القطرة، وفي الحقيقة أغرقهم بأموال الأحكام والقدرة، وحفظ نوحاً - عليه السلام - وقومه في السفينة، وفي الحقيقة نجاهم في سفينة السلامة. وكان نوح في سابق حكمه من المحروسين، وكان قومه في قديم قضائه من جملة المغرقين، فجرت الأحوال على ما جرت به القسمة في الأزل.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

(١) أخرجه أبو داود (أدب ١٠٣)، والترمذي (دعاء ٣٤)، وابن ماجه (دعاء ١٨)، وأحمد بن حنبل ١/

قص عليه - صلوات الله عليه وسلامه - أنباء الأولين، وشرح له جميع أحوال الغابرين، ثم فضله على كافتهم أجمعين، فكانوا نجوماً وهو البدر، وكانوا أنهاراً وهو البحر، ثم به انتظم عقدهم، وبنوره أشرق نهارهم، وبظهوره خيم عددهم، كما قيل:

يَوْمَ وَحَسِبُ الدَّهْرَ مِنْ أَجَلِهِ حَيًّا غَدًا وَالتَّفَتِ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئٌ﴾.

ما زادهم الحق سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَهُ في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجاج هدى إلا ويزيد في قلوبهم غمماً، ثم خفي عليهم قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين^(١).

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَعْيِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]: نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا طعماً غير ما ذاقوا، وكذا صفة من أقصته السوابق، وردته المشيئة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ركنوا إلى تقليد آبائهم فيما عليه كانوا، واستحبوا استدامة ما عليه كانوا... فلحقهم شؤم العقيدة وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دعوهم إلى الله لتكون لهم الكبرياء على عباد الله، ولم يعلموا أنهم إنما دعوهم إلى الله بأمر الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾.

لما استعان في استدفاع ما استقبله بغير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تبارأ منهم وتوعدهم بقوله: لأفعلن ولأصنعن، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تؤول إلى العداوة والبغضة، قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أمرهم أمراً يظهر به بطلانهم ليدخل الحق على ما أتوا به من التمويه، فلذلك قال موسى عليه السلام: «إن الله سيبطله»؛ فلما التفت عصا موسى - جميع ما جاءوا به من جبالهم وعصيهم - حين قلبها الله حية... علموا أن الله أبطل تلك الأعيان وأفناها.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

من جملة ما أحقّه أن السحرة كان عندهم أنهم يَنْصُرُونَ فرعون ويحييونه فكانوا يُقْسِمُونَ بِعِزَّتِهِ حيث قالوا «بِعِزَّةِ فرعون إنا لنحن الغالبون» وقال الحق - سبحانه: بعزتي إنكم لمغلوبون، فكان على ما قال تعالى: دون ما قالوه، وفي معناه قالوا:

كم رَمَتْنِي بِأَسْهُمٍ صَائِبَاتٍ وَتَعَمَّدَتْهَا بِسَهْمٍ فَطَاشَا
قوله جل ذكره: ﴿فَمَا ءَمَرَ لِمُوسَى إِلَّا دُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْرِيقِينَ﴾.

أهل الحقيقة في كل وقت قليل عددهم، كبير عند الله خطرهم.
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُكُمْ بِاللَّهِ فَقَلِّبْهُ تَوَكُّلًا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾.
بين أن الإيمان ليس من حيث الأقوال.. بل لا بد فيه من صدق الأحوال قصدًا.
وحقيقة التوكل توصلُ تقدّمه مُتَّصِلٌ، ثم يعلم أنه بفضل - سبحانه - تَخَصَّلَ نجاته، لا بما يأتي به من التكلف - هذه هي حقيقة التوكل^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.
تبرأنا مما مِنَّا مِنَ الحُزْلِ والمُتَّةِ، وتحققنا بما منك من الطُول والمِئَّةِ.
فلا تجعلنا عرضةً لسهام أحكامك في عقوبتك بانتقامك، وارجحنا بلطفك وإكرامك، ونجنا مِمَّنْ غَضِبْتَ عليهم فأذللّتهم، وبِكَيْ فراقك وَسَمَتَهُمْ^(٢).
قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَكُسِّرِ الْقُرْآنَ﴾.

مهّد إليهم لعبادتنا مَحَالٌ وهي نفوسهم، ولمعارفنا منازلٍ وهي قلوبهم، ولمحبتنا مواضعٌ وهي أرواحهم، ولمشاهدتنا معاهدٌ وهي أسرارهم؛ فنفس العابدين بيوت الخدمة، وقلوب العارفين أوطان الحشمة، وأرواح المهيمين مشاهد المحبة، وأسار الموحيين منازل الهيبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن التوكل بالرسالة ص ١٦٢.

(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

لما يئس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإنزال السخطة وإذافة الفرقه. ومن المعلوم أن الأنبياء - عليهم السلام - من حقهم العصمة، فإذا دعا موسى عليهم بمثل هذه الجملة لم يكن ذلك إلا بإذن من قِبَل الله تعالى في الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود، ولا ينسقط الاستعجال من القلب إلا بوجودان السكينة فيه، ولا تكون تلك السكينة إلا بحسن الرضاء بجميع ما يبدو من الغيب.

ويقال ينبغي للعبد أن يستقل بالله ما أمكنه فعند هذا يقل دعاؤه. ثم إذا دعاه بإشارة من الغيب - في جوازه - فالواجب ألا يستعجل، وأن يكون ساكن الجأش.

ويقال من شرط الدعاء صدق الافتقار في الابتداء، ثم حُسْن الانتظار في الانتهاء، وكمال هذا الرضاء بجريان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار.

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضي على الغيب، والخمود عن الاستعجال بحسن الثقة، وجميل الظن.

ويقال في الآية تنبيه على أن للأمور آجالاً معلومة، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسوم في الوقت المعلوم.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

حَمَلَتِ الْعِزَّةُ فِرْعَوْنَ عَلَى تَقَحُّمِ الْبَحْرِ عَلَى إِثْرِهِمْ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْهَلَاكُ حَمَلَتْهُ ضَرُورَةُ الْحِيلَةِ عَلَى الاستعاذة، فلم ينفعه ذلك لفوات وقت الاختيار.

ويقال لما شهد صَوْلَةُ التقدير أفاق من سُكْرِ الغلطة، لكن: «بعد شهود البأس لا ينفع التخاشع والابتئاس».

قوله جل ذكره: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أَبْعَدَ طَوْلَ الإمهال، والاصرار على ذميم الأفعال، والركُض في ميدان الاغترار، وانقضاء وقت الاعتذار؟! هيهات! لقد استوجبت أن تُرَدَّ في وجهك، فلا لِعُذْرِكَ قَبُولٌ، ولا لَكَ إلى ما ترومه وصول.

قوله جل ذكره: ﴿قَالِ يَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَابَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

لَتُسْهِرَنَّ تَعْدِيكَ، وَنُظْهِرَنَّ - لِمَنْ اسْتَبَصَرَ - تَأْدِيكَ، لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ عِبْرَةً، وَتَزِدَادَ حِينَ أَفْقَتَ أَسْفًا وَحَسْرَةً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَازٍ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْعَالِيَتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أَذَلَّلْنَا لَهُمُ الْيَاسَ، وَأَكْرَمْنَا لَهُمُ الْإِنْعَامَ، وَأَكْرَمْنَا لَهُمُ الْمَقَامَ، وَأَتَخْنَا لَهُمُ فَنُونَ الْحَسَنَاتِ، وَأَذْنُنَا لَهُمُ جَمِيعَ الْخَيْرَاتِ... فَلَمَّا قَابَلُوا النِّعْمَةَ بِالْكَفْرَانِ، وَأَصْرُوا عَلَى الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ أَذَقْنَاهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَسَدَدْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَا فَتَحْنَا لَهُمُ مِنَ التَّكْرِيمِ وَالْإِيجَابِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ حَادَ عَنْ طَرِيقِ الْوِفَاقِ، وَجَنَحَ إِلَى جَانِبِ الشَّقَاقِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَلِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَلَمْ يَكُتَبْ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ أَلْحَقٌ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

ما شك - ﷺ - فيما عليه أنزل، ولا عن أحدٍ منهم ساءل، وإنما هذا الخطاب على جهة التهويل، والمقصود منه تنبيه القوم على ملازمة نهج السبيل.

ويقال صفة أهل الخصوص ملاحظة أنفسهم وأحوالهم بعين الاستصغار.

ويقال فإن تَنَزَّلَتْ منزلة أهل الأدب في ترك الملاحظات فَسَلَّ عَمَّنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ فَهَلْ بَلَّغْنَا أَحَدًا مِنْكَ؟ وَهَلْ خَصَصْنَا أَحَدًا بِمِثْلِ تَخْصِيصِكَ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

ما كان منهياً عنه، وكان قبيحاً فبالشرع كان قبيحاً، فلا بد من ورود الأمر به حتى تكون منه طاعة وعبادة. وإنما لم يَجْزُ في صفته - ﷺ - التَّكْذِيبُ بِآيَاتِ اللَّهِ؛ لَأَنَّهُ نُهِيَ عَنْهُ لَا لِكُونِهِ قَبِيحاً بِالْعَقْلِ حَتَّى يُقَالَ كَيْفَ نُهِيَ عَنْهُ وَكَانَ ذَلِكَ بَعِيداً مِنْهُ؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالأعداء^(١) حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِالْعِقَابِ، وَالْأَوْلِيَاءُ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِالشَّوَابِ؛ فَالْكَلِمَةُ أَرْزَلِيَّةٌ، وَالْأَحْكَامُ سَابِقَةٌ، وَالْأَفْعَالُ فِي الْمُسْتَأْنَفِ عَلَى مَرَمِ الْأَوْقَاتِ عَلَى مُوجِبِ الْقَضِيَّةِ لِحَقَّةٍ، فَالَّذِينَ نَصِيبُهُمُ مِنَ الْقِسْمَةِ الشَّقَوَةُ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ شَاهَدُوا كُلَّ دَلَالَةٍ، وَعَايَنُوا كُلَّ مُعْجَزَةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَا آمَنُوا كُشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

قَوْمٌ يُونِسُ تَدَارَكَهُمْ الرَّحْمَةُ الْأَرْزَلِيَّةُ فِيمَا أَجْرَى عَلَيْهِمْ مِنْ تَوْفِيقِ التَّضَرُّعِ،

فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِقَابَةِ بَعْدَ مَا عَانُوا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ؛ فَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَى تَضَرُّعِهِمْ، لَا بِتَضَرُّعِهِمْ وَصَلُوا إِلَى رَحْمَتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

كيف يعتصي عليه سبحانه مراد - والذي يبقى شيء عن مراده ساء أو مغلوب؟ والذي يستحق جلال العزة لا يفوته مطلوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَأَنَّ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لا يمكن حمل الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشيئة؛ لأنه للكافة بالإيمان، والذي هو مأمور بالشيء لا يقال إنه غير مأذون فيه. ولا يجوز حمل هذه الآية على معنى أنه لا يؤمن أحد إلا إذا ألجأ الحق إلى الإيمان واضطره - لأن موجب ذلك ألا يكون أحد في العالم مؤمناً بالاختيار، وذلك خطأ، فدل على أنه أراد به إلا أن يشاء الله أن يؤمن هو طوعاً. ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحد أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن؛ لأنه يبطل فائدة الآية، فصَحَّ قول أهل السنة بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الأدلة - وإن كانت ظاهرة - فما تُغني إذا كانت البصائر مسدودة، كما أن الشمس - وإن كانت طالعة - فما تُغني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم؟
قوله جل ذكره: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ يَوْمَ الْفُتُورِ﴾.

تمني أطاف أنوار الحقيقة تعن في تسويل، واستناد إلى غير تحصيل، وتماد في تضليل.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.
حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ ها هنا معناها «مثلاً»، فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً ملكاً، فيجب الشيء من الله - لصدقه - ولا يجب عليه - لِعِزَّتِهِ.

وكما لا يجوز أن يَدْخُلَ نبيٌّ من الأنبياء - عليهم السلام - في النار لا يجوز أن يُخَلَّدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنْجِي الرسلَ والمؤمنين جميعاً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إن كنتم في غطاء الرئيب فانا في ضياء من الغيب، إن كنتم في ظلمة الجهل فانا في شمس الوضيل، إن كنتم في سدف الضلالة فانا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة.

ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق: فأنتم وقعتم في هدة العوج، وأنا ثابت على سواء النهج.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْ أَقْدَرُ مِنْكَ لِلَّذِينَ حَبِيبًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾.

أي أخلص قلبك للذين، وجرد قلبك عن إثبات كل ما لحقه قهر التكوين، وكن مائلاً عن الزيف والبدع، داخلاً في جملة من أخلص في الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لا تعبد ما لا تنفعك عبادته ولا تضرَّك عبادته، وتلك صفة كل ما يعبد من دون الله. واستعانة الخلق بالخلق تمحيق للوقت بلا طائل؛ فمن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً كيف يستعين به من هو في مثل حاله؟ وإذا انضاف الضعيف إلى الضعيف ازداد الضعف.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كما تفرَّد بإبداع الضر واختراعه فلا شريك يعضده. . كذلك توخَّذ بكشف الضر وصرفه فلا نصير ينجده.

ويقال هوَّن على المؤمن الضر بقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ حيث أضافه إلى نفسه، والحنظل يستلذ من كف من تحبه.

وفرق بين الضر والخير بإضافة الضر إليه فقال: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولم يقل: وإن يردك بضر - وإن كان ذلك الضر صادراً عن إرادته - وفي ذلك من حيث اللفظ دقة.

ويقال: عذَّب الضر حيث كان نفعه؛ فلما أوجب مقاساة الضر من الحرب أبدل مكانه السرور والطرب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

مَنْ استبصر رِيحَ رُشْدٍ نَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقَدْ زَاغَ عَنْ قُضْدِهِ؛ فهذا بلاء اكتسب، وذلك ضياء وشفاء اجتلب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

قِفْ عند جريان أحكامنا، وانسلخ عن مرادك بالكلية، لِيُجْرِيَ عليك ما يريد، والله أعلم بالصواب.

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه كلمة استولت على عقول قوم فَبَصَّرْتَهَا، وعلى قلوب آخرين فَجَرَدْتُهَا، فالتى بَصَّرْتُهَا فبنور برهانه، والتي جَرَدْتُهَا فبقهر سلطانه. . فعالمٌ سَلَكَ سَبِيلَ بحثه واستدلّاه فَسَكَنَ لَمَّا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله، وعارِفٌ تعرَّضَ إلى وصاله فطاح لَمَّا لاحَت لَمَعَةٌ ممن تقدّس بالإعلام باستحقاق جلاله.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الرَّ كُنْتُ أَهْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾.

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية.

واللام إشارة إلى لُطْفِهِ بأهل التوحيد.

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية.

وهي في معنى الْقَسَمِ: أي أقسم بانفرادي بالربوبية ولطفي بمن عَزَفَنِي بالأحذية، ورحمتي على كافة البرية - إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَهْكَمْتُ آيَاتُهُ.

ومعنى ﴿أَهْكَمْتُ ءَايَتُهُ﴾: أي حَفِظْتُ عن التبديل والتغيير، ثم فَصَّلْتُ ببيان نعوتِ الحقِّ فيما يتصف به من جلال الصمدية، وتعبّد به الخلق من أحكام العبودية، ثم ما لاح لقلوب الموحّدين والمحبين من لطائف القربة، في عاجِلِهِم البُشْرَى بما وَعَدَهُم به من عزيز لقائه في آجِلِهِم، وخصائصهم التي امتازوا بها عَمَّن سِوَاهُمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرِّمُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

أي فَصَّلْتُ آيَاتُهُ بألا تعبدوا إلا الله.

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه «نذيرٌ» مبينٌ بالفرقة، «وبشيرٌ» بدوام الوصلة، (فالفرقة بل في عاجله واحداً).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيَّ﴾.

استغفروا رَبَّكُمْ أولاً ثم توبوا إليه بعده.

والاستغفار طلب المغفرة، يعني قبل أن تتوبوا اطلبوا منه المغفرة بحسن النّظرة،

وَحَمَلَ الرِّجَاءَ وَالثَّقَةَ بِأَنَّهُ لَا يُخَلِّدُ الْعَاصِيَ فِي النَّارِ، فَلَا مُحَالَةَ يُخْرِجُهُ مِنْهَا. . فابْتَدِئُوا بِاسْتِغْفَارِكُمْ، ثُمَّ تَوَبُوا بِتَرْكِ أَوْزَارِكُمْ، وَالتَّنْقِي عَنْ إِصْرَارِكُمْ.

وَيَقَالُ اسْتَغْفِرُوا فِي الْحَالِ مِمَّا سَلَفَ، ثُمَّ إِنَّ أَلَمَّكُمْ بِزَلَّةٍ أُخْرَى فَتَوَبُوا. وَيَقَالُ اسْتَغْفِرُوا فِي الْحَالِ ثُمَّ لَا تَعُودُوا إِلَى ارْتِكَابِ الزَّلَّةِ فَاسْتَدِيمُوا التَّوْبَةَ - إِلَى مَا لَكُمْ - مِمَّا أَسْلَفْتُمْ مِنْ قَبِيحِ أَعْمَالِكُمْ.

وَيَقَالُ ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾: الْاسْتِغْفَارُ هُوَ التَّوْبَةُ، وَالتَّنْقِي مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، ثُمَّ «تَوَبُوا» مِنْ تَوَهُّمٍ أَنَّكُمْ تُجَابُونَ بِتَوْبَتِكُمْ، بَلْ اْعْلَمُوا أَنَّهُ يُجَبِّحُكُمْ بِكَرَمِهِ لَا بِأَعْمَالِكُمْ. وَيَقَالُ «الاسْتِغْفَارُ»: طَلَبُ حُظُوظِكُمْ مِنْ عَفْوِنَا. . فَإِذَا فَعَلْتُمْ هَذَا فَتَوَبُوا عَنْ طَلَبِ كُلِّ حِظٍّ وَنَصِيبٍ، وَارْجِعُوا إِلَيْنَا، وَاسْتَفْعُوا بِنَا، رَاضِينَ بِمَا تَحُوزُونَهُ مِنَ التَّجَاوُزِ عَنْكُمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْرِجُكُمْ بِهِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَمُتُّكُمْ مُنْعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

أَيُّ نَعْيَشْكُمْ عَيْشًا طَيِّبًا حَسَنًا مَبَارَكًا.

وَيَقَالُ هُوَ إِعْطَاءُ الْكَفَايَةِ مَعَ زَوَالِ الْحَرَصِ.

وَيَقَالُ هُوَ الْقَنَاعَةُ بِالْمَوْجُودِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَلَّا يَخْرِجَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ، وَلَا يَجْعَلُ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ مِثَّةً لَا سِيَمًا لِلثِّمِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَوْفِقَهُ لِاصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى الْمُسْتَحْقِينَ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ تُقْضَى عَلَى يَدَيْهِ حَوَائِجُ النَّاسِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَلَّا يَلْمَ فِي حَالِ شِبَاهِهِ بِزَلَّةٍ، وَأَلَّا يَتَصَفَّ بِأَنَّهُ عَنْ اللَّهِ فِي غَفْلَةٍ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ نَوْعِي الْعُسْرِ وَالْيَسْرِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَرَوَّيْتُ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

كَبِيرٍ﴾.

مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ أَعْطَاهُ جَزَاءَ مَا فَضَّلَ لَهُ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَمَنْ زَادَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ كَافَاهُ بِمَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنْ زِيَادَةِ السَّيِّئَاتِ. . . هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ.

وَيَقَالُ مَنْ فَضَّلَهُ بِحَسَنِ تَوْفِيقِهِ أَوْصَلَهُ إِلَى مَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنْ لُطْفِهِ وَبِزَيْدِهِ. .

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَسْتَرَّ عَلَيْهِ فَضْلُهُ حَتَّى لَا يَلَاظَ حَالَهُ وَمَقَامَهُ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَا مِنْهُ وَمَا لَهُ. . . بِعَيْنِ الْاسْتِحْقَارِ وَالْاسْتِصْغَارِ.

وَيَقَالُ هُوَ أَنْ يَرْقِيَهُ عَنِ التَّعْرِيجِ فِي أَوْطَانِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى طَاعَاتِ شُهُودِ الْأَحْدِيَّةِ، وَيُنْقِيَهُ عَنْ (.....) ^(١) الْبَشَرِيَّةِ، وَالتَّكْدُرِ بِمَا يَبْدُو مِنْ مَفَاجَأَتِ التَّقْدِيرِ.

ويقال هو ألا يُوجِّهَ شيء بما يجري في الوقت .

ويقال هو أن يُحَقَّقَ له ما تسمو إليه همته، ويُبَلِّغَهُ فوق ما يستوجبه محلّه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

تنقطع الدعوى عند الرجوع إلى الله، وتنتفي الظنون، ويحصل اليأس من غير الله بكل وجه، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار، والحق يُجْزِي عليه ما سَبَقَتْ به القسمة من أنواع الأقدار .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ السُّدُورِ﴾ .

أي يسترون ما تنطوي عليه عقائدهم، ويضمّرون للرسول - عليه السلام - وللمؤمنين خلاف ما يُظْهِرون، والحق - سبحانه - مُطَّلِعٌ على قلوبهم، ويعلم خفايا صدورهم، فتلبسهم لا يُغْنِي عنهم من الله شيئاً، وكان الله - سبحانه - يُطَّلِعُ رسوله - عليه السلام - على ما أخفوه إمّا بتعريف الوحي، أو بإشهاد لِقْوَةِ نور، وكذلك المؤمنون كانوا مخصوصين بالفراصة، فكل مؤمن له بِقَدَرٍ حاله من الله هداية، قال ﷺ: «اتقوا فراصة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»^(١) ولقد قال قائلهم .

أَبْعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِفَوَادِي؟ كل ما في الفؤاد للعين باد

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ .

أراح القلوب من حيرة التقسيم، والأفكار من نَصَبِ التفكير في باب الرزق. حيث قال: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فَسَكَنَتِ الْقُلُوبُ لِمَا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرزق على الله .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحانوتِ في غَلَطٍ من حسبانهِ . ثم إن الله سبحانه بيّن أَنَّ الرزق الذي «عليه» ما حاله فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وما كان في السماء لا يوجد في السوق، ولا في التّطواف في الغرب والشرق .

ويقال الأرزاق مختلفة فَرِزْقُ كل حيوانٍ على ما يليق بصفته .

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ٣١٢٧)، وأبو حنيفة في (المسند ١/١٨٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٤/٩٤، ٦/١١٨)، والطبراني في (المعجم الكبير ٨/١٢١)، (البغوي ١٤/٣١)، وابن كثير في (التفسير ١/٤٧٩، ٤/٤٦١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٥٤٤، ٧/٢٥٩)، وابن حجر في (فتح الباري ١٢/٣٨٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٠٧٣٠)، وابن حجر في (لسان الميزان ٥/١١٥٤)، وصاحب (ميزان الاعتدال ٨٠٩٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٣)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٢/٣٠٥)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/٤٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٤/١٠٣)، والعقيلي في (الضعفاء ٤/١٢٩) .

ويقال للنفوس رزق هو غذاء طريقه الخلق، وللقلوب رزق وهو ضياء موجد الحق.

ويقال لم يقل ما يشتهي أو مقدار ما يكفيه بل هو موكول إلى مشيئته؛ فمن موسع عليه ومن مقتر.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمَ مُنْقَرَمًا وَمُسْتَوْدَعًا كُلَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

قيل أراد به به أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، أو الدنيا والآخرة. ويقال مستقر المريد باب شيخه كمستقر الصبي باب والديه. ويقال مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد، فالمساجد مستقر نفوس العابدين، والمشاهد مستقر قلوب العارفين.

ويقال مستقر المحب رأس سكة محبوبه لعله يشهده عند عبوره.

ويقال المساجد للعبدين مستقر القدم، والمشاهد للعارفين مستقر الهمم، والفقراء مستقرهم سدة الكرم.

ويقال الكل له مثنوى ومستقر، أما الموحد فإنه لا مأوى له ولا مستقر ولا مثنوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قبل الله.

ويقال القلوب مستودع المعرفة؛ فالمعرفة وديعة فيها. والأرواح مستودع المحبة فالمحبات ودائع فيها. والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وأحسن الأعمال موافقة الأمر، ولم يقل أكثر عملاً.

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشد إخلاصاً فيه.

ويقال أحسنهم عملاً أبعدهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضاً.

ويقال أحسن الأعمال ما غاب عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود.

قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ الابتلاء من قبله تعريف الملائكة حال من يبتليه في الشكر عند اليسر والصبر عند العسر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُودُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

استبعدوا الشّر لتفاضل علومهم عن التحقق بكمال قدرة الحق، ولو عرفوا ذلك

لَا يَقْنُتُوا الْبَعْثَ لَيْسَ بِمَعْتَصٍ فِي الْإِبْجَادِ وَلَا يَمَسْتَحِيلُ فِي التَّقْدِيرِ .
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا لَأُتَوَّعَدُوهُ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ إِلَّا يَوْمٌ
يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

يقول: إن أمهلنا، وأخرنا عليهم العذاب لا يزعمون، بل يستعجلون العقوبة .
ولئن عجلنا لهم العقوبة لا يتوبون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجهل في
الحالين، وعميت بصائرهم عن شهود التقدير والإيمان بالغيب في النوعين . ويوم
يأتيهم العذاب فلا مناص ولا منجاة ولا مراح لهم منه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ
كَفُورًا﴾ .

تَكْذُرُ ما صفا من النعم، وتَغَيِّرُ ما أُتِيحَ من الإحسان والمِنَّةِ حالَ معهودةٍ وخُطَّةٍ
عامة، فلا أحد إلا وله منها خِطَّةٌ^(١) فَمَنْ لم يرجع بالتأسفِ قلبه، ولم يتضاعف في
كل نَفْسٍ تَلَهَّفُهُ وَكَرْبُهُ ففي ديوان النسيان، وأثبت اسمه في جملة أهل الهجران . ومن
استمسك بعروة التضرع، واعتكف بعقوة التذلل، احتسى كاساتِ الحسرة غُلاًلاً بعد
نهل طاعته للحق بنعت الرحمة، وجَدَّ له ما اندرس من أحوال القربة، وأطْلَعَ عليه
شمسَ الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل .

تَقْشَعُ غَيْمُ الْهَجْرِ عَنْ قَمَرِ الْحَبِّ وَأُشْرِقَ نَوْرُ الصَّبْحِ فِي ظِلْمَةِ الْغَيْبِ
وليس للأحوال الدنيوية خَطَرٌ في التحقيق، ولا يُعَدُّ زَوَالُهَا وتكدرها من جملة
المحن عند أرباب التحصيل، لكنَّ المحنة الكبرى والرزية العظمى ذبولُ غصنِ
الوصال؛ وتكدرُ مشرب القرب، وأفولُ شوارق الأنس، ورَمَدُ بصائر أرباب
الشهود . . . فعند ذلك تقوم قيامتهم، وهناك تُسَكَّبُ الْعَبْرَاتُ . ويقال إذا نَعَقَ في
ساحاتِ هؤلاء غرابُ البين ارتفع إلى السماء نَوَاحُ أسرارهم بالويل، ومن جملة ما
ييثون ن نحيبهم ما قلتُ:

قولا لَمِنْ سَلَبَ الْفَوَازَ فِرَاقُهُ	ولقد عَهِدْنَا أَنْ يُبَاحَ عِتَاقُهُ
بَعْدَ الْفِرَاقِ . . . فَبِالَّذِي هُوَ بَيْنَنَا	هَلَّا رَحِمْتُمْ مَنْ دَنَا إِزْهَاقُهُ؟
عَهْدِي بِمَنْ جَعَلَ الْهَوَى أَرْمَانُ كُـ	نَا بِالصَّبَابَةِ - لَا يَضِيقُ نِطَاقُهُ
وَالْآنَ مُذْ بَخِلَ الزَّمَانُ بِوَصْلَانَا	ضَاقَ الْبَسِيطَةُ حِينَ دَامَ فِرَاقُهُ

(١) الْخُطَّةُ: الحال والأمر والخطب، والخطَّة: الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك وقد خطها
لنفسه خطأ واختطها وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها لبيئها داراً . (لسان
العرب ٧/ ٢٨٨ - ٢٩٠) .

هل تُرْتَجَى من وصل عِزُّكَ رجعةً تحنو على قمرٍ يدوم محاقه؟
 إن كان ذاك كما تروم فأخبروا أئلى له أن يعودَ شروقه؟
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

إذا كشفنا الضرَّ عنهم رحمةً مِنَّا عادوا إلى تهتكهم بدلاً من أن يتقربوا إلينا، وأساءوا بخلع عذارهم بدل أن يقوموا بشكرنا، وكلما اتَّخَنَّا لهم من إمهالنا أميناً لمكرنا، ولم يخافوا أن نأخذهم فجأةً بقهرنا.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الإنسان في الآية السابقة اسم جنس.

ولإلا للاستثناء منه، وقيل بمعنى «لكن»، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا، إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك، أي لكن الذين آمنوا بخلاف ذلك، فإنهم لصبرهم على ما به أمروا، وعما عنه زُجروا، ولمعانقتهم للطاعات ومفارقتهم الزلات.. فلهم مغفرة وأجر، مغفرة لعصيانهم، وأجرٌ على إحسانهم. والفريقان لا يستويان، قال قائلهم.

أخْبَابُنَا شَتَّانَ وَافٍ وَنَاقِصٌ ولا يستوي قطُّ مُحِبٍّ وَبَاغِضٍ
 قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾.

اقترحوا عليه أن يأتي بكتاب ليس فيه سبُّ آلهتهم، وبين الله - سبحانه - له ألا يترك تبليغ ما أنزل عليه. لأجل كراهتهم، ولا يُبدَل ما يوحى إليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَصَاحِقٌ لَهُ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَّا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

وهذا على وجه الاستبعاد؛ أي لا يكون منك ترك ما أوجي إليك، ولا يضيق صدرك بما يبدو من الغيب.. ومن شرح الله بالتوحيد صدره، ونور بشهود التقدير سيره - متى يلحقه ضيق صدر أو استكراه أمر؟ ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾: أي أنت بالإرسال منتهوب، وأحكام التقدير عليك مُجْرأة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ قَاتُوا عَشْرَ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

في الآية بيان أن المكلَّف مُزَاحِ الْعِلَّةِ لِمَا أُقِيمَ له من البرهان وأهل له من

التحقيق . وأن الإيمان بالواسطة - صلى الله عليه وسلم وآله - واجب لما خص به من المعجزات التي أوضحها الكتاب المنزّل والقرآن المفصّل الذي عجز الكفار عن معارضته .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجُونَ﴾ .

يعني فإن لم يستجيبوا لكم يعني إلى الإتيان بمثله - وهم أهل بلاغة - فتحققوا أنه من قِبَلِ الله ، وليس على سنة التحقيق (.....) ^(١) إنما العمى في بصائر من ضلّوا عن الحق ، وتاهوا في سدفة الحيرة .

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ .

مَنْ قَنَعَ مِنْهُمْ بِدُنْيَا الدِّنَاءَةِ صِفَتُهَا وَسَعْنَا عَلَيْهِ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِأَيَّامِ فِيهَا ، وَلَكِنْ عَقِبَ اكْتِمَالِهَا سِيرَى زَوَالِهَا ، وَيَذُوقُ بَعْدَ عَسَلِهَا حَنْظَلَهَا .

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَابَتْ أَمَالُهُمْ ، وَظَهَرَتْ لَهُمْ - بِخِلَافِ مَا احْتَسَبُوا - أَلَامُهُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَحَاقَ بِهِمْ سُوءُ حَالِهِمْ .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِّنْ زَيْوَةٍ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

فيه إضمار ومعناه أفمن كان على بينة كمن ليس على بينة . . لا يستويان .
والبيّنة لأقوام برهان العلم ، ولآخرين بيان الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشهِدُهُمُ الْحَقُّ ما لا يطلع عليه غيرهم ، كما قلت :

ليلي من وجهك شمس الضحا (.....) ^(١)

فالناس في الظلمة من ليلهم ونحن من وجهك في الضوء والشاهد

فالذي يتولاه فهو مشاهد ، وفي الخبر «أولياء الله الذين إذا أرادوا ذكر الله.....» ^(٢)

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمْسَكْنَهُمْ فَلَمَرَقْنَهُمْ بِسِمْهَةٍ﴾ [محمد: ٣٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

مَنْ ادّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً، واستوجب المقت، وعقوبته ألا يُرزق بركة في أحواله، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبه، فيفضحه بين الخلق، والشهداء قلوب الأولياء، ومن شهدت القلوب عليه بالردّ فهو غير مقبول عند الحقّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ الآية.

هذا من جملة صفات المفترين على الله الكذب، ومن صدّهم عن السبيل أن يُظهروا من أنفسهم أحوالاً تُخلّ بأحكام الشريعة، ولا يَرَوْنَ ذلك كبيرةً في الطريقة، ويُوهِمُونَ المُستضعفين من أهل الاعتراض عليهم أن لهم في ذلك رخصة، فيُضِلُّون ويُضِلُّون. ومن جملة صدّهم عن السبيل تفريرهم بالناس، وإيقاعهم في الغلط، ويرتفقون بشيء مما في أيديهم من حطام الدنيا، ولا يَسْتَحُونَ مِنْ أَخْذِ شَيْءٍ لَا يَسْتَوْجِبُونَهُ بِأَيِّ وَجْهِ حَقٍّ، وَيُدَاهِنُونَ فِي دِينِ اللَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.

مَنْ هذه^(١) صفتهم لا يربحون في تجارتهم، ولا يلحقون غاية طلبوها؛ فيبقون عن الحق، ولا يبارك لهم فيما اعتاضوا من صحبة الخلق. خَسِرَتْ صَفَقَتُهُمْ، وَبَارَثَ بِضَاعَتُهُمْ، لَقُوا الهوان، وذاقوا اليأس والحرمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾.

لا محالة أنهم في الآخرة أشدّ خسراناً، وأوفر - من الخيرات - نقصاناً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾.

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامته الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستغاثة بالسر.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى... وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ...﴾

الآية.

مثل الكافر في كفره كالأعمى والأصم، ومثل المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير - هذا بيان التفسير.

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّهِ، والأصم الذي طُرِشَ بَسْمَعُ

قلبه؛ فلا باستدلاله شهيد سر تقديره في أفعاله، ولا بنور فراسة توهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه، ولا بسمع القبول استجاب لدواعي الشريعة، ولا بحكم الإنصاف انقاد لما يتوجب عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسْرِهِ من تلويحات الحقيقة.

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، والغائبات له حضور، والمستورات له كشف. فالذي يسمع فَصِيَّتَهُ ألا يسمع هَوَاجِسَ النَّفْسِ ولا وساوس الشيطان؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً، ثم من خواطر التعريف قدراً، ثم يكشف بخطاب من الحق سِرّاً^(١).
فهؤلاء لا يستويان، ولا في طريق يلتقيان:

رَاحَتْ مُشْرِقَةً وَرُخْتُ مُغْرِباً فَمَتَى التَّقَاءُ مُشْرِقٍ وَمُغْرِبٍ؟!
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ إِلِيمٍ﴾.

كان نوح عليه السلام أطول الأنبياء عُمرًا وأشدَّهم بلاءً، وسمي نوحاً لكثرة تَوَجُّهِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ.. وسبب ذلك أنه مرَّ بكلِّ فقال: ما أقبحه! فأوحى الله إليه أَنْ اخْلُقْ أَنْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا. فأخذ يبكي وينوح على نفسه كلَّ ذلك التَّوْح. فكيف بحال مَنْ لَمْ يَذْكُرْ يَوْمًا مِمَّا مَضَى مِنْ عَمَرِهِ فِي مَدَّةِ تَكْلِيْفِهِ - ولم يحصل منه لله كثير من ولاية؟!!

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْثُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْثُكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

أنكروا صحة كونه نبيًا لمشاكلته إياهم في الصورة، ولم يعلموا أن المباني بالسريرة لا بالصورة.

ثم قال: ﴿وَمَا تَرْثُكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾: نظروا إلى أتباعه نَظْرَةً اسْتِصْغَارٍ، وَتَسْبُوهٍ إِلَى قِلَّةِ التَّحْصِيلِ.. وما استصغر أحدٌ أحدًا من حيث رؤية الفضل عليه إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَذَاقَهُ ذُلَّ صَغَارِهِ، فَبِالْمَعَانِي يَحْصُلُ الْاِمْتِيَازُ لَا بِالْمَبَانِي:

تري الرجل النحيف فتزدريه وفي أنسوابه أسد هصور

(١) انظر الرسالة القشيرية عن حديث القشيري عن السماع ص ٣٣٥.

فَإِنْ أَكُ فِي شِرَارِكُمْ قَلِيلًا فَإِنِّي فِي خِيَارِكُمْ كَثِيرٌ
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَاقُوتُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَقِرُ مِنْ رَبِّي وَءَالَتْنِي رَحْمَةُ مَنْ عِنْدِهِ
فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ كُلُّهَا وَآنتُمْ لَهَا كَافِرُونَ﴾.

الصُّبْحُ لَا خَلَلَ فِي ضِيَائِهِ لِيَكُونَ النَّاظِرِينَ عَمِيَانًا، وَالسَّيْفُ لَا خَلَلَ فِي مَضَائِهِ
لِيَكُونَ الضَّارِبِينَ صَبِيحَانًا... وَكَيْفَ لِيُنْشِرَ مِنْ قَدَرَةٍ عَلَى هِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ - وَلَوْ كَانَ
نَبِيًّا؟

هيهات لا ينفع مع الجاهل نُضْحٌ، وَلَا يَنْجِعُ فِي الْمَصِيرِ وَعَظٌ!
قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْتَقِرُ لَا أَشْتَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقَوْنَ رَبِّهِمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ نَجْمٌ هَلُوكَ﴾.

سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَلَا يَطْلُبُوا عَلَى رِسَالَتِهِمْ أَجْرًا، وَأَلَا يُؤْمَلُّوْا
لِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ قَدْرًا، عَمَلُهُمْ اللَّهُ لَا يَطْلُبُونَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ. فَمَنْ سَلَكَ مِنْ
الْعُلَمَاءِ سَبِيلَهُمْ خَشِيَ فِي زَمَرَتِهِمْ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى صِلَاحِهِ مِنْ أَحَدٍ عَوَضًا، أَوْ اكْتَسَبَ
بِسَدَادِهِ جَاهًا لَمْ يَزَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا هَوَانًا وَصَغَارًا،

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَنْتَقِرُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
مَجَالِسَةُ الْفُقَرَاءِ الْيَوْمَ - وَهُمْ جُلَسَاءُ الْحَقِّ غَدًا - أَجْدَى مِنْ مَجَالِسَةِ قَوْمٍ مِنْ
الْأَغْنِيَاءِ هُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّدِّ.

وَمَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ وَأَدْنَاهُ اسْتَوْجِبَ الْخِزْيَ فِي دُنْيَاهُ، وَالصُّغَارَ فِي عَقْبَاهُ..
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي
مَلَكٌ﴾.

لَا أَتَخْطِي خَطِيئَةً عَمَّا أَبْلَغْتُ مِمَّا حَمَلْتُ مِنْ رِسَالَتِي، وَلَا أَتَعْدِي مَا كُفْتُ بِهِ،
وَلَا أَزِيدُ عَمَّا أَمِزْتُ، وَلَنْ أَخْرَجَ عَنِ الَّذِي أَنْبَأُونِي، بَلْ أَنْتَصِبُ بِشَاهِدِي فِيمَا أَقَامُونِي.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي
أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الْظَالِمِينَ﴾.

إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَنْوَابِهِمْ وَلَا يَرَاهُمْ إِلَّا مَنْ قَارَبَهُمْ فِي مَعْنَاهُمْ. اللَّهُ أَعْلَمُ
بِأَحْوَالِهِمْ، وَفِي الْجُمْلَةِ: طَيْرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَامِ تَقَعُ.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَنْتَوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

أَوْضَحْ لَهُمْ مِنَ الْبَرَاهِينِ مَا لَوْ أَنْعَمُوا النَّظَرَ فِيهِ لَتَمَّ لَهُمُ الْيَقِينُ، وَلَكِنْهُمْ أَصْرُوا

على الجحود، ولم يقنعوا من الموعود بغير المشهود.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَا أَيُّكُمْ بِهِ إِلَهٌ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

أقر بالعبودية، وتبرأ عن الحول والقوة، وأحال الأمر على المشيئة. ولقد أنصف من لم يجاوز حده في الدعوى. والأنبياء عليهم السلام - وإن كانوا أصحاب التحدي للناس بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

من لم يساعده تعريف الحق - بما له بحكم العناية - لم ينفعه نصح الخلق في النهاية.

ويقال من لم يوصله الحق للوصال في آزاله لم ينفعه نصح الخلق في حاله.

ويقال من سبق الحكم له بالضلالة أتى ينفعه النصح وبسط الدلالة؟

ويقال من لم تساعده قسمة السوابق لم ينفعه نصح الخلائق.

قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾: من المحال اجتماع الهداية والغواية؛ فإذا أراد الله بقوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية.

ثم بين المعنى في ذلك بأن قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ليعلم العالمون أن الرب تعالى له أن يفعل بعباده ما شاء بحكم الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ لِإِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْعَلُونَ﴾.

ومهما وصفتوني فإني أجيب الله.. وكل مطالب بفعله دون فعل صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوْحَ أَنَّكَ كُنْ يَوْمَكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَنْتَسِبْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

عرفه الحق أنه غني عن إيمانهم، فكشف له أحكامهم، وأن من لم يؤمن منهم قد سبق الحكم بشقائهم، فعند ذلك دعا عليهم نوح - عليه السلام - بالإهلاك.

ويقال لم يدع عليهم ما دام للمطمع في إيمانهم مساع، فلما حصل العكس نطق بالتماس هلاكهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ﴾.

أي قم - بشرط العبودية - بصنع السفينة بأمرنا، وتحقق بشهودنا، وأنتك بمرأى

منا. وَمَنْ عَلِمَ اِطْلَاعَهُ عَلَيْهِ لَمْ يَلَا حِظَّ نَفْسِهِ وَلَا غَيْرَهُ، لَا سِيَّما وَقَدْ تَحَقَّقَ بِأَنَّ الْمُجْرِي هُوَ سَبْحَانَهُ.

وقال له: رَاعِ حَدَّ الْأَدَبِ، فما لم يكن لك إذنٌ منا في الشفاعة لأحدٍ فلا تُخاطِبُنَا فيهم.

ويقال سبق لهم الحكمُ بالْعَرَقِ - وأمواج بحر التقدير تتلاطم - فكلُّ في بحار القدرة مُعْرِفُونَ إِلَّا مِنْ أَهْلِهِ الْحَقُّ بِحُكْمِهِ فَحَمَلَهُ فِي سَفِينَةِ الْعَنَاءِ.

ويقال كان قومُ نوحٍ مِنَ الْعَرَقَى في بحار القَطْرَةِ، وَمِنْ قَبْلُ كانوا غرقى في بحار القدرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَصَّغُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

لما تَحَقَّقَ بما أمر الله به لم يَأْتِهِ عند إِمضاء ما كُلِّفَ به بما سَمِعَ من القيل، ونظر إلى الموعود بطَرْفِ التصديق فكان كالمُشَاهِدِ له قَبْلَ الوجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾. لا طاعةَ لمخلوقٍ في مقاساة تقديره - سبْحَانَهُ - إِلَّا مِنْ تَحْمِلِ عَنْهُ بِفَضْلِهِ ما يَحْمِلُهُ بِحُكْمِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

طال انتظارهم لِمَا كَانَ يَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى وَجْهِ الاستبعاد، ولم يَزِدْهُمْ تَطَاوُلُ الْأَيَّامِ إِلَّا كُفْرًا، وَصَمُّوا عَلَى عَقْدِ تَكْذِيبِهِمْ.

ثم لَمَّا أَتَاهُمُ الْمَوْعُودُ إِيَّاهُمْ بَغْتَةً، وَظَهَرَ مِنَ الْوَضْعِ الَّذِي لَمْ يُجِبُوهُ فَآرَ الْمَاءِ مِنَ التَّنُّورِ الْمَسْجُورِ^(١)، وَجَادَتِ السَّمَاءُ بِالْمَطَرِ الْمَعْبُورِ.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: استبقاءً للتناسل.

ويقال: قد يُوْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ؛ فَإِنْ إِبْلِيسَ جَاءَ إِلَى نوحٍ - عَلَيْهِ السَّلامُ -.

وقال: اخْمِلْنِي فِي السَّفِينَةِ فَأَبَى نوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ: أَمَّا عَلِمْتَ أَنِّي مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمٍ مَعْلُومٍ، وَلَا مَكَانَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا فِي سَفِينَتِكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نوحٍ أَنْ يَحْمِلْهُ مَعَهُ.

(١) التَّنُّور: ضرب من الكوانين يُخْبِزُ فِيهِ، أَعْلَاهُ أَصْبِقٌ مِنْ أَسْفَلِهِ (اللسان ٩٥/٤) الْمَسْجُور: المملوء (اللسان ٣٤٥/٤).

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان، وأُمِرَ بِحَمْلِ إبليس وهو أصعب الأعداء! وفي هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخلق؛ كأنه قيل له: يا نوح.. ابنك لا تحمله، وعدوك فأدخله، فالحمد لله سبحانه فعّال لما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنُ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالشقاوة. وفيه تعريف بأن حُكْمَ الْأَزَل لا يُرَدُّ، والحقّ - سبحانه - لا يُنَازَعُ، والجبار لا يُخَاصَمُ، وأن مَنْ أَقْصَاهُ رَبُّهُ لَمْ يُذْنِبْ تَنْبِيهُ وَلَا يَرْ وَلَا وَغَطَّ.

﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولكن بَارَكَ الحقّ - سبحانه - في الذين نجّاهم من نَسْلِهِ، ولم يدخل خَلَلٌ في الكونِ بعد هلاكِ مَنْ أَهْلَكَ مِنْ قَوْمِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ أَزْكِبُ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَجَرِيهَا وَمُرْسَهَآ إِنِّي رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

عَرَفَ أَنَّ نَجَاتَهُ مِنَ الْقَطَرَةِ لَمَّا تَقَاطَرَتْ لَيْسَتْ بِالْحِيلِ - وَإِنْ تَنَوَّعَتْ وَكَثُرَتْ، فَبَاسْمِ اللَّهِ سَلَامَتُهُ، وَبِتَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ نَجَاتُهُ وَرَاحَتُهُ، وَبِتَفَضُّلِهِ - سبحانه - صَلَاحُهُ وَعَافِيَتُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ بَجَرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان في معزل بظاهره، وكان في سرّ تقديره أيضاً بمعزل عما سبق لنوح وقومه من سابق فضله. فحينما نطق بلسان الشفقة وقال: ﴿يَبْنَئُ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ - لم يقل له: ولا تكن من الكافرين؛ لأن حالته كانت مُتَنَبِّسَةً عَلَى نوح إذ كان ابنه ينافقه - فقيل له: يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنَا مِنَ الْكَافِرِينَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَمَا لَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

أَخْطَأَ مِنْ وَجْهَيْنِ: رَأَى الْهَلَاكَ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَ مِنَ اللَّهِ، وَرَأَى النِّجَاةَ وَالْعِصْمَةَ مِنَ الْجَبَلِ وَهُمَا مِنَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ نوح: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. قيل أراد لا معصوم اليوم من الله. وقيل لا أحد يَعْصِمُ أحداً من أمر الله، لكن مَنْ رَجَعَهُ رَبُّهُ فَهُوَ معصوم من ذلك، وله عاصم وهو الله.

ولقد كان نوح - عليه السلام - مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواج الماء وحالَّتْ بينهما وصار من الْمُغْرَقِينَ، فلا وعظه ونُصْحُهُ نفعاه، ولا قوله وتذكيره نَجَّيَاهُ وَخَلَّصَاهُ.

ويقال احتمل أن لو قيل له يا نوح عَرَفْنَا الْعَالَمَ بدعائك ولا عليك إن عَرَفَ .
قوله جل ذكره: ﴿وَقِيلَ يَتَاَرْضُ أَلْبِئْسَ مَا لَكَ وَكَسَمَاءُ أَقْلَى وَغِيصَ الْمَاءِ وَغِيصَ الْأَمْرِ
وَأَسْرَوْتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

فلما غَرِقَ ابنُ نوحَ سَكَنَ الموجَ ونَضَبَ الماءَ وأقْلَعَتِ السماءُ، وكأنه كان
المقصودُ من الطوفانِ أن يغرقَ ابنُ نوحَ - عليه السلام - وقيل :

عَجِبْتُ لِسُغْيِ الدهرِ بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ
قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي
أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

خَاطَبَ الحقَّ - سبحانه - في باب ابنه، واستعطفَ في السؤال فقال :
﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ : فقال له : إنه ليست مِنْ أَهْلِ الوصلةِ قِسْمَتُهُ - وإن كان من
أَهْلِكَ نَسَباً وَلَحْمَةً، وإنَّ خطابَكَ في بابهِ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، أو إنه أيضاً عَمَلٌ غَيْرُ
صَالِحٍ .

﴿فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ : أي سَتَرْتُ غَيْبِي في حال أوليائي وأعدائي، فلا
يُغْلَمُ سِرُّ تَقْدِيرِي .

قوله : ﴿إِنَّي أَعْطَاكَ﴾ : وذلك لِحُزْمَةِ شَيْخُوخَتِهِ وَكِبَرِهِ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في
وَلَدِهِ، فتَذَارَكَ بِحُسْنِ الْخُطَابِ قَلْبَهُ .

وقيل إن ابنَ نوحَ بَنِيَ من الزَّجَاجِ بيتاً وقتَ اشتغالِ أبيه باتخاذِ السفينةِ، فلما
ركبَ نوحُ السفينةَ دَخَلَ ابْنُهُ في البيتِ الذي اتخذه من الزَّجَاجِ، ثم إن الله تعالى سَلَطَ
عليه البَوْلَ حتى امتلأَ بَيْتُ الزَّجَاجِ من بَوْلِهِ؛ فَغَرِقَ الكُلُّ في ماءِ البحرِ، وغرقَ ابنُ
نوحَ في بَوْلِهِ! لِيُغْلَمَ أَنَّهُ لَا مَفْرَءَ مِنَ الْقَدَرِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي
وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

نَسِيَ نوحَ - عليه السلام - حديثَ ابنه في حديث نفسه، فاستعاذَ بفضله واستجارَ
بِلِطْفِهِ، فوجدَ السَّلامَةَ من رَبِّهِ في قوله جل ذكره :

﴿قِيلَ يَتُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَسِتُهُمْ ثُمَّ
يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

طَهَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ من أعدائه، وحفظَ نوحاً عليه السلام من بلائه، هو ومن معه
من أصدقائه وأقربائه .

والأُمم التي أخبر أنه سَيَمْتَعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ العذاب هم الذين ليسوا من أهل السعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أعلمناك بهذه الجملة، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلمه من شخص، أو من قراءة كتاب؛ فإنّ قبلك قومك بالتكذيب فاصبر، فعن قريب تنقلب هذه الأمور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوِرَ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا مُفْرَوِّكٌ﴾.

كلّف الأنبياء - عليهم السلام - بالذهاب إلى الخلق لا سيما وقد عاينوا - بالحق - مَنْ تَقَدَّمَهُمْ من فترة الملائ، ولكنهم تَحَمَّلُوا ذلك حين أمرهم الحق بالتوجه إليهم فَرَضُوا، وأظهروا الدلالة، وأدّوا الرسالة، ولكن ما زاد الناس إلا نفرة على نفرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَبْقَوِرَ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

لم يأت نبي من الأنبياء - عليهم السلام - إلا وأخبر أنه ليس له أن يطلب في الجملة أجراً إلا من الله لا من غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَبْقَوِرَ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار، من توهمكم أن نجاتكم باستغفاركم. بل تَحَقَّقُوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضل ربكم؛ فَبِغُضِّهِ وَتَوْفِيقِهِ تَوَصَّلْتُمْ إلى استغفاركم لا باستغفاركم، وصلتم إلى نجاتكم، وبرحمته أهلككم إلى استغفاركم، وإلا لَمَا وصلتم إلى توبتكم ولا إلى استغفاركم.

والاستغفار قَرَعَ باب الرزق، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه، فتح عليه أبواب رحمته، وَيَسَّرَ له أسباب نعمته.

ويقال يُنْزَلُ على ظواهركم أمطار النعمة، وعلى ضمائركم وسرائركم يُنْزَلُ أنواع المنة، ويزيدكم قوة على قوة؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرزق، وقوة تحصلون بها تحسين أصناف الخلق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ما زادهم هودٌ عليه السلام بسُطا في الآية وإيضاحاً في المعجزة إلا زادهم الله تعالى عَمَى على عَمَى، ولم يرزقهم بصيرةً ولا هديً، ولم يزدوا في خطابهم إلا بما دلُّوا على قُرْطِ جهالتهم، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانتهابهم، وقالوا:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وكيف ظنُّوا أنَّ آلهتهم تَمْسُ أعداءهم بسوءٍ وهي لا تضرُّ أعداءها ولا تنفع أولياءها؟ فهؤلاء الغواية عليهم مُستولية. ثم إن هوداً عليه السلام أفصح عن فضل ربه عليه؛ وصرَّح بإخلاصه وحُسن يقينه فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ثم قال:

﴿مِنْ دُونِي فَكَذَّبُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾.

فلم يَحْتِجْ معهم إلى تضرع واستخذاء، ولا راوَدَهم في سلم واستمهال، ولم يَتَّصِفْ في ذلك بركونٍ إلى حوله ومُتته، ولم يستند إلى جدِّه وقوته بل قال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أخبر أنه بموعودِ الله له بضرتِّه واثق، وأنه في خلوص طاعته لرَّبه وفي صفاء معرفته (غير مُفَارِقٍ).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾.

أوحينا إليه أن قلَّ لهم: إن تَوَلَّوْا ولم تُؤْمِنُوا بي فقد بَلَّغْتُ ما حُمِّلْتُ من رسالتي، وإني واثق بأنَّ الله إذا أهلككم يأتِ بأقوام آخرين سواكم أطوعَ له منكم، وإن أُنْصِرَ ما اختلَّ مُلْكُهُ؛ إذ الحقُّ - سبحانه - بوجود الأغيار لا يلحقه زينٌ - وإن وُحِدُوا، ويفقدهم لا يُمْسِه شَيْئٌ - وإن جحدوا وألحدوا.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نَجَّيْنَا هُودًا والذين آمنوا برحمتنا، ولم يَقُلْ باستحقاقه النجاة بوسيلة بُيُوتِهِ، أو لجسامة طاعته ورسالته بل قال: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾، لِيَعْلَمَ الكافة أنَّ الأنبياء - عليهم السلام - ومن دونهم عتيق رحمتِهِ، وغريق مُتْنِهِ، لا لاستحقاقٍ أحدٍ ولا لواجبٍ على الله في شيء.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا عَادًا جَمْعًا يُبَايِعُ رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيلٍ﴾.

في إنزال قصصهم تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم وآله - فيما كان يقاسي من العناء، وللمؤمنين فيما بذلوا من حسن البلاء، والعِدَّةُ بتبديل - ما كانوا يلقونه من الشدة - بالرجاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾.

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة، أمّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وما تبعه من اللعنة، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأييد العقوبة. وبقاؤهم عن رحمة الله أصعب من صنوف كل تلك المحنة، وكما قيل:

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْسَرْتَا لِمَنْ ابْتَغَى عَوْضًا لِسُلْمَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ بِإِذْنِي إِنَّ رَبِّي بِصَوَّافٍ قَدْ كُنْتُ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُمْ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْصِيرٍ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهُمْ تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَفَوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَمِيعٌ كَأَن لَّمْ يَتَوَلَّوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمُؤَدٍ﴾.

عَقِيبَ ما مضى من قصة عادٍ ذكر ثمود، وثمودهم قوم لصالح، وقد انخرطوا في الغي في سلك من سبقهم، فَلَحِقَتْ العقوبة بجميعهم. ثم أخبر أنهم قابلوا نبيهم - عليه السلام - بالكذيب، ولم يقفوا على ما نبههم عليه من التوبة والتصديق، وأصرُّوا على الإقرار أنهم في شأنه لفي شكٍ مرِيب.

ثم بيَّن أنَّ صالحاً لم يُعْرِجْ - في التبليغ - على تقصير.

وبَعْدَ تَمَرُّدِهِمْ وامتناعهم عن الإنابة، وإصرارهم على ترك الإجابة حقَّ عليهم ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونَجَّى نبيهم - عليه السلام -، ونَجَّى مَنْ اتَّبَعَهُ من كل عقوبة. . . سُنَّةٌ منه - سبحانه - في إنجاء أوليائه أمضاها، وعادةً في تطفه ورحمته بالمستحقين أجراها.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشِيرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ

جَاءَ بِعَبْلٍ حَنِيدٍ فَلَمَّا رَآَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿١٠﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيم - عليه السلام - بالبشارة. وأخبر أن إبراهيم - عليه السلام - أنكرهم، ولم يعرف أنهم ملائكة. فيحتمل أنه - سبحانه - أراد أن تكون تلك البشارة فجأة من غير تنبيه لتكون أتم وأبلغ في إيجاد السرور، ولا سيما وقد كانت بعد خوف لأنه قال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان صاحب النبوة والخلة والرسالة فلا بُدَّ أن تكون فراسته أعلى من فraise كل أحد، ولكنه في هذه الحالة لم يعرف الملائكة ليُعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - إذا أراد إمضاء حكم يسدُّ على مَنْ أرادَ عيون الفراسة، وإن كان صاحب الفراسة هو خليل الله، كما سدَّ الفراسة على نبينا - ﷺ - في قصة الإفك إلى الوقت الذي نزل فيه الوحي، وكذلك التبس على لوط - عليه السلام - إلى أن تبين له الأمر.

وتكلموا في هذه «البشرى» ما كانت؛ ففيل كانت البشارة بإسحاق؟ أنه سيولد له ولد ومن نسله وسلالته؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَثَةِ إِبْرَاهِيمَ يُعْقَبُونَ﴾.

ويقال بسلامة قومه - حيث كانوا مُرسلين بإهلاك قوم لوط - عليه السلام. ويقال بشارة بالخلة وتمام الرصلة.

ويقال إن الخلة والمحبة بناؤهما كتمان السر؛ فَيَعْلَمُ أنهم أُرْسِلُوا بشارية ما ولم يكن للغير اطلاع، قال قائلهم:

بين المحبين قولٍ لست أفهمه

ويقال إن تلك البشارة هي قولهم: «سلاماً» وأن ذلك كان من الله، وأي بشارة أتم من سلام الحبيب؟ وأي صباح يكون مُفْتَتاً بسلام الحبيب فصباح مبارك، وكذلك المبيت بسلام الحبيب فهو مبارك.

قوله: ﴿فَمَا لَيْكَ أَنْ جَاءَ بِعَبْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩]: لما توهمهم أضيفاً قام بحق الضيافة، فقدّم خير ما عنده مما شكره الحق عليه حيث قال في موضع آخر: ﴿فَجَاءَ بِعَبْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. والمحبة توجب استكثار القليل من الحبيب واستقلال ما منك للحبيب، وفي هذا إشارة إلى أنه إذا نزل الضيف فالواجب المبادرة إلى تقديم السفرة^(١) ممّا حضر في الوقت.

(١) السفرة: طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يُحمل في جلد مستدير فنقل اسم الطعام إليه وقيل: السفرة: التي يؤكل عليها سميت سفرة لأنها تبسط إذا أكل عليها. (اللسان ٤/ ٣٦٨ - ٣٦٩).

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] تمام إحسان الضيف أن تتناول يده ما يُقدَّم إليه من الطعام، والامتناع عن أكل ما يُقدَّم إليه معدود في جملة الجفاء في مذهب أهل الظرف.^(١) والأكل في الدعوة واجب على أحد الوجهين.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي خاف أنه وقع له خلل في حاله حيث امتنع الضيفان عن أكل طعامه؛ فأوجس الخيفة لهم لا منهم.

وقيل إن الملائكة في ذلك الوقت ما كانوا ينزلون جهراً إلا لعقوبة؛ فلما امتنعوا عن الأكل، وعلم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا قد أُرسلوا لعقوبة قومه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَتُولاَنِي ۖ أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَنْتَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حِيدٌ وَحِيدٌ﴾.

كانت امرأته قائمة بخدمة الأضياف، فضحكت تعجباً من أن يكون لمثلها في هذه السن ولد.

وقيل كان سرورها السلامة. ويحتمل أنها ضحكت تعجباً من امتناع الضيفان عن الأكل. أو تعجبت من كون الملائكة في صورة البشر لما علمت أنهم ملائكة. ويحتمل أنها ضحكت لاستبشارها بالولد وقد بُشِّرَتْ باستحقاقه ومن ورائه يعقوب، ثم أفصحَتْ عما ينطوي عليه قلبها من التعجب فقالت: ﴿أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾!

فأحال الملائكة خلق الولد على التقدير: ﴿قَالُوا أَنْتَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؟ فزال موضع التعجب، وقالوا: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فبقي الدعاء في شريعتنا بآخر الآية حيث يقول الداعي: كما صَلَّيْتُ وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

والبركة الزيادة؛ فقد اتصل النسل من الخليل، وبنو إسرائيل منهم - وهم خلق كثير، والعرب من أولاد إسماعيل - وهم الجَمُ الغفير^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلَانِ فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾. لما كانت مراجعته مع الله في أمر قوم لوط بحق الله لا لحظ نفسه سليم له الجِدال، وهذا يدل على علو شأنه حيث تجاوز عنه ذلك.

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. فالظرف في اللسان البلاغة، وفي الوجه الحسن، وفي القلب الذكاء. (لسان العرب ٩/ ٢٢٨ - ٢٢٩ مادة: ظرف).

(٢) الجَمُ الغفير: الجمع الكثير (ج) جمام وجموم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾.

والإشارة فيه أنه كان يقابل ما وُردَ على ماله ونفسه وولده بالاحتمال، ولما كان حق الحق في حديث قوم لوط أخذ في الجدال إلى أن أبان له سلامة لوط - عليه السلام - وقال الله سبحانه: -

قوله جل ذكره: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِهٍ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

يا إبراهيم أعرض عن هذا فإن الحكم بعدايبهم قد نزل، ووقت الانتقام منهم قد حصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا إِلَيْهِمْ فَصَاحَ لَهُمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

أي أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يجري عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله؛ فذلك الحزن كان لحق الله لا لنصيب له أو حظ لنفسه، ولذلك حمّد عليه لأنّ مقاساة الحزن لحق الله محمودة.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرُ هُنَآءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي صَیْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾.

قوله ﴿هُنَآءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: قيل إنه أراد به نساء أمته، فنبى كل أمة مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة.

ويقال إنه أراد بناته من صلبه.

«أليس منكم رجل رشيد» يرتدي جلباب^(١) الحشمة، ويؤثر حق الله على ما هو مقتضى البشرية، ويرعى حق الضيافة، ويترك معصية الله؟.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾.

أصروا على عصيانهم، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً، وانجروا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً، وهذه صفة البهائم؛ لا يزدعها عقل، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ٨٠].

لو أن لي قوة فأمنعكم عن ارتكاب المعصية؛ فإن أهم الأشياء على الأولياء ألا يجري من العصاة ما ليس الله فيه لا رضاء.

(١) الجلباب: القميص أو الثوب المشتمل على الجسد كله.

ويقال: لو كان لي قدرة لإيصال الرحمة إليكم - مع ارتكابكم المعاصي - لَرَجَمْتُكُمْ وَتَجَاوَزْتُ عَنْكُمْ.

ويقال لو أنَّ لي قوة لَهَدَيْتُكُمْ إِلَى الدِّينِ، وَلَعَصَمْتُكُمْ عَنْ ارتكاب المخالفات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾.

لَمَّا ضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ الضَّرَّ فَعَرَّفَ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ وَقَالُوا: لَا عَلَيْكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِسُوءٍ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ جِئْنَا لِإِهْلَاكِهِمْ، فَاخْرُجْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ بَنُوْعَ فَلَهٗ مِنَ الْعَذَابِ حِصَّةٌ. وَمَنْ جَمَلْتَهُمْ أَمْرَانِكَ الَّتِي كَانَتْ تَدُلُّ الْقَوْمَ عَلَى الْمَلِكِ لِفَعْلَةِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنَّ الْعُقُوبَةَ لَاحِقَةٌ بِهَا، مُذَرِّكَةٌ لَهَا.

والإشارة منه أن الجسارة على الرِّثْلَةِ وخيمة العاقبة - ولو بعد حين، ولا ينفع المرة اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ما هو كائنٌ فقريب، والبعيد ما لا يكون. وَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى مُحْظُورٍ ثُمَّ حُوسِبَ عَلَيْهِ - ولو بعد دهورٍ خالية وأعوام غير محصورة ماضية - تصور له الحال كأنه وقتٌ مُبَاشَرَتِهِ لَتِلْكَ الرِّثْلَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مُّنْهُودٍ﴾.

سُئِلَ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ قَلْبُ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِنْقِلَابُ مِنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ، أَمَّا الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ فَهُوَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِنُعُوْتِهِ الصَّمْدِيَّةِ.

وَإِنَّ مَنْ عَاشَ فِي السَّرُورِ دَهْرًا ثُمَّ تَبَدَّلَ يُسْرُهُ عُسْرًا فَكَمَنْ لَمْ يَرَ قَطُّ خَيْرًا، وَالَّذِي قَاسَى طَوْلَ عَمْرِهِ ثُمَّ أُعْطِيَ يُسْرًا فَكَمَنْ لَمْ يَرَ عُسْرًا.

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ﴾.

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم، ثم أخبر أن تلك العقوبة لاحقة بمن سلك سبيلهم تحذيراً لمن لم يعتبر بهم إذا عرف طريقهم، كما قيل:

وَمَنْ يَرْنِي وَلَمْ يَعْتَبِرْ بَعْدِي فَإِنَّ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ عِقَابًا

قوله جل ذكره: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا آبَاءَهُمْ مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ غَيَرٌ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ وَيَقَوْمِ الْوُفُؤِ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْنُؤُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝﴾.

أخبر سبحانه عن قصتهم، وما أصابهم من العذاب الأليم، وما نالهم من البلاء العظيم.

وفي الظاهر لهم كانت أجرامهم كاليسيرة، ولعدم الفهم يعدون أمثالها صغيرة، ولا يقولون إنها كبيرة، وإن ذلك تطفيف في المكيال.

وليس قَدْرُ الأجرام لأعيانها، ولكن لمخالفة الجبارِ عَظَمَ شأنها، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

ولما أن قال لهم شعيب:

﴿بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ۝﴾.

يعني القليل من الحلال أجدى من الكثير المَغْقِبِ للوَبَالِ لم يقابلوا نصيحته لهم إلا بالعناد والتمادي فيما هو دائم من الجحد^(١) والكنود^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۝﴾.

استوطؤوا مركب الجهل، واستحلّبو مشرب التقليد، وأغفؤا قلوبهم من استعمال الفكر، واستبصارِ طريق الرُّشْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَبْقَرُوا آبَاءَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۝﴾.

الْبَيْتَةُ نَوْزٌ تَسْتَبْصِرُ به ما خَفِيَ عليك تحت غطاء الغفلة.

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية، وحُسْنُ توليه لشأنك - في جميع ما فيه صلاحك - من إتمام النعمة ودوام العصمة.

وقيل الرزق الحسنُ ما تعني صاحبه لِطَلْبِهِ، ولم يصبه نَصَبٌ بسببه.

وقيل الرزق الحَسَنُ ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التنعم بوجود الرِّزَاق.

(١) الجحد: قلة الخير، والجحدود: الإنكار مع العلم.

(٢) الكنود كند النعمة: جحدها ولم يشكرها.

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنسي الرزاق، ويحمل صاحبه على التوسعة والإنفاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِنْ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾.

يمكن للواعظ أو الناصح أن يساهل المأمور في كل ما يأمره به، ولكن يجب ألا يجيز له ما ينهيه عنه؛ فإنّ الإتيان بجميع الطاعات غير مُمكن، ولكنّ التجرّد عن جميع المحرّمات واجب.

ويقال مَنْ لم يكن له حُكْم على نفسه في المنع عن الهوى لم يكن له حُكْم على غيره فيما يرشده إليه من الهدى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

مَذَارُ الأمرِ إلى الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح؛ فيَقْرُنُ اللَّهُ به حسن التيسير، وَمَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَّ الحقُّ بشأنه التعويق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

حقيقة التوفيق ما ينفق به الشيء، وفي الشريعة التوفيق ما تنفق به الطاعة، وهو قدرة الطاعة، ثم كل ما تقرب العبد به من الطاعة من توفير الدواعي وفنون المنهيات يُعدُّ من جملة التوفيق - على التوسّع.

والتوفيق باللّهِ ومن اللّهِ، وهو - سبحانه - بإعطائه متنضّل.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

التوكل تفويض الأمر إلى الله، وأمارته ترك التدبير بشهود التقدير، والثقة بالموعد عند عدم الوجود. ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب.

ويقال التوكل السكون، والثقة بالمضمون.

ويقال التوكل سكون القلب بمضمون الرّب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَنْقُزُ لَآ بَجْرَمَكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

تورثكم مخالفتكم إياي فيما أدعوكم إليه من طاعة الله أن يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب مَنْ تقدّمكم من الذين سبّزتم على مناهجهم، وما عهدكم ببعيد بمن تحققتكم كيف خلّث بهم العقوبة، وكيف أنهم ما زادتهم كثرة النصيحة إلا غلّوا في ضلالتهم، وغتّوا في جهالتهم، وكما قيل.

وكم صُغْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصّح

قوله جل ذكره: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

الاستغفار هو التوبة.

ومعنى قوله ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي توبوا ثم لا تَنْقُصُوا توبتكم؛ فهو أمرٌ باستدامة التوبة؛ فإذا لم يتصل وفاء المآل بصفاء الحال لم يحصل قَبُولٌ، وكأن لم يكن لِمَا سَلَفَ حصولٌ.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: يرحم العصاة ويودهم.

ويقال يرحمهم ولذلك يودونه؛ فالودود يكون بمعنى المودود كَحُلُوبٍ بمعنى محلوب. والرحمة تكون للعاصي لأن المطيع بوصف استحقاقه للثواب على طاعته، ثم ليس كل من يُحِبُّ السلطان في محلِّ الأكابر، فالأصاغر من الجند قد يحبون الملك، وأنشدوا:

أَلَا زُبَّ مَنْ يَدْنُو وَيَزْعَمُ أَنَّهُ يُوَدُّكَ، وَالتَّائِي أُوْدُ وَأَقْرَبُ
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَنْشُئُ مَا نَفَعَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَحَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

لاحظوا شعبياً بعين الاستصغار فخرموا فهم معاني الخطاب، وأقرؤا على أنفسهم بالجهل، وأحالوا إعفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهطه وعشيرته، فعاتبهم عليه:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَنْفَقِرَ آرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

أترون من حق رهطي^(١) ما لا تَرَوْنَ من حق ربي؛ وإن ربي يكافنكم على أعمالكم بما تستوجبون في جميع أحوالكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَنْفَقِرَ آعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِّن بَآئِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَآرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيحًا كَانَ لَوْ يَنْتَوِي فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَلَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ نُحُودٌ﴾.

أرخی لهم ستر الإمهال فلما أصرُّوا على تماديهم في الغواية حلت بهم العقوبة، وصاروا وكأن لم يكن بينهم نافخ نار، ولا في ديار الظالمين ديار، قال تعالى: ﴿فَاعْتَرِبُوا تَاوَلِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

(١) الرُّهْط: ما دون العشرة من الرجال، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته والأقربون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

كرّر قصة موسى عليه السلام تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمره، وتنبهياً على علوّ قدره عند الله وعلى مكانة الآيات التي أرسله بها، ومعجزاته الباهرة، وبراهينه القاهرة. ويقال أصعبُ عدوٌّ قَهْرُهُ أولاً نَفْسُهُ، وقد ذلّه - سبحانه - على ذلك لما قال: إلهي! كيف أطلبك؟

فقال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

فَنَبَّهَهُ إلى استصغاره لنفسه، وانكساره لله بقلبه، فزادت ضلّته لما صار معصوماً عن شهود فضل لنفسه؛ والسلطان الذي خَصَّهُ به استولى على قلوب مَنْ رآه، كما قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩] فما رآه أحدٌ إلا أَحَبَّهُ، ثم إنه لم يأخذه في الله ضعفٌ، مثلما لَطَمَ وجهَ فرعون - وهو رضيع - كما في القصة، وَلَطَمَ وجهَ مَلِكٍ الموت لما طالبه بقبض روحه. . . كما في الخبر، «وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه لما رجع من سماع الخطاب عند المعاتبة، وأقدم بالجسارة على سؤال الرؤية، وقتل القبطي لما استعان به مَنْ وافقه في العقيدة، وقال الله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] لما أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة. . . ففي جميع هذا تَجَاوَزَ اللَّهُ عنه لما أعطاه من السلطان والقوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَتَّبَعُوا آثَرَ فِرْعَوْنَ وَمَا آثَرُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي مَنَاحِلِهِمْ وَمَا يَرْشِدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ كَمَا هُمْ﴾.

رضوا بمتابعة فرعون، فاستحقوا ما استحقه. لم يشعروا بخطيئهم، وكانوا يحسبون أنهم يُخْسِنُونَ صُنْعاً. وإذا ما أوردتهم النار فهو إمامهم، وسيعلمون ما أصابهم من الخسران حين لا ينفع تضرعهم وبكاؤهم ولا ينقطع عذابهم وعناؤهم، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم - وذلك جزاء مَنْ كَفَرَ بمعبوده، وأسرف في مجاوزة حدوده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَقْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْسُ الزِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

بَعُدُوا في عاجلهم من الإيمان، وفي آجلهم من الغمران والجنان. والذي لهم في الحال من الفُرقة أعظم - في التحقيق - من الذي لهم في المآل من الحُرقة، وهذه صفة مَنْ امتحنه الله باللعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

لم يكن في جملة مَنْ قُصَّ عليه مِنَ الأنبياء - عليهم السلام - مَنْ أكثر منه تبجيلاً، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلاً، فكما تَقَدَّمَ على الأنبياء - عليهم السلام تَقَدَّمتْ أمته على الأمم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعًا﴾ [هود: ١٠١].

لا يجوز الظلم في وصفه؛ فتنصره في ملكه بحق إلهيته - مطلق؛ يحكم بحسب إرادته ومشيته، ولا يتوجه حق عليه، فكيف يجوز الظلم في وصفه؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه العذر، ولكن في صفته لا يجوز العذر إذ الخلق خلقه، والمُلكُ مُلكه، والحُكمُ حُكمه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾.

إنَّ الحقَّ - سبحانه - يمهّل ولكن لا يهمل، ويحكم ولكن لا يعجل، وهو لا يُسأل عما يفعل.

وقيل إذا أخذ النفوس بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها، وإذا أخذ القلوب بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

مشهود يشهده مَنْ خَشِيَ من جميع الخلائق في ذلك اليوم.

ويقال الأيام ثلاثة: يوم مفقود وهو أمس ليس بيدك منه شيء، ويوم مقصود وهو غد لا تدري أتدركه أم لا، ويوم مشهود وهو اليوم الذي أنت فيه؛ فالمفقود لا يرجع، والمقصود ربما لا تبلغ، والمشهود وقتك وهو معرض للزوال. فاستغله فيما ينفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ﴾.

الْأَجَلُ لا يَتَقَدَّمُ ولا يتأخر لكل (..)،^(١) والأجل على ما علمها الحق - سبحانه - وأرادها جارية؛ فلا طلب يُقَدَّمُ أو يؤخر وقتاً إذا جاء أجله، وكذلك للوصول وقت، فلا طلب مع رجاء الوصول، ولا طلب مع خوف الزوال، ولقد قيل:

عَيْبُ السَّلَامَةِ أَنْ صَاحِبَهَا مَتَوَقَّعٌ لِقَوَاصِمِ الظُّهْرِ
وَفَضِيلَةُ الْبُلُو تَرْقُبُ أَهْلِهَا عَقِبَ الْبَلَاءِ - مَسْرَةُ الدَّهْرِ

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

الشقي من قَسِم له الحرمان في حاله، والسعيد من رُزِق الإيمان في ماله.

ويقال الشقاء على قسمين: قوم شقاؤهم غير مؤبد، وقوم شقاؤهم على التأبید وكذلك القول في السعادة. الشقي مَنْ هو في أسْرِ التدبير ونسيان جريان التقدير، والسعيد مَنْ رَجَعَ من ظلمات التدبير، وحصل على وصف شهود التقدير.

ويقال الشقي من كان في رق العبودية ظاناً أنَّ منه طاعاته، والسعيد مَنْ تحرر عن رق البشرية وَعَلِمَ أن الحادثات كلها لله سبحانه.

وأما الأشقياء - على التأبید - فهم أهل الخلود في مقتضى الوعيد، والسعداء - على التأبید - من قال الله تعالى في صفتهم: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَلَدُوا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن يزيد على مُدَّة السموات والأرض.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن ينقلهم إلى نوع آخر من العذاب غير الزفير والشهيق.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أن يُدْخِلَهُم النار؛ فلا استثناء لبعض أوقاتهم من العقوبة لا قَبْلَ إدخالهم فيها ولا بعده.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شقاؤهم غير مؤبد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لهم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُوءُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَلَدُوا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾.

لهم اليوم جنات القربة، ولهم غداً جنات المثوبة. والكفار اليوم في عقوبة الفرقة، وغداً في عقوبة الحرق.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده. أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض.

وفي قوله ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُورٍ﴾ - أي عطاء غير مقطوع - دليل على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَسْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنُوصٍ﴾.

لا يريد أنه عليه السلام في شك، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مضاهين لأبائهم، كما تقول: لا شك أن هذا نهار.

ويقال الخطاب له والمراد به لأُمَّتِهِ .

﴿وَأَنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبُهُمْ﴾ : تجازيهم على الخبر بخير وعلى الشر بضر .
قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

اختلفوا في الكتاب الذي أوتي، وهو التوراة .
واختلفوا في كونه رسولاً، فَمِنْ مُصَدِّقٍ وَمِنْ مُكَذِّبٍ .
ثم أخبر أنه - سبحانه - حَكَمَ بتأخير العقوبة، ولولا حِكْمَتُهُ لعَجَّلَ لهم العقوبة .
وفائدة الآية من هذا التعريف التخفيف على المصطفى - ﷺ - فيما كان يلقاه من
قومه من التكذيب، ففي سماع قصة الأشكال - وبعضهم من بعض - سلوة، ولقد قيل :

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب
قوله جل ذكره : ﴿وَأَنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوفِّيْتَهُمْ رَبُّكَ أَفْعَلُهَا إِنَّهُمْ بِمَا يَفْعَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب، وكرّر ذلك في القرآن في كثير
من المواضع إبلاغاً في التحذير، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال معجل ومؤجل، وكلٌّ مَن أَعْرَضَ عن الغفلة وَجَنَحَ
إلى وصف التيقظ وَجَدَّ في معاملاته - عاجلاً - الربح لا الخُسران، وآجلاً الزيادة لا
النقصان، وما يجده المرء في نفسه أتم مما يدركه بعلمه بشواهد برهانه .

قوله جل ذكره : ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ﴾ .

يحتمل أن تكون السين في الاستقامة سين الطلب؛ أي سَلِّ من الله الإقامة لك
على الحق .

ويحتمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه .
وحقيقة الاستقامة على الطاعة المداومة على القيام بحَقِّها من غير إخلالٍ بها،
فلا يكون في سلوك نهج الوفاق انحراف عنه .

ويقال المستقيم مَن لا ينصرف عن طريقه، يواصل سيره بمسراه، وورعه بتقواه
ويتابع في ترك هواه .

ويقال استقامة النفوس في نفي الرُّذلة، واستقامة القلوب في نفي الغفلة، واستقامة
الأرواح بنفي العلاقة، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة .

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسهم عن العبادة وألا يُخْلُوا بأدائها، ويقضون
عسيرها ويسيرها . واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها . واستقامة

التائبين أَلَا يُلْمُوا بِعُقُوبَةِ زَلَّةٍ قَدِغَوْْنَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا... وعلى هذا النحو استقامة كُلِّ أَحَدٍ. قوله ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾: أَي قَلَيْسَتَيْمُ أَيْضاً مَنْ مَعَكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

لا تعملوا أعمالهم، ولا ترضوا بأعمالهم، ولا تمدحوهم على أعمالهم، ولا تتركوا الأمر بالمعروف لهم، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم، ولا تسكنوهم بقلوبكم، ولا تخالطوهم، ولا تعاشرهم... كل هذا يحتمله الأمر، ويدخل تحت الخطاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾.

أي استغفرني جميع الأوقات بالعبادات، فإن إخلالك لحظة من الزمان بفرض تؤديه، أو تفعل تأتية حسرة عظيمة وخسراً مبيئاً.

قوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الحسنات ما يجود بها الحق، والسيئات ما يذنبها العبد، فإذا دخلت حسنة على قبائح العبد مَحَتَهَا وَأَبْطَلَتْهَا.

ويقال حسنة القربة تذهب سيئات الزلة.

ويقال حسنة الندم تذهب سيئات الجرم.

ويقال (انسكاب) العبرة تذهب العثرة.

ويقال حسنة العرفان تذهب سيئات العصيان.

ويقال حسنة الاستغفار تذهب سيئات الإصرار.

ويقال حسنة العناية تذهب سيئات الجناية.

ويقال حسنة العفو عن الإخوان تذهب الحقد عليهم.

ويقال حسنة الكرم تذهب سيئات الخدم.

ويقال حسن الظن يذهب سواتهم بكم.

ويقال حسنة الفضل من الله تذهب سيئات حسان الطاعة من أنفسكم.

ويقال حسنة الصدق تذهب سيئات الإعجاب.

ويقال حسنة الإخلاص تذهب سيئات الرياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الصبر تجرع كاسات التقدير من غير تعيس.

ويقال الصبر حسن الإقبال على معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المحسن: العامل الذي يعلم أن الأجر على الصبر والطاعة بفضلِه - سبحانه - لا باستحقاق عمل.

قوله جل ذكره: ﴿قُلُوبًا كَانَتْ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُ عَنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

معناه لم يكن فيكم من هؤلاء الذين كانوا يتهون عن القبائح إلا قليل.
وقيل معناه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم من ينهى عن الفساد، ويحفظ الدين، ويطيعون أنبياءهم - إلا قليل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.
أي لم يهلك الله أحداً كان مصلحاً وإنما أهلك من كان ظالماً.
ويقال معناه: لو أهلك الله أهل القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظلماً من الله؛ لأن الملك ملوكه، والخلق عبيده.

ويقال «المصلح» من قام بحق ربه دون طلب حظّه.
ويقال: «المصلح» من أثر نجاته على هلاكه.
ويقال مصلحٌ تُصلح نفسه طاعته، ومصلحٌ تُصلح قلبه معرفة سيّده. ومصلحٌ تُصلح سرّه مشاهدة سيّده.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.
لو شاء لجعلهم أرباب الوفاق ثم لا يوجبون لملكه زينا، ولو شاء لجعلهم أرباب الخلاف ثم لا يوجبون لملكه شيئا.
ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه كذلك أراد بهم.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩] في سباق حكمه فعصمهم عن الخلاف في حاصل أمورهم، وأقامهم به، ونصبهم له، وأثبتهم في الوفاق والمحبة والتوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.
أي لا تبديل لقوله، ولا تحويل لحكمه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.
سكن قلبه بما قص عليه من أنباء المرسلين، وعرفه أنه لم يرق أحداً إلى المحل الذي رقاؤه إليه، ولم يُنعم على أحد بمثل ما أنعم عليه.

ويقال قص عليه قصص الجميع، ولم يذكر قصته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً.
ويقال لم يكن ثبات قلبه بما قص عليه ولكن لاستقلال قلبه بمن كان يقص عليه،

وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يَقَعَلُ بِمَا يَسْمَعُ وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَقِلُّ بِمَنْ مِنْهُ يَسْمَعُ، وَأَنشَدُوا:

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّتَنِي حَنِينًا فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ
قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ وَانظُرُوا إِنَّا
مُنظِرُونَ﴾.

إن الذين يجحدون التوحيد، ويؤثرون على الحق غير الحق، ولم يصدقوا
الوعيد، يوشك أن ينصب عليهم الانتقام فيغرقون في بحار العقوبة، ويسقطون في
وهاد الهوان، فلا لويلهم انتهاء، ولا لذلهم انقضاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

عمى عن قلوبهم العواقب، وأخفى دونهم السوابق، وألزمهم القيام بما كلفهم
في الحال، فقال: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ فإن تقسم القلب وترجم الظن وخيف سوء العاقبة..
فتوكل عليه أي استدفع البلاء عنك بحسن الظن، وجميل الأمل، ودوام الرجاء.
﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: أحاط بكل شيء علماً، وأمضى في كل أمر
حكماً.

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاسم مِنْ وَسَمَ؛ فَمَنْ وَسَمَ ظاهره بالعبودية، وسرائره بمشاهدة الربوبية فَقَدْ سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى المراتب العَلِيَّةِ، وَأَزْلَفَتْ رَبَّتَهُ من المنازل السَّنِيَّةِ.
أو أن الاسم مشتق من السُّمة أو من السمو.

وقَدَّمَ الله - سبحانه - اسمَ اللّٰهِ في هذا المحل على اسميه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم، فبرحمته الدنيوية وصل العبد إلى معرفته الإلهية.
والإشارة من الباء - التي هي حرف التضمين والإلصاق - إلى أنَّ «به» عَرَفَ مَنْ عَرَفَ، و «به» وقف مَنْ وقف؛ فالواصل إليه محمولٌ بإحسانه، والواقف دونه مربوط بخذلانه.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

التخاطبُ بالحروف المتفرقة غير المنظومة سُنةُ الأحباب في سُرِّ المحاب؛ فالقرآن - وإن كان المقصودُ منه الإيضاح والبيان - ففيه تلويح وتصريح، ومُقْصَلٌ ومُجْمَلٌ، قال قائلهم:

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلُكم مما يلي الغربَ خوفَ القيل والقال
ويقال وقفت فهوُ الخلق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه - ﷺ -
-، فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة أفرد الحبيبَ بفهمه، فهو سِرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب، يقول قائلهم:

بين المحيين سِرٌّ ليس يُفْشيه قولٌ، ولا قلم للخلق يحكيه
وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة: وهي أنَّ مَنْ كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني، ومن كان بالغية والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير؛ ذاك لكمال عقله وهذا لتمام وُضْله؛ فأنزل اللّٰهُ هذه الحروف التي لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها، ليكون للأحباب فُرْجَةٌ حينما لا يقفون على معانيها

يَعْدَمُ السَّبِيلَ إِلَيْهَا فَلَا تَتَوَجَّهْ عَلَيْهِمْ مُطَالَبَةً بِالْفَهْمِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَانْتِفَاقاً بِأَحْوَالِهِمْ إِذَا كَانُوا مُسْتَغْرِقِينَ فِي عَيْنِ الْجَمْعِ، وَلِذَا قِيلَ: اسْتِرَاحَ مِنَ الْعَقْلِ لَهُ.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خَبَرُ الوعد الذي وعدناك.

وقيل هذا تعريفنا: إليك بالتخصيص، وإفراؤنا لك بالتقريب - قد حَقَّقْنَاهُ لَكَ؛ فهذه الحروف بيانٌ للإنجاز ولتحقيق الموعود.

والإشارة من ﴿الْكِتَابِ الْأَمِينِ﴾ هنا هنا إلى حُكْمِهِ السَّابِقِ لَهُ بِأَنَّهُ يُرْقِيهِ إِلَى الرِّبَةِ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الْأَطْوَارِ إِذْ نَادَيْنَاكَ﴾ [القصص: ٤٦] أَي حِينَ كَلَّمْنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَخْبَرْنَاهُ بَعْلُو قَدْ رَكَ، وَلَمْ تَكُنْ حَاضِراً، وَأَخْبَرْنَاهُ بِأَنَّا نُبَلِّغُكَ هَذَا الْمَقَامَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ الْآنَ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَوْحِينَا إِلَيْهِ ذِكْرَنَا لَهُ قِصَّتِكَ، وَشَرَحْنَا لَهُ خِلْقَتَكَ، فَالْآنَ وَقْتُ تَحْقِيقِ مَا أَخْبَرْنَا بِهِ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

سُفِيَاً لِمَعْهَدِكَ الَّذِي لَوْلَمْ يَكُنْ مَا كَانَ قَلْبِي لِلصَّبَابَةِ مَعْهَدَا
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يَعْنِي بَعْدَ التَّوْرَةِ ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرْثُهَا عِبَادِي الْأَصْلِحُونَ﴾ يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فِي أَنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ - تَحْقِيقٌ لِأَحْكَامِ الْمَحَبَّةِ، وَتَأَكِيدُ لِأَسْبَابِ الْوَصْلَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ عَدِمَ حَقِيقَةَ الْوُصُولِ اسْتَأْنَسَ بِالرَّسُولِ، وَمَنْ بَقِيَ عَنْ شُهُودِ الْأَحْبَابِ تَسَلَّى بِوُجُودِ الْكِتَابِ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

وَكُتُبُكَ حَزْلِي لَا تُفَارِقُ مُضْجِعِي ففِيهَا شِفَاءٌ لِلَّذِي أَنَا كَاتِمٌ
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لَخْلُوهُ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الَّذِي سَمَاعُهُ يُوجِبُ اشْتَغَالَ الْقَلْبِ بِمَا هُوَ يَعْزُضُ لَوْ قَوَّعَ التَّقْصِيرِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: فِيهِ ذِكْرُ الْأَحْبَابِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لِأَنَّهُ فِيهِ عَفْوُ يُوسُفَ عَنْ جَنَائِبِ إِخْوَتِهِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لِمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ تَرْكِ يُوسُفَ لَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَإِعْرَاضِهِ عَنْهَا عِنْدَمَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَا سَأَلُوهُ أَنْ يَقْصَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ.

﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

ويقال لما أخبره الله - سبحانه - أن هذه القصة أحسن القصص وجد رسول الله - ﷺ - لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه؛ فعلم أن الله تعالى لم يرق أحداً إلى مثل ما رقاها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ﴾.

أي الذاهبين عن فهم هذه القصة. أي ما كنت إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها، أي إنك لم تصل إلى معرفتها بكذك وجهدك، ولا بطلبك وجدك.. بل هذه مواهب لا مكاسب؛ فبعطائنا وجدتها لا بعنائك، وبتفضلنا لا بتعلمك، وبتلطفنا لا بتكلفك، وبنا لا بك.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

لما ذكر يوسف - عليه السلام - رؤياه لأبيه علم يعقوب - عليه السلام - صدق تعبيرها، ولذلك كان دائم التذكر ليوسف مدة غيبته، وحين تناولت كان يذكره حتى قالوا: ﴿تَاللَّهِ تَقْصُوا تَذَكُّرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥] فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦] فهو كان على ثقة من صدق رؤياه.

فإن قيل: فإذا كان الصبي لا حُكْم لفعله فكيف يكون حكم لرؤياه؟ وما الفرق؟ فيقال: إن الفعل بتعمد يحصل فيكون معرضاً لتقصير فاعله، أما الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى نقصان.

ويقال إن حق السر ولو كان على من هو قريب منك؛ فإن يوسف لما أظهر سِرَّ رؤياه على أبيه اتصل به البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقْصُ رُبَّكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحدز؛ فإن النصيحة والحدز لا يزيدان على ما نصح يعقوب ليوسف عليهما السلام، ولكن لما سبق التقدير في أمر يوسف - عليه السلام - حصل ما حصل.

ويقال إن يوسف خالف وصية أبيه في إظهار رؤياه إذ لو لم يظهرها لما كادوا له، فلا جرم بسبب مخالفته لأبيه - وإن كان صبياً صغيراً - لم يغر من البلايا.

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويله سجود الإخوة له رأى ما تعبیره: وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾؛ فدخل الإخوة الحسد. أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لفرط شفقة الأبوة.

ويقال صَدَقَ تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال: ﴿وَحَرُّوا لِمَ سَجْدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يسجد الأب ولا خالته حيث قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] فإن يوسف صانعهما عن ذلك مراعاة لحشمة الأبوة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

أي كما أملك بهذه الرؤيا التي أراكها يجتبيك ويحسن إليك بتحقيق هذه الرؤيا، وكما أكرمك بوعده النعمة أكرمك بتحقيقها.

ويقال الاجتناء ما ليس للمخلوق فيه أثر، فما يحصل للعبد من الخيرات - لا بتكلفه ولا بتعمده - فهو قضية الاجتناء.

ويقال من الاجتناء المذكور أَنَّ عَصَمَهُ عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه.

ويقال من قضية الاجتناء إسباله السر على فعل إخوته حيث قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يذكر خلاصه من البئر ومن قضية الاجتناء توفيقه لسرعة العفو عن إخوته حيث قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

أي لتعرف قَدْرَ كُلِّ أَحَدٍ، وتقف على مقدار كل قائل بما تسمع من حديثه.. لا من قوله بل لِحَدِّ كِيَاستك وفرط فراستك.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّنَا يُعْمَلُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن إتمام النعمة صَوْنُهَا عن السلب والتغيير، ومن إتمام النعمة التَّحَرُّزُ^(١) منها حتى تَسْهَلَ عَلَيْكَ السَّامِحَةُ بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِّينَ﴾.

يعني لكل ذي مِحْنَةٍ حتى يعلم كيف يصبر، ولكل ذي نعمة حتى يعلم كيف يشكر.

ويقال في قصتهم كيفية العفو عن الزَّلَّةِ، وكيفية الخُجَلَةِ لأهل الجفاء عند اللقاء.

ويقال في قصتهم دلالات لطف الله سبحانه بأوليائه بالعصمة، وآيات على أَنَّ المحبة (...)^(٢) من المحنة.

ويقال فيها آيات على أَنَّ من صَدَقَ في رجائه يُخْتَصُّ - يوماً - ببلائه.

(٢) بياض في الأصل.

(١) تحرز منه: توقاه.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

عُرِفُوا عَلَى مَا سَتَرُوهُ مِنَ الْحَسَدِ، وَلَمْ يَحْتَالُوا فِي إِخْرَاجِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالْوَقِيعَةِ فِي أَبِيهِمْ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ويقال لما اعترضوا بقلوبهم على أبيهم في تقديم يوسف في المحبة عاقبهم بأن أمهلهم حتى بسطوا في أبيهم لسان الوقيعه فوصفوه بلفظ الضلال، وإن كان المراد منه الذهاب في حديث يوسف عليه السلام، ولما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يَرْضَ - سبحانه - حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخزوا له سُجْدًا لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْحَسَدَ لَا يَسُودُ.

ويقال أطول الناس حُزْنًا مَنْ لَاقَى النَّاسَ عَنْ مَرَارَةٍ، وَأَرَادَ تَأْخِيرَ مَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ أَوْ تَقْدِيمَ مَنْ أَخَّرَهُ اللَّهُ؛ فإخوة يوسف - عليه السلام - أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجُبِّ فرفعه الله فوق السريرا!

قوله جل ذكره: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ إِلَيْكُمْ﴾. أي يخلص لكم إقبال أبيكم عليكم، وقديماً قيل: مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ؛ فلما أرادوا أن يكون إقبال يعقوب - عليه السلام - بالكلية - عليهم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ويقال كان قَصْدُهُمْ أَلَّا يَكُونَ يُوسُفُ أَمَامَ عَيْنِهِ فَقَالُوا: إِمَّا الْقَتْلَ وَإِمَّا التَّفْيَ، وَلَا بَأْسَ بِمَا يَكُونُ بَعْدَ أَلَّا يَكُونَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾. عَجَلُوا بِالْحَرَامِ، وَعَلَقُوا التَّوْبَةَ بِالتَّسْوِيفِ وَالْعِزْمِ، فَلَمْ يَمَحْ مَا أَجَلُوا مِنَ التَّوْبَةِ مَا عَجَلُوا مِنَ الْحَوْبَةِ^(١).

ويقال لَمْ تَطِبْ نَفْسُهُمْ بِأَن يَذْهَبُوا عَنْ بَابِ اللَّهِ بِالْكَلِّيَّةِ فَدَبَّرُوا لِحُسْنِ الرُّجُوعِ قَبْلَ ارْتِكَابِ مَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ نَفْسُهُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُ يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

إخوة يوسف - وإن قابلوه بالجفاء - مَنَعَتْهُمْ شَفَقَةُ النَّسَبِ وَحُرْمَةُ الْقَرَابَةِ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِهِ؛ فَقَالُوا لَا تَقْتُلُوهُ وَغَيَّبُوا شَخْصَهُ.

(١) الحوب: الإثم والهلاك.

ويقال إنما حَمَلَهُمْ عَلَى إلقاءهم مرادهم أن يخلو لهم وجه أبيهم، فلمَّا أرادوا حصول مرادهم في تغييبه لم يبالغوا في تعذيبه.

ويقال لمَّا كان المعلوم له - سبحانه - في أمر يوسف تبليغَه إياه تلك القربة ألقى الله في قلب قائلهم حتى قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾.

ثم إنه - وإن أبله في الحال - سهَّل عليه ذلك في جنب ما رَقاه إليه في المآل، قال قائلهم:

كَمْ مَرَّةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارِهِ خَاَرَكَ اللَّهُ - وأنت كاره

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾.

كلام الحسود لا يسمع، ووعده لا يُقبل - وإن كانا في مَعْرِضِ النُّصْح؛ فَإِنَّهُ يُطْعِمُ الشَّهْدَ وَيَسْقِي الصَّابَ.

ويقال العَجَبُ من قبول يعقوب - عليه السلام - ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصير مسدودةً.

ويقال من قَبِلَ على محبوبه حديث أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ في يوسف - عليهما السلام - من بلائه.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾.

يقال أطمعوا يعقوبَ عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحة نفس في اللعب، فطابَتْ نَفْسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه - وإن كان يشقُّ عليه فراقه، ولكنَّ المحبَّ يؤثِّرُ راحة محبوبه على محبة نفسه.

ويقال ما رَكَزَ إلى قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ - أي مِنْ قَبْلِهِمْ - حتى قالوا: ﴿وَرَكَّعْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْنِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]؛ فَمَنْ أَسْلَمَ حَبِيبَهُ إِلَى أعدائه غُصَّ بتحسني بلائه.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

يَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لَأَنِّي لَا أَصْبِرُ عَنْ رُؤْيَيْهِ، وَلَا أَطِيقُ عَلَى فُرْقَتِهِ... هذا إذا كان الحال سلامته.. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟!

ويقال: لما خاف عليه من الذئب امتُحِنَ بحديث الذئب، ففي الحبر ما معناه: «إنما يُسَلِّطُ على ابن آدم ما يخافه»^(١) وكان في حقه أن يقول أخاف الله لا الذئب، وإن

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كتر العمال ٣٧٢٥٧)، وابن حجر في (لسان الميزان ١٨٣/٢).

كانت مَحَالُ الأنبياء عليهم السلام - محروسةً من الاعتراض عليها .
ويقال لَمَّا جرى على لسان يعقوب - عليه السلام - من حديث الذئب صار
كالتلقين لهم ، ولو لم يسمعه ما اهْتَدَوْا إلى الذئب .

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذَا لَخْصِرُونَ﴾ .

لَحَقَّ إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا:
﴿إِنَّا إِذَا لَخْصِرُونَ﴾: لَأَنَّ مَنْ باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيقاً بأن
يقال قد خسرت صفقته .

ويقال لَمَّا عدوا القوة في أنفسهم حين قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ خُذِلُوا حتى
فعلوا .

ويقال لَمَّا رَكَنَ يعقوبُ - عليه السلام - إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ لَقِيَ ما
لَقِيَ .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
لَتَنِتْنَهُمْ بَأْمَرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

الجوابُ فيه مُقَدَّرٌ؛ ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر
فعلوا ما عزموا عليه . أو فلَمَّا ذهبوا به وألقوه في غيابة الجُبِّ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ؛ فتكون الواو
صلة . والإشارة فيه أنه لَمْ حَلَّتْ به البلوى عَجَلْنَا له التعريف بما ذكرنا من البُشْرَى؛
ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحملٌ له من البلاء العنيف .

ويقال حين انقطعت على يوسف عليه السلام مراعاةُ أبيه حَصَلَ له الوحي مَنْ
قَبْلَ مولاه، وكذا سُنَّتُهُ تعالى أنه لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاء إلا فَتَحَ على
قلوبهم أبواب الصفاء، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ .

تمكينُ الكذاب من البكاء سِمَةٌ خذلان الله تعالى إياه، وفي الخبر: «إِذَا كَمَلَ
نفاقُ المرءِ مَلَكَ عَيْنُهُ حتى يبكي ما شاء» .

ويقال: لا يَبْعُدُ أَنْ يقال إنهم وَإِنْ جَنَوْا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على
ما فعلوا، فَعَلَّاهُمْ البكاءَ لندمهم - وَإِنْ لَمْ يُظْهَرُوا لأبيهم - وَتَقَوَّلُوا على الذئبِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَهُمْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ .

لم يُؤْثِرْ تزويرُ قَالِهِمْ في إيجاب تصديق يعقوب - عليه السلام - لكذبهم بل أخبره
قلبه أَنَّ الأمر بخلاف ما يقولونه فقال:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ .

فَعَلِمَ عَلَى الْجُمْلَةِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عَلَى التَّفْصِيلِ . . . وهكذا تفرع قلوب الصديقين عواقب الأمور على وجه الإجمال، إلى أَنْ تَتَضَحَّ لَهُمْ تَفَاصِيلُهَا فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

ويقال عوقبوا على ما فعلوه بأن أغفلوا عن تمزيق قميصه حتى علم يعقوب نَقُولُهُمْ فِيمَا وَصَفُوا .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

ليس كل من طلب شيئاً يُعْطَى مراده فقط بل ربما يُعْطَى فوق مأموله؛ كالسيارة كانوا يقنعون بوجود الماء فوجدوا يوسف عليه السلام .

ويقال ليس كل مَنْ وَجَدَ شيئاً كان كما وجده السيارة؛ توهموا أنهم وجدوا عبداً مملوكاً وكان يوسف - في الحقيقة - حُرّاً .

ويقال لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى خَلاصَ يَوْسُفَ - عليه السلام - من الجُبِّ أزعج خواطر السَّيَّارَةِ في قصد السفر، وأعدمهم الماء حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِیَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص، ولهذا قيل: أَلَا رُبُّ تَشْوِيشٍ يَقَعُ فِي الْعَالَمِ، والمقصودُ منه سكونٌ واحدٍ . كما قيل: رُبُّ سَاعٍ لَهُ قَاعِدٌ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً بِشْرَىٰ بِحَسَنٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ . لم يعرفوا خسرانهم في الحال ولكنهم وقفوا عليه في المآل .

ويقال قَدْ يَبْتَاعُ مثل يوسف عليه السلام بثمن بخس، ولكن إذا وقعت الحاجةُ إليه فعند ذلك يعلم ما يلحق من العُتْبَنِ .

ويقال: لم يحتشموا من يوسف - عليه السلام - يوم باعوه ثمنٍ بَخْسٍ، ولكن لما قال لهم: أنا يوسف - وقع عليهم الخجل، ولهذا قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء .

ويقال لَمَّا خَرُّوا لَهُ سُجْدًا عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ بَاعَ أَخَاهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ .

ويقال لَمَّا وَصَلَ النَّاسُ إِلَى رَفَقِ يَوْسُفَ عَاشُوا فِي نِعْمَتِهِ، واحتاجوا إلى أَنْ يَقْفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي مَقَامِ الذُّلِّ قَائِلِينَ ﴿مَسْنَا وَأَهْلُنَا أَلْفُ رُحْلٍ﴾ [يوسف: ٨٨]، وفي معناه أنشدوا:

سَتَسْمَعُ بِي وَتَذْكُرْنِي وَتَطْلُبْنِي فَلَا تَجِدِ

ويقال ليس الْعَجَبُ مَنْ يَبِيعُ مِثْلَ يَوْسُفَ - عليه السلام - بِثَمَنِ نَجَسٍ إِنَّمَا الْعَجَبُ مَنْ (. . .) ^(١) مِثْلَ يَوْسُفَ - عليه السلام - بِثَمَنِ بَخْسٍ، لَا سِيَّمًا ﴿وَكَانُوا

(١) بياض في الأصل .

فِيهِ مِنَ الزَّهْدِ ﴿١٠﴾ الخرق لا غاية له، وكذا العجب لا نباته له.

ويقال ليس العجب ممن يبيع يوسف - عليه السلام - بثمان بخص، إنما العجب ممن يبيع وقته الذي أعز من الكبريت الأحمر بعرض حقير من أعراض الدنيا.

ويقال إن السيارة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بدراهم، والذين وقفوا على جماله وشيء من أحواله غالوا - بمصر - في ثمنه حتى اشتروه بزنه دراهم ودنانير مرات - كما في القصة، وفي معناه أنشدوا:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مُطَّرِحًا فعند غيرك محمولٌ على الحَدَقِ^(١)
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾.

لما نودي على يوسف في مصر بالبيع لم يرض الحق - سبحانه - حتى أصابتهم الضرورة ومستهم الفاقة حتى باعوا من يوسف - عليه السلام - جميع أملاكهم، ثم باعوا كلهم منه أنفسهم - كما في القصة - وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام، فصاروا بأجمعهم عبيده، ثم إنه عليه السلام لما ملكهم من عليهم فأعتقهم؛ فليكن مر عليه بمصر يوم نودي فيه عليه بالبيع؛ فقد أصبح بمصر يوماً آخر وقد ملك جميع أملاكهم، وملك رقاب جميعهم؛ فيوم بيوم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] يومان شتان بينهما!

ثم إنه أعتقهم جميعاً... وكذا الكريم إذا قدر غفر.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

أراد من حسده ألا تكون له فضيلة على إخوته وذويه، وأراد الله أن يكون له ملك الأرض، وكان ما أراد الله لا ما أراد أعداؤه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.

أرادوا أن يكون يوسف عليه السلام في الجب، وأراد الله - سبحانه - أن يكون يوسف على سرير الملك؛ فكان ما أراد الله، والله غالب على أمره.

وأرادوا أن يكون يوسف عبداً لمن ابتاعوه من السيارة، وأراد الله أن يكون عزيز مصر - وكان ما أراد الله.

ويقال العبرة لا ترى من الحق في الحال، وإنما الاعتبار بما يظهر في سر تقديره في المآل.

(١) الحدق: (ج) الحديقة: السواد المستدير وسط العين. و (في الطب): فتحة مستديرة ضيقة وسط قرينة العين.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

من جملة الحكم الذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه حتى غلب شهوته، وامتنع عما راودته تلك المرأة عن نفسه؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره.

ويقال إنما قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حين استوى شبابه واكتملت قوته، وكان وقت استيلاء الشهوة، وتوفر دواعي مطالبات البشرية - آتاه الله الحكم الذي حبسه على الحق وصرفه عن الباطل، وعلم أن ما يعقب اتباع اللذات من هواجم الندم أشد مقاساة من كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة. . . فآثر مشقة الامتناع على لذة الاتباع. وذلك الذي أشار إليه الحق - سبحانه من جميل الجزاء الذي أعطاه هو إمداده بالتوفيق حتى استقام في التقوى والورع على سواء الطريق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: [العنكبوت: ٦٩] أي الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة لنهدينهم سبل الصبر على الاستقامة حتى تتبين لهم حقائق المواصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَاودَتْهُ الْيَتِيمَا فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

لما علقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب العصمة، فلم يضربه ما أغلق بعد إكرامه بما فُتح.

وفي التفسير أنه حفظ حُرمة الرجل الذي اشتراه، وهو العزيز.

وفي الحقيقة أشار بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ إلى ربه الحق تعالى: هو مولاي الحق تعالى، وهو الذي خلصني من الجُب، وهو الذي جعل في قلب العزيز لي محلاً كبيراً فأكرم مثواي فلا ينبغي أن أقدم على عصيانه - سبحانه - وقد غمرني بجميل إحسانه. ويقال إن يوسف عليه السلام قال لها: إن العزيز أمرني أن أنفعه. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَّا﴾ فلا أخونه في حُرْمته بظهر الغيب.

ويقال لما حفظ حُرمة المخلوق بظهر الغيب أكرمه الحق سبحانه بالإمداد بالعصمة في الحال ومكّنه من مواصلتها في المال على وجه الحلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْهَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْرَةَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه - بغير اختياره ولا بكسبه - كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف، فلم يكن «الهم» منه ولا منها زلة، وإنما الزلة من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ، فأما نفس الهم فليس مما يكسبه العبد.

ويقال اشتركا في الهم وأُفرد - يوسف عليه السلام - بإشهاد البرهان.

وفي تعيين ذلك البرهان - ما الذي كان؟ - تكلف غير محمود إذ لا سبيل إليه إلا بالخبر المقطوع به.

وفي الجملة كان البرهان تعريفاً من الحق إياه بآية من آيات صنعه، قال تعالى: ﴿سَرَّيْهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ صَرَفَ عنه السُّوءَ حتى لم يوجد منه العزم على ذلك الفعل - وإن كان منه هم - إلا أن ذلك لم يكن جُزْماً كما ذكرنا. والصَّرَفُ عن الطريق بعد حصول الهم - كشف، والسوء المصروف عنه هو العزم على الزنا والفحشاء أو نفس الزنا، وقد صرفهما الله تعالى عنه. قوله: ﴿إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِلِينَ﴾: لم تكن نجاته في خلاصه، ولكن في صرف السوء عنه واستخلاصه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾.

استبقا، هذا ليَهْرَبَ، وهذه للفعلة التي كانت تطلب.

ولم يضر يوسف - عليه السلام - أَنْ قَدَّتْ ^(١) قميصه وهو لِبَاسُ دنياه بعد ما صحَّ عليه قميصُ تقواه.

ويقال لم تَقْصِدْ قَدْ القميصَ وإنما تَعَلَّقَتْ به لِتُخَيِّسَهُ على نفسها، وكان قصدها بقاء يوسف - عليه السلام - معها، ولكن صار فعلها وبِالْأَعْلَى نَفْسِهَا، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحتها وشفاءها.

ويقال تولد انخراقُ القميص من قبضها عليه وكان في ذلك افتضاح أمرها؛ لأن قَبْضَهَا على قميصه كان مزجوراً عنه. . لِيُعْلَمَ أَنَّ الْفَاسِدَ شُجْهٌ ^(٢) فاسدٌ.

ويقال لشدة استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحال أنها تقدُّ قميصه من ورائه أو من قُدَامِهِ. . كذلك صاحبُ البلاء في الهوى مسلوبُ التمييز.

ويقال لما لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قميصه ليكون لها في إلقائها الذنب على يوسف - عليه السلام - حُجَّةٌ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ حتى صار ذلك عليها حجة، وليوسف دلالة صدق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾: لَمَّا فَتَحَا الْبَابَ وجدا سيدها لدى الباب، والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد؛ إذا خَرَجَ الْعَبْدُ عن الذي هو عليه من التكليف في الحال وقع في ضيق السؤال.

(١) انقذ الثوب: انشق.

(٢) شجه: جرح وجهه أو رأسه.

ويقال قال: ﴿وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا﴾ ولم يقل سيدهما لأن يوسف في الحقيقة كان حراً ولم يكن العزيز له سيداً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

شغلته بإغرائها إياه بيوسف عن نفسها بأن سبقت إلى هذا الكلام.

ويقال لقتته حديث السجن أو العذاب الأليم لثلاث يقصد قتله؛ ففي عين ما سعت به نظرت له وأبقت عليه.

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترض بذلك، وستزيد؛ فالعذاب الأليم يعني الضرب المبرح. . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدرج.

ويقال أوقعت السجن الذي يبقى مؤجلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل ليغلم أن السجن الطويل - وإن لم يكن فيه في الظاهر ألم - فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجع؛ لأنه - وإن اشتد فلا يقابله.

ويقال قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ فذكر الأهل ها هنا غاية تهيج الحمية وتذكير بالأنفة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَىٰ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أفصح يوسف عليه السلام بجزئها إذ ليس للفاسق حزمة يجب حفظها، فلم يبال أن هتك سترها فقال: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فلما كان يوسف صادقاً في قوله؛ ولم يكن له شاهد أنطق الله الصبي الصغير الذي لم يبلغ أو أن النطق. ولهذا قيل إذا كان العبد صادقاً في نفسه لم يبال الله أن ينطق الحجر لأجله.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَيِّمُكُمْ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ...﴾ لما اتضح الأمر واستبان الحال وظهرت براءة ساحة يوسف عليه السلام قال العزيز: ﴿إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُمْ﴾: دلت الآية على أن الزنا كان مُحَرَّمًا في شرعهم.

قوله جل ذكره: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

لم يرز أن يهتك ستر امرأته فقال ليوسف: أعرض عن هذا الحديث، ثم قال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾: دل على أنه لم يكن في شرعهم على الزنا حد - وإن كان مُحَرَّمًا حيث عدّه ذنباً.

ويقال ليس كل أحد أهلاً للبلاء؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأما

الأجانب فَيَتَجَاوَزُ عنهم وَيُخْلَى سبيلهم - لا لكرامة محلهم - ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريء الساحة، وظهرت للكل سلامته جانبه واثباته بالسجن. وامرأة العزيز في سوء فعلها حيث قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾، وقال لها: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ﴾. . . ثم لم تنزل بها شظية من البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

إن الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة إلا وأبيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النسوة فيها لسان الملامة.

ولما كانت أحسن منهن قيمة - فقد كن من جملة خدَمِها - كانت أسرع إلى الملامة.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكاً وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لِّنُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

أرادت أن يغلب عليهن استحقاق الملامة، وتنفى عن نفسها أن تكون لها أهلاً، ففعلت بهن ما عَمِلَتْ، فلما رأينه تَغَيَّرْنَ وتحَيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾: وقد كان بشراً، وقلن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: ولم يكن ملكاً.

قوله: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: أثرت رؤيتهن له فيهن ففقطعن أيديهن بدل الثمار، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تتمالكن حتى فطعنن أيديكن! فكيف أصبر وهو في منزلي؟! وفي معناه أنشدوا:

(أنت عند الخصام عدوي)^(١).

ويقال^(٢) إن امرأة العزيز كانت أتم في حديث يوسف - عليه السلام - من النسوة فأثرت رؤيته فيهن ولم تؤثر فيها، والتغير صفة أهل الابتداء في الأمر، فإذا دام المعنى زال التغير؛ قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام: هكذا كنا حتى قست القلوب. أي وقرت وصلبت. وكذا الحريق أول ما يطرح فيها الماء يُسمع له صوت فإذا تعود شرب الماء سكن فلا يُسمع له صوت.

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٧٨ - ٨٠ عند حديث القشيري عن التلوين والتمكين مركزاً على رأي الدقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

الاختبار مقرون بالاختيار؛ ولو تمنى العافية بدل ما كان يُدعى إليه لعله كان يُعافى، ولكنه لما قال: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ طُولِبَ بِصِدْقِ ما قال .
ويقال إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال: ﴿وإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فقد علم أن نجاته في أن يَصْرِفَ - سبحانه - البلاء عنه لا بتكليفه ولا بتجنّبه .

ويقال لما أثر يوسف - عليه السلام - لحوق المشقة في الله على لذة نفسه أثره غرضه حتى قيل له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

لما رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيك الإغاثة . . . كذلك ما اغبر لأحد - في الله تعالى - قَدَمٌ إِلَّا رَوْحَهُ بِكَرَمِهِ وتولاه بِنِعَمِهِ - إنه هو ﴿السَّمِيعُ﴾ لأقوال السائلين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ .

لما سَجَنَ يوسف - عليه السلام - مع ظهور براءة ساحته اتقاء على امرأته أن يَهْتَكَ سِتْرُهَا حَوْلَ اللَّهِ مُلْكَةً إِلَيْهِ، ثم في آخر الأمر حَكَمَ اللَّهُ بأن صارت امرأته بعد مقاساتها الضّر . . . وهذا جزاء مَنْ صَبَرَ .

ويقال لما ظَلِمَ يوسف عليه السلام بما نُسِبَ إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت في آخر أمرها بما كان فيه هتك سترها، فقالت: ﴿أَلَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١] .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

لصحبة السجن أثر يظهر ولو بعد حين؛ فإن يوسف عليه السلام لما قال لصاحبه اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فبقي يوسف في السجن زماناً، ثم إن خلاصه كان على لسانه حيث قال: فأرسلوا إلى يوسف وقيل له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ . . . أَفْتِنَا﴾ الآية [يوسف: ٤٦] فالصحبة تُغْطِي بَرَكَاتِهَا وإن كانت تُبْطِئُ .

قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: الشهادة بالإحسان للمحسن ذريعة، بها يتوسّل إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

التَّيَبُّتُ في الجواب دون التسرع من أمارات أهل المكارم، كيوسف عليه السلام وعدهما أن يجييهما ولم يُسرِعْ الإجابة في الوقت.

ويقال لما أَخَّرَ الإجابة عَلَّقَ قلوبهما بالوعد؛ وإذا لم يكن نَقْدُ فليكن وَعْدُ.

ويقال لما فاتحوه بسؤالهم قَدَّمَ على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد فقال: ﴿ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...﴾ ثم قال:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ولما فَرَّغَ من تفسير التوحيد، والدعاء إلى الحق سبحانه أجابهما فقال:

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَبْرَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَتَيِّئُوهُمَا أَن تَرَءَا بُنَاؤَكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكت حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود، وفي الخبر: «مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ».

قوله جل ذكره: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَبْرَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَتَيِّئُوهُمَا أَن تَرَءَا بُنَاؤَكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المال؛ واحدٌ ضَلَبَ، وواحدٌ قُرِبَ وَوُهِبَ. وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فَمِنْ مرفوع: فوق السَّمَاءِ^(١) مَطْلَعُهُ، ومن مدفون: تحت التراب مضجَعُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ وَكَرَّ رَيْبَهُ فَلَمَّتْ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

يتبين أن تعبير الرؤيا - وإن كان حقا - فهو بطريق غَلَبَةِ الظَّنِّ دون القطع.

ثم إنه عاتب يوسف عليه السلام لأنه نَسِيَ في حديثه مَنْ يستعين به حين قال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

(١) السَّمَاءُ: السماكان: نجمان نيران. يقال لأحدهما السماك الرامح وللآخر السماك الأعزل. يقال: بلغ فلان السماك؛ أي: بلغ رتبة عالية. (اللسان ١٠/٤٤٣).

ويقال إنه طَلَبَ من بَشَرٍ عَوَضاً على ما عَلَّمَهُ، وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم، عَلَّمْ مَجَاناً كما عَلَّمْتَ مَجَاناً.

ولما استعان بالمخلوق طال مُكُثُهُ في السجن، كذلك يجازي الحق - سبحانه - مَنْ يُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَنَعٌ عَبَاقُ وَسَنَعٌ سُئِلْتُ خُضِرَ وَأُخِرَ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

كان ابتداء بلاء يوسف - عليه السلام - بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَهَا وأظهرها، وكان سببُ نجاته أيضاً رؤيا رآها الملك فأظهرها، لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يفعل ما يريد؛ فكما جعل بلاءه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا؛ لِيُعْلَمَ الكافة أن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمِينَ﴾.

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير؛ فإنَّ القومَ حكموا بأن رؤياه أضغاث أحلام^(١) فلم يُضِرْهُ ذلك، ولم يؤثر في صحة تأويلها.

قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمِينَ﴾: مَنْ طَلَبَ الشيءَ مِنْ غيرِ موضِعِهِ لم يَنَلْ مطلوبه، ولم يَسْعِدْ بمقصوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾.

لَمَّا كَانَ المعلومُ لله والمحكومُ أن يوسفَ عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو مَنْ يُعَبِّرُ الرؤيا - قَبَضَ القلوبَ حتى خَفِيَ عليها تعبيرُ تلك الرؤيا، ولم يحصل للملك ثَلَجُ الصَّدْرِ إلا بتعبير يوسف، لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ - سبحانه - إذا أراد أمراً سهَّلَ أسبابه.

ويقال: إن الله تعالى أفرَدَ يوسفَ عليه السلام من بين أشكاله بشيئين: بخُشْنِ الخَلْقَةِ وبزيادة العلم؛ فكان جماله سببَ بلاءه، وصار علمه سببَ نجاته، لَتُعْلَمَ مزية العلم على غيره، لهذا قيل: العلم يُعْطِي وإن كان يُبْطِي.

ويقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلم بالمولى أولى أن يوجب العقبى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ رَأَيْتَ نِعْمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَنَعٌ سَيْنٍ دَابَا مَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّوهُ فِي سُُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾^(٢).

(١) أضغاث أحلام: الرؤيا التي لا يصح تأويلها لاختلاطها. (اللسان ١٦٣/٢).

(٢) الآية (٤٦) لم ترد.

لم يقدم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى، لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الأولى. فإما أنه قد قُبِلَ في المرة الثانية، وإما أنه لم يقبل فَيَبَسَ منه فأهمله.

وصاحب الرؤيا الثانية كانت المَلِكُ وكان غائباً، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في المشاهدة دون المغاية.

ويقال يحتمل أن يكون قد تفرّس في القَتَيان قبول التوحيد فإن الشباب أَلِينُ قلوباً، أمّا في هذا الموضع فقد كان المَلِكُ أصْلَبَ قلوباً وأفظَ جانبياً؛ فلذلك لم يذَّعه إلى التوحيد لِمَا تفرّس فيه من الغِلظة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهَذَا وَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْأَنْسُوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾^(١).

أراد عليه السلام ألا يلاحظه المَلِكُ بعين الخيانة فيُسْقِطَهُ عِيَهُ من قلبه؛ فلا يؤثر فيه قوله، فلذلك ثَوَّقَ حتى يَظْهَرَ أمرُهُ للمَلِكِ وتنكشف براءةُ ساحته.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدُّكُمْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

الحقائق لا تنكتم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبِينَ . . ولو بعد حين .
نُسِبَ يوسفُ إلى ما كان منه بريئاً، وأُنْبِ على ذلك مدة، وكان أمرُهُ في ذلك خَفِيّاً. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ورفع عنه المَظَنَّةَ، وأنطق عِذَالَهُ، وأظهر حالَهُ، عما فرق به سرباله^(٢)؛ فَقُلْنَ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُنَادِقِينَ﴾.

لَمَّا كانت امرأة العزيز غيرَ تَامَةٍ في محبة يوسف تركت ذنبَهَا عليه وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب. ثم لَمَّا تناهت في محبته أَقْرَت بالذنبِ على نفسها فقالت: ﴿الْفَنَ حَصَصَ الْحَقُّ . . .﴾ فالتناهي في الحب يوجب هتكَ الستر، وقلة المبالاة بظهور الأمر^(٣) والسُر، وقيل:

لِيُقْلَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ فَلِإِنِّي لَا أَبَالِي

(١) الآيتان (٤٨ - ٤٩) لم تردا.

(٢) السربال: ما يُلبس من قميص أو درع (ج) سراويل.

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١٧ - ٣٢٩ عند حديث القشيري عن المحبة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ﴾.

إنما أراد الله أن يظهر براءة ساحة يوسف، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح، ولم يرد يوسف أن يصيهم بسببه - من قبل الله - عذاب شفقة منه عليهم، وهذه صفة الأولياء: أن يكونوا خضعت أنفسهم، ولهذا قيل: الصوفي دمه هدر وملكه مباح^(١) - ولذلك قال:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لما تمدح بقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ كأنه نوذي في سره: ولا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾.

ويقال: قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بيان الشكر على ما عصمه الله، وقوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ بيان العذر لما قصر في أمر الله، فاستوجب شكره زيادة الإحسان، واستحق بعذره العفو.

والعفو باد من قوله:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهَذَا اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

لما اتضحت للملك طهارة فعله ونزاهة حاله استحضره لاستصفائه لنفسه، فلما كلمه وسمع بيانه رفع محله ومكانه، وضمنه بره وإحسانه، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

إنما سأل ذلك ليضع الحق موضعه، وليصل نصيب الفقراء إليهم، فطلب حق الله تعالى في ذلك، ولم يطلب نصيباً لنفسه.

ويقال لم يقل إني حسن جميل بل قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي كاتب حاسب، ليعلم أن الفضل في المعاني لا في الصورة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لما لم تكن له دواعي الشهوات من نفسه مكته الله من ملكه - قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ [الشورى: ٦٣] - فقال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ثم أخبر عن حقيقة التوحيد، وبين أنه إنما يوفي عباده من الطافه بفضله لا

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٨١ فهذا تعريف سهل بن عبد الله للصوفي.

بفعلهم، وبرحمته لا يخدمتهم؛ فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتَا مَنْ نَشَاءُ﴾ ثم يرقى همهم عما أولاهم من النعم فقال:

﴿وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾.

ليُعلم أنه لا بُدَّ من التقوى ومخالفة الهوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

عرّف يوسف - عليه السلام - إخوته وأنكروه، لأنهم اعتقدوا أنه في رِقِّ العبودية لما باعوه، بينما يوسف - في ذلك الوقت - كان قاعداً بمكان الملك. فَمَنْ طلب الملك في صفة العبيد متى يعرفه؟

وكذلك مَنْ يعتقد في صفات المعبود ما هو مِنْ صفات الخلق... متى يكون عارفاً؟ هيهات هيهات لما يحسبون!

ويقال لما أخفوه صار خفاؤه حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك العاصي.. بخطاياهم وزلاته تقع غبرة على وجه معرفته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَجْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْتُمْ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

المحبّ غيور؛ فلما كان يعقوب عليه السلام قد تسلى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب^(١).

ويقال تلطف يوسف في استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب، وأما الترغيب ففي ماله الذي أوصله إليهم وهو يقول: ﴿أَلَا تَرَوْتُمْ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ﴾ وفي إقباله عليهم وفي إكرامهم لهم وهو يقول: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

وأما الترهيب فبمنع المال وهو يقول:

﴿فَإِنْ لَرَأْتُمْ أَنِّي أَتَاؤُنِي بِمَاءٍ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾.

أي فإن لم تؤمنوني عليه فلا كيل لكم عندي، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا سَوْرِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعْلُونَ﴾.

لما علم يوسف من حالهم أنهم باعوه بشمّ بخس علم أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً في إيفاء الكيل، فلن يضعب عليهم الإتيان به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ لِفَتَاهِهِ أَجْعَلُوا يَصْنَعْتُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٢٥٤ - ٢٥٩ حديث القشيري عن الغيرة.

جَعَلُ بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ - فِي بَابِ الْكَرَمِ - أَتَمُّ مِنْ أَنْ لَوْ وَهَبَهَا لَهُمْ جَهْرًا؛
لأنه يكون حينئذ فيه تقليد منه بالمواجهة، وفي تمليكها لهم بإشارة تجرُّدٌ مِنْ تَكْلُفٍ
تقليد منه بالمحاضرة.

ويقال عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ مَالَ الْغَيْرِ قَدَسَ بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لكن إذا
رَأَوْهَا قَالُوا: هَذَا وَقَعَ فِي رِحَالِنَا مِنْهُمْ بِعَلَطٍ، فالواجب علينا ردُّها عليهم. وكانوا
يرجعون بسبب ذلك شاءوا أم أبوا.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مِثْلَ مَا الْكَذِبُ فَارْسِلْ مَعَنَا
أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾.

لم يمنع يوسفُ منهم الكيلَ، وكيف مَنَعَ وقد قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ؟﴾
ولكنهم تجاوزوا في ذلك تفخيماً للأمر حتى تسمح نفسُ يعقوب عليه السلام
بإرسال بنيامين معهم.

ويقال أرادوا بقولهم: ﴿مِثْلَ مَا الْكَذِبُ﴾ في المستقبل إذا لم تجمله إليه.
ويقال إنهم تَلَطَّفُوا في القول ليعقوب - عليه السلام - حيث قالوا: ﴿أَخَانَا﴾
إظهاراً لشفتهم عليه، ثم أَكْدُوا ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾.
مَنْ عَرَفَ الْخِيَانَةَ لَا يَلَاظِ الْأَمَانَةَ، ولذا لم تَسْكُنْ نَفْسُ يَعْقُوبَ بِضَمَانِهِمْ لِمَا
سَبَقَ إِلَيْهِ مِنْ شَأْنِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾: يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيءٌ مِنْ قِبَلِهِمْ.
ولم يقل يعقوب فالله خيرٌ مَنْ يَرُدُّهُ إِلَيَّ، ولو قال ذلك لعلَّه كان يرده إليه
سريعاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا
بَنَيْ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ
يَسِيرٍ﴾.

بَيَّنْ يَوْسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ حِينَ عَامَلَهُمْ لَمْ يَخْتِجْ إِلَىٰ عَوَضٍ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ،
فَلَمَّا بَاعَهُمْ وَجَمَعَ لَهُمُ الْكَيْلَ مَا أَخَذَ مِنْهُمْ ثَمَنًا، وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿إِنْ أَحْسَنْتَ أَحْسَنْتَ لَهُمْ وَإِنْ أَفْسَحْتَ أَفْسَحْتَ لَهُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

وَكُلُّ مَنْ خَطَا لِلدِّينِ خَطْوَةً كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَازَاهُ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ رَوْحِ الطَّاعَةِ
وَلَذَّةِ الْعِيشِ مِنْ حَيْثُ الْخِدْمَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِوَدٍّ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

إِنَّ الْحَذَرَ لَا يُغْنَى مِنَ الْقَدَرِ. وقد عَمِلَ يعقوب - عليه السلام - معهم في باب بنيامين ما أمكنه من الاحتياط، وأخذ الميثاق ولكن لم يُغْنِ عنه اجتهاده، وَحَصَلَ ما حكم به الله.

قوله جل ذكره: ﴿يَنْبَغِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعل واحداً منهم يقع بصره على يوسف، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر.

ويقال ظنَّ يعقوب أنهم في أمر يوسف كانوا في شدة العناية بشأنيه، ولم يعلم أنهم كارهون لمكانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إن لم يحصل مقصود يعقوب عليه السلام في المال حصل مراده في الحال، وفي ذلك القدر لأرباب القلوب استقلال.

ويقال على الأصغر حفظ إشارات الأكابر، والقول فيما يأمر به هل فيه فائدة أم لا - تَرْكُ للدُّب.

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يشير على أولاده ويتمنى به حصول مراده..

ثم لا يحصل مراده عليم أنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ في الشيوخ أن جميع ما يريدون يتفق كونه على ما أرادوا؛ لأنَّ الذي لا يكون إلا ما يريده واجباً وما أراداه فهو كائن.. هو الله الواحد القهار.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

حديث المحبة وأحكامها أقسام: اشتاق يعقوب إلى لقاء يوسف عليهما السلام فَبَقِيَ سنين كثيرة، واشتاق يوسف إلى بنيامين فَرَزَقَ رؤيته في أَوْجَزِ مدة. وَهَكَذَا الأمر؛ فمنهم موقوف به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال لئن سَخِنْتَ^(١) عين يعقوب عليه السلام بمفارقة بنيامين فلقد قَرَّتْ عَيْنُ يوسفَ بلفائه . كذا الأمر : لا تَغْرُبْ الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .
قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ .

احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعدما التقى مع يوسف .
ويقال : ما نُسِبَ إليه من سوء الفعل هان عليه في جنب ما وجد من الوصال .
ويقال لئن نَسَبَ أخاه للسرقة تعرّف إليه بقوله : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ - سِرّاً ، فكان مُتَحَمِّلاً لأعباء الملامة في ظاهره ، محمولاً بوجدان الكرامة في سِرِّه ، وفي معناه أنشدوا :

أَجِدُ الملامةَ في هواك لذيذةً حُبّاً لذكرك فَلْيَلْمُنِي اللُّومُ
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾^(٢) .

يعني حُسْنُ سيرتنا في سير المعاملة يدلکم على حسن سيرتنا في الحالة .
ويقال لو كُنَّا نسرق متاعكم لما رددناه عليكم وَلَمَّا وجدتموه في رحالنا بعد أن غَبَنَّا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .
تَجَاسَرَ إخوة يوسف بجريان جزاء السرقة عليهم ثقة بأنفسهم أنهم لم يباشروا الزُّلَّةَ ، وكان بنيامين شريكهم في براءة السَّاحَةِ ، فلما اسْتُخْرِجَ الصَّاعُ مِنْ وعائه بَسَطَ الإخوةُ فيه لسان الملامة ، وبقي بنيامين فلم يكن له جوابٌ كَأَنَّهُ أَقَرَّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يَسْرِقْ ، ولو قال : لم أَفْعَلْ لأفشى سِرَّ يوسف عليه السلام الذي احتال معهم ذلك لأجله حتى يَبْقِيَه معه ، فَسَكَتَ لسان بنيامين ، وتحقَّق بالحالِ قَلْبُهُ .
ويقال لم يستصعب الملامة - وإن كان بريئاً - مما قُرِنَ به ، ولا يَضُرُّ سوء المقالة بالمكاشفين بعد حُسْنِ الحالةِ مع الأحباب .

ويقال سيئ بما أَظْهَرَتْ عليه المقالة ، ولكن حَصَلَ له بذلك صفاء الحالة .
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾^(٣) .

(١) سخنت العين سخناً : لم تفرّ ، فهي سخيّة .

(٢) الآيتان (٧١ - ٧٢) لم تردا . (٣) الآيتان (٧٥ ، ٧٦) لم تردا .

كان بنيامينُ بُرِيئاً مما رُمِيَ به من السرقة، فأنطقهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه السلام بالسرقة، واحدٌ بواحد ليغْلَمَ العالمون أنَّ الجزاء واجبٌ.

ويقال كان القَرْحُ بالقَدَحِ^(١) أوجَعَ ما سَمِعَهُ يوسف منهم حيث قالوا:
﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلٍ﴾ فقد كان ذلك أشدَّ تأثيراً في قلبه من الجفاء الأول.

ويقال إذا حَقَقَ عليك المَلِكُ فلا تأمَنَ غِبَّهُ - وإن طالت المدة - فإن يوسف عليه السلام حَقَقَ عليهم فلقوا في المستأنف منه ما ساءَهم مِنْ حَبْسِ أخيه، وما صاحبهم من الحَجَل من أبيهم.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَكْفَىٰ عَذَابَ الْعَزِيزِ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لم تنفعهم كثرةُ التَّنْصُلِ^(٢)، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاءَ التوسُّلِ، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عَرَضُوا عليه أن يأخذَ أحدهم في البَدَلِ. . . كذلك فكلُّ مُطَالِبٍ بفعل نفسه: ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ٦٤]؛ فلا الأبُ يُؤْخَذُ بِدَلِّ الولد، ولا القريبُ يُرَضَى به عوضاً عن أحد؛ لذلك قال يوسف عليه السلام:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُمْ﴾ توهوا أن الحديث معهم من حيث معاملة الأموال، فَعَرَضُوا أنفسهم كي يؤخَذَ واحدٌ منهم بِدَلِّ أخيه، ولم يعلموا أن يوسف عليه السلام كادهم في ذلك، وأنَّ مقصوده من ذلك ما استَكْرَأَ في قلبه مِنْ حُبِّ لأخيه، وكلاً. . . أن يكونَ عن المحبوبِ بِدَلٌّ أو لقوم مقامُ أحدٍ. . . وفي معناه أنشدوا:

إذا أَوْصَلْتَنَا الْخُلْدَ كَيْمَا تُدَيِّقُنَا أَبِينَا وَقُلْنَا: أَنْتَ أَوْلَى الْقَلْبِ
وقيل:

أَحِبُّ لَيْلَى وَبُغِضَتْ إِلَيَّ نِسَاءً مَا لَهُنَّ دُئُوبُ
قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

لما عَلِمُوا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضهم ببعض

(١) القَرْحُ: الجُرْح (ج) قروح. القَدَحُ: الطعن والذم.

(٢) تنصل فلان من ذنبه: تبرأ.

فعملت فيهم الخجلة، وعلموا أن يعقوب في هذه الكثرة يتجدد له مثلما أسلفوه من تلك الفعلة، فلم يرجع، أكبرهم إلى أبيهم، وتناهى إلى يعقوب خبرهم، فاتهمهم وما صدقهم، واستخونهم وما استوثقهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

كان لهم في هذه الكثرة حجة على ما قالوه، ولكن لم يسكن قلب يعقوب عليه السلام إليها، فإنَّ تعيين الجرم في المرة الأولى أوجب التهمة في الكثرة الأخرى.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. ما ازدادوا إقامة حجة إلا ازداد يعقوب - عليه السلام - في قولهم شبهة. ويقال: في مسألة الأطلال أخذ لقلوب الأحباب، وسلوة لأسرارهم.. وهذا الباب مما للشرح فيه مجال.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

لجأ إلى قُرْبٍ خلاصه من الضر بالصبر.

ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يمس حتى قال: ﴿يَتَأَسَّى عَلَىٰ يَوْسُفَ﴾ لِيُغْلَمَ أَنَّ عَزْمَ الأحباب على الصبر منقوض غير محفوظ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأَسَّى عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَاطِمٌ﴾.

تولَّى عن الجميع - وإن كانوا أولاده - لِيُغْلَمَ أَنَّ المحبة لا تبقى ولا تذر.

ويقال أراد إخوة يوسف أن يكون إقبال يعقوب عليهم بالكلية فأغرض، وتولَّى عنهم، وفاتَّهم ما كان لهم، ولهذا قيل: مَنْ طَلَبَ الْكُلَّ فَاتَهُ الْكُلُّ.

(١) قال القشيري في رسالته موضحاً هذا المعنى: واعلم أن الصبر على ضربين: صبر العابدين وصبر المحبين فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً، وفي هذا المعنى أنشدوا:

تَبَيَّنَ يَوْمَ الْبَيِّنِ أَنَّ اعْتِزَامَهُ عَلَى الصَّبْرِ مِنْ إِحْدَى الظُّنُونِ الْكُؤَادِبِ
وفي هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعد الصبر في نفسه، فقال: (فصبر جميل) أي فشاني صبر جميل، ثم لم يمس حتى قال: (يا أسفاً على يوسف). (الرسالة القشيرية ص ١٨٨ - ١٨٩).

ويقال لم يَجِدْ يعقوبُ مُسَاعِدًا لِنَفْسِهِ على تأسفه على يوسف فتولَّى عن الجميع، وانفرد بإظهار، أسفه، وفي معناه أنشدوا:

فريدٌ عن الخِلَانِ في كل بلدةٍ إذا عَظَمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثرَ من بكاء يعقوب عليه السلام، فلم يذهب بَصَرُ داود وذهب بَصَرُ يعقوب؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأجل يوسف ولم يكن في قَدْرَةِ يوسف أن يحفظَ بصره من البكاء لأجله، وأمَّا داود فقد كان يبكي الله، وفي قَدْرَةِ الله - سبحانه - ما يحفظ بَصَرُ الباكي لأجله.

سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله - يقول ذلك، وقال رحمه الله: إن يعقوب بكى لأجل مخلوقٍ فذهب بَصَرُهُ، وداود بكى لأجل الله فبقي بَصَرُهُ.

وسمعتُه - رحمه الله - يقول: لم يقل الله: «عَمِيَ يعقوب» ولكن قال: ﴿وَأَيُّضْتُ عَيْنَاهُ﴾، لأنه لم يكن في الحقيقة عَمَى، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف.

ويقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف، لأنه لا شيء أشدَّ على الأحبابِ من رؤية غير المحبوب في حال فراقه، وفي معناه أنشدوا:

لما تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فلم أنظر إلى أحد

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف، فلما بقي عن رؤيته قال: ﴿يَتَأَسَّفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ أي أنه لما مُنِعَ من النظر كان يتسلَّى بالأثر، فلما بقي عن النظر قال: يا أسفا على يوسف.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنُوا نَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

هددوه بأن يصير حرضاً - أي مريضاً مشفياً على الهلاك - وقد كان، وخوفوه مما لم يبال أن يصيبه حيث قالوا ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

ويقال أطيب الأشياء في الهلاك ما كان في حكم الهوى - فكيف يُخَوِّفُ بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك؟.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

شكا إلى الله ولم يَشْكُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ شكا إلى الله وَصَلَ، وَمَنْ شكا من الله انفصل.

ويقال لما شكَا إلى الله وَجَدَ الْخَلْفَ من الله .

ويقال كان يعقوب - عليه السلام - مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه، ومستريحاً محمولاً بِسِرِّهِ وروحه؛ لأنه عَلِمَ من الله - سبحانه - صِدْقَ حَالِهِ فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي معناه أنشدوا:

إذا ما تَمَنَّى النَّاسُ رَوْحاً وَرَاحَةً تَمَنَّى أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَتَسْمَعَا
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

كان يعقوب عليه السلام يبعث بنيه في طلب يوسف، وكان الإخوة يخرجون بطلب المسيرة وفي اعتقادهم هلاك يوسف . . وكلُّ إنسانٍ وهمه .

ويقال قوله ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسهم؛ بِالْبَصَرِ لَعَلَّهُمْ تَقَعُ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ، وَبِالسَّمْعِ لَعَلَّهُمْ يَسْمَعُونَ ذِكْرَهُ، وَبِالشَّمِّ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ رِيحَهُ؛ وقد تَوَهَّمُ يعقوب أنهم مثله في إِرَادَةِ الْوُقُوفِ عَلَى شَأْنِهِ. ثم أحالهم على فضل الله حيث قال: ﴿لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

ويقال لم يكن ليعقوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف، فَظَهَرَ مِنْ قِلَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ ما ظهر، وَآثَرَ غِيَّةَ الْبَاقِينَ مِنَ الْأَوْلَادِ فِي طَلَبِ يَوْسُفَ عَلَى حُضُورِهِمْ عِنْدَهُ . . فَشَتَّانَ بَيْنَ حَالِهِ مَعَهُمْ وَبَيْنَ حَالِهِ مَعَ يَوْسُفَ! واحدٌ لم يَرَهُ فَابْتِئِضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ بِفِرْقَتِهِ، وَآخَرُونَ أَمْرُهُمْ - باختياره - بِغَيْبَتِهِمْ عَنْهُ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزَيَّنَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُصْذِقِينَ﴾ .

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضُّرِّ، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وَجَّهَهُمْ أبوهم .

ويقال استلطفوه بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم .

ويقال لما طالعوا فقرهم نظفوا بقدرهم فقالوا: وجئنا ببضاعة مزجاة - أي رديئة - ولما شاهدوا قدر يوسف سألوا على قدره فقالوا: ﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ﴾ .

ويقال قالوا كلنا كيلاً يليق بفضلك لا بفقركنا، وبكرمك لا بعدمتنا، ثم تركوا هذا اللسان وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾: نَزَّلُوا أَوْضَعَ مَنَزِلٍ؛ كأنهم قالوا: إن لم نستوجب معاملة البيع والشراء فقد استحققنا بَذْلَ الْعَطَاءِ، على وجه المكافأة والجزاء .

فإن قيل كيف قالوا وتصدق علينا وكانوا أنبياء - والأنبياء لا تحل لهم الصدقة؟

فيقال لم يكونوا بعد أنبياء، أو لعلّه في شرعهم كانت الصدقة غير مُحَرَّمَةٍ على الأنبياء.

ويقال إنما أرادوا أن من وراثنا من تحل له الصدقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

افتضحوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فعرفهم فعلمهم ووقفهم عند أحدهم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعني إن من عامِل يوسف وأخاه بمثل معاملتكم فلا ينبغي له أن يتجاسر في الخطاب كتجاسركم.

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لهم: أنهيتكم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم.. أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك في باب العتاب أعظم من كل عقوبة.

ولما أخرجهم حديث العتاب لم يرض يوسف حتى بسط عندهم فقال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا أَوَإِنَّمَا أَنْتَ تُؤسُّفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب: «يا أيها العزيز» فلما عرفوه قالوا: ﴿أَوَإِنَّمَا أَنْتَ يُوسُفُ﴾؛ لأنه لما ارتفعت الأجنبية سقط التكلف في المخاطبة، وفي معناه أنشدوا:

إِذَا صَفَّتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ ودام ودادهم قُبْحَ الشَّنَاءِ

ويقال إن التفاضل والتفارق بين يوسف وإخوته سبقا التواصل بينه وبين يعقوب عليهما السلام؛ فالإخوة خبره عرفوه قبل أن عرّفه أبوه ليعلم أن الحديث بلا شك.

ويقال لم يتقدموا على أبيهم في استحقاق الخبر عن يوسف ومعرفته، بل إنهم - وإن عرفوه - فلم يلاحظوه بعين المحبة والخلة، وإنما كان غرضهم حديث الميرة والطعام فقط، فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾: يعني إني لأخٍ لِمِثْلِ هذا لمثلكم؛ ولذا قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾، ولم يقل وأنتم إختوتي، كأنه أشار إلى طرف من العتاب، يعني ليس ما عاملتموني به فَعَلَ الإخوة.

ويقال هَوَّنَ عليهم حالَ بَدَاهَةِ^(٢) الخجلة حيث قال ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ بقوله:

(١) هنا القشيري يطبق فكرة القبض والبسط (انظر الرسالة القشيرية ص ٥٨ - ٦٠).

(٢) البداة: ما يفجأ من الأمر.

﴿وَهَذَا أَخِي﴾، وكأنه شغلهم بقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَّى﴾ [طه: ١٧] إنه سبحانه شغل موسى عليه السلام باستماع: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَّى﴾ [طه: ١٧] بمطالعة العصا في عين ما كوشف به من قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤].

ثم اعترف بوجدان الجزاء على الصبر في مقاساة الجهد والعناء فقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله - يقول لما قال يوسف: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أحال في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر... فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني ليس بصبرك يا يوسف ولا بتقواك، وإنما هو بإيثار الله إياك علينا؛ فيه تقدمت علينا بحمدك وتقواك. فقال يوسف - على جهة الانقياد للحق: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ﴾؛ فأسقط عنهم اللوم، لأنه لما لم ير تقواه من نفسه حيث نبهوه عليه نطق عن التوحيد، وأخبر عن شهود التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

اعترفوا بالفضل ليوسف - عليه السلام - حيث قالوا: لقد آثرك الله علينا، وأكدوا إقرارهم بالقسم بقوله ﴿تَاللَّهِ﴾ وذلك بعد ما جحدوا فضله بقولهم: ﴿لِيُؤْسَفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِمَّا وَفَعْنَا غُصْبَةً إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد، ومن شهد فما جحد.

ويقال لما اعترفوا بفضله وأقرؤا بما اتصفوا به من جزيهم بقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وجدوا التجاوز عنهم حين قال يوسف:

﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أسرع يوسف في التجاوز عنهم، ووعد يعقوب لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ لأنه كان أشد حبا لهم فعاتبهم، وأما يوسف فلم يرههم أهلا للعتاب فتجاوز عنهم على الوهلة، وفي معناه أنشدوا:

ترك العتاب إذا استحق أخ منك العتاب ذريعة الهجر

ويقال أصابهم - في الحال - من الخجلة مقام كل عقوبة، ولهذا قيل:

كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء.

قوله جل ذكره: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ إِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأُنُوفٍ بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

البلاء إذا هَجَمَ هَجَمَ مَرَّةً، وإذا زال بالتدريج؛ حلَّ البلاء يعقوب مرةً واحدةً حيث قالوا: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنَبُ﴾ ولما زال البلاء.. فأولاً وَجَدَ رِيحَ يوسُفَ عليه السلام، ثم قميص يوسف، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف، ثم رؤية يوسف. ويقال لما كان سببُ البلاء والعمى قميص يوسف أراد الله أن يكونَ به سببُ الخلاص من البلاء.

ويقال علمَ أن يعقوب عليه السلام - لِمَا يلحقه من فَرْطِ السرور - لا يطيقه عند أخذ القميص فقال: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾. ويقال القميص لا يصلح إلا للباس إلا قميص الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجدان ريح الأحباب. ويقال كان العمى في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجد الشفاء من العمى.

ويقال لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين التي في الوجه، وفي معناه أنشدوا:

وما بات مطوياً على أريحية عُقَيْبِ الثَّوَى إِلَّا فَتَى ظِلٌّ مَغْرَمَا
وقوله ﴿وَأَتَوْفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: لما عَلِمَ حزنَ جميعِ الأهلِ عليه أراد أن يشترك في الفرح جميعُ من أصابهم الحزن.

ويقال عَلِمَ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيق على القيام بكفاية أمور يوسف فاستحضره، إبقاءً على حاله لا إخلالاً لِقَدْرِهِ وما وَجَبَ عليه من إجلاله. قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. ما دام البلاء مُقْبِلاً كان أمرُ يوسفَ وحديثه - على يعقوب - مُشْكِلاً، فلما زالت المحنة بعثت بكل وجه حاله.

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في الجُبِّ ولكن اشتبه عنيهِ خَبْرُهُ وحالُهُ، فلما زال البلاء وَجَدَ رِيحَهُ وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً - من مصر إلى كنعان.

ويقال إنما انفرد يعقوبُ عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفراذه بالأسف عند فقدان يوسف. وإنما يجد ريح يوسف مَنْ وَجَدَ على فراق يوسف؛ فلا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، وأما على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِلٌ.. إذ أنى يكون للإنسان ريح؟!.

ويقال لفظ الريح ها هنا توسع، فيقال هبَّتْ رياحُ فلانٍ، ويقال إني لأجدُ ريح الفتنة.. وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفِيدُون﴾.

تَفَرَّسَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَبْسُطُونَ لِسَانَ الْمَلَامَةِ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِمْ قَوْلُهُ، فزادوا في الملامة فقالوا: -

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾.

قرنوا كلامهم بالشتم، ولم يحتشموا أباهم، ولم يُراعوا حَقَّهُ في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرَّف من الريح نسيم يوسف عليه السلام، وخبر يوسف كثير حتى جاء الإذن للرياح، وهذه سُنةُ الأحباب: مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال وفي معناه أنشدوا:

وَإِنِّي لَأَسْتَهْدِي الرِّيحَ نَسِيمَكُمْ إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ نَحْوَكُمْ بِهُبُوبٍ
وَاسْأَلَهَا حَمْلَ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ فَإِنَّ هِيَ يَوْمًا بَلَّغَتْ فَأَجِيبُوا
قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لو أَلْقَى قَمِيصُ يَوْسُفَ عَلَى وَجْهِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعَمِيَانِ لَمْ يَرْتَدَّ بَصَرُهُمْ، وإنما رجع بصرُ يعقوب بقميص يوسف على الخصوص؛ فَإِنَّ بَصَرَ يَعْقُوبَ ذَهَبَ لفراق يوسف، وَلَمَّا جَاءُوا بِقَمِيصِهِ أَتَقَطَّقَ لِسَانُهُ، وَأَوْضَحَ بَرَاهَانَهُ، فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عن حياة يوسف، وفي معناه أنشدوا:

وَجْهُكَ الْمَأْمُولُ حُجَّتُنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحَجَجِ
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

كُلُّ إِنْسَانٍ وَهْمُهُ؛ وَقَعَ يَعْقُوبُ وَيَوْسُفُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي السَّرُورِ وَالِاسْتِبْشَارِ، وَأَخَذَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ فِي الْإِعْتَذَارِ وَطَلَبَ الْإِسْتِغْفَارَ.

ويقال إخوة يوسف - وَإِنْ سَلَفَتْ مِنْهُمْ الْجَفْوَةُ كَلَّمُوا أَبَاهُمْ بِلِسَانِ الْإِنْسِاطِ لتقديم شفقة الأبوة على ما سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ.

ويقال يومَ بيوم؛ اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبة يوسف فلا جَرَمَ اليوم كان يعقوب مسروراً بقميص يوسف، وكان الأخوة في الحُجَلَةِ مما عملوا بيوسف.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وَعَدَهُمُ الْإِسْتِغْفَارَ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْرَغْ مِنْ اسْتِبْشَارِهِ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ.

ويقال لم يُجِبْهُمْ عَلَى الْوَهْلَةِ لِيَدْلَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ سُوءِ الْفَعْلَةِ؛ لِأَنَّ يَوْسُفَ

كان غائباً وقتل، فزعمهم الاستغفار في المستأنف - إذا رضي عنهم يوسف حيث كان الحق أكثره له، ولو كان كله ليعقوب لوهمهم على الفور.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء فانفرد الأبوان به ليغديهما عن الجفاء، كذلك غداً، إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون في وجود الجنان، ولكنهم يتباينون في بساط القرية فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ﴾.

أوقف كلاً بمحله؛ فرفع أبويه على السرير، وترك الإخوة نازلين بأماكنهم. قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾: كان ذلك سجود تحية، فكذلك كانت عادتهم. ودخل الأبوان في السجود - في حق الظاهر - لأن قوله ﴿وَخَرُّوا﴾ إخبار عن الجميع، ولأنه كان عن رؤياه قد قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال ها هنا: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

شهد إحسانه فشكره.. كذلك من شهد النعمة شكر، ومن شهد المنعم حمده.

وذكر حديث السجن - دون البئر - لطول مدة السجن وقلة مدة البئر.

وقيل لأن فيه تذكيراً بجُرم الإخوة وكانوا يخلجون. وقيل لأن ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾. وقيل لأن كان في البئر مرفوقاً به والمبتدئ يرفق به وفي السجن فقد ذلك الرفق لقوة حاله؛ فالضعيف مرفوق به والقوي مُشَدَّد عليه في الحال، وفي معناه أنشدوا:

وأسررتني حتى إذا ما سببتني بقول يحل الغضب سهل الأباطح^(١)

تجافيت عني حين لا لي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وفي قوله: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سر برؤية أبويه سر بإخوته - وإن كانوا أهل الجفاء، لأن الأخوة سبقت الجفوة.

(١) الأباطح: (ج) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى والتراب.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أظهر لهم أمرهم بما يشبه العذر، فقال كان الذي جرى منهم من نزعات الشيطان، ثم لم يرض بهذا حتى قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ يعني إن وجد الشيطان سبيلاً إليهم، فقد وجد أيضاً إلي حيث قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

ثم نطق عن عين التوحيد فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ فبلطفه عصمهم حتى لم يقتلوني.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

في حرف تبيين؛ لأن الملك - بالكمال - لله وحده.

ويقال الملك الذي أشار إليه قسمان: ملكه في الظاهر من حيث الولاية، وملك على نفسه حتى لم يعمل ما هم به الزلة.

ويقال ليس كل ملك المخلوقين الاستيلاء على الخلق، إنما الملك - على الحقيقة - صفاء الخلق.

قوله: ﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: التأويل للخواص، وتفسير التنزيل للعوام.

قوله جل ذكره: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - هذا ثناء، وقوله: ﴿تَوَفَّنِي﴾ - هذا دعاء.

فقدّم الثناء على الدعاء، كذلك صفة أهل الولاية.

ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ هذا إقرار بقطع الأسرار عن الأغيار.

ويقال معناه: الذي يتولى في الدنيا والآخرة بعرفانه أنت؛ فليس لي غيرك في

الدارين.

قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾: قيل عليم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال فسأل الوفاة.

وقيل من أمارات الاشتياق تمنّي الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام ألقى في الجب فلم يقل توفني مسلماً، وأقيم فيمن يزيد فلم يقل توفني مسلماً، وحبس في السجن سنين فلم يقل توفني مسلماً، ثم لما تم له الملك، واستقام الأمر، ولقي الإخوة سجداً، وألقى أبويه معه على العرش قال:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾^(١) فعلم أنه كان يشاق للقاءه (سبحانه).

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق - رحمه الله يقول - قال يوسف ليعقوب: عَلِمْتُ

أنا نلتقي فيما بعد الموت.. فلم بكيت كل هذا البكاء؟

فقال يعقوب، يا بُنَيَّ إِنَّ هَناكَ طَرَقًا، خِفْتُ أَنْ أَسْلَكَ طَرِيقًا وَأَنْتَ تَسْلِكُ طَرِيقًا، فقال يوسف عند ذلك: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾.

ويقال إن يوسف - عليه السلام - لما قال: توفني مسلماً، فلا يبعد من حال يعقوب أن لو قال: يا بني دَغْنِي أَشْتَفِي بِلِقَائِكَ مِنَ الَّذِي مُنِيتُ بِهِ فِي طَوْلِ فِرَاقِكَ، فلا تُسَمِّعْنِي - بهذه السرعة - قَوْلَكَ: تَوَفَّنِي مُسْلِمًا. قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

تبيين للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أميٍّ لا يكون إلا بتعريف سماوي.

ويقال كون الرسول - ﷺ - أمياً في أول أحواله علامة شَرَفِهِ وَعِلْوُ قَدْرِهِ فِي آخِرِ أحواله، لأنَّ صِدْقَهُ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ إِنَّمَا عُرِفَ بِكَوْنِهِ أُمِيًّا، ثُمَّ أَتَى بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ مَدَارَسَةٍ كِتَابٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أخبر عن سابق علمه بهم، وصادق حُكْمِهِ حَكَمَتِهِ فِيهِمْ.

ويقال معناه: أَقْمُتُكَ شَاهِداً لِإِرَادَةِ إِيْمَانِهِمْ، وَشِدَّةِ الْجِرَاصِ عَلَى تَحَقُّقِهِمْ بِالْإِيْمَانِ، وَإِيْقَانِهِمْ. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ، وَأَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ، وَفَرَضَ عَلَيْكَ تَصْدِيقِي بِذَلِكَ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ إِرَادَتِي كَوْنُ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

هذه سُئَلَهُ اللَّهُ - سبحانه - مع أنبيائه حيث أَمَرَهُمْ بِالْأَيِّاخُذُوا عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ عَوَضًا وَلَا أَجْرًا، وَكَذَلِكَ أَمَرَهُ لِلْعُلَمَاءِ - الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِالْأَيِّاخُذُوا مِنَ الْخَلْقِ عَوَضًا عَلَى دَعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ. فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ حَظًّا مِنَ النَّاسِ لَمْ يُبَارَكْ لِلْمُسْتَمِعِ فِيمَا يَسْمَعُ مِنْهُ؛ فَلَا لَهُ أَيْضًا بَرَكَةٌ فِيمَا يَأْخُذُ مِنْهُمْ فَتَنْقَطِعَ بِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

الآيَاتُ ظَاهِرَةٌ، وَالْبِرَاهِينُ بَاهِرَةٌ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ كَمَا أَنَّ مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَهُ لَمْ يَسْمَعْ بِضَوءِ نَهَارِهِ فَكَذَلِكَ مَنْ قَصَرَ فِي نَظَرِهِ وَاعْتَبَرَهُ لَمْ يَحِظْ بِعَرَفَانِهِ وَاسْتَبْصَارِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

الشُّرْكُ الْجَلْبِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِهِ - سبحانه - مَعْبُودًا، وَالشُّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ بِقَلْبِهِ عِنْدَ حَوَائِجِهِ مِنْ دُونِهِ - سبحانه - مَقْصُودًا.

ويقال شركُ العارفين أن يتخذوا من دونه مشهوداً، أو يطالعوا سواه موجوداً.
ويقال من الشرك الخفي الإحالة على الأشكال في تجنيس الأحوال، والإخلاد
إلى الاختيار والاحتياال عند تراحم الأشغال.
قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ﴾.

أفأمن الذي اغترَّ بطول الإمهال ألا يُبتلى بالاستئصال، أفأمن من اغترَّ بطول
السلامة ألا يقوم البلاء عليه يوم القيامة.
ويقال الغاشية حجاب من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا
ينقشع بالتخشع.
ويقال الغاشية من العذاب أن تزول من القلب سرعة الانقلاب إلى الله تعالى،
حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي
معناه أنشدوا:

قلتُ للنفس إن أردت رجوعاً فارجمي قبل أن يسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

«البصيرة»: اليقين الذي لا مِرْيَةَ فيه، والبيان الذي لا شك فيه. البصيرة يكون
صاحبها مُلَاطِفاً بالتوفيق جَهراً، ومكاشفاً بالتحقيق سراً.
ويقال البصيرة أن تطلع شمسُ العرفان؛ فتندرج فيها أنوارُ نجوم العقل.
قوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي ذلك سبيلي، وسبيل من اقتدى بهديي فهو أيضاً
على بصيرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

تعجبوا أن يبعث الله إلى الخلق بشراً رسولاً، فبين أنه أجرى سُنَّتَهُ - فيمن تقدَّم
من الأمم - ألا يكون الرسول إليهم بشراً، فإما أن جحدوا جواز بعثة الرسول أصلاً،
أو أنهم استنكروا أن يبعث بشراً رسولاً.

ثم أمرهم بالاستدلال والتفكير والاعتبار والنظر فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ...﴾.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وتيقنوا أنهم كذبوهم - والظن ها هنا بمعنى اليقين - فعند ذلك جاءهم نصرنا؛ للرسل بالنجاة ولأقوامهم بالهلاك، ولا مرد لبأسنا.

ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئاً من الأحوال إلا بعد يأسهم منها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]، فكما أنه ينزل المطر بعد اليأس فكذلك يفتح الأحوال بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

عبرة منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم، وأعتقهم حين ملكهم. وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى؛ فإن يوسف لما ترك هواه رقاؤه الله إلى ما رقاؤه.

وعبرة لأهل الهوى فيما في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت الضر والفقر.

وعبرة للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا ملك ملك العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالاً.

وعبرة في العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته. وعبرة في ثمره الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام.

السورة التي يذكر فيها «الرعد»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«بسم الله» كلمة سماعها يُورث لقوم طلباً ثم طرباً، ولقوم حزنناً ثم هرباً، فَمَنْ سَمِعَ بشاهد الرجاء طلب رجود رحمته فأذنه لها طَرَبَ، وَمَنْ سَمِعَ بشاهد الرهبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾.

أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أسمائه إِنَّ هذه آيات الكتاب الذي أخبرْتُ أَنِّي أُنْزِلُ عَلَيْكَ.

فالألف تشير إلى اسم «الله»، واللام تشير إلى اسم «اللطيف»، والميم تشير إلى «المجيد»، والراء تشير إلى اسم «الرحيم» قال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آيات الكتاب الذي أخبرْتُ أَنِّي أُنْزِلُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ - ﷺ. ثم عَطَفَ عليه بالواو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ هو حق وصدق، لأنه أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ - ﷺ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به، فَهُمُ الأكثرون عدداً، والأقلون قُدْرًا وَخَطَرًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

دَلَّ عَلَى صفاته وذاته بما أخبر به من آياته، ومن جملة ما رفع السموات وليس تحتها عمادٌ يَشُدُّهَا، ولا أوتادٌ تُمَسِّكُهَا. وأخبر في غير هذه المواضع أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ بكواكبها، وخصَّ الأرضَ بجنوانها ومناكبها.

و﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: أي احتوى عَلَى مُلْكِهِ احتواءَ قُدْرَةٍ وتدبير. والعرش هو المُلْكُ حيث يقال: اندك عرش فلان إذا زال مُلْكُهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾.

كلٌّ يجري في فَلَكَ. ويدل كل جزء من ذلك على أَنَّهُ فِعْلٌ فِي مُلْكِهِ غير مشترك.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بَسَطَ الْأَرْضَ ودحاها، والجبالَ أرساها، وفَجَّرَ عيونها، وأجرى أنهارها، وَجَسَّسَ بحارها، وَنَوَّعَ من الحيوانات ما جعل البحرَ قرارها، وأنبَت أشجارها، وَصَنَّفَ أزهارها وثمارها، وكوَّر عليها ليلها ونهارها. . . ذلك تقديرُ العزيز العليم.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صَيَّوْنٌ وَعَيْرٌ صَيَّوْنٌ يُنسَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فَمِنْ سِبْخٍ^(١) ومن حَجَرٍ ومن رمل. . . أنواع مختلفة، وأزواج متفقة. وزروع ونبات وأشجار أشنات، وأصل الكل واحد، فأجزاؤها متماثلة، وأبعاضها متشاكلة، ولكن جعل بعضها غدقاً^(٢)، وبعضها قشراً، وبعضها عُصْناً، وبعضها جذعاً، وبعضها أزهاراً، وبعضها أوراقاً. . . ثم الكل واحد، وإن كان لكل واحد طبعٌ مخصوص وشكلٌ مخصوص، ولونٌ مخصوص وقشرٌ مخصوص مع أنها تُسْقَى بماءٍ واحد؛ إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدارٌ ما يحتاج إليه، ﴿وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّارًا لَّي خَلَقَ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وإن تعجب - يا محمد - لقولهم فهذا موضعٌ يتعجبُ منه الخلق، فالعجب لا يجوز في صفة الحق، إذ إن التعجب الاستبعادُ والحق لا يَسْتَبْعِدُ شيئاً، وإنما أثبت موضعَ التعجب للخلق، وحَسَّنَ ما قالوا: «إنما تعجب من حجب» لأنَّ مَنْ يَنْتَلِ عِيُونَ البصيرة لا يتعجب من شيء.

وقومٌ أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة أي إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له.

وإطلاق هذا - وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة - لا يجوز، والأدب السكوت عن أمثال هذا. والقوم عبَّروا عن ذلك فقالوا: أعجب العجب قول ما لا يجوز في وصفه العجب. . . وإن تعجب.

(١) السَّبْخُ: المكان يسبح فيه فينبط الملح وتسوخ فيه الأقدام (لسان العرب ٢٤ مادة: سبخ).

(٢) الغدق: من العشب: بلله ورَّيه. (اللسان ٢٨٢/١٠ مادة: غدق).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ أَوْثَانًا لَفِي ظَلَمٍ جَدِيدٍ﴾: استبعادهم النشأة الثانية - مع إقرارهم بالخلق الأول وهما في معنى واحد - موضع التعجب، إذ هو صريح في المناقضة، وكان القوم أصحاب تمييز وتحصيل، فقياس مثل هذا يدعو إلى العجب. ولكن لولا أن الله - سبحانه - لبس عليهم كما قال: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] - وإلا ما كان ينبغي أن يخفي عليهم جواز هذا مع وضوحه^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

الكناية في: ﴿لَهُمْ مَعْقَبَاتٌ﴾ راجعة إلى العبد، أي أن الله وكل بكل واحد منهم معقبات وهم الملائكة الذين يعقب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلف وذلك من أمر الله، أي من البلاء الذي بقدرة الله. يحفظونهم بأمر الله من أمر الله، وذلك أن الله - سبحانه - وكل لكل واحد من الخلق ملائكة يدفعون عنهم البلاء إذا ناموا وغفلوا، أو إذا اتبهوا وقاموا ومشوا... وفي جميع أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

إذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما من به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل.

ويقال إذا غيروا ما بالستهم من الذكر غير الله ما بقلوبهم من الحفظ فأبدلهم به النسيان والغفلة، فإذا كان العبد في بسطة وتقريب، وكشف بالقلب وترقب... فالله لا يغير ما بأنفسهم بترك أدب، أو إخلال بحق، أو إمام بذنب.

ويقال لا يكف ما أتاه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويغير ما هو به من الشكر والحمد. فإذا قابل النعمة بالكفران، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يطيح به من العصيان... أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان، وسلبه ما كان يعطيه من الإحسان.

ويقال إذا توالى المحن وأراد العبد زوالها فلا يصل إليه التفتُّ^(٢) منها إلا بأن يغير ما هو به؛ فيأخذ في السؤال بعد السكوت، وفي إظهار الجزع بعد السكون، فإذا أخذ في التضرع غير ما به من الصبر.

(١) الآيات: من (٥ - ١٠) لم ترد.

(٢) التفتُّ: نفث الرجل من مرضه: برىء منه.

قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقْوَمُ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾: يقال إذا أراد الله بقوم بلاء وفتنة فما تعلقت به المشيئة لا محالة يجري.

ويقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (١) أعينهم حتى يعملوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم، فهم يمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، ويسعون - في الحقيقة - في ذمهم كما قال قائلهم:

إلى حَتْفِي مَشَى قَدَمِي إِذَا قَدَمِي أَرَاكَ دَمِي
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

كما يريهم البرق - في الظاهر - فيكونون بين خوف وطمع؛ خوف من إحباس المطر وطمع في مجيئه. أو خوف للمسافر من ضرر مجيء المطر، وطمع للمقيم في نفعه. كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم كالبرق في الصفاء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة.

﴿خَوْفًا﴾: من أن ينقطع ولا يبقى، ﴿وَطَمَعًا﴾: في أن يدوم فيه نقل صاحبه من المحاضرة إلى المكاشفة، ثم من المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخمود.

ويقال: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾: من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البیان، ثم يصير إلى نهار العرفان. فإذا طلعت شمس التوحيد فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشمس، كما قيل:

هي الشمس إلا أن للشمس غيبة وهذا الذي نغنيه ليس يغيب
ويقال تبدو لهم أنوار الوصال فيخافون أن تجن عليهم ليالي الفرقة، فقلما تخلو فرحة الوصال من أن تعقبها موجة الفراق، كما قيل:

أي يوم سررتني بوصول لم تدعني ثلاثة بصدود؟!
قوله جل ذكره: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

إذا انتاب السحابة في السماء ظلام في وقت فإنه يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض، فما لم تبتك السماء لا يضحك الروض، كما قيل:

ومأت في السماء تبكي والأرض من تحتها عروس
كذلك تنشأ في القلب سحابة الطلب، فيحصل للقلب تردد الخاطر، ثم يلوح

وجه الحقيقة، فتضحك الروح لفنون راحات الأنس، وصنوف أزهار الفُزْب.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾.

أي الملائكة أيضاً تسبح من خوفه تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

قد يكون في القلب حنين وأنين، وزفير وشهيق. والملائكة إذا حصل لهم على قلوب المريدين - خصوصاً - اطلاع يكون ذمّاً لأجلهم، لا سيما إذا وقعت لواحد منهم فترة، والفترة في هذه الطريقة الصواعق التي يصيب بها من يشاء، وكما قيل:

ما كان ما أوليت من وُضِلنا إلا سراجاً لاح ثم انطفأ

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمَقْئُورِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَلْبِغُهُ﴾.

دواعي الحق تصير لائحة في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها بسمع الفهم، استجاب لبيان العلم. وفي مقابلتها دواعي الشيطان التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي، فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت الغي، ومعها دواعي النفس وهي قائدة للعبد بزمام الحفظ، فمن زكّن إليها ولا حظها وقع في هوان الحجاب.

ودواعي الحق تكون بلا واسطة ملك، ولا بدالة عقل، ولا بإشارة علم، فمن أسمع الحق ذلك استجاب لا محالة لله بالله.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

هواجس النفس ودواعيها تدعو - في الطريقة - إلى الشرك، وذلك بشهود شيء منك، وحسبان أمر لك، وتعريج في أوطان الفرق، والعمى عن حقائق الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾.

المؤمن يسجد لله طوعاً، وإذا نزل به ضر الجاه إلى أن يتواضع ويسجد، وذلك معنى سجوده كرهاً - وهذا قول أهل التفسير. والكافر يسجد طائعاً مختاراً، ولكن لما كان سجوده لطلب كشف الضر قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَسْجُدُ كَرِهًا﴾ على مقتضى هذا كل من يسجد لا ابتغاء عوض أو لكشف محنة.

ويقال السجود على قسمين: ساجد بنفسه وساجد بقلبه؛ فسجود النفس معهود، وسجود القلب من حيث الوجود. وفرق بين من يكون بنفسه، وواجد بقلبه.

ويقال الكل يسجدون لله؛ إما من حيث الأفعال بالاختيار، أو من حيث الأحوال

بنعت الافتقار والاستبشار: سجود من حيث الدلالة على الوجدانية؛ فكل جزء من عين أو أثر فعلى الوجدانية شاهد، وعلى هذا المعنى لله ساجد. وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأُنْفِثَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

سَلِّمْ - يا محمد - مَنْ موجد السموات والأرض ومقدِّرها، ومُخْتَرِعُ ما يحدث فيها ومدبرها؟ فَإِنْ أَسْكَنْتَهُمْ عن الجواب ما استكنَّ في قلوبهم مِنَ الجَهْلِ فَقُلِ اللهُ منشيها ومجريها.

ثم قال: ﴿أَفَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾: يعني الأصنام، وهي جمادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، ويلتحق في المعنى بها كل مَنْ هو موسوم برقم الحدود، فَمَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْحَدَثَانِ سَاوَى - مِنْ وَجْهِ - مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾. الأعمى مَنْ على بصيرته غشاوة وحجة، والبصير مَنْ كَحَلِّ الْحَقِّ بصيرة سِرِّهِ بنور التوحيد... لا يستويان!

ثم هل تستوي ظلمات الشرك وأنوار التوحيد؟ ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أي لو كان له شريك لَوَجَبَ أن يكون له نِدْ مُضَاهٍ، وفي جميع الأحكام له مواز، ولم يُجَدِ حينئذ التمييز بين فِعْلِيَّهِمَا.

وكذلك لو كان له نِدْ... فَإِنْ إِبْتَاهُمَا شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ يَوْجِبُ اشْتِرَاكُهُمَا فِي اسْتِحْقَاقِ كُلِّ وَصْفٍ، وَأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا كصاحبه أيضاً مستحقاً له، وهذا يؤدي إلى ألا يُعْرَفَ الْمَحَلُّ... وذلك محال.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ تدخل فيه المخلوقات بصفات وأفعالها، والمخاطب لا يدخل في الخطاب.

﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾: الذي لا خَلْفَ عنه ولا بَدَل، الواحد الذي في فضله منزّه عن فضل كل أحد، فهو الكافي لكل أحد، ويستعين به كل أحد.

﴿الْقَهْرُ﴾: الذي لا يجري بخلاف حكمه - في ملكه - نفس .

قوله جل ذكره: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ .

هذه الآية تشتمل على أمثال ضربها الله لتشبيه القرآن المنزل بالماء المنزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية، وشبه وساوس الشيطان وهواجس النفس بالزبد^(١) الذي يعلو الماء، وشبه الخلق بالجواهر الصافية من الخبث كالذهب والفضة والنحاس وغيرها. وشبه الباطل بخبث هذه الجواهر. وكما أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتل الماء في القلة والكثرة - كذلك القلوب تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة. وكما أن السيل إذا حصل في الوادي يطهر الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حفظه في القلوب نفي الوسوس والهوى في الوادي عنها، وكما أن الماء قد يصحبه ما يكدره، ويخلص بعضه مما يشوبه - فكذلك الإيمان وفقهم القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من نزغات الشيطان ومن الخواطر الرديئة، فالقلوب بين صاف وكدير.

وكما أن الجواهر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيت خلصت من الخبث كذلك الحق يتميز من الباطل، ويبقى الحق ويضمحل الباطل.

ويقال إن الأنوار إذا تلالأت في القلوب نفت آثار الكلفة، ونور اليقين ينفي ظلمة الشك، والعلم ينفي تهمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة. وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ؛ وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تنفي سدفة الليل من حيث حسابان أثر الأغيار.

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فمن إناء يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره، كذلك القلوب تختلف، وفي الخبر: «إن الله تعالى أواني وهي القلوب»^(٢)؛ فزاهد قاصد ومحب واجد، وعابد خائف وموحد عارف، ومتعبد متعفف ومتعبد متصوف، وأنشدوا:

لوائها شتى الفنون وإنما تُسقى بماء واحد من مَسْهِلٍ

(١) الزبد: ما يعلو الماء وغيره من الرغبة.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٠٩/٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءَ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِ

﴿الْحُسْنَىٰ﴾: الوعد بقبول استجاباتهم، وذلك من أجل الأشياء عندهم؛ فلا شيء أعزُّ على المحبِّ من قبول محبوبه منه شيئاً.

أما الذين لم يستجيبوا له فلو أنَّ لهم جميع ما في الأرض وأنفقوه عمداً لا يُقبل منهم، ولهم سوء الحساب، وهو المناقشة في الحساب، ثم مأواهم جهنم ودوام العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿۞ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِ

الْأَنبِيَاءُ﴾ استفهام في معنى النفي، أي لا يستوي البصير والضرير، ولا المقبول بالمردود بالحجة، ولا المؤمل بالتقريب بالمُعَرَّضٍ للتعذيب، ولا الذي أقصيناه عن شهودنا بالذي هديناه بوجودنا. إنما يتعظُّ مَنْ عقله له تشريف، دون مَنْ عقله له سبب إقصاء وتعنيف.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْعَيْثَ﴾.

الوفاء بالعهد باستدامة العرفان، والوفاء بشرط الإحسان، والتوقي من ارتكاب العصيان - بذلك أبرم العقد يوم الميثاق والضمان.

وميثاق قوم ألا يعبدوا شيئاً سواه، وميثاق قوم ألا يسألوا سواه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

الذين يصلون الإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل.

ويقال الذين يصلون أنفاسهم بعضاً ببعض؛ فلا يتخللها نفسٌ لغير الله، ولا بغير الله، ولا في شهود غير الله.

ويقال يصلون سائرهم بسراهم في إقامة العبودية، والتبري من الحول والقوة.

وقوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: الخشية لجأً يُوقِفُ المؤمنَ عن الرُّكُضِ في ميادين الهوى، وزمناً يَجُرُّ إلى استدامة حكم التقي.

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأجلها يصبر الصابر، فالعباد يصبرون

لخوف العقوبة، والزهاد يصبرون طمعاً في المثوبة، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وشرط هذا النوع من الصبر رَفُضُ ما يمنع من الوصول، واستدامة التوقي منه، فيدخل فيه ترك الشهوات، والتجرد عن جميع الشواغل والعلاقات، فيصبر عن العلة والزلة، وعن كل شيء يشغل عن الله.

ومما يجب عليه الصبر الوقوف على حكم تعزير الحق، فإنه - سبحانه - يتفضل على الكافة من المجتهدين، ويتعزز - خصوصاً - على المريرين، فيمنحهم الصبر في أيام إرادتهم، فإذا صدقوا في صبرهم جاد عليهم بتحقيق ما طلبوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

الأغنياء ينفقون أموالهم. والعباد ينفقون نفوسهم ويتحملون صنوف الاجتهاد، ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد. والمريدون ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض والأوراد ويصبرون إلى أن ييؤخ علم من الإقبال عليهم. وأما المحبون فينفقون أرواحهم.. وهي كما قيل:

أَلَسْتُ لِي خَلْفًا؟ كَفَى شَرْفًا فما وراءك لي قِصْدٌ ومطلوبٌ

قوله جل ذكره: ﴿وَيَذَرُونِ الْيَسَنَةَ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَ لَكَ لَمْ غَفَى الدَّارَ﴾.

يعاشرون الناس بحسن الخلق؛ فيبدأون بالإنصاف ولا يطلبون الانتصاف، وإن عاملهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإن أذنب إليهم قوم اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوهم.

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

يتم النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين من يحبون صحبتهم من أقاربهم وأزواجهم، وقد ورد في الخير: «المرء مع من أحب»^(١) فمن كان محبوبه أمثاله وأقاربه حُشِرَ معهم، ومن كان اليوم بقلبه مع الله، فهو غداً مع الله، وفي الخبر: «أنا جليس من ذكرني»^(٢). وهذا في العاجل، وأما في الآجل، ففي الخبر: «الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة».

(١) أخرجه البخاري (أدب ٩٦)، ومسلم (بز ١٦٥)، والترمذي (زهد ٥٠)، (دعوات ٩٨) والدارمي (رقائق ٧١)، وأحمد بن حنبل ٣/٣٩٢، ١٠٤/١١٠، ١٥٩/١٦٥، ١٦٧/١٦٨، ١٧٢/١٧٣، ١٧٨/١٩٢، ١٩٨/٢٠٠، ٢٠٢/٢٠٧، ٢٠٨/٢١٣، ٢٢٢/٢٣٦، ٢٣٧/٢٣٨، ٢٥٥/٢٦٨، ٢٧٦/٢٨٣، ٢٨٨/٣٣٦، ٣٩٤/٤، ١٠٧/١٦٠، ٢٣٩/٢٤٩، ٣٩٢/٣٩٥، ٤٠٥/٤٠٥.

(٢) أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء ١/٢٣٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/٢٨٧)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٢٤).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

من كفر بعد إيمانه نقض عهده الإسلام في الظاهر، ومن رجع إلى أحكام العادة بعد سلوكه طريق الإرادة، فقد نقض عهده في السرّاء... فهذا مرتدّ جهرًا، وهذا مرتدّ سرًا، والمرتد جهرًا عقوبته قطع رأسه، والمرتد سرًا عقوبته قطع سبّره. وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾، هو نقض قوله: ﴿يُصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

ويقال نقض العهد هو الاستعانة بالأغيار، وترك الاكتفاء بالله الجبار. ويقال نقض العهد الرجوع إلى الاختيار والتدبير بعد شهود الأقدار، وملاحظة التقدير.

ويقال نقض العهد بترك نفسه، ثم يعود إلى ما قال بتركه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

يسبط الرزق للأغنياء ويطلبهم بالشكر؛ ويضيق على الفقراء ويطلبهم بالصبر. وعدّ الزيادة للشاكرين، ووعد المعية للصابرين. للأغنياء الأموال بمزیدها، وللفقراء التجرد في الدارين عن طريفها وتليدها.

قوله جل ذكره: ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾.

فرح الأغنياء بركاء أموالهم، وفرح الفقراء بصفاء أحوالهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ قليل بالإضافة إلى ما وعدهم الله؛ فأموال الأغنياء - وإن كثرت - قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من وجود أفضل، وأحوال الفقراء - وإن صفت - قليلة بالإضافة إلى ما وعدهم من شهود جماله وجلاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾.

﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾: وهم الذين لم يشهدوا ما أعطى نبينا - ﷺ - من الشواهد والبرهان حتى (١) الزيادة.

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٦]: وهم الذين أبصروا بعيون أسرارهم ما

خُصَّ به من الأنوار فسكنوا بنور استبصارهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ﴾.

قومٍ اطمأنت قلوبُهُم بذكرهم الله، وفي الذكر وَجَدُوا سَلَوَتَهُم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم. وقومٍ اطمأنت قلوبُهُم بذكر الله فَذَكَرَهُمُ اللهُ - سبحانه - بلطفه، وأثبت الطمأنينةَ في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال إذا ذكروا أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُمُ اسْتَرَوْحَتْ قُلُوبُهُمْ، واستبشرت أرواحُهُم، واستأنست أسرارُهُم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ لِمَا نالت بِذِكْرِهِ من الحياة، وإذا كان العبد لا يطمئن قلبه بذكر الله، فذلك لِخَلَلٍ في قلبه، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَتَوْا﴾. طابت أوقاتهم وطابت نفوسُهُم.

ويقال طوبى لمن قال له الحق: طوبى.

طوبى لهم في الحال، وَحَسُنَ مَا أَتَوْا في المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ ظُهُورِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آيَاتِنَا هُزُوًا﴾. أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ.

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل، ولئن أصابك منهم بلاء فلقد أصاب مَنْ قَبْلَكَ كثيرٌ من البلاء، فاضبر كما صَبَرُوا تُؤْجَزُ كما أُجْرُوا. قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾.

لئن كفروا بنا فآمن أنت، وإذا آمنت فلا تبالِ بِمَنْ جَحَدَ، فإنك أنت المقصود من البرية، والمخصوص بالرسالة والمحبة.

لو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرض في أفعالنا.

ولو كان الغرض في الخلقه فانت سيد البشر، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال، فهذا مخلوق يقول في مخلوق:

وكننت أخزئت أوطاري لوقت فكان الوقت وقتك والسلام^(١)

وكننت أطالب الدنيا بحُبِّ فكانت الحُبِّ.. وانقطع الكلام

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلْمُوتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾.

(١) الأوطار: (ج) الوطر: الحاجة والبيعة.

لو كان شيء من المخلوقات يظهر يغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن، ولكن المنشئ الله، والخير والشر جملة من الله، والأمر كله لله. فإذا لم يكن شيء من الحدثان بالقرآن - والقرآن كلام الله العزيز - فلا تكون ذرة من النفي والإثبات لمخلوق.. فإن ذلك محال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

معناه أفلم يعلم الذين آمنوا، ويقال أفلم يأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق فهو المهتدي؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

يعني شؤم كفرهم لا يزال واصلاً إليهم، ومقتض فعلهم لاحق بهم أبداً.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أنزل هذه الآية على جهة التسلية للرسول - ﷺ - عما كان يلاقيه منهم. وكما أن هؤلاء في التكذيب جرّوا على نهجهم فنحن أذمتنا سُنَّتَنَا في التعذيب معهم.
قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَننْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

الجواب فيه مضمّر؛ أي أقم هو مُجْرِي ومنشئ الخلق والمُطْلِع عليهم، لا يخفى عليه منهم شيء كمن ليس كذلك؟ لا يستويان غداً أبداً.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

قُل لهم أروني أي تأثير منهم، وأي نفع لكم فيهم، وأي ضرر لكم منهم؟ اتقولون ما يعلم الله بخلافه؟ وهذا معنى قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾.
قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾.

أي قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان، وزين للذين كفروا مكرهم، وصاروا مصدودين عن الحق، مسدودة عليهم الطُرُق، فَإِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ حُكْمُهُ - سبحانه - لا يهديه أحد قطعاً^(١).

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

المَثَلُ أي الصفة، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار، وأكلها دائم وظلها دائم؛ أي أن اللذات فيها متصلة. وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة، فالمؤجلة ما ذكره الله - سبحانه - في نص القرآن، والمعجلة جنة الوقت. والدرجات - من حيث البسط - فيها متصلة، ونفحات الأنس لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

يريد بهم مؤمني أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق يقينهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾.

أي الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لمّا نزل: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾. قل يا محمد: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾. والعبودية المبادرة إلى ما أُمِرْتُ به، والمحاذرة مما زُجِرْتُ عنه، ثم التبرّي عن الحَوْل والمُنَّة، والاعتراف بالطول والمِئنة.

وأصل العبودية القيام بالوظائف، ثم الاستقامة عند رَوْح اللطائف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

أي حُكْمًا ببيان العرب؛ لأنّ الله تعالى أرسل الرسل في كلّ وقت كلّاً بلسان قومه ليهدوا إليه.

ويقال من صفات العرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الذمام، وهذه الأشياء مندوب إليها في الشريعة.

﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: أي ولئن وافقتهم، ولم تعتصم بالله، ووقعت على قلبك حشمة من غير الله - فما لك من واقٍ من الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي أرسلنا رسلاً من قبلك إلى قومهم، فلم يكونوا إلا من جنسك، وكما لكم

أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية، ولم يكن ذلك قادحاً في صحة رسالتهم، ولا تلك العلاقات كانت شاغلة لهم.

ويقال إن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الأشغال لا تؤثر في حاله؛ ولا يضره ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

أي لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ، وله وقت قُسم له، وأنه لا اطلاع لأحد على علمه، ولا اعتراض لأحد على حكمه.

قوله جل ذكره: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

المشيئة لا تتعلق بالحدوث، والمحو والإثبات متصلان بالحدوث.

صفات ذات الحق - سبحانه - من كلامه وعلمه، وقوله وحُكمه لا تدخل تحت المحو والإثبات، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله؛ المحو يرجع إلى العدم، والإثبات إلى الإحداث، فهو يمحو من قلوب الزهاد حُبِّ الدنيا ويُثَبِّتُ بَذْلَهُ الزهد فيها، كما في خبر حارثة: «عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا».

ويمحو عن قلوب العارفين الحفظ، ويُثَبِّتُ بدلها حقوقه تعالى، ويمحو عن قلوب المُوحِّدين شهوة غير الحق ويثبت بَذْلَهُ شهود الحق، ويمحو آثار البشرية ويثبت أنوار شهود الأحدية.

ويقال يمحو العارفين عن شواهدهم، ويثبتهم بشاهد الحق.

ويقال يمحو العبد عن أوصافه ويثبته بالحق فيكون محواً عن الخلق مثبتاً بالحق للحق.

ويقال يمحو العبد فلا يجري عليه حكم التدبير، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التقدير، ويثبت سلطان التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء.

ويقال يمحو عن قلوب الأجانب ذِكْرَ الحق، ويثبت بَذْلَهُ غلبات الغفلة وهواجِم النسيان.

ويقال يمحو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوازم الإرادة، ويثبت بدلها الرجوع إلى ما خرجوا عنه من أحكام العادة.

ويقال يمحو أَوْضَارَ^(١) الرُّؤْة عن نفوس العصاة، وآثار العصيان عن ديوان

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

المذنبين (ويثبت) يدل ذلك لَوَعَةَ الثُّدَمِ، وانكسار الحَسْرَةِ، والخمودُ عن متابعة الشهوة.

ويقال يمحو عن ذنوبهم السيئة، ويثبت بدلها الحسنة، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدِدُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ويقال يمحو الله نضارة الشباب ويثبت ضعف المشيب.

ويقال يمحو عن قلوب الراغبين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إثارة صحتهم، ويثبت بدلاً منه الزهد في صحتهم والاشتغال بعشرتهم.

ويقال يمحو الله ما يشاء من أيام صَفَتْ من الغيب، وليالٍ كانت مُضَاءَةً بالزلزلة والقربة ويثبت بدلاً من ذلك أياماً في أشد ظلاماً من الليالي الحنادس^(١)، وزماناً يجعل سَعَةً الدنيا عليهم محابس.

ويقال يمحو العارفين بكشف جلاله، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.

ويقال يمحوهم إذا تجلَّى لهم، ويثبتهم إذا تعزَّز عليهم.

ويقال يمحوهم إذا ردَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يبصرون بنعت الافتقار والانكسار، ويثبتهم إذا تجلَّى لقلوبهم فيبصرون بنعت الاستبشار، ويشهدون بحكم الافتخار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به علمه وحُكِّمه مما لا تبديل ولا تغيير فيه.

ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ مَا نَرِيكَ بِعَضِّ أَلَدِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

نفي عنه الاستعجال أمراً، و (.....)^(٢) في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعد جهراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

في التفاسير: بموت العلماء، وفي كلام أهل المعرفة بموت الأولياء، الذين إذا أصاب الناس بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم.

(١) الحنادس: (ج) الحندس: الليل الشديد الظلمة.

(٢) بياض في الأصل.

ويقال هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله.

ويقال: في كل زمان لسان ينطق عن الحق سبحانه، فإذا وقعت فترة سكن ذلك اللسان - وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية، وأنشد بعضهم:

طوى العصران ما نشره مني وأبلى جدتي نشر وطى
أراني كل يوم في انتقاص ولا يبقى مع النقصان شيء
ويقال ينقصها من أطرافها أي بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار، وانتشار الإسلام، قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرُوا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

ويقال ينقصها من أطرافها بخراب البلدان، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فمعوذ الحق خراب العالم وفناء أهله، ووعدته حق لأن كلامه صدق، والله يحكم لا معقب لحكمه، ولا ناقض لما أبرمه، ولا مبرم لما نقضه، ولا قابل لمن رده، ولا راد لمن قبله ولا معز لمن أهانه، ولا مدلل لمن أعزّه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]: لأن ما هو آت قريب.

ويقال ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] في الدنيا؛ لأن الأولياء إذا ألموا بشيء، أو هموا لمزجور غويوا في الوقت، وطولوا بحسن الرجعي.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعْلُهُ الْكُفْرَ لِمَنْ عَقَبَ الدَّارِ﴾.

مكرهم إظهار الموافقة مع إسرارهم الكفر، ومكر الله بهم توهمهم أنهم مخسئون في أعمالهم، وحسانهم أنهم سنا من أحوالهم، وظنهم أنه لا يحق بهم مكرهم، وتخليته إياهم - مع مكرهم - من أعظم مكره بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

وبال تكذيبهم عائد إليهم، فإن الله شهيد لك بصدقك. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو الله سبحانه وتعالى عنده علم جميع المؤمنين. فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك.

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْمَيْنِ الرَّجِيمَيْنِ﴾.

بسم الله معناه بالله؛ فقلوب العارفين بالله إشراقها، وقلوب الوالهيّن بالله احتراقها، لهؤلاء فا (....)^(١) محبته، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته.

وأصحاب الوصول قالوا: بالله.. فوصل من الطالبين مَنْ وصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

أقسم بهذه الحروف: إنه لكتاب أنزل إليك لتخرج الناس به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجمع - بإذن ربهم، وبإرادته ومشيتته، وسابق حكمه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهٗ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَبَدِئَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

عرّف الخلق أن الله هو الذي له ما في السموات وما في الأرض.

فمن عرف فله المآب الحميد، ومن جحد فله العذاب الشديد؛ وذلك العذاب هو جهله بأنه - سبحانه - مَنْ هو.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَبَغَوْهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ثم ذكر ذمهم أخلاقهم، فقال: هم الذين يؤثرون اليسير من خطام الدنيا على الخطير من نعم الآخرة، وذلك من شدة جحدهم، ويبغون للدنّ عوجاً بكثرة جمعهم، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجلّ محنة ومصيبة.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

إنما كان كذلك ليكون آكد في إلزام الحجة: وأتى ينفع ذلك إذا لم يوفقوا لسلوك المحجة؟ فاهل الهداية فازوا بالعناية السابقة، وأصحاب الغواية وقعوا في ذل العداوة: فلا اعتراض عليه فيما يصنع، ولا يسأل عما يفعل أو لم يفعل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أخرج قومك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين، ومن إشكال الجهل إلى روح العلم. وذكّرهم بأيام الله؛ ما سلف لهم من وقت الميثاق، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم.

ويقال ذكّرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح:

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها

أيام لــــم (.....)^(١)

ويقال ذكّرهم بأيام الله وهي التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يتولّى عباده قبل أن يكون للعباد فعل؛ فلا جهد للسابقين، ولا عناء ولا ترك للمقتصدين، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم.

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة، والحكم على الإرادة.. ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيام.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

﴿صَبَّارٍ﴾: راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيد العيش يسره.

﴿شَكُورٍ﴾: محجوب بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه.. هذا واقف مع صبره وهذا واقف مع شكره، وكلّ ملزم بحده وقدره: والله غالب على أمره، مقدّس في نفسه متعزّز بجلال قُدسيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ وَيَسْتَعْيِبُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

تَذَكَّرُ مَا سَلَفَ مِنَ النُّعْمِ يُوَجِبُ تَجْدِيدَ مَا سَبَقَ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وفي الخبر: «جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا»^(١)؛ فالحقُّ أَمَرَ موسى عليه السلام بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه، ولطائف إكرامه. . وفي بعض الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام: «عبدني، أنا لك مُجِبٌّ فبحقي عليك كن لي محباً». قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامي وإكرامي، وإن كفرتم بإحساني لأعذبنكم اليوم بامتحاني، وغداً بفراقي وهجراني.

لئن عرفتم وصالي لأزيدنكم من وجود نوالي إلى شهود جمالي وجلالي. ويقال لئن شكرتم وجوه توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة. ويقال لئن شكرتم شهود المكافي لأزيدنكم بشهود أوصافي. ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامي لأزيدنكم بشهود إكرامي ثم إلى شهود إقدامي.

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائي لأزيدنكم مُنتظر آلائي. ويقال لئن شكرتم مخصوص نعمي لأزيدنكم مأمول كرمي. ويقال لئن شكرتم ما حوّلناكم من عطائي لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائي. ويقال لئن شكرتم ما لوأخّت في سرائركم زيناكم ما ألبسنا من العصمة لظواهركم.

ويقال لئن كفرتم نغمتي بأن توهمت استحقاقها لجرّغناكم ما تستمرون مذاقها. قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾.

إن اجتمعتم أنتم ومن غاضدكم، وكل من غاب عنكم وحضركم، والذين

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٥٤/٩)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٥٨/١١، ١٢/١٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٤٤١٠٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢٧٧/٤، ٩٤/١١)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٢١/٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٦٧)، والفنّي في (تذكرة الموضوعات ٦٨)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٨٢)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٩٥/١)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٥٢٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ٦٠٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧٠١/٢).

يقتفون أثركم - على أن تكفروا بالله جميعاً، وأخذتم كل يوم شركاء قطعاً - ما أوجهتم لِعِزَّنَا شِينَا، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنَا زِينَا. والحق بنعوته ووصف جبروته عليّ وعن العالم بأسره غنيّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَهَامُودُ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

استفهام في معنى التقرير. أخبره أنه لما جاءتهم الرسل قابلوهم بالكند. وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم، وحذّوا سبيل أمثالهم في الكفر، وبنوا على الشك والريبة قواعدهم، وأسسوا على الشرك والغيّ مذاهبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي. سبحانه لا يتحرك نفس إلا بتصريفه.

وكيف يبصر جلال قدره إلا من كحله بنور برّه؟

ثم قال. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق، وألا يهرب من خدمة أو يجنح إلى راحة. . إنما العجب من سيد عزيز كريم يدعو عبده ليغفر له وقد أخطأ، ويعامله بالإحسان وقد جفا. والذي لا يكف عن العناد، ولا يؤثر رضاء سيده على راحة نفسه لا يحمل هذا إلا على قسمة بالشقاء سابقة. . وإن أحكام الله برده صادقة. ثم أخبر أنهم قالوا لِرُسُلِهِمْ: .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّوْنَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم، ولم يعرفوا سرائرهم، ومالوا إلى تقليد أسلافهم، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قالت لهم الرسل ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه - سبحانه - من علينا بتعريفه، واستخلصنا بما أقرّدنا به من تشريفه. والذي اقترحتم علينا من ظهور الآيات

فليس لنا إلى الإتيان به سبيلٌ إلا أن يُظهره الله علينا إذا شاء بما شاء - وهو عليه قدير .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ : وقد رُقنا من حدّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان، فكفانا من مهان الشان . ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ : وقد حقّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان، وكفاية ما أظّلنا من الامتنان . ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ ولم نخرج إلى التقاضي على الله فيما وعدنا الله .

قوله: ﴿وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا﴾ : والصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية المبلي، وفي معناه أنشدوا:

يستقدمون بلاياهم كأنهم لا يياسون من الدنيا إذا قبلوا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ .

لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء معهم بأنواع الإنذار، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان، والتشريد في البلدان . وبسط الله على قلوبهم بوعده نصره ولقائه ما أظلم من الأمر، ومكّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال: ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾، وقال:

﴿وَلَنَسْجَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ .
﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ : أي خاف مقامه في محل الحساب غداً فأنا ب إلى نفسه على وجه التخصيص .

ويقال خاف مقامي أي هاب إطلاعي عليه، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل، والثاني تحقيق المراقبة في العاجل .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ .

الاستفتاح طلب الفتح، والفتح القضاء، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا جَحَازَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وغيره فلما نزل بهم البلاء، وتحقق لهم الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم، ولم تقبل منهم صدقتهم وفداؤهم، وندموا حين لا ندامة، وجزعوا بعدما عديموا السلامة .

ويقال: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ : بغير الرسل، ولما وجد الرسل إصرار قومهم سألوا

النصرة عليهم من الله كقول نوح - عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ﴾ [يوسف: ٨٨] فأجابهم الله بإهلاكهم.

ويقال إذا اشتد البلاء وصدق الدعاء قَرَبَ النَّجَاء.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ زَايَاهُ جَهَنَّمَ وَنُفْسٍ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِيقُهُ﴾.

لفظ «وراء» يقع على ما بين يديه وعلى ما خلف، والوراء ما توارى عليك أي استتر؛ يريد الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان، وعلى ما خلفه؛ أي لأجل ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة، فلصعوبته ومرارته لا يشربه مرة واحدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيتٍ وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

يرى العذاب - من شدته - في كل عضو، وفي كل وقت، وفي كل مكان. وليس ذلك الموت؛ لأن أهل النار لا يموتون، ولكنه في الشدة كالموت. ثم ﴿وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: وهو الخلود في النار، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيام قلائل ساعدته المشيئة فيها، وانخدع فلم يشرع بما يليها.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

أي وفيما يُتْلَى عليك - يا محمد - مثل لأعمال الكفار في تلاشيها، وكيف أنه لا يُقْبَلُ شيءٌ منها كَرَمَادٍ في يوم عاصف، فإنه لا يَبْقَى منه شيء - كذلك أعمالهم. وَمَنْ كان كذلك فقد خاب في الدارين، وحلَّ عليه الويل.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحُكْمِ الْحَقِّ، أي له ذلك بحق ملكه، وخلقهما بقوله الحق؛ فجعل كل جزء منهما على وحدانيته دليلاً، وَلِمَنْ أراد الوصول إلى ربه سبيلاً. ثم قال: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ بِالْإِفْنَاءِ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ فِي الْإِنْشَاءِ، وليس ذلك عليه بعزيز... وأنى ذلك وهو على كل شيء قدير؟! (١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَرْزُقُ اللَّهُ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَوِنَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾.

لم يكونوا عن الحق - سبحانه - متسترين حتى يظهروا له، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم، فصاروا كأنهم ظهروا لله. فقال الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعًا﴾ توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء، فأجابهم المتكبرون: إِنَّا جميعاً في العذاب مشتركون، ولو أمكننا أن نرفع عنكم من العذاب، وقدرنا على أن نهديكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتهم، وأجبناكم إلى ما سألتهم، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين، ولا نحن لكم بمغيثين، ولا لما تدعوننا إليه بمستجيبيين...

فلا تلوّمونا ولوموا أنفسكم، ولات حين ملام! إنما ينفع لوم النفس فيما تتعاطاه من الإساءة في زمان السهولة وأوقات التكليف؛ فإن أبواب التوبة مفتوحة، ولكن لمن لم يترع روحه^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَدْخِلْ آلَ زَيْدٍ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

ذلك الذي مضى ذكر صفه الكفار والأعداء. وأما المؤمنون والأولياء، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ آلَ زَيْدٍ ءَامَنُوا﴾ والإيمان هو التصديق، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تحقيق التصديق. ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قل أو كثر من وجوه الخيرات حتى القدر ميطه^(٢) عن الطريق.

و ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ - وكذلك قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، فالوصف العام والتحية لهم من الله السلام.

ويقال إن أحوالهم متفاوتة في الرتبة؛ فقوم سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه، فشبهه بشجرة طيبة، وأصل تلك الشجرة ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية. تؤتى أكلها كل وقت، ويتنفع بها أهلها كل حين.

(٢) أماطه: نحاء وأبعده.

(١) الآية (٢٢) لم ترد.

وأصل تلك الشجرة المعرفة، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين. وفروعها الأعمال الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المعاصي.

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن وما جرى مجراه.

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية، وأزهارها الأخلاق الجميلة، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة.

وكما أن الثمار تختلف في الطعم والطبع والرائحة والصورة.. كذلك ثمرات الطاعات ومعاني الأشياء التي يجدها العبدُ في قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين، والبسط الذي يجده العبدُ في وقته وهو صفة العارفين، وراحة في الضمير وهو صفة المريدين، وأنس يناله في سرّه وهو صفة المحبين. وقلق واحتياج يجدهما ولا يعرف سببهما، ولا يجد سبيلاً إلا سكونه وهو صفة المشتاقين... إلى ما لا يفي بشرحه نطق، ولا يستوفيه تكلفُ قول. وذكر من لوائح ولوامع، وطوارق وشوارق، كما قيل:

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظهِرُ كتماننا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمرات الأشجار في السنة مرة، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة. وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] كذا لطائف هذه الشجرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة، ولا محجوبة، وهي في كل وقت ونفس تبدو لهم غير محجوبة.

وثمرات الشجرة أشرف الثمار، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار، وإشارات أهل هذه القصة وألفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والثور.

ويقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلهية، وللرسول - ﷺ - بالنبوة. وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص.

والشجرة الطيبة المعرفة، وأصلها ثابت في أرض غير سبخة، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تنبت. ثم لا بدّ للشجرة من الماء، وماء هذه الشجرة دوام العناية، وإنما تُورق بالكفاية، وتُورَد بالهداية.

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندم والحياء والتلهف والحسرة والأمانة والخشوع وإسبال الدموع.

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم؛ فمنها التوكل

والتفويض والتسليم، والمحبة والشوق والرضا، والأحوال الصافية الوافية، والأخلاق العالية الزكية.

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر، وخبيثها ما صاحبها من نجاسة الشُّرك، فَخُبِثَ الكلمة لصدورها عن قلبٍ هو مُسْتَقَرُّ الشُّركِ ومنبعه.

والشجرة الخبيثة هي الشُّركُ اجْتَثَّ^(١) من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شُبَّهَ بأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلاتٍ ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شُبِّهِ واهية وأصول فاسدة.

قوله جل ذكره: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة، وترك العوج.

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة.

ويقال القول الثابت هو ينطق القلوب لا بذكر اللسان.

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول فهو بالشبوت أَوْلَى من قول العبد؛ لأن قولَ العبد أثَرَ، والآثار لا يجوز عليها الشبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتَ العبد لقول الله؛ وهو حكمه بالإيمان وأخباره أنه مؤمن وتسميته بالإيمان. وقول الله لا يزول؛ ففي الدنيا يثبت حتى لا بدْعَةً تعتريه، وفي الآخرة يثبت برسله من الملائكة، وفي القيام يثبت عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبت لأنه لا يزول حمد العبد لله، ومعرفته به. وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه - سبحانه - دعاءه ثُبَّتْ حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم. ويقال إذا دَعَتْهُ الوسوس إلى متابعة الشيطان، وصيْرَتُهُ الهواجسُ إلى موافقة النَّفْسِ فالحق يثبت على موافقة رضاه.

ويقال إذا دَعَتْهُ دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها، فيترك الجميع، ولا يَتَحَسَّنُ إلا دواعي الحق - سبحانه كما قيل:

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كي تردَّنا أبينا وقلنا: مطلبُ الحقِّ أولاً

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

(١) الجث: القطع أو انتزاع الشجر من أصله.

وضعوا الكفران محل الشكر، فاستعملوا النعمة للكفر، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر. واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة، فأعضاء العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد، فإذا استعمل العاصي بَذَلَهُ في الزَّلَّة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بَذَلَ النعمة كُفْراً، وكذلك إذا أودع الغفلة قلبه مكان المعرفة، والعلاقة فيه مكان الانقطاع إليه، وعَلَّقَ قلبه بالأغيار بَذَلَ الثقة به، وَلَطَّخَ لسانه بذكر المخلوقين وَمَذَّجَهُمْ بَذَلَ ذكر الله واشتغل بغير الله دون العناء في ذكره... كل هذا تبديل نِعَمِ الله كُفْراً. وإذا كان العبد منقطعاً إلى الله، مكفياً من قِبَلِ الله.. وَجَدَ في فراغه مع الله راحةً عن الخلق، ومن إقباله عليه - سبحانه - كفاية، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة الخلق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار؛ على معنى إيقاعه قلبه ونَفْسَه وجوارحه في المذلة من الخلق، والمضرة في الحال، وشأنه كما قيل:

ولم أرَ قَبْلِي مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً ويقرّع بالتطفيل باب جهنم
قوله جلّ ذكره: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيُنَكِّسُ الْقَرَارُ﴾.

وهي الجحيم المُعَجَّل.. وعذابها بها الفُرْقَةُ لا الحُرْقَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

رضوا بأن يكون معمولُهم معبودهم، ومنحوثُهم مقصودهم، فضلُّوا عن نهج الاستقامة، ونأوا عن مقر الكرامة وسيلقون غِبَّ ما صنعوا يوم القيامة كما قيل:

قد تركناك والذي تريد. فعسى أن تَمَلُّهُم فتعودوا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيام السرور قصار، ومَتَّعَ الغفلة سريعة الانقضاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾.

جعل الله راحة العبد - اليوم - بكمالها في الصلاة؛ فإنَّها محل المناجاة، قال الرسول ﷺ: «أَرَحْنَا يَا بَلال بالصلاة»^(١) والصلاة استفتاح باب الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣٦٤/٥ - ٣٧١)، والطبراني في (المعجم الكبير ٣٤٠/٦) وابن كثير في (التفسير ٤٥٦/٥)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٤٥/١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤٤٣/١٠ - ٤٤٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١٦٥/١)، (تحذير الخواص ٣٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٣٧/٣).

وفي الصلاة يبث العبد أسرارَه مع الحق؛ فإذا كان لقاء الإخوان - كما قالوا - منسلةً لهم فكيف بمناجاتك مع الله، ونشر قصتك بين يديه؟ كما قيل:

قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنَفُّسِ كيف أنت وكيف حالك؟

﴿وَيُفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره، وإنفاق البدن على طاعته، والوقت على شكره، والقلب على عرفانه، والروح على حبه، والسرُّ على مشاهدته. . ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب، وتقف على البساط بالشاهد الذي آتاك. . يقول العبد المسكين: لو كان لي نفس أطوع من هذه لأتيت بها، ولو كان لي قلب أشدَّ وفاءً من هذا لجُدتُ به، وكذلك بروحي وسري، وقيل:

يفديك بالروح صبُّ لو أنَّ له أعز من روحه شيئاً فذاك به

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُ﴾: وفي هذا المعنى أنشدوا:

قلْتُ لِلنَّفْسِ إِنْ أَرَدْتَ رَجوعاً فارجمي قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جلَّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

في الظاهر رفع السماء فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلق فيها بحاراً، وأجرى أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنوار وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء مدراراً. وأخرج من الثمرات أصنافاً، ونوع لها أوصافاً، وأفرد لكل منها طعاماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً.

وأما في الباطن فسماء القلوب زينتُها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان. ومرج في القلوب بحري الخوف والرجاء، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف، كما جاز في الخبر: «لو وزنا لاعتدلا»^(١) - هذا لعوام المؤمنين، فأما للخواص فالقبض والبسط، ولخاص الخاص فالهبة والأنس والبقاء والفناء.

وسَخَّرَ لَهُمُ الْفُلْكَ في هذه البحار ليعبروها بالسلامة، وهي فلك التوفيق والعصمة، وسفينة الأنوار والحفظ. وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الأنس من المحبين، وليالي الحرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين.

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «قال ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا» أخرجه السيوطي الحلبي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُم لَإِلَيْهِ لَاطِلُونَ﴾.

ما سَمَّيْتُ إِلَيْهِ هِمَّتُكُمْ، وتعلّق به سؤالُكم، وخطر تحقيق ذلك ببالكم، أنلناكم فوق ما تُؤمِّلُون، وأعطيناكم أكثر مما تُرْجُونَ، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقرأ بعض القراء: ﴿مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فَيُنَوِّنُ قوله: كلِّ، ويجعل ما سألتُموه (ما) للنفي أي كل شيء مما لم تسألوه.

كذلك جاز أن يكون المعنى، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني - وهذا لأرباب الطاعات، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني - وهذا لأصحاب الزلات. عليم قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكّر ما عمله من الزلات، فأعطاه غفرانه، وكفاه حشمة السؤال، والتفضل؛ فقال: غفرت لكم قبل أن تستغفروني.

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهله الحق - سبحانه - من العرفان؟ وكيف يكون ذلك الحديث؟... قَبْلَ أَنْ كَانَ لَهُ إِمْكَانٌ، أو معرفة وإحسان، أو طاعة أو عصيان، أو عبادة وعرفان، أو كان له أعضاء وأركان، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً... لا بَلْ:

أتاني هواها قبل أَنْ أَعْرِفَ الْهُوَى فصادف قلباً خالياً قَتَمَكُنَا
قوله جل ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُم لَإِلَيْهِ لَاطِلُونَ﴾.

كيف يكون شكركم كفاء نِعَمِهِ...؟ وشكرُكم نُزْرٌ يسير، وإنعامه وافر غزير. وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام؟ إِنَّ نِعَمَهُ عُلُومُكُمْ عن تفصيلها متقاصرة، وفُهوْمُكُمْ عن تحصيلها متأخرة. وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له.. فكيف يأتي الحصر والإحصاء على ما لا يتناهى؟ وكما أن النِّفْعَ من نِعَمِهِ فالدفع أيضاً من نعمه.

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا بتوفيق آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن يَتَعَبَى فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

كما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً؛ أي لا يكون فيه شيء إلا بالله. ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: والصنم ما يعبد من دونه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ [الجاثية: ٢٣] فصنم كل أحد ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ وولَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة.

ويقال إنه لما بنى البيت استعان بالله أن يجردّه من ملاحظة نفسه وفعله.

ويقال إنه - ﷺ - كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق نفسه، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه: ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]. ولما نظر من حيث فقر نفسه قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

ويقال شاهد غيره فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال: ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكَ تَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾: أي موافق لي ومن أهل ملتي، ومن عصاني خالفني وعصاك.

قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: طلب للرحمة بالإشارة، أي فازحمهم.

وقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾... ولم يقل: مَنْ عصاك، وإن كان من عصاه فقد عصى الله، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة.

ويقال إن قول نبينا ﷺ في هذا الباب أتم في معنى العفو حيث قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وإبراهيم - عليه السلام - عرض وقال: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب فقال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِ بَيْتِكَ بَيْتًا مَحْرُومًا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ وإنما رأى الرفق بهم في الجوار لا في المصار فقال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ثم قال: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أي أسكنتهم لإقامة حَقِّكَ لِيُطَلِّبَ حُظُوظَهُمْ.

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته.

ثم قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي ليستغلوا بعبادتك، وأقم قومي - ما بقوا - بكفايتك، ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: فإن مَنْ قام بحق الله أقام الله

بحقه قَوْمَهُ، واستجاب الله دعاءه فيهم، وصارت القلوب من كل بر وبحر كالمجبولة على محبة تلك النسبة، وأولئك المتصلين، وسكان ذلك البيت.

ويقال قوله: ﴿يَوَادُّ غَيْرَ ذِي ذَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]: أي أسكنتهم بهذا الوادي حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبهم، ولا تشتغل بشيء أفكارهم وأسرارهم، فهم مطروحون ببابك، مصنونون بحضرتك، مرتبطون بحكمتك؛ إن راعيتهم كفيتهم وكانوا أعز خلق الله، وإن أقصيتهم ونفيتهم كانوا أضعف وأذل خلق الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

استأثرت بعلم الغيب فلا يغزب عن علمك معلوم، وحالي لا تخفى عليك، فهي كما عرفت، أنت تعلم سرِّي وعَلَنِي.. ومن عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار، واستروح قلبه عن ترجُّم الأفكار، والتقسُّم في كون الحوادث من الأغيار.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

أسعده بمنحه الولد على الكبر، ويلتحق ذلك بوجه من المعجزات؛ فحمد عليه. ولما كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته - سبحانه - عليه، وأكرامه بأنواره، وهذا يكون بمعنى الملق^(١)، ويكون استدعاء نعمة بنعمة، فكانه قال: كما أكرمتني بهبة الولد على الكبر؛ فأكرمني بهذه الأشياء التي سألتها.

ويقال الإشارة في هذا أنه قال: كما مننت عليَّ فوهبتني على الكبر هذه الأولاد فأجيبنا أن نعبد الأصنام لتكون النعمة كاملة. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].. إشارة إلى هذه الجملة.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾.. إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فمعناه اجعل صلاتي، والجلُّ والخلق بمعنى، فإذا جعله مقيم الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاة.

وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: أي اجعل منهم قوماً يصلُّون، لأنه أخبره في موضع آخر بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(١) الملق: الزيادة في التودد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي (اللسان ٣٤٧/١٠ مادة: ملق).

ثم قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن.

ويقال إن إجابة الدعاء ابتداءً فضل منه. ولا ينبغي للعبد أن يتكبر على دعاء أحد وإن كان عليّ الشأن، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله؛ فلا دعاء أتم من دعاء إبراهيم عليه السلام، ولا عناية أتم من عنايته بشأن أبيه، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له. ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام دعا لأبويه فلم يُستجب له، ثم إنه لم يترك الدعاء، وسأل حينما لم يُجب فيه. فلا غضاضة على العبد ولا تناله مدّة إن لم يُجبه مولاه في شيء؛ فإن الدعاء عبادة لا بد للعبد من فعلها، والإجابة من الحقّ فضل، وله أن يفعل وله ألا يفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَفْعَلُ الْمُظْلِمُونَ﴾.

هذا وعيدٌ للظالمين وتسليّة للمظلومين؛ فالمظلوم إذا تحقّق بأنه - سبحانه - عالم بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته، وحق عليه تحمله. والظلم على وجوه؛ ظلم على النفس بوضع الرّلة مكان الطاعة، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الرديّة منه، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين. ويقال من جملة الظالمين الشيطان، فالعبد المؤمن مظلوم من جهته، والحقّ - سبحانه - ينتصف له منه غداً، وذلك إن لم يتبّع اليوم، ودفعه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِي...﴾.

وهذا للعوام من المؤمنين، علّق قلوبهم بالانتقام منهم في المستأنف، وأمّا الخواص فإذ علموا أنه - سبحانه - عالم بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك، وأمّا خواص الخواص فإذ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظلمهم حتى يستغفر لهم، كما قال النبي - ﷺ -: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، وفي معناه أنشدوا:

وما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وازدادوا

وأما أصحاب التوحيد فإذ علموا أنه المنشئ، وألا مخترع سواه فليس بينهم وبين أحد محاسبة، ولا مع أحد معاتبة، ولا منه مطالبة، لأنهم يعدّون إثبات الغير في الظن والحسبان شركاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ

أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِثْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَلَمَّا تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

أفسدوا في أول أمورهم، وقصّروا في الواجب عليهم، ولم يكن للخَلَلِ في أحوالهم جبران، ولا لعذرهم قبول لتصحّ الحجة عليهم، فافتضح المجرم منهم، وخاب الكافر، وحقّ الحكم عليهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾.

أحللنا بهم العقوبة، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم، وجريتم على منهاجهم، وفعلتم مثل فعلهم، وبإمهالنا لكم اغتررتم. . فانتظروا مثلاً ما عاملناكم به جزاء لكم على ما أسلفتم.

ويقال إن معاشره أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم، فيستقبل فاعل ذلك استقبالهم، ومن سلكهم ينخرط في التردّي نحو هذه هلاكه مثلهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي لا تحسبته يخلف رسله وعده؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقه في ملكه، وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يصل إليه أحد، وإن كان ولياً. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يفوته أحد وإن كان (...)^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

لا يختلف غيئها وإنما تختلف صورتها، وكذلك إذا انكدرت النجوم، وانشت السماء يقال ما بدّل عينها وإنما بدّل الأزمان والمكان على الناس باختلاف أحوالهم في السرور والمحن؛ كمّن صار من الرخاء إلى البلاء يقول: تغيّر الزمان والوقت. . . وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء.

ويقال إن آدم لما قتل أحد ابنه الآخر قال:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مُغْبَرٌ قبيحٌ

وفي هذه القصة من كان صاحب بسط فردّ إلى حال القبض، ومن كان صاحب أنس فصار صاحب حجاب - يصحّ أن يقال بدل له الأرض، قال بعضهم:

ما الناس بالناس الذي عهّي بهم ولا البلاد بتلك التي كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة، وكانت الأرض به راجفة، وكان النهار له ليلاً، وكان الليل له ويلاً، وكما قيل:

(١) الآية (٤٦) لم ترد.

(٢) بياض في الأصل.

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا بِطَلْقٍ وَلَا مَاءِ الْحَيَاةِ بِبَارِدٍ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ
وَتَقْنَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ .

الأصفاد الأغلال . الأصفاد تجمعهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سراويلهم ،
والحميم شربهم ، والنار محيطه بهم . . . وذلك جزاء من خالف إلهه .

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ لِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ ۝﴾ .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لائحة ، والدواعي واضحة ، والمهلة متسعة ،
والرسول عليه السلام مبّلى ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكن القسمة
سابقة ، والتوفيق عن القيام ممنوع ، والربّ - سبحانه - فعّال لما يريد ، فمن اعتبر نجا ،
ومن غفل تردّى . والله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التي يذكر فيها الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة، لئُغْلَمَ أن الإثبات والإسقاط بلا علة؛ فلم يَقْبَلْ من قَبْلِ لاستحقاق علة، ولا رَدَّ مَنْ رَدَّ لاستيجاب علة. فَإِنْ قِيلَ الْعِلَّةُ فِي إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابتها. أَشْكِلُ بِأَنَّ الباء من بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة. فَإِنْ قِيلَ العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أَشْكِلُ بحذف ألف الوصل لأن الاتصال بها موجود، فلم يبقَ إِلَّا أن الإثبات والنفي ليس لها علة؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب، فأعرضوا عن كل شيء وسمعوا لها. ونبههم القرآن إلى أن هذه التي يسمعونها آيات الكتاب، فقال لهم لما حضرت ألبابهم، واستعدت لسماع ما يقول آذانهم: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

ووصف القرآن بأنه مبين؛ لأنه يُبَيِّنُ للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يقوي رجاءهم، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يشير لواعج أسرارهم، ويبين للمصطفى - ﷺ - تحقيق ما مَنَعَ غَيْرَهُ بعد سؤاله. ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام: «لن تراني» بعد سؤاله: ﴿رَبِّ ارْزُقْنِي أَتُظَرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا، وأي كأس رشفوا. ويقال إذا صارت المعارف ضرورية أحرقت نفوس أقوام العقوبة، وقطعت قلوبهم الحسرة.

ويقال لو عرفوا حالهم وحال المؤمنين لَعَلِمُوا أن العقوبة بإهلاكهم حاصلة لقوله تعالى بعدئذ:

قوله جل ذكره: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَلْتَمِمْ الْأَمْلَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قيمة كل امرئ على حسب همته؛ فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب؛ فالتكليف يتبعه التشريف! وغداً سوف يعلمون.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾.

الآجال معلومة، والأحوال مقسومة؛ والمشيتة في الكائنات ماضية، ولا تخفى على الحق خافية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

الجنون معنى يوجب إسناد ما ينكشف للعقل من التحصيل على صاحبه، فلمّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أولى بما وصوفه به، فهم كان في المثل: رَمَتْنِي بِذَاتِهَا وَأَنْسَلْتُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾.

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أُيد به معجزاته، فيتوجب اللؤم عليهم لسوء أدبهم. وأخبر الحق - سبحانه - أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكة لأبصار بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية. وفي المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقت أوّان هلاكهم؛ ليعلمه أن في أصلاهم من يؤمن بالله سبحانه في المستأنف.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحٰفِظُونَ﴾.

أنزل التوراة وقد وكل حفظها إلى بني إسرائيل بما استحفظوا من كتاب الله، فحرفوا وبَدَّلُوا، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظه، وإنما يحفظه بقراه؛ فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضع كتابه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سنته معهم في التعذيب. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: وهم لا يؤمنون به لأنه أراح قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسدّ - بالحرمان - عليهم سلوك الطريقة، ويئن أنه لو أراهم الآيات عياناً ما

ازدادوا إلا عتواً وطغياناً، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْبَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ .

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعواً، وبأمر التكوين مقضياً . فمتى ينفع فيه النصيح؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساع؟ كلا . . إن البصيرة له مسدودة، و (. . .)^(١) الخذلان بِقَدَمِهِ مسدودة، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة، والحقيقة على الخديعة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ .
بروجاً أي نجوماً هي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ .

إذا رام الشياطين أن يسترخوا السمع كانت النجوم لها رجوماً .
كذلك للقلوب نجومٌ وهي المعارف وهي في الوقت ذاته رجوم على الشياطين؛ فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولّي من الأولياء أحرقتَه بل محقته نجومٌ عقله وأقمارٌ عليه وشموسٌ توحيده .
وكما أن نجوم السماء زينةً للناظرين إذا لاحظوها فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهي زينة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ .
النفوس أرض عبادة العابدين، وقلوب العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة، والخوف، والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرهبة .
ويقال من الرواسي التي أثبتنا في الأرض الأولياء فيهم يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ ومن الرواسي العلماء الذين بهم قِوَامُ الشريعة؛ فعلماء الأصول هم قِوَامُ أصل الدين، والفقهاء بهم نظامُ الشرع، قال بعضهم:

واحسرتنا من فراق قوم هم المصابيخُ والأمنُ والمُزُنُ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْثِقِينَ﴾ .

كما أنبت فنونا من النبات ذات أنوار^(٢) أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار،

(١) بياض في الأصل .

(٢) أنوار: (ج) نور: الزهر أو الأبيض منه، الواحدة: نورة .

منها نور اليقين ونور العرفان، ونور الحضور ونور الشهود، ونور التوحيد... إلى غير ذلك من الأنوار.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ يَرْزُقِينَ﴾.

سبب عيش كل مختلف؛ فغيش المرادين من إقباله، وعيش العارفين التجمل بأفضاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

خزائنه في الحقيقة مقدراته، وهو - سبحانه - قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث.

ويقال خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله، وفي الخزانة جواهر في كل صنف؛ فحقائق العقل جواهر وضعها في قلوب قوم، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة، وأسرار العارفين مواضع سره، والنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزانه ذكره.

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خطاه عن التردد على منازل الناس في طلب الإرفاق منهم، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها، قاطعاً أمله عن الخلق، مفرداً قلبه لله متجرداً عن التعلق بغير الله.

قوله ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: عَرَفَ الْقِسْمَةَ مِنْ اسْتِرَاحٍ عَنْ كَدِّ الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ الْمَعْلُومَ لَا يَتَغَيَّرُ، وَالْمَقْسُومَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَإِذَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ لِأَحَدٍ فَبِقُدْرَتِهِ عَلَى إِجَابَةِ الْعَبْدِ إِلَى طَلْبَتِهِ لَا يَتُوجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحْمِيلِ الْمِنَّةِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مِمَّا يَعْطُونَهُمْ، وَأَرَّاحَ الْأَغْنِيَاءَ مِنْ مَطَالِبَةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ شَيْئاً، فَلَيْسَ لِلْفَقِيرِ صَرْفُ الْقَلْبِ عَنْ اللَّهِ سَبْحَانَهُ إِلَى مَخْلُوقٍ وَاعْتِقَادُ مِنَّةٍ لِأَحَدٍ، إِذِ الْمُلْكُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالْأَمْرُ بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا قَادِرَ عَلَى الْإِبْدَاعِ إِلَّا اللَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَفِّعَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

كما أن الرياح في الآفاق مُقَدِّمَاتُ الْمَطَرِ كَذَلِكَ الْأَمَالُ فِي الْقُلُوبِ، وَمَا يَقْرَبُ الْعَبْدَ مِمَّا يَتَوَارَدُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ مَبْشَرَاتِ الْخَوَاطِرِ، وَنَسِيمِ النِّجَاةِ فِي الطَّلَبِ يَحْصُلُ، فَيَسْتَرْوِحُ الْقَلْبُ إِلَيْهِ قَبْلَ حَصُولِ الْمَأْمُولِ مِنَ الْكِفَايَةِ وَاللَّطْفِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنْشَأْنَاهُ كُفُوًا وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَمْ يَخْزَيْنِ﴾.

أسفاه إذا جعل له الشقيا؛ كذلك يجعل الحق - سبحانه - لأولياؤه أطافاً معلومة في أوقات محدودة! كما قال في وصف أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلِّ ورداً معلوماً، ثم قضايا ذلك تختلف:
فَمِنْ شراب يُسَكِّرُ، ومن شراب يُخَضِّرُ، ومن شراب يزيل الإحساس، كما قيل:
فصحوك من لفظي هو الصحو كله وسُكْرُكَ من لحظي يبيح لك الشُّربا
ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية، فلا للأغيار فيها
أثر، ولا عن الخلائق لهم خير.

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عَطَّرَتْهَا بنفخات الأنس،
فَيَسْنَقُونَ في نسيمها على الدوام، وفي معناه أنشدوا:
وهبَّتْ شمال آخر الليل قُرَّةً ولا ثوبَ إلا بُرْدَةً وردائيا^(١)
وما زال بُرْدِي لينا من رداها إلى الحولِ حتى أصبح البُرْدُ باليا
ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مَنَاقِبِهِ ومثالبه
محاسنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾.
نحيي قلوبهم بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.
ويقال نحييهم بأن نفيتهم بالمشاهدة، ونميتهم بأن نأخذهم عن شواهدهم.
ويقال يحيي المرئدين بذكره، ويميت الغافلين بهجره.
ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات.
ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن
أفضاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِضِينَ﴾.
العارفون مستقدمون بِهِمَّتِهِمْ، والعابدون مستقدمون بَقَدَمِهِمْ، والتائبون بندمهم
وأقوام مستأخرون بقدمهم وهم العُصاة، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون
بخسائس الحالات.
ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات، والمستأخرون المتكاسلون عن
الخيرات.

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطر الحق - من غير تعريجٍ إلى تفكير،
والمستأخرون الذين يرجعون إلى الرُّخَصِ والتأويلات.
ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق، والمستأخرون الذين
تشبطهم مشقة الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

يبعث كلاً على الوصل الذي خرجوا من الدنيا عليه: فمن منفرد القلب بربه، ومن مُتَطَوِّح في أودية التفرقة، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ وَالْجَنَّاتِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾.

ذَكَرَهُمْ بِخَسَمِهِمْ لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم.

ويقال القيمة في القربة لا بالثربة؛ والنسب تربة ولكن النعت قربة.

﴿وَالْجَنَّاتِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾: وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجيء منها شيء، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه، كذلك العدو لما انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجر بعده، وأما آدم - عليه السلام فلما اغترَّ جَبَرَهُ ماء العنابة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبْهُ رَبُّهُ﴾ [طه: ١٢٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

أظهرهم بهذا القول، وفي عين ما أظهرهم سَرَّهُم.

ويقال ليست العبرة بقوالبهم. إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم.

ويقال الملائكة لاحظوه بعين الخلق فاستضغروا قَدْرَهُ وحالَهُ، ولهذا عَجَبُوا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ - سبحانه - لهم بالسجود له، فكشف لهم شظية مما اختصّه به فسجدوا له.

قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾: وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عَنْ أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبقي في ظُلْمة الخَيْرَةِ.

ويقال بَخِلَ بسجدة واحدة، وقال: أَسْتَكْبِفُ أَنْ أَسْجُدَ لغير الله. ثم من شقاوته لا يبالي بكثرة معاصيه، فإنه لا يَغْصِي أحداً إلا وهو سببٌ وسواسه، وداعيه إلى الزَّلَّةِ.. وذلك هو عين الشَّقْوة وقضية الخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَبْنَطُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾.

سأله ومعلوم له حاله، ولو ساعدته المعرفة لقال: قُلْ لي مالِك؟ وما مَنَعَكَ؟ وَمَنْ مَنَعَكَ حتى أقول أنت.. حيث أَشَقَّيْتَنِي، وبَقَهْرِكَ أَغْوَيْتَنِي، ولو رَجَمْتَنِي، لَهَدَيْتَنِي وفي كنف عصمتك آويتني... ولكن الحرمان أدركه حتى قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

ولما أبعد الحق - سبحانه - عن معرفته، وأفرده باللعة استنظره إلى يوم القيامة والبعث، فأجابه. وظن اللعين أنه حصل في الخير مقصوده، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً، فكأنه كان في الحقيقة مكرراً - وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال بما يشبه اللطف والبر.

وبعض أهل الرجاء يقول: إن الحق - سبحانه - حينما يهين عدوه لا يرد دعاءه في الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار؛ فالمؤمن - إذ أمره الاستغفار والسؤال بوصف الاقتدار - أولى ألا يقنط من رحمته، لأن إظهار اللعين زيادة شقاء له تحقيق عطاء.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوَيْتُكَ لِأَرْضِنَنِي لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَخَوَيْتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الباء في: ﴿يَا أَخَوَيْتُكَ﴾ باء القسم، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يقسم به لولا قرط جهله. ثم هو في المعنى صحيح، لأن الإغواء مما يتفرّد بالحق بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحد، ولكن اللعين لا يعرف الله الحقيقة، إذ لو عرفه لم يدع إلى الضلال، لأنه لو قدر على إضلال غيره لاستبقى على الهداية نفسه. وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك خدساً وهو لم يعرف الله - على الحقيقة - قط.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

الإخلاص هو تصفية الأعمال عن الغين وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال. وقد علم اللعين أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لما تحقق من عناية الحق بشأنهم.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ تهديد، كما تقول: افعَلْ مَا شِئْتُ.. وهذا طريقي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

السلطان الحجة، وهي الله على خلقه، وليس للعدو حجة على مخلوق، إذ لا تتعدى قدرته محله، فلا تسلط - في الحقيقة - لمخلوق بالتأثير فيه.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾: إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاص، وهم الذين محاهم عن شواهدهم، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة وجردهم عن حولهم وقوتهم، وكان النائب عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم، وحفظ عليهم آداب الشرع، وألبسهم صدار الاختيار في أوان أداء التكليف، وأخذهم عنهم باستهلاكهم في شهوده، واستغراقهم في وجوده.. فأى سبيل للشيطان إليهم؟ وأي يد للعدو عليهم؟

وَمَنْ أَشْهَدُ الْحَقِّ حَقَائِقَ التَّوْحِيدِ، ورأى العالمَ مُصَرِّفًا في قبضة التقدير، ولم يكن نهياً للأغيار... فمتى يكون للعين عليه تسلط، وفي معناه قالوا:

جحودي فيك تقديسٌ وعقلي فيك تهويسٌ

فممن آدم إلاكٌ وممن في البيت إبليسٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَمَّا سَبَعَهُ أَبَوَاهُ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْشُورٌ﴾.

اجتمعوا اليوم في أصل الضلالة، ثم الكفر مللٌ مختلفة، ثم يجتمعون غداً في العقوبة وهم زمرٌ مختلفون، لكلّ ذرّة من دركات جهنم قوم مخصّون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

المتقي من وقاه الله بفضله لا من اتقى بتكليفه، بل إنه ما اتقى بتكليفه إلا بعد أن وقاه الحق - سبحانه - بفضله. هم اليوم في جنات ولها درجات بعضها أرفع من بعض، كما أنهم غداً في جنات ولها درجات بعضها فوق بعض.

اليوم لقوم درجة حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة، ولقوم درجة البسط والراحة، ولآخرين درجة الرجاء والرغبة، ولآخرين درجة الأنس والقربة، قد علم كل أناس مشربهم ولزم كل قوم مذهبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾.

معناه يقال لهم: ﴿أدخلوها﴾، وأجمل ذلك ولم يقل من الذي يقول لهم. ويرى قوم أن المَلِك يقول لهم: أدخلوها.

ويقال إذا وافوا الجنة وقد قطعوا المسافة البعيدة، وقاسوا الأمور الشديدة، فمن حقهم أن يدخلوا الجنة، خاصة وقد علموا أن الجنة مباحة لهم، ولعلمهم لا يفقهون حتى يقال لهم.

ويقال يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول المَلِك حتى يقول الحق: أدخلوها، كما قالوا:

ولا ألبسُ الثعَمَى وغيرك مُلبِسٌ ولا أقبلُ الدنيا وغيرك واهِبٌ

قوله: ﴿بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾: بمعنى السلامة، وهي الأمان، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها.

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال؛ فالرؤية لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية - مديدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾.

أَمَرَ الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، وأمر جبريل عليه السلام حتى غَسَلَ قلب المصطفى - ﷺ - فطَهَّرَهُ. وتولَّى هو - سبحانه - بنفسه تطهير قلوب العصاة، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧] وذلك رفقاً بهم، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجب منه القوي، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبهم، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم.

ويقال قال: ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب في قبضته يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١) يريد بذلك قدرته، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً. وقيل بين إصبعين أي نعمتين.

قوله جل ذكره: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

قابل بعضهم بعضاً بالوجه، وحفظ كل واحد عن صاحبه سيره وقلبه، فالنفوس متقابلة ولكن القلوب غير متقابلة؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾.

أي لا يلحقهم تعب؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم. وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكان إلى مكان، ولا تحار أبصارهم، ولا يلحقهم ذهش، ولا يتغير عليهم حال عما هم عليه من الأمر، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق.

﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ أي لا يلحقهم ذل الإخراج بل هم بدوام الوصال.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْنِي عِبَادِي أَزِيدُ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ حديث المتقين وما لهم من علو المنزلة انكسرت قلوب العصاة، فتدارك الله قلوبهم، وقال لنبيه - ﷺ - أخبر عبادي العصاة أنني غفور رحيم، وأني إن كنت الشكور الكريم بالمطيعين فأنا الغفور الرحيم بالعاصين.

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله: ﴿أَنَا﴾ بسمع التحقيق لا يبقى فيه مسامح لسماع المغفرة والرحمة؛ لأنه يكون عندئذ مُخْتَطِفاً عن شاهده، مُسْتَهْلِكاً في أنيته.

(١) للحديث رواية أخرى: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن». أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٨/٢، ٩)، وابن أبي عاصم في (السنة ٩٩/١)، والطبري في (التفسير ١٢٦/٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٦/٦٥)، والبيهقي في (الأسماء والصفات ٣٤١)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٧/٢٥٥٧).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

العذاب الأليم هنا هو الفراق، ولا عذاب فوق الفراق في الصعوبة والألم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾.

ألا عرفهم كيف كانت فتوة الخليل في الضيافة، وقيامه بحق الضيفان، وكان الخليل عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان، فلمّا سلموا من جانبهم وردّ عليهم وانفضوا عن تناول طعامه:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وجِلون أي خائفون، فإنّ الإمساك عن تناول طعام الكرام موضع للريبة. ولمّا علّم أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين. ولكن سكن رَوْعُهُ عندما قالوا له:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

فليس لك موضع للوجل لكن موضع للفرح؛ فإنّا جئناك مبشرين، وإن كُنّا لغيرك معذّبين.

نحن ﴿نبشرك بغلام عليم﴾: أي يعيش حتى يعلم، لأن الطفل ليس من أهل العلم، وكانت بشارتهم بالولد وبقاء الولد هي العجب فقال:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا يُبَشِّرُونَ قَالَوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

قال أبشروني وقد مسني الكبر؟ وإنّ الكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء. بماذا تبشروني وقد طعنت في السن، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة؟ قالوا: بشرك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من ضالاً.

قال: كيف أخطأ ظنكم في فتوهمتم أنني أقنط من رحمة ربي؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث، وعرف أنه لن يُصيبه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ مُجْرِمِينَ إِلَّا نَالُ لُوطٍ إِنَّا لَمَجْنُونٌ أَجْمَعُونَ إِلَّا أَمْرًا تَقَرَّرْنَا بِهَا لَمِنَ الْقَدِيرِينَ﴾.

قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟

قالوا: أُرسلنا لعذاب قوم لوط، ولننجي أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم في الفساد، وكانت تدل على أضيافه، فاستوجبت العقوبة.

فلما وافى المرسلون من آل لوط أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر، وتفرّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمرٍ عظيم، قالوا: بل جئناك بما كان قومك يَشْكُونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم، وآتيناك بالحق، أي بالحكم الحق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَاكَ مِنْكَ أَحَدٌ وَاهْمُؤُوا حَيْثُ تُمْرُونَ﴾.

فأسر بأهلك بعدما يمضي شيء من الليل، وامش خلفهم، وقدمهم عليك، واتبع أدبارهم، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب، وإنا ننقذك وأهلك إلا امرأتك، فإننا نعذبها لمشاركتها مع قومك في العصيان. ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُمْرُونَ﴾ فلکم السلامة ولقومكم العقوبة.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي علمناه وعرفناه: ﴿أَنْتَ دَايِرٌ هَهُنَا مَقْطُوعٌ﴾؛ أي أنهم مهلكون ومُستأصلون بالعقوبة.

ثم لما نزل الملائكة بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافي، فلا تعرضوا لهم فتفضحوني، واتقوا الله، وذروا مخالفة أمره ولا تخجلوني. فقال قومه: ألم ننّهك عن أن تحمي أحداً، وأمرناك ألا تمنع منا أحداً؟ فقال: هؤلاء بناتي يعني نساء أمتي. وقال قوم: أراد بناته من صلبه، عرّضهن عليهم لئلا يلُمّوا بتلك الغلطة الفحشاء، فلم تنجع فيهم نصيحة، ولم يقلعوا عن خيبت قضيتهم.

فأخبره الملائكة ألا يخاف عليهم، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمَهُونَ﴾.

أقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه، وتفضيلاً له على سائر البرية، فقال وحياتك - يا محمد - إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يتردّون، وإنهم عن شِرْكهم لا يقلعون.

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته - إنهم في خمار سُكرهم، وغفلة ضلالتهم لا يترقبون عقوبة، ولا يخافون سوءاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُثْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّا لَنَسَبِلُ مُقِيمٍ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

باتوا في حبور وسرور، وأصبحوا في محنة وثبور^(٣)، وخزّت عليهم سقوفهم،

(١) الآيات من (٦١ - ٦٤) لم ترد.

(٢) الآيات من (٦٧ - ٧١) لم ترد.

(٣) الثبور: الهلاك.

وجعلنا مَذْتَبَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يَتَّقِ عِناً وَلَا أَثْراً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنِ اعْتَبَرَ، ودلالة ظاهرة لمن استبصر، ﴿وَأَنَّا لِنَسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَغْتَبِرَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلَّذَرِينَ﴾.

جاء في التفسير «المتفرسين»، والفراشة خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهور يرهان عليه، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراشة. مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر. والحق - سبحانه - يُطْلِعُ أولياءه على ما خفي على غيرهم. وصاحب الفراشة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات؛ بل يجوز أن تُسَدَّ عليه عيونُ الفراشة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام؛ فَبَيَّنَّا - ﷺ - كان يقول لعائشة - رضي الله عنها - في زمان الإفك: «إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ فَتَوْبِي إِلَى اللَّهِ». وكإبراهيم ولوط - عليهما السلام - لم يعرفا الرسل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَلِأَيَّامٍ مُّبِينٍ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْجَبْرِ الْمُرْسَلِينَ وَأَنتَنَّهُمْ مَا بَيْنَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَتَحَدَّوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يُوَاتُّنَا آمِنِينَ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ فَأَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أصحاب الأيكة^(١) هم قوم شعيب، وكان شعيب - عليه السلام - مبعوثاً لهم فكذبوه، فانتقمنا منهم.

قوله: ﴿وَلِأَيَّامٍ مُّبِينٍ﴾ يعني مدين والأيكة... : أي بطريق واضح مَنْ قصده (...).^(٢)

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر^(٣) - وهم ثمود - كذبوا المرسلين إليهم، وأنهم أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كنافه صالح وغيرها، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُعْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُونَ من الموت والعذاب. ثم أخبر أنهم أَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ على بغتة، ولم تُغْنِ عنهم حيلتهم لَمَّا حُلَّ حِينُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

(١) الأيكة: الشجر الكثير الملتف. وأصحاب الأيكة: قوم شعيب عليه السلام كانت مساكنهم كثيفة الأشجار.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الججر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. (معجم البلدان ٢/ ٢٢١).

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَكْسَابَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ لِأَنَّهَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ .

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: أي وأنا مُحَقِّقٌ فيه ويقال ﴿بِالْحَقِّ﴾: بِالْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْكَائِنِ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ يَعْنِي الْقِيَامَةَ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ .

يقال الصَّفْحُ الْجَمِيلُ الَّذِي تَذَكُرُ الرَّزَّةُ فِيهِ .

ويقال الصَّفْحُ الْجَمِيلُ سَحْبُ ذَيْلِ الْكَرَمِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ عَقْدِ الرَّزَّةِ، بَلَا ذِكْرٍ لِمَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَا قِيلَ:

تَعَالَوْا نَصْطَلِحْ وَيَكُونُ مِنَّا

(.....) (١)

ويقال الصَّفْحُ الْجَمِيلُ الْإِعْتِذَارُ عَنِ الْجُزْمِ بَلَا عُدَّ الذُّنُوبِ مِنَ الْمَجْرَمِ، وَالْإِقْرَارُ بِأَنَّ الذَّنْبَ كَانَ مِنْكَ لَا مِنَ الْعَاصِي، قَالَ قَائِلُهُمْ:

(وَتُذْنِبُونَ فَنَنْسِي وَنَعْتَذِرُ)

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: إِذْ لَا يَصِحُّ الْفِعْلُ بِوَصْفِ الْإِنْتِظَامِ وَالِاتِّسَاقِ مِنْ غَيْرِ عَالِمٍ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ .

أَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ، وَسَمِيَتْ مِثْلَانِي لِأَنَّهَا نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً بِمَكَّةَ وَمَرَّةً بِالْمَدِينَةِ، وَلِأَنَّهَا شَيْءٌ فِي كُلِّ صَلَاةٍ يَتَكَرَّرُ، مِنْ «الثَّنِيَّةِ» وَهِيَ التَّكْرِيرُ، أَوْ لِأَنَّ بَعْضَهَا يُضَافُ إِلَى الْحَقِّ وَبَعْضُهَا يُضَافُ إِلَى الْخَلْقِ . . وَمَعْنَى هَذَا مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ .

لَمْ يُسَلِّمْ لَهُ إِشْبَاعَ النَّظَرِ إِلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا .

وَيُقَالُ غَارَ عَلَى عَيْنَيْهِ - ﷺ - أَنْ يَسْتَعْمَلَهَا فِي النَّظَرِ إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ .

وَيُقَالُ أَذْبَهُ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - بِهَذَا التَّأْدِيبِ حَتَّى لَا يُعَيِّرَ طَرَفَهُ مِنْ حَيْثُ الْاسْتِنَاسُ بِهِ .

وَيُقَالُ أَمْرُهُ بِحِفْظِ الْوَفَاءِ لِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ الْيَوْمَ سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى رُؤْيَيْهِ، فَلَا تَمْدَنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مِلَاحِظَةِ شَيْءٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَوَّلْنَاهُمْ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

لَمَّا تَبَيَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

ويقال شَتَانٌ بينه وبين موسى - عليه السلام! قال له: ﴿كُنْ تَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ونبينا - ﷺ - مَنَّعَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى المَخْلُوقَاتِ بِوصفٍ هو تمام النظر فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله؟!

ويقال لما أَمَرَ بِغَضِّ بَصَرِهِ عما يَتَمَتَّعُ به الكفار في الدنيا تَأَدَّبَ - عليه السلام - فلم ينظر ليلة المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة، فأثنى عليه الحقُّ بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] وكان يقول لكل شيءٍ رآه: «التحيات لله»^(١) أي المُلْكُ لله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أدبه حتى لا يتغير بصفة أحد، وهذه حال التمكن.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَأَنفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي أَلَمِنَ لَهُم جَانِبَكَ. وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة^(٢) في الشافعة إلى مواليتها يمضي معها.. إلى غير ذلك من حسن خُلُقٍ - صلوات الله عليه - وكان في الخبر إنه كان يخدم بتيه وكان في (مهنة) أهله. وتولّى خدمة الوفد، وكان يقول: «سَيِّدُ الْقَوْمِ خَادِمُهُمْ»^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

لَمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه - سبحانه وتعالى - سَلَّمَ له أن يقول: إني وأنا. وفي الخبر: أن جابراً^(٤) دَقَّ عليه الباب، فقال: مَنْ؟ قال: أنا.. فقال النبي عليه السلام: «أنا أنا».. بكانه كرهها.

(١) أخرجه التبريزي في (مشكاة المصابيح ٩١٠)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ٤٧٢/٣).

(٢) الوليدة: الجارية المولودة بين العرب. (اللسان ٤٦٩/٣ مادة: ولد).

(٣) أخرجه السيوطي في (الحاوي للفتاوى ١٠١/٢)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٣٩٢٥) والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٥١٦ - ١٧٥١٨ - ١٧٥١٩ - ٢٤٨٣٤ - ٢٤٨٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٨٧/١)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٩٥) والمجلوني في (كشف الخفاء ٥٦١/١ - ٥٦٢).

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي (١٦ ق هـ - ٧٨ هـ = ٦٠٧ - ٦٩٧ م صحابي، من المكشزين في الرواية عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من الصحابة، له ولأبيه صعبة غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً. وله «مسند».

الأعلام ١٠٤/٢، والإصابة ٢١٣/١، وذيل المذيل ٢٢، وتهذيب الأسماء ١٤٢/١.

ويقال: قُلْ لَا حُدَّ لَاسْتِهْلَاكَ فِينَا، سَلَّمْنَا أَنْ تَقُولَ: إِنِّي أَنَا، لَمَا كُنْتُ بِنَا وَلَنَا.
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾.

أي قل إني أنا لكم مُنْذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذي عَذَّبْنَا بِهِ الْمُقْتَسِمِينَ؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيِّه في قصه صالح عليه السلام. وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله؛ فَأَمِنُوا بِيَعُضِهِ وَكَفَرُوا بِيَعُضِهِ.

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم، وصدوا الناس. وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ بِهِ: لَا تُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ سَاحِرٌ، ويقول الآخر: إِنَّهُ كَاهِنٌ ويقول ثالث: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، فهم بِأَقْسَامِهِمْ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(١).

ففرقوا القول فيه، فقال بعضهم إنه شعر، وقال بعضهم إنه سحر، وقال بعضهم إنه كهانة... إلى غير ذلك.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَذَّذَهُنَّ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم.
ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم.
ويسأل الصديقين عن تصحيح المعاني بفعالهم، ويسأل المدَّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم.

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم أنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلمهم وتُسَمِّعُهُمْ خُطَابَهُ لِاسْتِيفَائِهِمْ إِلَيْهِ، وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَالْمَخْلُوقُ يَقُولُ فِي مَخْلُوقٍ:
فِي الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا إِذَا مَا انْتَهَتْ أَخْذُوئُهُ لَوْ تُعِيدُهَا^(٢)
فَلَا أَسْعَدُ مِنْ بَشَرٍ يَعْرِفُ أَنَّ مَوْلَاهُ غَدَاً سَيَكْلَمُهُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

كُنْ بِنَا وَقُلْ بِنَا، وَإِذَا كُنْتَ بِنَا وَلَنَا فَلَا تَجْعَلْ حِسَاباً لغيرنا، وَصِرْخُ بِنَا خَاطِبُنَاكَ بِهِ، وَأَفْصَحُ عَمَّا نَحْنُ خَصْمُنَاكَ بِهِ، وَأَعْلَنُ مُحِبَّتِنَا لَكَ:

فَسُبِّحْ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَعْنَا مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ بَعْدِهَا سَتَرُ
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) عضين: (ج) عضة: القطعة. وعضة نقصانها الواو أو الهاء، وهي من الأسماء الناقصة، وأصلها عضة. (اللسان ٦٨/١٥ مادة: عضا).

(٢) الخفريات: (ج) الخفرة: الشديدة الحياء (اللسان ٢٥٣/٤ مادة: خفر).

الذين دَفَعْنَا عَنْكَ عَادِيَةً^(١) شَرَّهُمْ، وَذَرَأْنَا عَنْكَ سُوءَ مَكْرِهِمْ، وَنَصَرْنَاكَ بِمُوجِبِ عَنَانَيْنَا بِشَأْنِكَ.. فلا عليك فيما يقولون أو يفعلون، فما العقبي إلا لك بالنصر والظفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقال: ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ولم يقل يضيق قلبك؛ لأنه كان في محل الشهود، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا تكون مع اللقاء وحشة.

ويقال هَوْنٌ عليه ضيق الصدر بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمّك فارتفع^(٢) بلسانك في رياض تسييحنا، والثناء علينا، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا، واستحقاق عزنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة، إلى أن تجلس على بساط القرية، وتطالب بآداب الوصلة.

ويقال التزم شرائط العبودية إلى أن تزقى بل تكفى بصفات الحرية. ويقال في ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣): إن أشرف خصالك قيامك بحق العبودية.

(١) يقال: دفعت عنك عادية فلان؛ أي: ظلمه وشره (ج) عواد.

(٢) الصواب أن تكون: فارتفع. قال القشيري برسالته عند حديثه عن الذكر: وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الجنة فارتعوا فيها، فقليل له: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر» الحديث رواه أنس بن مالك وأخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٥ في الدعوات باب رقم (٨٧) وقال: إنه حديث حسن. (الرسالة القشيرية ص ٢٢٢).

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن العبودية: سمى الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين. (الرسالة القشيرية ص ١٩٧).

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ألف الوصل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لم يكن لها في التحقيق أصل، جُلِبَتْ للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالسّاكن، وإذا وقع ذلك أنفأ عنها أُسْقِطَتْ في الإدراج، ولكن كان لها بقاء في الخط وإن لم يكن لها ظهور في اللفظ، فلما صارت إلى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أُسْقِطَتْ من الخط كذلك.. وكذلك من ازداد صحبةً استأخر رتبةً.

ويقال أي استحقاق لو او عمرو حتى ثبتت في الخط؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا؟ وأي موجب لحذف الألف من السموات؟

طاحت العلل في الفروق، وليس إلا اتفاق الوضع.. كذلك الإشارة في أرباب الردّ والقول، قال تعالى ﴿إِنْ رِبْكَ فَاعِلٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

صيغة أتى للماضي، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة، والمعنى «سيأتي» أمر القيامة، والكائنات كلّها والحادثات بأسرها من جملة أمره؛ أي حصل أمرٌ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصلٌ بتقديره وتيسيره، وقضائه وتدبيره؛ فما يحصل من خير وشر، ونفع وضرر، وحلو ومُر. فذلك من جملة أمره تعالى.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات، وهم خامدون تحت جريان تصريح الأقدار؛ فليس لهم إشار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً، وإذا أمّلوا شيئاً، أو أخبروا بحصول شيء فلا استعجال لهم، بل شأنهم التأنّي والثبات والسكون. وإذا بدا من التقدير حكمٌ فلا استعجال لهم لما يردّ عليهم، بل يتقبلون مفاجأة التقدير بوجهٍ ضاحك، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردّ والقبول، والمنع والفتوح بوصف الرضاء، ويحمدون الحق - سبحانه وتعالى - على ذلك.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تعالى عما يشركون بربهم، والكفار لم ييسر لهم حتى أنه لا سكنَ لقلوبهم من حديثه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَزِلُّ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

ينزل الملائكة على الأنبياء - عليهم السلام - بالوحي والرسالة، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثُونَ. وإنزال الملائكة على قلوبهم غير مردود لكنهم لا يُؤْمَرُونَ أن يتكلموا بذلك، ولا يكملون رسالة إلى الخلق.

ويُراد بالروح الوحي والقرآن، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة؛ إمّا حياة القلب أو حياة الدنيا.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

خَلَقَهَا بِالْحَقِّ، وَيَحْكُمُ فِيهَا بِالْحَقِّ، فَهُوَ مُجِبُّ فِي خَلْقِهَا لِأَنَّ لَهُ ذَلِكَ، ويدخل في ذلك أمره بتكليف الخلق، وما يَغْفُبُ ذلك التكليف من الحَشْرِ والنَّشْرِ، والثواب والعقاب.

﴿وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه ملك.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُؤْتٍ﴾.

تعرّف إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب، والتأليف اللطيف؛ من نطفة متماثلة الأجزاء، متشاكلة في وقت الإنشاء، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء، والخروج من الخفاء. ثم رَكَّبَ فيه من تمييز وعقل، وَبَسَّرَ له النقط والفعل، والتدبير في الأمور، والاستيلاء على الحيوانات على وجه التسخير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْأَنْفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْعِفٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ذَكَرَهُمْ بِمَا تَفْضُلُ عَلَيْهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا لِلْحَيَوَانَاتِ مِنَ النِّعَمِ، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع في جميع الأحوال، كالخجل وكالسفر عليها وقطع المسافات، والتوصل على ظهورها إلى مآربهم، وما لِنَسْلِهَا وَلِدَرْهَا مِنَ الْمَنَافِعِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نِشْقَ الْإِنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الغني له جمال بماله، والفقر له استقلال بحاله. . . وشئان ما هما! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون، والفقراء يستقبلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون. أولئك تحمل أنفالهم جمالهم، وهؤلاء يحمل الحق عن قلوبهم أنفالهم.

﴿لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نِشْقَ الْإِنْفُسِ﴾: قوم أحوالهم مقاساة الشدائد؛ يَصِلُونَ سيرهم بسراهم، وقوم في حمل مولاهم؛ بعيدون عن كد التدبير، مستريحون بشهود التقدير، راضون باختيار الحق في العسير واليسير.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فالنفوس في حملها كاللدواب، والقلوب معتقة عن التعني^(١) في الأسباب. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون في الآخرة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فكذلك أرباب الحقائق يجدون - اليوم - ما لم يخطر قط على بال، ولا قرأوا في كتاب، ولا تلقنوه من أستاذ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه لا يعلم تفصيله سواه. . وكيف يعلم من أخبر الحق - سبحانه - أنه لا يعلم؟.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قومٌ هداهم السبيل، وعرفهم الدليل، فصرف عن قلوبهم خواطر الشك، وعصمهم عن الجحيد والشرك، وأطلع في قلوبهم شمس العرفان، وأفردهم بنور البيان. وآخرون أضلهم وأغواهم، وعن شهود الحجج أعماهم، وفي سابق حكمه من غير سبب أذلهم وقمعهم، ولو شاء لعرفهم وهداهم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْثِي لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أنزل المطر وجعل به سقيا النبات، وأجرى العادة بأن يديم به الحياة، وينبت به الأشجار، ويخرج الثمار، ويجري الأنهار.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ثم قال بعده بآيات: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة؛ فأولاً التفكير ثم العلم ثم التذكر، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خلل وجب له العلم لا محالة، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر.

ويقال إنما قال: ﴿لَآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير عارفاً، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل، فللعالم حتى يكون عارفاً بربه آيات ودلائل، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة؛ فبدليل واحد يعلم وجهة النظر، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَرَّ لَكُمْ أَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

الليل والنهار ظرفا الفعل، والناس في الأفعال مختلفون: فموفق ومخذول؛ فالموفق يجري وقته في طاعة ربه، والمخذول يجري وقته في متابعة هواه.

(١) تعنى: تعب تعباً شديداً. وتعنى الأمر: تكلفه على مشقة.

العابد، يكون في فَرْضٍ يقيمه أو ثَقْلٍ يديمه، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَفِقُونَ عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل:

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى؟
لَوْ تَفَرَّغْتُ لَاسْتَطَالَةَ لَيْلِي ورعيت النجوم كنت مُخِلًا
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

هذا في الظاهر، وفي الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا ذَرَأَا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾.

أقوامٌ خَلَقَ لهم في الأرض الرياضَ والغياض^(١)، والدور والقصور، والمساكن والمواطن، وفنون النعم وصنوف القسَم. . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر، ولا لهم في الأرض شِبر؛ لا ديار تملكهم، ولا علاقة تُمسِكُهم - أولئك سادات الناس وضياء الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
سخر البحر في الظاهر، وسَهَّلَ ركوبه في الفُلْكِ، ويسَّرَ الانتفاع بما يستخرج منه من الحِلْيَةِ كاللؤلؤ والدرّ، وما يفتات به من السمك وحيوان البحر.

ومن وجوه المعاني خلق صنوفاً من البحر، فقومٌ غَرَفُوا في بحار الشغل وآخرون في بحار الحزن، وآخرون في بحار اللهو. فالسلامة من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تُعِيدَ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.
الرواسي في الظاهر الجبال، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخلق، بهم يرحمهم، وبهم يغنيهم. . ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾

(١) الغياض: جمع غيضة وهي الشجر الملتف. (اللسان ٢٠٢/٧ مادة: غيظ).

(٢) للحديث رواية أخرى: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته». أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٤٢٦٣٢)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢٢)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩)، (أحاديث القصاص ٢٤).

[الأنفال: ٣٣]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّوهُمْ أَن تَطَّوَّهُمْ﴾، [الفتح: ٤٥]، وأنشد بعضهم:

واحسرتا من فراق قوم هم المصابيح والأمن والمزن
قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَأْتِجُمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الكواكب نجوم السماء ومنها رجوم للشياطين، والأولياء نجوم في الأرض. وكذلك العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجوم للكفار والملحدين.

ويقال فرّق بين نجوم يهتدى بها في فجاج الدنيا، ونجوم يهتدى بهم إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه - سبحانه - وبين خلقه. وصفات القدم لله مستحقة، وما هو من خصائص الحدّثان وسمات الخلق يتقدّس الحق - سبحانه - عن جميع ذلك. ولا تشبّه ذات القديم بذوات المخلوقين، ولا صفاته بصفاتهم، ولا حكمه بحكمهم، وأصل كل ضلالة التشبيه، ومن فُتِح ذلك وفساده أن كل أحد يتبرأ منه ويستنكف من انتحاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الموجودات لا تحصوها لتقاصر علومكم عنها، وما هو من نعم الدفع فلا نهاية له. وهو غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره، ويرضى بمعرفتكم (...)(١) لكم عن شكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص.. فلا يخفى عليه حسابان، وما تعلنون من الوفاق والشقاق، والإحسان والعصيان. والآية توجب تخويف أرباب الرّذائل، وتشريف أصحاب الطاعات.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أخبر أن الأصنام لا يصحّ منها الخلق لكونها مخلوقة، ودلت الآية على أن من وُجِدَتْ له سمة الخلق لا يصحّ منه الخلق، والخلق هو الإيجاد؛ ففي الآية دليل على خلق الأعمال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْثَلُ غَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

لَأَنَّ مَنْ لِحَقِّهِ وَصَفُ التَّكْوِينِ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِبْجَادُ. وفي التحقيق كُلُّ مَنْ عَلِقَ قَلْبَهُ بِشَيْءٍ، وَتَوَهَّمْ مِنْهُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ بِظَنِّهِ، وإنما التوحيد تجريد القلب عن حسابان شظيئة من النفي والإثبات من جميع المخلوقين والمخلوقات.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

لَا قَسِيمَ لِذَاتِهِ جَوَازًا أَوْ جَوْبًا، وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ. . . وَمَنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ قَطْعًا، وَبِشَهَادَةِ الْبَرَاهِينِ لَهُ تَفْصِيلًا فَهُوَ فِي دَرَكَاتِ الشُّرْكِ وَاقِعٌ، وَعَنْ حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ بِمَعزَلٍ، قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْكُفَّارِ: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أَي فِي أَسْرِ الشُّرْكِ وَغَطَاءِ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَيْسَ فِيهِ اتِّصَافٌ لَطَلَبِ الْعِرْفَانِ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ - لِمَنْ أَرَادَ الْمَعْرِفَةَ - مُتَاحَةٌ، وَأَدْلَةُ الْخُلُقِ لَاحِظَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

فِيضْحِكُهُمْ وَيُبَيِّنُ نِفَاقَهُمْ، وَيُعْلِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ كُفْرَهُمْ وَشِقَاقَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

دَلِيلُ الْخُطَابِ أَنَّهُ يَحِبُّ الْمَتَوَاضِعِينَ الْمُتَخَاشِعِينَ، وَيَكْفِيهِمْ فَضْلًا بَشَارَةَ الْحَقِّ لَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

لِحَقِّهِمْ شَوْمُ تَكْذِيبِهِمْ، فَأَصْرُوا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ تَجْنَحْ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْحَقِّ، فَلَبَّسُوا عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُمْ، وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ أَكَاذِيبِ الْعَجَمِ^(١). فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوَّلِهَا أَلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾.

لَمَا سَعَوْا فِي الدُّنْيَا لِغَيْرِ اللَّهِ لَمْ تُضَفْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ حَمَلُوا مَعَهُمْ أَوْزَارَهُمْ. . . أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

اتَّصَفُوا بِالْمَكْرِ فَحَاقَ بِهِمْ مَكْرُهُمْ، وَوَقَعُوا فِيهَا حُفْرُهُ لَغَيْرِهِمْ، وَاغْتَرَوْا بِطَوْلِ الْإِمْهَالِ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ مَأْمَنِهِمْ، وَاشْتَغَلُوا بِلَهْوِهِمْ فَتَغَصَّ عَلَيْهِمْ أَطْيَبُ عَيْشِهِمْ:

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنَّى لِلَّهِ بُيُوتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(١) العجم: من ليسوا عرباً، الواحد: عجمي نطق بالعربية أو لم ينطق.

الذي وصف نفسه به في كتابه من الإتيان فمنعاه العقوبة، وذلك على عادة العرب في التوسع في الخطاب.

وهو سبحانه يكشف الليل ببذره ثم يأخذ الماكر بما يليق بمكره، وفي معناه قالوا:

وَأَمِنْتُهُ فَأَتَانِي مَنْ مَأْمَنِي مَكْرًا، كَذَا مَنْ يَأْمَنُ الْإِيمَا
قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْتُقُونَ
فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُؤْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْيَمُ وَالْأُولَىٰ خَيْرٌ﴾.

في الدنيا عاجل بلانهم، وبين أيديهم آجله. وخسرة المفلس تتضاعف إذا ما
حوسب، وشاهد حاصله.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُؤْتُوا الْعِلْمَ...﴾: يُسْمِعُ الْكَافِرِينَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ لِلْكَافَةِ
صِدْقَهُمْ. ويقع الندم على جاهلهم. وأما اليوم فعليهم بالصبر والتحمل، وعن قريب
ينكشف الغطاء، وأنشد بعضهم:

خليلي لو دارت على رأسي الرحي من الذل لم أجزع ولم أتكلّم
وأطرقت حتى قيل لا أعرف الجفا ولكنني أفصحت يوم التكلّم
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّعْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِيًّا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْلَا السَّعَاءُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ
سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿طَالِيًّا أَنْفُسِهِمْ﴾: بارتكاب المعاصي وهم الكفار.

﴿قَالُوا لَوْلَا السَّعَاءُ﴾: انقادوا واستسلموا لحكم الله.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾: جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: هكذا قالت لهم الملائكة، ثم يقولون
لهم: ﴿فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ...﴾: وكذلك الذين تقسو نفوسهم بإعراضهم عن الطاعات إذا
نزلت بهم الوفاء يأخذون في الجزع وفي التضرع، ثم لا تطيب نفوسهم بأن يُقرؤوا
بتفاصيل أعمالهم عند الناس، فيما يتعلق بإرضاء خصومهم لما أخلوا من معاملاتهم،
ثم الله يؤاخذهم بالكبير والصغير، والنقيير والقطمير، ثم يبقون أبداً في وبال ما
أحقبوه، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أخراهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَبَرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

أما المسلمون فإذا وردوا عليهم، وسألوهم عن أحوال محمد - ﷺ، وعما أنزل الله عليه، قالوا: دينه حق، والله أنزل عليه الحق. . والذين أحسنوا في الدنيا يجذون الخير في الآخرة.

ويقال في هذه الدنيا حسنة، وهي ما لهم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصح أن تكون تلك الحسنة زيادة التوفيق لهم في الأعمال، وزيادة التوفيق لهم في الأحوال.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُوفَّقهم بالاستقامة على ما هم عليه من الإحسان.

ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبلِّغهم منازل الأكابر والسادة.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للمريدين، وما يجري على من اتبعهم مما أخذوه وتعلموه منهم، قال النبي ﷺ: «لأن يهتدي بهداك رجل خير لك من حمر النعم»^(١).

ثم قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، لأن ما فيها يبقى، وليس فيها خطر الزوال. ولأن في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاينة.

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

كما أن الإرادات والهمم تختلف في الدنيا فكذلك في الآخرة، وفي الخبر: «من كان بحالة لقي الله بها» فمن يريد يكتفي من الجنة بورودها، ومن يريد لا يكتفي من الجنة دون شهود رب الجنة.

ويقال إذا شاءوا أن يعودوا إلى ما فاتهم من قصورهم، وما وجدوا في ذلك من صعبة اللعين في سائر أحوالهم وأمورهم يسلم لهم ذلك، ومن شاء لمن تدوم رؤيته، ويتأبد سماع خطابه فلهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد، وهو ما لم يخطر ببال أحد.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يقبض أرواحهم طيبة. أو يقال: ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال.

والأسباب التي تطيب بها قلوبهم وأرواحهم مختلفة، فمنهم من طاب وقته لأنه قد غُفِرَتْ ذنوبه، وسُتِرَتْ عيوبه، ومنهم من طاب قلبه لأنه سَلَّمَ عليه محبوبه، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَفُتْه مطلوبه.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٥٨/٤ - ٢٧٣، ٢٣/٥ - ١٧١)، ومسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ب ٤ رقم ٣٤).

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى ثوابه، ويصل إلى حُسن مآبه.

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أمين من زوال حاله، وحظي بسلامة مآله، ومنهم من يطيب قلبه لأنه وصل إلى أفضاله، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جلاله - قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مَشَرَبَهُمْ.

ويقال: ﴿تَوَفَّنَهُ الْمَلَكُ﴾ طيبة نفوسهم أي طاهرة من التدنُّس بالمخالفات، وطاهرة قلوبهم عن العلاقات، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمْ عَلَيْكُمْ﴾ إخطؤا بالجنة، منهم مَنْ يخاطبه بذلك المَلَكُ، ومنهم مَنْ يَكَاثِفُه بذلك المَلَكُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِمْ يَسْتَخِرُونَ﴾.

القوم ينتظرون مجيء المَلَكِ لأنهم لم يعرفوه ولم يعتقدوا كونه. ولكن لما كانوا يستعجلون معتقدين أن الرسل غيرُ صادقين، ولما سلكوا مسلكَ أضرابهم من المتقدمين - عوملوا بمثل ما لقي أسلافهم، وما كان ذلك من الله ظلماً، لأنه يتصرف في مُلكه من غير حُكْمٍ حاكمٍ عليه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

خَبَثَ قصودهم فيما قالوا على وجه التكذيب والاستهزاء، وغَلَبَتْ على نطقهم ظلمات جهلهم وجحدهم، وانكشف عدمُ صِدْقِهِمْ في أحوالهم.

وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ يشبه قولهم: ﴿أَنْطَعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]. ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

لم يُخل زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرَّقهم في سابقِ حُكْمِهِ؛ ففريقاً هداهم، وفريقاً حَجَبَهُمْ وأعماهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُصِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

ألزهمهم الوقوف على حدِّ العبودية في إرادة هدايتهم ومعرفتهم حقائق الربوبية فقال: إنك وإن كنت بأمرنا لك حريصاً على هدايتهم؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلال لا يجري عليه غير ما قَسَمْتُ له.

ويقال من ألبسته صدرَ الضلال لا تنزعه وسيلة ولا شفاعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

القَسَمُ يؤكد الخبر، ولكنَّ يمين الكاذب توجب ضَعْفَ قوله؛ لأنه كلما زاد في جحد الله ازداد القلب نفرةً من قوله:

قوله جل ذكره: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾.

إذا بيَّن الله صِدْقَ ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد افتضاح أهل التكذيب فيكون في ذلك زيادة لهم في التعذيب.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فيكون بالسمع عِلْمٌ تَعَلَّقَ قَوْلُهُ بما يفعله، وحمله قومٌ على أن معناه أنه لا يتعسر عليه فعلُ شيءٍ أَراده، فالآية على القولين جميعاً.

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفتقر إلى مدة يقع الفعل فيها. وتدل الآية على أَنَّ قَوْلَهُ ليس بمخلوق؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له: كن، وذلك القول يجب أن يكون مقولاً له بقول آخر... وهذا يؤدي إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى ما لا نهاية له.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

مَنْ هَاجَرَ عَنْ أوطانِ السوء - في الله - أبدل له اللُّهُ في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونةً على الزيادة في صفاء وقته. وَمَنْ هَاجَرَ أوطانَ الغفلة مَكَّنَهُ الله مِنْ مشاهدِ الوصلة. وَمَنْ فَارَقَ مجالسة المخلوقين، وانقطع بقلبه إليه - سبحانه - باستدامة ذكره - فكما في الخبر: «أنا جليس من ذكرني». وبداية هؤلاء القوم نهاية أهل الجنة؛ ففي الخبر «الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة». ويقال القلب مظلومٌ من جهة النَّفْس لما تدعوه إليه من شهواتها، فإذا هجرها أورث اللُّهُ القلبَ أوطانَ النَّفْسِ حتى تنقاد لما يطالب به القلب من الطاعة؛ فبعد ما تكون أوطان الزُّلَّة بدواعي الشهوة تصير أوطان الطاعة لسهولة أدائها.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء، والتوكل التوقي بالله بحُسن الرجاء.

ويقال صبروا في الحال، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال.

ويقال الصبر تحسُّي كاسات المقدور، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحذور.

ويقال الصبرُ تجرُّعُ ما يُسْقَى، والتوكل الثقة بما يرجو.

ويقال إنما يقوُّون على الصبر بما حققوا من التوكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن

كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسُلًا، فأخبر أن الرسلَ كلهم كانوا من البشر، وأنَّ

فيمن سبق مَنْ أَقَرَّ بذلك. ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ هم العلماء؛ والعلماء مختلفون: فالعلماء

بالأحكام إليهم الرجوعُ في الاستفتاء من قِبَلِ العوامِ فَمَنْ أَشْكَلَ عليه شيءٌ من أحكام

الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله، ومن اشتبه عليه شيءٌ من علم السلوك

في طريق الله يرجع إلى العارفين بالله، فالفقيه يوقِّع عن الله، والعارف ينطق - في آداب

الطلب وأحكام الإرادة وشرائط صحتها - عن الله، فهو كما قيل: أليس حقاً نطقت بين

الورى فاشتهرت، كاشفها يعلم ما مَنَّ عليها فجرت، فهي عناء به عينه قد طهرت.

قوله جل ذكره: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي إن البيان إليك، فأنت الواسطة بيننا وبينهم، وأنت الأمين على وحيانا.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَىٰ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَىٰ تَحَوُّفٍ فَإِنَّ

رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

العبدُ في جميع أحواله غُرْضَةٌ لِّسَهَامِ التقدير، فينبغي أن يستشعر الخوفَ في كلِّ

نَفْسٍ من الإصابة بها، وألاً يَأْمَنَ مَكْرَ الله في أي وقت، وأكثر الأسنة تعمل في الموطأة

نفوسهم وقلوبهم على ما عَوَّدَهُم الحقُّ من عوائد المِثَّة، ولكن كما قيل:

يا راقداً الليلِ مسروراً بأوله إنَّ الحوادثَ قد يَطْرُقْنَ أسحارا

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن نَّفْسٍ يَنْفَعُهُمْ يُطْلَلُهُمُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ

سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

كل مخلوقٍ من عين أو أثر، مِنْ حَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ أَوْ غَيْرِ فَلله - من حيث البرهان -

ساجد، ومن حيث البيان على الوجدانية شاهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتنعت عن إقامة الشهادة لقوم قاله، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

يخافون الله أن ينزل عليهم عذاباً من فوق رؤوسهم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لا يعصونه ولا يحدون عن طاعته.

ويقال خير شيء للعبد في الدنيا والآخرة الخوف؛ إذ يمنعه من الزلة ويحمّله على الطاعة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَحِيدٌ فَإِنِّي فَأَرْهُمْ وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

الحاجة إلى إثبات صانع واحد داعية، وما زاد على الواحد (فالا...) (١) فيه متساوية.

ويقال إثبات الواحد ضرورة، وقُدرة الاثنين محصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَقُونَ﴾.

له الدين خالصاً وله الدين دائماً، وله الدين ثابتاً، فالطاعة له واجبة. فلا تتقوا غيره، وأطيعوا شرّعه بخلاف هواكم، واعبدوه وخذوه، واستجيبوا له في المَسْرَةِ والمَضَرَّة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

النعمة ما يُقَرَّبُ العبد من الحق، فأما ما لا يوجب النسيان والطغيان، والغفلة والعصيان فأولئ أن يكون محبة.

ويقال ما للعبد فيه نفع، أو يحصل به للشر منع فهو على أصح القولين نعمة؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً، فالعبد مأمور بالشكر على كل حال. وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣] على كل حال.

وفائدة الآية قَطْعُ الأسرارِ عن الأغيارِ في حالي اليُسْر والعُسْر، والثقة بأن الخير والشر، والنفع والضرر كلاهما من الله تعالى.

(١) بقية الكلمة بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾.

إذ ليس لكم سواه؛ فإذا أظلمت العبدَ هواجسُ الاضطراب التجأ إلى الله في استدفاع ما مَسَّه من البلاء ثم إذا مَنَّ الحقُّ عليه، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأن لم يمسه سوءٌ أو أصابه همٌّ كما قيل:

كأنّ الفتى لم يَغْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يكُ صعلوكاً إذا ما تَمَوَّلاً
وقال:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الخطاب عام، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾: لأنّ القومَ منهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَنَّهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

في هذا تهديد أي أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندامة، ويعتذرون حين لا يُقبلُ لهم عُذرٌ... وَمَنْ زَرَعَ شِراً فَلَنْ يَخْصُدَ إِلَّا جِزَاءَ عَمَلِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلُّهُ لَتَشْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفَرُّونَ﴾.

أي يجعلون لما لا يعلمون - وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم - نصيباً من أرزاقهم؛ فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا.

﴿تَأَلُّهُ﴾ أقسم إنهم سيلقون عقوبةً فِعْلِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

من فُرِطَ جهلهم وصفوا المعبودَ بالولد، ثم زاد اللّه في خذلانهم حتى قالوا: الملائكة بنات الله. وكانوا يكرهون البنات، فرضوا الله بما لم يرضوا لأنفسهم. ويلتحق بهؤلاء في استحقاق الدّم كلٌّ مَنْ أثرَ خَطَّ نَفْسِهِ على حقِّ مولاه، فإذا فعل ماله فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مذموم الوصف، ملوماً على ما اختاره من الفعل.

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه ويتصفون به من كراهة أن تولّد لهم الإناث فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُمُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

اسولت عليهم رؤية الخلق، وملكتهم الحيرة، فلحقوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهن وتمكين البغل فيهن... وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة، والغيبة عن شهود الحقيقة.

أنت الواسطة بيننا وبين أوليائنا، ولك البرهان الأعلى والنور الأوفى؛ تُبْلَغُ عَنَّا وتُؤَدِّي مِثْلًا، فأنت رحمة أرسلناك لأوليائنا. . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهْتَدَى، وَمَنْ عَصَاكَ فَفِي هَلَاكِهِ سَعَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أحياء بماء التوفيق لقلوب العابدين فَجَنَحَتْ إِلَى جانب الوفاق، وأحياء بماء التحقيق أرواح العارفين فاستروحت على بساط الوصال، وأحياء بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت من رِقِّ الآثار، وانفردت بحقائق الاتصال.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِقًا لِلشَّارِبِينَ.

سَخَّرَهَا لَكُمْ، وهياها للانتفاع بلحمها وشحمها، وجِلْدِهَا وَشَعْرِهَا وَدَرَّهَا، وأصلها ونَسْلُهَا. ثم عجيب ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن - مع صفائه وطعمه ونفعه - من بين الروث^(١) والدم، وذلك تقدير العزيز العليم. والذي يقدر على حفظ اللبن بين الروث والدم يقدر على حفظ المعرفة بين وحشة الرُّلَّةِ من وجوهها المختلفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخِذُونَ مِنْهُ حَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

مَنْ عَلَى العباد بما خَلَقَ لَهُمْ من فنون الانتفاع بثمرات النخيل كالتمر والرطب واليابس. . . وغير ذلك.

والرزق الحسن ما كان حلالاً. ويقال هو ما أُنَاكَ من حيث لا تحتسب، ويقال هو الذي لا مِثَّةَ لمخلوق فيه ولا تَبِعَةَ عليه.

ويقال هو ما لا يعصي الله مكتسبه في حال اكتسابه.

ويقال هو ما لا يَنْسَى الله فيه مُكْتَسِبُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أوحى إلى النحل: أَرَادَ بِهِ وحي إلهام. . . ولما حَفِظَ الأمر وأكل حلالاً، طَابَ مَاكُلُهُ وجعل ما يخرج منه شفاء للناس.

(١) الروث: رجيع ذي الحافر، والجمع أرواث. (اللسان ١٥٦/٢ - ١٥٧ مادة: روث).

ثم إن الله - سبحانه - عَرَفَ الْخَلْقَ أَنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق؛ إذ أن النحل ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة، ومع ذلك جعل منه العسل الذي هو شفاء للناس.

والإنسان مع كمال صورته، وتمام عقله وفطنته، وما اختص به الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الخصائص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى.. فأئى فضيلة للنحل؟ وأئى ذنب للإنسان؟ ليس ذلك إلا اختياره - سبحانه -.

ويقال إن الله - سبحانه - أجرى سُنَّتَهُ أَنْ يُخْفِيَ كُلَّ شَيْءٍ عَزِيزٍ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ؛ فجعل الإبريسم^(١) في الدود وهو أضعف الحيوانات، وجعل العسل في النحل وهو أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف^(٢) وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، وكذلك أودع الذهب والفضة والفيروزج^(٣) في الحجر... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يعصي وفيهم من يخطيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمَنَّ بِنُورِهِ عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَرْكِيبٍ، وأملح ترتيب، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، والنور والضياء، والفهم والذكاء. وَرَزَقَهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّفَكُّرِ، والعلم والتبصر، وفنون المناقب التي خُصَّ بها من الرأي والتدبير، ثم في آخر عمره يجعله إلى أرذل العمر مردوداً، ويرى في كل يوم أَلَمًا جديداً.

ويقال ﴿وَمَنَّ بِنُورِهِ عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً.

ويقال أرذل العمر أن يرغب في عنفوان شبابه في الإرادة، ويسلك طريق الله مدة، ثم تقع له فترة، فيفسخ عقد إرادته، ويرجع إلى طلب الدنيا. وعند القوم هذه رَدَّةٌ في هذا الطريق.

ويقال أرذل العمر رغبة الشيخ في طلب.

ويقال أرذل العمر حُبُّ المرء للرياسة.

ويقال أرذل العمر اجتماع المظالم على الرجل وألا يُرْضِيَ خُصُومَهُ.

(١) الإبريسم: أحسن الحرير (معربة فارسية).

(٢) الصدف: صدف الدرة: غشاؤها (اللسان ٩/ ١٨٨ مادة: صدف).

(٣) الفيروزج: حجر كريم غير شفاف، أزرق اللون، بلون السماء أو أميل إلى الخضرة يُحَلَّى به (مع).

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

أرزاق المخلوقات مختلفة؛ فَمِنْ مَضَيَّقٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مُوسَّعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمِنْ أَرزَاقٍ هِيَ أَرزَاقُ النُّفُوسِ، وَأَرزَاقٍ لِلْقُلُوبِ وَأَرزَاقٍ لِلْأَرْوَاحِ، وَأَرزَاقٍ لِلْأَسْرَارِ؛ فَأَرزَاقُ النُّفُوسِ لِقَوْمٍ بِتَوْفِيقِ الطَّاعَاتِ، وَلآخرين بِخِذْلَانِ الْمَعَاصِي. وَأَرزَاقُ الْقُلُوبِ لِقَوْمٍ حُضُورِ الْقَلْبِ بِاسْتِدَامَةِ الْفِكْرِ، وَلآخرين بِاسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ وَدَوَامِ الْقَسْوَةِ. وَأَرزَاقُ الْأَرْوَاحِ لِقَوْمٍ صَفَاءِ الْمَحَبَّةِ، وَلآخرين اشْتِغَالِ أَرْوَاحِهِمْ بِالْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَشْكَالِهِمْ، فَيَكُونُ بِلَاؤُهُمْ فِي مَحَبَّتِهِمْ لِأَمْثَالِهِمْ. وَأَرزَاقُ الْأَسْرَارِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ الْحَقِّ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَسْرَارِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

شَغَلَ الْخَلْقَ لِأَنَّ الْجِنْسَ أَوَّلَى بِالْجِنْسِ. وَلَمَّا أَرَادَ الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ - بَقَاءَ الْجِنْسِ هَيَأَ سَبَبَ التَّنَاسُبِ وَالتَّنَاسُلِ لِاسْتِيفَاءِ مِثْلِ الْأَصْلِ. ثُمَّ مَنْ عَلَى الْعُضْبِ بِخَلْقِ الْبَنِينَ، وَابْتَلَى قَوْمًا بِالْبَنَاتِ - كُلٌّ بِتَقْدِيرِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفْيَافًا لِيُظِلَّ يَوْمَئِذٍ وَتَنَعَّمَ اللَّهُ هَمَّ يَكْفُرُونَ﴾.

وَالرِّزْقُ الطَّيِّبُ لِعِبَادِهِ مَا تَسْتَطِيعُ نَفْسُهُ، وَلآخر مَا يَسْتَطِيعُ سِرُّهُ.

فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ مَأْكُولًا وَمَشْرُوبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ خُلُوعًا وَصَفُوعًا... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَرزَاقِ.

﴿أَفْيَافًا لِيُظِلَّ يَوْمَئِذٍ﴾، وَهُوَ حَسْبَانِ حَصُولِ شَيْءٍ مِنَ الْأَغْيَارِ، وَتَعْلُقِ الْقَلْبِ بِهِمْ اسْتِكْفَاءً مِنْهُمْ أَوْ اسْتِدْفَاعًا لِمَحْذُورٍ أَوْ اسْتِجْلَابًا لِمُحِبِّبٍ.

﴿وَتَنَعَّمَ اللَّهُ هَمَّ يَكْفُرُونَ﴾ وَالنِّعْمَةُ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا هِيَ الثِّقَةُ بِاللَّهِ، وَانْتِظَارُ الْفَرَجِ مِنْهُ، وَحَسْنُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وَمَنْ يَتَعَلَّقُ بِشَخْصٍ أَوْ بِسَبَبٍ مُضَاهٍ لِعِبَادِ الْأَصْنَامِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَضِيعُ وَقْتَهُ فِيَمَا لَا يُعِينُهُ، فَالرِّزْقُ، مِنَ اللَّهِ - فِي التَّحْقِيقِ - مُقَدَّرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

كَيْفَ تُضَرِّبُ الْأَمْثَالَ لِمَنْ لَا يَسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَأَحْكَامِ الْأَفْعَالِ؟ وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ وَقَعَ فِي ظُلُمَاتِ التَّشْبِيهِ، وَبَقِيَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

شَبَّهَ الكافرَ بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ولا ملك له في الشرع، والمؤمن المخلص بمن رَزَقَهُ الخيرات ووفقه إلى الطاعات ثم وعده الثواب وحسن المآب على ما أنفق.

ثم نفى عنهما المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفسه، ملاحظاً لأبناء جنسه، متمادياً في حساب مغاليطه كَمَنْ كان مُدْرِكاً بربه مضطماً عن شاهده، غائباً عن غيره، والمُجْرِي عليه ربه ولا حَوْلَ له إلا به .

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَاجِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْتُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

هذا المثل أيضاً للمؤمن والكفار؛ فالكافر كالجاهل الأبيكم الذي لا يجيء منه شيء، ولا يحصل منه نفع، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، ولا يعترف إلا بطولهِ - سبحانه - ومِيتِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

استأثر الحق - سبحانه - بعلم الغيبات، وسَرَّهَا على الخلق؛ فيخرج قوماً في الضلالة ثم ينقلهم إلى صفة الولاية، ويقيم قوماً برقم العداوة ثم يردهم إلى وصف الولاية . . فالعواقب مستورة، والخواتيم مبهمة، والخلق في غفلة عما يَرَادُ بهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

خَلَقَهُمْ مِنْ غير أن شاورهم، وأثبتهم - على الوصف الذي أَرَادَهُ - دون أن خَيَّرَهُمْ، ولم يعلموا بماذا سبق حُكْمُهُمْ . . أبا لسعادة خلقهم أم على الشقاوة من العدم أخرجهم من بطون أمهاتهم؟ فلا صلاح أَنفُسِهِمْ عَلِمُوا، ولا صفة رَبِّهِمْ عَرَفُوا . ثُمَّ بِحُكْمِ الإلهام هداهم حتى قَبِلَ الصبيُّ ثدي أمه وإن لم يكن قد تقدمه تعريف أو تخويف أو تكليف أو تعنيف .

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ : لتسمعوا خطابه، ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتبصروا أفعاله، ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتعرفوا حقّه، ثم لتشكروا عظيم إنعامه عليكم بهذه الحواس .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الطائر إذا حلق في الهواء يبقى كالواقف ولا يسقط، وقد قامت الدلالة على أن الحق - سبحانه - متفرد بالإيجاد، ولا يخرج حادث عن قدرته، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَادِهَا وَأَوْبَارِهَا أَثْنًا وَمَتْنًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

للنفوس وطن، وللقلوب وطن. والناس على قسمين مستوطن ومسافر: فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم؛ فالمريد أو الطالب مسافر بقلبه لأنه يتلَوُّ، ويرتقي من درجة إلى درجة، والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن. والطريق منازل ومراحل، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب، والمريد سالك والعارف واصل.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَذَرُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ونحوها ظلالاً.. كذلك جعل في ظل عنايته لأوليائه مثوى وقراراً.

وكما ستر ظواهركم بسرابيل تقيكم الحرَّ وسرابيل تقيكم بأس عدوكم - كذلك ألبس سرائركم لباساً يلفكم به في السراء والضراء، ولباس العصمة يحميكم من مخالفتها، وأظلكم بظلال التوفيق مما يحملكم على ملازمة عبادته، وكساكم بخلل الوصل مما يؤهلكم لقربه وصحبته.

قوله: ﴿كَذَلِكَ يُتَذَرُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ...﴾، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتهم مختومة بالخير، ويكفيهم أمور الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويُسدِّدُهم حتى يؤثر ما يوجب من الله الرضاء.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

إذا بلغت الرسالة فما جعلنا إليك حكم الهداية والضلالة.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُوا أَلْكَافِرُونَ﴾.

يَسْتَوْفِقُونَ إِلَى الطاعة، فإذا فعلوا أعجبوا بها^(١).

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المقام: سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: =

ويقال يستغيثون، فإذا أجابهم قَصَّروا في شكره.

ويقال إذا وَقَعَتْ لهم محنة استجاروا بربهم، فإذا أزال عنهم تلك المحن نسوا ما كانوا فيه من الشدة، وعادوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة. ويقال يعرفون في حال توبتهم قُبْح ما كانوا فيه حال زلتهم، فإذا نقضوا توبتهم صاروا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

إذا كان يوم الحشر سأل الرسل عن أحوال أممهم، فمن نطق بحجة أكرم، ومن لم يذل بحجة لا تراعى له حُرمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾. أي يُشَدَّد عليهم الأمر ولا يُسَهَّل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تمنوا أن يَنقِمُوا من إخوانهم الذين عاشروهم، وحملوهم على الزلة، فيتبرأون من شركائهم، ويلعن بعضهم بعضاً، وتضيق صدورهم من بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَسْلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

واستسلموا لأمر الله وحكمه، ويومئذ لا تضرع منهم يري، ولا مِحنة - يصرخون من ويلها - عنهم تُكشَف.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

تأتي - يوم القيامة - كل أمة مع رسولها، فلا أمة كهذه الأمة فضلاً، ولا رسول كرسولنا ﷺ رتبةً وقدرًا.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن تبياناً لكل شيء، فيه للمؤمنين شفاء، وهو لهم ضياء، وعلى الكافرين بلاء، وهو لهم سبب محنة وشقاء.

= لما دخل الراسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها، وإنما أراد الراسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب، لا تمرجأ في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب. (الرسالة القشيرية ص ٥٧).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

العدل ما هو صواب وحسن، وهو نقيض الجور والظلم. أمر الله الإنسان بالعدل فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين الخلق؛ فالعدل الذي بينه وبين نفسه مَنَعُهَا عما فيه هلاكها، قال تعالى: ﴿وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وكمال عدله مع نفسه كي غرور طمعه. والعدل الذي بينه وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضا مولاه على ما سواه، والتجرد عن جميع المزاج، وملازمة جميع الأوامر. أو العدل الذي بينه وبين الخلق يكون ببذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف بكل وجه وألا تشي إلى أحد بالقول أو بالفعل، ولا بالهم أو العزم. وإذا كان نصيب العوام بذل الإنصاف وكف الأذى فإن صفة الخواص ترك الانتصاف، وإسداء الإنعام، وترك الانتقام، والصبر، على تحمل ما يصيبك من البلوى. وأما الإحسان فيكون بمعنى العلم - والعلم مأمور به - أي العلم بحدوث نفسه، وإثبات مَحْدِثِهِ بصفات جلاله، ثم العلم بالأمور الدينية على حسب مراتبها. وأما الإحسان في الفعل فالحسن منه ما أمر الله به، وأذن لنا فيه، وحكم بمدح فاعله. ويقال الإحسان أن تقوم بكل حق وجب عليك حتى لو كان لطير في ملكك، فلا تقصر في شأنه.

ويقال أن تقضي ما عليك من الحقوق وألا تقتضي لك حقاً من أحد. ويقال الإحسان أن تترك كل ما لك عند أحد، فأما غير ذلك فلا يكون إحساناً. وجاء في الخبر: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» وهذه حال المشاهدة التي أشار إليها القوم.

قوله: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ إعطاء ذي القرابة، وهو صلة الرِّجَم، مع مقاساة ما منهم من الجور والجفاء والحسد.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: وذلك كل قبيح مزجور عنه في الشريعة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

يُفْرَضُ على كافة المسلمين الوفاء بعهد الله في قبول الإسلام والإيمان، فتجب عليهم استدامة الإيمان. ثم لكل قوم منهم عهد مخصوص عاهدوا الله عليه، فهم مُطَالَبُونَ بالوفاء به؛ فالزاهد عهده ألا يرجع إلى الدنيا، فإذا رجع إلى ما تركه منها فقد

نَقَضَ عَهْدَهُ وَلَمْ يَفِ بِهِ. وَالْعَابِدُ عَاهِدَهُ فِي تَرْكِ الْهَوَى. وَالْمُرِيدُ عَاهِدَهُ فِي تَرْكِ الْعَادَةِ، وَآثَرَهُ بِكُلِّ وَجْهٍ. وَالْعَارِفُ عَهْدَهُ التَّجَرُّدَ لَهُ، وَإِنْكَارَ مَا سِوَاهُ. وَالْمُحِبُّ عَهْدَهُ تَرْكَ نَفْسِهِ مَعَ كُلِّ وَجْهٍ وَالْمُوَحِّدُ عَهْدَهُ الْامْتِنَاءَ^(١) عَنْهُ، وَإِفْرَادَهُ إِيَّاهُ بِجَمِيعِ الْوُجُوهِ وَالْعَبْدُ مَنِّهِيٌّ عَنْ تَقْصِيرِ عَهْدِهِ، مَأْمُورٌ بِالْوَفَاءِ بِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾.

مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ أَفْسَدَ بِأَخْرِ أَمْرِهِ أَوَّلَهُ، وَهَدَمَ بِفِعْلِهِ مَا أَسَّسَهُ، وَقَلَعَ بِيَدِهِ مَا غَرَسَهُ، وَكَانَ كَمَنْ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَائًا^(٢) أَي مِنْ بَعْدِ مَا أُبْرِمَتْ فَتْلَهُ.

وإِنَّ السَّالِكَ إِذَا وَقَعَتْ لَهُ فِتْرَةٌ، وَالْمُرِيدُ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ فِي الطَّرِيقِ وَقْفَةٌ، وَالْعَارِفُ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ حُجْبَةٌ، وَالْمُحِبُّ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ فِرْقَةٌ - فَهَذِهِ مِحْنٌ عَظِيمَةٌ وَمَصَائِبٌ فَجِيعَةٌ، فَكَمَا قِيلَ:

فَلَا بُكْيَيْنَ عَلَى الْهَلَالِ تَأْسُفًا خَوْفَ الْكَسُوفِ عَلَيْهِ قَبْلَ تَمَامِهِ

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تُكْشَفَ شَمْسُهُمْ، وَيَنْطَفِئَ - فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ - سِرَاجُهُمْ، وَيَتَشَتَّتَ مِنَ السَّمَاءِ نَجُومُهُمْ، وَيَصِيبَ أَزْهَارَ أَنْسِهِمْ وَرَبِيعَ وَضْلِهِمْ إِعْصَارٌ فِيهِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ. فَإِنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ بَلَاءً فَكَمَا يَقُولُهُ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُؤُنَا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] فَإِنَّ آثَارَ سُخْطِ الْمَلُوكِ مُوجِعَةٌ، وَقِصَّةُ إِعْرَاضِ السُّلْطَانِ مُوَحِّشَةٌ وَكَمَا قِيلَ:

وَالصَّبْرُ يَخْسُنُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ - فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ^(٣)

هَنَالِكَ تَنْسَكِبُ الْعِبْرَاتُ، وَتُشَقُّ الْجُيُوبُ، وَتُلْطَمُ الْخُدُودُ، وَتُعْطَلُ الْعِشَارُ، وَتَخْرُبُ الْمَنَازِلُ، وَتَسْوَدُّ الْأَبْوَابُ، وَيَنُوحُ النَّائِحُ:

وَأَتَى الرَّسُولَ فَأَخْبَرَ جَرَّ أَنْهُمْ رَحَلُوا قَرِيبًا رَجَعُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ فَجَرَى لَهُمْ دَمْعِي صَبِيبًا

(١) قَالَ الْقَشِيرِيُّ بِرِسَالَتِهِ: مِنْ أَقَاوِيلِ الشُّيُخِ بِالْمَحَبَّةِ: مَحَوَ الْمُحِبُّ لَصَفَاتِهِ، وَإِثْبَاتِ الْمُحِبُّوبِ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٣٢١).

(٢) الْأَنْكَاتُ: وَاحِدُهَا نَكْتٌ: وَهُوَ الْغَزْلُ مِنَ الصُّوفِ أَوْ الشَّعْرِ، تُبْرَمُ وَتُنْسَجُ، فَإِذَا خَلَقَتْ النَّسِيجَةُ قُطِعَتْ قِطْعًا صَغِيرًا، وَنَكَّتْ خِيوطُهَا الْمَبْرُومَةَ، وَخُلِطَتْ بِالصُّوفِ الْجَدِيدِ، وَنَشِيبَتْ بِهِ، ثُمَّ ضُرِبَتْ بِالْمِطَارِقِ وَغَزِلَتْ ثَانِيَةً وَاسْتَعْمِلَتْ، وَالَّذِي يَنْكُثُهَا يُقَالُ لَهُ: نَكَّاتٌ وَمِنْ هَذَا نَكْتُ الْعَهْدِ وَهُوَ نَقْضُهُ بَعْدَ إِحْكَامِهِ، كَمَا تُنَكَّتُ خِيُوطُ الصُّوفِ الْمَغْزُولِ بَعْدَ إِبْرَامِهِ. (لِسَانُ الْعَرَبِ ١٩٧/٢ مَادَّةُ: نَكْتُ).

(٣) رَوَايَةُ الْبَيْتِ فِي الرِّسَالَةِ الْقَشِيرِيَّةِ ص ١٨٤:

الصَّبْرُ يَجْمَلُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَجْمَلُ

وتركن ناراً في الضلوع وزر عن في رأسي مشيباً
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾.

بلاء كل واحد على ما يليق بحاله؛ فمن كان بلاؤه بحديث النفس أو ببقائه عن هواه، وبحرماته لكرائمه في عُقْبَاهُ فاسمُ البلاء في صفته مجاز، وإنما هذا بلاء العوام. ولكن بلاء الكرام غير هذا فهو كما قيل:

مَنْ لَمْ يَبْتَ - وَالْحُبُّ مِلْءُ فَوَادِهِ لَمْ يَذِرْ كَيْفَ تَفَقُّتُ الْأَكْبَادِ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ليست واقعة القوم بخسرانٍ يُصِيبُهُمْ في أموالهم، أو من جهة تقصيرهم في أعمالهم ولما صنَّعَهُ من أحوالهم. . فهذه - لعمرى - وجوه وأسباب، ولكن سيرُ القصة كما قيل:

أَنَا صَبٌّ لِمَنْ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا احتيالي بسوء رأي الموالي؟
قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: لو شاء الله سعادتهم لَرَجَمَهُمْ، وعن المعاصي عَصَمَهُمْ، وبدوام الذكر - بدل الغفلة - ألهمهم. . ولكن سَبَقَتْ القسمة في ذلك، وما أحسن ما قالوا:

شكا إليك ما وجد من خانه فيك الجَلْدُ
حيراناً.. لو شئت اهتدى ظمآن.. لو شئت ورَدُ
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ بِكُمْ فَدَمُّ بِعَثُورِهَا وَتَذَوُّوا أَلْسِنَهُ يَمَّا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أَبْعَدَكُمْ عَدَمُ صِدْقِكُمْ في إيمانكم عن تحقُّقكم ببرهانكم، لأنكم وقفتُم على حَدِّ التردد دون القطع والتعيين، فأفضى بكم تردُّدكم إلى أوطانٍ شِرْكِكُمْ، إذ الشك في الله والشرك به قرينان في الحكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

لا تختاروا على القيام بحقِّ اللّهِ والوفاء بعهده عَوْضاً يسيراً مما تنتفعون به من حُطَامِ دُنْيَاكُمْ من حلالكم وحرامكم، فإن ما أعدَّ اللّهُ لكم في جناته - بشرط وفائكم لإيمانكم - يوفي ويربو على ما تتعجلون به من حظوظكم.

قوله جل ذكره: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الذي عندكم عَرَضٌ حادث فان، والذي عند الله من ثوابكم في مآلكم نِعَمٌ مجموعة، لا مقطوعة ولا ممنوعة.

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو مالكم أفعال معلولة وأحوال مدخولة، وما عند الله ثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ.

ويقال ما منكم من معارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبة، وأصناف متناوبة، أعيانها غيرُ باقية وإن كانت أحكامها غير باطلة والذي يتصف الحقُّ به من رحمته بكم ومحبه لكم وثباته عليكم فصفاً أزلية ونعوتٌ سرمدية.

ويقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا فَمُعَرَّضٌ للزوال، وقابلٌ للانقضاء، وما وَصَفْنَا به أَنْفُسًا من الإقبال لا يتناهي وأفضال لا تَفْنَى، كما قيل:

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقائي وإنني لللقائهم لأشدُّ شوقاً

قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا...﴾: جزاء الصبر الفوزُ بالطلبَةِ، والطَّفَرُ بالبغيَةِ. ومآلهم في الطلبات يختلف: فَمَنْ صَبَرَ على مقاساة مشقة في الله. فِعْوَضُهُ وثوابه عظيمٌ من قِبَلِ الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وَمَنْ صَبَرَ عن اتباع شهوة لأجل الله، وعن ارتكاب هفوة مخافةً لله فجزاؤه كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَهُمْ وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

وَمَنْ صَبَرَ تحت جريان حُكْمِ الله، متحققاً بأنه بِمَرَاةٍ من الله فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) [البقرة: ١٥٣].

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الصالح ما يصلح للقبول، والذي يصلح للقبول ما كان على الوجه الذي أمر الله به. وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾: في الحال، ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾: في المآل؛ فصفاً الحال يستوجبُ وفاة المآل، والعملُ الصالحُ لا يكون من غير إيمان، ولذا قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

ويقال ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدقٌ بأن إيمانه من فضل الله لا بعمله الصالح. ويقال

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٨٣ - ١٨٩ حديث القشيري عن الصبر.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مصدق بأن عمله بتوفيق الله وإنشائه وإبدائه. قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّكُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: الفاء للتعقيب، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ...﴾ الواو للعطف ففي الأولى مُعَجَّل، وفي الثانية مُؤَجَّل، ثم ما تلك الحياة الطيبة فإنه لا يُعْرَف بالنطق، وإنما يعرف ذلك بالذوق؛ فقوم قالوا إنه حلاوة الطاعة، وقوم قالوا إنه القناعة، وقوم قالوا إنه الرضا، وقوم قالوا إنه النجوى، وقوم قالوا إنه نسيم القرب... والكل صحيح ولكل واحد أهل.

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يَسِمُ السرور
عَيْنُ ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غُيِبَ ونحن حُضُور

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة؛ وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً^(١)، الأولون قائمون بشرط العبودية، والآخرون مُعْتَقُونَ بشرط الحرية.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

شيطان كل واحد ما يشغله عن ربه، فمن تَسَلَّطَتْ عليه نفسه حتى شَعَلَتْه عن ربه ولو بشهود طاعة أو استحلاء عبادة أو ملاحظة حال - فذلك شيطانه. والواجب عليه أن يستعيذ بالله من شر نفسه، وشر كل ذي شر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أنى يكون للشيطان سلطاناً على العبد والحق - سبحانه - متفرد بالإبداع، متوحد بالاختراع؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

إنما سلطانه على الذين هم في غطاء غفلتهم، وستر ظنونهم ومشتبهاتهم. فأما أصحاب التوحيد فإنهم يرون الحادثات بالله ظهورها، ومن الله ابتداءها، وإلى الله مآلها وانتهائها.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مِّنْ كُنُوزِ اللَّهِ أَتَعْلَمُ بِمَا يَزُولُ قَالُوا لَئِنَّا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الإرادة بهذا الصدد: والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة، كما أن العالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً. (الرسالة القشيرية ص ٢٠١).

ما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شك، وجحداً على جحد، وجرّوا على منهاجهم في التكذيب، فلم يُصدّقوه ﷺ، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومُزياً:

وكذا الملول إذا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الرِّصَال وقال كان وكانا

قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ردُّ على فرط جهلهم بربهم، وبُعْدِ رتبته عن التحصيل، فلمّا كانوا متفرقين في شهود المَلِكِ رُدُّوا في حين التعريف إليهم بِذِكْرِ الْمَلِكِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

لم يستوحش الرسول - ﷺ - من تكذيبهم، وخفاء حاله وقدره عليهم. . . وأيّ ضرر يلحق من كانت مع السلطان مُجَالَسَتُهُ إِذَا خَفِيََتْ عَلَى الْأَخْسَ مِنَ الرِّعِيَةِ حالته؟

ثم إنه أقام الحجة في الردّ عليهم حيث قال: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾: فَمِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ تَوَهَّمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ - الذي عجز كافة الخلق عن معارضته في فصاحته وبلاغته - مقولٌ وحاصلٌ باتصاله بِمَنْ هو أعجمي النطق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إِنَّ مَنْ سَبَقَتْ بِالشَّقَاوَةِ قِسْمَتُهُ لَمْ تَتَلَقَ مِنَ الْحَقِّ - سبحانه - به رحمته، ومن لم يَهْدِهِ اللَّهُ فِي عَاجِلِهِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ فِي آجِلِهِ إِلَى جَنَّتِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

هذا من لطائف المعارض؛ إذ لَمَّا وصفوه - عليه السلام - بالافتراء أثار الحق - سبحانه - في الجواب، فقال: لست أنت المفتري إنما المفتري من كَذَبِ مَعْبُودِهِ وَجَهْلِ تَوْحِيدِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عَبْدِهِ بقلبه، وإخلاصه في عقده، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّفَ عَنْهُ حُكْمَهُ، ودَفَعَ عَنْهُ عَنَاءَهُ فَلَا يَلْفِظُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ إِلَّا مُكْرَهًا - وهو مُرَحِّدٌ، وهو مستحقُّ العَذَرِ فيما بينه وبين الله تعالى. . . وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم،

وتجردوا لسلوك طريق الله ثم عَرَضَتْ لهم أسباب، واتفقت لهم أَعْذار؛ كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغال أو إلى شيء من العلوم رجوع... لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم، ولا يُعَدُّ ذلك فسخاً لعهودهم، ولا ينفي بذلك عنهم سِمَةَ الْقَصْدِ إلى الله تعالى.

أما ﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾: فرجع باختياره، ووضع قَدَمًا - كان قد رَفَعَهُ في طريق الله - بِحُكْمِ هَوَاهُ فقد تَقَضَّ عَهْدُ إرادته، وَفَسَخَ عَقْدَهُ، وهو مستوجب (...)(١) إلى (...)(١) تتداركه الرحمة.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

السالك إذا أثر الحظوظ على الحقوق بقي عن الله، ولم يبارك له فيما آثره على حق الله، ولقد قالوا:

قد تركناك والذي تريد فعسى أن تَمْلَهُمْ فتعود
قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَتْهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾.

إذا تمادى في غفلته، ولم يتدارك حاله بملازمة حَسْرَتِهِ، ازداد قسوة على قسوة، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة، وكما قال جل ذكره:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

هم في الآخرة محجوبون، وبئذ البعد موسومون.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَمَنْ صَبَرَ حين عزم الأمر، ولم يجنح إلى جانب الرُّخْصِ، وأخذ في الأمور بالَأَشَقِّ أكرم الله حَقَّهُ، وقرب مكانه، ولَفَّاهُ في كل حالة بالزيادة، وربحت صفقته حين خسر أشكاله، وتقدَّم على الجملة وإن قلَّ احتياله.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

غداً كل مشغول بنفسه، ليس له فراغ إلى غيره. وعزيز عبد لا يشتغل بنفسه، قال ﷺ: «من كان بحالٍ لقي الله بها». إنما يكون الفارغ غداً من كان اليوم فارغاً،

ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمام بنفسه. والمؤمن لا نفس له؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] اشتراها الحق منهم، وأودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمر الحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة، فإذا كفر عبد بهذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجرف في فساد الشهوة، شوش الله عليه قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء وقته؛ لأن طوارق النفس توجب غروب شوارق القلب، وفي الخبر: «إذا أقبل الليل من ها هنا أدبر النهار من ها هنا»^(١). وكذلك القلب إذا انقطع عنه معهود ما كان الحق أتاحه له أصابه عطش شديد ولهب عظيم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

كما جاءهم الرسول جهراً فإنه تتأذى إليهم من قبل خواطرهم إشارات تترى، فمن لم يستجب لتلك الإشارات بالوفاق والإعتاق أخذه العذاب من حيث لا يشعر.

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الحلال الطيب ما يتناوله العبد على شريطة الإذن بشاهد الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة، وحقيقة الشكر على النعمة الغيبة عن شهود النعمة بالاستغراق في شهود المنعم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ يَوْمَ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَاكُ اللَّهُ عَفْوَ رَجِيمٌ﴾.

يباح تناول المحرمات عند هجوم الضرورات حسب بيان الشرع، ولا يرخص في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة، ويقدر ما يسد الرَّمق، كذلك عند استهلاك العبد

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤٦/٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢١٦/٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٨٥)، والبغوي في (شرح السنة ٢٥٩/٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٣٨٧٦)، وابن كثير في (البداية والنهاية ٣١٣/٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٠٠)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/١٩٥)، والطبري في (التفسير ١٠٣/٢) (بغوي ١/١٦٤)، والزبيدي في (تحاف السادة المتقين ٣/٣٥٢)، والحلي في (المسند ٢٠).

بغلبات الحقيقة لا بدّ من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدي الفرض الواجب عليه، ثم لا يُمكن من التعرّيج في أوطان التفرقة والتمييز بعد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع^(١)، كما قيل:

فإنّ تلك منه غيبة بعد غيبة فإنّ إليه بالوجود إيابي
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الصدق في كل شيء أولى من الكذب، وكثير من أقوالهم في الاعتراض عيّنات^(٢) من الكذب.

والصديق لا يكذب صريحاً، ولا يتداول أقوال كاذب مهين. وصاحب الكذب تظهر عليه المذلة لما هو فيه من الزلة، وله في الآخرة عذاب أليم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

بيّن أنه أوضح لمن تقدّم الحلال والحرام، فمنهم من أتى بما أمّر به ومنهم من خالف. وكلّ عومل بما استوجبه؛ فمن أطاع قلبه قرّبته، ومن عصى رّده وحجّبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُهُمْ تَاجِرًا سُوْءًا وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَاصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إذا ندموا على قبيح ما قدّموا، وأسفوا على كثير مما أسلفوا وفيه أسرقوا، ومحا صدق عبرتهم آثار غشرتهم - نظر الله إليهم بالرحمة، فتاب عليهم إذا أصلحوا، ونجّاهم إذا تضرّعوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قيل آمن بالله وحده فقام مقام الأمة، وفي التفسير: كان معلماً - للخير - لأمة.

ويقال اجتمع فيه من الخصال المحمودّة ما يكون في أمة متفرقاً.

ويقال لما قال إبراهيم لكل ما رآه: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧] ولم ينظر إلى المخلوقات من حيث هي بل كان مُستهلكاً في شهود الحق، ورأى الكون كلّّه بالله، وما ذكر حين ذكر غير الله. . كذلك كان جزاء الحق فقال: أنت الذي تقوم مقام الكلّ، ففي القيام بحق الله منك على الدوام غنيّة عن الجميع.

(١) هذه هي حالة الفرق الثاني (انظر الرسالة القشيرية ص ٦٦).

(٢) العيّنات: (ج) العينة: جزء من المادة يؤخذ يؤخذ منها نموذجاً لسايرها.

و «الحنيف»: المستقيم في الدين، أو المائل إلى الحق بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الشاكِرُ في الحقيقة - مَنْ يرى عَجْزَهُ عن شكره، ويرى شُكْرَهُ من الله عز وجل، لِتَحَقُّقِهِ أنه هو الذي خَلَقَهُ، وهو الذي وَفَّقَهُ لشكره، وهو الذي رزقه الشكر، وهو الذي اجتباه حتى كان بالكلية له - سبحانه.

﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي تحقَّق بأنه عَبْدُهُ، وأنه رَقَّاهُ إلى محلِّ الأَكابر.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

الحسنة التي آتاه الله هي دوام ما آتاه حتى لم تنقطع عنه.

ويقال هي الخلعة. ويقال هي النبوة والرسالة.

ويقال آتيانه في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية، ولم تكن فيه لغير بقية.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي الكون بالحق، والامتحاء عن شاهد نفسه؛ فكان نبينا - ﷺ -

في اتباعه إبراهيم مؤتمراً بأمر الله. وكانت ملة إبراهيم - عليه السلام - الخلق والسخاء والإيثار والوفاء، فاتبعه الرسول ﷺ وزاد عليه، فقد زاد على الكافة شأنه، وبانت مَزِيَّتُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قَوْمٌ حَرَّمُوا العمل فيه وقَوْمٌ حللوه معصية منهم، وقيل جعل الجمعة لهم فقالوا:

لا نريد إلا يوم السبت. . فهذا اختلافهم فيه.

والإشارة من ذلك أنهم حادوا عن موجب الأمر، ومالوا إلى جانب هواهم. ثم

إنهم لم يراعوها حق رعايتها فصار سبب عصيانهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الدعاء إلى سبيل الله بحث الناس على طاعة الله، وزجرهم عن مخالفة أمر الله.

والدعاء بالحكمة ألا يخالف بالفعل ما يأمر به الناس بالنطق.

والموعظة الحسنة مما يكون صادراً عن علم وصواب، ولا يكون فيها تعنيف.

﴿وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: بالحجة الأقوى، والطريقة الأوضح. قال تعالى:

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]: فَشَرَطُ الأمر بالمعروف

استعمال ما تأمر به، والانتفاء عما تنهى عنه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبَتُهُمْ يَعْتَدِلُ مَا عُوِثْتُمْ بِهِ وَلَيْنَ صَبْرَتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

إذا جرى عليكم ظلم من غيركم وأردتم الانتقام . . فلا تتجاوزوا حدَّ الإذن بما هو في حكم الشرع .

﴿وَلَيْنَ صَبْرَتُمْ﴾: فتركتم الانتصاف لأجل مولاكم فهو خير لكم إن فعلتُم ذلك . والأسباب التي قد يترك لأجلها المرء الانتصاف مختلفة؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غداً فإنه أوفر وأكثر، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يتكفل الله بخصومه، ومنهم من يترك ذلك لأنه مُكْتَفٍ بعلم الله تعالى بما يجري عليه، ومنهم من يترك ذلك لِكِرَمِ نَفْسِهِ، وتحرُّره عن الأخطار ولاستحبابه العفو عند الظفر، ومنهم من لا يرى لنفسه حقاً، ولا يعتقد أن لأحد هذا الحق فهو على عقد إرادته بِتَرْكِ نَفْسِهِ؛ فمِلْكُهُ مُبَاحٌ وَدَمُهُ هَدَرٌ . ومنهم من ينظر إلى خصمه - أي المتسلط عليه - على أن فعله جزاء على ما عمله هو من مخالفة أمر الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] . فاشتغاله باستغفاره عن جُزْئِهِ يَمْنَعُهُ عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ .

«واصبر» تكليف، «وما صبرك إلا بالله»: تعريف . «واصبر» تحقق بالعبودية، «وما صبرك إلا بالله» إخبار عن الربوبية .

«ولا تحزن عليهم . .» أي طالع التقدير، فما لا نجعل له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجب أثراً فيك، فمن أسقطنا قدره فاستصغِر أمره . وإذا عرفت انفرادنا بالإيجاد فلا يضيق قلبك بشدة عداوتهم، فإننا ضَمَمْنَا كِفَايَتَكَ، وألا نُشِيتَهُمْ بك، وألا نجعل لهم سبيلاً إليك .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ .

إن الله معهم بالنصرة، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

«الذين اتقوا» رؤية النصرة من غيره، والذين هم أصحاب التبري من الحول

والقوة .

والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهذه حال المشاهدة :

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل

قوله تعالى وتَقَدَّسَ: ﴿يَسْمِعُ أَقْوَمَ الصَّوْتِ﴾.

كلمة ما سَمِعَهَا عَابِدٌ إِلَّا شَكَرَ عَصَمَتَهُ، وما سَمِعَهَا سَالِكٌ إِلَّا وَجَدَ رَحْمَتَهُ، وما تَحَقَّقَهَا عَارِفٌ إِلَّا تَغَطَّرَ قَلْبُهُ بِنَسِيمِ قُرْبَتِهِ، وما شَهِدَهَا مُوَحِّدٌ إِلَّا تَقَطَّرَ دَمُهُ لَخَوْفِ فُرْقَتِهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ قِوَامًا لِمَنْ يَرِئُنَا، إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ الْبَصِيرُونَ﴾ [الإسراء: ١].

افتتح السورة بِذِكْرِ الشَّاءِ عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾ [الإسراء: ١]: الْحَقُّ سَبَّحَ نَفْسَهُ بِعَزِيزِ خَطَابِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ اسْتِحْقَاقِهِ لَجَلَالِ قَدْرِهِ، وَعَنْ تَوَحُّدِهِ بِعُلُوِّ نُعْوِيَّتِهِ.

وَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ الْعِبَادُ مَا خَصَّ بِهِ رَسُولَهُ - ﷺ - لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ مِنْ عُلُوِّ مَا رَفَاهُ إِلَيْهِ، وَعِظَمَ مَا لَقَّاهُ بِهِ أَزَالَ الْأَعْجَابِيَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَسْرَى﴾، وَنَفَى عَنْ نَبِيِّهِ خَطَرَ الْإِعْجَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿بِعَبْدِهِ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ الْوَهِيَّتَهُ، وَاسْتِحْقَاقَهُ لِكَمَالِ الْعِزِّ فَلَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَفْعَلُ، وَمَنْ عَرَفَ عِبَادِيَّةَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ فَلَا يُفْجَبُ بِحَالِهِ. فَالآيَةُ أَوْضَحَتْ شَيْئَيْنِ اثْنَيْنِ: نَفَى التَّعَجُّبِ مِنْ إِظْهَارِ فِعْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَفَى الْإِعْجَابِ فِي وَصْفِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَيَقَالُ أَخْبَرَ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ أَكْرَمَهُ بِإِسْمَاعِهِ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةِ - فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَأَخْبَرَ عَنْ نَبِينَا ﷺ بِأَنَّهُ ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، وَلَيْسَ مَنْ جَاءَ بِنَفْسِهِ كَمَنْ أَسْرَى بِهِ رَبُّهُ، فَهَذَا مُتَحَمِّلٌ وَهَذَا مُحْمُولٌ، هَذَا بِنَعْتِ الْفَرْقِ وَهَذَا بِوَصْفِ الْجَمْعِ، هَذَا مُرِيدٌ وَهَذَا مُرَادٌ.

وَيَقَالُ جَعَلَ الْمَعْرَاجَ بِاللَّيْلِ عِنْدَ غَفْلَةِ الرُّقَبَاءِ وَغَيْبَةِ الْأَجَانِبِ، وَمِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَقْدِيمِ أَهْبَةِ وَاسْتِعْدَادٍ، كَمَا قِيلَ:

وَيَقَالُ جَعَلَ الْمَعْرَاجَ بِاللَّيْلِ لِيُظْهَرَ تَصَدِيقَ مَنْ صَدَّقَ، وَتَكْذِيبَ مَنْ تَعَجَّبَ وَكَذَّبَ أَوْ أَنْكَرَ وَجَحَدَ.

وَيَقَالُ لَمَّا كَانَ تَعَبُّدُهُ ﷺ وَتَهَجُّدُهُ بِاللَّيْلِ جَعَلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْمَعْرَاجَ بِاللَّيْلِ.

وَيَقَالُ:

لَيْلَةُ الْوَضَلِ أَضْفَى مِنْ شُهُورٍ وَدُهُورٍ سِوَاهَا

ويقال أرسله الحق - سبحانه - ليتعلم أهل الأرض منه العبادة، ثم رَقَاهُ إِلَى السَّمَاءِ لِيَتَعَلَّمَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ آدَابِ الْعِبَادَةِ، قال تعالى في وصفه - ﷺ -: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، فَمَا التَّفَتَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرام؛ تجرّد عن كل طلبٍ وأربٍ.

قوله: ﴿لِتُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾: كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كَشَفَ بالذات. ويقال من الآيات التي أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله - سبحانه - شيء في جلاله وجماله، وعِزُّه وكبريائه، ومجده وسنائه.

ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عَرَفَ به صلوات الله عليه - أنه ليس أحدٌ من الخلائق مثله في نبوته ورسالته وعلو حالته وجلال رتبته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾.

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا ﷺ، ولكن نبيّنا - صلوات الله عليه - كان أوفى - سماعاً، فإنَّ الشَّمْسَ في طلوعها وإشراقها تكون أقرب ممن طلعت له من حقائقها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

أي يا ذرية مَنْ حملنا مع نوح - على النداء.. إنه كان عبداً شكوراً.

والشكور الكثير الشكر؛ وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان يضرب في كل (....)^(١) كما في القصة - سبعين مرة، وكان يشكر. كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه: أنه لن يؤمن إلا من قد آمن، وأمر حين دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

ويقال الشكور هو الذي يكون شكره على توفيقِ اللَّهِ له لشكره، ولا يتقاصر عن شكره لِنِعَمِهِ.

ويقال الشكور الذي يشكر بماله، ينفقه في سبيل الله ولا يدخره، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله، ولا يُبْقِي شيئاً من الخدمة يدخره، ويشكر بقلبه ربّه فلا تأتي عليه ساعة إلا وهو يذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَضَّلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْكَافِرِينَ لَنُفَسِّدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرْبِّيَّ وَلَنُعَلِّقَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

(١) بياض في الأصل.

القضاء ها هنا بمعنى الإعلام، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في المُستأنفِ منهم وما يستقبلهم، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أُخبروا به، وليكون أبلغ في لزوم الحجة عليهم، وليحترزوا من مخالفة الأمر بجحدهم، وليعلموا أن ما سبق به القضاء فلا محالة يحصل وإن ظنَّ التباعُد عنه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشَأًا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

إن الله سبحانه يُعدُّ أقواماً لأحوالٍ مخصوصةٍ حتى إذا كان وقتُ إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

يدلُّ على أنه مُقدِّرُ أعماله العباد، ومدبِّرُ أفعالهم؛ فإنَّ انتصارهم على أعدائهم من جملة أكسابهم، وقد أخبر الحقُّ أنه هو الذي تولاه بقوله: ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَبَرُّرًا﴾.

إنَّ أحسنتُم فتوايكم كسبتُم، وإنَّ أسأتم فعداءكم جلبتُم - والحقُّ أعزُّ من أن يعود إليه من أفعال عباده زينٌ أو يلحقه شينٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾.

كلمة ﴿عَسَىٰ﴾ فيها ترجية وإطماع، فهو - سبحانه - وقفهم على حد الرجاء والامل، والخوف والوجل.

وقوله ﴿عَسَىٰ﴾: ليس فيه تصريح بغفرانهم، ورحمتهم، وإنما فيه للرجاء موجب قوي؛ فبلطفه وعد أن يرحمكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

أي إنَّ عُدْتُم إلى الزلَّة عُدْنَا إلى العقوبة، وإن استقمتم في التوبة عدنا إلى إدامة الفضل عليكم والمثوبة.

ويقال إنَّ عُدْتُم إلى نقض العهد عُدْنَا إلى تشديد العذاب.

ويقال: إنَّ عُدْتُم للاستجارة عدنا للإجارة.

ويقال إنَّ عُدْتُم إلى الصفاء عدنا إلى الوفاء.

ويقال إن عُدْتُمْ إلى ما يليق بكم عُدْنَا إلى ما يليق بكرمنا .
 ﴿وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ، لأنهم (....)^(١) وهم ناس كثير فهذه جهنم
 ومن يسكنها من الكافرين .

و ﴿حَصِيرًا﴾ أي محبساً ومصيراً . فالمؤمن - وإن كان صاحب ذنوب وإن كانت
 كبيرة - فإنَّ مَنْ خرج من دنياه على إيمانه فلا محالة يصل يوماً إلى غفرانه .
 قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ .

القرآن يدل على الحق والصواب . و﴿أَقْوَمُ﴾ : هنا بمعنى المستقيم الصحيح
 كأكبر بمعنى الكبير ؛ فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكن الخلل من جهة
 المُسْتَدِلِّ لا الدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكن المستدل مغرَضٌ ، وبآداب النظر
 مُخِلٌ ، فيكون العيب في تقصيره لا في قصور الدليل .

القرآن نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ من ظُلُمَاتِ جَهْلِهِ ، وخرج من غمار شكِّه .
 وَمَنْ رَمَدَتْ عَيُونُ نَظَرِهِ التبس رُشْدُهُ .

ويقال الحَوْلُ ضَرَرُهُ أَشَدُّ من الْعَمَى ؛ لأنَّ الأعمى يعلم أنه ليس يُبْصِرَ فَيَتَّبِعُ
 قائده ، ولكن الأحوال يتوَهَّمُ الشيء شينين ، فهو بتخيله وحسبانه يماري مَنْ كان
 سليماً . كذلك المبتدِعُ إذا سَلَكَ طريقَ الجَدَلِ ، ولم يضع النظر موضعه بَقِيَّ في
 ظُلُمَاتِ جَهْلِهِ ، وصال بباطل دعواه على خَصْمِهِ ، كما قيل :

بأطراف المسائل كيف يأتي - ولا أَدْرِي لَعَمْرُكَ - مُبْطِلُوهَا ؟

قوله جل ذكره : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٢) .

من الأدب في الدعاء ألا يسأل العبدُ إلّا عند الحاجة ، ثم ينظر فإن كان شيء لا
 يعنيه ألا يتعرَّضَ له ؛ فإنَّ في الخير : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٣) . ثم
 من آداب الداعي إذا سأل من اللّه حاجته ورأى تأخيراً في الإجابة إلا يَتَّهَمُ الحقَّ -
 سبحانه - ويجب أن يعلم أن الخير في ألا يجيبه ، والاستعجال - فيما يختاره العبد -
 غير محمود ، وأولى الأشياء السكون والرضا بحُكْمِهِ سبحانه ، إن لم يساعده الصبرُ
 وسأل فالواجبُ تَرْكُ الاستعجال ، والثقة بأنَّ المقسومَ لا يفوته ، وأنَّ اختيار الحق للبعد
 خيرٌ له من اختياره لنفسه .

(١) بياض في الأصل . (٢) الآية (١٠) لم ترد .

(٣) أخرجه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٠٧ ، ٤/ ١٥٨٨ ، ٦/ ٢٣٤١) ، والهيتمي في (مجمع
 الزوائد ٨/ ١٨) ، وأحمد بن حنبل في (المستد ١/ ٢٠) ، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٣/ ٨٢٩١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَّحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

جعل الليل والنهار علامة على كمال قدرته، ودلالة على وجوب وحدانيته؛ في تعاقبهما وتناوبهما، وفي زيادتهما ونقصانهما.

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته؛ فالعبادة شرطها الدوام والاتصال، والوظائف حقها التوفيق والاختصاص.

ولو وقع في بعض العبادات تقصير أو حصل في أداء بعضها تأخير تَذَارَكَ بالقضاء حتى يَتَلَفَّى التقصير.

ويقال من وجوه الآيات في الليل والنهار إفراد النهار بالضياء من غير سبب، وتخصيص الليل بالظلام بغير أمر مكتسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه ومحاقه، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة، بل هو في كل ليلة في منزل آخر، إما بزيادة أو بنقصان.

وأما الشمس فحالها الدوام.. والناس كذلك أوصافهم؛ فأرباب التمكين الدوام شرطهم، وأصحاب التلويح التنقل حقهم، قال قائلهم:

ما زلت أنزل من وداذك منزلاً
تتحير الألباب دون نزوله
قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَزَمْتَهُ طَعْنُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾.

ألزم كل أحد ما ليس بجيده. فالذين هم أهل السعادة أسرج لهم مركب التوفيق، فيسير بهم إلى ساحات النجاة، والذين هم أهل الشقاوة أركبهم مطيئة الخذلان فأقعدهم عن النهوض نحو منهج الخلاص، فوقعوا في هذه الهلاك.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾.

من ساعدته العناية الأزلية حفظ عند معاملاته مما يكون وبالاً عليه يوم حسابه، ومن أبلاه بخكمه زده وأمهله، ثم تركه وعمله، فإذا استوفى أجله عرف ما ضيعه وأهمله، ويومئذ يحكمه في حال نفسه، وهو لا محالة يحكم بنفسه باستحقاقه لعذابه عندما يتحقق من قبيح أعماله... فكم من حسرة يتجرعها، وكم من خيبة يلقاها!

ويقال من حاسبه بكتابه فكتابه ملازمه في حسابه فيقول: رب: لا تحاسبني بكتابي.. ولكن حاسبني بما قلت: إنك غافر الذنب وقابل التوب.. لا تعاملني بمقتضى كتابي: ففيه بوري وهلاكي.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَلَنَمَّا يُهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلَنَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

قضايا أعمال العبد مقصورة عليه؛ إن كانت طاعة فضاؤها لأصحابها، وإن كانت زلة فبلاؤها لأربابها. والحق غني مقدس، أحدي منزرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾. كل مطالَب بجريته. وكل نفس تحمل أوزارها لا وزر نفس أخرى.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾: دل ذلك على أن الواجبات إنما تتوجه من حيث السمع. قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

إذا كثُر أهل الفساد غلبوا، وقُلُّ أهل الصلاح وفقدوا: فعند ذلك يغمر الله الخلق ببلائه، ولا يكون للناس ملجأ من أوليائه ليتكلموا في بابهم، ولا فيهم من يتהל إلى الله فيسمع دعاؤه، فيخترم أوليائه، ويبقى أرباب الفساد، وعند ذلك يشتد البلاء وتغظم المعن إلى أن ينظر الله تعالى إلى الخلق نظراً الرحمة والمنة.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

في الآية تسليّة للمظلومين إذا استبطأوا هلاك الظالمين، و (...).^(١) قصر أيديهم عنهم. فإذا فكروا فيما مضى من الأمم أمثالهم وكيف بنوا مشيداً، وأملوا بعيداً.. فبادوا جميعاً، يعلمون أن الآخرين - عن قريب - سينخرطون في سلكهم، ويمتحنون بمثل شأنهم. وإذا أظلمت سحُب الوحشة فاءوا إلى ظل شهود التقدير، فتزول عنهم الوحشة، وتطيب لهم الحياة، وتحصل الهيبة.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾.

من رضي بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بقي عن نفيس الآخرة، ثم لا يحظى إلا بقدر ما اشتغى، ثم يكون آتس ما به قلباً وأشد ما يكون به سكناً... ثم يختطف عن نعمته، ولا يخصه بشيء مما جمع من كرائمه، ويمنعه من قربه في الآخرة.. ولقد قيل:

يا غافلاً عن سماع الصوت إن لم تبادر فهو الفوت

من لم تزل نعمته عاجلاً أزاله عن نعمته الموت

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

علامة مَنْ أراد الآخرة - على الحقيقة - أن يسعى لها سَعْيَهَا؛ فإرادة الآخرة إذا تجرّدت عن العمل لها كانت مجرد إرادة، ولا يكون السعي مشكوراً. قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أي من المآل كما أنه مؤمن في الحال. ويقال وهو مؤمن أن نجاته بفضل لا بسببه.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ أي مقبولاً، ومع القبول بكون التضعيف والتكثير؛ فكما أن الصدقة يُزيها كذلك طاعة العبد يُكثرها ويُتميها.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا تُمِذُّ هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

يجازي كلاً بِقَدْرِهِ؛ فَلِقَوْمٍ نَجَاةٍ وَلِقَوْمٍ دَرَجَاتٍ، وَلِقَوْمٍ سَلَامَةٍ وَلِقَوْمٍ كَرَامَةٍ، وَلِقَوْمٍ مَثْوًى، وَلِقَوْمٍ قَرِيبَةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

التفضيل على أقسام، فالعُباد فَضِّلَ بعضهم على بعض ولكن في زكاء أعمالهم، والعارفون فَضِّلَ بعضهم على بعض ولكن في صفاء أحوالهم، وزكاء الأعمال بالإخلاص، وصفاء الأحوال بالاستخلاص؛ فقَوْمٌ تفاضلوا بصدق القَدَم، وقوم تفاضلوا بعلو الهِمَم. والتفضيل في الآخرة أكبر: فالعُبادُ تفاضلهم بالدرجات، قال ﷺ: «إِنكُمْ لَتَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ»^(١).

وأهل الحضرة تفاضلهم بلطائفهم من الأُنس بنسيم القرية بما لا بيان يصفه ولا عبارة، ولا رمز يدركه ولا إشارة. منهم من يشهده ويراه مرة في الأسبوع، ومنهم من لا يغيب من الحضرة لحظة، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيب كل أحد، وليس كل مَنْ يراه بالعين التي بها يراه صاحبه، وأنشد بعضهم:

لو يسمعون - كما سمعت حديثها - خَرُّوا لِعَزَّةٍ رُكْعاً وسجوداً

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

الذي أشرك بالله أصبح مذموماً من قِبَلِ الله، ومخذولاً من قِبَلِ مَنْ عِبَدَهُ من دون

الله.

(١) أخرجه مسلم (جنة ١٠، ١١)، والدارمي (رقاق ١٠٧)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٣٩، ٣، ٢٦، ٥٠، ٦١، ٥، ٣٤٠.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُمًّا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

أمر بإفراده - سبحانه - بالعبادة، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبد منها، وأن يكون مغلوباً باستيلاء سلطان الحقيقة عليه بما يحفظه عن شهود عبادته.

وأمر بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما، والوقوف عند إشارتهما، والقيام بخدمتهما، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهما وحسن عشرتهما ورعاية حرمتهما، وألا يبدي شواهد الكسل عند أوامرهما، وأن يتبدل المكتنة فيما يعود إلى حفظ قلوبهما... هذا في حال حياتهما، فأما بعد وفاتهما فيصدق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما، وحفظ وصيتهما على الوجه الذي فعلاه، والإحسان إلى من كان من أهل ودهما ومعارفهما.

ويقال إن الحق أمر العباد بمراعاة حق الوالدين وهما من جنس العبد... فمن عجز عن القيام بحق جنسه أتى له أن يقوم بحق ربه؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ﴾ بحسن المداراة ولين المنطق، والبدار إلى الخدمة، وسرعة الإجابة، وترك البرم بمطالبهما، والصبر على أمرهما، وألا تدخر عنهما ميسوراً.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّكَ أَغْلَىٰ بِمَا فِي نَفْسِكَ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾.

إذا علم الله صدق قلب عبد أمده بحسن الأمجاد، وأكرمه بجميل الامتداد، ويسر عليه العسير من الأمور، وحفظه عن الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ تَبْدِيرًا﴾.

إيتاء الحق يكون من المال ومن النفس ومن القول ومن الفعل، ومن نزل على اقتضاء حقه، وبذل الكل لأجل ما طالبه به من حقوق. فهو القائم بما ألزمه الحق سبحانه بأمره.

والتبذير مجاوزة الحد عما قدره الأمر والإذن. وما يكون لحظ النفس - وإن كان سمسمة^(١) - فهو تبذير، وما كان له - وإن كان الوفاء بالنفس - فهو تقصير.

(١) السمسمة: واحدة السمسم: نبات له حب صغير دهنه زيت الشيرج.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَالْوَأِخْوَانِ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

إنما كانوا إخوان الشياطين لأنهم أنفقوا على هواهم، وجروا في طريقهم على دواعي الشياطين ووساوسهم، ولما أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوان الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ لَمَّا نَبَا رَّبُّكَ رَجُوعًا فَعَلَّ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

إن لم يُساعذك الإمكان على ما طالبوك من الإحسان فاضرفهم عنك بوعد جميل إن لم تُسعفهم بنقد جزيل. . . وإنَّ وعد الكرام أهنأ من نقد اللئام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

لا تُفسك عن الإعطاء فتكدي^(١)، ولا تُسرف في البذل بكثرة ما تُسدي، واسلك بين الأمرين طريقاً وسطاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانُمْ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

إذا بسط لا تبقى فاقة، وإذا قبض استنفد كل طاقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.

من عَرَف أنَّ الرأف هو الله خفَّ عن قلبه هم العيال - وإن كثروا، ومن خفي عليه أنه قَسَم - قبل الخلق - أرزاقهم تطوح في متاهات مغالطه، فيقع فيها بالقلب والبدن ثم لا يكون غير ما سبق به التقدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّمَا كَانَ فَرْجًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

ترجح الزنا على غيره من الفواحش لأن فيه تضييع حُرمة الحق، وهتك حُرمة الخلق، ثم لما فيه من الإخلال بالنسب، وإفساد ذات البين من مقتضى الأنفة والغضب.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّمَا كَانَ مَنصُورًا﴾.

لا يجوز قتل نفس الغير بغير الحق، ولا للمرء أن يقتل نفسه أيضاً بغير الحق. وكما أن قتل النفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات مُحَرَّم فكذلك القصد إلى هلاك المرء مُحَرَّم.

(١) كدى الرجل يكدي وأكدى: قلل عطاءه، وقيل: بخل (اللسان ٥/٢١٦ مادة: كدا).

ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا﴾: أي تسلطاً على القاتل في الاقتصاص منه، وعلى معنى الإشارة: إلى النصر من قِبَلِ الله: ومنصور الحق لا تنكسر سيئاته، ولا تطيش سيئاته. قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

لما لم يكن لليتم من يهتم بشأنه أمر - سبحانه - الأجنبي الذي ليس بينه وبين اليتيم سبب أن يتولى أمره، ويقوم بشأنه، وأوصاه في بابه؛ فالصبي قاعد بصفة الفراغ والهويني^(١)، والولي ساع بمقاساة العنا. فأمر الحق - سبحانه - للولي أخطى للصبي من شفقة إله عليه في حال حياتهم. قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْقِئِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

كما تدين تدان، وكما تعامل تُجازى، وكما تكيل يُكَالُ لك، وكما تكونون يكون عليكم، ومن وفى وفوا له، ومن خان خانوا معه، وأنشدوا: أسأنا فساءوا.. عذْلُ بلا حيف ولو عذَلْنَا لَخُلُصْنَا مِنَ الْمِحْنِ قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

إذا غلبت عليك مجوزات الظنون، ولم يُطْلِعْكَ الحق على اليقين فلا تتكلف الوقوف عليه من غير برهان، وإذا أشكل عليك شيء من أحكام الوقت فارجع إلى الله؛ فإن لاح لقلبك وَجْهٌ من الدليل على حَذِّ الالتباس فكلِّ عِلْمَهُ إلى الله، وقف حيثما وقفت.

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أن العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم، وأصحاب الحق يجري عليهم يحكم التصريف شيء لا عِلْمَ لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يُكشَفُ لهم وجهه، وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم^(٢).

(١) الهويني: الخفض والدعة.

(٢) فرق القشيري بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق. قال في رسالته عند حديثه عن الوصية للمريدين: ولم يكن عصر في الحكم الإسلامي إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة، فمن له علوم التوحيد وإمامة القوم، إلا وأتمه ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك =

قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ﴾ هذه أمانة الحق - سبحانه - عند العبد، وقد تقدم في بابها بما أوضحت به إلهام الشريعة.

وَمَنْ استعمل هذه الجوارح في الطاعات، وصانها عن استعمالها في المخالفات فقد سَلِمَ الأمانة على وصف السلامة، واستحق المدح والكرامة. وَمَنْ ذَنَسَهَا بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة، واستوجب الملامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ أَهَّ نَّ وَلَكِن تَبْلُغُ الْحَبَالَ طُولًا﴾.

الْحَيَلَاءُ والتجبر، والمدح والتكبر - كل ذلك نتائج الغيبة عن الذكر، والحجة عن شهود الحق؛ «فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لشيء خضع له»^(١) بذلك وَرَدَ الخبر. فأما في حال حضور القلب واستيلاء الذكر وسلطان الشهود. فالقلب مُطَرِّقٌ، وَحُكْمُ الهيبة غَالِبٌ. ونعت المدح وصفة الزُّهْوِ وأسباب التفرقة - كل ذلك ساقط.

والتَّاسُّ - في الخلاص من صفة التكبر - أصناف: فأصحاب الاعتبار إذ عرفوا أنهم مخلوقون من نطفة أمشاج^(٢)، وما تحمله أبدانهم مما يترشح من مساهمهم من بقايا طعامهم وشرابهم. . . تعلقوهم عن التضييق والتدنيق^(٣)، وَيَبْعُدُ عن قلوبهم قيام أخطارٍ للأشياء، ولا يخطر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر، وينزع عنهم لباس التجبر.

وأما أرباب الحضور فليس في طلوع الحق إلا انخناس^(٤) النفس، وفي معناه قالوا:

إِذَا مَا بَدَا لِي تَعَاظُمْتُه فَأَصْدَرَ فِي حَالٍ مَنْ لَمْ يَرِدْ

= الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية لهم وخصوصية وإلا كان الأمر بالعكس، هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما، فجاء شيبان الراعي، فقال أحمد: أريد يا أبا عبد الله أن أتبه هذا على نقصان علمه، ليشغل بتحصيل بعض العلوم، فقال الشافعي: لا تفعل، فلم يقع، فقال لشيبان: ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة، ولا يدري أية صلاة نسى، ما الواجب عليه يا شيبان؟ فقال شيبان: يا أحمد هذا قلب غفل عن الله تعالى، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد، فغشي على أحمد، فلما أفاق. قال له الشافعي: ألم أقل لك لا تحرك هذا، وشيبان الراعي كان أميًا، فإذا كان الأمي منهم هكذا فما الظن بأئمتهم. (الرسالة القشيرية ص ٣٧٨، ٣٧٩).

(١) أخرجه النسائي (كسوف ١٦)، وابن ماجه (إقامة ١٥٢)، وأحمد بن حنبل ٤، ٢٦٧، ٢٦٩.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط: ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة (لسان العرب ٣٦٧/٢ مادة: مشج).

(٣) التدنيق: المداقة والاستقصاء كنباتات عن البخل والشح. (اللسان ١٠٦/١٠ مادة: دنق).

(٤) الانخناس: التأخر والتخلف.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِنَّا وَتُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَنِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

إذا سَعِدَتْ الأقدامُ بحضورِ ساحاتِ الشهود، وعَطِرَتْ الأسرارُ بنسيمِ القُربِ تجرَّدَتْ الأوقاتُ عن الحجة، واستولى سلطان الحقيقة، فيحصل التنفُّي من هذه الأوصاف المذمومة.

وقال تعالى لنبيه: ﴿ذَلِكَ مِنَّا وَتُوحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾: بالوحي والإعلام، ولأوليائه تعريف بحكم الإلهام.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَصْفَنَّاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

جَوَّزُوا أَنْ يَكُونََ اللَّهُ - سبحانه - وَلَدًا، وفكروا في ذلك، ثم لم يَرْضَوْا حتى جعلوا له ما استنكفوا منه لأنفسهم، فما زادوا في تَمَرُّدِهِمْ إِلَّا عُتُوًّا، وفي طغيانهم إِلَّا غُلُوءًا، وعن قبول الحقِّ إِلَّا بُتُوءًا.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَاتَّبَعْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْسِ سَبِيلًا سُبْحَنَهُمُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهًا كَبِيرًا﴾^(١).

بَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الصَّانِعُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَرَىٰ بَيْنَهُمْ تَضَادٌّ وَتَمَانُعٌ، وصحَّ عند ذلك في صفتهم العجزُ، وذلك من سِمَاتِ المحدثات.

ثم قال سبحانه - تنزيهاً له عن الشُّريك والظهير، والمعين والنظير.

قوله جل ذكره: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسَبِّحُونَ له تسبيحاً قاله، وغير الأحياء يسبح من حيث البرهان والدلالة. وما من جزءٍ من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية، ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا - لجهلهم وتَعَسَّرَ إدراكهم - وأنكروا.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

أي أدخلناك في إيواءِ حِفْظِنَا، وضربنا عليك سَرَادِقَاتِ^(٢) عصمتنا، ومنعنا الأيدي الخاطئة عنك بلطفنا.

(١) الآية (٤١) لم ترد.

(٢) السرادقات: (ج) السرادق: الخيمة الواسعة أو ما يُعَدُّ فوق صحن الدار وهو ستر الدار.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُمْ وَلَا أَعْلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُورًا﴾.

صَرَّحَ بأنه خالق ضلالتهم، وهو المبدأ في قلوبهم ما استكن فيها من فرط غوايتهم. ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُمْ﴾ أحبوا أن تذكر آلهتهم، قد ختم الله على قلوبهم فلا حديث يُعْجِبُهُمْ إِلَّا مِمَّنْ لَهُمْ شَكْلٌ وَمِثْلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿تَحْنُ أَعْلَىٰ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

لَبَّسُوا على رسول الله - ﷺ - أحوالهم، وأظهروا الوفاق من أنفسهم، ففَضَّحَهُم اللَّهُ تعالى، وكشَفَ أسرارهم، وَبَيَّنَّ مقابحهم، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ، فما تنطوي عليه السرية لا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ لأهل البصيرة بما يبدو على الأسيرة.

قوله جل ذكره: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

عابوه بما ليس بنقيصة في نفسه حيث قالوا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي ذا سِحْرِ. وأي نقيصة كانت له إذا كان ﷺ - من جملة البشر؟ والحق سبحانه وتعالى متولٍ نصرته، ولم يكن تخصيصه ببينة، ولا بصورة، ولا بحِزْفة، ولم يكن منه شيء بسببه وإنما بآن شرفه لجملة ما تعلَّقه به لُطْفُه القديم - سبحانه - ورحمته.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوْ إِنَّا لَبِعُودُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

أَفَرُّوا بِأَنَّ الله خَلَقَهُمْ، ثم أنكروا قدرته على إعادتهم بعد عَدَمِهِمْ، ولكن... كما جاز أن يوجدهم أولاً وهم في كتم العَدَمِ ولم يكن لهم عين ولا أثر، ولكنهم كانوا في متناول القدرة ومتعلق الإرادة، فَمِنْ حَقِّ صاحب القدرة والإرادة أن يعيدهم إلى الوجود مرة أخرى... وهكذا إذا رَمَدَتْ عَيْنُ قَلْبٍ لَمْ يَسْتَبْصِرْ صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

أخبر - سبحانه وتعالى - أنه لا يتعصَّى عليه مقدور لأنه موصوف بقدرة أزلية، وَقُدْرَتُهُ عَامَّةُ التعلق: فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرفاهية. فالخلق الأول والإعادة عليه سيان؛ لا مِنْ هَذَا عائدٌ إليه ولا مِنْ ذَاكَ، لأن قِدَمَهُ يمنع تأثير الحدوث فيه.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون. فالحمد بمعنى الشكر، وإنما يشكر العبد على النعمة والآية تدل على أنهم - وهم في قبورهم - في نعمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

القول الحسن ما يكون للقاتل أن يقوله. ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحسن، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه. ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه. ويقال الأحسن من القول إقرار المُجِبِّ بعبودية محبوبة.

ويقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجُرم، وأحسن قول من العارفين الإقرار بالعجز عن المعرفة، قال ﷺ: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

سَدَّ على كلِّ أحدٍ طريق معرفته بنفسه ليتعلّق كلُّ قلبه بربه. وجعل العواقب على أربابها مشبهة، فقال ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾. ثم قدّم حديث الرحمة على حديث العذاب، فقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ وفي ذلك تَرْجُّحٌ للأمل أن يقوى.

ويوصف العبدُ بالعلم ويوصف الربُّ بالعلم، ولكن العبد يعلم ظاهر حاله، وعلمُ الرب يكون بحاله وبمآله، ولهذا فالواجب على العبد أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، وهذا معنى: ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا نَبَأُ دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

فَضَّلَ بعضُ الأنبياء على بعض في النبوة والدرجة، وفي الرسالة واللطائف والخصائص. وجعل نبينا - ﷺ - أفضلهم؛ فهم كالنجوم وهو بينهم بَدْرٌ، وهم كالبدور وهو بينهم شمس، وهم شمسٌ وهو شمسُ الشمس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

استعينوا فيما يستقبلكم بالأصنام التي عبدتموها من دون الله حتى تتحققوا أنه لا تنفعكم عبادة شيء من دون الله، ولا يضركم ترك ذلك، ولقد قيل في الخبر: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥) والنسائي (قيام الليل ٥١) والترمذي (دعوات ٧٥ - ١١٢)، وابن ماجه (دعاء، ٣)، (إقامة ١١٧)، والموطأ (مس القرآن ٣١)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي (زهد، ١١)، وابن ماجه (فتن ١٢)، والموطأ (حسن الخلق ٣)، (كلام ١٧).

قوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

يعني الذين يعبدونهم ويدعونهم - كالمسيح وعزير والملائكة - لا يملكون نفعا لأنفسهم ولا ضرا، وهم يطلبون الوسيلة إلى الله أي يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحسان الله، وطمعاً في رحمته، ويخافون العذاب من الله... فكيف يرفعون عنكم البلاء وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم؟

ويقال في المثل: تعلق الخلق بالخلق تعلق مسجون بمسجون.

ويقال: إذا انضم الفقير إلى الفقير ازدادا فاقة.

ويقال إذا قاد الضريز ضريراً سقطاً معاً في البئر، وفي معناه أنشدوا:

إذا التقى في حذب واحد سبعون أعمى بمقادير

وسيروا بعضهم قائداً فكلهم يسقط في البير

قوله جل ذكره: ﴿وَأَن مِّن قَرِيْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعْدِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

العذاب على أقسام: فالألم الذي يرد على النفوس والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يرد على القلوب والسرائر؛ فعذاب القلوب لأصحاب الحقائق أحد في الشدة مما يصيب أصحاب الفقر والقلة.

ثم إن الحق سبحانه أجرى سنته بأن من وصلت منه إلى غيره راحة انعكست الراحة إلى موصلها، وبخلاف ذلك من وصلت منه إلى غيره وخشة عادت الوحشة إلى موصلها. ومن سام الناس ظلماً وخسفاً فيقدر ظلمه يعذبه الله - سبحانه وتعالى - في الوقت بتنغيص العيش^(١) واستيلاء الغضب من كل أحد عليه، وتترجم ظنونه وتنقسم أفكاره في أحواله وأشغاله، ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية لعلم ما طعم الحياة... ولكن حرموا النعم، وما علموا ما منوا به من النقم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَاللَّيْنَا مُؤَدِّ اللَّاقَةِ مُبِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

أجرى الله سنته أنه إذا أظهر آية افترحنھا أمة من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أن يعجل لها العقوبة، وكان المعلوم والمحكوم به ألا يجتاح العذاب القوم الذين كانوا في وقت الرسول - عليه السلام - لأجل من في أصلابهم من الذين علم أنهم يؤمنون؛ فلذلك أجز عنهم العذاب الذي تعجلوه.

(١) تنغص العيش: تكدر.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُرِيدُ بِالْأَيْكَةِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

التخويف بالآيات ذلك من مقتضى تجمله؛ فإن لم يخافوا وَقَعَ عليهم العذاب. ثم إنه عَلِمَ أنه لا يفوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فَأَخَّرَ العذاب. وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حُكْمِهِ وَعِلْمِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفِوهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

الإيمان بما خَصَّصْنَاكَ به امتحان لهم وتكليف، لِيَتَمَيَّزَ الصَّادِقُ مِنَ الْمُنَافِقِ، والمؤمن من الجاحد؛ فالذين تَذَارَكْتُهُمُ الحماية وقفوا وثبتوا، وَصَدَّقُوا بما قيل لهم وحققوا. وأما الذين خَامَرَ الشُّكُّ قُلُوبَهُمْ، ولم تَبَاشِرْ خلاصته التوحيد أسرارهم، فما ازدادوا بما امْتَحِنُوا به إلا تَحِيرًا وضلالًا وَتَبَلُّدًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

امتنع الشقي وقال: لا أسجد لغيرك بوجه سَجَدْتُ لَكَ به، وكان ذلك جهلاً منه، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثراً، ولمحيط نفسه تاركاً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَخْنِيكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لو علقت به ذرّة من المعرفة والتوحيد لم يحطب على نفسه بالإضلال والإغواء، لكنّه أقامه الحقّ بذلك المقام، وأنطقه بما هو لقلوب أهل التحقيق مُتَضَحٌّ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَّلَكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَزْوَاجِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

هذا غاية التهديد، وفيه إشارة وبيان بألا مرأى ولا تفويت، ولو أخر عقوبة قوم فإن ذلك إهمال لا إهمال، ومكر واستدراج لا إنعام وإكرام.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾: أي افعل ما أمكنك، فلا تأثير لفعلك في أحد، فإن المنشئ والمبدع هو الله.. وهذا غاية التهديد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

السلطان الحجة، فالآية تدل على العموم، ولا حجة للمعذر على أحد، بل الحجة لله وحده.

ويقال السلطان هو التَّسَلُّط، وليس لإبليس على أحد تسلط؛ إذ المقدور بالقدرة الحادثة لا يخرج عن محل القدرة الإلهية، فالحادثات كلها تحدث بقدرة الله؛ فلا لإبليس ولا لغيره من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم.

ويقال أراد بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ البخواص من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة والرعاية من قِبَلِ الله؛ فإن وساوس الشيطان لا تضرهم لالتجائهم إلى الله، ودوام استجارتهم بالله، ولهذا فإن الشيطان إذا قَرُبَ من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء معارفهم.

ويقال إن فرار الشيطان من المؤمنين أشد من فرار المؤمنين من الشيطان. والخواص من عباده هم الذين لا يكونون في أسر غيره، وأما من استعبده هواه، واستمكنت منه الأطماع، واسترقت كل خسيصة ونقيصة فلا يكون من جملة خواصه. وفي الخبر «تَعَسَّ عبد الدرهم تعس عبد الدينار»^(١).

ويقال في ﴿عِبَادِي﴾ هم الْمُتَفَيِّثُونَ في ظلال عنايته، الْمُتَبَرِّونَ عَنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، المتفردون بالله بحسن التوكل عليه ودوام التعلق به.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

تعرف إلى عباده بخلقه وإنعامه، فما من حادث من عين أو أثر أو طلل أو غبر إلا وهو شاهد على وحدانيته، دال على ربوبيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فَلَاحَ بَصَرُهُ إِلَى الْبَرِّ اعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾.

جبل الإنسان على أنه إذا أصابته نقمة، أو مسته محنة فزع إلى الله لاستدفاعها، وقد يُعْتَقَدُ أنهم لن يعودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضاء الله، فإذا أزال الله تلك النقمة وكشفت تلك المحنة عادوا إلى ما عنه تابوا، كأنهم لم يكونوا في ضرر مسهم، وفي معناه أنشدوا:

فكم قد جهلتم ثم عُدنا بِجِلْمِنَا أحبائنا كم تجهلون! وتَحْلُم!

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٤١٣٥، ٤١٣٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٩/٩، ٢٤٥/١٠) والهيثم في (مجمع الزوائد ٢٤٨/١٠، ٢٦٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣٥٦/٥، ٨/١٥٢، ٧٥/١٠)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٤٧/٢)، وابن كثير في (التفسير ١٧٦/٢، ٢٩٣/٧)، والقرطبي في (التفسير ٢٣٣/١٦، ١٤١/١٨)، والسيوطي في (الدر المنثور ١١٥/٢)، وابن حجر في (تغليق التعليق ٩٥٢)، وفي (فتح الباري ٢٥٣/١١، ٢٥٤)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٦١)، والشجري في (الأمالي ١٥٤/٢)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/٤٦، ٢٣٠/٣، ٣٧٦/٤)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥٣/٨).

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

الخوف ترُفُّ العقوبات مع مجاري الأنفاس - كذلك قال الشيخ^(١). وأعرفهم بالله أخوفهم من الله. وصنوف العذاب كثيرة؛ فكم من مسرورٍ أوَّلَ ليله أصبح في شدة! وكم من مهموم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جاءته البشرى بكمال النعم! وفي معناه قالوا: إن من خاف البيات لا يأخذه السُّبات. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون على رجل كأنهمو يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

المراد من قوله: ﴿بَنِي آدَمَ﴾ هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. والتكريم التكثير من الإكرام، فإذا حَرَمَ الكافر الإكرام.. فمتى يكون له التكريم؟

ويقال إنما قال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل المؤمنين أو العابدين أو أصحاب الاجتهاد توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابل فعل، أو معللاً بعلة، أو مُسَبَّباً باستحقاق يوجب ذلك التكريم.

ومن التكريم أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة.

ومن التكريم أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه خَاطَبُهُ، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سألَهُ.

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته، فلو تكرر منه جُرْمُهُ ثم توبته يضاعف له قبوله التوبة وعفوهُ.

ومن التكريم أنه إذا سَرَعَ في التوبة أَخَذَ بيده، وإذا قال: لا أعود - يقبل قوله وإن عَلِمَ أنه ينقض توبته.

ومن التكريم أنه زَيْنَ ظاهرهم بتوفيق المجاهدة، وحَسَنَ باطنهم بتحقيق المشاهدة.

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كذا في

(١) هذا القول للجنيد (انظر الرسالة القشيرية ص ١٢٧) وهو فيها: سُئل الجنيد عن الخوف فقال: توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس.

الأثر: «أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني».

ومن تكريم جملتهم أنه قال لهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

وكما خَصَّ بني آدم بالتكريم خَصَّ أمة محمد - ﷺ - منهم بتكريم مخصوص، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحْيِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٤] و ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن التكريم قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه.

ومن التكريم لقوم توفيق صِدْقِ الْقَدَم، ولقوم تحقيق علو الهِمَم. قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: سَخَّرَ الْبَحْرَ لَهُمْ حتى ركبوا في السفن، وسَخَّرَ الْبَرَّ لَهُمْ حتى قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧].

ويقال محمول الكرام لا يقع، فإن وَقَعَ وَجَدَ مَنْ يأخذ بيده.

ويقال الإشارة في حملهم في البر ما أوصل إليهم جهراً، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سراً.

ويقال لَمَّا حَمَلَ بَنُو آدَمَ الْأَمَانَةَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ، فَحَمَلٌ هُوَ جَزَاءُ حَمَلٍ، حَمَلٌ هُوَ فِعْلٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ وَحَمَلٌ هُوَ فَضْلٌ مَنْ لَمْ يَزَلْ.

قوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾: الرزق الطيب ما كان على ذكر الرازق؛ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ غَائِباً بقلبه^(١) ولا غافلاً عن ربّه استطاب كُلَّ رزقٍ، وأنشدوا:

يا عاشقي إني سَعِدْتُ شراباً لو كان حتى علقماً أو صاباً

قوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾: أي الذين فضلناهم على خلق كثير، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كُلِّ مَنْ خَلَقْنَا، وذلك التفضيل في الخلقة. ثم فاضل بين بني آدم في شيء آخر هو الخلق الحسن، فَجَمَعَهُمْ فِي الْخُلُقَةِ - التي يفضلون بها سائر المخلوقات - ومايز بينهم في الخلق.

ويقال: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾: هذا اللفظ للعموم، والمراد منه الخصوص، وهم

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الغيبة: هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحسن بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكير عقاب. (الرسالة القشيرية ص ٦٩).

المؤمنون، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين، فَفَضَّلَ أَوْلِيَاءَهُ على كثير ممن لم يبلغوا استحقاق الولاية.

ويقال فضَّلهم بآلَا ينظروا إلى نفوسهم بعين الاستقرار، وأن ينظروا إلى أعمالهم بعين الاستصغار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِنِّهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَتْهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قِيلًا﴾.

إمام كلِّ أحدٍ مَنْ يَقْتَدِي به، ولكن... مِنْ إمام يَهْتَدِي به مُقْتَدِيه، ومن إمام يتردّى به مقتديه.

﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كَتَبَتْهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾: لكمالِ صحوهم وقيادة عقلهم، والذين لا يؤتون كتابهم بيمينهم فهم لخوفهم وتردّدهم لا يقرأون كتابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. في الآخرة أعمى عن معانيته ببصيرته.

في الآخرة عذابه الفرقة وتضاف إليها الخُرقة - لهذا فهو ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنْ كَادُوا لَيَفْتِنُنَّكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خِلَالًا﴾.

ضربنا عليك سرادقات العصمة، وآويناك في كنف الرعاية، وحفظناك عن خطر اتباعك هواك، فالزُّلَّةُ منك محال، والافتراء في نعتك لا يجوز... ولو جَنَحْتَ لحظةً إلى الخلاف لَضَاعَفْتَ عليك تشديدات البلاء، لكمالِ قَدْرِكَ وَعُلُوِّ شأنِكَ؛ فَإِنَّ مَنْ كان أعلى درجةً فذنبه - لو حصل - أشدُّ تأثيراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَن نَّبَشُنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ النَّجْوَىٰ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

لو وكلناك ونَفَسَكَ، ورفعنا عنك ظِلَّ العصمة لَأَلَمَنْتَ بشيءٍ مما لا يجوز من مخالفة أمرنا، ولكننا أفردناك بالحفظ، فلا تنقاصر عنك آثاره، ولا تَفْرُبُ عن ساحتك أنواره.

قوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ...﴾ الآية هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم، ومِخْنُ الْأَجْبَةِ وَإِنْ قُلْتُ جَلْتُ، وفي معناه أنشدوا:

أنت عيني وليس من حق عيني غَضُّ أجفانها على الأقداء^(١)

(١) الأقداء: (ج) القذى: ما يقع في العين وما ترمي به (اللسان ١٥/١٧٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَسْتَمْتَعُ بِحَيَاتِهِ بَعْدَ مَضِيِّ الْأَعْزَةِ وَالْأَكَابِرِ غَلِطَ فِي حَسَابِهِ، وَإِنْ الْحَسُودَ لَا يَسُودُ:

وَفِي تَعَبٍ مَنِ يَخْشُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَهَا وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرْبٍ
وَالْأَرْضُ كُلُّهَا مِلْكٌ لَنَا، وَتُقَلَّبُ أَوْلِيَاءُنَا فِي تَرَدُّدِهِمْ فِي الْبِلَادِ وَتَطَوُّفِهِمْ فِي
الْأَقْطَارِ، تَرَدُّدًا عَلَى بَسَاطِنَا، وَتُقَلَّبُ فِي دِيَارِنَا؛ فَالْبَقَاعُ لَهُمْ سَوَاءٌ، وَأَنْشَدُوا:

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَقِفْ عَلَيْكَ مَحَبَّتِي مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ
قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.
الْحَقُّ أَمْضَى سُنَّتِهِ مَعَ الْأَوْلِيَاءِ بِالْإِنْعَامِ، وَمَعَ أَعْدَائِهِ بِالْإِدْغَامِ^(١)، فَلَا لِهَذِهِ أَوْ
هَذِهِ تَحْوِيلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ لَكَ عَسَى أَنْ يَلَيْكَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ
الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

الصَّلَاةُ قَرْعُ بَابِ الرِّزْقِ. وَالصَّلَاةُ الْوُقُوفُ فِي مَحَلِّ الْمُنَاجَاةِ.

وَالصَّلَاةُ اعْتِكَافُ الْقَلْبِ فِي مَشَاهِدِ التَّقْدِيرِ.

وَيُقَالُ هِيَ الْوُقُوفُ عَلَى بَسَاطِ النَّجْوَى. وَفَرَّقَ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ لِلْعَبْدِ عَوْدٌ
إِلَى الْبَسَاطِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَرَاتٍ.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ.
وَأَمَّا عَلَى لِسَانِ الْقَوْمِ فَإِنَّ قُرْآنَ الصَّبْحِ - الَّذِي هُوَ وَقْتُ إِتْيَانِهِ - يُبْعَدُ مِنَ النَّوْمِ وَكَسَلِ
النَّفْسِ فَلَهُ هَذِهِ الْمِزْيَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا﴾.

اللَّيْلُ لِأَحَدِ أَقْوَامٍ: لِطَالِبِي النِّجَاةِ وَهُمْ الْعَاصُونَ مَنْ جَنَحَ مِنْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ، أَوْ
لِأَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ وَهُمْ الَّذِينَ يَجِدُّونَ فِي الطَّاعَاتِ، وَيَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، أَوْ
لِأَصْحَابِ الْمُنَاجَاةِ مَعَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَمَا يَكُونُ النَّاسُ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغِيْبَةِ.

وَيُقَالُ اللَّيْلُ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: لِلْمَطِيعِ وَالْعَاصِي: هَذَا فِي احْتِيَالِ أَعْمَالِهِ، وَهَذَا فِي
اعْتِدَارِهِ عَنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ.

(١) الدغم: أن يميل وجه الفرس إلى السواد.

والمقام المحمود هو المخاطبة في حال الشهود، ويقال الشهود.

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر. ويقال هو انفراده يوم القيامة بما حُصَّ به - ﷺ - بما لا يشاركه فيه أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾.

أي ادخليني إدخال صدقي وأخرجني إخراج صدقي. والصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله لا لغيره، وخروجه عن الأشياء بالله ﷺ لا لغيره.

﴿وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾: فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوْقًا﴾.

أراد بالحقّ ما هنا الإسلام والدين، وأراد بالباطل الكفر والشرك، والحق المطلق هو الموجود الحق، والحق المقيد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق، والباطل نقيض الحق. واللّه حقّ: على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه مُحِقُّ الحق.

ويقال الحقّ ما كان لله، والباطل ما كان لغير الله.

ويقال الحقّ من الخواطر ما دعا إلى الله، والباطل ما دعا إلى غير الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَزِيْدُ الظَّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء، وشفاء من داء الشرك للمؤمنين، وشفاء من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواجع الشوق للمحبين، وشفاء من داء الشطط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وَكُتِبَكَ حَوْلِي لَا تَفَارِقْ مُضْجِعِي وفيها شفاء للذي أنا كاتِمٌ

قوله: ﴿وَلَا يَزِيْدُ الظَّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا﴾: الخطاب خطاب واحد، والكتاب كتاب واحد، ولكنه لقوم رحمة وشفاء، ولقوم سخط وشفاء. قوم أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء، وقوم أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شفاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.

إذا نزعنا عنه موجبات الخوف، وأرخبنا له حبل الإمهال، وهياً له أسباب الرفاهية اعترته مغاليط النسيان، واستولت عليه دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

ويقال إعراضه في هذا الموضوع نسيائه، ورؤية الفضل منه لا من الحق، وتوهمه أن ما به من النعم فباستحقاق طاعة أخلصها أو شدة قاساها. . وهذا في التحقيق شيزك.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

كُلٌّ يترشح بمودع باطنه، فالأسيرة تدل على السريرة، وما تُكِنُّه الضمائر يلوح على السرائر، فَمَنْ صفاً مِنَ الكدورة جوهره لا يفوح منه إلا نُشْرُ مناقبه، وَمَنْ طَبَعَتْ على الكدورة طينته فلا يشمُّ مَنْ يحوم حوله إلا ريح مثالبه.

ويقال حركات الظواهر تدلُّ وتُخْبِرُ عن بواطنِ السرائر.

ويقال حَبٌّ (..)(^(١)) لا يُنْبِتُ غُضُّ العود.

ويقال من عُجِنَتْ بماء الشقوة طينته، وطَبَعَتْ على النكرة جِبِلَّتُهُ^(٢) لا تسمح بالتوحيد قريحته، ولا تنطق بالتوحيد عبارته.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أرادوا أن يجادلوه ويُغْلَطُوهُ فَأَمَرَهُ أن ينطق بلفظ يُفَصِّحُ عن أقسام الروح؛ لأنَّ ما يُطَلَّقُ عليه لفظُ ﴿الرُّوحِ﴾ يدخل تحت قوله تعالى:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

ويقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب، وجعلها محل الأحوال اللطيفة والأخلاق المحموده، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَّ الرؤية والأذن محلَّ السمع. . إلى آخره، والبصير والسامع إنما هو الجملة - وهو الإنسان - فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح، ومحل الأوصاف المذمومة النفس، والحكم أو الاسم راجع إلى الجملة)^(٣).

وفي الجملة الروح مخلوقة، والحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده.

والروح لطيفة تقررت للكافة طهارتها ولطافتها، وهي مخلوقة قبل الأجساد بالوف من السنين. وقيل إنه أدركها التكليف، وإن لها صفاء التسبيح، وصفاء المواصلات، والتعريف من الحق.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الجبلَّة: الخلقة (ج) جبال.

(٣) ما بين قوسين صُحِّح استناداً للرسالة القشيرية ص ٨٧.

﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْغَلَرِ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لأن أحداً لم يشاهد الروح ببصره .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِأَلَدِيَّ أَوْحِيَّا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يُجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

سُئِلَ الحقّ - سبحانه - مع أحبائه وخواص عبادِهِ أن يُدِيمَ لهم افتقارهم إليه، ليكونوا في جميع الأحوال مُنفادين لجريانِ حُكمِهِ، وألا يتحركَ فيهم عِزُّ بخلافِ اختيارِهِ، وعلى هذه الجملة خاطب حبيبَهُ - صلوات الله عليه - بقوله: ﴿وَلَكِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِأَلَدِيَّ أَوْحِيَّا إِلَيْكَ﴾: فمن كان استقلاله بالله يقدّم مرادَ سيده - في العزل والولاية - على مراد نفسه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَافٍ﴾ .
والمقصودُ من هذا إدامةُ تَفَرُّدِ سِرِّهِ ﷺ به - سبحانه - دونَ غيره .
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .

سائر الأنبياء معجزاتهم باقيةٌ حُكماً، ونبينا - ﷺ - معجزته باقيةٌ عيناً، وهي القرآن الذي نتلوه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفِهِ .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَلْيَذَكِّرُوا النَّاسَ إِلَّا كُفُورًا﴾ .

لا شيءَ أَخْطَى عند الأحباب من كتابِ الأحباب، فهو شفاء من داء الضنى، وضيء لأسرارهم عند اشتداد البلاء، وفي معناه أنشدوا:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم
قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمُتَكَبِّرَ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنُؤْمِنَ لِرُفُوعِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ .

افترحوا الآيات بعد إزاحة العِلَّةِ وزوالِ الحاجة، فَرَكَّضُوا في مضمارِ سوءِ الأدب، وحَرَمُوا الوُضلة والقُرْبَة . ولو أُجِيبوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا جُحْذًا ونَكَرَةً، وقد قيل:

إنَّ الكريمَ إذا حباك بوْدَه سَتَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا المملولُ إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾: قل يا محمد: سبحان ربي! من أين لي الإتيان بما سألتكم من جهتي؟ فهل وُضِفي إلا العبودية؟ وهل أنا إلا بشر؟ قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢].

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾.

تعجبوا مما ليس بمحل شبهة، ولكن حملهم على ذلك قَرُطُ جهلهم، ثم أصرُّوا على تكذيبهم وجحدهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾.

الجنسُ إلى الجنسِ أميلُ، والشكلُ بالشكلِ آتسُ، فقال سبحانه لو كان سكانُ الأرضِ ملائكةَ لجعلنا الرسولَ إليهم ملكًا، فلما كانوا بشرًا فلا ينبغي أن يُستَبْعَدَ إرسالُ البشرِ إلى البشرِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

الحقُّ - سبحانه - هو الحاكم وهو الشاهد، ولا يُقَاسُ حُكْمُهُ على حُكْمِ الخلقِ، ولا يجوز في صفَةِ المخلوقِ أَنْ يَكُونَ الحاكمُ هو الشاهد، فكما لا تشبه ذاته ذاتُ الخلقِ لا تشبه صفته صفَةُ الخلقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبَكَآ وَصَبَّآ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

مَنْ أَرَادَهُ بالسَّعَادَةِ فِي آزَالِهِ اسْتَخْلَصَهُ فِي آبَادِهِ بِأَفْضَالِهِ، وَمَنْ عَلِمَهُ فِي الْأَزْلِ بِالشَّقَاءِ وَسَمَهُ وَفِي أَيِّدِهِ بِسِمَةِ الْأَعْدَاءِ. فَلَا لِحُكْمِهِ تَحْوِيلٌ، وَلَا لِقَوْلِهِ تَبْدِيلٌ.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَنَا وَمَنْ لَنَا مِنْ آلِهَةٍ إِلَّا كُنُوزُهُمْ خُلِقُوا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

لَمَّا أَصْرُّوا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ جَازَاهُمْ الْحَقُّ بِإِدَامَةِ تَعْذِيبِهِمْ، وَلَوْ سَاعَدَهُمُ التَّوْفِيقُ لَوُجِدَ مِنْهُمْ التَّحْقِيقُ، لَكُنْهُمْ عَدِمُوا التَّائِيدَ فَحَرِمُوا التَّوْحِيدَ.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفْرًا﴾.

مَهَّدَ بهذه الآية طريق إثبات القياس ، فلم يغادر في الكتاب شيئاً من أحكام الدين لم يؤيده بالدليل والبيان ، فَعَلِمَ الكُلُّ أن الركونَ إلى التقليد عينُ الخطأ والضلال .
قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ .

إذ البُخْلُ غريزة الإنسان ، والشحُّ سجيته [(.....)]^(١) المعروف لا يعرف الخلقه^(٢) .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ .

هي أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَسْحُورًا﴾ .

أنت - يا فرعون - سلكت طريق الاستدلال فَعِلِمْتَ أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا مِن قِبَلِ الله ، ولكِنَّكَ رَكَنْتَ إلى الغفلة في ظلمات الجهل .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ .

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستئصالهم ، وأراد الحق - سبحانه - نصرتهم وبقاءهم ، فكان ما أراد الحق لا ما كاد اللعين .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ .

أورثهم منازل أعدائهم ، ومكنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واستوصى بهم شُكْرَ نعمته ، وعرفهم أنهم إن سلكوا في العصيان مَسْلَكَ مَنْ تَقَدَّمَهم ذاقوا من العقوبة مثل عقوبتهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ .

القرآن حق ، ونزوله بحق ، ومُنَزَّلُهُ حق ، والمُنَزَّلُ عليه حق ، فالقرآن بحق أنزل ومن حق أنزل وعلى حق أنزل . وقد فَرَّقَ القرآن لِيُهِوَّنَ عليه - صلوات الله عليه - جَفَظَهُ ، وليكثر تردد الرسول من ربه عليه ، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً على أنه ليس مما أعان عليه غيره .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ آمِنُوا بِمَا أَوْحَى إِلَيْكُمْ بِإِذْنِ أَهْلِ الْبَيْتِ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ إِلَىٰ عِلْمِ اللَّهِ وَلَهُ الْخَزَائِنُ الْمُحْزَنَةُ﴾ .

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠﴾

إن آمنتم حصل النفع لكم، وإن جحدتم ففي إيمان من آمن من أوليائنا عنكم خلف، وإن الضّرر عائد عليكم.

وإن من أضأننا عليهم شمس إقبالنا لتشرق أنوار معارفهم؛ فإذا ثلثت عليهم آياتنا سجدوا بذل جحدهم، واستجابوا بدل تمردهم، وقابلوا بالتصديق ما يقال لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

تأثيره في قلوب قوم يختلف؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصّر، وتأثير السماع في أنوار الموحدين بالتحير؛ تبصّر العلماء بصحة الاستدلال، وتحير الموحدين في شهود الجمال والجلال.

وبكاء كل واحد على حسب حاله: فالتائب يبكي لخوف عقوبته لما أسلفه من زلّته وخوبته، والمطيع يبكي لتقصيره في طاعته، ولكيلا يفوته ما يأمله من مثته.

وقوم يبكون لاستبهام عاقبتهم وسابقتهم عليهم.

وآخرون بكاؤهم بلا سبب متعين. وآخرون يبكون تحسراً على ما يفوتهم من الحق.

والبكاء عند الأكابر معلول، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل، وفي معناه أنشدوا:

خُلِفْنَا رَجَالًا لِلتَّجْلِيدِ وَالْأَسَى وتلك الغواني للبكا والماتم

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَرِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾.

من عظيم نعمته - سبحانه - على أوليائه تنزّههم بأسرارهم في رياض ذكره بتعداد أسمائه الحسنی من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس.

ويقال الأغنياء ترددهم في بساتينهم، والأولياء تنزههم في مشاهد تسبيحهم، يستروحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

لا تجهر بجميعها، ولا تخافت بكّلها، وارفع صوتك في بعضها دون بعض.

ويقال ولا تجهر بها جهراً يسمعه الأعداء، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾: يكون للأحباب مسموعاً، وعن الأجانب ممنوعاً.

ويقال ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: بالنهار، ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾: بالليل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾.

أَحْمَدُهُ بِذِكْرِ تَقْدِسِهِ عَنِ الْوَلَدِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَلَا وَلِيَّ لَهُ مِنَ الذَّلِّ؛ إِمَّا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَذَلَّ فَيَحْتَاجُ إِلَى وَلِيٍّ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُوَالَ أَحَدًا مِنْ أَجْلِ مَذَلَّةٍ بِهِ فَيُدْفَعُهَا بِمَوَالِيهِ. وَيُقَالُ اشْكُرْهُ عَلَى نِعْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ عَرَّفَكَ بِذَلِكَ.

وَيُقَالُ لَهُ الْأَوْلِيَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْتَرِبُهُمْ بِذُلِّهِمْ، إِذْ يَصِيرُونَ بِعِبَادَتِهِ أَعِزَّةً.

﴿وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ بَأَنَّ تَعْلَمَ أَنَّكَ تَصِلُ إِلَيْهِ بِهِ لَا بِتَكْبِيرِكَ.

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْلَيْنِ الرَّجِيرَيْنِ﴾.

ما سَعِدَتْ القلوبُ إلا بسماع اسم الله، وما استنارت الأسرارُ إلا بوجود الله، وما طَرِبَتْ الأرواحُ إلا بشهود جلال الله.

سماع ﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ راحةً القلوبِ وضياؤها، وشفاء الأرواح ودواؤها.
﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ قُوَّةُ العارفين؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم، وبها استقلالهم وبقاؤهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

إذا حُمِلَ ﴿الْحَمْدُ﴾ هنا على معنى الشكر فإنزال الكتاب من أجل نِعَمِهِ، وكتاب الحبيب لدى الحبيب أجلُّ مَوْقِعٍ وأشرف محلٍّ، وهو من كمال إنعامه عليه، وإن سَمَّاهُ - عليه السلام - عَبْدَهُ فهو من جلائلِ نعمه عليه لأنَّ من سَمَّاهُ عَبْدَهُ جَعَلَهُ من جملة خواصِّه.

وإذا حُمِلَ ﴿الْحَمْدُ﴾ في هذه الآية على معنى المدح كان الأمر فيه بمعنى الشناء عليه - سبحانه، بأنَّه المَلِكُ الذي له الأمرُ والنهيُّ والحكمُ بما يريد، وأنه أَعَدَّ الأحكامَ التي في هذا الكتاب للعبيد، وسَمَّاهُ ﷺ عَبْدَهُ لَمَّا كان فانياً عن حظوظه، خالصاً لله بقيامه بحقوقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَيْمًا لِّشَدِيدٍ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾.

﴿فَتَيْمًا﴾: أي صانه عن التعارض والتناقض، فهو كتابٌ عزيزٌ من ربِّ عزيز.

«والْيَاسُ الشَّدِيدُ»: مُعْجَلُهُ الفراق، ومُؤَجَّلُهُ الاحتراق.

ويقال هو البقاء عن الله تعالى، والابتلاء بغضب الله.

ومعنى الآية لينذرهم بئاس شديد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْمُكُونَ الصَّلَاحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

والعملُ الصالحُ ما يصلح للقبول، وهو ما يُؤَدَّى على الوجه الذي أُمِرَ به. ويقال العملُ الصالحُ ما كان بنعت الخلوص، وصاحبُه صادقٌ فيه.

ويقال هو الذي لا يستعجل عليه صاحبه خطاً في الدنيا مِنْ أَخَذِ عِوَضٍ، أو قَبُولِ جَاهٍ، أو انعقادِ رياسة... وما في هذا المعنى.

وحصلت البشارة بأنَّ لهم أجراً حسناً، والأجرُ الحَسَنُ ما لا يجري مع صاحبه استقصاء في العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما يزيد على مقدار العمل.

ويقال الأجر الحَسَنُ ما لا يُذَكَّرُ صاحبه تقصيره، ويستر عنه عيوب عمله.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَكُنْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

البشارة منه أنَّ تلك النعم على الدوام غير منقطعة، وأعظم من البشارة بها قوله: ﴿وَنُذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قالتهم القبيحة نتيجة جهلهم بوحداية الله، ولقد توارثوا ذلك الجهل عن أسلافهم؛ والحيّة لا تلد حيّة!

كَبُرَتْ كلمتهم في الإثم لما خَصَّت في المعنى. وَمَنْ نطق بما لم يحصل له به إذن لِحَقِّه هذا الوصف. وَمَنْ تكلّم في هذا الشأن قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء. قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا كَبُرَتْ نَفْسُكَ عَلَى أَنْ تُثْرِيَهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

مِنْ فَرَطِ شفقتك - ﷺ - داخله الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوّن الله - سبحانه - عليه الحال، بما يشبه العتاب في الظاهر؛ كأنه قال له: لِمَ كل هذا؟ ليس في امتناعهم - في عَدْنَا - أثر، ولا في الدين من ذلك ضرر. فلا عليك من ذلك.

ويقال أشهد جريان التقدير، وعَرَفَهُ أنه - وإن كان كُفَرُهم منهياً عنه في الشرع - فهو في الحقيقة مُرَادُ الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾.

ما على الأرض زينة لها تُذَكِّرُ بالأبصار، وممن على الأرض من هو زينة لها يُعَرِّفُ بالأسرار. وإنَّ قيمة الأوطان لِقُطَانُها، وزينة المساكن في سُكَّانها.

ويقال العُباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال الأولياء زينة الأرض وهم أمانُ مَنْ في الأرض.

ويقال إذا تلالأت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضيائهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَنَبْلُوَنَّ هُمْ أَخْسَنُ عَمَلًا﴾.

أحسنهم عملاً أصدقهم نيةً، وأخلصهم طوية^(١).

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً؛ إذ لا ثواب لمن لا حسبة له، وأعلى من هذا بل وأولى من هذا فأحسنهم عملاً أشدهم استصغاراً لفعله، وأكثرهم استحقاقاً لطاعته؛ لشدة رؤيته لتقصير فيما يعمله، ولانتقاصه أفعاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره.

ويقال أحسنُ أعمال المرءِ نظرُهُ إلى أعماله بعين الاستحقار والاستصغار، لقول الشاعر:

وأكبرُهُ من فِعْلِهِ وأعظمُهُ تصغيرُهُ فِعْلُهُ الذي فَعَلَهُ
معناه: أكبرُ مِنْ فعلِهِ - الذي هو عطاؤه وبَذْلُهُ - تَقْلِيلُهُ واستصغارُهُ لِمَا يُعْطِيهِ
ويجود به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.
كَوْنُ ما على الأرض زينةً لها في الحال سَلَبَ قَدْرُهُ بما أخبر أنه سيفنيه في المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾.
أزال الأعجوبة عن أوصافهم بما أضافه إلى ربّه بقوله: ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا﴾؛ فَقَلَبَ
العادة مِنْ قِبَلِ اللَّهِ غَيْرُ مُسْتَكْرٍ وَلَا مُبْتَدِعٍ.

ويقال مكثوا في الكهف مدةً فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّهِمْ فقال: ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾،
وللنفوس مَحَالً، وللقلوب مَقَارً، وللهم مَجَال، وحيثما يعتكف يُطْلَبُ أبداً صاحبه.
ويقال الإشارة فيه ألا تَتَعَجَّبَ من قصتهم؛ فحالك أعجب في ذهابك إلينا في
شطر من الليل حتى قاب قوسين^(٢) أو أدنى، وهم قد بقوا في الكهف سنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءِإِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

أواهم إلى الكهف بظاهريهم، وفي الباطن فهو مُقِيلُهُمْ في ظِلِّ إقباله وعنايته، ثم
أخذهم عنهم، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم.
وأخبر عن ابتداء أمرهم بقوله: ﴿رَبَّنَا ءِإِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾:

(١) الطَّوِيَّةُ: الضمير ينطوي عليه الإنسان. يقال: فلان حسن الطوية، أي: النية والضمير (ج) طوايا.

(٢) القاب: المقدار، أو ما بين نصف وتر القوس وطرفه. يُقال: هو على قاب قوسين: كناية عن القرب.

أي أنهم أَخَذُوا فِي التَّبَرِّي مِنْ حَوْلِهِمْ وَقَوَّيْتَهُمْ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقِ قَاتِيهِمْ، فاستجاب لهم دَعْوَتَهُمْ، ودفع عنهم ضرورَتَهُمْ، وبَوَّأَهُمْ فِي كَنْفِ الْإِبْوَاءِ مَقِيلًا حَسَنًا. قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَدَدًا﴾.

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمُ الْكُرْآنَ الَّذِي أَمْطَرْنَا بِهِ نِجْمًا﴾.

أي رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم، وأقمناهم بشواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿ثُمَّ نَفَّسْنَا عَنْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾.

لَمَّا كَانُوا مَأْخُودِينَ عَنْهُمْ تَوَلَّى الْحَقَّ - سبحانه - أَنْ قَصَّ عَنْهُمْ، وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ كَانَ عَنْ نَفْسِهِ وَأَوْصَافِهِ قَاصًّا؛ لِبَقَائِهِ فِي شَاهِدِهِ وَكَوْنِهِ غَيْرَ مُتَنَبِّ بِجُمْلَتِهِ. . . وبين من كان موصوفاً بواسطة غيره؛ لِفَنَائِهِ عَنْهُ وَامْتِحَانِهِ مِنْهُ وَقِيَامِ غَيْرِهِ عَنْهُ.

ويقال لَا تَسْمَعُ قِصَّةَ الْأَحْيَاءِ أَعْلَى وَأَجَلٌ مِمَّا تَسْمَعُ مِنَ الْأَحْيَاءِ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ثُمَّ نَفَّسْنَا عَنْكَ﴾، وَأَنْشَدُوا:

وَحَدَّثْتَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدْتَنِي حَنِينًا فَرَدْتَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: يُقَالُ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا - عَلَى الْوَهْلَةِ - بِرَبِّهِمْ، آمَنُوا مِنْ غَيْرِ مَهَلَةٍ، لَمَّا أَتَتْهُمْ دَوَاعِي الْوَصْلَةِ^(١).

ويقال فِتْيَةٌ لِأَنَّهُمْ قَامُوا لِلَّهِ، وَمَا اسْتَقَرُّوا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى اللَّهِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَرَبَّطْنَا هُذَى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

لَأَطْفَهُمْ بِإِحْضَارِهِمْ، ثُمَّ كَاشَفَهُمْ فِي أَسْرَارِهِمْ، بِمَا زَادَ مِنْ أَنْوَارِهِمْ، فَلَقَّاهُمْ أَوَّلًا التَّبَيُّنَ، ثُمَّ رَقَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِالْيَقِينِ.

﴿وَرَبَّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: بِزِيَادَةِ الْيَقِينِ حَتَّى مَتَعَ نَهَارًا^(٢) مَعَارِفَهُمْ، وَاسْتِزْجَاءَ شَمْسٍ تَقْدِيرَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ لِلتَّرَدُّدِ مَجَالٌ فِي خَوَاطِرِهِمْ، وَ (.. .)^(٣) فِي التَّجْرِيدِ أَسْرَارَهُمْ، وَتَمَّتْ سَكِينَةُ قُلُوبِهِمْ.

(١) انظر حديث القشيري برسالته ص ٢٢٦ عن الفتوة.

(٢) فَتَحَ نَهَارَهُ: كُنَايَةٌ عَنْ اسْتِمْرَارِ الْعَطَاءِ الْإِلَهِيِّ وَالْكَشْفِ الرَّبَّانِيِّ بِتَمْدِيدِ وَقْتِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ، حَتَّى يَنْعَدِمَ اللَّيْلُ.

(٣) بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾: بأن أفنيانهم عن الأغيار، وأغنيانهم عن التفكير بما أوليناهم من أنوار التبصّر.

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنّا فيها من شواهد الغيب، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قاموا لله بالله، ومن قام بالله فقد عمّا سوى الله.

ويقال من قام لله لم يقعد حتى يصل إلى الله.

ويقال قعدت عنهم الشهوات فصَحَّ قيامهم بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾.

من أحال الشيء على الحوادث فقد أشرك بالله، ومن قال إنّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دون الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

لما لم يكن لهم حجة اتضح فيما ادعوه كذبهم، فمن اكتفى بنفي القالة دون ما يشهد لقوله من أدلته فهو معلول في نحلته.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ فمن ذكر في الدين قولاً لم يؤيد ببرهان عقلي أو نقلي فهو مفتر، ومن أظهر من نفسه حالاً لم يوجبه صدق مجاهدته أو منازلته فهو على الله مفتر. والذي يصدق في قوله - في هذه الطريقة - فهو الذي يسمع من الحق بسرّه، ثم ينطق بلفظه^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ افْتَرَسْتُهُمْ وَمَا يَسْبُودُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾.

العزلة عن غير الله توجبّ الوصلة بالله. بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله.

ويقال لما اعتزلوا ما عُبد من دون الله آواهم الحق إلى كنف رعايته، ومهد لهم مثنوى في كهف عنايته.

ويقال من تبرأ من اختياره في احتياله، وصدق رجوعه إلى الله في أحواله، ولم يستعِنْ - بغير الله - من أشكاله وأمثاله آواه إلى كنف أفضاله، وكفاه جميع أشغاله، وهباً له محلاً يتفيؤ فيه في بزدٍ ظلاله، بكمال إقباله.

(١) انظر حديث القشيري عن الصدق بالرسالة ص ٢١٠ - ٢١٤.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرًا^(١) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

كانوا في مُتَسَعٍ من الكهف، ولكن كان شعاع الشمس لا ينسبط عليهم مع هبوب الرياح عليهم.

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالإضافة إلى أنوارهم.

إن نور الشمس ضياء يستضيء به الخلق، ونور معارفهم أنوار يُعرف بها الحق، فهذا نور يظهر في الصورة، وهذا نور يلوح في السريرة. وينور الشمس يدرك الخلق وينورهم كانوا يعرفون الحق.

وفي قوله - عز اسمه: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف العادة، فيكون من جملة كرامات الأولياء؛ ويحتمل أن يكون شعاع الشمس إذا انتهى إليهم ازور عنهم، ومضى دونهم بخلاف ما يقول أصحاب الهبة، ليكون فعلاً ناقضاً للعادة فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُستهلك في النور الذي عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

فالله يهدي قوماً بالأدلة والبراهين، وقوماً بكشف اليقين؛ فمعارف الأولين قضية الاستدلال، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال، فهؤلاء مع برهان، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان:

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾: أي مَنْ وَسَمَهُ بِسِمَةِ الحرمان فلا عرفان ولا علم ولا إيمان.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَيَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾.

هم مسلوبون عنهم، مُخْتَطِفُونَ منهم، مُسْتَهْلَكُونَ فيما كوشفوا به من وجود الحق؛ فظاهرهم - في رأي الخلق - أنهم بأنفسهم، وفي التحقيق: القائم عنهم غيرهم. وهم محو فيما كوشفوا به من الحقائق.

ثم قال: ﴿وَيَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾: وهذا إخبار عن حُسن إيوائه لهم؛ فلا كشفقة الأمهات بل أتم، ولا كرحمة الآباء بل أعز... وبالله التوفيق.

ويقال إن أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق - سبحانه - في صفة أصحاب الكهف: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ فهم بشواهد الفرق في ظاهرهم، لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم، يُجْرِي عليهم أحوالهم وهم غير متكلفين، بل هم يشبتون - وهم خمود عما هم به - أن تصرفاتهم القائم بها عنهم سواهم، وكذلك في نطقهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾.

كما ذكّرهم ذكر كلبهم، ومن صدّق في محبة أحد أحبّ من انتسب إليه وما ينسب إليه.

ويقال كلب خطّا مع أحبائه خطواتٍ فالى القيامة يقول الصبيان - بل الحق يقول بقوله العزيز -: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ﴾ فهل ترى أنّ مُسلماً يصحب أولياءه من وقت شبابه إلى وقت مشيبه يرده يوم القيامة خائباً؟ إنه لا يفعل ذلك.

ويقال في التفاسير إنهم قالوا للراعي الذي تبعهم والكلب معه: اصرف هذا الكلب عنّا. فقال الراعي: لا يمكنني، فإني أنا ديتّه.

ويقال أنطق الله سبحانه - الكلب فقال لهم: لمّ تضربوني؟ فقالوا: لننصرف عنّا.

فقال: لا يمكنني أن أنصرف.. لأنه ربّاني.

ويقال كلب بسطّ يده على وصيد^(١) الأولياء فالى القيامة يقال ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾... فهل إذا رَفَعها مسلمٌ إليه خمسين سنة ترى يردها خائبة؟ هذا لا يكون.

ويقال لما صحبهم الكلب لم تضره نجاسة صفته، ولا خساسة قيمته.

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، أو ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فقد قال في صفة هذه الأمة: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وشتان ما هما!

ويقال كلّ يعامل بما يليق به من حالته ورتبته؛ فالأولياء قال في صفتهم: ﴿وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، والكلب قال في صفته: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

ويقال كما كرّر ذكرهم، كرر ذكر كلبهم.

وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا: سبيلنا إذا لم ينصرف عنّا أن نحمله حتى لا يستدل علينا بأثر قدمه فحملوه، فكانوا في الابتداء (بل إياه) وصاروا في الانتهاء مطاياه.. كذا من اقتفى أثر الأحباب.

(١) الوصيد: فناء الدار والبيت.

ويقال في القصة إن الله أنطق الكلب معهم، وَيَنْطِقُهُ رَبُّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِأَنْ إِزْدَادُوا يَقِينًا بِسَمَاعِ نَطْقِهِ، فقال: لِمَ تَضْرِبُونِي؟ فقالوا: لتصرف، فقال: أنتم تخافون بلاء يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائي في الحال.

ثم إن بلاءكم الذي تخافون أن يصيبكم من الأعداء، وبلائي منكم وأنتم الأولياء.

ويقال لما لزم الكلب محلّه ولم يجاوز حُدّه فوضع يديه على الوصيد بقي مع الأولياء... كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾. الخطاب له - ﷺ. والمراد منه غيره.

ويقال لو اطلعت عليهم من حيث أنت لوليت منهم فراراً، ولو شاهدتهم من حيث شهود تولي الحق لهم لبقيت على حالك.

ويقال لو اطلعت عليهم وشاهدتهم لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا مِنْ أَنْ تُرَدَّ عَنْ عَالِي مَنْزِلَتِكَ إِلَى مَنْزِلَتِهِمْ؛ والغني إذا رُدَّ إلى منزلة الفقير قر منه، ولم تَطْبُ به نفسه. ﴿وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ بأن يُسَلِّبَ عَظِيمُ مَا هُوَ حَالُكَ، وَتَقَامَ فِي مِثْلِ حَالِهِمِ النَّازِلَةُ عَنْ حَالِكَ.

ويقال: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا. قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسِعَ آلِيهِمْ قَالِ قَائِلُ مِنْهُمْ كَمْ لَكُمْ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

استقلوا مدة لُبْنِهِمْ وَقَدْ لَبَّثُوا (طويلاً)، ولكنهم كانوا مأخوذِينَ عَنْهُمْ، ولم يكن لهم عِلْمٌ بِتَفْصِيلِ أَحْوَالِهِمْ، قال قائلهم:

لست أدري أطلال لَيْلِي أم لا؟ كيف يدري بذاك من يتقلّى؟
لو تَفَرَّغْتَ لاسْتِطَالَةِ لَيْلِي ورغبت النجوم كنت مُخِلًّا

ويقال أيام الوصالِ عندهم قليلة - وإن كانت طويلة، ولو كان الحال بالضدّ لكان الأمر بالعكس، وأنشدوا:

صَبَّاحُكَ سُكْرٌ وَالْمَسَاءُ خُمَارٌ^(١) نَعِمْتَ وَأَيَّامُ السُّرُورِ قِصَارٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ قَالُوا رَبُّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. لأنه هو الذي خَصَّكُمْ بما به أقامكم.

(١) الخُمَار: ما يعقب شرب الخمر من ضُداً وأذى.

قوله جل ذكره: ﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ يَورِقُكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾.

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلب لأكل ولا شرب ولا شيء من صفة النفس، فلما رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أول ما أحسوا بحالهم، وفي هذا دلالة على شدة ابتداء الخلق بالأكل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

تَوَاصَوْا فيما بينهم بحسن التخلق وجميل الترفق، أي ليتلطف مع من يشتري منه شيئاً.

ويقال أوصوا مَنْ يشتري لهم الطعام أَنْ يأتِيهم بِالطَّفِ شيء وأطيبه، ومن كان من أهل المعرفة لا يوافق الخشن من الملبوس ولا المبتذل في المطعم من المأكول.

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم الخشن ولباسهم كذلك والذي بلغ المعرفة لا يوافق إلا كل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾.

تواصوا فيما بينهم بكتمان الأسرار عن الأجانب وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى أحوالهم بالغوا في مخالفتهم إمَّا بالقتل وإمَّا بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل، ولا يرضون إلا بردهم إلى ما منه تخلصوا، فَمَنْ احترق كدسه فما لم يحترق كدس غيره لا تطيب نفسه.

ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأغيار.

ويقال مَنْ أظهر لأعدائه سِرَّهُ فقد جلب باختياره ضَرَّهُ، وَقَدْ ما سَرَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّى وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُ عَنَ بَيْنِهِمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

جعل أحوالهم عِبْرَةً لِمَنْ جاء بَعْدَهُمْ حين كشف لأهل الوقت قصتهم، فعابهم الناس، وازداد يقين مَنْ كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالعيان ما كان نَقْضاً للعادة المستمرة.

ثم إن الله تعالى رَدَّهُم إلى ما كانوا عليه من الحالة، كانوا مأخوذِينَ عن التمييز، متقلبين في القبضة على ما أَرَادَهُ الحق، مستودعين فيما كوشفوا، مستهلكين عنهم في وجود الحق - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أخبر أن علوم الناس متفصرة عن عددهم؛ فالأحوال التي لا يطلع عليها إلا الله في أسرارهم وقلوبهم... متى يكون للخلق عليها إشراف؟

أشكل عليهم عددهم، وعددهم يُعلم بالضرورة، وهم لا يُدركون بالمشاهدة. ويقال سَعَدَ الكلبُ حيث كَرَّرَ الحقَّ - سبحانه - ذَكَرَهُمْ وذكَّرَ الكلبَ معهم على وجه التكرار، ولما ذَكَرَهُمْ عَدَّ الكلبَ في جملتهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِبَادَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواصُّ عباده، ومن كان قريباً في الحال منهم؛ فهم في كتم الغيرة وإيواء السر لا يطلع الأجانب عليهم؛ ولا يعلمهم إلا قليل؛ لأنَّ الحقَّ - سبحانه - يستر أوليائه عن الأجانب، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب. كذلك قال شيخ هذه الطائفة: «الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم».

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

كما لا يعرفهم من كان بمعزلٍ عن حالتهم، ولا يهتدي إلى أحكامهم من لا يعرفهم.. فلا يصحُّ استفتاء من غاب علمهم عنه في حالهم. ومن لم يكن قلبه محلاً لمحبة الأحياء لا يكون لسانه مقراً لذكرهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

إذا كانت الحوادث صادرة عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ الله لم يعد من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله.

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختياره عند مشيئته، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله.

ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه، لكنه يتبرأ عن حوله وقوته بسره، والشرع يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته، والحق يقف سره عند شهود ما منه لمحبو به تحت جريان قسمته.

قوله جل ذكره: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

إِنْ طَرَأَتْ عَلَيْكَ طَوَارِقُ النِّسْيَانِ - لَا يَتَعَهَّدُكَ - فَجَرِّدْ بِذِكْرِكَ قَضْدَكَ عَنْ أَوْطَانِ غَفْلَتِكَ .

ويقال ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ : في الحقيقة نُفْسُكَ تَمْنَعُكَ مِنْ اسْتِغْرَاقِكَ فِي شُهُودِ ذِكْرِكَ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكرك لربك : فإن العبد إذا كان ملاحظاً لذكره كان ذلك آفة في ذكره .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حَظَّكَ مِنْهُ .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت غير ربك .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

كانوا مأخوذين عنهم في إحساسهم بأنفسهم لم يقفوا على تناول مدتهم ، وفي المثل : أيام السرور قصار والذهور في السرور شهور ، والشهور في المحن دهور ، وفي معناه :

أَعُدَّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ وَقَدْ كُنْتَ قَبْلًا لَا أَعِدُّ اللَّيَالِيَا
قوله جل ذكره : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتَوَكَّلْ لَمْ يَغِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ .
مَنْ لَمْ يَعِدْ أَيَّامَهُ لِاسْتِغَالِهِ بِاللَّهِ أَحْصَى اللَّهُ أَنْفَاسَهُ الَّتِي اللَّهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأَخَصَّنِي كُلَّ شَيْءٍ عَدْدًا﴾ [الجن : ٢٨] .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ .

تَسَلَّ - حِينَمَا تَتَنَوَّعُ عَلَيْكَ الْأَحْوَالُ - بِمَا تُظْلِعُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ ؛ وَإِنْ كُتِبَ الْأَحْبَابُ فِيهَا شِفَاءٌ لِأَنْهَا خُطَابُ الْأَحْبَابِ لِلْأَحْبَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْحَدًا﴾ .

أَي لَا تَغْيِيرَ لِحُكْمِهِ ؛ فَمَنْ أَقْصَاهُ فَلَا قَبُولَ لَهُ ، وَمَنْ أَدْنَاهُ فَلَا وَصُولَ لَهُ ، وَمَنْ قَبْلَهُ فَلَا رَدَّ لَهُ ، وَمَنْ قَرَّبَهُ فَلَا صَدَّ لَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمِيرَ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

قَالَ : ﴿وَأَمِيرَ نَفْسِكَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : «قَلْبِكَ» لِأَنَّ قَلْبَهُ كَانَ مَعَ الْحَقِّ ، فَأَمَرَهُ بِصَحْتِهِ جَهْرًا بِجَهْرٍ ، وَاسْتَخْلَصَ قَلْبَهُ لِنَفْسِهِ سِرًّا بِسِرٍّ .

وَيَقَالُ ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ : مَعْنَاهَا مَرِيدِينَ وَجْهَهُ أَي فِي مَعْنَى الْحَالِ ، وَذَلِكَ يُشِيرُ إِلَى دَوَامِ دُعَائِهِمْ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ وَكَوْنِ الْإِرَادَةِ عَلَى الدَّوَامِ .

وَيَقَالُ : ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ : فَأَوْبِنَاهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ بِعِظَائِمْنَا ، وَفِي عِقَابِهِمْ بِكَرَائِمْنَا .

ويقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾: فكشف قناعهم، وأظهر صفتهم، وشهرهم. بعدما كان قد سترهم، وأنشدوا:

وكشفنا لك القناع وقلنا نعم وهتكنا لك المستورا
ويقال لما زالت التُّهُمُ سَلِمَتْ لَهُم هذه الإرادة، وتحرروا عن إرادة كل مخلوق
وعن محبة كل مخلوق.

ويقال لما تقاصر لسانهم عن سؤال هذه الجملة مراعاةً منهم لهيبة الرسول ﷺ،
وحُرْمَةِ باب الحق - سبحانه - أمره بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ وبقوله:
﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي لا ترفع بصرَكَ عنهم، ولا تُفْلِحْ عنهم نظرك.
ويقال لما نظروا بقلوبهم إلى الله أمرَ رسوله - عليه السلام - بألا يرفع بصره عنهم، وهذا جزاء في العاجل.

والإشارة فيه كأنه قال: جعلنا نظرك اليوم إليهم ذريعةً لهم إلينا، وخلفاً عما يفوتهم اليوم من نظرهم إلينا، فلا تَقْطَعْ اليوم عنهم نَظْرَكَ فإننا لا نمنع غداً نظرهم عنا.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾.

هم الذين سألوا منه - ﷺ - أن يُخْلِيَ لهم مجلسه من الفقراء، وأن يطردهم يوم حضورهم من مجلسه - صلى الله عليه وسلم وعلى آله.
ومعنى قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾: أي شغلناهم بما لا يعينهم.

ويقال: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي شغلناهم حتى اشتغلوا بالنعمة عن شهود المنعم.

ويقال هم الذين طَوَّحَ قلوبهم في التفرقة، فهم في الخواطر الرديئة مُتَّبِتُونَ، وعن شهود مولاهم محجوبون.

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتلوا بنسيان الحقيقة لا يتأسفون على ما مُتُوا به ولا على ما فاتهم.

ويقال الغفلة تزجية الوقت في غير قضاءٍ قَرَضٍ أو أداءٍ نَفَلٍ.
قوله جل ذكره: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَزَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

قُلْ يا محمد: ما يأتيكم من ربكم فهو حق، وقوله صِدْقٌ ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. . هذا غاية التهديد، أي إن آمنتم ففوائد إيمانكم عليكم مقصورة، وإن أبَيْتُمْ فَعَذَابُ الْجَحْدِ موقوفٌ عليكم، والحق - سبحانه - عزيز لا يعود إليه بإيمان الكافة - إذا وَحَدُوا - زَيْنَ، ولا مِن كُفْرِ الجميع - إن جحدوا - شَيْنَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

العقوبة الكبرى لهم أن يشغلهم بالآلم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحق، ولو علموا ذلك لعله كان يرحمهم. والحق - سبحانه - أكرم من أن يعذب أحداً يتهم لأجله.

ويقال لو علموا من الذي يقول: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ لعله كان لهم تسَل ساعة، ولكنهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يقول هذا، وإلا فهذا شبه مرتبة لهم، والعبارة عن هذا تدق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَبْذُ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

أهل الجنة طابث لهم حدائقها، وأهل النار أحاط بهم سُرَادِقُهَا.

والحق - سبحانه - مُتَرَّةٌ عَنْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ مِنْ تَعْذِيبِ هَؤُلَاءِ عائدة ولا من تنعيم هَؤُلَاءِ فائدة... جَلَّتْ الْأَحْدِيَّةُ، وَتَقَدَّسَتْ الصَّمْدِيَّةُ!

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فِرَاقِنَا، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ حَظْوَةً لَدَيْنَا، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحْنَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْرْنَا لَهُ رَعْدًا، وَمَنْ التَّجَأَ إِلَى سُدَّةٍ^(١) كَرَمْنَا أَوِينَاهُ فِي ظِلِّ نِعْمِنَا، وَمَنْ شَكَا فِينَا غَلِيلًا مَهَّدْنَا لَهُ - فِي دَارِ فَضْلِنَا - مَقِيلًا.

﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: العمل أحسنه ما كان مضبوطاً بشرائط الإخلاص.

ويقال: ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ بأن غاب عن رؤية إحسانه.

ويقال مَنْ جَرَّدَ قَضْدَهُ عَنْ كُلِّ حَظٍّ وَنَصِيبٍ.

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فضله، إذا أخلصت في تَوَسُّلِكَ إِلَيْهِ بِفَضْلِهِ، وَتَوَسُّلِكَ إِلَى مَا مَوْلَاكَ مِنْ طَوْلِهِ بِتَبَرُّكَ عَنْ حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ استوجبت حسن إقباله، وجزيل نواله.

قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أولئك هم أصحاب الجنان، في رَعْدِ الْعَيْشِ وَسَعَادَةِ الْجَدِّ^(٢) وَكَمَالِ الرُّفْدِ^(٣)، يَلْبَسُونَ حُلُلَ الْوُصْلَةِ، وَيَتَوَجَّوْنَ بَنَاجِ الْقُرْبَةِ، وَيُحْمَلُونَ عَلَى الْمَبَاسِطِ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ^(٤)، وَيَشْمُونَ رِياحِينَ الْأَنْسِ،

(١) السُّدَّةُ: باب الدار.

(٣) الرُّفْدُ: العطاء والصلة (ج) أفراد.

(٢) الْجَدُّ: الحظ والحظوة.

(٤) الْأَرَائِكُ: (ج) الأريكة: مقعد منجد.

ويقومون في مجال الرُّلُفة، وَيُسْقَوْنَ شرابَ المحبة، ويأخذون بيد الزلفة ما يتحفهم الحقُّ به من غير واسطة، ويسقيهم شراباً طهوراً يُظهِر قلوبهم عن محبة كلِّ مخلوق.

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾: نِعْمَ الثَّوَابُ ثوابهم، ونِعْمَ الرُّبُّ ربُّهم، ونِعْمَ الدَّارُ دارهم، ونِعْمَ الجَارُ جارهم، ونِعْمَ الحالُ حالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَاصْرَبْ لَمْ مَثَلًا ثَجَلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كَلْنَا الْبَنَتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تُظْلِمِي فِيهِ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَمْ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا لَنُكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبًا﴾.

أخبر أنه خلق رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذكره، فشكر أحدهما لخالقه وكفر الآخر برازقه، فأصبح الكافر وجنَّته أصابتها جائحة، وندم على ما ضيَّعه من الشكر، وتوجَّه عليه اللوم.

وفي الإشارة يخلق عبدين يُطَيَّب لهما الوقت، ويُمَهِّد لهما بساط اللطف، ويمكن لهما من البسط... فيستقيم أحدهما في الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحُسن المنازل وصدق المعاملة، فتميز له المجاهدة ثمرات أحسن الأخلاق فيعالجها بحسن الاستقامة، ثم يتحقق بخصائص الأحوال الصافية، ثم يُخْتَفَف عنها بما يكشفُ به من حقائق التوحيد، ويصبح مُتَنَفِّ عن جملة باستهلاكه في وجود ما بان له من الحقائق.

والثاني لا يُقَدِّر قَدْرَ ما أَهْلَ له من حُسن البداية فيرجعُ إلى مآلوفاته، فينتكس أمره، بانحطاطه إلى ذميم عاداته، فيرتدُّ عن سلوك الطريقة ويتردَّى في ظلمة الغفلة؛ فيصيرُ وقته ليلاً مظلماً، ويتطوَّح في أودية التفرقة، ويوسم الطرد، ويسقى شراب الإهانة، وينخرط في سلك الهجر... وذلك جزاء مَنْ لم يَرْهَم الحقُّ لو صلته أهلاً، ولم يجعل لولائهم في التحقيق والقبول أضلاً:

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن ابتغى عوضاً لسلمى فلم يجد
قوله جلّ ذكره: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفْقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يُصْرَفُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

إذا ظَهَرَ خسران مَنْ آثر حفظه على حقِّ الله، قرع باب ندامته، ثم لا ينفعه.

ولو قرع باب كرمه في الدنيا - حين وَقَعَتْ له الفترة - لأشكاه^(١) عند ضرورته، وأنجاه من ورطته. . . ولكنه رُبط بالخذلان، ولُبِسَ عليه الأمرُ بِحُكْمِ الاستدراج.

قوله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُرُونَ﴾: مَنْ اشتهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْجُنْدِ وَالرَّعِيَّةِ، كَذَلِكَ مَنْ وَسَمَهُ الْحَقُّ بِكَيِّْ الْهَجْرِ لَمْ يَزُثْ لَهُ مَلَكٌ وَلَا نَبِيٌّ، وَلَمْ يَخِمِهِ صَدِيقٌ وَلَا وَلِيٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

هو الحق المتفردُ بنعت ملكوته، لا يشرك في جلال سلطانه من الحدّثان أحدًا، وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر، ولا وزن فيما هنالك لحدّثان ولا خطر، كلًّا. . . بل هو الله الخلاق الواحد القهار.

هنالك الولاية لله أي القدرة - والواو هنا بالكسر.

وهنالك الولاية لله أي النصرة - والواو هنا بالفتح.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَهْلَكْنَا السَّمْعَاءَ فَاخْتَلَطَ بِهِمُ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾.

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ عَلَى الدُّنْيَا وَبَهَجَتْهَا غَرَّتْهُ بِأَمَانِيهَا، وَخَدَعَتْهُ بِالْأَطْمَاعِ فِيهَا. ثُمَّ إِنِهَا تُخْفِي الصَّابَ فِي شَرَابِهَا، وَالْحَنْظَلَ^(٢) فِي عَسَلِهَا، وَالسَّرَابَ فِي مَارِبِهَا؛ تَعْدُ وَلَا تَفِي بِعِدَاتِهَا، وَتُوْفِي آفَاتِهَا عَلَى خَيْرَاتِهَا. . . نِعْمُهَا مَشْوَبَةٌ بِنَقْمِهَا، وَبُؤْسُهَا مَصْحُوبٌ بِمَأْنُوسِهَا، وَبِلَاؤُهَا فِي ضَمَنِ عَطَانِهَا. الْمَغْرُورُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا، وَالْمَغْبُورُ مَنْ انْخَدَعَ فِيهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا﴾.

مَنْ اعْتَصَدَ بَعْتَادَهُ، وَاغْتَرَّ بِأَوْلَادِهِ، وَنَسِيَ مَوْلَاهُ فِي أَوَانِ عَقْلَاتِهِ. . . خَسِرَ فِي حَالِهِ، وَتَدِمَ عَلَى مَا فَاتَهُ فِي مَالِهِ.

ويقال زينة أهل الغفلة في الدنيا بالمال والبنين، وزينة أهل الوصلة بالأعمال واليقين. . . فهؤلاء رُتِبَهم لظواهرهم. . . وهؤلاء زينتهم لعبوديتهم، وافتخارهم بمعرفة ربوبيته.

ويقال ما كان للنفس فيه حُظٌّ فهو من زينة الحياة الدنيا، ويدخل في ذلك الجاه وقبول المدح، وكذلك تدخل فيه جميع المألوفات والمعهودات على اختلافها وتفاوتها.

(١) أشكى فلاناً: قبل شكواه.

(٢) الحنظل: نبات عشبي بري حولي معترش من فصيلة القرعيات، ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيها لب شديد المرارة. كان ولا يزال يُستعمل في الطب. ويُزرع في الحدائق الطبية.

ويقال ما كان للإنسان فيه شِرْبٌ ونصيبٌ فهو معلول: إن شئت في عاجله وإن شئت في آجله .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْبَلِيقُ الْفَلِاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ .

وهي الأعمال التي بشواهد الإخلاص والصدق .

ويقال ﴿وَالْبَلِيقُ الْفَلِاحُ﴾: ما كان خالصاً لله تعالى غير مُشوب بطمع، ولا مصحوبٍ بِغَرَضٍ .

ويقال ﴿وَالْبَلِيقُ الْفَلِاحُ﴾: ما يلوح في السرائر من تحلية العبد بالنعوت، ويفوح نُشْرُهُ في سماء الملكوت .

ويقال هي التي سبقت من الغيب لهم بالقربة وشريف الزلفة .

ويقال هي ضياء شمس التوحيد المستكن في السرائر مما لا يتعرّض لكسوف الحجة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَرَى الْأَرْضَ بَارِذَةً وَحَشَرَتُهُمْ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ .

كما تُسِيرُ جبال الأرض يوم القيامة فإنها تُقْتَلَعُ بموت الأبدال^(١) الذين يديم بهم الحق - اليوم - إمساك الأرض، فهؤلاء السادة - في الحقيقة - أوتاد العالم .

قوله: ﴿فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾: الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأس المنية، ولا يغادر الحق أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه، وإن شَرَفَهُم في الدرجات في تَوْفِيهِم عن مساكنة الدنيا .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ .

يقيم كل واحدٍ يومَ العَرَضِ في شاهد مخصوص، ويلبسُ كُلاً ما يُؤَهِّله له؛ فَمِنْ لباس تقوى، ومن قميص هوى، ومن صِدَارٍ وَجَدٍ، ومن صُدْرَةٍ محبة، ومن رداء شوق، ومن حُلَّةٍ وَضَلَّةٍ .

ويقال يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرهم يوم القيامة . وينادي المنادي على أجسادهم: هذا الذي أتى وَوَجَدَ، وهذا الذي أبى وَجَحَدَ . وهذا الذي خالفَ فأَصَرَّ، وهذا الذي أنعمنا عليه فَشَكَرَ، وهذا الذي أحسنّا إليه فَذَكَرَ . وهذا الذي أسقينا شرابنا، ورزقناه محائبنا، وشوقناه إلى لقائنا، ولقّيناه خصائص رِغَائِنَا .

... وهذا الذي وَسَمَّناهُ بِحُجْبَتِنَا، وحرمانه وَجُوه قُرْبَتِنَا . وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه، توفيق وفائقنا، وهذا، وهذا . . .

واخجلتي من وقوفي وَسَطَ دارِهِمْ! وقال لي مُغَضَّباً: مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلٌ؟

(١) الأبدال: (عند الصوفية) إحدى طبقاتها، يزعمون أنه إذا مات بدل من الأبدال حل محله آخر .

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾.

جئتمونا بلا شفيع ولا ناصر، ولا معين ولا مظاهر.

قوم يُقال لهم: سلامٌ عليكم... كيف أنتم؟ وكيف وجدّتم مقيلكم؟ وكم إلى لقائنا اشتقتم!

وقوم يُقال لهم: ما صنعتم، وما ضيّعتم؟ ما قدّمتم، وما أخرتم؟ ما أعلنتم، وما أسررتم؟

قُلْ لِي بِالسَّنَةِ التَّنْفُسِ^(١) كيف أنت وكيف حالك؟

ويقال يجيب بعضهم عند السؤال فيفصّحون عن مكنون قلوبهم، ويشرحون ما هم به من أحوالٍ مع محبوبهم. وآخرون تملكهم الحيرة وتُسكِتهم الدهشة، فلا لهم بيان، ولا ينطق عنهم لسان. وآخرون كما قيل:

قالت سكينَةُ مَنْ هذا فقلتُ لها: أنا الذي أنتِ من أعدائه زَعَمُوا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾.

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المحفوظ، لا ما في الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم نُسَخَ ما في اللوح المحفوظ.

ويقال إنَّ عاملَ عبداً بما في الكتاب الذي أثبتته المَلَكُ عليه فكثيرٌ من عباده يعاملهم بما في كتاب المَلِكِ - سبحانه، وفرقٌ بين من يُعامل بما في كتاب الحق من الرحمة. والشفقة وبين من يحاسبه بما كُتِبَ عليه المَلَكُ من الزَّلَّة.

ويقال إذا حسابهم في القيامة يتصور لهم كأنهم في الحال، ما فارقوا الزَّلَّة، وإن كانت مباشرة الزَّلَّة قد مَضَتْ عليها سنون كثيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ بَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

يملك الحزن قلبه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئة فهو في موضع الخجل لتقصيره. وإن رأى حسنة فهو في موضع الخجل أيضاً لِقِلَّةِ توقيره؛ فَخَجَلُهُ أَهْلُ الصَّدَقِ عند شهود حسناتهم توفي وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زَلَّاتِهِمْ.

ويقال أصحابُ الطاعة إذا وجدوا ما قدّموا من العبادات فمآلهم السرور والبهجة وحياة القلب والراحة، وأمّا أصحاب المخالفات فإنما يجدون فيما قدّموا

(١) التنفس: تنفس نفساً طويلاً من تعب أو كرب.

مجاورة الحدّ ونقض العهد، وما في هذا الباب من الزلّة وسوء القصد .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ .

أظهر للملائكة شطيّة مما استخلص به آدم فسجدوا بتيسير من الله - سبحانه، وسكّر بصر اللعين فما شهد منه غير العين ففسق عن أمر ربه، ولا صدق في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ لما فسق عن الأمر، ولكن أدركته الشقاوة الأصلية فلم تنفعه الوسيلة بالحيلة .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ .

في الآية إشارة إلى أنّ من يفرّذه بالولاية فلا يقتفي غيره ولا يخاف غيره .
قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّينَ عَصْدًا﴾ .

أكذب المنجمين^(١) والأطباء الذين يتكلمون في الهيئات والطبائع بقوله: ﴿مَّا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ : ويبيّن أن ما يقولونه من إيجاب الطبائع لهذه الكائنات لا أصل له في التحقيق .

﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَعِدِّينَ عَصْدًا﴾ : أي لم أجعل للذين يضلّون الناس عن دينهم بشبههم في القول بالطبائع حجة، ولم أعطهم لتصحيح ما يقولونه برهاناً .

ويقال إذا تناقصت علوم الخلق عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومهم بحقائق الصمدية، واستحقاقه لنعوته إلا بمقدار ما يخصهم به من التعريف على ما يليق برتبة كل أحد بما جعله له أهلاً؟

ويقال أخبر أنّ علومهم تنقاصر عن الإحاطة بجميع أوصافهم وجميع أحوالهم وعن كلّ ما في الكون، ولا سبيل لهم إلى ذلك؛ ولا حاجة بهم إلى الوقوف على ما قصّرت علومهم عنه، إذ لا يتعلّق بذلك شيء من الأمور الدينية . فالإشارة في هذا أن يضرّفوا عنايتهم إلى طلب العلم بالله وبصفاته وبأحكامه، فإنه لا بدّ لهم - بحكم الديانة - من التحقق بها؛ إذ الواجب على العابد معرفة معبوده بما يزيل التردد عن قلبه في تفاصيل مسائل الصفات والأحكام .

(١) جمع المنجم: الناظر في النجوم بحسب مراقبتها وسيرها في طلوعها وغروبها ويستطلع من ذلك أحوال الكون .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾.

عِلْمُ الْحَقِّ - سبحانه - أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَغْنِي وَلَا تَنْفَع وَلَا تَضُر، ولكن يعرفهم في العاقبة بما يُصِيرُ معارفهم ضرورية حَسْمًا لأوهام القوم؛ حيث توهّموا أَنَّ عبادتهم للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فإذا تحققوا بذلك صدقوا في الندم، وكان استيلاء الحسرة عليهم، وذلك من أشد العقوبات لهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَبَّكَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

إذا صارت الأوهام منقطعة، والمعارف ضرورية، والنار مُعَايَنَةً استيقنوا أنهم واقعون في النار، فلا يُسْمَعُ لهم عُذْرٌ، ولا تنفع لهم حيلة، ولا تُقْبَلُ فيهم شفاعة، ولا يؤخذ منهم فداء ولا عدل. . لقد استمكنت الخيبة، وغلب اليأس، وحصل القنوط، وهذا هو العذاب الأكبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

أوضح للكافة الحجج، ولكن لَبَسَ على قوم النهج فوقعوا في العوج. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الجدَلُ في الله محمود مع أعدائه، والجدل مع الله شِرْكٌ لأنه صَرَفَ إلى مخالفةِ تَوْهَمٍ أن أحداً يعارض التقدير، وتجويزُ ذلك انسلاخ عن الدين. ومن أمارات السعادة للمؤمن فَتْحُ بابِ العملِ عليه، وإغلاق بابِ الجدلِ دونه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

لا عُذْرَ لهم إذا لجأوا إلى ما تعاطوه من العصيان وترك المبادرة إلى المأمور، ولا توفيق يساعدهم فيخرجهم عن حوار الداعي إلى عزم الفعل، فهُمْ - وإن لم يكونوا بنعت الاستطاعة على ما ليسوا يفعلونه - ليسوا عاجزين عن ذلك؛ ولكنهم بحيث لو أن العبد منهم أراد ما أَمَرَ به لَتَأَبَّى منه ذلك، وتعدَّر عليه؛ ففي الحال ليس بقادرٍ على ما ليس يفعله ولا هو عاجزٌ عنه، وهذا يسميه القوم حال التخلية وهي واسطة بين القدرة والعجز.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْقُلُوبَ وَاتَّخَذُوا أَلْبَانًا وَمَا أَزْدَرَاؤُهُمْ﴾.

أرسل الرسل - عليهم السلام - تترى، وأيّدهم بالحجج والبراهين، وأمرهم بالإنذار والتخويف، والتشريف في عين التكليف، وتضمنين ذلك بالتحقيق، ولكن سَعِدَ قومٌ باتباعهم، وشَقِيَ آخرون بخلافهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لا أحد أظلم ممن ذُكر ووُعِظَ بما لوَح له من الآيات، وبما شاهده وعرفه من أمرٍ أَصْلَح أو شَغَلَ كُفِيَ أو دعاءٍ أُجِيبَ له، أو سوءٍ أَدَبَ حصل منه، فأَدَبَ بما يكون تنبيهاً له، أو حصلت منه طاعة وكوفئ في العاجل إِمَّا بمعنى وَجَدَه في قلبه من بَسْطٍ أو حلاوةٍ أو أنسٍ، وإما بكفاية شَغَلَ أو إصلاحٍ أمرٍ. ثم إذا استقبله أمرٌ نَسِيَ ما عُمِلَ به، أو أعرض عن تَذَكُّرِهِ، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يده من خيره وشره، فوجد في الوقت موجهه. ومن كانت هذه صِفَتُهُ جعل على قلبه سترًا وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركات ما وَهَبَهُ.

ويقال مَنْ أَظْلَم ممن يستقبله أمرٌ مجازاةً لما أسلفه من تَرْكِ أَرْبِهِ فَيَتَّهِمُ رَبَّهُ، ويشكو مما يلاقه، وَيَتَّسَى حُرْمَةَ الذي بسببه أصابه ما أصابه؟ وكما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مضياغٌ لِفُرْصَتِهِ حتى إذا فاتَ أمرٌ عائبَ القَدَرَا

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾.

﴿الْغَفُورُ﴾: لأنه ذو الرحمة، ورحمته الأزلية أوجبت المغفرة لهم.

ويقال ﴿الْغَفُورُ﴾: للعاصين من عباده، و ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بجميعهم فيُصلح أحوالَ كافتهم.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾: لعجل لهم العذاب؛ أي غامَلَهُم بما استوجبوه من عصيانهم، فعجل لهم العقوبة، لكنه يؤخرها لمقتضى حكمته، ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَفْلَكُنْتُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِبَهْلِكُمْ مَوْعِدًا﴾.

لَمَّا لم يشكروا النعم ولم يصبروا في المحن عَجَلْنَا لهم العقوبة.

ويقال لَمَّا غَفَلُوا عن شهود التقدير، وحرّموا رُوحَ الرضا وكَلَنَاهُمْ إلى ظُلُمَاتٍ تدبيرهم، فطاحوا في أودية غفلاتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَتِلْعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيْهَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝﴾.

لما صَحَّتْ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحق اسم الفتوة، ولذا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ وهو اسم كرامة لا اسم علامة.

جعل دخول السمك الماء علامة لوجود الخضر هنالك، ثم أدخل النسيان عليهما ليكون أبلغ في الآية، وأبعد من اختيار البشر.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّيَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝﴾.

كان موسى في هذا السفر مُتَحَمِّلًا، فقد كان سفر تأديب واحتمال مشقة، لأنه ذهب لاستكثار العلم. وحال طلب العلم حال تأديب ووقت تحمّل للمشقة، ولهذا لِحَقُّه الجوع، فقال: ﴿لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝﴾.

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً، ولم يلحقه الجوع ولا المشقة، لأن ذهابه في هذا السفر كان إلى الله، فكان محموداً.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْسَلْنَا عَلَىٰ نَارِهِمَا قَصَصًا ۝﴾.

طال عليهما السفر لأنهما احتاجا إلى الانصراف إلى مكانهما، ثم قال يوشع: ﴿وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾: الله - سبحانه - أدخل عليه النسيان ليكون الصيّد من تكليفه، ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾: يعني دخول السمك الماء وكان مشوياً؛ فصار ذلك معجزة له، فلما انتهيا إلى الموضع الذي دخل السمك فيه الماء لَقِينَا الخضر.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَالِيْتَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝﴾.

إذا سَمَى الله إنساناً بأنه عَبْدُهُ جَعَلَهُ من جملة الخواص؛ فإذا قال: «عبدى» جعله من خاص الخواص.

﴿ءَالِيْتَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾: أي صار مرحوماً من قِبَلِنَا بتلك الرحمة التي خصصناه بها من عندنا، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً، ويكون بها راحماً على عبادنا.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾: قيل العلم من لدن الله ما يتحصل بطريق الإلهام دون التكلف بالتطلب.

ويقال ما يُعْرِف به الحق - سبحانه - الخواص من عباده.

ويقال ما يعرف به الحق أولياءه فيما فيه صلاح عباده.

وقيل هو ما لا يعود منه نفع إلى صاحبه، بل يكون نفعه لعباده ممّا فيه حقّ الله - سبحانه .

ويقال هو ما لا يجد صاحبه سبيلاً إلى جحده، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً؛ فلو سأله عن برهانه لم يجد عليه دليلاً؛ فأقوى العلوم أبعدها من الدليل .
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ .

تَلَطَّفَ في الخطاب حيث سَلَكَ طريق الاستئذان، ثم صَرَّح بمقصوده من الصّحة بقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ .

ويقال إن الذي خُصَّ به الخضر من العلم لم يكن تَعَلَّمَهُ من أستاذ ولا من شخص، فما لم يكن بتعليم أحد إياه . . متى كان يعلمه غيره؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ .

سؤال بذلك العطف وجواب بهذا العطف!

ثم ندارك قلبه بقوله: ﴿وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا؟﴾، فأجابه موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي . . .﴾ وعد من نفس موسى بشيئين: الصبر، وبأن لا يعصيه فيما يأمر به، فأما الصبر فقرّنه بالاستنشاء بمشيئة الله فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فصبر حتى وُجِدَ صابراً، فلم يقبض على يدي الخضر فيما كان منه من الفعل، والثاني قوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾: أطلقه ولم يُقرّنه بالاستنشاء، فما استنشأ لأجله لم يخالفه فيه، وما أطلقه وقع فيه الخُلُفُ ..

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ .

فإنه ليس للمريد أن يقول: «لا» لشيخه، ولا التلميذ لأستاذه، ولا العامّي للعالم المفتي فيما يفتي ويحكم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِن تَلَوْتُمُ الْقُرْآنَ فَذَكَرَ فِيهِ حُرُوفًا يَمْشِيهَا الْوُحُوشُ غَرَفًا وَإِذَا دُفِعَ فِيهَا الْغَرَقُ أَهْلَهَا وَقَدْ جَاءَتْ شَيْئًا مِّمَّا﴾ .

لما ركبوا الفُلَّك خرقها وكان ذلك إبقاء على صاحبها لئلا يرغب في السفينة المخروقة المملّك الطامع في السفن .

وقوله: ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي لتؤدي عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها؛ لأنه علم أنه لم يكن قصد إغراق أهل السفينة .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ .

أي أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم، وإنا نُجزيه من حيث الحُكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَيْبْتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

طالبه بما هو شرط العلم حيث قال: ﴿لَا تُؤْخِذُنِي بِمَا نَيْبْتُ﴾؛ لأن الناسي لا يدخل تحت التكليف، وأيد ذلك بما قرّن به قوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فالمُتَمَكِّن من حقه التكليف، ومن لا يصحّ منه الفعل والتزك لا يتوجه (١) والناس من جملتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

كان يخلّق العلم واجباً على موسى - عليه السلام - قَصْرُهُ حيث يرى في الظاهر ظُلماً، ولكن فيما عرف من حال الخضر من حقه التوقف ريثما يعلم أنه أَلَمْ بِمَحْظُورٍ أو مُبَاح، ففي ذلك الوقت كان قلب العادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

كُرّر قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ...﴾ لأنه واقف بشرط العلم، وأما في محل الكشف فَشَرَطَ عليه موسى عليه السلام فقال:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

بلغ عصيانه ثلاثاً؛ والثلاثة آخِرُ حَدِّ الْقِلَّةِ وَأَوَّلُ حَدِّ الْكَثْرَةِ، فلم يجذ المسامحة بعد ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

كان واجباً في ملتهم على أهل القرية إطعامهما، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من النكير عليهم؛ ولو كان أغضى على ذلك منهم لكان أحسن.

فلما أقام الخضر جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمتَ بِمَحْظُورٍ، ولكنه قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي إن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أخذك خيراً لنا من تركك ذلك، ولئن وَجَبَ حَقُّهُمَ فَلِمَ أَخْلَلْتَ بِحَقِّنا؟

ويقال إنَّ سَفَرَهُ ذلك كان سفرَ تَأْدِيبٍ فَرَدَّ إِلَى تَحْمِيلِ الْمَشَقَّةِ، وإلا فهو حين سقى لبنات شعيب فإنَّ ما أصابه من التعب وما كان فيه من الجوع كان أكثر، ولكنه

كان في ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً. فلما قال موسى هذا قال له الخضر:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أي بعد هذا فلا صحبة بيننا.

ويقال قال الخضر إنك نبي. . . وإنما أواخذك بما قُلتَ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط؛ وقلت: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي؛ وإنما أعاملك بقولك.

ويقال لما لم يصبر موسى معه في ترك السؤال لم يصبر الخضر أيضاً معه في إدامة الصحبة فاختار الفراق.

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأل له لأجل الغير - في أمر السفينة التي كانت للمساكين، وقَتَلَ النَّفْسَ بغير حق - لم يفارقه الخضر، فلما صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظٌ لنفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة، فقال الخضر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

ويقال كما أن موسى - عليه السلام - كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فإن الخضر كان يحب ترك صحبة موسى عليه السلام إيثارةً للخلوة بالله عن المخلوقين.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

لما فارق الخضر موسى عليه السلام لم يُرِدْ أَنْ يَبْقَى فِي قَلْبِ مُوسَى شِبْهُُ اعتراض؛ فَأَرَادَ عَنْ قَلْبِهِ ذَلِكَ بِمَا أَوْضَحَ لَهُ مِنَ الْحَالِ، وَكَشَفَ لَهُ أَنَّ السَّرَّ فِي قَصْدِهِ مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ سَلَامَتُهَا وَيَقَاوُهَا لِأَهْلِهَا حَيْثُ لَنْ يَطْمَعَ فِيهَا الْمَلِكُ الْغَاصِبُ، فَبَقَاءُ السَّفِينَةِ لِأَهْلِهَا - وَهِيَ مَعِيَّةٌ - كَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ سَلَامَتِهَا وَهِيَ مَغْصُوبَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

بَيَّنَ لَهُ أَنَّ قَتْلَ الْغُلَامِ لَمَّا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ مَضَى مِنَ اللَّهِ الْحُكْمُ أَنَّ فِي بَقَائِهِ فِتْنَةٌ لَوَالِدَيْهِ، وَفِي إِبْدَالِ الْخَلْفِ عَنْهُ سَعَادَةٌ لَهُمَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(١).

(١) الآيات من (٨٣ حتى ٨٩) لم ترد.

أما تسوية الجدار فلاستبقاء كنز الغلامين وترك طلب الرفق من الخلق .

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ .

أقوام هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طول نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم استتار شمسهم . . كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد: منهم الغالب عليهم طلوع شمسهم ، والحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم ، وآخرون لهم من شمس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل .

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَنْذَا لَئِقْرَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرِيبًا عَلَى أَنْ جَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ .

أي ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أنفسهم ، وما كانوا يفقهون فقه غيرهم فلعجؤوا إلى عِبَرَاتِهِمْ^(١) في شرح قصتهم ، ورفعوا إليه - في باب ياجوج وماجوج - مظلمتهم ، وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وحقق لهم بُغْيَتَهُمْ ، ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من الجباية ، لما رأى أنَّ من الواجب عليه حق الحماية على حسب المَكْنَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿مَا تُوِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَقَّ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَقَّ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ مَا تُوِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ .

استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال: ﴿مَا تُوِي زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾ فلمَّا فعلوا ما أمرهم به ، ونفخوا فيه النار جعل السد بين الصدفين أي جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ له في الخروج ، وتندفع عن الناس عادية (...)^(٢) إلى الوقت المضروب لهم في التقدير .

وبعد ذلك يكون مِنْ شأنهم ما يريد الله . وبين - سبحانه - أنَّ خروجهم من وراء سدِّهم مِنْ أَسْرَاطِ السَّاعَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾^(٣) .
نظروا بأعين رؤوسهم لأنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ،

(١) العبرات: (ج) العبرة: الدفعة قبل أن تفيض .

(٢) بياض في الأصل .

(٣) الآيات من (٩٧ حتى ١٠٠) لم ترد .

ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا فقدوا من التوفيق، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف.

قوله: ﴿وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: لأنهم فقدوا من قِبَلِهِ - سبحانه - الإسماع؛ فلم يستطيعوا لهم القبول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَتِهِمْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

أي توهموا أنه ينفعهم ما فعلوه حسب ظنهم، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التعظيم، وكانوا يقولون: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ضلّ سعيهم لأنهم عملوا لغير الله. وما كان لغير الله فلا ينفع.

ويقال الذين ضلّ سعيهم هم الذين قرئوا أعمالهم بالرياء، ووصفوا أحوالهم بالإعجاب، وأبطلوا إحسانهم بالملاحظات أو بالمن.

ويقال هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

لم يكونوا أصحاب التحقيق، فعملوا من غير علم، ولم يكونوا على وثيقة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾.

عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحد، فتفرّث بهم الأوهام والظنون، ولم يكونوا على بصيرة، ولم تستقر قلوبهم على عقيدة مقطوع بها؛ فليس لهم في الآخرة وزن ولا خطر، اليوم هم كالأنعام، وغداً واقعون ساقطون (٢) (٣) الأقدام.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

هم اليوم في عقوبة الجحد، وغداً في عقوبة الرد. اليوم هم في ذلّ الفراق، وغداً في أليم الاحتراق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

لهم جنات مَعَجَلَة سرّاً، ولهم جنات مؤجلة جهراً.

(٢) بياض في الأصل.

(١) الوثيقة: ما يحكم به الأمر (ج) وثائق.

اليوم جنان الوصل وغداً جنان الفضل .

اليوم جنان العرفان وغداً جنان الرضوان .

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلاً﴾ .

عرّفنا - سبحانه - أن ما يخوّلهم غداً يكون على الدوام، فهم لا ينفكون عن أفضالهم، ولا يخرجون عن أحوالهم؛ فهم أبداً في الجنة، ولا إخراج لهم منها. وأبداً لهم الرؤية، ولا حجاب لهم عنها^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾ .

أي لا تعدّ معاني كلمات الله لأنه لا نهاية لها؛ فإنّ متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها؛ كمعلومات الحق - سبحانه - ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .

والذي هو مخلوق لا يستوفي ما هو غير مثناه - وإنّ كثر ذلك .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ .

أخبر أنّك لهم من حيث الصورة والجنسية مُشاكِلٌ، والفرق بينك وبينهم تخصيصُ الله - سبحانه - إياك بالرسالة، وتزكّه إياهم في الجهالة .

ويقال: قل اختصاصي بما لي من (الاصطفاء)^(٢)، وإن كنا - أنا وأنتم - في الصورة أكفاء .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

حملُ الرجاء في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حسنٌ، ولكنّ ترك هذا على ظاهره أولى؛ فالمؤمنون قاطبةً يرجون لقاء الله .

والعارف بالله - سبحانه - يرجو لقاء الله والنظر إليه .

والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه هو صبره على لواحق اشتياقه، وأنّ يُخلّص في عمله .

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾: أي لا يلاحظ عمّله، ولا يستكثر طاعته، ويتبرأ من حوّلِه وقوّه .

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد وجود الصراط ورؤيته وانتظار وقته .

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن رؤية الله بالأبصار: فإن قيل: فهل تجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا على جهة الكرامة؟ فالجواب عنه: أن الأقوى فيه أنه لا يجوز لحصول الإجماع عليه. ولقد سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال في ذلك قولان، وذلك في كتاب (الرؤية الكبير). (الرسالة القشيرية ص ٣٦٠).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

سورة مريم عليها السلام

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله، اسم عزيز مَنْ عَبْدَهُ وَاصَلَ جِهَادَهُ، وَمَنْ طَلَبَهُ وَدَّعَ وِسَادَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ أَنْكَرَ أَحْبَابَهُ. وَمَنْ يَسَّرَ لَهُ أَوْقَفَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ.

مَنْ ذَكَرَهُ نَسِيَ اسْمَهُ، وَمَنْ شَهِدَهُ فَقَدَ عَقْلَهُ وَلُبَّهُ.

اسم عزيز جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، وَكُلَّ قَلْبٍ لَيْسَ يَوْقِفُهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، فَلَيْسَ بِحِيلَةٍ يَصِلُ.

اسم ما اتصفت أشباح الأبرار إلا بعبادته، وما اعتكفت أرواح الأحرار إلا بمشاهدته.

اسم عزيز مَنْ عَرَفَهُ اعترف أنه وراء ما وصفه.

قوله جل ذكره: ﴿كَهَيِّصٌ﴾.

تعريف للأحباب بأسرار معاني الخطاب، بحروف خَصَّ الْحَقُّ الْمَخَاطَبَ بِهَا بِفَهْمِ مَعَانِيهَا، وَإِذَا كَانَ لِلْأَخْيَارِ سَمَاعُهَا وَذِكْرُهَا، فَلِلرَّسُولِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَهْمُهَا وَسِرُّهَا.

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام، والرفع والوضع على ما سبق به القضاء والحُكْمُ.

ويقال في الكاف تعريف بكونه مع أوليائه، وتخويفٌ بِخُفْيٍ مَكْرَهٍ فِي بَلَاءِهِ.

ويقال في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نَفْسِهِ قَبْلَ كِتَابَةِ الْمَلَائِكَةِ الرُّؤْيَا عَلَى عِبَادِهِ.

والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه، وتعريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه، وما له من الحق بحكم إحسانه.

والياء إشارة إلى يُسَّرَ نَعْمِهِ بَعْدَ عُسْرِ مِحْنِهِ. وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده.

والعين تشير إلى علمه بأحوال عبده في سيره وجهره، وقُله وكثره، وحاله وماله، وقدر طاقته وحق فاقته.

وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده.

قوله جل ذكره: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾.

تخصيصه إياه بإجابته في سؤال ولده، وما أراد أن يتصل بأعقابه من تخصيص القرية له ولجميع أهله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

وإنما ذلك لئلا يطلع أحد على سير حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه، والاعتقاد بالسوء في نفسه، ثم أخفى سيره عن الخلق لئلا يقع لأحد إشراف على حاله، ولئلا يشمت بمقالته أعداؤه.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

أي لقيت بضعفي عن خدمتك ما لا أحبه؛ فطعننت في السن، ولا قوة بعد المشيب؛ فهب لي ولدا ينوب عني في عبادتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

أي إني أسألك واثقاً بإجابتك؛ لعلمي بأنني لا أشقى بدعائك فإنيك تحب أن تسأل.

ويقال إنك عودتني إجابة الدعاء، ولم تردني في سالف أيامي إذا دعوتك.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ دَوْلَىٰ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثِي وَبِثْرٍ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

إني خفت أن تذهب النبوة من أهل بيتي، وتنتقل إلى بني أعمامي فهب لي ولداً يعبدك، ويكون من نسلي ومن أهلي.

وهو لم يرذ الولد بشهوة الدنيا وأخذ الحظوظ منها، وإنما طلب الولد ليقوم بحق الله، وفي قوله: ﴿يَرْثِي﴾ دليل على أنه كما سأل الولد سأل بقاء ولده؛ فقال: ولداً يكون وارثاً لي؛ أي يبقى بعدي، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة.

واجعله رب رضيعاً: رضي فعيل بمعنى مفعول أي ترضى عنه فيكون مريضاً لك. ويحتمل أن يكون مبالغة من الفاعل أي راضياً منك، وراضياً بتقدير.

قوله جل ذكره: ﴿يَزَكِّرْنَا إِنَّا نُنْشِرُكَ يُكَلِّمُ أَسْمُؤَ بَيْتِ لَمْ يَجْعَلْ لَكَ مِنْ قَبْلُ

سَمِيًّا﴾.

أي استجبنا لدعائك، ونرزقك ولداً ذكراً اسمه يحيى؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّهِ، ويحيا به نَسَبُكَ، يحيا به ذُكْرُكَ، وما سألتَه من أن يكون ناثباً عنك؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك.

﴿لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾: انفراده - عليه السلام - بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة؛ أي لم يكن له سَمِيٌّ قَبْلَهُ؛ فلا أَحَدَ كُفِّرَ لَهُ في استجماع أوصاف فضله. ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنب له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

سأل الولدَ فلماً أُجيب قال أنى يكون لي غلام؟ ومعنى ذلك - على ما جاء في التفسير - أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدة طويلة؛ فكانه سأل الولدَ في ابتداء حال سِنِّهِ، واستجيبت دعوته بعد ما تناهى في سِنِّهِ، فلذلك قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟﴾. ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد.. أمِنَ هذه المرأة وهي عاقر أم من امرأة أخرى أتزوج بها مملوكة أستفرشها؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد. فقال تعالى:

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾.

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة في هذا الوقت الذي فيه حسب مستقرّ العادة ولادة مثل هذه المرأة دلالة ومعجزة لك على قومك، فتكون للإجابة بالولد مِنْ وَجْهِ معجزة؛ ومن وَجْهِ راحةٍ وكرامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

دلّت الآية على أن المعدوم ليس بشيء، لأنه نفى أن يكون قبل خَلْقِهِ له كان شيئاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

أراد علامةً على علوق المرأة بالولد؛ ولم يُرَدْ علامةً يَسْتَدِلُّ بها على صِدْقِ ما يقال له. فأخبره تعالى: «أَنبُتُكَ علامةً وقت إجابتك.. إِنَّ لِسَانَكَ لا ينطق معهم بالمخاطبة - ولو اجتهدت كُلَّ الجهد - ثلاثة أيام، وعليك أن تخاطبني، وأن تقرأ الكتب المُنَزَّلَةَ التي كانت في وقتك. فكان لا ينطق لسانه إذا أراد أن يُكَلِّمَهُمْ، وإذا أراد أن يقرأ الكتب أو يَسْبُحَ اللَّهَ انطلق مع الله لسانه».

قوله جل ذكره: ﴿خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَخِرُوا بِكُرَةِ وَعِشْيَا﴾.

أي فلما خرج عليهم عرفهم - من طريق الإشارة - أن اللسان الذي كان يخاطبهم به ليس الآن منطلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَخَيَّنُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَفِيًّا﴾.

أي قلنا له يا يحيى خذ الكتاب بقوة ميثاً، خَصَصْنَاكَ بها. . لا قوة يد ولكن قوة قلب، وذلك خير خَصَّهُ اللَّهُ تعالى به وهو النبوة. ودلت الآية على أنه كان من الله له كتاب.

﴿وَآيَاتُهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ أي النبوة، بَعَثَهُ اللَّهُ بها إلى قومه، وأوحى إليه وهو صبي.

ويقال الحُكْمُ بالصواب والحق بين الناس.

ويقال الحكم هو إحكام الفعل على وجه الأمر.

قوله ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا...﴾ أي آتيناه رحمةً من عندنا، وطهارةً وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها؛ فإن التقوى على قسمين: مجموع ومجلوب يتوصل إليه العبد بتكليفه وتعلّمه، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل إليه العبد ببذله سبحانه ويفضله.

قوله جل ذكره: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

﴿براً بوالديه﴾ كأمر الله - سبحانه - له بذلك لا لمودّة البشر وموجب عادة الإنسانية. ولم يكن متمرداً عن الحق، جاحداً لربوبيته.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي له ميثاً أمان يوم القيامة، ويوم ولادته في البداية، ويوم وفاته في النهاية، وهو أن يصونه عن الزنغ والعوج في العقيدة بما يشهده على الدوام من حقيقة الإلهية.

وكذلك هو في القيامة له منه - سبحانه - الأمان؛ فهو في الدنيا معصوم عن الزلّة، محفوظ عن الآفة. وفي الآخرة معصوم عن البلاء والمحنة.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَأَتَتْهُ حُمُورُهَا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

اعتزلت عنهم لتحصيلٍ يطهرها، فاستترت عن أبصارهم.

فلَمَّا أَبْصَرَتْ جَبْرِيلَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ لَمْ تَتَوَقَّعْهُ أَحْسَنَ فِي نَفْسِهَا رُغْبًا، وَلَمْ تَكُنْ لَهَا حِيلَةٌ إِلَّا تَخْوِيفُهُ بِاللَّهِ، وَرَجُوعُهَا إِلَى اللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾.

قالت مريم لجبريل - وهي لم تعرفه - إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت ممن يجب أن يُخَافَ وَيُتَّقَى منه؛ أي إن كنت تُقَصِّدُ السَّوءَ. ومعنى قولها ﴿يَا رَحْمَنُ﴾ ولم تقل: «يا الله» - أي بالذي يرحمني فيحفظني منك.

ويقال يحتمل أن يكون معناه: إن كنت تعرف الله وتكون متقياً مخالفة أمره فإنني أعوذ بالله منك وأحذر عقوبته.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

تَعْرِفُ جَبْرِيلُ إِلَيْهَا بِمَا سَكَنَ رَوْعَهَا، وَقَرَنَ مَقَالَتَهُ بِالتَّبَشِيرِ لَهَا بِعِيسَى عَلَيْهِ
السلام.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَتْ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ مِائَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّفْضِيًّا ۝﴾ .

قالت أنى يكون لي وَلَدٌ ولم أَلِمْ بِزَلَّةٍ ولا فاحشة؟ فقال جبريلُ - عليه السلام -: الأمرُ كما قلتُ لَكِ؛ فلا يتقصى ذلك على الله تعالى؛ إذ هو أَقْدَرُ أَنْ يجعل هذا الولدَ دلالةً على كمال قدرته، ويكون هذا الولدُ رحمةً منه - سبحانه - لِمَنْ آمَنَ، وسببَ جهلِ الآخرين.

قوله جل ذكره: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

لَمَّا ظَهَرَ بِهَا الْحَمْلُ، وَعَلِمَتْ أَنَّ النَّاسَ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ، وَلَمْ تَتَّقِ بِأَحَدٍ نَفْسِي
إِلَيْهِ سِرًّا. . مَضَتْ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنِ الْخَلْقِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِوْفِ النَّحْلِ﴾ قَالَتْ بَلِّغْنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا.

الْجَاهَا وَجَعُ الْوِلَادَةِ إِلَى الْاعْتِمَادِ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ. وَلَمَّا أَخَذَهَا الطَّلُقُ، وَدَاخَلَهَا الْحَجَلُ مِنْ قَوْمِهَا نَفَقَتْ بِلِسَانِ الْعَجْزِ، وَقَالَتْ: ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا﴾.

ويقال يحتمل أنها قالتها إشفاقاً من قومها، لأنها عَلِمَتْ أَنَّهُمْ سَيَبْطُونُ لِسَانَ
المَلَامَةِ فِيهَا بِلِسَانِ الْفُجْر؛ وَنَسْبُونَهَا إِلَى الْفَحْشَاءِ.

ويقال قالتها شفقة على قومها لثلا تُصيّهم بسبيها عقوبة.

وَيَقَالُ قَالَتْ: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِثْلَ قَبْلَ هَٰذَا﴾ حَتَّىٰ لَمْ أَسْمَعْ مَن قَال فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ بِسَبِي

إن عيسى ابن الله وابن مريم، وإن مريمَ زوجته... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

ويقال ﴿بَلَّيْتَنِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كُنْتُ مَرْفُوعاً بِي، وَلَمْ تَسْتَقْبَلْنِي هَذِهِ الْخَشُونَةُ فِي الْحَالَةِ الَّتِي لِحَقَّتَنِي﴾.

ويقال ﴿بَلَّيْتَنِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ﴾: فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَلْبِي مُتَعَلِّقاً بِسَبَبٍ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾^(١).

فِي التفسير أَنَّ الْمَغْنِيَّ بِقوله ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾: جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَسْكِينُ مَا كَانَ بِهَا مِنَ الْوَحْشَةِ، وَالْبَشَارَةُ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيِ يَرْزُقُكَ اللَّهُ وَلِذَا سَرِيًّا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَهَزَيْتَنِي لِمَنِّيكَ بِمِزْجِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾.

وَكَانَ جَذْعاً يَبْسَ أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ فِي الْوَقْتِ الشَّمْرَةَ، وَهِيَ الرُّطْبُ الْجَنِي، وَكَانَ فِي ذَلِكَ آيَةٌ وَدَلَالَةٌ لَهَا؛ فَالَّذِي قَدَرَ عَلَى فَعَلٍ مِثْلِ هَذَا قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنْ غَيْرِ أَبِي.

وَيَقَالُ عِنْدَمَا كَانَتْ مُجَرَّدَةً بِلا عِلَاقَةٍ، فَقَدْ كَانَ زَكْرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَجِدُ عِنْدَهَا رِزْقاً مِنْ غَيْرِ أَنْ أُمِرَتْ بِتَكْلِفٍ، فَلَمَّا جَاءَتْ عِلَاقَةُ الْوَلَدِ أُمِرَتْ بِهَزِّ النَّخْلَةِ الْيَابِسَةِ - وَهِيَ فِي أَوْسَعِ حَالِهَا؛ زَمَانَ قَرِيبَ عَهْدِهَا بِوَضْعِ الْوَلَدِ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْعِلَاقَةَ تَوْجِبُ الْعِنَاءَ وَالْمَشَقَّةَ.

وَيَقَالُ بَلْ أُمِرَتْ بِهَزِّ النَّخْلَةِ الْيَابِسَةِ، وَكَانَ تَمَكُّنُهَا مِنْ ذَلِكَ أَوْضَحَ دَلَالَةٍ عَلَى صَدَقِهَا فِي حَالِهَا.

وَيَقَالُ لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مَنْ يَقُومُ بِتَعَاهِدِهَا تَوَلَّى اللَّهُ تَعَالَى كِفَايَتَهَا؛ لِيُعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّهُ لَا يَضِيعُ خَوَاصِلُ عِبَادِهِ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرِي وَقَرِّي عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

كُفَاهَا أَسْبَابُ مَا احْتَاجَتْ إِلَيْهِ مِنْ أَكْلِهَا وَشُرْبِهَا، وَسَكْنٍ مِنْ خَوْفِهَا، وَطَيِّبِ قَلْبِهَا.

﴿فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾: فَلَا تُخَاطِبُهُمْ وَعَرَفِيهِمْ - بِالْإِشَارَةِ - أَنَّكَ نَذَرْتَ لِلرَّحْمَنِ الصِّمْتَ مَعَ الْخَلْقِ، وَتَرَكِ الْمَخَاطَبَةَ مَعَهُمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَنَّتْ بِهِ قَوْمَهَا فَحَمِلَتْهُ قَالُوا يَلْمِزِيهِمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَتَأَخَتْنَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾.

بَسَطَ قَوْمُهَا فِيهَا لِسَانَ الْمَلَامَةِ لِمَا رَأَوْهَا قَدْ وَلَدَتْ - وَظَاهَرُ الْحَالِ كَانَ مَعَهُمْ -

(١) السُّرِّي: الْجَدُولُ، أَوْ النَّهْرُ الصَّغِيرُ.

فقالوا لها على سبيل الملامة: يا مَنْ كُنَّا نَعُدُّكَ فِي الصَّلَاحِ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ الْمَعْرُوفِ
بِالسَّدَادِ وَالصَّلَاحِ... مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الْحَالَةُ الشُّنْعَاءِ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون. ويقال كان هارون رجلاً فاسقاً في قومهم،
فقالوا: يا شبيهته في الفساد... ما هذا الولد؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا: يا أخت هارون، وبِأَيِّ مَنْ فِي حِسَابِنَا
وِظَنَّتْ مَا كَانَ أَبَوَاكِ فِيهِمَا سُوءٌ وَلَا فُسَادٌ... كَيْفَ أَتَيْتِ بِهِذِهِ الْكَبِيرَةِ الْفُظْيَةِ؟!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

في الظاهر أشارت إلى الولد، وفي الباطن أشارت إلى الله، فأخذهم ما قرب
وما بعد وقالوا: كيف نكلّم مَنْ هُوَ أَهْلٌ بِأَنْ يُتَوَّمَ فِي الْمَهْدِ؟!

فـ «كان» ها هنا في اللفظ صلة... وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

لما قالوا ذلك أنطق الله عيسى حتى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، فظهرت براءة صاحبها
بكلام عيسى قبل أن يتكلّم مثله. وجرى على لسانه حتى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾؛ لِيُقَالَ
لِلنَّصَارَى إِنَّ صَدَقَ عِيسَى أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بَطْلَ قَوْلِكُمْ إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَإِنْ كَذَبَ فَالَّذِي
يَكْذِبُ لَا يَكُونُ ابْنًا لِلَّهِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَبْدًا لِلَّهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَبْدَ هَوَاهُ، وَلَا فِي أَسْرِ
شَيْءٍ سِوَاهُ فَمَنْ تَحَرَّرَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَبْدُهُ.

﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾: أي سيؤتيني الكتاب أو آتاني في سابق حكمه.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ بفضلّه. وفي الآية ردٌّ على من يقول إن النبوة تُسْتَحَقُّ بِكثرة الطاعة
لأنه قال ذلك في حال ولادته؛ ولم تكن منه بَعْدُ عِبَادَةٌ وَأَخْبِرَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ نَبِيًّا.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

أي نافعاً للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَّةِ التي فيها
هلاكهم، وَمَنْ اسْتَضَاءَ بَنُورَهُ نَجَا... فهذه بركاته التي كانت تصل إلى الخلق. وَمَنْ
بَرَكَاتِهِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ، وَإِعَانَةُ الضَّعِيفِ، وَنَصْرَةُ الْمَظْلُومِ، وَمَوَاسَاةُ الْفَقِيرِ، وَإِرْشَادُ
الضَّالِّ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْخَلْقِ، وَكَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ وَحَمْلُ الْأَذَى مِنْهُمْ.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي لم يجعلني غير قابلٍ للنصيحة.

ويقال ﴿شَقِيًّا﴾: أي متكبراً متجبراً. ويقال مختوماً بكُفْرٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قال عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾، وقال لنبينا عليه السلام ليلة المعراج: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته». . . فشتان ما هما!

والسلام بمعنى السلامة، أي سلامة لي يوم الولادة مما نسبوا إلي من قول النصارى في مجاوزة الحد في المدح، ومما وصفني به اليهود من الذم، فَلَسْتُ كما قالت الطائفتان جميعاً.

وسلام عليّ يوم أموت؛ ففي ذلك اليوم تكون لي سلامة حتى تكون بالسعادة وفاتي.

وسلام عليّ يوم أُبعث؛ أي سلامة لي في الأحوالِ ممّا يُبتلى به غيرُ أهلِ الوصال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْعُرُونَ﴾.

أي الذي قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أيكون بقول إله؟ وقد شكّ فيه أكثر الخلق فرّده قومٌ وقبّله قومٌ، والفرق بينهما في استحقاقه. وقوله: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أي يكون بقوله الحق وهو:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنْ عِبَادِهِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لا يجوز أن يكون له ولدٌ على الحقيقة؛ لأنه واحد، والولدُ بعضُ والده.

ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة. ولا يجوز عليه التبني لأحدٍ لَعَدَمِ الجنسية بينهما.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ . . . ﴿إِذَا أَرَادَ إِحْدَاثَ شَيْءٍ خَلَقَهُ بِقُدْرَتِهِ، وَخَاطَبَهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، وَلَا يَتَعَصَّى عَلَيْهِ - فِي التَّحْقِيقِ - مَقْدُورٌ.

﴿وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنْ عِبَادِهِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي أمرني بأن تعلموا ذلك؛ وأمرني بتبليغ رسالتي، واتباع ما شَرَعَ اللَّهُ من العبادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فَمَنْ عَجِثَتْ بِمَاءِ السَّعَادَةِ طِينَتُهُ أَطَاعَ فِي عَاجِلِهِ وَمَا ضَاعَ فِي آجِلِهِ، وَمَنْ أَقْصَتْهُ الْقِسْمَةُ السَّابِقَةُ لَمْ تُذْنِبِ الْخِذْمَةَ اللاحقة، وَسَيَلْفُونَ غِبَّ هَذَا الْأَمْرِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَتَمِيعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

تصير معارفهم ضروريةً، وأحوالهم كلها معكوسةً، والحُجَّةُ تتأكد عليهم، والحاجةُ لا تُسْمَعُ منهم، والرحمةُ لا تتعلّق بهم، فلا تُرَحِّمُ شكائهم، ولا يُسْمَعُ نِدَاؤُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْمُنْصَرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .
تقوم الساعة بغتة، وتصادفهم القيامة وهم غير مستعدين لها فيتحسرون على ما فاتهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القسمة حين سبقت لقوم الشقاوة - وهم في محو العدم، ولآخرين السعادة - وهم بنعت العدم، ولم يكن من أولئك جُزءٌ بغد، ولا من هؤلاء وفاءٌ بعد .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ .

يريد به إذا قبض أرواح بني آدم بجملتهم، ولم يبق على وجه الأرض منهم واحد، وليس يريد به استحداث ملكه، وهو اليوم مالك الأرض ومن عليها، ومالك الكون وما فيه .

ويقال إن زكريا قال - لما سأل الولد: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦] وقال تعالى في صفة بني إسرائيل: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال: ﴿إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ولما انتهى إلى هذه الأمة قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ . فستان بين من وارثه الولد وبين من وارثه الأحاد!

ويقال هان على العبد المسلم إذا مات إذا كان الحق وارثه . . وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

فإِنْ يَكُ عَثَابٌ مَضَى لِسَبِيلِهِ فما مات من يبقى له مثل خالد
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٨] لماذا؟ لِأَنَّ وَارِثَهُمُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ .

الصدِّيق الكثير الصدق، الذي لا يمازج صدقه شوب .

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصدِّيق لا يناقض سيره علته .

ويقال هو الذي لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافياً .

ويقال هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلاً .

ويقال هو الواقف مع الله في عموم الأوقات على حد الصدق .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِإِيَّاهِ بِتَأْتِي لِمَ تَقْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ .

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى اسْتِحْقَاقِ الْمَعْبُودِ الْوَصْفَ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ عَلَى الْكَمَالِ دُونَ
تُقْصَانٍ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ.

وَإِذَا رَجَعَ الْعَبْدُ إِلَى التَّحْقِيقِ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ الْخَلْقِ لَا تَضْلُحُ قُدْرَةُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
لِلْإِبْدَاعِ وَالْإِحْدَاثِ، فَمَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ، أَوْ تَوَهَّمْ شَطِيئَةَ مِنْهُ مِنَ النِّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ
فَقَدْ ضَاهَى عَبْدَهُ الْأَصْنَامِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.

أَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهِ لِمَا تَرَجَّحَ عَلَيْهِ جَانِبُهُ فِي كَوْنِ الْحَقِّ مَعَهُ - وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ مِنْهُ سِتْرًا، وَبَيَّنَّ
أَنَّ الْخَلَاصَ فِي اتِّبَاعِ أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَنَّ الْهَلَكَ فِي الْإِبْتِدَاعِ وَالتَّطَوُّعِ فِي مَغَالِيطِ الطَّرِيقِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي مَنْعِهِ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ عَصِيَانَهُ لِلرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ طَاعَةً لِمَنْ يَعْصِي اللَّهَ بِحَالٍ.

وَيُقَالُ أَسَاسُ الدِّينِ هِجْرَانُ أَرْبَابِ الْعَصِيَانِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَابَتِ إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

لَمْ يَغَادِرِ الْخَلِيلُ شَيْئًا مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى أَبِيهِ، وَلَمْ يَنْفَعِهِ جَمِيلٌ وَعِظُهُ، وَلَمْ تَنْجِعْ
فِيهِ كَثْرَةُ نُصْحِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَقْصَتْهُ سَوَابِقُ التَّقْدِيرِ لَمْ تَخْلُصْهُ لَوَاحِقُ التَّدْبِيرِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرَهُمْ﴾.

مَتَاهُ إِبْرَاهِيمُ بِجَمِيلِ الْعُقْبَى، فَقَابَلَهُ بِتَوَعُّدِ الْعُقُوبَةِ فَقَالَ:

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

فَأَجَابَهُ الْخَلِيلُ بِمَقْتَضَى سَكُونِ الْبَصِيرَةِ فَقَالَ:

﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾.

وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَبَاسَ مِنْ إِيْمَانِهِ، إِذْ كَانَتْ لَدَيْهِ بَعْدُ بَقِيَّةٌ مِنَ الرَّجَاءِ فِي شَأْنِهِ، فَلَمَّا
تَحَقَّقَ أَنَّهُ مَخْتَوِمٌ لَهُ بِالشَّقَاوَةِ قَالَ لَهُ:

﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَشْيَ إِلَّا أَكُونُ بِدُعَاؤِ رَبِّي شَاقِيًّا﴾.

﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾: أَيِ مَا تَعْبُدُونَ، ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾: أَيِ أَعْبُدُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا

جَعَلْنَا نَبِيِّنًا﴾.

لَمَّا أَيْسَرَ مِنْ أَصْلِهِ أَنَسَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ مِنْ نَسْلِهِ، فَأَنْبَتَهُمْ نَبَاتًا حَسَنًا، وَرَزَقَهُمُ
النَّبُوَّةَ، وَلَسَانَ الصَّدَقِ بِالذِّكْرِ لَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ فَقَالَ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

مُخْلَصًا خالصاً لله، ولم يكن لغيره بوجه؛ فلم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يستغفزه طمع نحو إثارة حظ، ولم يُغض في الله على شيء.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

للتجوى مزية على النداء، فجمع له الوصفين: النداء في بدايته، والسماع والتجوى في نهايته؛ فوققه الحق وناداه، وفي جميع الحالين تولاه.

﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾: ترجع إلى موسى فموسى كان بجانب الطور^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

من خصائص موسى أنه وهب له أخاه هارون نبياً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

كان صادق الوعد إذ وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه، وصبر على ذلك إلى أن ظهر الفداء. وصدق الوعد لأنه حفظ العهد. وكان يأمر أهله بالصلاة - بأمر الله إياه - وبالزكاة، ويشتمل هذا على ما أمره إياهم بالعبادة البدنية والمالية حيثما كان.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وكان هذا أشرف خصاله وأجل صفاته.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

الصديق كثير الصدق، لا يشوب صدقه مدق^(٢)، ويكون قائماً بالحق للحق؛ ولا يكون فيه نفس لغير الله.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾: درجة عظيمة في التربية لم يساوه فيها أحد.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

أقامهم بشواهد الجمع، وأخبر أن ميثقه كائنه في تخصيصهم بأحوالهم، وتأهيلهم لما رُقاهم إليه من المال، وأنه بفضله اختارهم واجتباهم. ومما أنعم به عليهم من الخصائص رقة قلوبهم؛ فهم إذا تُلِّي عليهم الآيات سجدوا، وسجدوا ظواهرهم يدل

(١) الطور: جبل قرب أيلة يُضاف إلى سيناء أو سينين، وهو الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ربه.

(٢) المدق: المزج والخلط، والمماذقة في الود: ضد المخالصة، ومدق الود: لم يخلصه. (اللسان ٣٤٠/١٠ مادة: مدق).

على سجود سرائرهم بما حَقَّقَ لهم من شواهد الجمع، وأمانة صحته ما وفقهم إليه من عين الفرق؛ فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية، وبنعت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً﴾.

الذين حادوا عن طريقهم، وضيعوا حق الشرع، وتخطوا واجب الأمر، وزاغوا عن طريق الرشد، وأخلوا بآداب الشرع، وانخرطوا في سلك متابعة الشهوات - سيلقون عن قريب ما يستوجبونه، ويُعَامَلُونَ بما يستحقونه.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّتِ عَدْنُ آلِيقٍ وَعَدَّ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَائِيًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً إِلَّا سَلَامًا﴾.

فأولئك الذين تداركتهم الرحمة الأزلية، وسيبقون في النعم السرمدية. يستنجز الحق لهم عِدَاتِهِمْ، ويُوَصِّلُهُمْ إلى درجاتهم، ويَحَقِّقُ لهم ما وعدهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَائِيًا﴾: لأن ما أُتِيَتْه فقد أتاكَ أو ما أَتَاكَ فقد أُتِيَتْه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاً﴾: فإن أسمعاهم مصونة عن سماع الأغيار، لا يسمعون إلا من الله وبالله، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾.

كانوا يعدون من عنده طعام البكرة والعشية من جملة المياسير والأغنياء لكونهم فقراء؛ إن وجدوا غداءهم ففي الغالب يَغْدِمُونَ عشاءهم، وإن وجدوا عشاءهم فقلما كانوا يجدون غداءهم. ويقال في: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ فِيهَا﴾ [النحل: ٥٧]: بمقدار الغدو والعشي من الزمان في الجنة أي كالوقت. ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة؛ فللأشباح رِزْقٌ من مطعوم ومشروب، وللأرواح رِزْقٌ من سماع وشهود، ولكل - على قدر استحقاقه - قِسْطٌ معلوم.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا﴾.

فالجنة للأتقياء من هذه الأمة مُعَدَّةٌ له، والرحمة لعصاة المسلمين مُدْخَرَةٌ لهم، الجنة لُطْفٌ من الله تعالى، والرحمة وَصْفٌ لله تعالى. وقوله: ﴿مَنْ عِبَادِنَا﴾: فَعَبْدُهُ على الخصوصية مَنْ كان اليوم في قيد أمره. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًا﴾: قوم يتقون المعاصي والمخالفات، وقوم يتقون الشهوات، وآخرون يتقون الغفلات، وآخرون يتقون شهود كُلِّ غيره.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾.

إن الملائكة - عليهم السلام - أبداً ينزلون بإذن الحق تعالى، فبعضهم بإنجاد المظلومين، وبعضهم بإغاثة الملهوفين، وبعضهم بتدمير الجاحدين، وبعضهم بنصرة المؤمنين، وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين. واللَّهُ - سبحانه - لا يترك جاحداً ولا عابداً من حفظ وإنعام، أو إمهال ونكال...

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

بحق الإظهار يجب أن يكون هو ربها، ويكون مالكها، ويكون قادراً عليها. وإذا وجدت فهو فاعلها، فمعنى كون فعل الشيء لفاعله أنه في مقدوره وجوده. ويقال إذا كان رب الأكابر من الأقوياء فهو أيضاً رب الأصاغر من الضعفاء، وقيمة العبد بمالِكِه وقدره، لا بشمته في نفسه وخَطَره.

قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي قف حيشماً أمرك، ودغ ما يقع لك، وحل رأيك وتدبيرك. قوله: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الاصطبار غاية الصبر.

قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: أي كفواً ونظيراً. ويقال هل تعرف أحداً يسمى «الله» غير الله؟ ويقال أني بالنظير... وهو بالقدم متوحداً! والتشبيه يقتضي التسوية بين المتشابهين، ولا مثل له... لا موجوداً ولا موهوماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِنَّا مِثْلَ لَسَوَفَ أَخْرِجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾.

أنكروا حديث البعث غاية الإنكار، فأقام الحجة عليهم بالنشأة الأولى؛ فقال: إن الذي قدر على خلقي في الابتداء وهم نُطِفَ ضعفاء، وقُبِلُ كانوا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ففَطَرَهُمْ، وعلى ما شاء صَوَّرَهُمْ، وفي الوقت الذي أراد - عن بطون أمهاتهم أخرجهم.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ فيه دليل على صحة أهل البصائر أن المعدوم لم يك شيئاً في حال عَدَمِهِ.

ويقال أبطل لهم كل دعوى حيث ذكروهم نسبهم وكوّنهم من العدم.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْصِنَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾.

نحشرهم جميعاً فيجتمعون في العَرْصَةِ^(١). ثم يختلف مُنْقَلَبُهُمْ؛ فيصير قومٌ إلى النار ثم إلى دَرَكَاتٍ بعضها أسفل من بعض - واسمُ جهنم يجمع أماكنهم. ويصير قومٌ إلى الجنة ثم هي دَرَجاتٌ بعضها أعلى رتبةً ودرجةً من بعض - واسمُ الجنة يشمل على جميع مساكنهم.

ويقال التفاوتُ في الجنة بين الدرجاتِ أكثرُ من التفاوت بين أهل الدارين. قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَنِيًّا﴾. مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِضْلَالِ وَالضَّلَالِ ضَوْعَفَ عَلَيْهِ غَدَاُ الْعَذَابِ وَالْأَغْلَالِ. ﴿ثُمَّ لَنَعْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًى﴾.

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دركاتها من هو أهل لها، فمن كان عتوه اليومَ أشدَّ غلواً كان في النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَن يَنكَرُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

كلُّ يَرِدُ النَّارَ ولكن لا ضَيَّرَ منها ولا احتباسٌ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (. . .)^(٢) والزلزل؛ فأشدُّهم انهماكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً. وقوم يردونها - كما في الخير: «إن للنار عند مرورهم عليها إذوبة»^(٣) كإذوبة اللَّبَن، فيدخلونها ولا يحسون بها، فإذا عبروها قالوا: أو ليس وعدنا جهنم على طريق؟ فيقال لهم. عبرتم وما شعرتم!.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾.

يُنَجِّي مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا، بعضهم قَبْلَ بعض، وبعضهم بَعْدَ بعض، ولكن لا يبقى من المؤمنين مَنْ لا ينجيهم. ويترك الكفار فيها بنعت الخيبة عن الخروج منها، وعند ذلك يشتدُّ عليهم البلاء، وتُطَبَّقُ عليهم أبوابُ جهنم، وينقطع منهم الرجاء والأمل.

وإنما ينجو القوم بحسب تقواهم؛ فزيادة التقوى توجب لهم التعجيل في النجاة؛ فمن سابقٍ ومن لاحقٍ، ومن منقطع، ومن محترق . . . إلى كثيرٍ من الأصناف والألوان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا نُنْفَخُ النَّفْثَ يَنْتَبِهُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

(١) العرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء (ج) عرصات وعراص.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) الإذوبة: الزُّبْد يُذَاب في البُرمة ليُطْبَخ سمنًا، فلا يزال ذلك اسمه حتى يُحَقَّن في الشقاء. (اللسان ٣٩٧/١ مادة: ذوب).

يعني إذا قُرِئَتْ عليهم آيات القرآن قابلوها بالرّد والجحد والعتو والزيف، وَيَدْعُونَ
أنهم على حق، ولا يعتمدون في ذلك إلا على الحَدْسِ والظَّنِّ.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾.

أي إن هؤلاء ينخرطون في سِلْكٍ مِّن تَقَدُّمِهِمْ، كما سلكوا في الريب منهاجهم،
وسَيَلَقُونَ ما يستوجبونه على سوء أعمالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا
الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.

إن الله تعالى يُمهِّلُ الكفار ليركنوا إلى أباطيل ظنونهم، وَيَغْتَرُوا بِسَلَامَةِ أحوالهم،
فينسونه في غفلة الإمهال والاعترا بسلامة أحوالهم، ثم يغشاهم التقدير بما يستوجب
حسابانهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ...﴾ أي يحل بهم موعود العقوبة عاجلاً أو قيام
الساعة آجلاً، فعند ذلك يتضح لهم ما تعاموا عنه من شدة الانتقام، وسيعلمون عند
ذلك ما فاتهم وما أصابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

أي يُغْنِيهِمْ بنور البدر عن الاستضاءة بنور النجم، ثم بطلوع الفجر قبل طلوع
الشمس، فإذا مَتَّعَ نهارُ العرفان فلا ظلمة ولا تهمة.

﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾

﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الشهادة بالربوبية خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق
الإخلاص.

ويقال: ﴿وَالْبَيِّنَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: التي تبقى عند الله مقبولة.

قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ﴾ لأن في استحقاق القبول زيادةً للهدى؛ فيصير عِلْمُ اليقين
عينَ اليقين، وعَيْنُ يقينهم حَقُّ اليقين.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾.

أخبر بقصة ذلك الكافر الذي قال بيمين - من غير حجة - لأُعْطِيَنَّ مَالًا وولداً،
ورأى أن يكون ليمينه تصديق، فهل هو:

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

هل يقول ما يقول بتعريف منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك.
ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جميلاً، أو أَمَّلَ منه

أشياء كثيرة فالله تعالى يحققها له، وَيَصْدُقُ ظَنُّهُ لَأنَّهُ على عهد مع الله تعالى، والله تعالى لا يخلف وعده.

قوله جل ذكره: ﴿كَأَلَّا سَكَتُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

كلا... ليس الأمر على ما يقول، وليس لقولهم تحقيق، بل سنمد لهم من العذاب مدًّا أي سنطيل في العذاب مدتهم.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ...﴾ لن نمتعه بأولاده وَحَشَمِهِ وَخَدَمِهِ وَقَوْمِهِ، ويعود إلينا منفرداً عنهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُم عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

حكموا بظنهم الفاسد أنَّ أصنامهم تمنعهم، وأنَّ ما عبده من دون الله تعالى توجبُ عبادتهم لهم عند الله تعالى وسيلة... وهيئات! هيئات أن تكون لمغاليط حساباتهم تحقيق، بل إذا حُشِرُوا وَحُشِرَتْ أصنامهم تَبَرَّأَتْ أصنامهم منهم، وما أُمِّلُوا نفعاً منها عاد ضرراً عليهم.

ويقال طلبوا العِزَّ في أماكن الذل، فأخفقوا في الطلب، ونُفُوا عن المراد.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾.

تؤزهم أي تزعجهم، فخاطر الشيطان يكون بازعاج وغمّة، وخاطر الحق يكون بَرُوحٍ وسكينة، وهذه إحدى الدلائل بينهما.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾.

الأنفاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا انقضاء لها. وإذا انتهى الأجل فلا تنفع بعد ذلك الحِيلُ، وقبل انقضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾.

قيل ركبانا على نجائب طاعاتهم، وهم مختلفون؛ فَمِنْ رَاكِبٍ على صدور طاعاته، ومن رَاكِبٍ على مراكبِ هَمَمِهِ، ومن رَاكِبٍ على نجائب أنواره. ومن محمولٍ يحمله الحق في عقباه كما يحمله اليوم في دنياه. وليس محمول الحق كمحمول الخلق!

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوْفَ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾.

فأولئك يُساقون بوصف العِزِّ، وهؤلاء يُساقون بنعت الذلِّ، فيجمعهم في السُّوقِ، ولكن يُغَابِرُ بينهم في معانيه... فشتان ما هما!!

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

وذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم - يوم الميثاق - من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ نَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَنَخِرُّ لِلْجِبَالِ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

ما أعظم بهتانهم في مقالتهم! وما أشد جرأتهم في قبيح حالتهم! لكن الصمدية متقدسية عن عائذ يعود إليها من زين بتوحيد موحد، أو شين بالحاد ملحد... فما شامت إلا وجوههم بما خاضوا فيه من مقالهم، وما صاروا إليه من ضلالهم. كما لم يتجمل بما قاله الآخرون إلا القائل، وما عاد إلا القائل مقابل من عاجل أو آجل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا يَرَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا لَقَدْ أَحْضَرْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾.

أتى بالولد وهو واحد؟! وأتى بالولادة ولا جنس له وجوباً ولا جوازاً؟! ﴿لَقَدْ أَحْضَرْنَاهُمْ...﴾: لا يغرب عن علمه معلوم، ولا ينفك عن قدرته - مما يصح أن يقال حدوثه - موهوم.

﴿وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾: لا خدم يصحبهم، ولا حشم يلحقهم، كل بنفسه مشغول، وعن غيره منفرد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾. يجعل في قلوبهم وداً لله نتيجة لأعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه»^(١).

ويقال يجعل لهم الرحمن ودأ في قلوب عباده، وفي قلوب الملائكة، فأهل الخير والطاعة محبوبون من كل أحد من غير استحقاق بفعل.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾. الكلام واحد والخطاب واحد، وهو لقوم تيسير، ولآخرين تخويف وتحذير. فطوبى لمن يسر لما وقع به، والويل لمن خوف بل خذل فيه. والقوم بين موفق ومخذول.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٣، ٩/ ٦١٠)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٧١).

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

أثبتهم وأحياهم، وعلى ما شاء فطرحهم وأبقاهم، ثم بعد ذلك - لما شاء - أماتهم وأفناهم، فبادوا بأجمعهم، وهلكوا عن آخرهم، فلا كبير منهم ولا صغير، ولا جليل ولا حقير، وَسَيُطَالِبُونَ - يوم النشور^(١) - بالنكير والقطمير.

(١) يوم النشور: يوم القيامة.

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَحَقَّقَ بجلال عِزَّتِهِ تمحض في خلوص عبوديته، وإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سيماء نعوته .
اسم عزيز مَنْ عرفه سَمَتْ هِمَّتُهُ، وإذا سمت همته سقطت عن الدارين طَلْبَتُهُ .
اسم مَنْ عَرَفَهُ زال كَرْبُهُ وطاب قلبه؛ دِينُهُ رَبُّهُ وَجَنَّتْهُ حُبُّهُ .
اسم عزيز من وَسَمَهُ بعبوديته خَرَّزَهُ من رِقِّ شهواته، وأعتقه من أَسْرِ مَطَالِيهِ؛ فلا له لمحجوب طلب، ولا يستغزُّه لمحذور هرب .
قوله جل ذكره: ﴿طه مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ .
الطاء إشارة إلى قلبه - عليه السلام - من غير الله، والهاء إشارة إلى اهتداء قلبه إلى الله .

وقيل طاً بِسَرِّكَ بساط القرية فأنت لا تهتدي إلى غيرنا .
ويقال طوبنا عن سَرِّكَ ذَكَرْ غيرنا، وهديناك إلينا .
ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب عيش مَنْ اهتدى بك .
﴿مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ : أي ليس المقصود من إيجابنا إليك تعبدك، وإنما هذا استفتاح الوصلة، والتمهيد لبساط القرية .
ويقال إنه لما قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]
وقف بِفَرْدٍ قدم تباعدا وتنزها عن أن يقرب من الدنيا استمتاعاً بها بوجه فقيل له: طاً الأرض بقدميك . . . لِمَ كل هذا التعب الذي تتحملة؟ فزاد في تعبه، ووقف، حتى تقدمت قدماه وقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١) أي لما أهلني من التوفيق حتى أعبدته .

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦٣/٢، ١٦٩/٦، ١٢٤/٨)، ومسلم في (الصحيح صفات المنافقين ٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذي في (السنن ٤١٢)، والنسائي في (السنن ٢١٩/٣)، وابن ماجه في (السنن ١٤١٩ - ١٤٢٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢٥١/٤، ٢٥٥، ١١٥/٦) والبيهقي في=

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا نَذْكِرُهُ لِمَن يَخْشَى﴾.

فالقرآن تبصرة لذوي العقول، تذكرة لذوي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون فينالون به راحة النفس في آجلهم، وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح الأتس في عاجلهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَنَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾.

جعل الأرض قراراً لعباده. ونفوس العابدين أرض وقرار لطاعتهم، وقلوب العارفين قرار لمعارفهم.

قوله جل ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

استواء عرشه في السماء معلوم، وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَيَجِلُّ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمِينًا﴾ [الحاقة: ١٧] وعرش القلوب:

قال تعالى: ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]. أمّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب الرحمن عليه استولى. عرش السماء قبلة دعاء الخلق، وعرش القلب محل نظر الحق... فشتان بين عرش وعرش!

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْهَمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾.

له الأشياء على العموم ملكاً، والأولياء تخصيصاً وتشريقاً. له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العدم؛ فالكل له إثباتاً وخلقاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

النفس لا تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا

= (السنن الكبرى ٤٩٧/٢، ١٦/٣، ٣٩/٧)، والطبراني في (المعجم الصغير ٧١/١، ١١٨)، وابن خزيمة في (الصحيح ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢٧١/٢)، وابن حجر في (المطالب العالية ٥٢٩)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٦/١، ٣٧٣/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٢٥٠/٧، ٢٨٩/٨)، (البغوي ١٧٤/٤، ٣٨٧/٧)، والساعاتي في (بدائع المنن ٣١٦، ٣١٧)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/٨، ٥٨٤/٩، ١٠٥/١١، ٣٠٣/١١)، والبغوي في (شرح السنة ٤/٤٥)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٢٢٠) وصاحب (ميزان الاعتدال ٤٣١/٤)، وابن حبان في (المجروحين ١/١٦١، ٣١/٢)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٨٥/٥، ١٨٦، ٧٨/٧)، والعراقي في (المعني عن حمل الأسفار ٧٨/٤ - ٨٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٤/٣٣١، ١٩٧/٧، ٢٦٥، ١٠١/١٤ - ٣٠٦) والقاضي عياض في (الشفاء ١/٤٦٥، ٢/٢٥١، ٣٩١، ٤٧/٩ - ٥٩)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ١٧، ٩٢)، وابن المبارك في (الزهد ٣٦)، (مناهل الصفا ٢٦)، والترمذي في (الشمائل ١٤٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١، ٧٠/٦)، والمنتقي الهندي في (كنز العمال ١٨٥٨٠، ١٨٥٨١)، وابن عبد البر في (التمهيد ٦/٢٢٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ١٣/٢٣٢).

سبيل له إلى حقائق السر. والذي هو أخفى من السر فهو ما لا يُطْلَعُ عليه إلا الحق^(١).
ويقال الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه المَلَكَانِ، ويستأثرُ
بِعِلْمِهِ الْجَبَّارُ، ولا تقف عليه الأغيار.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

نَقَى كل موهوم من الحدّثان بأن يكون شيء منه صالحاً للإبداع، وأثبت كل ما
في الوجود له باستحقاق القِدَم.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي صفاته، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معنى.

ويقال ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: تعريفٌ للخلق بأن استحقاق العلو والتقدُّس عن
النقائص له على وصف التفرد به.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾.

سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقرير والإثبات. وأجرى - تعالى - سُنتَهُ
في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا
ﷺ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي مِائِكَمُ وَتَوَّاهُ بِغَيْبٍ
أَوْ أَحَدُ عَلَى النَّارِ هَدَى﴾.

الأح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها، وكان المقصودُ إخراجَه من بينهم،
فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى، وقال لأهله:

﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ فقال أهله: كيف تركنا والوادي مسبع؟

فقال: لأَجْلِكُمْ أَفَارَقَكُم؟ فَلَعَلِّي آتِيَكُم من هذه النار بقبس.

ويقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاجُ، فلم يتمالك حتى خرج.
ففي القصة أنه لما أتاها وَجَدَ شَجَرَةً تَشْتَعِلُ من أولها إلى آخرها، فجمع موسى - عليه
السلام - حشائشَ لِيَأْخُذَ من تلك النار، فعرف أن هذه النار لا تسمح نَفْسُهَا بأن تُعْطِيَ
إلى أحدٍ شعلة:

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بَلِيلٍ وَلَا نُقْرِئُ

يا موسى هذه النارُ تضيءُ ولكن لا تعطي لأحدٍ منها شعلة. يا موسى هذه النارُ
تحرق القلوبَ لا النفوس.

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن السر: السر ما لك عليه إشراف، وسر السير ما لا إطلاع عليه
لغير الحق. (الرسالة القشيرية ص ٨٨).

ويقال كان موسى عليه السلام في مزاولة قَبَسٍ من النار فكان يحتال كيف يأخذ منها شيئاً، فبينما هو في حالته إذ سمع النداء من الحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُورٌ يَمُوشِي إِذْ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

علم موسى أنه كلام الحق - سبحانه - لَمَّا سَمِعَ فيه الترتيب والتنظيم والتركيب، فعَلِمَ أنه خطاب الحق.

ويقال إنما عرف موسى - عليه السلام - أنه كلام الله بتعريف خصّه الحق - سبحانه - به من حيث الإلهام دون نوع من الاستدلال.

قوله: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ...﴾ فَإِنْ بَسَاطَ حَضْرَةِ الْمُلُوكِ لَا يُوطَأُ بِتَغْلٍ.

ويقال ألقى عصاك يا موسى، واخلع نعليك، وأَقِمْ عندنا هذه الليلة ولا تَبْرَحْ. ويقال الإشارة في الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارين، والتجرد للحق بنعت الانفراد.

ويقال: ﴿اخلع نعليك﴾: تَبَرَّأَ عن نَوْعِي أفعالك، وامحُ عن الشهود جُسْئِي أحوالك من قربٍ وبُغْدٍ، ووَضْلٍ وفَضْلٍ، وارتياح واجتياح، وفناء وبقاء... وكُنْ بوصفنا؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ بِحَقْنَا.

أُثْبِتَهُ في أحواله حتى كان كالمجرد عن جملته، الْمُضْطَلَمُ عن شواهد.

قوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: أي إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ عن الأعلام؛ وساحات الصمدية تَجَلُّ عن كل شين، وإيمانٍ وَزَيْنٍ؛ عن زَيْنٍ بِإِحْسَانٍ وَشَيْنٍ بعصيان؛ لَأَنَّ لِلرَّبُوبِيَةِ سَطْعَاتٍ عِزُّ تَقْهَرُ كُلَّ شَيْءٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

وعلى علمٍ مني بك اصطفتك، وَجَرَّدْتُكَ ونقيتك عن دَنَسِ الأوهام وكلِّ ما يَكْدُرُ صَفْوَك.

ويقال بعدما اخترتك فأنت لي وبي، وأنت محو في فنائك عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾.

تَقَدَّسْتُ عن الأعلام في أزلي، وتنزهت (...)(١) والأشكال باستحقاقي لجلالي وجمالي.

ويقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾: الأغيار في وجودي فَقَدْ، والرسوم والأطلال عند ثبوت حَقِّي محو.

قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾: أي تَذَلَّلْ لِحُكْمِي، وَأَنْفِذْ أَمْرِي، وَاخْضَعْ لِجَبْرَوْتِ سُلْطَانِي.
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

إقامتها من غير ملاحظة مُجَرِّبِهَا وَمُنْشِئِهَا يُورِثُ الإِعْجَابَ. وإذا أقام العبدُ صَلَاتَهُ على نعت الشهود والتحقق بأن مجربها غيره كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب المواصلَة، والوقوف على محل النجوى، والتحقق بخصائص القرب والزلفة.
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ﴾.

الفائدة في تعريف العباد بِقُرْبِ السَّاعَةِ أَنْ يَسْتَفِيقُوا مِنْ غَفَلَاتِ التَّفَرُّقَةِ، فإِذَا حضروا بقلوبهم - ففي حال استدامة الذكر - فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في العاجل؛ والحاضرة لهم كالآخرة. وكذلك جعلوا من أمارات الاستقامة شهود الوقت قيامه.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.
إذا أكرمه اللهُ بِحُسْنِ التَّنْبِيهِ، وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماء صفاته إلى جحيم أهل الغفلة في تطوُّحهم في أودية التفرقة.
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّىٰ﴾.

كَرَّرَ عليه السؤال في غير آية من عصاه لما كان المعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم المعجزة.

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِبَتْهُ هَيْئَةُ الْمَقَامِ عِنْدَ فَجْأَةِ سَمَاعِ الْخَطَابِ؛ فَلْيَسْكُنْ بعض ما به من بَوَادِهِ^(١) الإجلال... رَدَّهُ إِلَى سَمَاعِ حَدِيثِ الْعَصَا، وَأَرَاهُ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ.

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الْهَيْبَةِ لَعَلَّهُ كَانَ لَا يَعْي ولا يطيق ذلك... فقال له: وما تلك بيمينك يا موسى؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَاصِبُ أُخْرَىٰ﴾.
قال هي عصاي، وأخذ يُعَدِّد ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له:
﴿قَالَ أَلَيْهَا يَمْوَسَّىٰ﴾.

فإنَّكَ بنعت التوحيد، واقفٌ على بساط التفريد، ومتى يصحُّ ذلك، ومتى يَسْلَمَ لك أن يكون لك معتمدٌ تتوكأ عليه، ومستند عليه تستعين، وبه تنتفع؟

(١) البواده: ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما بموجب فرح أو بموجب ترح. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

ثم قال: ﴿وَلِي فِيهَا مَثَارِيبٌ أُخْرَى﴾: أَوَّلُ قَدَمٍ فِي الطَّرِيقِ تَرَكُ كُلَّ سَبَبٍ، وَالتَّنْقِي عَنْ كُلِّ طَلَبٍ؛ فَكَيْفَ كَانَ يَسْلُمُ لَهُ أَنْ يَقُولَ: أَفْعَلُ بِهَا، وَأَمْتَنُ، وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى.

ويقال ما ازداد موسى - عليه السلام - تفصيلاً في انتفاعه بعصاه إلا كان أقوى وأولى بأن يؤمن بإلقائها، والتنقي عن الانتفاع بها على موجب التفرد لله.

ويقال التوحيد التجريد، وعلامة صحته سقوط الإضافات^(١) بأشهرها؛ فلا جرم لما ذكر موسى - عليه السلام - ذلك أَمَرَ بِإِلْقَائِهَا فَجَعَلَهَا اللَّهُ حَيَّةً تَسْعَى، وَوَلَّى مُوسَى هَارِباً وَلَمْ يُعَقِّبْ. وَقِيلَ لَهُ يَا مُوسَى هَذِهِ صِفَةُ الْعَلَاقَةِ؛ إِذَا كُوشِفَ صَاحِبُهَا بِسِرِّهَا يَهْرَبُ مِنْهَا.

ويقال لما باسطه الحقُّ بسماع كلامه أخذته أريحية سماع الخطاب، فأجاب عما يُسْأَلُ وَعَمَّا لَمْ يُسْأَلْ فَقَالَ: ﴿وَلِي فِيهَا مَثَارِيبٌ أُخْرَى﴾، وَذَكَرَ وَجُوهًا مِنَ الْإِنْتِفَاعِ؛ مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ تَوَسَّنِي فِي حَالٍ وَحَدَّثَنِي، وَتَضَيُّءٌ لِي اللَّيْلَ إِذَا أَظْلَمَ، وَتَحْمِلُنِي إِذْ عَيِيتُ فِي الطَّرِيقِ فَأَرْكُبُهَا، وَأَهْشُ بِهِ عَلَى غَنَمِي، وَتَدْفَعُ عَنِّي عَدُوِّي. وَأَعْظَمُ مَأْرَبٍ لِي فِيهَا أُنْكَ قُلْتَ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ؟﴾ وَأَيُّ نِعْمَةٍ أَوْ مَأْرَبٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ تَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ لِي: وَمَا تِلْكَ؟ وَيَقَالَ قَالَ الْحَقُّ - بَعْدَ مَا عَدَّدَ مُوسَى وَجُوهَ الْآيَاتِ وَصَنُوفَ إِنْتِفَاعِهَا - وَلَكَ يَا مُوسَى فِيهَا أَشْيَاءٌ أُخْرَى أَنْتَ غَافِلٌ عَنْهَا وَهِيَ انْقِلَابُهَا حَيَّةً، وَفِي ذَلِكَ لَكَ مَعْجَزَةٌ وَبِرْهَانٌ صِدْقِي.

ويقال جميع ما عَدَّدَ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الْعَصَا كَانَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ... فَكَيْفَ لَهُ أَنْ يَنْسِبَهَا وَيُضِيفَهَا إِلَى نَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالُوا:

يَا جِنَّةَ الْخُلْدِ، وَالْهَدَايَا إِذَا تُهْدَى إِلَيْكَ فَمَا مِنْكَ يُهْدَى

ويقال قال موسى لها رَأَاهَا حَيَّةً تَهْتَزُّ: لَقَدْ عَلِمْتُ كُلَّ وَصْفٍ بِهَذِهِ الْعَصَا، أَمَّا هَذِهِ الْوَاحِدَةُ فَلَمْ أَعْرِفْهَا.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَتَمُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

لَا عِبْرَةَ بِمَا يُوْهِمُ ظَاهِرُ الْأَشْيَاءِ؛ فَقَدْ يُوْهِمُ الظَّاهِرُ شَيْئاً ثُمَّ يَبْدُو خِلَافُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ فَعَصَا مُوسَى صَارَتْ حَيَّةً.

(١) قَالَ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ: التَّوْحِيدُ إِسْقَاطُ الْبَيِّنَاتِ، فَلَا تَقْلُ: لِي وَبِي وَمَنِي وَالْي. (الرَّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٣٠٢).

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آية ومعجزة لا بلاء وفتنة.

قوله: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ...﴾ أشهد - بانقلاب العصا من حال إلى حال؛ مرة عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرة أخرى - أنه يُثَبِّتُ عِبَادَهُ فِي حَالِ التَّلْوِينِ^(١) مرةً ومرةً؛ فَمِنْ أَخَذٍ وَمِنْ رَدٍّ، ومن جَمْعٍ ومن فَرْقٍ الخ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَجَ بِضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءِ آيَةٍ أُخْرَى لِتُذَكِّرَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

كما أراه آية من خارج أراه آية من نفسه، وهي قلبُ يده بيضاء؛ إذ جعلها في جيبه من غير البرص^(٢). قال تعالى: ﴿سَرَّيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وإنما قال: أَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ولم يقل كُمُكَ لأنه لم يكن لِمَا عليه من اللباس كُمَان.

قوله: ﴿لِتُذَكِّرَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾: الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من الشهود والوجود، وما لا يكون بتكليف العبد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها صاحبها ذوقاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

بعدما أسمع كلامه من غير واسطة، وشرف مقامه، وأجزل إكرامه أمره بالذهاب ليدعو فرعون إلى الله - مع علمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يعرف - فشقّ على موسى ذهابه إلى فرعون، وسماعُ جحده منه، بعدما سمع من الله كلامه سبحانه، ولكنه أثر أمر محتته على مراد نفسه.

ويقال لَمَّا أَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ سَأَلَ اللَّهَ أَهْبَةَ الثَّقَلِ وَمَا بِهِ يَتِمُّ تَبْلِيغُ مَا حَمَلَ مِنَ الرِّسَالَةِ، ومن ذلك قوله:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

لِيُعْلَمَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّنَ مِنْ أَدَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

ويقال إن موسى لما أخذ في المخاطبة مع الله كاد لا يسكت من كثرة ما سأل فظل يدعو: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي...﴾ وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة.

(١) التلوين: صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل ويحصل في مربع، فإذا وصل تمكّن. (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

(٢) البرص: بياض يظهر في الجسد لعله.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: حتى أُطِيقَ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَ غَيْرِكَ بعدما سَمِعْتُ مِنْكَ. ﴿وَأَخْلَدْتُ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾: حتى ينطلق بمخاطبة غيرك، وَقَوْنِي حتى أُرَدُّ مَا أُرَدُّ... بِكَ لَا بِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أُنْزَى﴾.

سَأَلَ أَنْ يَضْحَبَ أَخَاهُ مَعَهُ، وَلَمَّا ذَهَبَ لَسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ حِينَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٣] كَانَ بِمُفْرَدِهِ، لِأَنَّ الذَّهَابَ إِلَى الْخَلْقِ يُوَجِبُ الْوَحْشَةَ؛ فَطَلَّبَ مِنْ أَخِيهِ الصَّحْبَةَ لِيُخَفِّفَ عَلَيْهِ كَلْفَةَ الْمَشَقَّةِ.

وَيَقَالُ إِنْ الْمَحَبَّةَ تَوَجَّبُ التَّجَرُّدَ وَالْإِنْفِرَادَ وَالْأَيُّ يَكُونُ لِلْغَيْرِ مَعَ الْمَحَبِّ مَسَاغٌ؛ فَفِي ذَهَابِهِ إِلَى فِرْعَوْنَ اسْتَصْحَبَ أَخَاهُ، وَلَمَّا كَانَ الذَّهَابُ إِلَى الْمِيقَاتِ لَمْ يَكُنْ لِلْغَيْرِ سَبِيلٌ إِلَى صَحْبَتِهِ، إِذْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَهَابِهِ أَنْ يَكُونَ مَخْصُوصًا بِحَالِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿كَيْ تُسَبِّحَ كَثِيرًا وَتَذْكُرَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾^(١).

بَيَّنَّ أَنْ طَلَبَهُ مُشَارَكَةَ أَخِيهِ لَهُ بِحَقِّ رَبِّهِ لَا بِحِطِّ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَيْ تُسَبِّحَ كَثِيرًا وَتَذْكُرَ كَثِيرًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾.

أَعْطَيْنَاكَ مَا سَأَلْتَ، وَتَنَاسَيْتَ ابْتِدَاءَ حَالِكَ حِينَ حَفِظْنَاكَ فِي الْيَمِّ^(٢) وَنَجَّيْنَا أُمَّكَ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ، وَرَبَّيْنَاكَ فِي جَنْبِ الْعَدُوِّ... فَأَيْنَ - حِينَذَاكَ - كَانَ سُؤْلُكَ وَاخْتِيَارُكَ وَدَعَاؤُكَ؟

وَأَبْتَنَّا فِي قَلْبِ امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ شَفَقَتَكَ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ الْمَحَبَّةَ حَتَّى أَحْبَبَكَ عَدُوُّكَ، وَرَبَّاكَ حَتَّى قَتَلَ بِسَبَبِكَ مَا لَا يُخْصَى مِنَ الْوُلْدَانِ، وَالَّذِي بَدَأَكَ بِهَذِهِ الْمِنَّةِ هُوَ الَّذِي آتَاكَ سُؤْلَكَ، وَحَقَّقَ لَكَ مَأْمُولَكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يُوْحَىٰ أَنْ أَقْرِضْهُ فِي الْغَابُوتِ فَأَقْرِضْهُ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْغِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُمْ﴾^(٣).

كَانَ ذَلِكَ وَحْيَ الْإِلَهَامِ؛ أَلْقَى اللَّهُ فِي قَلْبِهَا أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتِ، وَتُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ يَعْنِي نَهْرَ النِّيلِ، فَفَعَلْتُ، فَأَلْقَاهُ النَّهْرَ عَلَى السَّاحِلِ، فَحُمِلَ إِلَى فِرْعَوْنَ. فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِ بَاشَرَ حُبَّهُ قَلْبَهَا، وَكَذَلِكَ وَقَعَتْ مَحَبَّتُهُ فِي قَلْبِ فِرْعَوْنَ، وَلَكِنَّهَا

(١) الآية (٣٢) لم ترد.

(٢) اليم: البحر ذو الماء المالح، أو النهر الكبير ذو الماء العذب.

(٣) الآية (٣٧) لم ترد.

كانت أضعف قلباً، فسبقت بقولها: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ...﴾ [القصص: ٩]، ولولا أنها عَلِمَتْ أنه أخذ شعبةً من قلبِ فرعون ما أخذ من قلبها لم تَقُلْ: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

قوله: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ﴾: رباه في جِجَر العدو وكان قد قَتَلَ بسببه ألوفاً من الولدان... ولكنْ مِنْ مَأْمِنِهِ يُؤْتَى الْحَذِرُ! وبلاء كلِّ أحدٍ كان بَعْدَهُ إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تَقَدَّمَ عليه بسنين؛ ففي اليوم الذي أخذ موسى في جِجَره كان قد أمر بقتل كثير من الولدان، ثم إنه رباه ليكون إهلاك مَلِكِهِ على يده... لِيُعْلَمَ أَنَّ أَسْرَارَ الأقدار لا يعلمها إلا الجبار.

ويقال كان فرعون يُسَمَّى والدَ موسى وأباه - ولم يكن. وكان يقال لَأُمِّ موسى ظئر^(١) موسى - ولم تكن؛ فَمِنْ حَيْثُ الدَعْوَى بالأبوة لم يكن لها تحقيق، ومن حيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة... هكذا الحديث والقصة.

ولقد جاء في القصة أَنَّ موسى لَمَّا وُضِعَ فِي جِجَرِ فرعون لَطَمَ وجهه فقال: إِنَّ هذا من أولاد الأعداء فيجب أَنْ يُقْتَلَ، فقالت امرأته: إنه صبي لا تميِّزُ له، ويشهد لهذا أنه لا يُمَيِّزُ بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء، وأرادت أَنْ يَصْدُقَ زوجها قائلتها، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر، فأراد موسى عليه السلام أَنْ يمدَّ يَدَهُ إِلَى الجواهر فأخذ جبريلُ عليه السلام بيده وصَرَفَهَا إِلَى النار فَأَخَذَ جَمْرَةً بيده، وقَرَّبَهَا مِنْ فِيهِ فَاحْتَرَقَ لِسَانُهُ - ويقال إِنَّ العَقْدَةَ التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق - فعند ذلك قالت امرأة فرعون: ها قد تبَيَّنَ أَنَّ هذا لا تميِّزُ له؛ فقد أخذ الجمرة إِلَى فِيهِ. وتخلَّص موسى بهذا مما حصل منه من لَطَمِ فرعون.

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يحترق مِنْ أَخَذِ الجمرة وهو صبي رضيع، ثم احترق لسانه، فعلم الكلُّ أَنَّ هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فعَّال لما يريد.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَالْقَبِيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي﴾.

أي أحببتك. ويقال في لفظ الناس: فلانُ ألقى محبته على فلان أي أَحَبَّهُ. ويقال: ﴿الْقَبِيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي﴾: أي طَرَحْتُ في قلوب الناس حَبَّةً لك، فالحقُّ إذا أَحَبَّ عبداً فكلُّ مَنْ شاهده أَحَبَّهُ. ويقال لملاحه في عينيه؛ فكان لا يراه أحدٌ إلا أَحَبَّهُ.

(١) الظئر: العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل، الذكر والأنثى في ذلك سواء. والجمع أظور وأظار وظوور، وظوَّار. (اللسان ٥١٤/٤ مادة: ظار).

ويقال: ﴿الْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾: أي أثبت في قلبك محبتي؛ فإن محبة العبد لله لا تكون إلا بإثبات الحق - سبحانه - ذلك في قلبه، وفي معناه أنشدوا:

إنَّ المَحَبَّةَ أَمْرُهَا عَجَبٌ تُلْقَى عَلَيْكَ وَمَا لَهَا سَبَبٌ
قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنَيْ﴾.

أي بمرأى مني، ويقال لا أمكن غيري بأن يستبعدك عني.
ويقال أحفظك من كل غير، ومن كل حديث سوى حديثنا. ويقال ما وكلنا جفّظك إلى أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ تَتَذَكَّرُ أَنَّكَ فَتَقُولُ هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾.

البلاء على حسب قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف. وكانت أم موسى ضعيفة فردّ إليها ولدها بعد أيام، وكان يعقوب أقوى في حاله فلم يُعَدَّ إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَئْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ﴾.

أجرى الله عليه ما هو في صورة كبيرة من قتل النفس بغير حق، ثم بين الله أنه لا يضره ذلك، فليست العبرة فعل العبد في قلته وكثرته إنما العبرة بعناية الحق بشأن أحد أو عداوته.

ويقال قد لا يموت كثير من الخلق بفنون من العذاب، وكم من أناس لا يموتون وقد ضربوا ألوفاً من السياط^(١)! وصاحب موسى عليه السلام ومقتولُه مات بوكزة^(٢)! إيش الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنة لموسى؟ وفي بعض الكتب أنه - سبحانه - أقام موسى كذا وكذا مقاماً، وأسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر، وفي كل مرة كان يقول له: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا﴾.

﴿فَجَئْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ﴾: أريناك عين الجمع حتى زال عنك ما داخلَكَ من الغم بصفة مقتضى التفرقة، فلما أريناك سير جريان التقدير نجّيناكَ من الغم.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَفَنَّكَ فُتُونًا﴾.

استخلصناكَ لنا حتى لا تكون لغيرنا. ويقال جئناكَ عليك البلاء ونوعناه حتى جرّدناكَ عن كل اختيار وإرادة، ثم حينئذٍ رَفَيْنَاكَ إلى ما استوجبتَه من العلم الذي أَهْلْنَاكَ له.

(١) السياط: (ج) السوط: الذي يُجلد به. (اللسان ٣٢٦/٧ مادة: سوط).

(٢) الوكز: الطعن. وذكره أيضاً: طعنه بجمع كفه. (اللسان ٤٣٠/٥ مادة: وكز).

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيَنْتَ سَيْنِينَ فِي أَهْلِ مَدِينٍ﴾.

وكننت عند الناس أنك أجير لشعيب، ولم يظهر لهم ما أودعنا فيك، وكان يكفي - عندهم - أن تكون خنتاً^(١) لشعيب.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُومِينَ﴾.

أي عَدَدْنَا أَيَّامَ كونك في مدين شعيب، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شرفك ومحبتك منتظرين لك؛ فجئت على قدر.

ويقال إنَّ الأجل إذا جاء للأشياء فلا تأخير فيه ولا تقديم، وأنشدوا في قريب من هذا المعنى:

بينما خاطرُ المنى بالتلاقي سابحٌ في فؤاده وفؤادي
جمع اللهُ بيننا فالتقينا هكذا بغتةً بلا ميعادٍ

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْطَنُتُكَ لِنَفْسِي﴾.

استخلصتُك لي حتى لا تضلَّح لأحدٍ غيري، ولا يتأتَّى شيءٌ منك غير تبليغ رسالتي، وما هو مرادي منك.

ويقال أفرذتُ سِرِّكَ لي، وجعلتُ إقبالَكَ عليّ دون غيري، وحلَّتُ بينك وبين كل أحدٍ ممن هو دوني.

ويقال: ﴿وَأَسْطَنُتُكَ لِنَفْسِي﴾: قَطَعَهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ، ثم قال له: ﴿أذهب إلى فرعون﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

تعلَّل موسى عليه السلام لما أرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوه من العِللِ مثل قوله: ﴿وَيَعِيبُ صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي﴾ [القصص: ١٣]، ﴿إِنِّي قَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].. إلى غير ذلك من الوجوه، فلم ينفعه ذلك، وقال الله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فاستقل موسى عليه السلام بذلك، وقال: الآن لا أبالي بعد ما أنت معي.

قوله جل ذكره: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

إنما أمرهما بالملاينة معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوَهُ إلى الدِّين، وفي حال الدعوة يجب اللين؛ فإنه وقت المُهْلَةِ، فلا بدُّ من الإمهال ريثما ينظر؛ قال الله

(١) الختن: زوج البنت أو الأخت (الصهر). وفي الحديث: علي ختن رسول الله ﷺ أي زوج ابنته. (لسان العرب ١٣/١٣٨ مادة: ختن).

لنُبَيِّنَا لَهُ: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِأَلْقَىٰ هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]: وهو الإمهال حتى ينظروا ويستدلوا، وكذلك قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَدَيْ ثُمَّ تَنَفَّكِرُوا مَا يَصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ثم إذا ظهر من الخصم التمرد والإباء فحينئذ يُقَابَلُ بالغلظة والحتف .
ويقال علمهما خطاب الأَكْبَرِ ذوي الحشمة؛ ففرعون - وإن كان كافراً - إلا أنه كان سلطاناً وقته، والمتسلط على عباد الله .
ويقال إذا كان الأمر في مخاطبة الأعداء بالرُفُق والملاينة . . . فكيف مع المؤمن في السؤال؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال الملَكَيْنِ في القبر للمؤمن .
ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِمَنْ جَحَدَهُ فكيف رِفْقُهُ بِمَنْ وَحَدَهُ؟
ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِالْكَفَّارِ فكيف رِفْقُهُ بِالْأَبْرَارِ؟
ويقال إذا كان رِفْقُهُ بِمَنْ قَالَ: أنا . . . فكيف رِفْقُهُ بِمَنْ قَالَ: أنت؟
ويقال إنه أَحْسَنُ تَرْبِيَةً موسى عليه السلام؛ فأراد أن يرفق به اليوم في الدنيا على جهة المكافأة .
وقيل تفسير هذا ما قال في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ أَن تَزُكِّي﴾ [النازعات: ١٨].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾: أي كُونَا على رجاء أن يُؤْمِنَ . ولم يحبرهما أنه لا يؤمن لثلاث تتداخلهما فترة في تبليغ الرسالة علماً منه بأنه لا يؤمن ولا يقبل .
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ .
في الآية دليل على أَنَّ الخوف^(١) الذي تقتضيه جَبَلَةُ الإنسانِ غيرُ ملومٍ صاحبه عليه، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾ .
ثم إنه سبحانه سَكَّنَ ما بهما من الخوف بوعده النصر لهما .
ويقال لم يخافا على نَفْسَيْهِمَا شفقةً عليهما، ولكن قالوا: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَحِلَّ بِنَا مكيدةٌ من جهته، فلا يحصل فيما تأمرنا به قيامٌ بأمرِك، فكان ذلك الخوفُ لأجل حقِّ الله لا لأجل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون، ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما، ولكنهما تَأَدَّبَا في الخطاب .
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ لَا نَخَافُكَ إِنَّا نَسْمَعُ وَأَنُصِتُ﴾ .

(١) انظر حديث القشيري عن الخوف برسالته ص ١٢٤ - ١٣١ .

تَلَطَّفَ فِي اسْتِجْلَابِ هَذَا الْقَوْلِ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾
 بقولهما: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، وَكَانَ الْمَقْصُودُ لِهَمَا أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ لِهَمَا: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾
 وَإِلَّا فَأَنِّي بِالْخَوْفِ لِمَنْ هُوَ مَخْصُوصٌ بِالنُّبُوَّةِ؟!

وَيَقَالُ سَكَنَ فِيهِمَا الْخَوْفُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، فَقَوَّيَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ؛
 إِذْ مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّينَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبِهِمْ﴾.
 طَالَ الْبَلَاءُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ جِهَةِ فِرْعَوْنَ، فَتَدْرَأَكُهُمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَلَوْ بَعْدَ
 حِينٍ، بِذَلِكَ أَجْرَى سُنَّتُهُ أَنَّهُ يُرْخِي عَنَانَ الظَّالِمِ، وَلَكِنْ إِذَا أَخَذَهُ فَإِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ.
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾.

مِنْ شَرْطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّينَ بِالْبَيِّنَةِ وَالْآيَةِ لِلرَّسُولِ حَتَّى يَتَضَيَّعَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ
 فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ. ثُمَّ إِنْ تِلْكَ الْآيَةُ وَتِلْكَ الْبَيِّنَةُ مَا نَفَعْتَهُمْ، وَإِنَّا تَأَكَّدْتُ بِهِمَا
 عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؛ فَإِذَا غَمِيَ بَصَرُ الْقَلْبِ فَأَنَّى تَنْفَعُ بَصِيرَةُ الْحُجَّةِ؟ وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا:
 وَفِي نَظَرِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةً إِذَا كَانَ مَمْنُوعاً سَبِيلَ الْمَوَارِدِ
 قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾.

إِنَّمَا يَتَّبِعُ الْهُدَى مَنْ كَحَلَّ قَلْبَهُ بِنُورِ الْعُرْفَانِ، فَأَمَّا مَنْ كَانَتْ عَلَى قَلْبِهِ غَشَاوَةُ
 الْجَهْلِ... فَمَتَى يَسْتَمِعُ إِلَى الْهُدَى؟

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.
 مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَقَدْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ، وَبَشَّرَهُمُ بِالثَّوَابِ عَلَى
 حِفْظِ الْأَمْرِ. وَالْعَذَابُ مُعَجَّلٌ وَمُؤَجَّلٌ؛ فَمُؤَجَّلُهُ لَا يُوقَفُ عَلَى تَفْصِيلِهِ الْأَعْدَاءُ وَكَذَلِكَ
 مُؤَجَّلُ الثَّوَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وَأَمَّا مُعَجَّلُ الْعُقُوبَةِ فَأَنْوَاعٌ، وَعَلَى حَسَبِ مَقَامِ الْمَرْءِ تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْمُطَالِبَاتُ،
 وَالزِّيَادَةُ فِي الْعُقُوبَةِ تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ اسْتِحْقَاقِ الرَّتْبَةِ؛ كَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ فِي الْحَدِّ. وَقِسْوَةُ
 الْقَلْبِ نَوْعٌ عُقُوبَةٌ، وَمَا يَتَدَاخِلُ الطَّاعَةَ نَوْعٌ عُقُوبَةٌ، وَخَسْرَانُ نَصِيبٌ فِي الْمَالِ وَالْأَنْفُسِ
 نَوْعٌ عُقُوبَةٌ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَاهُ يَمْوَسَى قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾ عَلَى التَّثْنِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَمْوَسَى﴾ فَأَفْرَدَهُ بِالْخُطَابِ بَعْدَمَا قَالَ:
 ﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهُ؟﴾. فَيَحْتَمِلُ أَنْ ذَلِكَ لِمُشَاكَلَةِ رِوَايَةِ الْآيِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ مُوسَى كَانَ
 مُقَدِّمًا عَلَى هَارُونَ فَخَصَّهُ بِالنِّدَاءِ.

وإنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على فعله - سبحانه فقال: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى إِثْبَاتِهِ - سبحانه - مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُ .
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ .

لا يمكنني أن أخبركم إلا بما أخبرني به ربي فَمَا عَرَّفَنِي عَرَّفْتُ، وما ستره عليَّ وَفَّقْتُ .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَقًى﴾ .

جَعَلَ الْأَرْضَ مُسْتَقَرًّا لأبدانهم، وجعل أبدانهم مُسْتَقَرًّا لعبادته، وقلوبهم مُسْتَقَرًّا لمعرفة، وأرواحهم مُسْتَقَرًّا لمحبت، وأسرارهم مُسْتَقَرًّا لمشاهدته .

قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ .

هَيَّا لَهُمُ أَسْبَابَ الْمَعِيشَةِ، وَكَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ وَرَزَقَهُمْ رَزَقَ دَوَابَّهُمْ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّقَوْا بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ، وَأَنْ يَنْتَفِعُوا - مَا أَمَكْنَهُمْ - بِأَنْعَامِهِمْ لِيَكْمَلَ لَدَيْهِمْ إِنْعَامُهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿مِنَّا خَلَقْنَاهُ وَمِنَّا نُعِيدُهُ وَمِنَّا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ .

إِذْ خَلَقْنَا آدَمَ مِنَ التُّرَابِ، وَإِذْ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ صُلْبِهِ . . . فَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ أَيْضًا . وَالْأَجْسَادُ قَوَالِبُ وَالْأَرْوَاحُ وَدَائِعُ، وَالْقَوَالِبُ نَسَبُهَا التُّرْبَةُ، وَالْوَدَائِعُ صِفَتُهَا الْقُرْبَةُ، فَالْقَوَالِبُ يَزِينُهَا بِأَفْضَالِهَا، وَالْوَدَائِعُ يَحْيِيهَا بِكُشْفِ جَلَالِهَا وَلُطْفِ جَمَالِهَا . وَلِلْقَوَالِبِ الْيَوْمَ اعْتِكَافٌ عَلَى بَسَاطِ عِبَادَتِهِ، وَلِلْوَدَائِعِ اتِّصَافٌ بِدَوَامِ مَعْرِفَتِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ .

أَمَرَهُ بِجَهْرِهِ، وَأَعْمَاهُ عَنْ شُهُودِ ذَلِكَ بِسِرِّهِ، فَمَا تَجَعَّ فِيهِ كَلَامُهُ، وَمَا انْتَفَعَ بِمَا حَذَّرَهُ مِنْ انْتِقَامِهِ، وَبَسَّرَ لَهُ مِنْ إِنْعَامِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسَعْرِكَ يَمْوَسَّى فَلَنُلَاقِيَنَّكَ بِسَعْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ مَنًّا وَلَا أَنْتَ مَكَاثُ سُوَّى﴾ .

دَعَاهُمْ مُوسَى إِلَى اللَّهِ، وَخَاطَبَهُمْ فِي حَدِيثِ الْآخِرَةِ مِنْ تَبْشِيرٍ بِثَوَابٍ، وَإِنْذَارٍ بِعَذَابٍ، فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدُّنْيَا، وَمَا زَادَهُمْ تَذْكِيرًا إِلَّا أَزْدَادُوا غَفْلَةً وَجَهَالَةً .

كَذَلِكَ صِفَةُ مَنْ وَسَّمَهُ الْحَقُّ بِالْإِبْعَادِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ عِرْفَانٌ، وَلَا بِمَا يُقَالُ إِيْمَانٌ، وَلَا يَتَأَسَّفُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ، وَلَا تَصْدِيقٌ لَهُ بِحَقِيقَةِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ .

قوله: ﴿فَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ...﴾ تَأَهَّبُوا لِمُنَاصَبَةِ الْحَقِيقَةِ؛ وَتَشَمَّرُوا لِلْمُخَالَفَةِ، فَقَصَمْتُهُمُ الْمَشِئَةَ؛ وَكَبَسْتُهُمُ الْقُدْرَةَ، وَكَمَا قِيلَ:

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

فكان في ذلك اليوم افتضاحهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَوْلَىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَنَّى﴾.

كَاذَ فِرْعَوْنَ فَكَيْدَ لَهُ، وَأَرَادَ فَارْتَدُّ إِلَيْهِ، وَدَعَا لِلْإِسْتِعْدَادِ فَأَذِلَّ وَأَذِيقَ الْبَاسَ. وَلَمْ يَدْغْ مُوسَى شَيْئًا مِنَ الْوَعْظِ وَالرَّفْقِ، وَلَمْ يَغَادِرْ فِرْعَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْبَلَاءِ وَالْحُمَقِ، وَلَكِنْ: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَرَبُّكُمْ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾.

اعلموا أنه لا طاقة لأحد مع الله - سبحانه - إذا عذبه، فحملوا مقالته على الإفك، وَرَمَوْا معجزته بالسحر فقالوا: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ النَّثْلِ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعْلَى﴾.

هما في دعواهما كاذبان يَقْصِدَانِ إِلَى إِخْرَاجِكُمْ مِنْ بَلَدِكُمْ، وَالتَّشْوِيشِ عَلَيْكُمْ فِي مُعْتَقِدِكُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

أظهروا من أنفسهم التجلّد ظنًّا بِأَنَّ النِّصْرَةَ لَهُمْ، وَإِخْلَادًا إِلَى مَا كَانَ السَّحَرَةُ يُسَوِّلُونَ لَهُمْ، فَخَبَّرُوا مُوسَى فِي الْإِبْتِدَاءِ بِنَاءً عَلَى مَا تَوَهَّمُوا مِنَ الْإِلْقَاءِ، فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِئْتُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِحِيلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَىٰ فَاَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَآلِيُّ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَىٰ قَالَ لَقِيَ السَّحَرَةُ سُبْحًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَآبَقَى﴾.

قال لهم موسى بل ألقوا أنتم، وليس ذلك إذناً لهم في السحر، ولكن أراد الحق إظهار تمويههم، فلما خيلوا للناس بإلقاء الجبال أنها حيات ابتلعت عصا موسى جُمْلَةً مَا صَنَعُوا، وَتَحَقَّقَ السَّحَرَةُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ سَمَآوِيٌّ حَيْثُ تَلَاشَى عَيْنَ مَا كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَوْقَارِ الْجِبَالِ، وَصَارَ الشُّعْبَانُ عَصَاً كَمَا كَانَ، فَسَجَدُوا لِلَّهِ مُؤْمِنِينَ، وَانْقَلَبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ خَائِبِينَ، وَتَوَعَّدَهُم بِالْقَتْلِ وَالصَّلْبِ، وَفَنَوْنِ مِنَ الْعَذَابِ الصَّعْبِ، وَبَعْدَمَا كَانُوا يَفْسِمُونَ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ صَارُوا يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أي بالله الذي فطرنا إنا لن نُؤْثِرَكَ على ما جاءنا من الآيات. ولما طلعت في أسرارهم شمسُ العرفان، وانبسطن عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم؛ فنطقوا ببيان التصديق، وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم، ولم يحتشموا مما توعدهم به من العقوبة، ورأوا ذلك من الله فاستعذبوا البلاء، وتحملوا اللأواء^(١)، فكانوا في الغداة كفاراً سحرة، وأمسوا خياراً بررة.

قوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ...﴾ عِلِّمُوا أَنَّ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا يَنْقُضِي - وإن تمادى، وينتهي وإن تنهى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِيَّةٌ﴾.

أهم الأشياء - على مَنْ عَرَفَهُ - مغفرته لخطاياهم؛ فهذا آدم - عليه السلام - لما استكشف من حاله، وحلَّ به ما حلَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦] وقال لنبينا - ﷺ - ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]. وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٢). وَمَنْ عليه بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٣) [الفتح: ٢٠٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ فُتْنَهُمْ فَرَعُونُ بِجُنُودِهِمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَهُمْ وَاضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾.

لما عَبَّرَ موسى ببني إسرائيل البحر، وقرب منه فرعون، ورأى البحر منفلقاً والطريق فيه يَبَساً غَيْرَ قَوْمِهِ بتليسه فقال: «إنه بحشمتي انفلق، فأنا ربكم الأعلى!» وحصل - كما في القصة - من دخوله بعسكره البحر حتى دخل آخرهم، وهم أن

(١) اللأواء: المشقة والشدة والقحط والعدة. (اللسان: ٢٣٨/١٥).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢١١/٤، ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥٢/٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/٢٨٠)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٧/٥، ٨/٢٩٩، ٥١٧، ٥٩/٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣/٢)، والبغوي في (شرح السنة ٦/١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦٣/٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

(٣) الآيات من ٧٤ حتى ٧٦ لم ترد.

يخرج أولهم، فأمر الله البحر حتى التطمت أمواجه فغرقوا بجملتهم، وآمن فرعون لما ظهر له اليأس، ولم ينفعه إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره، وقد أدركته الشقاوة التي سبقت له من التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ فَدَٰءِبْحِنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾.

يذكرهم آلاءه، ويعدُّ عليهم نعماءه، ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لما أسبغ عليهم من فنون النعم، ثم يذكرهم ما منَّ به على أسلافهم من إنزال المن والسلوى، وضروب المَحَن وفنون البلوى.

قوله جل ذكره: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾.

الطيب ما كان حلالاً. ويقال الطيب من الرزق ما لا يغصبي الله مكتسبه. ويقال الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق. ويقال الطيب من الرزق ما حصل منه الشكر. ويقال الطيب من الرزق ما يأخذه العبد من الله؛ فما لأهل الجنة مؤجل في عقابهم جهراً، معجل لأصفيائه في دنياهم سراً، قال تعالى: ﴿إِنِّي زَكَّيْتُهُمْ وَلَكِن لَّيْسَ لَهُمْ شَاكْرٌ﴾ [الذاريات: ١٦].

والأرزاق مختلفة؛ فلا أقوام حظوظ النفوس ولآخرين حقوق القلوب، ولا أقوام شهود الأسرار؛ فزرقت النفوس التوفيق، ورزقت القلوب التصديق، ورزقت الأرواح التحقيق.

قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾: بمجاوزة الحلال إلى الحرام.

ويقال: ﴿لا تطغوا فيه﴾: بالزيادة على الكفاف^(١) وما لا بُدَّ منه مما زاد على سدِّ الرمق.

ويقال: ﴿لا تطغوا فيه﴾: بالأكل على الغفلة والنسيان.

قوله جل ذكره: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكَ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾.

فيحل عليكم غضبي بالخذلان لمتابعة الزلة بعد الزلة.

ويقال فيحل عليكم غضبي لفقدكم التأسف على ما فاتكم.

ويقال بالرضا بما أنتم فيه من نقصان الحال.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

الغفار كثير المغفرة؛ فمَن تَابَ التوبة عن زلة واحدة ومنه المغفرة لذنوب كثيرة،

(١) الكفاف: من القوت: الذي على قدر نفقه لا فضل فيها ولا نقص. (اللسان ٣٠٦/٩).

ومنه السُّرْيَةُ التي لا اطلاع لأحد غيره عليها وما للملائكة عليها اطلاع . وهو يغفر لِمَنْ عَمِلَ مثل عَمَلِكَ ، وهو يغفر لِمَنْ قَلْبُكَ مُرِيدٌ له بالخير والنعمة ، وكما قالوا :

إني - على جَفَوَاتِهَا - فَبَرَّيْهَا وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلُ
وأَحْبَبُها وأَحَبُّ مَنْزِلِها الذي نَزَلْتُ به وأَحَبُّ أَهْلِ الْمَنْزِلِ

قوله : ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ﴾ : فلا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ مُؤْمِنًا .

وقوله هنا : ﴿وَءَامَنَ﴾ : أي آمَنَ في المَالِ كما هو مؤمِنٌ في الحال .

ويقال آمَنَ بأنه ليست نجاته بتوبته وبإيمانه وطاعته ، إنما نجاته برحمته .

ويقال ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾ : مِنْ الزَّلَّةِ ﴿وَءَامَنَ﴾ : فلم يَزِ أَعْمَالُهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَآمَنَ بِأَنْ جَمِيعَ الْحَوَادِثِ مِنَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - ﴿وَكَمَلُ صَلَاحًا﴾ : فلم يُخَلِّ بالفرائض ثم اهتدى للسُّبَّةِ والجماعة .

ويقال ﴿ثُمَّ﴾ : للتراخي ؛ أي آمَنَ في الحال «ثم» اهتدى في المَالِ .

ويقال مَنْ سَمِعَ مِنْهُ ﴿وَإِنِّي﴾ لا يقول بعد ذلك : «إني» .

ويقال مَنْ شَعَلَهُ سَمَاعُ قَوْلِهِ : ﴿وَإِنِّي﴾ اسْتَهْلَكَ فِي اسْتِيلَاءٍ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيَاءِ الْقُرْبَةِ ، فَإِذَا جَاءَتْ ﴿لَفَقَّارٌ﴾ صَارَ فِيهِ بَعِينُ الْمَحْوِ ، وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِذُنُوبِ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَكُلِّ مَنْ يَعْنِي بِشَأْنِهِ .

ويقال ﴿إني لغفار﴾ كثير المغفرة لِمَنْ تَابَ مرةً ؛ فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لَمْ يَثْبُثْ مِنْهَا سِرُّهَا وَجَهْرُهَا ، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ مِنْهَا وَمَا لَا يَتَذَكَّرُ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ : عَلِمْتُ «عملاً صالحاً» : بل يلاحظُ عَمَلَهُ بَعِينِ الاستصغارِ ، وحالته بغير الاستقرار .

وقوله : ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ : أي اهتدى إلينا بنا .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ .

أَخْرَجَهُمْ مَعَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَصْحَبَهُمْ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ بِهُمْ بِخَطَوَاتِ فَتَاخَرُوا عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ مِرَاعَاةَ لِحَقِّ صَحْبَتِهِمْ .

ويقال قَوْمٌ يُعَاتِبُونَ لِأَخْرَجَهُمْ وَآخِرُونَ لِتَقَدَّمَ بِهِمْ . . فشتان ما هما !

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ .

أي عَجِلْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا إِلَيْكَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ هَذَا الْخَطَابَ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اسْتَطَقَهُ لَمَّا أَخْبَرَ بِهِ وَمُوسَى .

قوله : ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ أي مَا خَلَفْتُهُمْ لِتَضْيِيعِي أَيَّامِي ، وَلَكِنِّي عَجِلْتُ إِلَيْكَ

لترضى. قال: يا موسى إن رضائي في أن تكون معهم وألا تسبقهم، فكونك مع الضعفاء الذين استصحبتهم - في معاني حصول رضائي - أبلغ من تقدمك عليهم.
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾.

فَتَنَّا قَوْمَكَ فَضَلُّوا وَعَبَدُوا الْعِجْلَ؛ فأخبر الحق - سبحانه - أن ذلك منه تقدير، وفي هذا تكذيب لمن جحد القول بالقدر.

ويقال طلب موسى - عليه السلام - رضا الحق، وقدر الحق - سبحانه - فتنة قومه فقال: ﴿إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾، ثم الحكم لله، ولم يكن بُد لموسى عليه السلام من الرضاء بقضاء الله - فلا اعتراض على الله - ومن العلم بحق الله في أن يفعل ما يشاء، وأنشدوا:

أريد وصّاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما أريد
قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْلَحُ السَّامِرِيُّ﴾.

بدعائه إياهم إلى عبادة العجل، وهو نوع من التعزير، وحصل ما حصل، وظهر ما ظهر من (...) (١).

قوله جل ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾.

ورجع نبينا - ﷺ - من المعراج بنعت البسط، وجاء بالنجوى لأصحابه فيما أوجب الله عليهم من الصلاة، وأكرمهم به من القربة بالزلفة.. فشتان ما هما!

ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف، وخاطبهم ببيان العتاب:

﴿قَالَ يَفْقِرَ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي﴾.

ظنوا بنبيهم ظن السوء في خلفه الوعد، فلحقهم شؤم ذلك حتى زاغوا عن العهد، وأشركوا في العقد.. وكذلك يكون الأمر إذا لم يف المرء بعقده، فإنه ينخرط في هذا السلك.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْرِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَّبْتَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

قالوا لم نكن في ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منّا، ولا عالمين بما آلت إليه عاقبة حالنا، وإن الذي حملنا من حلي القبط صاغ السامري منه العجل.. وكذلك الحرام من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم أثره. فلقد كانت الغنيمة وأموال المشركين

حراماً عليهم، فاستعاروا الحلي من القبط، وآل إليهم ما كان في أيديهم من الملك، فكان سبب عبادتهم العجل.. كذلك مَنْ انهمك في طلب الدنيا من غير وجهٍ حلالٍ يكون على خطرٍ من رِقَّةٍ دينه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [البجائية: ٢٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهٗ مُوسَى فَقَسَى أَفَلَا يَرْوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْاً وَلَا نَقْعاً﴾.

يقال إنهم لمّا مروا على قوم يعبدون أصناماً لهم قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وكان ذلك الصنم على صورة العجل فكان مِثْلَهُمْ إلى عبادته مُسْتَكْبِئاً في قلوبهم، فصاغ السامريُّ العجل على تلك الصورة. وفي هذه إشارة إلى أن خفايا الهوى إذا استكثرت في القلب فما لم يُنْقَشْ ذلك الشرك بمنقاش المنازلة يُخْشَى أَنْ يَلْقَى صاحبه (...)(١).

ويقال إن موسى - عليه السلام - خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضِيَ قومه بعبادة العجل، ونبينا - عليه السلام - خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذَكَرَ واحدٌ عند مَنْ أخلص من أمته في التوحيد حديثاً في التشبيه لعدوا ذلك منه كبيرة ليس له منها مَخْلَصٌ.

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدّلوه تبديلاً، بينما ضَمَنَ الحقّ - سبحانه - إعزازَ هذا الكتاب بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿لِيُظْهِرُوا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله: ﴿أَفَلَا يَرْوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً...﴾ بَيِّنُ أَنَّ مَنْ لا قول له لا يتكلم، ومن لا يملك الضر والنفع لا يستحق العباداة، وفيه ردٌّ على مَنْ لم يُثَبِّثْ له في الأزل القول، ولم يَصِفْه بالقُدرة على الخير والشر:

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلة؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الحقّ.. كيف يُطْمَعُ فيه أن يحترم الشيوخ وأكل الناس؟ لهذا قيل: لا حُرْمَةَ لفاسق؛ لأنه إذا تَرَكَ حقَّ الحقِّ فمتى يحفظ حقَّ الخلق؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

كان ذلك تَعَلُّلاً مِنْهُمْ بِالْبَاطِلِ ، فقالوا إِنَّهُمْ كانوا عازمين على تَرْكِ عِبَادَةِ الْعَجَل ؛
إِذْ بِهِ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ . . . وَلَكِنْ
كُلُّ مُتَعَلِّلٍ يَسْتَنِدُّ إِلَى مَا يَحْتَجُّ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَهُودُ مَا مَنَّكَ إِذْ دَلَيْنَهُمْ صُلُوحًا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ .

ضاق قلبُ موسى - عليه السلام - لما شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل .
ولقد كان سمع من الله أَنَّ السَّامِرِيَّ أَظْلَهُمْ حِينَ قَالَ : ﴿إِنَّا قَدْ فِتْنَا قَوْمَكَ﴾ [طه :
١٨٥] ، ولكن قديماً قيل : ليس الخبر كالعيان ، فلما عاينَ ذلك ضاق قلبه ، فكان يقول
لأخيه ذلك فظهر منه ما ظهر ، وقيل : مَنْ ضاق قلبه اتسع لسانه . ولما ظهر لموسى -
عليه السلام - ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق واللطف وحسن المداراة . . . وكذلك
الواجب في الصحبة لئلا يرتقي الأمر إلى الوحشة ، فاستلطفه في الخطاب واستعطفه
بقوله :

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ
تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ .

أَنْتَ أَمَرْتَنِي أَلَّا أَفَارِقَهُمْ . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى : في الوقت
الذي احتججت أَنْ تَمْضِيَ إِلَى فِرْعَوْنَ قُلْتَ : ﴿وَأَخِي هَكَرْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾
[القصص : ٣٤] ، وقُلْتَ : ﴿فَأَرْسَلُهُ مِنِّي﴾ [القصص : ٣٤] ، وقُلْتَ حين مضيت إلى
سماع كلام الحق : ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي . . .﴾ [الأعراف : ١٤٢] فما اكتفيت بأن لم
تستصحبني . وخَلَفْتَنِي ! وقد عَلِمْتَ أَنِّي بريء الساحة مما فعلوا فأخذت بلحيتي
وبرأسي . . . ألم ترض بما أنا فيه حتى تزيدني حَزْناً على حَزْني؟! . . . لو قال ذلك
لكان مَوْضِعُهُ ، ولكن لِحْلُمِهِ ، وَلِعِلْمِهِ - بأن ذلك كُلَّهُ حُكْمُ رَبِّهِمْ - فقد قَابَلَ كُلَّ شَيْءٍ
بِالرِّضَا .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ﴾ .

سأل موسى كُلَّ واحدٍ منهم بنوع آخر ، وإن معاتبته مع قومه ، ومطالبته لأخيه ،
وتَغْيِيرَهُ فِي نَفْسِهِ ، واستيلاء الغضب عليه - لم يغيّر التقدير ، ولم يُؤَخَّرِ المحكوم .

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ .

عَلِمْتُ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ ، فَقَبَضْتُ التُّرَابَ مِنْ مَوْضِعِ حَافِرِ
دَابَّتِهِ ، وَأَلْقَيْتُ فِي رَوْعِي أَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَجَلِ فَطَرَحْتُهَا فِي جَوْفِهِ . . . هَكَذَا زَيَّنْتُ
لِي نَفْسِي فَأَتَّبَعْتُ هَوَاهَا .

ثم كان هلاكه . . لئلا يأمنَ أحدٌ خفي مكرَ التقدير، ولا يركنَ إلى ما في الصورة من رَفَقٍ فَلَعَلَّهُ - في الحقيقة - يكون مكرًا، ولقد أنشدوا:

فَأَمِنْتُهُ فَأَتَانِي مَنْ مَأْمِنِي مَكْرًا، كَذَا مَنْ يَأْمَنُ الْأَحْبَابَا
قوله جلّ ذكره: ﴿فَكَالَ فَاذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾.

لم يخفَ على موسى - عليه السلام - تأثيرُ التقديرِ وانفراذُ الحقِّ بالإبداع، فلقد قال في خطابه مع الحق: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ولكنه لم يدع - مع ذلك - بإحلال العقوبة بالسامري والأمر في بابه بما يستوجبه؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْإِبْدَاعِ وَالْإِيجَادِ - وَإِنَّ كَانَ اللَّهُ - فالمعاقبة والمطالبة تتوجهان على الخَلْقِ في مقتضى التكليف، وإجراء الحق ما يُجْرِيهِ ليس حُجَّةً للعبد ولا عُذْرًا له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاقِبًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

كلُّ ما تَعَلَّقَ به القلبُ من دون الله يَنْسِفُهُ الحقُّ - سبحانه بمُجِبِّهِ ولهذا يُلْقَى الأصنامُ غداً في النار مع الكفار، وليس له جُزْمٌ، ولا عليها تكليف، ولا لها عِلْمٌ ولا خبر . . وإنما هي جمادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِسْمًا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أي إلهكم الذي تجب عليكم عبادته بحق أمره هو الله الذي لا إله إلا هو، وهو بوصف الجلال، والذي لا يخفى عليه شيء من المعلومات هو الله، وليس مثل الذي هو جماد لا يَعْلَمُ ولا يَقْدِرُ، ولا يحيا ولا يسمع ولا يبصر. ويمكنه أن يَسْحَقَ هذا الجماد ويحرقه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

نعرفك أحوال الأولين والآخرين لئلا يَلْتَبِسَ عليك شيء من طُرُقِهِمْ؛ فتتأدب بآدابهم وتجتمع فيكَ مُتَفَرِّقَاتُ مناقبِهِمْ . . ولكن اعلم أنَّا لم نُبَلِّغْ أحداً مَبْلَغَكَ، ولم يكن لأحدٍ مثا مالك؛ آتيناك من عندنا شرفاً وفخراً لم يشركك فيهما أحدٌ، وذكرناك ما سَلَفَ لَكَ من العهد معنا، وَجَدْنَا لَكَ بينهم تخصيصنا إياك، وكریم إقبالنا عليك.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾.

المُعْرِضُونَ عنه شركاء يحملون غداً وِزْرًا وثِقْلًا، أولئك بعُدُوا عن محلِّ الخصوصية، ولم يكن لهم خَطَرٌ في التحقيق؛ فمقوبتُهُمْ لا تزيد على آلام نفوسِهِمْ وإحراقِ أشباحِهِمْ، وأما أهل الخصوصية فلو غفلوا عنه ساعةً ونَسُوهُ لحظةً لدار - في

الحال - على رؤوسهم البلاء بحيث تتلاشى في جهنم عقوبة كل أحد (بالإضافة إلى هذه العقوبة)^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَيُخَشِّرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

قوم يوم القيامة لهم مؤجل، وهو بعد النفخ في الصور على ما ورد في الكتاب وفي الخبر المأثور.

وللآخرين قيامة مُعَجَّلَةٌ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة، وهوان حاضر وعذاب حاصل، فكما ترد على ظواهر قوم في الآخرة عقوبات، ترد على سرائر آخرين عقوبات في الحياة الحاضرة، والمعاملة مع كل أحد تخالف المعاملة مع صاحبه.

قوله: ﴿يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ مَنْ تَفَرَّغَ لِعَدِّ الْأَوْقَاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوع غير مستوف في بلائه، وأمره سهل... وَمَنْ كَانَ يُرَادُّ الْمَعْنَى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال؛ فالأحوال تخبر عنه وهو لا يسأل عن الخبر.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

كما أن في القيامة الموعودة تُغَيَّرُ الْجِبَالُ عن أحوالها فهي كالعهن المنفوش^(٢) فكذلك في القيامة الموجودة... فلا يخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً؛ فإنه يُدْخِلُ عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم، ويأخذهم عن أقرانهم... كذا سُئِلَتْه سبجانه.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْبُوءُ الدَّاعِي لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

تنقطع الأوهام، وتقف الأفهام، وتنخس العقول، وتندرس العلوم، وتتحير المعارف، ويتلاشى ما هو نعت الخلق، ويستولي سلطان الحقيقة... فعند ذلك لا عين ولا أثر، ولا رسم ولا طلل ولا غبر، في الحضور خرس، وعلى البساط قناء، وللرسوم امتحاء، وإنما الصحة على الثبات.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضَى لَهُ قَوْلًا﴾.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيه السياق. والآية (١٠١) لم ترد.

(٢) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً. (اللسان ٢٩٧/١٣ مادة: عهن).

دليل الخطاب أَنَّ مَنْ أَدْنَى لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ تَنْفَعَهُ الشَّفَاعَةُ، وإذا قُبِلَتْ شَفَاعَةُ أَحَدٍ بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ فَمِنْ الْمُحَالِ أَلَّا تُقْبَلَ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ - ﷺ - وهو أفضل الكافة، وشَفَاعَةُ الْأَكْبَارِ مِنْ صَفْوَتِهِ مَقْبُولَةٌ فِي الْأَصَاغِرِ فِي الْمُؤَجَّلِ وَفِي الْمَعْجَلِ. والحق سبحانه يُشْفَعُ الشُّيُوخُ فِي مَرِيدِهِمْ الْيَوْمَ.

ويقال شَفَاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَدَاً لِلْمُطِيعِينَ بِزِيَادَةِ الدَّرَجَةِ، وَلِلْعَاصِينَ بِغُفْرَانِ الزُّلَّةِ، كذلك شَفَاعَةُ الشُّيُوخِ - الْيَوْمَ - لِلْمَرِيدِينَ عَلَى قِسْمَيْنِ: لِلَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ السُّلُوكِ فَبِزِيَادَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْفِيقِ، وَلِلَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ التَّخَبُّطِ وَالغِزَّةِ فَبِالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ قَوْلُ قَائِلِهِمْ:

إِذَا مَرِضْتُمْ أَتَيْنَاكُمْ نَعُوذُكُمْ وَنُذْنِبُونَ فَنَاتِيَكُمْ وَنَعْتَذِرُ!

وحكايات السُّلَفِ مِنَ الشُّيُوخِ مَعَ مَرِيدِهِمْ فِي أَوْقَاتِ فِتْرَتِهِمْ مَعْرُوفَةٌ، وَهِيَ مُشَاكِلَةٌ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِتَعْرِيفٍ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فِي الْبَاطِنِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَدْبًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

لَا يَخْفَى عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ مِمَّا مَضَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَلَا مِنْ آتِيهَا، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا. وَالْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ: «بِهِ» يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -، وَهُوَ طَرِيقَةُ السُّلَفِ؛ يَقُولُونَ: يَعْلَمُ الْخَلْقَ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ، كَمَا قَالُوا: إِنَّهُ يَرَى وَلَا يُدْرِكُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

ذَلَّتْ لَهُ الرِّقَابُ وَاسْتَسَلِمَ لِحُكْمِهِ الْخَلْقُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَمَنْ اقْتَرَفَ الظَّلَمَ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِهِ، وَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا يَصْلَحُ لِلْقَبُولِ، وَفَاعِلُهُ هُوَ الْمُتَجَرِّدُ عَنِ الْآفَاتِ الْوَاقِفَةِ لِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ.

ويقال الْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ أَجْرًا.

قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أَيِ فِي الْمَالِ كَمَا هُوَ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ.

ويقال هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ لِرَبِّهِ أَنَّهُ لَا يُعْطَى الْمُؤْمِنُ لِأَجْلِ إِيْمَانِهِ شَيْئًا، وَلَكِنْ بِفَضْلِهِ، وَإِيْمَانُهُ أَمَارَةٌ لَذَلِكَ لَا مُوجِبٌ لَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْسِنُونَ كَلِمَاتِهِمْ ذِكْرًا﴾.

أَتَبَغْنَا دليلاً بعد دليل، وبعثنا رسولاً بعد رسول، وخذَرناهم بوجوه من التعريفات، وإظهار كثير من الآيات.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

تعالى الله في كبريائه؛ وكبرياؤه: سناؤه وعُلاه ومجده ورفعته وعظمته، كل ذلك بمعنى واحد، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم.

و ﴿الْمَلِكُ﴾: مبالغة من المالك، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد، والانفراد بذلك.

و ﴿الْحَقُّ﴾: في وصفه - سبحانه - بمعنى الموجود، ومنه قوله عليه السلام: «العين حق»^(١) أي موجود.

ويكون الحق بمعنى ذي الحق، ويكون بمعنى مُحِقِّ الحق.. كل ذلك صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَجْعَلْ بِالْفُرْعَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافة النسيان، فأمره بالتثبت في التلقين، وأمنه من طوارق النسيان، وعرفه أن الذي يحفظ عليه ذلك هو الله.

والآية تشير إلى طَرَفٍ من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول، ثم إن لم يوجد ما يُوجِبُ بالتحقيق أجراه على مقتضى العموم بحق اللفظ، بخلاف قول أهل التوقف.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٧١/٧ - ٢١٤)، ومسلم في (الصحيح (السلام ٤١، ٤٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ب ٣٦)، والترمذي في (السنن ٢٠٦١)، وأبو داود في (السنن (الطب ب ١٥)، وابن ماجه في - (السنن ٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٨٩، ٣١٩، ٤٢٠، ٤٨٧، ٦٧/٤، ٣٧٩/٥)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٩/٣٥١)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٩٧٧٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٤٣٢)، وابن أبي شيبه في (المصنف ٧/٤١٧)، والطحاوي في (مشكل الآثار ٤/٧٥)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٢٠٣ - ٢٣٣ - ٣٧٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٨/٣٤٤)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٢/٤١)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/٢٥٨)، والكمال في (الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ١/١٥٤ - ١٥٦)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٧٦٥٧، ١٧٦٥٨، ١٧٦٦٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٨٣)، وابن كثير في (التفسير ١/٢٠٩، ٢٢٨/٨ - ٢٣٣)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٩/٢ - ٢٥١)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/٩١)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٤٨)، والذهبي في (الطب النبوي ١٣٤، ١٣٥) والسيوطي الحلبي في (الدر المنثور في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٥٦٣)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٩٩/٢).

فالأية تشير إلى التثبيت في الأمور وضرورة التمكن واللبث قصداً للاحتياط .

قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾: فإذا كان أَعْلَمَ الْبَشَرِ، وسيُدُّ العرب والعجم، ومن شهد له الحق بخصائص العلم حين قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] يقال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ - عَلِمَ أَنْ ما يخص به الحق أولياءه من لطائف العلوم لا حَصَرَ له .

ويقال أحاله على نفسه في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحاله على الخضر حتى قال له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] فشتان بين عبدٍ أحيل على عبدٍ في ذلك ثم قيل له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ...﴾ [الكهف: ٧٨] وبين عبدٍ أمره عند استزادة العلم بأن يطلبه من قِبَلِ ربه فقال: قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ .

ويقال لما قال عليه السلام: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»^(١)، قال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لِيُعْلَمَ أَنَّ أشرف خِصَالِ الْعَبْدِ الْوُقُوفُ فِي مَحَلِّ الْإِفْتِقَارِ، والاتصاف بنعت الدعاء دون الوقوف في مَغْرَضِ الدَّعْوَى .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتْنَىٰ وَلَمْ يُخِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ . لم تجد له قوّةً بالكمال، وانكماشاً في مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سِمْةُ الْعَصِيَانِ بقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١] .

ويقال: ﴿لَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾: على الإصرار على المخالفة .

ويقال لم نجد له عِزْمًا في القصد على الخلاف، وإن كان . . . فذلك بمقتضى النسيان، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ على خلاف الأمر، وإن كان منه اتباع لبعض مطالبات الأمر .

ويقال شرح قصة آدم - عليه السلام - لأولاده على حجة التوسكين لقلوبهم حتى لا يقنطوا من رحمة الله؛ فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرقم، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس .

ويقال عاتبه بقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ ثم أظهر عُذْرَهُ فقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا﴾ .

(١) للحديث رواية أخرى: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم» أخرجه ابن حجر في (فتح الباري ١٠/ ٥١٤) .

ورواية تقول: «والله إني لأعلمكم بالله وأخشاكم له» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٦/ ١٢٢) .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

السجود نوع من التواضع وإكبار القدر، ولم تتقدم من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فخلق الله الحق بيده، ورفع شأنه بعدما علمه، وحمل إلى الجنة، وأمر الملائكة في كل سماء أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء، واختباراً لهم. فسجدوا بأجمعهم، وامتنع إبليس من بينهم، فلقي من الهوان ما سبق له في حكم التقدير. والعجب ممن يخفى عليه أن مثل هذا يجري من دون إرادة الحق ومشيئته وهو عالم بأنه كذلك يجري، واعتبروا الحكمة في أفعاله وأحكامه، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته، وكثرة مخالفات أولاد آدم، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم... ثم يقولون إن الحق سبحانه أراد خلاف ما علم، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالم، وكان عالماً بما سيكون! ثم خلق إبليس ومكنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك! ويدعون حسن ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة... ف سبحان من أغمى بصائرهم، وعمى حقيقة التوحيد عليهم!

قوله جل ذكره: ﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

وما كان ينفعهم التضخ وقد أراد بهم ما حذرهم، وعلم أنهم سيلقون ما خوفهم به. قوله: ﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾: علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء؛ وأما إنه أضاف الشقاء إلى آدم وحده - وكلاهما لحقة شقاء الدنيا - فذلك لمضارعة رؤوس الآي، أو لأن التعب على الرجال دون النساء. ومن أصغى إلى قول عدوه فإنه يتجرع الندم ثم لا ينفعه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

لا تصديق أتم من تصديق آدم، ولا وعظ أشد رحمة من الله، ولا يقين أقوى من يقينه... ولكن ما قاسى آدم الشقاء قبل ذلك، فلما استقبله الأمر وذاق ما خوف به من العناء والكد ندم وأطال البكاء، ولكن بعد إبرام التقدير.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ أُوْزِرَ بكل وجه؛ فلم يعرف قدر العافية والسلامة، إلى أن جرى ما هو محكوم به من سابق القسمة.

ويقال تنعم آدم في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوع والعطش، والبلاء من كل (...)^(١).

وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه

(١) بياض في الأصل.

السلام - يأتي ويقول: ربُّكَ يُقرِّبُكَ السَّلامَ ويقول: لِمَ تبكي؟ فكان يُذكرُ جبريلَ عليه السلام وهو يقول: أهذا الذي قُلْتَ: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾...! وغير هذا من وجوه الضمان والأمن!

قوله جل ذكره: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾.

وسوس إليه الشيطان وكان الحق يعلم ذلك ولم يذكر آدم في الحال أن هذا من نزعات مَنْ قال له - سبحانه -: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ﴾ [طه: ١١٧].

ويقال: لو عمى على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها، ولو لم يكن (...) ^(١) حتى دلَّه على تلك الشجرة إيش الذي كان يمنعه منه إلا أن الحكم منه بذلك سَبَقَ، والإرادة به تعلقت؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له: يا شقي، فعلت وصنعت...!

فقال إبليس لآدم: إِنْ كُنْتُ شَيْطَانَكَ فَمَنْ كَانَ شَيْطَانِي؟

ويقال سُمِّيَ الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبعدُ النَّاسَ عن طاعة الله فهو شيطان، ولذلك يقال: شياطين الإنس، وشياطين الإنس شرُّ من شياطين الجن.

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالداً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه بوسوسته.

والناسُ تكلموا في الشجرة: ما كانت؟ والصحيحُ أن يقال إنها كانت شجرة المحنة.

ويقال لو لم تُخلَقْ في الجنة تلك الشجرة لَمَا كَانَ فِي الْجَنَّةِ نَقْصَانٌ فِي رِزْقِهَا.

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطالت تلك الشجرة حتى ما كانت لِتَصِلَ إِلَيْهَا يَدُهُ، ولكنه - كما في القصة - كانت لا تصل إلى أوراقها يده - بعد ما أكل منها - حينما أراد أن يأخذ منها لِيَسْتُرَ عَوْرَتَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَمَّا سَوَّاهُمَا﴾.

لَمَّا ارْتَكَبَا الْمُنْهَى عَنْهُمَا ظَهَرَ مَا يُسْتَحْيَى مِنْ ظُهُورِهِمَا، وَلَكِنْ اللَّهَ - سبحانه - أَلْطَفَ مَعَهُمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بِقَوْلِهِ: فَبَدَتَ لَهَا سَوَاتُهُمَا، وَلَمْ يَقُلْ - مُطْلَقاً - فَبَدَتَ سَوَّاهُمَا؛ أَي أَنَّهُ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى سَوَّاهُمَا غَيْرَهُمَا.

ويقال لَمَّا تَجَرَّدَا عَنْ لِبَاسِ التَّقْوَى تَنَازَرَا عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا الظَّاهِرَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَمْنُنَ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ﴾.

أول الجرزب والصناعات - على مقتضى هذا - الخياطة، وخياطة الرقاع بعضها على بعض للفقراء ميراث من أبينا آدم - عليه السلام.

ويقال كان آدم - عليه السلام - قد أصبح وعليه من حُلل الجنة وفنون اللباس ما الله به أعلم، ثم لم يمس حتى كان يخصف على نفسه من ورق الجنة، وهكذا كان في الابتداء ما هو موزوث في أولاده من هناء بعده بلاء.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْتُمَا أَنْ تَكُونَا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: [الأعراف: ٢٢] عند ذلك وقعت عليهما الخجلة لما ورّد عليهما خطاب الحق: ﴿أَلَمْ يَأْمُرْ أَنْتُمَا... عَنْ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولهذا قيل: كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ظَنَنَّا أَنْفُسَنَا...﴾: [الأعراف: ٢٣] لم يتكلما بلسان الحجة فقالا: ﴿رَبُّنَا ظَنَنَّا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقولوا: بظلمنا صرنا من الخاسرين، بل قالوا: ﴿وَلَنْ نَقُولَ لَكَ وَتَحَمَّلْنَا لَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ليُعْلَمَ أَنَّ المدارَ على حُكْمِ الرَّبِّ لَا عَلَى جُزْمِ الْخَلْقِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

لَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ سِمَةُ الْعَصِيَانِ - وهو أوّل البشر - كان في ذكر هذا تنفيس لأولاده؛ أن تجري عليهم زلّة وهم بوصف الغيبة في حين الفترة.

ويقال كانت تلك الأكلة شيئاً واحداً، ولكن قصتها يحفظها ويردها الصبيان إلى يوم القيامة.

وعصى آدم ربّه ليُعْلَمَ أَنَّ عِظَمَ الذُّنُوبِ لِمُخَالَفَةِ الْآمِرِ وَعِظَمَ قُدْرِهِ... لا لكثرة المخالفة في نفسها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ اجْتَنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

أخبر أنه بعدما عصى، وبعد كل ما فعله اجتباه ربّه؛ فالذي اصطفاه أولاً بلا علة اجتباه ثانياً بعد الزلّة، فتاب عليه، وغفر ذنبه، ﴿وَهَدَى﴾: أي هداه إليه حتى اعتذر واستغفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ أَقْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ إِلَى شَقَى﴾.

أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية، وقد توالى المحن على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة العصيان، ومفارقة الجنة، ودخول الدنيا، وداوة الشيطان، والابتلاء بالشهوات. ثم قال:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ...﴾ وترك هواه، ولم يعمل بوسوسة العدو فله كلّ خير، ولا يلحقه ضير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور.

ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن الانخراط في قضايا الرفاق انثالت عليه فنون الخذلان، ومن أَعْرَضَ عن استدامة ذكره - سبحانه - بالقلب توالى عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كل رَوْحٍ.

وَمَنْ أَعْرَضَ عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشيطان وهواجس النفس بما يوجب له وحشة الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط.

ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِ الله في الخلوة قَيِّضَ الله له في الظاهر من القرين السوء ما توجب رؤيته له قَبْضَ القلوب واستيلاء الوحشة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾.

في الخبر: «مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا» فَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى الْقَلْبُ يُحْشَرُ عَلَى حَالَتِهِ، وَمَنْ يَعِشْ عَلَى جَهْلٍ يُحْشَرُ عَلَى جَهْلٍ، وَلِذَا يَقُولُونَ: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا؟﴾ [يس: ٥٢] إِلَى أَنْ تُصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةً.

وكما يَتْرَكُونَ - اليوم - التَّدَبُّرَ فِي آيَاتِهِ يَتْرَكُونَ غَدًا فِي الْعُقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ عَلَى ضَعْفِ حَالَاتِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُجَازِيَ كُلًّا بِمَا يَلِيقُ بِحَالِهِ، فَمَا أَسْلَفَهُ لِنَفْسِهِ سِيلَقِي غِيَبِهِ؛ عَلَى الْخَيْرِ خَيْرًا، وَعَلَى الشَّرِّ شَرًّا.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أَيُّ أَفْلا يَنْظُرُونَ فَيَتَفَكَّرُونَ؟ ثُمَّ إِذَا اسْتَبْصَرُوا أَفْلا يَتَعَبَّرُونَ؟ وَإِذَا اعْتَبَرُوا أَفْلا يَزْدَجِرُونَ؟ أَمْ عَلَى وَجْهِهِمْ - فِي مَيَادِينِ غَفْلَاتِهِمْ يَرْكُضُونَ، وَعَنْ سُوءِ مَعَامَلَاتِهِمْ لَا يَرْجِعُونَ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾.

لَوْلَا أَنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ سَبَقَتْ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَأْصِلُهُمْ لِأَنَّ

جماعة من الأولياء في أصلابهم لعَجَل عقوبتهم، ولكن.. كما ذَكَرَ من الأحوال أمهلهم مدة معلومة، ولكنه لم يهملهم أصلاً.

وإذا كانت الكلمة بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم قد سبقت، والعلم بالمحفوظ بجميع ما هو كائن قد جرى - فالسعي والجهد، والانكماش والجد.. متى تنفع؟ لكنه من القسمة أيضاً ما ظهر.

قوله جل ذكره: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

سماح الأذى يوجب المشقة، فأزال عنه ما كان لحقه من المشقة عند سماع ما كانوا يقولون، وأمره: إن كان سماع ما يقولون يوحشك فتسيبنا - الذي تثنى به علينا - يروحك.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: أي في صدر النهار؛ لِبَارِكِكَ لَكَ في نهارك، وَيَنعَم صباحك.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي عند نقصان النهار؛ ليطيب ليلك، وينعم رواحك.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ أي في ساعات الليل؛ فإن كمال الصفوة في ذكر الله في حال الخلوة.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أي استديم ذكر الله في جميع أحوالك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾.

فضل الرؤية فيما لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام، والذي له عند الله منزل وقدّر فللحق على جميع أحواله غيرّة؛ إذ لا يَرْضَى منه أن يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وجميع حالاته فيما ليس الله - سبحانه - فيه رضاء، وفي معناه أنشدوا:

فعيني إذا استخسنت غيركم
أمرت الدموع بتأديبها

ويقال لما أدبه في ألا ينظر إلى زينة الدنيا بكمال نظره وقَفَّ على وجه الأرض بفرد قدم تصاوناً عنها حتى قيل له: «طه» أي طأ الأرض بقدمك. ولم كل هذه المجاهدة وكل هذا التباعد حتى تقف بفرد قدم؟ طأ الأرض بقدميك.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾ الفتنة ما يُشغَل به عن الحق، ويستولي حُبُّه على القلب، ويُجسّر وجوده على العصيان، ويحمل الاستمتاع به على البطر والأشر^(١).

(١) البطر: النشاط. أو قلة احتمال النعمة والطينان بها وشدة المرح. الأشر: البطر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

القليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خير من الكثير من الحرام والحطام..
ومعه سُخْطُهُ. ويقال قليل يُشْهِدُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُنْسِيكَ رَبُّكَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

الصلاة استفتاحُ بابِ الرزق، وعليها أحال في تيسير الفتوح عند وقوع الحاجة إليه. ويقال الصلاة رزق القلوب، وفيها شفاؤها، وإذا استأخر قُوْتُ النَّفْسِ قُوِي قُوْتُ القلب.

وأمر - الرسول - عليه السلام - بأن يأمر أهله بالصلاة، وأن يضطبر عليها.
وللاصطبار مزية على الصبر؛ وهو ألا يجد صاحبه الألم بل يكون محمولاً مَرُوحاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾.

أي لا نكلفك برزق أحد؛ فإنّ الرازق الله - سبحانه - دون تأثير الخلق، فنحن نرزقك ونرزق الجميع.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

هما شيان: وجود الأرزاق وشهود الرزاق؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة النفوس، وشهود الرزاق يوجب قوة القلوب.

ويقال استقلال العامة بوجود الأرزاق، واستقلال الخواص بشهود الرزاق.

ويقال نفى عن وقته الفرق بين أوصاف الرزق حين قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ فإنّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله: ﴿نَحْنُ﴾ سقط عنه التمييز بين رزقٍ ورزقٍ.

ويقال خُفِّفَ على الفقراءِ مقاساةَ قِلَّةِ الرزقِ وتأخُّره عن وقتٍ إلى وقتٍ بقوله: ﴿نَحْنُ﴾.

قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾: أي العاقبة بالحسنى لأهل التقوى.

ويقال المراد بالتقوى المُتَّقِي، فقد يسمّى الموصوف بما هو المصدر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ؟ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

عَمِيَتْ بصائرهم وأدعوا أنه لا برهان معه، ولم يكن القصورُ في الأدلة بل كان الخللُ في بصائرهم، ولو جمع الله لهم كل آية افتُرِحَتْ على رسولٍ ثم لم يُرِدْ الله أن يؤمنوا لَمَا ازدادوا إلا طغياناً وكفراً وخسراناً... وتلك سُنَّةُ أسلافهم في تكذيب أنبيائهم، ولذا قال:

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

إن أرسلنا إليهم الرسل قابلوهم بفنونٍ من الجحد، ووجوه من العلل؛ مرة يقولون فما بال هذا الرسول بشر؟ هلاً أرسله ملكاً؟ ولو أرسلنا ملكاً لقالوا هلاً أرسل إلينا مثلنا بشر؟ ولو أظهر عليهم آية لقالوا: هذا سحر مُفْتَرَى! ولو أخليناهم من رسولٍ وعاملناهم بما استوجبوه من تكبيرٍ لقالوا:

هلاً بعث إلينا رسولاً حتى كنا نؤمن؟ فليست تنقطع أعلالهم، ولا تنفك - عما لا يُرضى - أحوالهم. وكذلك سبيل من لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد، وفي معناه أنشدوا:

وكذا الملول إذا أراد قطيعةً ملّ الوصال وقال كان وكانا
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِحُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الضَّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾.

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثيقة، ينتظرون ما سيبدو في المستأنف، إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو ممّا يقتضيه حكم الأفلاك، وما الذي توجهه الطبائع والنجوم. والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في روح التوحيد، والباقيون في ظلمات الشرك.

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز مَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِجَمِيلِ نِعْمَتِهِ؛ إِنَّ أَطَاعَ فَضَّلَهُ، وَإِنْ أَصَاعَ أَمْهَلَهُ، ثُمَّ إِنَّ أَبَ وَأَقَرَّ. . ذَكَرَهُ، وَإِنْ عَصَى وَعَابَ سَتَرَهُ، فَإِنْ تَنَصَّلَ رَحِمَهُ، وَإِنْ تَكَبَّرَ قَصَمَهُ.

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه؛ بتوفيقه وَصَلَ العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وَجَدَ العارفون كمالَ مشاهدتهم، وبتمام مجاهدتهم وجدوا أَجَلَ مَثُوبَتِهِمْ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قريبتهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

فالمطيعون منهم عَظَمَ لَدِينَا ثَوَابُهُمْ، والعاصون منهم حَقَّ مِثْلُ عِقَابُهُمْ.

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ [الأنبياء: ١] يقال الغفلة على قسمين: غافل عن حسابه باستغراقه في دنياه وهواه، وغافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه؛ فالغفلة الأولى سِمةُ الهجر والغفلة الثانية صِفةُ الوُضَل؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة الموت، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبتهم أبد الأبد لفنائهم في وجود الحق تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

لم يجدد إليهم رسولا إذا ازدادوا نفورا، ولم يُنْزِلْ عَلَيْهِمْ خِطَاباً إِلَّا رُدُّهُ جَحْداً وتكذيباً، وما زدناهم فصلاً إِلَّا عُدُّهُ هَزْلاً، وما جددنا لهم نعمة إِلَّا فعلوا ما استوجبوا نقمة، فكان الذي أكرمناهم به محنة بها بلوناهم. . وهذه صفة مَنْ أَسَاءَ مع الله خُلِقَهُ، وَخَسِرَ عند الله حَقَّهُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

عَمِيَتْ بصائرهم وعامت أفهامهم، فهم في غباوة لا يستبصرون، وفي أكنة عمّا أقيم لهم من البرهان فهم لا يعلمون.

قوله: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى...﴾ لَمَّا عجزوا عن معارضته، وسقطوا عند التحدي،

وظهرت عليهم حُجَّتُهُ رَجَمُوا فِيهِ الْفِكْرَ، وَقَسَمُوا فِيهِ الظَّنَّ؛ فمرة نسبوه إلى السحر، ومرة وصفوه بقول الشعر، ومرة رَمَوْهُ بِالْجَنُونِ وفنوني من العيوب. وقبل ذلك كانوا يقولون عنه: هو محمد الأمين، كما قيل:

أشاعوا لنا في الحيّ أشنع قصّة
وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حزباً
قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الأقاويل التي يسمعها الحقّ - سبحانه - مختلفة؛ فَمِنْ خطابٍ بعضهم مع بعض، ومن بعضهم مع الحقّ. والذين يخاطبون الحقّ: فَمِنْ سائلٍ يسأل الدنيا، ومِنْ داعٍ يطلب كرائم العُقْبَى، ومِنْ مُثْنٍ يثني على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعقبى.

ويقال يسمع أنين المُنْذِنِينَ سِراً عن الخَلْقِ حَدْراً أن يفتضحوا، ويسمع مناجاة العابدين التسبيح إذا تهجدوا، ويسمع شكوى المحبين إذا مَسَّتْهُمُ الْبُرْحاءُ^(١) فَضَجُّوا من شدة الاشتياق.

ويقال يسمع خطاب مَنْ يناجيه سِراً بسرّ، وكذلك تسبيح مَنْ يمدحه ويثني عليه بلسان سرّه.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

نَوَّعُوا ما نسبوا إليه - بعدما نزلنا إليه الأمر - من حيث كانوا، ولم يشاهدوا هِمَمَهُ على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال، وكما قيل:

رمتني بدائنها وانسلت

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أخبر أن الله تعالى أجرى سُنَّتَهُ أن يُعَذِّبَ مَنْ كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المآل. وإن هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول ﷺ أمثالهم في الكفران، وقد حَكَمَ الحقّ لهم بالحرمان والخذلان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

لَمَّا قالوا لولا أنزل علينا الملائكة أخبر أنه لم يُرْسَلْ إلى الناس رسولاً فيما سَبَقَ من الأزمان الماضية والقرون الخالية إلا بشراً، وَذَكَرَ أَنَّ الْخُصُوصِيَّةَ لَهُمْ كانت بإرسال الله إياهم.

(١) البرحاء: الشدة والمشقة.

ثم قال: ﴿فَتَشَاوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: الخطاب للكل والمراد منه الأمة، وأهل الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد - ﷺ - ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحق - سبحانه - أو من يُخَسِّنُ الإفهام عن الحق.

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات، وإذا اشتكلت الواقعة فيخبر عن اجتهاده، وشرطه ألا يكون مقلداً، ويكون من أهل الاجتهاد، فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه، وأمّا الحكيم فإذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُفْتَى به فإن لم تتقدم له من قبله المنازلة ففتواه في هذا الطريق كفتوى المقلد في مسائل الشرع.

فأمّا العارف فيجب أن يتكلم في هذا الطريق عن وَجْهِهِ - إن كان - وإلا فلا تُقْبَلُ فتواه ولا تُسْمَعُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

لَمَّا غَيَّرُوا الرِّسُولَ - عليه السلام - بقولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام؟ .. أخبر أن أَكَلَ الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكابر، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تُكِنُّهُ الْقُلُوبُ والسرائر من وجوه التعريف.

ويقال: النفوس لا خبر لها مما به القلوب، والقلب لا خبر له مما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السر.

قوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾: أي إنهم على ممرٍ ومغبرٍ، ولا سبيلَ اليومَ لمخلوقٍ إلى الخُلْدِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

الحق - سبحانه - يُحَقِّقُ وَعْدَهُ وإن تباطأ بتحقيقه الوقت فيما أخبر أنه يكون. والموعود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدين، وإرغام مَنْ تَابَذَ الْحَقُّ مِنَ الْجَاهِدِينَ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة، وإيضاح وجه الدلالة، وبيان خطأ الشبهة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يريد بالكتاب القرآن، وقوله: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: أي شرفكم ومحلّكم، فَمَنْ استبصر بما فيه من النور سَعِدَ في دنياه وأخراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَدَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

إِنَّ اللَّهَ يُمَهِّلُ الظَّالِمَ حِينًا لَكِنه يَأْخُذْهُ أَخْذَ قَهْرٍ وَانْتِقَامٍ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ بِخَرَابِ مَسَاكِنِ الظَّالِمِينَ، وَقَدْ جَاءَ الْخَيْرُ: «لَوْ كَانَ الظُّلْمُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ لَسُلِّطَ عَلَيْهِ الْخَرَابُ»؛ فَإِذَا ظَلَمَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ حَرَّمَ اللَّهُ أَنْ يَقْطِنَهَا التَّوْفِيقُ وَجَعَلَهَا مَوْطِنَ الْخِذْلَانِ، فَإِذَا ظَلَمَ قَلْبُهُ بِالْغَفْلَةِ سَلَّطَ عَلَيْهِ الْخَوَاطِرَ الرَّدِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَدَوَاعِي الْفُجُورِ. وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فِي الْقَلَّةِ وَالكَثْرَةِ؛ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرِبَتْ زَايَلَتْهَا الْحَقَائِقُ وَالْمَحَابُّ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا الْعَلَائِقُ وَالْمَسَاكِنَاتُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

لَمَّا ذَاقُوا وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ اضْطَرَبُوا فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ نَدْمُهُمْ، وَلَمْ تَعُدْ إِلَى مُحَالِّهَا أَقْدَامُهُمْ، وَبَعْدَ ظَهْوَرِ الْخِيَانَةِ لَا تُقْبَلُ الْأَمَانَةُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونُ﴾.

وَلِلْخِيَانَةِ سَرَايَةٌ، فَإِذَا حَصَلَتْ الْخِيَانَةُ لَمْ تَقِفِ السَّرَايَةُ، وَإِذَا غَرَقَتِ السَّفِينَةُ فَلَيْسَ بِيَدِ الْمَلَّاحِ إِلَّا إِظْهَارُ الْأَسْفِ، وَهِيَاهُ أَنْ يُجِدِي ذَلِكَ!

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّأَ لَنَا كَافًّا ظَلَمِينَ﴾.

لِلْإِقْرَارِ زَمَانٌ؛ فَإِذَا فَاتَ وَقْتُهُ فَكَمَا فِي الْمَثَلِ: يَسْبِقُ الْفَرِيضُ الْحَرِيصُ. وَوَضَعَ الْقَوْسَ بَعْدَ إِرْسَالِ السَّهْمِ لَا قِيَمَةَ لَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾.

إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ يَشْكُرَ الْمَرْءُ فَلَا يُسْمَعَ، وَيَبْكِي فَلَا يَنْفَعُ، وَيَدْنُو فَيُقْصَى، وَيَمْرُضُ فَلَا يُعَادَى، وَيَعْتَذِرُ فَلَا يُقْبَلُ. . وَغَايَةُ الْبَلَاءِ التَّلَفُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِينَ﴾.

اللَّعِينُ نَعْتُ مَنْ زَالَ عَنْ حَدِّ الصَّوَابِ، وَاسْتَجَلَبَ بِفَعْلِهِ الْإِلْتِذَاذَ، وَانْجَرَّ فِي حَبْلِ السَّفَرِ. وَحَقُّ الْحَقِّ مُتَقَدِّسٌ عَنْ هَذِهِ الْجَمْلَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

يَخَاطَبُهُمْ عَلَى حَسَبِ أَفْهَامِهِمْ؛ وَإِلَّا. . . فَالَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ سَهْوٌ لَا يَسْتَفْرِهُ لَهْوٌ، وَالْحَقُّ لَا يَعْتَرِيهِ وَلَا يَضَاهِيهِ كُفْوٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾.

نُذْخِلُ نَهَارَ التَّحْقِيقِ عَلَى لِيَالِي الْأَوْهَامِ فَيَنْقَشِعُ سَحَابُ الْغَيْبَةِ، وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الْأَوْهَامِ، وَتَنْبُرُ شَمْسُ الْيَقِينِ، وَتَصْحُو سَمَاءُ الْحَقَائِقِ عَنْ كُلِّ غُبَارِ التُّهَمِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ﴾.

الحادثات له سبحانه ملكاً والكائنات له حكماً، وتعالى الله عن أن يتجمل بوقافٍ أو ينقص بخلاف، وبالقدر ظهور الجميع، وعلى حسب الاختيار تنصرف الكلمة.

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾.

المطيع المختار يُسَبِّحُه بالقول الصدق، والكل من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخلق، وبرهان البينة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾.

تفرد الحق بالإبداع والإيجاد، وتقدس عن الأمثال والأنداد، فالذين يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِهِ أمواتٌ غيرُ أحياءٍ. وهم بالضرورة يعرفون. . أفلا يَغْتَبِرُونَ وألا يَزْدَجِرُونَ؟

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أخبر أن كل أمر يُنَاطُ بجماعة لا يجري على النظام؛ إذ ينشأ بينهم النزاع والخلاف. ولما كانت أمورُ العالم في الترتيب مُتَّسِقَةً فقد دل ذلك على أنها حاصلة بتقديرٍ مُدَبَّرٍ حكيم؛ فالسماء في علوها تدور على النظام أفلاكها، وليس لها عُمْدٌ لإمسакها، والأرض مستقرة بأقطارها على ترتيب تعاقب ليلها ونهارها. والشمس والقمر والنجوم السائرة تدور في بروج، ورقعة السماء تتسع من غير فروج. . ذلك لتقدير العزيز العليم علامة، وعلى وحدانيته دلالة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

يَكُونُ الخلق له، وهم يُسألون للزوم حقه عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرُ مَن قَبْلُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

دلت الآية على فساد القول بالتقليد، ووجوب إقامة الحجة والدليل.

ودلت الآية على توحيد المعبود، ودلت الآية على إثبات الكسب للعبيد؛ إذ لولاه لم يتوجه عليهم اللوم والعُتْبُ. وكلُّ مَنْ عَلِقَ قلبه بمخلوق، أو تَوَهَّم من غير الله حصول شيءٍ فَقَدْ دَخَلَ في غمار هؤلاء لأن الإله مَنْ يَصْخُ منه الإيجاد.

قوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَىٰ وَذِكْرُ مَن قَبْلُ﴾: الإشارة منه أن الدين توحيد الحق، وإفراذ الرب على وصف التفرد ونعت الوحدانية.

ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ إنما عديموا العلم لإعراضهم عن النظر، ولو وضعوا النظر موضعه لَوَجِبَ لهم العلم لا محالة، والأمر يدل على وجوب النظر، وأنَّ العلوم الدينية كُلُّها كسبية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

التوحيد في كل شريعة واحد، والتعبد - على من أرسل إليه الرسول - واجب، ولكن الأفعال للنسخ والتبديل مُعَرَّضَةٌ، أما التوحيد وطريق الوصول إليه فلا يجوز في ذلك النسخ والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾.

في الآية رخصة في ذكر أقاويل أهل الضلال والبدع على وجه الرد عليهم، وكشف عوراتهم، والتنبيه على مواضع خطاياهم، وأنه إن وسوس الشيطان إلى أحد بشيء منه كان في ذلك حجة للانفصال عنه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَفِئُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَقْمَلُونَ﴾.

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره - سبحانه، وأنهم لا يَقْصُرُونَ في واجب عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

علمه القديم - سبحانه - لا يختص بمعلوم دون معلوم، وإنما هو شامل لجميع المعلومات، فلا يعزب عن علم الله معلوم.

قوله: ﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ دل على أنهم يشفعون لقوم، وأن الله يتقبل شفاعتهم.

قوله: ﴿وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾: ليس لهم ذنب ثم هم خائفون؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز، فإذا لم يَجْزْ أن يعذب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتكبوا زلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتَ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أخبر أنهم مُعْرِضُونَ عن الزلة بكل وجه. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتَ إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ وقد علم أنهم لا يقولون ذلك، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه، فالحق - سبحانه - يعلم ما لا يكون كيف كان يكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

داخلتْهُمُ الشبهةُ في إعادة الخلق والقيامة والنشْـرِ، فأقام الله الحجة عليهم بأن قال: أليسوا قد عَلِمُوا أنه خلق السموات والأرض؛ سَمَكَ السماء وبَسَطَ الأرض.. فإذا قدر على ذلك فكيف لا يقدر على إعادة الحياة بعد الإبادة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

كُلُّ شَيْءٍ مخلوقٍ حَيٍّ فَمِنَ الماءِ خَلَقَهُ، فَإِنَّ أصلَ الحيوان الذي حَصَلَ بالتناسل النطفة، وهي من جملة الماء.

وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء، وحياة القلوب بماء الرحمة، وحياة الأسرار بماء التعظيم. وأقوام حياتهم بماء الحياة.. وعزيزٌ هُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

الأولياء هم الرواسي في الأرض وبهم يُرْزَقُونَ، وبهم يُدْفَع عنهم البلاء، وبهم يُوفَى عليهم العطاء. وكما أنه لولا الجبال الرواسي^(١) لم تكن للأرض أوتاد.. فكذلك الشيوخ الذين هم أوتاد الأرض (فلولاهم) لَنَزَلَتْ بهم الشدة.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

كما أن في الأرض سُبُلًا يسلكونها لِيَصِلُوا إلى مقاصدهم كذلك جعل السُّبُلَ إليه مسلوكة بما يَبَيِّن على ألسنتهم من هداية المريرين، وقيادة السالكين، كما يَسَّرَ بهداهم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

في ظاهر الكون السماء منيرة، والأرض مسكونة.. كذلك للنفوس أراض هي مساكن الطاعات، وفي سماء القلوب نجوم العقل وأقمار العلم وشموس التوحيد والعرفان. وكما جُعِلَت النجوم رجوماً للشياطين جَعَلَ من المعارف رجوماً للشياطين. وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آيات القلوب مما فيها من الأنوار غافلون، لا يكاد يعرفها إلا الخواص.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كما أن الحق - سبحانه - في الظاهر يَكُور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ في نهار البسط ليل القبض.. والبسط في الزيادة والنقصان. فكما أن الشمس أبداً في برجها لا تزيد ولا تنقص، والقمر مرةً في المحاق^(٢)، ومرةً في

(١) أي الجبال الشامخ.

(٢) المحاق: آخر الشهر القمري حيث لا يظهر القمر، وقيل: ثلاث ليالٍ من آخره، أو أن يستمر القمر ليلتين فلا يُرى غدوة ولا عشية.

الإشراق.. فصاحب التوحيد بنعت التمكين - يرتقي عن حَدِّ تأمل البرهان إلى رَوْح البيان، ثم هو متحقق بما هو كالعيان. وصاحب العلم مرة يُرَدُّ إلى تجديد نظره وتذكُّره، ومرة يغشاه غَيْرٌ في حال غفلته فهو صاحب تلوين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾.

إنك في هذه الدنيا عابرُ سبيل، لكننا لم نترك فرداً في الدنيا، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

الموت به آفة قوم، وفيه راحة قوم؛ لقوم انتهاء مدة الاشتياق، والآخرين افتتاح باب الفراق، لقوم وقوع فتنهم ولآخرين خلاص من محنتهم، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَنْتَهِزُونَ إِلَّا هَرَوًا أَوْ هَزْأً أَلَذَّيْكَرُ الْهَيْهَاتَ عَنْهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَاذِبُونَ﴾.

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رآه إليه من المنزلة لظلوا له خاضعين، ولكنهم حجبوا عن معانية وسريته، وعابنوا منه جسمه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾.

العجلة مذمومة والمُسَارعة محمودة؛ فالمسارعة البدار إلى الشيء في أول وقته، والعجلة استقباله قبل وقته، والعجلة نتيجة وسوسة الشيطان، والمسارعة قضية التوفيق.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم، فاستعجلوا حصول ما توعدوهم به. ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم، فالفرغ يدل على استعجالهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾.

لأمسكوا اليوم عن الانخراط في عذاب الظنون، والاغترار بمواعيد الشيطان.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٤/٥، ٨٣/٦)، ومسلم في (الصحيح فضائل الصحابة ب ١ رقم ١) وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦٨/٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٣/١٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٨/٣٢٥)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/٥٧٦)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/١٤٩)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٣/٤٤٠)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٤٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٥/٤٣٥، ١١/٤٣٤، ١٢/١٣٤)، وابن حبان في (المجروحين ١/٢٩٥).

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ .
 العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنكى وأشد. وسنة الله في الانتقام أن يُبَيِّرَ رِيحَ البَغْتَةِ
 في حال الانغماس في النعمة والجنة .
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَكَانَ لِلَّذِينَ خَلَوْا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
 بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

تسليّة له، وتعريفٌ بوشك الانتصار على الذين كانوا يؤذونه من أعداء الدين؛
 أي عن قريبٍ ستجدون وبأل ما استوجبوه من العقوبة .
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ .

تقرير عليهم بأن ليس بتداخل المخلوقين نجاتهم، وقد جربوا ذلك في أحوال
 محتتهم، فكيف لا يتبرءون ممن ليس لهم شيء، ومما ليس منه نفع ولا ضرر؟ وفي
 ذلك تنبيه للمؤمنين بأن مآربهم إلى الخيرات من نوعي النفع والدفع من الله عز وجل،
 فالواجب دوام اعتكافهم بقلوبهم بقوة كرمه وجوده .
 قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ .

بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع من الجمادات؛
 وأصنامهم التي عبدوها من تلك الجملة، ولم يرِدْ منهم - على تكرار هذه الألفاظ - إلا
 عجزً وانقطاع قول .

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
 نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

طول الإمتاع إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق، مشفوعاً بالعصمة كان مكرراً واستدراجاً،
 وزيادة في العقوبة . والحق كما يعاقب بالآلام والأحوال يعاقب بالإملاء والإمهال .

وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ تتوالى القسوة حتى لا يَبْقَى أثرٌ، للصفوة؛
 فيتعاقب الخذلان حتى يتواتر العصيان، ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان .

ويقال تنقص بذهاب الأكابر ويبقى الأراذل ويتعرض الأفاضل . . وفي هذا أيضاً
 إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر، فإن آخر الأمر كما قيل:

أَخِرُ الْأُمْرِ مَا تَرَى الْقَبِيرُ وَاللَّحْدُ وَالشَّرَى
 وكما قيل:

طوى العصران^(١) ما شَرَاه مني وأبلى جدتي نَشْرَ وطى

(١) العصران: الليل والنهار، وقيل: الغداة والعشي . (لسان العرب ٥٧٦/٤ مادة: عصر).

أراني كل يوم في انتقاصٍ ولا يبقى - مع النقصان - شيء
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الدُّعَاءُ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

أي بأمر الله أعلمكم بموضع المخافة، ويوحى إلي في بابكم أن أخوفكم باليم
عقابه، ولكن الذي عديم سماع التوفيق... أنى ينفعه تكرار الأمر بالقبول عليه؟
قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ مَسَّنَّهُمْ نَفْخَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُودُنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾.

أي إنهم لا يصبرون على أقل شيء من العقوبة؛ وإن الحق إذا شاء أن يؤلِم أحداً
فلا يحتاج إلى مدد وعون.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

توزن الأعمال بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاص لا يقبل، وتوزن الأحوال
بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجاب لا يقبل، وتوزن الأنفاس بميزان (....) (١)
فما فيه حظوظ ومساكنات لا يقبل.

ويقال ينتصف المظلوم من الظالم، وينتقم الضعيف من القوي.
ويقال ما كان لغير الله يصلح للقبول.

ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله فمن لم يرحم عباده في دنياه لا يرحمه الله، ومن
لم يحسن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه، ومن ظلم غيره كوفى بما يليق بسوء فعله.
قوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾: أي يجازي المظلومين وينتقم من الظالمين،
وينصف المظلوم من مثقال الذرة ومقياس الحبة، وإن عمل خيراً بذلك المقدار
فسيلقى جزاءه، ويجد عوضه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ما آتاه الحق سبحانه للأنبياء عليهم السلام من الضياء والثور، والحجة والبرهان
يشاركهم المستجيبون من أممهم في الاستبصار به..

فكذلك الأكابر من هذه الأمة يشاركون نبينا - في الاستبصار بمرور اليقين.
و«المتقي» هو المجاب لما يشغله ويحجبه عن الله، فيتقي أسباب الحجاب
وموجباتها.

(١) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفُونَ﴾.

صار لهم في استحقاق هذه البصائر والخشية بالغيب إطراق السريرة، وفي أوان الحضور استشعار الوجلي من جريان سوء الأدب، والحذر من أن يبدو من الغيب من خفايا التقدير ما يوجب حجة العبد.

والإشفاق من الساعة على ضريين: خوف قيام الساعة الموعودة للعامة، وخوف قيام الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم؛ فإن ما يستأهل الكافة في الحشر مُعَجَّلٌ لهم في الوقت من تقريب ومن تباعد، ومن مخو ومن إثبات.

قوله جل ذكره: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾:

وصف القرآن بأنه ﴿مبارك﴾، وهو إخبار عن دوامه، من قولهم: برك الطائر على الماء أي دام.

وإن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وما لا ابتداء له - هو كلامه القديم - فلا انتهاء للكتاب الدال عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

أراد به ما تعرف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول، لولا أنه خصه في الابتداء بالتعريف. . . ولأمتى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه لولا ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبلما حصل منه من النظر في المخلوق؟ ويقال هو ما كاشف به روجه قبل إبداعها من تجلي الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَسِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

خاطب قومه وأباه بيان التنبيه طمعاً في استفاقتهم من سكرة الغفلة، ورجوعهم من ظلمة الغلظة، وخروجهم من ضيق الشبهة.

ثم سأل الله إعانتهم بطلب الهداية لهم. فلما تبين له أنهم لا يؤمنون، وعلى كفرهم يصرون تبرأ منهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْوَكَاءَ لَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا آجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾.

ما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد، فكان من جوابه الحكم بالتسوية بينهم وبين آبائهم في الضلال، والحنة المتوجهة على سلفهم لزموا وتوجهت عليهم، فلم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا: ﴿آجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه من الإيمان فقال.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

فأحالهم على النظر والاستدلال والتعريف من حيث أدلة العقول لأن إثبات الصانع لا يُعرف بالمعجزات، وإنما المعجزات علم بصدق الأنبياء عليهم السلام، وذلك فرع لمعرفة الصانع.

ثم بين لهم أن ما عبده من دون الله لا يستحق العبادة، ثم إنه لم يخفى بما يصيبه من البلاء ثقةً منه بأن الله هو المتفرد بالإبداع، فلا أحد يملك له ضرراً من دون الله، فتساءلوا فيما بينهم وقالوا:

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(١).

أي يذكرهم بالسوء. ويحتمل أن يكون من فعله.. فاسألوه، فسألوه فقال: بل فعله كبيرهم.

فقالوا كيف ندرك الذنب عليه؟ وكيف تحيلنا في السؤال عليه - وهو جماد؟ فقال: وكيف تستجيزون عبادة ما هو جماد لا يدفع عن نفسه السوء؟ قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(٢). فقال: شرٌّ وأمرٌ.. كيف تستحق أمثال هذه.. العبادة؟!

فلما توجهت الحجة عليهم ولم يكن لهم جواب داخلتهم الأنفة والحمية فقالوا: سبيلنا أن نقتله شرّاً قتله، وأن نعامله بما يخوفنا به من النار. فقالوا: ﴿أَبْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾^(٣) [الصفات: ٩٧]، فلما رموه في النار: قوله جل ذكره: ﴿قُلْنَا يَنَازِرْ كُوفًى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

لو عصمه من نار نمرود ولم يمكنه من رميه في النار من المنجنيق^(٤) لكان - في الظاهر - أقرب من النصر، ولكن حفظه في النار من غير أن يمسه ألم أتم في باب النصرة والمعجزة والكرامة.

ويقال إن إبراهيم - عليه السلام - كان كثيراً ما يقول: أواه من النار!

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

فلما رمي في النار، وجعل الله عليه النار برّداً قيل له: لا تقل بعد هذا. أواه من النار! فالاستعاذة بالله من الله... لا من غيره.

(١) الآيتان (٥٧، ٥٨) لم تردا. (٢) الآيات من (٦١ حتى ٦٤) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٦ حتى ٦٨) لم ترد.

(٤) المنجنيق (مع) (مؤ): آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنقات ومجانق ومجانيق.

قوله: ﴿وَسَلَامًا﴾: أي وسلامةً عليه وله، فإنه إذا كان للعبد السلامة فالنار والبرْدُ عنده سَيَّان.

ويقال إن الذي يحرق في النار مَنْ في النار يقدر على حِفْظِهِ في النار.
ولمَّا سَلِمَ قَلْبُهُ من غير الله بكل وجهٍ في الاستنصار والاستعانة وسَلِمَ من طَلَبِ شيءٍ بكل وجهٍ.. تعرَّض له جبريل - عليه السلام - في الهواء وقد رمي من المنجنيق وقال له:
هل مِنْ حاجة؟

فقال: أَمَا إِلَيْكَ.. فَلَا!

فجعل اللّهُ النار عليه برداً وسلاماً؛ إذ لمَّا كان سليم القلب من الأغيار وَجَدَ سلامة النَّفْسِ من البَلَايا والأَعْلَال.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾.
مَنْ حَفَرَ لَأُولِيائِهِ وَقَعَ فِيهَا حَفَرٌ، وَمَنْ كَانَ مَشْغُولاً بِاللّهِ لَمْ يَتَوَلَّ الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ
سوى الله

قوله جل ذكره: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.
مَضَتْ سُنَّةُ اللّهِ فِي أَنْبِيَائِهِ - عليهم السلام - أَنَّهُ إِذَا نَجَّى مِنْهُمْ وَاحِداً أَشْرَكَ مَعَهُ
مَنْ كَانَ مُسَاهِماً لَهُ فِي ضَرِّهِ وَمُقَاسَاةَ مَشَقَّتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.
مَنْ عَلَيْهِ بَأْسٌ أَخْرَجَ مِنْ صِلْبِهِ مَنْ كَانَ عَابِداً لِلّهِ، ذَاكِراً لَهُ، فَإِنَّ مَفَاجِرَ الْأَنْبَاءِ
مُنَاقِبٌ لِلْآبَاءِ، كَمَا أَنَّ مُنَاقِبَ الْآبَاءِ شَرَفٌ لِلْأَنْبَاءِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾.

الإمام مُقَدَّمُ الْقَوْمِ، وَاسْتِحْقَاقُ رُتْبَةِ الْإِمَامَةِ بِاسْتِجْمَاعِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ الَّتِي
فِي الْأُمَّةِ فِيهِ، فَمَنْ لَمْ تَجْمَعْ فِيهِ مُتَفَرِّقَاتُ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ لَمْ يَسْتَحِقْ مَنْزِلَةَ
الْإِمَامَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلُوطًا إِتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرَيِكَ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
الْفَجَسَاطَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ فَاسِقِينَ﴾.

أَكْمَلَ لَهُ الْأَنْعَامَ بِعَصَمَتِهِ مِنْ مِثْلِ مَا افْتَحَجْنَ بِهِ قَوْمَهُ، ثُمَّ بِخُلَاصِهِ مِنْهُمْ بِإِخْرَاجِهِ
إِيَّاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، فَمِيزَهُ عَنْهُمْ ظَاهِراً وَبَاطِناً.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ فلا محالة مَنْ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ كَانَ صَالِحاً.

وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ إخبارٌ عن عين الجمع، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: إخبارٌ عن عين الفرق.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

كان نوح - عليه السلام - أطولهم عمراً، وأكثرهم بلاء. ففي القصة أنه كان يُضْرَبُ سبعين مرةً، وكان الرجل الهرم يحمل حفيده إليه ويقول. لا تقبل قولَ هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته. وكان نوح - عليه - يصبر على مقاساة الأذى، ويدعوهم إلى الله، فلمَّا أَيْسَ من إيمانهم، وأَوْحِيَ إليه: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٢٦] دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ فَأَزْهَقَ الشُّرْكَ وَأَغْرَقَ أَهْلَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُنَانِ فِي الْحَرَّةِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت. . . ففي مسألة واحدة أثبت لسليمان - عليه السلام - بها خصوصية؛ إذ مَنْ عليه بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ولم يَمُنْ عليه بشيء من المُلْكِ الذي أعطاه بمثل ما مَنْ عليه بذلك، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين - وإن اختلفوا - إذا كان اختلافهم في فروع الدين؛ حيث قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولَمَنْ قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلقٌ بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

أَمَرَ الجبالَ وسَخَّرَهَا لتساعدَ داودَ - عليه السلام - في التسبيح، ففي الأثر، كان داود - عليه السلام - يمرُّ وَصْفَاحُ^(١) الجبالِ تجاوبه، وكذلك الطيور كانت تساعدُه عند تأويبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

(١) الصفاح: (ج) الصفح من الجبل: سفحه.

سَخَّرَ اللَّهُ - سبحانه - لداود الحديد وألانه في يده، فكان ينسج الدروع، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] ليتحصن من السهام في الحروب، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ﴾ [سبأ: ١١] وأخبركم الصنعة وأوثق المسامير. . ولكن لما قصده سهماً التقدير ما أصابت إلا حدقته حين نظر إلى امرأة أوريا - من غير قصدٍ - فكان ما كان.

ولقد خلا ذلك اليوم، وأغلق على نفسه باب البيت، وأخذ يصلي ساعة، ويقرأ التوراة مرة، والزبور أخرى، حتى يمضي وينتهي ذلك اليوم بالسلامة. وكان قد أوجي إليه أنه يوم فتنة، فأمر الحجاب والبواب ألا يؤذن عليه أحد، فوقع من كوة البيت طير لم ير مثله في الحسن، فهم أن يأخذه، فتباعد ولم يطز كالمطمع له في أخذه، فلم يزل يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوة البيت، فتبعه داود ينظر إليه من الكوة من ورائه، فوقع بصره على امرأة أوريا، وكانت قد تجردت من ثيابها تغتسل في بستان خلف البيت الذي به داود، فحصل في قلبه ما حصل، وأصاب سهم التقدير حدقته، ولم تنفعه صنعة اللبس التي كان تعلمها لتحصنه من بأسه.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلِّمْنَ الْريِّحَ عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي بركنا فيها وكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾.

سَخَّرَ اللَّهُ له الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ، ولو أراد أن يزيد في قدر مسافتها شبراً لما استطاع، تعريفاً بأنه موقوف على حكم التقدير، فشهود التقدير كان يمنعه عن الإعجاب بما أكرم به من التسخير، ولقد نبه - سبحانه - من حيث الإشارة أن الذي ملكه سليمان كالريح إذا مرّ وفات، أو أنه لا يتقى باليد منه شيء.

وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فمالَت الريح ببساطه قليلاً، فقال سليمان للريح: استو.

فقال له الريح: استو أنت. أي إنما ميلني ببساطك لميلك بقلبك بملاحظتك فإذا استويت أنت استويت أنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَكِيمِينَ﴾.

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة. ثم إنه أراد يوماً أن يعود إلى مكانه فجاءه ملك الموت فطالبه بروجه، فقال: إليّ حين أرجع إلى مكاني.

فقال له: لا وجه للتأخير، وقبضه وهو قائم يتكئ على عصاه وبقي بحالته، ولم تعلم الجن، إلى أن أكلت دابة الأرض - كما في القصة - عصاه، فلما خرّ سليمان

عَلِمْتُ الشَّيَاطِينَ بِمَوْتِهِ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ الَّذِي بِالْعَصَا قِيَامُهُ فَقَهَرُ الْمَوْتِ يَلْحَقُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أي واذكر أيوب حين نادى ربه. وسمي أيوب لكثرة إيباه إلى الله في جميع أحواله في السراء والضراء، والشدة والرخاء.

ولم يقل: ارحمني، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ومن علامات الولاية أن يكون العبد محفوظاً عليه وقته في أوانِ البلاء.

ويقال إخباره عنه أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ لم يسلبه اسم الصبر حيث أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] لأنَّ الغالب كان من أحواله الصبر، فنادرٌ قاله لم يسلب عنه الغالب من حالته. والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالب من حال المؤمن المعرفة، أو الإيمان بالله فهو الذي يستغرق جميع أوقاته، ولا يخلو منه لحظة؛ ونادرٌ زلاته - مع دائم إيمانه - لا يزاحم الوصف الغالب.

ويقال؛ لما لم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ على وجه الاعتراض على التقدير - بل كان على وجه إظهار العجز - فلم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر.

ويقال استخرج منه هذا القول ليكون فيه مُتَنَفِّسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا في حالِ البلاء لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر.

ويقال لم يكن هذا القول منه على جهة الشكوى، وإنما كان من حيث الشكر ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ الذي تخصُّ به أوليائك، ولولا أنك أرحم الراحمين لما خصصتني بهذا، ولكن برحمتك أهلنتني لهذا.

ويقال لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استغاثه البلاء منه، فلم يُطِقْ البلاء صُحْبَتَهُ فضجَّ منه البلاء لا أيوبُ ضجَّ من البلاء... وفي معناه أنشدوا.

صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبِيرُ فصاح المحبُّ بالصبر صبراً^(١)

ويقال همزة الاستفهام فيه مضمرة، ومعناه: أيمسني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين؟ كما قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أهلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل؟

ويقال إن جبريل - عليه السلام - أتى أيوب فقال: لِمَ تسكت؟ فقال: ماذا أصنع؟ فقال: إن الله سيان عنده بلاؤك وشفائك... فاسأل الله العافية فقال أيوب: ﴿أني مسني الضر﴾ فقال تعالى: ﴿فكشفنا ما به من ضر﴾ [الأنبياء: ٨٤] والفاء

تفتضي التعقيب، فكأنه قال: فعافيناه في الوقت. وكأنه قال: يا أيوب، لو طلبت العافية قبل هذا لاستجبتا لك.

ويقال سقطت دودة كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفعها أيوب ووضعها على موضعها، فعقرته عقرة عيل صبره فقال: مسني الضر، فليل له: يا أيوب: أتصبر معنا؟ لولا أنني ضربت تحت كل شجرة من شعراتك كذا خيمة من الصبر... ما صبرت ساعة! ويقال كانت الدودات التي تأكل منه أكلت ما علأ بدنه، فلم ينق منه إلا لسانه وقلبه، فصعدت دودة إلى لسانه، وأخرى إلى قلبه فقال:

﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾... فلم ينق لي إلا لسان به أذكرك، أو قلب به أعرفك، وإذا لم ينق لي ذلك فلا يمكنني أن أعيش وأصبر!

ويقال استعجمت عليه جهة البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تعذيباً أو تقريباً أو تخصيصاً أو تمحيصاً... وكذلك كانت صحبته.

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سل العافية فقال:

عشت في النعم سبعين سنة فحتى يأتي علي سبعون سنة في البلاء... وعندئذ أسأل الله العافية!

وقيل لما كشف الله عنه البلاء قيل له: ما أشد ما لقيت في أيام البلاء؟ فقال شماتة الأعداء.

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم، وجرقوا ما كتبوه عنه وقالوا: لو كان لك عند الله منزلة لما ابتلاك بكل هذا البلاء!

وقيل لم يبق معه إلا زوجته، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام، فهي التي بقيت معه وكانت تخدمه وتعهده.

ويقال إنما بقيت تلك المرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب - عليه السلام.

وقيل إنما قال: مسني الضر لما قال لها الشيطان: إن أردت أن يشفى مريضك فاسجدي لي، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظهر لها في صورة إنسان، فأخبرت أيوب بذلك فقال عندئذ: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾.

ويقال لما ظهر به البلاء اجتمع قومه وقالوا لها: أخرجي هذا المريض من قريتنا، فإننا نخاف العدوى وأن يمسنا بلاؤه، وأن تغدئ إلينا علته، فأخرجته إلى باب القرية فقالوا: إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارنا عليه، فنتشاءم به، فأبعديه عن أبصارنا، فحملته إلى أرض فقير، وكانت تدخل البلد، وتشتاجر للخبز والعمل في الدور، فتأخذ

الأجرة وتحملها إليه، فلما عَلِمُوا أَنَّهَا امرأته استقذروها ولم يستعملوها.
ويقال إنها كانت ذات ذوائب^(١) وقرون، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه، فباعَت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء، وأن شعرها جُزَّ في ذلك فَحَلَفَ أيوبُ أَنْ يَجْلِدَهَا إِذَا صَحَّ حَدْسُهُ، وكانت المحنة على قلب تلك المرأة أشدَّ مما على بدنِ أيوب من كل المحن.

وقيل إن امرأته غَابَتْ ودخلت البلدَ، فعافى الله أيوبَ عليه السلام، وعاد شاباً طرياً كما قال في قصته قوله: ﴿أَزْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. فلما رجعت امرأته ولم تَرَه حسبت أنه أكله سَبُعٌ أو أصابته آفةٌ، فأخذت تبكي وتولول، فقال لها أيوب - وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً - مَالِكُ يَا امْرَأَةُ؟

قالت: كان لي ها هنا مريض فَقَدْتَهُ. فقال لها أيوب: أنا ذاك الذي تطلبينه!
وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلانه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال: إِنَّ أَرَدْتَ الْعَافِيَةَ فَاسْجُدْ لِي سَجْدَةً، فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.

ويقال إن أيوب - عليه السلام - كان مُكَاشَفًا بالحقيقة، مأخوذاً عنه، فكان لا يُجَسُّ بالبلاء، فَسَتَرَ عليه مرةً، ورَدَّه إليه، فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.
ويقال أَدْخَلَ على أيوب تلك الحالة، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية.

ويقال أوحى الله إلى أيوب - عليه السلام - أَنَّ هَذَا الْبَلَاءُ اختاره سبعون نبياً قَبْلَكَ فَمَا اخْتَرْتَهُ إِلَّا لَكَ، فلَمَّا أَرَادَ كَشْفَهُ عَنْهُ قَالَ: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾.

وقيل كوشف بمعنى من المعاني فلم يَجِدْ أَلَمَ الْبَلَاءِ فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ لِفَقْدِي أَلَمَ الضُّرِّ.

وقال جعفر الصادق^(٢): حَبَسَ عَنْهُ الْوَحْيُ أَرْبَعِينَ يَوْماً فقال: ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾

(١) الذوائب: (ج) الذؤابة: ضفيرة الشعر المرسلة.

(٢) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ - ١٤٨ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٥ م) الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه جماعة منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بين العباس وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق. له «رسائل» مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون. مولده ووفاته بالمدينة. الأعلام ١٢٦/٢، ووفيات الأعيان ١/١٠٥، وصفة الصفوة ٢/٩٤، وحلية الأولياء ٣/١٩٢.

لما لِحَقَّه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب إليه بأن ردَّ عليه قُوَّتَه ليقوم بحق الطاعة .
ويقال طلب الزيادة في الرضا فاستجيب له بكشف ما كان به من ضعف الرضا .
ويقال إن الضر الذي شكا منه أنه بقيت عليه بقية ، وبليته كانت ببقيته ، فلما أخذ عنه بالكلية زال البلاء ، ولهذا قال : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] وكانت نفسه ضرة ، وردَّ عليه السلامة والعافية والأمل - في الظاهر - لما صار مأخوذاً بالكلية عنه ، مُتَّقِي عن كل بقية ، وعند ذلك يستوي البلاء والعافية ، والوجود والفقْد .
قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَعِذْ وَادْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .
أي واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، ثم قال :
قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .
بَيِّنَ الْحُكْمَ والمعنى ؛ الحكم صبرهم وصلاتهم ، والمعنى إدخاله إياهم في الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .
﴿ مُغْضِبًا ﴾ : على مَلِكٍ وقته حيث اختاره للنبوَّة ، وسأله : لِمَ اخترتني ؟ فقال :
لقد أوحى الله إلى نبي : أن قل لفلان المَلِك حتى يختار واحداً لِيُرْسَلَ إلى نينوى ^(١)
بالرسالة . فتخلَّ على ذي النون لما اختاره المَلِك ؛ لأن علم أن النبوَّة مقرونة بالبلاء ، فكان غضبه عليه لذلك .

ويقال مغاضباً على قومه لما امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .
ويقال مغاضباً على نفسه أي شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مُخَالِفِيهِ .

﴿ فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي أن لن نُضَيِّقَ عليه بطن الحوت ، من قوله : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلُّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الفجر : ١٦] أي ضيق .

ويقال فظَنَّ أن لن نقدر عليه من حَبْسِهِ في بطن الحوت .
وخرج من بين قومه لما أُخْبِرَ بأن الله يُعَذِّبُ قومه ، وخرج بأهله .
ويقال إن السبع افترس أهله في الطريق ، وأخذ النَّمِرُ ابناً صغيراً له كان معه ، وجاء موج البحر فأغرق ابنه الآخر ، وركب السفينة ، واضطرب البحر ، وتلاطمت أمواجه ،

(١) نَيْنَوَى : وهي قرية يؤنس بن متى عليه السلام ، بالموصل ؛ ويسواد الكوفة ناحية يقال لها : نينوى منها كربلاء التي قتل بها الحسين رضي الله عنه . (معجم البلدان ٥/ ٣٣٩) .

وأُشْرِفَتْ السَّفِينَةُ عَلَى الْغَرَقِ، وَأَخَذَ النَّاسُ فِي الْإِقَاءِ الْأَمْتَعَةَ فِي الْبَحْرِ تَخْفِيفاً عَنِ السَّفِينَةِ، وَطَلَباً لِسَلَامَتِهَا مِنَ الْغَرَقِ، فَقَالَ لَهُمْ يُونُسُ: لَا تُلْقُوا أَمْتِعَتَكُمْ فِي الْبَحْرِ بَلْ أَطْرَحُونِي فِيهِ فَأَنَا الْمَجْرَمُ فِيمَا بَيْنَكُمْ لِتَخْلُسُوا. فَنظَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا: نَرَى عَلَيْكَ سِيمَاءَ الصَّلَاحِ، وَلَيْسَتْ تَسْمَحُ نَفْسُنَا بِالْقَائِكَ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْهُ: ﴿فَنَاهَمُ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] أَيِ فَقَارِعِهِمْ، فَاسْتَهَمُوا، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ.

وفي القصة أنه أتى حَرْفُ السَّفِينَةِ، وَكَانَ الْحَوْثُ فَاعِراً فَاهُ، فَجَاءَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ فَجَاءَ الْحَوْثُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ، حَتَّى جَازَ كُلَّ جَانِبٍ. ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُرَادٌّ بِالْبَلَاءِ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ فَابْتَلَعَهُ الْحَوْثُ «وَهُوَ مَلِيمٌ»: أَيِ أَتَى بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وأوحى الله إلى السمك: لَا تَخْذِشْ مِنْهُ لَحْماً وَلَا تَكْسِرْ مِنْهُ عَظْماً، فَهُوَ وَدِيعَةٌ عِنْدَكَ وَلَيْسَ بِطُعْمَةٍ لَكَ. فَبَقِيَ فِي بَطْنِهِ - كَمَا فِي الْقِصَّةِ - أَرْبَعِينَ يَوْماً. وَقِيلَ إِنَّ السَّمَكَ الَّذِي ابْتَلَعَهُ أُمِرَ بِأَنْ يَطُوفَ فِي الْبَحْرِ، وَخَلَقَ اللَّهُ لَهُ إِدْرَاكَ مَا فِي الْبَحْرِ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ.

ويقال إن يونس عليه السلام صَحِبَ الْحَوْثَ أَيَّاماً قَلِيلَةً فَإِلَى الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُ: ذَا النُّونِ، وَلَمْ تَبْطُلْ عَنْهُ هَذِهِ النِّسْبَةُ. . . فَمَا ظَنُّكَ بِعَبْدٍ عَبْدَهُ - سَبْحَانَهُ - سَبْعِينَ سَنَةً، وَلَازِمَ قَلْبِهِ مَحَبَّتَهُ وَمَعْرِفَتَهُ طَوْلَ عَمْرِهِ. . . تَرَى أَيْبُطْلُ هَذَا؟ لَا يُظَنُّ بِكَرَمِهِ ذَلِكَ! ﴿فَنَكَدَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يُقَالُ ظَلَمَ اللَّيْلَ وَظَلَمَ الْبَحْرَ وَظَلَمَ بَطْنَ الْحَوْثِ - هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الظُّلُمَاتُ مَا التَّبَسَّ عَلَيْهِ مِنْ وَقْتِهِ وَاسْتَبْهَمَ عَلَيْهِ مِنْ حَالِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. استجبنا له ولم يَجْرِ مِنْهُ دَعَاءٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وَلَمْ يَقْرَ بِالظُّلْمِ إِلَّا وَهُوَ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يَعْنِي: كُلُّ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا أَصَابَهُ غَمٌّ، أَوْ اسْتَقْبَلَهُ مِنْهُمْ - مِثْلَمَا قَالَ ذُو النُّونِ نَجِيْنَاهُ كَمَا نَجِيْنَاهُ ذَا النُّونِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَكْنَاهُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ سَأَلَ الْوَلَدَ، وَإِنَّمَا سَأَلَهُ لِيَكُونَ لَهُ مُعِيناً عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ وَلِيَقُومَ فِي النُّبُوَّةِ مَقَامَهُ، وَلِثَلَا تَنْقَطِعَ بَرَكَةُ الرِّسَالَةِ مِنْ بَيْتِهِ، وَلَقَدْ قَاسَى زَكَرِيَّا مِنَ الْبَلَاءِ مَا قَاسَى حَتَّى حَاولُوا قَطْعَهُ بِالْمَنْشَارِ، وَلَمَّا التَّجَّأَ إِلَى الشَّجَرَةِ انشَقَّتْ لَهُ وَتَوَسَّطَهَا، وَالتَّامَتِ الشَّجَرَةُ، وَفَطَنُوا إِلَى ذَلِكَ فَقَطَعُوا الشَّجَرَةَ بِالْمَنْشَارِ، وَصَبَرَ اللَّهُ، وَسَبَّحَانَ اللَّهُ!

كان انشقاق الشجرة له معجزة، وفي الظاهر كان حفظاً له منهم، ثم لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سلامته، ولعلهم - لو قتلوه - لم يُصِبه من الألم القدر الذي لحقه من القطع بالمنشار طول إقامته، وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كان له معجزة، فقوي بذلك يقينه لما رأى عجب الأمر فيه من تفض العادة، ثم البلاء له بالقتل ليس ببلاء في التحقيق، ولقد قال قائلهم: «إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى».

قوله جل ذكره: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُۥ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾.

سمي يحيى لأنه حيى به عقر أمه.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُۥ﴾: لتكون الكرامة لهم جميعاً بالولد، ولثلا يستبد زكريا بفرح الولد دونها مراعاة لحق صحبتها. وهذه سئله الله في باب إكرام أوليائه، وفي معناه أشدوا:

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشَنَ

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا﴾ وفي هذا بشارة لجميع المؤمنين، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة؛ إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر^(١)، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر^(٢).

قوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ الخشوع قشعريرة القلب عند اطلاع الرب، وكان لهم ذلك على الدوام.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن زُرُوجِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

يعني مريم، وقد نفى عنها سمة الفحشاء وهجنة الدم.

ويقال فنفخنا فيها من روحنا، وكان النفخ من جبريل عليه السلام، ولكن لما كان بأمره - سبحانه - صحت الإضافة إليه، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول، فإنه يكون بانزال ملك فصيح الإضافة إلى الله إذ كان بأمره. وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص، كقوله: (ناقة الله، وبيتي). . . ونحو ذلك: ﴿وجعلنا وابنها آية للعالمين﴾: ولم يقل آيتين لأن أمرهما كان معجزة ودلالة، ويصح أن يراد أن كل واحد منهما آية - على طريقة العرب في أمثال هذا.

(١) هنا إشارة إلى سورة الحجر آية (٥٦).

(٢) كذلك هنا إشارة إلى سورة الأعراف آية (٩٩).

وفيه نفي لتهمة مَنْ قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم!

قوله ﴿آيَةً للعالمين﴾: وإن لم يهتد بهما جميعُ الناس . . . لكنهما كانا آيةً. ومَنْ نَظَرَ في أمرهما، ووضَعَ النظرَ موضِعَه لاهتدى، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها حُجَّةً ودلالةً بتقصير المُقْصِر في بابها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾.

أي كلِّكم خَلَقْتُهُ، وكلِّكم اتَّفَقْتُمْ في الفقر، وفي الضعف، وفي الحاجة. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾: وخالقكم على وصفِ التَّفَرُّد.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَقُطِعْ أَرْهَامَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾.

اختلفوا وتنازعوا، واضطربت أمورهم، وتفرَّقت أحوالهم، فاستأصلتهم البلياء.

قوله: ﴿كل إلينا راجعون﴾: وكيف لا . . . وهم ما يتقلبون إلا في قبضة التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِزَ الْصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ، وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونَ﴾.

مَنْ تَعَنَّى لله لم يخسر على الله، وَمَنْ تَحَمَّلَ لله مشقةً وَجَبَ حَقُّه على الله: قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بعد قوله: ﴿يَعْمَلْ مِزَ الْصَّالِحَاتِ﴾ دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً ففائدة قوله ها هنا: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ في المآل والعاقبة، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يُخْتَمُ له بالسعادة، فيكون في الحال مؤمناً وعمله يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له، فإذا كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذٍ لا يضيع سَعْيُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرِينِهِ أَفْكَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أي لا نهلك قوماً وإن تمادوا في العصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون، وأنه بالشقاوة تُخْتَمُ أمورهم.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا فُجِّحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾.

أي يحق القول عليهم، ويتم الأجل المضروب لهم، فعند ذلك تظهر أيامهم، وإلى القدرِ المعلوم في التقدير لا تحصل نجاة الناس من شرهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوْلَتْنَا قَدَّ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

تأخذهم القيامة بغتة، وتظهر أشراط الساعة فجأة، ويُقرُّ الكاذبون بأنَّ الذنبَ عليهم، ولكن في وقت لا تُقبل فيه معذرتهم، وأوان لا ينفعهم فيه إيمانهم.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾.

﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أي الأصنام التي عبدوها، ولم تدخل في الخطاب الملائكة التي عبدها قوم، ولا عيسى وإن عبده قوم لأنه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل إنكم ومن تعبدون. فيُخسَر الكافرون في النار، وتُخسَر أصنامهم معهم. والأصنام جمادات فلا جُرم لها، ولا احتراقها عقوبة لها، ولكنه على جهة براءة ساحتها، فالذنب للكفار وما الأصنام إلا جمادات.
قوله جل ذكره: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَآءَ إِلَهِةَآ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

القوم قالوا: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فعلموا أن الأصنام جمادات، ولكن توهموا أن لها عند الله خطراً، وأن من عبدها يُقربُ بعبادتها من الله، فبيّن الله لهم - غداً - بأنها لو كانت تستحق العباداة، ولو كان لها عند الله خطرٌ لما أُلقيت في النار، ولما أُخْرِقَتْ.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿لَهُمْ﴾: أي لعبدة الأصنام، ﴿فِيهَا﴾ أي في النار، ﴿زَفِيرٌ﴾ لحسرتهم على ما فاتهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من نداء يبشرهم بانقضاء عقوبتهم.

وبعكس أحوالهم عصاة المسلمين في النار فهم - وإن عذبوا حيناً - فإنهم يسمعون قول من يبشرهم يوماً بانقضاء عذابهم - وإن كان بعد مدة مديدة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: أي الكلمة بالحسنى، والمشيئة والإرادة بالحسنى، لأن الحسنى فعله، وقوله: ﴿سَبَقَتْ﴾ إخبار عن قدمه، والذي كان لهم في القدم هو الكلمة التي هي صفة تعلقت بهم في معنى الإخبار بالسعادة.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي عن النار، ولم يقل متباعدون ليَعْلَمَ العالمون أن المدار على التقدير، وسابق الحكم من الله، لا على تباعد العبد أو بتقرُّبه.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

يدل على ذلك أنهم لا يُعذبون فيها بكل وجه. والمراد منه العباد من المؤمنين الذين لا جُرم لهم.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: مقيمون لا يرحلون.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قيل الفزع الأكبر قول الملك: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢].

ويقال إذا قيل: ﴿وَأَمْتَرُوا يَوْمَئِذٍ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويقال إذا قيل: يا أهل الجنة.. خلوداً لا موت فيه، ويا أهل النار.. خلوداً لا موت فيه!

وقيل إذا: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق. وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك.

قوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يقال لهم هذا يومكم الذي كنتم وعِدْتُمْ فيه بالثواب؛ فمنهم مَنْ يَتَلَقَّاهُ الْمَلَكُ، ومنهم مَنْ يَرِدُ عَلَيْهِ الْخَطَابُ والتعريف من الملك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُوبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها، والأرض كانت فِرَاشاً إذ كانوا عليها، فإذا ارتحل الأحباب عنها تخرب ديارهم. على العادة بين الخلق من خراب الديار بعد مفارقة الأحباب.

ويقال نطوي السماء التي إليها عَرَجَتْ دواوينُ العصاة من المسلمين لثلاث تشهد عليهم بالإجرام، وتُبَدِّلُ الأرض التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام.

أو نطوي السماء لنُقَرِّبَ قُطْعَ المسافات على الأحباب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

﴿الذِّكْرُ﴾ هنا هو التوراة، و﴿كَتَبَ﴾: أي أخبر وحكَمَ، و﴿الصَّالِحُونَ﴾ أمة محمد - ﷺ: أَنْ ﴿الْأَرْضَ﴾ هم الذين يرثونها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

أَمَّا مَنْ أَسْلَمَ فَبِكَ يَنْجُونَ، وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ فَلَا نَعِذُهُمْ مَا دُمْتَ فِيهِمْ؛ فانت رحمة منّا على الخلائق أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهًا وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، واحد بلا قسيم، واحد بلا شبيه، واحد بلا شريك.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون في عقد التوحيد بالتبري عن كل غير في حسابان صلاحيته للالهية؟

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَآذُنُكُمُ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

إن أعرضوا ولم يؤمنوا فقل: إني بالالتزام أعلمتكم، ولكن للإكرام ما ألهمتكم، فتوجهت عليكم الحجة واستبهمت عليكم المحجة.

قوله: ﴿وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَقْرَبَ أَمْ بَعِيدٌ﴾ إن علمي متقاصر عن تفصيل أحوالكم في مآلكم، ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل أهوالكم، ولكن حكم الله غير مستأخر إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

لا يخفى عليه سرُّكم ونجواكم، وحالكم ومآلكم، وظاهركم وباطنكم. . فعلى قدر استحقاقكم يجازيكم، وبموجب أفعالكم يحاسبكم ويكافئكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ لَعَلَّكُمْ فَتَنَّا لَكُم مِّنْهُ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ليس يحيط علمي إلا بما يغليمني، وإعلامه إياي ليس باختياري، ولا هو مقصود على حسب مرادي وإيثاري.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

الرحمن كثير الرحمة عامة لكل أحد، ومنه يوجد العون والنصر حين يوجد وكيف يوجد.

السورة التي يذكر فيها «الحج»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سماع «بسم الله» يوجب الهيبة والغيبة وذلك وقت محوهم . وسماع «الرحمن الرحيم» يوجب الأنس والقربة، وذلك وقت صحوهم . . فعند سماع هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سلك واحد .

سماع «بسم الله» يوجب انزعاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم، وسماع «الرحمن الرحيم» يوجب ابتهاج القلوب وبه يحصل شفاء فتونهم، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورِيَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ نداء علامة، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] نداء كرامة، وبكل واحد من القسمين يفتح الحق خطابه في السور، وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرة، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى مي التحرز والاتقاء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات فرض، وتجنب الفضلات والشواغل - وإن كان من جملة المباحات - نفل، فثواب الأول أكثر ولكنه مؤجل، وثواب النفل أقل ولكنه معجل .

ويقال خوفهم بقوله: ﴿آتِفُورِيَّكُمْ﴾ . ثم سكن ما بهم من الخوف بقوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ فإن سماع الربوبية يوجب الاستدامة وجميل الكفاية .

قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ : وتسمية المعدوم «شيئاً» توسع، بدليل أنه ليس في العدم زلزلة بالاتفاق وإن كان مطلق اللفظ يقتضيه، وكذلك القول في تسميته «شيئاً» هو توسع .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ .

لكل ذلك اليوم شغل يستوفيه ويستغرقه، وترى الناس سكارى أي من هول ذلك

اليوم عقولهم ذاهبة، والأحوال في القيامة وأحوالها غالبة. وكأنهم سكارى وما هم في الحقيقة بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، ولشدته يحيرهم ولا يبقيهـم على أحوالهم. وهم يتفقون في تشابههم بأنهم سكارى، ولكن موجب ذلك يختلف؛ فمنهم من سكره لِمَا يُصِيبُه من الأحوال، ومنهم من سكره لاستهلاكه في عين الوصال.

كذلك فسكرهم اليوم مختلف؛ فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب. وشأن بين سكر وسكر! سكر هو سكر أهل الغفلة، وسكر هو سكر أهل الوصلة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

المجادلة لله - مع أعداء الحق وجاحدي الدين - من موجبات القرية، والمجادلة في الله، والمماراة مع أوليائه، والإصرار على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة، وما كان لوساوس الشيطان ونزغاته فقصاراه النار.

قوله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

من وافق الشيطان بمتابعة دواعيه لا يهديه إلا إلى الضلال، ثم إنه في الآخرة يتبرأ من موافقته ويلعن جملة متبعيه. فنعوذ بالله من الشيطان ونزغاته، ومن درك الشقاء وشؤم مفاجاته.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْسَنَ لِمَا أَجَلِ مَسَىٰ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾.

التبس عليهم جواز بعثه الخلق واستبعدوه غاية الاستبعاد، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان، واحتج عليهم في ذلك بما قطع حجتهم، فمن تبع هـداه رشيد، ومن أصر على غيه تردى في مهواة هلاكه.

واحتج عليهم في جواز البعث بما أقرؤا به في الابتداء أن الله خلقهم وأنه ينقلهم من حال إلى حال أخرى؛ فبدأهم من نقطة إلى علقه ومنها ومنها... إلى أن نقلهم من حال شبابهم إلى زمان شيبهم، ومن ذلك الزمان إلى حين وفاتهم.

واحتج أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض - في حال الربيع - بعد موتها، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة. والذي يقدر على هذه

(١) انظر حديث القشيري عن السكر في الرسالة القشيرية ص ٧١، ٧٢.

الأشياء يقدر على خَلْق الحياة في الرُّمَّة البالية والعظام النخرة.
قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]: زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجة عقب المشاهدة.

ويقال أَرْدَلُ العمر السعي للحفظ بعد القيام بالحقوق.

ويقال أَرْدَلُ العمر الزلة في زمان المشيب.

ويقال أَرْدَلُ العمر الإقامة في منازل العصيان.

ويقال أَرْدَلُ العمر التعرّيج في أوطان المذلة.

ويقال أَرْدَلُ العمر العِشْرَةُ مع الأضداد.

ويقال أَرْدَلُ العمر عَيْشُ المرء بحيث لا يُعْرِفُ قَدْرَهُ.

ويقال أَرْدَلُ العمر بأن يُوكَل إلى نَفْسِهِ.

ويقال أَرْدَلُ العمر التطوح في أودية الحساب أن شيئاً بغير الله.

ويقال أَرْدَلُ العمر الإخلاد إلى تدبير النَّفْس، والعَمَى عن شهود تقدير الحق.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَلِكَ يَأْنَى اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يَمِينُ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الله هو الحق، والحق المطلق الوجود، وهو الحق أي ذو الحق.

﴿وَأَنْتُمْ يَمِينُ الْمَوْتِ﴾ أي الأرض التي أصابتها وَخْشَةُ الشتاء يحييها وقت الربيع.

ويقال يحيي النفوس بتوفيق العبادات، ويحيي القلوب بأنوار المشاهدات.

ويقال يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم.

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر، ثم بجميل الرضا وسكون الجأش عند جريان التقدير.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عَلَيْهِ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

دليل الخطاب يقتضي جواز المجادلة في الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة ليستطيع المناضلة عن دينه، قال سبحانه لنبيه: ﴿وَخَذِلْهُمْ بِأَلْقِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وَمَنْ لَمْ يُحْسِنْ مَذْهَبَ الْخَصْمِ وما يتعلق به من الشَّيْءِ لَمْ يُمْكِنَ الانفصال عن شُبْهَتِهِ، وإذا لم تكن له قوة الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ له أن يجادل الأقوياء منهم، وهذا يدل على وجوب تعلُّم علم الأصول، وفي هذا ردُّ على مَنْ جَحَدَ ذلك.

(١) الآية (٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْخَرْقِ﴾.

يريد أنه متكبر عن قبول الحق، زاهد في التحصيل، غير واضح نظره موضعه؛ إذ لو فعل ذلك لهان عليه التخلص من شُبُهته.

ثم قال: ﴿لِمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي مذلة وهوان، وفي الآخرة عذاب الحريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١).

يعني يكون على جانب، غير مخلص... لا له استجابة توجب الوفاق، ولا جحداً يبين الشقاق؛ فإن أصابه أمنٌ وخيرٌ ولينٌ اطمأن به وسكن إليه، وإن أصابته فتنة أو نالته محنة ارتد على عقبه ناكساً، وصار لِمَا أظهر من وفاقه عاكساً. ومن كانت هذه صفته فقد خسر في الدارين، وأخفق في المنزلتين.

قوله جل ذكره: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾.

أي يعبد من المضرّة في عبادته أكثر من النفع منه، بل ليس في عبادته النفع بحال، فالضرُّ المتيقن في عبادتهم الأصنام هو بيان ركافة عقولهم، ورؤية الناس خطأ فعلهم. والنفع الذي يتوهمونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة.

ثم قال: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾: أي لبس الناصر الصنم لهم، ولبس القوم هم للصنم، ولم لا؟ ولأجله وقعوا في عقوبة الأبد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: أي صدّقوا ثم حقّقوا؛ فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق، ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق.

ويقال الإيمان انتسام الحق في السر.

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان، ففي الحال يجب الإيمان وفي المال يوجب الأمان، فمُعْجَلُ الإيمان من (...)^(٢) المسلمين، وموَجَّلُه الخلاص من صحبة الكافرين الفاسقين.

وقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويصلح للشواب، وهو أن يكون على الوجه الذي تعلق به الإيمان.

(٢) يبايض في الأصل.

(١) الآية (١٠) لم ترد.

والجنان التي يدخل المؤمنين فيها مؤجلة ومعجلة، فالمؤجلة ثواب وتوبة، والمعجلة أحوال وقربة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

أي أن الحق - سبحانه - يرغم أعداء رسول الله ﷺ، فمن لم تطب نفسه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرد به فليقتل نفسه من الغيظ خنقاً، ثم لا ينفعه ذلك، كما قيل:

إن كنت لا ترضى بما قد ترى فدونك الحبل به فاخنق

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ﴾: أي دلالات وعلامات نصبها الحق سبحانه لعباده، فمن الآيات ما هو قضية العقل، ومنها ما هو قضية الخبر والنقل، ومنها ما هو تعريفات في أوقات المعاملات فما يجده العبد في حالاته من انغلاق، واشتداد قبض، وحصول خسران، ووجوه امتحان. لا شك ولا مرية إذا أخل بواجب أو أَلَمَّ بمحذور. أو تكون زيادة بسط أو حلاوة طاعة، أو تيسير عسير من الأمور، أو تجدد إنعام عند حصول شيء من طاعاته.

ثم قد يكون آيات في الأسرار، هي خطاب الحق ومحادثة معه، كما في الخبر: «لقد كان في الأمم محدثون فإن يك في أمتي فعمر»^(١).

ثم يقال الآيات ظاهرة، والحجج زاهرة، ولكن الشأن فيمن يستبصر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم: الولي والعدو، والموحد والجاحد يُجمعون يوم الحشر، ثم الحق - سبحانه - يعامل كلًّا بما وعده؛ إما بوصال بلا مدى، أو بأحوال بلا منتهى. الوقت واحد؛ وكل واحد لما أعد له وافد، وعلى ما خلق له وارد.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُم مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣)، والترمذي (منقب ١٧)، وأحمد بن حنبل (٦، ٥٥).

أهل العرفان يسجدون له سجود عبادة، وأرباب الجحود كل جزء منهم يسجد له سجود دلالة وشهادة.

وفي كل شيء له آية تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
قوله. جل ذكره: ﴿هَذَانِ خَصَمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

أما الذين كفروا فلهم اليوم لباس الشوك وطرازه الحرمان، ثم صدار الإفك
وطرازه الخذلان. وفي الآخرة لباسهم القطران^(١) وطرازه الهجران، قال تعالى:
﴿أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

أما أصحاب الإيمان فلباسهم اليوم التقوى، وتنقسم إلى اجتناب الشوك ثم
مجانبة المخالفة، ثم مباينة الغفلة، ثم مجانبية السكون إلى غير الله والاستبشار إلى ما
سوى الله. وفي الآخرة لباسهم فيها حرير، وآخرون لباسهم صدار المحبة، وآخرون
لباسهم الانفراد به، وآخرون هم أصحاب التجريد؛ فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا
محل وهم الغرباء^(٢)، وهم الطبقة العليا، وهم أحرار من رِق كل ما لحقه التكوين^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

التحلية تحصين لهم، وسر لأخوالهم؛ فهم للجنة زينة، وليس لهم بالجنة زينة:

وَإِذَا السُّدُرُ زَانٌ حُسْنٌ وَجُوهٌ كَانَ لِلدُّرِّ حُسْنٌ وَجْهَكَ زَيْنًا

قوله جل ذكره: ﴿وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾.

الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص، وسر صاف مما يزضى به علم
التوحيد، فهو الذي لا اعتراض عليه للأصول.

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين، ويقال الطيب من القول
هو إرشاد المريدين إلى الله.

(١) القطران: مادة سوداء سائلة لزجة تُستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف وتستعمل
لحفظ الخشب من التسوس والحديد من الصدأ.

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التصوف: سُئل أحمد بن الجلاء: ما معنى صوفي؟ فقال: لا
نعرفه في شرط العلم ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب، كان مع الله تعالى بلا مكان، ولا يمنعه
الحق سبحانه من علم كل مكان، فسمي صوفياً. (الرسالة القشيرية ص ٢٨٣).

(٣) الآيات (٢٠، ٢١، ٢٢) لم ترد.

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للمسلمين .

ويقال كلمة حق عند من يخاف ويُرْجَى .

ويقال الشهادتان عن قلب مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مغفوراً وهو مُسْتَنْطَقٌ .

ويقال هو بيان الاستغفار والعبد بريء من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

ويقال أَنْ تَدْعُوَ للمسلمين بما لا يكون لك فيه نصيب .

وأما ﴿ صِرَاطَ الْحَمِيدِ ﴾ : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع أي المسجد الجامع والصراط الحميد : الطريق المرضي وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه نكير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَكْبِفِ فِيهِ وَالْبَاءِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِحْكَامِ يُظْلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ ﴾ .

الصد عن المسجد الحرام بإخافة السُّبُل ، وبِعَضْبِ المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المسجد الحرام .

قوله : ﴿ سَوَاءَ الْعَكْبِفِ فِيهِ وَالْبَاءِ ﴾ وإنما يعتبر فيه السبق والتقدم .

ومشهد الكرام يستوي فيه الإقدام ، فَمَنْ وَصَلَ إلى تلك العقوة فلا ترتيب ولا رد ، وبعد الوصول فلا زَجْر ولا صد ، أما في الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴾ ولكن في الوصول فلا تفاوت ولا تباين ، ثم إذا اجتمعت النفوس فالموضع الواحد يجمعهم ، ولكن لكل حال ينفرد بها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهِّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

أصلحنا له مكان البيت وأسكنناه منه ؛ وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعناؤه عليه ، وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله ﴿ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ﴾ ، أي لا تلاحظ البيت ولا بناءك له .

﴿ وَطَهِّرَ بَيْتِيَ . . . ﴾ يعني الكعبة - وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فَرَّغَ قَلْبَكَ عن الأشياء كلها سوى ذكره - سبحانه .

وفي بعض الكتب: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء فَرَّغَ لي بيتاً أسكنه، فقال ذلك الرسول: إلهي... أي بيت تشغل؟ فأوحى الله إليه: ذلك قلب عبدي المؤمن». والمراد منه ذكر الله تعالى؛ فالإشارة فيه أن يَفْرِغَ قلبه لذكر الله. وتفرغ القلب على أقسام: أوله من الغفلة ثم مِنْ تَوْهُم شيء من الحداث من غير الله.

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بِصَوْنِ القلب عن ملاحظة العمل، وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال.

ويقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾: أي قَلْبَكَ عن التطلع والاختيار؛ بألا يكون لك عند الله حظ في الدنيا أو في الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بحقائق العبودية.

ويقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾: أي بإخراج كل نصيب لك في الدنيا والآخرة من تطلع إكرام، أو تَطَلُّبِ إنعام، أو إرادة مقام، أو سبب من الاختيار والاستقبال.

ويقال طَهَّرَ قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق. ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ وهي الأشياء المقيمة من مستودعات العرفان في القلب من الأمور الْمُغْنِيَةِ عن البرهان، ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالعَيَان كما في الخبر: «كانك تراه»^(١).

﴿وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾: هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرغبة، والرجاء والخافة، والقبض والبسط، وفي معناه أنشدوا:

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بيتَه والمَتما
وطوافي إجمالة السُرْف فيه وهو ركني إذا أردت استلاما
قوله: ﴿لَا تُتْرَكُ فِي شَيْءٍ﴾: لا تلاحظ البيت ولا بناءك للبيت.

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود رب البيت.
قوله جل ذكره: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى، وأسمع الله نداءه جميع الذرية في أصلاب آبائهم، فاستجاب مَنْ المعلوم مِنْ حاله أنه يحج.
وقدَّم الرِّجَالَةَ على الركبان لأنَّ الحَمَلَ على المركوب أكثر.

(١) هنا الخبر إشارة إلى الحديث: «أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك في الموتى» أخرجه المنذري في (الترغيب والترهيب ١٠٦/٤ - ٢٤٣).

أو إلى حديث «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» سبق تخريجه.

ولتلك الجمال على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب، وفي قريب من معناه أنشدوا:

وإنَّ جمالاً قد علاها جمالكم - وإن قُطعت أكيادنا - لحبائب
ويقال ﴿يَأْنِيكَ مِنْ كُلِّ فَيْحٍ عَمِيْقٍ﴾ هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم .
وكم قَدْرُ مسافة الدنيا بجمالها؟! ولكن لِأَجْلِ قَدْرِ أفعالهم وتعظيم صنيعهم
يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه .
قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالهم، وأرباب الأعمال منافعهم حلاوة طاعتهم،
وأصحاب الأحوال منافعهم صفاء أنفاسهم، وأهل التوحيد منافعهم رضاهم باختيار
الحق ما يبدو من الغيب لهم .
قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الْأَنْعَامِ﴾ .

لأقوام عند التقرب بقرايبتهم وسوق هذيتهم^(١) . وآخرون يذكرون اسمه عند
ذبحهم أمانيتهم واختيارهم بسكاكين اليأس . . حتى يقوموا بالله لله بِمَحَوِّ ما سوى الله .
قوله جلّ ذكره: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ .

شَارَكُوا الفقراء في الأكل من ذبيحتكم - الذي ليس بواجب - لتلحقكم بركات
الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا ساحة الخضوع والتواضع، ومجانبة الزهو والتكبر .
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَّذْرَهُمْ﴾ .

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودهم، وليوفوا نذرهم فيما عقدوه مع الله
بقلوبهم، فَمَنْ كان عقده التوبة فوفاؤه ألا يرجع إلى العصيان . وَمَنْ كان عهده اعتناق
الطاعة فَشَرَطَ وفائه ترك تقصيره . ومن كان عهده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام
فوفاؤه استقامته على الجملة في هذا الطريق ألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء
حظ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِيَبْطَرُوا فِي الْبَيْتِ الْغَيْبِ﴾ .
الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنفسه حول البيت، وبقلبه في ملكوت
السماء، وبسرّه في ساحات الملكوت .

(١) الهذّي: ما يُهدى إلى الحرم من الإبل والبقر والغنم ليُنحر ويذبح هناك ويُتصدق بلحمه . الواحدة هدية .

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

تعظيم الحرمات بتعظيم أمره؛ وتعظيم أمره بترك مخالفته.

ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آثره من هواه على رضى مولاه، ولا محالة سيلقى سريعا غيّه.

ويقال تعظيم حرّماته بالغيرة على إيمانه وما فجّر صاحب حُرمة قط.

ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة، وترك الحرمة يوجب الفرقة.

ويقال كل شيء من المخالفات فللعفو فيه مساغ وللاّمل إليه طريق، وترك الحرمة على خطر ألا يغفر. . . وذلك بأن يؤدي ثبوته بصاحبه إلى أن يختل دينه وتوحيده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْآثَمَ إِلَّا مَا يَتَلَى عَلَيْكُمْ﴾.

فالخنزير من جملة المحرمات، وكذلك النطيحة^(١) والموقوذة^(٢)، وما يجيء تفصيله في نصّ الشرع.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

«من» ها هنا للجنس لا للتبعض، وهوى كل من اتبعه معبوده، وصنم كل أحد نفسه.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قول

القلب ونطقه، ومن عاهد الله بقلبه ثم لا يفي بذلك فهو من جملة قول الزور.

قوله جلّ ذكره: ﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَنُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

الحنيف المائل إلى الحق عن الباطل في القلب والنفس، في الجهر وفي السر، في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال.

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾: الشرك جليّ وخفيّ.

قوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا...﴾ كيف لا.. وهو يهوي في جهنم وتتجاذبه

ملائكة العذاب؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق.. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

(١) النطيحة: الشاة المنطوحة تموت فلا يجل أكلها. (اللسان ٢٦١/٢ مادة: نطع).

(٢) الموقوذة: الشاة ونحوها تضرب حتى تموت ثم تؤكل. وقيل: المضروبة حتى تموت ولم تؤكل. (اللسان ٥١٩/٣ مادة: وقد).

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَكُمْ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً، وبخواطر الإلهام سراً. وكما لا تجوز مخالفة شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإن خاطر الحق لا يكذب، وعزيز من له عليه وقوف. وكما أن النفس لا تصدق فالقلب لا يكذب، وإذا خولف القلب عَمِيَ في المستقبل، وانقطعت عنه تعريفات الحقيقة، والعبارة والشرح يتقاصران عن ذكر هذا على التعيين والتفسير. ويقوي القلب بتحقيق المنازلة؛ فإذا خرسست النفوس، وزالت هواجسها، فالقلوب تنطق بما تُكاشف به من الأمور.

ومن الفرق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم من جرى عليه ذلك معناه، ولا يكون الذي يجري عليه ما يُجْرَى مضطراً إلى ما يُجْرَى. وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار، بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبعيد.

قوله جل ذكره: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

لكل من تلك الجملة منفعة بقدره وحده؛ فلاقوام بركات في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم، ولآخرين في لذاذات بسطهم، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم، ولآخرين في أنس أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات، متفقة فيما كان من جملة المعارف، ثم هم فيها مختلفون: فقوم هم أصحاب التضعيف^(١) فيما أوجب عليهم وجعل لهم، وقوم هم أصحاب التخفيف فيما ألزموا وفيما وعد لهم. قوله ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ﴾ وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام: منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم. . . وذلك من حيث الشكر، ثم يذكرون اسمه على ما وفقهم لمعرفة بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يثيبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَجَدَ فَلَهُ اسْلِمُوا وَيَتَرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي استسلموا لحكمه بلا تعيس ولا استكراه من داخل القلب.

(١) قال القشيري برسالته: إن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه. (الرسالة القشيرية ص ٣٨٠).

والإسلام يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات، ثم تصفية الأخلاق من الكدورات، ثم تصفية الأحوال، ثم تصفية الأنفاس. ﴿وَيَثِيرَ الْمُخْنِينَ﴾: الإخبات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة. ومن أمارات الإخبات كمال الخضوع بشرط دوام الخشوع، وذلك بإطراق السريرة.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الوجلُّ الخوف من المخافة، والوجلُّ عند الذكر على أقسام: إما لخوف عقوبة ستحصل أو لمخافة عاقبة بالسوء تختتم، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت، أو إصلاح أهبة، أو حياء من الله سبحانه في أمور إذا ذكر اطلاعه - سبحانه - عليها لما بدرت منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة.

ويقال الوجلُّ على حسب تجلي الحق للقلب؛ فإن القلوب في حال المطالعة والتجلي تكون بوصف الوجل والهيبة.

ويقال وجلُّ له سبب وجل بلا سبب؛ فالأول مخافة من تقصير، والثاني معدود في جملة الهيبة^(١).

ويقال الوجلُّ خوف المكر والاستدراج، وأقربهم من الله قلباً أكثرهم من الله - على هذا الوجه - خوفاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾.

أي خامدين تحت جريان الحكم من غير استكراه ولا تمني خرجة، ولا روم فرجة بل يستسلم طوعاً:

ويقال الصابرين على ما أصابهم. أي الحافظين معه أسرارهم، لا يطلبون السلوة بإطلاع الخلق على أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾.

أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محل النجوى:

إذا ما تمئى الناس روحاً وراحاً تمئيت أن أشكو إليك فتسمعاً

قوله جل ذكره: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

عند المعاملة من أموالهم، وفي قضايا المنازلة بالاستسلام، وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير؛ فينفقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة، وينفقون قلوبهم على التسليم والخمود تحت جريان الأحكام بمطالبات الحقيقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْبَدَنَتِ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِنْ شَعْبِكُمْ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَّתَ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحمل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها ثم الاعتبار بخلقها كيف سُخِّرَت للناس على قوتها وصورتها، ثم كيف تنقاد للصبيان في البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في الأسفار، وعلى قليل العلف، ثم ما في طبعها من لطيف الطبع، وحيث تستريح بالخداء^(١) مع كثافة صورتها إلى غير ذلك.

﴿فَإِذَا وَجَّתَ جُنُوبَهَا﴾: أي سقطت على وجه الأرض في حال النحر فاطعموا القانع الذي ألقى جلاباب الحياء وأظهر فقره للناس، والمُعْتَرَّ الذي هو في تحمله مُتَحَمِّلٌ، ولمواضيع فاقته كاتم.

قوله جل ذكره: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لا عبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة، أو مالية صرفة، أو بما له تعلق بالوجهين، ولكن العبرة باقترانها بالإخلاص فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاص القصد، وتجردت، عن ملاحظة أصحابها للأغيار صلحت للقبول.

ويقال التقوى شهود الحق ينعت التفرد؛ فلا يُشَابَقُ تَقَرُّبُكُ بملاحظة أحد، ولا تأخذ عوضاً على عمل من بشر.

﴿لِشُكْرِكُمْ اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾: أي هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾: والإحسان كما في الخبر: «أن تعبد الله كأنك تراه..».

وأمانة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه، فلا يستقل شيئاً. ولا يترحم بشيء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.

يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان، وعن قلوبهم خطرات العصيان، وعن أرواحهم طوارق النسيان.

والخيانة على أقسام: خيانة في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية، وخيانة في الأعمال، وخيانة في الأحوال؛ فخيانة الأعمال بالرياء والتصنع، وخيانة الأحوال

(١) الخداء: سوق الإبل والغناء لها. (لسان العرب ١٤/١٦٨ مادة: حدا).

بالملاحظة والإعجاب والمساكنة، وشُرُّها الإعجاب، ثم المساكنة وأخفاها الملاحظة.
ويقال خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا على طلب الأعواض ليجدوا في الآخرة
حُسْنَ المَالِ. . وهذا إخلاص الصالحين. ولكنه عند خواص الزهاد خيانة؛ لأنهم
تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العَوَاض على تركهم ذلك مِنْ قِبَلِ الله.
وخيانة العابدين أن يَدْعُوا شهواتهم ثم يرجعون إلى الرُّخْص، فلو صدقوا في
مرماهم لَمَا انحطُّوا إلى الرخص بعد ترقِّيهم عنها.
وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام، وتطلعهم لمنال منزلة وإكرام من
الحق ونوع تقريب.

وخيانة المحبين روم فرحة مما يمسه من برحاء المواجيد، وابتغاء خرجة مما
يَشْتَدُّ عليهم من استيلاء صَدِّ، أو غلبات شوق، أو تماذي أيام هَجَرٍ.
وخيانة أرباب التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عِزُّ، ورجوعهم - بعد امتحانهم
عنهم - إلى شظية من أحكام الفَرْق، اللهم إلا أن يكون ذلك منهم موجوداً، وهم عنه
مفقودون.

قوله جل ذكره: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

إذا أصابهم ضُرٌّ أو مَسْهَم - ما هو في الظاهر - ذُلٌّ من الأعادي يجري عليهم
ضَيْمٌ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاء وظلم. . فالحق - سبحانه - ينتقم من أعدائهم
لأَجْلِهِمْ، فهم بنعت التسليم والسكون في أغلب الأحوال، وتفاصيل الأقدار جارية
باستئصال مَنْ يناوئهم، وبإحالة الدائرة على أعاديهم. وفي بعض الأحيان ينصبهم
الحق سبحانه بنعت الغلبة والتمكين من نزولهم بساحات مَنْ يناوئهم بِحُسْنِ الظَّفَرِ،
وتمام حصول الدائرة على مَنْ ناصبهم، وأخزاهم بأيديهم، وكلُّ ذلك يتفق، وأنواع
النصرة من الله - سبحانه - حاصلة، والله - في الجملة - غالب على أمره.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

المظلوم منصور ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلوم حميد
العقبى، والظالم وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا
ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]. وقد يجري من النَّفْسِ وهواجسها على القلوب لبعض الأولياء
وأهل القصة - ظُلْمٌ، وَيَخْضَلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء،
وتستولي غَاغَةُ النَّفْسِ، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطان الغفلة حتى تتداعى
القلوب للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال، كما قال قائلهم:

أنعي إليك قلوباً طالما هطلت سحائب الجود فيها أبخر الحكم

فَيَهْرُمُ الْحَقُّ - سبحانه - بجنود الإقبال أراذل الهواجس، وينصر عسكر التحقيق بأمداد الكشوفات. ويتجدد دارس العهد، وتطلع شمس السعد في ليالي الستر، وتكنس القلوب وتنظف من آثار ظلمة النفس، كما قيل:

أطلال سغدى باللوى تتجدد

فإذا هبت على تلك القلوب رياح العناية، وزال عنها وهج النسيان سقاها الله صوب^(١) التجلي، وأنبت فيها أزهار البسطة فيتضح فيها نهار الوضيل، ثم يوجد فيها نسيم القرب إلى أن تطلع شمس التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْعُهُمْ وَبِيعَ وَصَلَاتُهُمْ وَمَسْجِدُهُمْ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

يتجاوز عن الأصغر لقدر الأكابر، ويعفو عن العوام لاحترام الكرام. . . وتلك سنة أجزاها الله لاستنقاء منازل العبادة، واستصفاء مناهل العرفان. ولا تحويل لسنته، ولا تبديل لكريم عاداته.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾.

إذا طالت بهم المدة، وساعدتهم العمر لم يستفروا أعمالهم في استجلاب حظوظهم، ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا.

وقوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في الظاهر، واستداموا المواصلات في الباطن.

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها؛ فتعلم - بين يدي الله - من أنت، ومن تناجي، ومن الرقيب عليك، ومن القريب منك.

وقوله: ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾: الأغنياء منهم يوفون بركة أموالهم، وفقراؤهم يؤتون زكاة أحوالهم؛ فزكاة الأموال عن كل مائتين خمسة للفقراء والباقي لهم، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نفس تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله، ونصف جزء من نفس - من المائتين - لك. . . وذلك أيضاً علّة.

قوله: ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: يتدثرون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنفسهم ثم بأغيارهم، فإذا أخذوا في ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم.

ويقال «الأمر بالمعروف» حفظ الحواس عن مخالفة أمره، ومراعاة الأنفاس معه إجلالاً لإقداره.

(١) الصوب: المطر بقدر ما ينفع ولا يؤذي.

ويقال الأمر بالمعروف على نفسك، ثم إذا فرغت من ذلك تأخذ في نهيتها عن المنكر. ومن وجوه المنكر الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

في الآيات تسلية للنبي - ﷺ، وأمر حتم عليه بالصبر على مقاساة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء.

قوله جل ذكره: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾.

الظلم يوجب خراب أوطان الظالم، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه، فالوحشة التي هي غالبية على الظلمة من ضيق صدورهم، وسوء أخلاقهم، وفراط غيظ من يظلمون عليهم. كل ذلك من خراب أوطان راحاتهم، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم.

ويقال خراب منازل الظلمة ربما يتأخر وربما يتعجل. وخراب نفوسهم في تعطيلها عن العبادات لشؤم ظلمهم، وخراب قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم. نقد غير مستأخر.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَبِئْرَ مُعَظِلَهُ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾.

الإشارة في ﴿وَيَبِئْرَ مُعَظِلَهُ﴾: إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم، وكانوا يستقون منها، وفي ذلك الاستقاء حياة أوقاتهم من غلبات الإرادة وقوة المواجه، فإذا اتصفوا بظلمهم غلب غناؤها^(١) وانقطع ماؤها بانسداد عيونها.

والإشارة في ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ إلى تعطيل أسرارهم عن ساكنيتها من الهيبة والأثر، وخلو أرواحهم من أنوار المحاب، وسلطان الاشتياق، وصنوف المواجه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

كانت لهم قلوب من حيث الخلقة، فلما زابتها صفاتها المحمودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة. ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذلك الصم. وإذا صح وصف القلب بالسمع والبصر صح وصفه بسائر صفات الحي من وجوه الإدراكات؛ فكما تبصر القلوب بنور اليقين يدرك نسيم الإقبال بمشام السر، وفي الخبر:

(١) الثناء: ما يحمله السيل من القمش. أو ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره. (لسان العرب ١٥/١١٥ - ١١٦ مادة: غثا).

«إني لأجد نفسَ ربيكم من قبَلِ اليمن»^(١) وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤] وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريح في الظاهر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

عَدَمُ تصديقهم حَمَلَهُمْ على استعمال ما توعدهم به، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] ولو آمنوا لصدّقوا، ولو صدّقوا لَسَكَنُوا. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾: أي إنّ الأيام عنده تتساوى، إذ لا استعجال له في الأمور؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة؛ إذ مَنْ لا يُجْرِي عليه الزمان وهو يُجْرِي الزمان فسواء عليه وجود الزمان، وعدم الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْبَةٍ أَتَيْتُ مَا وَهَى ظَالِمَةٌ لِّمَّا أَخَذَتْهَا وَلِئَلَّا الْمَصِيرُ﴾.

الإمهال يكون من الله - سبحانه وتعالى، والإمهال يكون بأن يدع الظالم في ظلمه حيناً، ويوسع له الحبل، ويطيل به المهل، فيتوهم أنه انفلت من قبضة التقدير، وذلك ظنه الذي أراده، ثم يأخذه من حيث لا يَرتَقِب، فيعلوه نَدَمٌ، ولات حينه، وكيف يستبقي بالحيلة ما حق في التقدير عَدَمُهُ؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أشابهكم في الصورة ولكني أباينكم من حيث السريرة، وأنا لحسنكم بشير، ولُمسيئكم نذير، وقد أيدت بإقامة البراهين ما جئتكم به من وجوه الأمر بالطاعة والإحسان.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

الناس - في المغفرة - على أقسام: فمنهم من يستر عليه زلّته، ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانة له عن الملاحظة، ومنهم من يستر حاله لثلاث تضييه من الشهرة فتنة، وفي معناه قالوا:

لا تُشْكِرُنَّ جُحْدِي هَوَاكَ فَإِنَّمَا ذاك الجحودُ عليك سِتْرٌ مُسْبِلٌ

ومنهم مَنْ يستره بين أوليائه، لذلك وَرَدَ في «انتب»: «أوليائي في قبائي، لا يشهد أوليائي غيري».

(١) للحديث رواية أخرى تقول: «إني لأجد نفس الرحمن من قبل...» أخرجه العجلوني في (كشف الخفاء) ٢٥١/١ - ٣٠٤.

﴿والرزق الكريم﴾ ما يكون من وجه الحلال . ويقال ما يكون من حيث لا يَحْتَسِبُ العبدُ .

ويقال هو الذي يبدو - من غير ارتقاب - على رَفَقٍ في وقت الحاجة إليه .
ويقال هو ما يَحْمِلُ المرزوق على صَرْفِهِ في وَجْهِ القربة . ويقال ما فيه البركة .
ويقال الرزق الكريم الذي يُنال من غير تعب ، ولا يتقلد مِثْلَ مخلوق .
قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآئِنِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .
في الحال في مَعْجَلِهِ الوحشة وانسداد أبواب الرشد ، وتنغصُ العيش ، والابتلاء بمن لا يعطف عليه ممن لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الإجمام .
قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَنَهَّي الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .
الشياطين يتعرَّضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ، ونبيئنا - ﷺ - أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تخيلٌ وتسويل من التضليل . وكان لنبيئنا - ﷺ - سَكَتَاتٌ في خلال قراءة القرآن عند انقضاء الآيات ، فيتلفظ الشيطان ببعض الألفاظ ، فَمَنْ لم يكن له تحصيلُ تَوْهَمٍ أنه كان من ألفاظِ الرسول - عليه الصلاة والسلام وصار فتنة لقوم .
أما - الذين أيدهم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استبصروا ولم يُضِرْهُمْ ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿يَجْعَلُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْفَاسِقَةُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

إذا أراد الله بِعَبْدِهِ خيراً أمده بنور التحقيق ، وأيده بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يُظْلَمُ غمامُ الرِّيبِ ، وينجلي عنه غطاءُ العَقْلَةِ ، فلا تأثير لضبابِ الغدَاةِ في شعاع الشمس عند متوع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِيبٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ مَلَكٌ يَلْقَاكُمْ فَيَقُولُ بِمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ كَذِبٌ بَيْنَهُمْ وَمِنَ الْكَاذِبِينَ كَذِبٌ يُكْتَبُ أَلَمْ يَعْلَمِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنْ أَعْمَالِهِمْ أَلَمْ يَعْلَمِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنْ أَعْمَالِهِمْ أَلَمْ يَعْلَمِ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِّنْ أَعْمَالِهِمْ﴾ .

لم يتخصص مَلَكه - سبحانه - بيوم، ولم تتحدد له وقته أمر، ولا لجلاله قَدْر، ولكن الدعوى في ذلك اليوم تنقطع، والظنون ترتفع، والتجويات تتلاشى؛ فللمؤمنين وأهل الوفاق نعم، وللكفار وأصحاب الشقاق نقم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُمْ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾.

هؤلاء لهم عذاب مهين، وهؤلاء لهم فضل مبین.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾: للقلوب حلاوة العرفان، وللأرواح حُلَّة المحاب، وللأسرار دوام الشهود.

قوله جل ذكره: ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلَ بَرْزَوْنَهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

إدخالاً فوق ما يَتَمَتُّونَهُ، وإبقاءً على الوصف الذي يُهْدُونَهُ.. ذلك في أوان صحوهم لينالوا لطائف الأنس على وصف الكمال، ويتمكنوا من قضايا البسط على أعلى أحوال السرور.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾.

نَصْرُهُ - سبحانه - للأولياء نَصْرٌ عزيز، وانتقامه بتمام، واستنصاله بكمال، وإزهاقه أعداءه بتمحيق جملتهم، وألا يحتاج المنصور إلى الاحتياال أو الاعتضاد بأشكال.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

كما في أفقِ العَالَمِ لَيْلٌ ونهار فكذلك للسرائر ليل ونهار؛ فعند التجلي نهار وعند الستر ليل، وللليل السُرُّ ونهاره زيادةً ونقصان، فبمقدار القبض ليل وبمقدار البسط نهار، ويزيد أحدهما على الآخر وينقص.. وهذا للعارفين. فأما المحققون فَلَهُمُ الأنسُ والهبة مكانَ قبضِ قومٍ وَيَسْطِطُهُمْ، وذلك في خَالِي صحوهم ومحوهم، ويزيد أحدهما وينقص، ومنهم من يدوم نهاره ولا يدرك له ليل.. وذلك لأهل الأنس فقط.

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

إذا بدا عِلْمُ من الحقائق حَصَلَتْ بمقداره شظية من الفناء لِمَنْ حَصَلَ له التجلي،

ثم يزيد ظهور ما يبدو ويغلب، وتتناقص آثار التفرقة وتلاشى، قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا قِيلَ لَكَ إِنَّكَ لَن تَصِلَ إِلَى الْبَحْرِ﴾: «إذا أقبل النهار من ها هنا أدبر الليل من ها هنا» فإذا نأى العبد بالكلية عن الإحساس بما دون الله فلا يشهد أولاً الأشياء إلا للحق، ثم لا يشهدا إلا بالحق، ثم لا يشهد إلا الحق. . . فلا إحساس له بغير الحق، ومن جملة ما ينساه. . . نفسه والكون كله.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها، وماء الرحمة يحيي أحوال أهل الزلة بعد تركها، وماء العناية يحيي أحوال (.. .) (١) بعد زوال رونقها، وماء الصولة يحيي أهل القربة بعد نضوبها.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. المُلْكُ له، وهو عن الجميع غني، فهو لا يستغني بملكه، بل ملكه بصير موجوداً بخلقه إياه؛ إذ المعدوم له مقدور والمقدور هو المملوك. ويقال كما أنه غني عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غني عن الأكابر وجميع الأولياء.

ويقال إذا كان الغني حميداً فمعنى ذلك أنه يُعْطِي حتى يُشْكِر. ويقال الغني الحميد المستحق للحمد: أعطى أو لم يُعْطِ؛ فإن أعطى استحق الحمد الذي هو الشكر، وإن لم يُعْطِ استحق الحمد الذي هو المدح. قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أراد به تسخير الانتفاع بها؛ فما للخلق به انتفاع وميسر له الاستمتاع به فهو كالمُسَخَّر له على معنى تمكينه منه، ثم يَرَاعَى فيه الإذن؛ فَمَنْ استمتع بشيء على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعام وإكرام، ومن كان بالعكس فمكْر واستدراج.

وأما السفينة. . . فالهائم العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها؛ بالحمْل فيها وركوبها فَمِنْ أعظم إحسان الله وإرفاقه بالعبد، ثم ما يحصل بها من قَطْع المسافات البعيدة، والتوصل بها إلى المضارب النائية، والتمكن من وجوه الانتفاع ففي ذلك أعظم نعمة، وأكمل عافية.

(١) بياض في الأصل.

وجعل الأرضَ لِلْخَلْقِ قراراً من غير أن تميد، وجعل السماءَ بناءً من غير وقوع، وجعل فيها من الكواكب ما يحصل به الاهتداء في الظلام، ثم هي زينة السماء - وفي ذلك من الأدلة ما يوجب ثُلُجَ الصدر وبرزَ البقين.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾.

إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة، وإحياء أوقات العباد وإماتتها لا حصرَ له ولا عدّ، وفي معناه أنشدوا.

أموت إذا ذكرْتُك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت
ويقال يُخيي الآمالَ بإشهادِ تفضله، ثم يميتها بالإطلاع على تعزُّزه.

ويقال هذه صفة العوام منهم، فأما الأفاضل فحياتهم مسرمة وانتعاشهم مؤبد. وأتى يحيا غيره وفي وجوده - سبحانه - غنية وخلف عن كل فائت؟

قوله جل ذكره: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَذْعُ إِلَيَّ رَيْكَ إِنَّكَ لَكَلَّ هُدًى مُسْتَقِيرٌ﴾.

جَعَلَ لِكُلِّ فَرِيقٍ شِرْعَةً هم واردوها، ولكلِّ جماعةٍ طريقة هم سالكوها.

وجعل لكلِّ مقام سُكَّانَهُ، ولكلِّ محلِّ قُطَّانَهُ، فقد ربط كلاً بما هو أهل له، وأوصل كلاً إلى ما جعله محلاً له؛ فبسطا التَّعَبُّدِ موطوءاً بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معمورة بأصحاب التكلف من المجتهدين، ومجالس أصحاب المعارف مانوسة بلزوم العارفين، ومنازل المحبين مأهولة بحضور الواجدين.

قوله: ﴿فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ...﴾ اشهد تصارييف الأقدار، واعمل بموجب التكليف، وانيه دون ما أذنت له من المناهل.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

كلُّهُمْ إلينا عندما راموا من الجدل، ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال، واحذر جنوح قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال، فإنهم قوالبُ خاوية، وأشباح عن المعاني خالية.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِبَيِّنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ﴾.

أما الأجانب فيقول لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وأما الأولياء فقومٌ منهم يحاسبهم حساباً يسيراً، وأقوام مخصوصون يقول لهم: بيني وبينكم حساب؛ فلا جبريل يحكم بينهم ولا ميكائيل، ولا نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يحكم بينهم فيسأل عن أعماله جميع خصمائه، ويأمر بإرضاء جميع غرمائه.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

يعلم السر والنجوى، وما تكون حاجة العبد له أمس وأقوى، وبكل وجه هو بالعبء أولى، وله أن يحمل له الثغمي، ويزيل عنه البلوى، ولا يسمع منه الشكوى، فله الحكم تبارك وتعالى.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَكُم بِئِزِّ بِدْءِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

الآية تشير أن من جملة خواصه أفرد - سبحانه - ببرهان، وأيده ببيان، وأعزه بسلطان. ومن لا سلطان له يمتد إليه قهره، ومن لا برهان له ينبسط عنه - إلى غيره - نوره، فهو بمنزلة عن جملته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ثُلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ بِكَادُوتٍ يَسْطُورُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمِبٌ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾.

لِسمع الخطاب أثر في القلوب من الاستبشار والبهجة، أو الإنكار والوحشة. ثم ما تخامره السرائر يلوح على الأسيرة في الظاهر؛ فكانت الآيات عند نزولها إذا ثلثت على الكفار يلوح على وجوههم دُخان ما تنطوي عليه قلوبهم من ظلمات التكذيب، فما كان يقع عليهم طرف إلا نبأ عن جحودهم، وعادت إلى القلوب الثبوءة عن إقلاعهم.

ثم أخبر أن الذي هم بصدد في الآخرة من أليم العقوبة شر بكل وجه لهم مما يعود إلى الرائين لهم عند شهودهم. وإن المناظر الوضيئة للرئين مُبهجة، والمناظر المنكرة للناظرين إليها موحشة.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

نبه الأفكار المشتتة، والخواطر المتفرقة على الاستجماع لسمع ما أراد تضمينه فيها؛ فاستحضرها فقال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ...﴾.

ثم بيّن المعنى فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وتسمونها آلهة أنها

للعبادَة مستحقّة لن يخلقوا بأجمعهم مذباباً، ولا دون ذلك . وإنّ يسلبهم الذباب شيئاً بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذهم ذلك منه، ومن كان بهذه الصفة فسَاء المثل مثلهم، وضعف وصفهم، وقل خطرهم .

ويقال إن الذي لا يقاوم ذباباً فيصير به مغلوباً فأهون بقدره !

قوله جلّ ذكره: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

ما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من النعوت . ومن لم يكن في عقيدته نقض لما يستحيل في وصفه - سبحانه - لم تُبائس خلاصة التوحيد سرّه، وهو في ترجم فكر، وتجويز ظن، وخطر تعسف، يقع في كل هدة من الضلال .

ويقال العوام اجتهدهم في رفضهم الأعمال الخبيثة خوفاً من الله، والخواص جهدهم في نقض عقيدتهم للأوصاف التي تجل عنها الصمدية، وبينهما (. . .)^(١) بعيد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ قوي أي قادر على أن يخلق من هو فوقهم في التحصيل وكمال العقول . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ : أي لا يقدر أحد قذره - إلا بما يليق بصفة البشر - يقدر من العرفان .

ويقال من وجد السبيل إليه فليس النعت له إلا بوصف القصور، ولكن كلّ يوجده مربوط، ويحذه في همته موقوف، والحق سبحانه عزيز .

قوله جلّ ذكره: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

الاجتناء والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القدر، وتخصيص الطول، وتقديهم على أشكالهم في المناقب والمواهب .

ثم بعضهم فوق بعض درجات؛ فالفضيلة بحق المرسل، لا لخصوصية في الخلقة في المرسل .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يعلم حالهم ومآلهم، وظاهرهم وباطنهم، ويومهم وغدهم، ويعلم نقضهم عهدهم؛ فالإله مُقْبِلُهُمْ، وفي قبضته تقلبهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

الركوع والسجود والعبادة كلّها بمعنى الصلاة؛ لأن الصلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعها، ولكن فرّقها في الذكر مراعاة لقلبك من الخوف عند الأمر بالصلاة؛

(١) بياض في الأصل .

فَقَسَّمَهَا لِيَكُونَ مَعَ كُلِّ لَفْظَةٍ وَمَعْنَى نَوْعٍ مِنَ التَّخْفِيفِ وَالتَّرْفِيهِ، وَلِقُلُوبِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ رَاحَةٌ جَدِيدَةٌ.

ويقال لَوْنٌ عَلَيْهِمُ الْعِبَادَةُ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا، ثُمَّ جَمِيعُهَا عِبَادَةٌ وَاحِدَةٌ، وَوَعَدَ عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ الْكَثِيرِ مَا تَقَصَّرُ عَنْ عِلْمِهِ الْبَصَائِرُ.

ويقال عَلِمَ أَنَّ الْأَحْبَابَ يُحِبُّونَ سَمَاعَ كَلَامِهِ فَطَوَّلَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لِيَزِدَادُوا عِنْدَ سَمَاعِ ذَلِكَ أَتَسَاءَ عَلَى أَنْسٍ، وَرَوْحًا عَلَى رَوْحٍ، وَمُعَادًا خُطَابِ الْأَحْبَابِ وَهُوَ رَوْحُ رُوحِهِمْ، وَكَمَالُ رَاحَتِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذَا: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فَأَدْخَلَ فِيهِ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾: حَقُّ الْجِهَادِ مَا وَافَقَ الْأَمْرَ فِي الْقَدْرِ وَالْوَقْتِ وَالنَّوعِ، فَلِذَا حَصَلَتْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ مَخَالَفَةٌ فَلَيْسَ حَقَّ جِهَادِهِ.

ويقال المجاهدة على أقسام: مجاهدةً بالنَّفْسِ، ومجاهدةً بِالْقَلْبِ، ومجاهدةً بِالْمَالِ. فالمجاهدة بالنفس أَلَا يَذْجِرُ الْعَبْدُ مِيسُورًا إِلَّا بِذَلِكَ فِي الطَّاعَةِ بِتَحْمِلِ الْمَشَاقِّ، وَلَا يَطْلُبُ الرِّخْصَ وَالْإِرْفَاقَ. والمجاهدة بِالْقَلْبِ صَوْنُهُ عَنِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيئَةِ مِثْلِ الْغَفْلَةِ، وَالْعِزْمُ عَلَى الْمَخَالَفَاتِ، وَتَذَكُّرُ مَا سَلَفَ أَيَّامَ الْفِتْرِ وَالْبَطَالَاتِ. والمجاهدة بِالْمَالِ بِالْبَذْلِ وَالسَّخَاءِ ثُمَّ بِالْجُودِ وَالْإِيثَارِ.

ويقال حَقُّ الْجِهَادِ الْأَخْذُ بِالْأَشَقِّ، وَتَقْدِيمُ الْأَشَقِّ عَلَى الْأَسْهَلِ - وَإِنْ كَانَ فِي الْأَخْفِ أَيْضًا حَقٌّ.

ويقال حَقُّ الْجِهَادِ أَلَا يَفْتَرِ الْعَبْدُ عَنِ مَجَاهِدَةِ النَّفْسِ لِحِظَةٍ، قَالَ قَائِلُهُمْ:

يَا رَبِّ إِنَّ جِهَادِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ فَكُلُّ أَرْضٍ لِي تُغْرَ طَرَسُوسُ
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾.

يَحْتَمِلُ أَنَّهُ يَقُولُ مِنْ حَقِّ اجْتِبَائِهِ إِيَّاكُمْ أَنْ تُعْظَمُوا أَمْرَ مَوْلَاكُمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَقَالَ هُوَ الَّذِي اجْتَبَاكُمْ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اجْتَبَاكُمْ لَمَّا جَاهَدْتُمْ، فَلَا اجْتِبَاءَ إِيَّاكَ وَفَقَّكَ حَتَّى جَاهَدْتَ.

ويقال عَلِمَ مَا كُنْتَ تَفْعَلُهُ قَبْلَ أَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَجْتَبِيَكَ، وَكَذَلِكَ إِنْ رَأَى مَا فَعَلْتَ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْكَ وَلَا يَعَاقِبَكَ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الْشَّرْعُ مَبْنَاهُ عَلَى السَّهُولَةِ، وَالَّذِي بِهِ تَصِلُ إِلَى رِضْوَانِهِ وَتَسْتَوْجِبُ جَزِيلَ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَتَتَخَلَّصُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ وَامْتِحَانِهِ - يَسِيرٌ مِنَ الْأَمْرِ لَا يَسْتَفْرِقُ كُنْهَهُ

إمكانك؛ بمعنى أنك إن أردت فعله لقدرت عليه، وإن لم توصف في الحال بأئك مستطيع ما ليس بموجود فيك.

قوله جل ذكره: ﴿يَلَهُ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أي اتبعوا والزموا ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام في البذل والسخاء والجود والخلة والإحسان.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ سَعَتُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

اللَّهُ هو الذي اجتباكم، وهو الذي بالإسلام والعرفان سماكم المسلمين. وقيل إبراهيم هو الذي سماكم المسلمين بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، نصب الرسول بالشهادة علينا، وأمره بالشفاعة لأمته، وإنما يشهد علينا بمقدار ما يُبْقَى للشفاعة موضعاً ومحلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

وتلك الشهادة إنما تؤديها لله، ومن كانت له شهادة عند أحد - وهو كريم - فلا يجرح شاهده، بل يسعى بما يعود إلى تركية شهوده.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإتمام، ونعت الاستدامة، وجميل الاستقامة.

والاعتصام بالله التبري من الحول والقوة، والنهوض بعبادة الله بالله لله. ويقال الاعتصام بالله التمسك بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصام بالله حُسْنُ الاستقامة بدوام الاستعانة.

﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: سيدكم وناصركم والذي لا خلف عنه.

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ نِعَمَ المولى: إخبار عن عظمته، ونعم النصير: إخبار عن رحمته.

ويقال إن قال لأيوب: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤] ولسليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠] فلقد قال لنا: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، ومدحه لنفسه أعز وأجل من مدحه لك.

ويقال: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾: بدأك بالمحبة قبل أن أحبيته، وقبل أن عرفتته أو طلبته أو عبّدته.

﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾: إذا انصرف عنك جمع من لك فلا يدخل القبر معك أحد كان ناصرك، ولا عند السؤال أو عند الصراط.

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو، وللمسمى بهذا الاسم استحقاق العلو، فالاسم اسم لسموه من القِدم، والحقُّ حقٌّ لعلوه بحق القِدم.

ويقال مَنْ عرف «بسم الله» سمّت هِمتُهُ عن المرسومات، وَمَنْ أَحَبَّ بِسْمِ اللَّهِ صَفَتْ حالته عن مساكنة الموهومات.

اسمٌ مَنْ طَلَبَهُ نَسِيَ مِنَ الدارين أَرْبَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ وَجَدَ بقلبه ما لا يعرف سَبِيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

ظَفِرَ بِالْبُغْيَةِ وفاز بِالطَّلَبَةِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ.

و «الفَلَاخُ»: الفوزُ بِالْمَطْلُوبِ وَالظَّفَرُ بِالْمَقْصُودِ.

وَالْإِيمَانُ انتِسابُ الْحَقِّ فِي السَّرِيرَةِ، وَمَخَامَرَةُ التَّصَدِيقِ خِلَاصَةُ الْقَلْبِ، وَاسْتِمَكَانُ التَّحْقِيقِ مِنْ تَأْمُورِ^(١) الْفُؤَادِ.

وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِطْرَاقُ السُّرِّ عَلَى بِسَاطِ النُّجُوى بِاسْتِكْمَالِ نَعْتِ الْهَيْبَةِ، وَالدُّوبَانِ تَحْتَ سُلْطَانِ الْكُشْفِ، وَالامْتِحَاءُ عِنْدَ غَلَبَاتِ التَّجَلِّي.

وَيُقَالُ أَذْرَكَ ثَمَرَاتِ الْقُرْبِ وَقَارَ بِكَمَالِ الْأَنْسِ مَنْ وَقَفَ عَلَى بِسَاطِ النُّجُوى بِنَعْتِ الْهَيْبَةِ، وَمِرَاعَاةِ آدَابِ الْحَضَرَةِ. وَلَا يَكْمُلُ الْأَنْسُ بِلِقَاءِ الْمَحْبُوبِ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِ الرَّقِيبِ. وَأَشَدُّ الرَّقَبَاءِ وَأَكْثَرُهُمْ تَنْغِيصاً لِأَوَانِ الْقُرْبِ النَّفْسُ؛ فَلَا رَاحَةَ لِلْمُصَلِّيِّ مَعَ حُضُورِ نَفْسِهِ، فَإِذَا خَنَسَ عَنْ نَفْسِهِ وَشَاهَدَهُ عَدِيمُ إِحْسَاسِهِ بِآفَاتِ نَفْسِهِ، وَطَابَ لَهُ الْعَيْشُ، وَتَمَّتْ لَهُ التَّنْعَمُ، وَتَجَلَّتْ لَهُ الْبُشْرَى، وَوَجَدَ لَذَّةَ الْحَيَاةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِفَوا مُعْرِضُونَ﴾.

مَا يَشْغُلُ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ سَهْوٌ، وَمَا لِي اللَّهِ فَهُوَ خَشْوٌ، وَمَا لَيْسَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ اللَّهِ أَوْ بِمَعْقُولٍ مَعَ اللَّهِ فَهُوَ لَعْوٌ، وَمَا هُوَ غَيْرُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ كُفْرٌ، وَالتَّعْرِيجُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا بُغْدٌ وَهَجْرٌ.

(١) التامور: دم القلب وحيته وحياته، وقيل: هو القلب نفسه. (لسان العرب ٤/ ٣٣ مادة: أمر).

ويقال ما ليس بتقريظ الله ومُدْحِه من كلام خُلِقَ فكل ذلك لغو.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.

الزكاة النماء، ومن عمّله للنماء فامارة ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهد ولا يبلغ العبد إلى كمال الوصف في العبودية إلا بذوبانه عن شاهده.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

لأرواحهم حافظون ابتغاء نسل يقوم بحق الله، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التعفف والتصاؤن عن مخالفات الإثم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ﴾.

أي من جاوز قُصْدَ إيثار الحقوق، وجنّح إلى جانب استيفاء الحظوظ... فقد تعدّى محلّ الأكابر، وخالف طريقتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ذُعُونَ﴾.

الأمانات مختلفة، وعند كل أحد أمانة أخرى، فقوم عندهم الوظائف بظواهرهم، وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم، ولقوم معاملاتهم، وآخرون منازلهم، وآخرون موصلاتهم.

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم من عاهده ألا يغبد سواه، ومنهم من عاهده ألا يشهد في الكونين سواه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين، ولا يدعّوهم المتأدي وهم ليسوا بالباب، فهم في الصف الأول بظواهرهم، وكذلك في الصف الأول بسرائرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإرث على حسب النسب، وفي استحقاق الفردوس بوصف الإرث لنسب الإيمان في الأصل، ثم الطاعات في الفضل.

وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان: بالفرض أو بالتعصيب - فكذلك في الطاعات؛ فمنهم من هم في الفردوس بنفوسهم، وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يبرحون عن منال نفوسهم ولا (...)^(١) عن حالات قلوبهم.

(١) بياض في الأصل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾.

عَرَفَهُمْ أَصْلَهُمْ لثَلَا يُعْجَبُوا بِفَعْلِهِمْ.

ويقال نَسَبُهُمْ لثَلَا يَخْرُجُوا عَنْ حَدِّهِمْ، وَلَا يَغْلُطُوا فِي نَفْسِهِمْ.

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ سُلَّتْ مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ طِينَتُهُ مِنْ جَرْدَةٍ^(١) أَوْ مِنْ سَبَخَةٍ أَوْ مِنْ سَهْلٍ، أَوْ مِنْ وَغَيْرِ... وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ أَخْلَاقُهُمْ.

ويقال بَسَطَ عُذْرَهُ عِنْدَ الْكَافَةِ؛ فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ... مَا الَّذِي يَنْتَظَرُ مِنْهُ؟!

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، وَالْقَدَرُ لِلتَّرْبِيَةِ لَا لِلتَّرْبَةِ.

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الْمَعْرِفَةِ وَمَرْتَعُ الْمَحَبَةِ وَمَتَلَقُّ الْعَنَايَةِ مِنْهُمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

ويقال خَلَقَهُمْ، ثُمَّ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ نَقَّلَهُمْ، يُغَيِّرُ بِهِمْ مَا شَاءَ تَغْيِيرِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراغٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَرْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾.

قِطْرَةٌ أَجْزَاؤُهَا مَتَمَاثِلَةٌ، وَنَظْفَةٌ أِبْعَاضُهَا مُتَشَاكِلَةٌ، ثُمَّ جَعَلَ بَعْضُهَا لَحْمًا وَبَعْضُهَا عِظْمًا، وَبَعْضُهَا شَعْرًا، وَبَعْضُهَا ظَفْرًا، وَبَعْضُهَا عَصَبًا، وَبَعْضُهَا جِلْدًا، وَبَعْضُهَا مُخًّا، وَبَعْضُهَا عِزْقًا. ثُمَّ خَصَّ كُلَّ عَضْوٍ بِهَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَكُلَّ جُزْءٍ بِكَيْفِيَةٍ مَعْلُومَةٍ. ثُمَّ الصِّفَاتُ الَّتِي لِلْإِنْسَانِ خَلَقَهَا مُتَفَاوِتَةٌ، مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفِكْرِ وَالْغَضَبِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْحَقْدِ وَالْجُودِ وَالْأَوْصَافِ الَّتِي يَنْقَاصِرُ عَنْهَا الْحَضَرُ وَالْعَدُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

فِي التَّفَاسِيرِ أَنَّهُ صُورَةُ الْوَجْهِ، وَيَحْتَمِلُ مَا تَرَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَاخْتَصَّ بِهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَمَا تَفَرَّدَ بِهِ بَعْضٌ مِنْهُمْ بِمَزَايَا فِي الْإِلْهَامِ الْعَامِ لِلْعَقْلِ وَسَائِرِ الْإِدْرَاكَاتِ.

وَيَقَالُ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: وَهُوَ أَنَّ هَيَاثِهِمْ لِأَحْوَالٍ عَزِيزَةٍ يُظْهِرُهَا عَلَيْهِمْ بَعْدَ بُلُوغِهِمْ، إِذَا حَصَلَ لَهُمْ كَمَا التَّمْيِيزُ مِنْ فَنُونِ الْأَحْوَالِ؛ فَلَقُومُ تَخْصِيسِ بَرَزِينَةِ الْعِبُودِيَّةِ، وَلَقُومُ تَحَرُّرٍ مِنْ رِقِّ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا آخِرِينَ تَحَقُّقٍ بِالصِّفَاتِ الصِّمْدِيَّةِ بِامْتِحَانِهِمْ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ وَبِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَوْصَافُ الْبَشَرِيَّةِ.

(١) الجرد: من الأرض: ما لا نبات فيه (ج) أجارد.

قوله جل ذكره: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

خلق السموات والأرضين بجملتها، والعرش والكرسي، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها - ثم لما أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خلقه بني آدم تخصيصاً لهم وتميزاً، وإفراداً لهم من بين المخلوقات.

ويقال إن لم يقل لك إنك أحسن المخلوقات في هذه الآية فلقد قال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين - ولم يُثنِ عليك بذلك فلقد أثنى على نفسه بقوله: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، وثناؤه على نفسه وتمدحه بذلك أعز وأجل من أن يثنى عليك.

ويقال لما ذكر نعتك، وتاراتِ حالكِ في ابتداء خَلْقِكَ، ولم يكن منك لسان شكر ينطق، ولا بيان مدح ينطلق... نَابَ عنك في الثناء على نفسه، فقال: ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

أنشدوا:

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والثرى
وأنشدوا:

حيأتنا عندنا قروض ونحن بعد الموت في التقاضي
لا بُدَّ مِنْ رَدِّ ما اقترضنا كل غريم بذاك راضي
ويقال نعاك إلى نفسك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وكل ما هو آتٍ قريب.

ويقال كسر على أهل الغفلة سطوة غفلتهم، وقلّ دونهم سيف صولتهم بقوله: ثم إنكم بعد ذلك لميتون، وللجمادِ مضاهون، وعن المكنة والمقدرة والاستطاعة والقوة لمُبْعَدُونَ، وفي عداد ما لا خَطَرَ له من الأموات معدودون.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُنْعَشُونَ﴾.

فعند ذلك يتصل الحساب والعقاب، والسؤال والعتاب، ويتبين المقبول من المردود، والموصول من المهجور.

ويومُ القيامة يومٌ خَوْفٌ به العالمُ حتى لو قيل للقيامة: ممن تخافين؟ لقاتل من القيامة. وفي القيامة ترى الناس سُكَارَى حَيَّارَى لا يعرفون أحوالهم، ولا يتحققون بما

تؤول إليه أمورهم، إلى أن يتبين لكل واحد أمره؛ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ: فيثقل بالخيرات ميزانه، أو يخف عن الطاعات أو يخلو ديوانه. وما بين الموت والقيامة: فإِذَا رَاحَتْ مُتَّصِلَةً، أو آلام وآفات غير منفصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

الحق - سبحانه - لا يستتر عن رؤيته مُذَرِّكٌ، ولا تخفى عليه - من مخلوقاته - خافية. وإنما الحُجُبُ على أَبْصَارِ الْخَلْقِ وبصائرهم؛ فالعادة جارية بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراءِ الْحُجُبِ. وكذلك إذا حَلَّتْ الغفلة القلوب استولى عليها الذهول، وانسدت بصائرهما، وانتفت فهموما.

وفوقنا حُجُبٌ ظاهرة وباطنة؛ ففي الظاهر السموات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالمُنيّة والشهوة، والإرادات الشاغلة، والغفلات المتركمة.

أما المريدون فإذا أَظْلَلَتْهُمْ سحائب الفثرة، وَسَكَنَ هيجانُ إرادتهم فذلك من الطرائق التي عليهم.

وأما الزاهدون فإذا تحرّك بهم عِزْقُ الرغبة انْفَلَتَ^(١) قوة زهدهم، وَضَعُفَتْ دعائهم صَبْرِهِمْ، فَيَتَرَخَّضُونَ بالجنوح إلى بعض التأويلات، فتعود رغباتهم قليلاً قليلاً، وَتَخْتَلُ رتبة عزوفهم، وَتَنْهَدُ دعائهم زهدهم، وبداية ذلك من الطرائق التي خَلَقَ فوقهم.

وأما العارفون فربما تَظَلَّلَهُمْ في بعض أحيائهم وَقْفَةٌ في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق، فيصيرون مُوقِّفِينَ ريثما يَتَفَضَّلُ الحق - سبحانه - عليهم بكفاية ذلك فيجدون نفاذاً، ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق.

وفي جميع هذا فإن الحق سبحانه غير غافل عن الخلق، ولا تارك للعباد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَالَمٌ ذُخَائِرُهُ لِقَائِهِمْ﴾.

أنزل من السماء ماء المطر الذي هو سبب حياة الأرضين، وذلك بقدر معلوم. ثم... البلاد مختلفة في السقي: فبعضها خصب، وبعضها جَدْبٌ، وسنة يزيد وسنة ينقص، سنة يفيض سنة يغيب.

كذلك أنزلنا من السماء ماء الرحمة فيحيي القلوب، وهي مختلفة في الشرب:

(١) القَل: الثلم في السيف. (اللسان ١١/ ٥٣٠ مادة: قلل).

فَمِنْ مَوْسَىٰ عَلَيْهِ رِزْقُهُ مِنْهُ، وَمِنْ مُضَيَّقٍ مُقْتَرٍ عَلَيْهِ. وَمِنْ وَقْتٍ هُوَ وَقْتُ سَحْ، وَمِنْ وَقْتٍ هُوَ وَقْتُ حَبْسٍ.

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنُ العُصَاةِ وآثَارَ زَلَّتِهِمْ وأَوْضَارَ عَثَرَتِهِمْ، وماء هو سقي قلوبهم يزيل به عَطَشَ تَحْيِهِمْ، ويحيي به مَوَاتِ أحوالهم؛ فَتَنَّبْتُ في رِيَاضِ قُلُوبِهِمْ فَنَوْنُ أَزْهَارِ البَسْطِ، وَصَنُوفِ أنوارِ الرُّوحِ. وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب، فيزيل عنها به حَشْمَةُ الوصف، ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسرِ ببذلِ الرُّوحِ؛ فإذا شربوا طَرِبُوا، وإذا طَرِبُوا لم يُبَالُوا بما وَهَبُوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكَ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكَ فِيهَا فَوْكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

كما يحيي بماء السماء الغياض والرياض، ويصنّف فيها الأزهار والأنوار، وتثمر الأشجار وتجري الأنهار... فكَذَلِكَ يَسْقِي القُلُوبَ بماء العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهر، ويؤتي أكلها: من طيب عيش، وكمالِ بسط، ثم وفورِ هيبة ثم رُوحِ أنس، ونتائج تجلّ، وعوائد قُرب... إلى ما تتقاصر العبارات عن شرحه، ولا تطمع الإشارات في حُضره.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا لَكَ فِي الْإِنْعَامِ لَعِبَةٌ تُشْفِيكَرَ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكِنَّ فِيهَا مَنَئِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١).

الإشارات منه أنّ الكدورات الهاجمة لا عِبْرَةَ بها ولا مبالاة؛ فَإِنَّ اللَّبَنَ الخالص السائغ يخرج من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوي حواياها عليه من الوحشة، لكنه صافٍ لم يؤثر فيه منها بحكم الجوار، وكذلك الصفاء يوجد أكثره من عين الكدورة؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حق ولا باطل. ومَنْ أَشْرَفَ على سِرِّ التوحيد تحقّق بأنّ ظهور جميع الحدّثان من التقدير، فتسقط عنه كلفة التمييز، فالأسرار عند ذلك تصفو، والوقت لصاحبه لا يجفو.

﴿وَلَكِنَّ فِيهَا مَنَئِعٌ﴾: لازمة لكم، ومتعدية منكم إلى كلّ متصل بكم:

إني - على جَفَوَاتِهَا - برّبها وبكلّ مُتَّصِلٍ بها مُتَوَسِّلٌ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

يحفظهم في الفينة في بحار القطرة، ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في

بحار القُدرة، وإنَّ بحارَ القدرة تتلاطم أمواجها، والناسُ فيها غَرَقَى إلا مَنْ يحفظه الحقُّ - سبحانه - في سفينة العناية .

وصفةُ أهلِ القُلُكِ إذا مستهم شِدَّةُ خوفِ الغَرَقِ ما ذَكَرَ اللهُ في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] كذلك مَنْ شاهدَ نفسه على شَفَا الهلاكِ والغرقِ، والتجأَ إلى صِدْقِ الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحقُّ - سبحانه - من مخلوقات التقدير . ويقال إنَّ وَجَةَ الأرضِ بحارُ الغفلة، وما عليه الناسُ من أسباب التفرقة بحارُ مهلكةٍ والناسُ فيها غرقى . وكما قال بعضهم:

النَّاسُ بِحَرِّ عَمِيْقٍ والبعدُ عنهم سفينته
وقد نصحتك فانظر لِنَفْسِكَ الْمَسْكِينَةِ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ .

كَرَّرَ قصَّةَ نوحٍ لِمَا فيها من عظيم الآيات من طولِ مقامه في قومه، وشِدَّةِ مقاساةِ البلاءِ منهم، وتَمَامِ صبره على ما استقبله في طولِ عمره، ثم إهلاكِ الله جميعَ مَنْ أَصَرَ على كفرانه، ثم إهلاكِ الله جميعَ مَنْ أَصَرَ على كفرانه، ثم لم يغادرَ منهم أحداً، ولم يبال - سبحانه - بأنَّ أهلكَ جملتهم . ولقد ذَكَرَ في القصص أن امرأةً من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولودٌ، فَحَمَلَتْهُ وقامت حاملةً له ترفعه عن الطوفان، فلَمَّا بلغ الماءُ إلى يدها رفَعته إلى ما فوق رأسها - قَدَّرَ ما أمكنها - إبقاءً على وَلَدِها، وإشفاقاً عليه من الهلاكِ، إلى أن غَلَبَها الماءُ وتَلَفَّتْ وولدها . فأوحى اللهُ إلى نوحٍ - عليه السلام - لو أَنِّي كُنْتُ أَزْجَمَ واحداً منهم لَرَجِمْتُ تلكَ المرأةَ وولدها .

وفي الخبر أن نوحاً كان اسمه يشكر، ولكثرة ما كان يبكي أوحى اللهُ إليه : يا نوح... إلى كم تنوح؟ فسَمَّاهُ نوحاً . ويقال إنَّ ذَنْبَهُ أَنَّهُ مَرَّ يَوْماً بِكَلْبٍ فَقَالَ: ما أوحشه! فأوحى اللهُ إليه : اخلق أنتَ أَحْسَنَ من هذا! فكان يبكي معتذراً عن قائلته تلك . وكان قَوْمُهُ يلاحظونه بعين الجنون، وما زاد لهم دعوةً إلا ازدادوا عن إجابته نبوةً، وما زاد لهم صفوةً إلا ازدادوا على طول المدة قسوةً على قسوة .

ولما عمل السفينة ظهر الطوفان، وأدخل في السفينة أَهْلَهُ، تعرَّضَ له إبليسُ - كما جاء في القصة - وقال: اخمِلْني معك في السفينة، فأبى نوح وقال: يا شقي... تطمع في حملي إياك وأنت رأس الكفرة؟!

فقال إبليسُ: أَمَّا عَلِمْتُ - يا نوح - أَنَّ اللهَ أَنظَرَنِي إلى يوم القيامة، وليس ينجو اليوم أحدٌ إلا في هذه السفينة؟

فأوحى الله إلى نوح أن احمله فكان إبليس مع نوح في السفينة، ولم يكن لابنه معه مكان في السفينة. وفي هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول لأنه إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه له مكان لكُفْرِهِ فبإبليس يُشكَل... ولكنها أحكام غير معلولة، وجاز له - سبحانه - أن يفعل ما يريد: يَصِلُ مَنْ شَاءَ وَيَرُدُّ مَنْ شَاءَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْزِلْنِي مُزَلًّا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(١).

الإنزال المبارك أن يكون بالله والله، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفاً لأمر الله.

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك، ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القُرب عليك، ثم الاستهلاك بإحداق أنوار التجلي حتى لا تبقى عين ولا أثر، فإذا تَمَّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك؛ لأنك بلا أنت... بكلينك من غير بقية أو أثر عنك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَرَأَيْنَاهُ مِنْ بُعْدِهِمْ قَرْنًا مَخْرَجًا﴾^(٢).

تتابعت القرون على طريقة واحدة في التكذيب، وغرهم طول الامهال، وما مكثهم من رفاه العيش وخفض الذعة، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم، ولم ينس لهم طُرف إلى مَنْ فوقهم في الحال والمنزلة، فقالوا: أنؤمن بمن يتردد في الأسواق، وينتفع مثلنا بوجوه الأرفاق؟ ولئن أطعنا بشراً مثلنا لسلكنا سبيل الغي، وتَنَكَّبْنَا سُنَّةَ الرُّشْدِ. فأجراهم الله في الإهانة وإحلال العقوبة بهم مجزى واحداً، وأذاقهم عذاب الخزي. وأعظم ما دَاخَلَهم من الشبهة والاستبعاد أمر الحشر والنشر، ولم يرتقوا للعلم بأن الإعادة كالابتداء في الجواز وعدم الاستحالة، والله يهدي مَنْ يشاء ويغوي مَنْ يريد.

ثم إن الله في هذه السورة ذَكَرَ قصة موسى عليه السلام، ثم بعده قصة عيسى عليه السلام، وخصَّ كُلَّ واحدٍ منهم بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٣).

كلوا من الطيبات مما أحلّ لكم وأباح، وما هو محكوم بأنه طيب - على شريطة مطابقة رُخْصَةِ الشريعة - مما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً مأذوناً لهم فيه. وكذلك

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(١) الآيات من (٢٤ - ٢٨) لم ترد.

(٣) الآيات (٣٢ - ٥٠) لم ترد.

أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَنْ هَذِهِ أُمَّةٌ وَجِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

معبودكم واحداً، ونبئكم واحداً، وشبرعكم واحداً؛ فأنتم في الأصول شرع سواء، فلا تسلكوا نِثْيَاتِ الطرق^(١) فتطيحوا في أودية الضلالة. وعليكم باتباع سلفكم، واحذروا موافقة ابتداع خلفكم.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ خافوا مخالفةً أمري، واعرفوا عظيمَ قدرِي، واحفظوا في جريان التقدير سرِّي، واستديموا بقلوبكم ذكري، تجدوا في مآلكم غفري، وتَحْظُوا بجميلِ برِّي.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

فمستقيم على حقّه، وتائه في غيّه، ومُصِرٌّ على عصيانه وفسقه، ومقيم على إحسانه وصدقه، كُلٌّ مربوطٌ بحذّه، موقوفٌ بما قَسِمَ له في البداية من شأنه، كُلٌّ ينتحل طريقته ويدّعي بحسن طريقته حقيقةً، وعند صحوِّ سماءِ قلوبِ أربابِ التوحيد لا غَبَارَ في الطريق؛ وهم على يقين معارفهم؛ فلا رَيْبَ يتخالجهم ولا شُبْهة.

وأهل الباطل في عَمَى جهلهم، وغبارِ جُحْدِهِم، وظلمة تقليدهم، ومحنة شكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

إنّ مدة أَخْذِهِم لقريبةً، والعقوبة عليهم - إذا أَخْذُوا - لشديدة، ولسوف يتبين لهم خطوهم من صوابهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسْقِطُ مِنْ ثَالِغٍ وَيَسْتَخْرِجُ لَهُمْ فِي الْغَيْثِ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هذا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتلبيس المنهاج؛ رَأَوْا سَرَاباً فَظَنُّوه شراباً، ودَسَّ لهم في شهدهم صاباً فتوهموه عَذَاباً^(٢)، وحين لقوا عَذَاباً عَلِمُوا أنهم لم يفعلوا صواباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾.

أمارَةُ الإشفاق من الخشية إطراقُ السريرة في حال الوقوف بين يدي الله بشواهد الأدب، ومحاذرةُ بَعَثَاتِ الطُّرْدِ، لا يستقر بهم قرارٌ لِمَا دَاخَلَهم من الرُّغْبِ، واستولى عليهم من سلطانِ الهيبة.

(١) الشيء من الرادي: منعطفه.

(٢) العذاب: (ج) العَذْب: من الشراب والطعام: كل مستساغ. (لسان العرب ١/٥٨٣ مادة: عذب).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

تلك الآيات مختلفة؛ فمنها ما يُكاشفون به في الأقطار من اختلاف الأدوار، وما فيه الناس من فنون الهمم وصنوف المُنَى والإرادات، فإذا آمن من العبدُ بها، واعتبر بها اقتنم بما يرى نفسه مطالباً به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَاقْتِرَابَتِهِمْ أَعْيَنَ﴾ .

يَذَرُونَ جَلِيَّ الشُّرْكِ وَخَفِيَّهِ؛ وَالشُّرْكَ الْخَفِيُّ ملاحظة الْخَلْقِ فِي أَوَانِ الطَّاعَاتِ، وَالْإِسْتِبْشَارُ بِمَدْحِ الْخَلْقِ وَقَبُولِهِمْ، وَالْإِنْكَسَارُ وَالذَّبُولُ عِنْدَ انْقِطَاعِ رُؤْيَا الْخَلْقِ.

ويقال الشَّرَكُ الخَفِيُّ إحالة النادر من الحالات - في الْمَسَارِّ والمَضَارِّ - على الأسباب كقول القائل: «لولا دعاء أهلك لهلك» و«لولا هِمَّةُ فلان لما أفلحت»... وأمثال هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وكذلك تَوَهُّمُ حصولِ الشِّفَاءِ مِنْ شُرْبِ الدَّوَاءِ .

فإذا أيقن العبدُ بسرَّه ألا شيء من الحَدَثَانِ، ولم يتوهم ذلك، وأيقن ألا شيء إلا من التقدير فعند ذلك يبقى عن الشُّرْكِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ إِمَامٍ بِتَقْصِيرٍ، أَوْ تَعْرِيجٍ فِي أَوْطَانِ الْكَسَلِ، أَوْ جُنُوحٍ إِلَى الْإِسْتِرَاحِ بِالرُّخْصِ. ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ أَلْمُؤَا بِالْفَوَاحِشِ، وَيَلَاظِفُونَ أَحْوَالَهُمْ بَعِينَ الْإِسْتِصْغَارِ وَالْإِسْتِحْقَارِ، وَيَخَافُونَ بَغَاتِ التَّقْدِيرِ، وَقَضَايَا السَّخَطِ، وَكَمَا قِيلَ:

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَيْفَ حَسَنَاتُهُ آثَامٌ

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

مُسَارِعٌ بِقَدَمِهِ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَاتِ، وَمُسَارِعٌ بِهَمَمِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِلَاتِ،
وَمُسَارِعٌ بِتَدَمُّهِ مِنْ حَيْثُ تَجَرُّعِ الْحَسَرَاتِ، وَالْكُلُّ مُصِيبٌ، وَلِلْكُلِّ مِنْ إِقْبَالِهِ - عَلَى مَا
يَلِيقُ بِحَالِهِ - نَصِيبٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وَنُصْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

المطالبات في الشريعة مُضْمَنَةٌ بالسهولة، وأما مطالبات الحقيقة فكما قالوا: ليس إلا بذل الروح، ولهذا فهم لا تشغلهم التزكّات^(١). قال لأهل الرخص والمستضعفين في الحال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وأما أرباب الحقائق؛

(١) الترهات: الأباطيل، واحدها ترهه، وهي في الأصل الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم. (اللسان ١٣/ ٤٨٠ مادة: تره).

فقال: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَتْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ﴾: لولا غفلتهم عن مواضع الحقيقة لما خوَّفهم بكتابة المَلَك، ولكن غفلوا عن شهود الحق فخوَّفهم باطلاع الملائكة، وكتابتهم عليهم أعمالهم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَرْقٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾. لا يَصْلُحُ لهذا الشأن إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال، لا شغل له في الدنيا والآخرة، فأما مَنْ له شغلٌ بدنياء، أو على قلبه حديثٌ عقباه، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه، وفي الخبر «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»^(١).

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنياءهم، وأرباب العقبي مشغولون بعقباهم، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلواهم؛ وإن الذي له في الدنيا والآخرة غير مولاه - حين الفراغ - عزيز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ [يس: ٥٥].

قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾.

إنه - سبحانه - يُنْهَلُ ولكنه لا يُهْمَلُ؛ فإذا أَخَذَ قَبْطُشُهُ شديداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]... فإذا أَخَذَ أصحاب الكبائر - حين يحل بهم الانتقام - في الجواب رُدُّوا في الهوان، ويقال لهم: ﴿لَا تَجْعَلُوا أَلِيمًا لِّكُمْ مِّنَّا لَا تُصْرُونَ﴾.

فإذا انفصل من الغيب حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتقديره..

ويقال للجناية سراية؛ فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٠٩/٨)، والترمذي في (السنن ٢٣٠٤)، وابن ماجه في (السنن ٤١٧٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٤٤/١)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٣/٣٧٠)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٢٤٣/١٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥١٥٥) والهيتمي في (مجمع الزوائد ٢٩٠/١٠)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢٢٢/٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤٤٣/٤)، وابن المبارك في (الزهد ٢)، والذهبي في (الطب النبوي)، وأحمد بن حنبل في (الزهد ٤٣٥)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٢٩/١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٦٤٤٤)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣٨٨/٦)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٧٤/٣، ١٧٤/٨)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٦٦).

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا كَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفَلِكُمْ نَكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

ذَكَرَ هذا من باب إملاء العُذْر، وإلزام الحجة، والقطع بالألا ينفع - الآن - الجزع ولا يُسْمَعُ العُذْر، والملوك إذا أبرموا حُكْمًا، فلاستغاثه غير مؤثرة في الحاصل منهم، قال قائلهم:

إذا انصرفْتَ نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه - آخر الدهر - تُقْبِلُ
قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمَرًا جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

يعني أنهم لو أنعموا النظر، وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا في الحال، ولانتفى عن قلوبهم الاستعجام والإشكال، ولكنهم استوطنوا مركب الكسل، وعرجوا في أوطان التغافل، فعودوا الجهل، وأيسوا من الاستبصار.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَرًا لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾.

ذُهِلُوا عن التحقيق فَطَوَّحُوا في أودية المغاليط، وَتَرَجَّمَتْ بهم الظنون الخاطئة، وَمَلَكَتْهُمْ كواذب التقديرات، فأخبر الله (الرسول) ^(١) عن أحوالهم؛ فمرة قابلوه بالتكذيب، ومرة رَمَوْهُ بالسَّحَرِ، ومرة عابوه بتعاطيه أفعال العادة بما عليه الناس من المآكل والمشارب، ومرة قَدَحُوا فيه بما هو فيه من الفقر وقلة ذات اليد... فأخبر الله عن تَشَتَّتِ أحوالهم، وَتَقَسَّمَ أفكارهم ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وذلك لتضاد مَنَاهِم وأهوائهم؛ إذ هم متشاكسون في السؤال والمراد، وتحصيل ذلك مُحَالٌ تقديره في الوجود. فَبَيَّنَ الله - سبحانه - أنه لو أُجْرِيَ حُكْمُهُ على وفق مرادهم لاختل أمر السموات والأرض، وَلَخَرَجَ عن حَدِّ الإحكام والإتقان.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَرًا تَشْتَلُهُمْ خَرَجًا فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَمَوْخِزُ الرَّزَاقِينَ﴾.

أي إِنَّكَ لا تُطالِبهم على تبليغ الرسالة بأجر، ولا بإعطاء عِوَضٍ حتى تكون بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة. أم لعلَّكَ تريد أن يَعْقِدُوا لَكَ الرياسة. ثم قال: والذي لَكَ من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يُغْنِيكَ عن التصدي لنيل ما يكون في حصوله منهم مطمع. وهذا كان سُنَّةُ الأنبياء والمرسلين؛ عملوا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله. والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء فسبيلهم التوقي عن التَّدَنُّسِ

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) الآية (٧٠) لم ترد.

بالأطماع، والأكل بالدين فإنه رياءٌ مُضِرٌّ بالإيمان؛ فإذا كان العملُ لله فلا أجرٌ مُنتَظَرٌ من الله، وهو موعودٌ من قِبَلِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْكَ لَدَعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الصراطُ المستقيمُ شهودُ الربِّ بنعت الانفراد في جميع الأشياء، وفي الإيجاد، والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراه الحكم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّبُكَ﴾.

زاغوا عن الحجة المثلَى بقلوبهم فوقعوا في جحيم الفرقة، وستميل وتزل أقدامهم غداً عن الصراط، فيقعون في نار الحرقه؛ فهم ناكبون في دنياهم وعقباهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُؤُا فِي طَغْيِهِمْ يَمْهَرُونَ﴾.

أخبر عن صادق علمه بهم، وذلك صادر عن سابق حُكمه فيهم، فقال: لو كشفنا عنهم في الحال لم يفوا بما يعدون من أنفسهم من الإيمان في المال، ولقد علم أنهم سيكفرون، وحكم عليهم بأنهم يكفرون؛ إذ لا يجوز أن يكون حُكمه فيهم بخلاف علمه بهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَوُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾.

أذقناهم مقدمات العذاب دون شدايده... تنبيهاً لهم، فما انتبهوا وما انزجروا، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهاال لأسرع الله زواله عنهم، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم، ليُقْضَى الله أمراً كان مفعولاً.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾.

لما أحللنا بهم أشدَّ العقوبات ضَعُفُوا عن تحملها، وأخذوا بغتة، ولم ينفعهم ما قدَّموا من الابتهاال، فَيَسُّوا عن الإجابة، وعرجوا في أوطان القنوط.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر عظيم مَنِّهِ عليهم بأن خلق لهم هذه الأعضاء، وطالبهم بالشكر عليها. وشكَّروهم عليها استعمالها في طاعته؛ فشكَّر السَّمْعُ ألا تسمع إلا بالله والله، وشكَّر البَصَرُ ألا تنظر إلا بالله الله، وشكَّر القلب ألا تشهد غير الله، وألا تحبَّ به غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الابتداء للحادثات من الله بدءاً، والانتهاى إليه عوداً، والتوحيد ينتظم هذه المعاني؛ فتعرف أن الحادثات بالله ظهوراً، والله ملكاً، ومن الله ابتداءً، وإلى الله انتهاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يُخَيِّي لِنَفُوسٍ وَيُؤَمِّتُهَا وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ مَعْلُومٌ، وكذلك يحيي القلوب ويميتها؛ فموت القلب بالكُفْرِ والجُحْد، وحياء القلب بالإيمان والتوحيد، وكما أن للقلوب حياة وموتاً فكذلك للأوقات موتٌ وحياءٌ، فحياة الأوقات بيؤمن إقباله، وموت الأوقات بمحنة إعراضه، وفي معناه أنشدوا:

أموت إذا ذكرتكَ ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت
قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتَلِفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ فليس كل اختلافها في ضيائها وظلمتها، وطولها وقصرها، بل ليالي المحبين تختلف في الطول والقصر، وفي الروح والنوح؛ فمن الليالي ما هو أضوأ من اللآلي، ومن النهار ما هو أشد من الحنادس، يقول قائلهم: ليالي بعد الظاعنين شكول.
ويقول قائلهم:

وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقريب من هذا المعنى قالوا:
ليالي وصال قد مضين كأنها لآلي عقود في نحور الكواعب^(١)
وأيام هجر أعقبتها كأنها بياض مشيب في سواد الذوائب
قوله جل ذكره: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَوْنَا لَمَعُونُ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.
سلكوا في التكذيب مسلك سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل سرفهم، فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتلفهم.
قوله: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا﴾ لما طال عليهم وقت الحشر، وما توعدهم به من العذاب بعد البعث والنشور زاد ذلك في ارتيابهم، وجعلوا ذلك حجة في لبسهم واضطرابهم، فقالوا: لقد وعدنا مثل هذا نحن وآباؤنا، ثم لم يكن لذلك تحقيق، فما نحن إلا أمثالهم. فاحتج الله عليهم في جواز الحشر بما أقروا به من ابتداء الخلق:

فقال جل ذكره: ﴿قُلْ لَيِّنِ الْأَرْضَ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ قُلْ مَنْ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا يُحْكَرُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

(١) نحور. (ج) نحر: أعلى الصدر، وموضع القلادة منه.

الكواعب: (ج) الكاعب: كعبت الفتاة: نهدي ثديها.

أَمْرَهُ - عليه السلام - أَنْ يُلَوَّنَ عَلَيْهِمُ الْأَسْئَلَةُ، وَعَقَّبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ - مُخْبِرًا عَنْهُمْ - أَنْهُمْ سَيَقُولُونَ: اللَّهُ، ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِقَالَتِهِمْ تِلْكَ، بَلْ عَاتَبَهُمْ عَلَى تَجَرُّدِ قَوْلِهِمْ عَنِ التَّذَكُّرِ وَالْفَهْمِ وَالْعِلْمِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ - وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ صِدْقًا - فَلَمْ تَكُنْ فِيهِ غِنًى؛ إِذْ لَمْ يَصْدُرْ عَنْ عِلْمٍ وَبَقِيٍّ.

ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى كِمَالِ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ الْقَدِيمَةَ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِمَقْدُورٍ لَهُ ضِدٌّ تَعَلَّقَتْ بِضَدِّهِ، وَتَتَعَلَّقُ بِمِثْلِ مُتَعَلِّقِهِ.

وَالْعَجَبُ مِنْ اعْتِرَافِهِمْ بِكِمَالِ أَوْصَافِ جَلَالِهِ، ثُمَّ تَجْوِيزِهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ الَّتِي هِيَ جِمَادَاتٌ لَا تَحْيَا، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.

وَيُقَالُ أَوَّلًا قَالَ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فَقَدَّمَ التَّذَكُّرَ عَلَى التَّقْوَى؛ لِأَنَّهُمْ بِتَذَكُّرِهِمْ يَصِلُونَ إِلَى الْمَغْفِرَةِ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَعْرِفُوهُ فَإِنَّهُمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ اتِّقَاءُ مَخَالَفَتِهِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾؛ أَيِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ فَأَيُّ شَكٍّ بَقِيَ حَتَّى تَنْسُبُوهُ إِلَى السَّخَرِ؟

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿بَلْ أَنشَأْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

بَيَّنَّ أَنَّهُمْ أَصْرَبُوا عَلَى جُحُودِهِمْ، وَأَقَامُوا عَلَى عُتُوِّهِمْ وَنُبُوِّهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ أُزِيحَتْ الْعِلَلُ فَلَاتَ حِينَ عَذْرِ. وَلَيْسَ لَتَجْوِيزِ السَّاهِلَةِ مُوجِبٌ بَتًّا.

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ﴾.

اتِّخَاذُ الْأَوْلَادِ لَا يَصِحُّ كَاتِّخَاذِ الشَّرِيكِ، وَالْأَمْرَانِ جَمِيعًا دَاخِلَانِ فِي حَدِّ الْإِسْتِحَالَةِ، لِأَنَّ الْوَلَدَ أَوْ الشَّرِيكَ يُوْجِبُ الْمَسَاوَاةَ فِي الْقَدْرِ، وَالصَّمْدِيَّةُ تَتَقَدَّسُ عَنْ جَوَازِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ أَوْ جَنْسٌ.

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

كُلُّ أَمْرٍ نَيْطٌ^(١) بَاثْنَيْنِ فَقَدْ انْتَفَى عَنْهُ النِّظَامُ وَصَحَّةُ التَّرْتِيبِ، وَأَدْلَةُ التَّمَانَعِ مَذْكُورَةٌ فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ.

﴿سُبْحَنَ اللَّهُ﴾ تَقْدِيسًا لَهُ، وَتَنْزِيهًا عَمَّا وَصَفُوهُ بِهِ. ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: تَنْزَعٌ عَنْ أَوْهَامِ مَنْ أَشْرَكَ، وَظُنُونِ مَنْ أَفْكَ.

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئَنِي مَا يُوعَدُونَ﴾.

يَقُولُ إِنْ عَجَلْتَ لَهُمْ مَا تَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي جَمْلَتِهِمْ، وَلَا تَوْصِلْ إِلَيَّ

(١) نِيطَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ: عَهْدَ بِهِ إِلَيْهِ.

سوءاً مثلما توصل إليهم من عقوبتهم. وفي هذا دليلٌ على أنَّ للحقَّ أن يفعلَ ما يريد، ولو عذَّبَ البريء لم يكن ذلك منه ظلماً ولا قبيحاً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾.

تدل على صحة قدرته على خلاف ما عليم؛ فإنه أخبر أنه قادر على تعجيل عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك، فَصَحَّحتُ القدرةُ على خلاف المعلوم.

قوله جل ذكره: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي مِنِّي أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾.

الهمزة في ﴿أحسن﴾ يجوز ألا تكون للمبالغة؛ ويكون المعنى ادفع بالحسن السيئة. أو أن تكون للمبالغة؛ فتكون المكافأة جائرة والعفو عنها - في الحُسن - أشدَّ مبالغة.

ويقال ادفع الجفاء بالوفاء، وجُزِمَ أهل العصيان بحكم الإحسان.

ويقال ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له.

ويقال اسلك مسلك الكرم، ولا تنجح إلى طريق المكافأة.

ويقال الأحسن ما أشار إليه القلب، والسيئة ما تدعو إليه النفس.

ويقال الأحسن ما كان بإشارة الحقيقة، والسيئة ما كان بوساوس الشيطان.

ويقال الأحسن نور الحقائق، والسيئة ظلمة الخلائق.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ﴾.

الاستعاذة - على الحقيقة - تكون بالله من الله كما قال ﷺ: «أعوذ بك منك»^(٢)، ولكنه - سبحانه - أراد أن نُعْبِده بالاستعاذة به من الشيطان، بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ علينا، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجري العادة. وإلا... فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيء لكان يُمَسِّكُ على الهداية نفسه! فَمَنْ عَجَزَ عن أن يحفظ نفسه كان عن إغواء غيره أشدَّ عجزاً، وأنشدوا:

جحودي فيك تلبيس وعقلي فيك تهويس
فَمَنْ أَدَمَ إِلَّاكَ ومن في (...)^(٣) إبليس

(١) الآية (٩٤) لم ترد.

(٢) أخرجه مسلم (صلاة ٢٢٢)، وأبو داود (صلاة ١٤٨)، (وتر، ٥)، والترمذي (دعوات ١١٢) والنسائي (طهارة ١١٩)، (سهو ٨٩)، وابن ماجه (دعاء ٣)، وأحمد بن حنبل ١، ٩٦، ١١٨، ١٥٠، ٦، ٥٨، ٢٠١.

(٣) بياض في الأصل.

قوله جل ذكره: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

إذا أخذ البلاء بخناقهم، واستمكن الضر من أحوالهم، وعلموا ألا محيص ولا محيّد أخذوا في التضرّع والاستكانة، ودون ما يرومون خرط القتاد! ويقال لهم هلا كان عشر عشر هذا قبل هذا؟ ولقد قيل:

قلْتُ للنفس: إن أَرَدْتَ رجوعاً فارجعي قبل أن يُسَدَّ الطريق

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَتَّبِعُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسَاءَلُونَ﴾.

يومئذ لا تنفع الأنساب وتنقطع الأسباب، ولا ينفع الندم، وسيلقى كل غيب ما اجترم؛ فَمَنْ ثَقُلَتْ بالخيرات موازينه لآخ عليه تزيينه. ومن ظهر ما يشينه فله من البلاء فنونه؛ تلفح وجوههم النار، وتلمح من شواهدهم الآثار، ويتوجه عليهم الحجاج، فلا جواب لهم يُسْمَع، ولا عُذْر منهم يُقْبَل، ولا عذاب عنهم يُرْفَع، ولا عقاب عنهم يُقْطَع^(١).

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾.

نطقوا بالحق... ولكن في يوم لا ينفع فيه الإقرار، ولا يُقْبَلُ الاعتذار، ثم يقولون:

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

والحق يقول: لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه. عِلْمُ أَنَّ رَدَّهُمْ إِلَى الدُّنْيَا لَا يَكُونُ، ولكنه عِلْمُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

عند ذلك يتم عليهم البلاء، ويشتد عليهم العناء، لأنهم ما داموا يذكرون الله لم يحصل الفراق بالكلية، فإذا جِيلَ بينهم وبين ذكره تتم لهم المحنة، وهو أحد ما قيل في قوله: ﴿لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وفي الخبر: «أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواء كعواء الذئب». وبعض الناس تغار من أحوالهم؛ لأن الحق يقول لهم: ﴿أَخْسِرُوا فِيهَا﴾، فيقولون: يا ليتنا يقول لنا! أليس هو يخاطبنا بذلك؟! وهؤلاء يقولون: قدح الأحابيب الذئ من مذح الأجانب، وينشدون في هذا المعنى:

أتاني عنك سبك لي.. فسبني أليس جرى بفيك اسمي؟ فحسبي

(١) الآيات من (١٠٢ حتى ١٠٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتَهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾.

الحق - سبحانه - ينتقم من أعدائه بما يطيّب به قلوب أوليائه، وتلك خصومة الحق، فيقول: قد كان قوم من أوليائي يُفصحون بمدحي وثنائي، ويتصفون بمدحي وإطرائي، فاتخذتموهم سخرياً... فأنا اليوم أجازيهم، وأنتقم ممن كان يناوهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَيْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنُكَ الْعَادِينَ قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾.

عدد سنين الأشياء - وإن كانت كثيرة - فقد تقصر أو تقل بالإضافة إلى ما يوفي ويُرَبِّي عليها، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض؛ إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحة التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شداً فتتلاشى في جنب ما يروونه ذلك اليوم من أليم تلك العقوبات المتوالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝﴾.

العبثُ اللهو، واللَّعبُ والاشتغال بما يُلهي عن الحق، والله لم يأمر العباد بذلك، ولم يدعهم إلى ذلك، ولم يندبهم إليه.

والعابثُ في فعله مَنْ فعله على غير حد الاستقامة، ويكون هازلاً مُسْتَجْلِباً بفعله أحكامَ الله إلى نفسه، متمادياً في سهوه، مستلذّ التفرقة في قصده. وكلُّ هذا من صفات ذوي البشرية، والحق - سبحانه - مُنْزَعُ النَّعْتِ عن هذه الجملة، فلا هو يفعل شيء عابث، ولا بشيء من العبث أمر.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝﴾.

الحق - بنعوت جلاله - متوحد، وفي عزّ أزاله وعلو أوصافه متفرد، فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجّه لمخلوق عليه حق، وما يفعله من إحسان بعباده فليس شيء منها بمستحق.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝﴾: ما تَجَمَّلَ بالعرش، ولكن تَعَزَّزَ العرش بآئه أضافه إلى نفسه إضافة خصوصية.

والكريمُ الحسن، والكرمُ نفى الدناءة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝﴾.

حسابه على الله في آجله. وعذابه من الله له في عاجله، وهو الجهل الذي أودع

قلبه حتى رَضِيَ بِأَن يَغْبُدَ معه غيره. وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] كلامٌ حاصلٌ من غير دليل عقل، ولا شهادة خبرٍ أو نقل، فما هو إلا إفك وبهتان، وقولٌ ليس يساعده برهان.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

اغفر الذنوب، واستر العيوب، وأجزل الموهوب. وارحم حتى لا تستولي علينا هواجسُ التفرقة ونوازل الخطوب. والرحمةُ المطلوبةُ بالدعاء من صنوف النعمة، ويسمى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز.

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم نذيرُ الوفاةِ فُرْقَتُهُ، اسم بشيرُ الحياةِ وصلته، اسم سببُ الرُّوحِ عرفائه، اسم راحةُ الرُّوحِ إحسانه، اسم كمالُ الأُنسِ إقباله، اسم فتنةُ قلوبِ المُهَيِّمينِ جماله، اسم مَنْ شَهِدَهُ دامت سلامته، اسم مَنْ وَجَدَهُ قامت قِيامَتُهُ، اسم لا إليه حظوة، ولا بدونه سلوة.

قوله جل ذكره: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١].

سورة هي شَرَفٌ لك - يا محمد - أنزلناها لأن أقلَّ ما ورد به التحدي سورة؛ فكلُّ سورةٍ شَرَفٌ له عليه السلام لأنها له معجزة، بيّناها وشرعنا فيها من الحلال والحرام، وبيّنا فيها من الأحكام لكم به اهتداء، وللقلوب من غمرة الاستعجام شفاء. أنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ، ودلائلَ واضحةٍ، وحُجَجاً لا تُنْحَت؛ لتذكروا تلك الآيات، وتعتبروا بما فيها من البراهين والبيّنات.

قوله جل ذكره: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة، ولكن جعل إثبات أمره وتقرير حُكْمِهِ والقطع بكونه على أكثر الناس خصلةً عسيرةً بعيدة؛ إذ لا تُقْبَلُ الشهادةُ عليه حتى يقول: رأيتُ ذلك منه في ذلك منها! وذلك أمرٌ ليس بالهين، فسبحان مَنْ أَعْظَمَ العقوبةَ على تلك الفَعْلَةِ الفحشاء، ثم جعل الأمر في إثباتها بغايه الكدِّ والعناء! وحين اعترف واحدٌ له بذلك قال له ﷺ: «لَعَلَّكَ قَبِلْتَ... لَعَلَّكَ لَامَسْتَ» وقال لبعض أصحابه: «استكبهوه»^(١) وكلُّ ذلك رَوْماً لِدَرْءِ الحُدِّ عنه، إلى أن ألْحَ وأصرَّ على الاعتراف.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ما يأمر به الحقُّ فالواجب مقابلته بالسمع والطوع.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١/٢٣٨ - ٢٧٠ - ٢٨٩)، والحاكم في (المستدرک ٤/٣٦١)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/٣٣٨)، والدارقطني في (السنن ٣/١٢١)، والقرطبي في (التفسير ١٩/١٠٥).

والرحمة من موجب الشرع وهو المحمود، فأما ما يقتضيه الطَّبْعُ والعادة والسوء فمذمومٌ غيرُ محمود. ونهى عن الرحمة على من خَرَقَ الشرعَ، وَتَرَكَ الأمرَ، وأساء الأدبَ، وانتصبَ في مواطنِ المخالفة.

ويقال نهانا عن الرحمة بهم، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم - بتلك الفعلة الفحشاء - رقم الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١) ولولا رحمته لما استبقى عليه حُلَّةُ إيمانه مع قبيح جُزْمِهِ وعصيانهِ.
قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِيَكُونَ عليهم أشدُّ، وليكون تخويفاً لمتعاطي ذلك الفعل، ثم من حقِّ الذين يشهدون ذلك الموضع أن يتذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم أنهم لم يفعلوا مثله، وكيف عَصَمَهُم من ذلك. وإن جرى منهم شيءٌ من ذلك يذكروا عظيمَ نعمةِ الله عليهم؛ كيف سَتَرَ عليهم ولم يفضحهم، ولم يُقَمِّمهم في الموضع الذي أقام فيه هذا المُبْتَلَى به. وسبيلٌ من يشهد ذلك الموضع ألا يُعَيِّرَ صاحبه بذلك، وألا ينسى حُكْمَ الله تعالى في إقدامه على جُزْمِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الناسُ أشْكَالٌ؛ فكلُّ نظيرٍ مع شكله، وكلُّ يساكين شكله، وأنشدوا:

عن المرء لا تسأل وسلَّ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقَارَنِ يقتدي

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣/١٧٨، ٧/١٣٦، ٨/١٩٥ - ١٩٧)، ومسلم في (الصحيح الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠ - ١٠٥)، وأبو داود في (السنن ٤٦٨٩)، والترمذي في (السنن ٢٦٢٥)، والنسائي في (السنن ٨/٦٤ - ٦٥ - ٣١٣)، وابن ماجه في (السنن ٣٩٣٦)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٧٦، ٣/٣٤٦، ٦/١٣٩)، وعبد الرزاق في (المصنف ٣٦٨٨) والبيهقي في (السنن الكبرى ١٠/ ١٨٦)، والدارمي في (السنن ٢/١١٥)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١/١٠٠ - ١٠١ - ١٥٢، ٧/ ٢٩٥)، وابن أبي شعبة في (المصنف ٤/٤٠٤ - ٤٠٥، ٨/٦ - ٩ - ١١، ١٤، ٣٢، ٣٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ١١/٢٤٤، ١٢/٣٤٦)، وابن عبد البر في (التمهيد ٤/٢٣٦، ٩/ ٢٤٣ - ٢٥٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/٢٥٤، ٨/٥١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ١٣٠٩ - ١٣١٠، ١٣١١ - ١٣٢٥، ١٣٢٦ - ١٧٣٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٥/ ١١٩، ١٢/٨١ - ١١٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/٢٤٩)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٣/١٦٤ - ٣٢٢ - ٣٦٩ - ٢٥٦، ٨/١١٧ - ٢٥٧) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٥٣)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣/٢٤٧)، والآجري في (الشرعية ١١٣)، وابن أبي شعبة في (الإيمان ٣٩ - ٤٠)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢/١٤٢، ٥/٢٢٣، ١١٨، ١٠/٤٥٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١/٢٩٨ - ٥٠٧، ٢/٥٤٢ - ٦٢٧ - ٦٣١، ٥/١٨٧، ٦/٢٢٠٥، ٧/٢٧٠٧).

فأهل الفساد الفساد يجمعهم - وإن تباعد مزارهم وأهل السداد السداد يجمعهم - وإن تناءت ديارهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

لثلاثا يستبيحوا أعراض المسلمين، ولثلاثا يهتكوا أستار الناس أمر بتأديبهم، وإقامة الحد عليهم إذا لم يأتوا بالشهداء .

ثم بالغ في عدد الشهود، وألا تقبل تلك الشهادة إلا بالتضرع التام، ثم أكمله بقوله ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ . وفي الخبر المسند قوله عليه السلام: «مَنْ أَتَى مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقَاذورات فليستتر بستر الله، فَإِنَّ مَنْ أَبَدَى لَنَا صَفْحَتَهُ، أَقْمْنَا عَلَيْهِ حَدَّ اللَّهِ»^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

جعل من شرط قبول شهادته صحة توبته، وجعل علامة صحة توبته إصلاحه، فقال: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، وهو أن تأتي على توبته مدة تنتشر فيها بالصلاح صفته، كما اشتهرت بهتك أعراض المسلمين قائلته . . كل هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ زَوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

لما ضاق الأمر على من رأى أهله على فاحشة، إذ أن في ذلك قبول نسب غير صحيح - فقد نهى الشرع عن استلحاقه ولداً من غيره . وكان أمراً محظوراً هتك عرض المرأة والشهادة عليها بالفحشاء، إذ يجوز أن يكون الأمر في المغيب؛ أي بخلاف ما يدعيه الزوج . ولأن ذلك أمر ذو خطر شرع الله حُكْمَ اللعان^(٢) ليكون للخصومة

(١) للحديث روايات أخرى: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله . .» أخرجه الموطأ (حدود ١٢) .

ورواية تقول: «اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها» أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار ٢٠/١) .
(٢) اللعان: لاعن امرأته في الحكم ملاعنة ولعان، ولاعن الحاكم بينهما لعاناً: حكم، والملاعنة بين الزوجين إذا قذف الرجل امرأته أو رماها برجل أنه زنى بها، فالإمام يلاعن بينهما ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول: أشهد بالله أنها زنت بفلان، وإنه لصادق فيما رماها به، فإذا قال ذلك أربع مرات قال في الخامسة: وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به، ثم تقام المرأة فتقول أيضاً أربع مرات: أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا، ثم تقول في الخامسة: وعلي غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا فرغت من ذلك بانت منه ولم تحل له أبداً، وإن كانت حالاً فجاءت بولد=

قاطعاً، وللمُقدِّم على الفاحشة زاجراً، ففي مثل هذه الأحوال عنها خَرْجَةٌ. ولولا أن الله على كل شيء قدير وإلا ففي عادة الناس... من الذي يهتدي لِمَثَلِ هذا الحكم لولا تعريف سماوي وأمر نبوي، من الوحي مُتْلَفًا، ومن الله مُبْتَدَأُ وإليه مُنْتَهَا^(١)؟ قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

لَبَقِيتُمْ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ الْمُعْضَلَةَ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشككة. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذه قصة عائشة رضي الله عنها، وما كان من حديث الإفك. بَيَّنَّ اللَّهُ - سبحانه - أنه لا يُخْلِي أحداً من المحنة والبلاء، في المحبة والولاء؛ فالامتحان من أقوى أركان وأعظم برهانه وأصدق بيانه، كذلك قال ﷺ «يُمْتَحَنُ الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ»، وقال: «أشدُّ الناسِ بلاءَ الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». ويقال إن الله - سبحانه - غيورٌ على قلوب خواصِّ عباده، فإذا حصلت مساكنة بعضٍ إلى بعضٍ يُجْرِي الله ما يَرُدُّ كُلَّ واحدٍ منهم عن صاحبه، ويردُّه إلى نفسه، وأنشدوا:

إذا عَلِقَتْ رُوحِي بِشَيْءٍ، تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كَيْ تَسْلُبُنِيَا
وإن النبي - ﷺ - لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال: «عائشة»^(٢) فساكنها.

وفي بعض الأخبار أن عائشة قالت: «يا رسول الله إني أحبك وأحب قريبي»...

= فهو ولدها ولا يلحق بالزوج، لأن السنة نفتته عنه سمي ذلك كله لعاناً لقول الزوج: عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين، وقول المرأة: عليها غضب الله إن كان من الصادقين. (لسان العرب ١٣/٣٨٨ مادة: لعن).

(١) الآيات (٧، ٨، ٩) لم ترد.

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ٦/٥ - ٢٠٩)، ومسلم (فضائل الصحابة ٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/٢٠٣)، والبيهقي في (الأسماء الصفات ٦/٣٧٠، ٧/٢٩٩، ١٠/٢٣٣)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٦٠١٤)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ١/٣، ١٢٥، ٨/٤٦) والهيثمي في (مجمع الزوائد ٨/٤٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٢٢٨)، وابن أبي عاصم في (السنة ٢/٥٧٧، ٥٧٨)، والبخاري في (التاريخ الصغير ٢/١٢٤)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/١٨)، ٨/٧٤)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٣٩٠، ٣٥٦٤٠، ٣٥٦٥١، ٣٥٦٦٢ - ٣٥٦٨٧ - ٣٦٤٤٦)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٦/٢٤)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ٢/٩٤ - ١٣٢) وابن كثير في (البداية والنهاية ٣/٢٣١، ٥/٢١٩). والقرطبي في (التفسير ١٤/٢١٨)، وابن أبي حاتم الرازي في (علل الحديث ٢٦٥١ - ٢٦٦٦).

فأجرى الله حديث الإفك حتى ردَّ قلبَ رسولِ الله - ﷺ - عنها إلى الله، وردَّ قلب عائشة عنه إلى الله؛ حيث قال - لما ظَهَرَتْ براءةُ ساحتها: بحمدِ الله لا بحمدك كشف الله عنها به تلك المحنة، وأزال الشكَّ، وأظهر صِدْقَها وبراءةَ ساحتها.

ويقال إن النبي ﷺ قال: «اتقوا فِرَاسَةَ المؤمنِ فإنَّ المؤمنَ ينظر بنور الله»، فإذا كانت الفِرَاسَةُ صفةَ المؤمنِ فأولى الناس بالفِرَاسَةِ كان رسولُ الله ﷺ، ثم لم تظهر له بحكم الفِرَاسَةِ براءةُ ساحتها، حتى كان يقول: «إِنْ فَعَلْتِ فتوبي».

والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يَسُدُّ اللهُ على أوليائه عيونَ الفِرَاسَةِ إكمالاً للبلاء. وكذلك إبراهيم - عليه السلام - لم يميّز ولم يعرف الملائكة حيث قَدَّمَ إليهم العِجْلَ الحنيد^(١)، وتوهمهم أضيافاً. ولوط عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة.

ويقال إنه كان - ﷺ - يقول لعائشة: «يا حُمَيْرَاءُ»^(٢).

فلما كان زمان الإفك، وأرسلها إلى بيت أبيها، واستوحش الأبوان معها، ومَرَضَتْ عائشة - رضي الله عنها - من الحزن والوجد، كان رسول الله - ﷺ - إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول:

«كيف بيتكم؟ لا عائشة ولا حميراء فما كان يطيب بالتغافل عنها، فتعبيره - إن لم يُفْهَمْ بالتصريح - فيُفْهَقُ بالتلويح.

ثم إنه - سبحانه - قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾: فبمقدار جُرْمِهِم احتمل كل واحد ما يخصه من الوزر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وبَسْطِ ألسنتهم بالسوء عنها، وتركهم الإعراض عن حُرْمِ النبي ﷺ. ثم قال: وهَلَّا جاءوا على ما قالوا بالشهداء؟ وإذا لم يجدوا ذلك فَهَلَّا سكتوا عن بَسْطِ اللسان^(٣)؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ لَتَسْكُرُوا فِي مَا آفَضْتُمْ فِيهِ عَدَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) العجل الحنيد: المحنوذ المهيوي، وقيل: هو الذي يقطر ماؤه وقد شوي. (لسان العرب ٣/٤٨٤ مادة: حنذ).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/٣٥٥)، وابن حبان في (المجروحين ١/٣٥٣)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٣٨٩).

(٣) الآية (١٣) لم ترد.

لأنه أخبر أن جُزْمَهُم - وإن كان عظيماً - فإنه في عِلْمِ اللَّهِ عنهم غير مؤثر، ولولا أن الله - سبحانه - ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه فلعله لم يذكر هذه المبالغة في أمرهم؛ فإن الذي يقوله الأجانب والكفار في وصف الحق - سبحانه - بما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويُزِي على كل سوء - ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم، ولا يمنع عنهم أرفاقهم، ولكن ما تتعلق به حقوق أوليائه - لا سيما حق الرسول ﷺ - فذاك عظيم عند الله .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ .

بالغ في الشكاية منهم لما أقدموا عليه بما تأذى به قلب الرسول ﷺ - وقلوب جميع المخلصين من المسلمين .

ثم قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾: وسبيل المؤمن ألا يستصغر في الوفاق طاعة، ولا يستصغر في الخلاف زلة، فإن تعظيم الأمر تعظيم للأمر وللأهل التحقيق لا ينظرون ما ذلك الفعل ولكن ينظرون من الأمر به .

ويقال: يَسِيرُ الزَّلَّةُ - يلاحظها العبد بعين الاستحقار - فتخط كثيراً من الأحوال، وتكدر كثيراً من صافي المشارب .

واليسير من الطاعة - ربما يستقلها العبد - ثم فيها نجاته ونجاة عالم معه .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ .

استماع الغيبة نوع من الغيبة، بل مستمع الغيبة شرُّ المغتابين؛ إذ بسماعه يتم قَصْدُ صاحبه . وإذا سمع المؤمن ما هو سوء قاله في المسلمين - مما لا صِحَّة له في التحقيق - فالواجب الرد على قائله، ولا يكفي في ذلك السكوت دون النكير، ويجب ردُّ قائله بأحسن نصيحة، وأدق موعظة، ونوع تشاغل عن إظهار المشاركة له فيما يستطيع من نشره من اخجال لقائله موحش، فإن أبى إلا انهماكاً فيما يقول فيرد عليه بما أمكن؛ لأنه إن لم يستحِ قائله من قوله فلا ينبغي أن يستحي المستمع من الرد عليه .

قوله جل ذكره: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

يتعلق هذا بأن مَنْ بَسَطَ لسانه في عائشة - رضي الله عنها - بعد ذلك لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية، ولعمري قائل ذلك مرتكب كبيرة ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك؛ أي ينبغي للمؤمن ألا يتكلم في هذا، وهذا كما يقول القائل: «إِذَا كُنْتُ أَخِي

فواسيني عند شدتي؛ فإن لم تواسيني لم تخرج عن الأخوة بذلك». . . ومعنى هذا القول أنه ينبغي للأخ أن يواسي أخاه في حال عثرته، وترك ذلك لا يبطّل النسب^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هؤلاء في استحقاق الذم أقبح منزلة، وأشدّ وزراً حيث أحبوا افتضاح المسلمين، ومن أركان الدين مظاهره المسلمين، وإعانة أولي الدين، وإرادة الخير لكافة المؤمنين. والذي يودّ فتنه للمسلمين فهو شرّ الخلق، والله لا يرضى منه بحاله، ولا يؤهله لمنال خلاصة التوحيد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوْفٌ رَحِيمٌ﴾.

كرّر قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ ليبين للجميع أنّ حسن الدفع عنهم كان بفضل رحمة وجميل المنح لهم، وكلّ يشهد حسن المنح ويشكر عليه، وعزيز عبد يشهد حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

إذا تنقّى القلب عن الوسوس، وصفا عن الهواجس بدت فيه أنوار الخواطر، فإذا سما وقت العبد عن ذلك سقطت الخواطر، وبدت فيه أحاديث الحق - سبحانه - كما قال في الخبر: «لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي فعمّر». وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبقى مع العبد، ولا يكون فيه احتمال ولا إشكال ولا إزعاج، وصاحبه يجب أن يكون أميناً، غير مظهر لیسر ما كوشف به.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ردّهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما من الحق في قصمي النفع والدفع، وحالتي العسر واليسر، والزكي من الله، والتعوى من الله، والآلاء من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَقَمَّرٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولَ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾.

تحرك في أبي بكر عرق من البشرية في وصف الانتقام من مسطح^(٢) حين شرع

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) هو مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف (٢٢٢ ق هـ - ٣٤ هـ = ٦٠١ - ٦٥٤ م) من

وَحَاضٌ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ، وَكَانَ فِي رَفْقِ أَبِي بَكْرٍ فَقَطَّعَ عَنْهُ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولَ - ﷺ - وَانْتَظَرَ الْأَمْرَ مِنْ اللَّهِ فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ فلم يَرْضَ مِنَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِيهِ عِزُّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمِطَالِبَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، فَأَعَادَ أَبُو بَكْرٍ لَهُ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ فِي مَاضِي أَيَّامِهِ. وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُحْسِنِ مَكَاوِفَةٌ، وَإِلَى مَنْ لَا يَسِيءُ وَلَا يَحْسُنُ فَضْلٌ، وَإِلَى الْجَانِي قُتُوَّةٌ وَكَرَمٌ، وَفِي سَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

وما رضوا بالعفو عن كل زلة حتى أنالوا كفه وأفادوا
قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: العفو والصفح بمعنى، فكررهما تأكيداً.

ويقال العفو في الأفعال، والصفح في جنایات القلوب.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هذا من كمال تلطفه - سبحانه. وفي الخبر: أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر - رضي الله عنه: «لي، أحب يا رب»، وعفا عن مسطح. وإن الله يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم، وأتى بالكراهة مِنَ الْخَلْقِ وَالْمُتَفَرِّدُ بِالْإِيجَادِ لِلَّهِ؟! وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ رَامٍ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَجْذُبْ دَا مِنْ الْعُطْفِ عَلَيْهِ
فَعَسَى أَنْ يَطْلُعَ اللَّئِيُّ عَلَى قَدْحِ الْقَوْمِ فَيَذْنِبُنِي إِلَيْهِ
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأُنَاقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

بالغ في توعده لهم حيث ذكر لفظ اللعنة في شأنهم.

وَوَصَفَ الْمُحْصَنَاتِ بِالْغَفْلَةِ: أَيِ بِالْغَفْلَةِ عَمَّا يُتَسَبَّنَ إِلَيْهِ؛ فَلَيْسَ الْوَصْفُ عَلَى جِهَةِ الذَّمِّ، وَلَكِنْ لِبَيَانِ تَبَاعُدِهِنَّ عَمَّا قِيلَ فِيهِنَّ.

وَاسْتَحْقَاقُ الْقَذْفَةِ لِلْعَنَةِ - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَشَوْمُ زَلَّتْهُمْ تَغْيِيرُ عَوَاقِبِهِمْ، فَيُخْرِجُونَهُ مِنَ الدُّنْيَا لَا عَلَى الْإِسْلَامِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

= قريش، أبو عباد، صحابي من الشجعان الأشراف. كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه أمه بنت خالة أبي بكر، وكان أبو بكر يموته لقربته منه، فلما كان حديث أهل الإفك في أمر عائشة جلده النبي ﷺ مع من خاضوا فيه، وحلف أبو بكر أن لا ينطق عليه. فنزلت الآية ﴿ولا يأتل...﴾ فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه، وأطعمه رسول الله ﷺ بخير خمسين وسقاً، وهو ممن شهد معه بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها.

الأعلام ٧/٢١٥، والإصابة ت ٧٩٣٧، وأسد الغابة ٤/٣٥٤، ونسب قريش ٩٥.

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم، فالعين كما تشهد: أنه نَظَرَ بي، تشهد بأنه بكى بي.. وكذلك سائر الأعضاء.

ويقال شهادة الأعضاء في القيامة مُؤَجَّلَةٌ، وشهادتها في المحبة اليوم مُعَجَّلَةٌ؛ من صُفْرَةِ الوجه إذا بدا المحبوب، وشحوب اللون، ونحافة الجسم، وانسكاب الدموع، وخفقان القلب، وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

يجازيهم على قَدَرِ استحقاقهم؛ للعابدين بالجنان والمثوبة على توفية أعمالهم، وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفية أحوالهم؛ فهؤلاء لهم علو الدرجات، وهؤلاء لهم الأنس بعزیز المشاهدات ودوام المناجاة.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: فتصير المعرفة ضرورية؛ فيجدون المعافاة من النَّظَرِ وتذكره، ويستريح القلب من وَضْفِي تَرَدُّدِهِ وَتَغْيِيرِهِ: لاستغنائه ببصائره عن تَبْصُرِهِ.

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحق؛ فهم قائمون بالحق للحق مع الحق، يبين لهم أسرار التوحيد وحقائقه، ويكون القائم عنهم، والآخذ لهم منهم من غير أن يُرَدَّهم إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأعمال وهي المحظورات ﴿الْخَبِيثِينَ﴾: من الرجال المؤثرين لها طوعاً، والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها، كلٌ مربوط بما يليق به؛ فالفِعْلُ لائقُ بفاعله، والفاعلُ بِفِعْلِهِ في الطهارة والقُدرة، والنفاسة والخساسة، والشرف والسرف.

ويقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأحوال؛ وهي الحظوظ والمُنَى والشهوات لأصحابها والساعين لها. والساعون لمثلها لها، غيرَ ممنوعٍ أحدهما من صاحبه، فالصفة للموصوف ملازمة، والموصوفُ لِصِفَتِهِ ملازم.

ويقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأشياء للخبيثين من الأشخاص، وهم الراضون بالمنازل السحيقة... وإنَّ طعامَ الكلابِ الجِيفُ.

ويقال ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾: من الأموال - وهي التي ليست بحلال - لمن بها رتبته، وعليها تعتكف همته؛ فالخبيثون من الرجال لا يميلون إلا لمثل تلك الأموال، وتلك الأموال لا تساعد إلا مثل أولئك الرجال.

قوله جل ذكره: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾: من الأعمال هي الطاعات والقرب للطيبيين، والطيبون هم المؤثرون لها والساعون في تحصيلها.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾: من الأحوال - وهي تحقيق المواصلات بما هو حق الحق، مُجَرِّدًا عن الحظوظ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال، وهم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُمْ عَنْ كُلِّ مُبْتَدِلٍ خَسِيسٍ، ولهم نفوس تسمو إلى المعالي، وهي التَّجَمُّلُ بالتذلل لِمَنْ لَهُ الْعِزَّةُ.

ويقال الطيبات من الأموال - وهي التي لا نكير للشرع عليها، ولا مِثَّةٌ لمخلوق فيها - للطيبيين من الرجال، وهم الأحرار الذين تَخَلَّصُوا مِنْ رِقِّ الْكُونِ.

ويقال ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ من الأشخاص وهن المُبَرَّاتُ من وهج الخطر، المتنقيات عن سفاسف أخلاق البشرية، وعن التعرّيج في أوطان الشهوات - ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الرجال الذين هم قائمون بحق الحق؛ لا يصحبون الخلق إلا للتعفّف، دون استجلاب الشهوات.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

لهم مغفرة في المال، ورزق كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشراف، ولا تطلب طمع، ولا ذلٌ مِثَّةٌ ولا تقديم تعب.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الخواص لا يَرَوْنَ لأنفسهم ملكاً يتفردون به؛ لا مِنْ الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة، فَمَنْ فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم مَنعٌ ولا رَجَزٌ، ولا حَجَبٌ لأحدٍ ولا حَظَرٌ.. هذا فيما نيط بهم. أمّا فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرّضون لمن هي في أيديهم؛ لا باستشراف طمع، ولا بطريق سؤال، ولا على وجه انبساط. فإن كان حكم الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحق يُلجئ مَنْ فِي يَدِهِ الشَّيْءُ لِيَحْمِلَهُ إِلَيْهِ بِحُكْمِ التَّوَاضُعِ وَالتَّقَرُّبِ، والولي يأخذ ذلك بنعت التعزُّز، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة، وأنشد بعضهم في هذا المعنى:

وإني لأستحي من الله أن أرى أسيرَ بخيلٍ ليس منه بغيرُ

وأن أسألَ المرأةَ اللئيمَ بغيره وبعمران ربي في البلادِ كثيرُ

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

في هذا حفظُ أمرِ الله وحفظُ حُرْمَةِ صاحب الدار؛ لأنَّ مَنْ دَخَلَها بغيرِ إذنِ صاحبِها ربما تكون فيها عورةٌ منكشفة، وربما يكون لصاحب الدار أمرٌ لا يريد أن يُطْلِعَ عليه غيره، فلا ينبغي أن يدخل عليه من غير استئذان.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

إن قيل لكم: ارجعوا... فارجعوا؛ فقد تكون الأعذار قائمة، وصاحب الملك يملكه أولى.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُثْبِتُونَ وَمَا تَكْثُرُونَ﴾.

رَفَعَ اللَّهُ الْجُنَاحَ وَالْحَرَجَ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِمَا لَا يُسْتَضَرُّ بِهِ صَاحِبُهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؛ كَدُخُولِ أَرْضٍ لِلدَّخْلِ فِيهَا أَغْرَاضٌ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ - وَلَا يَجِدُ طَرِيقاً غَيْرَ ذَلِكَ - إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي دُخُولِهِ ضَرَرٌ عَلَى صَاحِبِهَا، وَجَرَى هَذَا مَجْرَى الْإِسْتِظْلَالِ بِظُلِّ حَائِطٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَاعِداً فِي مِلْكِهِ، وَكَالنَّظَرِ فِي الْمَرْأَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي جِدَارٍ غَيْرِهِ... وَكُلُّ هَذَا إِنَّمَا يُسْتَبَاحٌ بِالْشَّرْعِ دُونَ قَضِيَةِ الْعَقْلِ - عَلَى مَا تَوَهَّمَهُ قَوْمٌ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿يَغُضُّوا﴾: مِنْ أَبْصَارِ الظَّوَاهِرِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمِنْ أَبْصَارِ الْقُلُوبِ عَنِ الْفِكْرِ الرَّدِيَّةِ، وَمِنْ تَصَوُّرِ الْغَائِبَاتِ عَنِ الْمَعَايِنَةِ، وَلَقَدْ قَالُوا: إِنَّ الْعَيْنَ سَبَبُ الْحَيْنِ، وَفِي مَعْنَاهُ أُنْشِدُوا:

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرَفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ - يوماً - أَتَعَبَتْكَ الْمَنَاطِرُ .

وقالوا: مَنْ أَرْسَلَ طَرَفَهُ اقْتَضَى حَقَّهُ.

وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلوب.

ويقال إن العدو إبليس يقول: قومي القديم وسهمي الذي لا يخطيء النظر. وأرباب المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قُلُوبِهِمْ عَنِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى الْمَحَسَّاتِ - وَهَذَا أَصْلُ كَبِيرٍ لَهُمْ فِي الْمَجَاهِدَةِ فِي أَحْوَالِ الرِّيَاضَةِ.

ويقال قَرَنَ اللَّهُ النَّهْيَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْمَحَارِمِ بِذِكْرِ حِفْظِ الْفَرْجِ فَقَالَ: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ تَنْبِيهاً عَلَى عِظَمِ خَطَرِ النَّظَرِ؛ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الْفِعْلِ.

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزُّهَّاد، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وهم أهل العرفان، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهيبة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق - سبحانه - يكشفهم من غير اختيارٍ منهم أو تعرضٍ أو تكلف.

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضَضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

المطالبة عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول التكليف للجنسين، فالواجب عليهن ترك المحظورات، والندب والثقل لهن صون القلب عن الشواغل والخواطر الردية، ثم إن ارتقين عن هذه الحالة فالتعامي بقلوبهن عن غير المعبود، والله يختص برحمته من يشاء.

قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ما أباح الله - سبحانه - على بيان مسائل الفقه فمستثنى من الحظر، وما وراء ذلك فالواجب عليهن حفظ أنفسهن عن العقوبات في الآجل، والتصاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده. والله سبحانه كما يحفظ أوليائه عما يضرهم في الدين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم، فإن لم يتصل منهم نفع بالخلق فلا تصيب أحداً بهم فتنة.

وفي الجملة ما فيه زينة العبد لا يجوز إظهاره؛ فكما أن للنساء عورة ولا يجوز لهن إبداء زينتهن فكذلك من أظهر للخلق ما هو زينة سرائره من صفاء أحواله، وزكاه أعماله انقلب زينته شيناً، إلا إذا ظهر على أحد شيء - لا بتعمله ولا بتكلفه - فذلك مستثنى لأنه غير مؤاخذ بما لم يكن بتصرفه وتكلفه، فذوات المحارم على تفضيل بيان الشريعة يستثنى حكمهن عن الحظر.

قوله جل ذكره: ﴿أَوِ التَّائِبَاتِ عَصَرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذَّيْبِ لَر يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

تُرَاعَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ آدَابُ الشَّرْعِ فِي الْإِبَاحَةِ وَالْحَظَرِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

التوبة الرجوع عن المذمومات من الأفعال إلى أضدادها المحمودة، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة، فتوبة عن الزلة وهي توبة العوام، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص. . . وتوبة على محاذرة العقوبة، وتوبة على ملاحظة الأمر.

ويقال أمر الكافة بالتوبة؛ العاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق، وخاص الخاص من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفق.

ويقال أمر الكل بالتوبة لئلا يخجل العاصي من الرجوع بانفراده.

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء - رفقاً بهم - من أمارات الكرم.

ويقال في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتبين أنه أمرهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك، لا ليكون للحق - سبحانه - بتوبتهم وطاعتهم تجمل.

ويقال أحوج الناس إلى التوبة مَنْ تَوَهَّم أَنَّهُ لَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ .
 قوله جل ذكره: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمُ وَإِمَائِكُمُ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

إذا كان القصدُ في المناكحة التأديبُ بآداب الشرع يكفي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، وإنما يجب أن يكون القصدُ إلى التعفُّفِ ثم رجاءِ نسلٍ يقوم بحق الله .
 قوله: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الْحَالِ، أَوَّلًا بِالنَّفْسِ ثُمَّ غَنَى الْقَلْبَ؛ وَغْنَى الْقَلْبِ غَنَى عَنِ الشَّيْءِ، فَالْغَنَى عَنِ الدُّنْيَا أَتَمُّ مِنَ الْغَنَى بِالْدُّنْيَا .
 ويقال إن يكونوا فقراء في الحال يُغْنِيهِمُ اللَّهُ فِي الْمُسْتَأْنَفِ وَالْمَالِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْسَتَفْتِفِ الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ .
 مَنْ تَقَاصَرَ وَسَعَهُ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى الْعِيَالِ فَلْيَصْبِرْ عَلَى مَقَاسَاةِ التَّحْمَلِ فِي الْحَالِ، فَعَن قَرِيبٍ تَجْبِيهِ نَفْسُهُ إِلَى سَقُوطِ الْأَرْبِ، أَوِ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - يَجُودُ عَلَيْهِ بِتَسْهِيلِ السَّبَبِ مِنْ حَيْثُ لَا يَخْتَسِبُ، وَلَا تَخْلُو حَالُ الْمُتَعَفِّفِ عَنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ .
 قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِلْبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ .

أَيَّ إِن سَمَحْتَ نَفْسُكُمْ بِإِزَالَةِ الرُّقِّ عَنِ الْمَمَالِكِ - الَّذِينَ هُمْ فِي الْبَدَنِ إِخْوَانُكُمْ - مِنْ غَيْرِ عَوَضٍ تَلَاخُظُونَ مِنْهُمْ فَلَنْ تَخْسُرُوا عَلَى اللَّهِ فِي صَفَقَتِكُمْ . وَإِنْ أُبَيْتُمْ إِلَّا الْعَوَضُ وَدَعُوا إِلَى الْكِتَابَةِ، وَعَلِمْتُمْ بِغَالِبِ ظَنِّكُمْ صَحَّةَ الْوَفَاءِ بِمَالِ الْكِتَابَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَاتِبُوهُمْ^(١)، ثُمَّ تَعَاوَنُوا عَلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ بِكُلِّ وَجْهٍ؛ مِنْ قَذَرٍ يَحِطُّ مِنْ مَالِ الْكِتَابَةِ، وَإِعَانَةٍ لَهُمْ مِنْ فُرُوضِ الزَّكَاةِ، وَإِمَهَالٍ بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُ الْمَكَاتِبُ لِيَكُونَ تَرْفِيهًا لَهُ .

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرِّفْقِ حَتَّى يَصِلَ الْمَمْلُوكُ الْمَسْكِينُ إِلَى عَتَقِهِ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَسْمُو الرَّجَاءُ إِلَى اللَّهِ بِجَمِيلِ الظَّنِّ أَنْ يُغْتَقَ الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ بِكَثْرَةِ تَضَرُّعِهِ، وَقَدِيمِ سَعْيِهِ - بِقَدْرِ وَسَعِهِ - مِنْ عَنَاءٍ قَاسَاهُ، وَفَضْلِ مِنَ اللَّهِ - عَنْ قَدِيمٍ - رَجَاءٍ .

ثم في الخبر: «إِنَّ الْمَكَاتِبَ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَاهِمٌ»^(٢): وَالْعَبْدُ يَسْعَى بِجَهْدِهِ لِيَصِلَ إِلَى تَحْرِيرِ قَلْبِهِ، وَمَا دَامَ تَبَقَّى عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ قِيَامِ الْأَخْطَارِ وَبَقِيَّةٌ مِنَ الْإِخْتِيَارِ

(١) معنى الكتاب والمكاتبة: أن يكتتب الرجل عبده أو أَمَتَهُ عَلَى مَالٍ يُنَجِّمُهُ عَلَيْهِ، وَيَكْتَبُ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِذَا أَدَّى نَجْمَهُ، فِي كُلِّ نَجْمٍ كَذَا، وَكَذَا، فَهُوَ حُرٌّ، فَإِذَا أَدَّى جَمِيعَ مَا كَاتَبَهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ عَتَقَ، وَوَلَاؤُهُ لِمَوْلَاهُ الَّذِي كَاتَبَهُ. (لسان العرب ١/ ٧٠٠ مادة: كتب).

(٢) أخرجه أبو داود (عتاق ١)، والترمذي (بيوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

وإرادة شيء من الأغيار فهو بكمال رُفّه وليس في الحقيقة بحرٌ . . فالمكاتبُ عبدٌ ما بقي عليه درهم .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ نَحْصًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

حامِلُ العاصي على زَلَّتِهِ، والداعي له إلى عَشْرَتِهِ، والمُعِينُ له على مخالفتِهِ تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوزرِ أكثرُ مِنْ غيرِهِ، وبعبكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مَائِدَتِ مَبِينَتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

لم يغادر على وجه الدليل غُبْرَةً، ولم يترك الحقّ - سبحانه - للإشكال محلاً؛ بل أَوْضَحَ المنهاج وأضاء السُّراج، وأنار السبيلَ وألاح الدليل، فَمَنْ أراد أن يستبصر فلا يلحقه نَصَبٌ، ولا يمسّه تعبٌ .

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ .

أي هادي أهل السموات والأرض، ومنه نورهما والذي منه الشيء يسمى باسمه الشيء . ومنه نور السموات والأرض خَلْقًا؛ فنظامُ السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتقانها حاصلٌ بالله تعالى .

ويقال نور السموات والأرض أي منورها وخلق ما فيها من الضياء والزينة، وموجد ما أودعها من الأدلة اللاتحة .

ويقال نورُ الله السماء بنجومها فقال: ﴿وَرَبَّنَا أَسْمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [فصلت: ١٢] فكذلك زينَ القلوب بأنوار هي نورُ العقل ونورُ الفهم ونورُ العلم ونورُ اليقين ونورُ المعرفة ونورُ التوحيد، فلكلّ شيء من هذه الأنوار مطرَحُ شعاعٍ بقدره في الزيادة والنقصان .

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ عَلَى شَيْءٍ عَلَيْهِمْ﴾ .

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ . : أراد بهذا قلب المؤمن وهو معرفته، فشبه صدره بالمشكاة، وشبه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة، وشبه القنديل - الذي هو قلبه - بالكوكب الدرّي، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدُّ السراج في الاشتعال . ثم وصف الزيت بأنّه على كمال إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه، أو

خلَّلَ مَسَّهُ، ثم وصف ذلك الزيت - في صفوته - بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن تمسّه نار.

ويقال إن ضَرْبَ المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى - ﷺ - ودينه الجَنيفي، فما كان يهودياً - وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب، ولا نصرانياً - وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق.

وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم، ونور وجدوه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برهانهم، أو عيان أضافه إلى بيانهم، فهو نور على نور.

ويقال أراد به قلب محمد - ﷺ - ونور معرفته موقدٌ من شجرة هي إبراهيم عليه السلام، فهو ﷺ على دين إبراهيم.

قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ بحيث تصيبه الشمس بالعشي دون الغداة، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشي، بل تصيبه الشمس طول النهار ليتّم نضج زيتونه، ويكمل صفاء زيتيه. والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن، بل هما يعتدلان؛ فلا يغلب أحدهما الآخر؛ تقابل هيتهم أنسهم، وقبضهم بسطهم، وصحوهم محوهم، وبقاؤهم فناءهم، وقيامهم بأداب الشريعة تحقّقهم بجوامع الحقيقة.

ويقال ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾: أي أن هِمَمَهُم لا تسكن شرقياً ولا غربياً، ولا علوياً ولا سفلياً، ولا جنياً ولا إنسياً، ولا عَرْشاً ولا كرسياً، سطعت عن الأكوان، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة؛ لأن الحق مُنَزَّة عن اللّحوق والدرك، فبقيت عن الحق منفصلة، وبالحق غير متصلة؛ وهذه صفة الغرباء. «وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»^(١).

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ٢٣٢)، والترمذي في (السنن ١٦٢٩)، وابن ماجه في (السنن ٣٩٨٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣١٨/١)، والدارمي في (السنن ٣١٢/٢) والدولابي في (الكنى والأسماء ١٩٣/١)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥٣٨٠، ٥٣٨١، ٥٣٨٢، ٥٣٨٣ - ٥٣٨٦)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٨، ١١٩٩ - ١١٨٩)، والهشي في (مجمع الزوائد ١٠٦/١ - ١٥٦، ٢٥٩/٧ - ٢٧٨)، وابن كثير في (التفسير ٢٣/٣، ٢٣٩/٧) والبغوي في (شرح السنة ١١٨/١)، والقرطبي في (التفسير ١٦/١٤٠)، والطبراني في (المعجم الصغير ١/١٠٤)، والطبري في (التفسير ٧٥/١٥)، والشجري في (الأمالي ١٥٦/٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٣٠/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/٢٦٥)، والطحاري في (مشكل الآثار ٢٩٨/١)، وصاحب (تاريخ واسط ١٤٦)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢/٢١٨)، والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٢٧٣)، والطبراني في (المعجم الكبير ٦/٢٠٢ - ٣١٤، ٨/٨ =

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج فلا يذره يعرج في أقطار الكسل، فيصل سَيْرَه بِسُراه في استعمال فكره، والحق يمدّه: بنور التوفيق حتى لا يصدّه عن عوارض الاجتهاد شيء من حُبّ رياسته، أو ميل لسوء، أو هواده: فإذا أسفر ضُبُح غفلته، واستمكن النظر من موضعه حصل العلم لا محالة. ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجُهد، وحصول الوجد عند أداء الوزد.

ثم بعده نور المعاملة، ثم نور المنازلة، ثم متّوع نهار المواصله. وشموس التوحيد مشرقة، وليس في سماء أسرارهم سحب ولا في هوائها ضباب، قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة، فإذا نظّر في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة، فيعود على نفسه باللائمة، ويتجرّع كاسات ندمه، فيرتقي عن هذا باستدامة قُصْده، والتَّنْقِي عما كان عليه في أوقات فترته. فإذا استقام في ذلك كوشِفَ بنور المراقبة؛ فيعلم أنّه - سبحانه - مُطْلِع عليه. وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر. ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلي الصفات. ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليّله نهاراً، ونجومه أقماراً، وأقماره بدوراً، وبدوره شمساً. ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد، ثم ما لا تتناوله عبارة ولا تدركه إشارة، فالعبارات - عند ذلك - خُرُسٌ، والشواهد طُمَسٌ، وشهود الغير عند ذلك محال. عند ذلك: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعُشُورُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٤]، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وانفطرت... فهذه كلها أقسام الكون. وما من العدم لهم صار إلى العدم. القائم عنهم غيرهم، والكائن عنهم سواهم. وجلّت الأحديّة وعزّت الصمديّة، وتقدّست الديمومية، وتنزهت الإلهية.

قوله جلّ ذكره: ﴿فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ يَجَالُ لَا لُئْلِيهِمْ يَحْذَرُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أَلَّوْا وَالصَّلَاةَ وَلِإِثْلَاءِ الرَّكُوعِ﴾.

= ١٧٩، ١٢٢/١٠، ٧٠/١١، والخطيب البغدادي في (شرف أصحاب الحديث ٣٧، ٣٨، ٣٩)، وابن سعد في (الطبقات الكبرى ٢/١، ٨٢)، وابن حجر في (الكنز الشاف في تخریج أحاديث الكشف ١٤٨)، وابن أبي شيبه في (المصنف ٢٣٦/١٣، ٢٣٧)، وأبو نعيم في (تاريخ أصفهان ١/ ٢١٢، ٨٣/٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/ ٢٤٤، ٥٢٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٣٣)، وابن حبان في (المجروحين ٢/ ٢٢٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٦٢، ٤/ ١٦١٥، ١٨٢٣).

المساجدُ بيوتَه - سبحانه - وإنَّ اللهَ أَدْنَى أَنْ تُرْفَعَ الحوائِجُ فيها إليه فيقضيها، ورَفَعَ أقدارَ تلك البيوتِ على غيرها من الأبنية والآثار. المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة؛ فالعابدُ يَصِلُ بعبادته إلى ثوابِ الله، والقاصدُ يصلُ بإرادته إلى الله.

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة، والأرواحُ مشاهدُ المحبة، والأسرار محالُ المشاهدة.

قوله: ﴿يُسَيِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْعُدُوِّ...﴾ لم يقل: لا يتجرون ولا يشترون ولا يبيعون، بل قال: لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، فإن أمكن الجمع بينهما فلا بأس - ولكنه كالمتمعذر - إلا على الأكابر الذين تجري عليهم الأمور وهم عنها مأخوذون. ويقال هم الذين يؤثرون حقوقَ الحقِّ على حظوظِ النفس.

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن: حيَّ على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع، وقاموا الأداء حقه.

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى مَحْزَرٍ تُجِجْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عَوْضٍ أو مطالعة سبب. قوله جلَّ ذكره: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَئُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

أقوامُ ذلك اليومُ مُوجَّلٌ لهم، وآخرون: ذلك لهم مُعَجَّلٌ وهو بحسب ما هم فيه من الوقت؛ فإنَّ حقيقةَ الخوفِ تَرْقُبُ العقوبات مع مجاري الأنفاس. قوله جلَّ ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

مَنْ رَفَعَ الحِسَابَ مِنَ الْوَسْطِ يَرْفَعُ مَعَهُ الحِسَابَ، وَمَنْ هُوَ فِي أَسْرِ مَطَالِبَاتِهِ فَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ.

والرزقُ بغير حسابٍ في أرزاق الأرواح، فأما أرزاقُ الأشباح فمحصورةٌ معدودةٌ؛ لأن أرزاقَ الأشباحَ حظوظٌ؛ وهي وجودُ أفضال وفنونُ نوالٍ. وما حَصَرَهُ الوجودُ مِنَ الحوادثِ فلا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الْعَدْدُ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهود الجمالِ والجلالِ فذلك على الدوام.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَرَايِمٍ يَبِيعُونَ يَبِيعُهَا الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَرَّ يَحْدَهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابُهُمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبُ أَنََّّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]. وَمَنْ أَمَّلَ السَّرَابَ شَرَابًا فَلَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ كَانَ تَخِيلًا؛ فَالْعَطَشُ يَزْدَادُ، وَالرُّوحُ تَدْعُو لِلخُرُوجِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَو كَظَلُمْتُمْ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَدَنُكَ لَمْ يَكَدْ يَرَوْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

ظلمات الحسبان، وغيوم التفرقة، وليالي الجحْد، وحنادس الشك إذا اجتمعت فلا سراج لصاحبها ولا نجوم، ولا أقمار ولا شمس... فالويل ثم الويل!

قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾: إذا لم يسبق لعبيد نور القسمة، ولم يساعده تعلُّق فجهده وكده، وسعفه وجده عقيم من ثمراته، موئس من نيل بركاته. والبدايات غالبية للنهايات؛ فالقبول لأهله غير مُجْتَلَب، والرد لأهله غير مُكْتَسَب. وسعيد من سَعِد بالسعادة في عِلْمه في آزاله، وأراد كون ما عِلِم من أفعاله يكون، وأخبر أن ذلك كذلك يكون، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأراد وعِلِم.

وهكذا القول في الشقاوة؛ فليس لأفعاله عِلَّة، ولا تتوجَّه عليه لأحد حُجَّة.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

التسبيح على قسمين: تسبيح قول ونطق، وتسبيح دلالة وخلق؛ فتسبيح الخلق عام من كل مخلوق وعين وأثر، منه تسبيح خاص بالحيوانات، وتسبيح خاص بالعقلاء وهذا منقسم إلى قسمين: تسبيح صادر عن بصيرة، وتسبيح حاصل من غير بصيرة؛ فالذي قرينته البصيرة مقبول، والذي تجرَّد عن العرفان مردود.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

الملْك مبالغة من الملْك، والملْك القدرة على الإيجاد؛ فالمقدورات - قبل وجودها - للمخلوق مملوكة، كذلك في أحوال حدوثها بعد عذمها عائدة إلى ما كانت عليه، فملْك لا يحدث ولا يزوال ولا يؤوَّل شيء منه إلى البطول.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِرُهُ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَرِ يَقْبَلُ اللَّهُ الْآئِلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

تعرف إلى قلوب العلماء بدلالات صنعه في بديع حكمته، وبما يدل منها على كمال قدرته، وشمول علمه وحكمته، ونفوذ إرادته ومشيته. فَمَن أنعم النظر وصل إلى برز اليقين، ومَن أعرض بقي في وهدة الجحْد وظلمات الجهل.

ترتفع بمدرته بخارات البحر، وتصعد بتسييره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب، ثم يُديرها إلى سَمْت يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة قطرة؛ ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عَذْب فيقلبه عَذْبًا، ويُسيحه

السحاب سَكْبًا، فيوصل إلى كل موضع قَدْرًا يكون له مُرادًا معلومًا، لا بالجهدِ مِنَ المخلوقين يُمَسِّكُ أو يُنْزَلُ، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المكان الذي لا يُنْطَرِه.

﴿يَقْلِبُ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار.. ذلك تقدير العزيز العليم.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى اَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد خلق كل حيوان من ماء، يخرج من صُلْب الأب وتربية الأم. ثم أجزاء الماء متساوية متماثلة، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن، فيختص كل عضو وينفرد كل شئلو^(١) بنوع من الهيئة والصورة، وضرب من الشكل والهيئة. ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب، ثم في القامة والمنظر، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن ومخ وعصب وعزق وشعر.

فالنظر في هذا - مع العبرة به - يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الآيات بينة ولكن الله يهدي إليها قوماً ويلبس على آخرين، والذي سُدَّ بصره أنى ينفعه طلوع الشمس والنجوم؟ وكذلك الذي سُدَّتْ بصيرته أنى تنفعه شواهد العلوم ودلائل الفهوم؟ وقالوا في معناه:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوث عند الأنوار والظلم
قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

يستسلمون في الظاهر ويقرؤون باللسان، ثم المخلص يبقى على صدقه. والذي قال لخوف سيف المسلمين، أو لغرض له آخر فاسد يتولى بعد ذلك، وينحاز إلى جانب الكفرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾. علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم، فيمن علم أنه قاسط في خصومته لم يطب نفساً بحكمه. وكذلك المريب يهرب من الحق، ويجتهد في الفرار.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْخُوفُ إِتْرَاءَ إِلَى مَذْعَبَيْنِ﴾.

(١) الشلو: العضو (ج) أشلاء.

منقادين يميلون مع الهوى، ولا يقبلون حكمه إيماناً. وكذلك شأن المريض الذي يميل بين الصحة والسقم؛ فأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم، فليس منهم نفي القطع ولا إثبات بالعلم، فهم متطوِّحون في أودية الشك، وهذا معنى قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَوْ أَرَبَابٌ آمٌ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فلما انخرطوا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظلم الشك، ولما لم يكن لهم يقين في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين إيمانهم حقيقة بحكم التصديق شأنهم قيامهم بإظهار ما ضمنوه من التحقيق. ومن يقابل أمر الله بالطاعة، ويستقبل حكمه بالاستخداء.. فأولئك هم الصادقون في الحقيقة، السالكون في الطريقة، الآخذون بالوثيقة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أقسموا بالله غاية اليمين، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل، فقال: لا تعدوا بما هو معلوم منكم ألا تفوا به؛ فطاعة في الوقت أولى من نسويف بالوعد.

ثم قال: قُلْ يَا مُحَمَّد أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. فإن أجابوا سجدوا في الدارين، وأحسنوا إلى أنفسهم. وإن تولوا عن الإجابة فما أضروا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل عليهم، وسوف يلقون سوء عواقبهم، وليس على الرسل إلا حسنُ البلاغ. ويوم الحشر يغطى كل أحد كتابه، ويُعامل بمقتضى حساب نفسه^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وعَدَ الله حق وكلامه صدق، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه - بالإجماع - لم يتقدمهم في الفضيلة - إلى يومنا - أحد؛ فأولئك مقطوع بإمامتهم، وصدق وعد الله فيهم، وهم على الدين المرضي من قبل الله، ولقد آمنوا بعد خوفهم، وقاموا بسياسة المسلمين، والذب عن حوزة الإسلام أحسن قيام.

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

(٢) الآية (٥٤) لم ترد.

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان الملة ودعائم الإسلام، الناصحون لعباده، الهادون مَنْ يسترشد في الله؛ إذ الخلل في أمر المسلمين من الولاة الظلمة ضرره مقصور على ما يتعلق بأحكام الدنيا، فأما حفاظ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف:

قوم هم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفاظ القرآن وهم بمنزلة الخزانة، وقوم هم علماء الأصول الراذون على أهل العناد وأصحاب البدع بواضح الأدلة، وهم بطارقة الإسلام وشجعائه.

وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والديّات، وما في معاني الأيمان والنذور والدعاوى، وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك.

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان؛ فالذين معمور بهؤلاء - على اختلافهم إلى يوم القيامة^(١).
قوله جل ذكره: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُنْهَاهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

إن الباطل قد تكون له دولة ولكنها تخييل - وما لذلك بقاء - وأقل لبشاً من عارض ينشأ عن الغيظ.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكَ وَالَّذِينَ لَوْ يَبْتَغُوا الْخُلُومَ مِنْكَ لَكَ مَرْثٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ﴾.

ضيق الأمر من وجهه ووسعه من وجهه، وأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة أمر الحرم، والتحرر من مخاوف الفتنة، وإذا كانت الجوانب محروسة صارت المخاوف مأمونة^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ نِجَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يحدث تأثير بالمضرة لبنات الصدور من دواعي الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة؛ فإذا سكنت تلك الثائرة سهل الباب، وأبيحت الرخص وأمنت الفتنة.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾.

(٢) الآية (٥٩) لم ترد.

(١) الآية (٥٦) لم ترد.

إذا جاءت الأعذار سهل الامتحان والاختيار، وإذا حصلت القرابة سقطت الحشمة، وإذا صدقت القرابة انتفت التفرقة والأجنبية؛ فبشهادة هذه الآية إذا انتفت هذه الشروط صَحَّت المباشطة في الارتفاق.

ثم قال: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١]: وعزيرٌ من يصدق في الصداقة؛ فيكون في الباطن كما يُرى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرأة ومن ورائك كالمقراض^(١)، وفي معناه ما قلت:

مَنْ لِي بِمَنْ يَشُقُّ الْفُؤَادَ بُوْدُهُ	فَإِذَا تَرَحَّلَ لَمْ يَزْغَ عَنْ عَهْدِهِ
يَا بَوْسَ نَفْسِي مِنْ أَخٍ لِي بِاذِلِّ	حَسَنَ الْوَفَاءِ بَوْعْدِهِ لَا تُقْدِهِ
يُولِي الصَّفَاءَ بِنُطْقِهِ لَا خُلْقِهِ	وَيَدُسُّ صَابَأً فِي حِلَاوَةِ شَهْدِهِ
فَلِسَائِهِ يَبْدِي جَوَاهِرَ عَقْدِهِ	وَجَنَانَهُ تَغْلِي مَرَاجِلَ حَقْدِهِ
لَا هُمْ إِنْ لِي لَا أَطِيقُ مِرَاسَهُ	بِكَ أَسْتَعِذُّ مِنَ الْحَسُودِ وَكَيْدِهِ

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١] مَنْ تُوْمَنُ مِنْهُ هَذِهِ الْخِصَالُ وَأَمْثَالُهَا.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

السلام الأمان، وسبيل المؤمن إذا دخل بيتاً أن يسلم من الله على نفسه؛ أي يطلب الأمان والسلامة من الله لتسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضاه الله، إذ لا يحل لمسلم أن يفتر لحظة عن الاستجارة بالله حتى لا يرفع عنه - سبحانه - ظل عظمته؛ بإدامة حفظه عن الاتصاف بمكروه في الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوا لِيَعِضَ شَأْنُهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

شرط الاتباع موافقة المتبوع، وألا يتفرقوا فيصيروا أحزاباً كما قال: ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤] و«العلماء ورثة الأنبياء»^(٢). والمريدون لشيخهم

(١) المقراض: المقتص، وهو ما يقرض به الثوب أو غيره، وهما مقراضان. والمقراض: آلة تقرض بها تذكرة الراكب في القطار وغيره. (ج) مقاريض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٢٢٣)، وابن حجر في (تلخيص الحبير ٣/ ١٦٤)، والزيدي في (إتحاف السادة المتيقنين ١/ ٧١ - ٣٣٨ - ٤٥٠)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٨٦٧٩) والقرطبي في (التفسير ٤/ ٤١، ١٣/ ١٦٤)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨/ ٣٣٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٠)، والمجلوني في=

كَالْأُتَمَّةِ لِنَبِيهِمْ؛ فَشَرَطَ الْمُرِيدُ أَلَّا يَتَنَفَّسَ بِنَفْسٍ إِلَّا بِإِذْنِ شَيْخِهِ، وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ فِي نَفْسٍ - سِرّاً أَوْ جَهراً - فَإِنَّهُ يَرَى غِيْبَهُ سَرِيعاً فِي غَيْرِ مَا يُحِبُّهُ. وَمُخَالَفَةُ الشُّيُوخِ فِيمَا يَسْتَسِرُّونَهُ عَنْهُمْ أَشَدُّ مِمَّا يَظْهَرُ بِالْجَهْرِ بِكَثِيرٍ لِأَنَّهُ هَذَا يَلْتَحِقُ بِالْخِيَانَةِ. وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ لَا يُشْمُ رَائِحَةَ الصَّدَقِ، فَإِنْ بَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِسُرْعَةِ الْعِذَارِ وَالْإِفْصَاحِ عَمَّا حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْخِيَانَةِ، لِيُهْدِيَهُ شَيْخُهُ إِلَى مَا فِيهِ كَفَّارَةُ جُرْمِهِ، وَيَلْتَزِمَ فِي الْغَرَامَةِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ. وَإِذَا رَجَعَ الْمُرِيدُ إِلَى شَيْخِهِ بِالصَّدَقِ وَجَبَ عَلَى شَيْخِهِ جَبْرَانٌ تَقْصِيرُهُ بِهِمْ؛ فَإِنَّ الْمُرِيدِينَ عِيَالٌ عَلَى الشُّيُوخِ؛ فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْفِقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ قُوَّةِ أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ لَوْ آذَاءً﴾.

أَيَّ عَظُمَ فِي الْخُطَابِ، وَاحْفَظُوا فِي خِدْمَتِهِ الْأَدَبَ، وَعَانِقُوا طَاعَتَهُ عَلَى مِرَاعَةِ الْهَيْبَةِ وَالتَّوْقِيرِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ فِي مُتَابَعَةِ السُّنَّةِ، وَشَقَاوَةُ الْمُنْزَلَيْنِ فِي مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ. وَمِنْ أَيْسَرِ مَا يُصِيبُ مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ حَرَمَانُ الْمَوَافَقَةِ، وَتَعَذُّرُ الْمَتَابَعَةِ بَعْدَهُ، وَسُقُوطُ حَشْمَةِ الدَّارَيْنِ عَنْ قَلْبِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

إِنَّ لِلْيَوْمِ غَدًا، وَلِمَا يَفْعَلُ الْعَبْدُ حَسَابًا، وَسَيُطَالَبُ الْمَكْلُفُ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالتَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ.

= (كشف الخفاء ٢٢/٢ - ٨٣)، والسهمي في (تاريخ جرجان ٣٣٦)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٢٤)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١١٤)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٣٠ - ٢٤٧).

سورة الفرقان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم جليل شهدت بجلاله أفعاله، ونطقت بجماله أفضاله. دلت على إثباته آياته، وأخبرت عن صفاته مفعولاته.

بسم الله اسم عزيز عُرفت بفعله قدرته، اسم كريم شهدت بفضله نصرته.

بسم الله اسم عزيز عرّفه العقلاء بدلالات أفعاله، وعرفه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله؛ فبلطف جماله عرفوا جوده، وبكشف جلاله عرفوا وجوده.

بسم الله اسم عزيز من دعاه لبّاه، ومن توكل عليه كفّاه، ومن توسّل إليه أكرمه وآواه، ومن تنصّل إليه رجمه وأذناه، ومن شكّا إليه أشكاه، ومن سأله خوّله وأعطاه.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

يقال برك الطير على الماء إذا دام وقوفه على ظهر الماء. ومبارك الإبل مواضع إقامتها بالليل. وتبارك على وزن تفاعل تفيد دوام بقاءه، واستحقاقه لإقدم ثوبته وبقاء وجوده لا عن استفتاح ولا إلى انقطاع.

وفي التفاسير ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعظّم وتكبر. وعند قوم أنه من البركة وهي الزيادة والنفع، فدوامه وجوده، وتكبره استحقاق ذاته لصفاته العلية، والبركة أو الزيادة تشير إلى فضله وإحسانه ولطفه.

فجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة: ثناء عليه بذكر ذاته وحقّه، وثناء بذكر وصفه وعِزّه، وثناء بذكر إحسانه وفضله؛ فكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ مجمعُ الثناء عليه - سبحانه.

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، وهو القرآن ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾: فأكرمه بأن نبّاه وفضّله، وإلى الخلق أرسله، وبَيّن مُعْجَزَتَهُ وأماره صِدْقَهُ بالقرآن الذي عليه أنزله، وجعله بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي لَمْ يُلْمَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

تَفَرَّدَ بِالْمُلْكِ فلا شريك يساهمه، وتَوَحَّدَ بِالْجَلَالِ فلا نظير يُقَاسِمُهُ؛ فهو الواحد بلا قسيم في ذاته، ولا شريك في مخلوقاته، ولا شبيه في حقّه ولا في صفاته.

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا شُورًا﴾.

اتخذوا من دون الله آلهة لا يملكون قطميراً، ولا يخلقون نقيراً، ولا يدفعون عنهم كثيراً ولا يسيراً، ولا ينفعونهم ولا يسهلون عليهم عسيراً، ولا يملكون لأحد موتاً ولا شوراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا وَقَالُوا أُسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَقُورًا رَجِيمًا﴾.

ظنوه كما كانوا، ولمّا كانوا بأمثالهم قد استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورهم، واستحدثوا لأمثالهم واستكانوا - فقد قالوا من غير حجة وتقولوا، ولم يكن لقولهم تحصيل، ولأساطير الأولين ثرّاهتهم التي لا يذرى هل كانت؟ وإن كانت فلا يُعرف كيف كانت ومتى كانت؟

ثم قال: يا محمد، إن هذا الكتاب - الذي أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض - لا يُقدّر أحد على الإتيان بمثله ولو تشاغلوا من الوقت الذي أتى به أعداء الدين، وهم على كثرتهم مجتهدون في معارضته بما يوجب مساواته؛ فادّعوا تكذيبه. وانقطعت الأعصار وانقضت الأعمال، ولم يأت أحد بسورة مثله. فانتفى الرّيب عن صدّقه، ووجب الإقرار بحقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُودُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَافُرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبَرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّتِ نَجْوَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾.

لما عجزوا عن معارضته أخذوا يعيبونه بكونه بشراً من جنسهم ينشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا: هَلَّا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَيَرُونُ عِيَانًا؟ وهَلَّا جَعَلَ لَهُ الْكَنُوزَ فَاسْتَكْشَرَ مَا لَمْ يَلَمْ؟ وهَلَّا خَصَّ بِآيَاتٍ - اقترحوها - فَتَقَطَعَ الْعُذْرُ وَتَزِيلَ عَنَّا إِشْكَالًا؟ وما هذا الرجل إلا بشرٌ تعتريه من دواعي الشهوات ما يعترى غيره! فأني خصوصية له حتى تلزمنّا متابعتة ولن يُظهر لنا حجة؟ فأجاب الله عنهم وقال: إِنَّ الْحَقَّ قَادِرٌ عَلَى تَمْلِيكَ مَا قَالُوا وَأَضْعَافُ ذَلِكَ، وفي قدرته إظهار ما اقترحوه وأضعاف ذلك، ولكن ليس لهم هذا التّخير بعدما أزيح العذر بإظهار معجزة

واحدة، واقترح ما يَهْوُونَ تحكُّم على التقدير، وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا؛ لأن حُكَمَ الله بالشقاوة سابق لهم، وقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾.

فهم في حُكَمِ الله من جملة الكفار، والله أعدَّ لهم ولأمثالهم من الكفار وعيد الأبد. . فلا محالة يُمتحنون به.

قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾: دليل على جواز التكليف بما لا يقدر عليه العبد في الحال؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً، وهم معاتبون مُكَلَّفُونَ.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَرَفِيرًا﴾.

فوحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتحان بها، ونسيم الجنة يوجد قبل شهودها والدخول فيها، والنار تُسَجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها، والجنة تُزَيَّن منذ سنين قبل المُشْتَمِّعِينَ بها. وكذب مَنْ أحوال وجودهما قبل كون سكانهما وقطانهما من المتنفعين أو المعاقبين، لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التي لا تكون إلا بموجود حيث قال:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّرِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

راحة الجنة مقرونة بسعتها، ووحشة النار مقرونة بضيقها، فيضيق عليهم مكانهم، ويضيق عليهم قلوبهم، ويضيق عليهم أوقاتهم. ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تنهاى، ومَحَنٌ لا تنقضي؛ كلما راموا فرجة قيل لهم: فلن نزيدكم إلا عذاباً.

قوله جلَّ ذكره: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَصِيرًا﴾.

المتقون أبدأ في النعيم المقيم؛ حور وسرور وحبور، وزَوْجٌ وريحان، وبهجة وإحسان، ولطف جديد وفضل مزيد، وألذُّ شرابٍ وكاساتٍ محاب، وبسطُ قلبٍ وطيبُ حالٍ، وكمالُ أنسٍ ودوام طرب وتمام جَدَلٍ، لباسهم فيها حرير وفراشهم سندس^(١) وإستبرق^(٢). والأسماء أسماء في الدنيا والأعيان بخلاف المعهودات فيها.

(١) السندس: رقيق الديباج ورفيعه. وقيل: السندس ضرب من البُزَيون يُتخذ من المرعزي (معرب). (لسان العرب ١٠٧/٦ مادة: سندس).

(٢) الإستبرق: هو الديباج الصفيق الغليظ الحسن، وهو اسم أعجمي أصله بالفارسية اشتقره ونقل من العجمية إلى العربية كما سمي الديباج وهو منقول من الفارسية. (لسان العرب ١٠/٥ مادة: إستبرق).

ثم فيها ما يشاؤون، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون، ولا هم عنها يخرجون.
قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾.

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادة ما عليم أنه سيفعله، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله لا تتعلق به إرادتهم، ويمنع من قلوبهم مشيئته.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

اللَّهُ يحشر الكفار ويحشر الأصنام التي عبدوها من دون الله، فيُخَيِّبها ويقول لها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيتبرأون... كله تهويل وتعظيم للشأن، وإلا فهو عليم بما كان وما لم يكن. فالأصنام تُتبرأ منهم، وتقابلهم بالتكذيب، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ والضلال، فيلقون في النار، وَيَبْقَوْنَ في العيد إلى الأبد^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾.

أخبر أن الذين تقدّموه من الرسل كانوا بشرأ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور المعجزات عليهم. وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصورة، ثم قال:
﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

فُضِّل بعضاً على بعض، وأمر المفضل بالصبر والرضا، والفاضل بالشكر على العطاء وخصّ قوماً بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء، وخصّ قوماً بالعوافي، وآخرين بالأسقام والآلام، فلا لِمَنْ نَعَمه مناقب، ولا لِمَنْ امتحنه معائب... فبحكمه لا يجزئهم، وبفضله لا يفعلهم، وبإرادته لا بعبادتهم، وباختياره لا بأوضارهم، وبأقداره لا بأوزارهم، وبه لا يهيم.

قوله: ﴿أَنْتَصِرُونَ؟﴾ استفهام في معنى الأمر، فَمَنْ سَاعَدَهُ التوفيق صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبي وكفر.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لا يؤمنون بالحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا. وكما كانوا لا يخافون العذاب، ولا ينتظرون الحشر كذلك كانوا لا يؤمنون لقاء الله. فَمُنْكَرُ الرؤية من أهل القِبْلَةِ - ممن يؤمن بالقيامة والحشر - مُشَارِكٌ لهؤلاء في

(١) الآيتان (١٨، ١٩) لم ترد.

جُحِدَ مَا وَرَدَ بِهِ الْخَبِيرُ وَالنَّقْلُ؛ لَأَنَّ الثَّقَلَ كَمَا وَرَدَ بِكَوْنِ الْحَشْرِ وَرَدَ بِكَوْنِ الرُّوْيَةِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ.

فَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا قَالُوهُ عَلَى جِهَةِ رُؤْيَةِ الْمَقَامِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُ مُسَلَّمٌ لَهُمْ مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ وَرُؤْيَةِ رَبِّهِمْ. وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ فِي الْقُدْرَةِ جَائِزاً - إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِباً بَعْدَ إِزَاحَةِ غُذْرِهِمْ بِظُهُورِ مَعْجَزَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يَكُنْ اقْتِرَاحُ مَا قَالُوهُ جَائِزاً لَهُمْ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

اقْتَرَحُوا شَيْئِينَ: رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ وَرُؤْيَا اللَّهِ، فَأَخْبِرَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ التَّوْفِيقِ، وَلَكِنْ تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ: ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ!﴾.

﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: أَيُّ حَرَامًا مَمْنُوعًا يَعْنِي رُؤْيَا اللَّهِ عَنْهُمْ، فَهَذَا يَعُودُ إِلَى مَا جَرَى ذَكَرَهُ، وَحَمْلُهُ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، وَلَمْ يَجِرْ لَهَا هُنَا ذِكْرٌ. ثُمَّ فِيهِ بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالرُّؤْيَا لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ وَيُبَشِّرُونَهُمْ بِالْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] فَكَمَا لَا تَكُونُ لِلْكَفَّارِ بَشَارَةٌ بِالْجَنَّةِ وَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ لَا تَكُونُ الرُّؤْيَا لِلْكَفَّارِ وَتَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

هَذِهِ آفَةُ الْكَفَّارِ؛ ضَاعَ سَعْيُهُمْ وَخَابَ جُهْدُهُمْ، وَضَاعَ عَمَلُهُمْ وَخَسِرَتْ صَفَقَتُهُمْ وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وَأَمَّا أَصْحَابُ الْحَقَائِقِ وَأَرْبَابُ التَّوْحِيدِ فَيَلُوحُ لِقُلُوبِهِمْ مِنْ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَحْصُلُ بِهِ كِمَالُ رُؤْيِهِمْ، وَتَنَادَى إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّاحَاتِ مَا يَضِيقُ عَنْ وَصْفِهِ شَرْحَهُمْ، وَتَقَاصِرُ عَنْ ثَنَائِهِ نُطْقُهُمْ، حَيْثُ يَسْمَعُونَ قَوْلَهُ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وَلَقَدْ ظَهَرَتْ قِيَمَةُ أَعْمَالِهِمْ حَيْثُ قَالَ الْحَقُّ لِأَجَلِهِ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى...﴾ فَهُمْ إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ وَجَبَ لَهُمْ مِنَ الْإِرْبَاحِيَّةِ مَا يَشْغَلُهُمْ عَنِ الْإِهْتِمَامِ لِقَوْلِهِ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وَيَقُولُونَ: يَا لَيْتَ لَنَا أَعْمَالَ أَهْلِ الدَّارِينَ ثُمَّ لَا تُقْبَلُ مِنْهَا ذَرَّةٌ وَهُوَ يَقُولُ بِسَبَبِهَا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ...﴾! لِأَنَّهُمْ إِذَا تَخَلَّصُوا مِنْ مَوَاضِعِ الْخَلَلِ وَمَوْجِبَاتِ الْخَجَلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ عُدُوا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ مَا يَنَالُونَ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا:

سَأَرْجِعُ مِنْ حِجِّ عَامِي مُخْجِلاً لِأَنَّ الَّذِي قَدْ كَانَ لَا يُسْتَقْبَلُ

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

أصحاب الجنة هم الراضون بها، الواصلون إليها، والمُكْتَفُونَ بوجودانها، فحَسُنَتْ لَهُمْ أوطَانُهُمْ، وطابَ لَهُمْ مُسْتَقَرُّهُمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَزُلْ أَلْمَلِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

يريد يوم القيامة إذا بَدَتْ أهوالها، وظَهَرَتْ للمبعوثين أحوالها عَمِلُوا وتحققوا - ذلك اليوم - أَنَّ الْمُلْكَ لِلرَّحْمَنِ، ولم يتخصص ملكه بذلك اليوم، وإنما عِلْمُهُمْ ويقينُهُمْ حَصَلَ لَهُمْ ذلك الوقت.

ويقال تنقطع دواعي الأغيار، وتنتفي أوهام الخلق فلا يتجدد له - سبحانه - وصفٌ ولكن تتلاشى للخلق أوصاف، وذلك يوم على الكافرين عسير، ودليل الخطاب يقتضي أَنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسيرٌ وإلا بطل الفرق؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلا وذلك اليوم يكون عليه هيناً^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَمُصُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَتَوَلَّى لِيَتَنِي لَوْ أَتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾.

يندم الكافر على صحبة الكفار. ودليل الخطاب يقتضي سرور المؤمنين بمصاحبة أصدقائهم وأحبائهم في الله، وأمّا الكافر فيُضِلُّ صاحبه فيقع معه في الشبور، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشd فيصل به إلى السرور^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

شكا إلى الله منهم، وتلك سنة المرسلين؛ أخبر الله عن يعقوب - عليه السلام - أنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّقَ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] فَمَنْ شكا من الله فهو جاحد، ومن شكا إلى الله فهو عارف واجد.

ثم إنه أخبر أنه لم يُخَلِّ نبياً من أنبيائه صلوات الله عليهم إلا سَلَطَ عليه عَدُوّاً في وقته، إلا أنه لم يغادر من أعدائهم أحداً، وأذاقهم وبال ما استوجبوه على كفرهم وغيبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

كفى بربك اليوم هادياً إلى معرفته، وغداً نصيراً على رؤيته.

ويقال آخر فتنة للمؤمنين ما ورد في الخبر: «أن كل أمة ترى في القيامة الصنم الذي عبدوه يتبعونه فيحشرون إلى النار، فيُلْقَوْنَ فيها ويبقى المؤمنون، فيقال لهم: ما وقفكم؟ فيقولون: إنهم رأوا معبودهم فتبعوه ونحن لم نر معبودنا! فيقال لهم: ولو رأيتموه... فهل تعرفونه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: بِمَ تعرفونه؟

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) الآية (٢٩) لم ترد.

فيقولون: بيننا وبينه علامة. فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم: أنا معبودكم. فيقولون: معاذ الله... نعوذ بالله منك! ما عبدناك. فيتجلى الحق لهم فيسجدون له.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

أي إنما أنزلناه متفرقاً ليسهل عليك حفظه؛ فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب، ولأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين... وكثرة نزوله كانت أوجب لسكون قلبه وكمال رَوْحِهِ ودوام أنسه، فجبريل كان يأتي في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأمور الحادثة، وذلك أبلغ في كونه معجزة، وأبعد عن التهمة من أن يكون من جهة غيره، أو أن يكون بالاستعانة بمن سواه حاصلاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيماً﴾.

كان الجواب لما يوردونه على جهة الاحتجاج لهم مفحماً، ولفساد ما يقولونه موضحاً، ولكن الحق - سبحانه - أجرى السُّنة بأنه لم يزد ذلك للمسلمين إلا شفاءً وبصيرةً، ولهم إلا عَمَى وشبهة.

ثم أخبر عن حالهم من مآلهم فقال:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾.

يحشرون على وجوههم وذلك أمانة لإهانتهم، وإن في الخبر: «الذين أمشاهم اليوم على أقدامهم يُمشيهم غداً على وجوههم»^(١) وهو على ذلك قادر، وذلك منه غير مستحيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾.

قلماً يجري في القرآن لنبينا - ﷺ - ذَكَرُ إِلَّا ويذكر الله عَقِيْبَهُ موسى عليه السلام. وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه، لأنه كما أن التخصيص بالذكر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب التفصيل في الوصف؛ لأن القصة الواحدة إذا أعيدت مرات كثيرة كانت في باب البلاغة أتم لا سيما إذا كانت في كل مرة فائدة زائدة.

(١) أخرجه البخاري (تفسير سورة ٢٥، ١)، ومسلم (منافقين ٥٤)، والترمذي (تفسير سورة ١٧ - ١٢)، وأحمد بن حنبل ٢، ٣٥٤، ٣٦٣.

ثم بيّن أنه قال لهما:

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي فذهبا ففجّد القوم فدمرناهم تدميراً أي أهلكناهم إهلاكاً، وفي ذلك تسليّة للنبي - ﷺ - فيما كان يقاسيه من قومه من فنون البلاء، ووعدّ له بالجميل في أنه سيهلك أعداءه كلّهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أخللنا بهم العقوبة كما أخللنا بأمثالهم، وعاملناهم بمثل معاملتنا لقرائهم. ثم عقب هذه الآيات بذكر عادٍ وثمود وأصحاب الرّسّ^(١)، ومن ذكرهم على الجملة من غير تفصيل، وما أهلك به قوم لوطٍ حيث عملوا الخبائث... كل ذلك تطيباً لقلبه ﷺ، وتسكيناً لِسِرّه، وإعلاماً وتعريفاً بأنه سيهلك من يُعاديّه، ويدمر من يناوّه، وقد فعل من ذلك الكثير في حال حياته، والباقي بعد مُضيّه - عليه السلام - من الدنيا وذهابه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(٢).

كانت تكون له سلوة لو ذكر حالته وشكا إليه قصته، فإذا أخبر الله وقصّ عليه ما كان يلاقه كان أوجبّ للسّلوة وأقرب من الأُنس، وغاية سلوة أرباب المحن أن يذكروا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائلهم:

يوذ بأن يمشي سقيماً لعلّها إذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتزّ للمعروف في طلب العلى لشذّكر يوماً عند سلمى شمائله

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه - عليه السلام - بعين الازدراء والتصغير لشأنه؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قدره، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٣) [الأعراف: ١٩٨].

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

(١) أصحاب الرس: يروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود، ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها: فلج، ويروى أنهم كذبوا نبيهم ورسّوه في بئر أي دسّوه فيها حتى مات. (لسان العرب ٩٨/٦ مادة: رس).

(٢) الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) لم ترد.

(٣) الآية (٤٢) لم ترد.

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوُونَ؛ يستبدلون صنماً بصنم، وكانوا يَجْرُونَ على مقتضى ما يقع لهم. والمؤمن يُحْكَمُ اللَّهُ لا بحكم نفسه، وبهذا يتضح الفرقان بين رجل وبين رجل. والذي يعيش على ما يقع له فعابِدُ هواه، وملتجئ بالذين ذكرهم الحق بالسوء في هذه الآية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

كالأنعام التي ليس لها هم إلا في أكله وشربه، ومن استجلب حظوظ نفسه فكالبهائم. وإن الله - سبحانه - خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم، والبهائم وعلى الهوى فطرهم، وبنى آدم ورتب فيهم الأمرين؛ فمن غلب هواه غفله فهو شر من البهائم، ومن غلب عقله هواه فهو خير من الملائكة... كذلك قال المشايخ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

قيل نزل الرسول - ﷺ - في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خلقاً كثيراً فمدَّ الله ظلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعهم وكانوا كثيرين، فأنزل الله هذه الآية، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام.

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرض كلها ظلاً، ثم إذا طلعت الشمس، وانبسط على وجه الأرض شعاعها فكل شخص ينسبط له ظل، ولا يصيب ذلك الموضع شعاع الشمس، ثم يتناقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال. وذلك من أمارات قدرة الله تعالى؛ لأنه أجرى العادة بخلق الظل والضوء والفيء.

قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾: أي دائماً: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؛ أي حال ارتفاع الشمس ونقصان الظل.

ويقال: ألم تر إلى ربك كيف مدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه؛ فقوم هم في ظل الحماية، وآخرون في ظل الرعاية، وآخرون في ظل العناية، والفقراء في ظل الكفاية، والأغنياء في ظل الراحة من الشكاية.

ظل هو ظل العصمة، وظل هو ظل الرحمة؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء، والرحمة للمؤمنين، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين. ويقال قوله للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ ثم قوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ستراً لما كان كاشفة به أولاً، إجراء للسنة في إخفاء الحال عن الرقيب. قال لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾

[الأعراف: ١٤٣]. وقال لنبينا عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ وشتان ما هما!

ويقال أحيا قلبه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى أن قال: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ فجعل استقلاله بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى أن سمع ذكر الظل. ويقال أحياه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ ثم أفناه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وكذا سُئِلَ مع عباده؛ يُرَدُّهُمْ بين إفناء وإبقاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَآ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾^(١).

جعل الليل وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين؛ فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم إن كانوا في رُوح الوصال، فلا يأخذهم النوم لكمال أنسهم، وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم، فالسهرة للأحباب صفة؛ إما لكمال السرور أو لهجوم الهموم. ويقال جعل النوم للأحباب وقت التجلي بما لا سبيل إليه في اليقظة، فإذا رَأَوْا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر^(٢)، قال قائلهم:

وإني لأستغفي وما بي نغسة لعل خيالاً منك يلقي خيالها
وقال قائلهم:

رأيت سرور قلبي في منامي فأحببت الشئعس والمناما

ويقال النوم لأهل الغفلة عقوبة ولأهل الاجتهاد رحمة؛ فإن الحق - سبحانه - يُدْخِلُ عليهم النوم ضرورة رحمة منه بنفوسهم ليستريحوا من كد المجاهدة. قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

يُرْسِلُ رياح الكرم فتهب على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مباره، ويرسل رياح الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها من جميع الإرادات فتُكْفَى بالله لله، ويرسل رياح الخوف على قلوب العُصاة فتحملهم على التَّدَمُّ، وتطهرها من الإصرار فتراجع إلى التوبة، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب فتزعجها عن المساكنات، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا تستقر إلا بالكشف والتجلي.

(١) السبات: النوم أو النوم الخفيف أو النوم الثقيل.

(٢) انظر حديث القشيري بالرسالة عن رؤيا القوم ص ٣٦٤، ٣٧٧ ففيها ترى الكرامات التي تحققت للأولياء أثناء نومهم.

ويقال إذا تَنَسَّمَ القلبُ نَسِيمَ القُرْبِ هَامٌ في ملكوت الجلال، وامتحى عن كل مرسوم ومعهود.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْنًا وَنُقْفِيَهُمْ مِّمَّا خَلَقْنَا أَنفُسًا وَأَنَّا بِنَ عَظِيمًا وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

أنزل من السماء ماء المطر فأحيا به الغياض والرياض، وأنبت به الأزهار والأنوار، وأنزل من السماء ماء الرحمة فَعَسَلَ العصاة ما تلطخوا به من الأوضار، وما تدسوا به من الأوزار.

و﴿الطَّهْرُ﴾ هو الطاهر المَطْهُرُ، وماء الحياء يطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما يتداخلها في بعض الأحيان من الغفلات. وماء الرعاية يُخَيِّي به قلوب المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجلي حتى يزول عنها عَطَشُ الاشتياق ويحصل فيها من سكينة الاستقلال، ويحيي به نفوساً ميتةً باتباع الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾. إنَّ الله - سبحانه - خصَّ نبينا ﷺ بأن فضله على الكافة، وأرسله إلى الجملة، وبألا يُنْسَخَ شَرْعُهُ إلى الأبد. وبهذه الآية أدبه بأدق إشارة، حيث قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ وهذا كما قال: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وَقَضَى الحقُّ أن يكون خواصُّ عباده أبداً معصومين عن شواهدهم. وفي القصة أن موسى عليه السلام تَبَرَّمَ وقتاً بكثرة ما كان يُسأل، فأوحى الله في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رُسلًا، وتفرَّق الناس عن موسى عليه السلام إليهم عليهم السلام، فضاقت قلوب موسى وقال: يا رب، إني لا أطيق ذلك! فقبض الله أرواحهم في ذلك اليوم.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾. أي كُن قائماً بحقنا من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا أو مبالاة بمن سوانا، فإنَّا نَعَصِمُكَ بكل وجه، ولا نرفع عنك ظِلَّ عنايتنا بحال.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

البحر المِلْح لا عذوبة فيه، والعَذْب لا ملوحة فيه، وهما في الجوهرية واحد، ولكنه سبحانه - بقدرته - غَايَر بينهما في الصفة، كذلك خَلَق القلوب؛ بعضها مَعْدِنٌ اليقين والعرفان؛ وبعضها مَحَلُّ الشك والكفران.

ويقال أثبت في قلوب المؤمنين الخوف والرجاء، فلا الخوف يغلب الرجاء، ولا الرجاء يغلب الخوف.

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين: قلبَ المؤمن مضيئاً مشرقاً وقلبَ الكافر أسود مظلماً، هذا بنور الإيمان مُزَيَّن، وهذا بظلمة الجحود مُعَلَّم.

ويقال قلوبُ العوام في أسرِ المطالب ورغائبِ الحظوظ، وقلوبُ الخواص مُغْتَنَّة عن المطالب، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظ.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الخلقُ متشاكلون في أصل الخِلقة، متماثلون في الجوهرية، متباينون في الصفة، مختلفون في الصورة؛ فنفسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار، ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة. والخلقُ بشرٌ. ولكن ليس كلُّ بشرٍ كبشرٍ؛ واحدٌ عدوٌّ لا يسعى إلا في مخالفته، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظه، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحة والخساسة، وواحدٌ وليٌّ لا يفتُر عن طاعته، ولا ينزل عن همِّته، فهو في سماء تعززه بمعبوده.

وبينهما للناس مناهل ومشارب؛ فواحدٌ يكون كما قال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.

يكتفي بالمنحوت من الخشب، والمصنوع من الصُّخر، والمُتَّخَذ من النحاس، وكلُّها جمادات لا تعقل ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع.

أما المؤمنُ فإنَّ من صفاته أنَّه لا يلتفت إلى العرش - وإن علا، ولا ينقاد بقلبه لمخلوفٍ - وإنَّ لتصف بهما نقب لا تُخصى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

رسولاً مِّنَّا، مأموراً بالإنذار والتبشير، واقفاً حيث وقفناك على نعت التبليغ، غير طالبٍ منهم أجراً، وغير طامع في أن تجد منهم حظاً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء منقطع؛ إذ ابتغواهم السبيل إلى ربهم ليس بأجر يأخذه منهم، فهو لِمَنْ أَقْبَلَ بشيرٌ، وَلِمَنْ أَعْرَضَ نذيرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهَةٍ الَّتِي لَا يَمُوتُ﴾.

التوكُّل تفويضُ الأمور إلى الله. وحَقُّه وأصلُّه عِلْمُ العبدِ بأنَّ الحادثات كلها حاصلةٌ من الله تعالى، وأنه لا يقدر أحدٌ على الإيجاد غيره.

فإذا عَرَفَ هذا فهو فيما يحتاج إليه - إذا عِلِمَ أن مراده لا يرتفع إلا من قِبَلِ الله - حصل

له أصل التوكل . وهذا القَدْرُ قَرْضٌ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] وما زاد على هذا القَدْر - وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار - فهي أحوال تلحق بالتوكل^(١) على وجه كماله .

فإن تقرَّرَ هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل درجة من هذه الأقسام اسم : إمَّا من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما في يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد ثم اكتفاء كل أحد يختلف في القلة والكثرة ، وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الجحش وإرادة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عَدَم وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفي بوعده لأنه صدَّقه في ضمانه ، فيسكن - عند فقد الأسباب - بقلبه ثقةً منه بوعده ربه . . ويسمى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمنان الرب ، أو سكون الجاش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

وألطف من هذا أن يكتفي بعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمره الله ؛ ويعمل على طاعته ؛ ولا يراعي إنجاز ما وعدّه ؛ بل يكل أمره إلى الله . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض^(٢) ، وهو أن يكل أمره إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار ؛ ويستوي عنده وجود الأسباب وعدَمُها ؛ فيشتغل بأداء ما ألزمه الله ؛ ولا يفكر في حال نفسه ؛ ويعلم أنه مملوك لمولاه ؛ والسيد أُلْ بِعَبْدِهِ من العبد بنفسه^(٣) .

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٦٢ - ١٧٣ حديث القشيري عن التوكل .

(٢) قال القشيري برسالته عند حديثه عن التوكل : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض : فالتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . ويقول : التوكل بداية ، والتسليم واسطة والتفويض نهاية . وقال : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص وكان يقول : التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ . (الرسالة القشيرية ص ١٦٦ ، ١٦٧) .

(٣) قال القشيري في حديثه عن نفس الموضوع : وقيل : دخل جماعة على الجنيد ، فقالوا : أين نطلب الرزق؟ فقال : إن علمتم في أي موضع فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك ، فقال : إن علمتم أنه ينسلكم فاذكروه ، فقالوا : ندخل البيت فتوكل ، فقال : التجربة شك . قالوا : فما الحيلة؟ فقال : ترك الحيلة . (الرسالة القشيرية ص ١٦٨ ، ١٦٩) .

فلذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ راحةً في المَنع؛ واستعذب ما يستقبله من الرُّدِّ. . . وتلك هي مرتبة الرضا^(١)؛ ويحصل له في هذه الحالة مَن فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لِمَن دونه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا الموافقة؛ وهي ألا يجد الراحة في المَنع، بل يجد بَدَل هذا عند نسيم القربِ زوائد الأُنس بنسيان كلِّ أَرَبٍ، ونسيان وجود سببٍ أو عدم وجود سبب؛ فكما أنَّ حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرَد الرضا - وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً - فكذلك أهل الأُنس بالله. بنسيان كلِّ قَفْدٍ وَوَجْدٍ، وبالتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزول إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال.

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ العبد عن جملة بالكلية، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الخمود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء. . . وأمثال هذا، وذلك هو عين التوحيد، فعند ذلك لا أُنس ولا هيبة، ولا لذة ولا راحة، ولا وحشة ولا آفة.

هذا بيان ترتيبهم فأما دون ذلك فالخير عن أحوال المتوكلين - على تباين شُرُبهِم - يختلف على حسب اختلاف محالِّهم.

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد؛ لا شيء مِنْ قَبْلِهِ إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضناته^(٢).

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجاري الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح في توكله.

ويقال عوام المتوكلين إذا أُعْطُوا شكروا، وإذا مُنِعُوا صبروا. وخواصُّهم إذا أُعْطُوا آثروا، وإذا مُنِعُوا شكروا.

ويقال الحقُّ وجود على الأولياء - إذا توكَّلوا - بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَب ولا يُحْتَسَب، وجود على الأصفياء بسقوط الأرب. . . وإذا لم يكن الأَرَبُ فمتى يكون الطلب؟ ويقال التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ، فأما التوكل على الله في إصلاحه - سبحانه - أمور آخرة العبد فهذا أشدُّ غموضاً، وأكثرُ خفاءً. فالواجب في الأسباب

(١) انظر حديث القشيري عن الرضا برسالته ص ١٩٢ - ١٩٧.

(٢) القشيري هنا تأثر بشيوخه حيث قال برسالته بهذا المعنى: قيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يَأْوِي إليه إلا ندي أمه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه تعالى. (الرسالة القشيرية ص ١٦٨). وقال دلف الشبلي بهذا المعنى: الصوفية أطفال في حجر الحق. (الرسالة القشيرية ص ٢٨٢).

الدنيوية أن يكون السكون عن طلبها غالباً، والحركة تكون ضرورة. فأمّا في أمور الآخرة وما يتعلّق بالطاعة فالواجب البدار والجِدُّ والانكماش، والخروج عن أوطان الكسل والجنوح إلى الفضل.

والذي يتّصف بالتواني في العبادات، ويتباطؤ في تلافي ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم والقيام بحق الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكِّل على الله وأنه - سبحانه - يعفو عنه فهو مُتَّهَمٌ معلول الحال، مَمَكُورٌ مُسْتَدْرَجٌ، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه. ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأ بسره من حوله وقوته. ثم يكون حسن الظن بربه، ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلو من مخافته، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك - إذا حصل - فالوقت غالب، وهو أحد ما قيل في معاني قولهم: الوقت سيف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

انتظم به الكون - والعرش من جملة الكون - ولم يتجمل الحق - سبحانه - بشيء من إظهار برئته؛ فعلوه على العرش بقهره وقدرته، واستواؤه بفعل خص به العرش بتسوية أجزائه وصورته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ تُقُورًا﴾.

أقبل الحق - سبحانه - بلطفه وبفضله على أقوام فلذلك وجدوه، وأعرض عن آخرين بتكبره وتعززه فلذلك جحدوه؛ فطَرَهُمُ على سِمَةِ البُغْدِ، وَعَجَنَ طينتهم بماء الشقاوة والصد، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجد.

قوله جل ذكره: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾.

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وخلق فيها البروج، وبث فيها الكواكب، وصان عن الفطور والتشويش أقطارها ومناكبها، وأدار بقدرته أفلاكها، وأدام على ما أراد إمساكها.

وكما أثبت في السماء بروجاً أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً؛ فبروج السماء معدودة وبروج القلب مشهودة.

(١) قال القشيري عند حديثه عن الوقت بالرسالة: وقالوا: الوقت سيف أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب. وقيل: السيف لين منه قاطع حده، فمن لاينه سلم، ومن خاشنه اصطلم، كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا، ومن عارضه انتكس وتردى، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الوقت مبرديسحقك ولا يمحققك. (الرسالة القشيرية ص ٥٥، ٥٦).

وبروجُ السماء بيوتُ شمسها وقمرها ونجومها، وبروجُ القلب مطالعُ أنوارها ومشارِقُ شمسها ونجومها. وتلك النجوم هي نجوم القلوب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم، وقمرُ القلوب المعرفة.

قمرُ السماء له نقصان ومحاق، وفي بعض الأحيان هو بذرٌ بوصف الكمال، وقمر المعرفة أبدأ له إشراق وليس له نقصان أو محاق، ولذا قال قائلهم:

دع الأقمارَ تخبو أو تنير لها بذرٌ تذلُّ له البدور
فأما شمسُ القلوب فهي التوحيد، وشمسُ السماء تغرب ولكن شمسُ القلوب لا تغيب ولا تغرب، وفي معناه قالوا:

إن شمسَ النهارِ تغرب بالليل وشمسُ القلوب ليست تغيب
ويصحُّ أن يقال إن شمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب سلطانها في الضوء والطلوع بالليل أتم.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ الْإِتِّلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

الأوقات متجانسة، وتفضيلها بعضها على بعض على معنى أنَّ الطاعة في البعض أفضل والثواب عليها أكثر. والليلُ خلفَ النهار والنهارُ خلفَ الليل، فمَن وقع له في طاعة الليل خللٌ فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جُبرانه، وإن حصل في طاعة النهار خللٌ فإذا حضر بالليل ففي ذلك إتمام لنقصانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

الذين استوجبوا رحمة الرحمن هم الذين وقَّفوا للطاعات، فبرحمته وصلوا إلى التوفيق للطاعة. وعِبَادُ الرحمن الذين يستحقون غداً رحمته هم القائمون برحمته؛ فبرحمته وصلوا إلى طاعته. . هكذا بيان الحقيقة، وبطاعتهم وصلوا إلى جنته. . هكذا لسان الشريعة.

ومعنى ﴿هَوْنًا﴾ متواضعين متخاشعين.

ويقال شرطُ التواضع وَحْدَهُ أَلَا يَسْتَحْسِنُ شيئاً من أحواله، حتى قالوا^(١): إذا نَظَرَ إِلَى رِجْلِهِ لَا يَسْتَحْسِنُ شَيْئاً نَعْلِهِ^(٢)، وعلى هذا القياس لا يُسَاكِنُ أعماله، ولا يلاحظ أحواله.

(١) انظر هذا القول للدقاق في الرسالة القشيرية ص ١٤٥.

(٢) الشَّع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. (اللسان ٨/ ١٨٠ مادة: شع).

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾: قيل سداد المنطق؛ ويقال مَنْ خَاطَبَهُم بِالْقَدَحِ فهم يجابونه بالمدح له.

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم، الطاعنون فيهم، العائبون لهم قابلوا ذلك بالرفق، وحُسن الخلق، والقول الحسن والكلام الطيب.

ويقال يخبرون مَنْ جفاهم أنهم في أمانٍ من المجافة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

يبيتون لربهم ساجدين، ويصبحون واجدين؛ فَوَجَدُ صباحهم ثمراتٌ سجود أرواحهم، كذا في الخبر: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ»^(١) أي عَظُم ماء وجهه عند الله، وأحسن الأشياء ظاهراً بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ.

ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة، ويقفون موقف أهل الاعتذار، ويخاطبون بلسان التَّضَلُّ كما قيل:

وما رُمْتُ الدخولَ عليه حتى حَلَلْتُ محلة العبد الذليل

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

الإسرافُ أن تنفق في الهوى وفي نصيب النفس، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله. فأما التضييقُ على النفس منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتعود الاجتراء باليسير فليس بالاقتار المذموم.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

﴿إِلَهًا آخَرَ﴾: في الظاهر عبادة الأصنام المعمولة من الأحجار، المنحوتة من الأشجار.

وكما تتصف بهذا النفوس والأبشار فكَذَلِكَ تَوَهُمُ المَبَارُّ والمضارُّ من الأغيار شِرْكٌ.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ من النفوس المُحَرَّمُ قَتْلُهَا على العبد نفسه المسكينة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وقَتَلَ النفس من غير حقِّ تمكينك لها من اتباع ما فيه هلاكها في الآخرة؛ فإنَّ العبدَ إذا لم يَتَّعِ مَأْمُورٌ

ثم دليل الخطاب أن تقتلها بالحق، وذلك بذنبها بسكين المخالفات، فما فلاحك إلا بقتل نفسك التي بين جنبيك.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

يضاعف لهم العذاب يوم القيامة بحسرات الفرقة وزفريات الحرقه. وآخرون يضاعف لهم العذاب اليوم بتراكم الخذلان ووشك الهجران ودوام الحرمان. بل من كان مضاعف العذاب في عقباه فهو الذي يكون مضاعف العذاب في دنياه؛ جاء في الخبر: «مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا».

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

إلا من تاب من الذنب في الحال؛ وآمن في المال.

ويقال: ﴿وَأَمَنَ﴾ أن نجاته بفضل الله لا بتوبته، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لا ينقض توبته.

ويقال إن نقض توبته عمل صالحاً أي جدد توبته؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾. ويخلق لهم التوفيق بدلاً من الخذلان.

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فيغفر لهم ويشيهم على توبتهم.

ويقال يمحو ذلة زلاتهم، ويثبت بدلها الخيرات والحسنات، وفي معناه أنشدوا:

ولما رضوا بالعفو عن ذي زلة حتى أنالوا كفه وأفادوا

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(٢).

يستمكنون في مواطن الصدق لا يبرحون عنها ليلاً ونهاراً، وقولاً وفعلًا. وإذا مروا بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مغرضين لا يساكنون أهل تلك الحالة.

ويقال نزلت الآية في أقوام مروا - لما دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يعبدون فيها الأصنام مرة - متكرمين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فشكر الله لهم ذلك.

ثم قال في صفتهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل قابلوها بالتفكير والتأمل، واستعمال النظر.

(١) الآية (٦٩) لم ترد.

(٢) الآية (٧١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قرة العين من به حياة الروح، وإنما يكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً.

ويقال قرة العين من كان لطاعة ربه معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقاً.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمام من يقتدى به ولا يتبدع.

ويقال إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع، ولم يدعوا فيها اختيارهم؛ فالإمامة بالدعاء لا بالدعوى، فقالوا: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَهُمْ وَسَلَامًا﴾.

يعطي - سبحانه - الكثير من عطائه ويعدّه قليلاً، ويقبل اليسير من طاعة العبد ويعدّه كثيراً عظيماً، يعطيهم الجنة؛ قصوراً وحوراً ثم يقول: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفُرْقَةَ﴾ ويقبل اليسير من العبد فيقول: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٢].

ليُرّوه من غير تكلف نقل، ولا تحمل قطع مسافة.

ويقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]: اليوم يحضر العبد بيته لأداء العبادة، وينقل أقدامه إلى المساجد، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة، فهم على أرائكهم - في مستقر عزهم - يسمعون كلام الله، وينظرون إلى الله.

قوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي صبروا عما نهوا عنه، وصبروا على الأحكام التي أوجراها عليهم بترك اختيارهم، وحسن الرضا بتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿حَلِيلِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

مقيمين لا يبرحون منازلهم، وفي أحوالهم حسن مستقرهم مستقراً، وحسن مقامهم مقاماً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا مَا يَدْعُونَكَ لَتَذَّبُنَّ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

لولا عبادتكم الأصنام ودعاؤكم إياها باستحقاق العبادة وتسميتكم لها آلهة.. متى كان بخلدكم في النار؟

ويقال لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهاال لأدام بكم البلاء، ولكن لما أخذتم في الاستكانة والدعاء، وتضرعتم رجكم وكشف الضر عنكم.

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتضي من الزاهد ترك دنياه، ومن العابد مخالفة هواه، ومن القاصد قطع مناه، ولا يَرْضَى مِنَ الْعَارِفِ أَنْ يُسَاكِنَ شَيْئاً غَيْرَ مَوْلَاهُ. إِنَّ خَرَجَ عَنْ كُلِّ مَرْسُومٍ - بِالْكَلِيَّةِ، وانسلخ عن كل معلوم - مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى لَهُ مِنْهُ بَقِيَّةٌ فَلَعَلَّهُ يَجِدُ شَظِيَّةً. وَإِنْ عَرَّجَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَمْ يَضْفُ مِنَ الْكَدُورَاتِ - حَتَّى عَنْ سِيرِهَا - وَإِنْ دَقَّ - فَإِنَّهُ كَمَا فِي الْخَبَرِ: «الْمُكَاتَّبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دَرَاهِمٌ»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿طَسَّرَ تِلْكَ ءَابَتْكَ أَلْكَتَبِ الْيَمِينِ﴾.

ذَكَّرْنَا فِيمَا مَضَى اخْتِلَافَ السَّلَفِ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ؛ فعند قوم: الطاء إشارة إلى طهارة عِزِّهِ وَتَقْدُّسِ غُلُوِّهِ، والسين إشارة ودلالة على سناء جبروته، والميم دلالة على مَجْدِ جلاله في آزاله.

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى^(٢)، والسين إلى بَذْرَةِ الْمُنتَهَى^(٣)، والميم إلى اسم محمد ﷺ؛ أي ارتقى محمد ليلة الإسراء عن شهوده شجرة طوبى حتى بَلَغَ سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، فلم يُسَاكِنَ شَيْئاً مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ويقال الطاء طَرَبُ أَرْبَابِ الْوَصْلَةِ عَلَى بَسَاطِ الْقَرَبِ بِوَجْدَانِ كَمَالِ الرُّوحِ، والسين سرورُ الْعَارِفِينَ بِمَا كُوشِفُوا بِهِ مِنْ بَقَاءِ الْأَحْدِيَّةِ بِاسْتِقْلَالِهِمْ بِوُجُودِهِ وَالْمِيمُ إشارة إلى موافقتهم لله بِتَرْكِ التَّخَيُّرِ عَلَى اللَّهِ، وَحُسْنِ الرِّضَا بِاخْتِيَارِ الْحَقِّ لَهُمْ.

ويقال الطاء إشارة إلى طيبِ قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ عِنْدَ فَقْدِ الْأَسْبَابِ لِكَمَالِ الْعَيْشِ بِمَعْرِفَةِ وَجُودِ الرِّزْقِ بِذَلِكَ طِيبِ قُلُوبِ الْعَوَامِ بِوُجُودِ الْأَرْزَاقِ وَالْأَرْزَاقِ.

ويقال الطاء إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد، والسين إشارة إلى سلامة

(١) أخرجه أبو داود (عتاق، ١) والترمذي (يبوع ٣٥)، والموطأ (مكاتب ١، ٢).

(٢) الطوبى: الحسن، والخير، وكل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال وغنى بلا فقر.

(٣) سدرة المنتهى: شجرة في الجنة.

قلوبهم عن مساكنة كل مخلوق، والميم إشارة إلى مئة الحق عليهم بذلك.

قوله جل ذكره: ﴿لَمَّا بَلَغَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أي لِحِزْبِكَ على إيمانهم ولإشفاقك من امتناعهم عن الإيمان فأنت قريب من أن تقتل نفسك من الأسف على تركهم الإيمان.

فلا عليك - يا محمد - فإنه لا تبدل لِحُكْمِنَا؛ فَمَنْ حَكَمْنَا له بالشقاوة لا يؤمن. ليس عليك إلا البلاغ؛ فإن آمنوا فيها، وإلا فكلُّهُمْ سَيَرُونَ يوم الدين ما يستحقون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَطَلَاعَتْهُمُ مَا خَصَّيْنَا﴾.

أخبر عن قدرته على تحصيل مراده من عبادته، فهو قادر على أن يؤمنوا كرهاً؛ لأن التقاصر عن تحصيل المراد يوجب النقص والقصور في الألوهية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْذِرٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

أي ما تجدد لهم شريعاً، وما نرسل لهم رسولاً.. إلا أعرضوا عن تأمل برهانه، وقابلوه بالكذب. فلو أنهم أنعموا النظر في آيات الرسل لاتضح لهم صدقهم، ولكن المقسوم لهم من الخذلان في سابق الحكم يمنعه من الإيمان والتصديق. فقد كذبوا، وعلى تكذيبهم أصرُّوا، فسوف تأتيتهم عاقبة أعمالهم بالعقوبة الشديدة، فيذوقون وبال شركهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَنْجٍ كَرِهَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فنون ما ينبت في الأرض وقت الربيع لا يأتي عليه الحصر، ثم اختصاص كل شيء منها بلون وطعم ورائحة مخصوصة، وكل شكل وهيئة ونور مخصوص، وورق مخصوص... إلى ما تلطف عنه العبارة، وتديق فيه الإشارة. وفي ذلك آيات لمن استبصر، ونظر وفكر.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: القاهر الذي لا يقهر، القادر الذي لا يقدر، المنيع الذي لا يخبر. ﴿الرَّحِيمُ﴾: المحسن لعباده، المريد لسعادة أوليائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمٌ فَرَعُونَ أَلَّا يَتَّقُونَ﴾.

أخبر أنه لما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عليم أن شديد الخصومة، قد غرته نفسه فهو لا يبالي بما فعل. وأخذ (موسى) يتعلل - لا على جهة الإباء والمخالفة - ولكن على وجه الاستعفاء والإقالة إلى أن عليم أن الأمر به جزم، والحكم به عليه حتم.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(١) الآية (٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَصْبِقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَٰزُونَ وَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

سأل موسى - عليه السلام - أن يشفعه بهارون ويُسركه في الرسالة . وأخبر أنه قتل نفسه، وأنه في حكم فرعون عليه دم، فقال: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ إلى أن قال له الحق :-
قوله جل ذكره: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْنِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ حرف رَدْع وتنبية؛ أي كلا أن يكون ذلك كما توهمت، فازتدع عن تجويز ذلك، وانتبه لغيره. إني معكما بالنصرة والقوة والكفاية والرحمة، واليد ستكون لكم، والسلطان سيكون لكم دون غيركما، فانا أسمع ما تقولون وما يقال لكم، وأنصبر ما يُنصرون وما تُنصرون أنتم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَيَُّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويقال في القصة: إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنة كاملة ولم يجدوا طريقاً إليه. ثم بعد سنة عَرَضَا الرسالة عليه، فقابلهما بالتكذيب، وكان من القصة ما كان^(١). . . وقال فرعون لما رأى موسى:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فلم يكن لموسى - عليه السلام - جواب إلا الإقرار والاعتراف، فقال:
﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَفَعَلْتَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال: كل ذلك قد كان، وفررت منكم لما خفتكم، فأكرمني الله بالنبوة، وبعثني رسولا إليكم. . .

ويقال: لم يجحد حق تربيته، والإحسان إليه في الظاهر، ولكن بين أنه إذا أمر الله بشيء وجب اتباع أمره. ولكن إذا كانت تربية المخلوقين توجب حقا فتربيه الله أولى بأن يعظم العبد قدرها.

قوله: ﴿فَفَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾: يجوز حملُه على ظاهره، وأنه خاف منهم على نفسه. والفراؤ - عند عدم الطاقة - غير مذموم عند كل أحد.

ويقال: فررت منكم لما خفت أن تنزل بكم عقوبة من الله لشؤم شريككم، أو من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

ذَكَرَ فرعون - من جملة ما عَدَّ على موسى من وجوه الإحسان إليه - أنه استحياء بين بني إسرائيل، ودفع عنه القتل، فقال موسى: أو تلك نعمة تمنها عليّ؟ هل استعبادك لبني إسرائيل يَعُدُّ نعمة؟ إنَّ ذلك ليس بنعمة، ولا لَكَ فيها مِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

نَظَرَ اللعينُ بِجَهْلِهِ، وسأل على النحو الذي يليق بِعَيْه؛ فسأل بلفظ ﴿مَا﴾ - و«ما» يُسْتَخْبَرُ بها عما لا يعقل، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولكنَّ موسى أعرض عن لفظه ومقتضاه، وأخبر عما يصحُّ في وصفه تعالى فقال:

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

فَذَكَرَ صِفَتَهُ - سبحانه وتعالى - بأنه إله ما في السموات والأرض، فأخذ في التعجب، وقال:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَا تَسْمَعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾.

قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فحاد فرعون عن سنن الاستقامة في الخطاب، وأخذ في السفاهة قائلاً:

﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَىٰ أُورِشَلِ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

لأنه يزعم أنَّ هناك إلهاً غيره. ولم يكن في شيء مما يجري من موسى - عليه السلام - أو مما يتعلّق به وصفُ جنون. ولم يُشْغَلْ بمجاوبته في السفاهة فقال:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾.

أي إن كنتم من جملة مَنْ له عقل وتمييز. فقال فرعون:

﴿قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لَآتَعْلَمَنَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

مضى فرعون يقول: لأفعلن، ولأصنعن... إن اتخذت إلهاً غيري وجرى ما جرى ذِكْرُه وشرّحه في غير موضع.

ثم إنه أظهر معجزته بإلقاء العصا، وَقَلَبَهَا - سبحانه - ثعباناً كاد يلتقم دار فرعون بمن فيها، ووثب فرعون هارباً، واختفى تحت سريره، وهو ينتفض من الخوف، وتَلَطَّحَتْ بِرُؤُوسِهِ^(١) وافتضح في دعواه، واتضح حالته، فاستغاث بموسى واستجاره، وأخذ موسى الثعبان فردّه الله عصاً.

(١) البُرَّة: الهيئة والشارة واللبسة (اللسان ٥/٣١٢ مادة: بز).

ولمَّا فارقَهُ موسى - عليه السلام - تداركته الشقاوة، وأدركه شؤمُ الكفر، واستولى عليه الحرمانُ، فجمَعَ قومَه وكلمَهُم في أمره، وأجمعوا كلُّهم على أنه سحرَهُم. وبعد ظهور تلك الآية عاد إلى غيِّه... كما قيل:

إذا ازغوى عادَ إلى جَهْلِهِ كَذِي الضُّئى عادَ إلى نُكْسِهِ

ثم إنه جمَعَ السَّحَرَةَ، واستعان بهم، فلمَّا اجتمعوا قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]. فنطقوا بخساسة همتهم، فضَمَّنَ لهم أجْرهم. وإنَّ مَنْ يعمل لغيره بأجرة ليس كَمَنْ يكون عمله لله. ومَنْ لا يكون له ناصرٌ إلَّا بضمانِ الجعالة ويذلُّ الرُّشَا فَعَن قَرِيبٍ سِيُخَذَلُ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِينَ الْمُفْرَيْنَ﴾.

قال فرعون: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لِينَ الْمُفْرَيْنَ﴾، وَمَنْ طَلَبَ القربةَ عند مخلوقٍ فإنَّ ما يصل إليه من الذلِّ يزيد على ما أمَّله من العِزِّ في ذلك التَّقَرُّب. والمُفْرَبون من الله أولُّ من يدخل عليه يومَ اللقاء، فهم أولُّ مَنْ لهم وصولٌ. والمُفْرَبون من الله لهم على الله دَخْلَةٌ، والناسُ بوصف الغفلة والخلُّ في أسرِ الحجة.

ثم لما اجتمع الناسُ، وجاء السَّحَرَةُ بما مَوَّهوا، التَقَمَتْ عصا موسى جميعَ ما أتوا به، وعادت عصاً، وتلاشت أعيانُ جِبَالِهِم التي جاءوا بها، وكانت أوقاراً، وألْقَى السحرةُ سَجْدًا، ولم يحتفلوا بتهديد فرعون إياهم بالقتل والصلب والقطع، فأصبحوا وهم يُقْسِمُونَ بجزرة فرعون، ولم يُنسوا حتى كانوا يقولون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَاسِ﴾ [طه: ٧٢].

ثم لما ساعدَهُم التوفيقُ، وآمنوا بالله كان أهمُّ أمورهم الاستغفارُ لِمَا سَلَفَ من ذنوبهم، وهذه هي غاية هِمَّةِ الأولياء، أن يستجبروا بالله، وأن يستعيذوا من عقوبة الله، فأعرَفَهُم بالله أخوفُهُم مِنْ الله.

ولمَّا أَمَرَ اللَّهُ موسى بإخراج بني إسرائيل، وتبِعَهُم فرعونٌ بجمْعِهِ، وقال أصحابُ موسى^(٢):

﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

فكان كما قال، إذ هداهم الله وأنجاهم، وأغرَقَ فرعونَ وقومَه وأقصاهم، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] يُنَجِّهِم من كلِّ بلاء، ويخصُّهم بكلِّ نعمة^(٣).

(٢) الآيات من (٤٣) حتى (٦٠) لم ترد.

(١) الآيات من (٣٠) حتى (٤١) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٣) حتى (٦٨) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرْتُ عَلَيْهِمْ نَارَ ابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمُ إِذِ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

عاتب إبراهيم أباه وقومه، وطالبهم بالحجة على ما عابهم به وقال لِمَ تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر؛ ولا ينفع ولا يضر، ولا يحس ولا يشعر؟ فلم يرجعوا في الجواب إلا إلى تقليدهم أسلافهم، وقالوا:

على هذه الجملة وجدنا أسلافنا. فنطق إبراهيم - عليه السلام - بعد إقامة الحجة عليهم والإخبار عن قبيح صنيعهم بمنح مولاة والإغراق في وصفه، وقال:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكَةِ﴾.

ذكرهم بأقل عبارة فلم يقل: فإنهم أعداء لي، بل وصفهم بالمصدر الذي يصلح أن يوصف به الواحد والجماعة فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾.

ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْمَلَائِكَةِ﴾، وهذا استثناء منقطع، وكأنه يضرب بلطف عن ذكرهم صفحاً حتى يتوصل إلى ذكر الله، ثم أخذ في شرح وصفه كأنه لا يكاد يسكت، إذ مضى يقول: والذي... والذي... والذي... ومن أمارات المحبة كثرة ذكر محبوبك، والإعراض عن ذكر غيره، فتتزه المحبين بتقليبهم في رياض ذكر محبوبهم، والزهاد يعددون أورادهم، وأرباب الحوائج يعددون مآربهم، فيطنبون في دعائهم، والمحبون يسهبون في الثناء على محبوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

كان مهتدياً، ولكنه يقصد بالهداية التي ذكرها فيما يستقبله من الوقت، أي: يهديني إليه به، فإنني مَحْقٌ في وجوده وليس لي خَبَرٌ عَنِّي!

والقوم حين يكونون مستغرقين في نفوسهم لا يهتدون من نفوسهم إلى معبودهم، فيهديهم عنهم إلى ربهم، ويصيرون في نهايتهم مستهلكين في وجوده، فأنين عن أوصافهم، وتصير معارفهم - التي كانت لهم - واهية ضعيفة، فيهديهم إليه^(١).

(١) قال القشيري برسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: قال محمد الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استثناء بالله تعالى وافتقار إليه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: أراد محمد الواسطي بهذا أن الافتقار والاستثناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته. (الرسالة القشيرية ص ٣١٣).
وقيل لذي النون المصري: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بري، ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة ص ٣١٥).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

لم يُشِرْ إلى طعام معهودٍ أو شرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم، وإلى شراب محبته الذي يقوم بدل استقلال غيره بشرابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرَ النَّفْسُ﴾.

لم يَقُلْ: وإذا أمرضني لأنه حفظ أدب الخطاب. ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً، ولكنه أراد تمارضاً، كما يمارض الأحياء طمعاً في العيادة، قال بعضهم:

إن كان يمنعك الوشاة زيارتي فادخل عليَّ بِعَلَّةِ الْغُورَادِ
ويقول آخر:

يَوَدُّ بَأْنَ يَمْشِي سَقِيماً لَعَلَّهَا إِذَا سَمِعَتْ مِنْهُ بِشْكُوى تُرَاسِلُهُ
ويقال ذلك الشفاء الذي أشار إليه الخليل هو أن يَبْعَثَ إليه جبريل ويقول له:
يقول لك مولاك.. كيف كنت البارحة؟

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُ لَكُمْ بُحَيْرَيْنِ﴾.

أضاف الموت إلى الله؛ فالموت فوق المرض، لأن الموت لهم غنيمة ونعمة؛ إذ يَصِلُونَ إليه بأرواحهم.

ويقال: ﴿يُبَيِّتُ﴾ بإعراضه عني وقت تعزُّزه، ﴿ويحييني﴾ بإقباله عليَّ حين تَفَضُّله. ويقال يميّتي عني ويحييني به.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

خطيئة الأحياء شهودهم محتتهم، وتعنيهم عند شدة البلاء عليهم، وشكواهم مما يُسْهِم من برحاء^(١) الاشتياق، قال بعضهم:

وإذا محاسني - اللاتي أدلُّ بها - كانت ذنوبي.. فَقُلْ لي: كيف أعتذر

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْأَحْقَقِ بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿هَبْ لِي حُكْماً﴾: على نفسي، فإنَّ مَنْ لا حُكْمَ له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره.

﴿وَالْأَحْقَقِ بِالصَّالِحِينَ﴾: فأقوم بحَقِّكَ دونَ الرجوع إلى طلب الاستقلال بشيءٍ دون حقك.

(١) البرحاء: الشدة والمشقة. (اللسان ٢/ ٤١٠ مادة: برج).

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.

في التفسير: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي ثناء حسناً على لسان أمة محمد ﷺ.

ويقال لا أذكرك إلا بك، ولا أعرفك إلا بك.

ويقال أن أذكرك ببيان آلائك^(١)، وأذكرك بعد قبض روعي إلى الأبد بذكر

مُسْرَمِدٍ.

ويقال أذكرني على لسان المخبرين عنك.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَغْفِرْ لِيَّ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾.

على لسان العلماء: قاله بعد يأسه من إيمان أبيه، وأما على لسان الإشارة فقد

ذَكَرَهُ في وقت غَلَبَاتِ الْبَسْطِ وَيَتَجَاوَزُ ذَلِكَ عَنْهُمْ.

وليست إجابة العبد واجباً على الله في كل شيء، فإذا لم يُجِبْ فَإِنَّ للعبد سلوةً

في ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدي إليه كل أحد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي لا تُخْزِنِي بتذكيري خلتي، فَإِنَّ شَهْوَ مَا مِنَ الْعَبْدِ - عند أرباب القلوب

وأصحاب الخصوص - أشدُّ عقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

قيل: «القلب السليم» اللديغ.

وقيل هو الذي سَلِمَ من الضلالة ثم من البدعة ثم من الغفلة ثم من الغيبة ثم من

الحجبة ثم من المضاجعة ثم من المساكنة ثم من الملاحظة. هذه كلها آفات، والأكابر

سَلِمُوا منها، والأصاغر امْتَحِنُوا بها.

ويقال: «القلب السليم» الذي سَلِمَ من إرادة نَفْسِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ وَبَرَزْتِ الْجَحِيمَ لِلْفَافِينَ﴾.

﴿أَزَلَفْتِ﴾: أي قُرْبَيْتِ وَأَذْنَيْتِ في الوقت، فَإِنَّ ما هو آتٍ قَرِيبٌ، وبالعين

أَخْضِرَتْ. وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَتَعُدُّ إِدْنَاءَ الْجَنَّةِ من المتقين.

﴿وَبَرَزْتِ الْجَحِيمَ لِلْفَافِينَ﴾ أَظْهَرَتْ؛ فتَوَكَّدَ الْحُجَّةُ على أرباب الجحود، ويُعَرَّضُونَ

على النار، وتُعَرَّضُ عليهم منازلُ الأشرار، فَيَكْبِكُونَ فيها أجمعين، ويأخذون يَقْرَؤُونَ

بذنوبهم^(٢)، ومن جمعتها ما أخبر أنهم يقولون:-

﴿تَأْسُوْا إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ تُسَوِّكُمْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾.

(٢) الآيات من (٩٢ حتى ٩٦) لم ترد.

(١) الآلاء: النعم.

ولا فضيحة أقبح ولا عيب فيهم أشنع مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم: ﴿إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ فَإِنَّ أَقْبَحَ أَبْوَابِ الشَّرِّ وَأَشْنَعَ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَأَقْبَحَ أَحْوَالِهِم - التشبيه في صفة المعبود^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾.

في بعض الأخبار: يجيء - يوم القيامة - عَبْدٌ يُحْتَسَبُ فتستوي حسناته وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصوم، فيقول الله - سبحانه: عبدي... بقيت لك حسنة واحدة، إن كانت أَدْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ.. أَنْظُرْ.. وَتَطَلَّبُ من الناس لعلَّ واحداً يهب لك حسنة واحدة. فيأتي العبد في الصفين، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه، ويقول لكل واحد في بابه فلا يجيبه أحد، فالكل يقول له: أنا اليوم فقير إلى حسنة واحدة، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحق - سبحانه: ماذا جئت به؟

فيقول: يا رب... لم يُعْطِنِي أَحَدٌ حَسَنَةً من حسناته.

فيقول الله - سبحانه: عبدي... ألم يكن لك صديق (في)؟.

فيتذكر العبد ويقول: فلان كان صديقاً لي.

فيدله الحق عليه، فيأتيه ويكلِّمه في بابه، فيقول: بلى، لي عبادات كثيرة قَبْلَهَا اليوم فقد وهبْتُكَ منها، فيسير هذا العبد ويجيء إلى موضعه، ويخبر ربه بذلك، فيقول الله - سبحانه: قد قَبِلْتُهَا منه، ولن أنقص من حَقِّه شيئاً، وقد غفرت لك وله، وهذا معنى قوله.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ذكر قصة نوح وما لَقِيَ من قومه، وأنهم قالوا:

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

إِنَّ أَتْبَاعَ كُلِّ رَسُولٍ إِنَّمَا هُمُ الْأَضْعَفُونَ، لكنهم - في حكم الله - هم المتقدمون الأكرمون. قال عليه السلام: «نُصِرْتُ بضعفائكم».

وإِنَّ اللَّهَ أَغْرَقَ قَوْمَهُ لَمَّا أَصْرُوا واستكبروا.

وكذلك قَعَلَ بمن ذَكَرْتَهُمُ الْآيَاتُ في هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين... كلُّ منهم قابلوا رُسُلَهُم بالتكذيب، قَدَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ أَجْمَعِينَ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ عَلَى مُقْتَضَى سُنَّتِهِ الْحَمِيدَةِ فِيهِمْ. وقد ذَكَرَ اللَّهُ قِصَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ أَعْقَبَهَا بقوله:-

﴿وَلَوْ أَنَّ رِبَّكَ لَمَّا الْغَرِيظُ الرَّجِيمُ﴾.

(١) الآية (٩٩) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٠٢ و ١٠٣) لم تردا والآيات من (١٠٦ حتى ١١٠) لم ترد.

﴿الْعَزِيزُ﴾: القادر على استئصالهم، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي أحرَّ العقوبة عنهم بإمهالهم، ولم يقطع الرزق مع قُبْحِ فعالهم.

وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ لم يُسْتَضَرَّ بقبيح أعمالهم، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لَمَا تَجَمَّلَ بأفعالهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أخبر عن كل واحد من الأنبياء أنه قال: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرٌ﴾ لِيَعْلَمَ الكافة أن من عَمِلَ لله فلا ينبغي أن يَطْلُبَ الأجر من غير الله. وفي هذا تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدَّبوا بأنبيائهم، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بثِّ علومهم، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق في بثِّ ما يُذكرُ به من الدين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارك الله للناس فيما منه يَسْمَعُونَ، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما من الناس يأخذون، إنهم يبيعون دينهم بعرضٍ يسير، ثم لا بركة لهم فيه، إذ لا يبتغون به الله، وسيحصلون على سُخْطِ الله^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ لَنُنَزِّلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزْلًا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَفٍ مُبِينٍ﴾.

كلام الله العزيز مُنَزَّلٌ على قلب الرسول - ﷺ - في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام. والكلام من الله غير منفصل، وبغير الله غير متصل. . . وهو - على الحقيقة لا على المجاز - مُنَزَّلٌ. ومعناه أن جبريل - عليه السلام - كان على السماء. فسمع من الرب، وحفظ ونزل، وبلغ الرسول. فمرة كان يُدْخِلُ عليه حالة تأخذه عنه عند نزول الوحي عليه. ثم يورد جبريل ذلك على قلبه. ومرة كان يتمثل له المَلَكُ فيسمعهُ. والرسول - ﷺ - يحفظه ويؤدِّبه. والله - سبحانه - ضَمِنَ له أنه سيُفَرِّقُهُ حتى لا ينساه. فكان يجمع الله الحِفْظَ في قلبه. ويسهلُ له القراءة عند لفظه. ولما عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيه إياهم بالإتيان بمثله. . . عَلِمَ صِدْقُهُ في أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ لِي لَدُونِ الْأُولِينَ﴾.

جميع ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص، وما في صفة الله من استحقاق جلاله - موافق لما في الكتب المنزلة من قِبَلِ الله قَبْلَهُ، فمهما عارضوه فإنه كما قال جل شأنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

ثم أخبر أنه لو نُزِّلَ هذا الكتاب بغير لسانهم وبلغه غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك، ولَقَالُوا: لو كان بلساننا لعرفناه ولَأَمْتًا به، فازاح عنهم العِلَّةَ، وأكد عليهم الحُجَّةَ.

(٢) الآيات من (١٢٨ - حتى ١٩١) لم ترد.

(١) الآيات من (١١٢ حتى ١٢٦) لم ترد.

ثم أخبر عن صادق علمه بهم، وسابق حكمه بالشقاوة عليهم، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب في القيامة، حين لا ينفعهم الإيمان ولا الندامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنُونَ﴾.

إن أرحمنا المدة، وأمهلناهم أزمنة كثيرة - وهم بوصف الغفلة - فما الذي كان ينفعهم إذا أخذهم العذاب بغتة؟!

ثم أخبر أنه لم يهلك أهل قرية إلا بعد أن جاءهم النذير وأظهر لهم البيّنات، فإذا أصرّوا على كفرهم عذبهم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾.

وجذّوا السمع - الذي هو الإدراك - ولكن عديموا الفهم، فلم يستجيبوا لما دُعوا إليه. فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وذلك تعريف له أنهم لا تنفعهم قرابتهم منه، ولا تقبل شفاعته - إن لم يؤمنوا - فيهم. فليس هذا الأمر من حيث النسب، فهذا نوح لما كفر أبوه لم تنفعه بئوته، وهذا الخليل إبراهيم عليه السلام لما كفر أبوه لم تنفع أبوته، وهذا محمد - عليه الصلاة والسلام - كثير من أقاربه كانوا أشد الناس عليه في العداوة فلم تنفعهم قرابتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ خِفْضَ جُنَاحِكَ لِيَسَّ أَبْصَارُنَا أَوْ تُقَرِّبْ مِنَّا السَّعِيرَ﴾.

ألن جانيك وقاربهم في الصحبة^(٤)، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير، واحتمل منهم سوء الأحوال، وعاشيروهم بجميل الأخلاق، وتحمل عنهم كلهم، وازحمهم كلهم، فإن مرضوا فعذبهم، وإن حرموك فأعطهم، وإن ظلموك فتجاوز عنهم، وإن قصرُوا في حقي فاعف عنهم، واشفع لهم، واستغفر لهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

لا تفعل مثل فعلهم، وكل حسابهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حداً، فعند ذلك لا تأخذك رافة تمنعك من إقامة حداً عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

(١) الآيات من (١٩٧ حتى ٢٠٤) لم ترد. (٢) الآيات من (٢٠٨ - ٢١١) لم ترد.

(٣) الآية (٢١٣) لم ترد.

(٤) انظر حديث القشيري عن الصحبة بالرسالة القشيرية ص ٢٩٤ - ٢٩٨.

انْقَطِعْ إِلَيْنَا، وَاعْتَصِمْ بِنَا، وَتَوَسَّلْ إِلَيْنَا بِنَا، وَكُنْ عَلَى الدَّوَامِ بِنَا، فَإِذَا قُلْتَ فَقُلْ بِنَا، وَإِذَا ضَلَلْتَ فَضَلْ بِنَا، وَاشْهَدْ بِقَلْبِكَ - وَهُوَ فِي قَبْضَتِنَا - تَحَقُّقًا بِأَنَّكَ بِنَا وَلَنَا.

تَوَكَّلْ عَلَى ﴿الْعَزِيزِ﴾ تَجِدُ الْعِزَّةَ بِتَوَكُّلِكَ عَلَيْهِ فِي الدَّارَيْنِ، فَإِنَّ الْعَزِيزَ مَنْ وَثِقَ بِالْعَزِيزِ.

﴿الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي يَقْرُبُ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ، وَيُجْزِلُ الْبِرَّ لِمَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ بِمَشْهَدٍ مِنَ الْحَقِّ رَأَى دَقَائِقَ أَحْوَالِهِ، وَخَفَايَا أُمُورِهِ مَعَ الْحَقِّ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾.

هَوْنٌ عَلَيْهِ مَعَانَاةٌ مَشَاقُّ الْعِبَادَةِ بِإِخْبَارِهِ بِرُؤْيَتِهِ. وَلَا مَشَقَّةَ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِمَرَأَى مِنْ مَوْلَاهُ، وَإِنْ حَمَلَ الْجِبَالَ الرُّوَاسِيَّ عَلَى شَفْرِ^(٢) جَفْنِ الْعَيْنِ لَيَهْوُ عِنْدَ مَنْ يَشَاهِدُ رَبَّهُ.
ويقال ﴿وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ بَيْنَ أَصْحَابِكَ، فَهَمَّ نَجُومٌ وَأَنْتَ بَيْنَهُمْ بِذَرٍّ، أَوْ هَمَّ بِدَوْرٌ وَأَنْتَ بَيْنَهُمْ شَمْسٌ، أَوْ هَمَّ شَمُوسٌ وَأَنْتَ بَيْنَهُمْ شَمْسُ الشَّمْسِ.
ويقال: تَقَلُّبُكَ فِي أَصْلَابِ آبَائِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ عَرَفُوا اللَّهَ، فَسَجَدُوا لَهُ ذُونَ مَنْ لَمْ يَعْرِفُوهُ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿السَّمِيعُ﴾ لِأَنَّهُ يَسْمَعُ مِنَ الْمُحِبِّينَ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِحُنَيْنِ الْعَارِفِينَ.

﴿السَّمِيعُ﴾ لِأَنَّهُ يَسْمَعُ مِنَ الْمُذْنِبِينَ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِ الْمُطِيعِينَ.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ نَزَّلُوا عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتُرُهم كَذِبُوتٍ﴾.

بَيِّنْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْزَلُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْكُهْنَةِ فَتُوحِي إِلَيْهِمْ بَسَاسَهُمُ الْبَاطِلَةَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ الْوَحْيَ وَمَا يَأْتِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ذَكَرَ مَا يُوسَّوسُ بِهِ الشَّيَاطِينُ إِلَى

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٣٤٤.

(٢) شَفْرُ الْعَيْنِ: وَهُوَ مَا يَنْبِتُ عَلَيْهِ الشَّعْرُ وَأَصْلُ مَنْبِتِ الشَّعْرِ فِي الْجَفْنِ. (اللسان ٤/٤١٨).

أوليائه، وألحق بهم الشعراء الذين في الباطل يهيمون، وفي أعراض الناس يقعون، وفي التشبيهات - عن حد الاستقامة - يخرجون، ويعدون من أنفسهم بما لا يوفون، وسبيل الكذب يسلكون^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

فيكون شغره خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة، وهذا كما قيل: الشعرُ كلامُ إنسان؛ فحسنة كحسنة وقيحه كقيحه.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

سيعلم الذين ظلموا سوء ما عملوا، ويندمون على ما أسلفوا، ويصدقون بما كذبوا.

السورة التي يذكر فيها النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز قَصْدُهُ العاصي لِطَلَبِ التخفيف فصار وَزْرُهُ مغفوراً، اسم كريم قَصْدُهُ العابد لِطَلَبِ التضعيف فصار أَجْرُهُ موفوراً، اسم جليل أَمَّهُ الولي لِطَلَبِ التشريف فصار سَعْيُهُ مشكوراً، اسم عزيز إن تَعَرَّضَ الفقير لوجوده مَحَقَّتْهُ العِزَّةُ، وَطَوَّحَتْهُ السَّطْوَةُ، فصار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

جَلَّتْ الأحديَةُ.. فأننى بالوصول! وَتَقَدَّسَتْ الصمديَةُ.. فَمَنْ ذا الذي عليها يقف^(١)؟ ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ﴾ [المدثر: ٥٤، ٥٥]:

وكم باسطين إلى وَضَلِنَا أَكْفَهُمُو.. لم ينالوا نصيباً!

قوله جل ذكره: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١].

بطهارة قُدْسِي وسناء عِزِّي لا أُخَيِّبُ أَمَلٍ من أَمَلٍ لطفي.

بوجود بَرِّي تطيب قلوب أوليائي، وبشهود وجهي تغيب أسرار أصفيائي.

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفي، وسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي.

﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النحل: ١]: هذه دلالات كَرَمِنَا، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بَرْنَا، تُبَيِّنُ لأولياتنا صِدْقَ وَغَدِنَا، وَنُحَقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنَا.

قوله جل ذكره: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه الآيات وهذا الكتاب بيانٌ وشفاءٌ، ونورٌ وضياءٌ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان، وأكَّدنا لهم الضمان، وكفلنا لهم الإحسان.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

يديمون المواصلات، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم

(١) انظر حديث القشيري عن التوحيد بالرسالة ص ٢٩٨ - ٣٠٣.

وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم الزكاة، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسن مقام، وينوبون عن ضعفائهم أحسن مناب.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أغشيناهم فهم لا يبصرون، وعمّينا عليهم المسالك فهم عن الطريقة المثلى يغفلون، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترّدون.

قوله جلّ ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾.

﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أن يجد الآلام ولا يجد التسلي بمعرفة المسلي، ويحمل البلاء ولا يحمل عنه ثقله وعذابه شهود المبلي. . . وذلك للكفار، فأما المؤمنون فيخفف عنهم العذاب في الآخرة حسن رجائهم في الله، ثم تضرعهم إلى الله، ثم فضل الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشي والإفاقة - كما في الخبر - إلى وقت إخراجهم من النار.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَئِكَ لَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

أي أن الذي أكرمك بإنزال القرآن عليك هو الذي يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر، ودجاً عليه الليل، وأخذ امرأته الطلق وهبت الرياح الباردة، ولم يور الزند، وضاق على موسى الأمر، واستبهم الوقت، وتشتت به الهمة، واستولى على قلبه الشغل. ثم رأى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا إنني أبصرت ناراً. وفي القصة: إنه تشتت أغنامه، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعه فشردت، فقالت امرأته:

كيف تركنا وتمضي والوادي مسيع؟!.

فقال: امكثوا. . . فإني لأجلكم أمضي وأتعرف أمر هذه النار، لعلّي آتيكم منها إما بقبس أو شعله، أو بخبر عن قوم نزل عليها تكون لنا بهم استعانة، ومن جهتهم انتفاع. وبذت لعينه تلك النار قريبة، فكان يمشي نحوها، وهي تتباعد حتى قرب منها، فرأى شجرة رطبة خضراء تشتعل كلها من أولها إلى آخرها، وهي نار مضيئة، فجمع حشنيات وأراد أن يقتبس منها، فعند ذلك سمع النداء من الله لا من الشجرة كما توهم المخالفون من أهل البدع. وحصل الإجماع أن موسى سمع تلك الليلة كلام الله، ولو كان النداء في الشجرة لكان المتكلم به الشجرة، ولأجل الإجماع قلنا: لم

يكن النداء في الشجرة وإلا فتحن نجوز أن يخلق الله نداء في الشجرة ويكون تعريفاً، ولكن حينئذ يكون المتكلم بذلك الشجرة.

ولا يُنكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له، وخلق كلاماً في الشجرة أيضاً، فموسى سمع كلامه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة... وهذا من طريق العقل جائز.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي بورك مَنْ هو في طلب النار وَمَنْ هو حول النار.

ومعنى بورك لحقته البركة أو أصابته البركة... والبركة الزيادة والثماء في الخير.

والدعاء مِنَ القديم - سبحانه - بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به.

قوله جل ذكره: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الذي يُخَاطِبُكُ أَنَا اللَّهُ ﴿الْعَزِيزُ﴾ في استحقاق جلاله، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع

أفعالي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ﴾.

في آية أخرى بَيَّنَّ أنه سأل، وقال له على وجه التقرير: ﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِينِكَ

يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧] وأجابه بقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧] وذكر بعض ما له فيها من المآرب والمنافع، فقال الله: ﴿وَأَلْقَى عَصَاهُ﴾، وذلك لأنه أراد أن يُريَه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمال اليقين.

وألقاها موسى فَقَلَبَهَا اللَّهُ ثعباناً، أولاً حية صغيرة ثم صارت حية كبيرة، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِرًا هارباً، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لما كان عارفاً بأن الله يعذب مَنْ يشاء بما يشاء، فقال له الحق:

﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا بِخَافٍ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾.

أي لا ينبغي لهم أن يخافوا.

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهذا يدل على جواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط ترك الإصرار. فأما مَنْ لَا يُجِيزُ عليهم الذنوب فيحمل هذا على ما قبل النبوة^(١).

(١) بعض الفقهاء لا يستخدم تعبير [الذنب] بالنسبة للأنبياء، وإنما يطلق على ما يبدر منهم فعل خلاف الأول: توباً.

قال القشيري في رسالته: فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً، قيل: إما وجوباً كما يقال في الأنبياء فلا، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب، إن حصلت آفات أو زلات فلا يمتنع ذلك في وصفهم. (الرسالة القشيرية ص ٣٥٩).

فلما رأى موسى انقلاب العصا عليم أن الحق هو الذي يكشفه بذلك .

ويقال : كيف عليم موسى - عليه السلام - أن الذي سمعه كلام الله ؟

والجواب أنه بتعريف منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كسبياً ، ويكون الدليل له الذي به عليم صدقه في قوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾ هو ما ظهر على يده - في الوقت - من المعجزة ، من قلب العصا ، وإخراج يده بيضاء ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي نِجَاحٍ إِلَيْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

من غير سوء أي برص . وفي القصة أن موسى عليه السلام ذكر اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أوجبته انزعاجه ، وقضده في طلب النار ، فقال الله تعالى : « إنا قد كفيناك ذلك الأمر ، ووكلنا بامرأتك وأسبابك ، فجمعنا أغنامك وثيرانك ، وسلمت لك المرأة » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْنِسُنَا مَبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

لم يُظهِرَ اللَّهُ - سبحانه - آية على رسول من أنبيائه - عليهم السلام - إلا كانت في الوضوح بحيث لو وُضِعُوا النظر فيها موضعه لتوصلوا إلى حصول العلم وتلج الصدور ، ولكنهم قَصُرُوا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحد . قال تعالى وقوله صدق :

﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِيقَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكما يَخْضُلُ من الكافر الجحدُ تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالة يعلم فيها - بالقطع - أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطر الزاجرة انداعية له عن فعلها من غير أن يكون متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقَدِّمُ على ذلك غير مُحْتَفِلٍ بها موافقةً لشهوته . وهذا الجنس من المعاصي أكثرها شؤماً ، وأشدّها في العقوبة ، وأبعدها عن الغفران .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقتضي حكم هذا الخطاب أنه أفردَهُما بجنس من العلم لم يشاركهُما فيه أحد ؛ لأنه ذكّرهُ على وجه تخصيصهما به ، ولا شك أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه

(١) قال القشيري عند حديثه عن كرامات الأولياء بالرسالة : المعجزات دلالات الصدق - أي صدق الأنبياء - . (للتوسع انظر الرسالة القشيرية ص ٣٥٣ - ٣٥٦) .

كان بزيادة بيانٍ لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه .

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ، فيكون إخبارهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ .

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان .

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر بأنهما شكر الله على عظيم ما أنعم به عليهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبِّ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَابِعُهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ .

ورث أباه في النبوة ، وورثه في أن أقامه مقامه .

قوله : ﴿ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صدق إخباره عن نبوته . ومن كان صاحب بصيرة وحضور قلب بالله يشهد الأشياء كلها بالله ومن الله . ويكون مكاشفاً بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شيء تعريفات الحق - سبحانه - للبعد مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم مخفيٌ عنهم . وكما أن ضرب الطبل مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ - بالمواضعة - عند سماعه وقت الرحيل والنزول فالحق - سبحانه - يخص أهل الحضور بفنون التعريفات ، من سماع الأصوات وشهود أحوال المراتب في اختلافها ، كما قيل :

إذا المرء كانت له فكرةً ففي كل شيء له عبرةً

قوله جل ذكره : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ .

سخر الله لسليمان - عليه السلام - الجن والطيور ، فكان الجن مكلفين ، والطيور كانت مسخرةً إلا أنه كان عليها شرع ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته ، حتى النمل كان سليمان يعرف خطابهم ينفذ عليهم حكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ بِأَيِّهَا أَلَمْتُ أَدْخَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَخَاطَبُنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قيل إن سليمان استحضر أمير النمل الذي قال لقومه : ﴿ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ ﴾ وقال له : أما علمت أنني معصوم ، وأني لن أمكن عسكري من أن يطؤوكم ؟ فأخبره أمير النمل أنه لا يعلم ذلك ؛ لأنه ليس بواجب أن يكون النمل عالماً بعصمة سليمان . ولو قال : لعلكم أبيع لكم ذلك . . لكان هذا أيضاً جائزاً .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان: إني أخجلُ قومي على الزهد في الدنيا، وَخَشِيتُ أَنْ يَرَوْكُم فِي مُلْكِكُمْ أَنْ يَرِغِبُوا فِيهَا، فَأَمَرْتُهُمْ بِدُخُولِ مَسَاكِنِهِمْ لِئَلَّا يَتَشَوَّشَ عَلَيْهِمْ زُهْدُهُمْ. وَلَئِنْ صَحَّ هَذَا فففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبار لِمَنْ هُوَ فِي رِعْيَتِهِمْ. وفي الآية دليلٌ على حَسَنِ الاحتراز مِمَّا يُخْشَى وَقُوعُهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ عَادَةُ النَّفْسِ وَمَا فَطَرُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّمْيِيزِ.

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان: ما الذي أعطاك اللّهُ من الكرامة؟ فقال: سَخَّرَ لِي الرِّيحَ.

فقال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِشَارَةَ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِيَدِكَ مِمَّا أُعْطِيَتْ إِلَّا الرِّيحُ؟ وهكذا بَيَّنَّه الْكَبِيرُ عَلَى لِسَانِ الصَّغِيرِ! قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَبَيَّنَّه صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا﴾.

التَّبَسُّمُ مِنَ الْمُلُوكِ يَنْدُرُ لِمُرَاعَاتِهِمْ حُكْمَ السِّيَاسَةِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى رِضَاهُمْ وَاسْتِحْسَانِهِمْ لِمَا مِنْهُ يَحْصُلُ التَّبَسُّمُ، فَلَقَدْ اسْتَحْسَنَ سُلَيْمَانُ مِنْ كَبِيرِ النَّمْلِ حُسْنَ سِيَاسَتِهِ لِرِعْيَتِهِ.

وفي القصة أَنَّهُ اسْتَعْرَضَ جُنْدَهُ لِبِرَاهِمِ كَمْ هُمْ، فَعَرَضَهُمْ عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَأْتُونَ فَوْجًا فَوْجًا، حَتَّى مَضَى شَهْرٌ وَسُلَيْمَانُ وَاقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُغْتَبِرًا فَلَمْ يَنْتَهَوْا، وَمَرَّ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي القصة: أَنَّ عَظِيمَ النَّمْلِ كَانَ مِثْلَ الْبَغْلِ فِي عِظَمِ الْجَثَّةِ، وَلَهُ خَرْطُومٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَظَرَهُ إِلَيْهِمْ كَانَ نَظَرًا عَابِرًا، وَأَنَّهُ رَأَى تَعْرِيفَ اللَّهِ إِيَّاهُ ذَلِكَ، وَتَبَيَّنَهُ عَلَيْهِ مِنْ جُمْلَةِ نِعَمِهِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهَا الشُّكْرُ.

وفي قوله: ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيَّْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ شُكْرَ الشَّاكِرِ لِلَّهِ لَا يَخْتَصُّ بِمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِ عَلَى الْخُصُوصِ، بَلْ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى مَا خَصَّ وَعَمَّ مِنْ نِعَمِهِ. قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَأَتَّوَلَّيْتُ بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ﴾.

سَأَلَ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ، لِأَنَّ الصَّالِحَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ هُوَ مَخْتَوٍ لَهُ بِالسَّعَادَةِ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَٰذِهِدَا أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينَ﴾. تَطَلَّبَهُ فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ تَعَرَّفَ مَا سَبَبَ تَأْخُرِهِ وَغِيْبَتِهِ.

ودلّ ذلك على تيقظ سليمان في مملكته، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته، حيث لم تخفّ عليه غيبة طير هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعة واحدة. وهذا أحسن ما قيل.

ثم تهذّده إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديد، وذلك يدلّ على كمال سياسته وعُدّله في مملكته.

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد^(١) يعرف أعماق الماء بإلهام خُصَّ به، وأنّ سليمان كان قد نزل منزلاً ليس به ماء، فطلب الهدهد ليهديهم إلى مواضع الماء، وهذا ممكن؛ لأن في الهدهد كثرة. وغيبة واحد منها لا يحصل منها خلل - اللهم إلا إن كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء.. والله أعلم.

وروي أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك، وأنه قيل له: إن كان الهدهد يرى الماء تحت التراب ويعرفه فكيف لا يرى الفُحّ مخفياً تحت التراب؟ فقال: إذا جاء القضاء عمي البصر.

ويقال: إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُضْطَفَّةً، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها، فوق شعاع الشمس على الأرض، فنظر سليمان فرأى موضع الهدهد خالياً منه، فعَرَفَ بذلك غيبته.. وهذا أيضاً ممكن، ويدل على كمال تَفَقُّده، وكمال تَيَقُّظه - كما ذكرنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنِ ثَمِينٍ﴾.

في هذه الآية دليل على مقدار الجُرم، وأنه لا عبرة بصغر الجثة وعظمتها. وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شرع، وأنّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً؛ وإن كان لا يُعَرَفُ ذلك على وجه القطع.

وتعيين ذلك العذاب الشديد غير ممكن قطعاً، إلا تجويزاً واحتمالاً.

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كل ما قيل فيه.

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ في شيء نُقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ.

وقد قيل هو تَتَفُّ ريشه وإلقاؤه في الشمس.

(١) الهدهد: جنس طير من الجواثم الرقيقات المناقير، أشهر أنواعه الهدهد الشائع، وهو مبذول في لبنان وغيره. ذو خطوط وألوان كثيرة، وهو متوسط الجسم، له منقار مستطيل وقنزعة على رأسه كبيرة القذ سوداء الأطراف. وذنبه مقطوم الطرف، أسود اللون أبيض الجانبين والوسط، يألف الهدهد الأماكن المبعثرة الأشجار، وقوته الحشرات والديدان (ج) هداهد وهداهيد، الواحدة هدهدة. يقال: (أبصر من هدهد) قيل: لأنه يرى الماء تحت الأرض.

وقيل يفرّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشّت عليه وقته .

وقيل يلزّمه خدمة أقرانه .

والأوّل في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت، وألا يُقَطَّع بشيء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنْ العذاب الشديد أن يُمنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأنه ويوكّل إلى حَوْلِهِ ونَفْسِهِ، ومن ذلك أن يُمتَحَنَ بِالْجِرَاصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع في اسم العذر ثم لا يرتفع^(١) ومن ذلك سَلْبُ القناعة، ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري . ومن ذلك توهم الحدّثان وحسبان شيء من الخلق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِيسَةِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق، والتمسك بالحق في صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده . ومنه الفقر في الغربة .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُقِينٌ﴾ .

فلم يلبث الهدى أن جاء، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تَهَدَّدَهُ، فقال: أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ، ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُقِينٌ﴾ .

ثم ذكر حديث بلقيس، وأنها ملكتهم، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم ما عَدَّهُ، فلم يتغير سليمانُ - عليه السلام - لذلك، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلْكٍ غيرهم^(٢)، فلما قال:

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ .

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ، وَغَضِبَ فِي اللَّهِ^(٣)، و:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

(١) قال القشيري برسالته: وقيل في قوله تعالى: ﴿لَاعْلَبْنَهُ عَذَاباً شديداً﴾ يعني لاسلبته القناعة ولابتليته بالطمع، يعني أسأل الله تعالى أن يفعل به ذلك . (الرسالة القشيرية ص ١٦٢) .

(٢) الآية (٢٣) لم ترد . (٣) الآيتان (٢٥، ٢٦) لم تردا .

وفي هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحد لا يوجب العلم فيجب التوقف فيه على حدّ التجويز، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَح بل يجب أن يُتَعَرَّف: هل هو صدق أم كذب؟ ولَمَّا عَرَفَ سليمان هذا العُدْرَ تَرَكَ عقوبته وما تَوَعَّدَ به . . وكذلك سبيلُ الوالي؛ فَإِنَّ عَذْلَهُ يمنعه من الحيف على رعيته، وَيَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ في صورة المجرمين إذا صَدَقَ في اعتذاره.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذْهَبَ بِكُنْيَا هَكَذَا فَأَلْفَهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾. في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كل كلمة، فإنه يَجُرُّ العناء بذلك إلى نفسه؛ وقد كان لسليمان من الخَدم والحشم ومن يأتمر بأمره الكثير، ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذي قال ما قال، فلزمه الخروج من عهدة ما قال. ويقال لَمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكِهِ عُوضَ عليه فَأُهْلَ للسفارة والرسالة - على ضعف صورته.

فمضى الهدهد، وألقى الكتاب إليها كما أمر، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجَاب.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْملُوكُ إِلَيَّ الْفُلَى إِلَيَّ كُنْتُ كَرِيمٌ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُوبِي مُسْلِمِينَ﴾.

﴿كُنْتُ كَرِيمٌ﴾ الكرم نفي الدناءة، وقيل لأنه كان مختوماً، وقيل لأن الرسول كان طيراً؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرَةً لَهُ لا بُدَّ أَنَّهُ عَظِيمُ الشَّانِ. وقيل لأنه كان مُصَدِّراً بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم. وقيل لأنه كتب فيه اسم نفسه أولاً ولم يَقُلْ: إنه من سليمان إلى فلانة. ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في المُلْكِ بل كان دُعَاءً إِلَى اللَّهِ: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُوبِي مُسْلِمِينَ﴾.

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها، وقَهَرَهَا؛ فلم يكن لها جواب، فقالت: ﴿إِلَيَّ الْفُلَى إِلَيَّ كُنْتُ كَرِيمٌ﴾ لَمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلْكِهَا، وَرَزَقَتْ الإسلامَ وَضَحَّةَ سليمان.

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريم من الصلاة ما لا يتجرّد عن التسمية، وإذا تجرّدت كان الأمرُ فيها بالعكس.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْملُوكُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَنْهَدُونِ﴾. أَخَذَتْ في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام؛ فَإِنَّ المَلِكَ لا ينبغي أن يكون مستبدّاً برأيه، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأي والبصيرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ .
 أجابوا على شرط الأدب، وقالوا: ليس منا إلا بذلّ الوسع، وليس لنا إلا إظهارُ
 النصّح وما علينا إلا متابعة الأمر - وتمشية الأمر وإمضاؤه... إليك.
 قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
 وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ .

ويقال إن: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ من قولها.

ويقال: تغييرُ الملوك إذا دخلوا قريةً - عن صفتها - معلوم، ثم يُنظر... فإن
 كان الداخلُ عادلاً أزال سُتَّةَ الجور، وأثبت سُتَّةَ العدل، وإن كان الداخلُ جائراً أزال
 الحسَنَ وأثبت الباطل. هذا معلوم؛ فإنّ خرابَ البلادِ بولاءِ السوء، حيث يستولي
 أسافلُ الناس وأسقاطهم على الأعزة منهم، وكما قيل:

يا دولة ليس فيها من المعالي شظية
 زولى فما أنتِ إلا على الكرام بليّة

وعِمارة الدنيا بولاءِ الرُّشد، يكسرون رقابَ الغاغة^(١)، ويُخلّصون الكرامَ من
 أسرِ السفلة، (ويأخذ القوس باريها)، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها... كذلك
 المعرفة والخصالُ المحمودة إذا باشرت قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنَى،
 وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّعْ وصغرِ الهمة... وغير ذلك من
 الأوصاف الدميمة وتُثبت بذلّها من الأحوال العليّة والأوصاف المَرْضِيّة ما به نظامُ العبد
 وتمامُ سعادته. ومتى استولت على قلب غاغة النفس والخصالُ المذمومة أزالته عنه
 عمارته، وأبطلت نضارته، فتخرب أوطانُ الحقائق، وتتداعى مساكنُ الأوصاف
 الحميدة للأفول، وعند ذلك، يَغْظُمُ البلاءُ وتتراكم المِحَنُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمان بهدايا، ومن جملتها لبنةٌ مصنوعةٌ من
 الفضة وأخرى من الذهب. وأن الله أخبر سليمانَ بذلك، وأوحى إليه في معناه. وأمرَ
 سليمانَ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزلٍ ميداناً، وأمرهم أن يفرشوا الميدانَ بهيئة اللّبنِ
 المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره. وأمرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك
 وألا تُنْظَفَ آثارُها من روثٍ وغيره، وأن يُشْرَكَ موضعانِ لِلْبَيْتَيْنِ خَالِيَيْنِ في ممرٍ

(١) الغاغة: من الغوغاء أصلها الجراد حين يخف للطيران ثم استعير للسفلة من الناس والمتسرعين إلى
 الشر، ويجوز أن يكون من الغوغاء الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم. (اللسان ٨/٤٤٤
 مادة: غوغ).

الدخول. وأقبل رُسُلُها، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين، فلَمَّا رَأَوْا الأمر، ووقعت أبصارُهم على طريقهم، صَغُرَ في أعينهم ما كان معهم، وَخَجَلُوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة... كيف يتخلصون مما معهم؟. فلَمَّا رَأَوْا موضع اللَّبَنَتَيْنِ فارغاً ظَنُّوا أن ذلك سُرِقَ من بينها، فقالوا لو أظهرنا نُسُبنا إلى أننا سرقناها من هذا الموضع، فطرحاهما في الموضع الخالي، ودَخَلَا على سليمان:

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتِمِدُونَنِي بِمَا لِيَ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ فَرِحُونَ﴾.

أتهدونني مالا؟! وهل مثلي يُسْتَمَالُ بمثل هذه الأفعال؟ إنكم وأمثالكم تعاملون بمثل ما عوملتم! ارجع إليهم: -

﴿أَتَجِئُ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِمِثْلِ مَا قَدَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَدْلَلَّ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

فلَمَّا رجعوا إلى بلقيس، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْهَ لها سوى الاستسلام والطاعة، فَعَزَمَتْ على المسير إلى خدمته، وأوحى الله إلى سليمان بذلك، وأنها خرجت مستسلمة، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ يَأْتِيَنِي بَعْرِشَهَا؟﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ يَأْتِيَهَا الْمَلَكُ أُنْكِمُ يَأْتِيَنِي بَعْرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوَنِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفَرْتُ مَنَ الْجِنِّ أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِينٌ﴾.

بسط اللّه - سبحانه - مُلْكَ سليمان، وكان في مُلْكِهِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالشَّيَاطِينُ؛ الجن على جهة التسخير، والإنس على حكم الطوع، والشياطين وكانوا على أقسام.

ولَمَّا قال: ﴿أَأَنْتُمْ يَأْتِيَنِي بَعْرِشَهَا؟﴾ قال عفرت من الجن - وكان أقواهم - ﴿أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِينٌ﴾، فلم يرغب سليمان في قوله لأنه بنى القول فيه على دعوى قُوَّتِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَالِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَفِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (قيل هو آصف) وكان صاحب كرامة. وكرامات الأولياء مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقُه ويكون من جملة أمته.

ومعلوم أنه لا يكون في وُسْعِ الْبَشَرِ الْإِتْيَانُ بالعرش بهذه السرعة، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى. وَقَطَعَ المسافة البعيدة في لحظة لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين: إمّا بأن يُقَدِّمَ اللّه المسافة بين العرش وبين منزل سليمان،

وإِذَا بَانَ يَعْدَمُ الْعَرْشُ ثُمَّ يَعِيدُهُ فِي الْوَقْتِ الثَّانِي بِحَضْرَةِ سُلَيْمَانَ . وَأَيُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَسَمِينَ كَانَ - لَمْ يَكُنْ إِلَّا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، فَالَّذِي كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ دَعَا اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - وَاسْتَجَابَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَأَحْضَرَ الْعَرْشَ ، وَأَمَرَ سُلَيْمَانَ حَتَّى غَيَّرَ صُورَتَهُ فَجَعَلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ ، وَأَسْفَلَهُ أَعْلَاهُ ، وَأَثْبَتَهُ عَلَى تَرْكِيبٍ آخَرَ غَيْرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانُ ذَلِكَ أَخَذَ فِي الشُّكْرِ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ - وَالاعْتِرَافِ بِعِظَمِ نِعَمِهِ ، وَالِاسْتِيحَاءِ ، وَالتَّوَاضُّعِ لَهُ ، وَقَالَ : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ : لَا بِاسْتِحْقَاقِي مِنْي ، وَلَا بِاسْتَطَاعَةٍ مِنْ غَيْرِي ، بَلْ أَحْمَدُ النِّعْمَةَ لِرَبِّي حَيْثُ جَعَلَ فِي قَوْمِي وَمِنْ أُمَّتِي مَنْ لَهُ الْجَاهُ عِنْدَهُ فَاسْتَجَابَ دَعَاءَهُ .

وَحَقِيقَةُ الشُّكْرِ - عَلَى لِسَانِ الْعُلَمَاءِ - الْاعْتِرَافُ بِنِعْمَةِ الْمُنْعِمِ عَلَى جِهَةِ الْخُضُوعِ . وَالْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ الشُّكْرُ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمُخْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا شُكْرُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ لِأَنَّهُ ثَنَاءٌ مِنْهُ عَلَى الْعَبْدِ بِذِكْرِ إِحْسَانِ الْعَبْدِ ، وَشُكْرُ الْعَبْدِ ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ . . . إِلَّا أَنَّ إِحْسَانَ الْحَقِّ هُوَ إِنْْعَامُهُ ، وَإِحْسَانُ الْعَبْدِ طَاعَتُهُ وَخِدْمَتُهُ لِلَّهِ ، وَمَا هُوَ الْحَمِيدُ مِنْ أَعْمَالِهِ .

فَأَمَّا عَلَى طَرِيقِ أَهْلِ الْمَعَامَلَةِ وَبَيَانِ الْإِشَارَةِ : فَالشُّكْرُ صَرَفُ النِّعْمَةِ فِي وَجْهِ الْخِدْمَةِ .

وَيُقَالُ الشُّكْرُ أَلَّا تَسْتَعِينَ بِنِعْمَتِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ .

وَيُقَالُ الشُّكْرُ شَهُودُ الْمُنْعِمِ مِنْ غَيْرِ مَسَاكِنَةٍ إِلَى النِّعْمَةِ .

وَيُقَالُ الشُّكْرُ رُؤْيَا الْعِجْزِ عَنِ الشُّكْرِ .

وَيُقَالُ أَعْظَمُ الشُّكْرِ الشُّكْرُ عَلَى تَوْفِيقِ الشُّكْرِ .

وَيُقَالُ الشُّكْرُ عَلَى قَسَمَيْنِ : شُكْرُ الْعَوَامِ عَلَى شَهُودِ الْمَزِيدِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَئِنْ

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إِبْرَاهِيمَ : ٧] ، وَشُكْرُ الْخَوَاصِّ يَكُونُ مَجْرَدًا عَنْ طَلَبِ الْمَزِيدِ ، غَيْرَ مُتَعَرِّضٍ لِمَنَالِ الْعَوَاضِ .

وَيُقَالُ حَقِيقَةُ الشُّكْرِ قَيْدُ النِّعَمِ وَارْتِبَاطُهَا ؛ لِأَنَّ الشُّكْرَ بَقَاءُهَا وَدَوَامُهَا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالُوا نَكْرُوهَا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

أَرَادَ سُلَيْمَانُ أَنْ يَمْتَحِنَهَا وَأَنْ يَخْتَبِرَ عَقْلَهَا ، فَأَمَرَ بِتَغْيِيرِ عَرْشِهَا ، فَلَمَّا رَأَتْهُ : ﴿ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ .

فَأَبْدَلَتْ بِذَلِكَ عَلَى كَمَالِ عَقْلِهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا نَاقِضًا لِلْعَادَةِ ، فَصَارَ لَهَا آيَةٌ وَعِلَامَةٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَسْلَمَتْ :

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَسِبْتُمْ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالِ إِنَّهُمْ صَرَجٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

كان ذلك امتحاناً آخر لها. فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبةً طبق كبير صافٍ مضيء، ووضَّعه فوق بِرْكَةٍ بها ماء كثير عميق، يُرى الماء من أسفل الزجاج ولا يُمَيِّزُ بين الزجاج والماء، وأُمِرَتْ أن تخوض تلك البركة، فَكَشَفَتْ عن ساقِها؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جَنِيَّةُ النَّسَبِ، وأن رجليها كحواضر الدواب، فَتَقَوَّلُوا عليها. ولَمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماء كَشَفَتْ عن ساقِها، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين. وقيل لها: ﴿إِنَّهُمْ صَرَجٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرٍ﴾: فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليقينها. وَأَمَتَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَاحِبًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

ذكر قصة ثمود، وقصة نبيهم صالح عليه السلام، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب، وطلبهم منه معجزة، وحديث الناقة وعقرها، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية... إلى قوله:

﴿وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ومَكْرُهُمْ ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح، وعقرهم الناقة خفية، وتوريك الذنب على غير جارمه، والتبرُّي من اختيارهم ذلك.

وأما مَكْرُ اللَّهِ جزاؤهم على مَكْرِهِمْ بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم، ثم إحلالها بهم بقتة. فالمَكْرُ من الله تخليته إياهم مع مَكْرِهِمْ بحيث لا يعصمهم، وتزيين ذلك في أعينهم، وتجيُّب ذلك إليهم... ولو شاء لَعَصَمَهُمْ. ومن أليم مَكْرِهِ انتشار الصيت بالصلاح، والعمر في السُرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح، وفي الآخرة لا يَجُوزُ في سَوَاقِها هذا التَّقْدُّ!

قوله جل ذكره: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمُ أَجْمَعِينَ﴾.

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً:

﴿فَإِنَّكَ يُؤْتِيهِمْ حَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

وفي الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لَسَلَطَ اللَّهُ عليه الخراب»؛ فالنفوس إذا ظَلَمَتْ بِزَلَّاتِها خربت بلحوقها شؤم الذلة حتى يتعود صاحبها الكسل، ويستوطن مركب الفشل، ويُخَرِّم التوفيق، ويتوالى عليه الخذلان وقسوة القلب وجحود العين وانتفاء تعظيم الشريعة من القلب. وأصحاب القلوب إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا

طَرَدَهَا عَنْ قُلُوبِهِمْ... خربت قلوبهم حتى تقسو بعد الرأفة، وتجف بعد الصفوة.

فخراب النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة، وخراب القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة، وخراب الأرواح باستيلاء الحجة والوقف، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَيِّنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

ذَكَرَ قصة لوط وأمه، وما أَصْرُوا عليه من الفاحشة، وما أَحَلَّ اللُّهُ بهم من العقوبة، وإِحْلَالَ العقوبة بامرأته التي كانت تطابق القوم، وتخليص الحق لوطاً من بينهم، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإِهلاكهم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هم الذين سَلَّمَ عليهم في آزاله وهم في كتم العَدَم، وفي متناول علمه ومتعلق قدرته، ولم يكونوا أعياناً في العَدَم ولا أفادوا، فلَمَّا أظهرهم في الوجود سَلَّمَ عليهم بذلك السلام، وَيُسَمِعُهُمْ في الآخرة ذلك السلام. والذين سَلَّمَ عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشبه، ومن فنون البِدْع، ومن وجوه الأَلَم، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ، ثم من الغيبة والحجة وما يَنَافِي دوام القربة.

ويقال اصطفاهم، ثم هداهم، ثم آواهم، وسَلَّمَ عليهم قبل أَنْ خَلَقَهُمْ وأبداهم، وبعد أَنْ سَلَّمَ عليهم بوَدِّهِ لِقَاهِم.

ويقال: اصطفاهم بنور اليقين وحُلَّةِ الوَضَلِ وكمالِ العَيش.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاكَ بِهَجَرَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾.

فثمرات الظاهرِ غذاء النفوس، وثمرات الباطنِ والأسرار ضياء القلوب، وكما لا تبقى في وقت الربيع من وحشة الشتاء بقية فلا يبقى في قلوبهم وأوقاتهم من الغيبة والحجة والنفرة والتهمة شَطِيطَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾.

نفوسُ العابدين قرار طاعتهم، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم، وأرواحُ الواجدين قرار محبتهم، وأسرارُ الموحدين قرار مشاهدتهم، في أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة، وبها يسكن ظمأ اشتياقهم وهيجان قلقهم واحتراقهم.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) الآيات من (٥٦ حتى ٥٨) لم ترد.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ من الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة.

ويقال ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ اليقين والتوكل.

ويقال الرواسي في الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساك الأرض، وببركاتهم يذفع عن أهلها البلاء.

ويقال الرواسي هم الأئمة الذي يَهْدُونَ المسترشدين إلى الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بين القلب والنفس ثلثا يغلب أحدهما صاحبه.

ويقال بين العبودية وأحكامها، والحقيقة وأحكامها، فلو غلبت العبودية كان جحداً للحقيقة، ولو غلبت الحقيقة العبودية كانت طياً للشريعة.

ويقال: أَلَيْسَ المریدین مَقْرُ ذكْره، وأسماعهم محل الإدراك الموضّل إلى الفهم، والعيون مقر الاعتبار.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السُّوء؛ فالإجابة بالقَوْل والكشف بالطَّوْل، الإجابة بالكلام والكشف بالإنعام. ودعاء المضطر لا حجاب له، وكذلك دعاء المظلوم ولكن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

ويقال للجناية: سراية؛ فَمَنْ كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطراب عند سراية جُزْمِهِ الذي سَلَفَ منه وهو مختار فيه، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون، وذلك الاضطراب سراية ما بَدَرَ منهم في حال اختيارهم.

وما دام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْل والحيلة، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه - فليس بمضطرب، فالمضطرب يرى نَفْسَهُ كالغريق في البحر، أو الضال في المتاهة، وهو يرى عِثَانَهُ بيد سَيِّدِهِ، وزِمَامَهُ في قبضته، فهو كالميت بين يدي غاسله، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة^(١).

(١) إن العبد إذا اطمأن لنفسه، ولاحظ عمله فقد عنصرأ من عناصر السير في طريق الإخلاص وفي هذا قال أبو يعقوب السدوسي: حتى شهدوا الإخلاص في إخلاصهم احتاج إلى إخلاص، ويقول أبو عثمان المغربي: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص. (الرسالة القشيرية ص ٢٠٨).

ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحد في أن يدعو له ، لأنَّ اللهَ وَعَدَ الإجابة له . .
لا لمن يدعو له .

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابة وكُشِفَ السوء وَعَدَهُ بقوله : -

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ .

فإنَّ مع العسر يسراً ، ولم يقل : العسر إزالة ، ولكن قال : مع العسر يسرٌ ؛ فهناك اليسر حاصل بعد ظلام العسر .

ثم قال : ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ لأنَّ العبد إذا زال عُسرُهُ ، وكُشِفَ عنه ضُرُّهُ نَسِيَ ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كأنَّ الفتى لم يَغَرَ يوماً إذا اكتسى
قوله جل ذكره : ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ﴾ .

إذا أظلم الوقت على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمر بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتحير عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعض بشواهد العقل . . فَمَنْ الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير ، وللاستسلام لحكم التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوِّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق ، والاستسلام لما جَرَتْ به الأقسام ، وسبقت به الأقدار ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

مَنْ الذي يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِهِ بين يدي أنوار اختياره فيمحو آثار اختيارِ نَفْسِكَ ، ويعجل بحسن الكفاية لك ؟

ويقال : يرسل رياح التوكل فيُظهِرُ القلوب من آثار الاختيار وأضرار التدبير ، ثم يُطْلِعُ شمسَ الرضا فيحصل بَرْدُ الكفاية فوق المأمول في حال سكينَةِ القلب . . ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ : من إحالة المقادير على الأسباب .

قوله جل ذكره : ﴿أَمَّنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَانُوا بَرَهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

يُظْهِرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِهِ ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحق فيهِ قوله ، وسبق به قضاؤه وَقَدَرُهُ فإذا زال وانتفى وانعدم بعض ما يظهر

ويخصص... فَمَنْ الذي يعيده مثلما بدأه؟ ومن الذي يضيّق الرزقَ ويُسّعه؟ ومن الذي يقبض في بعض الأوقات على بعض الأشخاص؟ وفي وقت آخر مَنْ الذي يبسط على قوم آخرين؟

هل في قدرة أحدٍ غير الله ذلك؟

إِنْ توهمتم شيئاً منذ لك فأوضحوا عنه حُجَّتكم... وإذ قد عجزتم... فهلاً صدقتم؟ وبالتوحيد أقررتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿الْغَيْبَ﴾: ما لا يطلع عليه أحد، وليس عليه للخلق دليل، وهو الذي يستأثر بعلمه الحق، وعلوم الخلق عنه متقاصرة، ثم يريد الله أن يخصّ قوماً بعلمه أفردهم به.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: فإنه أخفى علم الساعة عن كل أحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا غَمُونَ﴾.

فهم في الجملة يشكون فيه؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه... وهكذا حكم كل مريض القلب، فلا حياة له في الحقيقة، ولا راحة له من يأسه، إذ هو من البعث في شك، ومن الحياة الثانية في استبعاد:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُّذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَيْنَا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وُعِدَ آبَاؤُنَا بذلك من قبل، ثم لم يكن لهم تحقيق، وما نحن إلا مثلهم، وكانوا يسألون متى الساعة؟^(١)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فقال الحق: إنه عن قريب سيحل بهم ميقاته:

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

ثم قال جلّ ذكره:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

(١) الآيات (٦٩ - ٧٠) لم تردا.

لأنهم لا يُمَيِّزُونَ بين مِحْنِهِمْ وَمِنْحِهِمْ . وعزيرٌ مَنْ يَغْرِفُ الْفَرْقَ بين ما هو نعمة من الله له وبين ما هو محنة؛ فإذا تقاصرَ عِلْمُ العبدِ عَمَّا فيه صلاحه، فعسى أن يحب شيئاً ويظنُّه خيراً وبلاؤه فيه، ورُبَّ شيءٍ يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها، وهي محنة له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صَرْفِها! وبالعكس هذا كم من شيءٍ يظنه الإنسان بخلاف ما هو به! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِمَ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .
لا تَلْتَبِسْ على الله أحوالهم؛ فصديقٌ يستوي ظاهره وباطنه يعلمه، ومنافقٌ يخالف باطنه ظاهره يُلَبِّسُ على الناس حاله . . وهو - سبحانه - يعلمه، وكافِرٌ يستوي في الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُته يعلمه، وهو يجازي كلاً على ما عِلِمُه . . كيف لا . . وهو قَدَرُه، وعلى ما عليه قضاء وقَسَمُه؟! .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .
ما من شيءٍ إِلَّا مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُه، ماضيةٌ فيه مشيئته، متعلّقة به عِلْمُه .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وهم يُخْفُونَ بعضاً، وبعضاً يُظْهِرُونَ، ومع ما يَهْوُونَ يدورون .
وفي هذ الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابهم، وَعَصَمَ مِنَ التَّغْيِيرِ والتبديل ما به يدينون . وهذه نعمة عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون؛ فالقرآن هدى ورحمة للمؤمنين، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادق أنهم له مُحَرَّفُونَ مُبَدَّلُونَ .
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ .
هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْمُعِزُّ للمؤمنين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ .
أي اجتهد في أداء فَرَضِهِ، وثِقْ بصدق وعده في نصره ورزقه، وكفايته وعَوْنِهِ . ولا يَهْوِلُكَ ما يجري على ظواهرهم من أذى يتصل منهم بك، فإنما ذلك كله بتسليطنا إن كان محذوراً، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً . وإنك لَعَلَى حَقٍّ وضياءٍ صِدْقٍ، وهم على شكٍّ وظلمةٍ شريك .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ .
الذين أمات الله قلوبهم بالشُّركِ، وَأَصَمَّهُمْ عن سماع الحق - فليس في قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهُمَ للرُّشْدِ أو تنقذهم من أَسْرِ الشكِّ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالة إلى العرفان، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة. أنت لا تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا، فلا يَسْمَعُ منك إِلَّا مَنْ أَسْعَدَنَاهُ من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

إذا حقَّ الوعدُ بإقامة القيامة أوضحنا أشراطها في كلام الدابة المُخْرِجَةِ من الأرض وغير ذلك من الآيات.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. وعند ذلك لا ينفع الإيمان ولا يقبل العذر^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾. ثم كرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما: -

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي ليكون الليل وقت سكوتهم، والنهار وقت طلب معاشهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ﴾.

أخبر أن اليوم الذي يُنْفَخُ فيه في الصور هو يومُ إزهاق الأرواح، وإخراجها عن الأجساد؛ فَمِنْ رُوح ترقى إلى عليين، وَمِنْ رُوح تذهب إلى سجين^(٢). . . أولئك في حواصل طير تسرح في الجنة تأوي بالليل إلى قناديل معلقة من تحت العرش صفتها التسبيح والروح والراحة، ولبعضها الشهود والرؤية. . . على مقادير استحقاقهم لما كانوا عليه في دنياهم.

وأما أرواح الكفار ففي النار تُعَذَّبُ على مقادير أجرامهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

(١) الآية (٨٤) لم ترد.

(٢) السجين: وإد في جهنم.

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكن، هم ساكنون بنفوسهم سائحون في الملكوت بأسرارهم. . قيل: إن الإشارة اليومَ إليهم. كما قالوا: العارف كائنٌ بائنٌ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره، بائنٌ عن جميع الخلق بسرائره.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يحتمل أن يكون ﴿خير﴾ ها هنا للمبالغة؛ لأن الذي له في الآخرة من الثواب خيرٌ ممّا منه من القرب: ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها. وهم آمنون من فزع القيامة. ومن جاء بالسيئة: فكما أن حالهم اليوم من المطيعين بالعكس فحكمهم غداً في الآخرة بالضد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَكَذَا بَلَدَةٌ﴾.

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفي، والتبرّي من الشرك؛ الجلي منه والخفي، وبملازمة الطريق السوي. وأخبر أنّ من اتبعه وصدّقه أوجب الحقّ ذمامه وحقّه^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ...﴾.

سيريكُم - عن قريب - آياته، فطوبى لمن رجع قبل وفاته، والويلُ على من رجع بعد ذهاب الوقت وفواته!

(١) الآية (٩٢) لم ترد.

سورة القصص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يَسِرُّ له في دنياه وعُقباه، اسم عزيز مَنْ اشتاق إلى لُفْيَاهِ اسْتَعَذَّبَ فِيهِ ما يلقاه من بُلُوَاهِ. وَمَنْ طَلَبَ غَيْرَهُ مُؤْنِساً فِي دُنْيَاهِ أَوْ عُقْبَاهِ ﴿صَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

قوله جل ذكره: ﴿طَسَمَ تِلْكَ الْكِتَابَ الْمُبِينِ﴾.

«الطاء» تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله، وطهارة أرواح الواصلين عن محبة غير الله، وطهارة أسرار الموحدين عن شهود غير الله. «والسين» تشير إلى سِرِّ اللّهِ مع العاصين بالنجاة، ومع المطيعين بالدرجات، ومع المحبين بدوام المناجاة. «والميم» تشير إلى مِئْتِهِ على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات.

قوله جل ذكره: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْيِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

سَمَاعُ قِصَّةِ الْحَبِيبِ مِنَ الْحَبِيبِ يُوجِبُ سَلْوَةَ الْقَلْبِ، وَذَهَابَ الْكَزْبِ، وَبِهَجَّةِ السَّرِّ، وَتَلَجِّ الْفُؤَادِ. وَقَدْ كَرَّرَ ذِكْرَ قِصَّةِ مُوسَى تَفْخِيماً لِشَأْنِهِ وَتَعْظِيماً لِقُدْرِهِ، ثُمَّ زِيَادَةً فِي الْبَيَانِ لِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ إِفَادَةً لَزَوَائِدَ فِي الْمَذْكُورِ قَوْلُهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ يَتَكَرَّرُ فِيهِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

تَكْبَرُ فِرْعَوْنُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَأَقْمَاهُ بِحَقٍّ، وَتَجَبَّرَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ فَأَذَلَّهُ اللَّهُ بِاسْتِحْقَاقٍ وَاسْتِجَابٍ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ بَعْدَ مَا اسْتَضَعَّفَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، وَأَفْنَى مِنْهُمْ مَنْ كَانَ (...) (١)، وَبِالْفُسَادِ حَكَمَ فِيهِمْ، وَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ بِتَرْكِ إِتْلَافِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَرُئِدَ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَّفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَأَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ وَخَّوْدُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

نريد أن نُنمِّنَ على المستضعفين بالخلاص من أيديهم، وأن نجعلهم أئمة، بهم يَهْتَدِي الخلق، ومنهم يتعلم الناس سلوك طريق الصدق، ونبارك في أعمارهم، فيصبرون وارثين لأعمار مَنْ يُناوِيهم، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم؛ فهم هُداةٌ وأعلام، وسادةٌ وقادةٌ بهم يُفْتَدَى وبثورهم يُهْتَدَى.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: نُزِيلُ عنهم الخوف، ونرزقهم البسطة والاقتدار، ونمد لهم في الأجل. ونرى فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهِم على أيديهم؛ وأن الحق يُعْطِي - وإن كان عند الخلق أنه يُنْطِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيْ إِنَّا رَاوَدُوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ أَلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي ألقينا في قلبها، وأوحينا إليها وحي إلهام، فاتخذت خاطرهما في ذلك، وجرى منها ذلك وهي مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها.

لَمَّا وضعت أم موسى كانت تخاف قتله، فإن فرعون قَتَلَ في ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبني إسرائيل، رجاء أن يقتل مَنْ رَأَى في النوم ما عُبرَ له أن ذهاب مُلْكِهِ على يدي إسرائيلي. . فالتقى الله في قلبها أن تفعل ذلك.

ثم إنه رباه في حجره ذلك اليوم - لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَقْدَارَ لَا تُغَالَبُ.

جعلت أم موسى موسى في تابوت، وألقته في نيل مصر، فجاء الماء به إلى بركة كان فرعون جالساً على حافتها، فأخذه وحملوه إليه، وفتحوا رأس التابوت، فلَمَّا رآه فرعون أخذت رؤيته بمجامع قلبه، وكذلك تمكَّن حُبُّه من قلب امرأة فرعون؛ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾: [طه: ٣٩] حيث خَلَقَ الله ملاحاةً في عيني موسى؛ فكان من يقع عليه بَصَرُهُ لا يتمالك من حُبِّه.

قوله جل ذكره: ﴿فَالْفَقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ﴾.

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم، وقالت امرأة فرعون:

﴿وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فلم يكن لهما ولد، وهم لا يشعرون إلى ماذا يؤول أمره.

﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُمُّ مُوسَى فَرِحًا بِأَنَّ كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لَمَّا ألقته في الماء سَكَنَ اللَّهُ قَلْبَهَا، وربط عليه، وألهمها الصبر، وأصبح قوداً

فارغاً إن كادت لتبدي به من حيث ضعف البشرية، ولكن الله ربط على قلبها.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أمرت أم موسى أختها أن تتبع أثره، وتنظر إلى ماذا يؤول أمره، فلما وجدوه واستمكن حبه من قلوبهم طلبوا من يرضعه:

قوله جل ذكره: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحَةٌ فَوَرَدَتْهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَمَّا نَسَقَ اللَّهُ لَهَا أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أبى موسى قبول ثدي واحدة ممن غرض عليهن.. فمن بالغداة كانوا في اهتمام كيف يقتلونهم أمسوا - وهم في جهدهم - كيف يُغذونه!

فلما أعياهم أمره، قالت لهم أختها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ؟﴾ فقبلوا نصيحتها شفقة منهم عليه، وقالوا: نعم، فردوه إلى أمه، فلما وضعت ثديها في فمه ارتضعها موسى فسروا بذلك، وكانوا يدعون أمه حاضنة ومرضعة.. ولم يضرها، وكانوا يقولون عن فرعون: إنه أبوه.. ولم ينفعه ذلك!

ولما أخذته أمه علمت بتصديق الله ظنها، وسكن عن الانزعاج قلبها، وجرى من قصة فرعون ما جرى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ يُجْزَى الْمُحْسِنِينَ﴾.

لما كملت سنه وتم عقله، واستوى كمال خصاله ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾: أي أتممنا له التحصيل، ووفّرنا له العلم، وبذلك جرت سُنَنُنا مع الأكابر والأنبياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ إِِبْرَاهِيمَ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ الآية.

قيل: دخل المدينة في وقت الهاجرة^(١)، وتفرق الناس، فوجد فيها رجلين يتخاصمان: أحدهما إسرائيلي من شيعة موسى وعلى دينه، والآخر قبطي مخالف لهما، فاستغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي، فوكّزه موسى ليدفعه عن الإسرائيلي، فمات الرجل بذلك الوكّز، ولم يكن موسى يقصد قتله، فقال موسى:

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

فقد تملّى موسى أن لو دفعه عنه بأيّسر مما دفعه، ولم ينسب القتل إلى الشيطان، ولكن دفعه عنه بالغلظة نسبّه إلى الشيطان بأن حمّله على تلك الجدة.

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر.

وهكذا.. إذا أَرَدَهُ اللَّهُ أَمْرًا أَجْرَى أَسْبَابًا لِيَخْصُلَ بِهَا مَرَادُهُ، ولو أنه أراد فتنة موسى لَمَّا قَبَضَ رُوحَ الرَّجُلِ بِمِثْلِ تِلْكَ الْوَكْزَةِ، فَقَدْ يَضْرِبُ الرَّجُلَ الْكَثِيرَ مِنَ الضَّرْبِ وَالسَّيَاطِ ثُمَّ لَا يَمُوتُ؛ فَمَوْتُ الْقِبْطِيِّ بِوَكْزَةٍ إِجْرَاءَ لِمَا قَضَاهُ وَأَرَادَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

تاب موسى عَمَّا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ، وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَأَخْبَرَ اللَّهَ أَنَّهُ غَفَرَ لَهُ، وَلَا عِتَابَ بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِمُنْجَرِمٍ﴾.

قال موسى رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ مِنْ تَوْفِيقِكَ لِي بِالتَّوْبَةِ^(١) فَلَنْ أَعُودَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مِثْلِ مَا سَلَفَ مِنِّي.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِأَنَّهُ كَانَ يَدَّعِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْعَدْلِ، وَخَافَ مُوسَى أَنْ يَنْسَبَهُ فِي قَتْلِ الْقِبْطِيِّ إِلَى الْعَمْدِ وَالْقَصْدِ. فَهُوَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ عِلْمُ فِرْعَوْنَ وَأَنْ يُخْبَرَ بِذَلِكَ فِي وَقْتِهِ.

وقيل ﴿خَائِفًا﴾ مِنَ اللَّهِ مِمَّا جَرَى مِنْهُ. وَيُقَالُ ﴿خَائِفًا﴾ عَلَى قَوْمِهِ حُلُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ. وَقِيلَ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ نَصْرَةَ اللَّهِ إِيَّاهُ. وَيُقَالُ ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ مُؤْنِسًا يَأْتُسُ بِهِ.

فإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَخَاصِمُ إِنْسَانًا آخَرَ، وَيَسْتَعِينُ بِهِ لِيُعِينَهُ، فَهَمَّ مُوسَى بِأَنْ يَعْينَ صَاحِبَهُ، فَقَالَ الَّذِي يَخَاصِمُهُ: ﴿يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ؟﴾ قِيلَ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي قَتَلَ الرَّجُلَ بِالْأَمْسِ، وَلَكِنْ لَمَّا قَصَدَ مَنَعَهُ عَنْ صَاحِبِهِ اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي قَتَلَ الرَّجُلَ بِالْأَمْسِ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ شَاعَ فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ، فَأَمْسَكَ مُوسَى عَنْ هَذَا الرَّجُلِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَلَأْتَ بِكَ لِقَتْلُكَ فَاهْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

جاء إسرائيلي من معارف موسى يسعى، وقال إن القوم يريدون قتلَكَ، وأنا واقفٌ

(١) انظر حديث القشيري عن التوبة برسالته ص ٩١.

على تدبيرهم؛ وقد أرادوا إعلام فرعون.. فاخْرُجْ من هذا البلد، إني لك من الناصحين.

قوله جل ذكره: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

خرج^(١) من مصر ﴿خائفاً﴾ أن يقتفوا أثره، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أن يدركه الطلب، وقيل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ الكفاية والنصرة من الله، ودعا الله فقال: ﴿نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصد إلى مدين أو غيره، بل خرج على الفتوح، توجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديه ربُّه إلى النحو الذي هو خير له، فقال: عسى ربي أن يهديني إلى أرشد سبيل لي.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

لَمَّا وافى مدينَ شعيب كان وقت الهاجرة، وكانت لهم بئر يستقون منها، فيصبون الماء في الحياض، ويسقون أغنامهم، وكانوا أهل ماشية.

وكان شعيب النبي عليه السلام قد كُفَّ بَصْرُهُ لكثرة بكائه؛ ففي القصة أنه بكى فذهب بَصْرُهُ، ثم رَدَّ الله عليه بَصْرَهُ فبكى، فردَّ الله بصره فبكى حتى ذهب بَصْرُهُ، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكي يا شعيب..؟ إِنْ كَانَ بِكَ أَكْثَرُ لَخُوفِ النَّارِ فَقَدْ أَمُنْتُكَ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ الْجَنَّةِ فَقَدْ أَتَخَّطَهَا لَكَ.

فقال: رَبِّ.. إِنَّمَا أَبْكِي شَوْقًا إِلَيْكَ. فأوحى الله إليه لأجل ذلك أَخْدَمْتُكَ نَبِييَ وكليمي عَشْرَ حَجَجٍ.

وكانت لشعيب أغنام، ولم يكن لديه أجير، فكانت بنتاه تسوقان الغنم مكان الرعاة، ولم يكن لهما قدرة على استقاء الماء من البئر، وكان الرعاة يستقون، فإذا انْقَضَوْا فَإِنَّ بَقِيَّةَ فِي الْحَوْضِ بَقِيَّةً مِنَ الْمَاءِ اسْتَقَتْ بَنَاتُ شُعَيْبٍ.

فلَمَّا وافى موسى ذلك اليوم وشاهد ذلك ورأهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبه لهما وقال: مَا خَطْبُكُمَا؟ فقالتا: ﴿لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وليس لدينا أجير. فلَمَّا انصرف الرعاة سَقَى لهما، ثم تَوَلَّى إِلَى ظِلِّ جِدَارٍ بَعْدَ ذَلِكَ. كَانَ الْجُوعُ قَدْ أَصَابَهُ خِلَالَ سَفَرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَعَوَّدَ، قَطَّ الرَّحْلَةَ وَالْعُرْبَةَ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَالٌ، فَدَعَا اللَّهَ:

(١) هذا يذكرنا بأهمية قضية السفر. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٨٨ - ٢٩٤ وص ٣٨٣).

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

قيل طَلَبَ قُوَّةَ تَزِيلِ جَوْعِهِ، وقيل طَلَبَ حَالاً يَسْتَقِلُّ بِهَا. والأحسن أن يقال جاع فَطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بِهَا رَمَقَهُ - والمعرفة توجب سؤال ما تحتاج إليه من الله قليلاً أو كثيراً. فلما انصرفت ابتنا شعيب خَرَجَ شعيب إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسها بيديه فوجد أثر الزيادة في تلك الكثرة، فسألهما فذكرتا له القصة، وما سمعتا منه حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فقال شعيب: إذاً هو جائع. وَبَعَثَ إحداهما لتدعوه: -

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ آتِي دَعْوَكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الْظَالِمِينَ﴾ .

قيل إنما استحييت لأنها كانت تخاطب مَنْ لم يكن لها مَحْرَمًا.

وقيل لَمَّا دَعَتْهُ للضيافة تكلمت مستحيّة - فالكريم يستحي من الضيافة.

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لَمَّا أَحْسَنَ موسى إليه وأنه لم يكافئه - وإن كان موسى لم يُرِدْ مكافأةً منهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: لم يَقُلْ: فلما جاءه قَدَمُ السُّفْرَةِ^(١) بل قال: وقصّ عليه القصص. وهذا طَرَفٌ من قصته.

ويقال: وَرَدَ بظاهره ماء مدين، وَوَرَدَ بقلبه مواردُ الأُنسِ والرَّوْحِ. والموارد مختلفة؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسْطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطفة، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواحِ فيكاشفون بأنوار المشاهدة، فيغيبون عن كل إحساس بالثَنُفِ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيد. وعند ذلك الولاية لله؛ فلا نَفْسَ وَلَا حِسَّ، وَلَا قَلْبَ وَلَا أُنْسَ. استهلاكٌ في الصمدية وفناء بالكلية!

ويقال كانت الأجنبية والبعد عن المحرمية يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما، والإعراض والسكون عن سؤالهما. ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسُرِّ استنطقه حتى سألهما عن قصتهما، كما قيل:

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ

ويقال: لَمَّا سألهما وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أَمَرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤهم.

ويقال مِنْ كَمَالِ البلاء على موسى أَنَّهُ وافى الناسَ وكان جائعاً، وكان مقتضى الرِّفْقِ أَنْ يُطْعِمُوهُ، ولكنه قَبَضَ القلوبَ عنه، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أَنَّ

(١) السُّفْرَةُ: طعام يُعد للمسافر أو ما يُحمل فيه الطعام أو المائدة وما عليها من الطعام.

يَعْمَلُ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ رَجُلًا؛ لَأَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي نَحَّاهَا عَنْ رَأْسِ الْبَئْرِ - وَخَذَهُ - كَانَ يَنْقُلُهَا أَرْبَعُونَ رَجُلًا، فَلَمَّا عَمِلَ عَمَلٌ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ، وَقَالَ: إِنَّ رَأْيْتَ أَنْ تُطْعِمَنِي بَعْدَ مُقَاسَاةِ اللَّتْيَا وَالَّتِي.. فذلِكَ فَضْلُكَ!

قال ذلك بلسان الانبساط، ولا لسان أحلى من ذلك. وسنة الشكوى أن تكون إليه لا منك.. بل منه إليه.

ويقال: تولى إلى ظل الأتس وروح البسط واستقلال السر بحقيقة الوجود. ويقال قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: فِرْذَنِي فَقْرًا؛ فَإِنْ فَقَرِي إِلَيْكَ يَوْجِبُ اسْتِعَانَتِي بِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُيَ اسْتَجِرِّيْهِ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

كان شعيب عليه السلام يحتاج إلى أجير، ولكن لا يسكن قلب إلى أحد، فلما رأى موسى، وسمع من ابنته وصفة بالقوة والأمانة سأل: عَرَفْتُ قُوَّتَهُ.. فكيف عرفت أمانته؟

فقالت: كنت أمشي قدامه فأخزني عنه في الطريق قائلاً: سيدي ورائي واهديني، لئلا يقع بصره علي.. فقال شعيب:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فرغب موسى وتزوجها على صداق أن يعمل عشر حجج لشعيب.

وفي القصة أن شعيباً قال لموسى: ادخل هذا البيت وأخرج مما فيه من العصي عصاً، وكان البيت مظليماً، فدخل وأخرج العصا، تلك التي أظهر الله فيها معجزاته، ويقال: إنها كانت لآدم عليه السلام، ووقعت لشعيب من نبي إلى نبي. إذ يقال: إنه لما هبط آدم إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السباع، فأنزل عليه الله عصاً، وأمره جبريل أن يرد السباع عن نفسه بتلك العصا.

وتوارث الأنبياء واحداً بعد الآخر تلك العصا، فلما أخرج موسى تلك العصا، قال شعيب: ردها إلى البيت، واطرحها فيه، وأخرج عصاً أخرى، ففعل غير مرة، ولم تحصل كل مرة في يده إلا تلك العصا، فلم تكرر ذلك علم شعيب أن له شأنًا فأعطاه إياها.

وفي القصة: أنه في اليوم الأول ساق غنمه، وقال له شعيب: إن طريقك يتشعب شيعتين: على أحدهما كلاً كثير.. فلا تسلكه في الرعي فإن فيه ثعباناً، واسلك

الشَّعْبَ الْآخَرَ. فَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى مَفْرَقَ الطَّرِيقَيْنِ، تَفَرَّقَتْ أَغْنَامُهُ وَلَمْ تَطَاوِعْهُ، وَسَامَتْ فِي الشَّعْبِ الْكَثِيرِ الْكَلًّا، فَتَبِعَهَا، وَوَقَعَ عَلَيْهِ النَّوْمُ، فَلَمَّا انْتَبَهَ رَأَى الشَّعْبَانَ مَقْتُولًا، فَإِنْ الْعَصَا قَتَلَتْهُ، وَلَمَّا انصَرَفَ أَخْبَرَ شُعَيْبًا بِذَلِكَ فَسَّرَ بِهِ^(١). وَهَكَذَا كَانَ يَرَى مُوسَى فِي عَصَاهُ آيَاتٍ كَثِيرَةً، وَلِذَا قَالَ: ﴿وَلِي فِيهَا مَنَازِبٌ أُخْرَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۖ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ، وَأَرَادَ مُوسَى الْخُرُوجَ إِلَى مِصْرَ، فَحَمَلَ ابْنَهُ شُعَيْبًا، وَسَارَ بِأَهْلِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مِصْرَ. فَكَانَ أَهْلُهُ فِي تَسْيِيرِهِ وَكَانَ هُوَ فِي تَسْيِيرِ الْحَقِّ، وَلَمَّا ظَهَرَ مَا ظَهَرَ بِأَمْرَاتِهِ مِنْ أَمْرِ الطُّلُقِ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ الْوَقْتُ، وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا - أَي أَبْصَرَ وَرَأَى - فَكَانَهُ يَشِيرُ إِلَى رُؤْيَةٍ فِيهَا نَوْعٌ آنَسَ: وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا أَجْرَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَلَوْ لَمْ تَقَعْ تِلْكَ الْحَالَةُ لَمْ يَخْرُجْ مُوسَى عَنْهَا بِإِنْسَانِ النَّارِ، وَقَدْ تَوَهَّم - أَوَّلُ الْأَمْرِ - أَنَّ مَا يَسْتَقْبِلُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ جَمَلَةِ الْبَلَايَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ سَبَبٌ تَحْقِيقِ النُّبُوَّةِ. فَلَوْلَا أَسْرَارُ التَّقْدِيرِ - الَّتِي لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا الْخَلْقُ - لَمَا قَالَ لِأَهْلِهِ: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

ويقال: أراح له ناراً ثم لَوْحٌ له نوراً، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصود النَّارَ ولا النُّورَ. وإنما سماع نداء: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن...﴾ الآية.

أخفى تعيين قَدَمِ مُوسَى عَلَى الظُّنُونِ بِهَذَا الْخُطَابِ حَيْثُ قَالَ: «مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ»، ثُمَّ قَالَ: «فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ» ثُمَّ قَالَ «مِنْ الشَّجَرَةِ».

وَأَخْلِقُ بِأَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْبُقْعَةُ مُبَارَكَةً، فَعِنْدَهَا سَمِعَ خُطَابَ مَوْلَاهُ بِلَا وَاسْطَةٍ؛ وَأَعَزُّ الْأَمَاكِنِ فِي الْعَالَمِ مَشْهُدُ الْأَحْبَابِ:

وإني لأهوى الدارَ ما يستعزني لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال كم قَدَمٌ وَطِئَتْ لَكَ الْبُقْعَةَ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَصْحَابُهَا بِهَا شَيْئًا... وَكَمْ لَيْلَةٌ جَنَّتْ تِلْكَ الْبُقْعَةُ وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْ تِلْكَ النَّارِ فِيهَا شَعْلَةٌ!

ويقال: شَتَّانَ بَيْنَ شَجَرَةٍ وَشَجَرَةٍ؛ شَجَرَةُ آدَمَ عِنْدَهَا ظُهُورٌ مُحْتَبَةٌ وَفَتْتِيَّةٌ، وَشَجَرَةُ مُوسَى وَعِنْدَهَا افْتِتَاحُ نُبُوءَتِهِ وَرِسَالَتِهِ!.

ويقال: لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة، ولا يُدْرَى ما الذي كانت تثمره، بل هي شجرة الوصلة؛ وثمرتها القربة، وأصلها في أرض المحبة وفَرْعُها باسِقٌ في سماء الصفوة، وأوراقها الزلفة، وأزهارها تَنْفَتِّحُ عن نسيم الرُّوح والبهجة: فلَمَّا سمع^(١) موسى تغيّر عليه الحال؛ ففي القصة: أنه غُشي عليه، وأرسل الله إليه الملائكة ليُرْوِّحوه بمرواح الأنس، وهذا كان في ابتداء الأمر، والمبتدئ مرفوق به. وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِيقاً، وكان يفيق والملائكة تقول له: يا ابن الحَيَض. أمثلك مَنْ يسأل الرؤية؟! وكذا الحديث والقصة؛ في البداية لُطْفٌ وفي النهاية غُفٌّ، في الأولِ خُتْلٌ وفي الآخر قُتْلٌ، كما قيل:

فَلَمَّا دَارَتِ الصَّهْبَاءُ^(٢) دَعَا بِالنُّطْعِ^(٣) وَالسِّيفِ
كَذَا مَنْ يَشْرِبُ الرَّاحَ^(٤) مَعَ التَّنِينِ^(٥) فِي الصِّيفِ
قوله جل ذكره: ﴿وَأَن آتِيَ عَصَاكَ﴾.

يا موسى.. اخْلَعْ نعليك وألق عصاك، وأقم عندنا هذه الليلة، فلقد تَعَبْتَ في الطريق - وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال. يا موسى.. كيف كُنْتَ في الطريق؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صَوَّبْتَ وكيف شَرَّقْتَ وكيف غَرَّبْتَ؟ ما كُنْتَ في الطريق وحدك يا موسى! أَحْصَيْنَا خُطَاكَ - فقد أَحْصَيْنَا كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا. يا موسى.. تَعَبْتَ فاسترخ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَحْ - كذلك العبدُ غداً إذا قطع المسافة في القيامة، وتبوأ منزله من الجنة؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سُلْطَانِهِ. يبتدئ أولاً بخدمة الشُّدَّةِ الْعَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله. وكذلك اليوم أمرنا؛ إذا أصبحنا كُلُّ يومٍ: ألا نشتغل بشيء حتى نَفْتَحَ النهارَ بالخطاب مع الحق قبل أن نخاطب المخلوق، نحضر بساط الخدمة - أي الصلاة - بل نحضر بساط الدنو والقربة، قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]: فَالْمُصَلِّي مُنَاجٍ رَبِّهِ. ولو عَلِمَ الْمُصَلِّي مَنْ يَنَاجِي ما التفت؛ أي لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً في التسليم الذي هو التحليل.

(١) انظر حديث القشيري برسالته عن السماع ص ٣٣٥، ٣٥٠.

(٢) الصهباء: من أسماء الخمر أو هي المعصورة من عنب أبيض.

(٣) النطع: بساط من جلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل (ج) أنطاع ونطوع.

(٤) الراح: الخمر.

(٥) التنين: ضرب من الحيات العظيمة. و - (في الأساطير) حيوان أسطوري يجمع بين صفات الزواحف والطير، له مخالب أسد وجناحا نسر، وذنب أفعى، ويتخذ في بعض البلاد رمزاً قومياً.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَّى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

عندما انقلبت العصا حيةً ولَّى موسى مُدْبِرًا ولم يعقب، وكان موضع ذلك أن يقول: حديث أوله تسليط ثعبان! مَنْ ذا يُطِيقُ أوله؟!.

ف قيل له: لا تَخَفْ يا موسى؛ إن الذي يَقْدِرُ أَنْ يَقْلِبَ العصا حيةً أَنْ يَخْلُقَ لك منها السلامة: ﴿يَمْوِسَّى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت، إنما أثبت هذا لأسلطه على عدوك، فهذه معجزتك إلى قومك، وأيتك على عدوك.

ويقال: شتان بين نبينا - ﷺ - وبين موسى عليه السلام؛ رجع من سماع الخطاب وأتى بشعبان سَلَطَهُ على عدوه، ونبينا - ﷺ - رجع بعد ما أُسْرِيَ به إلى السماء، وأوحى إليه ما أوحى - لِيُؤَافِيَ أُمَّتَهُ بالصلاة التي هي المناجاة، وقيل له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيفِينَ﴾.

قيل له: اسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ، لأنَّ المدرعة التي كانت عليه لم يكن لها كُم. وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمر، وأن يجِدْ، وأن يُخْرِجَ يَدَهُ مِنْ كُمِهِ. وإنه قال لموسى: أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ، وألق عصاك نجعلها ثعباناً، بلا ضَرْبِكَ بها، وبلا استعمالِك لها يا موسى: الأمرُ بِنَا لَا بِكَ، وأنا لا أنت.

﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾: يا موسى، في وصف خضوعك تجذني، وبتبريك عن حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ تَصِلُ إِلَيَّ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَنَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

تعلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاءً أَنْ يُعَافَى مِنْ مَشَقَّةِ التَّبْلِيغِ وَمَقَاسَاةِ الْبَلَاءِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ فِيهَا مَشَقَّةٌ، فلم يجِدْ الرُّخْصَةَ وَالْإِعْفَاءَ مِمَّا كُلِّفَ، وأجاب سُؤْلَهُ فِي أَخِيهِ حَيْثُ سَأَلَهُ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ رِذْءًا، وضمن لهما النصرة.

(١) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٤٦/١١)، وابن حجر في (فتح الباري ٥٦/١١)، وصاحب (الأذكار النووية ٢٦).

ثم إنهما لما أتيا فرعونَ قابلهما بالكذب والجحد، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر، وجاوباه بالحجة، ودَعَوَاهُ إِلَى سَوَاءِ الْمَحْجَّةِ، فَأَبَى إِلَّا الْجَحْدَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَكُنْ عَلَى الْطِينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

ادّعى الانفراد بالإلهية فزاد في ضلاله على عبدة الأصنام الذين جعلوا أصنامهم شركاء، ثم قال لهامان: «ابن لي صرحاً لعلِّي أطلع إلى إله موسى» وكان هذا من زيادة ضلاله، حيث تَوَهَّم أن المعبود من جهة فوق، وأنه يمكن الوصول إليه. ولعمري لو كان في جهة لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْبَرُ الْحَقُّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

أبى إلا أن يدوم جحوده، وغنوده، فأغرقه الله في البحر، كما أغرق قلبه في بحر الكفر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفَيْكَةِ وَيَوْمَ الْقَيْمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

لا لشرّ فهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تلقّهم قَدَمَهُم في الخزي والهوان على كل أمة، ولكن لم يُزْشِدُوا إِلَّا إِلَى الضلال. ولم يَدْأُوا الْخَلْقَ إِلَّا عَلَى الْمُحَال، وما حصلوا إلا على سوء الحال، وما ذاقوا إلا خِزْيَ الْوَبَال. أفاضوا على مُتَّبِعِهِم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا في خِصَّةٍ مطلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَكْفِيَنَّ يَوْمَ الْقَيْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

كانوا في الدنيا مُبْعَدِينَ عن معرفته، وفي الآخرة مُبْعَدِينَ عن مغفرته، فانقلبوا من طَرْدٍ إِلَى طَرْدٍ، ومن هَجْرٍ إِلَى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إِلَى احتراقٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

إنما تطيب المنازل إذا خَلَّتْ من الأجانب، وأطيب المساكن ما كانت زينتُها بِفَقْدِ الرُّقَبَاءِ وَغِيَبَتِهِم، فلما أهلك الله فرعونَ وقومه، وأورث بني إسرائيل أموالهم وديارهم، ومحا عن جميعها آثارهم - طابَ لهم العيشُ وَطَلَعَتْ عليهم شمسُ السعادة.

(١) الآيات من (٣٤) حتى (٣٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِّقِ إِذْ فَصَّلْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً، ولكنهم رأوا أنَّ إخبارك عنهم بحيث لا يكذبك كتابهم. وبالضرورة عرفوا حالك، وكيف أنك لم تعلم هذا من أحد، ولا قرأته من كتاب، لأنك أمي لا تحسن القراءة، وإذا فليس إخبارك إلا بتعريفنا إياك، وإطلاعنا لك على ذلك.

ويقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِّقِ﴾: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى، وكلمناه، وخاطبناه في بابك وباب أمك، ولم تقدر غيبتك في الحال، وكوّن ليكم خير من كوّنكم لكم.

ويقال: لما خاطب موسى وكلمه سأل موسى: إنني أرى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا. من هم؟ وسأل عن أوصاف كثيرة، وعن الجميع كان يجاب بأنها أمة أحمد، فاشتاق موسى إلى لقائنا، فقال له: إنه ليس اليوم وقت ظهورهم، فإن شئت أسمعك كلامهم، فأراد أن يسمع كلامنا، فنادانا وقال: يا أمة أحمد...، فأجاب الكل من أصلاب آبائهم، فسمع موسى كلامهم ولم يذركهم. والغني إذا سأل فقير وأجابه لا يرضى بأن يرده من غير إحسان إليه. (وفي رواية عن ابن عباس^(١)) أن الله قال: «يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، ورحمتكم قبل أن تسترحموني».

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا^(٢) فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذكر نبينا ﷺ بالجميل. وذكر أمته بحسن الثناء عليهم، فنحن في الوجود مُخَدَّت مخلوق وفي ذكره متعلق لا باستفتاح. ولم نكن في العدم أعياناً، ولا أشياء، ولكن كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشية. وذكرنا في الخطاب الأزلي والكلام الصمدي والقول الأبدى.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِشِذْرَ قَوْمًا أَنَّهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك، وكما نادينا موسى - وهو في الوجود والظهور - ناديناكم وأنتم في كتم العدم، أنشدوا:

كُنْ لِي كَمَا كُنْتَ فِي حَالٍ لَمْ أَكُنْ

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٩٥/٤، وفي الإصابة ٤٧٧٢، وفي حلية ٣١٤/١ ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ثاوياً: مقيماً ومستقراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوفِيَٰ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْتُمُوا بِمَا أُوفِيَٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ۝﴾.

تمنوا في زمان الفترة أن يبعث الله إليهم رسولا ليهدوا به، ووعدوا من أنفسهم الإيمان والإجابة، فلما أتاهم الرسول كذبوه، وقالوا: هلا خُصَّ بمثل معجزات موسى في الظهور، وكان ذلك منهم خطأ، واقتراحاً في غير موضع الحاجة، وتحكماً بعد إزاحة العلة:

وكذا الملول إذا أراد قطيعة مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

ثم قال: أفلا تذكرون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموها بالسحر؟ وقال: إن ارتبتم أن هذا الكتاب من عند الله فأتوا بكتاب مثله، واستعينوا بشركائكم. ومن وقته إلى يومنا هذا لم يأت أحد بسورة مثله، وإلى القيامة لا يأتون بكتاب مثله^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ۝﴾.

أتبعنا رسولا بعد رسول، وأردفنا كتاباً بعد كتاب، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً^(٢)، وجحداً وعتواً.. فلا إلى الحق رجعوا، ولا إلى الاستقامة جنحوا..

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝﴾.

من أكلحنا بصيرتهم بنور الهداية صدقوا بمقتضى مساعدة العناية، ومن أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس في غوايته، وانهمك في ضلالته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝﴾.

إذا سمعوا دعوتنا قبلوها بالتصديق، وانقادوا بحسن الاستسلام، فلا جرّم يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجالهم، مرة في الآخرة وهي المثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القرية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَيْهِمْ شَيْئاً ۝﴾.

(٢) الثبور: الهلاك والويل والخسران.

(١) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

﴿الْفُورَ﴾: ما يُلْهِي عن الله . ويقال ﴿الْفُورَ﴾ ما لا يوجب وسيلة عند الله، ويقال ما لا يكون بالحق للحق، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلب غافل، ويقال هو ما يوجب سماعه السهو.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الهداية في الحقيقة إمالة القلب من الباطل إلى الحق، وذلك من خصائص قدرة الحق - سبحانه - وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق - توسعاً، وذلك جائز بل واجب في صفته ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويقال: لَكَ شَرَفُ النبوة، ومنزلة الرسالة، وجمال السفارة، والمقام المحمود، والحوض المورد، وأنت سيد ولد آدم.. ولكنك لا تهدي من أحببت؛ فخصائص الربوبية لا تصلح لِمَنْ وَضَعَهُ البشرية.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا إِنَّا تَتَّبِعُ الْهْدَى مَعَكَ تَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحِجُّ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قالوا نخاف الأعراب على أنفسنا إن صدقناك، وآمنّا بك، لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم فقال الله تعالى: «وكيف تخافونهم وترون الله أظفركم على عدوكم، وحكمنا بتعظيم بيتكم، وجعلنا مكة تُجَبَّى إليها ثمرات كل شيء من أقطار الدنيا؟»

ويقال من قام بحق الله - سبحانه - سَخَّرَ له الكون بجملته، وَمَنْ اشْتَغَلَ برعاية سِرِّه الله، وقام بحق الله، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكِّنَ من التصرف بهمته في مملكة الله؛ فَالْحَلَقُ مُسَخَّرَ له، والوقت طَوْعُ أمره، والحق - سبحانه - متولٍّ^(١) أيامه وأعماله يُحَقِّقُ ظَنَّهُ، ولا يُضَيِّعُ حَقَّهُ.

أما الذي لا يطيعه فيهلك في أودية ضلاله، ويتيه في مفازات خزيه، ويبوء بوزر هواه.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَفْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فِئْلِكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَدِيرٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أحوالهم، وانتظام أمورهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم، فَخَرُّوا في أودية الصغار على أذقانهم، وأذاقهم الله

(١) انظر حديث القشيري عن الولاية برسائه ص ٢٥٩ - ٢٦٣.

من كاسات الهوان ما كسر خمار بَطَرِهِمْ؛ فما كنهم منهم خالية، وسقوفها عليهم خاوية، وغربان الدمار فيها ناعية.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَلْحِقَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾: بالتكليف يأمرهم. ويأمر التكوين - على ما يريد - يفهم. وهو - سبحانه - يبعث الرسل إنذاراً ويعمي السبل عليهم اقتداراً؛ يوضح الحجة بحيث لا شبهة، ولكنه لا يهدي إلا مَنْ سَبَقَتْ له السعادة بحكم القسمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الدنيا حلوة خضرة، ولكنها في التحقيق مُرَّةٌ مَذْرَةٌ^(١)، فبشرها يؤهم أنها صفو ولكن من وراء صفوها حسو^(٢) ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنَنْتُمْ عَنْ عَهْدِكُمْ وَعَدَّائِكُمْ فَهُمْ لَنِفٍ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾.

الدنيا سموم حنظلها تتلو طموم غسلها، وتلف ما يحصل من شربها يغلب لطف ما يظهر من أربها، وليس من أكرم بوجدان نعيم عقباه كمن مَنِيَ بالوقوع في جحيم دنياه.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل. . وإلا فمن أين لهم الجواب فضلاً عن الصواب! والذي يسألهم هو الذي على ما شاء جعلهم؛ فما وَرَدَ فَعَلَ إلا على فعله، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أضله. وإذ تَبَرَّأ بعضهم من بعض بَيَّنَّ أنه لم يكن للأصنام استحقاق العبودية ولا لأحد من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداث ذرة أو منه شظية. . كلاً بل هو الواحد القهار^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(١) مذرت البيضاء: إذا غرقلت، فهي مذرة: فسدت، ومذرت نفسه ومعدته: خبثت وفسدت. (اللسان ١٦٤/٥ مادة: مذر).

(٢) يقال: يوم كحسو الطير: أي قصير، والعرب تقول: نمت نومة كحسو الطير إذا نام نوماً قليلاً. (اللسان ١٧٦/١٤ مادة: حسا).

(٣) الآيتان: (٦٣، ٦٤) لم تردا.

يسألهم سؤال هيبه؛ فلا يَنْقَى لهم تمييز، ولا قوة عقل، ولا مكنة جواب، قال جل ذكره:

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

إذ استولت عليهم الخيرة، واستمكن منهم الدهش؛ فلا تُطَق ولا عقل ولا تمييز ولا فهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَعِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِسِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يختار ما يشاء ومن يشاء من جملة ما يخلق. ومن ليس إليه شيء من الخلق. . .
فما له والاختيار؟!

الاختيار للحق استحقاق عز يوجب أن يكون ذلك له، لأنه لو لم يُنْقَذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العز، فمن بقي عن مراده لا يكون إلا ذليلاً؛ فالاختيار للحق نعمت عز، والاختيار للخلق صفة نقص ونعت بلاء وقصور؛ فاختيار العبد غير مبارك عليه لأنه صفة هو غير مستحق لها، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح في نفسه، قال قائلهم:

ومعال إذا ادعاهها سواه لزمته جنائية السراق

والطينة إذا ادعت ما هو صفة الحق أظهرت رعونتها، فما للإنسان والاختيار؟! وما للمملوك والملك؟! وما للعبيد والتصدر في دس^(١) الملوكة؟!

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

ولم لا وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟ فالعلم - الذي لا يغزب عنه معلوم - نعمت من لم يزل، والإبداع من العدم إلى الوجود ينفرد بالقدرة عليه لم يزل.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: توحد بعز هيبته، وتفرّد بجلال ربوبيته، لا شبيه يساويه، ولا نظير يضاهيه. ﴿لَهُ الْحَمْدُ﴾ استحقاقاً على عطيته، وله الشكر استيجاباً على نعمته؛ ففي الدنيا المحمود لله، وفي العقبى المشكور لله؛ فالإحسان من الله لأن السلطان

(١) الدست: دست الوزارة: منصبها.

لِلَّهِ، وَالنِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ لِلَّهِ، وَالنَّصْرَةُ مِنَ اللَّهِ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ.
 قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾.

إن دامت ليالي الفترة فَمَنْ الذي يأتي بنهار التوبة غيرُ الله؟
 وإن دامت ليالي الطَّلَبِ فَمَنْ الذي يأتي بصُبحِ الوجودِ غيرُ الله؟
 وإن دامت ليالي القبضِ فمن الذي يأتي بصبح البسطِ غيرُ الله؟
 وإن دام ليل الفراقِ فمن الذي يأتي بصبح الوصالِ غيرُ الله؟
 قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصُرُونَ﴾.

إن دام في الوصلة نهاركم فأَيُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم؟
 وإن دام نهارُ معاشكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ.
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّتِلَّ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال؛ فالظروف من الزمان متجانسة، وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها؛ فليالي أهل الوصال ساداتُ الليالي، أهل الفراق أسوأُ الليالي؛ فأهل القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامهم، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم في ليالهم ونهارهم، يقول قائلهم:
 والليالي إذا نأيتِ طوَالً وأراها إذا دَنَوْتُ قِصَّار
 وقال آخر:

والليلُ أطولُ وقتٍ حينَ أفقدها والليلُ أقصرُ وقتٍ حينَ ألقاها
 وقال ثالث:

يطسولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه وحولُ نلتقي فيه - قصيرُ
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَتَزْعُمَانِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.
 كلا.. لا حُجَّةَ لهم، ولا جوابَ يعذرهم، ولا شفيعَ يرحمهم، ولا ناصرَ يُعينهم.

اشتهرت ضلالتهم، واتضح للكَافَّة جهالتهم؛ فدامَ عذابُ الأبد، وحقَّ بهم وبالُ السَّرمَد.

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾.

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى، وكان من أعبد بني إسرائيل، وكان قد اعتزل النَّاسَ، وانفرد في صومعته^(١) يتعبَّد، فتصوَّر له إبليسُ في صورة بشر، وأخذ في الظاهر يتعبَّد معه في صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته، فقال له يوماً: لسا في شيء؛ عيوننا على أيدي النَّاسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا، ولا بُدَّ لنا من أخذه، فقال له قارون: وكيف يجب أن نفعله؟

فقال له: أن ندخل في الأسبوع يوماً السوق، ونكتسب، وننفق ذلك القَدْر في الأسبوع، فأجابه إليه. فكانا يحضران السوق في الأسبوع يوماً، ثم قال له: لستُ أنا وأنت في شيء، فقال: وما الذي يجب أن نعمله؟

فقال له: نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا، ويوماً نكتسب ونتصدَّق به، فأجابه إليه. ثم قال له يوماً آخر: لسا في شيء، فقال: وما ذاك؟

قال: إن مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوت يوم، فقال: وما نفعل؟

قال: نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للإدخار، فأجابه إليه. فلمَّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه ودَّعاه، وقال:

إِنِّي مُفَارِقُكَ.. فَدُمَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فصار من أمره وماله ما صار، وحَمَلَهُ حُبُّ الدُّنْيَا عَلَى جَمْعِهَا، وَحَمَلَهُ جَمْعُهَا عَلَى حُبِّهَا، وَحَمَلَهُ حُبُّهَا عَلَى الْبَغْيِ عَلَيْهِمْ، وَصَارَتْ كَثْرَةُ مَالِهِ سَبَبَ هَلَاكِهِ، وَكَمْ وُعِظَ بِتَرْكِ الْفَرَجِ بِوُجُودِ الدُّنْيَا، وَبِتَرْكِ الْإِسْتِمَاعِ بِهَا! وَكَانَ لَا يَأْبَى إِلَّا ضَلَالاً.

ويقال حَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ بدعاء موسى عليه السلام، فقد كان موسى يقول:

يَا أَرْضُ خُذِيهِ.. وبينما كانت الأرض تُخَسِّفُ بِهِ كَانَ يَسْتَعِينُ بِمُوسَى بِحَقِّ الْقَرَابَةِ، وَلَكِنْ مُوسَى كَانَ يَقُولُ: يَا أَرْضُ خُذِيهِ.

وفيما أوحى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: لَقَدْ نَادَاكَ بِحَقِّ الْقَرَابَةِ وَأَنْتَ تَقُولُ: يَا أَرْضُ خُذِيهِ! وَأَنَا أَقُولُ: يَا عَبْدُ، نَادِنِي فَأَنَا أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ.

وفي القصة أنه كان يُخَسِّفُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ بزيادة معلومة، فلمَّا حَبَسَ اللَّهُ يُونُسَ فِي بطن الحوتِ أَمَرَ الحوتُ أَنْ يَطُوفَ بِهِ فِي الْبَحَارِ لثَلَا يَضِيقَ قَلْبُ يُونُسَ، حَتَّى انْتَهَى

(١) الصومعة: متعبد الناسك ومنار الراهب إذا كان محله مرتفعاً كأن يكون على جبل.

إلى قارون، فسأله قارون عن موسى وحاله، فأوحى الله إلى الملك:

لا تَزِدْ فِي حَسَنِهِ لِحَرَمَةٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ابْنِ عَمَةٍ، وَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَبْتِغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. وَغَطَّ مَنْ حُرِّمَ الْقَبُولَ كَمَثَلِ الْبَذْرِ فِي الْأَرْضِ السَّيِّئَةِ؛ وَلِذَا لَمْ يَنْفَعَهُ نُصْحُهُمْ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْقَبُولِ فِي مَسَافٍ.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾: ليس النصيب من الدنيا جمعتها ولا منعها، إنما النصيب منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُغْفَبُ ندماً، ولا يُوجِبُ في الآخرة عقوبة.

ويقال النصيب من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنفس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى ذكره باللسان، وعلى مشاهدته بالسر.

﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾: إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله؛ لأنّ الكافر لا حسنة له. والآية تدل على أن الله على الكافر نِعَمًا دنيوية.

والإحسان الذي أَمَرَ به إنفاق النعمة في وجوه الطاعة والخدمة، ومقابلته بالشكران لا بالكفران.

ويقال الإحسان رؤية الفضل دون تَوْهْم الاستحقاق.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

ما لاحظَ أَحَدٌ نَفْسَهُ إِلَّا هَلَكَ بِإِعْجَابِهِ.

ويقال السُّمُّ القاتل، والذي يطفئ السراج المضيء النظر إلى النفس بعين الإثبات، وتَوْهْمُ أَنَّ مِنْكَ شَيْئًا مِنَ النِّفْيِ أَوْ الْإِثْبَاتِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَبِئْسَ لَنَا مَثَلٌ مَّا أُوتِيتُمْ قُلُّونَ لَكُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

تَمَنَّى مَنْ رَأَاهُ مِنْ كَانَ فِي حُبِّ الدُّنْيَا سِوَاهُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللَّهُ مِثْلَ مَا أَعْطَاهُ.

أَمَّا مَنْ كَانَ صَاحِبًا عَنْ خَمَارِ غَفْلَتِهِ، مُتَقِظًا بِنُورِ بَصِيرَتِهِ فَكَانَ مَوْقِفُهُمْ: -

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

وبعد أن كان ما كان، وخسفنا به وبيداره الأرض قال هؤلاء^(١):

(١) الآية (٨١) لم ترد.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا وَيَكَانَ لَا يَبْلُغُ الْكَافِرُونَ﴾.

مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فلم تَنَجْرِفْ فِي نَهْجِهِ، ولم ننخرط في سِلْكِهِ، وإذا لَوَقَعَ بنا الهلاك.

أَمَّا الْمُتَمَتِّنُونَ مكانه فقد نَدِمُوا، وَأَمَّا الرَّاظُونَ بقسمته - سبحانه - فقد سَلِمُوا؛ سَلِمُوا في العاجل إلى أَنْ تَظْهَرَ سَعَادَتُهُمْ في الآجل.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قيل «العلو في الدنيا» أَنْ تَتَوَهَّمَنَّ أَنْ عَلَى البسيطة أحداً هو شرُّ منك.

و «الفساد» أَنْ تتحرك لحظَّ نَفْسِكَ ونصيبك ولو بِنَفْسٍ أو خطوة.. وهذا للأكابر، فأما للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا كَعْلُوَ فِرْعَوْنَ﴾ وَلَا فَسَادًا كَفَسَادِ قَارُونَ.

ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوًّا، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوًّا.

ويقال ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ للعباد والزهاد، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثواب الحسنة في التضميف، وأمر السيئة بناؤه على التخفيف.

والمؤمن - وإن كان صاحب كباثر - فسيئاته تقصُر في جنب حسناته التي هي إيمانه ومعرفته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَهُ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

﴿لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَهُ﴾: في الظاهر إلى مكة.. وكان يقول كثيراً: «الوطن الوطن»، فَحَقَّقَ اللَّهُ سُؤْلَهُ. وأما في السُّرِّ والإشارة فإنه ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي يَسَّرَ لك قراءة القرآن، والمَعَادُ هو الوصف الذي كانت عليه روحك قبل حلول شَجْكَ من ملادغات الفُرْبِ ومطالعات الحق.

وقيل الذي ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرأذك إلى عين الجمع بالتحقق بالحق والفناء عن الخلق

ويقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لراؤك إلى الفناء عنك بمحققك في وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ .

ما كنت تؤمل محل النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك، ولا ما أظهرنا عليك من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

لا يصدئك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذؤوب والشهود، والإدراك والوجود . لا تتداخلك تهممة التجويز وسؤالات العلماء بما يدعون من أحكام العقول؛ فما يذكرك في شعاع الشمس لا يخكم ببطلانه خفاؤه في نور السراج .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

كل عمل باطل إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كل حي ميت إلا هو، قال تعالى: ﴿إِن أَمَرْتُ هَٰلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]: أي مات؛ فكل شيء معد لجواز الهلاك والعدم، ولا يبقى إلا ﴿وَجْهَهُ﴾: ووجهه صفة من صفاته لا تستقل إلا به فإذا بقي وجهه فمن شرط بقاء وجهه بقاء ذاته؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بوجود، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعرف وجوب وجهه إلا بالخبر والنقل دون العقل؛ فخص الوجه بالذكر لأن في بقاء الوجه بقاء الحق بصفاته .

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم يوجب حُظوة العابدين وَغَدَاً، وسماعه يوجب سلوة الواجدين نقداً اسم مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إِلَى مَثْوِيهِ فِي آجِلِهِ، وَمَنْ سَمِعَهُ حَظِيَ بِقُرْبَتِهِ فِي عَاجِلِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُتَّبَعٌ﴾.

«الألف» إشارة إلى تَفَرُّدِهِ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ بِوَجْهِ الْغِنَى، وَبِاحْتِياجِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ؛ كَالْألفِ تَتَّصِلُ بِهَا كُلُّ الْحُرُوفِ وَلَكِنِهَا لَا تَتَّصِلُ بِحَرْفٍ.

«واللام» تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تعويج ما، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف - فهي منتصبه القامة مثلها، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء ولكن اللام تتصل بغيرها - فلا جَرَمَ لَا يَكُونُ فِي الْحُرُوفِ حَرْفٌ وَاحِدٌ مَتَكُونٌ مِنْ حَرْفَيْنِ إِلَّا اللَّامُ وَالْألفُ وَيُسَمَّى لَامَ أَلْفٍ وَيَكْتُبُ عَلَى شَكْلِ الْاِقْتِنَاعِ مِثْلَ صُورَةِ لَامٍ.

أما «الميم» فالإشارة فيه إلى الحرف «مِنْ»؛ فَمِنْ الرَّبِّ الْخَلْقُ، وَمِنْ الْعَبْدِ خِدْمَةُ الْحَقِّ، وَمِنْ الرَّبِّ الطُّوْلُ وَالْفَضْلُ.

﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ بِمَجْرَدِ الدَّعْوَى فِي الْإِيمَانِ دُونَ الْمَطَالِبَةِ بِالْبَلْوَى، وَهَذَا لَا يَكُونُ، فَكَيْفَ كُلُّ أَحَدٍ يَبْلُوَاهُ، فَمَنْ زَادَ قَدْرُ مَعْنَاهُ زَادَ قَدْرُ بَلْوَاهُ؛ فَعَلَى النَّفُوسِ بَلَاءٌ وَهُوَ الْمَطَالِبَةُ عَلَيْهَا بِإِخْرَاجِهَا عَنْ أَوْطَانِ الْكَسَلِ وَتَصْرِيفِهَا فِي أَحْسَنِ الْعَمَلِ. وَعَلَى الْقُلُوبِ بَلَاءٌ وَهُوَ مَطَالِبَتُهَا بِالطَّلَبِ وَالْفِكْرِ الصَّادِقِ بِتَطْلُعِ الْبِرْهَانِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّحَقُّقِ بِالْعِلْمِ. وَعَلَى الْأَرْوَاحِ بَلَاءٌ وَهُوَ التَّجَرُّدُ عَنْ مَحَبَّةِ كُلِّ أَحَدٍ وَالتَّفَرُّدُ عَنْ كُلِّ سَبَبٍ، وَالتَّبَاعُدُ عَنْ كُلِّ الْمَسَاكِنَةِ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَعَلَى الْأَسْرَارِ بَلَاءٌ وَهُوَ الْاِعْتِكَافُ بِمُشَاهَدَةِ الْكُشْفِ بِالصَّبْرِ عَلَى آثَارِ التَّجَلِّيِ إِلَى أَنْ تَصِيرَ مُسْتَهْلَكَةً فِيهِ.

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات. وأشدُّ الفتن حفظُ وجود التوحيد لئلا يجري عليك مَكْرٌ فِي أَوْقَاتِ غَلَبَاتِ شَاهِدِ الْحَقِّ فَيُظَنُّ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مِنَ الْحَقِّ، وَأَنَّهُ لَا يَقَالُ إِنَّهُ الْحَقُّ - وَعَزِيزٌ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

لم يُخْلِهِمْ من البلاء والمِحْنِ لِيُظْهِرَ صَبْرَهُمْ في البلاء أو ضده من الضَجَرِ، وشكرهم في الرخاء أو ضده من الكفر والبَطَرِ. وهم في البلاء ضروب: فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء، ويشكر في حال النعماء... وهذه صفة الصادقين. ومنهم مَنْ يضحُّ ولا يصبر في البلاء، ولا يشكر في النعماء... فهو من الكاذبين. ومنهم مَنْ يؤثر في حال الرخاء ألا يستمتع بالعطاء، ويستروح إلى البلاء؛ فَيَسْتَعْذِبُ مَقَاسَاةَ الضَّرِّ والعناء... وهذا أَجْلُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

يرتكبون المخالفات ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة... ساء حُكْمُهُمْ! فمتى ينجو من العذاب مَنْ ألقى جلابِبَ التَّقَى؟! ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ، ولا محاسبة ولا مطالبة.

ويقال اغتروا بامهالنا اليوم، وتوهموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا، وظنوا أنهم قد أمِنوا.

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئات أن جرى التقدير لهم بالسعادة، وأن ذلك يؤخر حُكْمَنَا... كلا، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قِسْمَتُنَا له بالسعادة، وهيهات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة!

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ وَهُوَ السَّكِينُ عَلَيْكَ﴾.

مَنْ خاف عَذَابَهُ يوم الحساب فَسَيَلْقَى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ مِنَّا لأهل الخوف اليوم. وَمَنْ أَمَّلَ الثَّوَابَ يومَ البعْثِ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل. وَمَنْ رَجَى عُمرَهُ في رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النَّظَرَ إلينا، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة.

﴿وَهُوَ السَّكِينُ﴾ لأنين المشتاقين، ﴿السَّكِينُ﴾ بحنين المحبين الوالهيـن.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

مَنْ أَحْسَنَ فَنجاة نفسه طلبها، وسعادة حالة حَصَلَهَا. ومن أساء فعقوبة بنفسه جَلَبَهَا، وشقاوة جَدَّه اكتسبها.

ويقال ثواب المطيعين إليهم مصروف، وعذاب العاصين عليهم موقوف... والحق عزيز لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يَمَسُّهُ من الشَّقَاقِ شَيْن.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ضمنوا بما لم يفوا به، وأخلفوا فيما وعدوا فما حملوا من خطاياهم عنهم شيئاً، بل زادوا على حَمَلِ نفوسهم؛ فاحتقبا وزراً ما عملوا، وطولبوا بوزر ما به أمروا، فضاعفَ عليهم العقوبة، ولم يصل أحدٌ من جهتهم إلى راحة، وما مواعيدهم للمسلمين إلا مواعيد عرقوب^(١) أخاه يثرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ أَثْقَالَهُمْ وَأَتَقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لَكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدعاوى والمشبهون بأهل الحقائق:

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَ الْامْتِحَانُ مَا يَدَّعِيهِ
وقال تعالى: ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]..
وهيهات هيهات!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنجَيْنَاهُ...﴾ الآية.

ما زادهم طولُ مقامه فيهم إلا شكاً في أمره، وجهلاً بحاله، ومُزِيَةً في صدقه، ولم يزد نوح - عليه السلام - لهم إلا نُضْحاً، وفي الله إلا صبراً. ولقد عرفه الله أنه لن يؤمنَ منهم إلا الشُرْذِمَةُ^(٢) اليسيرة الذين كانوا قد آمنوا، وأمره باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحداً، وَصَدَّقَ وَغَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ.. فلا تبديلَ لِسُنَّتِهِ في نصره دينه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَاهُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

كَرَّرَ ذِكْرَ إبراهيم في هذا الموضع، وكيف أقام على قومه الحُجَّةَ، وأرشدهم إلى

(١) عرقوب: اسم رجل من العمالقة؛ قيل: هو عرقوب بن معبد، كان أكذب أهل زمانه، ضربت به العرب المثل في الخُلف، فقالوا: مواعيد عرقوب، وذلك أنه أتاه أخ له يسأله شيئاً فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة، فلنكحها، فلما أطلعت أنه للعدو، فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهواً، فلما أبسرت قال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرأ، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذبها، ولم يُعط أخاه منها شيئاً، فصارت مثلاً في إخلاف الوعد. (لسان العرب ٥٩٥/١ مادة: عرقب).

(٢) الشُرْذِمَةُ: من الناس: الجماعة القليلة.

سَوَاءَ الْمُحْجَةِ، وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى مَا جَحَدُوا، وَتَعَصَّبُوا لِمَا مِنَ الْأَصْنَامِ عِبْدُوا، وَكَادُوا لِإِبْرَاهِيمَ كَيْدًا. . . وَلَكِنْ انْقَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ مَكْرًا بِهِمْ وَاسْتِدْرَاجًا. وَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ نُصْحُهُ، وَلَا وَجَدَ مِنْهُمْ مَسَاعَاً وَغَظَّهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لا يُذَرَى أَيُّهُمَا أَقْبَحُ. . . هل أعمالكم في عبادة هذه الجُمادات أم أقوالكم - فيما تزعمون كذباً - عن هذه الجُمادات؟ وهي لا تملك لكم نفعاً ولا تدفع عنكم ضرراً، ولا تملك لكم خيراً ولا شراً، ولا تقدر أن تصيحكم بهذا أو ذاك.

وبَيَّنَّ أَنَّهُمْ فِي هَذَا لَمْ يَكُونُوا خَالِينَ عَنْ مَلاحِظَةِ الْحُظُوظِ وَطَلَبِ الْأَرْزَاقِ^(١) فقال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ لتصلوا إلى خير الدارين.

وابتغاء الرزق من الله إدامة الصلاة؛ فإن الصلاة استفتاح باب الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

ويقال ابتغاء الرزق بشهود موضع الفاقة فعند ذلك تتوجه الرغبة إلى الله تعالى في استجلاب الرزق.

وفي الآية تقديم الرزق على الأمر بالعبادة؛ لأنه لا يُمكنه القيام بالعبادة إلا بعد كفاية الأمر؛ فبالقوة يمكنه أداء العبادة، وبالرزق يجد القوة، قالوا:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه فمكروه ما يلقي يكون جزاؤه ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: حيث كفاكم أمر الرزق حتى تفرغتم لعبادته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

وبال تكذيب عائد على المكذب، وليس على الرسول - بعد تبليغه الرسالة بحيث لا يكون فيه تقصير كي يكون مُبَيَّنًا - شيء آخر. وإلا يكون قد خرج عن عهدة الإلزام.

وفيما حلّ بالمكذّبين من العقوبة ما ينبغي أن يكون عبرة لمن بعدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن العبودية برسالته ص ١٩٧، ٢٠١.

الذي دَاخَلَهُمْ فِيهِ الشُّكُّ كان بعث الخَلْق، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من إعادة فصول السَّنَةِ بعد تقضيها على الوجه الذي كان في العام الماضي. وَيَبَيِّنُ أَنْ جَمَعَ أَجْزَاءَ المَكْلُوفِينَ بعد انقضاء البنية لإعادة فصول السنة؛ فكما أن ذلك سائغ في قدرته غير مُسْتَنَكَّرٍ فكذلك بعث الخَلْق.

وكما في فصول السنة تتكرر أحوال العِبَادَةِ في الأحوال العامة المشتركة بين الكافة، وفي خواص أحوال المؤمنين من استيلاء شهوات النفوس، ثم زوالها، إلى موالاة الطاعات، ثم حصول الفترة، والعود إلى مثل الحالة الأولى، ثم بعد ذلك الانتباه بالتوبة.. كذلك تتكرر عليهم الأحوال.

وأرباب القلوب تتعاقب أحوالهم في القبض والبسط ثم في الهيبة والأنس، ثم في التجلي والستر، ثم في البقاء والفناء، ثم في السكر والصحو.. وأمثال هذا كثير. وفي هذا المعنى قوله:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي معنى تكرير الأحوال ما أنشدوا:

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فإليه الماء يوماً سيعود
قوله جل ذكره: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾.

أجناس ما يعذب به عباده وأنواع ما يرحم به عباده.. لا نهاية لها ولا حصر؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْخِذْلَانِ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ. يعذب من يشاء بالجحود والعنود، ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود. يعذب من يشاء بالجرسيع ويعذب من يشاء بالقناعة. يعذب من يشاء بتفرقة الهمم ويرحم من يشاء بجمع الهمة. يعذب من يشاء بإلقائه في ظلمة التدبير، ويرحم من يشاء بإشهاد جريان التقدير. يعذب من يشاء بالاختيار من نفسه، ويرحم من يشاء برضاه بحكم ربه. يعذب من يشاء بإعراضه عنه، ويرحم من يشاء بإقباله عليه. يعذب من يشاء بأن يكلفه نفسه، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحسن توليه. يعذب من يشاء بحب الدنيا ويمنعها عنه ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبسطها عليه. يعذب من يشاء بأن يشبهه في أوطان العادة، ويرحم من يشاء بأن يقيمه بأداء العباد.. وأمثال هذا كثير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

تُقْلَبُ الجَمَلَةُ في القبض، وتُجْرَى عليهم أحكام التقدير: جحدوا أم وُحِدُوا، أقبلوا أم أعرضوا.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تعجلت عقوبتهم بأن يسوا من رحمته... ولا عقوبة أشد من هذا.
قوله جل ذكره: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

لما عجزوا عن جوابه ولم يساعدهم التوفيق بالإجابة أخذوا في معارضته بالتهديد والوعيد، والسفاهة والتوبيخ، والله تعالى صرف عنه كيدهم، وكفاه مكرهم، وأفلج عليهم حُجَّتَهُ^(١)، وأظهر نلكافة عجزهم، وأخبر عما يلحقهم في مآلهم من استحقاق اللُغْنِ والطرد، وفنون الهوان والخزي^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَقَامَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لا تَصِيحُ الهجرة إلى الله إلا بالتبري - بالكمال - بالقلب عن غير الله. والهجرة بالنفس سيرة بالإضافة إلى الهجرة بالقلب - وهي هجرة الخواص؛ وهي الخروج عن أوطان التفرقة إلى ساحات الجمع. والجمع بين التعرّيج في أوطان التفرقة والكون في مشاهد الجمع مُتَنَافٍ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لما لم يُجِبْ قومه، وبذل لهم النصح، ولم يدخر عنهم شيئاً من الشفقة - حَقَّقَ اللَّهُ مراده في نَسْلِهِ، فوهب له أولاده، وبارك فيهم، وجعل في ذريته الكتاب، والنبوّة، واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أعمالهم للقبول، وأحوالهم للإقبال عليها، ونفوسهم للقيام بعبادته، وأسرارهم لمشاهدته، وقلوبهم لمعرفة. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ للدنو والزلفة والتخصيص بالقرية.

(١) أفلج الله حجة: أظهرها وأثبتها. (٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(٣) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الجمع والفرق: كان الأستاذ الدقاق يقول: الفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأفعال، فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله من طاعته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة، ومن أشهد الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد بشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. (الرسالة القشيرية ص ٦٤، ٦٥).

قوله جل ذكره: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

لامَهُمْ على خصلتهم الشنعاء، وما كانوا يتعاطونه على الله من الاجترار، وما يُضَيِّعُونَهُ من المعروف ويأتون من المنكر الذي جعلته تخليته الفساق مع فسقهم، وترك القبض على أيديهم، وقلة الاحتشام من اطلاع الناس على قبائح أعمالهم. ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر، ومنها التسويف في التوبة، ومنها التفاخر بالزلة.

فما كان جوابهم إلا استعجال العقوبة، فحل بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك من شاركهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

التبس على إبراهيم أمرهم فظنهم أضيافاً؛ فتكلف لهم تقديم العجل الحنيد^(٢) جرياً على سُنَّتِهِ في إكرام الضيف. فلما أخبروه مقصودهم من إهلاك قوم لوط تكلم من باب لوط... إلى أن قالوا: إِنَّا مُنْجُوهُ. وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط - وإن كان بريئاً - لم يكن ظلماً؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيم عليه السلام - مع وفرة علمه - يشكك عليه حتى كان يجادل عنه. بل الله أن يعذب من يعذب، ويعافي من يعافي^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا ثَكَلًا كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾.

لما أن رآهم لوط ضاق بهم قلبه لأنه لم يعلم أنهم ملائكة، فخاف عليهم من فساد قومه: فكان ضيق قلبه لأجل الله - سبحانه، فأخبروه بأنهم ملائكة، وأن قومه لن يصلوا إليهم، فعند ذلك سكن قلبه، وزال ضيق صدره.

ويقال أقرب ما يكون العبد في البلاء من الفرج إذا اشتد عليه البلاء؛ فعند ذلك يكون زوال البلاء، لأنه يصير مضطراً، واللَّهُ سبحانه وَعَدَ المضطرين وشيك الإجابة. كذلك كان لوط في تلك الليلة، فقد ضاق بهم ذرعاً ثم لم يلبث أن وجد الخلاص من ضيقه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهَا آيَةً يَكُنْ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾.

(١) الآيتان (٢٩، ٣٠) لم تردا.

(٢) العجل الحنيد: المشوي، وقيل: هو الذي يقطر مازه وقد شوي. (اللسان ٣/ ٤٨٤: حذ).

(٣) الآية (٣٢) لم ترد.

فَمَنْ أَرَادَ الْإِعْتِبَارَ فَلَهُ فِي قِصَّتِهَا عِبْرَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالِإِذْ مَدَيْنُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾ الآيات.

ذَكَرَ قِصَّةَ شُعَيْبٍ وَقِصَّةَ عَادٍ وَثَمُودَ وَقِصَّةَ فِرْعَوْنَ، وَقِصَّةَ قَارُونَ... وَكُلَّهُمْ نَسَجَ بَعْضُهُمْ عَلَى مِثْوَالِ بَعْضٍ، وَسَلَكَ مَسْلَكَهُمْ، وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّصِيحَ، وَلَمْ يُبَالُوا بِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ، إِمَّضَاءً لِسُنَّتِهِ فِي نَصْرَةِ الضَّعِيفِ وَفَهْرِ الظَّالِمِينَ.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِئْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بُعْداً في الخروج منه؛ فهو يبنى ولكن على نفسه يبنى... كذلك الكافر يسعى ولكن على نفسه يجني.

وبيت العنكبوت أكثره في الزوايا من الجدران، كذلك الكافر أمره على التَّقِيَّةِ والكتمان، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَظَاهِرُ الْمَعَامِلَةِ، لَا سِتْرَ وَلَا يُدْخِمُ^(١).

وبيت العنكبوت أوهن البيوت لأنه بلا أساس ولا جدران ولا سقف ولا يمسك على أَذْوَنَ دَفْعٍ... كذلك الكافر؛ لَا أَصْلَ لِسَانِهِ، وَلَا أَساسَ لَبْنِيَانِهِ، يرى شيئاً ولكن بالتَّخِيلِ، فَأَمَّا فِي التَّحْقِيقِ... فَلَا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

الكل يشتركون في سماع الأمثال، ولكن لا يصغي إليها مَنْ كَانَ نَقُورَ الْقَلْبِ، كنود الحال، متعوداً الكسل، مُعْرِجاً فِي أَوْطَانِ الْفَسْلِ.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿بِالْحَقِّ﴾: أي بالقول الحق والأمر الحق.

قوله جل ذكره: ﴿أَتَلُمَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ إِنَّكَ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

أي من شأن المؤمن وسبيله أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، أي على معنى ينبغي للمؤمن أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] أي ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فَإِنْ قُدِّرَ أَنْ وَاحِدًا

(١) الدخمس: الخب الذي لا يبين لك معنى ما يريد، وقد دخمس عليه، وأمر مدخمس إذا كان مستوراً. (لسان العرب ٧٨/٦ مادة: دخمس).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

منهم لا يتوكل فلا يخرج به ذلك عن الإيمان - كذلك من لم ينته عن الفحشاء والمنكر فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة.

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءً فالصلاة ناهيةً على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر.

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر. فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها.

ويقال الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النفس.

ويقال الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحفظ.

ويقال الفحشاء الأعمال، والمنكر حسابُ النجاة بها، وقيل ملاحظته الأعراض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها.

ويقال الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العوض عليها.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُخَدَّتٌ^(١).

ويقال ذكر العبد لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى، لأن ذكره لله طاعة، وذكره لغيره لا يكون طاعة.

ويقال وَلَذِكْرُ اللَّهِ لَكَ أَكْبَرُ من ذكرك له.

ويقال ذكره لك بالسعادة أكبر من ذكرك له بالعبادة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن تبقى معه وحشة.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُنْقَى للذاكر معه ذكر مخلوق.

ويقال ذكر الله أبر من أن يُنْقَى للزلة معلوماً أو مرسوماً.

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحد من المخلوقين بغيره.

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُنْقَى معه للفحشاء والمنكر سلطاناً؛ فليُحْرَمَ ذكره زَلَّاتُ الذَّاكِرِ مغفورة، وعيوبه مستورة.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ينبغي أن يكون منك للخصم تبين، وفي خطابك تليين، وفي قبول الحق إنصاف، واعتقاد النصر - لما رآه صحيحاً - بالحجة، وترك الميل إلى الشيء بالهوى.

(١) انظر حديث القشيري عن الذكر بالرسالة ص ٢٢١ - ٢٢٦.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

يعني أنهم على أنواع: فمرحوم نظرنا إليه بالعناية، ومحروم وسمناه بالشقاوة.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ يَمِينَكُمْ إِذَا لَازَمْتُمُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أي تجرد قلبك عن المعلومات، وتقذس سرك عن المرسومات، فصاذفك من غير مازجة طبع ومشاركة كسب وتكلف بشرية، فلما خلا قلبك وسرك عن كل معلوم ومرسوم ورد عليك خطابنا وتفهمنا مقرون بهما ما ليس مئاً.
قوله جل ذكره: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

قلوب الخواص من العلماء بالله خزائن الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبيانات سيره، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق قلوبهم، وكل شيء يطلب من موطنه ومحلّه؛ فالدر يطلب من الصدف لأن ذلك مسكنه، والشمس تطلب من البروج لأنها مطلعها، والشهد يطلب من النحل لأنه عشه. كذلك المعرفة تطلب من قلوب خواصه لأن ذلك قانون معرفته، ومنها (...)^(١).
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

خفيت عليهم حالتك - يا محمد - فطالبوك بإقامة الشواهد، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ﴾ أو لم يكشفهم ما أوضحنا عليك من السبيل، وألخنا لك من الدليل؛ يُثَلَّى عليهم ذلك، ولا يمكنهم معارضته ولا الإتيان بشيء من مثله! هذا هو الجحود وغاية الكنود^(٢)!
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أنا على حق واللّه - سبحانه - يعلمه، وأنتم لستم على حق والله يعلمه.
قوله جل ذكره: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَدَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(١) بياض في الأصل.

(٢) الكنود: الجاحد لنعم ربه.

الآية (٥١) لم ترد.

لولا أنني ضربت لكل شيء أجلاً لعجلت لهم ذلك، وليأتيتهم العذاب - حين يأتيهم - بغتة وفجأة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَنْشَأُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقات العذاب فلا صريح لهم، كذلك - اليوم - من أحاط به العذاب؛ من فوقه اللعن ومن تحته الحسف، ومن حوله الخزي، ويلبس لباس الخذلان، ويوسم بكى الحرمان، ويسقى شراب القنوط، ويتوَّج بتاج الخيبة، ويُقَيَّدُ بقيد السُّخْط، ويُغْلَى بغلِّ العداوة، فهم يستحبون في جهنم الفراق حُكماً، إلى أن يُلْقَوْا في جحيم الاحتراق عينا.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُون﴾.

الدنيا أوسع رقعة من أن يضيق بمريد مكان، فإذا نَبَا به منزل - لوجه من الوجوه - إما لمعلوم حصل، أو لقبول من الناس، أو جاء، أو لعلاقة أو لقريب أو ليلاء ضد، أو لوجه من الوجوه الضارة... فسيبيله أن يرتحل عن ذلك الموضع ويتقل إلى غيره، كما قالوا:

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيّاً أن أرى غيرَ مُضْبِحٍ حيثُ أُمْسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقته مكان انتقل إلى غيره من الأماكن^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

إذا كان الأمر كذلك فالراحة معطوفة على تهوين الأمور؛ فسبيل المؤمن أن يوطن نفسه على الخروج مستعداً له، ثم إذا لم يحصل الأجل فلا يستعجل، وإذا حضر فلا يستقل، ويكون بحكم الوقت، كما قالوا:

لو قال لي مُتْ مِتْ سمعاً وطاعةً وقلتُ لداعي الموت: أهلاً ومرحباً

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَافًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

هم - اليوم - في غُرفٍ معارفهم على أسيرةٍ وضيئهم، مُتَوَجِّون بتيجان سيادتهم، يُسَقُّون كاساتِ الوجد، وَيَجْبُرُونَ في جنانِ القُرب، وعداً كما قال: -

(١) الآية (٥٤) لم ترد.

(٢) القشيري يجيز السفر للعارف، ولا يجيزه للمريد. يقول: ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته، وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر في غير وقته. (الرسالة القشيرية ص ٣٨٣).

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفكرة.
الصبرُ العكوفُ في أوطان الوفاء، الصبرُ حبسُ النفسِ على فطامها.
الصبرُ تجرُّعُ كاساتِ التقدير من غير تعيس.
الصبرُ صفةٌ توجب معيَّةَ الحقِّ.. وأغزى بها!
وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكليف، ثم صبرٌ بسهولة، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة،
ثم تحقُّقُ بوصف الرضا؛ فيصير العبدُ فيه محمولاً بعد أن كان مُتَحَمِّلاً.
والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار، والتوكلُ سكونُ السرِّ إلى الله، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة
التوكل؛ فلا تتبرَّم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك. التوكلُ إعراضُ القلب عن غير الربِّ.
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي لا تدخره، فمن لم يدخر رزقه في كيسه أو خزائنه فالله
يرزقه من غير مقاساة تعبٍ منه.

ويقال: ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ المقصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم،
وليس لها بيت تجمع فيه القوت، وليس لها خازن ولا وكيل.. الله يرزقها وإياكم.
ويقال إرادةُ الله في أن يستبقيك ولا يقبض رُوحَكَ أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تعثُّيك
لأجلِ بقائك.. فلا ينبغي أن يكونَ اهتمامُكَ بسببِ عَيْشِكَ أتمُّ وأكبرُ من تدبيرِ صانعك
لأجلِ بقائك.
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَرَجَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

إذا سئِلوا عن الخالق أقرّوا بالله، وإذا سئِلوا عن الرازق لم يستقروا مع الله..
هذه مناقضةٌ ظاهرة!

قوله جلَّ ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.
الرزق على قسمين: رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب، ورزق السرائر ومنه
الاستقلال بالمعاني بحيث لا يحصره تكلف الكلام، والناسُ فيهم مرزوقٌ ومُرَقَّةٌ عليه،
وفيهم مرزوقٌ ولكن مُضَيِّقٌ عليه.
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

كما علِموا أن حياة الأرض بعد موتها بالمطر من قبَل الله فليعلموا أن حياة
النفوس بعد موتها - عند النَّشْرِ والبعث - بقدرة الله. وكما علِموا ذلك فليعلموا أن
حياة الأوقات بعد نفرتها، وحياة القلوب بعد فترتها... بماء الرحمة بالله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِمْ أَحْيَاؤُنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

الدنيا الأحلام - وعند الخروج منها انتباه من النوم. والآخرة هنالك العيش بكماله، والتخلص - من الوحشة - بتمامه ودوامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَاُ اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الإخلاصُ تفرُّغ القلب عن الكلّ، والثقة بأن الإخلاص ليس إلا به - سبحانه، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً في المحمودات ولا في المذمومات، فعند ذلك يعبدونه مخلصين له الدين. وإذا توالى عليهم الضرورات، وانقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين فإذا كشف الضر عنهم عادوا إلى الغفلة، ونسوا ما كانوا فيه من الحال كما قيل:

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسِه^(١)

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْهَی النَّاسَ مِنْ حَوَالِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

منّ عليهم بدفع المحن عنهم وكون الحرم آمناً. وذكرهم عظيم إحسانه عليهم، ثم إعراضهم عن شكر ذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

أي لا أحد أشدّ ظلماً ممن افترى على الله الكذب، وعدّل عن الصدق، وآثر البهتان ولم يتصرف بالتحقق، أولئك هم السقاط في الدنيا والآخرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الذين رزقوا ظواهرهم بالمجاهدات حسنت سرائرهم بالمجاهدات. الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف. الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات.

ويقال الجهاد فيه: أولاً بترك المحرمات، ثم بترك الشبهات، ثم بترك الفضلات، ثم بقطع العلاقات، والتنفّي من الشواغل في جميع الأوقات.

ويقال بحفظ الحواس لله، وبعد الأنفاس مع الله.

تم الجزء الثاني، يليه الجزء الثالث

وأوله: سورة الروم

فهرس المحتويات

٢٧	تفسير الآيات : ٨٢ - ٨٨
٢٨	تفسير الآيات : ٨٩ - ٩٢
٢٩	تفسير الآيات : ٩٣ - ٩٨
٣٠	تفسير الآيات : ٩٩ - ١٠٣
٣١	تفسير الآيات : ١٠٤ - ١٠٧
٣٢	تفسير الآيتين : ١٠٨ و ١٠٩

سورة هود

٣٣	تفسير الآيات : ١ - ٣
٣٥	تفسير الآيات : ٤ - ٦
٣٦	تفسير الآية : ٧
٣٧	تفسير الآيتين : ٨ و ٩
٣٨	تفسير الآيات : ١٠ - ١٣
٣٩	تفسير الآيات : ١٤ - ١٧
٤٠	تفسير الآيات : ١٨ - ٢٤
٤١	تفسير الآيات : ٢٥ - ٢٧
٤٢	تفسير الآيات : ٢٨ - ٣٢
٤٣	تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٧
٤٤	تفسير الآيات : ٣٨ - ٤٠
٤٥	تفسير الآيات : ٤١ - ٤٣
٤٦	تفسير الآيات : ٤٤ - ٤٨
٤٧	تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٣
٤٨	تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٩
٤٩	تفسير الآيات : ٦٠ - ٧٠
٥١	تفسير الآيات : ٧١ - ٧٤

سورة يونس

٣	تفسير الآيتين : ١ و ٢
٤	تفسير الآيتين : ٣ و ٤
٥	تفسير الآيتين : ٥ و ٦
٦	تفسير الآيات : ٧ - ٩
٧	تفسير الآيات : ١٠ - ١٢
٨	تفسير الآيات : ١٣ - ١٦
٩	تفسير الآيات : ١٧ - ٢٠
١٠	تفسير الآيات : ٢١ - ٢٣
١١	تفسير الآية : ٢٤
١٢	تفسير الآية : ٢٥
١٣	تفسير الآية : ٢٦
١٤	تفسير الآيات : ٢٧ - ٣١
١٥	تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٥
١٧	تفسير الآيات : ٣٩ - ٤٣
١٨	تفسير الآيات : ٤٤ - ٤٩
١٩	تفسير الآيات : ٥٠ - ٥٤
٢٠	تفسير الآيات : ٥٥ - ٥٨
٢١	تفسير الآيات : ٥٩ - ٦١
٢٢	تفسير الآية : ٦٢
٢٣	تفسير الآيات : ٦٣ - ٦٥
٢٤	تفسير الآيات : ٦٦ - ٦٨
٢٥	تفسير الآيات : ٦٩ - ٧٥
٢٦	تفسير الآيات : ٧٦ - ٨١

٨١	تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٢	٥٢	تفسير الآيات: ٨٠ - ٧٥
٨٢	تفسير الآيات: ٦٢ - ٥٧	٥٣	تفسير الآيات: ٨٣ - ٨١
٨٣	تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٣	٥٤	تفسير الآيات: ٨٨ - ٨٤
٨٤	تفسير الآيات: ٦٩ - ٦٦	٥٥	تفسير الآية: ٨٩
٨٥	تفسير الآيات: ٧٧ - ٧٠	٥٦	تفسير الآيات: ٩٥ - ٩٠
٨٦	تفسير الآيات: ٨٠ - ٧٨	٥٧	تفسير الآيات: ٩٦ - ١٠٠
٨٧	تفسير الآيات: ٨٤ - ٨١	٥٨	تفسير الآيات: ١٠٥ - ١٠١
٨٨	تفسير الآيتين: ٨٥ و ٨٦	٥٩	تفسير الآيات: ١٠٩ - ١٠٥
٨٩	تفسير الآيتين: ٨٧ و ٨٨	٦٠	تفسير الآيات: ١١٢ - ١١٠
٩٠	تفسير الآيتين: ٨٩ و ٩٠	٦١	تفسير الآيات: ١١٥ - ١١٣
٩١	تفسير الآيات: ٩١ - ٩٣	٦٢	تفسير الآيات: ١١٦ - ١٢٠
٩٢	تفسير الآية: ٩٤	٦٣	تفسير الآيات: ١٢١ - ١٢٣
٩٣	تفسير الآيات: ٩٥ - ٩٨		
٩٤	تفسير الآيتين: ٩٩ و ١٠٠		
٩٥	تفسير الآية: ١٠١		
٩٦	تفسير الآيات: ١٠٢ - ١٠٦		
٩٧	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١٠٩		
٩٨	تفسير الآيتين: ١١٠ و ١١١		

سورة يوسف

٦٤	تفسير الآية: ١
٦٥	تفسير الآيتين: ٢ و ٣
٦٦	تفسير الآيتين: ٤ و ٥
٦٧	تفسير الآيتين: ٦ و ٧
٦٨	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٦٩	تفسير الآيات: ١١ - ١٣
٧٠	تفسير الآيات: ١٥ - ١٨
٧١	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠
٧٢	تفسير الآية: ٢١
٧٤	تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٤
٧٤	تفسير الآية: ٢٥
٧٥	تفسير الآيات: ٢٦ - ٢٩
٧٦	تفسير الآيات: ٣٠ - ٣٢
٧٧	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦
٧٨	تفسير الآيات: ٣٧ - ٤٢
٧٩	تفسير الآيات: ٤٣ - ٤٧
٨٠	تفسير الآيتين: ٥٠ و ٥١

سورة الرعد

٩٩	تفسير الآيتين: ١ و ٢
١٠٠	تفسير الآيات: ٣ - ٥
١٠١	تفسير الآية: ١١
١٠٢	تفسير الآية: ١٢
١٠٣	تفسير الآيات: ١٣ - ١٥
١٠٤	تفسير الآية: ١٦
١٠٥	تفسير الآية: ١٧
١٠٦	تفسير الآيات: ١٨ - ٢٢
١٠٧	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
١٠٨	تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨
١١٠	تفسير الآيتين: ٣٢ و ٣٣

تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٦	١٣٩
تفسير الآيات : ٤٧ - ٤٩	١٤٠
تفسير الآيات : ٥٠ - ٦٠	١٤١
تفسير الآيات : ٦٥ - ٧٧	١٤٢
تفسير الآيات : ٧٨ - ٨٥	١٤٣
تفسير الآيات : ٨٦ - ٨٨	١٤٤
تفسير الآية : ٨٩	١٤٥
تفسير الآيات : ٩٠ - ٩٦	١٤٦
تفسير الآيات : ٩٧ - ٩٩	١٤٧

سورة النحل

تفسير الآيتين : ١ و ٢	١٤٨
تفسير الآيات : ٣ - ٧	١٤٩
تفسير الآيات : ٨ - ١٢	١٥٠
تفسير الآيات : ١٢ - ١٥	١٥١
تفسير الآيات : ١٦ - ٢١	١٥٢
تفسير الآيات : ٢٢ - ٢٦	١٥٣
تفسير الآيات : ٢٧ - ٣٠	١٥٤
تفسير الآيتين : ٣١ و ٣٢	١٥٥
تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٧	١٥٦
تفسير الآيات : ٣٨ - ٤١	١٥٧
تفسير الآيات : ٤٢ - ٤٨	١٥٨
تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٣	١٥٩
تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٩	١٦٠
تفسير الآيات : ٦٠ - ٦٤	١٦١
تفسير الآيات : ٦٥ - ٦٩	١٦٢
تفسير الآية : ٧٠	١٦٣
تفسير الآيات : ٧١ - ٧٤	١٦٤
تفسير الآيات : ٧٥ - ٧٨	١٦٥
تفسير الآيات : ٧٩ - ٨٣	١٦٦
تفسير الآيات : ٨٤ - ٨٩	١٦٧

تفسير الآيات : ٣٣ - ٣٨	١١١
تفسير الآية : ٣٩	١١٢
تفسير الآيتين : ٤٠ و ٤١	١١٣
تفسير الآيتين : ٤٢ و ٤٣	١١٤

سورة إبراهيم

تفسير الآيات : ١ - ٣	١١٥
تفسير الآيات : ٤ - ٦	١١٦
تفسير الآيتين : ٧ و ٨	١١٧
تفسير الآيات : ٩ - ١١	١١٨
تفسير الآيات : ١٢ - ١٥	١١٩
تفسير الآيات : ١٦ - ١٩	١٢٠
تفسير الآيات : ٢١ - ٢٦	١٢١
تفسير الآيتين : ٢٧ و ٢٨	١٢٣
تفسير الآيات : ٢٩ - ٣١	١٢٤
تفسير الآيتين : ٣٢ و ٣٣	١٢٥
تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٦	١٢٦
تفسير الآية : ٣٧	١٢٧
تفسير الآيات : ٣٨ - ٤١	١٢٨
تفسير الآيات : ٤٢ - ٤٤	١٢٩
تفسير الآيات : ٤٥ - ٤٨	١٣٠
تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٢	١٣١

سورة الحجر

تفسير الآيتين : ١ و ٢	١٣٢
تفسير الآيات : ٣ - ١٣	١٣٣
تفسير الآيات : ١٤ - ١٩	١٣٤
تفسير الآيات : ٢٠ - ٢٢	١٣٥
تفسير الآيتين : ٢٣ و ٢٤	١٣٦
تفسير الآيات : ٢٥ - ٣٥	١٣٧
تفسير الآيات : ٣٦ - ٤٢	١٣٨

تفسير الآيتين: ٦٦ و ٦٧	١٩٥	تفسير الآيتين: ٩٠ و ٩١	١٦٨
تفسير الآيات: ٦٨ - ٧٠	١٩٦	تفسير الآية: ٩٢	١٦٩
تفسير الآيات: ٧١ - ٧٥	١٩٨	تفسير الآيات: ٩٣ - ٩٥	١٧٠
تفسير الآيات: ٧٦ - ٧٩	١٩٩	تفسير الآيتين: ٩٦ و ٩٧	١٧١
تفسير الآيات: ٨٠ - ٨٣	٢٠٠	تفسير الآيات: ٩٨ - ١٠٢	١٧٢
تفسير الآيتين: ٨٤ و ٨٥	٢٠١	تفسير الآيات: ١٠٣ - ١٠٦	١٧٣
تفسير الآيات: ٨٦ - ٩٣	٢٠٢	تفسير الآيات: ١٠٧ - ١١١	١٧٤
تفسير الآيات: ٩٤ - ٩٩	٢٠٣	تفسير الآيات: ١١٢ - ١١٥	١٧٥
تفسير الآيات: ١٠٠ - ١٠٨	٢٠٤	تفسير الآيات: ١١٦ - ١٢٠	١٧٦
تفسير الآيتين: ١٠٩ و ١١٠	١٠٥	تفسير الآيات: ١٢١ - ١٢٥	١٧٧
تفسير الآية: ١١١	٢٠٦	تفسير الآيات: ١٢٦ - ١٢٨	١٧٨

سورة الكهف

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٢٠٧
تفسير الآيات: ٣ - ٧	٢٠٨
تفسير الآيتين: ٩ و ١٠	٢٠٩
تفسير الآيات: ١٠ - ١٤	٢١٠
تفسير الآيتين: ١٥ و ١٦	٢١١
تفسير الآيتين: ١٧ و ١٨	٢١٢
تفسير الآية: ١٩	٢١٤
تفسير الآيتين: ٢٠ و ٢١	٢١٥
تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٤	٢١٦
تفسير الآيات: ٢٥ - ٢٨	٢١٧
تفسير الآية: ٢٩	٢١٨
تفسير الآيتين: ٣٠ و ٣١	٢١٩
تفسير الآيات: ٣٢ - ٤٣	٢٢٠
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٢٢١
تفسير الآيتين: ٤٧ و ٤٨	٢٢٢
تفسير الآية: ٤٩	٢٢٣
تفسير الآيتين: ٥٠ و ٥١	٢٢٤
تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٦	٢٢٥

سورة الإسراء

(سورة بني إسرائيل)

تفسير الآية: ١	١٧٩
تفسير الآيات: ٢ - ٤	١٨٠
تفسير الآيات: ٥ - ٨	١٨١
تفسير الآيتين: ٩ و ١١	١٨٢
تفسير الآيات: ١٢ - ١٥	١٨٣
تفسير الآيات: ١٦ - ١٩	١٨٤
تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٢	١٨٥
تفسير الآيات: ٢٣ - ٢٦	١٨٦
تفسير الآيات: ٢٧ - ٣٣	١٨٧
تفسير الآيات: ٣٤ - ٣٦	١٨٨
تفسير الآية: ٣٧	١٨٩
تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٥	١٩٠
تفسير الآيات: ٤٦ - ٥٢	١٩١
تفسير الآيات: ٥٣ - ٥٦	١٩٢
تفسير الآيات: ٥٧ - ٥٩	١٩٣
تفسير الآيات: ٦٠ - ٦٥	١٩٤

٢٥٣	تفسير الآيات : ٣ - ٧
٢٥٤	تفسير الآيات : ٨ - ١٠
٢٥٥	تفسير الآيات : ١١ - ١٤
٢٥٦	تفسير الآيات : ١٥ - ١٩
٢٥٧	تفسير الآيتين : ٢٠ و ٢١
٢٥٨	تفسير الآيات : ٢٢ - ٢٨
٢٥٩	تفسير الآيات : ٢٩ - ٣٩
٢٦١	تفسير الآية : ٤٠
٢٦٢	تفسير الآيات : ٤١ - ٤٤
٢٦٣	تفسير الآيتين : ٤٥ و ٤٦
٢٦٤	تفسير الآيات : ٤٧ - ٥٠
٢٦٥	تفسير الآيات : ٥١ - ٥٨
٢٦٦	تفسير الآيات : ٥٩ - ٧١
٢٦٧	تفسير الآيات : ٧٢ - ٧٩
٢٦٨	تفسير الآيات : ٨٠ - ٨٢
٢٦٩	تفسير الآيتين : ٨٣ و ٨٤
٢٧٠	تفسير الآيات : ٨٥ - ٨٧
٢٧١	تفسير الآيات : ٨٨ - ٩١
٢٧٢	تفسير الآيات : ٩٢ - ٩٩
٢٧٣	تفسير الآيات : ٩٧ - ١٠٠
٢٧٤	تفسير الآيات : ١٠١ - ١٠٩
٢٧٥	تفسير الآيات : ١١٠ - ١١٣
٢٧٦	تفسير الآية : ١١٤
٢٢٧	تفسير الآية : ١١٥
٢٧٨	تفسير الآيات : ١١٦ - ١١٩
٢٧٩	تفسير الآيتين : ١٢٠ و ١٢١
٢٨٠	تفسير الآيتين : ١٢٢ و ١٢٣
٢٨١	تفسير الآيات : ١٢٤ - ١٢٩
٢٨٢	تفسير الآيتين : ١٣٠ و ١٣١
٢٨٣	تفسير الآيتين : ١٣٢ و ١٣٣

٢٢٦	تفسير الآيات : ٥٧ - ٥٩
٢٢٧	تفسير الآيات : ٦٠ - ٦٥
٢٢٨	تفسير الآيات : ٦٦ - ٧٢
٢٢٩	تفسير الآيات : ٧٣ - ٧٧
٢٣٠	تفسير الآيات : ٧٨ - ٨٢
٢٣١	تفسير الآيات : ٩٠ - ١٠١
٢٣٢	تفسير الآيات : ١٠٢ - ١٠٧
٢٣٣	تفسير الآيات : ١٠٨ - ١١٠

سورة مريم

٢٣٤	تفسير الآية : ١
٢٣٥	تفسير الآيات : ٢ - ٧
٢٣٦	تفسير الآيات : ٨ - ١٠
٢٣٧	تفسير الآيات : ١١ - ١٧
٢٣٨	تفسير الآيات : ١٨ - ٢٣
٢٣٩	تفسير الآيات : ٢٤ - ٢٨
٢٤٠	تفسير الآيات : ٢٩ - ٣٣
٢٤١	تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٨
٢٤٢	تفسير الآيات : ٣٩ - ٤٢
٢٤٣	تفسير الآيات : ٤٣ - ٤٩
٢٤٤	تفسير الآيات : ٥٠ - ٥٨
٢٤٥	تفسير الآيات : ٥٩ - ٦٣
٢٤٦	تفسير الآيات : ٦٤ - ٦٨
٢٤٧	تفسير الآيات : ٦٩ - ٧٣
٢٤٨	تفسير الآيات : ٧٤ - ٧٨
٢٤٩	تفسير الآيات : ٧٩ - ٨٦
٢٥٠	تفسير الآيات : ٨٧ - ٩٧
٢٥١	تفسير الآية : ٩٨

سورة طه

٢٥٢	تفسير الآيتين : ١ و ٢
-----	-----------------------

٣١٣	تفسير الآيات : ٩ - ١٤
٣١٤	تفسير الآيات : ١٥ - ١٨
٣١٥	تفسير الآيات : ١٩ و ٢٣ و ٢٤
٣١٦	تفسير الآيتين : ٢٥ و ٢٦
٣١٧	تفسير الآية : ٢٧
٣١٨	تفسير الآيتين : ٢٨ و ٢٩
٣١٩	تفسير الآيتين : ٣٠ و ٣١
٣٢٠	تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٤
٣٢١	تفسير الآية : ٣٥
٣٢٢	تفسير الآيات : ٣٦ - ٣٨
٣٢٣	تفسير الآيتين : ٣٩ و ٤٠
٣٢٤	تفسير الآية : ٤١
٣٢٥	تفسير الآيات : ٤٢ - ٤٦
٣٢٦	تفسير الآيات : ٤٧ - ٥٠
٣٢٧	تفسير الآيات : ٥١ - ٥٦
٣٢٨	تفسير الآيات : ٥٧ - ٦٢
٣٢٩	تفسير الآيات : ٦٣ - ٦٥
٣٣٠	تفسير الآيات : ٦٦ - ٦٩
٣٣١	تفسير الآيات : ٧٠ - ٧٣
٣٣٢	تفسير الآيات : ٧٤ - ٧٧
٣٣٣	تفسير الآية : ٧٨

سورة المؤمنون

٣٣٥	تفسير الآيات : ١ - ٣
٣٣٦	تفسير الآيات : ٤ - ١١
٣٣٧	تفسير الآيات : ١٢ - ١٤
٣٣٨	تفسير الآيتين : ١٥ و ١٦
٣٣٩	تفسير الآيتين : ١٧ و ١٨
٣٤٠	تفسير الآيات : ١٩ و ٢١ و ٢٢
٣٤١	تفسير الآية : ٢٣
٣٤٢	تفسير الآيات : ٢٩ و ٣١ و ٥١

٢٨٤	تفسير الآيتين : ١٣٤ و ١٣٥
-----	---------------------------

سورة الأنبياء

٢٨٥	تفسير الآيات : ١ - ٣
٢٨٦	تفسير الآيات : ٤ - ٧
٢٨٧	تفسير الآيات : ٨ - ١١
٢٨٨	تفسير الآيات : ١٢ - ١٨
٢٨٩	تفسير الآيات : ١٩ - ٢٤
٢٩٠	تفسير الآيات : ٢٥ - ٢٩
٢٩١	تفسير الآيات : ٣٠ - ٣٣
٢٩٢	تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٩
٢٩٣	تفسير الآيات : ٤٠ - ٤٤
٢٩٤	تفسير الآيات : ٤٥ - ٤٨
٢٩٥	تفسير الآيات : ٤٩ - ٥٦
٢٩٦	تفسير الآيات : ٥٩ و ٦٦ و ٦٩
٢٩٧	تفسير الآيات : ٧٠ - ٧٥
٢٩٨	تفسير الآيات : ٧٦ - ٨٠
٢٩٩	تفسير الآيتين : ٨١ و ٨٢
٣٠٠	تفسير الآية : ٨٣
٣٠٣	تفسير الآيات : ٨٤ - ٨٧
٣٠٤	تفسير الآيتين : ٨٨ و ٨٩
٣٠٥	تفسير الآيتين : ٩٠ و ٩١
٣٠٦	تفسير الآيات : ٩٢ - ٩٧
٣٠٧	تفسير الآيات : ٩٨ - ١٠٢
٣٠٨	تفسير الآيات : ١٠٣ - ١٠٧
٣٠٩	تفسير الآيات : ١٠٨ - ١١٢

سورة الحج

٣١٠	تفسير الآيتين : ١ و ٢
٣١١	تفسير الآيات : ٣ - ٥
٣١٢	تفسير الآيتين : ٦ و ٨

تفسير الآيات: ٥٢ - ٥٧	٢٤٣
تفسير الآيات: ٥٨ - ٦٢	٣٤٤
تفسير الآيات: ٦٣ - ٦٥	٣٤٥
تفسير الآيات: ٦٦ - ٧٢	٣٤٦
تفسير الآيات: ٧٣ - ٨٠	٣٤٧
تفسير الآيات: ٨١ - ٨٩	٣٤٨
تفسير الآيات: ٩٠ - ٩٣	٣٤٩
تفسير الآيات: ٩٥ - ٩٨	٣٥٠
تفسير الآيات: ٩٩ - ١٠١	

سورة الفرقان

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٣٧٧
تفسير الآيات: ٣ - ١٠	٣٧٨
تفسير الآيات: ١١ - ١٥	٣٧٩
تفسير الآيات: ١٦ و ١٧ و ٢٠ و ٢١	٣٨٠
تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٤	٣٨١
تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧ و ٢٨	
٣٠ و ٣١	٣٨٢
تفسير الآيات: ٣٢ - ٣٥	٣٨٣
تفسير الآيات: ٣٦ و ٣٧	
٤١ و ٤٣	٣٨٤
تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦	٣٨٥
تفسير الآيتين: ٤٧ و ٤٨	٣٨٦
تفسير الآيات: ٤٩ - ٥٣	٣٨٧
تفسير الآيات: ٥٤ - ٥٨	٣٨٨
تفسير الآيات: ٥٩ - ٦١	٣٩١
تفسير الآيتين: ٦٢ و ٦٣	٣٩٢
تفسير الآيات: ٦٤ - ٦٨	٣٩٣
تفسير الآيات: ٧٠ و ٧٢ و ٧٣	٣٩٤
تفسير الآيات: ٧٤ - ٧٧	٣٩٥

سورة النور

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٣٥٤
تفسير الآية: ٣	٣٥٥
تفسير الآيات: ٤ - ٦	٣٥٦
تفسير الآيتين: ١٠ و ١١	٣٥٧
تفسير الآيتين: ١٢ و ١٤	٣٥٨
تفسير الآيات: ١٥ - ١٧	٣٥٩
تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢	٣٦٠
تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤	٣٦١
تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦	٣٦٢
تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨	٣٦٣
تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠	٣٦٤
تفسير الآية: ٣١	٣٦٥
تفسير الآيتين: ٣٢ و ٣٣	٣٦٦
تفسير الآيتين: ٣٤ و ٣٥	٣٦٧
تفسير الآيتين: ٣٦ و ٣٧	٣٦٩
تفسير الآيتين: ٣٨ و ٣٩	٣٧٠
تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٤	٣٧١

سورة الشعراء

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٣٩٦
تفسير الآيات: ٣ - ١١	٣٩٧
تفسير الآيات: ١٢ - ٢١	٣٩٨

٤٢٣	تفسير الآيات: ٦٢	٣٩٩	تفسير الآيات: ٢٢ - ٢٩
٤٢٤	تفسير الآيتين: ٦٣ و ٦٤	٤٠٠	تفسير الآيات: ٤٢ و ٦١ و ٦٢
	تفسير الآيات: ٦٥ - ٦٨	٤٠١	تفسير الآيات: ٦٩ - ٧٨
٤٢٥	و ٧١ - ٧٣	٤٠٢	تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٣
٤٢٦	تفسير الآيات: ٧٤ - ٨٠		تفسير الآيات: ٨٤ و ٨٦ - ٩١
	تفسير الآيات: ٨١ - ٨٣	٤٠٣	و ٩٧ و ٩٨
٤٢٧	و ٨٥ - ٨٨		تفسير الآيات: ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٤
٤٢٨	تفسير الآيات: ٨٩ - ٩١ و ٩٣	٤٠٤	و ١٠٥ و ١١١

سورة القصص

٤٢٩	تفسير الآيات: ١ - ٦
٤٣٠	تفسير الآيات: ٧ - ١٠
٤٣١	تفسير الآيات: ١١ - ١٥
٤٣٢	تفسير الآيات: ١٦ - ٢٠
٤٣٣	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٣
٤٣٤	تفسير الآيتين: ٢٤ و ٢٥
٤٣٥	تفسير الآيتين: ٢٦ و ٢٧
٤٣٦	تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠
٤٣٧	تفسير الآية: ٣١
٤٣٨	تفسير الآيتين: ٣٢ و ٣٣
٤٣٩	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٣
٤٤٠	تفسير الآيات: ٤٤ - ٤٦
	تفسير الآيات: ٤٧ و ٤٨
٤٤١	و ٥١ - ٥٥
٤٤٢	تفسير الآيات: ٥٦ - ٥٨
٤٤٣	تفسير الآيات: ٥٩ - ٦٢ و ٦٥
٤٤٤	تفسير الآيات: ٦٦ - ٧٠
٤٤٥	تفسير الآيات: ٧١ - ٧٥
٤٤٦	تفسير الآية: ٧٦
٤٤٧	تفسير الآيات: ٧٧ - ٨٠
٤٤٨	تفسير الآيات: ٨٢ - ٨٥

سورة النمل

٤٠٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٤١٠	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٤١١	تفسير الآيات: ٨ - ١١
٤١٢	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥
٤١٣	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨
٤١٤	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠
٤١٥	تفسير الآية: ٢١
٤١٦	تفسير الآيات: ٢٢ و ٢٤ و ٢٧
٤١٧	تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٢
٤١٨	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥
٤١٩	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤٠
٤٢٠	تفسير الآيات: ٤١ - ٤٤
٤٢١	تفسير الآيات: ٤٥ و ٥٠ - ٥٢
	تفسير الآيات: ٥٤ و ٥٥
٤٢٢	و ٥٩ - ٦١

تفسير الآيات: ٨٦ - ٨٨	٤٤٩	تفسير الآيات: ٢٣ و ٢٤	
تفسير الآيتين: ١ و ٢	٤٥٠	و ٢٦ و ٢٧	٤٥٦
تفسير الآيات: ٣ - ٧	٤٥١	تفسير الآيات: ٣٦ - ٤١	
تفسير الآيات: ٨ - ١١	٤٥٢	و ٤٣ - ٤٥	٤٥٨
تفسير الآيات: ١٢ - ١٦	٤٥٣	تفسير الآية: ٤٦	٤٥٩
تفسير الآيات: ١٧ - ١٩	٤٥٤	تفسير الآيات: ٥٥ - ٥٨	٤٦١
تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٢	٤٥٥	تفسير الآيات: ٥٩ - ٦٣	٤٦٢
		تفسير الآيات: ٦٤ و ٦٥	
		و ٦٧ - ٦٩	٤٦٣

سورة العنكبوت

تفسير القشيري

المستنى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازئ بن عبد الملك

القشيري النسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلقه عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

المجلد الثالث

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة الناز



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsir al-Quşayri

"Laṭā'f al-'iṣārāt"

(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quşayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Rahmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري

المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير قرآن

المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري

المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

Tel : +961 5 804 810/11/12

Fax: +961 5 804813

P.O.Box: 11-9424 Beirut-lebanon

Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرومون ، القبّة

مبنى دار الكتب العلمية

هاتف: ٨١٠/١١/١٢ - ٥ ٨٠٤ ٩٦١ +

فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٩٦١ +

ص.ب: ٩٤٢٤ - بيروت - لبنان

رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)



9 782745 128379

<http://www.al-ilmiyah.com>

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز شفيع المذنبين جوؤه، بلاء المتهمين قصوؤه؛ ضياء الموحدين عهوده. وسلوة المحزونين ذكره، وجرفة الممتحنين شكره.

اسم عزيز رداؤه كبرياؤه، وجبار سناؤه بهاؤه، وبهاؤه علاؤه.

العابدون حسبهم عطاؤه، والواجدون حسبهم بقاؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ مِائَةٍ﴾.

الإشارة في «الألف» إلى أنه أَلِفَ صُخْبَتَنَا مَنْ عَرَفَ عَظَمَتَنَا. وأنه أَلِفَ بِلَاءَنَا مَنْ عَرَفَ كِبَرِيَاءَنَا.

والإشارة في «اللام» إلى أنه لَزِمَ بَابَنَا مَنْ ذَاقَ مُحَابَنَاتَنَا، وَلَزِمَ بِسَاطِنَاتَنَا مَنْ شَهِدَ جَمَالَتَنَا.

والإشارة في «الميم» إلى أنه مُكِّنَ مَنْ قُرْبَانَا مَنْ قَامَ عَلَى خِدْمَتَنَا، وَمَاتَ عَلَى وَفَائِنَا مَنْ تَحَقَّقَ بَوْلَانَتَنَا.

قوله ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾: سُرَّ المسلمون بظفر الروم على العجم - وإن كان الكفر يجمعهم - إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء، فشكر الله لهم، وأنزل فيهم الآية.. فكيف بمن يكون سروره لدين الله، وحزنه واهتمامه لدين الله؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿قَبْلُ﴾ إذا أطلق انتظم الأزل، «وبعد» إذا أطلق دلّ على الأبد؛ فالمعنى الأمر الأزلي لله، والأمر الأبدي لله، لأنّ الرّبّ الأزلي والسيد الأبديّ الله.

الله الأمر يوم العرفان، والله الأمر يوم الغفران.

الله الأمر حين القسمة ولا حين، والله الأمر عند النعمة وليس أي معين.

ويقال: لي الأمر ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وقد علمت ما تفعلون، فلا يمنعني أحد من تحقيق

عرفانكم، ولي الأمر ﴿مَنْ بَعْدِي﴾ وقد رأيتُ ما فعلتم، فلا يمنعني أحدٌ من غفرانكم.
وقيل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ﴾ بتحقيق ودُكم، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم:

إني - على جفواتها - وبربها وبكل مُتصل بها مُتوسل
﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ يُنْصِرُ اللَّهُ﴾:

اليوم إرجاف السرور وإنما يوم اللقاء حقيقة الإرجاف
اليوم ترخّ وغداً فرح، اليوم عبّرة وغداً خبرة، اليوم أسف وغداً لطف، اليوم
بكاء وغداً لقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الكريم لا يخلف وعده لا سيما والصدق نعته.

يقول المؤمنون: منا يوم الميثاق وعدّ بالطاعة، ومنه ذلك اليوم وعدّ بالجنة،
فإن وقع في وعدنا تقصير لا يقع في وعده قصور.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ﴾.

استغراقهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم في تعليق القلب بها... متّعهم عن
العلم بالآخرة. وقيمة كل امرئ علمه بالله؛ ففي الأثر عن عليّ - رضي الله عنه - أنه
قال؛ أهل الدنيا على غفلة من الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في
غفلة عن الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾.

إن من نظّر حقّ النظر، ووضّع النظر موضعه أثمر له العلم واجباً، فإذا استبصر
بنور اليقين أحكام الغائبات، وعلم موعوده الصادق في المستأنف - نجا عن كدّ التردد
والتجوز فسيبيل من صحا عقله ألا يجنح إلى التقصير فيما به كمال سكونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

سَيّر النفوس في أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيّر القلوب بجولان
الفكر في جميع المخلوقات، وغايته الظفر بحقائق العلوم التي ترجب ثلج الصدر - ثم
تلك العلوم على درجات. وسير الأرواح في ميادين الغيب بنعت حرق سرادقات
الملوكوت، وقصاراه الوصول إلى محلّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير

الأشرار بالترقي عن الجذثان بأسرها، والتحقيق أولاً بالصفات، ثم بالخمود بالكلية عما سوى الحق.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا الشُّوْءُ أَنَّ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

مَنْ ذَرَعَ الشُّوكَ لَمْ يَحْصُدْ الْوَرْدَ، وَمَنْ اسْتَنْبَت الْحَشِيشَ لَمْ يَقْطِفِ الثَّمَارَ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْغَيِّ لَمْ يَخْلُلْ بِسَاحَةِ الرُّشْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يبدأ الخلق على ما يشاء، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

شهودهم ما جحدوه في الدنيا عياناً، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعاً هو الذي يفتت أكبادهم، وبه تتم محتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

تغلب العداوة مِنْ بعض على بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾.

فريقٌ منهم أهل الوصلة، وفريق هم أهل الفارقة. فريق للجنة والمئة، وفريق للعذاب والمحنة. فريق في السعير، وفريق في السرور. فريق في الثواب، وفريق في العذاب. فريق في الفراق، وفريق في التلاقي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحٍ يُخْبَرُونَ﴾.

فهم في رياض وغياض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

فهم في بوارٍ وهلاك.

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُسْوَرُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

مَنْ كَانَ صَبَاحُهُ اللَّهُ بِوَرِّكَ لَهُ فِي يَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مَسَاوُهُ بِاللَّهِ بِوَرِّكَ لَهُ فِي لَيْلِهِ:

وَأَنْ صَبَّاحاً نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ صَبَّاحٌ عَلَى قَلْبِ الْغَرِيبِ حَبِيبٌ

شَتَّانَ بَيْنَ عَبْدٍ صَبَّاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِعِبَادَتِهِ وَمَسَاوُهُ مُخْتَتَمٌ بِطَاعَتِهِ، وَبَيْنَ عَبْدٍ صَبَّاحُهُ مَفْتَتِحٌ بِمَشَاهِدَتِهِ وَرَوَاحَةٌ مَفْتَتِحٌ بِعَزِيزِ قَرْبَتِهِ!

سكان السماء . وإن اختصاص كل شيء منها بحكم - شاهد عدل ، ودليل صدق على أنها تناجي أفكار المتقطين ، وتنادي على أنفسها . . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .

غلبه النوم بغير اختيار صاحبه ثم انتباهه من غير اكتساب له بوسعه يدل على موته وبخيه بعد ذلك وقت نشوره . ثم في حال منامه يرى ما يسره وما يضره ، وعلى أوصاف كثيرة أمره . . كذلك الميت في قبره . الله أعلم كيف حاله في أمره ، وما يلقاه من خيره وشره ، ونفعه وضره ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

يلقي في القلوب من الرجاء والتوقع في الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فمن عبد يحصل مقصوده ، ومن آخر لا يتفق مراده .

والأحوال اللطيفة كالبرق ، وقالوا : إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار^(١) ، فاللوائح في أوائل العلوم ، واللوامع من حيث الفهوم ، والطوالع من حيث المعارف ، والشوارق من حيث التوحيد .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتَ تَخْرُجُونَ﴾ .

يُفني هذه الأدوار ، ويُغيّر هذه الأطوار ، ويبدّل أحوالاً غير هذه الأحوال ؛ إماتة ثم إحياء ، وإعادة وقبلها إبداء وقبر ثم نشر ، ومعاتب في القبر ثم محاسبة بعد النشر .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّكُمْ قَنُوتٌ﴾ .

له ذلك ملكاً ، ومنه تلك الأشياء بدءاً ، وبه إيجاداً ، وإليه رجوعاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ أي في ظنكم وتقديركم .

وفي الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز .

(١) متّع نهاره : كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل ، حتى ينعدم الليل :

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ : له الصفة العليا في الوجود بحق القِدَم، وفي الجود بنعت الكَرَم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النصرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلُّق، وفي الحكم بوجوب التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العز والجلال، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَن تَر فِيهِ سَوَاءٌ تَعَاوَنَهُمْ كَيْفَ يَكْفِيكُمْ أَنفُسُكُم مَّكَذِبًا كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي إذا كان لكم مماليك لا تَرْضُون بالمساواة بينكم وبينهم، وأنتم متشاكلون بكل وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم - فَمَا تقولون في الذي لم يَزَلْ، ولا يزال كما لم يزل؟

هل يجوز أن يُقَدَّر في وصفه أن يُسَاوِيَهُ عبيده؟ وهل يجوز أن يكون مملوكه شريكه؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

قوله جل ذكره: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾.

أشدُّ الظلم متابعة الهوى، لأنه قريب من الشُّرْك، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [البجائية: ٢٣]. فَمَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ خالف رضا مولاه؛ فهو بوضعه الشيء غير موضعه صار ظالماً، كما أن العاصي بوضعه المعصية موضع الطاعة ظالم... كذلك هذا بمتابعة هواه بدلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متمادياً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أخْلِصْ قُضْدَكَ إِلَى الله، واحفظ عهدك مع الله، وأفرِّد عملك في سكاتك وحركاتك وجميع تصرفاتك لله.

﴿حَنِيفًا﴾ : أي مستقيماً في دينه، مائلاً إليه، مُغْرِضاً عن غيره، والزَّم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي أثبتهم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْبٌ، ولا شِرْكٌ ولا كُفْرٌ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان. فاعرف بهذه الجملة، ثم افعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ، واحذر مَا نُهِيتَ عَنْهُ.

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي اعْرِفْ واغْلَمْ أن فطرة الله التي فطر الناس عليها: تَجَرُّدُهُمْ عَنْ أَفْعَالِهِمْ، ثم اتصافهم بما يكسبون - وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله.

وعلى هذا تكون ﴿فَطَرَتْ﴾ الله منصوبة بإضمار اَعْلَمَ - كما قلنا .

سبحانه فَطَرَ كُلَّ أَحَدٍ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي السَّعَادَةِ أَوِ الشَّقَاوَةِ، وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ، وَلَا تَحْوِيلَ لِمَا عَلَيْهِ فَطَرَهُ. فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ سَعِيداً أَرَادَ سَعَادَتَهُ وَأَخْبَرَ عَنْ سَعَادَتِهِ، وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ سَعِيداً. وَمَنْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَقِيئاً وَأَخْبَرَ عَنْ شَقَاوَتِهِ وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ شَقِيئاً. . وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ، هَذَا هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ وَالْحَقُّ الصَّحِيحُ.

قوله جل ذكره: ﴿مُتَّبِعِينَ لِيَئِيهِ وَالَّتِيقَةُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

أي راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفاته، منحرفين بكل وجه عن خلافه، مُتَّبِعِينَ صَغِيرِ الْإِثْمِ وَكَبِيرِهِ، قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، مُؤَثِّرِينَ يَسِيرَ وَفَاقِهِ وَعَسِيرِهِ، مُقِيمِينَ الصَّلَاةَ بَارِكَانَهَا وَسُنَنَهَا وَأَدَابَهَا جَهراً، مُتَحَقِّقِينَ بِمِرَاعَاةِ فُضَائِلِهَا سِراً.

قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ .

أقاموا في دنياهم في خمار الغفلة، وعناد الجهل والفترة؛ فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتمولوا من كيس غيرهم، وظنوا أنهم على شيء. فإذا انكشف ضباب وقتهم، وانقشع سحاب جحدهم. . انقلب فرحهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرفوا إلا في أوطان الجهالة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ .

إذا أظلمتهم المحنة ونالتهم الفتنة؛ وَمَسَّتْهُمْ الْبَلِيَّةُ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِأَجْمَعِهِمْ مُسْتَعِينِينَ، وبلطفه مستجيرين، وعن محتتهم مستكشفين.

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ لا كلهم - بل فريق منهم بربهم يشركون؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران، ويقابلون إحسانه بالنسيان، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء، ولا في مودتهم صفاء.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

أي عن قريب سيحدث بهم مثلما أصابهم، ثم إنهم يعودون إلى التضرع، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخشع، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُرُونَهُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

بين أنهم بنوا على غير أصل طريقهم، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم، وعلى غير شرع من الله أو حجة أو بيان أسسوا مذاهبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَتِ آلِهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

تستميلهم طوارق أحوالهم؛ فإن كانت نعمة فالى فرح، وإن كانت شدة فالى قنوط وترح... وليس وصف الأكابر كذلك؛ قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة فيها إلى أن العبد لا يعلّق قلبه إلا بالله؛ لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله، فالبسط الذي يسرهم ويونسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصوله، فالواجب لزوم عقوبة^(١) الأسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَاتِذَا الْفُرْقَانُ حَقُّهُ وَالْمُسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

القربة على قسمين: قربة النسب وقربة الدين، وقربة الدين أمس، وبالمواساة أحق وإذا كان الرجل مشغلاً بالعبادة، غير متفرغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمان بحاله، وإشراف على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم، مما يكون له عون على الطاعة وفراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقه أكذ، وتفقهه أوجب.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾: المريد هو الذي يؤثّر حق الله على حظ نفسه؛ فإيثار المريد وجه الله أتم من مراعاته حال نفسه، فهيمته في الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نظره لنفسه وعياله وما يهمه من خاصته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِن رَّبٍّ لِّبَرٍّ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيءُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَا مِن دَكْوَرٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾.

إتياء الزكاة بأن تريد بها وجه الله، وألا تستخدم الفقير لما تبرز به من رافقه، بل

(١) العقوبة: الساحة، وما حول الدار والمحلة. (اللسان ٧٩/١٥ مادة: عقا).

أفضل الصدقة على ذي رَحِم كاشح^(١) حتى يكون إعطاؤه للهِ مجرداً عن كل نصيبٍ لَكَ فيه، فهؤلاء هم الذين يضاعِفُ أجْرهم: قَهْرهم لأنفسهم حيث يخالفونها، وفوزهم بالعِوضِ مِنْ قِبَلِ الله.

ثم الزكاة هي التطهير، وتطهيرُ المالِ معلومٌ ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة، وأصناف المال وأوصافه.

وزكاة البدنِ وزكاة القلبِ وزكاة السرِّ.. كل ذلك يجب القيام به.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْذُكُمْ ثُمَّ يُخِيْطُكُمْ هَٰذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف يقتضي التراخي؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خَلْقِهِ إياك أن يرزقك؛ كنت في ضعف أحوالك ابتداءً ما خَلَقَكَ، فأثبتك وأحياك من غير حاجة لك إلى رزق؛ فإلى أن خرجت من بطن أمك: إمَّا أن كان يُغْنِيكَ عن الرزق وأنت جنينٌ في بطن الأم ولم يكن لك أكلٌ ولا شربٌ، وإمَّا أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق - إن حَقَّ ما قالوا: إن الجنينَ يتَغَذَّى بدم الطمث^(٢). وإذا أخرجك من بطن أمك رَزَقَكَ على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فَيَسَّرَ لك أسبابَ الأكل والشرب من لبنِ الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات، وأرزاق للسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره.

﴿ثُمَّ يُعِيْذُكُمْ﴾ بسقوط شهواتكم، ويميتكم عن شواهدكم.

﴿ثُمَّ يُخِيْطُكُمْ﴾ بحياة قلوبكم ثم يحييكم بربكم.

ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق.

ويقال: لا مُكْتَنَ لك في تبديل خَلْقِكَ، وكذلك لا قدرةَ لَكَ على تَعَسُّرِ رزقك، فالْمُوسِعُ عليه رزقه - بِفَضْلِهِ سبحانه.. لا بمناقبِ نَفْسِهِ، والمُقْتَرُّ عليه رزقه بِحُكْمِهِ سبحانه.. لا بمعاييبِ نَفْسِهِ.

﴿هَٰذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلْ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ هل من شركائكم الذين أثبتوهم أي من الأصنام أو توهمتوهم من جملة الأنام.. مَنْ يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزيهاً له وتقديساً.

(١) الكاشح: العدو المغض. (اللسان ٥٧٢/٢ مادة: كشح).

(٢) الطمث: دم الحيض.

قوله جل ذكره: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الإشارة من البرّ إلى النفس، ومن البحر إلى القلب.

وفساد البرّ بأكل الحرام وارتكاب المحظورات، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشرّ والفسق. . وغير ذلك. وعقْد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب، كما أنّ العزم على الخيرات قبل فعلها من أعظم الخيرات.

ومن جملة الفساد التأويلات بغير حق، والانحطاط إلى الرخص في غير قيام بجِد، والإغراق في الدعاوى من غير استحياء من الله تعالى.

﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب، وعدم التأسف على ما فاته من الحق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾.

﴿سِيرُوا﴾ بالاعتبار، واطلبوا الحق بنعت الأفكار.

﴿فَانظُرُوا﴾ كيف كانت حال من تقدّمكم من الأشكال والأمثال، وقيسوا عليها حكمكم في جميع الأحوال. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ كانوا أكثرهم عدداً، ولكن كانوا في التحقيق أقلهم وزناً وقُدراً.

قوله جل ذكره: ﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِن قَبْلُ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾.

أخلص قُضْدَكَ وصدق عَزْمِكَ للدين القيم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. فمن لم يتأدّب بمن هو إمام وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خسرانه أتم من ربحه، ونقصانه أعم من نفعه^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُوكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلِتُكْمِلُوا شُكْرَكُمْ﴾.

يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف وغشاء اليأس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بساط الجُهد، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض، وينشر

(١) الآيتان (٤٤، ٤٥) لم تردا.

فيها إرادة الوصال . ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدوام الوصال . . فذلك ارتياح به ولكن بعد اجتياح عنك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا، فَمَنْ قَابَلْنَاهُمْ بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق، وَمَنْ عَارَضْنَاهُمْ بالجحود أذقناهم عذاب الخلود، فانتقمنا من الذين أجمعوا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوشتنا عليهم ما أملوا، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا .

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوطنتهم بأعقاب أعدائهم، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم، وخزبنا أوطان أعدائهم، وهدمنا بنيانهم، وأخذنا نيرانهم، وعطلنا عنهم ديارهم، ومحونا بقهر التدمير آثارهم، فظلت شمسهم كاسفة، ومكيدة قهرنا لهم بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَكْرِي الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

يرسل رياح عطفه وجوده مبشرات بوضله وجوده، ثم يُنْطِرُ جود غيبه على أسرارهم بلطفه، ويطوي بساط الحشمة عن ساحات قربه، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أزهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قُذْبِهِ، ويسقيهم بيده شراب حبه، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحابهم - لا بهم - ولكن بنفسه، فالعبارات عن ذلك خُزْنٌ، والإشارات دونها طُمُسٌ .

قوله جل ذكره: ﴿فَانظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَلَمَاتٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يحيي الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخْرِجَ زرعها وثمارها، ويحيي النفوس بعد نفرتها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطان الرفاق بصادق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، ويحيي القلوب بعد غفلتها بأنوار المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهل العسر من أصحاب الإرادات، ويحيي الأرواح بعد حجبها - بأنوار المشاهدات، فتطلع شمسوها عن بُرْج السعادة، ويتصل بمشام أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظي منه بنصيب، ويُخَيِّ الأسرار - وقد تكون لها وَفَقَةٌ في بعض الحالات - فتنتفي بالكلية آثار الغيرية، ولا يَبْقَى في الدار ديار

ولا من سكانها آثار؛ فسَطَوَاتُ الحقائق لا تثبت لها دَرَّةٌ من صفات الخلائق، هنالك الولاية لله.. سقط الماء والقطرة، وطاحت الرسوم والجملة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

إذا انسَدَّتْ البصيرةُ عن الإدراك دام العمى على عموم الأوقات.. كذلك مَنْ حَقَّتْ عليهم الشقاوةُ جَرَّتْهُ إِلَى نفسها - وَإِنْ تَبَوَّأَ الْجَنَّةَ مِنْزَلًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

مَنْ فَقَدَ الحَيَاةَ الأصلية لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم، وإذا كان في السريرة طَرَشٌ عن سماع الحقيقة فَسَمِعَ الظاهر لا يفيدُه آكُذُ الحُجَّةِ. وكما لا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدعاء فكذلك لا يمكنه أن يهدي العُنى عن ضلالتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

أظهرهم على ضعف الصغر والطفولية ثم بعده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم:

آخر الأمر ما ترى القبر واللحد والشرى

كذلك في ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية في نعت التردد والحيرة في الطلب، ثم بعد قوة الوصل في ضعف التوحيد.

ويقال أولاً ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله، ثم قوة البيان في حال العرفان، لأنه بسطوة الوجود ثم بعده ضعف الخمود، لأنه الخمود يتلو الوجود ولا يبقى معه أثر.

ويقال ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾: أي حال ضعف من حيث الحاجة ثم بعده قوة الوجود ثم بعده ضعف المسكنة، قال ﷺ: «أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنني في زمرة المساكين»^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

إنما كان ذلك لأحد أمرين: إمّا لأنهم كانوا أمواتاً.. والميت لا إحساس له، أو لأنهم عَدَوْا ما لقوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يَرَوْنَ ذلك اليوم يسيراً. وإن أهل التحقيق يخبرونهم عن طول لُبْثِهِمْ تحت الأرض. وإن ذلك الذي يقولونه من جملة ما

(١) أخرجه الترمذي (زهد ٣٧)، وابن ماجه (زهد ٧).

كانوا يظهرون من جَخدمهم على موجب جهلهم، ثم لا يُسَمَعُ عُذْرُهُمْ، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهُمْ.

وأخبر بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم في غيِّهم، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم.

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأُصِرِّرَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ سمعها أقرَّ أنه لا يسمع مثلها، وَمَنْ عَرَفَهَا أُنْفَ أَنْ يسمع غيرها. كلمة مَنْ سمعها طابت قصته، وزالت بكل وجه غصته، وثمَّت من النعم في الدنيا والعقبى حصته، وزهد في دنياه من غير رغبة في عقابه؛ لأنها - وإن جلت - غير مولاه.

كلمة مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فناءه، ولم يتحشم سرعة وفائه.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

الألف تشير إلى آله، واللام تشير إلى لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبالآله يرفع الجحد عن قلوب أوليائه، وبلفظه وعطائه يثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه مستغني عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

﴿تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: المحروس عن التغير والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

هو هدى وبيان، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله، والمقيمين عبادة الله كأنهم ينظرون إلى الله. وشَرَطُ الْمُحْسِنِ أَنْ يكون محسناً إلى عباد الله: دانيهم وقاصيهم، ومطيعيهم وعاصيهم.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة، واستقبال القبلة، والعلم بدخول الوقت، والوقوف في مكان طاهر. وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السر عن العلائق، وستر عورة الباطن بتنقيته عن العيوب، لأنها مهما تكن فالله يراها؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى الله عيوبك فاحذرْها حتى لا تكون. والوقوف في مكان طاهر، وهو وقوف القلب على الحد الذي أُذِنَتْ في الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق، وَرَجِمَ الله مَنْ وقف عند حده. والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التدلُّل والاستكانة. وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط، وتستقبل القبلة بنفسك، وتعلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطر أو مكان.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحق آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا في الدنيا والعقبى فسلّموا ونَجّوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: ما يشغل عن ذكر الله، ويخجّب عن الله سماعه. ويقال: هو لغو الظاهر الموجب سهو الضمائر، وهو ما يكون خوضاً في الباطل، وأخذاً بما لا يعينك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

المُفْتَرِقُ بِهِمْ، والمُتَشَتُّ بقلبه لا تزيده كثرة الوعظ إلا نفوراً وتُبوّاً؛ فسماعه كلاً سماع، ووعظه هباءً وضياع، كما قيل:

إذا أنا عاتبْتُ المملوّ فإنما أخطُ بأقلامي على الماءِ أحرفاً

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ أَلْعَمَ خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿ءَامَنُوا﴾: صَدَّقُوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: تَحَقَّقُوا؛ فاتصاف بتحقيقهم راجع إلى تصديقهم، فَتَجَّوْا وَسَلِّمُوا؛ فهم في راحتهم مقيمون، دائمون لا يَبْرَحُونَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَنَ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أمسك السموات بقدرته بغير عماد، وحفظها لا إلى سناد أو مشدودة إلى أوتاد، بل بحُكم الله وبتقديره، ومشيئته وتدبيره.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي﴾... في الظاهر الجبال، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقيم، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصيهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾... المطر من سماء الظاهر في رياض الخُضرة؛ ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوّ والخُضرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا خَلَقُ الله العزيز في كبريائه، فأروني ماذا خَلَقَ الذين عبدتم من دونه في أرضه وسمائه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿الْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في العقل والعقد والنطق. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث همة النفس. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ألا تكون تحت سلطان الهوى. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الكون بحكم من له الحكم. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ معرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجلك خارجاً عن كسائك. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ألا تستعصي على مَنْ تعلم أنك لا تقاومه.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾: حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الربّ. فهو مقلوب قولهم: كَثُرَتْ عن أنيابها الداية؛ فيقال شكر وكشر مثل جذب وجذب.

ويقال الشكرُ تحققك بعجزك عن شكره. ويقال الشكر ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة. ويقال الشكر فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب بالسرور؛ فينطلق بمدح المشكور. ويقال الشكر نعت كل غني كما أن الكفران وصف كل لئيم. ويقال الشكر قرع باب الزيادة. ويقال الشكر قيد الإنعام. ويقال الشكر قصة يملئها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]: لأنه في صلاحها ونصيبتها يسعى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الشرك على ضربين: جلي وخفي؛ فالجلي عبادة الأصنام، والخفي حسابان شيء من الحدثان من الأنام. ويقال الشرك إثبات غير مع شهود الغيب. ويقال الشرك ظلم على القلب، والمعاصي ظلم على النفس، وظلم النفوس معرض للغفران، ولكن ظلم القلوب لا سبيل إليه للغفران.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْعَصِيرِ﴾.

أوجب الله شكر نفسه وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالشثناء عليهما علم أن شكر الحق لا يكفي فيه مجرّد القول ما لم تكن فيه موافقه العقل؛ وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة دون صرفها في الرئّة؛ فشكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإنفاق والتوفير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَجْهَدَكَ عَلَيْهِ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

إن جاهدك على أن تشرك بالله، أو تسعى بما هو زلة في أمر الله - فلا تطعهما، ولكن عاشرهما بالجميل؛ تخشين في تليين، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرج، وانفرد بسرك الله، ﴿وَأَتَّبِعْ مَسِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: وهو المنيب إليه حقاً من غير أن تبقى بقية في النفس.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَىٰ إِلَيْهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمة فلا محالة تصل إلى المقسوم له بغير مرية.. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: عالم بدقائق الأمور وخفاياها.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَىٰ أَقِيرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك، ومن لا حُكْمَ له عَلَىٰ نَفْسِهِ لا ينفذ حكمه على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمر به هو ما يُوَصَّلُ العبد إلى الله، والمنكر الذي يجب النهي عنه هو ما يشغل العبد عن الله.

﴿وَأَصِيرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ تنبيه على أن من قام لله بحق امتحن في الله؛ فسبيله أن يصبر لله - فإن من صبر لله لا يخسر على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾.

يعني لا تتكبر على الناس، وطالغهم من حيث النسبة والتحقيق بأنك بمشهد من مولاك. ومن علم أن مولاة ينظر إليه لا يتكبر ولا يتناول بل يتخاضع ويتضاءل.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ النَّمِيرِ﴾.

كُنْ فانيأ عن شواهدك، مُضْطَلَمًا^(١) عن صَوْتِكَ، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتك، مُتَشَبِّهاً^(٢) مما استولى عليك من كشوفات سرك.

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) انتشق الماء في أنفه واستنشقه: صبه فيه. (اللسان ١٠/٣٥٣).

وانظر مَنْ الذي يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك؛ ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ النَّعِيرِ﴾: في الإشارة هو الذي يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق. وقالوا: إنه الصوفي يتكلم قبل أوانه.

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

أثبت في كل شيء منها نفعاً لكم، فالسماوات لتكون لكم سقفاً، والأرض لتكون لكم فراشاً، والشمس لتكون لكم سراجاً، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب، والنجوم لتتهدوا بها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: الإسباغ ما يفضل عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة.

قوله: ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: تكلموا فيه فأكثروا. فالظاهرة وجود النعمة، والباطنة شهود المنعم. والظاهرة الدنيوية، والباطنة الدنيئة. والظاهرة حُسن الخلق، والباطنة حُسن الخلق. الظاهرة نفس بلا زلة، والباطنة قلب بلا غفلة. الظاهرة العطاء، والباطنة الرضاء. الظاهرة في الأموال ونمائها، والباطنة في الأحوال وصفاتها. الظاهرة النعمة، والباطنة العصمة. الظاهرة توفيق الطاعات، والباطنة قبولها. الظاهرة تسوية الخلق، والباطنة تصفية الخلق. الظاهرة صحبة الصالحين، والباطنة حفظ حُرْمَتِهِمْ. الظاهرة الزهد في الدنيا، والباطنة الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى. الظاهرة الزهد، والباطنة الوجد. الظاهرة توفيق المجاهدة والباطنة تحقيق المشاهدة. الظاهرة وظائف النفس، والباطنة لطائف القلب. الظاهرة اشتغالك بنفسك عن الخلق، والباطنة اشتغالك بربك عن نفسك. الظاهرة طلبه، الباطنة وجوده^(١). الظاهرة أن تصل إليه، الباطنة أن تبقى معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم، ولم يهتدوا إلى مُحَوّل أحوالهم. فأما من سمّت نفسه، وخلص في الله قُضْدَهُ فقد استمسك بالعروة الوثقى، وسلك المحجّة المثلى: -

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن الوجود بالرسالة ص ٦١ - ٦٤.

وعلى العكس: -

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُهُ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

إلينا إياهم، ومِنَّا عذابهم، وعلينا حسابهم. ولئن سألتهم عن خالقهم لأقروا، ولكن إذا عادوا إلى غيهم نقضوا وأصروا^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

لله ما في السموات والأرض ملكاً، ويُجْزِي فِيهِمْ حُكْمَهُ حَقًّا، وإليه مَرْجِعُهُمْ حَتْمًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أَنَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً، وبمقدار ما يقابله تُنْفَقُ القَراطيسُ^(٢)، ويتكَلَّفُ الكُتَّابُ حَتَّى تَتَكَسَّرَ الأَقْلَامُ، وتُفْنَى البحارُ، وتستوفي القَراطيسُ، وتُفْنَى أَعْمَارُ الكُتَّابِ. . ما نَفِدَتْ معاني ما لنا مَعَكَ من الكلام، والذي نُسَمِّعُك فيما نخاطبك به لأنك معنا أَبَدُ الأبد، والأبدِي من الوصف لا يتناهى.

ويقال إن كان لك معكم كلام كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باقي:

صحائفٌ عندي للعتابِ طَوْنُهَا سَتُنَشِّرُ يَوْمًا والعتابُ يطول

قوله جل ذكره: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ إِلَّا كَفَفٌ وَاجِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سَيَّانٌ؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر، ولا من القليل راحةٌ ويُسْر، إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يقوله بكلمته ولكنه يَكُونُه بقدرته، لا بمزاولة جهد، ولا باستفراغ وسع، ولا بدعاء خاطر، ولا بطُروءٍ غَرَضٍ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾: الكائنُ الموجود، مُحِقُّ الحق، و﴿مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾:

من العَدَمِ ظَهَرَ ومعه جوازُ العَدَمِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

(١) الآيات (٢٤، ٢٥) لم ترد.

(٢) القراطيس: (ج) القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها.

(٣) الآية (٢٩) لم ترد.

في الظاهر سلامتهم في السفينة، وفي الباطن سلامتهم من حدثان الكون، ونجاتهم في سفائن العصمة في بحار القدرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ وقوف لا ينهزم من البلايا، شكور على ما يصيبه من تصاريف التقدير من جنسي البلايا والعطايا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْبَرْقُ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾.

إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة، فإذا جاد الحق بتحقيق مَنامهم عادوا إلى رأس خطاياهم:

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمِنَا أحياءنا: كم تجهلون وتَحْلُم! قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ انْتِقَاؤَ رَبِّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

يخوفهم مرة بأفعاله فيقول: ﴿وَأَنْتَقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، ومرة بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَكُنْ بِأَنَّ اللَّهَ بَرٌّ﴾ [العلق: ١٤] ومرة بذاته فيقول: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. يتفرد بعلم القيامة، ويعلم ما في الأرحام ذكورها وإناتها، شقيها وسعيدها، حسننها وقبيحها ويعلم متى يُنزل الغيث، وكم قطرة يُنزل، وبأي بقعة يُمطرها. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ما تدري نفس ماذا تكسب غداً من خير وشر، ووافق وشقاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت؛ أنتدرك مرادها أم يفوت؟

سورة السجدة

قوله جل ذكره: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّخْصَ الرِّجِيَّةَ﴾.

كلمة سماعها ربيع الجميع، من العاصي والمطيع، والشريف والوضيع. مَنْ أَصغى إليها بسمع الخضوع ترك طَيْبَ الهجوع، وَمَنْ أَصغى إليها بسمع المحاب ترك لذية الطعام والشراب.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتي فلا يصبرون عني، وأَلِفَ العارفون تمجدي فلا يستأنسون بغيري.

والإشارة في اللام إلى لقائي المُدْخِرَ لأحبائي، فلا أبالي أقاموا على ولائي أم قَصُرُوا في وفائي.

والإشارة في الميم: أي تَرَكَ أوليائي مرادهم لمرادي.. فلذلك آثرتهم على جميع عبادي.

﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]: إذا تَعَذَّرَ لقاء الأحباب فاعزَّ شيء على الأحباب كتاب؛ أنزلت على أحبائي كتابي، وَحَمَلْتُ إليهم الرسالة خطابي، ولا عليهم إن قَرَعَ أسماعهم عتابي، فَهُمْ في أمان من عذابي.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّهٖ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنِ شِئِدَر قَوْمًا مَّا أَنَّهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الذي لكم منا حقيقة، وإن التبس على الأعداء فليس يضيركم، ولا عليكم، فإنَّ صحبة الحبيب مع الحبيب ألذُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وتلك الأيام خَلَقَهَا مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه في وقت؛ إذ الوقت مخلوق في غير الوقت وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقت عن الوقت.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر، ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ولكن القديم ليس له حد، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البعد، استوى على العرش ولكنه أشد الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكن العرش جماد. . وأنى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا يد، أَحَدٌ بلا حد.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾: إذا لم يُرَدِّ بكم خيراً فلا سماء عنه تُظِلُّكم، ولا أرض بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحد - إذا لم يُغْنِ بشأنكم في الدنيا والآخرة - ينظر إليكم.
قوله جل ذكره: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

خاطَبَ الْخَلْقَ - على مقدار أفهامهم ويجوز لهم - عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم.

﴿ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.
﴿الْعَزِيزُ﴾ مع المطيعين ﴿الرَّحِيمُ﴾ على العاصين.
﴿الْعَزِيزُ﴾ للمطيعين ليُخَسِّرَ صولتهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصين ليرفع زلَّتْهم.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾:

أَحْسَنَ صورة كل أحد؛ فالعرش ياقوتة حمراء، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وجبريل طاووس الملائكة، والحوور العين - كما في الخبر - «في جمالها وأشكالها، والجنان» - كما في الأخبار ونص القرآن. فإذا انتهى إلى الإنسان قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] . . . كل هذا ولكن:

وكم أبصرت من حُسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري
خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ طِينٍ وَلَكِنْ ﴿يُخَبِّرُهُمْ وَيُحْيِيهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وخلق الإنسان من طين ولكن: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البينة: ٨]، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿رَوَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١) [المائدة: ١١٩]!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ لَأَوَّلَا لَنِي خَلَقَ جَدِيدٌ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

لو كانت لهم ذرّة من العرفان، وشمّة من الاشتياق، ونسمة من المحبة لما تعصّبوا كلّ هذا التعصب في إنكار جواز الرجوع إلى الله ولكن قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَيْكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ ثُمَّ إِلَيَّ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾.

لولا غفلة قلوبهم وإلا لما أحال قبض أرواحهم على ملك الموت؛ فإنّ ملك الموت لا أثر منه في أحد، ولا له تصرفات في نفسه، وما يحصل من التوفي فمن خصائص قدرة الحق. ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ فخاطبهم على مقدار فهمهم، وعلق بالأغيار قلوبهم، وكلّ يخاطب بما يختمل على قدر قوّته وضعفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

ملكّنهم الدهشة وغلبتهم الخجلة، فاعتذروا حين لا عذر، واعترفوا ولا حين اعتراف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

لو شئنا لسهّلنا سبيل الاستدلال، وأدّنا التوفيق لكلّ أحد، ولكن تعلّقت المشيئة بإغواء قوم، كما تعلّقت بإدناء قوم، وأردنا أن يكون للنار قطّان، كما أردنا أن يكون للجنة سكران، ولأنّا علمنا يوم خلقنا الجنة أنه يسكنها قوم، ويوم خلقنا النار أنه ينزلها قوم، فمنّ المحال أن نريد ألا يقع معلومتنا، ولو لم يحصل لم يكن علماً، ولو لم يكن ذلك علماً لم نكن إلهاً. ومن المحال أن نريد ألا نكون إلهاً.

ويقال: من لم يتسلط عليه من يحبه لم يجز في ملكه ما يكرهه.

ويقال: يا مسكين أفنيت عمرك في الكد والعناء، وأمضيت أيامك في الجهد والرجاء، غيرت صفتك، وأكثرت مجاهدتك. فما تفعل في قضائي كيف تبدّله؟ وما تصنع في مشيتي بأيّ وسع تزدها؟ وفي معناه أنشدوا:

شكا إليك ما وجد من خائف فيك الجلد
حيران لو شئت اهتدى ظمآن لو شئت ورّد

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَبِئْتُمْ لِقَاءَ بَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قاسٍ من الهوانِ ما استوجبته بعصيانك، واخُلدُ في دارِ الخِزي لما أسلفته من كفرانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

التصديق والتكذيب ضدان - والضدان لا يجتمعان؛ التكذيب هو جحود واستكبار، والتصديق هو سجود وتحقيق، فَمَنْ اتَّصَفَ بِأَحَدٍ، الْقَسَمِينَ امْحَى عَنْهُ الثَّانِي.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: سجدوا بظواهرهم في المحراب، وفي سرائرهم على ترابِ الخضوع وبساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكم الخمود.

ويقال: كيف يستكبر مَنْ لا يَجِدُ كَمَالَ رَاحَتِهِ ولا حَقِيقَةَ أَنْسِهِ إلا في تَذَلُّلِهِ بين يدي معبوده، ولا يُؤْزِرُ أَجَلَ جَحِيمِهِ على نعيمه، ولا شَقَاءَهُ على شِفَائِهِ؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَجَّيْنَا جُنُودَهُمْ مِنَ الْعَصَاجِ يَذَّكَّرُونَ رَبِّهِمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

في الظاهر: عن الفِراش قياماً بحقّ العبادة والجهد والتهجد. وفي الباطن: تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قَدَرِ النفس، وتوَهُمُ المَقَام - فإن ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سُمٌّ قاتل - فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم. ويفارقون مآلِفهم، ويهجرون في الله معارفهم.

والليل زمان الأحباب، قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]: يعني عن كلِّ شُغْلٍ وحديثٍ سوء حديث محبوبكم. والنهارُ زمانُ أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ مَعَاذًا﴾ [النبا: ١١]، أولئك قال لهم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

إذا ناجيتُمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم، واشتغلوا بحرفتكُم. وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إما في طَرَبِ التلاقي وإما في حَرَبِ الفراقِ، فإن كانوا في أُنْسِ القربة فَلَيْلُهُمْ أَقْصَرُ من لحظة، كما قالوا:

زارني مَنْ هَوَيْتُ بعدَ بَعَادٍ بِوَصَالِ مُجَدِّدٍ وَوَدَادٍ
ليلة كاد يلتقي طرفاها قِصَراً وهي ليلة الميعادِ
وكما قالوا:

وليلة زَيْنُ ليالي الدهر قابلتُ فيها بدرها ببدر

لم تَسْتَبِينَ عَنْ شِقْوَ فَجَرٍ حَتَّى تَوَلَّيْتِ وَهِيَ بِكُرِّ الدَّهْرِ
وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ مَقَاسَةِ فُرْقَةٍ وَانْفِرَادِ بِكُرْبَةٍ فَلْيُلْهِمْ طَوِيلَ، كَمَا قَالُوا:
كَمْ لَيْلَةٍ فِيكَ لَا صَبَاحَ لَهَا أَفَنِيْتُهَا قَابِضاً عَلَى كِبَدِي
قَدْ غُصَّتِ الْعَيْنُ بِالدَّمْعِ وَقَدْ وَضَعْتُ خَدِي عَلَى بَنَانِ يَدِي
قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]: قَوْمٌ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ وَطَمَعًا
فِي الثَّوَابِ، وَآخَرُونَ خَوْفًا مِنَ الْفِرَاقِ وَطَمَعًا فِي التَّلَاقِ، وَآخَرُونَ خَوْفًا مِنَ الْمَكْرِ
وَطَمَعًا فِي الْوَصْلِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يَأْتُونَ بِالشَّاهِدِ الَّذِي خَصَصْنَاهُمْ بِهِ؛ فَإِنْ طَهَّرْنَا
أَحْوَالَهُمْ عَنِ الْكَدُورَاتِ حَضَرُوا بِأَحْوَالٍ مُقَدَّسَةٍ، وَإِنْ دَنَسُوا أَوْقَاتَهُمْ بِالْآفَاتِ شَهِدُوا
بِحَالَاتٍ مُدَنَسَةٍ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فَالْعَبْدُ إِنَّمَا يَتَجَرَّ فِي الْبُضَاعَةِ الَّتِي يُوَدِّعُهَا
لَدَيْهِ سَيِّدُهُ:

يَفْدِيكَ بِالرُّوحِ صَبٌّ لَوْ يَكُونُ لَهُ أَعَزُّ مِنْ رُوحِهِ شَيْءٌ فَدَاكَ بِهِ
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
إِنَّمَا تَقَرُّ عَيْنُكَ بِرُؤْيَا مَنْ تَحِبُّهُ، أَوْ مَا تَحِبُّهُ؛ فَطَالِبُ قَلْبِكَ وَرَازِ حَالِكَ، فَيَحْصُلُ
الْيَوْمَ سُرُورُكَ، وَكَذَلِكَ غَدًا. . . وَعَلَى ذَلِكَ تَحْشُرُ؛ فَفِي الْخَبَرِ:
«مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا».

ثُمَّ إِنَّ وَصْفَ مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ - مُحَالٌ، اللَّهُمَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا
حَالٌ عَزِيزَةٌ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾.

أَفَمَنْ كَانَ فِي حَالِ الْوَصَالِ يَجْزِي أَذْيَالَهُ كَنْتَ هُوَ فِي مَذَلَّةِ الْفِرَاقِ يَقَاسِي وَبِأَلَهُ؟
أَفَمَنْ كَانَ فِي رَوْحِ الْقَرَبَةِ وَنَسِيمِ الزَّلْفَةِ كَمَنْ هُوَ فِي هَوْلِ الْعَقُوبَةِ يَعَانِي مَشَقَّةَ
الْكَلْفَةِ؟

أَفَمَنْ هُوَ فِي رَوْحِ إِقْبَالِنَا عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ مُحَنَةٌ إِعْرَاضِنَا عَنْهُ؟

أَفَمَنْ بَقِيَ مَعَنَا كَمَنْ بَقِيَ عَنَّا؟

أَفَمَنْ هُوَ فِي نَهَارِ الْعُرْفَانِ وَضِيَاءِ الْإِحْسَانِ كَمَنْ هُوَ فِي لِيَالِي الْكُفْرَانِ وَوَحْشَةِ
الْعَصِيَانِ؟

أَفَمَنْ أُيِّدَ بِنُورِ الْبِرْهَانِ وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمُوسُ الْعُرْفَانِ كَمَنْ رِبَطَ بِالْخَذْلَانِ وَوُصِمَ
بِالْحَرَمَانِ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَلْتَقِيَانِ!

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: صَدَقُوا، و﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بما حَقَّقُوا - فلهم حُسْنُ الحال، وحميدُ المَالِ وجزيلُ المنال، وأما الذين كَذَّبُوا وجحدوا، وفي معاملاتهم أَسَاءُوا وأفسدوا، فقصاراهم الخزيُّ والهوان، وفنونٌ من المحنِ وألوانٍ.. كلما راموا من محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً، ولكما أَمَلُوا نَجاةً جَزَعُوا وزيدوا يأساً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قومٌ عذابهم الأدنى مِحْنٌ الدنيا، والعذابُ الأكبرُ لهم عقوبةُ العنبي^(٢). وقومُ العذابِ الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم في عبادتهم، والعذابُ الأكبرُ لهم قسوةٌ في قلوبهم تصيبهم.

وقومُ العذابِ الأدنى لهم وقفةٌ في سلوكهم تُنَبِّههم، والعذابُ الأكبرُ لهم حجةٌ عن مشاهدتهم تَالَهُم، قال قائلهم:

أَذْبَتَنِي بَانَصْرَافٍ قَلْبِكَ عَنِّي فَاَنْظُرْ إِلَيَّ فَقَدْ أَحْسَنْتَ تَأْدِيبِي

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال العذاب الأدنى تَكَدَّرُ مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهُ كَمَا بَيْنَ رِيحِ الْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخر لها، كما قيل:

تَطَاوَلْ نَأْيُنَا يَا نُورَ حَتَّى كَأَنَّ نَسَجَتْ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

مُنْفِقُونَ﴾.

إذا نَبَّهَ العبدُ بأنواع الرُّجَرِ، وَحُرْكَ - لَتَرْكِهِ حدودَ الرقاق - بصنوفٍ من التأديب

ثم لم يرتدع عن فعله، واغترَّ بطول سلامته، وأَمِنَ من هَاجِمِ مَكْرِهِ، وخفياً بِرَّهِ..

أَخَذَهُ بَغْتَةً بَحِيثٌ لَا يَجِدُ خُرْجَةً مِنْ أَخَذَتْهُ، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُم مِّنَّا لَا

تُصْرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى

لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

(٢) العنبة: بشرة تخرج بالإنسان تعدي، تسمند، فترم، وتمتلىء ماء، وتوجع، تأخذ الإنسان في عينه وحلقه. (اللسان ١/ ٦٣٠ مادة: عنب).

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا .

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ :

وهذا محمد ﷺ جُعلَ رحمةً للعالمين .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ .

لَمَّا صَبَرُوا على طلبنا سَعِدُوا بوجودنا، وتعدى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتَبِعِيهِمْ، وانبسط شعاعُ شمسهم على جميع أهلِهِمْ؛ فهم للخلق هُداةٌ، وفي الدين عيون، وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

يحكم بينهم، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول، والمهجور من الموصول، والرضي من الغوي، والعدو من الولي . . فكم من بهجة دامت هنالك! وكم من مهجة ذابت عند ذلك! .

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ .

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوام كانوا في خِبرة فصاروا عِبرةً، كانوا في سرورٍ فالوا إلى ثبور؛ فجميع ديارهم ومزارهم صارت لأغيارهم، وصنوف أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وكما قيل:

نعمت كانت على قوم م زماناً ثم بانـت
هكذا النعمة والإحـ سان مذ كان وكانت

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (١) .

الإشارة فيه: تُسقى حدائقُ وُضْلِهِمْ بعد جفاف عُودِها، وزوال المأنوسِ من معهودِها، فيعود عُودُها مورقاً بعد ذبوله، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ .

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة. والمنحنة إذا شهدوه .

(١) الأرض الجزر: قيل: إنها أرض اليمن وقيل: أرض جزر لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر. (اللسان ٣١٧/٥ مادة: جزر).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ .
 أعرض عنهم باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا .
 ﴿وَانْتَظِرْ﴾ زوائد وضيئنا، وعوائد لطفنا .
 ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ هواجم مقتنا وخفايا مكرنا . . وعن قريب يجد كل منتظره
 محتضراً .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله شهود وجوده يوجب لك تلفاً في تلف، ووجود جوده يوجب لك شرفاً في شرف، ففي تلفك يكون (هو) عنك الخلف، وفي شرفك تصل إلى كل لطف.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يا أيها المشرف حالاً، المفتح قدرأ منّا، المعلق رتبة من قبلنا. . يا أيها المرقي إلى أعلى الرتب بأسنى القرب. . يا أيها المخبر عنا، المأمون على أسرارنا، المبلغ خطابنا إلى أحبائنا. . اتق الله أن تلاحظ غيراً معنا، أو تساكين شيئاً من دوننا، أو تثبت أحداً سوانا، أو تتوهم شظية من الحدثن من سوانا. ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] إشفافاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم بنا لو وافقهم في شيء أرادوه منك.

والتقوى رقيب على قلوب أوليائه يمنهم في أنفاسهم، وسكناتهم، وحركاتهم أن ينظروا إلى غيره - أو يثبتوا معه غيره - إلا منصوباً لقدرته، مصرفاً بمشيئته، نافذاً فيه حكم قضيته.

التقوى لجأ يكبحك عما لا يجوز، زمام يقودك إلى ما تحب، سوط يسوقك إلى ما أمرت به، شاخص يحملك على القيام بحق الله، جزر يعصمك من توصل أعدائك إليك، عود تشفيك من داء الخطأ.

التقوى وسيلة إلى ساحات كرمه، ذريعة تتوسل بها إلى عقوبة جوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

اتبع ولا تبندع، واقتد بما نأمرك به، ولا تهتد باختيارك غير ما نختار لك، ولا تخرج أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

انسلخ عن إياك، واصلق في إياك إلينا، وتشاغل عن حسابك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تقصّر في خطابك معنا.

ويقال التوكل تحقق ثم تخلق ثم توثق ثم تملق؛ تحقق في العقيدة، وتخلق

بإقامة الشريعة، وتوثق بالمقسوم من القضية، وتملأ بين يديه بحسن العبودية.

ويقال التوكل تحقق وتعلق وتخلق؛ تحقق بالله وتعلق بالله ثم تخلق بأوامر الله.

ويقال التوكل استواء القلب في العدم والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

القلب إذا اشتغل بشيء شغل عما سواه، فالمشتغل بما من العدم منفصل عما له القدم، والمتصل بقلبه بمن نعته القدم مشتغل عما من العدم. . . والليل والنهار لا يجتمعان، والغيب والغير لا يلتقيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمُ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

اللائي تظاهرن منهن لسن أمهاتكم، والذين تبنيتم لبناكم، وإن الذي صرتم إليه من افترائكم، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردود عليكم، غير مقبول منكم، وإن أمسكتكم عنه بعد البيان نجوتكم، وإن تമാدیتم بعد ما أعلمتم. أطلت المحنة عليكم.

قوله جل ذكره: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمُ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

راعوا أنسابهم، فإن أردتم غير النسبة فالأخوة في الدين تجمعكم، وقرابة الدين والشكلية أولى من قرابة النسب، كما قالوا:

وقالوا قريب من أب وعمومة فقلت: وإخوان الصفاء الأقارب

نناسبهم شكلاً وعِلماً وألفة وإن باعدتهم في الأصول المناسب

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أُولَىٰ مِنْ بَعْضٍ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.

الإشارة من هذا: تقديم سنته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به منك، وإيثار من تتوكل به سبباً ونسباً على أعزتك ومن والاك.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أُولَىٰ مِنْ بَعْضٍ﴾:

ليكن الأجانب منك على جانب، ولتكن صلتك بالأقارب. وصلة الرحم ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار، ولكن بموافقة القلوب، والمساعدة في حالتي المكروه والمحبوب:

أرواحنا في مكان واحد وغدت أشباحنا بشام أو خراسان
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾.

أخذ ميثاق النبيين وقت استخراج الذرية من صلب آدم - فهو الميثاق الأول، وكذلك ميثاق الكل. ثم عند بعث كل رسول ونبوة كل نبي أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، وقد استخلص الله سبحانه نبينا عليه السلام، فأسمعه كلامه - بلا واسطة - ليلة المعراج. وكذلك موسى عليه السلام - أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا - ﷺ - زيادة حال؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشف الرؤية.

ثم أخذ الموائيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه، فلكل من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يؤهلهم له، قال ﷺ «لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي قَعَمَرٌ»^(١) وغير عمر مشارك لعمر في خواص كثيرة، وذلك شيء يتم بينهم وبين ربهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب. والصدق ألا يكون في أحوالك شوب ولا في اعتقادك زنب، ولا في أعمالك عيب. ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق. والصدق في الأحوال تصفيتها من غير مداخله إعجاب.

والصدق في الأقوال سلامتها من المعارض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التباعد عن التلبس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبري من الحول والقوة، ومواصلة الاستعانة، وحفظ العهود معه على الدوام.

والصدق في التوكل عدم الانزعاج عند الفقد، وزوال الاستبشار بالوجود^(٢).

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣) والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل ٦، ٥٥.

(٢) ربما كان (الموجود) وبذلك يكون القشيري قد استفاد من قول أبو عبد الله بن خفيف بهذا المعنى: القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء عن الموجود. (الرسالة القشيرية ص ١٦٠) والشاكر الذي يشكر على المفقود. (الرسالة القشيرية ص ١٧٥). وقد وردت في قول أحمد النوري (الوجود) حيث قال: نعت الصوفي السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

فهنا الوجود ضد العدم، أي وجود الأشياء وفقدانها. لكن يستحسن أن يقتصر اصطلاح الوجود على أنه هو بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص ٦٢).

والصدق في الأمر بالمعروف التحرُّز من قليل المداهنة^(١) وكثيرها، وألا تترك ذلك لِفَرَعٍ أو لِبَطْمَعٍ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْفِي، وتتصف بما تأمر، وتنهي (نَفْسَكَ)^(٢) عما تَزْجُرُ.

ويقال الصدق أن يهتدي إليك كلُّ أحد، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد. ويقال الصدق ألا تجنح إلى التأويلات.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ذكر نعمة الله مقابلتها بالشكر، ولو تذكرت ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساة البلاء في الحال، ولو تذكرت ما أولاك في الماضي لَقَرُبْتَ من قلبك الثقة في إيصال ما تؤمُّله في المستقبل.

ومن جملة ما ذكَّره به: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ كم بلاء صَرَفَهُ عن العبد وهو لم يشعر! وكم شُغل كان يقصده فضده ولم يعلم! وكم أمر عَوَّقه والعبد يَضُجُّ وهو - (سبحانه) - يعلم أن في تيسيره له هلاك العبد فَمَنَعَهُ منه رحمة به، والعبد يَتَّهِمُ ويضيق صدره بذلك!

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾.

أحاط بهم سُرَادقُ البلاء، وأحْدق بهم عَسْكَرُ العدو، واستسلموا للاجتياح، وبلغت القلوب الحناجر، وتَقَسَّمتِ الظنون، وداخَلَتْهم كوامِنُ الارتياح، وبدا في سويدائهم جَوْلَانُ الشك.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ثم أزال عنهم جملتها، وقَسَعَ عنهم شدتها، فانجاب عنهم سحبها، وتفرقت عن قلوبهم همومها، وتَفَجَّرَتْ ينابيع سكينتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

صَرَّحُوا بالكذب - لما انطوت عليه قلوبهم - حين وجدوا للمقال مجالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَرَسْتُمْ مِنْهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سئلت لهم شياطينهم من وشك ظفر الأعداء .
 قوله: ﴿وَيَسْتَكْذِبُونَ قُرَيْشًا﴾ يتعللون بانكشاف بيوتهم وضياع مخلفاتهم، ويكذبون فيما
 أظهروه غدرًا، وهم لم يحملهم على فعلهم غير جبنهم وقلة يقينهم^(١).
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُ أَلَا ذُبْرٌ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ
 مَسْئُولًا﴾.

ولكن لما عزم الأمر، وظهر الجذ لم يساعدهم الصدق، ولم يذكروا أنهم
 سيأفلون عن عهدهم، ويعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم.
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَوْنَ
 إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لأن الآجال لا تأخير لها ولا تقديم عليها، وكما قالوا: «إِنَّ الْهَارِبَ عَمَّا هُوَ
 كَائِنٌ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَتَقَلَّبُ».
 ﴿وَإِذَا لَا تُنْعَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: فإن ما يدخره العبد عن الله من مالٍ أو جاءٍ أو نفيسٍ
 أو قريب لا يبارك له فيه، ولا يجد به منعة، ولا يرزق منه غبطة.
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من الذي يحقق لكم من دونه مخرجًا؟ ومن الذي يصرف عنكم دونه عداً؟
 قوله جل ذكره: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
 الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصره النبي عليه السلام، ويمنعون غيرهم
 ليكون جمعهم أكثر وكيدهم أخفى، وهم لا يعلمون أن الله يُطْلِعُ رسوله عليه السلام
 عليهم ثم ذَكَرَ وَضَفَّهَم فقال:
 ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

إذا جاء الخوف طاشت من الرعب عقولهم، وطاحت بصائرهم، وتعطلت عن
 النصره جميع أعضائهم. وإذا ذهب الخوف زبنوا كلامهم، وقدموا خداعهم، واحتالوا
 في أحقاد خستهم. أولئك هذه صفاتهم؛ لم يباشر الإيمان قلوبهم، ولا صدقوا فيما
 أظهروا من ادعائهم واستسلامهم.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَٰئِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يحبسون الأحزاب لم يذهبوا، ويخافون من عودهم، ويفزعون من ظل أنفسهم إذا وقعوا على آثارهم، ولو اتفق هجوم الأعداء عليكم ما كانوا إلا في حرز سيوفهم ودرية^(١) رماحهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

«كان» صلة ومعناها: لكم في رسول الله أسوة حسنة، به قدوتكم، ويجب عليكم متابعتة فيما يرسمه لكم. وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله على الوجوب إلى أن يقوم دليل التخصيص، فأما أحواله فلا سبيل لأحد إلى الإشراف عليها، فإن ظهر شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مكتسباً من قبله فيلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله، وإن كان غير مكتسب له فهي خصوصية له لا ينبغي لأحد أن يتعرض لمقابلته لاختصاصه - ﷺ - بعلو رتبته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهل اليقين ازدادوا ثقةً، وعلى الأعداء جرأة، ولحكم الله استسلاماً، ومن الله قوة.

قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

شَكَرَ صَنِيعَهُمْ فِي الْمَرَّاسِ^(٢)، ومدح يقينهم عند شهود الباس، وسماهم رجالاً إثباتاً لخصوصية رتبته وتميزاً لهم من بين أشكالهم بعلو الحالة والمنزلة، فمنهم من خرج من دنياه على صدقه ومنهم من ينتظر حكم الله في الحياة والممات، ولم يزيغوا عن عهدهم، ولم يراوغوا في مراعاة حذهم؛ فحقيقة الصدق حِفْظُ الْعَهْدِ وَتَرْكُ مجاوزة الحد.

ويقال: الصدق استواء الجهر والسر.

(١) الدرية: دابة يستتر بها الصائد الذي يرمي الصيد ليبيده، فإذا أمكنه رمى. (لسان العرب ١٤/٢٥٥ مادة: دري).

(٢) المراس: القوة على ممارسة الأمور.

ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمر جدياً.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

في الدنيا يجزي الصادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميل الثواب وجزيل المآب والخلود في النعيم المقيم والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ على الوجه الذي سبق به العلم، وتعلقت به المشيئة.

ويقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعلق القول فيه بالرجاء فبالحرى ألا يخيب المؤمن في رجائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

لم يثبت بالمسلمين عدواً، ولم يوصل إليهم من كيدهم سوءاً، ووضع كيدهم في نحورهم، واجتثهم من أصولهم، وبين بذلك جواهر صدقهم وغير صدقهم، وشكر من استوجب شكره من جملتهم، وفضح من استحق الذم من المدلسين منهم. ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسًا شَرًّا فَرِيقًا﴾.

إن الحق - سبحانه - إذا أجمل أكمل، وإذا شفى كفى، وإذا وفى أوفى. فأظفر المسلمين عليهم، وأورثهم معاقبتهم، وأذل متعززيهم، وكفاهم بكل وجه أمرهم، ومكنهم من قتلهم وأسرىهم ونهب أموالهم، وسبى ذراريهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ فُلَ لِّأَرْوَجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْكُمْ وَأَرْحِكُمْ سَلَامًا حَسْبًا وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يرِدْ أن يكون قلب أحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شغل، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب، فخير - ﷺ - نساءه، ووفق الله سبحانه عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حتى أخبرت عن صدق قلبها، وكمال دينها وبقينها، وبما هو المنتظر

(١) الذراري: (ج) الذرية: النسل.

الآية (٢٧) لم ترد.

من أصلها وتربيتها، والباقي جرّين على منهاجها، وَتَسْجُنَ عَلَىٰ مِنْوَالِهَا. قوله جل ذكره: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

زيادة العقوبة على الجزم من أمارات الفضيلة، ولذا فضل حدّ الأحرار على العبيد وتقليل ذلك من أمارات النقص؛ فلما كانت منزلتهن في الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعف عقوبتهن على أجرامهن، وضاعف ثوابهن على طاعتهن. وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنكُم مِّنْهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ مَدْلِحًا تُوْذَىٰ أَجْرًا مَّرَّتَيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

ثم قال:

﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّبَعْتِ فَلَا مَحْضَمَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

نهاهن عن التبذل، وأمرهن بمراعاة حرمة الرسول ﷺ، والتصاون عن تطمع المنافقين في ملايتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

«الرجس»: الأفعال الخبيثة والأخلاق الدنيئة؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما قل وما جل. والأخلاق الدنيئة الأهواء والبذع كالبخل والشح وقطع الرّحم، ويريد بهم الأخلاق الكريمة كالجود والإيثار والسخاء وصلة الرّحم، ويدبهم لهم التوفيق والعصمة والتسديد، ويظهرهم من الذنوب والعيوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

أذكرن عظيم النعمة وجليل الحالة التي تجري في بيوتكن؛ من نزول الوحي ومجيء الملائكة، وحرمة الرسول ﷺ - والنور الذي يقتبس في الآفاق، ونور الشمس الذي ينبسط على العالم، فاعرفن هذه النعمة، وأرعين هذه الحرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾.

الإسلام هو الاستسلام، والإخلاص، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات، ويقال هو التصديق والتحقيق، ويقال هو انتسأء الحقيقة في القلب. ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل، ولقبوم بالعلم، ولآخرين، بالفهم عن الله، ولآخرين بالتوحيد، ولآخرين بالمعرفة، ولآخرين إيمانهم حياة قلوبهم بالله.

﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينِ﴾.

القنوت طول العبادة.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾.

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾.

على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾.

الخشوع إطراق السريرة عند بوايه الحقيقة.

﴿وَالْمُصْطَفِينَ وَالْمُصْطَفَاتِ﴾.

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحد خصومة فيما نالوا منهم، أو قالوا فيهم^(١).

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾.

المسكين عملاً لا يجوز في الشريعة والطريقة.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾.

في الظاهر عن الحرام، وفي الإشارة عن جميع الآثام.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

بالستهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يفترون، ولا يتدخلهم نسيان.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهؤلاء لهم جميل الحسنى، وجزيل العقبي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.

الافتيات عليه في أمره والاعتراض عليه في حكمه وترك الانقياد لإشارته. قرع

لباب الشريك، فمن لم يمسك عنه سريعاً وقّع في هدمته.

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦ - ٢٣١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أنعم الله عليه بأن ذكره وأفرده من بين الصحابة باسمه.

ويقال: أنعم الله عليه بإقبالك عليه وتبنيك له. ويقال: بأن أغتفته، ويقال: بالإيمان والمعرفة. وأنعمت عليه بالعتق وبأن تبنيته. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إقامة للسرعة مع علمك بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول؛ فإن الله أطلعك عليه، وقلت له: «اتق». قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: أي لم تظهر لهم أن الله عرفك ما يكون من الأمر في المستأنف.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ مِنْ مَيْلِكَ ومحبتك لها لا على وجه لا يحل. ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ أي وتخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة من قصة زيد، وكانت تلك الخشية إشفافاً منك عليهم، ورحمة بهم.

ويقال: وتستحي من الناس - والله أحق أن تستحي منه.

ويقال: تخشى الناس ألا يطبقوا سماع هذه الحالة ولا يقفوا على تحملها، فربما يخطر ببالهم ما ينفى عنهم وسعهم.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ لكي لا يكون عليك حرج، ولكي لا يكون على المؤمنين حرج في الزواج بزوجات أدعيائهم، وإنما ذلك يُحرّم في الابن إذا كان من الصلب.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد. وما كان على النبي من حرج بوجه لكونه معصوماً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

«ويخشونه»: علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضرراً ولا محذور ولا مكروه إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ علموا أنه لا شيء لأحدٍ من دونه.

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

لم يكن مضافاً إلى ولدِ فله عليكم شفقة الآباء . . ولكن ليس بأبيكم .

ويقال نَسَبُهُ ظاهرٌ . . ولكن إنما يُعَرَّفُ بي لا بَنَسَبِهِ؛ فقلماً يقال: محمد بن عبد الله، ولكن إلى أبد الأبد يقال: محمد رسول الله . وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيد - بعد لا إله إلا الله - محمدٌ رسولُ الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ .

الإشارة فيه أجبوا الله؛ لأنَّ النبي - ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ» فيجب أن تقول: الله، ثم لا تنسَ الله بعد ذكركَ الله .

ويقال: اذكروا الله بقلوبكم؛ فإنَّ الذِّكْرَ الذي تمكن استدامته ذكرُ القلب؛ فأما ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسَرِّمَدٌ كالمتعذر .

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: التَّسْبِيحُ من قبيل الذِّكْرِ، ولكنه ذَكَرَهُ بلفظين لثلاث تعتريك سامة .

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

الصلاة في الأصل الدعاء؛ فصلاته - سبحانه - دعاؤه لنا بالتقريب، وصلاة الملائكة دعاؤهم إليه لنا: بالغفران للعاصي، وبالإحسان للمطيع .

ويقال الصلاة من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة .

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أي يعصمكم من الضلال بزُوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال يصونكم من الشُّرْك، ويثبتكم بشواهد الإيمان .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ .

التحية إذا قُرِئَتْ بالرؤية، واللقاء إذا قُرِئَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر .

والسلام خطاب يفتح به الملوك إخباراً عن علو شأنهم ورتبتهم، فإلقاؤه حاصل وخطابه مسموع، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر .

﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾: الكَرَمُ نَفْيُ الدَّناءة، وكرماً أي حسناً .

وفي الإشارة أجرهم موفور على عمل يسير؛ فإن الكريم لا يستقصي عند البيع والشراء في الأعداد، وذلك تعريف بالإحسان السابق في وقت غيبتك.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

يأيها المُشْرِفُ مِنْ قِبَلِنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا بوحْدانيتنا، وشاهدًا تُبَشِّرُ بِمَتَابَعَتِنَا، وتحذِّرُ مِنْ مَخَالِفَةِ أَمْرِنَا، وتُعَلِّمُ النَّاسَ مَوَاضِعَ الْخَوْفِ مِنَّا، ودَاعِيًا إِلَيْنَا بِنَا، وسِرَاجًا يَسْتَضِيئونَ بِهِ، وشمسًا يَنْبَسِطُ شِعَاعُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ صَدَّقَكَ، وَأَمَّنْ بِكَ، فلا يَصِلُ إِلَيْنَا إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ وَخَدَمَكَ، وَصَدَّقَكَ وَقَدَّمَكَ.

﴿وَنَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِفَضْلِنَا مَعَهُمْ، وَنَبْلِهِمْ طَوْلَنَا عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِنَا إِلَيْهِمْ. وَمَنْ لَمْ تَوْثِرْ فِيهِ بَرَكَةُ إِيْمَانِهِ بِكَ فَلَا قُدْرَ لَهُ عِنْدَنَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لا تَوَافِقْ مَنْ أَعْرَضْنَا عَنْهُ، وَأَضَلَّلْنَا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالشَّقَاقِ. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِدَوَامِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ، وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِئَتُهُنَّ وَسِرَّخُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا﴾.

إِذَا أَثَرْتُمْ فِرَاقَهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ لِيَكُونَ لِهِنَّ عَنْكُمْ تَذْكَرَةٌ فِي أَيَّامِ الْفِرْقَةِ فِي أَوَائِلِهَا إِلَى أَنْ تَتَوَطَّنَ نَفُوسُهُنَّ عَلَى الْفِرْقَةِ.

﴿وَسِرَّخُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا﴾: لَا تَذْكُرُوهُنَّ بَعْدَ الْفِرَاقِ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا تَسْتَرِدُوا مِنْهُنَّ شَيْئًا تَخْلُقْتُمْ بِهِ مَعَهُنَّ، فَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِنَّ الْفِرَاقَ بِالْحَالِ وَالْأَضْرَارِ مِنْ جِهَةِ الْمَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِنَّا أَوَّاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنَوَاتِ عَمَلِكَ وَنَوَاتِ خَالِكَ وَنَوَاتِ خَلِيلِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وَسَعْنَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ فِي بَابِ النِّكَاحِ بِكُمْ شَيْئًا؛ فَإِنَّكَ مَأْمُونٌ مِنْ عَيْبِ عَدَمِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُنَّ وَعَدَمِ مِرَاعَاةِ حَقُوقِهِنَّ، وَمِنْ الْحَيْفِ عَلَيْهِنَّ. وَالتَّوْبِيعَةُ فِي بَابِ النِّكَاحِ تَذُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَأُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّ إِلَىٰكَ مَن نَّشَأُ وَمَنِ ابْتَنَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرُجَ وَرَضَيْتَ بِمَا ءَابَتْهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ۖ﴾.

﴿مَن نَّشَأُ﴾: على ما تتعلق به إرادتك، ويقع عليه اختيارك، فلا حرج عليك ولا جناح.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۖ﴾.

لَمَّا اخْتَرْتَهُنَّ أثبت الله لهن حُرْمَةً، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ فكما اخترتك فلا تختار عليهن امرأة أخرى تطيباً لقلوبهن، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن، وهذا يدل على كَرَمِهِ - والحفاظ كَرَمٍ ودين.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ الآية.

أَمَرَهُم بحفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب، وحفظ أحكام تلك الحاضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا، ولا تتغافلوا عنكم، ولا يَمْنَعَنَّكُمْ حُسْنُ خُلُقِهِ من حفظ الأدب، ولا يحملنكم فرط احتشامه على إبرامه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾: حُسْنُ خُلُقِهِ - ﷺ - جَرَّهُم إلى المباسطة معه، حتى أنزل الله هذه الآية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: نَقَلَهُم عن مألوف العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة، وبيَّن أن البَشْرَ بَشَرٌ - وإن كانوا من الصحابة، فقال:

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

فلا ينبغي لأحد أن يأمن نفسه - ولهذا يُشَدُّ الأمر في الشريعة بألا يخلو رجل بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وهذا من خصائصه - ﷺ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا، فيهتم بالاتصال مَنْ له مِثْلُ إِيَّاهُ بغيره من بعد وفاته - وإن كان التحرُّز عنه - وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ - أتم وأعلى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

حِفْظُ الْقَلْبِ مَعَ اللَّهِ، ومراعاة الأمر - بينه وبين الله - على الصَّحَةِ في دوام الأوقات لا يَقْوَى عليه إلا الخواصُّ من أهل الحضور.

قوله جل ذكره: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ الآية.

لما نزلت آية الحجاب شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

أراد الله - سبحانه - أن تكون للأمة عنده - ﷺ - يدٌ خدمة كما له بالشفاعة عليهم يدٌ نعمة، فأمرهم بالصلاة عليه، ثم كافأ - سبحانه عنه؛ فقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ»^(١) وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يستغني عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات؛ إذ لا رتبة فوق رتبة الرسول، وقد احتاج إلى زيادة صلوات الأمة عليه.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بعمل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة، ويؤذون أولياءه. ولَمَّا قَالَ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فكذلك مَنْ أذى رسوله وأنبياءه عليهم السلام والمؤمنين فقد آذاه، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات ربتهم.

ثم ذكر قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ وذكر عقوبتهم، فجعل إيذاء الرسول مقرونًا بما ذكر من إيذاء الله، ثم ذكر إيذاء المؤمنين، ويدل ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول ﷺ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيسِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

هذا تنبيه لهن على حِفْظِ الْحُرْمَةِ وإثبات الرتبة، وصيانة لهن، وأمر لهن

(١) أخرجه النسائي (أذان ٣٧)، (سهو ٥٥)، وأحمد بن حنبل ٢، ١٦٨، ٣٧٢، ٣٧٥، ٤٨٥.

بالتصاوين والتعطف. وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلب الرسول ﷺ من الإرجاف^(١) في المدينة: -

قوله جل ذكره: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ بِهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إنهم إِنْ يَمْتَنِعُوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنَا في التدمير على مَنْ سَلَفَ من الكفار.

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك، ثم استعجالهم قيامها من غير استعداد لها، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبُهُمْ بها، وما يقع عليهم من الندامة على ما فَرَّطُوا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

نسبوه إلى الأذرة^(٣)، وأنَّ به عيباً في الخلقة، ولكنه كان رجلاً حَيِّيًا، وكان إذا اغتسل لا يتجرَّد (من ثوبه)^(٤)، فتوهموا به ذلك. وذات يوم خلا ليغسله، ووضع ثيابه على حَجَرٍ فامشى إِلَيْهِ الْحَجَرُ بشيابه، وموسى يعدو خَلْفَهُ حَتَّى تَوَسَّطَ بني إسرائيل، وشاهدوا خِلْفَتَهُ سَلِيمَةً، فوقف الحجر، وأخذ موسى ثيابه ولبسها، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ في القَدْرِ والمنزلة. والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس، فقبولُ الناس لا عِبْرَةٌ به ولا حَظَرٌ له، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُونَ بلا شيء، وَيَرُدُّونَ بلا شيء قال قائلهم:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مَطْرَحًا فعند غيرك محمولٌ على الحقد
وقالوا: فَإِنْ أَكُ فِي شِرَارِكُمْ قَلِيلًا فلإني في خِيَارِكُمْ كَثِيرٌ

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

القول السديد كلمة الإخلاص، وهي الشهادتان عن ضمير صادق.

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب (ج) أراجيف.

(٢) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

(٣) الأذرة: نفخة في الخصية. (اللسان ١٥/٤ مادة: أذر).

(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال سدادُ أقوالكم سدادُ أعمالكم، ولقد هَوَّنَ عليكم الأمرَ فَمَنْ رضي بالقالة - وهي الشهادة بأن تَرَكَ الشُّرْكَ - وقالها بِصِدْقٍ أصلح الله له أعماله الدنيوية من الخَلَلِ، وَغَفَّرَ له في الآخرة الزَّلَلُ؛ أي حصلت له سعادة الدارين.

ويقال ذَكَرَ ﴿أَعْمَلَكُمْ﴾ بالجمع، وقدمها على الغفران؛ لأنه ما لم يُضْلِحْ لك في حالك أعمالك وإن لم يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ من أشغالك.. لم تنفرغ إلى حديث آخِرَتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

هنا إضمار أي: أهل السموات والأرض والجبال.

وقيل أحياءها وأعقلها، وهو كقوله: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾: أي أبين أن تَحْنُ فيها، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: أي خان فيها. وهم مراتب: فالكفار خانوا في الأصل الأمانة - وهي المعرفة - فكفروا. ومن دُونهم خانوا بالمعاصي، وبعضهم أشدَّ وبعضهم أهون، وكل احتجب من الوزرِ مقداره.

ويقال «أبين» إباءً إشفاقٍ لا إباءً استكبارٍ، واستعفين... فعفا عنهم، وأعفاهن من حَمَلها.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: قَبَلَهَا ثم ما رعوها حقَّ رعايتها.. كلُّ بقدره.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ظُلُومًا جَهُولًا﴾ بصعوبة حَمَلِ الأمانة في الحال، والعقوبة التي عليها في المآل. وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانة على السموات والأرض وعَرَضَهَا على الإنسان، فهن استعفين وهؤلاء لم يستعفوا ولم يراعوا.

ويقال: الأمانة القيام بالواجبات أصولها وفروعها.

ويقال: الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً.

ويقال: لَمَّا حَمَلَ آدَمُ الأمانة وأولاده قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ويقال حمل الإنسان بالله لا بِنَفْسِهِ. ويقال ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السموات والأرضون. والظَلَمَ وَضَعَ الشيء في غير موضعه.

ويقال كاشَفَ السموات والأرض بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا، وكاشَفَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ بوصف اللطف فقبلوا وحملوا، وفي حال بقاء العبد يا الله يحمل السموات والأرض بشعرة من جَفْنِهِ. ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمباني فأشفقوا من حَمَلِ الأمانة. والحِمْلُ إنما تحمله القلوب. وآدم كان صاحبَ معنى فَحَمَلَ، وأنشدوا:

حملت جبال الحكم فوقى وإنني لأعجزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَهُ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها، فلما أبوا وأشفقوا حَمَلَهَا الإنسان طوعاً لا كرهاً.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

اللام في «ليعذب» للصيرورة والعاقبة؛ أي صارت عاقبة هذا الأمر عذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز. (تَمَّتِ السُّورَةُ) قد يقال: المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَزَدَ ذكرهم. . فأين العابدون وذكرهم؟

ولكنهم في جملة مَنْ مَضَى ذِكْرُهُمْ، وليسوا في المشركين ولا في المنافقين، فلا محالة في جملة العاصين الذين تاب عليهم.

فيأيها العاصي، كنت تحذر أَنْ يُخْرِجَكَ العابدون من جملتهم، فاشهد الجَبَّارَ - في هذا الخطاب - كيف أدرجك في جملتهم؟!

سورة سبا

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله كلمة سَلَابَةٌ غَلَابَةٌ، نَهَابَةٌ، وَهَابَةٌ؛ تسلب القلوب.. ولكن لا كل قلب، وتغلب الألباب ولكن ليس كل لب، وتنهب الأرواح ولكن من الأحباب، وتهب الارتياح.. ولكن لقوم مخصوصين من الطلاب.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

افتتح السورة بذكر الشاء على نفسه، ومَدْحُه لنفسه إخباراً عن جلاله، واستحقاقه لنعوت عزّه وجماله، فهو في الأزل حامدٌ لنفسه محمودٌ، وواحدٌ موجود، في الأزال معبود، وبالطلبات مقصود.

﴿الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: المُلْكُ لا يكون بالشركة؛ فلا مِلْكٌ إلا الله. وإن أجرى هذا الاسم على مخلوق بالزنجي لا يتغير لوته وإن سُمِّيَ كافوراً!

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ من الذين أعتقهم، وفي النعمة أغرقهم.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتخليد قوم في الجنة، وتأبيد قوم في النار.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحب تحت الأرض، والماء يرسب فيها، والأشياء التي تُلْقَى عليها، والناس يُقْبَرُونَ في الأرض..

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأزهار، والموتى يُبعثون.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من القطر والمَلَكِ، والبركة والرزق، والحُكم.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الصحف، وحوائج الناس: وهِمَمُ الأولياء.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ﴿الْغَفُورُ﴾ لجميع المذنبين من المسلمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا

يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾.

كُرِّرَ في القرآن تكذيبهم بالساعة، واستبعادهم لذلك، والردُّ عليهم. وأخبر عن سابق علمه بهم، وأنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه، فأثبت علمه بكل شيء وشموله لكل شيء... لأنه لو لم يكن له علم لكان نقصاً، ولأنه لو خرج معلوم واحد عن علمه لكان بقدرته نقص، والنقص - بأي وصف كان - لا يجوز في صفته بحال.

قوله جل ذكره: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الآيات...

المحسنون منهم يجازيهم بالخيرات المتصلة، والكافرون منهم يكافئهم على كفرهم بالعقوبات غير منفصلة.

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أثبت به حقاً وصديقاً. والذين كفروا قال بعضهم لبعض: إنهم يرون أن هذا الذي تقول به من النشر والحساب والبعث كذب، أو أن بك جنة، ثم أقام عليهم حجة التجويز بما أجرى به سُنَّتُهُ في الخلق والإبداع... فما زادهم ذلك إلا جحوداً، وما قابله إلا عنوداً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَى مَعْمُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَمَلَ سَبْعِينَ وَفَرَسًا فِي السَّرْدِ وَعَمَلُوا صَبِلًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

«داود» اسم أعجمي، وقيل سمي داود لأنه داوى جرحه، ورَدَّ في القصة أنه قال في إحدى مناجاته: يا رب، إنني أرى في التوراة ما أعطيت لأوليائك وأنبيائك من الرتب فأعطينها فقال: إنني ابتليتهم فصبروا، فقال: إنني أصبر على بلائك، فأعطني ما أعطيتهم، فأبلاه، فوقف، فأعطاه ما أعطاهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: تكلموا في هذا الفضل؛ فمنهم من أراد ما ذكره بعده وهو قوله للطير: ﴿أَوْبَى مَعْمُ﴾: وكذلك الجبال، وكان في ذلك تنفيس في وقت حزنه وبكائه. وقيل ذلك الفضل رجوعه إلى الله - في حال ما وقع له - بالتنصل والاعتذار. ويقال هو شهوده موضع ضرورته وأنه لا يُضْلِحُ أمره غيره. ويقال طيب صوته عند قراءة الزبور حتى كان ليزغب في متابعتها من يسمع إليه. ويقال حلاوة صوته في المناجاة. ويقال حُسْنُ خلقه مع أمته الذين اتبعوه، ويقال توفيقه للحكم بين أمته بالعدل...

(١) الآيات من (٥ حتى ٩) لم ترد.

قوله: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ أمر الجبال والطير بمجاوبته حتى خرج إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه.

ويقال أوحى الله له: يا داود، كانت تلك الزلّة مباركة عليك! فقال: يا رب، وكيف؟ فقال: كنت تجيء قبلها كما يجيء المطيعون والآن تجيء كما يجيء أهل الذنوب!

يا داود، إن أنين المذنبين أحب إلي من صراخ العابدين!
ويقال، كان داود يقول: اللهم لا تغفر للخاطئين، غيرة منه وصلابة في الدين... فلما وقع له ما وقع كان يقول: اللهم اغفر للمذنبين، فعسى أن تغفر لداود فيما بينهم.

ويقال لما تاب الله عليه، واجتمع الإنس والجن والطير بمجلسه، ورفع صوته، وأداره في حنكه على حسب ما كان من عادته تفرقت الطيور وقالوا: الصوت صوت داود والحال ليست تلك! فأوحى الله إليه هذه وخشة الزلّة، وتلك كانت أنس الطاعة.. فكان داود يبكي وينوح ويصيح والطير والجبال معه.

ويقال ليس كل من صاح وراءه معنى، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير...

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرِّ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. ألان له الحديد، وجعل ذلك معجزة له، وجعل فيه توسعة رزقه، ليجد في ذلك مكسباً، ليقطع طمعه عن أمته في ارتفاقه بهم ليبارك لهم في اتباعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾.
أي آتينا سليمان الرّيح أي سخرناها له، فكانت تحمل بساطة بالغدو مسيرة شهر؛ وبالرواح مسيرة شهر.

وفي القصة أنه لاحظ يوماً ملكه، فمال الرّيح ببساطه، فقال سليمان للريح: استوي، فقالت الرّيح: استوي أنت، فما دمت مستوياً بقلبك كنت مستوياً بك، فلما ملت ملت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقَاطِرِ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنُ رِيعٍ يَبِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ثِقَةٌ مِنَ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

أي وآتيناه ذلك، فكانت الشياطين مسخرة له، يعملون ما يشاء من الأشياء التي ذكرها سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾.

أي اعملوا يا آل داود للشكر، فقوله: «شكراً» منصوب لأنه مفعول له.
ويقال شكراً؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوتِ
فَعِلُونَ﴾ [المؤمنين: ٤].

وقد مضى طَرَفٌ من القول في الشكر. والشكور كثير الشكر، والأصل في
الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها، ودابة شكور إذا أظهرت
من السَّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلَفِ؛ فالشكور الذي يشكر على النعمة فوق ما يشكر
أمثاله وأضرابه. وإذا كان الناس يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره في البلاء.

والشاكر يشكر على البَذْلِ، والشكور على المنع^(١)... فكيف بالبذل؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله، والشاكر ببعض هذه.

ويقال في ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قَلِيلٌ مَّنْ يأخذ النعمة مني ولا يحملها على
الأسباب؛ فلا يشكر الوسائط ويشكرني. والأكثرُونَ يأخذون النعمة من الله، وَيَجِدُونَ
الخيرَ مِنْ قِبَلِهِ ثم يتقلدون المِثْلَ من غير الله، ويشكرون غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ بَيِّنَاتٍ لِّئَلَّا يُرَى أَن لُّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَلْفَيْتَا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

كان سليمان - عليه السلام - يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ، وبقي على ذلك
الوصف مدة، والشياطين كانوا مُسْخَرِينَ يعملون ما أمرهم به، ويتصرفون على الوجه
الذي رَسَمَ لهم، وينتهون عما رَجَرَهُمْ، فقد كانوا يتوهمون أنه حي. ثم إِنَّ الْأَرْضَ^(٢)
أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فَعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات، فرجعوا إلى أعمالهم
الخبیثة، وانفك عنهم ما كانوا عليه من التسخير؛ وهكذا المَلِكُ الذي يقوم مُلْكُهُ
بغيره، ويكون استمساكه بعصا. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه، وَمَنْ قام بغيره زال
بزواله.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

كانوا في رَعْدٍ من العيش وسلامة الحال ورفاهته، فأمرُوا بالصبر على العافية

(١) جاءت العبارة بالرسالة الفشيرية ص ١٧٥: الشاكر الذي يشكر عند البذل، والشكور الذي يشكر عند
المطل.

(٢) الأرضة: ضربان: ضرب صغار مثل كبار الذر وهي آفة الخشب خاصة، وضرب مثل كبار النمل
ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات، غير أنها لا تعرض للرطب وهي ذات قوائم،
والجمع أرض. (اللسان ١١٣/٧ مادة: أرض).

والشكر على النعمة، وهذا أمر سهل يسير، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق، وكفروا بالنعمة، وضيّعوا الشكر، فبدّلوا وبذل بهم الحال، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرة لمن ابتغى عوضاً لِسَلَمَى فلم يجد
قوله جلّ ذكره: ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ^(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ
أَكْلٍ خَمَطٍ^(٢) وَأَثَلٍ^(٣) وَشِقْوَةٍ مِّنْ سِذْرٍ^(٤) وَقَلِيلٍ^(٥)﴾.

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطَرَبٍ من القلب، ومساعدةٍ من الوقت، فيرتكب زَلَّةً أو يسيء أدباً أو يتبع شهوة، ولا يعرف قَدْرَ ما هو به، فيتغير عليه الحال؛ فلا وقت ولا حال، ولا طرب ولا وصال؛ يُظْلِمُ عليه النهار وقد كانت لياليه مضيئة، كما قلنا.

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أمِنتُ الزمانَ مَكْرَهَ
حال عليّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتُ ذُرَّةَ
قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى أَلْفًا بَرْكَةً فِيهَا قَرْيٌ ظَهَرَةٌ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا مَّيِّينًا﴾.

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سَقُوا إلا مما نَبِطُوا^(٥)، وما وقعوا إلا في
الرَّهْدَةِ التي حَفَرُوا، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذي صَنَعُوا!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى...﴾: ما كان من شأنهم إلا التماذي في عصيانهم،
والإصرار على غيهم وطفيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنفُسُهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فَرَقْنَاهُمْ تفريقاً حتى اتخذهم الناس مثلاً مضروباً؛ يقولون: ذهبوا أيدي سبا،

(١) العرم: السيل الشديد الذي لا يُطاق دفعه.

(٢) الخمط: ضرب من الأراك له حنظل يؤكل، وقيل: هو شجر قاتل أو سم قاتل، وقيل: شجر مثل
السدر وحمله كالتوت، وقيل: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط،
وقيل غير ذلك. (اللسان ٢٩٦/٧ مادة: خمط).

(٣) الأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً تسوى به الأقداح الصفر الجياد. (اللسان
١٠/١١ مادة: أثل).

(٤) السدر: شجر شائك من فصيلة النبقيات مهدد فلسطين، ينمو برياً وزراعياً، وخشبه شديد الصلابة
شائع الاستعمال، وله ثمر فيه حلاوة. واحدته سدر (ج) سدر.

(٥) نبط: عَوْقه وشغله وبطاً به عنه.

وتفرقوا أيادي سبا. وفي قصتهم آيات لكل صبار على العاقبة، شكور على النعمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾.

صدق عليهم إبليس ظنه - وإن كان لا يملك لنفسه أمراً، فإبليس مُسَلِّطٌ على أتباعه من الجن والإنس، وليس به من الإضلال شيء، ولو أمكنه أن يضرَّ غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾: يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أنه بملكه متفرد، وفي الألوهية متوحد، وعن الأضداد والأنداد متعزَّز، وأنهم لا يملكون مثقال ذرة، ولا مقياس حبة، وليس منهم نصير، ولا شريك ولا ظهير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الملائكة في السماء بوصف الهيبة فرعون، وفي الموقف الذي أثبتهم الحق واقفون، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون^(١).

ثم قال جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَلْكَافِرِينَ﴾.

لم يقل أحد - مع شركه - إنه يُجِيلُ في الرزق على أحد غيره، فكما لا شريك له في الرزق ولا شريك له في الخلق فلا شريك له في استحقاق العبادة والتعظيم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِرُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم... ويوم الجمع يحاسب الله كلاً على أعماله، ويُطَالَبُ كلاً بشأنه، لا يؤاخذ أحدٌ بعمل غيره، وكلُّ يُعْطَى كتابه، ويطلبُ الله من كل واحد حسابه.

وقد أجرى الله سُنته بأن يجمع بين عباده، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم. فللاجتماع أثر كبير في الشريعة، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص. وقد عاتب الله - سبحانه - الذين يتفرقون عن النبي ﷺ، ومدح من لا يتفرق إلا عن استئذان.

(١) الآيتان (٢٢، ٢٣) لم تردا.

والشيوخ ينتظرون في الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية:
﴿قُلْ يَجْمَعُ...﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَحَقُّ بِرَبِّهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، هو لك، تملكه وما ملك، لانهماكهم في ضلالتهم. وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر، ولا تسمع ولا تبصر، وقعت لهم شبهة استحقاقها العبادة، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يقلدون أسلافهم... وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أرسلناك مؤيداً بالمعجزات، مُشْرِفاً بجميع الصفات، سيداً في الأرضين والسموات، ظاهراً لأهل الإيمان، مستوراً عن بصائر أهل الكفران - وإن كنت ظاهراً لهم من حيث العيان، قال تعالى: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لكثرة ما يقولون هذا كثره الله في كتابه خبراً عنهم، والجواب إن لكم ميعاد يوم، وفي هذا الميعاد لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَرَوْا إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لو رأيتم يومذاك لرأيت منظرًا فظيعاً؛ يرجع بعضهم إلى بعض القول، ويحيل بعضهم على بعض الجرم؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ونُنكرُ الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمونا... وهكذا أصحاب الزلات الأخلاء في الفساد، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك الجوارح والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض؛ فاليذ تقول للجملة أخذت، والعين تقول أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة، ومن عمل بالمعاصي أخرج الله عايه كل من هو أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لاعتبروا، ولو اعتبروا لتابوا ووقفوا... ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً^(١).

(١) الآيتان (٣٢، ٣٣) لم تردا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أي قابلوا رُسُلَنَا بالكذب، وَصَبَر رُسُلُنَا... وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم؟ فهم لنجاتهم أرسلوا، ولصلاحيهم دَعَوَا وبلغُوا، ولو وافقوهم لسعدوا... ولكن أقساماً سبقت، وأحكاماً حقت، والله غَالِبٌ على أمره.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.

ليس هذا بكثرة الأموال والأولاد، وإنما هي بصائر مفتوحة لقوم، وأخرى مسدودة لقوم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

لا تستحق الزُلْفَى عند الله؛ بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بل بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ﴾: يضاعف على ما كان لِمَن تقدمهم من الأَمَم ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ تَكْدُرِ الصَّفْوَةِ والإخراج من الجنة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَعْتَبُونَ مِنَّا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حق اللّهِ في السرِّ، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَمْ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

مَنْ الْخَلْفُ في الدنيا الرضا بالعدم والفقد، وهو أتم من السرور بالموجود؛ ومن ذلك الأنس بالله في الخلوة؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِنَّا كُنَّا عِبَادُونَ﴾.

قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم؛ فيتبرأون منهم وينزهون الله ويسبحونه، فيفتضح هؤلاء - والافتضاح عند السؤال من شديد العقوبة، وفي بعض الأخبار:

أَن غَدَاً مِّن يَسْأَلُهُمُ الْحَقَّ فَيَقَعُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَجَلِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: عَذَّبْنَا رَبَّنَا بِمَا شِئْتَ مِنْ أَلْوَانِ الْعُقُوبَةِ وَلَا تَغْذِبْنَا بِهَذَا السُّؤَالِ!^(٢)

(٢) الآية (٤١) لم ترد.

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

الإشارة في هذا أن من علق قلبه بالأغيار؛ وظن صلاح حاله بالاحتتيال؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع الله الرحمة من قلوبهم؛ ويتركهم، ويشوش أحوالهم، فلا لهم من الأمثال والأشكال معونة، ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، وإن رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم، ويقول لهم: ذوقوا وبال^(١) ما به استوجبتم هذه العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْنَنَا يَتَنَبَّأُوا مَا هَذَا إِنْ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانَ يَبْنِي آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

الحكماء، والأولياء - الذين هم الأئمة في هذه الطريقة - إذا دلوا الناس على الله. قال بعض إخوان السوء - مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا لمريد: ما هذا؟ من الذي يطيق كل هذا؟ ربما لا تتم الطريق!

لا بُد من الدنيا ما دُمْتَ تعيش! ... وأمثال ذلك، حتى يميل هذا المسكين عند قبول النصيحة، وربما كان له هذا من خواطره الدنية ... فيهلك ويضل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَلَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾.

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحاب القلوب فيما يجري من الأمور، بما تشوش إليهم نفوسهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مقتضى تفرقة قلوبهم - على قياس ما يقع لهم - من غير استناد إلى إلهام، أو اعتماد على تقدير من الله وإفهام.

وأهل الحقائق - الذين هم لسان الوقت - إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذي يتكلم عن الفراسة^(٢) أو عن الإلهام، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحاب الغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيه لكون، فسيبيل هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجيب أولئك^(٣).

(١) ذاق فلان وبال عمله؛ أي ثقل فعله وعاقبته السيئة وجزاءه الوخيم.

(٢) الفراسة: مأخوذة من الثفرس وهو الثبث والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال. وقد تكون إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

يقول: إذا سؤلت لكم أنفسكم تكذيب الرسول فأنعموا النظر... هل ترون فيه آثار ما رميته به؟ هذا محمد ﷺ. قلتم إنه ساحر - فأين آثار السحر على أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم إنه شاعر - فمن أي قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم إنه مجنون - فأين جنون ظهر منه؟

وإذا قد عجزتم عن ذلك... فهلاً عرفتم أنه صادق^(١)!

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ﴾.

يقذف بالحق على باطل أهل الغفلة فتزول حيلهم، ويظهر عجزهم. ويقذف بالحق على أحوال أهل الخلاف فيضمحل اجتراؤهم، ويحق بهم شؤم معاصيهم.

ويقذف بالحق - إذا حضر أصحاب المعاني - على ظلمات أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتهم، ويفضحهم في الحال، ويفضح عوارهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

الباطل على ممر الأيام لا يزيد إلا زهوفاً، والحق على ممر الأيام لا يزداد إلا قوة وظهوراً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِي إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

إن كنت مهتدياً فبربي لا بجهدي. وإن كنت عندكم من أهل الضلال فوبال ضلالي عائداً علي، ولن يضركم ذلك. فانظروا أنتم إلى أنفسكم... أين وقعتم؟ وأي ضرر يعود عليكم لو أطمعتموني؟ لا في الحال تخسرون، ولا في أنفسكم تتعبون، ولا في جاهكم تنقصون.

وما أخبركم به نقص أصنامكم فبالضرورة أنتم تعلمون! فما لكم لا تبصرون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

أي لو رأيت ذلك لرأيت فظيماً، وأمرأ عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاسُتُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

إذا تابوا - وقد أُغْلِقَتْ الأبواب، وندموا - وقد تقطعت الأسباب... فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يستيق من غفلته يتجاوز عنه مرة، ويعفى عنه كربة، فإذا استمكنت منه القسوة وتجاوز سوء الأدب حد الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة... يحصل له من الحق رد، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يسمع له دعاء، ولا يزحم له بكاء^(١)، كما قيل:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوع
قوله جل ذكره: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ﴾.

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت، والخضم يريد إرضاء فيستحيي أن يذكر في ذلك الوقت، وينسد لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يفصح بما في قلبه، ويود أن لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعد بعيد، ويتمنى أن يطيع فلا تساعد القوة، ويتمنى أن يكون له - قبل خروجه من الدنيا - نفس... ثم لا يتفق.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

سورة فاطر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها يوجب رَوْحاً لمن كان يشاهد الإتيان، ويوجب لَوْحاً لمن كان بوصف البيان؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان، واللَّوْحُ من شهود السلطان، وكلُّ مُصِيب، ولكلُّ من الحق نصيب.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾.

استحق المدح والثناء على انفراده بالقدرة على خلق السموات والأرض.

﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَىٰ وَتِلْكَ وَرَبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾:

تعرّف إلى العباد بأفعاله، وتذّبهم إلى الاعتبار بها، فمنها ما نعلم منه ذلك معيّنة كالسموات والأرض وغيرها، ومنها ما سبيل الإيمان به الخبر والنقل - لا بدليل العقل - والملائكة من ذلك؛ فلا نتحقق كيفية صورهم وأجنتهم، وكيف يطبّرون بأجنتهم الثلاثة أو الأربعة، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته، وصدق كلمته.

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: قيل الخلق الحسن، وقيل الصوت الحسن، وقيل الصوت الحسن وقيل مَلَاخَةُ العَيْنين، وقيل الكياسة في الخيرة، وقيل الفصاحة في المنطق، وقيل الفهم عن الله، ويقال السخاء والجود، ويقال الرضا بالتقدير، ويقال علو الهمة، ويقال التواضع، ويقال العفة عند الفقر، ويقال الظرف في الشرائع، ويقال أن تكون مُحِبّاً إلى القلوب، ويقال خفة الروح، ويقال سلامة الصدر من الشرور، ويقال المعرفة بالله بلا تأمل برهان^(١)، ويقال الشوق إلى الله، ويقال التعطف على الخلق بجملتهم، ويقال تحرر القلوب من رِقِّ الحدثان بجملته، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلة في الدارين.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لِمِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن المعرفة بالله بالرسالة القشيرية ص ٣١١ - ٣١٧.

المَوْسَعُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ، والمحرومُ لَا يُوسَعُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ.
ويقال: ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستره، ولا ضياء يقهره.

ويقال: ما يلزم قلوب أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ له، وما يُغْلَقُ على قلوب الأعداء من أبواب الذكر فلا فَاتَحَ له غيره - سبحانه.

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُنْسِكَ له، والذي يمنعه عن أعدائه - بما يُلْقِيهِمْ فيه من انغلاق الأمور واستصعابها - فلا يُمَيِّسِرُ له من دونه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾.

مَنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ فَصَاحِبُ عِبَادَةٍ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمُنْعِمَ فَصَاحِبُ إِرَادَةٍ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ... ولكن فرق بين زيادة وزيادة؛ ذلك زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاءه: اليوم سِرّاً بِسِرٍّ من حيث المشاهدة، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ من حيث المعاينة. والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ عنه من المَحَن، وما نَفَعَ به من المِنَّة؛ فذِكْرُهُ لما دَفَعَ عنه يوجب دوام العصمة، وذكره لما نَفَعَ به يوجب تمام النعمة.

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ...﴾؟ وفائدة هذا التعريف أنه إذا عَرَفَ أنه لا رازقَ غيره لم يُعَلِّقْ قلبه بأحدٍ في طلب شيء، ولم يتذلل في ارتفاقٍ لمخلوق، وكما لا يرى رِزْقَهُ من مخلوقٍ لا يراه من نفسه أيضاً؛ فيتخلص من ظلمات تدبيره واحتياله، ومن تَوَهُّم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتقويضه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾.

هذه تسليّة للرسول ﷺ، وتسهيل للصبر عليه؛ فإذا عَلِمَ أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلما استقبله، وأنهم صَبَرُوا وَأَنَّ اللَّهَ كَفَاهُمْ، فهو يسلك سبيلهم ويقتدي بهم، وكما كفاهم عَلِمَ أنه أيضاً يكفيه. وفي هذا إشارة للحكماء وأرباب القلوب في موقفهم من العوالم والأجانب عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، بينما أهل الحقائق أبدأ منهم في مقاساة الأذى إلا بستر حالهم عنهم.

والعوالم أقرب إلى هذه الطريقة من القراء المتقشفين، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول ينكرون.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْغَيُورَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ، فَوَعْدُهُ فِي الْقِيَامَةِ حَقٌّ، ووَعْدُهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ بِكَفَايَةِ الْأُمُورِ وَالسَّلَامَةِ حَقٌّ، ووَعْدُهُ لِلْمُطِيعِينَ فِي الْآخِرَةِ بِوُجُودِ الْكَرَامَةِ حَقٌّ، وَلِلْعَاصِينَ بِالنَّدَامَةِ حَقٌّ، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ اسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِالرِّزْقِ، فَيَكْفِيهِ اللَّهُ شُغْلُهُ، فَيَنْشِطُ الْعَبْدُ فِي اسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ ثَقَّةً بِالْوَعْدِ، وَلَا يُلِمْ بِالْمَخَالَفَاتِ خَوْفًا مِنَ الْوَعِيدِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

عدواة الشيطان بدوام مخالفته؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يِعَاوَنُهُ بِالْقَوْلِ وَلَكِنْ يُوَافِقُهُ بِالْفِعْلِ، وَلَنْ تَقْوَى عَلَى عِدَاوَتِهِ إِلَّا بِدَوَامِ الِاسْتِغَاثَةِ بِالرَّبِّ، وَتِلْكَ الِاسْتِغَاثَةُ تَكُونُ بِصَدَقِ الِاسْتِعَانَةِ. وَالشَّيْطَانُ لَا يَفْتَرُ فِي عِدَاوَتِكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَنْ مَوْلَاكَ لِحِظَةٍ فَيَرِزُ لَكَ عِدْوُكَ؛ فَإِنَّهُ أَبَدًا مَتَمَكِّنٌ لَكَ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ وَحِزْبُهُ هُمُ الْمُعْرِضُونَ عَنِ اللَّهِ، الْمُشْتَغِلُونَ بِغَيْرِ اللَّهِ، الْغَافِلُونَ عَنِ اللَّهِ. وَدَلِيلُ هَذَا الْخَطَابِ: إِنَّ الشَّيْطَانَ عِدْوَكُمْ فَأَبْغُضُوهُ وَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، وَأَنَا وَلِيُّكُمْ وَحَبِيبُكُمْ فَأَجِبُونِي وَارْضَوْا بِي حَبِيبًا.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ مُعَجَّلٌ وَعَذَابٌ مُؤَجَّلٌ، فَمُعَجَّلُهُ تَفَرُّقُهُ قُلُوبُهُمْ وَانْسِدَادُ بَصَائِرِهِمْ وَوَقَاحَةُ هِمَّتِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِأَنَّهُمْ الصَّنَمُ مَعْبُودُهُمْ. وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَهُوَ مَا لَا تَخْفَى عَلَى مُسْلِمٍ - عَلَى الْجَمَلَةِ - صَعُوبَتُهُ.

وَأَمَّا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَلَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَيْ سَتْرٌ لَذُنُوبِهِمُ الْيَوْمَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَافْتَضَحُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: وَالْأَجْرُ الْكَبِيرُ الْيَوْمَ سَهُولَةُ الْعِبَادَةِ وَدَوَامُ الْمَعْرِفَةِ، وَمَا يَنَالُهُ فِي الْقَلْبِ مِنْ زَوَائِدِ الْيَقِينِ وَخَصَائِصِ الْأَحْوَالِ. وَفِي الْآخِرَةِ: تَحْقِيقُ السُّؤْلِ وَنَيْلُ مَا فَوْقَ الْمَأْمُولِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

معنى الآية: أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ! وَمَعْنَى ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أَنْ الْكَافِرَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عَمَلَهُ حَسَنٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُخْرِجُونَنَا فَنُصْنَفُ﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ويحوش^(١) خطامها، ولا يفكر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها؛ فلقد زين له سوء عمله والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبد راحاته في الجنة بساعة فلقد زين له سوء عمله. وإن الذي يؤثّر على ربّه شيئاً من المخلوقات لهو من جملتهم. والذي يتوهم أنه إذا وجد نجاته ودرجاته في الجنة - وأن هذا يكفيه. . فقد زين له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة. والذي هو في صحبة حظوظه ولا يؤثّر حقوق الله فلقد زين له سوء عمله فرأه حسناً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾: يعني إذا عرفت حق التقدير، وعلمت أنهم سقطوا من عين الله، ودعوتهم جهراً، وبذلت لهم نصحاً، فاستجابتهم ليست لك، فلا تجعل على قلبك من ذلك مشقة ولا عناء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبَّثَ مَكَايَا فَسَقَنَّهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَخْيَبْنَا بِهِ الْأَرْضَ بِعَدَّةٍ مَوْتَهَا كَذَلِكَ الشُّورُ﴾.

أجرى سنته بأنه يظهر فضله في إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب، ثم يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء، ويمطر هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياء قلب عبد بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيزبل أولاً رياح الرجاء، ويزعج بها كوامن الإرادة، ثم ينشئ فيها سحب الاحتياج، ولوعة الانزعاج، ثم يوجد بمطر ينبت في القلب أزهار البسط، وأنوار^(٢) الروح، فيطيب لصاحبه الغيش إلى أن تم لطائف الأنس.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُورُثُ﴾.

من كان يريد العزة بنفسه فليعلم أن العزة بجملتها لله، فليس للمخلوق شيء من العزة. ويقال من كان يريد العزة لنفسه فله العزة جميعاً، أي فليطلبها من الله، وفي آية أخرى أثبت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وقال هاهنا ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾؛ ووجه الجميع بينها أن عز الربوبية لله وفضاً، وعز الرسول، وعز المؤمنين لهم فضلاً من الله ولطفاً؛ فإذا العزة لله جميعاً. وعزه سبحانه - قدرته. أو يقال العزيز هو القاهر الذي لا يقهر؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين. . ومن صفات ذاته على القول الآخر. ويقال العزيز هو الذي لا يوصل إليه من قولهم: أرض عزاز إذا لم تستقر عليها الأقدام، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه.

(١) حوش المال: جمعه.

(٢) أنوار: (ج) النور: الزهر أو الأبيض منه. الواحدة: نورة.

ويقال العزيز الذي لا مثْلَ له؛ من قولهم؛ عَزَّ الطعام في اليد. فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو.

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة - يعني الشهادتين - عن إخلاص. وأراد به صعودَ قَبُولٍ، لأنَّ حقيقة الصعود في اللغة بمعنى الخروج - ولا يجوز في صفة الكلام.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: أي يقبله. ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. ويقال الكلم الطيب ما يكون موافقاً للسنة، ويقال هو ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. ويقال هو نُطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الربُّ. ويقال هو ما يكون دعاءً للمسلمين. ويقال ما يتجرد حقاً للحق ولا يكون فيه حظ للعبد. ويقال ما هو مُستخرج من العبد وهو فيه مفقود. ويقال هو بيان التنصل وكلمة الاستغفار.

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويقال الذي ليس فيه آفة ولا يُطلب عليه عَوْضٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾. أي يُقْلَبُ عليهم مَكْرُهُم فيما يتوهمونه من خيرٍ لهم يقلِّبه محنةً عليهم. ويقال: تَخْلِيئَتُهُ إياهم ومَكْرُهُم - مع قدرته على عصمتهم، وكَوْنُهُ لا يعصمهم هي عذابهم الشديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ذَكَرَهُمْ نَسَبَتَهُمْ لثلاث يُعْجَبُوا بحالتهم، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريع التغير، قليل القوة في المَكث، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته؛ فإذا جاد الحقُّ عليه بماء الجود أعاده بعد انكساره بالذنوب.

وإذا كان لا يخفى عليه - سبحانه - شيء من أحوالهم في ابتداء خَلْقَتِهِمْ، فَمَنْ يُبَالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْصِي فلا يبالي أَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ رآه يعصي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَالِحٌ شَرَابَهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ يُبَنَّفَوْنَ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

لا تستوي الحالتان: هذه إقبال على الله، واشتغال بطاعته، واستقلال بمعرفته. وهذه إغراض عن الله، وانقباض عن عبادته، واعتراض - على الله - في قسمته وقبضته.

هذه سبب وصاله، وهذه سبب هجره وانفصاله، وفي كل واحدة من الحالتين يعيش أهلها، ويُزجي أصحابها وقتها. ولا يستوي الوقتان: هذا بسطٌ وصاحبه في رُوح، وهذا قبضٌ وصاحبه في نُوح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. هذا فَرْقٌ وصاحبه بوصف العبودية، وهذا جَمْعٌ وصاحبه في شهود الربوبية.

﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيفًا وَتَسْتَخِرُونَ ظِلَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾: كذلك كُلٌّ يتقربُ في حالته لربه، ويتزَيَّنُ على بابه، وهو جَلِيَّتُهُ التي بها يتحلَّى من طَرَبٍ أو حَرَبٍ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

تغلب الشمس مرة على القلب، ويغلب القلب مرة على الشمس. وكذلك القبض والبسط فقد يستويان، ومرة يغلب القبض على البسط، ومرة يغلب البسط على القبض، وكذلك الصحو والسُّكْرُ، وكذلك الفناء والبقاء.

وسَخَّرَ شمسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾: فاروني شظية من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه! وإذ لم يُمكنكم ذلك.. فهُلَّا أفرزتم، وفي عبادته أخلصتم، وعن الأصنام تَبَرَّأْتُمْ؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَنْتَفِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾.

إن استعنتم بأصنامكم لا يُعينوكم، وإن دَعَوْتُمُوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سَمِعُوا - على جهة ضَرْبِ المَثَلِ - لا يستجيبون لكم؛ لأنهم لا يَمْلِكُونَ نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ. فكيف يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ؟

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾: لا يؤمنون إلا في ذلك الوقت، ولكن لا ينفعهم الإيمان بعد زوال التكليف.

قوله جل ذكره: ﴿بَيَّنَّا لِلنَّاسِ آيَاتِهِ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الفقر^(١) على ضربين: فقر الخِلْقَةِ وفقر الصفة؛ فأما فقر الخِلْقَةِ فهو عامٌ لكلٍّ أحدٍ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه، فهو قد حَصَلَ من العَدَمِ، فهو مفتقرٌ إليه ليبيده

(١) انظر حديث القشيري عند الفقر في الرسالة ص ٢٧١ - ٢٧٩.

وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقرٌ - في حال بقائه إليه - لِيُدِيمَهُ وَيَقِيَهُ. فاللَّهُ - سبحانه - غني، والعبدُ فقير؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللَّهُ غنيٌ بعينه.

وأما فقر الصفة فهو التجرد، فققرُ العوامِ التجردُ من المال، وفقر الخواصِ التجرد من الأعلالِ لِيَسْلَمَ لهم الفقر.

والفقر على أقسام: فقر إلى الله، وفقر إلى شيء هو من الله؛ معلوم أو مرسوم وغير ذلك. ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله، والمستغني بالله مفتقرٌ إلى الله^(١).

ومن شرف الفقر اقتراحه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر، وشرفُ العبد في فقره، وكذلك ذلُّه في توهمه أنه غنيٌّ: -

وَإِذَا تَذَلَّلْتُ الرَّقَابُ تَقَرُّبًا مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ومن الفقر المذموم، أن يَسْتَرْ الحقَّ على صاحبه مواضع فقره إلى ربِّه، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَ الحقَّ مواضع فقره إليه.

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملك شيئاً ويملك كلَّ شيء.

ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء.

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشْكُرِ عند كمالِ التَّكْسُرِ. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى.

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السُّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله.

ويقال: الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرَمِدِ الوقتِ من غير استكراه شيءٍ منه بكلِّ وجهٍ.

قوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الإشارة منه أن يُعْطِيَ حتى يُخَمِّد.

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاهُ لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة - وَجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك - وإمَّا ليجود ويفضِّل على أحدٍ.

ويقال: لا يقول لنا أنتم الفقراء للإضرار بنا - فَإِنَّ كَرَمَهُ يَتَقَدَّسُ عن ذلك - وإنما المقصود أنه إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا.

(١) قال القشيري برسالته: سئل الجنيّد عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل، فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال: أيهما أتم الافتقار أم الغنى؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى. (الرسالة القشيرية ص ٢٧٣).

ويقال إذا لم تدع ما هو صفته - من استحقاق الغنى - أولاك ما يغنيك، وأعطاك فوق ما يكفيك.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

عزفك أنه غني عنك، وأشهدك موضع فقرك إليه، وأنه لا بد لك منه، فما القصد من هذا لا إرادته لإكرامك وإيوائك في كثرة إنعامه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كل مطالب بعمله، وكل محاسب عن ديوانه، ولكل معه شأن، وله مع كل أحد شأن. ومن العبادات ما تجري فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجري النيابة؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاة مفروضة، فلو قضى عنه ألف ولي ألف صفي تلك الصلاة الواحدة عن كل ركعة ألف ركعة لم تقبل منه إلا أن يجيء هو: معاذ الله أن نأخذ إلا بمن وجدنا متاعنا عنده! فعتابك لا يجري مع غيرك والخطاب الذي معك لا يسمعه غيرك:

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَفَقَّ عَلَيْكَ مُحِبِّي مَكَائِكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَصُونُ

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة، والخشية هي المخافة؛ فمعنى الآية، لا ينفع التخويف إلا لمن صاحب الخوف - وطير السماء على أشكالها تقع.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

كما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي الظل والحور، ولا الأحياء والأموات. . . وكذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنا، والمجذوب إلينا، والمحجوب عنا، ولا يستوي من اصطفيناه في الأزل ومن أشقينا به حكم الأزل، ولا يستوي من أشهدناه حقنا ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا:

أحبابنا شتان: وافي وناقض ولا يستوي قط محب وباغض

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أَشْءٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي وما من أمة ممن كانوا من قبلك إلا بعثنا فيهم نذيراً، وفي وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافة بالحق.

﴿يَسِيرًا وَنَذِيرًا﴾: تضمنت الآية بيان أنه لم يُخل زماناً ولا قومًا من شرع. وفي وقته ﷺ أفرد به بأن أرسله إلى كافة الخلائق، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له: قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي لو قابلوك بالكذب فتلك سُنتهم مع كل نبي؛ وإن أصرُّوا على سُنتهم في الغي فلن تجدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا في الانتقام والخزي^(١). قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

بيِّن في هذه الآية وأمثالها أن تخصيصَ الفعل بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه، وفي إتقانِ الفعل وإحكامه شهادة على عِلْمِ الصانع وإعلامه. وكذلك ﴿وَمِنْ أَلْسِنَةٍ أَلْوَابٍ وَاللَّغْوِ﴾: بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف، وهو دليل ثبوت مُثَنِّيها بنعت الجلال. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

«إنما» كلمة تحقيق تجري من وجه مجرى التحديد أي التخصيص والقصر، فَمَنْ فَقَدْ الْعِلْمَ بِاللَّهِ فلا خشية له من الله.

والفرق بين الخشية والرهبة أن الرهبة خوفٌ يوجبُ هَرَبَ صاحبه فيجري في هربه، والخشية إذا حصلت كَبَحَتْ^(٢) جماحَ صاحبها فيبقى مع الله، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة.

والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالخشية قضية العلم، والهبة توجب المعرفة.

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقِّه. ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق.

ويقال حَذَرًا من أن يحصل لهم سوء أدبٍ وتَرْكُ احترامٍ، وانبساط في غير وقته بإطلاق لَفْظٍ، أو تَرْخُصٍ بِتَرْكِ الأولى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾.

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) كبج فلاناً عن حاجته: رده عنها. وجمع الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده.

الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه، وإتيانهم بأنواع العبادات وصنوف القرب فلهم القدرُ الأجلُّ من التقريب، والنصيبُ الأوفر من الترحيب. وأما الذين أحوالهم بالضدِّ فَمَنَالُهُمْ على العكس. أولئك هم الأولياءُ الأعزّةُ، وهؤلاء هم الأعداءُ الأذلةُ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

ما عَرَفْنَاكَ - من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك، وتقديمنا لك على الكافة - فعلى ما أخبرناك، وأنشدوا:

لا أبتغي بدلاً سواكِ خليلاً
فثِقِي بقولي والكِرَامُ ثِقَاتُ
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

﴿أَوْرَثْنَا﴾: أي أعطينا الكتاب - أي القرآن - الذين اصطفينا من عبادنا، وذكر الإعطاء بلفظ الإرث توسعاً.

﴿اصْطَفَيْنَا﴾: أي اخترنا. ثم ذكر أقسامهم، وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «أمتي وربّ الكعبة»^(٢) ثلاث مرات.

وفي الآية وجوه من الإشارة: فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالميراث يقتضي صحة النسب على وجه مخصوص، فَمَنْ لا سبب له فلا نسب له، ولا ميراث له.

ومحلُّ النسبِ ها هنا المعرفة، ومحلُّ السببِ الطاعة. وإن قيل محلُّ النسبِ فضله، ومحلُّ السببِ فِعْلُكَ، فهو وَجْهٌ. ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانه لك تالياً.

ويقال أهلُ النسبِ على أقسام: - الأقوى، والأدنى كذلك في الاستحقاق. ويقال جميع وجوه التملك لا بُدَّ فيها من فعلٍ للعبد كالبيع، أمّا ما يُمْلِكُ بالهبة فلا يحصل إلا بالقبول والقسمه، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك. والوصية لا تُسْتَحَقُّ إلا بالقبول، وفي الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل الشَّهْمَانِ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله، والنسبُ ليس من جملة أفعاله.

(١) الآية (٣٠) لم ترد.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٩٠).

ويقال الميراث يُسْتَحَقُّ بوجهين: بالفرض والتعصيب، والتعصيب أقوى من الفرض؛ لأنه قد يستحق به جميع المال، ثم الميراث يبدأ بذوي الفروض ثم ما يتبقى فللعصبة^(١).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾: تكلموا في الظالم، فمنهم من قال هو الأفضل، وأرادوا به من ظلم نفسه لكثرة ما حملها من الطاعة.

والأكثر: إنَّ السابق هو الأفضل، وقالوا: التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة، ولهذا نظائر كثيرة.

ويقال قَرَنَ باسم الظالم قرينة وهي قوله: «لنفس»، وقرن باسم السابق قرينة وهي قوله: ﴿إِذْنُ اللَّهِ﴾؛ فالظالم كانت له زلة، والسابق كانت له صولة، فالظالم رَفَعَ زَلَّتْه بقوله: لنفسه، والسابق كَسَرَ صَوْلَتْه بقوله: بإذن الله.

كانه قال: يا ظالم ارفع رأسك، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك، ويا سابق اخفض رأسك؛ سَبَقْتَ - ولكن بإذن الله.

ويقال إنَّ العزيز إذا أرى ظالماً قَصَمَهُ، والكريم إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده، كأنه قال: يا ظالم، إنَّ كان كونك ظالماً يوجبُ قَهْرَكَ، فكونك مظلوماً يوجبُ الأخذَ بيدك.

ويقال الظالمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَّاتُهُ، والمقتصدُ مَنْ استوت حالاته، والسابقُ مَنْ زادت حسناته.

ويقال الظالمُ مَنْ زهد في دنياه، والمقتصدُ مَنْ رغب في عقباه، والسابقُ مَنْ آثر على الدارين مولاه.

ويقال الظالمُ مَنْ نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصدُ مَنْ طَلَعَ بذُرِّ علمه، والسابقُ مَنْ ذَرَّتْ شمسُ معرفته.

ويقال الظالمُ مَنْ طَلَبَهُ، والمقتصدُ مَنْ وَجَدَهُ، والسابقُ مَنْ بقي معه.

ويقال الظالمُ مَنْ تَرَكَ المعصية، والمقتصدُ مَنْ تَرَكَ الغفلة، والسابقُ مَنْ تَرَكَ العلاقة.

ويقال الظالمُ مَنْ جاد بماله، والمقتصدُ مَنْ لم يبخل بنفسه، والسابقُ مَنْ جاد بروحه.

ويقال الظالمُ مَنْ له علم اليقين، والمقتصدُ مَنْ له عين اليقين، والسابقُ مَنْ له حق اليقين.

(١) العَصْبَةُ: الذين يرثون الرجل عن كلاله، من غير والد ولا ولد. فأما في الفرائض فكل من لم تكن له فريضة مسمأة. فهو عَصْبَة، إن بقي شيء بعد الفرائض أخذ. (اللسان ٦٠٥/١ مادة: عصب).

ويقال الظالم صاحب المودة، والمقتصد الخلة، والسابق صاحب المحبة.
ويقال الظالم يترك الحرام، والمقتصد يترك الشبهة، والسابق يترك الفضل^(١) في الجملة.

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء، والمقتصد صاحب جود، والسابق صاحب إثارة.
ويقال الظالم صاحب رجاء، والمقتصد صاحب بسط، والسابق صاحب أنس.
ويقال الظالم صاحب خوف، والمقتصد صاحب خشية، والسابق صاحب هبة.
ويقال الظالم له المغفرة، والمقتصد له الرحمة والرضوان، والسابق له القربة والمحبة.

ويقال الظالم صاحب الدنيا، والمقتصد طالب العقبى، والسابق طالب المولى.
ويقال الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق صاحب المناجاة.

ويقال الظالم أمين من العقوبة، والمقتصد فاز بالمشوبة، والسابق متحقق بالقربة.
ويقال الظالم مضروب بسوط الحرص، مقتول بسيف الرغبة، مضطجع على باب الحسرة. والمقتصد مضروب بسوط الندامة، مقتول بسيف الأسف، مضطجع على باب الجود.

والسابق مضروب بسوط التواجد، مقتول بسيف المحبة، مضطجع على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل، والمقتصد صاحب التسليم، والسابق صاحب التفويض.

ويقال الظالم صاحب تواجد، والمقتصد صاحب وجد، والسابق صاحب وجود.

ويقال الظالم صاحب المحاضرة، والمقتصد صاحب المكاشفة، والسابق صاحب المشاهدة.

ويقال الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرة، والمقتصد يراه في كل يوم مرة، والسابق غير محجوب عنه ألبتة.

ويقال الظالم مجذوب إلى فعله الذي هو فضله، والمقتصد مكاشف بوصفه الذي هو عزه، والسابق المستهلك في حقه الذي هو وجوده.
قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ أَفْضَلُ الْكَبِيرِ﴾ لأنه ذكر الظالم مع السابق.

(١) الفضل: هنا الزيادة. يقول سهال بن عبد الله عن الحلال الصافي: هو الذي لا يعصى الله تعالى فيه، وهو الذي لا ينسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص ١١٢).

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

نبّه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضل، وليس في الفضل تمييز.
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.
تحققوا بحقائق الرضا، والحزن سُمي حزنًا لحزونة^(١) الوقت على صاحبه وليس في الجنة حزونة وإنما هو رضا واستبشار.

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة. ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء الأدب. ويقال هو سياسة النفس.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للعصاة، ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين. قدّم ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ قَضَاهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾: أي دار الإقامة، لا يبغون عنها حولا، ولا يتمنون منها خروجاً.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة، بل غُرْفهم يلقون فيها تحية وسلاماً، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى قلب حدة أو تحديق مقلة في جهة؛ يَرُونَهُ كما هُم بلا كيفية.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾.

لا حياة يَتَمَتَّعُونَ بها، ولا موت يستريحون به، وهم مقيمون في العذاب والحجاب، لا يفر عنهم العذاب، وتَرْفَعُ عنهم العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيقال لهم أو لم نَعْمِرْكُمْ...؟

(١) حزن المكان حزونة: خشن وغلظ، فهو حزن.

أَمَا جَاءَكُمْ النَّذِيرُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا زَمَانَ الْمَشِيبِ؟

ويقال: ألم تستوفوا مدة الإمهال في النظر؟

﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾: الرسل، ويقال ضعف الشيخوخة، ويقال سقوط السن،
ويقال تقوُّس الظهر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي عالم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد الكافرين.

عالم بمن يريد بالناس سوءً وبمن يُحسِن بالله الظن.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أهل كل عصر خليف عمن تقدمهم؛ فمن قوم هم لسلفهم حمال^(١)، ومن قوم هم أراذل وأنذل؛ فالأفاضل زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وقد قالوا:

يَوْمَ وَحَسَبُ الْبَدْرِ مِنْ أَجَلِهِ حَيَاغِدٌ وَالتَّفَتُ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مَنَّهُ بَلْ لَنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

كرَّرَ إسهادهم عجز أصنامهم، ونقص من اتخذوهم آلهة من أوثانهم؛ ليسفَه بذلك آراءهم، ولينبههم إلى ذميم أحوالهم وأفعالهم، وخسرة هممهم، ونقصان عقولهم.

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيء مما به يطالبون، وليس لهم صواب عما يُسألون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذْ مَسَّكُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّكُمْ كَانَتْ لِحِيلًا غَفُورًا﴾

(١) الحمال: ما يتحملة الإنسان عن غيره من دية أو غرامة مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين. (لسان العرب ١١/ ١٨٠ مادة: حمل).

سورة يس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» آية افتتح بها خطابه؛ فَمَنْ عَلِمَهَا أَجَزَلُ ثَوَابِهِ، وَمَنْ عَرَفَهَا أَكْثَرَ إِجَابِهِ، وَمَنْ أَكْبَرَ قَدْرَهَا أَكْرَمَ مَا بِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾.

يقال معناه: يا سيد. ويقال: الياء تشير إلى يوم الميثاق، والشين تشير إلى سيره مع الأحباب؛ فيقال بحق يوم الميثاق وسيرِّي مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم: -

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي إِنَّكَ - يا محمد لَمِنَ المرسلين، وَإِنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

أي هذا الكتاب تنزيل (العزیز): المتكبر الغني عن طاعة المطيعين، (الرحيم): الْمُتَفَضَّلُ على عباده المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنذِرْ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

أي خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن، وأنزلنا عليك هذا القرآن لِنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا حصلوا في أيام الفترة، وانقرض أسلافهم على هذه الصِّفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي حَقَّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصروا على جَحْدِهِمْ، وانهمكوا في جهلهم، فالمعلوم منهم والمحكوم عليهم أنهم لا يؤمنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَلاً فَهِيَ إِلَى الْآذَانِ فَهْمٌ تُّمَمِّحُونَ﴾.

سَجَرُوهُمْ إلى هوانهم وصغرهم، وسنديقهم وبأل أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أغرقتهم اليوم في بحار الضلالة وأخطنا بهم سرادات الجهالة. وفي الآخرة سَنُغْرِقُهُمْ في النار والانكال، ونضيق عليهم الحال، بالسلاسل والأغلال.

﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ﴾: أعميناهم اليوم عن شهود الحُجَّة، ونُلْبِسُ عليهم في الآخرة سبيل

الْمَحْجَةِ، فَيَتَعَذَّرُونَ فِي وَهْدَاتِ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، وَيَقُونَ فِي حُرْقَاتِهَا مَهْجُورِينَ، مَطْرُودِينَ مَلْعُونِينَ، لَا تَقْطَعُ عَنْهُمْ مَا بِهِ يُعَذَّبُونَ، وَلَا تَرْحَمُهُمْ مِمَّا مِنْهُ يَشْكُونَ؛ تَمَادَى بِهِمْ جَزْمَانُ الْكُفْرِ، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ سَرَادِقَاتُ الشَّقَاءِ، وَوَقَعَتْ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَةُ بِالْفِرَاقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

مهجور الحق لا يصله أحد، ومردود الحق لا يقبله أحد. والذي قصمته المشيئة وأقمته القضية لا تنجعه فيه النصيحة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

أي إنما ينتفع بإنذارك من اتبع الذكر؛ فإن إنذارك - وإن كان عاماً في الكل وللكل - فإن الذين كفروا على غيهم يصرون. . ألا ساء ما يخكمون، وإن كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون. أما الذين اتبعوا الذكر، واستبصروا، وانتفعوا بالذي سمعوه منك، وبه عملوا - فقد استوجبوا أن تبشرهم؛ فبشرهم، وأخبرهم على وجه يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: كبير وافر على أعمالهم - وإن كان فيها خلل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾.

نحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمِطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة، ونكتب ما قَدَّمُوا.

﴿وَأَثَرَهُمْ﴾: خُطَاهُم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وترقرق^(١) دموعهم على عَرَصات^(٢) خدودهم، وتَصَاعَدُ أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ. . لا لتناسينا لها - وكيف وقد أحصينا كل شيء عدداً؟ - ولكننا أحيينا إثبات آثار أحيائنا في المكنون من كتابنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَحْصَبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

انقرض زمانهم ونسي أوانهم وشأنهم! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم، ولا نرضى بالآلا يجري بين أحيائنا وعلى ألسنة أوليائنا ذِكْرُ الغائبين والماضين، وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ وَخَانَ الْمُوَدَّةَ خِلَالُهَا

(١) ترقرق الدمع: دار في العين.

(٢) عرصات: (ج) عرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

فعندي لإخواني الغائبين صحائف ذكرك عنوانها
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتَ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمَرسُلُونَ﴾^(١).

قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمَرسُلُونَ﴾ وليس علمنا إلا بما أمرنا به من التبليغ والإنذار^(٢).

﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيرَنَا بِكُمْ لَيْنَ لَر تَنْهَوْنَا لَزَجْمِكُمْ وَلَيَمَسَّنَا مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
لنرجمكم، ولنضنن، ولنفعلن.. فأجابهم الرسل: إنكم لجهلكم ولجحدكم
سوف تلقون ما توعدون^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا
مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

في القصة أنه جاء من قرية فسماها مدينة، وقال من أقصى المدينة، ولم يكن
أقصاها وأدناها ليتفاوتا بكثير، ولكنه - سبحانه - أجرى سُنَّتَه في استكثار القليل من
فعل عبده إذا كان يرضاه، ويستنزِر الكثير من فضله إذا بذله وأعطاه.

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا﴾ فابلق الوغظ وصدق النصح. ولكن كما قالوا:
وكم سُفْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح

فلما صدق في حاله، وصبر على ما لقي من قومه، ورجع إلى التوبة، لقاء
حسن أفضاله، وآواه إلى كتف إقباله، وجد ما وعده ربّه من لطف أفضاله^(٤).

﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.
تمنى أن يعلم قومه حاله، فحقق الله مثاه، وأخبر عن حاله، وأنزل به خطابه،
وعرف قومه ذلك. وإنما تحنى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم، ليعملوا مثلما عمل ليجدوا
مثلما وجد.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ
إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خاكِدُونَ﴾.

ما كانت إلا قضية منا بعقوبتهم، وتغييراً لما كانوا به من السلامة إلى وصف
البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(٣) الآية (١٩) لم ترد.
(٤) الآيات من (٢٢) حتى (٢٥) لم ترد.

(١) الآية (١٤) لم ترد.
(٢) الآية (١٧) لم ترد.

إن لم يتحسروا هم اليوم فلهم موضع التحسر؛ وذلك لانخراطهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل، ومناوئة أوليائه - سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ .

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية، وما عاملنا به الأمم الخالية، فلم يرجع إليهم أحد، فكلهم في قبضة القدرة، ولم يفتنا أحدًا، ولم يكن لواحد منهم علينا عون ولا مدد، ولا عن حكمتنا ملتحذ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّ هُمْ الَّذِينَ هُمُ الْأَرْضُ أَلَمِيتُهُمْ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ .

لما كان أمر البعث أعظم شبيهم، وكثر فيه إنكارهم كان تكرار الله سبحانه لحديث البعث، وقد ضرب - سبحانه - المثل له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات. والعجب بمن ينكر علوم الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما في القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال، وتحكيم أدلة العقول؟ ولكن يهدي الله لنوره من يشاء. ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم، واشتغلوا بأهم شيء عندهم لما ضيعوا أصول الدين، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد، وادّعوا في الفروع رتبة الإمامة والتصدر. . ويقال في معناه:

يا مَنْ تَصَدَّرَ فِي دَسْتِ الْإِمَامَةِ فِي مسائل الفقه إملاء وتدريسا

غَفَلْتَ عَنْ حَجَجِ التَّوْحِيدِ تُحْكِمُهَا شَيْدَتْ فِرْعَا وَمَا مَهَّدَتْ تَأْسِيسَا

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

تنبه هذه الآية على التفكر في بديع صنعه؛ فقال: تنزيهاً لمن خلق الأشياء المتشاكلة في الأجزاء والأعضاء، من النبات، ومن أنفسهم، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها، كيف جعل أوصافها في الطعوم والروائح، في الشكل والهيئة، في اختلاف الأشجار في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها في تفرقها واجتماعها، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قوم: الطبائع؛ في الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واختلاف الأحداث التي يخلقها الله عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان. ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، فالأوقات متجانسة، والأزمان، متماثلة، والجواهر متشاكلة. . وهذه الأحكام مختلفة، ولولا تخصيص حُكْم لكل شيء بما اختص به لم يكن تخصيص بغير ذلك أولى منه. وإنَّ مَنْ كَحَلَ اللَّهُ عِيُونَ بصيرته بيْنُ التعريف، وقرَن أوقاته بالتوفيق، وأتمَّ نظره، ولم يصدّه مانع. فما أقوى في المسائل حُجَّتَه! وما أوضح في السلوك نَهْجَه!.

إِنَّهَا لِأَقْسَامٍ سَبَقَتْ عَلَى مَنْ شَاءَ الْحَقُّ بِمَا شَاءَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ اللَّيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

نُبْطِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ بهجوم الليل عليه، وتزِيلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ بهجوم النهار عليه، كذلك نَهَارُ الوجود يدخل على لَيْالِي التوقف، ويقود بيد كَرَمِهِ عصاً مَنْ عَمِيَ عن سلوك رُشْدِهِ فيهديه إلى سَوَاءِ الطريق.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

على ترتيب معلوم لا يتفاوت في فصول السنة، وكل يوم لها مشرق جديد ولها مغرب جديد. . وكل هذا بتقدير العزيز العليم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال، ضعيف، مختصر الفهم. . ثم يُفَكِّرُ حتى تزداد بصيرته. . إنه كالقمر يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلَّمَا ازداد من الشمس دُنُوًّا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يرى. . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بداراً - مَنْ الذي يُصَرِّفُهُ في ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيه الشمس عارفٌ أبداً في ضياء معرفته، صاحبٌ تمكين غير مُتَلَوِّن^(١)، يشرق من برج سعادته دائماً، لا يأخذه كسوف، ولا يستره سحب.

وشبيه القمر عبدٌ تتلون أحواله في تنقله؛ فهو في حال من البسط يترقى إلى حَدِّ الوصال، ثم يُرَدُّ إلى الفترة، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود الحق - سبحانه - فيؤفِّقُه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سَكْرَتِهِ، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يَقْرُبَ من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص

(١) انظر حديث القشيري عن التلويين والتمكين بالرسالة القشيرية ص ٧٨ - ٨٠.

والزوال .. كذلك حاله إلى أن يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله، كما قالوا:

ما كنت أشكو ما على بَدَنِي من كثرة التلوين من بُدَّتِهِ^(١)
وأنشدوا:

كُلُّ يَوْمٍ تَتَلَوْنِ غَيْرُ هَذَا بِكَ أَجْمَل
قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

الإشارة إلى حَمَلِ الْخَلْقِ فِي سَفِينَةِ السَّلَامَةِ فِي بَحَارِ التَّقْدِيرِ عِنْدَ تَلَاظِمِ أُمُوجِهَا بِفَنُونٍ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّأْثِيرِ. فَكُنْ مِنْ عَبْدٍ غَرِقَ فِي اشْتِغَالِهِ فِي لَيْلَةٍ وَنَهَارِهِ، لَا يَسْتَرِيحُ لِحِظَةٍ مِنْ كَدِّ أَعْمَالِهِ، وَمَقَاسَةِ التَّعَبِ فِي أَعْمَالِهِ، وَجَمَعَ مَالَهُ. فَجَرَّهَ ذَلِكَ إِلَى نَسْيَانِ عَاقِبَتِهِ وَمَالِهِ، وَاسْتِيْلَاءِ شُغْلِهِ بِوَلَدِهِ وَعِيَالِهِ عَلَى فِكْرِهِ وَبَالِهِ - وَمَا سَغِيهِ إِلَّا فِي وَبَالِهِ!

وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ غَرِقَ فِي لُجَّةِ هَوَاهُ، فَجَرَّثَهُ مُنَاهُ إِلَى تَحْمِيلِ بِلَوَاهُ، وَخَسِيسٍ مِنْ أَمْرِ مَطْلُوبِهِ وَمُبْتَنَاهُ .. ثُمَّ لَا يَصِلُ قَطُّ إِلَى مَتْنَاهُ، خَسِرَ دُنْيَاهُ وَعَقْبَاهُ، وَبَقِيَ عَنْ مَوْلَاهُ! وَمِنْ أَمْثَالِ هَذَا وَذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى، وَعَلَى عَقْلِ مَنْ فَكَّرَ وَاعْتَبَرَ لَا يَخْفَى.

أَمَّا إِذَا حَفِظَ عَبْدٌ فِي سَفِينَةِ الْعَنَاءَةِ أَفْرَدَهُ - سَبْحَانَهُ - بِالتَّحَرُّرِ مِنْ رِقِّ خَسَائِسِ الْأُمُورِ، وَشَغْلِهِ بِظَاهِرِهِ بِالْقِيَامِ بِحَقِّهِ، وَأَكْرَمَهُ فِي سِرَّائِهِ بِفَرَاغِ الْقَلْبِ مَعَ رَبِّهِ، وَرَقَّاهُ إِلَى مَا قَالَ: «أَنَا جَلِيسٌ مَنْ ذَكَرْنِي» .. وَقُلْ فِي عُلُوِّ شَأْنٍ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ .. وَلَا حَرَجَ! قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾. لَوْلَا جُودُهُ وَفَضْلُهُ لَحَلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا حَلَّ بِأَمْثَالِهِمْ، لَكِنَّهُ يَحْسُنُ الْأَفْضَالَ، يَحْفَظُهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الْآيَاتِ. هَذِهِ صِفَاتُ مَنْ سَيِّبُهُمْ^(٢) فِي أَوْدِيَةِ الْخَذْلَانِ، وَوَسَمَهُمْ بِسِمَةِ الْحَرَمَانِ، وَأَصْنَمَهُمْ عَنْ سَمَاعِ الرُّشْدِ، وَصَدَّهُمْ بِالْخَذْلَانِ عَنْ سُلُوكِ الْقَصْدِ، فَلَا تَأْتِيهِمْ آيَةٌ فِي الزُّجْرِ إِلَّا قَابَلُوهَا بِإِعْرَاضِهِمْ، وَتَجَافَوْا عَنِ الْإِعْتِبَارِ بِهَا عَلَى دَوَامِ انْقِبَاضِهِمْ، وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ وَالْإِطْعَامِ عَارِضُوا بِأَنَّ اللَّهَ رَازِقُ الْأَنَامِ، وَإِنْ يَشَأْ نُنْظِرْ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْعَامِ^(٣): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمُ﴾.

(٢) سَيِّبَهُ: أَطْلَقَهُ وَتَرَكَ وَخَلَّاهُ يَسِيبُ حَيْثُ شَاءَ.

(١) الْبَلَدَةُ: النَّصِيبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

(٣) الْآيَةُ (٤٦) لَمْ تَرُدَّ.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

يستعجلون هجوم الساعة، ويستبطنون قيام القيامة - لا عن تصديق يُريحهم من شكهم، أو عن خوف يمنعهم عن غيهم، ولكن تكديباً لدعوة الرسل، وإنكاراً لصحة النبوة، واستبعاداً للنشر والحشر.

ويوم القيامة هم في العذاب مُحْضَرُونَ، ولا يُكْشَفُ عنهم، ولا يُنْصَرُونَ. قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا بَنِيَّائَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. يموتون قهراً، ويُحْشَرُونَ جَبْراً، ويلقون أمراً، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً.

﴿قَالُوا يَا بَنِيَّائَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يموتون على جهل، لا يعرفون ربهم، وَيُبْعَثُونَ على مِثْلِ حَالِهِمْ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهُمْ، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة الشديدة - بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة - نوماً ورقاداً، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً، لا يذوقون بزداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً^(١): فقد قال جل ذكره:-

﴿قَالِيَوْمَ لَا تَنْفَعُكُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾.

إنما يضاف العبد إلى ما كان الغالب عليه ذِكْرُهُ بمجامع قلبه، فصاحب الدنيا مَنْ فِي أَسْرِهِا، وأصحاب الجنة مَنْ هُمْ طُلَّابُهَا والساعون لها والعاملون لِنَيْلِهَا؛ قال تعالى مخبراً عن أحوالهم وأحوالهم: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَئِمَّ لِلْعَمَلِ الْكَامِلِ﴾ [الصفات: ٦١]. وهذه الأحوال - وإن جَلَّتْ منهم ولهم - فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تنقاصر، قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُلَه»^(٢) وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حُرّاً فَلَا

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٧٩/٨، ٢٦٤/١٠، ٤٠٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٣٦١) والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٥٧/٧، ٢٤٤، ٦٢٧، ٢٣٦/٩)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢٨٦/١)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١١٦٠/٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٧)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٤٥٢/٢) يقال: رجل أبله بين البله والبلالة: وهو الذي غلب عليه سلامة الصدر وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. (لسان العرب ٤٧٧/١٣ مادة: بله).

يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً، والله يختص برحمته من يشاء.

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو، لا تشغلهم الجنة عن أنس القربة، وراحات الوصلة، والفراغ للرؤية.

ويقال: لو عَلِمُوا عَمَّنْ شُغِلُوا لَمَا تَهَنَّأُوا بما شُغِلُوا.

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المعاينة إجلالاً لهم كما يقال: الشيخ يفعل كذا، ويُرَادُ به: أنت تفعل كذا.

ويقال: إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بَعْدَ لِعِضْيَانِهِمْ؛ فيقول الحق: عبيدي.. أهل النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم؛ فليس لك اليوم إلا نحن!

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم، وذلك من أتم الأشغال، وهي أشغال مؤنسة مريحة لا مُتَعَبَةٌ مَوْحِشَةٌ.

ويقال: الحق لا يتعلّق به حقٌّ ولا باطل؛ فلا تَنَافِي بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم، وشهودهم مولاهم، كما أنهم اليوم مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالة هم، ولا يَفْقَدُ اشتغالهم - باستيفاء حُظُوظِهِمْ - في معارفهم.

ويقال شَغَلَ نفوسهم بشهواتها حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبة من إحساس النَّفْسِ الذي هو أصعب الرُّقَبَاءِ، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَابِكِ مُتَكُونُونَ﴾.

﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾: قيل أشكالهم في الحال والمنزلة، كقوله: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقيل حَظَايَاهُمْ^(١) من زوجاتهم.

﴿مَنْ فِيهَا فَكِكُهُمْ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾.

﴿مَنْ فِيهَا فَكِكُهُمْ﴾: أي نصيب أنفسهم. ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس.

﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾: ما يريدون، ويقال تسلم لهم دواعيهم، والدعوى - إذا كانت بغير حق - معلولة.

(١) حظيت المرأة عند زوجها: تمكنت من قلبه وأحبها.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمْتُ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾.

يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة، وأكد ذلك بقوله: «قولا».

وبقوله: ﴿مِّن رَّبِّ﴾ ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير.

﴿مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسَلَّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة. ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنْقِئَهُم في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش، ولا تلحقهم حيرة.

ويقال إنما قال: ﴿مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ، ولرجائهم مساع؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي.

ويقال: قال ذلك ليعلم العبد أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه، وإنما وصل إليه برحمة ربه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْتَرُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

غيبه الرقيب أتم نعمة، وإبعاد العدو من أجل العوارف^(١)؛ فالأولياء في إيجاب القرية، والأعداء في العذاب والحجة.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أَعَاهَدَ لَكُمْ يَنْبَغِي مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَإِنْ أَعْبَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لو كان هذا القول من مخلوق إلى مخلوق لَكَانَ شِبْهَ اعتذار؛ أي لقد نصحتكم ووعظتكم، ومن هذا حَذَرْتُكُمْ، وكم أوصلت لكم القول، وذكرْتُكُمْ فلم تقبلوا وَغْظِي، ولم تعملوا بأمرِي، فأنتم خالفْتُمْ، وعلى أنفسكم ظَلَمْتُمْ، وبذلك سَبَقَتْ القضية مِنَّا لكم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

اليوم سَخَّرَ الله أعضاء بَدَنِ الإنسان بعضها لبعض، وغداً ينقض هذه العادة، فتخرج بمض الأعضاء على بعض، وتجري بينها الخصومة والنزاع؛ فأما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مُبِيدَةٌ، وأما العَصَاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعض أعضائهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان، وكما قيل:

بيني وبينك يا ظلموم الموقفُ والحاكم العذلُ الجوادُ المُنْصِفُ

(١) العوارف: (ج) العارفة: العطية والإحسان.

(٢) الآيات من (٦٢ حتى ٦٤) لم ترد.

وفي بعض الأخبار المروية المُسَنَدَةُ أَنَّ عَبْدًا تشهد عليه أعضاؤه بالزُّلَّة فيطير شِعْرُه من جفن عينيه، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جُفْنِ عبيدي واحتجّي عن عبيدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادي منادٍ: هذا عتيقُ الله بِشَعْرَةٍ^(١).
قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

يُرَدُّه إذا استوى شبابه وقُوَّته إلى العكس، فكما كان يزداد في القوة يأخذ في النقصان إلى أن يبلغ أُرْدَلُ العمر في السن فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شيء، كما قيل:

طوى العصران ما نشره مني وأبلى جدتي نَشْرَ وطئي
أراني كل يوم في انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شيء

هذا في الجثث والمباني دون الأحوال والمعاني؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الْخَرَفِ^(٢) فَيَخْتَلُ رأيه وعَقْلُه. وأهل الحقائق تشيب ذوائبهم ولكن محابهم ومعانيهم في عفوان^(٣) شبابها، وطراوة جدتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقَوَّانٌ مُبِينٌ﴾.

كلامه ﷺ كان خارجاً عن أوزان الشعر، والذي أتاهم به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر، ولا من طرق الخطباء.

تَحَيَّرَ القَوْمُ في بابه؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق^(٤).

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ذَكَرَ عَظِيمٌ مِنْهُ عَلَيْهِم، وجميل نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه الانتفاع.

ولفظ ﴿أَيْدِينَا﴾ تَوَسَّعَ؛ أي مما عملنا وخلقنا، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها، وبشرَبِ ألبانها، وبالحَمْلِ عليها، وقَطْعِ المسافات بها، ثم بأصوافها وأوبارها وشعرها ثم بِعَظْمِ بعضها. . فطالَبَهُم بالشكر عليها، ووصَفَهُم بالتقصير في شكرهم.

(١) الآيتان (٦٦، ٦٧) لم تردا.

(٢) الخرف: فساد العقل من الكبر أو المرض.

(٣) يقال: هو في عفوان شباب؛ أي: في نشاطه وحذته.

(٤) الآية (٧٠) لم ترد.

ثم أظْهَرَ - ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية - أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان :-

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾.

اكتفوا بأمثالهم معبودات لهم، ثم سَلَّى نبيّه - ﷺ بأن قال له :-

﴿فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وإذا عَلِمَ العبدُ أنه بمرأى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه، ولا سيما إذا كان في الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

أي شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ، وجمعنا نَشْرَهُمْ، وَسَوَّيْنَا أَعْضَاءَهُمْ، وَرَكَّبْنَا أَجْزَاءَهُمْ، وأودعناهم العقل والتمييز... ثم إنه ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾: ينازعنا في خطابه، ويعترض علينا في أحكامنا بِزَعْمِهِ واستصوابه، وكما قيل:

أَعْلَمُهُ الرماية كُلُّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رِمَانِي

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنْفِخُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾.

مهَّد لهم سبيل الاستدلال، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء، فأبي إشكالٍ بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ وإن الذي قدر على خَلْقِ النَّارِ في الأغصان الرُّطبة من المَرْخ^(١) والعَفَّار^(٢) قادرٌ على خَلْقِ الْحَيَاةِ في الرُّمَّة^(٣) البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مِثْلِ الشَّيْءِ كالقدرة عليه لاستوائهما بكل وجه، وإنه يحيي النفوس بعد موتها في العرصة كما يُحْيِي الْإِنْسَانَ من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلوب بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان^(٤).

(١) المَرْخ: من العضاء وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سبلية قضبان دقاق، وينبت من شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به. (اللسان ٥٤/٣ مادة: مرخ).

(٢) العفار: شجر فيه نار، يسوى من أغصانه الزناد فيقتدح بها (اللسان ٥٨٩/٤ مادة: عفر).

(٣) الرُّمَّة: العظام البالية (ج) ومم ورمم.

(٤) الآية (٨١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
 ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَخْلُقُهُ وَقَدَرْتَهُ. وأخبرنا أنه تتعلّق
 بالمكوّن كلمته على ما يجب في صفته، وسيان عنده خَلَقُ الكثير في كثرته والقليل في
 قَلَّتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.
 أي بقدرته ظهور كل شيء: فلا يحدث شيء - قَلٌّ أو كَثَرٌ - إلا بإبداعه وإنشائه،
 ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه، فمنه ظهور ما يُخْدِثُ، وإليه مصير ما يخلق.

سورة الصافات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة إذا استولت على قلب أزالته عنه أولاً من الدارين أَرْبَهُ، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرْبَهُ، ثم شَرَّفَتْ من حيث الهمة طَلَبَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْعَنَنْتِ صَفًّا﴾ ..

افتتح اللّهُ هذه السورة بالقَسَمِ بالصافات، وهم الملائكة المصطفّون في السماء وفي الهواء، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق - سبحانه - من المكان يلزمونه، والأمر يعانقون؛ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ، وبما يأمرهم به يطيعونه.

﴿فَالزَّجَرَتِ نَحْرًا﴾.

عَظَفَهُمْ على ما تَقَدَّمَ بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحاب. ويقال يزجرون الناس عن المعاصي. ويقال هي الخواطر الزاجرة عن المناهي.

﴿فَالثَّلَاثَتِ ذِكْرًا﴾.

يقال «الصافات» الطيور المصطفّون في السماء، ﴿فَالثَّلَاثَتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة يتلون كتاب الله، ويتلون الوحي على الأنبياء عليهم السلام.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

هذا هو المقسوم عليه.

أخبر أنه سبحانه واحد في مُلْكِهِ، وذلك لأنهم تَعَجَّبُوا أن يقوم الواحد بجميع أحوال العالم. ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُهُ في حَقِّهِ عن القسمة، وتَقَدُّسُهُ في وجوده عن الشبهة، وتَنَزُّهُهُ في مُلْكِهِ عن الشريك؛ واحد في جلاله، واحد في استحقاق جماله، واحد في أفعاله، واحد في كبريائه بنعت علائه، ووصف سنائه.

قوله جل ذكره: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾.

مالك السموات والأرض وما بينهما، وخالقهما، وأكساب العباد داخله في هذا ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ مشارق النجوم والشمس والقمر، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾.

زَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بالنجوم، وقلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السموات بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً، وكذلك زَيْنَ القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قُرِبَ منها الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِقٌ﴾.

كذلك إذا اغتتم الشيطان من الأولياء أن يُلقِيَ إليهم شيئاً من وسأوسه تَذَكَّرُوا، فإذا هم مُبْصِرُونَ، ورجعوا. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِي أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَفْنِيهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

عَرَفَهُمْ عَجَزَهُمْ عن الإثبات، وضعفهم في كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادة بحدوث مثله. وتقرأ ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح خطاباً بالرسول ﷺ. وبالضم فكأن الحق يقول ذلك مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ بل عَجِبْتُ، ويقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما في القدر، أو الإكثار في الذم أو في المدح. قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾.

إذا ذُكِّرُوا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكير فيها، ويقولون: ليس هذا الذي أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَلَا لَمُبْعُوثُونَ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

قالوا: أئذا متنا، تفرقت أجزاءنا، وصرنا رميمًا. أئنا لمبعوثون؟ أو أبائنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مسدودة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

(١) الآيتان (٨، ٩) لم تردا.

(٢) لزب الطين: لصق وصلب أو لزق. (اللسان ٧٣٨/١ مادة: لزب).

(٣) الآيتان (١٤، ١٥) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ .

دوا بالويل على أنفسهم! ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي كنتم تكذبون به، وقد عاينتموه اليوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَا تَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقَفُّهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ .

أراد بأزواجهم قرناءهم وأشكالهم ومن عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير. . . وكذلك في هذه الطريقة: من أعان صاحب فترة في فترته، أو صاحب زلة على زلته - كان مشاركاً له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهوانته.

قوله: ﴿وَقَفُّهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾: مقام السؤال مقام صعب؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقوم يسألهم المَلَكُ؛ فالذين تسألهم الملائكة أقوام لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف، وأقوام لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف، وهم قسمان: الخواص يسترهم الحق عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة، وأقوام هم أرباب الزلات يرحمهم الله فلا يفضحهم، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنعت الهيبة، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة، وفي الخبر: «أن قوماً يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك» وهؤلاء أصحاب الخصوص في التحقيق: فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم: ﴿كَفَىٰ يَنْفِسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإذا قرؤوا كتابهم يقال لهم: من عمل هذا؟ وما جزاؤه؟ فيقولون: جزاؤه النار. فيقال لهم: أدخلوها بحكمكم.

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفرع عليهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُّسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلْ بِغُفْلٍ عَلَىٰ بَعْضٍ يَسَاءَ لَوْ﴾ .

يُورِك بعضهم الذنب على بعض؛ فهذا يتبرأ من صاحبه، وصاحبه يتبرأ منه، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزي والهوان، ويجمعهم في اللعن والإبعاد^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ .

يشترون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم، كما أنهم يشتركون في الزلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في هذه عذابهم؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته. ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

(١) الآيات من (٢٨ حتى ٣٢) لم ترد.

عَنْ عِبَادِيهِ ﴿[الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٣] فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَا لَذَّةَ لَهُ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، قال قائلهم:

ويظهرُ في الهوى عزُّ الموالى فيلزمُني له ذُلُّ العبيد
قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ نَجْنُوْنَ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ
إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.

لَمَّا لم يحتشموا من وصفه - سبحانه - بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب في وصف أنبيائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.
الاستثناء راجعُ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحق - سبحانه - بالعبودية، والذي يشوبُ عمله رياءٌ فليس بمخلص.

ويقال: الإخلاصُ تصفيةُ العمل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الخبر: «يا معاذ، أخلص العملَ يَكْفِيكَ القليل منه».

ويقال: الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص.

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَكَّهْهُمْ تَكْرُمُونَ﴾.

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ مُعَيَّنة، وفي وقت الرسول عليه السلام: «مَنْ كَانَ لَهُ رِزْقٌ مَعْلُومٌ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَيَاسِيرِ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لَأَبْشَارِهِمْ وَلَأَسْرَارِهِمْ، فَالْأَغْنِيَاءُ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لَأَنْفُسِهِمْ وَالْفُقَرَاءُ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لِقُلُوبِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ».

﴿فَوَكَّهْهُمْ تَكْرُمُونَ﴾: من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وكذلك اليومُ الخطابُ واردةٌ من اللَّهِ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِكُلِّ أَمْرٍ.

قوله جل ذكره: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ عَلَى مُرَرٍ مُثْقَلِينَ﴾.

يَسْتَأْنِسُ بَعْضُهُمْ بِرُؤْيَا بَعْضٍ، وَيَسْتَرْوِحُ بَعْضُهُمْ إِلَى لِقَاءِ بَعْضٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيَّضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾.

شرابٌ يوجبُ لهم الطَّرْدَ وَلَا وَحْشَةَ هُنَاكَ، شَرَاباً يُخْضِرُهُمْ وَلَا يُسْكِرُهُمْ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾.

فلا تغتال عقولهم، ولا تُزِيل حِشْمَتَهُمْ، ولا تَرْفَع عَنْهُمْ هَيْبَتَهُمْ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يُسْقَوْنَ في الحضور - وهم على نعت القُرب.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾.

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الولي، ثم الولي قد ينظر إليهن، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن؛
جُنَيْثًا يَلْبَسُنَّ وهي جُنُثٌ بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها
قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ...﴾.

يتذكرون فيما بينهم، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِن بالله، وما آمن به
المؤمنون فيخلق الله لهم إطلاعا عليه وهم في النار يحترقون^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَوْدِينَ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُمِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.
نَطَقَ الولي بالحق ولكنه لم يُصْرَخَ يعين التوحيد؛ إذ جعل الفضل واسطة،
والأولى أن يقول: ولولا ربي لكنت من المحضرين^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾.

يقال: بل الملائكة يقولون لهم هذا، ويقال: الحق - سبحانه - إذا أراهم مقامهم
في الجنة يقول لهم: ﴿لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾.

ويقال إن كان العابد يقول هذا، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بدت
شظية من الحقائق وتباشير الوصلة، أو ذرة من نسيم القربة فبالحرى أن يقول القائلون:
ليُثِلَ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواح.

على مِثْلِ سَلَمَى يَقْتُلُ المرء نفسه وإن بات من سَلَمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات، وتتقاصر الإشارات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾.

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار؛ من أَكَلِ
الضريع، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين، ثم إن مرجعهم لإلى
الجحيم... إلى آخر القصة^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنَعَمْ الْمُجِبُّونَ وَخَيَّنَتْهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ جِين كَذْبُوهُ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ
حَدِيثِنَا.. رَجَعَ إِلَيْنَا، فخطبنا وخطبناه، وكلمنا وكلمناه، ونادانا فناديناه، وكان لنا

(٢) الآيتان (٥٨، ٥٩) لم تردا.

(١) الآيات من (٥١ حتى ٥٥) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٧٤) لم ترد.

فَكُنَّا لَهُ، وَأَجَابْنَا فَأَجَبْنَاهُ. . فَلَنِعْمَ الْمَجِيبُ كَانَ لَنَا وَلنِعْمَ الْمَجِيبُونَ كُنَّا لَهُ!

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾: شتان بين كَرْبِ نوح وبين كَرْبِ أهله!
وما يبكون مثل أخيه ولكن أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي
قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

لأنّ الناس كلهم من أولاد نوح، فإنّ مَنْ كان معه في السفينة لم يتناسلوا.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.
يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ مِنْ شِعَابِهِ لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.
يعني أنّ إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام في التوحيد - وإنّ اختلفنا في فروع
شرعيهما.

﴿قَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: لا آفة فيه. ويقال لذيغ من المحبة. ويقال: سليم من محبة
الأغيار. ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته. ويقال: مستسلم لله في قضائه
واختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوِيهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾.

سألهم على جهة الإنكار عليهم، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم^(٢).
قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا ظَنُّكَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟﴾.

إذا لقيتموه - وقد عبّدتهم غيره. . فما الذي تقولون له؟ وكيف بكم في مقام
الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم - غافلين عنه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قيل أراد «إلى» النجوم فأقام «في» مقام «إلى».

﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: كانت تأتبه الحمى في وقت معلوم، فقال: قرُبَ الوَثْ الذي
أسقم فيه مَنْ أَخَذَ الْحُمَى إِيَّاي، فكأنه تعلل بذلك ليتأخّر عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم
لتمشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام.

ويقال كان ذلك من جملة المعارض. وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في
القول بالنجوم لأنهم كانوا يقولون بالنجوم، فتأخّر بهذا السبب عنهم.

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أن اللّه - عزّ وجلّ - قد عرّفه بطريق
الوحي أنه يخلق - سبحانه - باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب.

(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

(١) الآيات من (٧٩ حتى ٨٢) لم ترد.

ثم لما ذهبوا إلى عيدهم كَسَرُوا أصنامهم، فلما رجعوا قالوا ما قالوا، وأجابهم بما أجابهم به^(١) إلى قوله:

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

رَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ إلى نُحُورِهِمْ. وقد تعرَّضَ له جبريل - عليه السلام - وهو في الهواء وَقَدْ رُمِيَ مِنَ الْمُنْجَنِيْقِ^(٢) فعرضَ عليه نفسه قائلاً: هل مِنْ حَاجَةٍ؟ فأجاب: أَمَا إِلَيْكَ... فلا!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾.

يقال إنه طلب هداية مخصوصة؛ لأنه كان صاحب هداية، إذ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهَبَ إلى رَبِّهِ. ويحتمل أنه كان صاحب هداية في الحال وطلب الهداية في المستقبل أي زيادة في الهداية، ويقال طلب الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور، ويقال طلب الهداية إلى نفسه لأنه فقدَ فيه قلبه ونفسه؛ فقال سيهديني إليَّ لأقوم بحقَّ عبوديته؛ فإن المستهلك في حقائق الجمع لا يصحُّ منه أداء العبادة إلا بأن يُرَدَّ إلى حالة التفرقة والتمييز.

ومعنى ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى المكان الذي يُعْبَدُ فيه ربي.

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي﴾: فأخبر عن قوله.

وأخبر عن موسى فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبر عن صفته لا عن قوله...

وقال في صفة نبيينا ﷺ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَنِي بِعِبَادِهِ...﴾ [الإسراء: ١]. [فأخبر عن ذاته سبحانه]^(٣).

وفصلٌ بَيْنَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ؛ فإبراهيم كان بعين الفرق، وموسى بعين الجمع؛ ونبيينا كان بعين جمع الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

لَمَّا قَالَ «حليم» نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ سَيَلْقَى مِنَ الْبَلَاءِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِلْمِ فِي تَحْمَلِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَكُونُ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

(١) الآيات من (٩٠ حتى ٩٦) لم ترد.

(٢) المنجنیق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنقات ومجانق ومجانيق.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد، رأى إبراهيم - عليه السلام - أنه يؤمر بذبح ابنه إسماعيل ليلة التروية، وسميت كذلك لأنه كان يُروى في ذلك طول يومه. هل هو حق أم لا؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق، فسمي يوم عرفة.

وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات. أن اذبح ابنك، فقال لإسماعيل: ﴿يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى؟﴾ فقال إسماعيل: ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾: أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه، وإن كان له تأويل فثبت، فقد يمكنك ذبح ابنك كل وقت ولكن لا يمكنك تلافيه.

ويقال بل قال: أترك حديث الرؤيا واحمله على الأمر، واحمل الأمر على الوجوب، ثم احمله على الفور ولا تُقصر.

ويقال قال له: إن كان يطيب قلبك بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله.

ويقال قال إسماعيل لأبيه: أنت خليل الله وتنام.. ألم تعلم أن الخليل إذا نام عن خليله يؤمر بذبح ابنه؟ مالك يا أبت والنوم؟

ويقال في القصة: إنه رآه ذات يوم راكباً على فرس أشهب فاستحسنه، ونظر إليه بقلبه، فأمر بذبحه، فلما أخرجه عن قلبه، واستسلم لذبحه ظهر الفداء، وقيل له كان المقصود من هذا فراغ قلبك عنه.

ويقال في القصة: أمر إسماعيل أباه أن يشد يديه ورجليه لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح فيعتاب، ثم لما هم بذبحه قال: افتح القيد عني حتى لا يقال لي: أمشود اليد جنتني؟ وإني لن أتحرك:

ولو بيد الحبيب سقيت سماً لكان السُّم من يده يطيب
ويقال أيهما كان أشدّ بلاء؟ قيل: إسماعيل؛ لأنه وجد الذبح من يد أبيه، ولم يتعوّد من يده إلا التربية بالجميل، وكان البلاء عليه أشدّ لأنه لم يتوقع منه ذلك.

ويقال بل كان إبراهيم أشدّ بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعده. ﴿سَجَدَ لِلَّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِّنَ الْبَشَرِ﴾ فلم يأت إسماعيل بالدعوى بل تأدّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إماً لا تقُل: «يا بُنَيَّ» بهذه اللطافة، وإماً لا تقُل: ﴿إِنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فإن الجمع بينهما عجيب!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّوْا مَقَلَّهُمُ لِلْجَبِينِ وَقَدَّيْنَهُ أَنْ يَتَابَعَهُمْ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكُمْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قيل في التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكّين على خلقه والسكّين لا يُقَطَّع، فتعجَّب إبراهيمُ، فنودي: يا إبراهيم، كان المقصودُ من هذا استسلامكما.

ويقال إن الله سَتَرَ عليهما عِلْمَ ما أريد منهما في حال البلاء، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِيِّ وقت المحنة لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء... وهكذا يكون الأمر عند البلاء؛ تَنَسُّدُ الوجوه في الحال؛ وكذلك كانت حالة النبي ﷺ في حال حديث الإفك^(١)، وكذلك حالة أيوب عليه السلام؛ وإنما يَتَبَيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها، وإلا لم تكن حينئذٍ محنة [إلا أنه يكون في حال البلاء إسبالٌ يُؤَلَّى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء؛ قال تعالى:

﴿إِن كَذَبْنَا لَكَ الْبَلَاءَ الْبَلَاءَ وَقَدَّيْنَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٌ﴾ .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً.

والناس في «البلاء» على أقسام: فبلاءٌ مستعصب وذلك صفة العوام، وبلاءٌ مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَبَشِّرْهُمْ بِمَنْحَقٍ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

وكلُّ هذا بعد البلاء؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

مَنْ عليهما بالنبوة، وبالنجاة من فرعون وقومه، وبنصرته عليهما^(٣).

﴿وَأَلَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

يعني التوراة.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

بالتبري عن الحول والقوة، وشهود عين التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ لَمِينَ الْمَرْسَلِينَ﴾^(٤).

(١) الإفك: الكذب أو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.

(٢) الآيات من (١٠٨ حتى ١١١) لم ترد.

(٣) الآيات (١١٥، ١١٦) لم ترد.

(٤) الآيات (١٢١، ١٢٢) لم ترد.

«إلياس»: قيل هو إدريس، وقيل غيره، وكان بالشام، واسم صَنَمِهِم «بغل»، ومدينتهم بعلبك.. أنذر قومَه فكذبوه، ووعظهم فما صدَّقوه، فأهلكَ قومَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

مضت قصته وكيف نجى أهله إلا امرأته التي شاركتهم في عصيانهم، فحقّ العذاب عليها مثلما عليهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة، ولكن لم يُغفَ، ثم استقبله ما استقبله، فلم يلبث حتى رأى نفسه في بطن الحوت في الظلمة^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالْقَمَرَ الْحَوْتَ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي بما يُلَامُ عليه، والحق - سبحانه - مُنَزَّةٌ عن الحيف في حُكْمِهِ؛ إذ الخلق خلقه، ثم الله راعى حقَّ تعبّده، وحفظَ ذِمَامَ ما سَلَفَ له في أداء حقه فقال: - ﴿فَقُولُوا أَنْتُمْ كَانُوا الْمُسْتَعِينِينَ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فإن كَرَّمَ الْعَهْدَ فينا من الإيمان، وهو مِنَّا من جملة الإحسان، «فالمؤمن قد أخذ من الله خُلُقًا حسنًا» - بذلك ورد الخبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبَدَّلْنَاهُ بِالْأَعْرَابِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

«سقيم»: في ضعفٍ من الحال لِمَا أَثَّرَ مِنْ كَوْنِهِ قَضَى وَقْتًا فِي بطن الحوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾.

لِيُظِلَّهُ، فإنه كان في الصحراء وشعاع الشمس كان يَضُرُّهُ، وَقَبِضَ له الله ظبية ذات وَلَدٍ كانت تجيء فيرضع من لبنها، فكان الحقُّ أعاده إلى حال الطفولية. ثم إنه رَجَمَهُ، ورجع إلى قومَه، فأكرموا وآمنوا به، وكان الله قد كَشَفَ عنهم العذاب، لأنهم حينما خَرَجَ يونس من بينهم ندموا وَتَضَرَّعُوا إلى الله لِمَا رَأَوْا أَوَائِلَ الْعَذَابِ قَدْ أَظْلَمَتْهُمْ، فَكَشَفَ الله عنهم العذاب، وآمنوا بالله، وكانوا يقولون: لو رأينا يونس لَوَقَّرْنَاهُ، وعظَّمْنَاهُ، فرجع يونس إليهم بعد نجاته من بطن الحوت، فاستقبله قومُه، وأدخلوه بِلَدَهُمْ مُكْرَمًا.

ويقال: الذَّنْبُ والجُزْمُ كانا من قومَه، فهم قد تَوَعَّدُوا بالعذاب. وأمّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا أَلَمَ بمحذور، وخرج من بينهم، وكَشَفَ الله العذاب عنهم، وَسَلَّمُوا.. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللتيا والتي^(٣) بعد نجاته؛ ويا عجباً

(١) الآيات من (١٣٤) حتى (١٣٨) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٤٠، ١٤١) لم تردا.

(٣) يقال: اللتيا والتي: يكون بهما عن الشدة.

من سِرَّ تقديره! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه - أوحى إلى يونس بعد نجاته أن قلْ
لِفَلَانِ الْفَخَّارِ حَتَّى يَكْبِرَ الْجِرَارَ الَّتِي عَمَلَهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ كُلَّهَا! فَقَالَ يُونُسُ: يَا رَبِّ،
إِنَّهُ قَطَعَ مَدَّةً فِي إِنْجَازِ ذَلِكَ، فَكَيْفَ أَمْرُهُ بِأَنْ يَكْبِرَهَا كُلَّهَا؟

فَقَالَ لَهُ: يَا يُونُسُ، يَرِيقُ قَلْبُكَ لِخَزَافٍ يُثْلِفُ عَمَلٌ سَنَةٍ.. وَتُرِيدُنِي أَنْ أَهْلِكَ
مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ عِبَادِي؟! يَا يُونُسُ، إِنَّكَ لَمْ تَخْلُقْهُمْ، وَلَوْ خَلَقْتَهُمْ لَرَجِمْتَهُمْ^(١).

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾.

لَمَّا قَالُوا فِي صِفَةِ الْمَلَائِكَةِ إِنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ بَيَّنَّ اللَّهُ فُبَحَّ قَوْلِهِمْ، فَقَالَ: سَلُّهُمْ مِنْ
أَيْنَ قَالُوا؟ وَبِأَيِّ حُجَّةٍ حَكَمُوا بِمَا زَعَمُوا؟ وَأَيُّ شُبْهَةٍ دَاخَلْتَهُمْ. ثُمَّ إِنَّهُمْ كَانُوا
يَسْتَنكِفُونَ مِنَ الْبَنَاتِ، وَيُؤْثِرُونَ الْبَنِينَ عَلَيْهِنَ.. وَمَعَ كُفْرِهِمْ وَقَبِيحِ قَوْلِهِمْ وَصَفُوا
الْقَدِيمَ - سَبْحَانَهُ - بِمَا اسْتَنكِفُوا مِنْهُ لِأَنْفُسِهِمْ^(٢).

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَا تَكْفُرُوا بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ يَفْتَنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾.

أَيُّ مَا أَنْتُمْ بِفَاتِنِينَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَغْوَيْتُهُ بِحُكْمِي، فَهِيَ ضَلُّوا لَا بِإِضْلَالِكُمْ.

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾.

الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ لَا يَتَخَطَّوْنَ مَقَامَهُمْ، وَلَا يَتَعَدَّوْنَ حُدُودَهُمْ، وَالْأَوْلِيَاءُ لَهُمْ
مَقَامٌ مُسْتَوْرٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا يُطْلَعُ عَلَيْهِ أَحَدًا، وَالْأَنْبِيَاءُ لَهُمْ مَقَامٌ مُشْهُورٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجَزَاتِ
الظَّاهِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لِلْخَلْقِ قُدُوةٌ فَأَمَرُهُمْ عَلَى الشُّعْرِ، وَأَمْرُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى السُّرْرِ^(٣).

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبَادِنَا الرُّسُلِينَ﴾.

أَيُّ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لَهُمْ بِالسَّعَادَةِ، وَتَقَدَّمَ حُكْمُنَا لَهُمْ بِالْوَلَايَةِ وَالرَّعَايَةِ، فَهُمْ مِنْ

قَبْلِنَا مَبْصُورُونَ:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

مَنْ نَصَرَهُ لَا يُغْلَبُ، وَمَنْ قَهَرَهُ لَا يَغْلِبُ.

وَجُنْدُهُ الَّذِينَ نَصَبَهُمْ لِنُشْرِ دِينِهِ، وَأَقَامَهُمْ لِنُصْرِ الْحَقِّ وَتَبْيِينِهِ. مَنْ أَرَادَ إِذْلَالَهُمْ
فَعَلَى أَذْقَانِهِ يَخْرُ، وَفِي حَبْلِ هَلَاكِهِ يَنْجُرُ.

قوله جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿فَنُوحِ عَنْهُمْ حَتَّى جِيءَ بِبَصِيرَتِهِمْ فَسُوفَ يُبْعِرُونَ﴾.

تَوَلَّ عَنْهُمْ - يَا مُحَمَّدُ - إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ أَجَالُهُمْ، وَتَنْتَهِيَ أَحْوَالُهُمْ. وَانْتَظِرْ انْقِضَاءَ
أَيَّامِهِمْ، فَإِنَّهُ سَيَنْصَرِمُ حَدِيثُهُمْ وَشَيْكَا:

﴿أَفَعَدَّيْنَا لِلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٢) الآيات من (١٥٠) حتى (١٦٠) لم ترد.

(١) الآيات (١٤٧، ١٤٨) لم ترد.

(٣) الآيات من (١٦٥) حتى (١٧٠) لم ترد.

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرْطِ جهلهم، ثم لقلّة تصديقهم. فإذا نزل العذابُ بساحتهم، وأناخ البلاء بعقوتهم فساء صباحهم. فتولّ عنهم فَعَن قَرِيبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرُونَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾: تقديساً له، وسلامٌ على أنبيائنا، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي هو المحمود على ما ساء أم سرّ، نَفَعَ أم ضَرَّ.

(١) الآيات (١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) لم ترد.

سورة صّ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيْمَ﴾.

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه، اسمٌ جليلٌ تَقَنَّنَتْ العلومُ خَجَلًا من الطمع في إحاطته، اسمٌ كريمٌ صَغُرَتْ الحوائجُ عند ساحات جوده، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلّات عبادته في تلاطم أمواج رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿صّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

الصّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع . . . أقسم بهذه الأشياء وبالقرآن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

ويقال: أقسم بصفاء مودة أحبابه والقرآن ذي الذكر أي: ذي الشرف . . . وشرّفه أنه ليس بمخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾.

في صلابة ظاهرة، وعداوة بيّنة، وإعراض عن البحث للأدلة، والسّرُّ للشواهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا بَرَاءَةُ اللَّهِ لَكُنَّا مِنْ الْبَاقِيْنَ﴾.

بادوا حين هَجَمَ البلاءُ مستغيثين، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعِجُّوْنَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

عَجِبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتات آلهة، وهذه مناقضة ظاهرة. فلمّا تحيّرُوا في شأن أنبيائهم رمّوهم بالسحر، وقسموا فيهم القول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم، وبعُدوا عن ذلك تجويزاً، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحكماً، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية؛ فلمّا الإلهية هي القدرة على الاختراع. وتقديرُ قَادِرِينَ على الاختراع غيرُ صحيحٍ لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، ثم إنّ ذلك يمنع من كمالهما، ولو لم يكونا كاملَي الوصف لم يكونا إلهين، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطٍ فهو مطروحٌ باطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

إذا تواصى الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَا سِعَتَا يَدَايَ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾.

ركنوا إلى السوء والعادة، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة، واستنموا إلى التقليد والهوادة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ﴾.

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم، ولولا أَنَا أَدَمْنَا لَهُمُ الْعَوَافِي لَمَا تَفَرَّغُوا إِلَى طغيانهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَعَّابِ﴾.

أي: هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا، وكذبوا واحتجبوا... أعندهم شيء من هذه الأشياء؟ أم هل هم يقدرُونَ على شيء من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا، ويعطوا من شأؤوا، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على مَنْ أرادوا^(١)؟

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.

بل هم جُند من الأحزاب المتحزبين. كُلُّهُمْ عَجْزَةٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، مهزومون. شَبَّهَهُمْ فِي بَقَائِهِمْ عَنْ مَرَادِهِم بِالْمَهْزُومِينَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ لَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ، وَلَا لَهُمْ قُوَّةٌ، وَلَا لِأَصْنَامِهِمْ أَيْضاً مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ مُكْتَنَةٌ، وَلَا فِي الرَّدِّ وَالِدْفَعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ قُدْرَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ...﴾ الْآيَاتِ.

ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْجَمْعِ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْإِفْرَادِ، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِفَادَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ^(٢). ثُمَّ قَالَ:

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلُ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾.

أي ما كان منهم أَحَدٌ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّتْ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ، وَاسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ. ثُمَّ قَالَ:

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾.

أي ليسوا ينتظرون إِلَّا الْقِيَامَةَ، وَمَا هِيَ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِذَا قَامَتْ فَإِنَّهَا لَا تَسْكُنُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

(٢) الْآيَةُ (١٣) لَمْ تَرُدْ.

(١) الْآيَةُ (١٠) لَمْ تَرُدْ.

اضْبُرْ - يا محمد - على ما يقولون، فإنه لن تطول مُدَّتْهم، ولن نَمُدَّ - في مقاساتِكَ أذاهم - لُبَّتْكَ ومُكَّتْكَ، وعن قريب سينزل الله نَصْرَه، ويصدق لك بالتحقيق وَغَدَه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نفس، وإنما كانت قوته قوةً فِعْلٍ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً - وهو أشدُّ الصوم، وكان قوياً في دين الله بِنَفْسِهِ وقلْبه وهِمته.

﴿أَوَّابٌ﴾ رَجَّاع.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

كان داود يُسَبِّح، والجبال تُسَبِّح، وكان داود يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيص له بالكرامة والمعجزة.

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبح الله، وداود كان يعرف تسبيح الطير؛ وكلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بحاله ساعده كلُّ شيءٍ كان بَقْرَبِهِ، ويصير غيرُ جُنْهِهِ بِحُكْمِهِ، وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ ورقاء ^(١) هتوف بالضحي	ذات شجور صرخت في فَنِّ ^(٢)
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً	وبَكَتْ شوقاً فهاجت حَزْني
فبُكائي رُبَّما أَرْقَها	وبكاهار بما أَرْقَني
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنني بالجوى ^(٣) أعرفها	وهي أيضاً بالجوى تعرفني

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَمَآيَنَتُهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾.

أي قَوَّيْنَا مُلْكَهُ بأنصاره، وفي التفسير: كان يحفظ مُلْكَهُ كلَّ ليلةٍ ثلاثةً وثلاثون ألفَ رجلٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَمَآيَنَتُهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾.

أي شددنا مُلْكَهُ بنصرنا له ودفعنا البلاء عنه.

ويقال شدنا مُلْكَهُ بالعدل في القضية، وحُسن السيرة في الرعية.

(١) الورقاء: الحمامة أو التي لونها كالرماد فيه سواد (ج) ورق.

(٢) الفنن: الغصن الفض الورق أو المستقيم.

(٣) الجوى: الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن.

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدي الظلمة.

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين.

ويقال شددنا ملكه بأن رأى النصره ميّثاً، وتبرّأ من حوله وقوته.

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلّونه على ما فيه صلاح ملكه.

ويقال بتيقظه وحسن سياسته. ويقال بقبوله الحق من كل أحد.

ويقال برجوعه إلينا في عموم الأوقات.

﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْفُطَايَ﴾: أي أعطيناه الرشد والصواب، والفهم

والإصابة.

ويقال العلم بنفسه وكيفية سياسة أمته.

ويقال الثبات في الأمور والحكمة، وإحكام الرأي والتدبر.

ويقال صحبة الأبرار، ومجانبة الأشرار.

وأما ﴿وَفَصَّلَ الْفُطَايَ﴾ فهو الحكم بالحق، وقيل: البينة على من ادعى واليمين

على من أنكر. ويقال: القضاء بين الخصوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبَ نَبُؤُا الْحَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآيات.

أرسل الله إلى داود عليه السلام ملكين من السماء على صورة رجلين فتحاكما إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تزوّجه بامرأة أوريا، وكان تزك ذلك أولى - هذا على طريق من رأى تنزيه الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب.

وأما من جوّز عليهم الصفائح فقال: هذا من جملته. وكئى الخضمان باسم

النجعة عن النساء.

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى: إِنِّي لَأَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّكَ

أَعْطَيْتَ الْأَنْبِيَاءَ الرُّتَبَ فَأَعْطَيْتُهَا، فقال: إِنَّهُمْ صَبَرُوا فِيمَا ابْتَلَيْتُهُمْ بِهِ، فَوَعَدَ دَاوُدُ مِنْ

نَفْسِهِ الصَّبْرَ إِذَا ابْتَلَاهُ طَمَعاً فِي نَيْلِ الدَّرَجَاتِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِيهِ يَوْمَ كَذَا،

فَجَعَلَ دَاوُدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ عِبَادَةٍ، وَاخْتَلَى فِي بَيْتِهِ، وَأَمَرَ حُرَّاسَهُ أَلَّا يُوْذِيَهُ أَحَدٌ

بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ، وَأَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ، وَأَخَذَ يُصَلِّي زَمَاناً، وَيَقْرَأُ التَّوْرَةَ زَمَاناً

يَتَعَبَّدُ. أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ وَلَكِنْ لَمْ يُمْكِنَهُ غَلْقُ بَابِ السَّمَاءِ. وَأَمَرَ حَرَسَهُ أَنْ يَدْفَعُوا

عَنْ النَّاسِ وَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ - وَيُقَالُ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ - وَلَكِنْ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا

عَنْ حُكْمِ الْقَضَاءِ، وَلَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: الْهَارِبُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَقْلِبُ.

وكانت في البيت كوة يدخل منها الضوء، فدخل طير صغير من الذهب، ووقع

قريباً منه، وكان لداود ابن صغير فهم أن يأخذه ليدفعه إلى ابنه، فتباعده عنه. وجاء في

التفسير: أنه كان إبليس، قد تصوّر له في صورة طير، فَتَبَّعَهُ داود، ولم يزل الطائر يتباعد قليلاً قليلاً، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة، وَنَظَرَ داود في إثره فَوَقَعَ بِصَرِّهِ على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردة، فعاد إلى قلبه منها شيء، فكان هذا السبب.

ويقال لم يَزَعْ الاهتمام بسبب وَلَدِهِ حتى فعل به ما فعل، وفي ذلك لأولي الأبصار عِبْرَةٌ.

ويقال لم يكن أوريا قد تزوّج بها بعدُ، وقد كان خَطَبَهَا، وأجابته في الزواج به، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِهِ. وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها، فَتَزَلَّ على أمره وتزوجها. وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقتل وتزوج بها. فلما تَسَوَّرَ الخصمان عليه، وقيل دَخَلَا من سور المحراب أي أعلاه ولذلك: -

﴿فَفَزَعَ مِنْهُمُ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَيِّ بِعُضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاعْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

نحن خصمان ظَلَمَ بعضنا بعضاً، فاحْكُم بَيْنَنَا بالعدل:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْغُرْ بِشَيْءٍ وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي انزل عنها حتى أكفلها أنا، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. أي غلبني،

فقال داود:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِي نَعِيمِكَ إِنَّكَ يَنَاجِيهِ﴾.

فضحك أحدهما في وجه صاحبه، وصعد إلى السماء بين يديه، فَعَلِمَ داود عند ذلك أنه تنبيه له وعتاب فيما سَلَفَ منه، وظنَّ واستيقن أنه جاءته الفتنة الموعودة:

﴿فَأَسْتَغْفِرَ رَبِّي وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

أخذ في التضرع، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه من السجود إلا (للصلاة)^(١) المكتوبة عليه، وأخذ يبيكي حتى نَبَتْ العُشْبُ من دموعه، ولم يأكل ولم يشرب في تلك المدة، حتى أوحى الله إليه بالمغفرة، فقال: يا رب، فكيف بحديث الخصم؟ فقال: إني استوهبتك منه، وقال تعالى:

﴿فَغَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْلَةً وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

إن له عندنا لُزْبَةً وَحُسْنَ رجوع، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه. ويقال لما التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرة والتجاوز... وهكذا مَنْ رجع في أوائل الشدائد إلى الله

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

فَاللَّهُ يَكْفِيهِ مِمَّا يَنْوِيهِ، وكذلك مَنْ صَبَرَ إِلَى حِينٍ طَالَتْ عَلَيْهِ الْمُحَنَّةُ. وَيُقَالُ إِنَّ زَلَّةَ أَسْفَلَ عَلَيْهَا يَوْصَلُكَ إِلَى رَبِّكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِنْ طَاعَةِ إِعْجَابِكَ بِهَا يُقْصِيكَ عَنْ رَبِّكَ.

قوله جل ذكره: ﴿يَنْدَاؤُا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوءِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ أي بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَقِيلَ حَاكِمًا مِنْ قِبَلِي لِتَحْكُمَ بَيْنَ عِبَادِي بِالْحَقِّ، وَأَوْصَاهُ بِالْأَيْتِجِ فِي الْحُكْمِ هُوَاهُ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ جُنَايَاتِ الْعَبْدِ وَأَقْبَحَ خَطَايَاهُ مُتَابَعَةُ الْهَوَى.

ولما ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَعْقَبَهَا يَقُولُهُ:

﴿وَمَا سَلَفْنَا لِنِيسَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

«بَاطِلًا» أَي وَأَنَا مُبْطِلٌ فِي خَلْقِهِمَا، بَلْ كَانَ لِي مَا فَعَلْتُ وَأَنَا فِيهِ مُحِقٌّ.

وَيُقَالُ مَا خَلَقْتُهُمَا لِلْبَطْلَانِ بَلْ لَأَمْرُهُمَا بِالْحَقِّ^(١).

ثم أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَجْعَلُ الْمَفْسُودِينَ كَالْمُحْسِنِينَ قَطُّ، ثُمَّ قَالَ:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ الْبِئْسَاءِ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَاءِ﴾.

﴿مُبَارَكٌ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَمُبَارَكٌ أَي كَبِيرُ النَّفْعِ، وَيُقَالُ مُبَارَكٌ أَي دَائِمٌ بَاقٍ لَا

يَنْسَخُهُ كِتَابٌ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ بَرَكَ الطَّيْرُ عَلَى الْمَاءِ. وَيُقَالُ مُبَارَكٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ. ثُمَّ إِنَّهُ بَيَّنَّ أَنَّ الْبَرَكَهَ فِي تَذَبُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا إِلَى اللَّهِ، رَاجِعًا إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ فِي النِّعْمَةِ

بِالشُّكْرِ، وَفِي الْمُحَنَةِ بِالصَّبْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْيَاسَدُ﴾.

﴿الصَّفِيفَتُ﴾ جَمْعُ صَافِنَةٍ وَهِيَ الْقَائِمَةُ، وَفِي التَّفَاسِيرِ هِيَ الَّتِي تَقُومُ عَلَى ثَلَاثِ

قَوَائِمٍ؛ إِذْ تَرْفَعُ إِحْدَى الْيَدَيْنِ عَلَى سُنْبُكَيْهَا. وَجَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ قَدْ غَزَا أَهْلَ دِمَشْقَ، وَأَصَابَهَا مِنْهُمْ، وَقِيلَ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ دَاوُدَ وَكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنَ الْعَمَالِقَةِ، وَقِيلَ كَانَتْ خِيَلًا لَهَا أَجْنَحَةُ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ.

وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ عُرِضَ عَلَيْهِ عَشْرُونَ أَلْفَ فَرَسٍ فَشَغَلَتْهُ عَنْ بَعْضِ أَذْكَارِهِ اللَّهُ.

﴿بِالْعَشِيِّ﴾: فِي آخِرِ النَّهَارِ، وَقِيلَ كَانَ ذَلِكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فُطِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قبل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد لها بعد أن فرغ من صلاته.

وقيل عَزَقَبَهَا (ليذبها فحَبَسَهَا بالعرقبة عن النفار)^(١)، وقيل وَضَعَ عليها الكيَّ فَسَبَّلَهَا^(٢)، وإيش ما كان فكل ذلك كان جائزاً في شرعه.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

أي لَصَفْتُ بالأرض لحُبَّ المال. ويقال لَمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوْضَهُ الله - سبحانه - بأن سَخَّرَ له الريح، وهذا أبلغ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾.

اختلف الناس في هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لَأُطَوِّقَنَّ عَلَى هَؤُلَاءِ فَيُولَدُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ غَلامٌ يقاتل في سبيل الله»^(٣) ولم يَقُلْ إن شاء الله، ولم تَحْمِلْ إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود، فألقته على كُرْسِيِّهِ، فاستغفر ربه من تَرَكَ الاستثناء، وكان ذلك ترك ما هو الأوَّلَى.

وقيل كان له ابن، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه، فَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين، فمات الولد، وألقته الريح على كُرْسِيِّهِ ميتاً. فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء، وكان الأوَّلَى به التوكل والاستعانة بالريح.

وقيل في التفاسير: إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان، وسبَّاهَا، فقالت له: إن أَذُنْتُ لي أَنْ أَتَّخِذَ تمثالاً على صورة أبي لأتسلى بنظري إليه؟ فأذنَ لها، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواربها أربعين يوماً)، وكانت تعبد سِرّاً، فعوقب عليه.

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحْبَبِ نِسائِهِ إليه، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمَهُ وَدَفَعَهُ إِلَيْهَا، وهي على باب الخلاء، فإذا خَرَجَ استردَّه. وجاء يوماً شيطانٌ يَقَالُ له «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعي إليَّ الخاتم فدفعته، ولبسه، وقعد على كُرْسِيِّهِ، يُمَشِّي أُمُورَهُ - إلا التصرف في نِسائِهِ - فقد منعه اللُّهُ عن

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سَبَّلَ المال: جعله في سبيل الخير وأنواع البر.

(٣) أخرجه البخاري (نكاح ١١٩)، (كفارات ٩)، ومسلم (إيمان ٢٢، ٢٤، ٢٥)، (نذور، ٧)،

والنسائي (إيمان ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/٢٢٩، ٢٧٥، ٥٠٦.

ذلك . فلما خرج سليمان طالَبَ المرأة بالخاتم، فقالت : الساعة دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ . فظَنَّ أَنَّهُ فُتِنَ، وكان إذا أخبر النَّاسَ أَنَّهُ سليمان لَا يُصَدِّقُونَهُ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر)، وأصابته شدائد، وحمل سَمَكُ الصيادين بأجرةٍ حتى يجد قُوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَهُ) نشروا التوراة بين يديه، ففرَّ ورمى بالخاتم في البحر، وطار في الهواء . ولَمَّا أَدْنَى اللَّهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إِلَيْهِ، ابتلعت سمكةُ خاتمه، ووقعت في حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان في أجرته، فلَمَّا شَقَّ بَطْنَهَا ورأى خاتمه لبسه، وسَجَدَ له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلْكِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

أي مُلْكًا لَا يسلبه أَحَدٌ مِنِّي بعد هذا كما سُلِبَ مِنِّي في هذه المرة .

وقيل أراد انفراده به ليكون معجزةً له على قومه .

وقيل أراد أَنَّهُ لَا ينبغي لأَحَدٍ من بعدي أَنْ يسأل المُلْكَ، بل يجب أَنْ يَكِلَ أمرَهُ إلى الله في اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء، ولكن قال لَا ينبغي من بعدي لأَحَدٍ من الملوك .

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس، وإنصاف بعضهم من بعض، والقيام بحق الله، ولم يسأله لأجل مَيْلِهِ إلى الدنيا . . . وهو كقول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] .

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهر، وإنما أراد به أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ، فإن المَلِكَ - على الحقيقة - مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَمَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ لم يَتَّبِعْ هواه .

ويقال أراد به كمال حاله في شهود ربه حتى لَا يَرَى معه غيره .

ويقال سأل القناعة التي لَا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أَن سِرُّ نَبِيْنَا - ﷺ - أَلَا يلاحظ الدنيا ولا ملكها فقال: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] لَا أَنَّهُ بَخِلَ به على نَبِيْنَا ﷺ ولكن لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا ينظر إلى ذلك .

قوله جل ذكره: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ .

شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ، وَسَخَّرَ له الرِّيحَ بَدَلًا من الأفراس؛ فلا يحتاج في إمساكها إلى العلفِ والمُؤْنِ .

﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَمَا خَرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

كما سَخَرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ.

ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا...﴾ أي فَاغْطِ أَوْ أَمْسِكْ، واحفظ وليس عليك حساب. والمشى في الهواء للأولياء، وقَطَعَ المسافات البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في هذه الأمة - وإن لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين. وإظهاره على خَدَمِ رسول الله ﷺ لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه - ﷺ - أشرف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البلية، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي حتى أرُدَّ عليكم ما سلبتكم.

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم فلم يَنْصُرْهُ... فابْتَلِيَ. ويقال استضاف الناس يوماً فلماً جاءه ابن فقير مَنَعَهُ من الدخول. ويقال كان يغزو ملكاً كافراً، وكان لأيوب غَنَمٌ في ولايته، فداهنته لأجل غَنَمِهِ في القتال.

ويقال حَسَدَهُ إبليس، فقال: لَئِنْ سَلَّطْتَنِي عَلَيْهِ لَمْ يَشْكُرْ لَكَ. ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد، فَجَرَّ الشَّيْطَانُ الاسْطِرْطَانَةَ فانهدم البيت عليهم.

ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانين سنة، وقيل أربعين سنة، وقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْكَضَ بِرَجْلِكَ هَذَا مُمْسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. لما أراد اللُّهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له: ﴿أَرْكَضَ بِرَجْلِكَ﴾، فركض، فظَهَرَتْ عَيْنُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به، فعاد إليه جماله وكماله. وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة، واغتسل، ورَدَّ الله وَشَعْرَهُ وبشره، وأحيا أولاده وأهله، وقيل بل يردُّهم إليه في الجنة في الآخرة^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَحُذِّ بِيْكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ يَدَيْهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

الضِعْفُ الحزمة من القضبان، وقيل كانت مائة، وأمر بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لثلاثيحت في يمينه، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائة خشبةٍ إِنْ صَحَّ (أنها أخطأت). فَشَكَرَ اللُّهُ لها لبراءةٍ ساحتها، وصبرها على خدمته. وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليس: اسجدي لي؛ أخبرت أيوبَ بذلك، فغاضه حيث سمعت من إبليس

ذلك وظننت أنه صادق. وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهم في ذلك ريبة، وكان أيوب يتعلق بذوائبها (إذا أراد القيام). وقيل رابه شيء منها فتحلف (أن يضربها بعد شفائه).

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا...﴾: والصبر ألا تعترض على التقدير.

ويقال الصبر الوقوف تحت الحكم. ويقال التلذذ بالبلاء، واستعداؤه دون استصعابه. ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب.

ولم يتف قوله ﴿مَسَّيَ الضُّرِّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] اسم الصبر عنه؛ لأن ذلك لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه كان مرة واحدة، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقل مسني الضر؛ فكان الحكم للغالب.

﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لم يشغله البلاء عن المبلي. ونعم العبد لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.

﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾: أي القوة. ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ أي البصائر.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾: أي بفضيلة خالصة وهي ذكر الجنة والنار، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب من النار. ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء. ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكري الدار، ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلَّ مَنَ الْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾: قيل كان تكفل لله بعمل رجل صالح مات في وقته، وقيل كفل مائة من بني إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالم، فكان يتفق عليهم. ويقال كان اليسع وذو الكفل أخوين.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَتَابٍ﴾.

أي هذا القرآن فيه ذكر ما كان، وذكر الأنبياء والقصص.

ويقال إنه شرف لك؛ لأنه معجزة تدل على صدقك، وإن للذين يتقون المعاصي لحسن المُنْقَلَبِ.

﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْ مَّنْعَةٍ لِّمَن أَلْفَبُتْ﴾.

أي إذا جاؤوها لا يلحقهم ذل الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم

الملائكة بالترحاب والتبجيل. متكئين فيها على أرائكهم، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب على ما يشتهون، وعندهم حورٌ عِين قاصراتُ الطُرفِ^(١) عن غير أزواجهن، (أتراب): لِدَات مُسْتَوِيَاتٌ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالشَّكْلِ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا وَابْنُ الْطَلْفَيْنِ شَرٌّ مَنَابٍ﴾.

لَشَرٍّ مَرْجِعٍ وَمُنْقَلَبٍ؛ وهي جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذِّبِينَ فيها، وبِئْسَ الْمَكَانُ ذَلِكَ^(٣)!

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَبِيرٌ وَغَسَاقٌ﴾.

«حميم»: هو الماء الحلو، و «غَسَاقٌ» هو عصارة أهل النار، ويقال هو زمهرير^(٤) جهنم.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾.

أي فنون أخرى من مثل ذلك العذاب.
قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا قَوَّحٌ مُّقْتَنِجٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ يَوْمَ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم، ويقول الأتباع للمتبوعين: لا مرحباً بكم؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم^(٥)، ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾.

فيقال لهم كُلُّكُمْ فيها، ولن يفتَرَ العذابُ عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾.

يقول الكفار عندما يدخلون النار: ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدّهم في الدنيا من الأشرار والمستضعفين... فَلَسْنَا نَرَاهُمْ هَاهُنَا؟ أَمْ لَيْسُوا هَاهُنَا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا؟ يقوله أبو جهل وأصحابه يعنون بلالاً والمستضعفين، فيُعَرِّفون بأنهم في الفردوس، فتزداد حسراتهم^(٦).

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

أي إن مخاصمة أهل النار في النار لَحَقٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي دُعِيَ الْفَهَارُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْتَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

(١) يقال: امرأة قاصرة الطرف: خجلة حبيّة، لا تمتد عينها إلى غير زوجها.

(٢) الآيات من (٥١ حتى ٥٤) لم ترد. (٣) الآية (٥٦) لم ترد.

(٤) الزمهرير: شدة البرد. (٥) الآية (٦٠) لم ترد.

(٦) الآية (٦٣) لم ترد.

قل يا محمد: إنما أنا مُنذِرٌ مخوفٌ، مُبلِّغٌ رسالةَ ربي، وما من إلٍ إلا الله الواحد الذي لا شريك له.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أي الذي أَتَيْتُكُمْ به من الأخبار عن القيامة والحشر، والجنة والنار، وما أخبرتكم به عن بُيُوتِي وصدقي هو نبأ عظيم، وأنتم أعرضتم عنه.

وما كان لي من عِلْمٍ بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أَنَّ الله عَرَّفَنِي، وإلا ما كُنْتُ عَلِمْتُهُ. والملأ الأعلى قومٌ من الملائكة في السماء العليا، واختصامهم كان في شأن آدم حيث قالوا: أتجعل فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها؟

وقد ورد في الخبر: «أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن هذا الاختصام فقال: لا أدري. فقال جبريل: في الكفارات والدرجات؛ فالكفارات إسبأغ الوضوء في السَّيَرَاتِ^(١)، ونُقل الأقدام إلى الجماعات، وأما الدرجات فإفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»^(٢)، وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها - فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا، ولكنهم في الأصل لا يجحدون. . . . وهذا إنما يُوحى إليّ وأنا منذر مبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾.

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي، والملائكة، ولم يقل في صفة شيءٍ منها ما قال في صفة آدم وأولاده. ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم، وسبحان الله! خَلَقَ أَعَزَّ خَلْقِهِ من أَذَلِّ شيءٍ وأَحْسَهُ وهو التراب والطين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾.

روح آدم - وإن كانت مخلوقة - فَلَهَا شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر، فلمَّا سَوَّى خَلَقَ آدم، وَرَكَّبَ فيه الروح جَلَّلَهُ بأنوار التخصيص، فوقَعَتْ هيئته على الملائكة، فسجدوا لأمره، وظهرت لإبليس شقاوته، ووقع - بامتناعه - في اللعنة^(٣).

(١) السبرات: جمع سبرة، وهي الغداة الباردة. (اللسان ٣٤١/٤ مادة: سبر).

(٢) للحديث رواية أخرى «سألني ربي فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى» أخرجه القرطبي في (التفسير ٢٢٦/١٥).

(٣) الآيتان (٧٣، ٧٤) لم تردا.

﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ اَسْتَكَبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِيْنَ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُمْ مِنْ طِيْنٍ﴾ .

من هنا وقع في الغلط؛ توهم أنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية، ولم يعلم أن التفضيل من حيث القسمة دون الخلقة.

ويقال ما أودع الله - سبحانه - عند آدم لم يوجد عند غيره، ففيه ظهرت الخصوصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَچٖمٌ وَّ اِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيْ اِلٰى يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

قال فاخرج من الجنة، ومن الصورة التي كنت فيها، ومن الحالة التي كنت عليها، ﴿فَاِنَّكَ رَچٖمٌ﴾ مَزْمِيٌّ بِاللَّعْنِ مِنِّي، وبالشُّهْبِ مِنَ السَّمَاءِ، وبالرجوم من قلوب الأولياء إِنْ تَعَرَّضْتَ لَهُمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اَنْظِرْنِيْ اِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ اِلٰى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ﴾ .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه، وتعلّقت إرادته بسؤال إنظاره، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته، فأنظره الله، وأجابه، لأنه بلسانه سأل تمام شقاوته.

﴿قَالَ فِعْرِيْكَ لَا تَغْوِيْهُمْ اَجْمَعِيْنَ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِيْنَ﴾ .

ولو عَرَفَ عِزَّتَهُ لَمَّا أَقْسَمَ بِهَا عَلَى مَخَالَفَتِهِ.

ويقال تجاسرُهُ فِي مَخَاطَبَةِ الْحَقِّ - حيث أَصَرَ عَلَى الْخِلَافِ وَلَقَسَ عَلَيْهِ - أَفْبَحُ وَأَوْلى فِي اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنَةِ مِنْ امْتِنَاعِهِ لِلْسُجُودِ لِآدَمَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُوْلُ لَاۤ اَمْلَاۤءَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ اَجْمَعِيْنَ﴾ .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول ﷺ:

﴿قُلْ مَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُسْتَظْفِرِيْنَ اِنْ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ وَلِلْعٰلَمِيْنَ نَبَأٌ بَعْدَ

جِيءَ﴾ .

ما جئتم من حيث أنا، ولا باختيارى، وإنما أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ.

﴿اِنْ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ يعني القرآن، عظة لكم.

﴿وَلِلْعٰلَمِيْنَ نَبَأٌ بَعْدَ جِيءٍ﴾ وعِلْمٌ صِدْقُهُ. بعد ما استمرت شريعته، فإن مثل ذلك إذا

كان باطلاً لا يدوم.

سورة الزمر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة سماعها يوجب للقلوب شفاءها، وللأرواح ضيائها، وللأسرار سناءها وعلائها.

كلمة مَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. وَمَنْ سَمِعَهُ يَسْمَعُ الْوَجْدِ ظَلَّتْ ألبابه مبهورة، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة.

قوله جل ذكره: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي هذا كتاب عزيز نَزَلَ من رب عزيز على عبدٍ عزيز بلسان ملكٍ عزيز في شأن أمة عزيزة بأمرٍ عزيز. وفي ورود الرسول به من الحبيب الأول نزهة لقلوب الأحياء بعد ذبول غصن سرورها، وارتياح عند قراءة فصولها.

وكتاب موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى، وكتاب نبينا ﷺ نَزَلَ به الروح الأمين على قلب المصطفى صلوات الله عليه... وفضل بين من يكون كتاب ربه مكتوباً في ألواح، وبين من يكون خطاب ربه محفوظاً في قلبه، وكذلك أمته، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْتَثُّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾.

أي أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحِقٌّ في إنزاله. والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع، وتكون بالنفس والقلب والروح؛ فالتى بالنفس بالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص، والتي بالقلب بالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص، والتي بالروح بالإخلاص فيها التنقي عن طلب الاختصاص.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ الْعَبْدَ أَنْ يَحْتَسِبَ الْأَجَرَ عَلَى طَاعَتِهِ فِطَاعَتِهِ لَا

تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَالَمِ مُخْلِصٌ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ أي الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ اللَّهِ ولا بأمره ولا بإذنه، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وفي هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرْبِ بنشاطِ نَفْسِهِ من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِي بها... فكل ذلك اتباعُ هَوَى، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً رِضْوَانٍ اللَّهُ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

لا تهديهم اليومَ لدينه، ولا في الآخرة إلى ثوابه. والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرض لغير مقامه، ويدّعي شيئاً ليس بصادقٍ فيه، فاللَّهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدَّاهُ ورُشْدُهُ. وعقوبته أَنْ يَحْرِمَهُ ذلك الشيء الذي تصدَّى له بدعواه قبل تَحْقِيقِهِ بوجوده ودَوَقِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

خاطَبَهُمْ على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا: المسيح ابن الله، وغزيرٌ وَلَدُ اللَّهِ؛ فقال: لو أراد أن يَتَّخِذَ وَلَدًا لِلتَّبْنِي والكِرامَةِ لِاخْتَارَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ مُنْزَهُونَ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَأَوْصَافِ الْخَلْقِ.

ثم أخبر عن تَقْدِيسِهِ عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تنزيهاً له على اتخاذ الأولاد... لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نَفْتِهِ، ولا بالتَّبْنِي لِتَقْدِيسِهِ عَنِ الْجِنْسِيَةِ وَالْمَحَالَّاتِ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد؛ إذ لو كان ذلك فيكف كان يكون حُكْمُهُ؟ كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي خَلَقَهُمَا وهو مُجَقٌّ في خلقهما.

﴿يَكُونُ أَيْدٍ عَلَى النَّهَارِ وَتَكُونُ النَّهَارُ عَلَى الْإِيلِ وَسَحَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، ويدخل النهار على الليل في الزيادة والنقصان، وَسَحَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد في القبض والبسط، والجَمْعِ وَالْفَرْقِ، والأخذ والرد، والصحو والسُّكْرِ، ونجوم العقل وأقمار العلم،

وشموس المعرفة ونهار التوحيد، وليالي الشك والجحْد ونهار الوصل، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها، وزيادتها ونقصانها.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

«العزیز» المتعزِّز على المحبين، «الغفار» للمذنبين.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] يعني آدم وحواء.

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي خلق لكم، ﴿ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا﴾ فمن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المواشي اثنين.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي يصوركم، ويركب أحوالكم. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة^(١). ذكرهم نسبتهم لثلاث يُعجبوا بأحوالهم.

ويقال بين آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خَلْقِك - من قطرتين - أمشاجاً^(٢) متشاكلة الأجزاء، مختلفة الصور في الأعضاء، سخر بعضها محال للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة... وغير ذلك من أحوال القلوب، وسخر بعضها محال للحواس كالسمع والبصر والشم وغيرها.

ويقال هذه كلها نعم الله بها علينا فذكرنا بها - والنفوس مجبولة، وكذلك القلوب على حب من أحسن إليها - استجلاباً لمحبتنا له.

﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ...﴾ أي إن الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربكم. أي: أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صورتكم فأحسنتم صوركم، وأنا الذين أسبغت عليكم إنعامي، وخصصتكم بجميل إكرامي، وأغرقتكم في بحار أفضالي، وعرفتكم استحقاق جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدِي، وألزمتكم رعاية حدودِي... فما لكم لا تنقظعون بالكلية إلي؟ ولا ترجون ما وعدتكم لدي؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلي؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

(١) المشيمة: ظاهر الغشاء الذي يكون فيه الجنين في البطن، ويخرج معه عند الولادة (ج) مشايم.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط، ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة. (اللسان ٣٦٧/٢ مادة: مشج).

إِنْ أَعْرَضْتُمْ وَأَبَيْتُمْ، وَفِي جُحُودِكُمْ تَمَادَيْتُمْ... فَمَا تَقْتَرُّ إِلَيْكُمْ؛ إِذْ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ عَنْكُمْ، وَلَكِنِّي لَا أَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَبْقُوا عَنِّي!

يَا مُسْكِين... أَنْتَ إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فَأَنَا عَنْكَ غَنِيٌّ، وَأَنَا إِنْ لَمْ أَكُنْ لَكَ فَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ؟ وَمَنْ يَكُونُ لَكَ؟ مَنْ الَّذِي يُخَمِّنُ إِلَيْكَ؟ مَنْ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْكَ؟ مَنْ الَّذِي يَرْحَمُكَ؟ مَنْ الَّذِي يَنْثُرُ التُّرَابَ عَلَى جِرَاحِكَ؟

مَنْ الَّذِي يَهْتَمُّ بِشَأْنِكَ؟ بِمَنْ تَسْلُو إِذَا بَقِيَتْ عَنِّي؟ مَنْ الَّذِي يَبِيعُكَ رَغِيضًا بِمِثْقَالِ ذَهَبٍ؟!

عَبْدِي... أَنَا لَا أَرْضَى إِلَّا تَكُونَ لِي وَأَنْتَ تَرْضَى بِأَلَا تَكُونَ لِي! يَا قَلِيلَ الْوَفَاءِ، يَا كَثِيرَ التَّجَنُّي!

إِنْ أَطَعْتَنِي شَكَرْتُكَ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي ذَكَرْتُكَ، وَإِنْ خَطَوْتَ لِأَجْلِي خَطْوَةً مَلَأْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مِنْ شُكْرِكَ:

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ الزِّيَارَةَ حَقٌّ لَفَرَشْنَا الْخُدُودَ أَرْضًا لَتَرْضَى

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

إِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ خَشَعَ وَخَضَعَ، وَإِلَى قُرْبِهِ فَرَعَ، وَتَمَلَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَضَرَّعَ. فَإِذَا أَزَالَ عَنْهُ ضُرَّهُ، وَكَفَاهُ أَمْرَهُ، وَأَصْلَحَ شُغْلَهُ نَسِيَ مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا، فَيَعُودُ إِلَى رَأْسِ كُفْرَانِهِ، وَيَنْهَمُكَ فِي كِبَائِرِ عَصْيَانِهِ، وَيُشْرِكُ بِمُعْبُودِهِ. هَذِهِ صِفَتُهُ... فَسُخِّقْ لَهُ وَبُعْدًا، وَلِسَوْفَ يَلْقَى عَذَابًا وَجِزَاءً.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَتَلْتُمْ مَائَةً أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ...﴾.

«قَاتِنًا»: الْقَنُوثُ هُوَ الْقِيَامُ، وَقِيلَ طُولُ الْقِيَامِ. وَالْمُرَادُ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِحَقُوقِ الطَّاعَةِ أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَيِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

وَالْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ أَيِ أَمِنْ هُوَ قَاتِنٌ كَمَنْ لَيْسَ بِقَاتِنٍ؟ أَمِنْ هُوَ قَاتِنٌ كَالْكَافِرِ الَّذِي جَرَى ذِكْرُهُ؟ أَيِ لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَيَقَالُ الْقَنُوثُ الْقِيَامُ بِآدَابِ الْخِدْمَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ وَلَا تَقْصِيرٍ. «يَحْذَرُ» الْعَذَابَ الْمَوْعُودَ فِي الْآخِرَةِ، «وَيَرْجُوا» الشَّوَابَ الْمَوْعُودَ. وَأَرَادَ بِالْحَذَرِ الْخَوْفَ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل! ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: العِلْمُ في وصف المخلوق على ضربين: مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. ويقال مصنوع وموضوع. ويقال علمٌ برهانٍ وعلمٌ بيان؛ فالعلوم الدينية كلها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَجَادَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أطيعوه واحذروا مخالفة أمره. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بأداء الطاعات، والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان).

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: أي لا تتعلَّلوا بأذى الأعداء؛ إِنْ نَبَأَ بِكُمْ مَنْزِلٌ فَتَعَلَّلْكُمْ بمعادة قومٍ وَمَنْعِهِمْ إِيَّاكُمْ - لا يُسْمَعُ، فأَرْضُ اللَّهِ واسعةٌ، فاخْرُجُوا مِنْهَا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ تَتَمَّ لَكُمْ فِيهِ عِبَادَتُكُمْ^(١).

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. والصبر حَسْبُ النَّفْسِ على ما تكرهه. ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهِ ولا تعيس. ويقال هو التهذُّفُ^(٢) لسهام البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

مضى القول في معنى الإخلاص. وفي الخبر: إِنْ اللَّهَ يَقُولُ: «الإخلاص سِرٌّ بَيْنَ اللَّهِ وَعَبْدِهِ»^(٣).

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُهُ الشيطان، ولا يَطْلُعُ عَلَيْهِ الْمَلَكَانُ.

﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في وقتي وفي شرعي. والإسلام الانقيادُ لله بكل وجه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أخاف أصناف العذاب التي تحصل في ذلك اليوم.

(١) قال القشيري برسالته حاثاً على السفر: إِنْ ابْتَلِيَ مَرِيدٌ بِجَاهٍ أَوْ صَحْبَةٍ حَدَّثَ أَوْ مِيلَ إِلَى امْرَأَةٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْخٌ يَدُلُّهُ عَلَى حُلِّ لَهْلَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحُلُّ لَهُ السَّفَرُ وَالتَّحَوُّلُ عَنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ. (الرسالة القشيرية ص ٣٦٣).

(٢) التهذُّف: الدنو والاستقبال. (اللسان ٣٤٥/٩ مادة: هدف).

(٣) ورد الحديث في الرسالة القشيرية ص ٢٠٨: سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «سَأَلْتُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتَهُ قَلْبَ مَنْ أَحَبَّيْتَهُ مِنْ عِبَادِي». أَخْرَجَهُ الْقُرْظُونِيُّ فِي مَسَلَّاتِهِ عَنْ حَذِيفَةَ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُ عَبْدٌ مُخْلِصٌ لِّمِ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُخْسِرُونَ ﴾ .

هذا غاية الزجر والتهديد، ثم بيّن أن ذلك غاية الخسران، وهو الخزي والهوان. والخاسير - على الحقيقة - مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى، وَخَسِرَ عُقْبَاهُ بارتكابه ما الربُّ عنه نَهَى، وَخَسِرَ مولاه فلم يستح منه فيما رأى.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَلْعَابُونَ ﴿١٠﴾

أحاط بهم سُرَادِقُهَا؛ فهم لا يخرجون منها، ولا يَمُتُّرُونَ عنها. كما أنهم اليوم في جهنم عقائدِهِمْ؛ يستديم حجابُهُمْ، ولا ينقطع عنهم عقابُهُمْ.

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ...﴾ إِنَّ خِفَتَ الْيَوْمَ كُفَيْتَ خَوْفَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَإِلَّا فَبَيْنَ يَدَيْكَ عَقَبَةُ كُؤُودٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ .

طاغوت كل إنسان نفسه؛ وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه، وعائق رضا مولاه. وعبادة النفس بموافقة الهوى - وقليل من لا يعبد هواه، ويجتنب حديث النفس.

﴿وَأَنبِئُوا إِلَى اللَّهِ﴾ : أي رجعوا إليه في كل شيء .

قوله جل ذكره: ﴿يَنْشِئُ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَعْمُونَ الْقَوْلَ فَيَسْمَعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾.

﴿يَسْتَعِينُونَ الْقَوْلَ﴾ يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء، ولكن الاتباع يكون للأحسن. «أحسنه»: وفيه قولان؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة، كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أَي عزيز. والثاني: الأحسن على المبالغة، والحَسَنُ ما كان مَأْدُوناً فيه في صفة الخَلْقِ ويَعْلَمُ ذلك بشهادة العلم، والأحسن هو الأوَّلِي والأصوب. ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له. ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله.

ويقال إن للعبد دواعي من باطنه هي هواجس النفس ووساوس الشيطان وخوافط المَلِك وخطاب الحق يُلقَى في الرُّوع؛ فوساوس الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجس النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النَّفس وأنَّ لها في شيء نصيباً، وخوافط المَلِك تدعو إلى الطاعات والقرب، وخطاب الحق في حقائق التوحيد.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَنْبِيِّ﴾ :-

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة.
قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب فريقان: فريقٌ حقت عليهم كلمةً بعذابهم في النار، وفريقٌ حقت عليهم كلمة العذاب بالحجاب اليوم، فهم اليوم لا يخرجون عن حجاب قلوبهم، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان - وإن كانوا من أهل الإيمان.

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَبِيَّةٌ يَمْجُرُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاتِ﴾.

وَعَدَ المطيعين بالجنة - ولا محالة لا يُخْلِفُ، وَعَدَ التائبين بالمغفرة - ولا محالة يغفر لهم، وَعَدَ المريدين بالوجود والوصول - وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالة مُصْدِقٌ وَغَدَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أخبر أنه يُنْزَلُ من السماء المطر فيُخْرِجُ به الزرع فيخضر، ثم يأخذ في الجفاف، ثم يصير هشيمًا... والإشارة من هذا إلى الإنسان، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم.

ويقال إن الزرع ما لم يأخذ في الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحب، فالحب هو المقصود منه. كذلك الإنسان ما لم يحصل من نفسه وصولاً لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمة.

ويقال إن كَوْنَ المؤمن بقوة عقله يوجب استفادة له بعلمه إلى أن يبدو منه كمالٌ يُمكن من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بَدَتْ أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلما استبان الصبح أدرج^(١) ضوءه بأنواره أنوار تلك الكواكب
قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

جواب هذا الخطاب محذوف... أي أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن ليس كذلك؟

(١) أدرج الشيء في الشيء: لفه وطواه.

لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ - عَنِ الشَّرْحِ الْمَذْكُورِ فِيهَا، فَقَالَ: «ذَلِكَ نَوْزٌ يُقْذَفُ فِي الْقَلْبِ، فَقِيلَ: وَهَلْ لَذَلِكَ أَمَارَةٌ؟
قَالَ: «نَعَمْ؛ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِهِ»^(١).

وَالنُّورُ الَّذِي مِنْ قِبَلِهِ - سُبْحَانَهُ - نَوْزُ اللَّوَاتِحِ بِنُجُومِ الْعِلْمِ، ثُمَّ نَوْزُ اللُّوَامِعِ بَيَانِ الْقَهْمِ، ثُمَّ نَوْزُ الْمُحَاضِرَةِ بِزَوَائِدِ الْيَقِينِ، ثُمَّ نَوْزُ الْمَكَاشِفَةِ بِتَجَلِّي الصِّفَاتِ، ثُمَّ نَوْزُ الْمَشَاهِدَةِ بِظُهُورِ الذَّاتِ، ثُمَّ أَنْوَارِ الصِّمْدِيَةِ بِحَقَائِقِ التَّوْحِيدِ... وَعِنْدَ ذَلِكَ فَلَا وَجَدَ وَلَا فَقْدَ، وَلَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ... كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

﴿قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أَي الصَّلْبَةِ قُلُوبِهِمْ، لَمْ تَقْرَعْهَا خَوَاطِرُ التَّعْرِيفِ بِفَقِيَّتِ عَلَى نَكْرَةِ الْجَحْدِ... أُولَئِكَ فِي الضَّلَالَةِ الْبَاقِيَةِ، وَالْجَهَالَةِ الدَّائِمَةِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّثَانِي تَنْفَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَسَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾.

﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾: لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

﴿كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا﴾: فِي الْإِعْجَازِ وَالْبَلَاغَةِ.

﴿مَّثَانِي﴾: يَشْنِي فِيهَا الْحُكْمَ وَلَا يُمَلُّ بِتَكَرُّرِ الْقِرَاءَةِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى نَوْعَيْنِ: الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ سُلْطَانِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَصِفَاتِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

﴿تَنْفَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ الْوَعِيدِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾: إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ الْوَعْدِ.

وَيُقَالُ: تَقْشَعُرُ وَتَلِينُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَيُقَالُ بِالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَيُقَالُ بِالْهَيْبَةِ وَالْأَنْسِ، وَيُقَالُ بِالتَّجَلِّيِ وَالِاسْتِتَارِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أَي فَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ كَمَنْ لَيْسَ بِكَذَلِكَ؟ وَقِيلَ إِنَّ الْكَافِرَ يَلْقَى النَّارَ أَوَّلَ مَا يَلْقَاهَا بِوَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ يُرْمَى فِيهَا مِنْكَوسًا. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُوقَى ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا يَلْقَى النَّصْرَةَ وَالسُّرُورَ وَالْكَرَامَةَ؛ فَوَجْهُهُ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ.

(١) أَخْرَجَهُ الزَّيْدِيُّ فِي (إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ ٩/٣٢٧، ٣٢٨، ١٠/٢٥٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي (الدَّرِّ الْمَعْنُورِ ٣/٤٤، ٥/٣٢٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي (التَّفْسِيرِ ٣/٣٢٨)، وَالْقُرْطُبِيُّ فِي (التَّفْسِيرِ ٢/١٠٤، ٧/٨١).

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أشد العذاب ما يكون بغتة، كما أنَّ أتم السرور ما يكون فلتة^(١). ومن الهجران والفراق ما يكون بغتة غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد وأشد وأوجع تأثيراً في القلب، وفي معناه قلنا:

فَبِتْ بخيرِ والدُّنَى مطمئنةً وأصبحت يوماً والزمانُ ثقلباً
وأتم السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة، قال قائلهم:

بينما خاطر المُنَى بالتلاقي سابح في فؤاده وفؤادي
جَمَعَ اللَّهُ بيننا فالتقينا هكذا صُدِفَ بلا ميعاد^(٢)
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَرَأَيْنَا عَرِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي أوضحنا لهم الآيات، ووقفناهم على حقائق الأشياء. ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مثل الكافر ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: فالصنم يدعي فيه قومٌ وقوم آخرون؛ فهذا يقول: أنا صَنَعْتُهُ، وذلك يقول: أنا استعملته، وثالث يقول: أنا عَبْدُهُ. أما المؤمن فهو خالصٌ لله عزَّ وجل، يشبه «عبدًا سَلَمًا لرجل» أي ذا سلامة من التنازع والاختلاف.

ويقال: ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ تتجاذبه أشغال الدنيا، شُغْلُ الْوَلَدِ وشُغْلُ الْعِيَالِ، وغير ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ الْمُشْتَتَةِ.

أما المؤمن فهو خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيب؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء، ولا للرضوان معه شُغْل، إذ ليس له طاعات يُدِلُّ بها، وعلى الجملة فهو خالص لله، قال تعالى لموسى: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ إِفْقَى﴾ [طه: ٤١] أي أبقيتك لي حتى لا تصلح لغيره. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الثناء له، وهو مُسْتَحِقُّ لصفات الجلال. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمَاتٌ ثُمَّ إِنَّكُمْ رَوْمٌ الْقَيْمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَخَصِمُون﴾.

(١) الفلتة: يقال: خرج الرجل فلتة؛ أي: بغتة، وحدث الأمر فلتة أي: فجأة بلا روية (ج) فلتات.

(٢) الآية (٢٦) لم ترد.

نَعَاه - عليه السلام - إليه . وَنَعَى الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ فَفَزَعُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ مَأْتِمِهِمْ ،
ولا تعزية في العادة بعد ثلاث . وَمَنْ لَمْ يَتَفَرَّغْ مِنْ مَأْتِمِ نَفْسِهِ وَأَنْوَاعِ هُمُومِهِ ، فَلَيْسَ لَهُ
مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ شَمَةٌ ، فَإِذَا فَرِغَ قَلْبُهُ مِنْ حَدِيثِ نَفْسِهِ ، وَعَنِ الْكُؤُنِ بِجَمْلَتِهِ فَحِينَئِذٍ
يَجِدُ الْخَيْرَ مِنْ رَبِّهِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَّا بَعْدَ فَنَائِهِمْ عَنْهُمْ ، وَأُنْشِدَ بَعْضُهُمْ :

كتابي إليكم بعد موتي بليلة ولم أدر أني بعد موتي أكتب
قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يبلغها ، وادَّعى وجود أشياء لم يَدُقْ شيئاً منها ،
قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر : ٦٠] .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأما المُدَّعي الذي لم يبلغ ما يدَّعيه فليس
يكذب على ربِّه إنما يكذب على نفسه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَدُقْها ولم يجزها ،
فأما غير المتحقق الذي يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذي يقول في صفة
الحق - سبحانه - ما يتقدَّس ويتعالى عنه ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَمَّا
بَسَّأْتُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

الذي جاء بالصدق في أفعاله من حيث الإخلاص ، وفي أحواله من حيث
الصدق ، وفي أسرارِهِ من حيث الحقيقة .

﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ : «الإحسان» - كما جاء في الخبر - أن تعبد الله كأنك تراه ^(٢) .
فَمَنْ كَانَتْ - اليومَ - مشاهدته على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، وَمَنْ لَا فَلَ .

(١) قال القشيري برسالته : ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق
والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق ، تجري
عليهم أحكامه ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم لو كوشفوا بأسرار
الأحادية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية ،
والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والثائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا .

هذه هي الصور التي يصور بها القشيري بعض متصوفي زمانه ، وهي أشبه بالصورة التي صور بها
الكلاباذي بعض متصوفي زمانه ، ولكنها أحلك سواداً وأكثر إبلاماً . (الرسالة القشيرية ص ٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤٤/٦) ، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠) وابن خزيمة في
(الصحيح ٢٢٤٤) ، والهيثمي في (موارد الظلمات ١٦) ، وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨) ،
والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨ ، ٩٤/١٠) ، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦) ،
والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩ - ٥٢٥٤) .

قوله جل ذكره: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

من لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة. ومن كان معه إيمان: فإذا كُفِّرَ عنه أسوأ ما عَمِلَهُ فأسوأ أعماله كبائرُه؛ فَإِنْ غُفِرَتْ يَجْزِيَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ. وأحسن أعمال المؤمنين الإيمان والمعرفة، فإن كان الإيمان مؤقتاً كان ثوابه مؤقتاً، وإن كان الإيمان على الدوام فتوابه على الدوام. ثم أحسن الأعمال عليها أحسن الثواب، وأحسن الثواب الرؤية فيجب أن تكون على الدوام - وهذا استدلال قوي.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

استفهام والمراد منه التقرير؛ فالله كافٍ عبده اليوم في عرفانه بتصحيح إيمانه ومنع الشرك عنه، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه، وما بينهما فكفايته تامة وسلامته عامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرُّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قرَّرَ عليهم علو صفاته، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك، ثم طالبهم بذكر صفات الأصنام التي عبدوها من دونه، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية، والبعد عن الحياة والعلم والقدرة والتمكُّن من الخلق، فيقول: كيف أشركتم به هذه الأشياء؟ وهلاً استحييتم من إطلاق أمثال ذلك في صفته؟.

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللَّهُ، عليه يتوكل المتوكلون؛ كافي الله المتفرد بالجلال، القادر على ما يشاء، المتفضل علي بما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَجِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

سوف ينكشف ربحنا وخسرانكم، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف نطالبكم فلا جواب لكم، ونُعَذِّبُكُمْ فلا شفيع لكم، ونُدْمِرُ عليكم فلا صريح لكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْهِ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ سَلَ قَلْبًا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

مَنْ أَحْسَنَ فإِحْسَانَهُ إِلَى نَفْسِهِ اكْتَسَبَهُ وَمَنْ أَسَاءَ فَبِلَاؤِهِ عَلَى نَفْسِهِ جَلَبَهُ - وَالْحَقُّ غَنِيٌّ عَنِ التَّجَمُّلِ بِطَاعَةِ مَنْ أَقْبَلَ وَالتَّنْقِصِ بِزَلَّةٍ مَنْ أَعْرَضَ .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

يقبض الأرواح^(١) حين موتها، والتي لم تمُت من النفوس في حال نومها، فإذا نامت فيقبض أرواحها. وقبض الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح، ويخلق بدّل الاستشعار والعلم الغفلة والغيبة في محال الإحساس والإدراك. ثم إذا قبض الأرواح عند الموت خلق في الأجزاء الموت بدّل الحياة، والموت ينافي الإحساس والعلم. وإذا ردّ الأرواح بعد النوم إلى الأجساد خلق الإدراك في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً، وقبض الله الأرواح في حال النوم وردت به الأخبار، وذلك على مراتب؛ فإن روحاً تُقبض على الطهارة تُرفع إلى العرش وتسجد لله تعالى، وتكون لها تعريفات، ومعها مخاطبات «والله أعلم»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَّقُونَ﴾ .

أي أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء يحكمهم لا بتعريف من قبل الله أو إخبار - فإن الله تعالى لا يقبل الشفاعة من أحدٍ إلا إذا أذن بها، وإن الذي يقولونه إنما هو افتراء على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

اشمأزت^(٣) قلوب الذين جحدوا ولم تسكن نفوسهم إلى التوحيد، وإذا ذُكر الذين من دونه استأنسوا إلى سماعه: -

(١) القشيري هنا لا يكاد يميز بين النفس والروح. لكنه بالرسالة يميز بينهما حيث يقول: ويُحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القلب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القلب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون (بشكل عام) مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشیاطين بصفة اللطافة. (الرسالة القشيرية ص ٨٧).

ثم يقول: اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب، لطيفة، أجرى الله العادة بخلق الحياة في القلب ما دامت الأرواح في الأبدان. (الرسالة القشيرية ص ٨٨).

(٢) الآية (٤٤) لم ترد. (٣) اشمأز: انقبض واقتصر ونفر.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

عَلَّمَهُ - عَلَّمَهُ - كيف يشي عليه - سبحانه .

وتشتمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التتُّصُل والتدليل ، وابتغاء العفو والتفضل ، وتحقيق الالتجاء بحسن التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال :
﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

لافتدوا به . . ولكن لا يُقْبَل منهم ، واليوم لو تصدقوا بمثقال ذرة لُقِبَ منهم .
كما أنهم لو بكوا في الآخرة بالدماء لا يُزَحَمُ بكأوهم ، ولكنهم بدمعة واحدة - اليوم - يُنْحَى الكثير من دواوينهم .

قوله جل ذكره : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ .

في سماع هذه الآية حَسَرَات لأصحاب الانتباه .

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم مالِكٌ : مَنْ أَنْتُمْ؟ إن الذين جاؤوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوههم كانت مُسَوَّدَةً ، وعبوتهم كانت مُزْرَقَةً . . . وأنتم لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلqاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ .

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

حاق بهم وبأل استهزأهم وجزاء مكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

في حال الضُر يتبرؤون من الاستحقاق والحوْل والقوة ، فإذا كَشَفَ عنهم البلاء وقعوا في مغاليطهم ، وقالوا : إنما أُوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا ، قال تعالى : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا﴾ ، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهِمْ مثل هذا قالوا وحسبوا ، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم ، فأصابهم شؤْمٌ ما قالوا ، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مثل ما أصاب أولئك ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق: فَمِنْ مُوسَّعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمِنْ مُضَيَّقٍ عَلَيْهِ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

التسمية «بإعبادي» مذخ^(١)، والوصف بأنهم «أسرفوا» ذم. فلمّا قال: ﴿يَاعِبَادِيَ﴾ طمع المطيعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية، فرفعوا رؤوسهم، ونكّس العَصَا رؤوسهم وقالوا: مَنْ نحن... حتى يقول لنا هذا؟!.

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ فانقلب الحال؛ فهؤلاء الذين نكّسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذلّتهم، والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صولتهم.

ثم أزال الأعجوبة عن القسمة بما قوّي رجاءهم بقوله: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني إن أسرفت فعلى نفسك أسرفت.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عنّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الألف واللام في «الذنوب» للاستغراق والعموم، والذنوب جمع ذنب، وجاءت «جميعاً» للتأكيد؛ فكأنه قال: أَغْفِرُ وَلَا أَتْرِكُ، وأغفو ولا أبقى.

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عيمة فلي بشأنكم عناية قديمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾.

الإنابة الرجوع بالكلية. وقيل الرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة، وصاحب الإنابة يرجع استحياءً لِكَرَمِهِ^(٢).

(١) قال القشيري برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به. (الرسالة القشيرية ص ٢٠٠).

(٢) قال القشيري بهذا الخصوص برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة أوسطهما. فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة. ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيّه المؤمنون﴾ والإنابة صفة=

﴿وَأَسْلِمُوا لِمَ﴾: وأخلصوا في طاعتكم، والإسلام - الذي هو بعد الإنابة - أن يعلم أن نجاته بفضله لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته... لا بإنابته يصل إلى فضله.
﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ قبل الفراق. ويقال هو أن يفوته وقت الرجوع بشهود الناس ثم لا ينصرف عن ذلك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَصْرَتِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِدِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقال هذا في أقوام يَرَوْنَ أمثالهم تقدموا عليهم في أحوالهم، فيذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، وَيَرَوْنَ مَا وَفَّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة^(٢) على أنامل الخيبة.

أو يقول: لو أن الله هداني لكنت كذا، ويقول آخر: لو أن لي كَرَّةً فأكون كذا، فيقول الحق - سبحانه:

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فَذُقْ من العذاب ما على جُزْمِكَ استوجبت.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

هؤلاء الذين ادَّعَوْا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها، وأظهروا المحبة لله ولم يتحققوا بها، وكفاهم افتضاحاً بذلك! وأنشدوا:

ولمّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قَالَتْ كَذَّبْتَنِي فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا؟!

فما الحُبُّ حَتَّى تَنْزِفَ الْعَيْنَ بِالْبِكَاءِ وتخرس حتى لا تجيب المناديا^(٣)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَسْمَهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

كما وقَّاهم - اليوم - عن المخالفات، حماهم - غداً - من العقوبات، فالمتقون

= الأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ والأوية صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. (الرسالة القشيرية ص ٩٤).

(١) الآية (٥٥) لم ترد.

(٢) عضوا عليه بالنواجذ؛ أي حرصوا عليه.

(٣) البيتان في الرسالة القشيرية ص ٣٢٤. رواية البيت الثاني فيها:

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

فازوا بسعادة الدارين؛ اليوم عصمة، وغداً نعمة. اليوم عناية وغداً حماية وكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

تدخل أكساب العباد في هذه الجملة، ولا يدخل كلامه فيه؛ لأن المخاطب لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿مَقَالِيدُ﴾ أي مفاتيح، والمراد منه أنه قادر على جميع المقدورات، فما يريد أن يوجده أوجده.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَائِمُوتِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

أي متى يكون لكم طمع في أن أعبد غيره... ويتوحيده رباني، وبتفريده غداني، وبشراب حبه سقاني؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لئن لاحظت غيري، وأثبتت معي في الإبداع سواي أخبطت عملك، وأبطلت سعيك، بل الله - يا محمد - فاعبد، وكُن من جملة عبادي الشاكرين^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ما عرفوه حق معرفته، وما وصفوه حق وصفه، وما عظموه حق تعظيمه؛ فمن اتصف بتمثيل، أو جَنَحَ إلى تعطيل حاد عن الشئ المثلى وانحرف عن الطريقة الحسنى. وصفوا الحق بالأعضاء، وتوهموا في نغته الأجزاء، فما قدروه حق قدره؛ فالحلق في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينه قدرته. ولأنه أقسم أن يُفني السموات ويطويها فهو قادر على ذلك.

﴿سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

في النفخة الأولى تموتون، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُونَ، والنفختان متجانستان؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح، وفي الأخرى حياة النفوس،

لِيُغْلَمَ أَنْ النُّفْخَةَ لَا تَعْمَلُ شَيْئاً لِعَيْنِهَا، وَإِنَّمَا الْجَبَّارُ بِقُدْرَتِهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامة به، وذلك عند تكوير^(١) الشمس وانكدار^(٢) النجوم، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم. الكُفَّارُ يَبْقُونَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَالْمُؤْمِنُونَ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ.

ويقال اليومُ إشراق، وغداً إشراق، اليومُ إشراق القلب بحضوره، وغداً إشراق الأرض بنور ربها. ويقال غداً أنوار التولي للمؤمنين، واليومُ أنوار التجلي للعارفين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ خَيْرٍ فَغَيْرُ خَيْرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الكفار يُسَاقُونَ إِلَى النار عُنْفًا، وَالْمُؤْمِنُونَ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ لُطْفًا؛ فَالسُّوقُ يَجْمَعُ الْجَنَسِينَ... وَلَكِنْ شَتَانٌ بَيْنَ سَوْقٍ وَسَوْقٍ!.

فَإِذَا جَاءَ الْكَافِرُ قَابِلَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ بِالتَّوْبِيخِ وَالْعِتَابِ وَالتَّانِيهِ؛ فَلَا تَكْرِيمَ وَلَا تَعْظِيمَ، وَلَا سَوَالَ وَلَا اسْتِقْبَالَ... بَلْ خِزْيٌ وَهَوَانٌ، وَمِنْ كُلِّ جَنْسٍ مِنَ الْعَذَابِ الْوَانُ^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

سَوْقٌ وَلَكِنْ بَغِيرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، سَوْقٌ وَلَكِنْ بِرُوحٍ وَطَرِبٍ.

«زُمَرًا» جَمَاعَاتٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ عَوَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَ هَؤُلَاءِ: «يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا» [مريم: ٨٥] وَفَوْقَهُمْ مَنْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يُسَاقُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَبَيْنَ مَنْ تُقَرَّبُ مِنْهُ الْجَنَّةُ... هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ، وَالْآخَرُونَ الْمُقْتَصِدُونَ، وَالْآخَرُونَ السَّابِقُونَ.

(١) كَوَّرَتِ الشَّمْسُ: جَمَعَ ضَوْوَهَا وَصَارَ كَالْكُرَةِ، أَوْ اضْمَحَلَتْ وَذَهَبَ ضَوْوُهَا.

(٢) انْكَدَرَتِ النُّجُومُ: تَنَاطَرَتْ أَوْ انْهَدَرَتْ وَتَسَاقَطَتْ أَوْ أَظْلَمَتْ وَذَهَبَ نُورُهَا.

(٣) الْوَانُ (٧٢) لَمْ تَرُدْ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ وإذا وافوا الجنة تكون الأبواب مُفْتَحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار.

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُسَاقَ، ولعل هؤلاء لا رغبة لهم في الجنة بكثير؛ فَلَهُمْ معه في الطريق قَوْلُ ﴿طَبَقًا﴾؛ أي أنهم يُسَاقُونَ إلى الجنة بلطف دون عنف.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

صَدَقْنَا وعده بإدخالنا الجنة، وإكمال المِثَّةِ.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة؛ نتبأ منها حيث نشاء. وهؤلاء قوم مخصوصون، والذين هم قوم «الْعُرْف» أقوام آخرون.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم في عموم الأوقات... هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش.

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحق، لهؤلاء دَرَكَات ولأولئك درجات... إلى غير ذلك من فنون الحالات. وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أَرَادَهُ الحق في عباداتهم.

سورة المؤمن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ تحَقَّقَ بها شَرَفٌ مِنَ الْحَقِّ مَنَالُهُ، وصفت عنده أحواله، وَخَلَعَ عَلَى نَفْسِهِ رِداءَ الْإِفْضَالِ، وَالْبَسَ قَلْبَهُ جِلَالَ الْإِقْبَالِ، وَأَفْرَدَ رُوحَهُ بِرُوحِ لُطْفِ الْجَمَالِ، وَاسْتَخْلَصَ سِرَّهُ بِكَشْفِ وَصْفِ الْجَلالِ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ﴾.

أَي حُمِّ أَمْرٍ كَائِنٍ.

ويقال «الحاء» إشارة إلى جِلْمِهِ، «والميم» إشارة إلى مجده أي: بِجِلْمِي وَمَجْدِي لَا أَخْلُدُ فِي النَّارِ مَنْ آمَنَ بِي.

ويقال هذه الحروف مفاتيح أسمائه.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

«العزیز»: الْمُعَزَّزُ لِأَوْلِيائِهِ، «العلیم»: بِمَا كَانَ وَيَكُونُ مِنْهُمْ، فَلَا يَمْنَعُهُ عِلْمُهُ بِمَا سَلَفَ مِنْهُمْ عَنْ قَضَائِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾.

كَتَابَ مُعْتَوُونَ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ لِعِبَادَتِهِ؛ عَلِيمٌ أَنَّ الْعَاصِيَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ فَازَالَ عَنْهُ الْإِنْكَسَارَ بِأَنْ قَدَّمَ نَصِيحَتَهُ، فَقَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ. فَسَكَنَ نَفْسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ بِأَسْمَائِهِ يُوَجِّبَانِ الرَّجَاءَ؛ وَهَذَا قَوْلُهُ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

ثم عقبهما بقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ثم لم يرض حتى قال بعدئذٍ ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

فَيَقَابِلُ قَوْلَهُ: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

ويقال: غَافِرُ الذَّنْبِ لِمَنْ أَصْرَ وَاجْتَرَمَ، وَقَابِلُ التَّوْبِ لِمَنْ أَقَرَّ وَنَدِمَ، شَدِيدِ الْعِقَابِ لِمَنْ جَحَدَ وَعَتَدَ، ذِي الطَّوْلِ لِمَنْ عَرَفَ وَوَحَدَ.

ويقال غَافِرُ الذَّنْبِ لِلظَّالِمِينَ، وَقَابِلُ التَّوْبِ لِلْمُقْتَصِدِينَ، شَدِيدِ الْعِقَابِ لِلْمُشْرِكِينَ، ذِي الطَّوْلِ لِلْسَّابِقِينَ.

ويقال: سئئ الله أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمِ أو لفظِ تَذَارَكَ قلوبهم بأن يُبَشِّرَهم باسمين أو بوضفين.

﴿إِنِّي الْمَصِيرُ﴾: وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرَزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْإِلَادِ﴾.

إذا ظهر البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلمتْ الأبوابُ الصَّاحِيَةُ للاستجابة والإيمان.

فأما أهلُ الكفرِ فلهم عَلَى الجمودِ إصرارٌ، وشَوْمٌ شِرْكَهُمَ يحولُ بينهم وبين الإنصافِ. . وكذلك من لا يحترمون أولياء الله، وَيُصِرُّونَ عَلَى إنكارهم، ويعترضون عليهم بقلوبهم، ويجادلون في جَحْدِ الكرامات، وما يخصُّ الله به عباده من الآيات. . فهؤلاء يميزون بين رجحانهم ونقصانهم، وسيفتضحون كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا لِیُذْخِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

كذلك مَنْ انقضى مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ ذَابَهُمْ، ولكنَّ الله - سبحانه - انتقم منهم، وعلى كُفْرِهِمَ احترمهم.

والمُتَكَبِّرُ لهذا الطريق يدين بإنكاره، ويتقَرَّبُ إلى الله به، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته، ولكن الله - سبحانه - يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه، وصدَّ قلوبهم عن هذه المعاني، وحرمانهم منها.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

إذا انختم على عبدِ حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كثرة ما يوردُ عليه من التُّصَحِّحِ. والله على أمره غالبٌ. وَمَنْ أَسْرَثَهُ يَدُ الشَّاقَاةِ فلا يُخَلِّصُهُ مِنْ مَخَالِبِهَا جُهْدٌ ولا سَعَاةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

حَمَلَةُ العرشِ من حَوْلِ العرشِ من خواص الملائكة، مأمورون بالتسبيح لله، ثم بالاستغفار للعاصين - لأنَّ الاستغفار للذنوبِ والتوبة إنما تحصل من الذنب - ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها؛ فيدعون لهم بالنجاة، ثم يرفع الدرجات، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ لِيَنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾: فلن سلط عليك أراذل من خلقه - وهم الشياطين - فلقد قيض بالشفاعة أفاضل من خلقه ومن الملائكة المقربين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُسَادُّونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

أشد العقوبات التي يوصلها الحق إليهم آثار سخطه وغضبه، وأجل النعم التي يغروهم بها آثار رضاه عنهم. فإذا عرف الكافر في الآخرة أن ربه عليه غضبان فلا شيء أصعب على قلبه من ذلك؛ لأنه عليم أنه لا بكاء ينفعه، ولا عناء يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يسمع له تضرع، ولا ترجى له حيلة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتَيْنَا فَاَعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

الإماتة الأولى إمامتهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم، ثم يميتهم فهي الإماتة الثانية. والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر.

﴿فَاَعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: أقروا بذنوبهم - ولكن في وقت لا ينفعهم الإقرار.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾: مما نحن فيه من العقوبة، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندم والإقرار. فيقال لهم:-

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

أي تصدقوا المشركين لكفرهم. وهؤلاء إمامتهم محصورة، فأما أهل المحبة فلهم في كل وقت حياة وموت، قال قائلهم:

أموت إذا فقدتكم ثم أحياء فكم أحياء عليكم وكم أموت!

فإن الحق - سبحانه - يردد أبدأ الخواص من عباده بين الفناء والبقاء، والحياة والموت، والمحو والإنبات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

يريهم آيات فضله فيما يلاطمهم، ويريهم آيات قهره فيما يكاشفهم، ويريهم آيات عفوه إذا تنصلوا، وآيات جوده إذا توسلوا، وآيات جلاله إذا هابوا فغابوا، وآيات

جمالِهِ إِذَا آبُوا وَاسْتَجَابُوا. ﴿وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات، ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾: يرجع من العادة إلى العبادة، ومن الشك إلى اليقين، ومن الخلق إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الثكرة إلى العرفان. قوله جل ذكره: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

شَرَطُ الدعاء تقديم المعرفة لتعرف من الذي تدعوه، ثم تدعو بما تحتاج إليه مما لا بُدَّ لك منه، ثم تنظر هل أعطاك ما تطلب وأنت لا تدري؟ والواجب ألا تطلب شيئاً تكون فيه مخالفةً لأمره، وأن تتباعد عن سؤالك الأشياء الدنيئة والدنيوية، وأن ترضى بما يختاره لك مولاك. ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلا منه، وألا ترى لنفسك استحقاقاً إلا بفضلِهِ، وأن تعلم أنه إن بقيت سؤالك عن مطلوبك - الذي هو حَظُّكَ - لا تَبْقَ عن عبادة ربِّك - التي هي حَقُّهُ «فإنَّ الدعاء مُخَّ العبادة»^(١) ومن الإخلاص في الدعاء أن تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداءً جُزْماً لك، وتكون ضرورتك لسراية جنائتك.

قوله جل ذكره: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَافِ﴾.

رافع الدرجات للعُصاة بالنجاة، وللمطيعين بالمشوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوي الحاجات بالكفايات، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإرادات.

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكونين دون المساكنة إليهما. وأما المحبون فيرفع درجاتهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعقبى شيئاً غيرَ رضاٍ محبوبهم.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾: ذو المُلْكِ الرفيع. ويقال العرش الذي هو قِبْلَةُ الدعاء، خَلَقَهُ أَرْفَعَ المخلوقات وأعظمها جُثَّةً.

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٣٨٢٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٧٦) والحاكم في (المستدرک ٤٩٠/١)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٩/١)، والبغوي في (شرح السنة ١٨٤/٥)، والساعاتي في (منحة المعبود ١٢٥٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/٢٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣٠٦/١)، والشجري في (الأمالي ٢٢٣/١ - ٢٣٥) والطبري في (التفسير ٩٤/٢، ٥١/٢٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٧١٤).

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ روح بها ضياء أبدانهم - وهو سلطان عقولهم، وروح بهاء ضياء قلوبهم - وهو شفاء علومهم، وروح بها ضياء أرواحهم - والذي هو للروح رَوْحٌ - بقاءهم بالله.

ويقال: روحٌ هو روح إلهام، وروح هو روح إعلام، وروح هو روح إكرام.

ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.

ويقال: روح بها بقاء الخلق، وروح بها ضياء الحق.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

يعلم الحاصل الموجود، ويعلم المعلوم المفقود، والذي كان والذي يكون، والذي لا يكون مما عِلِمَ أنه لا يجوز أن يكون، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

لا يتقيد ملكه بيوم، ولا يختص ملكه بوقت، ولكن دعَاوى الخلق - اليوم - لا أصل لها؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعَاوى وترفع تلك الأوهام.

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يجازيهم على أعمالهم بالجنان، وعلى أحوالهم بالرضوان، وعلى أنفاسهم بالقرية، وعلى محبتهم بالرؤية.

ويجازي المذنبين على توبتهم بالغفران، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء.

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾: أي أنه يستحيل تقدير الظلم منه، وكل ما يفعل فله أن يفعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ مع عباده؛ لا يشغله شأنٌ عن شأن، وسريع الحساب مع أوليائه في الحال؛ يطالبهم بالصغير والكبير، والتقيير والقطمير.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاسِبٍ وَلَا لَشَيْعٍ يُطْلَعُ﴾.

قيامة الكل مؤجلة، وقيامة المحبين مُعَجَّلة؛ فلهم في كل نفس قيامه من العقاب والعذاب والثواب، والبُعَاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب، وتشهد عليهم الأعضاء؛ فالدمع يشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يُخبر، واللون يُفصح... والعبد يُستَر ولكن البلاء يَظْهَر:

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صُورَتِي لِمَا بَدَأَ لَجْمِيعَ مَا ظَنُّوا بِنَا تَصْدِيقًا

وأنشدوا:

لي في محبته شهود أربع وشهود كل قضية اثنان
ذوبان جسمي وارتعاد مفاصلي وخفوق قلبي واعتقال لساني
وقلوبهم - إذا أَرَفَ^(١) الرحيل بَلَّغْتَ الحناجر، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا
نودي بالرحيل وشَدَّت الرواحل.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئاً، ولهذا قالوا:

يا قَرَّةَ العينِ: سَلْ عيني هل اكتحلت بمنظرِ حَسَنِ مُذْ غَبَّتْ عن بَصَرِي
ولذلك قالوا:

فعيني إذا استحسنت غيركم أَمَرْتُ الشَّهَادَ^(٢) بتعذيبها
ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السُّنَّةُ والسُّبَات في أوقات المناجاة؛ وقد جاء في
قصة داود عليه السلامة: كَذَبَ مَنْ ادَّعَى محبتي، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عَنِّي!
ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَبَرٌ بقلوبهم عما تقع عليه عيونهم.
ومن خائنة أعين الموحدين أن تخرج منها قطرة دمعٍ تأسُفُ على مخلوقٍ يفوت
في الدنيا والآخرة، ولا على أنفسهم.

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان، ففي الخبر:

«حُبُّكَ الشَّيْءَ يعمي ويصم»^(٣).

﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: فالحقُّ به خير.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(١) أَرَفَ: دنا واقترب أو عجل.

(٢) الشهاد: الأرق.

(٣) أخرجه أبو داود في (السنن ٥١٣٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١٩٤/٥، ٤٥٠/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٧٦/٧، ٦٨٤/٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٠٨) والدولابي في (الكنى والأسماء ١٠١/١)، وأبو حنيفة في (المسند ١٦٨)، وفي (جامع مسانيد ٢٣/١، ٨٧)، وابن كثير في (التفسير ١٨١/١، ٤٧٣/٣)، والقرطبي في (التفسير ٣٠٧/١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١١٧/٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣١/٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٥/٣، ٢٣٤/٤، ٨٩/٥، ٣٩٢/١٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/٤١٠)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٩)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٠٣/١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٧).

يقضي للأجانب بالبعداد، ولأهل الوصال بالوداد، ويقضي يومَ القدوم بعزل عمال الصدود، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كبشٍ أملح فلا غربة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سكة^(١) الأحبابِ في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إلى أهل الحضرة.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوار التجلي فيستبصروا بها؟ أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق، وليتخلصوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن بغى من أهل السلوك قاصداً لم يصل إلى مقصوده فليغلم أن موجب حجب حجب اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته؛ فإن الشيوخ بمحل السفراء للمريدين. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقَدَرُونَ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ﴾.

أكرم خلقه في وقته كان موسى عليه السلام، وأحسن خلقه وأذلهم في حُكميه وأشدهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيره: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

فَبَعَثَ اللَّهُ - أَخَصَّ عبادَه إلى أَحْسَن عبادَه، فقابله بالتكذيب، ونسبه إلى السحر، وأثبه بكل أنواع التائب. ثم لم يُعْجَلُ اللَّهُ عقوبته، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه - إنه سبحانه حليمٌ بعباده.

(١) السكة: الطريق المستوي.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كتر العمال ٤٢٦٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٨٢/١)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٨٢)، والسيوطي في (اللآلئ المصنوعة ٨٠/١)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١٢/٢)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٨٣/١)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٤٨٨)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩، ٣٣٩).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

عَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِهِ وَإِهْلَاكَ قَوْمِهِ، وَاسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِجُنْدِهِ وَخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ، وَلَكِنْ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، لَأَنَّهُ إِذَا حَفَرَ أَحَدٌ لِيَوْمِي مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حُفْرَةً مَا وَقَعَ فِيهَا غَيْرُ حَافِرِهَا... بِذَلِكَ أَجْرَى الْحَقُّ سُنَّتَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أَي لِيَسْتَعِينَ بِرَبِّهِ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ، وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ الْمُفْسِدُ هُوَ فِرْعَوْنُ، وَهُوَ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: «رَمَثْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ» وَلَكِنْ كَادَ لَهُ الْكِيدُ، وَالْكَائِدُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْ كَيْدِهِ.

فَاسْتَعَاذَ مُوسَى بِرَبِّهِ، وَانْتَدَبَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِمُوسَى كَانَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ^(١):-

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَفَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.. الْآيَاتِ.

نَصَحَهُمْ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجَحْ فِيهِمْ نُصْحٌ وَلَا قَوْلٌ. وَكَمْ كَرَّرَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ الْقَوْلَ وَأَعَادَ لَهُمُ التَّنْصِيحَ! فَلَمْ يَسْتَمِعُوا لَهُ؛ وَكَانَ كَمَا قِيلَ:

وَكَمْ سَقُتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَةُ الْمَتَنَصِّحُ^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

بَيَّنَّ أَنْ تَكْذِيبَهُمْ كَتَكْذِيبِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَكَمَا أَهْلَكَ أَوَّلَكَ قَدِيمًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ بِهِؤَلَاءِ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ أَلَسَّابَبُ اسْتَبَابِ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَيَّ اللَّهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

السَّبَبُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ؛ أَي لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى السَّمَاءِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلِهِ

(٢) الْآيَاتِ مِنْ (٢٩) حَتَّى (٣٣) لَمْ تَرِدْ.

(١) الْآيَةُ (٢٧) لَمْ تَرِدْ.

(٣) الْآيَةُ (٣٥) لَمْ تَرِدْ.

موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبود في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خِزياً لمذهبهم . وقد غَلِطَ فرعونُ حينَ تَوَهَّم أنَّ المعبودَ في السماء ، ولو كان في السماء لكان فرعونُ مُصِيباً في طَلَبِهِ من السماء .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ .

أخبر أنَّ اعتقاده بأنَّ المعبودَ في السماء خطأ ، وأنه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله . قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورُ أَتَيْتُكُمْ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ .

أَصَرَ على دعائه لهم وَأَصْرُوا على جحودهم وعُودهم . ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَوْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ . ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ : في المقدار لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأة من الله عليها حسنة وليست بسيئة .

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني في الحال ، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً في الحال لا يكون منه العملُ الصالح ، ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ : أي رزقاً مؤبداً مُخلداً ، لا يخرجون من الجنة ولا ممّا هم عليه من المال .

﴿وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾

وهذا كُلُّهُ مِنْ قَوْلِ مؤمنٍ آل فرعونَ ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ﴾ .

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم ، وأنا ادعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبَدُ الْمُشْرِكِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعونني إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياة ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ ، وهي لا تنفع ولا تضرُّ . ولقد علمنا - بقول الدين ظهر صدقهم بالمعجزات - كَذِبَكُمْ فيما تقولون .

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أفوض أمري إلى الله، وأتوكل عليه، ولا أخاف منكم، ولا من كيدهم.
قوله جل ذكره: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.
والآية تدل على عذاب القبر.

ويقال إن أرواح الكفار في حواصل طير سود تُعرض على النار غدوًّا وعشيًّا إلى يوم القيامة حيث تدخل النار.

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: أي يا آل فرعون أدخلوا أشد العذاب، فنصبه على النداء المضاف. وقرأ «أدخلوا» على الأمر.

﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: أي أصعبه، وأصعب عذاب للكفار في النار يأثمهم من الخروج عنها. أما العصاة من المؤمنين فأشد عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليوم أشد أيام عذابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

يقول الضعفاء للذين استكبروا: أنتم أضللتونا، ويقول لهم المستكبرون: أنتم وافقتمونا باختياركم؛ فمحاجة بعضهم لبعض تزيد في غيظ قلوبهم، فكما يعذبون بنفوسهم يعذبون بضيق صدورهم ويغض بعضهم بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوْلَمْ نَأْتِكُمْ رُسُلَكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية، فهم يُدْخَلُونَ واسطة بينهم وبين ربهم. ثم إن الله ينزع الرحمة عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

ننصرهم بالآيات وفنون التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظفر وضده من الله، والخير والشر من الله.

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيد خفي ولطف غير مرئي، من حيث

يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة وباليقين بأن الكائنات من الله، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك، ويعرفوا - بالاضطرار - أن التأثير من الله، وغاية النصرة أن يقتل الناصر عدو من ينصره، فإذا أراد ختفه تحقق بأن لا عدو على الحقيقة، وأن الخلق أشباح تجري عليهم أحكام القدرة؛ فالولي لا عدو له، ولا صديق له إلا الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾. دليل الخطاب أن المؤمنين ينفعهم تنصلهم، ولهم من الله الرحمة، ولهم حسن الدار، وما بقي من هذه الدنيا إلا اليسير.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

مضى طرف من البيان في قصة موسى.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

الصبر في انتظار الموعود من الحق على حسب الإيمان والتصديق؛ فمن كان تصديقه وبقيته أتم وأقوى كان صبره أتم وأوفى.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: وهو - سبحانه - يعطي وإن توهم العبد أنه يبطل.

ويقال الصبر على قسمين: صبر على العافية، وصبر على البلاء، والصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، فصبر الرجال على العافية وهو أتم الصبر^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾. وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب، ولم يكن جميع استغفاره لأتمته لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وهنا لم يذكر ذلك. ويمكن حمل الذنب على ما كان قبل النبوة؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزلة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصل التوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾: أي بغير حجة.

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ليس في صدورهم إلا كِبَرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق، ويعقون به عن الله، ولا يصلون إلى مرادهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي خَلَقَ السموات والأرض أكبر من بعثهم وخلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا رميماً؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلق السموات والأرض، وينكرون أمر البعث.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أراد به: ما يستوي المؤمن والكافر، ولا المربوط بشهوته كالمبسوط بصفوته، ولا المجذوب بقربه كالمحجوب بعقوبته، ولا المُرقي إلى مشاهدته كالمُبقي في شاهده، ولا المجدود بسعاده كالمردود لشقاوته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إنَّ ميقات الحساب لكان وإن وقعت المدَّة في أوانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

معناه: ادعوني أستجب لكم إن شئتم؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ويقال ادعوني بشرط الدعاء، وشرط الدعاء الأكل من الحلال؛ إذ يقال الدعاء مفتاحه الحاجة، وأسبابه اللقمة الحلال.

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إما بما يشاء له، أو بشيء آخر هو خير له منه.

ويقال الكافر ليس يدعوه؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك، وهو لا شريك له.

ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا، فأما في الآخرة فيقول له: هذا ما طلبته في الدنيا، وقد اذخرته لك لهذا اليوم حتى ليمنى العبد أنه ليه لم يُعط شيئاً في الدنيا قط.

ويقال ادعوني بالطاعات استجب لكم بالثواب والدرجات.

ويقال ادعوني بلا غفلة استجب لكم بلا مهلة. ويقال ادعوني بالتنصل استجب لكم بالتفضل. ويقال ادعوني بحسب الطاقة استجب لكم بكشف الفاقة.

ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالثوال والأفضال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أن يستكبرون عن دعائي، سيدخلون جهنم

صاغرين.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الآيات.

سكون الناس في الليل على أقسام: أهل الغفلة يسكنون إلى غفلتهم، وأهل

المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، وشتان بين سكون غفلة وسكون وصلة!

قوم يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقوم يسكنون إلى حلاوة أعمالهم؛

لبسطهم واستقلالهم، وقوم يعدمون القرار في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحاب

الاشتياق.. أبداً في الاحتراق.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي جعل سكونكم معه، وانزعاجكم له، واشتياقكم

إليه، ومحبتكم فيه، وانقطاعكم إليه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ

فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾.

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾: خَلَقَ العرش والكرسي والسموات والأرضين

وجميع المخلوقات ولم يقل هذا الخطاب، وإنما قال لنا: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ

صُورَكُمْ﴾ وليس الحسن ما يستحسنه الناس بل الحسن ما يستحسنه الحبيب:

ما حطك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مُعتاب

كانهم أثنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا

لم يقل للشموس في علائها، ولا للأقمار في ضيائها: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ

صُورَكُمْ﴾.

ولما انتهى إلينا قال ذلك، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن الواشين قَبَّحوا صورتكم عندنا، بل الملائكة كتبوا في صحائفكم قبيح

ما ارتكبتم.. ومولاكم أحسن صوركم، بأن محا من ديوانكم الزلات، وأثبت بدلاً

منها الحسنات، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال:

﴿فَأَوَّلَتْكِ يَدُ اللَّهِ سِتْرَانِهِمْ حَسَنَتُ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقْنَاكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

ليس الطيب ما تستطيه النفس إنما الطيب ما يستطيعه القلب، فالخير القفار

أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغني المتسخط.

وَرَزَقُ النُّفُوسِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَرَزَقَ الْقُلُوبَ لِمَاذَا الطَّاعَاتِ.
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي﴾: الذي لا يموت، ولا فضله يفوت، فادعوه بلسان القوت، وذلك عليه لا يفوت.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قُلْ - يا محمد - إني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله، أي أُمِرْتُ بالتبري عما عبدتم، والإعراض عما به اشتغلت، والاستسلام للذي خلقتني، وبالنبوة استخضني.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُوسٍ ثُمَّ مِنْ عُلُقَةٍ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾.

فمن تُرْبَةٍ إِلَى قُطْرَةٍ؛ ومن قُطْرَةٍ إِلَى عُلُقَةٍ. . ثم من بطون أمهاتكم إلى ظهوركم في دنياكم. . ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً.
وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث في أخرى الدارين^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرُّوا﴾.

في آيات الله يتباعدون؛ فلا حجة يوردون، ولا عذاب عن أنفسهم يردون، سيعلمون حين لا ينفعهم علمهم، ويعتذرون حين لا يسمع عُذْرُهم، وذلك عندما^(٢).

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾
الآيات.

يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ وَالْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، ثم يُذَاقُونَ ألوان العذاب. . فإذا أقرؤا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم: أدخلوا جهنم خالدين فيها، فبئس مثواهم ومصيرهم، وساء ذهابهم ومسيرهم^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾.

كُنْ بِقَلْبِكَ فارغاً عنهم، وانظر من بعد إلى ما يفعل بهم، واستيقن بأنه لا بقاء

(٢) الآية (٧٠) لم ترد.

(١) الآية (٦٨) لم ترد.

(٣) الآيات من (٧٣، ٧٦) لم ترد.

لجولة باطلهم. . . فإن لقيت بعض ما نتوعدهم به وإلا فلا تك في ريب من مقاساتهم ذلك بغد. ثم أكد تسليته إياه وتجديد تصييره وتعريفه بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قصصنا عليك قصص بعضهم، ولم نخبرك عن قصص الآخرين.

ولم يكن في وسع أحد الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا. فكذلك إن طالبك بآية فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أرحنا به العذر، وأوضحنا صحة الأمر. . . وما اقترحوه. . . فإن شئنا أظهرنا، وإن شئنا تركنا.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُلُوبِكُمْ وَطَنِيهَا وَعَلَىٰ قُلُوبِكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَئِنَّكُمْ لَآتَيْتُمْ أَهْلِيكُمْ نَارًا فَتَأْتُوا مِنْهَا فَيَكُونُوا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَحَبِطُوا عَلَيْهَا بَرَصًا وَمَذَمًا﴾.

ذكرهم عظيم إنعامه بتسخير الأنعام؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بها بالركوب والحمل والعمل، ولتستقوا ألبانها، ولتأكلوا لحومها وشحومها، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ولتقطعوا مسافة بعيدة عليها. . . فعلى الأنعام وفي القلبي تنقلون من صقع^(١) إلى صقع. . . وأنا الذي يسررت لكم هذا، وأنا الذي ألهمتكم الانتفاع به؛ فتقوا في ذلك واعرفوه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآمَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. . . الآيات أمرهم بالاعتبار بمن كانوا قبلهم؛ كانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأطول أعماراً، فانجروا في جبال آمالهم، فوقعوا في وهدة غرورهم، وما بقي الحق عن مراده فيهم، واغترروا بسلامتهم في مدة ما أرخينا لهم عنان إمهالهم، ثم فاجأناهم بالعقوبة، فلم يُعجزوا الله في مراده منهم.

فلما رأوا شدة البأس، ووقعوا مذلة الخيبة واليأس تمنوا أن لو أعيدوا إلى الدنيا من الرأس. . . فقابلهم الله بالخيبة؛ وخرطهم في سيلك من أبادهم من أهل الشرك والسخط.

(١) الصقع: الناحية من البلاد.

سورة فصلت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

أفصح مَنْ عرف «بسم الله»، وما ربح مَنْ بقي عن «بسم الله». مَنْ صحب لسانه «بسم الله» وصحب جَنَانَهُ «بسم الله» كفى له شفيعاً «بسم الله» إلى مَنْ يُعِيدُنَا بِذِكْرِ «بسم الله».

قوله جل ذكره: ﴿حَمْدٌ تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بحقي وحياتي، ومجدي في صفاتي وذاتي.. هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَاتَكُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بَيَّنْتُ آيَاتَهُ ودَلَّالَتَهُ.

﴿وَقُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الدليل منصوبٌ للكافة ولكن الاستبصار به

للعالمين - دون المُفْرِضِينَ الجاحدين.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾: لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم.

﴿وَنَذِيرًا﴾: لِمَنْ أقميناهم، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم.

﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عند دعائنا إياهم، فهم مُثْبِتُونَ فيما أَرَدْنَاهُمْ، وعلى ذلك

(الوصف) عَلِمْنَاهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنْ ءَاذَانُنَا وَقَدْ رَمْنَا بَيْنَنَا

وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾.

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء، ولو قالوه عن بصيرة لكان ذلك منهم

توحيداً، فمُتُوا بِالْمَقْتِ لِمَا فَقَدُوا من تحقيق القلب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا

إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ذُنُوبَكُمْ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنما أنا بَشَرٌ مثلكم في الصورة والبنية، والذات والخلقة. والفرقان بيني وبينكم

أنه يُوحَى إِلَيَّ أنما إلهكم إله واحد؛ فالخصوصية من قبيله لا من قبيلي، ولقد بَقِيْتُ

فيكم عمراً، ولقيتموني دهرًا.. فما عثرتُم مني على غير صواب، ولا وجدتُم في قولي شوب كذاب. وأمري إليكم أن استقيموا في طاعته، واستسلموا لأمره... وطوبى لِمَنْ أجاب، والويل لِمَنْ أصرَّ وعاب!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿ءَامَنُوا﴾: شاهدوا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: لازموا بساط العبودية.

﴿ءَامَنُوا﴾: شهدوا الحضرة، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وقفوا بالباب.

﴿ءَامَنُوا﴾: حضروا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بعد ما حضروا لم ينصرفوا.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص؛ فأجرُ النفوسِ الجنة، وأجرُ القلوب الرضا بالله، وأجرُ الأرواح الاستئناس بالله، وأجرُ الأسرار دوام المشاهدة لله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَٰدَآءَ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

خَلَقَ الزَّمَانَ ولم يكن قبله زمان، وَخَلَقَ الْمَكَانَ، ولم يكن قبله مكان؛ فالحق - سبحانه - كان ولا مكان ولا زمان، فهو عزيز لا يُذركهُ المكان، ولا يَمْلِكُهُ الزمان.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَٰدَآءَ﴾... وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل نِداءٌ للذي لم يَزَلْ.. ولا يزال كما لم يزل! ذلك ربُّ العالمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا مِّنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءَ لِّلنَّاسِ لِيُنَبِّئَهُمْ﴾.

الجبَالُ أوتادُ الأرضِ في الصورة، والأولياءُ أوتادُ ورواسٍ للأرضِ في الحقيقة.

﴿وَبَرَكَ فِيهَا﴾: البركةُ الزيادة.. فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركاتِ الأولياء.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا﴾: وجعلها مختلفةً في الطَّعْمِ والصورة والمقدار. وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

﴿أَسْتَوَىٰ﴾ أي قَصَدَ، وقيل فعل فعلاً هو الذي يعلم تعيينه.

ويقال رَبَّتْ أَقْطَارُهَا، وَرَكَّبَ فِيهَا نَجْمُهَا وَأَزْهَارُهَا.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: هذا على ضرب المثل؛ أي لا يتعسر عليه شيء مما خلقه، فله مِن خَلْقِهِ ما أراد. وقيل بل أحياهما وأعقلهما

وأنطقهما فقلنا ذلك . وجعل نفوس العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فلماً لنجوم علمه وشموس معرفته .

وأوتاد النفوس الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . وفي القلوب ضياء العرفان ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقول والنفوس . والقلوب بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه .

قوله جل ذكره: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وزَيَّنَ وجه الأرض بمصابيح هي قلوب الأحاب ؛ فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .
أي أخبر المكذبين لك أن لكم سلفاً . . فإن سلكتم طريقهم في العناد ، وأبيتُم إلا الإصرار الحفناكم بأمثالكم .

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ .

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم ، واستمكنت منهم بلواهم .
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ .
فلم يغادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَبَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْفُونَ﴾ .

قيل إنهم في الابتداء آمنوا وصدقوا ، ثم ارتدوا وكذبوا ، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستتصال .

﴿وَبَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : منهم من نجاهم من غير أن رأوا الناس ؛ فعبروا القنطرة ولم يعلموا ، وقوم كالبرق الخاطف وهم أعلامهم ، وقوم كالراكض . . وهم أيضاً من الأكابر ، وقوم على الصراط يسقطون ويردهم الملائكة على الصراط . فبعد وبعد . .
قوم بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حقويه^(١) ، فإذا

ما بلغت النار القلب قال الحق لها: لا تحرقى قلبه؛ فإنه محترق في. وقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا^(١) فصاروا حُمماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِيَّاهِ تَرْجِعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكَ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

شهدت عليهم أجزاؤهم، ولم يكن في حسابهم أن الله سينطقها وهو الذي أنطق كل شيء، ولم يذُرْ بخلدكم ما استقبلهم من المصير الأليم.

﴿ذلکم ظنکم﴾: وكذا من قعد في وصف الأقوال، ووسم موضعها، وحكم لنفسه أنه مُقَدَّمُ بلده. فلا يسمع منه إلا ببرهان ودليل من حاله، فإن خالف الحال قوله فلا يعتمد عليه بعد ذلك.

والظن بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق، أما إذا كان نتيجة الغرور وغير مأذون به في الشرع فإنه يُرَدِّي صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

فإن يصبروا على موضع الخسف فسيتقلبون إلى النار، وإن يستعتبوا - فعلى ما قال - فما هم بمعتبين.

﴿وَقِيَصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورِهِمْ فَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَصْبُرُونَ﴾.

إذا أراد الله بعبده خيراً قَيَّضَ له قرناءً خير يُعِينُونَهُ على الطاعات، ويَحْمِلُونَهُ عليها، ويدعونه إليها. وإذا كانوا إخواناً سوء حملوه على المخالفات، ودَعَوْهُ إليها. ومن ذلك الشيطان؛ فإنه مُقَيَّضٌ مُسَلِّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات. وشراً من ذلك النَّفْسُ. فإنها بشس القرين!! فهي تدعو العبد - اليوم - إلى ما فيه هلاكه، وتشهد عليه غداً بفعل الزلتم. فالنفس - وشراً قرين للمرء نفسه - والشياطين وشياطين الإنس.. كلها تُزَيِّنُ لهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الزلّل، والتسويق في التوبة، والتقصير في الطاعة.

(١) محشت النار جلده: أحرقت.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

استولى على قلوبهم الجحْدُ والإنكارُ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ؛ فاحتالوا بكل وجه، وتواصوا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل من استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا: إذا أَخَذَ محمدٌ في القرآن فأكثرُوا عند قراءته اللُّغَوَ واللُّغَطَ حتى يقع في السهر والغَلَطَ .

ولم يعلموا أن الذي نُورَ قلبه بالإيمان، وأُيِّدَ بالفهم، وأُمِّدَ بالنصرة، وكُشِفَ بسماع السُرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه، ولا يباشر السماع سيره .

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيُذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

اليومَ بإدامة الحرمان الذي هو الفراق، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا دَارَ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ﴾ .

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أُضِلَّوْا مِنَ الْغَيْبِ وَالْإِنْسِ نَجْمًا مَحْمُولًا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْآسَفِينَ﴾ .

من الجن إبليس . ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول من سَنَّ المعصية (حين قتل أخاه)^(١) .

﴿نَجْمًا مَحْمُولًا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمني؛ فهم يجدون أنه لا نَفْعَ لهم من ذلك إذ لن يُجَابُوا في شيء، ولن يُمنَع عنهم العذاب .

وفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبري فيما بينهم، فبعضهم يتبرأ من بعض، كما يفيد بأن الندم في غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا عَلَىٰ تِلْكَ الْأَمْثِلِ لَوْلَا الَّذِي نُسَبِّحُكَ إِلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

«ثم استقاموا: ثم حرف يقتضي التراخي، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكنه معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخر أحوال كونهم مُكَلَّفِينَ.

ويقال: قالوا بشرط الاستجابة أولاً، ثم استبصروا بموجب الحجة، ولم يشبوا على وصف التقليد، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة.

«استقاموا»: الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلال بشيء من أقسامها. ويقال: هم على قسمين:

مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة.. وهذه صفة جميع المؤمنين.

ومستقيم في الفروع من غير عصيان.. وهؤلاء مختلفون؛ فمنهم.. ومنهم، ومنهم.

﴿وَأَبَشِرُوا بِأَلْحَنَةِ﴾: الذي لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد، ولم يشرك. فله الأمان من الخلود. ويقال: مَنْ كَانَ لَهُ أَصْلُ الاستقامة أَمِنَ من الخلود في النار، ومن كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحال.. ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم؛ فمستقيم في عهده، ومستقيم في عقده، ومستقيم في جهده ومراعاة حدّه، ومستقيم في عقده وجهده وحدّه وحبّه. وودّه.. وهذا أتمهم.

ويقال: استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

ويقال: استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم صحة القصد بدوام الوجد.

ويقال: استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم.

ويقال: أقاموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته.

ويقال: استقامة الزاهد ألا يرجع إلى الدنيا، وألا يمنعه الجاه بين الناس عن الله. واستقامة العارف ألا يشوب معرفته حظ في الدارين فيحجبه عن مولاه. واستقامة العابد ألا يعود إلى فترته واتباع شهوته، ولا يتداخله رياء وتصنع واستقامة المُحِبِّ ألا يكون له أَرَبٌ من محبوبه، بل يكتفي من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده.

﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: إنما يكون الخوف في المستقبل من الوقت، من حلول

مكروه أو فوات محبوب فالملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون، وكل محذور لهم لا يكون.

والحزن من حُزونه الوقت، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزن له في عيشه. والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزنه في أحوالهم، وإنما هم الرُّوح والراحة.

﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾: أي بحسن المآب، وبما وَعَدَ اللَّهُ من جميل الثواب.

والذي هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصِّ عباده بعباء المَلِكِ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت؛ فلا يكون له خوف؛ لأنَّ الخوف - كما قلنا من قبل - ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمَّا من زوالٍ محبوبٍ أو حصولٍ مكروه، وإن الذي بصفة الرضا^(١) لا حزونة في حاله ووقته.

ويمكن القول: ﴿لا تخافوا﴾ من العذاب، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم من الأسباب، ﴿وَأَبشروا﴾ بحسن الثواب في المآب.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ من عزل الولاية، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أسلفتم من الجناية، «وَأَبشروا» بحسن العناية في البداية.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ مما أسلفتم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم، ﴿وَأَبشروا﴾ بالجنة التي لها تكلفتم.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ المذلة، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أسلفتم من الزلة، ﴿وَأَبشروا﴾ بدوام الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾.

الولاية من الله بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة.

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداءً خطابٍ من الله.

والنصرة تصدر من المحبة؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة في الحال.

ويقال: ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ بتحقيق المعرفة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتحصيل المغفرة.

ويقال ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ بالعناية، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بحسن الكفاية وجميل الرعاية.

﴿وَفِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمشاهدة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالمعابنة.

في الدنيا الرضاء بالقضاء، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء.

في الدنيا بالإيمان، وفي الآخرة بالغفران.

في الدنيا بالمحبة، وفي الآخرة بالقربة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾: الولاية نقد، وتحصيل

الشهوات وعد، فَمَنْ يَشْتَغَلْ بِنَقْدِهِ قَلَّمَا يَشْتَغَلْ بِوَعْدِهِ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾: أي ما تريدون، وتدعون الله ليعطيكم.

﴿تُزَلَّ﴾: أي فضلاً وعطاء، وتقدمة لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال

ووجوه المبار.

﴿مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾: وفي ذلك مساع لآمال المذنبين؛ لأنهم هم الذين يحتاجون

إلى المغفرة، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي لا أحد أحسن قولاً منه، ويكون المراد منه النبي ﷺ ويحتمل أن يكون

جميع الأنبياء عليهم السلام.

ويقال هم المؤمنون. ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله.

وقيل هم المؤذنون. ويقال الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاء

بالله وترك طالب العوض من الله، ويكمل أمره إلى الله، ويرضى من الله بقسمة الله.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أي كما يدعو الخلق إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه.

ويقال هم الذين عرفوا طريق الله، ثم سلكوا طريق الله، ثم دعوا الناس إلى الله.

ويقال بل سلكوا طريق الله؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله، ثم

دعوا الخلق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

يَبْغُكَ وَيَنْهَكُ عَدَاوَةً كَانَتْ وَلِيَّ حَيِّمٌ﴾.

ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز

والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف^(١).

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر حديث القشيري عن الفتوة برسالته ص ٢٢٦، ٢٣١).

﴿فَإِذَا أَلَىٰ يَبْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يُشَبِّهُ الْوَلِيَّ الْحَمِيمَ - وَلَمْ يَصِرْ وَلِيًّا مُخْلِصًا. . وهذا من جملة حُسْنِ الْأَدَبِ فِي الْخِدْمَةِ فِي حَقِّ صَحْبِكَ مَعَ اللَّهِ؛ تَحْلُمُ مَعَ عِبَادِهِ لِأَجْلِهِ.

وَمِنْ جَمْلَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ فِي الصَّحْبَةِ مَعَ الْخَلْقِ أَلَّا تَنْتَقِمَ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تَعْفُوَ عَنْ خَصْمِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُوَّ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

لَا يَقُومُ بِحَقِّ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ بِتَوْفِيقِ الصَّبْرِ، وَرُقِّيَ عَنْ سَفْسَافِ الشِّيمِ إِلَى مُعَالِي الْأَخْلَاقِ. وَلَا يَصِلُ أَحْسَنَ الدَّرَجَاتِ إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى مَقَاسَةِ الشَّدَائِدِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إِذَا اتَّصَلْتُ بِقَلْبِكَ نَزْعَاتُ الشَّيْطَانِ فَبَادِرْ بِذِكْرِ رَبِّكَ، وَارْجِعْ إِلَيْهِ قَبْلَ آيَةِ خَطْوَةٍ^(١). . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَخَالَفْ أَوَّلَ هَاجِسٍ مِنْ هَوَاجِسِ الشَّيْطَانِ صَارَ فِكْرُهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ الْعِزْمُ عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ. . فَإِذَا لَمْ تَتَدَارَكَ ذَلِكَ تَجْرِي الزَّلَّةُ، وَإِذَا لَمْ تَتَدَارَكَ ذَلِكَ بِحُسْنِ الرَّجْعِي صَارَ فِسْقًا. . وَبِتَمَادِي الْوَقْتِ تَصْبِحُ فِي حَظَرِ كُلِّ آفَةٍ.

وَلَا يَتَخَلَّصُ الْعَبْدُ مِنْ نَزْعَاتِ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِصَدَقِ الْاسْتِعَانَةِ وَصَدَقِ الْاسْتِغَاثَةِ وَبِذَلِكَ يَنْجُو مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٥]؛ فَكَلِمَا أَزْدَادَ الْعَبْدُ فِي تَبَرُّيهِ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَأَخْلَصَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِتَضَرُّعِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِعَاذَتِهِ زَادَ اللَّهُ فِي حِفْظِهِ، وَدَفَعَ الشَّيْطَانَ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أَوْضَحَ الْآيَاتِ، وَالْأَلَحَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَزَاحَ عِلَّةَ مَنْ رَامَ الْوَصُولَ. وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَدَوْرَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ جَمْلَةِ أَمَارَاتِ قُدْرَتِهِ، وَدَلَالَاتِ تَوْحِيدِهِ.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ فِي عِلَانِهَا، ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فِي ضِيَانِهِ، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فَقَدْ غَارَ^(٢) عَلَيْكَ أَنْ تَسْجُدَ لغيره.

(١) رُبَّمَا كَانَتْ (خَطْرَةً) فَالْقَشِيرِيُّ يَقُولُ بِرِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْخَوَاطِرِ: الْخَوَاطِرُ خَطَابَاتُ تَرْدٍ عَلَى الضَّمَائِرِ، فَقَدْ يَكُونُ الْخُطَابُ بِإِلْقَاءِ مُلْكٍ أَوْ إِلْقَاءِ شَيْطَانٍ أَوْ أَحَادِيثِ نَفْسٍ أَوْ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَقَالُوا: كُلُّ خَاطِرٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ ظَاهِرُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٨٣، ٨٤).

(٢) قَالَ الْقَشِيرِيُّ بِرِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْغِيَرَةِ: الْغِيَرَةُ كِرَاهِيَةٌ مُشَارَكَةِ الْآخَرِينَ، وَإِذَا وَصَفَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِالْغِيَرَةِ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِمُشَارَكَةِ غَيْرِهِ مَعَهُ، فِيمَا هُوَ حَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةِ عَبْدِهِ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٢٥٥).

والشمس - وإنِ عَلَتْ، والقمر - وإنِ حَسُنُ . . فلا جُلِّكَ خلقناهما، فلا تسجد لهما، واسجد لنا.

ويقال: خَلَقَ الملائكة - ومع كثرة عبادتهم، ومع تقدمهم في الطاعة - قال لهم: اسجدوا لآدم، وحين امتنع واحد منهم لُعِنَ إلى الأبد. وقال لأولاد آدم العصاة المذنبين: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فشأن ما هما!! .

والحق - سبحانه وتعالى - يأمر بك بصفاته وجهك عن الشمس والقمر . . وأنت لأجلِ كُلِّ حَظٍّ حَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كُلِّ أَحَدٍ؛ وتدخل بمحيالك على كُلِّ أَحَدٍ!! قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾ .

أي إن تَرَفَّعَ الكفار فلا خَلَلَ؛ لأن الحق غني عن كل أحد، ثم إن الملائكة - الذين هم سكان الآخر - يسجدون له بالليل والنهار، وهم لا يسأمون من عبادته . قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الأرض تكون جذبةً يابسةً في الشتاء، فإذا نزل عليها المطر اهتزت بالنبات واخضرت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما أُلْمِتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه، فظهرت فيها بركاتُ الندم، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صِدْقِ القَدَمِ. وكذلك إذا وقعت للعبد فترة في معاملاته، أو غيبة عن بساط طاعته، ثم تعمَّده الحق - سبحانه - بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوار الوفاق، فيعود إلى مألوف مقامه، ويرجع عود سداذه غَضًا طرياً، ويصير شجر وفاقه - بعد ما أصابته الجدوبة - بماء العناية مستقيماً.

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة، أو حدثت لهم من جرء سوء أدبٍ بَدَرَ منهم حجةٌ ثم نظر الحق - سبحانه - إليهم بالرعاية . . اهتزت رياضُ أنسِهِم، واخضرت مشاهدُ قريهِم، وانهزمت وفودُ وقفَتِهِم. ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر. وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلَقِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه . . فليَعْمَلُوا ما شاءوا . . فليسوا . . يَسْعَوْنَ إِلَّا في دَمِهِم، وليسوا يمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ﴾.

الجواب محذوف ومعناه: بقوا عتًا، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ﴾: كتاب عزيز لا مثل له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله. كتاب عزيز غالب لشبه المبتدعين والكفار.

عزيز لا يقدر على معارضة أحد.. من قولهم أرض عزاز.

كتاب عزيز لأنه كلام رب عزيز إلى رسول عزيز بسفارة ملك عزيز إلى أمة عزيزة.

كتاب عزيز على المؤمنين لأنه كتاب حبيبهم.. وكتاب الحبيب إلى الحبيب عزيز.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أي لا ينقضه كتاب آخر لا مما تقدمه من الكتب، ولا مما يأتي من بعده.. أي لا كتاب بعده، ولا نسخ له.

ويقال لا يدفع^(١) معناه لفظه، ولا يخالف لفظه معناه..

ويقال لا يقدر أحد أن يأتي بمثله.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أصول التوحيد لا تختلف بالشرائع؛ فجوهرها في الأحكام واحد: هو أنه تجب موافقة أوامره، واجتناب مزاجره. ثم إن الله تعالى قال في كل كتاب، وشرع لكل أمة أن يعرفوا أنه للمطيعين مثيب، وللكافرين ذو عذاب شديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَتَعْجَبُ وَعَرَبٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

أخبر أنه أراح العلة أن يعرف صدق الدعوة، وصحة الشريعة.

ثم وصف الكتاب بأنه شفاء للمؤمنين، وسبب شفاء للكافرين.

وهو شفاء حيث استراحوا به عن كد الفكر وتحير الخواطر.

وهو شفاء لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته، والتلذذ بالتفكير فيه.

(١) دفع الشيء: نجاه ورده بقوة أو شاقه.

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما به تمنى لطف المواجهين .
وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وأثار خطاب
الرب العزيز .

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ : هم لا يسمعون بقلوبهم
من الحق ، ولا يستجيبون . . بقوا في ظلمات الجحد والجهل .
﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضللاً .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

آتينا موسى التوراة ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلفوا في أمره . . فمن كحلنا سره
بنور التوحيد صدقه ، ومن أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي أن عقوبتهم في النار بعد قيام القيامة
لَعَجَّلْنَا اسْتِصْالَهُمْ ، ولأذقناهم في الحال وبالهم .

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ .
«فلنفسه» لأن النفع عائد إليه . ومن عمل عملاً سيئاً فإنما ظلم نفسه ، وأساء
إليها ؛ لأنه هو الذي يقاضي ضره ويلاقي شره .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ
مِنْ أَثْقَالٍ وَلَا تَفْضَحُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُي قَالُوا آءَازْنٰك مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ .

لما استعجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامة التي يتوعدنا بها؟ قال الله تعالى : إن
علم القيامة ينفرد به الحق فلا يعلمه غيره ، فكما لا يعلم أحد ما الذي يخرج من
الأشجار من الثمار ، وما الذي تنطوي عليه أرحام النساء من أولادها ذكوراً وإناثاً ، وما
هم عليه من أوصاف الخلق ، وما يحصل من الحيوانات من نتائجها - فلا يعلم هذه
الأشياء إلا الله - فكذلك لا يعلم أحد متى تقوم القيامة .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُي﴾ : يتبرؤون من شركائهم ، ولكن في وقت لا تنفعهم
كثرة ندمهم وبكائهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ .
لا يمل الإنسان من إيوادة النفع والسلامة ، وإن مسه الشر فيئوس لا يرجو زواله
لعدم علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرْاءَ مَسَّةٍ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَيَّ رِقَىٰ إِنَّ لِي عِنْدَهُمُ لِلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

لئن كشفنا عنه البلاء، وأوجبنا له الرجاء لادّعاء استحقاقاً أو اتفاقاً، وما اعتقد أن ذلك منّا فضل وإيجاب.

ويقول: لو كان حشر ونشر لكان لي من الله لطف وخير، وغداً يعلم الأمر، وأنه بخلاف ما توهّم. . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجب من عذاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

هو لا يميز بين البلاء والعتاء؛ فكثير مما يتوهمه عطاء هو مكّر واستدراج. . . وهو يستديمه. وكثير مما فضل وصرف وعطاء يظنه من البلاء فيعأفه ويكرهه.

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحبه بالبطر، وإذا أبلينا قائله بالضجر.

ويقال إذا أنعمنا عليه أعجب بنفسه، وتكبر مختالاً في زهوه، لا يشكر ربه، ولا يذكر فضله، ويتباعد عن بساط طاعته.

والمستغني عنّا يهيم على وجهه، وإذا مسّه الشرّ فذو دعاء كثير، وتضرّع عريض، وابتهاج شديد، واستكشاف دائم.

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عثوه وتبوء عود، ولسوء طريقته في الجحود إعادة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ سَتَرْنَاهُمْ عَائِنًا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

﴿سَتَرْنَاهُمْ﴾: السين للاستقبال؛ أي سيظهر لهم من الآيات، ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالم، وما سيحلّ بهم من اختلاف الأمور ما يبين لهم من خلاله أن هذا الدين حق، وأن هذا الكتاب حق، وأن محمداً - ﷺ - حق، وأن المُجْرِي لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحق - سبحانه.

ومن تلك الآيات ما كان من قهر الكفار، وغلوّ الإسلام، وتلاشي أعداء الدين.

ويقال من تلك الآيات في الأفاق اختلاف أحكام الأعيان مع اتفاق جواهرها في

التجانس . . وهذه آيات حدوثِ العالم، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ للعلماء ، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلْمُوا بِذَنْبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط ، وجمع وفرق ، وحجب وجذب . . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِدٌ﴾ : هو الكافي ، ولكنهم - أي الكفار - في مِرْيَةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوالمَ لفي شكٍ من تجويز ما يُكاشَفُ به أهلُ الحضورِ من تعريفات السرِّ .

﴿أَلَا إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ : عالمٌ لا يَخْفَى عليه شيء .

سورة الشورى

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْكَفْرَ الْزَيْمَ﴾.

سلوة العاصين في سماع رحمة الله، وحظوة العابدين في رجائهم نعمة الله، وراحة الفقراء في رضاهم بقسمة الله. لكل من حاله نصيب، وكل في مُتَنَفِّسِهِ مُصِيبٌ.
قوله جلّ ذكره: ﴿حَمْدَ عَسَقَ﴾.

الحاء مفتاح اسمه: حلیم وحافظ وحكيم، والميم مفتاح اسمه: مَلِكٌ وماجد ومجيد ومثان ومؤمن ومهيمن، والعين مفتاح اسمه: عالم وعدل وعالٍ، والعين مفتاح اسمه: سيّد وسميع وسريع الحساب، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقُدوس.
قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحى إليك العزيز الحكيم، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم.
قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

له ما في السموات وما في الأرض مُلْكاً.
﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: عُلُوّه وعظمته استحقاقه لأصاف المجد؛ أي وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

أي تكاد السموات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى، والفوقية هنا فوقية رتبة؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله.

ويقال مِنْ ثِقَلِ الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم. وفي الخبر: «أطت^(١) السماء أظاً وحق لها أن تظ؛ ما مِنْ موضع قَدَمٍ في السموات إلا وعليه قائم أو راكم أو ساجد»^(٢).

(١) الأطيع: صوت الرجل والإبل من ثقل أحمالها. (اللسان ٧/٢٥٦ مادة: أطق).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ٥/١٧٣.

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشق له.. وهنا لُفِّحَ قول المشركين ولجرائتهم على الله تعالى، ولِعِظَمَ قولهم كادت السموات تنشق.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِشْرُ اللَّجَالِ هَذَا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا﴾ [مريم: ٨٩ - ٩١] وعلى هذا التأويل: ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْ قَوْفِهِنَّ﴾ أي إلى أسفلهن، أي تنفطر جملتها.

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون، ويستغفرون لمن في الأرض.. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: أي يغفر لهم مع كثرة عصيانهم. وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفار هذا الجُرم العظيم بسبب شُرْكهم فإنه - سبحانه - لا يقطع رِزْقَه ونفعه عنهم - وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

المشركون اتخذوا الشياطين أولياء من دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم. وليس يخفى على الله أمرهم، وسيعذبهم بما يستوجبونه. ولست - يا محمد - بمُسَلِّطٍ عليهم.

وفي الإشارة: كُلُّ مَنْ يَعْمَلْ بِمُتَابَعَةِ هَوَاهُ وَيَتْرِكْ اللَّهَ حَدًّا أَوْ يَنْقُضَ لَهُ عَهْدًا فَهُوَ يَتَّخِذُ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ، والله يعلمه، ولا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه.. ثم إن شاء عذبه، وإن شاء غَفَرَ له.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أنزلنا عليك قرآنًا يتلى بلغة بالعرب لتخوف به أهل مكة والذين حولها. وجميع العالم مُخْلِيقٌ بالكعبة ومكة لأنها سرُّ الأرض.

﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ تنذرهم بيوم القيامة. والإنذار الإعلام بموضع المخافة. ويوم الجمع - وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه الخلق كلُّهم، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله، وبين الجسد وروحه وبين المرء وشكله في الخير والشر - لا شك في كونه. وفي ذلك اليوم فريق يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل في السعير. وكما أنهم اليوم فريقان؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة العبادات، وفريق في ظلمة الشرك وعقوبة الجحد.. فكَذَلِكَ غداً؛ فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِي وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

إن أراد أن يجمعهم كلهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذا لازين لهم . ولو شاء أن يجمعهم كلهم على الفساد والعناد لم يكن دافع - وإذا لاشين منه . وحيث خلَقهم مختلفين - على ما أراد - فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحد جبارٌ غيرُ مأمور، متولٍ جميع الأمور؛ من الخير والشر، والنفع والضرر . هو الذي يحيي النفوس والقلوب اليومَ وغداً، ويميت النفوس والقلوب اليومَ وغداً . . وهو على كل شيء قدير^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: أي إلى كتاب الله، وسُنَّة نبيه ﷺ، وإجماع الأئمة، وشواهد القياس . والعبرة بهذه الأشياء فهي قانون الشريعة، وجملتها من كتاب الله؛ فإن الكتاب هو الذي يدل على صحة هذه الجملة .

ويقال: إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فدَعُوا تدبيركم، والتجئوا إلى ظلِّ شهود تقديره، وانتظروا ما ينبغي لكم أن تفعلوه بحكم تيسيره .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم؛ لا تدرون أبا لسعادة جرى حُكْمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم؟ فكلُّوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لكم سبيل إلى علمه عن عواقبكم .

قوله جل ذكره: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

جَلَقَ لكم من أنفسكم «أزواجاً»: أي أشكالا؛ فَخَلَقَ حواءَ مِنْ آدَمَ . وَخَلَقَ - بسبب بقاء التناسل - جميع الحيوانات أجناساً .

﴿يَذُرُوكُمْ﴾: يُكثِرُ خَلْقَكُمْ . «فيه» الهاء تعود إلى البطن أي في البطن، وقيل: في الرِّجَم، وقيل: في التزويج .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: لأنه فاطر السموات والأرض، ولأنه لا مثل يُضَارِعُهُ، ولا شكل يشاكله . والكاف في ليس «كمثله» صلة أي ليس مثله شيء . ويقال: لفظ «مثل» صلة؛ ومعناه ليس كهو شيء . ويقال معناه ليس له مثل؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شيء وهو هو، فلمَّا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فمعناه ليس له مثل، والحق لا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أحكامه .

وقد وقع قومٌ في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون في

المكان، وأقبح قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات؛ فظنوا أن بَصَرَهُ في حذقة، وَسَمْعَهُ في عضو، وقدرته في يد... إلى غير ذلك.

وقومٌ قاسوا حُكْمَهُ على حُكْمِ عبادِهِ؛ فقالوا: ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمَنه قبيح، وما يكون من الخَلْقِ حسناً فمَنه حَسَنٌ!! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه - والحقُّ مستحقٌّ للتنزيه دون التشبيه، مستحقٌّ للتوحيد دون التحديد، مستحقٌّ للتحصيل دون التعطيل والتمثيل.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

«مقاليد» أي مفاتيح، والمفاتيح للخزائن، وخزائنه مقدوراته. وكما أن في الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال؛ فبعض القلوب معادن المعرفة، وبعضها معادن المحبة، وبعضها للشوق، وبعضها للأُنس... وغير ذلك من الأحوال كاللوحيد والتفريد والهيبة والرضا. وفائدة التعريف بأن المقاليد له: أن يقطع العبد أفكاره عن الخَلْق، ويتوجّه في طلب ما يرد من الله الذي ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، والذي هو ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: يوسّع ويضيّق أرزاقَ النفوس وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحكّم وعَلِمَ.

قوله جل ذكره: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾﴾.

﴿شَرَعَ﴾: أي بيّن وأظهر. ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ أراد به أصول الدين؛ فإنها لا تختلف في جميع الشرائع، وأمّا الفروع فمختلفة، فالآية تدلُّ على مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة.

ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾﴾... وفي القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شرّع في زمان نوح عليه السلام.

قوله جل ذكره: ﴿﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾﴾.

يعني أنهم أضروا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عُدْر ولا شك. ﴿﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾﴾... وهو أنه حكّم بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة لعجل لهم ما يمتنون به.

قوله جل ذكره: ﴿﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَفْوَاهُ مُّ وَقُلْ ءَامَنُتُ

يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

أي أَدْعُ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ، وَإِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ، وَاسْتَقِيمْ فِي الدَّعَاءِ، وَفِي الطَّاعَةِ. أَمَرَ الْكُلَّ مِنَ الْخَلْقِ بِالْإِسْتِقَامَةِ، وَأَفْرَدَهُ بِذِكْرِ التَّزَامِ الْإِسْتِقَامَةِ.

ويقال: الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة؛ أي سَلْ مِنِّي أَنْ أَقْسِمَكَ، ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَمْوَالَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أُمِرْتُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضِيَّةِ، وَبِأَنْ أُعْلِمَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْجَمِيعِ، وَأَنَّهُ يَحَاسِبُ غَدَاً كَلَاً بِعَمَلِهِ، وَبِأَنْ الْحُجَّةَ لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَبِأَنْ الْحَاجَةَ لَهُمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يجادلون في الله من بعد ما اسْتُجِيبَ لدعاء محمد ﷺ يوم بدرٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. حُجَّةٌ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ مِنَ اللَّهِ مُسْتَوْجِبُونَ لِلْعَنَةِ وَالْعِقَابِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أَنْزَلَ الْكِتَابَ، وَأَنْزَلَ الْحُكْمَ بِالْمِيزَانِ أَيِ بِالْحَقِّ.

وَيَقَالُ أَلْهَمَهُمْ وَزَنَ الْأَشْيَاءَ بِالْمِيزَانِ، وَمِرَاعَاةَ الْعَدْلِ فِي الْأَحْوَالِ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: يَزْجُرُهُمْ عَنْ طَوْلِ الْأَمَلِ، وَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى انْتِظَارِ هَجُومِ الْأَجَلِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَحْكَامِ الْآخِرَةِ، وَيَكُونُ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ؛ فَلَا يَتَمَنُّونَ الْمَوْتَ حَذَرَ الْإِبْتِلَاءِ، وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ الْمَوْتُ لَمْ يَكْرَهُوهُ، وَكَانُوا مُسْتَعِدِينَ لَهُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

﴿لَطِيفٌ﴾ أَيِ عَالِمِ بِدَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا. وَاللَّطِيفُ هُوَ الْمُلَطِّفُ الْمُحْسِنُ... وَكِلَاهُمَا فِي وَصْفِهِ صَحِيحٌ. وَاللَّطْفُ فِي الْحَقِيقَةِ قُدْرَةُ الطَّاعَةِ، وَمَا يَكُونُ سَبَبَ إِحْسَانِهِ لِلْعَبْدِ الْيَوْمَ هُوَ لُطْفٌ مِنْهُ بِهِ.

وأكثر ما يستعمل اللطف - في وصفه - في الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ : أي يعلم غوامض أحوالهم من دقيق الرياء والتصنع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاة بقوله : «لطف» : لئلا يياسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياء بقوله : «لطف» : ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراء . بقوله : «لطف» أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : «اللَّهُ» يوجبُ الهيبةَ والفرع ، وسماعُ «لطف» يوجبُ السكونَ والطمأنينة . فسماعُ قوله : «اللَّهُ» أوجب لهم تهويلاً ، وسماعُ قوله : «لطف» أوجب لهم تأملاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطي قَدَرَ الكفايةِ وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مَنْ لُطِفَ بالعبدِ عِلْمُهُ بأنه لطيف ، ولولا لُطْفُهُ لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَهُ دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ إِبْهَامُ عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادته لا تَكَلَّ عليه ، وأَقْلَّ عَمَلُهُ ولو عَلِمَ شقاوته لا يَسْ وَلَتَرَكَ عَمَلَهُ . فأرادَه أن يستكثر في الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاء أجله عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله .

ويقال : من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيهِ ما عمله في الدنيا من الزلة ؛ لئلا يتنقص عليه العيشُ في الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نُورُ الأسرارِ ، وحفظ على عبده ما أودَعَ قلبه من الأسرار ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ .

﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ : نَزَدَهُ - اليومَ - في الطاعات توفيقاً ، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً . وَنَزَدَهُ في الآخرة ثواباً واقتراباً وفنونَ نِجَاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ : مكتفياً به نؤته منها ما يريد ، وليس له في الآخرة نصب .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّ يَتَنَّهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾: أي ليس ذلك مما أمر به، وإنما هو افتراء منهم .
 ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ﴾: أي ما سبق به الحكم بتأخير العقوبة إلى القيامة . .
 قوله جل ذكره: ﴿تَرَى الْفَالِغِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

إذا حصل الإجماع فالإلى وقت ما لا يُعَذَّبُهُم الله في الغالب، ولكنه لا محالة يعذبهم . وربما يثبَّت ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسفون، ويعلمون أن ذلك من الله لهم مُعْجَلٌ قد أصابهم، أمّا الكفار . . فغداً يُشْفِقُونَ مما يقع بهم عند ما يقرؤونه في كتابهم، لأنَّ العذاب - لا محالة - واقعٌ بهم .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾: في الدنيا جنان الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأتس في أوقات الخلوة . وفي الآخرة في روضات الجنة: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: إنَّ أرادوا دوام اللطف دأماً لهم، وإنَّ أرادوا تمام الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضل الكبير .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .
 ذلك الذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عباده قد مضى ذكره في القرآن متفرقاً؛ من أوصاف الجنة وأطايها، وما وعد الله من المثوبة . . ونحو ذلك .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ .
 قُلْ - يا محمد - لا أسألكم عليه أجراً . مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً، ولكنَّ الله - وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيه بما لهم من الكرامات الأبدية - لم يطلب عليه أجراً؛ فالله - سبحانه - لا يطلب عِوَضاً، وكذلك نبيه - ﷺ - لا يسأل أجراً؛ فإن المؤمن قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً . . فمتى يطلب الرسول منهم أجراً؟! وهو - صلوات الله عليه - يشفع لكل مَنْ آمَنَ به، والله - سبحانه - يعطي الثواب لكل مَنْ آمَنَ به .

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾: أراد أن تثبت مودتك في القربى؛ فتودَّ مَنْ يتقرب إلى الله في طاعته .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .
 تضعيف الثواب في الآخرة للواحد من عَشْرَةٍ إلى سبعمائة . . هذه هي الزيادة .
 ويقال: الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .
 ويقال: إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضَّلنا بزيادة . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةَ الْوُضَائِفِ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنُ اللَّطَائِفِ .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ الْبَشَرِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِأُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا يَصُدُّونَ ﴾ .

أي أُنْكَ إن افترئته خَتَمَ اللَّهُ على قَلْبِكَ ، ولكنك لم تكذب على ربك .
ومعنى الآية أَنَّ اللَّهَ يَتَصَرَّفُ في عبادِهِ بما يشاء : مِنْ إِبْعَادٍ وَتَقْرِيبٍ ، وَإِدْنَاءٍ وَتَبْعِيدٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهي هنا للعهد ؛ أي تلك السيئات التي تكفي التوبة المذكورة في الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء .
﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ : من الأعمال على اختلافها .

وهو «الذي» . . . : الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بِصَلَةِ ، فهو قد تعرّف إلى عبادِهِ على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فَالزَّلَّةُ - وإن كانت توجب للعبد ذميمة الصِّفَةِ - فإن قبولها يوجب للحق حميد الاسم .

ويقال : قوله : «عباده» اسم يقتضي الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)^(١) حتى تمتئ كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين لعله يقول له : عبدي . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود في ﴿ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ؛ وإذا فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لكي يصلوا إلى ذلك .

ويقال لما كان حديث العفو عن السيئات ذكرها على الجمع والتصريح فقال : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ . ثم لما كان حديث التهديد قال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فذكره على التلويع ؛ فلم يقل : ويعلم زلتك - بل قال ويعلم «ما» تفعلون ، وتدخل في ذلك الطاعة والزَّلَّةُ جميعاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبِزَيْدُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

(أي إذا دَعَوُهُ استجاب لهم)^(٢) بعظيم الثواب في الآخرة .

﴿ وَبِزَيْدُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يقول المفسرون من أهل السُّنَّة في هذه الزيادة إنها الرؤية .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

ذَكَرَ التَّوْبَةَ وَأَهْلَهَا، وذكر العاصين بوصفهم، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فلَمَّا وصل إلى الزيادة - التي هي الرؤية - قال: «ويزيدهم» على الجمع؛ والكنية إذا تَلَثَّ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً؛ فيكون المعنى أن الطاعات في مقابلها الدرجات، وتكون بمقدارها في الزيادة والنقصان، وأمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل . . والفضل ليس فيه تمييز .

ويقال: لَمَّا ذكر أن التائبين تُقْبَلُ توبتهم، وَمَنْ لم يَثْبُغفر زلته، وأنَّ المطيعين لهم الجنة . . فلربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ: وإذا فهذه النارُ لِمَنْ هي؟! فقال جل ذكره: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .

فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب . . أمَّا الكافرون فلهم عذاب شديد؛ لأنَّ دليل الخطاب يقتضي هذا وذلك؛ يقتضي أن المؤمنين لهم عذاب . . ولكن ليس بشديد، وأمَّا عذاب الكافرين فشديد .

ويقال: إن لم يَثْبُغ العبدُ خوفاً من النار، ولا طمعاً في الجنة لَكَانَ من حَقِّه أن يتوب لِيَقْبَلَ الحقُّ - سبحانه .

ويقال إن العاصي يكون أبداً منكسراً القلب، فإذا عَلِمَ أن اللَّهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أن ليت له طاعة مُيسَّرةً ليقبلها، فيقول الحقُّ: عبي، إن لم تُكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إن أَتَيْتَ بها تصلح لقبولها .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ .

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في تخاطب الآدميين . والمعنى: أنني لم أبسط عليك أيها الفقير في الدنيا لَمَّا كان لي من العلم أنني لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ، وَلَسَعَيْتَ في الأرض بالفساد .

ويقال: قوله: «ولكن . .»: لكن كلمة استدراك، فالمعنى: لم أَوْسَعْ عليك الرزق بمقدار ما تريد؛ ولم أَمْنَعْ عنك (الكل)؛ لأنِّي أُنْزِلُ بِقَدَرٍ ما أشاء .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

الله - سبحانه مُخَيِّي القلوب؛ فكما أنه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، فبعد ما أصابت الأرض جدوبةً، وأبطأ نزولُ الغيثِ، وَقِنَطُ الناسِ من مجيء الماطر، وأشرفَ الوقتُ على حُدُ القَوَاتِ يُنْزِلُ اللَّهُ بفضلِهِ الغيثَ، ويحيي الأرضَ بعد قنوط أهلها . . فكذلك العبد؛ إذا ذَبَلَ غُضُنُ وقته، وتَكَدَّرَ صَفْوُ ودّه،

وكسفت شمسُ أُنْسِهِ، وَبَعَدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القربِ عَهْدُهُ فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته؛ فيُنزِل على سِرِّهِ أمطارَ الرحمة، ويعود عودُهُ طريقاً، وَيُنْبِتُ في مشاهد أُنْسِهِ ورداً جَيِّتاً.. وأشدوا:

إِنْ رَاعَنِي مِنْكَ الصَّدُودُ فَلَعَلَّ أَيَّامِي تَعُودُ
وَلَعَلَّ عَهْدَكَ بِاللَّوَى يحيا فقد تحيا العهود
وَالْغَصْنُ يَيْبَسُ تَارَةً وتراه مُخْضِراً يَمِيدُ^(١)

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

جعل الله في كل شيء من المخلوقات دلالة على توحيده في جلاله، وتفريده بنعت كبريائه وجماله.

﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾: والإشارة منها أَنَّ الحقَّ - سبحانه - يغار على أوليائه أَنْ يَسْكُنَ بعضهم بقلبه إلى بعض؛ فأبداً يُبَدِّدُ شَمْلَهُمْ، ولا تكاد الجماعة من أهل القلوب تتفق في موضع واحد إلا نادراً، وذلك لمدى يسيرة.. كما قالوا:

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كَانَهُمْ بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحيان قد يتفضل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم - في الظاهر - اجتماعٌ والتقاءٌ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ - سبحانه - بفضلِهِ إلى أَنَّ في اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالم.

وهذا - وإن كان نادراً - فإنه على جَمْعِهِمْ - إذا يشاء - قدير.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَصْبَحَكُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

إذا تحقَّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه، وعَلِمَ أَنَّ ذلك جزاءٌ له، وعقابٌ على ما بَدَّرَ منه من سوءِ الأدبِ لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِهِ، وَلَشَغْلِهِ ذلك عن رؤية الناس، فلا يحاول أن يتنقَّم منهم أو يكافئهم أو يدعو عليهم، وإنما يشغله تلافي ما بَدَّرَ منه من سوءِ الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلَّط عليه من الخلق.. تاركاً الأمرَ كُلَّهُ لربِّهِ.

ويقال: إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد، وتوالى عليه ذلك.. فَلْيُفَكِّرْ في أفعاله المذمومة.. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله - مع العفو الكثير - هذا

المبلغ؟! فعند ذلك يزداد حُزْنُهُ وتأسُّفُهُ؛ لِعِلْمِهِ بكثرة ذنوبه ومعاصيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ ءَاتَى الْبَحْرَ كَالْعَلَّارِ﴾.

يريد بها السفن التي تجري في البحار؛ يرسل الله الريح فتسيرها مرة، ويسكنها أخرى، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة.. وهو بهذا يحثهم على التفكر والتنبه دائماً.

والإشارة في هذا إلى إمساك الناس في خلال فترة الوقت عن الأنواء المختلفة، وحفظهم في إيواء السلامة، فالواجب الشكر في كل حالة، وإذا خلص الشكر استوجب جزيل المزيد^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

يعني أنّ الراحة في الدنيا لا تصفو، ومن المشائب لا تخلو. وإن اتفق وجود البعض منها في أحيان فإنها سريعة (الزوال)، وشيكة الارتحال.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الموعود «خير» من هذا القليل الموجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرَ آلِ إِمٍّ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَفْقَرُونَ﴾.

﴿كَثِيرَ آلِ إِمٍّ﴾: الشرك. و ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾: ما دون ذلك من الزلات. فإذا تركوها لا يتجرعون كاسات الغضب بل تسكن لديهم سورة النفس؛ لأنهم يتوكلون على ربهم في عموم الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾: فيما دعاهم إليه وما أمرهم به من فنون الطاعات؛ فهؤلاء هم الذين لهم حسن الثواب وحميد المآب.

والمستجيب لربه هو الذي لا يبقى له نفس إلا على موافقة رضاه، ولا تبقى منه لنفسه بقية.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: لا يستبد أحدهم برأيه؛ لأنه يتهم أمره ورأيه أبداً ثم إذا أراد القطع بشيء يتوكل على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

«البغي»: الظلم، فيعلم أحدهم أن الظلم الذي أصابه هو من قبل نفسه، فينتصر

(١) الآيات من (٣٣) حتى (٣٥) لم ترد.

على الظالم وهو نفسه؛ بأن يكبح عنانها عن الرخص في ميدان المخالفات.
قوله جل ذكره: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَاتِكُمْ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

(يعني لا تجاوزوا حد ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام).
﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: مَنْ عفا عن الجاني، وأصلح ما بينه وبين الله - أضح الله ما بينه وبين الناس. ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: فالذي للعبد من الله وعلى الله، وعند الله خير مما يعمل به باختياره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عَلِمَ الله أن الكل من عباده لا يجد التحرر من أحكام النفس، ولا يتمكن من محاسن الخلق فرخص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط - وإن كان الأولى بهم الصفع والعفو.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ...﴾: السبيل بالملامة لمن جاوز الحد، وعدا الطور، وأتى غير المأذون له من الفعل... فهو لاء لهم عذاب أليم.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

صَبَرَ على البلاء من غير شكوى، وَغَفَرَ - بالتجاوز عن الخضم - ولم تبق لتفسيه عليه دعوى، بل يُبرئ خضمه من كل دعوى، في الدنيا والعقبى... فذلك من عزم الأمور.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَيْنَا مَرْجِعٌ﴾.

إن الذين أضلهم الله، وأعمى أبصارهم وبصائرهم، وأوقعهم في كد عقوبتهم، وحرّمهم بَرْد الرضا لحكم ربهم ليس لهم ولي من دون الله، ولا مانع لهم من عذابه. وتراهم إذا رأوا العذاب يطلبون منه النجاة فلا ينالونها.

وتراهم يُغرضون على النار وهم خاشعون من الذل؛ لا تنفعهم ندامة، ولا تُسمع منهم دعوة، ويُعيرهم المؤمنون بما ذكروهم به فلا يسمعون، فاليوم لا ناصر ينصرهم، ولا راحم يرحمهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

الاستجابة لله الوفاء بعهده، والقيام بحقه، والرجوع عن مخالفته إلى مرافقته، والاستسلام.

في كل وقتٍ لحكمه. والطريق اليوم إلى الاستجابة مفتوح. وعن قريبٍ سيُغلق الباب على القلب بفتنة، ويؤخذ فتنة.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ حَفِظًا إِلَّا بَلَغٌ﴾.

فإن أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغ الرسالة، ثم نحن أعلم بما نعاملهم به.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِّجْهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

إذا أذقنا الإنسان منّا رفاهيةً ونعمةً فرح بتلك الحالة، وقابلها بالبطر، وتوصل بتمام عافيته إلى المخالفة، وجعل السلامة ذريعةً للمخالفة. وإن أصابته فتنةٌ وبلية، ومُسْتَهْ مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا، جحودٌ لآياتنا.

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ...﴾.

يهب لمن يشاء الذكور، ولمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الجنين، ويجعل من يشاء عقيماً، فلا اعتراض عليه في تقديره، ولا افتيات في اختياره، فهو أولى بعباده من عباده^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾.

لله بحقٌ ملكه أن يفعل ما يشاء، ويعطي من يشاء من عباده ما يشاء، ولكن أجرى العادة وحكم بأنه لا يفعل إلا ما وُردَ في هذه الآية؛ فلم يُكَلِّمْ أحداً إلا بالوحي، أو من وراء حجاب؛ يعني وهو لا يرى الحق، فالمحجوب هو العبد لا الرب، والحجاب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية. . تعالى الله عن أن يكون من وراء حجاب؛ لأن ذلك صفة الأجسام المحدودة التي يُسَبَّلُ عليها ستر. إنه «عليّ»: في شأنه وقدره، «حكيم»: في أفعاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي ذلك مثلما أوحينا إليك «روحاً» من أمرنا يعني القرآن؛ سَمَاءَ روحاً لأنه مَنْ آمَن به صار به قلبه حَيًّا .

ويقال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: أي جبريل عليه السلام، ويسمى جبريل روح القدس .

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ . .﴾: ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن، «ولا

الإيمان»: أي تفصيل هذه الشرائع .

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾: أي القرآن «نوراً» نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين .

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾: لأن منه ابتداء الأمور .

سورة الزخرف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم «الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ لَمْ يُعَلِّقْ بغيره صواعِدَ هَمِّهِ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَى سُدَّةٍ مَخْلُوقٍ بِقُدَمِيهِ فِي ابْتِغَاءِ كَرَمِهِ. اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَهُ خَفَايَا لُطْفِهِ لَمْ يَتَذَلَّ فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى غَيْرِهِ فِي شَرِّهِ وَخَيْرِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمْدٌ وَلَكِنَّا لَنُبَحِّثَنَّ عَنْ أَهْوَىٰ أَهْلِكَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الحاء تدل على حياته والميم على مجده... وهذا قَسَمٌ؛ ومعناه: وحياتي ومجدي وهذا القرآنِ إِنَّ الذي أَخْبَرْتُ عَنْ رَحْمَتِي بعبادي المؤمنين حقٌ وَصِدْقٌ. وجعلناه قرآنًا عربياً لِنَيَسِّرَ عَلَيْكُمْ فَهْمَ معناه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ فِي أُولَٰئِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي حَاكِمٍ﴾.

﴿فِي أُولَٰئِكَ لَآيَاتٍ﴾: أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿لَآيَاتٍ حَاكِمٍ﴾ لِعَلِّي الْقُدْرِ، حَكِيمُ الوصف؛ لا تبديل له ولا تحويل.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

أي أننا لا نفعل ذلك؛ (فيكون معنى الاستفهام) ^(١) أفنقطع عنكم خطابنا وتعريفنا إن أسرفتم في خلافكم؟ لا... إننا لا نرفع التكليف بِأَن خالفتم، ولا نهجركم - بِقَطْعِ الكلام عنكم - إن أسرفتم.

وفي هذا إشارة لطيفة وهو أنه لا يقطع الكلام - اليوم - عَمَّنْ تَمَادَى فِي عَصِيَانِهِ، وَأَسْرَفَ فِي أَكْثَرِ شَأْنِهِ. فَأَحْرَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ يُقَصِّرْ فِي إِيْمَانِهِ - وَإِنْ تَلَطَّحَ بِعَصِيَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلْ خَلْلٌ فِي عِرْفَانِهِ - أَلَا يَمْنَعُ عَنْهُ لَطَائِفُ غَفْرَانِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ما أتاهاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق، بل كَذَّبَ بِهِ الْكَافِرُونَ وَجَحَدُوا، وَعَلَىٰ غَيْرِهِمْ أَصْرُوا...

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

أي لم يُعْجزنا أحدٌ منهم، ولم نَعُدْ منهم أحداً، وانتقمنا من الذين أساءوا.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ﴾.

كانوا يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ خالقَهُم، وأَنَّه خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وإنما جحدوا
حديثَ الأنبياءِ، وحديثَ البعثِ وجوازه.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾.

كما جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا لِأَشْبَاحِهِمْ جَعَلَ الْأَشْبَاحَ قَرَارًا لِأَرْوَاحِهِمْ؛ فَالْخَلْقُ سُكَّانُ
الْأَرْضِ، فإذا انتهت المدة - مدة كَوْنِ النُفُوسِ عَلَى الْأَرْضِ - حَكَمَ اللهُ بِخَرَابِهَا..
كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بِالْكُلِّيَّةِ قَضَى اللهُ بِخَرَابِهَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بَوْدًا بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
نُخْرِجُونَهُ﴾.

يعني كما يُخَيِّي الْأَرْضَ بِالْمَطَرِ يُخَيِّي الْقُلُوبَ بِحُسْنِ النَّظَرِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

أي الأصنافَ مِنَ الْخَلْقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

كذلك جَسَسَ عَلَيْكُمْ الْأَحْوَالَ كُلَّهَا؛ فَمِنْ رَغْبَةٍ فِي الْخَيْرَاتِ إِلَى رَهْبَةٍ مِّمَّا
تَوْعَدُكُمْ بِهِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ. وَمِنْ خَوْفٍ يَحْمِلُكُمْ عَلَى تَرْكِ الزَّلَّاتِ إِلَى رَجَاءٍ يَبْعَثُكُمْ
عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ طَمَعًا فِي الْمَثُوبَاتِ.. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ الصِّفَاتِ.

﴿لِئَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾.

يعني الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ..

﴿ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا
كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾.

مطيعين، وكما سَخَّرَ لَهُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ، والدَوَابَّ لِلرُّكُوبِ، وأعظمَ عَلَيْهِمُ
الْمَنَّةَ بِذَلِكَ فَكَذَلِكَ سَهَّلَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَرْكَبَ التَّوْفِيقِ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى بَسَاطَةِ الطَّاعَةِ،
وسَهَّلَ لِلْمُرِيدِينَ مَرْكَبَ الْإِرَادَةِ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى عَرَصَاتِ الْجُودِ، وسَهَّلَ لِلْعَارِفِينَ
مَرْكَبَ الْهِمَمِ فَأَنَاحُوا بِعِفْوَةِ الْعِزَّةِ. وعند ذلك مَحَطُ الْكَافَةِ؛ إذ لم تخرق سرادفاتِ

العِزَّةُ هِمَّةٌ مخلوقٍ: سواء كان مَلَكًا مُقَرَّبًا أو نَبِيًّا مُرْسَلًا أو وَلِيًّا مُكْرَمًا، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كُلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كُلُّ مُخَدِّثٍ مسبوق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.

هم الذين قالوا: الملائكة بنات الله؛ فجعلوا البنات لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته.. تَعَسَّأَ لهم في قولهم ذلك وخِزْيًا!! فردَّ عليهم ذلك قائلاً: ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

قال لهم على جهة التوبيخ، وعابهم بما قالوا؛ إذ - على حدّ قولهم - كيف يُؤْتَرُهم بالبَنين ويجعل لنفسه البنات؟! ففي قولهم ضلالٌ؛ إذ حكموا للقديم بالولد. وفيه جهلٌ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبَنين - وهم يستنكفون من البنات.. ثم.. أي عيب في البنات؟ ثم.. كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ - وهم لم يشاهدوا خَلْقَتَهُمْ؟

كلّ ذلك كان منهم خطأ محظوراً^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً فقال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً.

ثم قال: ﴿أَمْ أَنَبَّيْتُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

أي ليس كذلك، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليد لا يُفْضِي إلى العلم، فقال:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

فنحن نقتدي بهم، ثم قال:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

سلكوا طريق هؤلاء في التقليد لأسلافهم، والاستنامة إلى ما اعتادوه من السيرة والعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أُولَئِكَ جَحَشْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

(٢) الآيات من (١٧ حتى ١٩) لم ترد.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

فلم ينبج فيهم قوله، ولم ينفعهم وَغْظُهُ، وَأَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، فانتقمَ الحق - سبحانه - منهم كما فعل بالذين من قبلهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

أخبر أن إبراهيم لما دعا أباه وقومه إلى الله وتوحيده أبوا إلا تكذيبه؛ فبرأ منهم بأجمعهم، وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقبه وقومه^(٢).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

أَرْحَيْنَا عَنْ إِمهالهم مدة، ثم كان أمرهم أن انتصرنا منهم، ودمرناهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

إما أبي مسعود الثقفي^(٣) أو أبي جهل، وهذا أيضاً من فزط جهلهم.

﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أهم يقسمون - يا محمد - رحمة ربك في التخصيص بالنبوة؟ أياكون اختيار الله

- سبحانه - على مقتضى هواهم؟ بش ما يحكمون!

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ...﴾ فلم نجعل القسمة في الحياة الدنيا لهم... فكيف

نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء؟!...

والإشارة من هذا: أن الحق - سبحانه - لم يجعل قسمة السعادة والشقاوة إلى أحد، وإنما المردود من رده بحكمه وقضائه وقدره، والمقبول - من جملة عبادته - من أراد وقيله... لا لعلّة أو سبب، وليس الرد أو القبول لأمر مكتسب...

ثم إنه قسم لبغض عباده النعمة والغنى، وللبعض القلة والفقر، وجعل لكل واحد منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به؛ فللأغنياء وجود الإنعام وجزيل الأقسام... فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهود المنعم والقسام... فحمدوا وافتخروا. الأغنياء وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن» فاشتغلوا.

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(١) الآية (٢٥) لم ترد.

(٣) هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي (١٠٠ - ٩ هـ = ٦٣٠ م) صحابي مشهور، كان كبيراً في قومه بالطائف، ولما أسلم استأذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فأذن له، فرجع، فدعاهم إلى الإسلام فخالفوه، ورماء أحدهم بسهم فقتله.

الأعلام ٢٢٧/٤، والإصابة ٥٥٢٨، ورغبة الأمل ٣٠/٥.

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للأنصار: «أما ترضون أن يرجع الناس بالغنى؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم؟».

﴿لَيْسَ أَخَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا..﴾: لو كانت المقادير متساوية لَتَعَطَّلَت المعاش، وَلَبَقِيَ كُلٌّ عِنْدَ حَالِهِ؛ فجعل بعضهم مخصوصين بالرفق والمال، وآخرين مخصوصين بالفقر ورقة الحال.. حتى احتاج الفقير في جبر حاجته إلى أن يعمل للغني كي يرتفع من جهته بأجرته فيضلح بذلك أمر الغني والفقير جميعاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر؛ فالذي يبقى عتاً لو صَبَّنا عليه الدنيا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته. ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقْفًا من فضة ومعارج من فضة، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا.

ولو فعلنا.. لم يكن لِمَا أعطيناه خَطَرٌ؛ لأن الدنيا بأسرها ليس لها عندنا خطر^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقِصْ لَمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ﴾.

مَنْ لم يعرف قَدْرَ الخلوة مع الله فحادَ عن ذكره، وأخلدَ إلى الخواطر الرديّة فيُصِّ اللُّهُ له مَنْ يَشْغَلُهُ عن الله - وهذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربه.. فلو تعرّض له مَنْ يَشْغَلُهُ عن الله - وهذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الأدبَ في الخلوة. وإذا اشتغل العبدُ في خلوته بربه. فلو تعرّض له مَنْ يَشْغَلُهُ عن ربه صَرَفَهُ الحق عنه بأي وجوه كان، وصَرَفَ دواعيه عن مفاتحته بما يشغله عن الله.

ويقال: أصعبُ الشياطين نَفْسَكَ؛ والعبدُ إذا لم يَعْرِفْ خَطَرَ فراغ قلبه، واتبَعَ شهوته، وفتح ذلك الباب عَلَى نَفْسِهِ بقي في يد هواه أسيراً لا يكاد يتخلص عنه إلا بعد مُدَّة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَتَّبِعُهُمُ الْغَايِبُ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ﴾.

الذي سَوَّلَ له نَفْسُهُ أمراً يَتَوَهَّمُ أنه على صواب، ثم يحمل صاحبه على موافقته في باطله، ويدّعي أنه على حق. وهو بهذا يَضُرُّ بِنَفْسِهِ ويضر بغيره. ثم إذا ما انكشف - غداً - الغطاء تبين صاحبه خيائته، ونَدِمَ على صُخْبَتِهِ، ويقول: ﴿يَتَوَلَّى لِيَتَنَّى لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

فَلَا تَأْخُذْ بِهِمْ [الفرقان: ٢٨] و ﴿يَبْلُغْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ . ولكن هذه الندامة لا تنفع حينئذ؛ لأن الوقت يكون قد فات، لهذا قال تعالى:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . هذا الاستفهام فيه معنى النفي؛ أي أنه ليس يمكنك هداية مَنْ سَدَّ ذُنَا بصيرته، وَلَيْسْنَا عَلَيْهِ رُشْدَهُ، وَمَنْ صَبَّيْنَا فِي مَسَامِعِ قَهْمِهِ رِصَاصَ الشَّقَاءِ وَالْحِرْمَانِ . . . فكيف يمكنك إسماعه؟! .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَفِعُونَ﴾ . يعني: إن انقضى أجلك ولم يتفق لك شهود ما نتوَعَدُهُم به فلا تتوَهَّم أَنَّ صِدْقَ كلامنا يشوبه مَيِّنٌ، فَإِنَّ مَا أَخْبَرْنَاكَ عَنْهُ - لا محالة - سيكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ نُزِيلُكَ بِالَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ . أَثْبَتَهُ عَلَى حُدِّ الخوف والرجاء، وَوَقَّعَهُ عَلَى وَصْفِ التجويز لاستبداده - سبحانه - بعلم الغيب. والمقصود كذلك أن يكون كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير - فالله يفعل ما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَسْتَمِيعٌ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . اجتهد من غير تقصير وتوكل على الله من غير فتور، وقف حيثما أُمِرْتَ، وثق بأنك على صراطٍ مستقيم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُلْهِمْ لَكَ إِلَهًا لِّذِكْرِكَ لِقَوْلِكَ وَسَوْفَ تُنْصَلُونَ﴾ . أي إن هذا القرآن لَذِكْرٌ لك؛ أي شرف لك، وَحُسْنٌ صِبِّ، واستحقاق منزلة . . . قوله جل ذكره: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ .

حَشَرَ أرواح الأنبياء - عليهم السلام - ليلة الإسراء، وقيل له - ﷺ: «سَلِّهِمْ: هل أَمَرْنَا أَحَدًا بِعبادة غيرنا؟ فلم يَشْكُ النبي - ﷺ - ولم يسأل»^(١).

ويقال: الخطاب له، والمراد به غيره. . . فَمَنْ يَرْتَابُ فِي ذَلِكَ؟ ويقال: المراد منه سَلِّ أقوامهم، لكي إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْكُونَ﴾ .

(١) للحديث رواية أخرى: «لا أسأل قد اكتفيت» أخرجه ابن الجوزي في (زاد المسير ٣١٩/٧).

كرّر قصة موسى غير مرة في القرآن، وأعادها هنا مجملة؛ أرسلناه بدلائلنا، أرسلناه بحجة ظاهرة قاهرة، أرسلناه بالمعجزات إلى فرعون وقومه من القبط، فقبول بالهزم والضحك والتكذيب. ومع أن الله سبحانه لم يُجرِ عليه من البينات شيئاً إلا كان أوضح مما قبله إلا أنهم لم يقابلوه إلا بجفاءٍ أو حش مما قبله. فلما عضّهم الأمر قالوا: يا أيها الساحر، ادع لنا ربك ليكشف عنا البلية لنؤمن بك، فدعا موسى.. فكشف الله عنهم، فعادوا إلى كفرهم، ونقضوا عهدهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْتَوِيضُ اللَّيْلُ لِي مَلِكٌ وَمَعِيَ هَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

تعزّز بملك مصر، وجرى النيل بأمره! وكان في ذلك هلاكه؛ ليُعلم أن من تعزّز بشيء من دون الله فحققه وهلاكه في ذلك الشيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ إِنَّا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾.

استصغر موسى وحديثه، وعابه بالفقر.. فسأله الله عليه، وكان هلاكه بيديه، فما استصغر أحد أحداً إلا سلّطه الله عليه^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

أطاعوه طاعة الرهبة، وطاعة الرهبة لا تكون مخلصّة، وإنما تكون الطاعة صادقة إذا صدرت عن الرغبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا، وإنما أراد أغضبوا أوليائنا، فانتقمنا منهم. وهذا له أصل في باب الجمع؛ حيث أضاف إيسافهم لأوليائه إلى نفسه... وفي الخبر: أنه يقول: «مرضت فلم تعذني»^(٣).

وقال في قصة إبراهيم عليه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [الحج: ٢٧].

وقال في قصة نبيّنا - ﷺ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنهُ يَصِدُونَ﴾.

وضرب المثل بعيسى هو قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ خلق عيسى بلا أب كما خلق آدم بلا أبوين. فجددوا بهذه الآية.

(١) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد. (٢) الآية (٥٣) لم ترد.

(٣) للحديث رواية أخرى: «مرضت فلم يعذني ابن آدم» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٤٠٤). الآية (٥٦) لم ترد.

وقيل هو قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقالوا: رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعزير والملائكة، وليس لهم في الآية موضع ذكر؛ لأنه سبحانه قال: «وما تعبدون، ولم يقل «ومن» تعبدون. قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا أَلِلهُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾: وذلك أنهم قالوا: إن قال آلهتكم خير فقد أقر بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يُعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه. وهم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه، ولم يكن سؤالهم للاستفادة. فكان جواب النبي ﷺ عليهم: «أن عيسى عليه السلام خير من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعبد؛ إذ ليس كل ما هو خير من الأصنام بمستحق أن يكون معبوداً من دون الله وهكذا بين الله - سبحانه - لنبيه أنهم قوم جادلون، وأن حُجَّتَهُم داحضة عند ربهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَلَكًا يُبَيِّنُ إِسْرَائِيلَ﴾. فليس عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِهُنَّ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

ولو شئنا لأنزلنا ملائكة من السماء حتى يكونوا سكران الأرض بذكركم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾: يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامة للساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ بنزوله بين يدي القيامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ولا يصدنكم الشيطان عن الإيمان بالساعة، وعن اتباع الإيمان بهداي.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

ذكر مجيء عيسى عليه السلام أول مرة؛ حيث أتى قومه بالشرائع الواضحة،

(١) في الموسوعة قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب» أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٧١ رقم ٢٤٣)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٨) والآجري في (الشرعية ٣٨٠)، والتمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٧٢٢)، والقرطبي في (التفسير ١٠/ ٣١٥)، (٨٦/ ١٨).

ودعاهم إلى دين الله، ولكنهم تحزّبوا عليه، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة.
قوله جلّ ذكره: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

ما كان لغير الله فمآله إلى الضياع. والأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو؛ يتبرأ بعضهم من بعض، فلا ينفع أحد أحداً.
وأما الأخلاء في الله فيشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

وشرط الخلّة^(١) في الله؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية، ولا يرتفق بعضهم ببعض؛ حتى تكون الصلّة خالصة لله لا لنصيب في الدنيا، ويكون قبول بعضهم بعضاً لأجل الله، ولا تجري بينهم مهادنة، وبقدّر ما يرى أحدهم في صاحبه من قبول لطريق الله يقبله، فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك من صاحبه، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته، وإلا فلا ينبغي أن يساعده على معصيته، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه، وألا يسكن إليه لغرض دنيوي أو لطمع أو لعوض.
قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِيبَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتَ تَحْزَنُونَ﴾.

يقال لهم غداً: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم﴾ مما يلقاه أهل الجمع من الأهوال، ولا أنتم تحزنون فيما قصّرتم من الأعمال...

أما الذنوب.. فقد غفرناها، وأما الأهوال.. فكفيناها، وأما المظالم.. فقصيناها. فإذا قال المنادي: هذا الخطاب يطعم الكل قالوا: نحن عباده، فإذا قال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

أيس الكفار، وقوي رجاء المسلمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

في رياض الجنة، وترتعون.

ويقال: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ من لذة السماع.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

العباد لهم فيها ما تشتهي أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا - بحكم المجاهدات - الجوع والعطش، وتحملوا وجوة المشاق، فيجازون في الجنة بوجوه من الثواب.

وأما أهل المعرفة والمحبتون فلهم ما يلد أعينهم من النظر إلى الله لطول ما

(١) يصلح هذا يُضاف إلى حديثه - أي القشيري - عن الصلّة بالرسالة ص ٢٩٤.

قاسوه من قَرْطِ الاشتياق بقلوبهم؛ وما عالجوه من الاحتراق لشدة غليلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ لَئِنَّهُ الْآتِيَّ أَوْرِثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي يقال لهم - والخطاب للمطيعين غداً -: أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم؛ والصدق في أحوالكم:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

من الفاكهة الكثيرة تأكلون، وفي الأنس تتقبلون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

هؤلاء هم الكفار المشركون، فهم أهل الخلود، لا يُفْتَرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّفُ.

وأما أهل التوحيد: فقد يكون منهم قومٌ في النار. ولكن لا يخلدون فيها.

ودليل الخطاب يقتضي أنه يُفْتَرُ عنهم العذاب. ورد في الخبر الصحيح: أنه لا يُمِيتهم الحق - سبحانه - إماتةً إلى أن يُخْرِجَهُمْ من النار - والميت لا يحس ولا يتألم^(١).

﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾.

الإبلاس^(٢) من الخيبة، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها، وإن

كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهي حسابهم.

ولقد قال الشيوخ: إنَّ حالَ المؤمن في النار - من وجوه - أَرْوَحُ لقلبه من حاله

في الدنيا؛ فاليوم - خوفُ الهلاك، وغداً - يقينُ النجاة، وأنشدوا:

عَيْبُ السَّلامَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا مَتَوَقَّعٌ لِقَوَاصِمِ الظُّهْرِ

وفَضِيلَةُ الْبَلَوِ تَرْتُقِبُ أَهْلَهَا - عَقَبَ الرَّجَاءِ - مَوَدَّةُ الدَّهْرِ

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾.

هذا الخطاب يُشَبِّهُ كلمة العذر - وإن جَلَّ قَدْرُهُ - سبحانه - عن ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَوْا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

لو قالوا: «يا مَلِكُ» لعلَّ أقوالهم كانت أقرب إلى الإجابة، ولكنَّ الأجنبيةَ حالت

بينهم وبين ذلك، فكان الجوابُ عليهم:

(١) الحديث: «فأما تهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً [...]». أخرجه مسلم (إيمان ٣٠٦)، وابن ماجه (زهد ٣٧).

(٢) أبلس فلان: سكت غمًا (اللسان ٣٠/٦ مادة: بلس).

﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ فيها . . نُصِخْتُمْ فَلَمْ تَنْتَصِحُوا، وَلَمْ تَقْبَلُوا الْقَوْلَ فِي حِينِهِ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهِينَ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ .

بل أمورهم مُنْتَقِضَةٌ عليهم؛ فلا يتمشى لهم شيء مما دبروه، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو ما قَدَّرُوهُ - وهذه الحال أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى إِبْثَابِ الصَّانِعِ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمُ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ﴾ .

إنما خَوْفُهُمْ بِسَمَاعِ الْمَلِكِ، وَبِكِتَابَتِهِمْ أَعْمَالَهُمْ عَلَيْهِمْ لَغَفَلَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ - سبحانه، ولو كان لهم خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ لَمَا خَوْفُهُمْ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تُكْتَبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ يُطَالَبُ بِمَقْتَضَى ذَلِكَ - قَلَّ إِلِمَاؤُهُ بِمَا يَخَافُ أَنْ يُسَالَ عَنْهُ . .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ .

أَيُّ إِنْ كَانَ فِي ضَمِيرِكُمْ وَفِي حُكْمِكُمْ وَفِي اعْتِقَادِكُمْ أَنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَسْتَنْكِفُ مِنْ هَذِهِ الْقَالَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

تَنْزَهُ اللَّهُ تَزْوِيهًا، وَتَقَدَّسَ تَقْدِيسًا عَمَّا قَالُوهُ . وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْثَالِهَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ حِكَايَةِ قَوْلِ الْمُبْتَدِعَةِ - فِيمَا أَخْطَأُوا فِيهِ مِنْ وَصْفِ الْمَعْبُودِ - قَصْدًا لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَإِخْبَارًا بِتَقْبِيحِ أَقْوَالِهِمْ، وَبَطْلَانِ مَزَاعِمِهِمْ .

ثم قال جل ذكره: ﴿فَدَرَبَهُمْ نَحُوسًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ .

إِذْ لَيْسَ يَفُوتُ أَمْرُهُمْ، وَهُمْ لَا مُحَالَةَ سَيَلِقُونَ صِغَرَهُمْ .

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَغْتَرَّ بِطُولِ السَّلَامَةِ فَإِنَّ الْعَوَاقِبَ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ .

المعبود - في السماء - الله، والمقصود - في طلب الحوائج - في الأرض - الله .

أَهْلُ السَّمَاءِ لَا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ لَا يَقْضِي حَوَائِجَهُمْ غَيْرَ اللَّهِ .

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي إِمِهَالِهِ لِلْعَصَاةِ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ .

﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنْزَهُ وَتَكَبَّرَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ بِقُدْرَتِهِ تَظْهَرُ . . لَا هُوَ بِظُهُورِهَا يَتَعَزَّزُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ﴾ .

أي شهد - اليوم - بالتوحيد، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة . وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

فكيف لا يعتبرون؟ وكيف يتكبرون عن طاعة الله .

﴿وَقِيلِهِ يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

أي يعلم علم الساعة ويعلم ﴿قيله يا رب﴾ .

﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أمهلهم، وقل لكم مني سلام . . ولكن سوف تعلمون عقوبة ما تستوجبون .

سورة الدخان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ ذَكَرَهَا نال في الدنيا والعُقبى بهجته، وَمَنْ عَرَفَهَا بِذَلِكَ فِي طلبها مُهَجَّتْ.

كلمة إذا استولت على قلبٍ عَطَلَتْه عن كُلِّ شُغْلٍ، كلمة إذا واطَبَ على ذِكْرِهَا عَبْدٌ أَمَّنَتْه من كُلِّ هَوْلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ وَالْكَتَبِ الْمُبِينِ﴾.

الحاء تشير إلى حَقِّهِ؛ والميم تشير إلى محبته. ومعناه: بحقي وبمحبتي لِعِبَادِي، وبكتابي العزيز إليهم: إِنِّي لَا أَعَذِّبُ أَهْلَ مَعْرِفَتِي بِفِرْقَتِي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾: قيل هي ليلة القَدَر، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصَّكِّ. أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كُلَّ سَنَةٍ بِمَقْدَارِ مَا كَانَ جَبْرِيلُ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ.

وسماها: ﴿لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة. وأشدُّ الليالي بركةً ليلة يكون العبدُ فيها حاضراً، بقلبه، مشاهداً لرَبِّهِ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة، ويجد فيها نسيم القربة. وأحوال هذه الطائفة في ليايهم مختلفة، كما قالوا:

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي أَنَّ نَجْوَمَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَزُولُ
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ: قَصِيرٌ إِذَا جَادَتْ، وَإِنْ ضُئْتُ فَلَيْلِي طَوِيلٌ

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يكتب من أَمِّ الكتاب في هذه الليلة ما يحل في السنة كُلِّهَا من أقسام الحوادث في الخير والشرِّ، في المحن والمِنْنِ، في النصر والهزيمة، في الخصب والقحط.

ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجذب، والوصل والفصل، والوفاق والخلاف، والتوفيق والخذلان، والقبض والبسط. فكم مِنْ عَبْدٍ يَنْزِلُ لَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِالْبُعْدِ وَالشَّقَاءِ، وَآخِرُ يَنْزِلُ حُكْمُهُ بِالرُّفْدِ وَالْوَفَاءِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: وهي الرسول - ﷺ، قال صلوات الله عليه: «أنا رحمة مهداة»^(١).

ويقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رحمة لنفوس أوليائنا بالتوفيق، ولقلوبهم بالتحقيق.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: «السميع» لأنين المشتاقين، «العليم» بحنين المحبين.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتَ مُؤَقِّنِينَ﴾.

مالك السموات والأرضين، ومالك ما بينهما - وتدخل في ذلك أكساب العباد. وتملكها بمعنى القدرة عليها، وإذا حصل مقدور في الوجود دل على أنه مفعوله؛ لأن معنى الفعل مقدور وجد.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هذه الكلمة فيها نفى ما أثبتوه بجهلهم، وإثبات ما نفوه بجحدهم.

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: مُرَبِّي أضلكم ونسلكم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

اللعب فعل يجري على غير ترتيب تشبيهاً باللعب الذي يسيل لا على نظام مخصوص؛ فوصف المنافق باللعب؛ وذلك لتردده وتحيره نتيجة شكه في عقيدته.

قوله جل ذكره: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا من أشرار الساعة؛ إذ يتقدم عليها.

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجلة (أي تتم هنا في هذه الدنيا) فيومهم الذي تأتي السماء فيه بدخان مبين هو يوم غيبة الأحاب، وانسداد ما كان مفتوحاً من الأبواب، أبواب الأنس بالأحاب وفي معناه قالوا:

فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى بطلق ولا ماء الحياة ببارد

قوله جل ذكره: ﴿يَعْنَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعذاب هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيم في الغالب، وهو عذاب مستعذب، أولئك

يقولون:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وهؤلاء يستزيدون - على العكس من الخلق - العذاب، وفي ذلك يقول قائلهم:

فكل ما ربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

فهم يسألون البلاء والخلق يستكشفونه، ويقولون:

أنت البلاء فكيف أرجو كشفه إن البلاء إذا فقت بلاتي

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣١٩٩٥)، والقرطبي في (التفسير ٦٣/٤).

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾.

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر^(١) التي تَرُدُّ من الحق عليهم عوقبوا - في الوقت بما لا يتسع لهم ويسعفهم، فإذا أخذوا في الاستغاثة يقال لهم: أنى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول على قلوبكم فخالفتكم^(٢)؟!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾.

حيث نورثكم حزناً طويلاً، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَن أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

فنتهم بعد ما أصرُّوا على جحودهم ولم يرجعوا إلى طريق الرشد من نفرة^(٣) عنودهم.

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل، وأن يستبصروا، واستنفرهم لله، وأظهر الحجَّة من قِبَلِ الله^(٤).

﴿فَأَمَرِ عِبَادِي لِيَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.

أمره بأن يسري بعباده المؤمنين، وعرفهم أنهم سيُنقذون، وأنَّ عدوهم ﴿جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿كَرَّ تَرْكَاؤُا مِنْ جَنَّتٍ وَعِيُونٌ وُزُوعٌ وَمَقَارٍ كَرِيرٍ وَنَعَمٌ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ﴾.

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم. ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

وأشكنا قوماً آخرين في منازلهم ودورهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

لم يكن لهم من القدرِ والخطرِ ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن، أو يسكن متحرك فلا الخضراء بسببهم اغبرثت، ولا الغبراء لغيتهم اخضرث. لم يبقَ منهم عينٌ

(١) انظر حديث القشيري عن الخواطر في الرسالة ص ٨٣، ٨٥.

(٢) الآية (١٤) لم ترد.

(٣) نفر من الشيء: فزع وانقبض غير راضٍ به، ونفرت المرأة من زوجها: أعرضت وصذت ونفرت من المكان: تركه إلى غيره.

(٤) الآيات من (١٩ حتى ٢٢) لم ترد.

ولا أثر، ولم يظهر مِنْ قِبَلِهِمْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِنَا أَثَرٌ. وكيف تبكي السماء لَفَقْدِ مَنْ لَمْ تَسْتَبْشِرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ؟ بعكس المؤمن الذي تُسَرُّ السماءُ بصعود عمله إليها، فإنها تبكي عند غيابه وفَقْدِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَخَّيْنَا بِنِيِّ إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُتَكِبِينَ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

نَجَاهُمْ، وأقمى عدوَّهم، وأهلكه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي عَلِمْنَا ما يحتقبون من أوزارهم، فرفعنا - باختيارنا - من أقدارهم ما وَضَعَهُ فِعْلُهُمْ وتدنَّسَهُمْ بأوزارهم.

ويقال: «على علم منا» بأحوالهم أنهم يُؤْثِرُونَ أمرنا على كل شيء.

ويقال: «على علم منا» بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا.

ويقال: «على علم منا» بما نودع عندهم من أسرارنا، وما نكاشفهم به من حقائق حقنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنَ الْآلِيَةِ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبِينٌ﴾.

من مطالبته بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الكدر والعناء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ فَأَنذَرْنَا وَإِنَّا لَكَنُذِرِينَ﴾.

اقترح أبو جهل على النبي - ﷺ - أن يحيي لهم نفساً:

«لتخبرنا: هل أنت صادق أم لا؟» فأخبر الله - سبحانه - أنهم اقترحوا هذا بعد قيام الحجة عليهم، وإظهار ما أراح لهم من العذر:

ثم قال جل ذكره: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«تُبَّع» هو ملك لليمن، وكان مسلماً، وكان في قومه كثرة، وأهلك الله سبحانه قومه على كثرة عددهم، وكمال قوتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

ما خلقناهما إلا بالحق، بالحكم الحق؛ وبالأمر الحق... «فأنا مُحِقٌّ في خَلْقِهِمَا»: أي كان لي خَلْقُهُمَا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يَنْفَعِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يومئذ لا يُغني ناصر عن ناصر ولا حميم عن حميم، ولا نسيب عن نسيب..
 شيئاً. ولا ينالهم نصر إلا من رَحِمَهُ الله؛ وبفضله ونِعْمته.
 قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقْمِ طَعَامُ الْأَثِيرِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِّ
 الْحَمِيمِ﴾.

«الأثيم» مرتكب الذنوب. «المهل» المذاب. «الحميم»: الماء الحار.
 قوله جل ذكره: ﴿خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾.
 ادفعوا به إلى وسط الحميم. ويقال له:
 ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

أنت كذلك عند قومك، ولكنك عندنا ذليل مهين.
 قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ﴾.
 آمنين من المحن من جميع الوجوه، لباسهم من حرير، وفراشهم من سندس
 واستبرق^(١)، «متقابلين»: لا يبرحون ولا يبغون عنها جِوَالاً^(٢).
 قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

تباح لهم صُحْبَتُهُنَّ، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاق، ويمكن الولي
 بهذه الأوصاف من هذه اللطاف. ثم قد يُخْتَطَفُ قومٌ من بين هذه الأسباب،
 فيتحررون عن هذه الجملة؛ فكما أنهم في الدنيا مُخْتَطَفُونَ عن كلِّ العلائق فإنهم في
 الآخرة تطمع الحور العين في صحبتهم فيستلبهم الحق عن كل شيء.
 الزاهد في الدنيا يحميه منها، والعارف في الجنة يحميه من الجنة^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا أَلَمَاتٌ إِلَّا أَلَمَاتٌ الْوَلَدِ وَفَنَّهُمْ عَذَابُ
 الْجَحِيمِ﴾.

الموتة الأولى هي بقبض أرواحهم في الدنيا، وبقيةهم الله في الآخرة العذاب
 بفضله، وذلك هو الظفرُ بالبغية، ونجاح السؤل^(٤).

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾.
 يا محمد، ليتذكر به أهلُك، فارتقب العواقب ترَّ العجائب. إنهم يرتقبون، ولكن
 لا يرون إلا ما يكرهون^(٥).

(١) السندس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلون ألواناً والاستبرق: الديباج الغليظ
 أو ثياب من حرير وذهب (مع).

(٢) الآية (٥٥) لم ترد.

(٣) الآية (٥٣) لم ترد.

(٤) الآية (٥٩) لم ترد.

(٥) الآية (٥٧) لم ترد.

سورة البجائية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» باسم مَلِكٍ لا يستظهر بجيشه، أَحَدٍ لا يستمسك بعيشه، جبار ارتدى بكبريائه، قَهَّارٍ اتصف بعزِّ سنائه.

«بسم الله» باسم كريم صَمَدٍ، لا يستغرق وجوده أمد، أبدي عظيم أحد، لا يوجد من دونه مَقَرٌّ ولا ملتحذ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمْدٌ تَبِثُ الْأَكْثَرُ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿الْعَزِيزِ﴾: في جلاله، ﴿الْحَكِيمِ﴾: في أفعاله.

﴿الْعَزِيزِ﴾: في آزاله، ﴿الْحَكِيمِ﴾: في لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

شواهد الربوبية لائحة، وأدلة الإلهية واضحة؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة، ووضع سِرَّهُ في محال العبرة حَظِي - لا محالة - بحقائق الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إذا أنعم العبد نَظَرَهُ في استواء قَدِّه وقامته، واستكمال عقله وتامام تمييزه، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه، ثم فَكَّرَ فيما عداه من الدواب؛ في أجزائها وأعضائها. ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان ووجوه خصائص أهل الصفة من هذه الطائفة في فنون الإحسان - عَرَفَ تَخَصُّصَهُمَ بمناقبهم، وانفرادهم بفضائلهم، فاستيقن أن الله كَرَّمَهُم، وعلى كثير من المخلوقات قَدَمَهُم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَخْلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

جَعَلَ اللَّهُ العلوم الدينية كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل، مُحَقَّقةً بالشواهد. فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زُلَّتْ قَدَمُهُ عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم؛ فاليوم في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَمِائِي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ .
 فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَبِأَيِّ حَدِيثٍ يُؤْمِنُ؟ ومن أي أصل يستمد بعده؟ ومن أي بحرٍ
 في التحقيق يغترف؟ هيهات! ما بقي للإشكال في هذا مجال.
 قوله جل ذكره: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ مِمَّا بَيَّنَّتْ آيَاتُ اللَّهِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
 يَسْمَعْهَا فَبَيِّنْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

كل صامت ناطق، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم.
 فَمَنْ استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد فاز بذخر الدارين، وتصدى
 لِعِزِّ المنزلين. وَمَنْ تصامم بحكم الغفلة وقع في وهدة الجهل، ووُسم بكَيِّ الهجر.
 قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .
 قابله بالعناد، وتأولهُ على ما يقع له من وجوه المراد مِنْ دون تصحيح
 بإسناد... فهو لاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: مُذِلٌّ.

وقد يُكاشِفُ العبدُ من بواطن القلب بتعريفات لا يتداخله فيها ريبٌ، ولا
 يتخالجه منها شكٌ فيما هو به من حاله... فإذا استهان بها وقع في دُلِّ الحجة وهوانِ
 الفرقة.

قوله جل ذكره: ﴿مِن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

فعند هذه الفترة، وفي وقت هذه المحنة فلا عُذْرَ يُقْبَلُ منهم، ولا خطاب يُسْمَعُ
 عنهم، ولهم عذاب متصل، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف:

فَحُلْ سَبِيلَ الْعَيْنِ بِعَذَابِكَ لِلْبَكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوع^(١)

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

عندما يركبون البحرَ فلربما تَسَلَّمُ السفينةُ ولربما تفرق.

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي به رياح العناية،
 وأشرعة التوكل مرفوعة، والسُّبُلُ في بحر اليقين واضحة. وطالما تهب رياح السلامة
 فالسفينة ناجية. أمّا إن هبَّتْ نكباتِ الفتنة فعندئذٍ لا يبقى بيد الملاح شيء، والمقاديرُ
 غالبَةٌ، وسرعان ما تبلغ قلوبُ أهل السفينة الحناجرَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: كُلُّ مَا خَلَقَ مِنْ وَجْهِ الارتفاع بها - كُلُّهُ مِنْهُ سبحانه؛ فما من شيء من الأعيان الظاهرة إلا - ومن وجه - للإنسان به ارتفاع. . وكلها مِنْهُ سبحانه؛ فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد. . إلى غير ذلك. وَمِنْ الْعَبْدِ أَنْ يَسْتَخْرِكَ مَا هُوَ مُسَخَّرٌ لِّكَ! وَلَيْتَأَمَّلِ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ. . كيف إن كان خَلَقَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟! فَلَوْلَا الشَّمْسُ. . كيف كان يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي النَّهَارِ؟ وَلَمْ يَكُنِ اللَّيْلُ كَيْفَ كَانَ يَسْكُنُ بِاللَّيْلِ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْقَمَرُ. . كيف كان يَهْتَدِي إِلَى الْحِسَابِ وَالْأَجَالِ؟. . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

نَدَّبَهُمْ إِلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَجَمِيلِ الْعِشْرَةِ، وَالتَّجَاوُزِ عَنِ الْجَهْلِ، وَالتَّنْقِي مِنْ كَدُورَاتِ الْبَشَرِيَّةِ. وَمَقْتَضِيَاتِ الشُّحِّ.

وَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ - سبحانه - لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ، وَكَيْفَ يُدَمِّرُ أَعْدَاءَهُ. فَلْيَصْبِرْ أَيَّامًا قَلِيلًا لِّيَعْلَمَ كَيْفَ صَارَتْ عَوَاقِبُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ مَهْنَاهُ، وَمَنْ ارْتَكَبَ سَيِّئَةً قَاسَىٰ بِلَوَاهِ. . ثُمَّ مَرْجِعُهُ إِلَى مَوْلَاهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَفَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾.

كَرَّرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ذِكْرَ مُوسَىٰ وَذِكْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ. . بَعْضُهُ عَلَى الْحِمْلَةِ وَبَعْضُهُ عَلَى التَّفْصِيلِ. وَهَذَا أَجْمَلٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، ثُمَّ عَقِبَهُ حَدِيثُ نَبِيِّنَا ﷺ^(١)، فَقَالَ:

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَفْرَدْنَاكَ بِلَطَائِفِ فَاعْرِفْهَا، وَسَنَّا لَكَ طَرَائِقَ فَاسْلُكْهَا، وَأَثْبَتْنَا لَكَ حَقَائِقَ فَلَا تَتَجَاوَزْهَا، وَلَا تَجْنَحْ إِلَىٰ مُتَابَعَةِ غَيْرِكَ:

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْتَنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ .

إن أراد بك نعمة فلا يمنعها أحد، وإن أراد بك فتنة فلا يضر فيها عنك أحد .
فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى شيء، وثق بربك، وتوكل عليه .

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

أنوار البصيرة إذا تلالأت انكشفت دونها تهمة التجويز .

ونظر الناس على مراتب: فمن ناظر بنور نجومه - وهو صاحب عقل، ومن ناظر بنو فراسته وهو صاحب ظن يقويه لؤخ - ولكنه من وراء السر^(١)، ومن ناظر بيقين علم بحكم برهان وشرط فكير، ومن ناظر بعين إيمان بوصف اتباع، ومن ناظر بنور بصيرة هو على نهار، وشمسه طالعة وسماؤه من السحاب مصحبة .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

أمن خفضناه في حضيض الضعة كمن رفعناه إلى أعالي المنعة؟

أمن أخذنا بيده ورحمناه كمن داسه الخذلان فرجمناه؟

أمن وهبناه بسط وقت وأنس حال وروح لطف حتى خصصناه ورقيناه، ثم قرَّبناه وأذنيناه كمن ترك جذه واستفراغ وسعه وإسبال دفعه واحتراق قلبه . . فما أنعشناه^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ

وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَنَبَةً﴾ .

من لم يسلك سبيل الاتباع، ولم يستوف أحكام الرياضة، ولم يتسلخ عن هواه بالكلية، ولم يؤذبه إمام مقتدى فهو ينجر في كل هذبة، ويهيم في كل ضلالة، ويضل في كل فج، خسارته أكثر من ربحه!! أولئك في ضلال بعيد؛ يعملون القرب على ما يقع لهم من نشاط نفوسهم، زمامهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر . . استدرجوا وما يشعرون!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيًّا وَمَا يَلْهِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ

مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

لم يعتبروا بما وجدوا عليه خلقهم وسلفهم، وأزجوا في البهيمية عيشهم

(١) انظر حاشيت القشيري عن الفراسة برسائله ص ٢٣١ - ٢٤١ .

(٢) الآية (٢٢) لم ترد .

وَعُمِّرْهُمْ، وَأَعْفُوا عَنْ كَذِّ الْفِكْرَةِ قُلُوبِهِمْ... فلا بالعلم استبصروا، ولا من التحقيق استمدوا. رأس ما ليهم الظن - وهم غافلون.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِهْ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

طلبوا إحياء موتاهم، وسوف يرون ما استبعدوا.

ثم أخبر أن مُلْكَ السموات والأرض لله، وإذا أقام القيامة يُخَشِّرُ أصحابَ البطلان، فإذا جاءهم يومُ الخصام:

﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئُهُ كُلُّ أَتَمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كل بحسابه مطالب... فأما الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا، وأما الذين كفروا فهلكوا وبادوا. . . ويقال لهم: أنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقباكم كذبتُم مولاكم؟ فاليوم - كما نسيتمونا - ننساكم، والنارُ مأواكم^(١):

قوله جل ذكره: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لله الحمد على ما يُبدي ويُنشئ، ويحيي ويُفني، ويُجري ويُمضي... إذ الحكم لله، والكبرياء لله، والعظمة والسَّناء لله، والرفعة والبهاء لله.

(١) الآيات من (٢٩ حتى ٣٥) لم ترد.

سورة الأحقاف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة للقلوب سالبة، للعقول غالبة، للمطيعين واهبة، للعارفين ناهبة.. فالذين يهبهم لطفه، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقَهُ فهو عنه خَلَقَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَمَّ تَزِيلُ الْكَتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

حَمَيْتُ قلوب أهل عنايةي فَصَرَفْتُ عنها خواطر التجويز، وَثَبَّتُها في مشاهد اليقين بنور التحقيق؛ فلاحَت فيها شواهد البرهان، فأَضَفْنَا إليها لطائف الإحسان؛ فَكَمَّلْنا مثالها من عين الوصلة، وغذيناهام بنسيم الأُنس في ساحات القرية.

﴿الْعَزِيزِ﴾: الْمُعَزُّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم.

﴿الْعَلِيمِ﴾، الْمُخَيَّم لكتابه عن التبديل والتحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾.

الكافرون مُعْرِضُونَ عن موضع الإنذار، مقيمون على حَدِّ الإصرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَنَا بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أروني.. أي أثّر فيهم في الملك، أو القدرة على النفع والضرر؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فَأَظْهِرُوها، أو دلالة فَبَيِّنُوها.. وإذا قد عَجَزْتُمْ عن ذلك فهَلَّا رَجَعْتُمْ عن غيكم وأقلعتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ دَعْوَانَا وَمَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

مَنْ أَشَدُّ ضَلَالاً مِمَّنْ عَبَدَ الْجَمَادَ الذي ليس له حياة ولا له في النفع أو الضرر إثبات؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوة بين الأصنام وعابديها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

رموا رُسُلَنَا بالسُّحَرِ ثم بالافتراء والمكر... قُلْ - يا محمد - كفى بالله بيني وبينكم شهيداً؛ أنتم أشركتم به، وأنا أخلصت له توحيداً. وما كنت بدعاً من الرسل؛ فليست بأول رسول أُرسِل، ولا بغير ما جاءوا به من أصول التوحيد جئت، إنما أمرتكم بالإخلاص في التوحيد، والصدق في العبودية، والدعاء إلى محاسن الأخلاق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وفي الآية دليل على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا: «إيلام البري» قبيح في العقل». لأنه لو لم يَجْزُ ذلك لكان يقول: «أَعْلَمُ - قطعاً - أنني رسول الله، وأني معصوم... فلا محالة يغفر لي، ولكنه قال: وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم؛ لِيُعْلَمَ أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

تبَيَّنَ له أنه لا عُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبة الله. وما يستروحون إليه من حُجَجِهِمْ عند أنفسهم كلها - في التحقيق - باطل. وأخبر أن الكفار قالوا: لو كان هذا الذي يقوله من الحشر والنشر حق لم تتقاصر رتبنا عند الله عن رتبة أحد، ولتَقَدَّمنا - في الاستحقاق - على الكل. ولما لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرّحوا: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ولقد بَعَثَ اللَّهُ أنبياءه - عليهم السلام - وأنزل عليهم الكتب، وبيّن في كل كتاب، وعلى لسان كل رسول بأنه يبعث محمداً رسولاً، ولكن القوم الذين في عصر نبينا ﷺ - كتموه، وحسدوه^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. مضى تفسير الاستقامة. وإن من خرج على الإيمان والاستقامة حَظِي بكل كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة.

(٢) الآية (١٢) لم ترد.

(١) الآية (٨) لم ترد.

وقيل: السين في «الاستقامة» سين الطَّلَب؛ وإن المستقيم هو الذي يتהל إلى الله تعالى في أن يُقيمَه على الحق، ويثبتَه على الصدق^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

أَمَرَ الإنسان برعاية حق والديه على جهة الاحترام، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يُحسِن الإنسان حُرْمَةً مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد. ولو لم يكن في هذا الباب إلا قوله - ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»^(٢) لكان ذلك كافياً. ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام. وَوَعَدَ اللَّهُ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جل ذكره:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا بِوَعْدُونَ﴾.

فقبول الطاعة وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين. وقد ذمَّ الله - سبحانه - الذي يتصف في حقهما بالتأقُّف، وفي ذلك تنبيهٌ على ما وراء ذلك من أي تعتُف، وعلى أنَّ الذي يَسْلُكُ ذلك يَكُونُ من أهل الخسران، وبالتالي يكون ناقصَ الإيمان.

وسبيلُ العبد في رعاية حق الوالدين أن يُضْلِحَ ما بينه وبين الله، فحينئذٍ يَصْلُحُ ما بينه وبين غيره - على العموم، وأهله - على الخصوص.

وشرُّ خصال الولد في رعاية حق والديه أن يتبرَّم بطول حياتهما، ويتأذى بما يحفظ من حقهما. وعن قريب يموت الأصل ويبقى النسل، ولا بدُّ من أن يتبع النسل الأصل، وقد قالوا في هذا المعنى:

رويدك إن الدهرَ فيه كفايةً لتفريق ذات البين. . فانتظر الدهرا^(٣)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طَائِفَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْمَعْتُمْ بِهَا فَأَيُّومَ تُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾. سبيلُ العبد ألا ينسى في كل حالٍ معبوده، وأن يتذكر أنه معه في همه وسروره،

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ١٨٩٩)، والحاكم في (المستدرک ٤/ ١٥٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٣٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥٢٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٨٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢٢).

(٣) الآيات (١٧، ١٨، ١٩) لم ترد.

وفي مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أَنَّ حَصَلَ لَهُ أَنَسٌ ، وَعَلَبَ عَلَيْهِ رَجَاءٌ وَبَسَطَ
ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أَوْ مَسَهُ خَوْفٌ . . فليخاطب ربّه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ
قيل له : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طِينَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَذْكُرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ^(١) وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَبَدُّوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أخبر ^(٢) بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجّه
عليهم من العتاب ، وأخذهم باليم العذاب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ فِيهِ ﴾ .

فلم يُعْنِ عنهم ما آتيناهم . . وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ .

كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى الجنّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً أتوه
ليلة الجن وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ؛ فاليوم في الجن
مؤمنون ، وفيهم كافرون .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ الصبيحة على الباب وفوق البساط غيبة ؛ ولهذا لما
حضر الجنّ بساط خدمته - ﷺ - تواصلوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا
بساطه : ﴿ أَنْصِتُوا ﴾ ، فاهل الحضور صفتهم الذبول والسكون ، والهيبة والوقار . والثوران
أو الإنزعاج يدل على غيبة أو قلة تيقظ أو نقصان اطلاع . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ يعني الوحي
﴿ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وأخبروهم بما رأوه وسمعوه ^(٣) .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَفْقَوْمَنَا آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِنْ
عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

يقال الإجابة على ضربين : إجابة لله ، وإجابة للداعي ؛ فإجابة الداعي بشهود
الوساطة - وهو الرسول ﷺ - . وإجابة الله بالجهر إذا بلغت الرسالة على لسان السفير ،
وبالسّر إذا حصلت التعريفات من الواردات على القلب ؛ فمستجيب بنفسه ومستجيب

(١) الأحقاف (ج) الحقف : من الرمل المعوج . وقيل : الأحقاف : ديار عاد وقيل : واحدها حقف وهو
المستطيل المشرف . وقيل : الأحقاف في القرآن : جبل محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء تلتهب يوم
القيامة فتحشر الناس من كل أفق . (اللسان ٥٢ / ٩ مادة : حقف) .

(٢) الآيات من (٢٢ حتى ٢٨) لم ترد .

(٣) الآية (٣٠) لم ترد .

بقلبه ومستجيب بروحه ومستجيب بسرّه . ومن توقف عن دعاء الداعي إياه ، ولم يبادر بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به ^(١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَفْقَدِرُ عَلَى أَنْ يَخْتِىَ الْمَوْتُ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الرؤية هنا بمعنى العلم .

﴿وَلَمْ يَكُنْ يَفْقَدِرُ﴾ أي ولم يعجز ولم يضعف .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة :

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ هَذَا بِآلِ الْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ .

جزاء لكم على كفركم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبر هو الوقوف لحكم الله ، والثبات من غير بث ولا استكراه .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ .

ويقال مُدَّةُ الخلق : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتهى آجالهم بالإضافة إلى الأزلية كـلحظة بل هي أقل ؛ إذ الأزل لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأي خطرٍ لما حصل في لحظة . . خيراً كان أو شراً ؟!

سورة محمد ﷺ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

مَنْ ذَكَرَ «بِسْمِ اللَّهِ» جَلَّتْ رُتْبَتُهُ، وَمَنْ عَرَفَ «بِسْمِ اللَّهِ» صَفَتْ حَالَتُهُ، وَمَنْ أَحَبَّ «بِسْمِ اللَّهِ» أَشْلَكَتْ قِصَّتُهُ، وَمَنْ صَجِبَ «بِسْمِ اللَّهِ» امْتَحَنَتْ أَثْنَتُهُ، وَتَلَّاسَتْ - بِالْكَلِيَّةِ - جُمْلَتُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: امتنعوا، وَصَدُّوا فَمَنَعُوا؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحُكْمَ والغِيبةَ.

﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾: أي أحبطها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما نُزِّلَ على محمد، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أصلح حالهم، فالكفرُ للأعمالِ مُخِطٌ، والإيمانُ للتخليدِ مُسْقِطٌ.

ويقال: الذين اشتغلوا بطاعةِ اللَّهِ، ولم يعملوا شيئاً ما خَالَفَ اللَّهَ - فلا محالة - نقوم بكفاية اشتغالهم بالله.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

أي يضرب أمثال هؤلاء لحسانتهم، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم.

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقةِ السُّنَّةِ، ورعايةِ حقوقِ اللَّهِ، وإيثارِ رضاه، والقيام بطاعته ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداعِ، والعملِ بالهوى، وإيثارِ الحُظُوظِ، وارتكابِ المعصية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَضَرْتُ لِرِيقَابِهِمْ حَتَّى إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَتُدُّوا لَوْنًا فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقَهَا﴾.

إذا حَصَلَ الظُّفْرُ بالعدوِّ فالعفو عنهم وَتَرَكَ المبالغةَ في التشديد عليهم - للندم مُوجِبٌ، وللفرصةِ تضييعٍ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسهم، واستئصالُ أصولهم، واقتلاعُ شَجَرِهِمْ من أصله.

وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يُبقي بعد انتفاش شوكة بقية من الحياة، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّ سُمُّها فيه .

﴿إِنَّمَا مَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطة أو فائدة؛ مثل إفراج الكفار عن قوم من المسلمين، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء . . وأمثال هذا، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام .

كذلك حال المجاهدة مع النفس : حيث يكون في إغفاء ساعة أو في إفطار يوم ترويح للنفس من الكد، وتقوية على الجهد فيما يستقبل من الأمر - فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصواب من شيخ المرید، أو فتوى لسان الوقت، أو فِرَاسة صاحب المجاهدة .

قوله جل ذكره: ﴿قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ يُضِلَّ أَعْمَالُكُمْ سَيُذِلِّكُمْ وَيَضْلِكُمْ بِالْمَمِّ وَيَدْخِلُهُمُ ابْتِنَةً عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ .

إذا قُتِلَ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ تَوَلَّى وَرَثَةُ الْمَقْتُولِ بِأَحْسَنَ مِنْ تَوَلِيَةِ الْمَقْتُولِ .
وكذلك يَرْفَعُ دَرَجَاتِهِ ؛ فَيُعْظِمُ ثَوَابَهُ ، وَيُكْرِمُ مَأْبَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنْصِرْكُمْ وَيُغْنِيَ أَعْدَاءَكُمْ﴾ .
نصرة الله من العبد نصرة دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعداء الدين ببركات سعيه وهمتيه .
﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بإدامة التوفيق لئلا ينهزم من ضولة أعداء الدين .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاضُلٌ ءَعْمَلُهمُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاقْبَضُ عَنْهُمُ﴾ .

تَعَسَا لَهُمْ : لعنا وطردنا، وقمنا وبُعدنا!

﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ : هَتَكَ أَسْرَارَهُمْ، وَأَظْهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَسْرَارَهُمْ، وَأَخْمدَ نَارَهُمْ .
قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقامهم؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ .

المولى هنا بمعنى الناصر؛ فالله ناصر للذين آمنوا، وأما الكافرون فلا ناصر لهم .

أو المولى من الموالاة وهي ضد المعاداة، فيكون بمعنى المحب؛ فهو مولى الذين آمنوا أي مُحِبُّهم، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويصح أن يقال إن هذه أرجى آية في القرآن؛ ذلك بأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: مولى الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد؛ فالمؤمن - وإن كان عاصياً - من جملة الذين آمنوا، (لا سيما و «آمنوا» فعل، والفعل لا عموم له). قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

مضى الكلام في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

الأنعام تأكل من أي موضع بلا تمييز، وكذلك الكافر لا تمييز له بين الحلال والحرام. [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل، وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء»^(١). أما المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بُد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»^(٢) و «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٣).

ويقال: الأنعام تأكل على الغفلة؛ فَمَنْ كان في حال أكله ناسياً ربّه فأكله كأكل الأنعام.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: يعني بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية في الأعصر الخالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَى يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

«البيّنة»: الضياء والحُجّة، والاستبصار بواضح المحجة: فالعلماء في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياء بيانهم؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُنصرون، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون.

(١) أخرجه الموطأ (صفة النبي ٩، ١٠)، وأحمد بن حنبل ٢/٢١، ٤٣، ٧٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (أطعمة ٥٠)، والترمذي (زهد ٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٨٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١٣٢)، والدارمي في (السنن ٢١٣)، والزيدي في (تحاف السادة المتقين ٧/٣٨٧)، والقاضي عياض في (الشفاء ١/١٨٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٨٨، ١٣/٢٤٨)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢٧٨)، وابن الجوزي في (تلييس إبليس ٢١٤).

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

كذلك اليوم شأن الأولياء، فلهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب حال اللقاء.

ولكل من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه شكر وصحو؛ فمن تحسنى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد في أيام غيبته من أحبابه:

وما سرّ صدري منذ شطّ بك النوى أنيس ولا كأس ولا متصرف
ومن شرب كأس الصفاء خلص له عن كل شوب، فلا كدورة في عهده، وهو في كل وقت صافٍ عن نفسه، خالٍ من مطالباته، قائم بلا شغل - في الدنيا والآخرة - ولا أرب.

ومن شرب كأس الولاء عديم فيه القرار، ولم يغيب بسرّه لحظة في ليل أو نهار. ومن شرب في حال اللقاء أنس على الدوام ببقائه؛ فلم يطلب - مع بقاءه - شيئاً آخر من عطائه؛ لاستهلاكه في علاته عند سطوات كبرائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل الله؛ لما فيه من افتضاجهم.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

﴿اهْتَدَوْا﴾: بأنواع المجاهدات، «فزادهم هدى»: بأنوار المشاهدات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بتأمل البرهان، «فزادهم هدى»: بزوح البيان.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بعلم اليقين، «فزادهم هدى»: بحق اليقين.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بآداب المناجاة، «فزادهم هدى»: بالنجاة ورفع الدرجات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: إلى ما فيه من الحق ولم يختلفوا في أنه الحق، «فزادهم هدى»

بالاستقامة على طرق الحق.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

كان عالماً بأنه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فأمره بالثبات عليها؛ قال (ص): «أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له»^(١).

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣١/٨، ١٢٠/٩)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/١٢٢، ١٨١)، والرافعي في (المفني عن حمل الأسفار ٤/١٥٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥١٣).

ويقال: كيف قيل له: ﴿... فَأَعْلَزَ﴾ ولم يقل: عَلِمْتُ، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسْلِمْتَ﴾ [البقرة: ١٣١] فقال: «سلمت...»؟ فُجَابَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا قَالَ: «اسلمت» ابْتَلِيَ، وَنَبِيُّنَا ﷺ لم يقل: علمت فعُوفِيَ.

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَهُ شَرَعَ كَشَفَ سِرَّهُ، وَنَبِيُّنَا ﷺ لم يأتِ بَعْدَهُ شَرَعَ. ويقال: نَبِيُّنَا ﷺ أخبر الحقُّ عنه بقوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] والإيمان هو العلم - وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَتَمَّ من إخباره بنفسه عن نفسه: «عَلِمْتُ».

ويقال: فرق بين موسى عليه السلام لَمَّا احتاج إلى زيادة العلم فأَحِيلَ على الخضر، وَنَبِيُّنَا ﷺ قال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]... فكَمَ بَيْنَ مَنْ أُحِيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وَبَيْنَ مَنْ أَمَرَ باستزادة العلم من الحق!!

ويقال لَمَّا قال له: ﴿فَأَعْلَزَ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق، ثم بالانقطاع منه - أي من الرسول - إليه... أي إلى الحق سبحانه. والعبد إذا قال هذه الكلمة على سبيل العادة والغفلة عن الحقيقة - أي كان بصفة النسيان - فليس لقوله كثير قيمة؛ كَأَن تُقَالَ عند التعجب من شيء... فليس لهذا قَدْرًا. أَمَّا إِذَا قالها مخلصاً فيها، ذاكرةً لمعناها، متحققاً بحقيقتها... فَإِنَّ كَانَ بِنَفْسِهِ فهو في وطن التفرقة... وعندهم هذا من الشُرْكِ الخَفِيِّ، وإن قالها بحق فهو الإخلاص. فالعبد يعلم أولاً رَبَّهُ بِدَلِيلٍ وَحُجَّةٍ؛ فَعِلْمُهُ بِنَفْسِهِ كَسْبِيٌّ... وهو أصل الأصول، وعليه ينبنى كل علم استدلالِيٍّ ثم تزداد قوَّةُ علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج، ويتناقص علمه بنفسه لَغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب. فإذا انتهى إلى حال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ في تلك الحالة ضرورياً. ويقلُّ إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالِيٍّ وكأنه غافلٌ عن نفسه أو ناسٍ لنفسه.

ويقال: الذي على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساسَ له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾: أي إذا عَلِمْتَ أَنَّكَ علمت فاستغفِرْ لذنبك من هذا؛ فإن الحقَّ - على جلال قدره - لا يعلمه غيره.

(١) استفاد القشيري هنا من الدقائق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قال في رسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجود يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم جمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود. (الرسالة القشيرية ص ٦٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ...﴾.

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة فقال تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ رأيت المنافقين يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم من القتال، فكانوا يفتضحون عندئذ، وكانوا ينظرون إلى النبي ﷺ - بغاية الكراهة.

﴿... فَأَوَّلَى لَهُمْ﴾.

تهديد.

قوله جل ذكره: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾.

وهو قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾.

ويقال: فأولى لهم طاعة منهم لله ولرسوله. ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ بالإجابة لما أمروا به عن الجهاد.

ويقال: طاعة وقول معروف أمثل بهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

إذا عزم الأمر - أي جدّ وفُرض القتال - فالصدق والإجابة خير لهم من كذبهم ونفاقهم وتقاعدهم من الجهاد.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

أي فلعلمكم إن أعرضتم عن الإيمان - بمحمد ﷺ - ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض، وتسفكوا الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامكم، وتعودوا إلى جاهليتكم.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾.

أصمهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم، وأعمى بصائرهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

أي إن تدبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحير.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: أقفل الحق على قلوب الكفار فلا يداخلها زاجر التنبيه،

ولا ينبسط عليها شعاع العلم، فلا يحصل لهم فهم الخطاب؛ فالباب إذا كان مقفلاً... فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج منه شيء؛ كذلك قلوب الكفار مقفلة، فلا الكفر الذي فيها يخرج، ولا الإيمان الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم.

وأهل الشرك والكفر قد سُدتْ بصائرهم وغطيت أسرارهم، ولُبس عليهم وجه التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الذي يطلع فجر قلبه، ويتلأل نور التوحيد فيه، ثم قبل متوع نهار إيمانه انكسفت شمس يومه، وأظلم نهار عرفانه، ودجا ليل شكه، وغابت نجوم عقله... فحدث عن ظلماته...! ولا حرج!

ذلك جزاؤهم على ممالأتهم مع المنافقين، وتظاهرهم... فإذا تَوَقَّعْتُمُ الْمَلَائِكَةَ تتصل آلامهم، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ﴾.

ليس الأمر كما تَوَهَّموه، بل الله يفضحهم ويكشف تليستهم، ولقد أخبر الرسول عنهم، وعرفه أعيانهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَقَرَفْنَاهُمْ بِسَبْعٍ وَنَعْرِفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

أي في معنى الخطاب، فالأسيرة تذل على السريرة، وما يخامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره:

لست ممن ليس يدري ما هو من كرامة

إن للحب وللغضب على الوجه علامة

والمؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارف ينظر بنور التحقيق، والموحد ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء.

ويقال: بصائر الصديقين غير مغطاة، قال رسول الله ﷺ: «سدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص، ويفتضح الماذق، وينكشف المنافق، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا، والذين كفروا وناققوا وقعوا في الهوان وأذلوا، ووسموا بالشقاوة وقطعوا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

(١) الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨) لم ترد.

(٢) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ١٢/١٣٦).

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ : بالرياء والإعجاب والملاحظة .

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ : بالمساكنة إليها . ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بطلب الأعواض عليها .

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ .

أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلىون بالحجة .

أنتم الأعلىون بالنصرة . قوله : ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ . أي بالنصرة ويقال : لا تضعفوا

بقلوبكم ، وقوموا بالله ؛ لأنكم - والله معكم - لا يخفى عليه شيء منكم ، فهو على الدوام يراكم . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ سَيِّدَهُ يَرَاهُ يَتَحَمَّلُ كُلَّ مُشْتَغَلٍ بِرُؤْيَيْهِ :

﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ .

أي لا ينقصكم أجر أعمالكم .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّمَا لِلْيَتِيمِ الدُّنْيَا لَمَبٌ وَلَهُوَ الْوَلَدُ وَإِنْ ظُفِرُوا لَيُؤْذِيكُمْ أَرْجُؤُكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ .

تجنبوا الشرك والمعاصي حتى يفيكم أجوركم .

والله لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة .

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنْهَا فَيُخْرِجْكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُذُوا أَصْفَانَكُمْ﴾ .

«الإحفاء» الإلحاح في المسألة . . . وهذا إنما يقوله لمن لم يوق شح نفسه ، فأما

الإخوان وَمَنْ عَلَتْ رَتْبُهُمْ فِي بَابِ حَرِيَةِ الْقَلْبِ فَلَا يُسَامِحُونَ فِي اسْتِيفَاءِ ذَرَّةٍ ، وَيُطَالِبُونَ بِذَلِّ الرُّوحِ ، والتزام الغرامات .

قوله جل ذكره : ﴿هَآئِنْتَ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ

وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ .

البخل مثنى الواجب ، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه . لأنه لو لم يفعل ذلك لَحَصَلَ له الثراء - هكذا يظن .

قوله جل ذكره : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ .

«غني» بنفسه على قول ، وغني بوصفه على القول الثاني . وغناه كونه لا تنقيد

مراداته . أما البعد فهو فقير بنفسه ؛ لأنه لا يستغني عن مولاه ؛ في الابتداء منذ خلقه إلى الانتهاء ، وهو في دوام الأوقات مفتقر إلى مولاه .

والفَقِيرُ الصَادِقُ مَنْ يَشْهَدُ افْتِقَارَهُ إِلَى اللَّهِ . وَصِدْقُ الْفَقِيرِ فِي شُهُودِ فَقْرِهِ إِلَى اللَّهِ . وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى اللَّهِ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ ، وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَقَعَ فِي الدُّلِّ وَالْهَوَانِ .

ويقال : اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَحْمَتِهِ .

ويقال : اللَّهُ غَنِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ لِأَنْكُمْ لَا بَدِيلَ لَكُمْ عَنْهُ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ .

يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ يَكُونُونَ أَشَدَّ مِنْكُمْ طَاعَةً ، وَأَصْدَقَ مِنْكُمْ وِفَاءً ؛ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ أَمْثَالِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَالَكُمْ فِي الْعَصْيَانِ وَالْإِعْرَاضِ وَتَرْكِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ . . . بَلْ سَيَكُونُونَ خَيْرًا مِنْكُمْ .

سورة الفتح

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» تشير إلى سُمُوهُ في أَرْزِلِهِ، وَعُلُوُّهُ في أَبْدِهِ؛ وَسُمُوهُ في أَرْزِلِهِ نَفْيُ البداية عنه بحقّ الْقِدَمِ، وَعُلُوُّهُ في أَبْدِهِ نَفْيُ الانتهاء عنه باستحالة الْعَدَمِ؛ فمعرفة سُمُوهُ تَوْجِبُ للعبد سُمُوًا، ومعرفة عُلُوُّهُ تَوْجِبُ للعبد عُلُوًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

قضينا لك قضاءً بَيِّنًا، وحكمنا لك بتقوية دين الإسلام، والنصرة على عدوك، وأكرمناك بفتح ما انغلق على قلب مَنْ هو غيرك - مِنْ قَبْلِكَ - بتفصيل شرائع الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه.

نزلت الآية في فتح مكة، ويقال في فتح الحُدَيْبِيَّة^(١).

ويقال: هديناك إلى شرائع الإسلام، وَبَسَّرْنَا لك أمور الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

كلا القسمين - المتقدم والمتأخر - كان قبل النبوة.

ويقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ من ذَنْبِ آدَمَ بِحُرْمَتِكَ، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: من ذنوب أُمَّتِكَ.

وإذا حُمِلَ على ترك الأولى فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك، قبل النبوة وبعدها.

ولما نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك! فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. . . ويقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿وَيُتَنَزَّلُ الْمَغْشَى عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

يتم نعمته عليك بالنبوة، وبوفاء العاقبة، وببسط الشريعة، وبشفاعته لأمته، وبرؤية الله غداً، وبإظهار دينه على الأديان، وبأنه سيد ولد آدم، وبأنه أقسم بحياته، وخصه بالعيان. وبسماع كلامه سبحانه ليلة المعراج، وبأن بَعَثَهُ إلى سائر الأمم. . . وغير ذلك من مناقبه.

(١) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. (معجم البلدان ٢/٢٢٩).

﴿وَيَهْدِيكَ رَبُّكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هدايةً على هداية، ويهدي بك الخلق إلى الحق.

ويقال: يهديك صراطاً مستقيماً بترك خطك.

﴿وَنَصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

لا ذل فيه، وتكون غالباً لا يغلبك أحد:

ويقال: ينصرك على هواك ونفسيك، وينصرك بحسن خلقك ومقاساة الأذى من قومك.

ويقال نصراً عزيزاً: مُعزّزاً لك ولمن آمن بك.

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوه من الأفضال أكرم بها نبيّه - ﷺ - وخصّه بها من الفتح والظفر على النفس والعدو، وتيسير ما انغلق على غيره، والمغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة. . . ولكل من هذه الأشياء خصائص عظيمة.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

السكينة ما يسكن إليه القلب من البصائر والحُجج، فيرتقي القلب بوجودها عن حدّ الفكرة إلى رُوح اليقين وتلج الفؤاد، فتصير العلوم ضرورية. . . وهذا للخواص.

فأما عوام المسلمين فالمراد منها: السكون والطمأنينة واليقين.

ويقال: من أوصاف القلب في اليقين المعارف والبصائر والسكينة.

وفي التفاسير: السكينة ريح هفافة. وقالوا: لها وجه كوجه الإنسان. وقيل لها جناحان.

﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم. تطلع أقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين، ثم تطلع شمس حق اليقين على بدر عين اليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقيل: هي جميع القلوب الدالة على وحدانية الله.

ويقال: ملوك السموات والأرض وما به من قوى تقهر أعداء الله.

ويقال: هم أنصار دينه.

ويقال: ما سلطه الحق على شيء فهو من جنوده، سواء سلطه على وليه في الشدة والرخاء، أو سلطه على عدوه في الراحة والبلاء.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُنْزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾.

يَسْتُرْ ذُنُوبَهُمْ وَيَحِطُّهَا عَنْهُمْ . . . وذلك فوراً عظيم ، وهو الظفرُ بالبغية .
 وسؤال كلِّ أحدٍ ومأمولُهُ ، ومُبْتَغاه ومقصودُهُ مختلفٌ . . . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفَرًا به .
 قوله جلَّ ذكره : ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ
 ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ ذَايَرَةُ السَّوْءِ﴾ .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .
 و ﴿ظَلَمَ السَّوْءُ﴾ : هو ما كان بغير الإذن ؛ ظنوا أَنَّ الله لا ينصر دينَهُ وَنَبِيَّه عليه السلام .

﴿عَلَيْهِمْ ذَايَرَةُ السَّوْءِ﴾ : عاقبته تدور عليهم وتحقيق بهم .
 ﴿وَالْعَنَافَةُ﴾ : أبعدهم عن فضله ، وحققت فيهم كلمته ، وما سبقت لهم - من الله سبحانه - قِسْمَتُهُ ^(١) .

قوله جلَّ ذكره : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ .
 ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ : على أُمَّتِكَ يوم القيامة . ويقال : شاهداً على الرُّسُلِ والكتب .

ويقال : شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال : شاهداً لأمتك بتوحيدينا .
 ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ : لهم ميثاً بالشواب ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ للخلق ؛ زاجراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات .

ويقال : شاهداً مِنْ قِبَلِنَا ، وَمُبَشِّرًا بأمرنا ، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا وميثاً .
 قوله جلَّ ذكره : ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
 وَأَصِيلًا﴾ .

قرىء : «ليؤمنوا» بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أي ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أي الرسول ، ويوقروه : أي : يُعَظِّمُوا الرسولَ . وتُسَبِّحُوهُ : أي تُسَبِّحُوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً ^(٢) .

وقرىء : «لتؤمنوا» - بالتاء - أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعَزِّرُوهُ - على المخاطبة . وتعزيره يكون بإيثاره بكلِّ وجه على نفسه ، وتقدير حُكْمِهِ على حُكْمِكَ . وتوقيره يكون باتِّباع سُنَّتِهِ ، والعلم بأنه سيُذَرِّيَّتُهُ .

(١) الآية (٧) لم ترد .

(٢) البكرة : الغدوة وهي أول النهار إلى طلوع الشمس .
 الأصيل : الوقت حين تصفر الشمس لمغربها .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمرة^(١).

وذلك أن رسول الله - ﷺ - بعث عثمان رضي الله عنه إلى قريش ليُكَلِّمَهُمْ فأرجفوا بقتله. وأتى عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال:

جئت بأوشاب الناس لتفرض بيضتك بيدك، وقد استعدت قريش لقتالك، وكأني بأصحابك قد انكشفوا عنك إذا مسهم حر السلاح! فقال أبو بكر: أنظن أنا نسلم رسول الله ﷺ؟

فبايعهم النبي ﷺ على أن يُقاتِلُوا وألا يهربوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: أي عقدك عليهم هو عقد الله.

قوله جل ذكره: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي ﴿يَدُ اللَّهِ﴾: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالوفاء حين بايعوك.

ويقال: قدرة الله وقوته في نصرته دينه ونصرة نبيه ﷺ فوق نصرهم لدين الله ولرسوله.

وفي هذه الآية تصريح بعين الجمع كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

أي عذاب النكث عائد عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً.

وإذا كان العبد بوصف إخلاصه، يعامل الله في شيء هو به متحقق، وله بقلبه شاهد فإن الوسائط التي تظهرها أمارات التعريفات تجعله محوياً في أسرارِهِ. . والحكم عندئذ راجع.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

لما قصد رسول الله ﷺ التوجه إلى الحديبية تخلف قوم من الأعراب عنه. قيل: هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع، وقالوا: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وليس لنا من يقوم

(١) السمرة: هي الشجرة (شجرة طلع) التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية. (اللسان ٤/ ٣٧٩ مادة: سمر).

بشأننا وقالوا: انتظروا ماذا يكون؛ فما هم من قريش إلا أَكَلَهُ رَأْسُ. فلما رجع رسول الله ﷺ جاءوه مُعْتَذِرِينَ بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمرهم! وقالوا: استغفر لنا.

فأطلعهم الله - سبحانه - على كذبهم ونفاقهم؛ وأنهم لا يقولون ذلك إخلاصاً، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

فَضَحَهُمْ. ويقال: ما شغل العبد عن الله شُؤْمٌ عليه.

ويقال: عَذْرُ المَآذِقِ وتوبةُ المنافق كلاهما ليس حقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبَّتْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَرْبَ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

حسبتم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون من هذه السفرة إلى أهلهم أبداً، وزُيِّنَتْ لكم الأمانى ألا يعودوا، وأن الله لن ينصرهم. ﴿وَكَُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين.

ويقال: إِنَّ العدو إذا لم يقدر أن يكيّد بيده يتمنى ما تنقاصر عنه مُكْنَتُهُ، وتلك صفة كل عاجز، ونعت كل لئيم. ثم إن الله - سبحانه - يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقب الله بها المُبْطِلُ أَنْ يتصوّر شيئاً يتمناه ويوطّن نفسه عليه لفرط جهله. ويلقى الحق في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسه أن ذلك كالكائن... ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وما هو آتٍ فقريب... وإن الله ليرخي عنانَ الظلمة ثم لا يفلتون من عقابه. وكيف - وفي الحقيقة - ما يحصل منهم هو الذي يجريه عليهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَغَيَّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يغفر - وليس له شريك يقول له: لا تفعل، ويعذب من يشاء - وليس هناك مانع عن فعله يقول له: لا تفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَقَانِرَ لِنَأْخُذْهَا دَرُونَا نَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾.

وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم الله خيبر، وأن فيها سيطفر بأعدائه، فلما هم بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة، فقال النبي ﷺ: «إنما يخرج معي إلى خيبر من خرج إلى الحديبية، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا».

فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حسداً لنا؛ وليس هذا من قول الله! فأنزل الله تعالى ذلك لتكذيبهم، وليبان حكمه ألا يستصحبهم فهم أهل طمع، وكانت عاقبتهم أنهم لم يجدوا مرادهم ورذوا بالمذلة وافضح أمرهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

جاء في التفاسير أنهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة^(١) - وقد دعاهم أبو بكر وحاربه، فالآية تدل على إمامته. وقيل هم أهل فارس - وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربه، فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر. ﴿أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أولى شدة. فإن أطعتم استوجبتم الثواب، وإن تخلفتم استحققتهم العقاب. ودلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح - كما كان لهؤلاء وأنشدوا:

إذا فسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه فَرَجَ له عَوْدَ الصَّلاحِ . . لَعَلَّه

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ جَعْنَىٰ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

هؤلاء أصحاب الأعداء. . رفع عنهم الحرج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين.

وكذلك مَنْ كان له عذر في المجاهدة مع النفس. «فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»^(٢).

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٢٢٦/٧، وفي الكامل لابن الأثير ١٣٧/٢ - ١٤٠، وفي شذرات الذهب ٢٣/١، وفي الروض الأنف ٣٤٠/٢.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١٠٨/٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٤٠/٣)، والهيتمي في (موارد الظمآن ٥٤٥، ٩١٣، ٩١٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٩/٣)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٦٢/٣)، وابن خزيمة في (الصحيح ٩٥٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٠١/٢، ١٠٦/٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١٣٥/٢)، وابن كثير في (التفسير ٢٦/٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ١٩٣/١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢٨٩/٢) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣٤٧/١٠)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٨، ٥١٩٩، ٥٢٠٠) والمفتي الهندي في (كنز=

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

هذا بيعة الرضوان، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ... الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخول مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صائدين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرف هذا العام، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً^(١)) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمة حتى قال الصديق: لم يقل العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. فأنزل السكينة في قلوبهم، وثبتهم باليقين. ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغنم كثيرة من خيبر. وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة.

وفي الآية دليل على أنه قد تخطر ببال الإنسان خواطر مشككة، وفي الرّيب موقعة، ولكن لا عبرة بها؛ فإن الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيد قلبه، وقارن التحقيق سرّه فلا يضره كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْبَاقِي أَتَقْوَى إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ ويدخل في ذلك جميع ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجل لكم هذه - يعني خيبر، وقيل: الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ لما خرجوا من المدينة حرسهم الله، وحفظ عيالهم، وحمى بيضتهم حين هب اليهود في المدينة بعد خروج المسلمين، فمنعهم الله عنهم. أو يقال: كف أيدي الناس من أهل الحديبية.

﴿وَلَكُمْ كُونُ آيَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

لتكون هذه آية للمؤمنين وعلامة يستدلون بها على حراسة الله لهم.

= العمال ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٧٢، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخریج أحاديث الكشاف ١٣٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/١٧١٨، ٦/٢٣٦٣) والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٩٤)، والشهاب في (المسند ١٠٧٨، ١٠٧٩).

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: في التوكل على الله والثقة به .

ويقال: كف أيدي الناس عن العبد هو أن يزرقه من حيث لا يحتسب، لئلا يحتاج إلى أن يتكفف الناس .

ويقال: أن يزرق عنه أيدي الظلمة .

ويقال: ألا تحمله المطالبة بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه؛ فيأخذ من الأشياء - برخصة التأويل - ما ليس بطيب .

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَى لَرَّ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

قيل: فتح الروم وفارس . وقيل: فتح مكة .

وكان الله على كل شيء قديرًا: فلا تعلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

يعني: خير وأسد وغطفان وغيرهم - لو قاتلوكم لانهزموا، ولا يجدون من دون الله ناصرًا .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

أي سنة الله خذلائهم ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَلْيَىٰ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَانِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ .

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل الله هذه الآية في شأنهم .

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين - بلا عهد - فمن عليهم الرسول ﷺ وقيل: هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين، وحصل ترامي الأحجار بينهم؛ فاضطروهم المسلمون إلى بيوتهم، فأنزل الله هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا من عجز؛ فأما الكفار فكفوا أيديهم رغباً وخوفاً؛ وأما المسلمون فنهيًا من قبل الله، لما في أصلاهم من المؤمنين - أراد الله أن يخرجوا، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه: أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يسلم الناس منك، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك، فلا من أحد عليهم خيف، ولا منهم على أحد

حيث ولا حساب ولا مطالبة ولا صلح ولا معاتبه، ولا صداقة ولا عداوة. وكذا من كان بالحق - وأنشدوا:

فلم يبق لي وقتٌ لِذِكْرِ مُخَالِفٍ ولم يبق لي قلبٌ لِذِكْرِ مُوَافِقٍ
قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾.

﴿كَفَرُوا﴾ وجحدوا، ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية. ﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا﴾: أي منعوا الهدي أن يبلغ منحره، فمعكوفاً حال من الهدي أي محبوساً.

وكان النبي ﷺ قد ساق تلك السنة سبعين بدنة. قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّزَّ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنصِبَكُمْ فِيهِمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرة منكم بغير علم لسلطانكم عليهم ولا ظفرناكم بهم. وفي هذا تعريف للعبد بأن أموراً قد تنغلغ وتتعسر فيضيق قلب الإنسان.. والله في ذلك سير، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري.. كما قالوا:

كم مرة حُفَّت بك المكاره خير لك الله.. وأنت كاره
قوله جل ذكره: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِلُ مَنْ يَشَاءُ عَظِيمًا﴾.

يعني الأنفة؛ أي دفعتهم أنفة الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية، فأنزل الله سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحلم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي كلمة التوحيد تضدُّ عن قلب صادق: فكلمة التقوى يكون معها الاتقاء من الشرك.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ حسب سابق حكمه وقديم علمه.. ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِلُ مَنْ يَشَاءُ عَظِيمًا﴾.

ويقال: الإلزام في الآية هو إلزام إكرام ولطف، لا الإلزام إكراه وعنف؛ وإلزام ير لا إلزام جبر...

وكم باسطين إلى وُضِلنا أكفهمو.. لم ينالوا نصيبا!

ويقال كلمة التقوى: التواصي بينهم بحفظ حق الله.

ويقال: هي أن تكون لك حاجة فتسأل الله ولا تُبديها للناس.

ويقال: هي سؤالك من الله أن يحرسك من المطامع.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾.

أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه؛ صدقه فيما أراه من دخول مكة ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه. فوطئ أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة. فلما كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء، حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام، ثم أذن الله في العام القابل، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فكان ذلك تحقيقاً لما أراه، فرؤياه صلوات الله حق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق.

وكان في ذلك نوع امتحانٍ لهم: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أنتم من الحكمة في التأخير.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ معناه إذ شاء الله كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقيل قالها على جهة تنبيههم إلى التأذّب بتقديم المشيئة في خطابهم.

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى: إن شاء الله آمين أو غير آمين.

وقيل: يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلهم أو دخول بعضهم؛ فإنّ الدخول كان بعد سنة، ومات منهم قوم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أرسل رسوله محمداً ﷺ بالدين الحنفي، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين؛ فما من دين لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سيرة؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات.

وقيل: ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام.

وقيل: في القيامة حيث يظهر الإسلام على كل الأديان.

وقيل: ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل.

قوله جل ذكره: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿أَشِدَّاءُ﴾ جمع شديد، أي فيهم صلابَةٌ مع الكفار.

﴿رُحَمَاءُ﴾ جمع رحيم، وَصَفَهُم بِالرَّحْمَةِ وَالتَّوَادُّ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

﴿تَرْبُّهُمْ رُكْعًا سُبْحًا يَتَتَفَعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان.

﴿يَسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُورِ﴾.

أي علامة التخشع التي على الصالحين.

ويقال: هي في القيامة يوم تَبْيِضُ وجوه، وأنهم يكونون غداً محجلين.

وقد قال ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار»^(١).

ويقال في التفسير: «معه» أبو بكر، و ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر؛ و ﴿رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ﴾. عثمان، و ﴿تَرْبُّهُمْ رُكْعًا سُبْحًا﴾ علي رضي الله عنهم.

وقيل: الآية عامة في المؤمنين.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

سَوْقِهِ. يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾.

هذا مثلهم في التوراة، وأما مثلهم في الإنجيل فكزراع أخرج شطأه أي: فراخه.

يقال: أشطأ الزرع إذا أخرج صفاره على جوانبه. ﴿فَكَازَرَهُ﴾ أي عاونه.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظ واستوى على سوقه؛ وأزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه

مع بعض. يعجب هذا الزرع الزرع ليعيظ بالمسلمين الكفار؛ شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ بالزرع

حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت حولها فتشتد، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن

حوله من المسلمين.

فَمَنْ حَمَلَ الْآيَةَ عَلَى الصَّحَابَةِ: فَمَنْ أَبْغَضَهُمْ دَخَلَ فِي الْكُفْرِ، لَأَنَّهُ قَالَ:

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ أي بأصحابه الكفار. وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِيهِ حُجَّةٌ عَلَى

الإجماع، لِأَنَّ مَنْ خَالَفَ الْإِجْمَاعَ - فَاللهُ يَغَايِظُ بِهِ الْكُفَّارَ - فَمُخَالَفُ الْإِجْمَاعِ كَافَرٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَغْفِرَةً لِلذُّنُوبِ، وَأَجْرًا عَظِيمًا فِي الْجَنَّةِ فَقَوْلُهُ: «مِنْهُمْ»

لِلْجَنسِ أَوْ لِلَّذِينَ خَتَمَ لَهُمْ مِنْهُمْ بِالْإِيمَانِ.

(١) أخرجه ابن ماجه (إقامة ١٧٤).

سورة الحجرات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسم كريم من تنصل إليه من زلاته تفضل عليه بنجاته، ومن توسل إليه بطاعته تطول عليه بدرجاته .

«بسم الله» اسم عزيز من تقرب إليه بمناجاته قابله بلطف أفضاله، ومن تحبب إليه بإيمانه أقبل عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : شهادة للمنادى بالشرف .

﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ أمر بتحمل الكلف . قدم الإكرام بالشرف على الإلزام بالكلف أي لا تقدموا بحكمكم ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ : أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً .

ويقال: قفوا حيثما وقفتهم، وافعلوا ما به أمرتم، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع . لا أرباب الابتداء والابتداء .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ .

أمرهم بحفظ حرمة، ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، وألا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخلقه يلاينهم فينبغي ألا يتبسطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به من تخلقه عن حدودهم زائدين .

ويقال: لا تبدأوه بحديث حتى يفتاحكم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

هم الذين تقع السكينة عليهم من هبة حضرته، أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى بانتزاع حب الشهوات منها، فاتقوا سوء الأخلاق، وراعوا الأدب .

ويقال: هم الذين انسلخوا من عادات البشرية.
 قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ زُرَّاءِ الْهَجَرَتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي لو عرفوا قُدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَكَ، والتزموا هَيْبَتَكَ.
 ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم.
 أمّا أصحابه - صلوات الله عليه وسلامه - الذين يعرفون قُدْره فإن أحدهم - كما في الخبر: «كأنه يفرغُ بابه بالأظافر».

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ نَبِئُوا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا يِجْهَلُونَ فَتَصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

دلّت الآية على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسق إلى أن يظهر صِدْقُهُ.
 وفي الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماعِ إلى كلامِ الساعي والثَّمامِ والمغتابِ للناس.
 والآية تدلُّ على قبول خيرِ الواحدِ إذا كان عَدْلًا.
 والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة^(١). ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة.
 ويقال: هو الذي ألقى جِلْبَابَ الحياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

أي لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللَّهِ ﷺ في كثير مما تطلبون منه لوقعتم في العنت^(٢) - وهو الفساد. ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأصابتكم من ذلك شدة.
 والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يَزَ في ذلك مصلحة لكم وللدِين.

﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾: الإسلام والطاعة والتوحيد، وزَيَّنَهَا في قلوبكم.

(١) مشتق من فسقت الرطبة من قشرها، وكان الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من حجرها على الناس. (لسان العرب ٣٠٨/١٠ مادة: فسق).

(٢) العنت: دخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة. وقيل: العنت: الفجور والزنا وقيل: الجور والإثم والأذى. (لسان العرب ٦١/٢، ٦٢ مادة: عنت).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليل على صحة قول أهل الحق في القدر، وتخصيص المؤمنين بالطاف لا يشترك فيها الكفار . ولولا أنه يوفّر الدواعي للطاعات لحصل التفريط والتقصير في العبادات .

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: أي فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيْنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه - والفسق دون الكفر - لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين - لا سحالة - فاسقة إذا اقتتلا .
وتدل الآية على وجوب نصره المظلوم؛ حيث قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ .

والإشارة فيه: أن النفس إذا ظَلَمَت القلب بدعائه إلى شهواتها، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تشحن بالجراحة بسيف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هي المطيئة إلى باب الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

إيقاع الصلح بين المتخاصمين من أوكد عزائم الدين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وَزْرِ الواشي والثّمام؛ والمضدّر في إفساد ذات البين .

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صدق همة عبد في إصلاح ذات البين) فإنه يرفع عنهم تلك العصبية .

فأما شرط الأخوة: فَمِنْ حَقِّ الْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ أَلَّا تُخْرِجَ أَخَاكَ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِكَ أَوْ التَّمَاسِ النَّصْرَةَ عَنْكَ، وَأَلَّا تُقْصِرَ فِي تَقْضِ أَحْوَالِهِ بِحَيْثُ يَشْكُلُ عَلَيْكَ مَوْضِعُ حَاجَتِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى مَسَاءَلَتِكَ .

ومن حقّه ألا تُلْجِئَهُ إِلَى الْإِعْتِذَارِ لَكَ بَلْ تَبْسُطَ عُذْرَهُ؛ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ وَجْهُهُ عُذْتُ بِاللَّائِمَةِ عَلَى نَفْسِكَ فِي خِفَاءِ عُذْرِهِ عَلَيْكَ وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَتُوبَ عَنْهُ إِذَا أَذْنَبَ، وَتَعُودَهُ إِذَا مَرَضَ . وَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ فَلَا تُطَالِبْهُ بِالْأَدْلِيلِ عَلَيْهِ وَإِبْرَازِ الْحُجَّةِ - كَمَا قَالُوا:

إِذَا اسْتَشْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَزْبٍ أَمْ لَأَيِّ مَكَانٍ

وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَحْفَظَ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ، وَأَنْ تُرَاعِيَ حَقَّهُ فِي أَهْلِهِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَفِي حَالِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ - كَمَا قِيلَ :

وخليل إن لم يكن منصفاً كنت منصفاً
تتحنسنى له الأمر ين وكُن ملاطفا
إن يقل لك استو احترف ست رضى لا تكلفا

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَّ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَمَّ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ إِلَاتُمْ الَّتِي سَفُوتُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

نهى الله - سبحانه وتعالى - عن ازدراء الناس، وعن الغيبة، وعن الاستهانة بالحقوق، وعن ترك الاحترام.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ : أي لا يعيبن بعضكم بعضاً، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء : ٢٩] .

ويقال: ما استصغر أحد أحداً إلا سُلطَ عليه . ولا ينبغي أن يُعْتَبَرَ بظواهر أحوال الناس فإن في الزوايا خبايا . والحق يستر أولياءه في حجاب الضعة^(١)؛ وقد جاء في الخبر:

«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرِ ذِي طَمَرِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا ظَنَّنَا بِكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ .

النَّفْسُ لَا تَصْدُقُ، وَالْقَلْبُ لَا يَكْذِبُ . والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ وَمَنْ بَقِيََتْ عَلَيْهِ مِنْ حَظْوَلِهِ بَقِيَّةٌ - وَإِنْ قَلَّتْ - فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَدَّعَى بَيَانَ الْقَلْبِ بَلْ هُوَ بِنَفْسِهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَّهَمَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ مَا يَقَعُ لَهُ مِنْ نَقْصَانٍ غَيْرِهِ . . هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب . «كُلُّ النَّاسِ أَفْقُهُ مِنْ عَمْرِ . . أَمْرًا أَفْقُهُ مِنْ عَمْرِ» .

﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ . والعارف لا يتفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق . فكيف

(١) الضعة: خلاف الرقعة في القدر . (لسان العرب ٣٩٧/٨ مادة: وضع) .

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٢٦٤/١٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٣٤/٨، ٢٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢٠٣/٣) .

يتفرغ إلى تجسّس أحوالهم؟ وهو لا يتفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره؟ ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصِكُمْ بَعْضًا﴾: لا تحصل الغيبة للخلق إلا من الغيبة عن الحق.

﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية. وأخس الكفار وأقلهم قدراً من يأكل الميتة.. وعزيز رؤية من لا يغتاب أحداً بين يديك.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إنّا خلقناكم أجمعكم من آدم وحواء، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصول تربة ونطفة وعَلَقَةٌ.. فالتفاخر بماذا؟ أبا لحماً المسنون؟^(١) أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوي عليه ظاهره مما تعرفه؟! وقد قيل:

إِنْ آثَرْنَا تَذُلَّ عَلَيْنَا فَاَنْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ
أم بأفعالك التي هي بالرياء مشوبة؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة؟
أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة؟

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾؟ اتقاكم أي أبعدكم عن نفسه، فالتقوى هي التحرر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب إلى الله تعالى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلْنَاكُمْ﴾.

الإيمان هو حياة القلب، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس، والنفوس لا تموت ولكنها تغيب، ومع حضورها لا يتم خير، والاستسلام في الظاهر إسلام. وليس كل من استسلم ظاهراً مخلص في سره.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب. كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ومرض القلب والإيمان ضدان.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

جعل الله الإيمان مشروطاً بخصال ذكرها، ونص عليها بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي

(١) الحماة والحماء: الطين الأسود المتشن. (لسان العرب ٦١/١ مادة: حما).

للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ الْعَكْسِ؛ فَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذِهِ الشَّرَاطِطِ الَّتِي جَعَلَهَا لِلْإِيمَانِ فَمَرَدُودٌ عَلَيْهِ قَوْلُهُ.

وَالْإِيمَانُ يَوْجِبُ لِلْعَبْدِ الْأَمَانَ، فَمَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ مُوجِباً لِلْأَمَانِ فَصَاحِبُهُ بغيره أَوْلَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تدل الآية على أَنَّ الوقوف في المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً؛ فالأسامي منه تُؤْخَذُ، والأحكامُ منه تُطَلَّبُ، وأوامره مُتَّبَعَةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

مَنْ لَاحِظُ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنْ رَأَاهَا مِنْ نَفْسِهِ كَانَ شِرْكَاً، وَإِنْ رَأَاهَا لِنَفْسِهِ كَانَ مَكْراً فَكَيْفَ يَمُنُ الْعَبْدُ بِمَا هُوَ شِرْكٌ أَوْ بِمَا هُوَ مَكْرٌ؟!

والذي يجب عليه قبول المِنَّةِ . . كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّةً؟! هذا لعمري فضيحة! بل المِنَّةُ لله؛ فهو وليُّ النعمة. ولا تكون المِنَّةُ مَنَّةً إلا إذا كان العبدُ صادقاً في حاله، فأما إذا كان معلولاً في صفة من صفاته فهي محنةٌ لصاحبها لا مِنَّةٌ.

والمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصَّنِيعَ إذا كانت من المخلوقين، ولكن بالمِنَّةِ تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وَمَنْ وَقَفَ هَاهُنَا تَكَدَّرَ عَلَيْهِ غَيْبُهُ؛ إِذْ لَيْسَ بِدَرِيٍّ مَا غَيْبُهُ فِيهِ، وَفِي مَعْنَى هَذَا قَوْلُ الْقَائِلِ:

أبكي . . وهل تدرين ما يبكييني؟
أبكي حذاراً أن تفارقيني
وتقطعني وضلّي وتهجريني

سورة ق

«بسم الله» اسم جَبَرِ أحوالٍ مَنْ رَحِمَهُ، متَجَبَّرٌ بكبريائه على من أقماه فَقَهَرَهُ وَحَرَمَهُ.

«بسم الله» لطيفٌ يعلم خفايا تصنعُ العابدين، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين.
قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

قَ مفتاح أسمائه: «قوي وقادر وقدير وقريب».. أقسم بهذه الأسماء وبالقُرآن المجيد.

وجوابُ القَسَمِ محذوفٌ ومعناه لَتُبْعَثُنَّ في القيامة.

ويقال جوابه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي لقد علمنا.. وحذفت اللام لَمَّا تطاول الخطاب.

ويقال: جوابه قوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.
﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾: هو محمد ﷺ.

والتعجبُ نوعٌ من تعبيرِ النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارجِ العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل. وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك:
﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

أي يَبْعُدُ عندنا أَنْ تُبْعَثَ بعد ما مِتْنَا. فقال جلّ ذكره:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

في هذا تسليّةٌ للعبد فإنه إذا وُسِدَ التراب، وانصرف عنه الأصحاب، واضطرب لوفاته الأحباب. فَمَنْ يَتَفَقَّهُهُ وَمَنْ يَتَعَهَّدُهُ... وهو في شفير قبره، وليس لهم منه شيء سوى ذكره، ولا أحدٌ منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرَتِهِ؟ فيقول الحق - سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ولعله يخبر الملائكة قائلاً: عَبْدِي الذي أَخْرَجْتَهُ من دُنياه - ماذا بقي بينه مَنْ يَهْوَاهُ؟ هذه أجزاؤه قد تَفَرَّقَتْ، وهذه عِظَامُهُ بَلِيَتْ، وهذه أعضاؤه قد تَفَشَّتْ!

﴿وَعَدْنَا كِتَابَ حَفِيطٍ﴾: وهو اللُّوحُ المحفوظ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوال الخلق من غير نسيان، وبيئنا فيه كل ما يحتاج العبد إلى تذكره.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿مَرِيجٍ﴾ أي مختلط وملتبس؛ فهم يترددون في ظلمات تحيرهم، ويضطربون في شكهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

أو لم يعتبروا؟ أو لم يستدلوا بما رفعنا فوقهم من السماء، رفعنا سَمَكها فسوّيناهما، وأثبتنا فيها الكواكب وبها زيناها، وأدزنا فيها شمسها وقمرها؟ أو لم يروا كيف جَسَّسنا عَيْنها ونوَّغنا أُنْزَهَا؟

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

والأرض مددناها؛ فجعلناها لهم مهاداً، وجعلنا لها الجبال أوتاداً، وأثبتنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً. كل ذلك:

﴿تَبَيَّرَ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

علامة ودلالة لكل من أناب إلينا، ورجع من شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهود حقنا وذاتنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثير النفع والزيادة، فأنبتنا به ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: أي الذي يُحصَد - كما تقول مسجد الجامع.

الأجزاء متجانسة. ولكن أوصافها في الطعوم والروائح والألوان والهيئات والمقادير مختلفة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَقِيبٌ﴾.

والنخل باسقات: طويلات، لها طلعٌ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع أو لما فيها من الثمار. وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالنخيل والكمثرى^(١) وغيرهما، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب^(٢) وغيرهما. كل ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي يتنفعوا به.

(١) الكُمثرى: معروف من الفواكه هذا الذي تسميه العامة الإجناس، مؤنث لا ينصرف. (لسان العرب ١٥٢/٥ مادة: كمثر).

(٢) الرُّطْب: نضيج البُسْر قبل أن يُتمر، واحدته رطبة. (اللسان ٤٢٠/١ مادة: رطب).

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدة جف نباتها، وكما فعلنا كل هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك - كذلك نجتمعكم في الحشر والنشر، فليس ببعثكم بأبعد من هذا.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ هُنَّ عِيدٌ﴾ .

إننا لم نعجز عن هؤلاء - الذين ذكر أسماءهم - وفيه تهديد لهم وتسلية للرسول.

﴿أَفَحْيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ لَمِ يَسْمَعُوا فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .

أي إننا لم نعجز عن الخلق الأول . فكيف نعجز عن الخلق الثاني - وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعل شيء، ولم نتعب من شيء . فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ .

نعلم ما توسوس به نفسه من شهوات تطلب استنفادها، مثل التصنع مع الخلق، وسوء الخلق، والحقد . . وغير ذلك من آفات النفس التي تشوش على القلب والوقت .

﴿وَحَنَّا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فحبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه، والمراد من ذلك العلم والقدرة، وأنه يسمع قولهم، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم .

وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وسكون وأنس قلب لقوم .

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يُلَاقَى السَّائِقَانِ مِنَ الْبَيْنِ وَنَحْنُ إِلَهُالْ قَائِمُ﴾ .

خوفهم بشهود الملائكة وحضور الحفظة، وبكتابتهم عليهم أعمالهم، فهما قعيدا كل أحد: ويقال: إذا كان العبد قاعداً فواحد عن يمينه يكتب خيرا، وإذا كان يساره يكتب معاصيه، وإذا قام فواحد عند رأسه وواحد عند قدميه، وإذا كان ماشياً فواحد قائم بين يديه وآخر خلفه .

ويقال: هما اثنان بالليل لكل واحد، واثنان بالنهار .

ويقال: بل الذي يكتب الخيرات اليوم يكون غيره غداً، وأما الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال: بل الذي يكتب المعصية اثنان؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران لئلا يعلم من مساويك إلا القليل منها، ويكون علم المعاصي متفرقاً بهم^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

إذا أشرفت النفس على الخروج من الدنيا فأحوالهم مختلفة؛ فمنهم من يزداد في ذلك الوقت خوفه ولا يتبين إلا عند ذهاب الروح حاله. ومنهم من يكشف قبل خروجه فيسكن رَوْعُه، ويحفظ عليه عقله، ويتم له حضوره وتميزه، فيسلم الروح على مهل من غير استكراه ولا عبوس. . . ومنهم، ومنهم. . . وفي معناه يقول بعضهم:

أنا إن مت - والهوى حشو قلبي - فبداء الهوى يموت الكرام

ثم قال جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾. سائق يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار، وشهيد يشهد عليها بما فعلت من الخير والشر.

ويقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكُنْفَنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

المؤمنون - اليوم بصَرهم حديد؛ ينصرون رُشدهم ويحذرون شرهم.

والكافر يقال له غداً: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: ها أنت علمت ما كنت فيه من التكذيب؛ فاليوم لا يسمع منك خطاب، ولا يرفع عنك عذاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾.

لا يخفى من أحوالهم شيء إلا ذكر، إن كان خيراً يُجازون عليه، وإن كان غير خير يُحاسِبون عليه: إما برحمة منه فيغفر لهم وينجون، وإما على مقدار جُرمهم يُعَذِّبون.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِغَارٍ عِنْدَ مَنَاجٍ لِلخَيْرِ مُتَعَدٍّ مُّزِيٍّ﴾.

مناع للزكاة المفروضة.

ويقال: يمنع فضل مائه وفضل كلته عن المسلمين.

ويقال: يمنع الناس من الخير والإحسان، ويسيء القول فيهما حتى يزهد الناس فيهما.

ويقال: المناع للخير هو المغوان على الشر.

ويقال: هو الذي قيل فيه: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

﴿مُزِيٍّ﴾: أي يشكك الناس في أمره لأنه غير مخلص، ويلبس على الناس حاله لأنه منافق.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطِغَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

يقول الملك من الحفظ المؤكل به: ما أعجلته على الزلة.

وإنما كتبتُها بعدما فعلها - وذلك حين يقول الكافر: لم أفعل هذا، وإنما أعجلني بالكتابة علي، فيقول الملك: ربنا ما أعجلته.

ويقال: هو الشيطان المقرون به، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطان: ما أكرهته على كفره، ولكنه فعل - باختياره - ما وسوستُ به إليه .
فيقول جل ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَيْدِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْبَئِيدِ﴾ .

لا تختصموا لدي اليوم وقد أمرتكم بالرشد ونهيئكم عن الغي .
قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ .
﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ و﴿نَقُولُ﴾: القول هنا على التوسع؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقات ذلك بل يُخَيِّبها حتى تقول ذلك .
﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار .

ويقال: بل تقول ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: أي ليس في زيادة كقوله عليه السلام لما قيل له: يومَ فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل داراً؟!»^(١) أي لم يترك، فإن الله - تعالى - يملأ جهنم من الكفار والعصاة، فإذا ما أخرج العصاة من المؤمنين ازداد غيظ الكفار حتى تمتلئ بهم جهنم .
قوله جل ذكره: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ .
يقال: إنَّ الجنة تُقَرَّبُ من المتقين، كما أنَّ النار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . . وهم خواص الخواص .

ويقال: هم ثلاثة أصناف: قوم يُحْشَرُونَ إلى الجنة مشاة وهم الذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] - وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركباناً على طاعتهم المصوِّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جل وعلا: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ [مريم: ٨٥] - وهؤلاء هم الخواص وأما خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي تُقَرَّبُ الجنة منهم .

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: تأكيد لقوله: «وأزلفت» .

ويقال: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: من العاصين تطيباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ .

(١) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٣٤/٦)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٣٠٤٢٩، ٣٠٦٨٥) .

الأَوَّابُ: الراجعُ إلى الله في جميع أحواله.

﴿حَفِيطٌ﴾: أي محافظ على أوقاته، (ويقال محافظ على حواسه في الله حافظ لأنفاسه مع الله).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَنِيِّ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

الخشيّة من الرحمن هي الخشيّة من الفراق. (والخشيّة من الرحمن تكون مقرونة بالأُنْس؛ ولذلك لم يقل: من خشي الجبار ولا من خشي القهار).

ويقال الخشيّة من الله تقتضي العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسألُ عما يفعل.

ويقال: الخشيّة اللطف من الخوف، وكأنها قريبة من الهيبة^(١).

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾: لم يقل بِنَفْسٍ مطيعة بل قال: بقلب منيب ليكون للعصاة في هذا أمل؛ لأنهم - وإن قَصُرُوا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ الْقَدَمِ - فلهم الأسف بقلوبهم وصدق الندم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

أي يقال لهم: ادخلوها بسلامة من كل آفة، ووجود رضوان ولا يسخط عليكم الحق أبداً.

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ: ادخلوها بسلام، ومنهم من يقول له: لكم ما تشاؤون فيها - قال تعالى:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

لم يقل: «لهم ما يسألون» بل قال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾: فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلهم يتحقق لهم في الوهلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: اتفق أهل التفسير على أنه الرويّة، والنظر إلى الله سبحانه وقوم

يقولون: المزيد على الثواب في الجنة - ولا منافاة بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ

نَجَّيْسٍ﴾.

(١) قال القرطبي برسالته عند حديثه عن الخوف: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشيّة والهيبة. فالخوف من شروط الإيمان وقضاياء. قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. والخشيّة: من شروط العلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى﴾. وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على نوعين: رهبة وخشيّة، فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشيّة يلتجئ إلى الرب. (الرسالة القرطبية ص ١٢٥، ١٢٦).

أي اغتبروا بالذين تقدّمواكم؛ انهمكوا في ضلالتهم، وأصبروا، ولم يقلعوا... فاهلكناهم وما أبقينا منهم أحداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. قيل: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: أي من كان له عقل. وقيل: قلب حاضر. ويقال قلب على الإحسان مقبل. ويقال: قلب غير قلب.

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: استمع إلى ما ينادى به ظاهره من الخلق وإلى ما يعود إلى سرّه من الحق. ويقال: لمن كان له قلب صاح لم يسكر من الغفلة. ويقال: قلب يعد أنفاسه مع الله. ويقال: قلب حيّ بنور الموافقة. ويقال: قلب غير مغرض عن الاعتبار والاستبصار.

ويقال: «القلب - كما في الخبر - بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١): أي بين نعمتين؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء، وما ينفعه به من النعماء، فكل قلب منع الحق عنه الأوصاف الذميمة وألزمه النعوت الحميدة فهو الذي قال فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

وفي الخبر: «إن الله أواني ألا وهي القلوب، وأقربها من الله مارق وصفا»^(٢). شبه القلوب بالأواني؛ فقلب الكافر منكوس لا يدخل فيه شيء، وقلب المنافق إناء مكسور، ما يلقى فيه من أوله يخرج من أسفله، وقلب المؤمن إناء صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمان ويبقى.

ولكن هذه القلوب مختلفة؛ فقلب ملطّخ بالانفعالات وفنون الآفات؛ فالشراب الذي يلقى فيه يصحبه أثر، ويتلطح به.

وقلب صفا من الكدورات وهو أعلاها قدراً.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

وأنى يمسه اللُّغُوبُ. وهو صمّد لا يحدث في ذاته حادث؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

إن تأذ سمعك بما يقولون في من الأشياء التي يتقدّس عنها نعتي فاصبر على ما يقولون، واستروخ عن ذلك بتسبيحك لنا.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٣٠٢/٧).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٠٩/٦)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/١٧٣).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَرُّهُ وَأَذْبَرَ الشُّجُورَ﴾ .

فالليل وقت الخلوة - والصفاء في الخلوة أتم وأضفى .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْتَجِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ .

النداء من الحق - سبحانه - وارد عليهم، كما أن النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداء الذي يرد عليهم يكون بغتة ولا يكون للعبد في فعله اختيار .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ .

إلينا مزجع الكل ومصيرهم .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ .

هذا يسير علينا: سواء خلقناهم جملة أو فرادى؛ قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٣١] .

قوله جل ذكره: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَيَعِيدُ﴾ .

ما أنت عليهم بمسّلط تكررهم .

وإنما يؤثّر التخويف والإنذار والتذكير في الخائفين، فأما من لا يخاف فلا ينجح فيه التخويف - وطيّر السماء على آلافها تقع .

سورة الذاريات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة عزيزة من ذكرها عزّ لسانه، ومن عرفها اهتزّ بصحبته جنانه .
«بسم الله» كلمة للآلِبابِ غَلَابَةٌ، كلمة لأرواح المحبين سَلَابَةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا قُلُوبَهُمْ فَقَرَا فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّتِ أَمْرًا إِنَّمَا نُوَدِّعُ لَصَاقُكُ وَإِنَّ اللَّهَ لَوَفِيٌّ﴾.

والذاريات: أي الرياح الحاملات ﴿وقرأ﴾ أي السحاب ﴿فالجرئت﴾ أي السفن .
﴿فالْمُقَسِّتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة . . . أقسم برّب هذه الأشياء ويقدرته عليها . وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا نُوَدِّعُ لَصَاقُكُ...﴾ والإشارة في هذه الأشياء أن من جملة الرياح . الرياح الصّحيحة تحمل أنين المشتاقين إلى ساحات العزّة فيأتي نسيم القربة إلى مشام أسرار أهل المحبة . . . فعندئذ يجدون راحة من غَلَبَات اللوعة، وفي معناه أنشدوا:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم إذا أقبلت من أرضكم بهبوب
وأسألها حمل السلام إليكمو فإن هي يوماً بلّغت . . . فأجيبي

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة، ويؤذّن بهواجم الثوى والفرقة . فإذا عنّ لهم من ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتغال، والتضرّع في السؤال استعاذة منها . . . كما قالوا:

أقول - وقد رأيت لها سحاباً من الهجران مقبله إلينا
وقد سحّت عزاليها^(١) يَبِينِ حوالينا الصدود ولا علينا
وكما قد يَحْمِلُ المَلَأُحُ بعضُ الفقراء بلا أجرة طمعاً في سلامة السفينة -
فهؤلاء يزجون أن يُحمَلُوا في قُلُوك العناية في بحار القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .

ومن الملائكة مَنْ يتنزّل لتفقد أهل الوصلة، أو لتعزية أهل المصيبة، أو لأنواع

(١) الأعزل: سحاب لا مطر فيه . (اللسان ١١/٤٤٣ مادة: عزل).

من الأمور تتصل بأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم: هل عندهم خيرٌ عن فراقهم ووصالهم - كما قالوا:

بِرَبِّكُمَا يَا صَاحِبَيِّ قِفَا بَيَا أسألكم عن حالهم وآسألانِيَا

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّيْتُمْ﴾ : الحق - سبحانه - وَعَدَ المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة، والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]، وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد - واللَّهُ رؤوفٌ بالعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّامَاءُ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكَ لِنَى قَوْلٍ تُخَلِّفُ يَوْمَكَ عَنْهُ مَنْ أَفْلَكَ﴾ .

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرائق الحسنة - وهذا قَسَمٌ ثانٍ، وجوابه: ﴿إِنَّكَ لِنَى قَوْلٍ تُخَلِّفُ﴾ يعني في أمر محمد ﷺ فأحدهم يقول: إنه ساحر، وآخر يقول: مجنون، وثالث يقول: شاعر... وغير ذلك.

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان، وقمر المحبة، ونجوم القُرب... إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف؛ فَمِنْ مُنْكَرٍ يَجْحَدُ الطريقة، وَمِنْ مُعْتَرِضٍ يعترض على أهلها يتوهم نقصانهم في القيام بحق الشريعة، ومن متعسفٍ لا يخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقّ أوليائه بالأحوال السنية، قال قائلهم:

قد سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقَا
فَكَاذِبٌ قَدْ رُمِيَ بِالظَّنِّ غَيْرَ تَكْمِ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا
قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَكَ عَنْهُ مَنْ أَفْلَكَ﴾ .

أي يُضَرَفُ عنه مَنْ ضَرَفَ، وذلك أنهم كانوا يصدّون النَّاسَ عنه ويقولون: إنه لمجنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قِيلَ الْفَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهَوْتُمْ﴾ .

لَعَنَ الْكَذَّابُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ الضَّلَالَةِ وظلمة الجهالة ساهون لاهون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُعْذَّبُونَ دُوقُوا فَنُتَكِّرْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

يسألون أيان يومُ القيامة؟ يستعجلون بها، فلا جُلْ تكذيبهم بها كانت نفوسهم لا تسكن إليها. ويوم هم على النار يُخْرَقُونَ ويُعَذَّبُونَ يقال لهم: قاسوا عقوبتكم، هذا الذي كنتم به تَسْتَعْجِلُونَ.

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبُونَ في أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب، ويكذبون على الله فيما يدعونه من الأحوال... قُتِلُوا وَلُعِنُوا... وسيلقون غِبًّا تلييسهم بما يُحَرِّمُونَ من اشتتام رائحة الصدق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ وَإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

في عاجلهم في جَنَاتٍ وَضَلِيلهم، وفي آجلهم في جَنَاتٍ فَضْلِيلهم؛ فغداً درجات ونجاة، واليوم قُرْبَاتٍ ومناجاة، فما هو مؤجَّلٌ حَظٌّ أَنفُسِهِمْ، وما هو معجَّلٌ حَقٌّ رَبُّهُمْ. هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم؛ يأخذون نصيبه منه بِبَيْدِ الشكر والحمد، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفْد.

وَمَنْ كَانَ اليومَ آخِذَهُ بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان. كان غداً آخِذَهُ بلا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا^(١) ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا... فهم كما في الخبر: «أعبد الله كأنك تراه...»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُشْكِرُونَ﴾.

المعنى إمّا: كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أو: كان نومهم بالليل قليلاً، أو: كانوا لا ينامون بالليل قليلاً.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُشْكِرُونَ﴾: أخبر عنهم أنهم - مع تهجدهم ودُعائهم - يُنْزِلُونَ أَنفُسَهُمْ في الأسفار منزلة العاصين، فيستغفرون استصغاراً لِقُدْرِهِمْ، واستحقاراً لِفِعْلِهِمْ.

والليل... للأحباب في أنس المناجاة، وللعصاة في طلب النجاة. والسهرة لهم

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: سُئِلَ يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص ٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١٣٢/٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٤٠/٢، ٤٠١/٤)، وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦، ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٦٨/١، ٥٩٢/٣)، (٢٤٧/٤)، وابن كثير في (التفسير ١٧٩/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١١٥/٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٣٤/١١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٢٤/٢، ٤٥٣/٧، ٥٩/١٠)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١٠٦/٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٩٩/١)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٥٢٥٠، ٥٢٥١، ٥٢٥٦، ٥٢٧٩، ٤٤١٥٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٢٢٥/١٣).

في لياليهم دائماً؛ إما لَفَزَطِ أَسْفٍ أو لِشَدَّةَ لَهْفٍ، وإما لاشتياقٍ أو لفراقٍ - كما قالوا:
 كم ليلة فيك لا صباح لها أفثيئُهَا قابضاً على كبدي
 قد غُصَّت العينُ بالدموع وقد وَصَفْتُ خدي على بنان يدي
 وإما لكمال أنسٍ وطيب روح - كما قالوا:
 سقى الله عيشاً قصيراً مضى زمانُ الهوى في الصبا والمجون
 لياليه تحكي انسدادَ لحاظٍ لَغِينِي عند ارتداد الجفون
 قوله جل ذكره: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

السائل هو الْمُتَكَفِّفُ، والمحروم هو المتعفف - ويقال هو الذي يحرم نفسه بترك السؤال... هؤلاء هم الذين يَغْطُونَ بشرط العلم، فأما أصحابُ المروءة: فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق. وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة؛ لأنهم أهل الإيثار - في الوقت - لكل ما يَفْتَحُ عليهم به.
 قوله جل ذكره: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.
 كما أَنَّ الأرضَ تحمل كل شيء فكذلك العارف يتحمل كل أحد.

ومن استقل أحداً أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فَلِغَيْبَتِهِ عن الحقيقة، ولمطالعة الخلق بعين التفرقة - وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة.

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلْقَى عليها كل قذارة وقمامة - ومع ذلك تُنْبِتُ كل زهر وتؤثر... كذلك العارف يتشرب كل ما يُسْقَى من الجفاء، ولا يترشح إلا بكل خُلُقٍ عَلَيَّ وشيمة زكية^(١).

ومن الآيات التي في الأرض أَنَّ ما كان منها سبخاً يَتْرُكُ ولا يُعْمَرُ لأنه لا يحتمل العماراة - كذلك الذي لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَلُ، فمقابلته بهذه الصفة كالقاء البذر في الأرض السبخة.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي وفي أنفسكم أيضاً آيات، فمنها وقاحتها في همتها، ووقاحتها في صفتها، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أَنَّ ذَرَّةً أو (.. .)^(٢) بها أو منها.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التصوف: قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطْرَحُ عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، وقال أيضاً إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء، وكالفطر يسقي كل شيء، وقال: إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه خراب. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

(٢) بياض في الأصل.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي قسمة أرزاقكم في السماء، فالملائكة الموكّلون بالأرزاق ينزلون من السماء.

ويقال: السماء ها هنا المطر، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى.

ويقال: على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمَنَهَا.

ويقال: قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ وها هنا وقف ثم تبدىء: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتْلُو مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾.

أي: إنّ البعث والنشر لحقّ.

ويقال: إنّ نصري لمحمدٍ ولديني، وللذي أناكم به من الأحكام - لحقّ مثل ما أنكم تنطقون.

كما يقال: هذا حقّ مثل ما أنك ها هنا.

ويقال: معناه: «أَنْ اللَّهَ رازقكم» - هذا القول حقّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُمْ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ وَمَنْ خالقكم؟ قلتم: الله... فكما أنكم تقولون: إنّ الله خالق - وهذا حقّ... كذلك القول بأنّ اللَّهَ رازقٌ - هو أيضاً حقّ.

ويقال: كما أنّ نُطْقَكَ لا يتكلم به غيرك فرزقك لا يأكله غيرك.

ويقال: الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء، ولا سبيل لك إلى العروج إلى السماء لتشتغل بما كلفك ولا تتعنى في طلب ما لا تصل إليه.

ويقال: في السماء رزقكم، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُمْ... فإنّ أَرَدْتَ أَنْ ينزلَ عليك رزقك فأصْبِعْهُ إلى السماءِ عَمَلَك - ولهذا قالوا: الصلاة قرعُ باب الرزق، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

قيل في التفاسير: لم يكن قد أتاه خبرهم قبل نزول هذه الآية.

وقيل: كان عددهم اثني عشر ملكاً. وقيل: جبريل وكان معه سبعة. وقيل: كانوا ثلاثة.

وقوله: ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ قيل لقيامه - عليه السلام - بخدمتهم. وقيل: أكرم الضيف بطلاقة وجهه، والاستبشار بوفودهم.

وقيل: لم يتكلّف إبراهيم لهم، وما اعتذر إليهم - وهذا هو إكرام الضيف - حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها.

ويقال: سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوّ عند الكرام كريم.

ويقال: ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال: المكرمين عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

أي سلمنا عليك ﴿سَلَامًا﴾ فقال إبراهيم: لكم مني ﴿سَلَامًا﴾.

وقولهم: ﴿سَلَامًا﴾ أي لك منا سلام، لأنَّ السلام: الأمان.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: أي أنتم قوم منكرون؛ لأنه لم يكن يعرف مثلهم في الأضياف.

ويقال: غُرَبَاءَ.

قوله جل ذكره: ﴿فَرَأَىٰ إِلَهُهُ فَجَاءَ يُعَاجِلُ سَيِّئَ فَعْرَتِهِ إِنْتِهِمْ قَالِ لَا تَأْكُلُوهٗ﴾.

أي عدل إليهم من حيث لا يعلمون وكذلك يكون الروغان.

﴿فَجَاءَ يُعَاجِلُ سَيِّئَ﴾ فشواه، وقربه منهم وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُوهٗ؟﴾ وحين امتنعوا عن

الأكل:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

تَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَصُوصٌ فَقَالُوا لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: أي بشروه بالولد، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير عليمًا؛

والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليمًا بعد كبره.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْثَهَا فِي صَرْفٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

﴿فِي صَرْفٍ﴾ أي في صيحة شديدة، ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ أي فضربت وجهها بيدها

كفعل النساء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: أي أنا عجوز عقيم. وقيل: إنها يومها كانت ابنة

ثمان وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي قلنا لك كما قال ربك لنا، وأن نخبرك أن الله هو المُحْكِمُ لأفعاله،

﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟﴾.

سألهم: ما شأنكم؟ وما أمركم؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ؟

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا

مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَا بَعَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيِّنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

هم قوم لوط، ولم نجد فيها غير لوط ومن آمن به.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون - دون القاسية قلوبهم^(١).

(١) الآيات من (٣٩ حتى ٤٦) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أي بحجة ظاهرة باهرة.

... إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]: أي جعلنا

بينها وبين الأرض سعة، «وإنا لقادرون»: على أن نزيد في تلك السعة.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾.

أي جعلناها مهاداً لكم ثم أتى على نفسه قائلاً: ﴿فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾.

دلّ بهذا كله على كمال قدرته، وعلى تمام فضله ورحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ مَثْوٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي صنفين في الحيوان كالذكر والأنثى، وفي غير الحيوان؛ كالحركة والسكون، والسواد والبياض، وأصناف المتضادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَرِّئُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمْتُهِ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي فارجعوا إلى الله - والإنسان بإحدى حالتين؛ إمّا حالة رغبة في شيء، أو حالة

رهبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرر... وفي الحاليتين ينبغي أن يكون فراؤه إلى الله؛ فإنّ النافع والضار هو الله.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرَاؤُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ قَرَاؤُهُ مَعَ اللَّهِ.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقى،

ومن الشك إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من فعله - الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو

كفايته، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه - حيث

قال: ﴿وَيَعِزُّدْكُمُ اللَّهُ تَفْسُكُمُ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى نفسه حيث قال: ﴿فَقَرِّئُوا إِلَى اللَّهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرُمْتُهِ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أخوفكم اليم عقوبته إن أشركتم به - فإنه لا يغفر أن يُشرك به.

ثم بيّن أنه على ذلك جرّت عادتهم في تكذيب الرّسل، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

فأعرض عنهم فليست تلحقك - بسوء صنيعهم - ملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكّر العاصين عقوبتي ليرجعوا عن خالفه أمري، وذكّر المطيعين جزيل ثوابي

ليزدادوا طاعةً وعبادةً، وذكّر العارفين ما صرّفت عنهم من بلائي، وذكّر الأغنياء ما

أَتَخْتُ لَهُمْ مِنْ إِحْسَانِي وَعِطَائِي، وَذَكَرْتُ الْفُقَرَاءَ مَا أَوْجِبْتُ لَهُمْ مِنْ صَرْفِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَأَعْدَدْتُ لَهُ مِنْ لِقَائِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

الذين اصطفيتهم في آزالي، وخصّصتهم - اليوم - بحسن إقبالي، ووعدتهم جزيل أنصالي - ما خلقتهم إلا ليعبدون.

والذين سخّطت عليهم في آزالي، وربطتهم - اليوم - بالخذلان فيما كلّفتهم من أعمالي، وخلّقت النار لهم - بحكم إلهيتي ووجوب حكمي في سلطاني - ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي، وما أعددت لهم من سلاسل وأغلال.

ما أريد منهم أن يطعموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإنّ الرزاق أنا.

وما أريد أن يطعموني فإنني أنا الله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾: المتين القوي.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾.

لهم نصيب من العذاب مثل نصيب من سلف من أصحابهم من الكفار فلم يستعجل العذاب - والعذاب لن يفوتهم؟.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ تَوْبِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

وهو يوم القيامة.

سورة الطور

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة ما استولت على قلب عارفٍ إلّا تيمّنه بكشف جلاله، وما استولت على قلب متأفّفٍ إلّا أكرمه بلطف أفضاله... فهي كلمة قهّارة للقلوب... ولكن لا لكلّ قلب، مذهبة للكروب... ولكن لا لكلّ كرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَالطُّورِ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾.

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة)، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. والطور هو الجبل الذي كلّم عليه موسى عليه السلام؛ لأنه محلّ قدّم الأحياء وقت سماع الخطاب. ولأنه الموضع الذي سمع فيه موسى ذكر محمد ﷺ وذكر أمته حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال: أعطيتكم قبل أن تسألوني ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ.

وقيل: كتاب الملائكة في السماء يقرؤون منه ما كان وما يكون.

ويقال: ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده.

ويقال ما كتب من قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

ويقال: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويقال: الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعطى لعباده بأيمانهم وشمائلهم يوم القيامة. ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾^(٢) يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾.

(١) أخرجه الحميدي في (المسند ١١٢٦)، وابن أبي عاصم في (السنن ٢٧٠/١)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٥٦/٨، ٥٥٨/١٠)، وابن أبي الدنيا في (حسن الظن ١٣) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٩٦).

(٢) الرّق: الصحيفة البيضاء أو هو ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. وقيل: الرق الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشمال. (لسان العرب ١٢٣/١٠ مادة: رقق).

في السماء الرابعة ويقال: هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته .
ويقال: هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل: الكعبة .
﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ .

هي السماء . وقيل سماء هميمهم في الملكوت .
﴿وَالْبَحْرَ الْمُسْجُورَ﴾ .
البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء: ﴿إِنَّ عَذَابَهُ لَوَاقِعٌ﴾ وعذابه في الظاهر ما توعد به عباده العاصين، وفي الباطن الحجاب بعد الحضور، والستر بعد الكشف، والرد بعد القبول .

﴿مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ .

إذا ردَّ عبداً أبرم القضاء برده:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر - الدهر - ثَقِيلُ قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَيَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ .

﴿تَمُورُ﴾: أي تدور بما فيها، وتسير الجبال عن أماكنها، فتسير سيرا .
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ .

الويل كلمة تقولها العرب لمن وقع في الهلاك .

﴿فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾: في باطل التكذيب يخوضون .

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ .

يوم يُدْفَعُونَ إلى النارِ دُفْعاً، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذبون . . .

ثم يسألون: أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غطّي على أبصاركم؟!

قوله جل ذكره: ﴿أَصْلَحُوا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لا قيمة له، لأن عذابهم عقوبة لهم:

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَيَسِيرُونَ فِيهَا إِنَّهُمْ رِئَاءُ رُؤُوسِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً . ﴿فَنَكِيهِينَ﴾ أي مُعْجِبِينَ بما آتاهم ربهم وما أعطاهم .

ويقال: فاكهون: أي ذوو فاكهة: كقولهم رجل تامر أي ذو تمر، ولابن أي ذو لبن.
قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطعمه ولذته، وقوم يصير هنيئاً لهم سماع قولهم عنه - سبحانه - هنيئاً، وقوم يصير لهم ذلك هيناً ليناً وهم بمشهد منه:
فاشرب على وجهها كغفرتها مدامة في الكؤوس كالشرر^(١)
﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

يظنون في سرور وحبور، ونصيب من الأنس موفور.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قَلِيلًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾.
يُكْمَلُ عليهم سرورهم بأن يُلْحَقَ بهم ذُرِّيَّاتُهُمْ؛ فَإِنَّ الْإِنْفِرَادَ بِالنِّعْمَةِ عَمَّنِ الْقَلْبِ
مَشْتَقِلٌ به من الأهل والولد والذرية يوجب تَنَقُّصَ العيش.
وكذلك كلُّ مَنْ قَلْبُ الْوَلِيِّ يَلَاظُهُ من صديق وقريب، وولي وخادم، قال
تعالى في قصة يوسف: ﴿وَأَتَوْاهُ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وفي هذا المعنى قالوا:

إني على جفواتها - فبربها وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلٍ
لأحبها، وأحب منزلها الذي نزلت به وأحب أهل المنزل
﴿وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي ما أنقصنا من أجورهم من شيء بل وفينا ووفرنا. وفي الابتداء نحن أولينا
وزدنا على ما أعطينا.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مُطَالَبٌ بعمله، يوفى عليه أجره بلا تأخير، وإن كان
ذنباً فالكثير منه مغفور، كما أنه اليوم مستور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَقْوَ فِيهَا وَلَا
تَأْيِيمٌ﴾.

أي لا يجري بينهم باطل ولا يؤثمهم كما يجري بين الشرب^(٢) في الدنيا، ولا
يذهب الشربُ بقولهم فيجري بينهم ما يُخْرِجُهُمْ عن حَدِّ الْأَدَبِ والاستقامة.
وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم من يسقيهم، وهم بمشهد منه
وعلى رؤية منه؟.

(١) المدامة: الخمر، الشر: ما تطاير من النار، واحدته شررة.

(٢) الشرب: القوم يشربون، ويجمعون على الشراب. (لسان العرب ٤٨٨/١ مادة: شرب).

قوله جل ذكره: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾.

والقوم عن الدارِ وعمَّن في الدارِ مُخْتَطِّفُونَ لاستيلاء ما يستغرقهم؛ فالشراب يؤنسهم ولكن لا يَمُنَّ بجانسهم؛ وإذا كان - اليوم - للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعة امتناع عن سماع خطاب الأغيار، وشهود واحد من المخلوقين - وإن كان ولدًا عزيزًا، أو أخًا شقيقًا - فَمِنْ المحال أن يُظَنَّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى... إن كان من أهل القبول والجنة، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة. وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسي في غُرْبَتِهِ من مُقاساة اللتيا والتي - فماذا يجب أن يقال إذا رجع إلى منزله؟ أيبقى على ما كان عليه في سفرته؟ أم يلقى غير ما كان يقاسي في سفرته، ويتجرع غير ما كان يُسقى من كاسات كُرْبَتِهِ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ كُنَّا عَلَيْهِ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

لولا أنهم قالوا: ﴿فَمَنْ كُنَّا عَلَيْهِ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم، ولكن الحق - سبحانه - اختطفهم عن شهود إشفاقهم؛ حيث أشهدهم مِنهُ عليهم حتى قالوا: ﴿فَمَنْ كُنَّا عَلَيْهِ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

أي أنهم يعلمون أنك ليست بك كهانة ولا مجنون، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه؛ فالتسفيه يسط لسانه فيمن يشبه بما يعلم أنه منه بريء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ﴾.

نترصد به حوادث الأيام؛ فإن مثل هذا لا يدوم، وسيموت كما مات من قبله كهانٌ وشعراء.

ويقال: قالوا: إن أباه مات شابًا، ورَجَوُا أن يموت كما مات أبوه، فقال تعالى:

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا...﴾ فإننا منتظرون، وجاء في التفسير أن جميعهم ماتوا. فلا ينبغي

لأحد أن يؤمل موت أحد. فَقُلْ مَنْ تكون هذه صنعة إلا سبقتة المنيّة - دون أن يدرك ما يتمناه من الأمنية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أتأمرهم عقولهم بهذا؟ أم تحملهم مجاوزة الحد في ضلالهم وطغيانهم على هذا؟

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ قَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَاوُوا بَحْدِيثِ مَثَلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول من ذات نفسك فليأتوا بحديث مثله إن

كانوا صادقين فيما رموك به!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾.

كلا ليس الأمر كذلك، بل الله هو الخالق وهم المخلوقون^(١).

أم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ ﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رِزْقِ﴾.

— أي خزائن أرزاقه ومقدوراته؟ ﴿أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ﴾ المُتَسَلِّطُونَ عَلَى النَّاسِ؟.

أم لهم سُلَّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعِمُّهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ثم إنه سَفَهَ أحلامهم فقال:

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَتْلُوهُنَّ أَجْرًا فَهَمَّ مِنْ مَغَرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾.

أم تسألهم على تبليغ الرسالة أجراً فهم مثقلون من العُزم والإلزام في المال (بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك؟).

﴿أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ذلك؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي أن يمكروا بك مكرًا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يفعل شيئاً مما يفعل الله؟ تنزيهاً له عن ذلك!.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾.

أي إن رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم قالوا: إنه سحب مركوم رُكِمَ بعضه على بعض والمقصود أنهم مهما رأوا من الآيات لا يؤمنون. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا: إنما سَكَرَتْ أَبصارنا، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أي فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يموتون، يوم لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، ولا يُنصَرُونَ من عذابنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

دون يوم القيامة لهم عذاب القتل والسبي، وما نَزَلَ بِهِمُ مِنَ الْهُوانِ وَالْخِزْيِ يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِدِينِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ لِمُحَرِّرِكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

أنت بمرأى مِنَّا، وفي نصرَةٍ مِنَّا.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ : في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسي الصبر .

﴿وَسَيَجْجِيحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ .

أي تقوم للصلاة المفروضة عليك .

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَجْعَلُ لَدُنَّكَ السُّجُودَ﴾ .

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أمره أن يذكره في كل وقت ، وألا يخلو وقت من ذكره .

والصبر لحكم الله شديد ، ولكن إذا عرف اطلع الرب عليه سهل عليه ذلك وهان .

سورة النجم

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ حلِيمٌ رَحِيمٌ، يحلم فيما يعلم، ويستتر ما يبصر ويغفر، وعلى العقوبة يقدِر، يَرَى ويُخْفَى، ويَعْلَم ولا يُبْدَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

والثريا إذا سقط وغرب. ويقال: هو جَسُ النجوم أقسم بها.

ويقال: هي الكواكب. ويقال: أقسم بنجوم القرآن على النبي ﷺ ويقال هي الكواكب التي تُرْمَى بها الشياطين.

ويقال أقسم بالنبي ﷺ عند مُنْصَرَفِهِ من المعراج.

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقول الطالبين.

وجواب القسم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: أي ما ضلَّ عن التوحيد قط، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: الغي: نقيض الرشد. وفي هذا تخصيصٌ للنبي ﷺ حيث تولَّى - سبحانه - الذب عنه فيما رُمي به، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأذن له حتى قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، وهود قال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]. وغير ذلك، وموسى قال لفرعون: ﴿وَلَئِنْ لَأُطْنُكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال لنبينا ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: معناه ما ضلَّ صاحبكم، ولا غفل عن الشهود طَرْفَةً عين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآن إلا وحى يُوحَى. وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة؛ إذ قال لداود: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وقال في صفة نبينا ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

﴿ومتى ينطق عن الهوى﴾ وهو في محل النجوى؟ في الظاهر مزموومٌ بِزِمَامِ التقوى، وفي السرائر في إيواء المولى، مُصَفًّى عن كدورات البشرية، مُرَقًّى إلى شهود الأَحْدِيَةِ، مُكَاشَفٌ بجلال الصمدية، مُخْتَطَفٌ عنه بالكُلِّيَّةِ، لم تبقَ منه إلا للحقُّ بالحقِّ بقية... وَمَنْ كان بهذا النعت... متى ينطق عن الهوى؟

قوله جل ذكره: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ .
أي جبريل عليه السلام . و ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ : أي ذو قوة وهو جبريل . ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ
الْأَعْلَى﴾ أي جبريل .

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ .

دنا جبريل من محمد عليه السلام ، فتدلى جبريل : أي نزل من العلو إلى محمد .
وقيل : «تدلى» تفيد الزيادة في القرب ، وأن محمداً عليه السلام هو الذي دنا من
ربه ذو قرامة ، وأن التدلى هنا معناها السجود .

ويقال : دنا محمد من ربه بما أودع من لطائف المعرفة وزوايدها ، فتدلى بسكون
قلبه إلى ما أدناه .

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ : فكان جبريل - وهو في صورته التي هو عليها - من
محمد ﷺ بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى .
ويقال : كان بينه - ﷺ - وبين الله قَدْرُ قوسين : أراد به ذو قرامة لا ذو
مسافة .

ويقال : كان من عاداتهم إذا أرادوا تحقيق الألفه بينهم إصااق أحدهم قوسه
بقوس صاحبه عبارة عن عقد الموالاة بينهما ، وأنزل الله - سبحانه - هذا الخطاب على
مقتضى معهودهم . ثم رفع الله هذا فقال : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أي بل أدنى .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ﴾ .

أي أوحى الله إلى محمد ما أوحى . ويقال : أحمّله أحمالاً لم يطّلع عليها أحد .

ويقال : قال له : ألم أجذك يتيماً فأويتك؟ ألم أجذك ضالاً فهديتك؟

ألم أجذك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟

ويقال : بشّره بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أن الجنة مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم
حتى تدخلها أمتك . والأولى أن يقال : هذا الذي قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم
يُطْلِعْ أَحَدٌ . . . كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحده ؛ إذ رَقَاهُ إلى ما رَقَاهُ ، ولَقَاهُ
بما لَقَاهُ ، وأدناه حيث لا دنو قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غير ، وأصحاه له
في عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال . . . دون أن يُطْلِعَ أَحَدٌ على ما كان بينهما
من السِّرِّ .

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ .

ما كَذَّبَ فؤادُ محمدٍ ﷺ ما رآه ببصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَهُ قبل أن يراه .
قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَتَسْمُوهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ .

أفتجادلونه على ما يرى ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

أي جبريلُ رأى الله مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرَةِ المنتهى ؛ وهي شجرة في الجنة ، وهي منتهى الملائكة ، وقيل : تنتهي إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ ، ولا يَعْلَمُ ما وراءها إلا الله تعالى - وعندها ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ وهي جنة من الجنان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ .

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفي خبر : « يغشاها رفرف طير خُضِر » .

ويقال : يغشاها فَرَّاشٌ من ذَهَبٍ .

ويقال : أُعْطِيَ رسول الله ﷺ عندها خواتيم البقرة ، وَغُفِرَ لِمَن مَاتَ مِنْ أُمَّتِهِ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى ﴾ .

ما مَالٌ - صلوات الله عليه وسلامه - ببصره عمّا أُبَيحَ له من النظر إلى الآيات ، والاعتبارِ بدلائلها .

فما جَاوَزَ حَدَّهُ ، بل رَاغَى شروطَ الأدبِ في الحضرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ .

أي « الآية » الكبرى ، وَحَذَفَ الآيةَ . . . وهي تلك التي رآها في هذه الليلة .
ويقال : هي بقاءه في حال لقائه ربّه بوصفِ الصُّخْرِ ، وَحَفَظَهُ حتى رآه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَوَازِئَ الثَّالِثَةِ ثُمَّ إِلَّاكُمْ أَلْذَكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها ؛ فاللات صنمٌ لثيف ، والعزى شجرةٌ لغطفان ، ومناة صخرةٌ لهذيل وخزاعة .

ومعنى الآية : أخبرونا . . . هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فعلنا نحن لمحمدٍ ﷺ من الرُتْبِ والتخصيص ؟ .

ثم وبَّحَهُمْ فقال: أرايتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله؟ تلك إذا قسمة ناقدة!

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابْنَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾.

أنتم ابتدعتم هذه الأسماء من غير أن يكون الله أمركم بهذا، أو أذن لكم به. فأنتم تتبعون الظنّ، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾: فأعرضوا عنه، وكما أن ظنّ الكفار أوجب لهم الجهل والخيرة والحكم بالخطأ - فكذلك في هذه الطريقة: مَنْ عَرَّجَ على أوصاف الظنّ لا يَحْظَى بشيء من الحقيقة؛ فليس في هذا الحديث إلا القطع والتحقيق، فنهارهم قد مَتَّعَ، وشمسهم قد طلعت، وعلومهم أكثرها صارت ضرورية.

أما الظنّ الجميل بالله فليس من هذا الباب، والتباس عاقبة الرجل عليه ليس أيضاً من هذه الجملة ذات الظنّ المعلوم في الله، وفي صفاته وأحكامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾.

أي ليس للإنسان ما يتمناه؛ فإنه يتمنى طول الحياة والرفاهية وخضب العيش... وما لا نهاية له، ولكن أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه.

ويقال: ما يتمناه الإنسان أن يرتفع مراده واجباً في كل شيء - وأن يرتفع مراد عبدي واجباً في كل شيء ليس من صفات الخلق بل هو الله، الذي له ما يشاء:

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾.

له الآخرة والأولى خلقاً وملكاً، فهو المليك المالك صاحب المليك التام. فأمّا المخلوق فالنقص لازم للكُلّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وهذا ردّ عليهم حيث قالوا: إن الملائكة شفاعونا عند الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأَثَمِ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

هذه التسمية من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً... بل ظناً - والظن لا يفيد شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْآلِهَةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ .

أي أعرض عمن أعرض عن القرآن والإيمان به وتدبر معانيه، ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإن ربك عليهم بالضال، عليهم بالمهتدي... وهو يجازي كلًا بما يستحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ .

يجزي الذين أساءوا بالعقوبات، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْرِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ .

الذنوب كلها كبائر لأنها مخالفة لأمر الله، ولكن بعضها أكبر من بعض. ولا شيء أعظم من الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ المعاصي.

﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً - فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتي المرء ذلك ثم يقلع عنه بالتوبة.

وقال بعض السلف: هو الوقعة من الزنا تحصل مرة ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة... وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهمل بالزلة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النظر. ويقال: ما لا حد عليه من المعاصي، وتكفر عنه الصلوات. (والأصح أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْغُفْرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذْ أَنتَ أَشْرَكُ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتَ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ .

﴿إِذْ أَنتَ أَشْرَكُ مِنَ الْأَرْضِ﴾: يعني خلق آدم.

ويقال: تزكية النفس من علامات كون المرء محجوباً عن الله؛ لأنَّ المجدوب إلى الغاية والمستغرق في شهود ربه لا يزكي نفسه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾: لأنه أعلم بكم منكم.

ويقال: من اعتقد أن على البسيطة أحداً شراً منه فهو متكبر.

ويقال: المسلم يجب أن يكون بحيث يرى كل مسلم خيراً منه: فإن رأى

شيخاً، قال: هو أكثرُ منِّي طاعةً وهو أفضلُ منِّي، وإن رأى شاباً قال: هو أفضلُ منِّي لأنه أقلُّ منِّي ذنباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلَ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَاكْدَكَ﴾ .

أعرض عن الحق، وتصدّق بالقليل. ﴿وَاكْدَكَ﴾ أي قطع عطاءه.

﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ .

﴿فَهُوَ يَرَى﴾: فهو يعلم صِحَّةَ ذلك. يقال: هو المنافق الذي يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك:

﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾: فهو يرى حاله في الآخرة؟

﴿أَمْ لَمْ يَلْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ .

أم لم يُنبأ هذا الكافر بما في صحف موسى، وصحف إبراهيم الذي وفّى؛ أي أتم ما طوّل به في نفسه وماله وولده.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا نُرِذُّ وَرِذَّةً وَرِذَّةً أُخْرَى وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ .

الناس في سعيهم مختلفون؛ فَمَنْ كان سعيه في طلب الدنيا خَسِرَتْ صَفَقَتُهُ، ومن كان سعيه في طَلَبِ الجنة ربحت صَفَقَتُهُ، ومن كان سعيه في رياضة نفسه وصل إلى رضوان الله، وَمَنْ كان سعيه في الإرادة شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ ثم هداه إلى نفسه.

وأما الْمُذْنِبُ - فإذا كان سعيه في طلب غفرانه، وتَدَمَّ القلب على ما اسودَّ من ديوانه، فسوف يجد من الله الثواب والقربة والكرامة والزلفة.

وَمَنْ كان سعيه في عَدِّ أنفاسه مع الله؛ لا يُعْرَجُ على تقصير، ولا يُفَرِّطُ في مأمور فسيرى جزاء سعيه مشكوراً في الدنيا والآخرة، ثم يشكره بأن يُخاطِبَهُ في ذلك المعنى بإسماعه كلامه من غير واسطة: عبدي، سَعْيُكَ مشكور، عبدي، ذَنْبُكَ مغفور.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾: هو الجزاء الأكبر والأجل، جزاء غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ .

إليه المرجع والمصير، فابتداء الأشياء من الله خَلْقاً، وانتهاء الأشياء إلى الله مصيراً.

ويقال: إذا انتهى الكلام إلى الله تعالى فاسْكُتُوا.

ويقال: إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفة الله فليس بعده شيءٌ إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ... يُجربها على مراده - وهي حظوظ للعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَضْحَكُ وَأَبْكِي﴾.

أراد به الضحك والبكاء المتعارف عليهما بين الناس؛ فهو الذي يُجربه وَيُخْلُقُهُ.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

ويقال: أضحك أهل الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافر في الدنيا وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافر بهوانه.

ويقال: أضحك قلوب العارفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداء بسخطه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

أماته في الدنيا، وأحياه في القبر؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة.

ويقال: أماته في الدنيا، وأحياه في الحشر.

ويقال: أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة، وأحيا قلوب العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات نفوسهم بالمعاملات، وأحيا قلوبهم بالمواصلات.

ويقال: أماتها بالهيبة، وأحياها بالأنس.

ويقال: بالاستتار، والتجلي.

ويقال: بالإعراض عنه، والإقبال عليه.

ويقال: بالطاعة، والمعصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾.

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلقهما من التُّفْطَةِ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾.

﴿أَغْنَى﴾: أعطى الغنى، ﴿وَأَقْنَى﴾: أكثر القنية أي المال. وقيل ﴿وَأَقْنَى﴾: أي

أحوجه إلى المال - فعلى هذا يكون المعنى: أنه خَلَقَ الغنى والفقر.

ويقال: ﴿وَأَقْنَى﴾ أي أرضاه بما أعطاه.

ويقال: ﴿أَغْنَى﴾ أي أقنع، ﴿وَأَقْنَى﴾: أي أرضى.

﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشَّرَعِ﴾.

(الشعرى: كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء^(١) في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها فأعلم الله أنه ربُّ معبودهم هذا).

﴿وَأَنْتَهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودًا قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى﴾.

عاد الأولى هم قوم هود، وعاد الأخرى هي إرم ذات العماد، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً. وأهلك من قبلهم قوم نوح الذين كانوا أظلم من غيرهم وأغوى ليطول أعمارهم، وقوة أجسادهم.

﴿وَالْمُؤْنَفَكَةُ أَهْوَى فَفَشَنُهَا مَا عَشَى﴾.

أي المخسوف بها، وهي قرى قوم لوط، قلبها جبريل عليهم، فهي مقلوبة معكوسة.

وقوله: ﴿أَهْوَى﴾ أي: أسقطها الله إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها، ثم عكسها وألقاها في الأرض، فغشاها ما غشاها من العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَأْتِي آلَاءَ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾.

فبأي آلاء ربك - أيها الإنسان - تشكك؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامه عليهم وإحسانه إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾.

هو محمد ﷺ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين.

﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ فُتُوحًا يُبْدِي فِيهَا مَدَنٍ كَاشِفَةً﴾.

أي قربت القيامة. ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردها وكشفها إلا الله.

ويقال: إذا قامت قيامة هذه الطائفة - اليوم - فليس لها كاشفٌ غيره. وقيامتهم تقوم في اليوم غير مرة. تقوم بالهجر والتوى والفراق.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ هَذَا كَلِمَتٍ لَعْنَتُومُ﴾.

أفمن هذا القرآن تعجبون، وتكونون في شك، وتستهزئون؟

﴿وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ﴾: أي لاهون..

﴿فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾: فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه.

(١) الجوزاء: أحد بروج السماء. ونطاق الجوزاء: ثلاثة نجوم نيرة مصطفة في وسط الجوزاء.

سورة القمر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: كلمة بها نور القلوب والأبصار، ويعرفانها يحصل سرور الأرواح والأسرار. كلمة تدل على جلاله - الذي هو استحقاقه لأوصافه. كلمة تدل على نعته الذي هو غاية أفضاله والطفاه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

أجمع أهل التفسير على أن القمر قد انشق على عهد الرسول ﷺ.

قال ابن مسعود^(١): «رأيت حراء بين فلقتي القمر»^(٢) ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك؛ فقد روي أيضاً عن أنس^(٣) وابن عمر^(٤) وحذيفة^(٥) وابن عباس^(٦) وجبير بن مطعم^(٧)... كلهم رووا هذا الخبر.

(١) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (.... - ٣٢ هـ = - ٦٥٣ م) أبو عبد الرحمن، صحابي. من أكابرهم، فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادماً رسول الله الأمين وصاحب سره. ورفيقه في حله وترحاله وغزواته. وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً.

الأعلام ١٣٧/٤، والإصابة ت ٤٩٥٥، وغاية النهاية ٤٥٨/١، وحلية الأولياء ١٢٤/١.

(٢) هناك روايات أخرى للحديث: «إذا انفلق، انشق، فانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين أو فلقتين...» أخرجه مسلم (منافقين ٤٤، ٤٥)، والترمذي (تفسير سورة ٥٤، ١)، وأحمد بن حنبل ١، ٤٤٧.

(٣) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري (١٠ ق هـ - ٩٣ هـ = ٦١٢ - ٧١٢ م) أبو ثمامة أو أبو حمزة. صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.

الأعلام ٢٤/٢، ٢٥، وطبقات ابن سعد ١٠/٧، وصفة الصفوة ٢٩٨/١، وتهذيب ابن عساكر ١٣٩/٣.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ١٠٨/٤، والإصابة ت ٤٨٢٥، وحلية ٢٩٢/١، وصفة الصفوة ٢٢٨/١.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ١٧١/٢، وتهذيب التهذيب ٢١٩/٢، وحلية ٢٧٠/١، وصفة الصفوة ٢٤٩/١.

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٩٥/٤، وصفة الصفوة ٣١٤/١، وحلية ٣١٤/١، والإصابة ت ٤٧٧٢.

(٧) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي (.... - ٥٩ هـ = - ٦٧٩ م) أبو عدي صحابي، كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسايبين. له ٦٠ حديثاً. =

وفيه إعجازٌ من وجهين: أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك، والثاني خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَهُ؛ لأنه لا ينكتُم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة. وأهل مكة رأوا ذلك، وقالوا: إنَّ محمداً قد سحر القمر.

ومعنى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾: أي ما بقي من الزمان إلى القيامة إلا قليل بالإضافة إلى ما مضى.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

يعني أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات عرضوا عن النظر فيها، ولو نظروا لحصل لهم العلم واجباً.

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي دائم قوي شديد.. ويقال إنهم قالوا: هذا ذاهب لا تبقى مدته فاستمر: أي ذهب.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾: التكذيب واتباع الهوى قريبان؛ فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب؛ لأنَّ الله يُلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد.

أما اتباع الرضا فمقرون بالتصديق؛ لأنَّ الله ببركات اتباع الحق يفتح عين البصيرة فيحصل التصديق.

وكل امرئ جرث له القسمة والتقدير فلا محالة. يستقر له حصول ما قُسم وقدَّر له.

﴿وَكَُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾: يستقر عمل المؤمن فتوجب له الجنة، ويستقر عمل الكافر فيجازى.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَلَغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذَرُ﴾.

جاءهم من أخبار الأنبياء والأمم الذين من قبلهم والأزمنة الماضية ما يجب أن يحصل به الارتداع، ولكن الحق - سبحانه - أشبل على بصائرهم سُجُوف^(١) الجهل فعموا عن مواضع الرشد.

﴿حِكْمَةٌ بَلَغَةٌ...﴾: بدل من (ما) فيما سبق: (ما فيه مزدجر).

= الأعلام ١١٢/٢، والإصابة ٢٣٥/١ وفيه: مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين.

(١) السجوف: (ج) السجف: أحد السترين المقرونيين بينهما فرجة.

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكر فيها .

﴿فَمَا تُنِىُّ النَّذِرُ﴾ : وأي شيء يغني إنذار النذير وقد سبق التقدير لهم بالشقاء؟

قوله جل ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكِرٍ خَشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ .

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ : ها هنا تمام الكلام - أي فأعرض عنهم ، وهذا قبل الأمر

بالمقاتل . ثم استأنف الكلام: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ . .﴾ والجواب: ﴿يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ - أراد به يوم القيامة .

ومعنى ﴿نَكِرٍ﴾ : أي شيء ينكرونه (بهزوله وفظاعته)^(١) وهو يوم البعث

والحشر .

وقوله: ﴿خَشَعًا﴾ منصوب على الحال ، أي يخرجون من الأجداث - وهي القبور -

خاشعي الأبصار .

﴿... كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ .

كانهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ : أي مديمي النظر إلى الداعي -

وهو إسرافيل .

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ : لتوالي الشدائد التي فيه .

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ مَّكَذِبًا عَدَنًا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ فِدْعَا رَبِّهِ أَنِّي

مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ .

كذب قوم نوح نبيهم ، وقالوا: إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .

وقيل: ﴿وَازْدَجَرَ﴾ : أي استطار عقله ، أي قوم نوح قالوا له ذلك .

فدعا ربه فقال: إني مغلوب ؛ أي بتسلط قومي علي ؛ فلم يكن مغلوباً بالخنجة

لأن الحجة كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهم فانتصر منهم أي انتقم .

ففتحت أبواب السماء بماء منصّب ، وشققنا عيوناً بالماء ، فالتقي ماء السماء وماء

الأرض على أمرٍ قد قدر في اللوح المحفوظ ، وقدر عليه بإهلاكهم !

وفي التفاسير: أن الماء الذي تبع من الأرض نضب . والماء الذي نزل من

السماء هو البخار اليوم .

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ آلَ الْوُجِ وَدُسِّرُ﴾ .

وحملنا نوحاً على ﴿ذَاتِ الْوُجِ﴾ أي سفينة ، ﴿وَدُسِّرُ﴾ يعني المسامير وهي جمع

دسار أي مسمار .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمرأى منا. وقيل: تجري بأوليائنا.

ويقال: بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم.

ويقال: بأعين الماء الذي أنبعثه من أوجه الأرض.

﴿جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾: أي الذين كفروا بنوح.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

جعلنا أمر السفينة علامة بيّنة لِمَنْ يعتبر بها.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾: فهل منكم من يعتبر؟ أمرهم بالاعتبار بها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَبَتْ كَأَن كَانَ وَعْدُ رَبِّكَ﴾.

قالها على جهة التعظيم لأمره.

وقد ذكر قصة نوح هنا على أفصح بيان وأقصر كلام وأنتم معني.

وكان نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمراً، وأشدّهم للبلاء مقاساة.

ثم إن الله - سبحانه - لما نجى نوحاً من بعد هلاك قومه وامتع أولاده، فكل من على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام. وفي هذا قوة لرجاء أهل الدين، إذا لقوا في دين الله محنة؛ فإن الله يهلك - عن قريب - عدوهم، ويؤمنهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم.

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنة الله في جميع

أهل الضلال أن يعز أوليائه بعد أن يزهق أعداءه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

يسرنا قراءته على السنة الناس، ويسرنا علمه على قلوب قوم، ويسرنا فهمه على

قلوب قوم، ويسرنا حفظه على قلوب قوم، وكلهم أهل القرآن، وكلهم أهل القرآن،

وكلهم أهل الله وخاصته.

ويقال: كاشف الأرواح من قوم - بالقرآن - قبل إدخالها في الأجساد.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ لهذا العهد الذي جرى لنا معه.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ وَعْدُ رَبِّكَ وَنُذِرِ إِنَّا أَوْسَلْنَا عَلَيْكُمْ لَحْمَ صَرَصَرٍ فِي يَوْمٍ

نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ يَنْزِعُ النَّاسَ أَجْأَزُ نَحْلٍ مُّتَفَعِفٍ﴾.

كذبوا هوداً، فارسلنا عليهم ﴿لَحْمَ صَرَصَرٍ﴾ أي: باردة شديدة الهبوب، يُسمع لها

صوت.

﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم شؤم استمر في العذاب بهم، ودام ذلك فيهم

ثمانية أيام وسَنَعَ ليلًا. وقيل: دائم الشؤم تنزع رياحه الناس عن حُفَرِهِم التي حُفَرُوهَا حتى صاروا كأنهم أسافل نخل مُنْقَطِع. وقيل: كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم ثم تُلْقِي بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعت رؤوسها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

هَوَّنَا قراءته وحفظه؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقرأ ظاهراً إلا القرآن. قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ فَقَالُوا أَبُشِّرُكُمَا نَحْداً نَبِئُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صُلْبٍ وَمُعْرٍ﴾.

هم قوم صالح. وقد مضى القول فيه، وما كان من عقربهم للناقاة.. إلى أن أرسل الله عليهم صيحة واحدة أوجبت هذا الهلاك، فصَيَّرَهُم كَالْهَشِيمِ، وهو اليابس من النبات، ﴿الْمُخْطِرِ﴾: أي: المَجْعُولُ في الحظيرة، أو الحاصل في الحظيرة^(١). قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّدْرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾.

فأرسلنا عليهم ﴿حَاصِبًا﴾: أي: حجارة رُمُوا بها.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾: أي: جعلنا إنجاءهم في إهلاك أعدائهم.

وهكذا نجزي من شكر؛ فمثل هذا نعامل به مَنْ شَكَرَ نعمتنا. والشُّكْرُ على نِعَمِ الدِّفْعِ أَتَمُّ من الشُّكْرِ على نِعَمِ النِّفْعِ - ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كُلُّ مُوقِفٍ كَيْسٍ^(٢).

﴿فَطَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾.

جاء جبريلُ وَمَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى وجوههم فَعَمُوا، ولم يهتدوا للخروج - وكذلك أجرى سُنَّتَهُ في أوليائه أَنْ يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أوليائه ثم يُخْلِصُهُمْ من كيدهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَهَرُّمُ لَجَمْعٍ وَيَوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول ﷺ، وحقَّق ذلك يوم بدر، فصار ذلك معجزاته صلوات الله عليه وسلامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

سَخَبُهُمْ على الوجوه أمارَةٌ لإذلالهم، ولو كان ذلك مرة واحدة لكانت عظيمة - فكيف وهو التأييد والتخليد!

وكما أن أمارَةَ الدُّلِّ تظهر على وجوههم فعلامَةُ إِعْزَازِ الْمُؤْمِنِينَ وإكرامهم تظهر

(١) الآيات من (٢٥ حتى ٣٢) غير موجودة.

(٢) الآية (٣٦) لم ترد.

على وجوههم، قال تعالى: ﴿وَبُجُوهٌ يُؤْمَرُ نَاصِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]. وقال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

أي بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويقال: خلقناه بقدر ما عَلِمْنَا وأرَدْنَا وأخْبَرْنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

أي إذا أردنا خلق شيء لا يتعسر ولا يتعذر علينا، نقول له: كُنْ - فيكون بقدرتنا. ولا يقتضي هذا استئناف قول في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القدم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يحصل في ذلك الوقت.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: أي كما أن هذا القدر عندكم أي قدر ما يلمح أحدكم ببصره لا تلحقكم به مشقة - كذلك عندنا: إذا أردنا نخلق شيئاً - قل أو كثر، صغر أو كبر - لا تلحقنا فيه مشقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

أي أهلكنا القرون التي كانت قبلكم فكلهم أمثالكم من بني آدم...

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يعمل. وفي صحيفة الملائكة مكتوب. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾.

كل صغير من الخلق، وكل كبير من الخلق - تخترمه المنية.

ويقال: كل صغير من الأعمال وكبير مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي ديوان الملائكة.

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف؛ لئلا يتجاسر العبد على الزلة إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْأُنَاقِثَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾.

لهم بساتين وأنهار، والجمع إذا قوبل بالجمع فالأحاد تُقَابَلُ بالأحاد.

فظاهر هذا الخطاب يقتضي أن يكون لكل واحد من المتقين جنة ونهر.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: أي في مجلس صدق.

﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾: أراد به عنديّة القرية والزلفة.

ويقال: مقعد الصدق أي مكان الصدق، والصادق في عبادته مَنْ لا يتعبدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض.

ويقال: مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْهُ الأطماع، وَمَنْ صَدَقَ في العبوديَّة تحرَّرَ عن المقاصد الدنيَّة.

ويقال: مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْهُ الدنيا عن الآخرة، وَمَنْ أَسْرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة، وَمَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكون بجملته.

سورة الرحمن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: إخبار عن عزّه وعظمته.

«الرحمن الرحيم»: إخبار عن فضله ورحمته.

فبشهود عظمته يكمل سرور الأرواح، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح. ولولا عظمته لما عبّد الرحمن عابداً ولولا رحمته لما أحبّ الرحمن واحداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

أي الرحمن الذي عرّفه الموحّدون وجحدّه الكافرون هو الذي علّم القرآن. ويقال: الرحمن الذي رحمهم، وعن الشّرك عصمهم، وبالإيمان أكرمهم، وكلمة التقوى ألزمهم - هو الذي عرفهم بالقرآن وعلّمهم.

ويقال: انفرد الحق بتعليم القرآن لعباده.

ويقال: أجرى الله سنّته أنه إذا أعطى نبينا ﷺ شيئاً أشرك أمته فيه على ما يليق بصفاتهم؛ فلمّا قال له (ﷺ): ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

قال لأمته: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

ويقال: علّم الله آدم الأسماء كلّها ثم أمره بعرضها على الملائكة وذكر آدم ذلك لهم - قال تعالى: ﴿أُنَبِّئُكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣٣] يا آدم، وعلّم (نبينا ﷺ) (١) المسلمين القرآن فقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، والمُصلّي مُناجٍ ربه» (٢) قال لآدم: أذكّر ما علّمك للملائكة. وقال لنا: ناجني يا عبدي بما علّمك. وقد يُلاطف مع أولاد الخدم بما لا يُلاطف به آبائهم.

ويقال: لمّا علّم آدم أسماء المخلوقات قال له: أخبر الملائكة بذلك، وعلّمنا كلامه وأسماءه فقال: اقرأوا عليّ وخاطبوا به معي.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٧/٣، ٤٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/٢٥٢)، وأبو عوانة في (المسند ١٢٥/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٢٤/٧)، وصاحب (الأذكار النووية ٤٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١٤٣٧/٤).

ويقال: عُلِّمَ الأرواحَ القرآنَ - قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة، والصبيان إنما يُعَلِّمُونَ القرآنَ - في حالِ صِبْغِهِمْ - قبل أنْ عَرَفَتْ أرواحنا أحداً، أو سَمِعْنَا من أحدٍ شيئاً. . عَلَّمْنَا أسماءه:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبي فارغاً فَتَمَكَّنَا
ويقال: سَقِيًّا لآيام مضت - وهو يُعَلِّمنا القرآنَ.

ويقال: برحمته عَلَّمَهُم القرآنَ؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن - لا بقراءة القرآن يَصِلُونَ إلى رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ أَلْبَانَ﴾.

﴿الْإِنْسَانَ﴾: ها هنا جنسُ الناس؛ عَلَّمَهُم البيانَ حتى صاروا مُمَيِّزِينَ - فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان. وَعَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُم الذي يتكلمون ويتخاطبون به. والبيان ما به تبيّن المعاني - وَشَرَّحَهُ في مسائل الأصول.

ويقال: لَمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ رَدَّ الله - سبحانه - عليهم وقال: بل عَلَّمَهُ اللَّهُ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ ﷺ. وقيل هو آدم عليه السلام.

ويقال: البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرفُ به كَيْفِيَّةُ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال. وأما أهل الإيمان والمعرفة فبيانهم هو عَلِمُهُم كَيْفِيَّةُ مخاطبةِ مولاهم - وبيانُ العبيد مع الحقِّ مختلفٌ: فقومٌ يخاطبونه بلسانهم، وقومٌ بأنفاسهم، وقومٌ بدموعهم:

دموعُ الفتى عمّا يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبدين ما هو يكتُم
وقومٌ بأنينهم وحنينهم:

قُلْ لي بالسنة التنفُّسُ كيف أنت وكيف حالك؟

قوله جلّ ذكره: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

يعني يجري أمرهما على حدٍّ معلوم من الحساب في زيادة الليل والنهار، وزيادة القمر ونقصانه، وتُعرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأجلُ. . فالشمسُ تُكَوِّرُ والقمرُ يَتَكَدِّرُ.

وكذلك لشمس المعارفِ وأقمار العلوم - في طلوعها في أوج القلوبِ والأسرار - في حكمة الله حسابٌ معلومٌ، يُجْريها على ما سَبَقَ به الحُكْمُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ويقال: النجم من الأشجار: ما ليس له ساق، والشجر: ما له ساق.

ويقال: النجوم الطالعة والأشجار الثابتة ﴿يَسْجُدَان﴾ سجود دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

سَمَك السماء وأعلاها، وعلى وصف الإتقان والإحكام بناها، والنجوم فيها أجراها، وبث فيها كواكبها، وحفظ عن الاختلال مناكبها، وأثبت على ما شاء مشارفها ومغاربها. . . وخلق الميزان بين الناس ليعتبروا الإنصاف في المعاملات بينهم.

ويقال: الميزان العدل.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

احفظوا العدل في جميع الأمور؛ في حقوق آدميين وفي حقوق الله، فيعتبر العدل، وترك الحيف ومجاوزة الحد في كل شيء؛ ففي الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاص، وفي الأحوال الصدق، وفي الأنفاس الحقائق ومساواة الظاهر والباطن وترك المداينة والخداع والمكر ودقائق الشرك وخفايا النفاق وغوامض الجنيات.

﴿وَأَقِيمُوا أُلُوزَك بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تكالوا به، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾.

خلق الأرض وجعلها مهاداً ومثوى للأنام.

ويقال: وضعها على الماء ويسط أقطارها، وأنبت أشجارها وأزهارها، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارها.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ . . . يعني ألوان الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها، وحرارتها وبرودتها. . . وغير ذلك من اختلاف في حبها وشجرها، وورقها ونورها.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ وأكمام النخل ليفها وما يُغْطِيها من السعف.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾: حب الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحبوب.

﴿ذُو الْعَصْفِ﴾: والعصف ورق الزرع^(١).

(١) العصف: ما كان على ساق الزرع من الورق الذي يبس فيفتت، وقيل: هو ورقه من غير أن يُعَيَّنَ يبس ولا غيره، وقيل: ورقه وما لا يؤكل. وفي التنزيل: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني=

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الذي يُشَمُّ .. ويقال: «الرزق لأن العرب تقول: خرجنا نطلب ريحان الله».

ذُكِرَهم عَظِيمٌ مِثْلَهُ عَلَيْهِم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التي ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فبأي آلاء ربكما تجحدان؟ والآلاء الثعماء.

والثنية في الخطاب للمُكَلَّفِينَ من الجن والإنس.

ويقال: هي على عادة العرب في قولهم: خليلي، وقفاً، وأرحلها بأغلام، وأرجراها بأغلام.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

﴿الْإِنْسَانُ﴾: يعني آدم، والصلصال الطين اليابس الذي إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار. ويقال: طين مخلوط بالرمل.

ويقال: مُتَتَّنٌ؛ من قولهم صَلَّ وَأَصَلَ إذا تَغَيَّرَ.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾.

المارج: هو اللهب المختلط بواد النار.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يُذَكَّرُ الخَلْقُ من الجن والإنس كما سبق - وكرَّرَ اللَّهُ سبحانه هذه الآية في غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل، أي نعمة بعد نعمة.

ووجه النعمة في خلق آدم من طين أنه رقاها إلى رتبته بعد أن خلقه من طين.

ويقال ذُكِرَ آدم نِسْبَتَهُ وَذُكِّرْنَا نِسْبَتَنَا لثلاث نَعَجَبَ بأحوالنا.

ويقال عَرَفَهُ قَدْرَهُ لثلاث يتعدى طَوْرَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾: مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما.

ووجه النعمة في ذلك جريانها على ترتيب واحد حتى يكمل انتفاع الخلق بهما.

ويقال: مشرق القلب ومغربه، وشوارق القلب وغوار به إنما هي الأنوار

والبصائر التي جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى.

= بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه، وأما الريحان فالرزق وما أكل منه، وقيل: العصف التبن وقيل: هو ما على حب الحنطة ونحوها من قشور التبن. (اللسان ٢٤٧/٩ مادة: عصف).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾.

﴿بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر، أراد به البحر العذب والبحر المالح. ويقال: لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم^(١).

﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانُ﴾.

اللؤلؤ: كبار الدرّ، والمرجان: صغار الدرّ. ويقال: المرجان النّسل.

وفي الإشارة: خَلَقَ في القلوب بحرين: بحر الخوف وبحر الرجاء. ويقال القبض والبسط. وقيل الهيبة والأنس. يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية.

ويقال: البحرين. إشارة إلى النفس والقلب، فالقلب هو البحر العذب والنفس هي البحر المالح. فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين، وكلُّ حالة لطيفة. ومن النفس كل خلق ذميم. والدرّ من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التماسح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾: يصون الحقُّ هذا عن هذا، فلا يبغي هذا على هذا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الْبُحَارُ الْأُولَى فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾.

﴿الجواري﴾: واحدها جارية، وهي السفينة.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾: الجبال.

له هذه السفن التي أنشئت وخلقّت في البحر كأنها الجبال العالية^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز. ومن حيث الخبر: «ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» «والوجه»: صفة لله - سبحانه - لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلّ عليه جوازاً، وورد الخبر بكونه قطعاً.

ويقال: في بقاء الوجه بقاء الذات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شرطها قيامها بنفسه وذاته. وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعرَفُ بالعقل، والوجه لا يُعرَفُ بالعقل، وإنما يُعرَفُ بالنقل والأخبار. و «يبقى»: وفي بقائه. سبحانه خَلَفَ عن كلِّ تلفٍ، وتسليّة للمسلمين عمّا يصيبهم من المصائب، ويفوتهم من المواهب^(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُكَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

(١) الآية (٢١) لم ترد.

(٣) الآية (٢٥) لم ترد.

(٢) الآية (٢٣) لم ترد.

(٤) الآيتان (٢٧ - ٢٨) لم تردا.

أهل السموات يسألون أبدأ المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة، أي لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه).

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله: وهم مَنْ قيل فيهم: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١).

ويقال: ليس كلُّ مَنْ في السموات والأرض يسألونه ممَّا في السموات والأرض ولكن:

بين المحبين سرٌّ ليس يُغشيه قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلخَلْقِ يحكيه ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إحياء وإماتة، وقبض قوم وبسط قوم. . . وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات، وما يُجرِّبه عليها من اختلاف الصفات.

وفي الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا: إِنَّ اللَّهَ يَسْتَرِيحُ يَوْمَ السَّبْتِ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِجَ العالم لحظةً من حِفْظِهِ لتلاشى وبطل.

(ومن شأنه أن يغفر ذنباً، ويستتر عيباً، ويذهب كرباً)، ويُطِيب قلباً، ويُقصي عبداً ويُدْني عبداً. . . إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلُّ ساعةٍ برٌّ جديدٌ، وسرٌّ بينه وبين عبده - عن الرقباء - بعيد.

ويقال: كل يوم هو في شأنٍ سَوَّقِ المقادير إلى أوقاتها.

ويقال: كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسرٍّ ظاهرٍ، وإحضارٍ غائبٍ وتغييبٍ حاضرٍ^(٢).

قوله جلَّ ذكره: ﴿سَتَفْرُجُ لَكُمْ آيَةَ الْفُلَانِ﴾^(٣).

أي للحساب يوم القيامة - وليس به اشتغال. . . تعالى الله عن ذلك.

ومعنى الآية: ستقصد لحسابكم^(٤).

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَمَعْتَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْذُوا لَا تَفْذُوتَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

أقطار السموات والأرض نواحيها. أي إن قدرتم أن تخرجوا من ملكه فاخرجوا.

(١) أخرجه الترمذي (ثواب القرآن ٢٥)، والدارمي (فضائل القرآن ٦).

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(٣) الفلّان: الجن والإنس سُميا بذلك لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتميز والعقل الذي خصَّاه، وقيل: لأنهما كالثقل للأرض وعليها. (لسان العرب ٨٨/١١ مادة: ثقل).

(٤) الآية (٣٢) لم ترد.

ثم قال: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. أي لا تصلون إلى موضع إلا وهناك سلطاني ومُلْكِي ولا تنفذون في قَطْرِ إِلَّا وهناك عليكم حجة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾.

أي فلا تنتقمان. والشواظ: اللهب من النار لا دخان معه. والنحاس: الصُّفْر^(٢) المذاب^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

ينفك بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر. ويقال: بها الفُرْش الموردة كالدهان وهو جمع دهن. أي كدهن الزيت وهو دردي^(٤) الزيت.

ويقال: كما أن الوردة يتلون لونُها؛ إذ تكون في الربيع إلى الصُّفْرة، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة - فكذاك حال السماء تتلون من وصف إلى وصف في القيامة^(٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَخُ عَنْ ذُلِّيهِ إِثْرٌ وَلَا جَنَّةٌ﴾.

أراد في بعض أحوال القيامة لا يُسألون، ويُسألون في البعض... فيوم القيامة طويل.

ويقال: لما كانت لهم يومئذ علامات: فللكفار سواد الوجه وزُرْقَةُ العين، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات - فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم: من أنتم؟ لأنهم يعرفون كلاً بسيماهم.

ويقال: لا يُسألون سؤالاً يكون لهم ويُسألون سؤالاً يكون عليهم^(٦).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

المؤمنون غرّ مُحَجَّلُونَ^(٧)، والكفار سود الوجوه زُرْقُ العيون، فيعرف الملائكة

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

(٢) الصفر: النحاس الجيد، وقيل: الصفر ضرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه. (اللسان ٤/ ٤٦١ مادة: صفر).

(٣) الآية (٣٦) لم ترد.

(٤) الدردي: ما رسب أسفل الزيت والعمل ونحوهما.

(٥) الآية (٣٨) لم ترد.

(٦) الآية (٤٠) لم ترد.

(٧) الغرّ المحجلون: أي بيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام، استعار الوضوء في الوجوه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون من وجه الفرس ويديه ورجليه. (لسان العرب ١٤٤/١١ مادة: حجل).

هؤلاء فيأخذون بنواصيهم^(١) ويَجْرُونَهُمْ مرةً بها ومرةً بأقدامهم ثم يلقوْنَهُمْ في النار،
ويطرحونهم في جهنم^(٢):

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ ءَانُوْا﴾.

يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون!

﴿حَمِيرٍ﴾: ماء حار. ﴿ءَانُوْا﴾ تنأى في النضج^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾.

يقال: لِمَنْ خاف قُرْبَ رَبِّهِ منه واطلاعه عليه.

ويقال: لمن خاف وقوفه غداً بين يدي الله - جنتان، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم: خليلي ونحوه.

وقيل: بل جنتان على الحقيقة، مُعَجَّلَةٌ في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح الوقت، ومؤجَّلَةٌ في الآخرة وهي جنة الثواب. ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم^(٤).

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْكًا زَكَاةً فَكَذِبَانِ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾.

دلٌّ على أن الجنتين في الآخرة. والأفنان الأعصان. وهي جمع فن.

ويقال: ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتت به النفس والعين - وتكون جمع فن. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ إحداهما التسليم، والأخرى السلسيل.

ويقال: عينان تجريان غداً لمن كان له - اليوم - عينان تجريان بالدموع^(٥).

﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

زوجان أي صنفان وضربان؛ كالرطب واليابس، والعنب والزبيب.

ويقال: إنها في نهاية الحسن والجودة^(٦).

﴿مُشْكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ﴾.

بطائنها من استبرق فكيف بظواهرها؟ «البطائن»: ما يلي الأرض.

«والاستبرق»: الديباج الغليظ. وإنما خاطبهم على قَدْرِ فَهْمِهِمْ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أَفْهَامِهِمْ.

(١) النواصي: (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس يكون حذاء الجبهة.

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

(٤) الآية (٤٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥١) لم ترد.

(٦) الآية (٥٣) لم ترد.

﴿وَحَيَّ الْجَنَّةِينَ دَانٍ﴾: أي ما يجتنى من ثمرها - إذا أرادوه - دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تناولهم. وفي الخبر المسند: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ أَصْلُهَا الذَّهَبُ وَفَرْعُهَا الدَّرُّ وَطَلْعُهَا كَثْدَى الْأَبْكَارِ أَلَيْنَ مِنَ الزَّبَدِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، كُلَّمَا أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا عَادَ كَمَا كَانَ»^(١) - وذلك قوله: ﴿وَدَنَا الْجَنَّةِينَ دَانٍ﴾.

ويقال: ينالها القائم والقاعد والنائم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فِيَنَّا قَصْرَتْ الظُّرُفُ لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾.

أي في الجنان حورٌ قَصْرُنَ عيونهن عن غير أزواجهن.

وإذا كانت الزوجات قاصرات الظُّرُفِ عن غير أزواجهن فأولى بالعبد إذ رجا لقاءه - سبحانه - أن يقصر طُرفه وَيَغْضَهُ عن غير مُبَاحٍ.

بل عن الكل... إلى أن يلقاه.

ويقال: من الأولياء مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ - وإن أُبِيحَ لَهُ ذَلِكَ لِتَحْرُورِهِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَلَعَلَّوْهُمُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ - وأنشدوا:

جِئْنَا بَلِيلِي وَهِيَ جُنَّتْ بَغِيرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نَرِيدُهَا

ويقال: هُنَّ لَمَنْ قَصُرَتْ يَدُهُ عَنِ الْحَرَامِ وَالشَّبَهَةِ، وَطُرفُهُ عَنِ الرَّيْبِ.

﴿لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾: لم يصحبهن غيرُ الولي ولم يَحْزُنْ غَيْرُهُ، وفي الخبر: «اشتاقت الجنة لثلاثة»^{(٣)(٤)}.

﴿كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾.

أي: في صفاء الياقوت ولون المرجان^(٥).

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾.

يقال: الإحسان الأول من الله والثاني من العبد؛ أي: هل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالنِّصْرَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْخِدْمَةِ؟ وهل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالْوَلَاءِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْوَفَاءِ؟

(١) أخرجه البخاري (إيمان ١٩)، ومسلم (طهارة ١) وأبو داود (صلاة ١٣٥)، (تطويع ١٤)، والترمذي (وتر ١٩)، والدارمي (استئذان ٥٣)، والموطأ (قرآن ٢٣)، وأحمد بن حنبل ٧١/١، ١٥٨/٢، ٢١٠، ٢١١، ٣٥٣/٣، ١٥٢، ٤٤٣، ٢٣٧/٤، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٨٢، ١٠/٥، ١١، ٢٠، ٢١، ١٦٨، ١٧٣، ٢٥٣، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٦).

(٢) الآية (٥٥) لم ترد.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢٨٣/١).

(٤) الآية (٥٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥٩) لم ترد.

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثاني من الله؛ أي: هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحَسَّنَ إليه من حيث القبول والثواب؟

وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحَسَّنَ إليه من حيث النعمة؟ ويصح أن يكون الإحسانان من الحق؛ أي: هل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إليه في الابتداء إلا أن نُحَسِّنَ إليه في الانتهاء؟ وهل جزاء مَنْ فاتحنه باللطف إلا أن نُزَيِّي له في الفضل والعطف؟

ويصح أن يكون كلاهما من العبد؛ أي: هل جزاء من آمن بنا إلا أن يَثْبُت في المستقبل على إيمانه؟ وهل جزاء مَنْ عَقَّدَ معنا عقد الوفاء إلا أن يقوم بما يقتضيه بالتفصيل؟

ويقال: هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِهِ إلا أن نُقَرِّبَهُ مِنَّا؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَن نَفْسِهِ إلا أن يبقى بنا؟

وهل جزاء مَنْ رَفَعَ لَنَا خطوة إلا أن نكَافِئَهُ بكل خطوة ألف خطوة، وهل جزاء من حفظ لنا طَرَفَهُ إلا أن نُكْرِمَهُ بِلِقَائِنَا^(١)؟

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾.

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتَا؛ جنتان أُخْرَيَان. وليس يريد دونهما في الفضل، ولكن يريد ﴿جَنَّتَانِ﴾ سواهما^(٢).

﴿مُدْهَاتَانِ﴾.

أي: خضراوان خُضِرَتْ تضرب إلى السواد. فالدهمة السواد والفعل منه ادهامٌ والاسم منه مُدْهَامٌ. وللمؤنث مدهامة، ولتثنية المؤنث مدهامتان^(٣).

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾.

والتَّضَخُّ فَوْرَانُ العينِ بالماء^(٤).

﴿فِيهِمَا فُكْكُهُ وَنُجْلٌ وَرَيَّانٌ﴾.

الأسماء متشابهة.. والعينون فلا^(٥).

﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حِسَانٌ﴾.

أي: حورٌ خَيْرَاتُ الأخلاقِ حِسَانٌ الوجوه. واحدها خَيْرَةٌ والجمع خَيْرَاتٌ وهذا هو الأصل ثم خُفِّفَ فصارت خيرات^(٦).

(٤) الآية (٦٧) لم ترد.

(٥) الآية (٦٩) لم ترد.

(٦) الآية (٧١) لم ترد.

(١) الآية (٦١) لم ترد.

(٢) الآية (٦٣) لم ترد.

(٣) الآية (٦٥) لم ترد.

﴿حُرِّمَتْ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾.

محبوسات على أزواجهن. وهُنَّ لِمَنْ هو مقصور الجوارح عن الزَّلَّات، مقصور القلب عن الغفلات، مقصور السرُّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشياء والأمثال. وفي بعض التفاسير: أن الخيمة من دُرَّة مجوفة فرسخ^(١) في فرسخ لها ألف باب.

ويقال: قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن. وفي الخبر: «أنهن يقلن: نحن الناعمات. فلا نبؤس، الخالدات فلا نبيد، الراضيات فلا نسخط»^(٢).

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها: «أن المؤمنات أجبنهن: نحن المصليات وما صَلَّيْنَتُنَّ، ونحن الصائمات وما صُفْمَتُنَّ، ونحن المتصدقات وما تَصَدَّقْتُنَّ» قالت عائشة يغلبهن^(٣) قوله:

﴿لَوْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٤).

قوله جل ذكره: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾.

قيل: رياض الجنة، وقيل: المجالس، وقيل: الزرابي^(٥) والوسائد - وهي خَضِرٌ

﴿وعبقرِيٍّ حسانٍ﴾: العبقرى عند العرب كلُّ ثوبٍ مَوْشَى^(٦).

قوله جل ذكره: ﴿تَبَرَّكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

مضى تفسيره.

(١) الفرسخ: فرسخ الطريق: مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ متراً (ج) فراسخ (مع) فارسي.

(٢) أخرجه الترمذي (جنة ٢٤)، وأحمد بن حنبل ١، ١٥٦.

(٣) الآية (٧٣) لم ترد.

(٤) الآية (٧٥) لم ترد.

(٥) الزرابي: (ج) الزريبة: البساط أو السجادة، أو الوسادة تُبسط لِيَتَكأَ عليها.

(٦) الآية (٧٧) لم ترد.

سورة الواقعة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ اللَّهِ»: اسم جَبَّارٌ مَنْ اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه، فإن أبى إلا تمادياً في عصيانه حَالٌ بينه وبين اختياره بَقْهَرِ سلطانه، وإن لم يلزم هذه الطاعة أَلْجَأَهُ بالبلاءِ فيأتيها باضطرابه.

اسم عزيزٌ أزلِيٌّ، جَبَّارٌ صَمَدِيٌّ، قَهَّارٌ أَحَدِيٌّ، للمؤمنين وليٌّ، وبالعاصين حَفِيٌّ، ليس لجماله كَفِيٌّ، ولا في جلاله سَمِيٌّ، لكنه للْعَصَاةِ من المؤمنين وليٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَئِيسَ لَوْفَعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾.

إذا قامت القيامة لا يردّها شيء.

﴿كَاذِبَةٌ﴾ هاهنا مصدر: كالعافية، والعاقبة: أي: هي حَقَّةٌ لا يردّها شيء، وليس في وقوعها كذب.

ويقال: إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ مِنْهَاجِ الصَّحَةِ والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقي الكرامة، وَمَنْ حَاذَ عَنْ نَهْجِ الاستقامة وَقَعَ فِي النَّدَامَةِ والغرامة، وعند وقوعها يتبين الصادق من المماذق:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِنْ تَبَاكِي

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأهل الشقاوة، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لأهل الوفاق.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأصحاب الدعاوى، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لأرباب المعاني.

﴿خَافِضَةٌ﴾: للنفوس، ﴿رَافِعَةٌ﴾: للقلوب.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأهل الشهوة، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لأهل الصفة.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لمن جَحَدَ، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لمن وَحَدَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾.

خُرُكَتْ حركةً شديدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾.

فُتِنَتْ فكانت كالهباء الذي يقع في الكوَّة عند شعاع الشمس .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
 مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ .

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؟ على جهته التفخيم لشأنهم والتعظيم لقدرهم وهم أصحاب
 اليمين والبركة والثواب .

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: على جهة التعظيم والمبالغة في ذمهم، وهم أصحاب
 الشؤم على أنفسهم ويقال: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم
 عليه السلام يوم الذر^(١)، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

ويقال: الذين يُعْطُونَ الكتابَ بآيمانهم، والذين يُعْطُونَ الكتابَ بشمائلهم .
 ويقال: هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين . . إلى الجنة، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات
 الشمال . . إلى النار .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة،
 والأفضال الجميلة .

ويقال: السابقون إلى الهجرة . ويقال: إلى الإسلام . ويقال: إلى الصلوات
 الخمس .

ويقال: السابقون بصدق القَدَم . ويقال: السابقون بعلو الهِمَم . ويقال: السابقون
 إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى التَّدَمُّ
 إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم .

ويقال: الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه:
 ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

ولم يقل: ﴿المتقربون﴾ بل قال: أولئك المقَرَّبُونَ - وهذا عين الجَمْع، فعَلِمَ
 الكافة أنهم بتقريب ربهم سبقوا - لا يتقَرَّبُهم .
 ﴿فِي جَنَّاتٍ الْعَاصِرِ﴾ .

أي: في الجنة . ويقال: مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا في الجنة ثم
 يُقَرَّبُونَ من الجنة، وإنما يُقَرَّبُونَ إلى غير الجنة: يُقَرَّبُونَ من بساط القربة . .
 وأننى بالبساط ولا بساط؟! مقربون . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث
 المسافة؛ مُقَرَّبَةٌ نفوسهم من الجنة وقلوبهم إلى الحق .

(١) الذر: أي بني آدم .

مُقَرَّبَةً قُلُوبُهُمْ مِنْ بَسَاطِ الْمَعْرِفَةِ، وَأَرْوَاحُهُمْ مِنْ سَاحَاتِ الشُّهُودِ - فالحقُّ عزيز . . لَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ، وَلَا فَضْلَ وَلَا وَضْلَ.

ويقال: مقربون ولكن من حظوظهم ونصيبهم . وأحوالهم - وإن صَفَتْ - فالحقُّ وراء الوراء.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

الثَّلَاةُ: الجماعة. ويقال: ثلثة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبينا ﷺ.

ويقال: ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ: من السلف وقليل من المتأخرين: من الأمة. ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾^(١).

أي منسوخة نسيج الدرع من الذهب. جاء في التفسير: طول كل سرير ثلاثمائة ذراع، إن أراد الجلوس عليه تواضع، وإن استوى عليه ارتفع. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾.

أي لا يرى بعضهم قفا بعض. وَصَفَهُمْ بِصِفَاءِ الْمَوَدَّةِ وَتَهَذُّبِ الْأَخْلَاقِ. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾.

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يرحلون ولدان في سنٍّ واحدة . . لا يهرمون. وقيل: مُقَرَّطُونَ (المخلدة . القُرط).

﴿يَا كُوبَ وَيَأَبَاقُ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ﴾.

﴿يَا كُوبَ﴾ جمع كوب وهي آنية بلا عروة ولا خرطوم، ﴿وَأَبَاقُ﴾: جمع إبريق وهو عكس الكوب (أي له خرطوم وعروة).

ولا صداع لهم في شربهم إياها، كما لا تذهب عقولهم بسببها.

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وخور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أي: المصون، جزاء بما كانوا يعملون^(٢).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

اللغو: الباطل من القول، والتأثيم: الإثم والهديان.

ولا يسمعون إلا قِيلًا سلامًا، وسلاماً: نعت للقليل.

(١) الموضونة: المنسوجة أي منسوجة بالدر والجوهر، بعضها مداخل في بعض. (لسان العرب ١٣/ ٤٥٠ مادة: وضن).

(٢) الآيات من (٢٠ حتى ٣٤) - لم تزد.

﴿وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ﴾ : لا شك فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ﴾ :
والطلح شجر الموز، متراكم نضيد بعضه على بعض.

﴿وَطَلْحٍ مَّمْدُودٍ﴾ : كما بين الإسفار إلى طلوع الشمس. وقيل : ممدود أي دائم.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ : جارٍ لا يتعبون فيه.

﴿وَفَنَكِهِمُ كَثِيرٌ﴾ : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم^(١).

﴿وَفَرَشٍ مَّرْقُوعَةٍ﴾ لهم. وقيل : أراد بها النساء.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً فَعَلَتهُنَّ أَبْنَاءً﴾ أي الحور العين.

﴿عَرَبًا﴾ جمع عَرُوب وهي الغنجة المتحبة إلى زَوْجِهَا. ويقال عرباً : أي
مُتَشَبِّهَاتٍ إلى أزواجهن.

﴿أَنْزَالًا﴾ : جمع تِزْب، أي : هُنَّ على سِنٍّ واحدة.

﴿لَا صَحْبَ الْيَمِينِ﴾ : أي خلقناهن لأصحاب اليمين.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ : أي : ثلثة من أولى هذه الأمة، وثلثة من
آخرها.

﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ﴾ : والسَّمُوم فيح جهنم وحرها.
والحمير : الماء الحار.

﴿وَطَلْحٍ مِّنْ يَّمُورٍ﴾ ، وهو الدخان الأسود.

﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ : لا بارد : أي لا راحة فيه. ولا كريم : ولا حَسَنٍ لهم ؛
(حيث لا نفع فيه).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي : كانوا في الدنيا مُتَمَتِّعِينَ.

﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَى لَيْثٍ الْعَظِيمِ﴾ أي الذنب العظيم.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ؟ أي : أنهم يُكَذِّبُونَ
بالبعث^(٢).

ثم يقال لهم : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَاعِلُونَ الْمَكِيدُونَ﴾ اليوم ﴿لَا تَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفَرٍ﴾ وجاء
في التفسير : أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافر في جهنم لا يصل إليها
إلا بعد أربعين خريفاً.

﴿قَالُوا وَمِمَّا أَلْبَسُوا فَتَرَاوُنَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحِيمِ﴾ شراب لا تهنأون به ﴿فَتَشْرَبُونَ شُرْبَ الْيَمِينِ﴾ :
وهي الإبل العطاش. ويقال : الهيم أي الرَّمْلُ ينضب فيه كل ما يُصَبُّ عليه.

(٢) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد.

(١) الآية (٣٣) لم ترد.

﴿هَذَا تَزُكُّمُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ : يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ .

نحن خلقناكم : يا أهل مكة - فهلاً آمنتم لتتخلصوا؟ توبخون وتعتابون . . . واليوم تَعْتَدِرُونَ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شيء .

وإن أشد العقوبات عليهم يومئذ أنهم لا يتفرغون من آلامِ نفوسهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التحسر على ما فاتهم في حق الله .

ويقال : أشد البلاء - اليوم - على قلوب هذه الطائفة خوفهم من أن يشغلهم - غداً - بمقاساة آلامهم عن التحسر على ما تكدّر عليهم من المشارب في هذا الطريق . وهذه محنة لا شيء أعظم على الأصحاب منها . وإن أصحاب القلوب - اليوم - يبتهلون إليه ويقولون : إن حَرَمْنَا مشاهد الأُنس فلا تشغلنا بلذات تشغلنا عن التحسر على ما فاتنا ، ولا بالآلام تشغلنا عن التأسف على ما عَدِمْنَا منك .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؕ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ .

يقال : مَنَى الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى : هل إذا بَاشَرْتُمْ وأنزلتم وانعقد الولد . . . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ والخَلْقُ ها هنا : التصوير؛ أي : أنتم تجمعون صُورَ المولود وتُرَكِّبون أعضاءه . . . أم نحن؟

وهم كانوا يَقْرُونَ بالنشأة الأولى فاحتج بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصل في إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو المنى وقطرة من تربية الأم ، وتجتمع القطرتان في الرَّحِم فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العَظْم والعَصَب والعِرْق والجِلْد والشَّعْر . . ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يُشَكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعظام بكيفية خاصة . . إلى غير ذلك .

وليس يخلو : إمّا أن يكون الأبوان يصنعانه - وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِها وقُدْرتهما عن ذلك وتمثُّلِهما الولدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون!

والنُطفة أو القُطْرةُ مُحالٌ تقديرُ فعلها في نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدَ ، ولا عِلْمُ لها ولا قدرة .

أو مِن غيرِ صانع . . وبالضرورة يُعَلَّمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقُ إِلَّا أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَنْتَكِرْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَيْهِ أَنْ تَبْدَلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

يكون الموت في الوقت الذي يريده؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت كهلاً، وبِعِلَلٍ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتة وفي أوقاتٍ مختلفة .
﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ في تقديرنا فيفوتنا شيءٌ وَلَسْنَا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالكم، ولا بعاجزين عن تبديل صُوركم التي تعلمون؛ إن أردنا مَسْحَكُمْ وتبديل صُوركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال: وننشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

أي: أنتم أقررتم بالنشأة الأولى . . فهلأ تذكرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة؛ إذ هي في معناها .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۚ إِنَّكُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ .

أي: إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض . . أنتم تُثْبِتُونَهُ أم نحن المُثْبِتُونَ؟ وكذلك وجوه الحكمة في إنبات الزُّرْع، وانقسام الحَبَّة الواحدة على الشجرة النابتة منها في قشورها ولحائها وجذعها وأغصانها وأوراقها وثمارها - كل هذا:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَتِهِ، فصِرْهُمْ تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه، وإنفاقكم عليه، ثم تقولون:

﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ .

أي: لَمَلَزَمُونَا غرامة ما أنفقنا في الزُّرْع، وقد صار ذلك غُرماً علينا - فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقه بغير عَوَضٍ .

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۚ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۚ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ .

أنتم أنزلتموه من السحاب . . أم نحن نُنْزِلُهُ متى نشاء أئى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية، في القِلَّة وفي الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحاً . أفلا تشكرون عظيم نعمه الله - سبحانه - عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خلقها لكم .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ .

وَرَى الزُّنْدَ يُرَى فَهُوَ وَارٍ . وأوراه يوريه أي يقدّحه .

يعني: إذا قدحتم الزند . . أرايتم كيف تظهر النار - فهل أنتم تخلقون ذلك؟

أنتم أنشأتم شجرتها - يعني المَرْخ^(١) والعَفَّار^(٢) - أم نحن المنشئون؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ : أي يمكن الاستدلال بها .

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ : يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقواء أي: الأرض الخالية .

فالمعنى: أن هذه النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ يتذكر بها الإنسان ما توعد به في الآخرة من نار جهنم، و ﴿وَمَتَاعًا﴾ : يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة .

قوله جل ذكره: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .

أي: اسبح بفكرك في بحار عقلك، وغص بقوة التوحيد فيها تظفر بجواهر العلم، وإياك أن تقصّر في الغوص لسبب أو لآخر، وإياك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك . . ولأغرق في بحار الشبهة، وضللت .

وهذه الآيات التي عدها الله - سبحانه - تمهّد لسلوك طريق الاستدلال، فكما في الخبر «فِكْرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ سَنَةٍ»^(٣) - وقد نبّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ الشُّجُورِ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١) المَرْخ: من العضاء وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سبلّة قضبان دقاق، وينبت في شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، واحده مرخة . (لسان العرب ٥٤/٣ مادة: مرخ) .

(٢) العَفَّار: شجر يُتخذ منه الزناد . (لسان العرب ٥٨٩/٤ مادة: عفر) .

(٣) للحديث رواية تقول: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٢) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٣٠٥/٢)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٧٠/١ - ٣٧١) والفنّي في (تذكرة الموضوعات ١٨٨)، والسيوطي في (اللائيء المصنوعة ١٧٥/٢)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٧٣)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٤٤/٣) .

قيل: هي مواقع نجوم السماء. ويقال: مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول ﷺ.

﴿إِنَّكُمْ لَقَرَنَآءُ كَرِيمٌ﴾: والكَرَمُ نَفْيُ الدَّنَاءَةِ - أي: أنه غير مخلوق ويقال: هو ﴿لَقَرَنَآءُ كَرِيمٌ﴾: لأنه يدل على مكارم الأخلاق.

ويقال هو قرآن كريم لأنه من عند رب كريم على رسول كريم، على لسان ملك كريم. ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾: يقال: في اللوح المحفوظ. ويقال: في المصحف. وهو محفوظ عن التبديل. ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصي.

ويقال: هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر: أي لا ينبغي أَنْ يَمَسَّ المصحفَ إِلَّا مَنْ كَانَ مُتَطَهِّرًا مِنَ الشُّرْكِ وعن الأحداث^(١).

ويقال: لا يجد طَعْمَهُ وَبَرَكَتَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ.

ويقال: لا يقربه إِلَّا الْمُؤَحِّدُونَ، فأما الكُفَّار فيكرهون سماعه فلا يقربونه.

وقرىء الْمُطَهَّرُونَ: أي الذين يُطَهَّرُونَ نفوسهم عن الذنوب والخُلُقِ الدُّنْيِ.

ويقال: لَا يَمَسُّ خَبْرَهُ إِلَّا مَنْ طَهَّرَ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عن الشقاوة.

ويقال: لَا يَفْهَمُ لَطَائِفَهُ إِلَّا مَنْ طَهَّرَ سِرَّهُ عن الكون.

ويقال: المطهرون سرائرهم عن غيره.

ويقال: إِلَّا الْمُخْتَرِمُونَ لَهُ الْقَائِمُونَ بِحَقِّهِ.

ويقال: إِلَّا مَنْ طَهَّرَ بِمَاءِ السَّعَادَةِ ثُمَّ بِمَاءِ الرَّحْمَةِ.

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مُنْزَلٌ مِنْ قِبَلِهِ - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفِئْدَةً لِّلْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾.

أبهذا القرآن أنتم تُنَافِقُونَ، وبه تُكْذِبُونَ.

﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: كانوا إذا أُمِطَروا يقولون: أُمِطَرْنَا بِئَؤْءٍ كَذَا.

يقول: أتعلمون بَدَلِ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْمَطَرِ الْكَفْرَانُ بِهِ، وتوهمون أن المطر - الذي هو نعمة من الله - من الأنواء والكواكب؟!

ويقال: أتعلمون حَظَّكُمْ وَنَصِيبَكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ التَّكْذِيبِ؟.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُومَ وَأَنْتُمْ حِينِلٌ تُنْظَرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

(١) الأحداث: (ج) الحدث (عند الفقهاء): ما ينقض الطهارة.

يخاطِبُ أولياء الميت فيقول: هَلَا إِذَا بَلَغَتْ رَوْحُهُ الحلقوم، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض، رجعتم إلى الله تعالى وتحققتم به؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة.. ولكن لا تبصرون!

ويقال: أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاء ذكره وشهوته عليه، فينتفي إحساسُ العبدِ بغيره، وعلى حسب انتفاء العلم والإحساسِ بالأغيار - حتى عن نفسه - يكون تحققُ العبدِ في سيره حتى لا يرى غير الحقِّ.

فالقرب والبعد معناهما: أَنَّ العبدَ في أوان صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ - بَعْدُ - عن نفسه؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق.. لأنه حينئذٍ لا قُرب ولا بُعْدُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ليس لكم من أمر الموت شيء.

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: تردون الروح إلى الجسد.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: في أنه لا بعث.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

المقربون هم الذين قرَّبهم الله بفضله، فلهم ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

ويقال: الرُّوحُ الاستراحة، والريحانُ الرزقُ.

وقيل: الرُّوحُ في القبر، والريحانُ: في الجنة.

ويقال: لا يخرج مؤمنٌ في الدنيا حتى يُؤْتَى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل

خروج روحه، فالرُّوحُ راحةٌ عند الموت، والريحانُ في الآخرة.

وقيل: كانت قراءة النبي ﷺ «الرُّوح» بضم الراء أي لهم فيها حياة دائمة.

ويقال: الرُّوحُ لقلوبهم، والرياحُ لنفوسهم، والجنةُ لأبدانهم.

ويقال: رَوْحٌ في الدنيا، وريحانٌ في الجنة، وجنةٌ نعيمٌ في الآخرة.

ويقال: رَوْحٌ وريحانٌ مُعَجَّلَان، وجنة نعيم مؤجلة.

ويقال: رَوْحٌ للعابدين، وريحانٌ للعارفين، وجنةٌ نعيم لعوام المؤمنين.

ويقال: رَوْحٌ نسيم القرب، وريحانُ كمال البسط، وجنة نعيم في محل

المناجاة.

ويقال: رَوْحُ رؤية الله، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة، وجنة نعيم أن يدوم

هذا ولا ينقطع.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَّوْا لَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

أن نخبرك بسلامة أحوالهم.

ويقال: سترى فيهم ما تحب من السلامة.

ويقال: أمان لك في بابهم؛ فلهم السلامة. ولا تُشغِلْ قلبك بهم.

ويقال: فسلام لك - أيها الإنسان - إنك من أصحاب اليمين، أو أيها الإنسان الذي من أصحاب اليمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزِّلْ مِنْ جَحِيمٍ وَفَصِيلَةٌ جَحِيمٍ﴾.

إن كان من المكذبين لله، الضالين عن دين الله فله إقامة في الجحيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَجِّ يَا أَيُّهَا رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

هذا هو الحق اليقين الذي لا محالة حاصل.

﴿فَسَجِّ يَا أَيُّهَا رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

أي قدس الله عما لا يجوز في وصفه.

ويقال: صلّ لله. ويقال: اشكز الله على عصمة أمّتك من الضلال، وعلى

توفيقهم في اتباع سبيلك.

سورة الحديد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

سماعُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي بِهِ الْحَقُّ - سبحانه وتعالى - قلوبَ أحبائه، فإذا شَرِبُوا طَرِبُوا، وإذا طَرِبُوا انبسطوا^(١)، ثم لشهود حَقِّهِ تَعَرَّضُوا، وينسيم قُزْبُهُ استأنسوا، وعند الإحساس بهم غابوا.. فعقولهم تُسْتَفْرِقُ في لُطْفِهِ، وقلوبهم تُسْتَهْلِكُ في كَشْفِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التسبيحُ التقديسُ والتتزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد وينظّمونها في عقود الإيمان، ويرُصّعونها في أطواق الوصلة:

وقله ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المرادُ به «من» في السموات والأرض، يسجدون لله طوعاً وكرهاً؛ طوعاً تسبيح طاعة وعبادة، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة.

وتُحْمَلُ «ما» على ظاهرها فيكون المعنى: ما من مخلوق من عينٍ أو أثرٍ إلا ويدلُّ على الصانع، وعلى إثبات جلاله، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه.

ويقال: يُسَبِّحُ الله ما في السموات والأرض، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهد الطلب... ولكنه - سبحانه عزيزٌ.

ويقال: ما تَقَلَّبَ أحدٌ من جاحِدٍ أو ساجِدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد، فما يُصَرِّفُهُمْ إلا مَنْ خَلَقَهُمْ؛ فَمِنْ مُطِيعٍ أَلْبَسَهُ نِطَاقَ وِفاقه - وذلك فَضْلُهُ، وَمِنْ عَاصٍ رَبَطَهُ بِمُثْقَلَةِ الْخِذلان - وذلك عَذْلُهُ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: الْمُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الْوَصُولَ، بل العزيز: الْمُتَقَدِّسُ عن كل وصول.. فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَّا حَظَّهُ وَنَصِيْبُهُ وَصَفَتُهُ على ما يليق به.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن القبض والبسط: هما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. وكذلك المبسوط: قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال. (الرسالة القشيرية ص ٥٨).

المُلْكُ مبالغة من المِلْك، وهو القدرة على الإبداع، ولا مالَكَ إلا الله. وإذا قيل لغيره: مالك فعلى سبيل المجاز؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحة في الشرع، ولكن لفظ المِلْك فيها توسعٌ كما أن لفظ التيمم في استعمال التراب - عند عدم الماء - في السفر مجاز، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز.

﴿يُخَيِّـمُ وَيُؤَيِّسُ﴾: يحيي النفوس ويميتها. ويُخَيِّمُ القلوب بإقباله عليها، ويميتها بإعراضه عنها. ويقال: يحييها بنظره وتفضله، ويميتها بقهره وتعززه.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿الأول﴾: لاستحقاقه صفة القدم، و ﴿الآخر﴾ لاستحالة نعت العدم.

و ﴿الظاهر﴾ بالعلو والرفعة، و ﴿الباطن﴾: بالعلم والحكمة.

ويقال: ﴿الأول﴾ فلا افتتاح لوجوده و ﴿الآخر﴾ فلا انقطاع لثبوته.

﴿الظاهر﴾ فلا خفاء في جلال عزه، ﴿الباطن﴾ فلا سبيل إلى إدراك حقه.

ويقال ﴿الأول﴾ بلا ابتداء، و ﴿الآخر﴾ بلا انتهاء، و ﴿الظاهر﴾ بلا خفاء، و ﴿الباطن﴾ بنعت العلاء وعز الكبرياء.

ويقال ﴿الأول﴾ بالعناية، و ﴿الآخر﴾ بالهداية، و ﴿الظاهر﴾ بالرعاية، و ﴿الباطن﴾ بالولاية.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالخلق، و ﴿الآخر﴾ بالرزق، و ﴿الظاهر﴾ بالإحياء، و ﴿الباطن﴾ بالإماتة والإفناء.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

ويقال: ﴿الأول﴾ لا بزمان، و ﴿الآخر﴾ لا بأوان، و ﴿الظاهر﴾ بلا اقتراب، و ﴿الباطن﴾ بلا احتجاب.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالوصلة، و ﴿الآخر﴾ بالخلّة، و ﴿الظاهر﴾ بالأدلة، و ﴿الباطن﴾ بالبعد عن مشابهة الجملة.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالتعريف، و ﴿الآخر﴾ بالتكليف، و ﴿الظاهر﴾ بالتشريف، و ﴿الباطن﴾ بالتخفيف.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالإعلام، و ﴿الآخر﴾ بالإلزام، و ﴿الظاهر﴾ بالإنعام، و ﴿الباطن﴾ بالإكرام.

ويقال: ﴿الأول﴾ بأن اصطفاك و ﴿الآخر﴾ بأن هداك، و ﴿الظاهر﴾ بأن رعاك، و ﴿الباطن﴾ بأن كفاك.

ويقال: مَنْ كان الغالبُ عليه اسمه ﴿الْأَوَّلُ﴾ كانت فكرته في حديثٍ سابقته: بماذا سَمَّاهُ مولاه؟ وما الذي أجرى له في سابق حُكمه؟ أسعدته أم بشقائه؟

وَمَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الْآخِرُ﴾ كانت فكرته فيه: بماذا يختم له حاله؟ وإلام يصير مآله؟ أَعْلَى التوحيد يَخْرُجُ من دنياء أو - والعياذُ بالله - في النارِ غداً - مثواه؟

وَمَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمُهُ ﴿الظَّاهِرُ﴾ فاشتغاله بشكر ما يجري في الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحُسن الرعاية.

وَمَنْ كان الغالبُ على قلبه اسمه ﴿الْبَاطِنُ﴾ كانت فكرته في استبهام أمره عليه فيتعثر ولا يدري.. أَفْضَلُ ما يعامله به ربُّه أم مَكْرٌ ما يستدرجه به ربُّه؟

ويقال: ﴿الْأَوَّلُ﴾ علم ما يفعله عباده ولم يمنعه عِلْمُهُ من تعريفهم، ﴿وَالْآخِرُ﴾ رأى ما عَمِلُوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ ليس يَخْفَى عليه شيء من شأنهم، وليس يَدْعُ شيئاً من إحسانهم ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ يعلم ما ليس لهم به عِلْمٌ من خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنونَ مَحَنِهِمْ وأحزانهم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

مضى الكلام في ذلك.

﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أي ما يدخل فيها من القَطَرِ، والكنوزِ، والبذورِ، والأمواتِ الذين يُدْفَنُونَ فيها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وانفجار العيون وما يُسْتَخْرَجُ من المعادن. ﴿وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

من المطر والأرزاق. أو ما يأتي به الملائكة من القضاء والوحي. ﴿وَمَا يَمْزِجُ فِيهَا﴾.

أي وما يصعد إليها من الملائكة، وطاعات العباد، ودعوات الخَلْقِ، وصحف المُكَلَّفِينَ، وأرواح المؤمنين.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة.

ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغٌ فِي الْأَرْضِ﴾ إذا ذُفِنَ الْعَبْدُ فَاللَّهُ سبحانه يعلم ما الذي كان في قلبه من إخلاص في توحيده، ووجوه أحزانه خسرانه، وشُكُّه وجحوده، وأوصافه المحمودة والمذمومة.. ونحو ذلك مما يخفى عليكم.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ على قلوب أوليائه من اللطاف والكشفات وفنون الأحوال العزيزة.

﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا علت^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

مضى معناه.

قوله جل ذكره: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ بتمليككم ذلك وتصديره إليكم. والذين آمنوا منكم وتصدقوا على الوجه الذي أمروا به لهم ثواب عظيم؛ فإن ما تحويه الأيدي مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ فَالسَّعِيدُ مَنْ قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ عِمَارَةَ حَالِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ سَارَ فِيمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَالَ مَالِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي شيء لكم في تَرْكِكُمْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وما أتاكم به من الحشر والنشر، وقد أراح الْعِلَّةَ بِأَنْ الْأَخَ لَكُمْ الْحُجَّةُ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ وَقْتُ الدُّرِّ، وَأَوْجِبَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ليُخْرِجَكُم مِّنَ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ، وَمِنَ ظُلُمَاتِ الشُّكِّ إِلَى نُورِ الْيَقِينِ.

وكذلك يُرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ بِكُشُوفَاتِ السَّرِّ وَمَا يَحْصُلُ بِهِ التَّعْرِيفُ مِمَّا يَجِدُونَ فِيهِ النِّفْعَ وَالْخَيْرَ؛ فَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ ظُلُمَاتِ التَّدْبِيرِ إِلَى سَعَةِ فُضَاءِ التَّفْوِيزِ، وَمِلَاحِظَةِ فَنُونِ جَرِيَانِ الْمَقَادِيرِ.

وكذلك إذا أَرَادَتِ النَّفْسُ الْجَنُوحَ إِلَى الرُّخْصِ وَالْأَخْذَ بِالتَّخْفِيفِ وَمَا تَكُونُ عَلَيْهِ الْمَطَالِبَةُ بِالْأَشَقِّ - فَإِنْ بَادَرَ إِلَى مَا تَدْعُوهُ الْحَقِيقَةُ إِلَيْهِ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ مِنَ النُّورِ مَا يَعْلَمُ بِهِ ظِلْمَةَ هَوَاجِسِ النَّفْسِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَبِثُ السَّمَنَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

ما في أيديكم ميراثه الله، وعن قريب سيُنْقَلُ إلى غيركم ولا تبقون بتداول أحمالكم. وهو بهذا يحثهم على الصدقة والبدار إلى الطاعة وتَرْكِ الإخلاد إلى الأمل.. ثم قال:

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِمَّنْ آتَيْنَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك. بل أولئك أعظم ثواباً وأعلى درجة من هؤلاء؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشق على أصحابه.

ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ إلا أن فضيلة السبق لهم، ولهذا قالوا:

السابق السابق قولاً وفعلاً حَذَرَ النَّفْسِ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ
قوله جل ذكره: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

المراد بالقرض الصدقة، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطبيهاً لقلوبهم، فكان المتصدق وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المستقرض.

ويقال: ﴿يُقْرِضُ﴾ أي يفعل فعلاً حسناً، وأراد بالقرض الحسن ما يكون من وجهٍ حلالٍ ثم عن طيب قلب، وصاحبه مخلص فيه، بلا رياء يشوبه، وبلا من على الفقير، ولا يكذره تطويل الوعد ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حب الدارين، ففي الخبر: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(١) ومن لم يتحرز من شيء فخروجه عنه تكلف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٣٩/٢، ٨١/٧)، ومسلم في (الصحيح الزكاة ب ٣٢ رقم ٩٥) وأبو داود في (السنن الزكاة ب ٤٠)، والنسائي في (السنن ٦٢/٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٧٨، ٤٠٢، ٤٧٦، ٥٢٤، ٤٣٤/٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٤/٤، ١٧٧، ١٨٠، ٧/٤٦٦)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٢٤/٣)، والدولابي في (الكنى والأسماء ١/١٠٨)، والزبيدي في (نصب الراية ٤١٢/٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٥٣/١، ٢٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٥٨٨/١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٢٩)، والبقوي في (٢١٣/١)، والألباني في (إرواء الغليل ٤١٥/٣) وابن حجر في (فتح الباري ٥٠٠/٩)، والبقوي في (شرح السنة ١٧٨/٦)، والتمتقي الهندي في (كنز العمال ١٦٢٣١، ١٦٢٦٤، ١٦٢٦٦، ١٦٢٦٧)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٤٣٩)، وابن كثير في (التفسير ٣٧٤/١)، والقرطبي في (التفسير ١١١/٧)، ١٣٤/١٩، والدارقطني في (السنن ٢٩٦/٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١٥٨٦/٤)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٦٤٠٤).

وهو نورٌ يُغَطَّى للمؤمنين والمؤمنات بِقَدْرِ أعمالهم الصالحة، ويكون لذلك النور مطارحٌ شعاع يمشون فيها والنور يسعى بين أيديهم، ويحيط جميع جهاتهم.

ويقال: ﴿وَيُؤَيِّنُهِمْ﴾ كتبهم.

﴿يُتَرَكُّكُمْ الْيَوْمَ جَتَّةٌ﴾ أي بشارتكم اليوم - من الله جنات. وكما أن لهم في العرصة هذا النور فالיום لهم في قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه، ويهتدون به في جميع أحوالهم، قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»^(١) وقال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وربما ينبسط ذلك النور على مَنْ يَقْرُبُ منهم. وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً - ولأوليائه - لا محالة - هذه الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبس من نوركم. وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُغَطُّونَ كُتُبَهُمْ وهم في النور، فإذا مروا... انطفأ النور أمام المنافقين وسبق المؤمنون، فيقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا حتى نقتبس من نوركم. فيقول المؤمنون:

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

أي إلى الدنيا وأخلصوا! - تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين في الدنيا.

ويقال: ارجعوا إلى حُكْمِ الْأَزْلِ فاطلبوا هذا من الْقِسْمَةِ! - وهذا على جهة ضرب المثل والاستبعاد.

﴿فَضْرِبَ يَدُهُمْ بِسُورٍ لَّمْ يَأْتِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

﴿بِسُورٍ﴾: وهو جَبَلٌ أصحاب الأعراف، يستر بينهم وبين المنافقين، فالوجه الذي يلي المؤمن فيه الرحمة وفي الوجه الآخر العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمعاشرة؟

قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم..

﴿وَنَزَعْتُمْ أَرْبَابَكُمْ وَأَرْبَابَكُمْ الْأَمَانِ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَمُ الْفُرُورُ﴾.

(١) أخرجه الترمذي (تفسير سورة ١٥، ١٦).

تربصتم عن الإخلاص، وشككتكم، وغرَّكم الشيطان، وركبتم إلى الدنيا.
قوله جل ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ
 مَوْلَانَكُمْ وَيُشَنُّ الْمُصِرُّ﴾.

النار مأواكم ومصيركم ومقتلُكم.

و ﴿هي مولاكم﴾ أي هي أولى بكم، وبشئ المصير!

ويقال: مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ألم يحزن للذين آمنوا أن تتواضع قلوبهم وتلين لذكر الله وللقرآن وما فيه من العبر؟ ألا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل؟ وأراد بهم اليهود، وكثير من اليهود فاسقون كافرون.

وأراد بطول الأمد الفترة التي كانت بين موسى ونبينا ﷺ، وفي الخبر: «أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهُم ملالة فقالوا: لو حَدَّثْتَنَا»^(١).

فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فبعد مدة قالوا:

لو قَصَصْتَ علينا!

فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] فبعد مدة قالوا:

لو ذَكَّرْتَنَا وَوَعَّظْتَنَا!

فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء.

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفة لا تجتمعان؛ فإذا حَصَلَت الشهوة رَحَلَت الصفة. وموجبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الرب. ويقال: موجب القسوة أوله خَطَرَةٌ - فالَمْ تُتَذَكَّرْ صارت فكرة، والَمْ تُتَذَكَّرْ صارت عزيمة، فإن لَمْ تُتَذَكَّرْ جَرَّتْ المخالفة، فإن لَمْ تُتَذَكَّرْ بالتلافي صارت قسوةً وبعدئذ تصير طبعاً ورئياً^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في (السنن ١٨٩٦).

(٢) الرين: الطبع والدنس، ران الثوب ريناً: تطبع. ران الذنب على قلبه: غلب عليه وغطاه. (لسان العرب ١٩٢/١٣ مادة: رين).

قوله جل ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

يُحْيِي الْأَرْضَ بعد موتها بإنزال المطر عليها وإخراج الثبّ منها . وَيُحْيِي الْقُلُوبَ الميتة - بعد إعراض الحق عنها - بحسن إقباله عليها .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ .

أي المتصدقين والمتصدقات .

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ : يعني في النوافل .

﴿يَضْعَفُ لَهُمْ﴾ في الحسنات، الحسنَةُ بعشر أمثالها . . إلى ما شاء الله .

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ : ثواب كبير حسن . والثواب الكريمُ أنه لا يضمن بأقصى الأجر على الطاعة - وإن قلَّت .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ .

الصَّادِقُونَ : مبالغة في الصدق، والشهداء : الذين استشهدوا في سبيل الله، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء - لهم أجرهم في الجنة ونورهم في القيامة .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

والصديق مَنْ استوى ظاهره وباطنه .

ويقال : هو الذي يحمل الأمر على الأسق، ولا ينزل إلى الرخص، ولا يجنح للتأويلات .

والشهداء : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة، ﴿وَنُورُهُمْ﴾ : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد .

قوله جل ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ .

الحياة الدنيا مُعَرَّضَةٌ للزوال، غير لابثة ولا ماكثة، وهي في الحال شاغلة عن الله، مُطْمِعَةٌ وغير مُشْبِعَةٍ، وتجري على غير سنن الاستقامة كجريان لعب^(١) الصبيان، فهي تلهي عن الصواب واستبصار الحق، وهي تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد .
﴿كَثَلٌ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكَافَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسْجُ قَدْرُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ .

(١) اللُّغَاب : ما سال من الفم . (اللسان ١/٧٤١ مادة : لعب) .

الكفار: الزُّرَّاع.

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أن يتحطم ويتكسر.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لأهله من الكفار.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

لأهله من المؤمنين.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾.

الدنيا حقيرة - وأحقر منها قدراً طالِبُها وأقلُّ منه خَطراً المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة؛ وطالبُ الجيفة ليس له خطر. وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها.

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبدَ عن الآخرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم، وذلك العملُ هو التوبة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ ذكر عرضها ولم يذكر طولها؛ فالطول على ما يوافيه العرض.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: وفي هذا دليلٌ على أن الجنة مخلوقة.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها»... لأن الفضل لا يكون واجباً.

ويقال: لما سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدأت الأرواحُ مُقْتَضِيَةً المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمطالبة، مُسْتَبْشِرَةً برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المصيبة خضلة تقع وتحصل. فيقول تعالى: لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيء إلا وهو مُتَّبَتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العلم، وحق في الحكم؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ.

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصبٍ أو جَدْبٍ، من سعة أو ضيق، من فتنة أو

استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور، من حياة أو موت كل ذلك مُثَبَّت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل.

وفي قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهُ﴾ دليل على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه. وللعبد في العلم بأن ما يصيبه: من بسط وراحة وغير ذلك من واردات القلوب من اللّه - أشدّ السرور وأتمّ الإنس؛ حيث عَلِمَ أنه أُفْرِدَ بذلك بظهر غيب منه، بل وهو في كثر العَدَم، ولهذا قالوا:

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ما كان قلبي للصباية معهدا
قوله جلّ ذكره: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

عَدَمُ الفرحه بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْس، فقيمة الرجال تبين بتغيّرهم - فَمَنْ لم يتغيّر بما يَرُدُّ عليه - مما لا يريده - من جفاء أو مكروه أو محنة فهو كامل، وَمَنْ لم يتغيّر بالمسار كما لا يتغير بالمضار، ولا يَسُرُّه الوجود كما لا يُخْزِنُه العَدَم - فهو سَيِّد وقته^(١).

ويقال: إذا أردت أن تعرف الرجل فاطلبه عند الموارد؛ فالتغيّر علامة بقاء النَّفْس بأي وجه كان:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها، والفخر (ناتج)^(٢) عن رؤية ما به يفتخر.

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

بخلوا بكتمان صفة نبيّنا ﷺ وأمروا أتباعهم بذلك، وذلك لما خافوا من كساد سوقهم وبطلان رياستهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ﴾ عن الإيمان، أو إعطاء الصدقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

والبخل - على لسان العلم - مَنعُ الواجب، فأما على بيان هذه الطائفة فقد قالوا: البخل رؤية قَدَرٍ للأشياء، والبخل الذي يُعْطِي عند السؤال، وقيل: مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمه فهو بخيل^(٣).

(١) انظر حديث القشيري في الرسالة عن الثلوث والتمكين. ص ٧٨ - ٨٠.

(٢) ما بين القوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قال القشيري: أصل الفترة أن يكون العبد دائماً في أمر غيره. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦،

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

أي أرسلناهم مؤيدين بالحُجج اللاحقة والبراهين الواضحة، وأزخنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوك الحُجَّةِ المُثلى، وَيَسِّرْنَا السَّبيلَ على مَنْ آثَرَ اتِّبَاعَ الْهُدَى. وأنزلنا معهم الْكِتَابَ الْمُنْتَزَلَةَ، و﴿الْمِيزَانَ﴾: أي الْحُكْمَ بِالْقُرْآنِ، واعتبار الْعَدْلِ والتسوية بين الناس. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: فلا يَظْلِمُ أَحَدٌ أَحَدًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿أنزلنا الحديد﴾: أي خلقنا الحديد.

ونصرة الله هي نصرته دينه، ونصرة الرسول باتِّباعِ سُنَّتِهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أقوى من أن يُتَارَعَ شريكٌ، أو يضارعه في الملْكِ ملك، وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

أي: أرسلنا نوحاً، ومن بعده إبراهيم، وجعلنا في نسلِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ. ﴿فَعَمَّهُمْ مُهْتَدٍ﴾.

أي: مستجيب.

﴿وَكَبِيرٌ مِّنْهُمْ فَسَقُوا﴾.

خرجوا عن الطاعة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

بَيِّنْ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُم بِالرَّهْبَانِيَّةِ^(١) بل هم الذين ابتدعوها ثم قال:

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

(١) الرهبانية: مصدر الراهب، والاسم الرهبانية من الرهبة: الخوف؛ فالنصارى كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهد مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه. (لسان العرب ١/٤٣٧، ٤٣٨ مادة: رهب).

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا أن يقوموا بحقنا.

﴿فَتَأْتِيَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّمْ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَلَيَقُولُنَّ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِيَكُمُ كَفَالَيْنِ مِّن رَّحْمَتِهِ
وَيَجْعَلُ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا.

﴿كَفَالَيْنِ﴾: أي نصيبين؛ نصيباً على الإيمان بالله، وآخر على تصديقهم وإيمانهم
بالرُّسل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

ومعناه: يعلم أهل الكتاب، و«لا» صلة. أي: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا
يقدرُونَ على شيء من فضل الله، فإن الفضل بيد الله. و«اليد» هنا بمعنى: القدرة،
فالفضل بقدرة الله.

والإشارة في هذا: اتَّقُوا اللَّهَ بِحِفْظِ الْأَدَبِ معه، ولا تأمنوا مَكْرَهَ أَنْ يَسْلَبَكُمْ مَا
وَهَبَكُمْ مِنْ أَوْقَاتِكُمْ. وكونوا على حَذَرٍ مِنْ بَغْتَاتٍ تَقْدِيرُهُ فِي تَغْيِيرِ مَا أَذَاقَكُمْ مِنْ أُنْسٍ
محَبَّتِهِ.

وَاتَّبِعُوا السُّفَرَاءَ وَالرُّسُلَ، وحافظوا على اتباعهم حتى يُؤْتِيَكُمُ نصيبين من فضله:
عصمةً ونعمةً؛ فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة هي البقاء به.

ويقال: يؤتكم نصيبين: نصيباً من التوفيق في طلبه، ونصيباً من التحقيق في
وجوده^(١).

(١) الوجود هنا لم يقصد به ضد العدم. انظر الرسالة القشيرية ص ٦٣: فالتواجد بداية والوجود نهاية،
والوجد واسطة بين البداية والنهائية.

سورة المجادلة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ عَرَفَهَا بَدَّلَ الرُّوحَ فِي طَلِبِهَا - وإن لم يَحْطَ بِوَصُولِهَا، كلمة مَنْ طَلِبَهَا اكْتَفَى بِالطَّلَبِ مِنْ قَبُولِهَا.

كلمة جِبَارَةٌ لَا تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ، كلمة قَهَارَةٌ لَا يُوجَدُ مِنْ دُونِهَا مُلْتَحِدٌ.

كلمة مِنْهَا بِلَاءُ الْأَحْبَابِ - لكن بِهَا شِفَاءُ الْأَحْبَابِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

لَمَّا صَدَقَتْ فِي شِكْوَاهَا إِلَى اللَّهِ وَأَيِسَتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ ضُرِّهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ - أنزل الله فِي شَأْنِهَا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

تَضَرَّعَتْ إِلَى اللَّهِ، وَرَفَعَتْ قِصَّتَهَا إِلَى اللَّهِ، وَنَشَرَتْ غُصَّتَهَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - فَتَنْظَرُ إِلَيْهَا اللَّهُ، وَقَالَ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

ويقال: صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظَّهَارِ^(١)، وليعلم العالمون أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْسِرُ عَلَى اللَّهِ.

وفي الخبر: أنها قالت: «يا رسول الله، إِنَّ أَوْسًا تزوجني شابةً غنيةً ذاتَ أهلٍ، ومالٍ كثيرٍ، فلما كبرتَ بِنْتِي، وَذَهَبَ مَالِي، وَتَفَرَّقَ أَهْلِي جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَظْهَرِ أُمِّهِ، وَقَدْ نَدِمَ وَنَدِمْتُ، وَإِنِّي لِي مِنْهُ صَبِيَّةٌ صِغَارًا إِنِ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنِ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا».

فقال لها الرسول ﷺ - في رواية -: «مَا أَمِزْتُ بِشَيْءٍ فِي شَأْنِكَ»^(٢).

وفي رواية أخرى أنه قال لها: «بَنَيْتَ عَنْهُ» (أي حرمت عليه).

(١) الظَّهَارُ: مِنَ النِّسَاءِ، وَظَاهِرُ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ، وَمِنْهَا، مَظَاهِرُهُ وَظَاهَرًا إِذَا قَالَ: هِيَ عَلَيَّ كَظْهَرِ ذَاتِ رَحِمٍ، وَقَدْ تَظْهَرُ مِنْهَا وَتَظَاهَرُ. (اللسان ٥٢٨/٤ مادة: ظهر).

(٢) أَخْرَجَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي (مَجْمَعِ الزَّوَادِ ١١٥/٩)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي (الدَّرِّ الْمَشُورِ ٢/٢٠٤)، وَالطَّبْرِيُّ فِي (التفسير ٢٨/٤، ١٤٥/٥).

فترددت إلى رسول الله ﷺ في ذلك، وشكت . . إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظَّهَارِ .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمُّهُنَّ إِلَّا الَّذِينَ وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ .

قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِنِسَائِهِمْ - جرياً على عادة أهل الشُّرْكِ - أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي . . هذا شيء لم يَحْكُمِ اللهُ به؛ ولا هذا الكلام في نَفْسِهِ صِدْقٌ، ولم يثبت فيه شَرْعٌ، وإنما هو زورٌ مَخْضٌ وكَذِبٌ صِرْفٌ .

فَعَلِمَ الكَافَةُ أَنَّ الحَقَائِقَ بِالتَّلْبِيسِ لَا تَتَعَزَّزُ؛ وَالسَّبَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً فَبِالْمَعَاوِدَةِ لَا يَثْبِتُ؛ فَالْمَرَأَةُ لَمَّا سَمِعَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلَهُ «بُنْتُ عَنْهُ» - كَانَ وَاجِباً عَلَيْهَا السَّكُونُ وَالصَّبْرُ؛ وَلَكِنَّ الضَّرُورَةَ أَنْطَقَتْهَا وَحَمَلَتْهَا عَلَى الْمَعَاوِدَةِ، وَحَصَلَتْ مِنْ ذَلِكَ مَسْأَلَةٌ: وَهِيَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَشْيَاءِ يَحْكُمُ فِيهَا ظَاهِرُ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ؛ ثُمَّ تُغَيِّرُ الضَّرُورَةُ ذَلِكَ الْحُكْمَ لِصَاحِبِهَا .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

الظَّهَارُ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَصْلٌ، وَلَا بِتَصْحِيحِهِ نَطْقٌ أَوْ دَلَالَةٌ شَرْعٌ، فَإِنَّهُ بَعْدَ مَا رُفِعَ أَمْرُهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَلَوَّحَ بِشَيْءٍ مَا، وَقَالَ فِيهِ حُكْمُهُ، لَمْ يُخَلِّ اللهُ ذَلِكَ مِنْ بَيَانٍ سَاقٍ بِهِ شَرْعُهُ؛ فَقَضَى فِيهِ بِمَا انْتَضَمَ جَوَانِبُ الْأَمْرِ كُلِّهِ .

فَارْتَفَاعُ الْأَمْرِ حَتَّى وَصُولِهِ إِلَى مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّحَاكُمُ لَدَيْهِ حَمْلُ الْمُتَعَدِّي عَنَاءَ فَعَلْتُهُ، وَأَعَادَ لِلْمَرَأَةِ حَقَّهَا، وَكَانَ سَبِيلاً لِتَحْدِيدِ الْمَسْأَلَةِ بِرُؤْمَتِهَا . . . وَهَكَذَا فَإِنْ كُلُّ صَعْبٍ إِلَى زَوَالٍ . . . وَكُلُّ لَيْلَةٍ - وَإِنْ طَالَتْ - فَإِلَى إِسْفَارٍ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كُنَّتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أُنْزِلَآ إِلَيْنَا بُيُوتٌ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .

الَّذِينَ يَخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَيَتْرَكُونَ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ أُذِلُّوا وَخُذِلُوا، كَمَا أُذِلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكَافَرِ وَالْعَصَاةِ .

وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ سُنتَهُ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِجْرَامِ؛ فَمَنْ ضَيَّعَ لِلرَّسُولِ سُنَّةً،

(١) الآية (٤) لم ترد .

وَأَخَذَتْ فِي دِينِهِ بَدْعَةً انْخَرَطَ فِي هَذَا السِّلْكِ، وَوَقَعَ فِي هَذَا الذَّلِّ.
 قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يقال: إذا حُوسِبَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى عَمَلِهِ تَصَوَّرَ لَهُ مَا فَعَلَهُ وَتَذَكَّرَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَائِمٌ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَنْ بَسَاطِ الرُّلَّةِ، فَيَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَجَلِ وَالنَّدَمِ مَا يَنْسَى فِي جَنِّهِ كُلَّ عَقُوبَةٍ.

فَسَبِيلُ الْمُسْلِمِ أَلَّا يَحُومَ حَوْلَ مَخَالَفَةِ أَمْرِ مَوْلَاهُ، فَإِنْ جَرَى الْمَقْدُورُ وَوَقَعَ فِي هَجْنَةِ التَّقْصِيرِ فَلتكن زُلَّتُهُ عَلَى بَالٍ، وَلِيَتَضَرَعَ إِلَى اللَّهِ بِحُسْنِ الْإِبْتِهَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مَعِيَّةُ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْعُمُومِ بِالْعِلْمِ وَالرَّوَايَةِ، وَعَلَى الْخُصُوصِ بِالْفَضْلِ وَالنَّصْرَةِ - فَلِهَذَا الْخُطَابُ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ أَثَرٌ عَظِيمٌ، وَلَهُمْ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى التَّوَلُّهِ فَالْوَلَوُ فَالْهِيمَانُ فِي غَمَارِ سَمَاعِ هَذَا عَيْشٍ رَاغِدٍ.

ويقال: أصحابُ الكهف - وَإِنْ جَلَّتْ رَتَبَتُهُمْ وَاخْتَصَّتْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ مَرْتَبَتُهُمْ - فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ﴾ فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ كَلْبُهُ وَبَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ رَبُّهُ!!

ويقال: أهلُ التَّوْحِيدِ، وَأَصْحَابُ الْعُقُولِ مِنْ أَهْلِ الْأَصُولِ يَقُولُونَ: اللَّهُ وَاحِدٌ لَا مِنْ طَرِيقِ الْعَدَدِ، وَالْحَقُّ يَقُولُ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ وَيَقَالُ حَيْثُمَا كُنْتُ فَأَنَا مَعَكَ؛ إِنْ كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَأَنَا مَعَكَ، وَإِنْ كُنْتُ فِي الْمَصْطَبَةِ فَأَنَا مَعَكَ، إِنْ طَلَبَ الْعُلَمَاءُ التَّأْوِيلَ^(١) وَشَوَّشُوا قُلُوبَ أَوْلِي الْمَوَاجِيدِ فَلَا بَأْسَ - فَأَنَا مَعَهُمْ.

(١) قَالَ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْوَصِيَّةِ لِلْمُرِيدِينَ: فَإِنْ حَجَّجَ هَؤُلَاءِ فِي مَسَائِلِهِمْ أَظْهَرَ مِنْ حَجَّجِ كُلِّ وَاحِدٍ وَقَوَاعِدِ مَذَاهِبِهِمْ أَقْوَى مِنْ قَوَاعِدِ كُلِّ مَذْهَبٍ. وَالنَّاسُ إِمَّا أَصْحَابُ النُّقْلِ وَالْأَثَرِ، وَإِمَّا أَرِيَابُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ، وَشَيْخُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ ارْتَقَوْا عَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَالَّذِي لِلنَّاسِ غَيْبٌ فَهُوَ لَهُمْ ظُهُورٌ، وَالَّذِي لِلخَلْقِ مِنَ الْمَعَارِفِ مَقْصُودٌ، فَلَهُمْ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مَوْجُودٌ، فَهُمْ أَهْلُ الْوَصَالِ، وَالنَّاسُ أَهْلُ الْاسْتِدْلَالِ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٣٧٨).

إن حضرت المسجد فأنام معك بإسباغ النعمة ولكن وغداً، وإن أتيت المصطبة فأنام معك بالرحمة وإسبال ستر المغفرة ولكن نقداً:

هَبْكَ تَبَاعَذْتَ وَخَالَفْتَنِي تَقْدِيرُ أَنْ تَخْرَجَ عَنْ لُطْفِي

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

آذوا قلوب المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم، ولم تكن في تناجيهم فائدة إلا قصدهم بذلك شغل قلوب المؤمنين، ولم ينتهوا عنه لما نهوا عنه، وأصرّوا على ذلك ولم ينزجروا، فتوعدّهم الله على ذلك، وتكون عقوبتهم بأن تتغامز الملائكة في باب فيما بينهم، وحين يشاهدون ذلك تترجّم ظنونهم، ويتعذّبون بتقسّم قلوبهم، ثم لا ينكشف الحال لهم إلا بما يزيدهم حزناً على حزن، وأسفاً على أسف.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ وَاللَّيْلِ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إنما قُبِحَ ذلك منهم وعظّم الخطر لأنه تضمّن إفساد ذات البين، وخير الأمور ما عاد بإصلاح ذات البين، وبعبارة إذا كان الأمر بضده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدة غالبية، والقلوب حاضرة، والتوكل صحيحاً؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاقْسِعُوا بِسَمِ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾.

لكمال رحمته بهم وتمايم رافته عليهم، علّمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التفسّح في المجالس والنظام في حال الزحمة والكثرة... وأغزى بأقوام أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه!

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَقْدِمُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

لَمَّا كَانَ الْإِذْنَ فِي النُّجُوى مَقْرُوناً بِبَذْلِ الْمَالِ امْتَنَعُوا وَتَرَكُوا، وبِذَلِكَ ظَهَرَتْ جواهر الأخلاق ونقاوة الرجال - ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ إِن يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُخَفِّصْكُمْ يَتَحَلَّوْا وَيُخْرِجْ أَضْعَافَكُمْ﴾^(١) [محمد: ٣٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

مَنْ وافق مغضوباً عليه أَشْرَكَ نَفْسَهُ فِي اسْتِحْقَاقِ غَضَبِ مَنْ هُوَ الْغَضِيان؛ فَمَنْ تَوَلَّى مغضوباً عليه مِنْ قَبْلِ اللَّهِ اسْتَوْجَبَ غَضَبَ اللَّهِ وكفى بِذَلِكَ هَوَاناً وخسراناً.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

هذا وصفٌ للمنافقين.

﴿أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقايةً وسترًا؛ وَمَنْ استتر بِجُنَّةٍ طاعته لَتَسْلَمَ لَهُ دُنْيَاهُ فَإِنَّ سَهَامَ التَّقْدِيرِ مِنْ ورائه تَكْشِفُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ. فلا دِيْنُهُ يَبْقَى، وَلَا دُنْيَاهُ تَسْلَمُ، ولقد قال تعالى: ﴿لَنْ نَقْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾^(٢) [آل عمران: ١٠].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَعْلَمُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً يَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى ثِقَةٍ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

عَقِبَتْهُمْ الْكِبَرَى طَنَّهُمْ أَنْ مَا عَمِلُوا مَعَ الْخَلْقِ يَتَمَشَّى أَيْضاً فِي مُعَامَلَةِ الْحَقِّ، فَرَطُ الْأَجْنِبِيَّةِ وَغَايَةُ الْجَهْلِ أَكْبَتْهُمْ عَلَى مَنَاخَرِهِمْ فِي وَهْدَةِ نَدَمِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْمُتَلَبِّسُونَ﴾.

إذا استحوذ الشيطان على عَبْدٍ أَنْساهُ ذَكَرَ اللَّهِ.

وَالنَّفْسُ إذا اسْتَوْلَتْ عَلَى إِنْسَانٍ أَنْسَتْهُ اللَّهُ.

ولقد خَسِرَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، وَأَخْسَرُ مِنْهُ مَنْ أَعَانَ نَفْسَهُ - الَّتِي هِيَ أَعْدَى عَدُوِّهِ، إِلَّا بَأْنَ يَسْعَى فِي قَهْرِهَا لَعَلَّهُ يَنْجُو مِنْ شَرِّهَا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ﴾.

مَنْ أَرْمَتْهُ شَيْفَوْتُهُ لَمْ تُنْعِشْهُ قُوَّتُهُ، وَمَنْ قَصَمَتْهُ التَّقْدِيرُ لَمْ يَغْصِمْهُ التَّدْبِيرُ، وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالَّذِينَ انْخَرَطَ فِي سَبِيلِ الْآذِلِينَ.

(١) الآية (١٣) لم ترد.

(٢) الآية (١٧) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ .

مَنْ جَنَحَ إِلَى مَنْحَرٍ عَنْ دِينِهِ، أَوْ دَاهَنَ مُبْتَدِعاً فِي عَهْدِهِ نَزَعَ اللَّهُ نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ قَلْبِهِ فَهُوَ فِي خِيَانَتِهِ جَائِزٌ عَلَى عَقِيدَتِهِ، وَسَيَذُوقُ قَرِيباً وَبَالَ أَمْرِهِ .

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ .

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبتته، ويقال: جعل قلوبهم مُطَرَّرَةً بِاسْمِهِ .
وَأَغْرَزَ بِحُلَّةٍ لِأَسْرَارِ قَوْمٍ طَرَاظَهَا اسْمُ «اللَّهِ» !!

سورة الحشر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ - الكونُ بجملته في طلبه .. وهو عزيز .
الشموسُ والأقمارُ والنجومُ، والليلُ والنهارُ، وجميع ما خَلَقَ اللَّهُ من الأعيان .
والآثارُ متناديةٌ على أنفُسِها: نحنُ عبيدُه .. نحنُ عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .. نريدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .
قَدَّسَ الله ونَزَّهَهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؛ فكلُّ ما خَلَقَهُ جَعَلَهُ على وحدانيته دليلاً، وَلِمَنْ أراد أن يَعْرِفَ إلهيته طريقاً وسبيلاً .
أتقن كُلُّ شَيْءٍ وذلك دليلٌ عِلْمِهِ وحكمته، وَرَتَّبَ كُلُّ شَيْءٍ، وذلك شاهدٌ على مشيئته و(إرادته) .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا شبيهه يساويه، ولا شريكٍ له في المُلْكِ يَنَازِعُهُ وَيُضَاهِيهِ .
﴿الْحَكِيمُ﴾ الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِهِ عَيْبٌ، ولا يتوجَّه عليه عَثْبٌ .
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ .
هم أهل النضير، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ ألا يكونوا عليه، ثم بعد أخذ نقضوا العَهْدَ، وباعوا أبا سفيان^(١) وأهل مكة، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك، فبعث صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة^(٢)، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ - ٣١ هـ = ٥٦٧ - ٦٥٢ م) صحابي، من سادات قريش في الجاهلية . وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية . كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره . قاد قريشاً وكنانة يوم أحد والخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة (٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنيناً والطائف . ففقت عينه يوم الطائف ثم فقت الأخرى يوم اليرموك فعمي . ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عاملاً في نجران، ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة، وقيل: بالشام .

الأعلام ٢٠١/٣، والأغانى ٨٩/٦، والإصابة ٤٠٤١، وابن عساكر ٣٨٨/٦ .

(٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري (٣٥ ق هـ - ٤٣ هـ = ٥٨٩ - ٦٦٣ م) الحارثي أبو عبد الرحمن، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدرًا وما بعدها إلا غزوة تبوك . واستخلفه =

الصَّدَقَةَ. وكان رئيسهم كعب بن الأشرف^(١) فقتله محمد بن مسلمة (غيلة)، وغزاهم رسول الله ﷺ وأجلاهم عن حصونهم المنيعه وأخرجهم إلى الشام، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَر عليهم لكثرتهم، وَلِمَنَعَةِ حصونهم.

وظلُّوا يهدمون دورهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب، فسُمُوا أول الحشر، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وخُشِرَ إلى الشام.

قال جل ذكره: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤِيلَ الْأَبْصَرِ﴾.

كيف نَصَرَ المسلمين - مع قِلَّتِهِم - عليهم - مع كَثَرَتِهِم. وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرة عليهم. وإذا أراد الله قَهْرَ عدُوٍّ استنوق^(٢) أسدُه.

ومن مواضع العبرة في ذلك ما قاله: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ بحيث داخلتكم الرِّبِيَّةُ في ذلك لِقَرْطِ قُوَّتِهِم - فصَانَهُم بذلك عن الإعجاب.

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضاً ما قاله ﴿وَلَطَّلُوا أَنَّهُمْ مَارِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فلم يكن كما ظنُّوه - وَمَنْ تَقَوَّ بمخلوق أسلَّمَه ذلك إلى صَغَارِهِ^(٣) ومَذَلَّتِهِ.

ومن الدلائل الناطقة ما أَلْقِي في قلوبهم من الخوف والرُّعب، ثم تخريبهم بيوتهم بأيديهم علامة ضَعْف أحوالهم، وبأيدي المؤمنين لقوة أحوالهم، فتمت لهم الغلبة عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم.

هذا كله لا بُدَّ أَنْ يحصل به الاعتبار - والاعتبارُ أخذُ قوانين الشَّرْع.

وَمَنْ لم يَغْتَبِرْ بغيره اعتَبِرَ به غيره.

= النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر مُعَدًّا لكشف أمور الولاية في البلاد مات بالمدينة.

الأعلام ٩٧/٧، والإصابة ٧٨٠٨، والبدء والتاريخ ١٢٠/٥، والكامل ٢/٣.

(١) هو كعب بن الأشرف الطائي (... - ٣ هـ = ٦٢٤ م) من بني نيهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية، وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

الأعلام ٢٢٥/٥، وإمتاع الأسماع ١٠٧/١ - ١٠٩، وابن الأثير ٥٣/٢، والطبري ٢/٣ والجمحي ٢٣٨.

(٢) استنوق: صار كالناقة في ذلها. (اللسان ٣٦٢/١٠ مادة: نوق).

(٣) الصَّغَار: الذل والضميم. (اللسان ٤٥٩/٤ مادة: صفر).

ويقال: يُخَرَّبُونَ بيوتهم بأيديهم، وقلوبهم باتباع شهوات نفوسهم، ودينهم بما يمزجونه به من البدع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

لولا أن قضى الله عليهم أن يخرجوا لعذبهم الله بالقتل والاستئصال، ثم في الآخرة لهم عذاب النار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ذلك بأنهم خالفوا أمر الله. والمشاقة أن يتحول المرء إلى شق آخر.

فالعاصي إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاق الله، ولمن شاق الله عذاب النار.

قوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَحْتُمْهَا فَأَيَّمَهُ عَلَىٰ أَصُولِهَا فَيَاذِنِ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الليسة: كل نوع من النخيل ما عدا العجوة^(١) والبرني^(٢).

لما أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟!

فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله.. فانقطع الكلام.

وفي هذا دليل على أن الشريعة غير معللة، وأن الأمر الشرعي إذا جاء بطل التعليل، وسكتت الألسنة عن المطالبة بـ «لِمَ؟» وخطور الاعتراض أو الاستقبح خروج عن حد العرفان. والشيوخ.

قالوا: مَنْ قال لأستاذه وشيخه: «لِمَ؟» لا يفلح. وكل مريد يكون لأمثال هذه الخواطر في قلبه جَوْلَان لا يجيء منه شيء. وَمَنْ لم يتجرّد قلبه من طلب التعليل، ولم يباشِرُ حُسْنَ الرضا بكل ما يجري واستحسان ما يبدو من الغيب لِسِرِّه وقلبه - فليس من الله في شيء.

(١) العجوة: ضرب من أجود أنواع التمر بالمدينة أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد من غرس النبي ﷺ ونخلتها تسمى لينة. (اللسان ٣١/١٥ مادة: عجا).

(٢) البرني: ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة. (اللسان ٥٠/١٣ مادة: برن).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد بذلك أموال بني النضير، فقد كانت من جملة الفَيء لا من الغنيمة؛ فالفَيء ما صار إلى المسلمين من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل وركاب، وتدخل في جملة أموالهم إذا ماتوا وصاروا إلى بيت المال. والغنيمة ما كانت بقتال وإيجاف خيل وركاب. وقد خص رسول الله ﷺ بأموال هؤلاء فقراء المهاجرين، واستأثر لنفسه بما شاء، فطابت نفوس الأنصار بذلك، وشكر الله لهم. ذلك لأن تحرر القلب من الأعراض والأملak صفة السادة والأكابر، ومن أسرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في تضيقه وتدنيقه، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حظوظه - وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة شيء.

وأهل الصفاء لم تبق عليهم من هذه الأشياء بقية، وأما من بقي عليه منها شيء فمترسم^(١) سوقي. لا متحقق صوفي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آَلَانَكُمْ الرَّسُولُ فَحِذُّوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

هذا أصل من أصول وجوب متابعتها، ولزوم طريقتها وسيرته - وفي العلم تفصيله.

والواجب على العبد عرض ما وقع له من الخواطر وما يكشف به من الأحوال على العلم - فما لا يقبله الكتاب والسنة فهو في ضلال^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِزْقًا وَنَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

يريد أن هذا الفَيء هؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدار مائة رجل.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ﴾ وهو الرزق ﴿وَرِزْقًا﴾ بالثواب في الآخرة.

وينصرون دين الله، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: والفقير الصادق هو الذي يترك كل سبب وعلاقة، ويفرغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويقف مع الحق راضياً بجزئان حكمه فيه.

(١) القشيري يربط بين الصفاء والتصفوف. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ - ٢٨٣).

(٢) اللقاء بين الحقيقية والشريعة عنصر أساسي في مذهب القشيري. (انظر الرسالة ص ٨٢، ٨٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجَبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

نزلت هذه الآية في الأنصار. ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أي سكنوا المدينة قبل المهاجرين. . . ﴿يُحْجَبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من أهل مكة.

﴿وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ مما خُصَّصَ به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يَغْتَرِضُونَ بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين، حتى لو كانت بهم حاجة أو اختلال أحوال.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قيل نزلت الآية في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول.

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرب منه الطعام وأطفا السراج ليؤهم ضيفه أنه يأكل، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله، فأنزل الله الآية في شأنه.

ويقال: الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللثيمُ من بناها لنفسه).

وقيل: لم يقل الله: وَمَنْ يَتَّقِ شُحَّ نَفْسِهِ بَلْ قَالَ: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾

ويقال: صاحبُ الإيثارِ يؤثرُ الشبعانَ على نفسه - وهو جائع.

ويقال: مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثر الجميع دون تمييز.

ويقال: الإيثارُ أَنْ تَرَى أَنَّ ما بأيدي الناسِ لهم، وأن ما يحصل في يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذن فيها.

ويقال: مَنْ رأى لنفسه ملكاً فليس من أهل الإيثار.

ويقال: العابدُ يؤثرُ بدنيه غيرَه، والعارفُ يؤثرُ بالجنة غيرَه.

وعزيرُ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لِنَفْسِهِ شيئاً: لا في الدنيا من جاءه أو مال، ولا في الجنة من الأفضال، ولا منه أيضاً ذرةٌ من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال.

وهكذا وصفُ الفقير؛ يكون بسقوط كلِّ أربٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أي والذين هاجروا من بعدهم، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة. . . كلُّهم يَتَرَحَّمُونَ على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريق

الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجبرون من الله أن يجعل لأحد من المسلمين في قلوبهم غلاً أي حِقْداً. وَمَنْ لَا شَفَقَةَ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدِّينِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يريد بهم منافقي المدينة؛ ظاهروا بني النضير وقريظة، وعاهدوهم على الموافقة بكل وجه، فأخبر الله - سبحانه - أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه، وأخبر أنهم لا يتناصرون، وأنهم يتخاذلون، ولئن ساعدوهم في بعض الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام من يجاهدونهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أخبر - سبحانه - أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله، وذلك لِقَلَّةِ يقينهم، وإعراض قلوبهم عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَقُولُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُخَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جُدِرَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلا مُخَاتَلَةً، أو من وراء جدران. وإنما يشتد بأسهم فيما بينهم، أي إذا حارب بعضهم بعضاً، فأما معكم.. فلا. ﴿مَحْشَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

اجتماع النفوس - مع تنافر القلوب واختلافها - أصل كل فساد، وموجب كل تخاذل، ومقتضى تجاسر العدو.

واتفاق القلوب؛ والاشتراك في الهمة؛ والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة.. ولا يكون ذلك للأعداء قط؛ فليس فيهم إلا اختلال كل حال، وانتقاض كل شغل.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وِبَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. مثَلُ بني قريظة كمثَل بني النضير؛ ذاق النضير وِبَالَ أمرهم قبل قريظة بِسَنَةٍ؛ وذاق قريظة بَعْدَهُمْ وِبَالَ أمرهم.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أي مثل هؤلاء المنافقين مع النضير - في وعدهم بعضهم لبعض بالتناصر ﴿كَذَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ﴾ .

وكذلك أرباب الفترة وأصحاب الزلة وأصحاب الدعاوى . . هؤلاء كلهم في درجة واحدة في هذا الباب - وإن كان بينهم تفاوت - لا تنفع صحتهم في الله؛ قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكل أحد - اليوم - يألف شكله؛ فصاحب الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحب المعنى إلى صاحب المعنى^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفكر في العمل خيره وشره^(٢) .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة، ومن لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله . . فعن قريب سيفتضح^(٣) .

وعلاوة من نَظَرَ لِعَدِهِ أَنْ يُحْسِنَ مِرَاعَةَ يَوْمِهِ؛ ولا يكون كذلك إلا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَ في أمسه والناس في هذا على أقسام: مُفَكِّرٌ في أمسه؛ ما الذي قَسِمَ له في الأزل؟ وآخر مفكر في غده؛ ما الذي يلقاه؟؟ وثالث مُسْتَقِيلٌ بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مُضْطَلَمٌ عن شاهده موصول بربه، مُنْذَرَجٌ في مذكوره؛ لا يتطلع لماضيه ولا لمستقبله، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته^(٤) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

تركوا طاعته فتركهم في العذاب؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

(١) الآية (١٧) لم ترد.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٩ (الغية والحضور).

(٣) انظر حديث القشيري عن المراقبة بالرسالة القشيرية ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٤) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الوقت: يقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك أنه مشغول بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين، ويقولون: فلان بحكم الوقت أي أنه مستسلم بما يبدو له من الغيب من غير اختيار له. ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت. ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت. (الرسالة القشيرية ص ٥٥ ، ٥٦).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾.

لا يستوي أهل الغفلة مع أهل الوصلة.

وأصل كل آفة نسيان الرب، ولولا النسيان لما حصل العصيان، والذي نسي أمر نفسه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته، ويُسوف فيما يلزمه به الوقت من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَا خَشْيَةً خَاشِعَةً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي لو كان للجبل عقلٌ وصلاحٌ ففكر وسر، وأنزلنا عليه هذا القرآن لخضع وخشع. ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ويدل عليه أيضاً قوله.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾: ليعقلوا ويهتدوا، أي بذلك أمرناهم، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن.

ويقال: ليس هذا الخطاب على وجه العتاب معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إياهم بالقوة؛ فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ لم يُطِقْ ولخشع - وهؤلاء خضعتهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿الْغَيْبُ﴾: ما لا يُعرف بالضرورة، ولا يُعرف بالقياس من المعلومات. ويقال: هو ما استأثر الحق بعلمه، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه.

﴿وَالشَّهَادَةُ﴾: ما يعرفه الخلق.

وفي الجملة: لا يغزب عن علمه معلوم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿الْمَلِكُ﴾: ذو القدرة على الإيجاد.

﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزه عن الآفة والنقص.

﴿السَّلَامُ﴾: ذو السلامة من النقائص، الذي يُسلم على أوليائه، والذي سلم

المؤمنون من عذابه.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾: الذي يصدق عبده في توحيده فيقول له: صدقت يا عبيدي.

والذي يُصَدِّق نفسه في إخباره أي يعلم أنه صادق .
ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يؤمنهم من عقوبته .

﴿الْمُهَيِّئُ﴾ : الشاهد، وبمعنى الأمين، ويقال مؤيمن (مُفَيِّل) من الأمن قلبت همزته هاء وهو من الأمان، ويقال بمعنى المؤيِّن .

﴿الْمُزِيلُ﴾ : الغالبُ الذي لا يُغْلَب، والذي لا مثيلَ له، والمستحق لأوصاف الجلال، وبمعنى : المُعِزَّ لعباده . والمَنِيْعُ الذي لا يَقْدِرُ عليه أحد .

﴿الْجَبَّارُ﴾ : الذي لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المُضْلِحَ لأمورهم من : جَبَرَ الكَسَرَ . أو بمعنى القادر على تحصيل مراده مِنْ خَلَقِهِ على الوجه الذي يريده من : جَبَرْتُهُ على الأمر وأجبرته .

﴿الْمُنَكِّرُ﴾ : المتقدِّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

هو المنشئ للأعيان والآثار .

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ : المُسَمَّياتِ الحِسان .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ : مضى معناهما، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء (في كتابنا المسمَّى : «البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى»).

سورة الممتحنة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم ملك لا أصل لملكه عند حدث ولا نسل له، فعنه يرث. ملك لا يستظهر بجيش وعدد، ولا يتعزذ بقوم وعدد. ملك للخلق بأجمعهم - لكنه اختار قوماً - لا لينفع بهم - بل لينفعهم، ورد آخرين وأذلهم بمنعهم ووضعهم:

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضًا﴾.

قال ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١) وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: «عاد نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها». فمن عادى نفسه فقد قام بحق الله، ومن لم يعاد نفسه لحقته هذه الوصمة^(٢). وأصل الإيمان الموالاة والمعاداة في الله ومن جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أنا أعلم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من دقائق التصنع وخفيات الرياء.

﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من التزئ للناس.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الاستسار بالزلة، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾، من الطاعة والبر.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الخيانة ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الأمانة.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٠٦/٧، ٣٣/٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٣).

قال القشيري في رسالته عند حديثه عن النفس: ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القلب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. (الرسالة القشيرية ص ٨٦، ٨٧).

(٢) الوصمة: العيب والعار.

﴿يَمَّا أَخَفَّتُمْ﴾ من الغِلِّ والغِشِّ للناس، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الفضيحة للناس .
 ﴿يَمَّا أَخَفَّتُمْ﴾ من ارتكاب المحظورات، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الأمر المعروف .
 ﴿يَمَّا أَخَفَّتُمْ﴾ من ترك الحشمة مني وقلة المبالاة بأطلاعي، وما أعلنتم من تعليم الناس ووعظهم .
 ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد حاد عن طريق الدين، ووقع في الكفر .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ بَعُثُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِأَسْوَءِ وَودُوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ .

إِنْ يَتَفَقَّهُوا بِكُمْ وصادفوكم يكونوا لكم أعداء، ولن تسلّموا من أيديهم بالسوء ولا من ألسنتهم بالذم وذكر القبيح .

﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ : ولن ينفعكم تؤذوكم وتقرّبكم إليهم، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام . ثم عقوبة الآخرة تذكركم .

وكذلك صفة المخالفة، ولا ينبغي للمرء أن يتعطش إلى عشيرته - وإن داهنته في قاله، ولا أن ينخدع بتغيرها - وإن لا يثبت في حالة .

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْغَدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ .

أي لكم قُدوةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبرؤوا من الكفار من أقوامهم؛ فافتدوا بهم . . إلا استغفار إبراهيم لأبيه - وهو كافر - فلا تقتدوا به .

وَلَا تَسْتَغْفِرُوا لِلْكَفَارِ . وكان إبراهيم قد وعده أبوه أنه يؤمن فلذلك كان يستغفر له، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

ويقال: كان منافقاً . . ولم يعلم إبراهيم ذلك وقت استغفاره له .

ويقال: يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أن الله لا يغفر للكفار .

والفائدة في هذه الآية تخفيف الأمر على قلب الرسول ﷺ والمؤمنين بتعريفهم أَنَّ مَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ حِينَ كَذَبُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، وَأَنَّهُمْ صَبَرُوا، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لذلِكَ أَنْ يَكُونَ بِالصَّبْرِ أَمْرُهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصح أن يكون معناه: قولوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

وقد مضى القول في معنى التوكل والإنابة.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ربنا لا تظفرهم بنا، ولا تقوهم علينا.

والإشارة في الآية: إلى الأمر بسنة إبراهيم في السخاء وحسن الخلق والإخلاص والصدق والصبر وكل خصلة له ذكرها لنا^(١).

قوله جل ذكره: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادَبْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾.

وقفهم في مقتضى قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ عند حد التجويز... لا حكماً بالقطع، ولا دفع قلب بالياس... ثم أمرهم بالاقتصاد في العداوة والولاية معهم بقلوبهم، وعرفهم بوقوع الأمر حسب تقديره وقدرته، وجزيان كل شيء على ما يريد لهم، وصدق هذه الترجية بإيمان من آمن منهم عند فتح مكة، وكيف أسلم كثيرون، وحصل بينهم وبين المسلمين مودة أكيدة.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَىٰ إِمْرَأَتِكُمْ أَنْ تَوْلَوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أمرهم بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذي يفعلونه، وأما من كان فيهم ذا خلق حسن، أو كان منه للمسلمين وجه نفع أو رفق - فقد أمرهم بالملاينة معه. والمؤلفة قلوبهم^(٢) شاهد لهذه الجملة، «فإن الله يحب الرفق في جميع الأمور»^(٣).

(١) الآية (٦) لم ترد.

(٢) المؤلفة قلوبهم: قوم من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم ليرغبوا من وراءهم في الإسلام فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلباً مع الكفار على المسلمين، وقد نقلهم النبي ﷺ يوم حنين بمائتين من الإبل تألفاً لهم. منهم الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وغيرهما. (لسان العرب ١١/٩ مادة: ألف).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤/٨، ٧١، ١٠٤)، ومسلم في (الصحيح (السلام ١٠)، والترمذي في (السنن ٢٧٧١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٦/٦، ٣٧، ٨٥، ١٩٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/٩) والدارمي في (السنن ٣٢٣/٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/٢٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٩/٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٤٩/١٠، ٤١/١١، ١٩٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٤) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٣٣)، والخطيب البغدادي =

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُ أَكْثَرُ عِلْمٍ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۚ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ﴾ .

كان النبي ﷺ يمتحنهن باليمين، فَيَخْلِفْنَ إِنْهَن لَمْ يَخْرُجْنَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَمْ يَخْرُجْنَ مَغَاطِلَةً لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَلَمْ يَخْرُجْنَ طَمَعاً فِي مَالٍ .

وفي الجملة: الامتحان طريق إلى المعرفة، وجواهرُ الناس تبيّن بالتجربة . وَمَنْ أَقْدَمَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ تَجْرِبَةٍ تَحْسَى كَأَسَ النَّدَمِ .

﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ .

لا توافقوا مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَتَرَفَّقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ﴾ .

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالبنَّ وشارطنَّ بهذه الأشياء :

تَرْكُ الشُّرْكِ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النَّسَبِ، وألا يعصينك في معروفٍ؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به، ويدخل في ذلك تَرْكُ النِّيَاحَةِ وشقُّ الجيوب ونَثْفُ الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميم ^(٢) الوجوه والتبرُّج ^(٣) وإظهار الزينة . . وغير ذلك مما هو من شعائر الدين في الجملة .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ۚ﴾ .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يشسوا من الآخرة كما يشس أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعَثُوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يشس الكفار حين اعتقدوا أن الخلق لا يُبْعَثُونَ في القيامة .

= في (تاريخ بغداد ١٠/٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٤٥، ١٦٤)، والبغوي في (شرح السنة ٧٣/١٣) وعبد الرزاق في (المصنف ٩٨٣٩، ١٩٤٦٠)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢٦/٢) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨٤/٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٤٦٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/٣٥٠) .

(١) الآية (١١) لم ترد .

(٢) الخمش: الخدش يظهر في الوجه وغيره (ج) خموش .

(٣) التبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال . (اللسان ٢/٢١٢ مادة: برج) .

سورة الصف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ وقفه الله لعرفانها لم يَضْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصل إلى المُسَمَّى بها بِجَنَانِهِ: في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كَيَانُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مَنْ أراد أن يصفو له تسييحه فليصف قلبه من آثار نفسه، وَمَنْ أراد أن يصفو له في الجنة عيشه فليصف من أوضار^(١) ذنبه نفسه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

جاء في التفاسير أنهم قالوا: لو عَلِمْنَا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنَا ولو فيه كل جهد.. ثم لَمَّا كان يومُ أُحُدٍ لم يثبتوا، فتزلت هذه الآية في العتاب.

وفي الجملة: خلف الوعد مع كلٍّ أحدٍ قبيح، ومع الله أقبح.

ويقال إظهارُ التجلُّد من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق في كلِّ نفسٍ يؤذن بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى.. والله يحب التبرِّي من الحول والقوة.

ويقال: لم يتوعد - سبحانه - زَلَّةً بِمِثْلِ ما على هذا حين قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَيْنَينَ مَرْصُوسٌ﴾.

المحبةُ توجبُ الإثارة، وتقديم مُرَادٍ حبيبك على مُرَادِ نَفْسِكَ، وتقديم محبوب حبيبك على محبوب نَفْسِكَ. فإذا كان الحق تعالى يحبُّ من العبد أن يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فَمَنْ لم يُؤَيِّزْ محبوب الله على محبوب نفسه - أي

(١) الأوضار: (ج) الضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

على سلامته - انسلخ من محبته لربه، ومن خلا من محبة الله وقَعَ في الشق الآخر، في خسارته.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

لَمَّا زَاغُوا بِتَرْكِ الْحَدِّ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالصَّدِّ وَالرَّدِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الْوُدِّ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا بِظَوَاهِرِهِمْ أَزَاغَ اللَّهُ سَرَائِرَهُمْ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ خِدْمَةِ الْبَابِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّشَوُّقِ إِلَى الْبَسَاطِ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنِ الْعِبَادَةِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِرَادَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَتَمُّهٖ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

بَشَّرَ كُلَّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بِنَبِيِّنَا ﷺ، وأفرد الله - سبحانه - عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخرُ نبيٍّ قبل نبينا ﷺ: فبيّن بذلك أن البشارة به عَمَّتْ جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

فَمَنْ احْتَالَ لَوْهَنَهُ، أَوْ رَامَ وَهْيَهُ انْعَكَسَ عَلَيْهِ كَيْدُهُ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ تَدْبِيرُهُ.

﴿وَيَأْتِيكَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَيِّرَ نُورُكَ﴾: كما قالوا:

وَاللَّهُ سَيَّرَ فِي غُلَاةٍ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

كأنه قال: مَنْ تَمَنَّى أَنْ يُطْفِئَ نُورَ الْإِسْلَامِ بِكَيْدِهِ كَمَنْ يَحْتَالَ وَيَزَاوِلْ إطفاء شعاع الشمس بنفثه ونفخه فيه - وذلك من المُحَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

لَمَّا تَقَاعَدَ قَوْمُهُ عَنْ نَصْرَتِهِ، وَانْبَرَى أَعْدَاؤُهُ لَتَكْذِيبِهِ، وَجَحَدُوا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ صِدْقِهِ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ أَنْصَاراً مِنْ أُمَّتِهِ هُمْ: نَزَّاعُ الْقَبَائِلِ، وَالْأَحَادُ الْأَفَاضِلِ، وَالسَّادَاتُ الْأَمَائِلِ، وَأَفْرَادُ الْمَنَاقِبِ - فَبَذَلُوا فِي إِعَانَتِهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ مُهَجَّهُمْ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ كِرَائِمِهِمْ، وَوَقَوْه بَارِوَاهِمِمْ، وَأَمَدَّهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِتَوْفِيقِهِ كَيْ يَنْصُرُوا

(١) الآية (٧) لم ترد.

دينه، أولئك أقوامٌ عَجَزَ اللهُ بماء السعادة طينَتهم، وخلق من نور التوحيد أرواحهم وأهلهم يوم القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل الله نبيه لدينه موضحاً، وبالحق موضحاً، ولتوحيدة مغلناً، ولجهده في الدعاء إليه مستفرغاً. . فافزع بنضجه قلباً نكراً، وبصر بنور تبليغه عيوناً غمياً.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ مَعْرَفَةِ نَجِيَّتِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلَهِم تَوَّسُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

سمى الإيمان والجهاد تجارة لما في التجارة من الربح والخسران ونوع تكسب من التاجر - وكذلك: في الإيمان والجهاد ربح الجنة وفي ذلك يجتهد العبد، وخسرانها إذا كان الأمر بالضد.

وقوله: ﴿تَوَّسُونَ بِاللَّهِ﴾ أي في ذلك جهادكم وإيمانكم واجتهادكم، وهو خير لكم.

ثم بين الربح على تلك التجارة ما هو فقال: ﴿يَغْفِر لَّكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قدّم ذكر أهم الأشياء - وهو المغفرة. ثم إذا فرغت القلوب عن العقوبة قال: ﴿وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ﴾ فبعد ما ذكر الجنة ونعيمها قال: ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ﴾، وبماذا تطيب تلك المساكن؟ لا تطيب إلا برؤية الحق سبحانه، ولذلك قالوا:

أجيراننا ما أوحش الدار بعدكم إذا غبثتموها ونحن حضور
نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غيب ونحن حضور
قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أي ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصر من الله؛ اليوم حفظ الإيمان وتثبيت الأقدام على صراط الاستقامة، وغداً على صراط القيامة.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: الرؤية والزلفة. ويقال الشهود. ويقال: الوجود أبد الأبد.

﴿وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنهم لا يبقون عنك في هذا التواصل.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَصْوَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن

أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَامْنَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٤٠﴾

أي كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أن عيسى لما استعان واستنصر الحواريين نصره . فأنصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأكرموا، وطائفة كفروا فأذلوا، وأظفر أوليائه على أعدائه . . لكي يعرف الرسول ﷺ أن الله سبحانه يُظْفِرُ أوليائه على أعدائه .

سورة الجمعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز إذا تجلّى لقلب عبّد بوصف جماله تجمعت أفكاره على بساط جوده فلم يتفرّق بسواه^(١).

ومن تجلّى لبيّره بنعت جلاله اندرجت جملته، واستهلّك في وجوده فلم يشعر بكرائم دُنياه ولا بعظائم عُقباه.

وكم له من إنعام! وكم له من إحسان! وكم في أمثالهم: «جرى الوادي فطمّ على القرّي»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تَسَبَّحَ في بحار توحيد الحق أسرار أهل التحقيق، وبخروهم بلا شاطيء؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح، فحازت أيديهم جواهر التفريد فرصعوها في تاج العرفان كي يلبسوه يوم اللقاء.

﴿الَّذِي الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْمُكَرِّمُ﴾.

﴿الَّذِي﴾: الملك المتفرد باستحقاق الجبروت.

﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزّه عن الدرك والوصول: فليس بيد الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالي، والتأمل في شهود أفعاله، فأما الوقوف على حقيقة أثّته - فقد جَلَّتْ الصمدية عن إشراف عليه، أو طمع إدراك في حال رؤيته، أو جواز إحاطة في العلم به.. فليس إلا قالة بلسان مُسْتَطَقٍّ، وحالة بشهود حق مستغرق.

وقُلْنَا لَنَا: نحن الأهلة إنما نُضِيءُ لِمَنْ يَسْرِي بليلى ولا نُقْرِي

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَئِي ضَلُّوا مُبِينًا﴾.

(١) انظر حديث الجمع والفرق للقسيري برسالته ص ٦٤، ٦٧.

(٢) القرّي: مجرى الماء في الروض (ج) أقرية وقریان. (اللسان ١٧٩/١٥ مادة: قرأ).

جرّده عن كلِّ تكليفٍ لتعلّم، وعن الاتصافِ بتطلّب. ثم بَعَثَهُ فِيهِمْ وَأَظْهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْصَافِ مَا فَاقَ الْجَمِيعَ.

فكما ائْتَمَهُ فِي الْإِبْتِدَاءِ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، ثُمَّ آوَاهُ بِطُفْئِهِ - وَكَانَ ذَلِكَ أُبْلَغَ وَأَتَمَّ - فَإِنَّهُ كَذَلِكَ أَفْرَدَهُ عَنْ تَكْلُفِهِ الْعِلْمَ - وَلَكِنْ قَالَ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] ألبسه لباسَ الْعِزَّةِ، وَتَوَجَّهَ بِتَاجِ الْكِرَامَةِ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ حُسْنَ التَّوَلَّى. لَتَكُونَ آثَارُ الْبُشْرِيَّةِ عَنْهُ مَنْدَرَجَةً، وَأَنْوَارُ الْحَقَائِقِ عَلَيْهِ لَانِحَةً.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أَي بَعَثَهُ فِي الْأَمِيِّينَ، وَفِي آخَرِينَ مِنْهُمْ وَهُمْ الْعَجَمُ، وَمَنْ يَأْتِي... إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَهُوَ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يقصد به هنا النبوة، يُؤْتِيهَا ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّهَا تُسْتَحَقُّ لَكثْرَةِ طَاعَةِ الرَّسُولِ - وَرَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَتَخْصِيصُهُمْ بِطَيْبَتِهِمْ؛ فَالْفَضْلُ مَا لَا يَكُونُ مُسْتَحَقًّا، وَالْإِسْتِحْقَاقُ قَرَضٌ لَا فَضْلَ.

ويقال: ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به.

ويقال: هو الْأَنْسُ بِاللَّهِ، وَالْعَبْدُ يَنْسَى كُلَّ شَيْءٍ إِذَا وَجَدَ الْأَنْسَ.

ويقال: قَطَعَ الْأَسْبَابَ، - بِالْجُمْلَةِ - فِي اسْتِحْقَاقِ الْفَضْلِ، إِذْ أَحَالَهُ عَلَى الْمَشِيئَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِهَا.

وَيُلْحَقُ بِهِؤْلَاءِ فِي الْوَعِيدِ - مِنْ حَيْثُ الْإِشَارَةُ - الْمَوْسُومُونَ بِالتَّقْلِيدِ فِي أَيِّ مَعْنَى شِئَتْ: فِي عِلْمِ الْأَصُولِ، وَمِمَّا طَرِيقُهُ أَدْلَى الْعُقُولِ، وَفِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِمَّا طَرِيقُهُ الْمَنَازِلَاتِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَسْتَوِنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَعْجَزَاتِهِ ﷺ، فَصَرَفَ قُلُوبَهُمْ عَنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَّةِ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

ويقال: مِنْ عَلَامَاتِ الْمَحَبَةِ الْإِشْتِيَاقُ إِلَى الْمَحْبُوبِ؛ فَإِذَا كَانَ لَا يَصِلُ إِلَى لِقَائِهِ

إلا بالموتِ فتمتبه - لا محالة - شرط، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً.. وكان كما أخبر.
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّزِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْثِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الموت حتمٌ مَقْضِيٌّ. وفي الخبر: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١). والموت جِسْرٌ والمقصود عند الله.. وَمَنْ لَمْ يَعِشْ عَفِيفاً فَلَيْمَتْ ظَرْفياً.
قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أَوْجَبَ السَّغْيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا تَوَدَّعَ لَهَا، وَأَمَرَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ.
ومنهم من يحمله على الظاهر؛ أي ترك المعاملة مع الخلق، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنى آخر: هو ترك الاشتغال بملاحظة الأعراض، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر؛ فمنهم مَنْ يَسْعَى إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ومنهم من يسعى إلى الله، بل يسعون إلى ذِكْرِ اللَّهِ جَهْراً بَجَهْرٍ، ويسعون إلى الله تعالى سِرّاً بِسِرٍّ.
قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إنما ينصرف مَنْ كَانَ لَهُ جَمْعٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، أَوْ شُغْلٌ يَقْصِدُهُ وَيَشْتَغِلُ بِهِ - ولكن.. مَنْ لَا شُغْلَ لَهُ وَلَا مَأْوَى.. فإلى أين يرجع؟ وإنما يقال: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إذا كَانَ لَهُ أَرْبٌ.. فأما مَنْ سَكَنَ عَنِ الْمَطَالِبَاتِ، وَكُفِيَ دَاءَ الطَّلَبِ.. فما لَهُ وَابْتِغَاءُ مَا لَيْسَ يَرِيدُهُ وَلَا هُوَ فِي رِقَّةٍ؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْوَى وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

مَنْ أَسْرَتْهُ أخطارُ الأشياءِ استجاب لكلِّ دَاعٍ جَرَّهَ إِلَيْهِ لَهْوٌ أَوْ حَمَلَهُ عَلَيْهِ سَهْوٌ وَمَنْ مَلَكَهُ سلطانُ الحقيقةِ لم ينحرف عن الحضور، ولم يلتفت في حال الشهود. ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْوَى﴾ وما عند الله للعباد والزهاد - غداً - خيرٌ مما نالوه في الدنيا نقداً. وما عند الله للعارفين - نقداً - من واردات القلوب وبواده^(٢) الحقيقة خيرٌ مما يُؤْمَلُ المستأنف في الدنيا والعقبى.

(١) أخرجه البخاري (رقاق ٤١)، ومسلم (ذكر ١٤ - ١٨)، والترمذي (زهدي ٦)، والنسائي (جنانز ١٠)، وابن ماجه (زهدي ٣١)، والدارمي (رقاق ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٤٢٠/٢، ١٠٧/٣، ١٠٧/٤، ٢٥٩، ٣١٦/٥، ٣٢١، ٤٥، ٤٤/٦، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦.

(٢) انظر حديث القشيري عن البوادة والهجوم بالرسالة القشيرية ص ٧٨.

سورة المنافقون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَنْ تَحَقَّقَ بِهِ صَدَقَ فِي أَقْوَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَعْمَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَخْلَاقِهِ ثُمَّ صَدَقَ فِي أَحْوَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَنْفَاسِهِ.. فَصِدْقُهُ فِي الْقَوْلِ أَلَا يَقُولُ إِلَّا عَنْ بَرَهَانٍ، وَصِدْقُهُ فِي الْعَمَلِ أَلَا يَكُونُ لِلْبِدْعَةِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَخْلَاقِ أَلَا يُلَاحِظُ إِحْسَانَهُ مَعَ الْكَافَّةِ بَعِينَ النِّقْصَانِ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَشْفٍ وَبَيَانٍ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَنْفَاسِ أَلَا يَتَنَفَّسُ إِلَّا عَلَى وَجُودِ كَالْعَيَانِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

كَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَأُظْهِرُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَنْ بَضِيْرَةٍ وَلَمْ يَعْتَقِدُوا تَصْدِيْقَكَ، فَهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا فِي الشَّهَادَةِ وَلَكِنْ كَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُمْ مُخْلِصُونَ لَكَ، مُصَدِّقُونَ لَكَ. فَصِدْقُ الْقَالَةِ لَا يَنْفَعُ مَعَ قُبْحِ الْحَالَةِ.

وَيَقَالُ: الْإِيمَانُ مَا يُوْجِبُ الْأَمَانَ؛ فَالْإِيمَانُ يُوْجِبُ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا كَانَ عَاصِيًا خِلَاصَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَكْثَرَهُ وَأَقْلَهُ.. إِلَّا مَا يَنْقُلُهُ مِنْ أَعْلَى جَهَنَّمَ إِلَى أَسْفَلِهَا.

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. تَسْتَرُّوا بِإِقْرَارِهِمْ، وَتَكْشِفُوا بِنِفَاقِهِمْ عَنْ أَسْتَارِهِمْ فَافْتَضَحُوا، وَذَاقُوا وَبَالَ أَحْوَالِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾.

اسْتَضَآؤُوا بِنُورِ الْإِجَابَةِ فَلَمْ يَنْبَسِطْ عَلَيْهِمْ شِعَاعُ السَّعَادَةِ، فَانْطَفَأَ نُورُهُمْ بِقَهْرِ الْحَرَمَانِ، وَبَقُوا فِي ظِلْمَاتِ الْقِسْمَةِ السَّابِقَةِ بِحُكْمِ الشَّقَاوَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمُ تَفَاجَعُوا لَعَنُوكُمْ لَكُمُ الْعَنَاءُ وَكَلَّاتُ الْمُنَافِقِينَ﴾. حَسْبُ مُسْنَدَةٍ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَنِيعَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ فَكَلَّاهُمُ اللَّهُ أَنَّ يُوَفَّقُوهُمْ.

أَيُّ هُمْ أَشْبَاحُ وَقَوَالِبُ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمُ الْبَابُ وَحَقَائِقُ - فَالْجُورُ الْفَارِغُ مُزَيَّنٌ ظَاهِرُهُ وَلَكِنَّهُ لِلْعَبِ الصَّيَّانِ.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لِجُبْنِهِمْ؛ إذ ليس لهم انتعاش برُبِّهم؛ ولا استقلال بغيرهم.

﴿هُرُّ الْقَدَرِ فَأَحْذَرْتُمْ﴾ هم عدوُّك - يا محمد - فاخذزهم، ولا يغررنك تبسطهم في الكلام على وجه التودد والتقرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبر، وإظهار الاستغناء عن استغفارك لهم.. فخلَّ سبيلهم؛ فليس للنصح فيهم مساع، ولن يضحيه من سكرتهم إلا حراً ما سيلقونه من العقوبة، فما دام الإصرار من جانبهم فإنهم:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فقد سبق العلم بذلك:

قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

كانهم مربوطون بالأسباب، محجوبون عن شهود التقدير، غير متحققين بتصرف الأيام، فأنطقهم بما خامر قلوبهم مِنْ تَمَنِّي انطفاء نور رسول الله، وانتكاث شملهم، فتواصوا فيما بينهم بقولهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ﴾.

وليس استقلالك - يا محمد - ولا استقلال أصحابك بالمرزوقين.. بل بالرازق؛ فهو الذي يمسككم.

قوله جل ذكره: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنما وقع لهم الغلط في تعيين الأعز والأذل؛ فتوهموا أن الأعز هم المنافقون، والأذل هم المسلمون، ولكن الأمر بالعكس، فلا جرم غلب الرسول ﷺ والمسلمون، وأذل المنافقون بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لله عز الإلهية، وللرسول عز النبوة، وللمؤمنين عز الولاية. وجميع ذلك لله؛ فعزه القديم صِفته، وعز الرسول وعز المؤمنين له فعلاً ومئةً وفضلاً، فإذا لله العزة جميعاً.

ويقال: كما أن عزَّ الله - سبحانه - لا زوال لها فعزة الأنبياء بأن لا عزل لهم، وعزة المؤمنين بالآل يبقى منهم مُخلَّد في النار.

ويقال: مَنْ كَانَ إِيمَانُهُ حَقِيقًا فَلَا زَوَالَ لَهُ .

ويقال: مَنْ تَعَزَّزَ بِاللَّهِ لَمْ يَلْحَقْهُ تَغْيِيرٌ عَنْ حَالِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ .

ويقال: لَا عِزَّ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا ذُلَّ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . . وما سوى هذا فلا أصل له .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ .

لَا تُضَيِّعُوا أُمُورَ دِينِكُمْ بِسَبَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ بَلْ آثَرُوا حَقَّ اللَّهِ، وَاشْتَغَلُوا بِهِ يَكْفِيكُمْ أُمُورَ دُنْيَاكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ؛ فَإِذَا كُنْتَ لِلَّهِ كَانِ اللَّهُ لَكَ .

ويقال: حَقُّ اللَّهِ مِمَّا أَلْزَمَكَ الْقِيَامَ بِهِ، وَحَقُّكَ ضَمَنَ لَكَ الْقِيَامَ بِهِ؛ فَاشْتَغِلْ بِمَا كُفِّتَ لَا بِمَا كُفِّيتَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْوَعْدُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَيَّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

لَا تَغْتَرُّوا بِسَلَامَةِ أَوْقَاتِكُمْ، وَتَرْقُبُوا بَغْتَاتِ أَجَالِكُمْ، وَتَأْمَهُبُوا لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنَ الرِّحَالِ، وَلَا تَعْرُجُوا فِي أَوْطَانِ التَّسْوِيفِ^(١) .

سورة التغابن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ ذَكَرَهَا يحتاج إلى لسانٍ عزيز في الغيبة لا يُتَنَدَّلُ، وفي ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَلُ. وَمَنْ عَرَفَهَا يحتاج إلى قلبٍ عزيز ليس في كلِّ ناحية منه خليط، ولا في كلِّ زاوية زبيط^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المخلوقات كلها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحَةٌ... ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحها مَنْ به طَرَشُ النكرة.

ويقال: الذي طَرَأَ صَمَمُهُ فقد يُرْجَى زواله بنوع معالجة، أمّا مَنْ يُولَدُ أَصَمًّا فلا حيلة في تحصيل سماعه. قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِّرُ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءُ كافرًا، وَعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر... وكذلك كانوا. ومنكم مؤمنٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءُ مؤمنًا، وَعَلِمَ في آزاله أنه يؤمن وخلقَه مؤمنًا، وأراد به مؤمنًا... والله بما تعملون بصير.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: أي وهو مُحِقٌّ في خلقه.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذي قال لنا، صَوَّرَ الظاهرَ وصَوَّرَ الباطنَ؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته، والباطن شاهدٌ على جلال قربه.

(١) الزبيط: صياح البطة. (اللسان ٣٠٧/٧ مادة: زبط).

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قَصُرُوا جِيلَكُمْ عن مطلوبكم، فهو تتقاصر عنه علومكم، وأنا أعلم ذلك دونكم.. فاطلبوا مني، فأنا بذلك أعلم، وعليه أقدر.

ويقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ﴾. فاحذروا دقيق الرياء، وخفي ذات الصدور ﴿وَمَا تَعْلَمُونَ﴾: فاحذروا أن يخالف ظاهركم باطنكم.

في قوله: ﴿مَا تُشِيرُونَ﴾ أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربّه.

وفي قوله: ﴿مَا تَعْلَمُونَ﴾ أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾.

المراد من ذلك هو الاعتبار بمن سلف، ومن لم يعتز عثر في مهواة من الأمل، ثم لا يتنعم إلا بعد فوات الأمر من يده.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾. شاهدوا الأمر من حيث الخلق فتطوخوا في متاهات الإشكالات المختلفة الأحوال. ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلصوا من تفرقة الأباطيل، واستراحوا بشهود التقدير من اختلاف الأحوال ذات التغيير.

قوله جل ذكره: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنَى عَنْهُمْ قُلُوبُ وَرِي لَيُغْنَى عَنْهُمْ يَوْمَ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الموت نوعان: موت نفس، وموت قلب، ففي القيامة يُبعثون من موت النفس، وأمّا موت القلب فلا يغنى منه - عند كثير من مخلصي هذه الطائفة، قال تعالى مُخْبِرًا عنهم: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعَثِنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ [يس: ٥٢] فلو عرفوه لما قالوا ذلك؛ فموت قلوبهم مُسرمدٌ إلى أن تصير معارفهم ضرورية، فهذا الوقت وقت موت قلوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رَشِيدًا وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿النور الذي أنزلنا﴾: القرآن. ويجوز أن يكون ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة وفنون اللطاف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْحُجَّةِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

المطيع - يومئذ - في غيب لأنه لم يستكثر من الطاعة، والعاصي في غيب لأنه استكثر من الزلة.

وليس كل الغني في تفاوت الدرجات قلة وكثرة، فالغني في الأحوال أكثر^(١).
قوله جل ذكره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي حُضْلَةٍ حَصَلَتْ مِنْ قِبَلِهِ خَلْقًا، وبعلمه وإرادته حكمًا.
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ حتى يهتدي إلى الله في السراء والضراء - اليوم - وفي الآخرة يهديه إلى الجنة.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للأخلاق السنية، والتنقي من شح النفس.
ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ لاتباع السنة واجتناب البدعة.
قوله جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾.

طاعة الله واجبة، وطاعة الرسل - الذين هم سفراء بينه وبين الخلق - واجبة كذلك. والأنوار التي تظهر عليك وتطالب بمقتضياتها كلها حق، ومن الحق. فتجب طاعتها أيضاً^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوَّلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَمُّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إذا دعوك لتجمع لهم الدنيا فهم عدو لك، أما إذا أخذتم منها على وجه العفاف فليسوا لكم أعداء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
﴿فَتْنَةٌ﴾: لأنهم يشغلونكم عن أداء حق الله؛ فما تبق عن الله مشغولاً بجمعه فهو غير ميمون عليك.

ويقال: إذا جمعت الدنيا لغير وجهه فإنكم تُشغَلون بذلك عن أداء حق مولاكم، وتشغلكم أولادكم، فتبقون بهم عن طاعة الله - وتلك فتنة لكم. . . ترومون إصلاحهم. فتفسدون أنتم وهم لا يضلحون!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي ما دتم في الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله. والتقوى

(٢) الآية (١٣) لم ترد.

(١) الآية (١٠) لم ترد.

عن شهود التقوى بعد ألا يكون تقصير في التقوى غاية التقوى .

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى ترتفع الأخطار عن قلبه، ويتحرر من رق المكنونات، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَرْضَوْا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

يتوجه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لينذل أموالهم، وللفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثار مراد الحق على مراد أنفسهم .

فالغني يُقال له: آثر حُكْمِي على مرادك في مالك، والفقير يُقال له: آثر حُكْمِي في نَفْسِكَ وقلبك ووقتك وزمانك .

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ .

جل شأنه .

سورة الطلاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ مَنْ لا سبيلَ إلى وصاله، ولا غُنيّة - في غيره - عن فعّاله، اسمٌ مَنْ عَلِمَه وقع في كل سكّونٍ وراحة، اسمٌ مَنْ عرفه وقع في كل اضطراب وإطاحة^(١)، العلماء بسراب علمهم استقلّوا فاستراحوا، والعارفون بسلطانِ حُكمه اضطلموا عن شواهدهم... فبادوا وطاحوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾.

الطلاق - وإن كان فراقاً - فلم يجعله الحقّ محظوراً... وإن كان من وجهٍ مكروهاً.

وللطلاق وقتية: سُنيّة وبدعية، ومباحة، لا سنية ولا بدعية؛ فالسنية: أن تطلّق في طُهرٍ لم تُباشِر فيه طلقةً واحدة، والبدعية: في حال الحيض وطُهرٍ جُمِعت فيه، والمباحة: في طهرٍ بعد حيضٍ ثم يطلقها من قبل أن يجامعها - والطلاق أكثر من واحدة.

والعِدَّة - وإن كانت في الشريعة لتحصيلين ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءً آخر - فالغالب والأقوى في معناها أنها للوفاء للمصحبة الماضية في وصلة النكاح.

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تحضّ، وهذه الآية من الحيض، وتلك التي انقطع حيضُها، والحُبلى حتى تلد... كل ذلك مراعاةً للحرمة: وعِدَّة الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حُرمة الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة... المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

(١) أطاح ماله: أفناه وأذهب.

العبودية: الوقوف عند الحد، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومن راعى مع الله حده أخلص الله له عهده...

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

قالوا: أراد ندمًا، وقيل: ولدًا، وقيل: منيلاً إليها، أولها إليه؛ فإن القلوب تتقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبر مع الأشكال حقًا للحرمة المتقدمة فالخلاص من مساكنة الأمثال، والتجرد لعبادة الله تعالى أولى وأحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

إذا صدق العبد في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخرج من بين العجين لا يغلق بها شيء. ويضرب الله تعالى على المتقي سدادات عنايته، ويدخله في كنف الإيواء، ويصرف الأشغال عن قلبه، ويخرجه من ظلمات تدبيره، ويجرده من كل أمر، وينقله إلى شهود فضاء تقديره.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

لم يقل: ومن يتوكل على الله فتوكله حسبه، بل قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ أي فالله حسبه أي كافي.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

إذا سبق له شيء من التقدير فلا محالة يكون، ويتوكله لا يتغير المقدور ولا يستأخر، ولكن التوكل بنيانه على أن يكون العبد مروح القلب غير كاره... وهذا من أجل النعم.

قوله: ﴿وَأَلْتَمِسْ يَسِّنَ مِنَ الْمَجِيزِ﴾... إلى قوله:

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

التوكل: شهود نفسك خارجاً عن المنة^(١) تجري عليك أحكام التقدير من غير تدبير منك ولا اطلاع لك على حكمه، ومسبيل العبد الخمود والرضا دون استعمال الأمر، وفي الخبر: «أعوذ بك من علم لا ينفع»^(٢): ومن العلم الذي لا ينفع - ويجب أن تستعيذ منه - أن يكون لك شغل أو يستقبلك مهم من الأمر ويشته عليك وجه التدبير فيه، وتكون مطالباً بالفوضى - فطلبك العلم وتمنيك أن تعرف متى يصلح هذا

(١) المنة: القوة (ج) منن.

(٢) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/٢٢٧).

الأمْر؟ ولأي سبب؟ ومن أي وجه؟ وعلى يد مَنْ؟ ... كل هذا تخليط، وغير مُسَلَّم شيء منه للأكابر.

فيجب عليك السكون، وحسن الرضا. حتى إذا جاء وقت الكشف فسترى صورة الحال وتعرفه، وربما ينتظر العبد في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (...).^(١) من الجامع، أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت ... كل هذا ترك للأدب، والله لا يرضى بذلك من أوليائه، بل الواجب السكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾.

إذا اتسع رزق العبد فعلى قدر المكنة يطالب بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه - أي ضيق - فلينفق مما آتاه الله أي من متاع البيت، ومن رأس المال - إن لم يكن من الربح، ومن ثمن الضيعة - إن لم يكن من العلة.

ومن ملك ما يكفيه للوقت، ثم اهتم بالزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرضي عنه، وصاحبه غير مُعَان. فأما إذا حصل العجز بكل وجه، فإن الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾ وسيجعل الله بعد عسر يسراً. هذا من أصحاب المواعيد - وتصديقه على حسب الإيمان، وذاك على قدر اليقين - ويقينه على حسب القسمة. وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين في الأحوال، الذين انحطوا عن حد الرضا واستواء وجود السبب وفقدته، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط، وعاشوا في أفياء الرجال يُعَلِّلُونَ بحسن المواعيد ... وأبدأ هذه حالتهم وهي كما قلنا:

إِنْ نَابَكَ الدَّهْرُ بِمَكْرُوهِهِ فَعِشْ بِتَهْوِينِ تَصَانِيْفِهِ

فَعَنْ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَنْقُضِي كُلَّ تَصَارِيْفِهِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَايِنِ مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثَقِيًّا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُفْرًا﴾.

من زرع الشوك لم ينجن الورد، ومن أضاع حق الله لا يطاع في حفظ نفسه. ومن اجتراً بمخالفة أمر الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَحِمْلُوا الصَّلَاحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى التَّوْبَةِ﴾.

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ تَبْيَانٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ . . . فَمَنْ اسْتِضَاءَ بِنُورِهِ اهْتَدَى ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى سَعَةِ فَنَائِهِ وَصَلَ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إِلَى شِفَائِهِ .

وَمَنْ يَزُومِنُ بِاللَّهِ ، وَيَعْمَلُ صَالِحاً لِلَّهِ ، وَفِي اللَّهِ ، فَلَهُ دَوَامُ النُّعْمَى مِنَ اللَّهِ . . . قَالَ تَعَالَى :

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾ .

وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا كَانَ عَلَى حُدِّ الْكَفَايَةِ ؛ لَا نَقْصَانٌ فِيهِ تَتَعَطَّلُ الْأُمُورُ بِسَبَبِهِ ، وَلَا زِيَادَةٌ فِيهِ تُشْغَلُ عَنْ الْإِسْتِمْتَاعِ بِمَا رُزِقَ لِخُرْصِهِ .

كَذَلِكَ أَرْزَاقُ الْقُلُوبِ . أَحْسَنُهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ فِي الْوَقْتِ ؛ مِنْ غَيْرِ نَقْصَانٍ يَجْعَلُهُ يَتَعَذَّبُ بِتَعَطُّشِهِ ، وَلَا تَكُونُ فِيهِ زِيَادَةٌ فَيَكُونُ عَلَى خَطَرٍ مِنْ مَغَالِيطٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا بِتَأْيِيدِ سَمَآوِيٍّ مِنَ اللَّهِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَخَلَقَ مَا خَلَقَ وَهُوَ مُجِئٌ فِيمَا خَلَقَ وَأَمْرٌ ، حَتَّى نَعْلَمَ اسْتِحْقَاقَ جَلَالِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ أَمْضَى فِيمَا قَضَى حُكْمًا ، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

سورة التَّحْرِيمِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله». اسمٌ عزيزٌ يُنْهَلُ مَنْ عصاه، فإذا رجع وناداه... أجابه ولّبّاه فإن لم يتوسَّلْ بِصِدْقِ قَدَمِهِ في ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بِصِدْقِ نَدَمِهِ في آخر عمره أَوْسَعَهُ غَفْراً، وقبل منه عُذْراً، وَأَكْمَلَ لَهُ دُخْراً، وَأَجَزَلَ لَهُ بَرّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾.

جاء في القصة: أن النبي ﷺ حَرَّمَ على نفسه مارية القبطية^(١)، وفي الحال حَلَفَ ألا يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة^(٢) حيث رأت النبي ﷺ معها في يومها.

وقيل: حَرَّمَ على نَفْسِهِ شَرْبَ العسل لما قالت له زوجاته، إِنَّا نشم منك ريح المغافير!

- والمغافير صمغ في البادية كريح الرائحة، ويقال: بقلة كريهة الرائحة... فعاتبته الله على ذلك.

وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه، وتَرَكَ لِلأَوَّلَى على مذهب مَنْ لم يجوِّز.

(١) هي مارية بنت شمعون القبطية (.... - ١٦ هـ = ٦٣٧ م) أم إبراهيم، من سراري النبي ﷺ) مصرية الأصل، بيضاء، ولدت في قرية «حفن» بمصر، وأهداها المقوقس القبطي إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى «سيرين» فولدت له «إبراهيم» فقال: أعتقها ولدها. وأهدى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت - الشاعر - فولدت له عبد الرحمن، فلما علم الحسن بن علي أن مارية من قرية حفن كلم معاوية، فوضع عن أهل القرية خراج أرضهم، ولما توفي النبي ﷺ تولى الإنفاق عليها أبو بكر، ثم عمر، وماتت في خلافة عمر بالمدينة، ودفنت بالبقيع.

الأعلام ٢٥٥/٥، والسمط الثمين ١٣٩، ومعجم البلدان (حفن)، وأسد الغابة (٥/٥٤٣).

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب (١٨ ق هـ = ٦٠٤ - ٦٦٥ م) صحابية جليلة صالحة من أزواج النبي ﷺ ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلموا وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها. روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ٦٠ حديثاً.

الأعلام ٢٦٥/٢، والإصابة ٢٧٣/٤، وطبقات ابن سعد ٥٦/٨، وصفة الصفوة ١٩/٢، وحلية ٥٠/٢.

وقيل: إنه طَلَّقَ حفصة طلاقاً واحدة، فأمره الله بمراجعتها، وقال له جبريل: إنها صَوَامَةٌ قَوَامَةٌ.

وقيل: لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطبيقها فَمَنَعَهُ اللَّهُ عن ذلك.

وقيل: لَمَّا رَأَتْهُ حفصة مع مارية في يومها قال لها: إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فلا تخبري أحداً: إِنَّ هذا الأمر يكون بعدي لأبي بكر ولأبيك.

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة، وأوحى الله له بذلك، فسأل النبي حفصة: لِمَ أَخْبَرْتِ عائشة بما قلت؟

فقالت له: وَمَنْ أَخْبَرَكَ بِذلك؟ قال أخبرني الله، وَعَرَفَ حفصة بعض ما قالت، ولم يصْرُحْ لها بجميع ما قالت، قال تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، فعاتبها على بعضٍ وَأَعْرَضَ عن بعض - على عادة الكرام.

ويقال: إن النبي - ﷺ - لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية كان كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من كل قاطع يقطعني عنك».

وظاهرُ هذا الخطاب عتاب على أنه مراعاة لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللَّهُ له.

والإشارة فيه: وجوب تقديم حقِّ الله - سبحانه - على كل شيء في كل وقت.

قوله جلَّ ذكره: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ لِحْجَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام، وتجاوزاً عنه. وقيل: إنه كَفَّرَ بعقوبة رقية، وعادَ مارية.

واللَّهُ - سبحانه - أجرى سُنَّتَهُ بأنه إذا ساكَنَ عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوْشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أَنْ يُعَاوِدَ رَبَّهُ، ثم يكفيه ذلك - ولكن بعد تطويل مدَّة، وأنشدوا في معناه:

إِذَا عُلِّقَتْ رُوحِي حَبِيباً تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كُلِّ تَسْلَبَنِيَّةٍ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله ﷺ تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن، وما كان من حديث طلاق حفصة، وما عاد إلى قلب أبيها، وحديث الكفاية، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة... كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه، وإرادته - سبحانه - تشويش قلوبهم حتى يكون رجوعهم كلهم إلى الله تعالى بقلوبهم^(١).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ وَجِبْرِيلُ وَصَلَّى الْمُرْسَلِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

عاتبهما على السير من حَطَرَاتِ القلب، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَطَاهَرَا عَلَيْهِ...﴾. ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ، مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجاء: أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله: لو أمرتني لأضربنَّ عُنُقَهَا!

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية. ثم قال تعالى زيادةً في العتاب وبيان القصة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِثْلَ مِثْلِكَ فَأْتِيْنَ قِيْنَ قِيْنَ عِيْدَاتِ سَيَعَتِ قِيْنَتِ وَأَبْكَارًا﴾.

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. أي: فقهوهم، وأدبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم.

ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب: وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات ليتعلموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلّوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مَرّوهم بقبول النصيحة.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: الوقود: الحطب.

ويقال: أمر الناس يصلح بحجارة أو مَدَرَةٌ^(١)، فإن أصل الإنسان مدرّة، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مدرّة فلا غرر من فضل الله. اللهم فألقِ فيها بذلنا حَجَرًا وخلصنا منها.

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِلَّا مَا تَجُزَّوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إذا فات الوقت استفحل الأمر، وانغلق الباب، وسقطت الحِيل... فالواجب البِدَارُ والفَرَارُ لتصل إلى رُوحِ القَرَار.

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

التوبة النصوح: هي التي لا يعقبها نقص.

(١) المدرّة: واحدة المدر: قطع الطين اليابس المتماسك. أو التراب المتلبّد.

إني لأخسّد جازكم لجواركم طوبى لمن أضحى لدارك جارا
يا ليت جارك باعني من داره شبراً لأعطيه بشبر دارا
قوله جل ذكره: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّنُّ﴾.

ختم السورة بذكرها بعد ما ذكر امرأة فرعون، وهما من جملة النساء، ولما كثر
في هذه السورة ذكر النساء أراد الله سبحانه ألا يخلو السورة من ذكرها تخصيصاً
لقدرها.

سورة الملك

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَنْ لم تَنعَطِرْ القلوبُ إِلَّا بنسيم إقباله، ولم تَنقَطِرْ الدموعُ إِلَّا للوعة فراقه أو رُوح وصاله؛ فدموعُهم في كلتا الحالتين مُنْسِكِبَةٌ، وقلوبُهم في عموم أحوالهم مُلْتَهَبَةٌ وعقولُهم في غالب أوقاتهم مُشْتَهَبَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تَقَدَّسَ وتعالى، مَنْ إحسانه تَوَاتَرَ وتوالى، فهو المتكَبِّرُ في جلالِ كبريائه، المتجَرِّدُ في علاءِ بهائه ودوامِ سنائه.

﴿يَدِيهِ الْمُلْكُ﴾: بقدرته إظهار ما يريد، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

خَلَقَ الموتَ والحياةَ، ابتلاءً لِلخَلْقِ، يختبرهم لِيُظْهِرَ لَهُ شكرانهم وكفرانهم، كيف يكونان عند المحنة في الصبر وعند النعمة في الشكر - ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾.

عَرَفْهم كمالَ قدرته بدلالات خَلْقِهِ، فَمَسَكَ السماءَ وأمسكها بلا عَمَدٍ، وَرَكَّبَ أجزاءها غيرَ مُستعينٍ بأحدٍ في خَلْقِهَا، وبالنجومِ رَئِيْنَهَا، وَمِنْ استراقِ سَمْعِ الشياطينِ حَصْنَهَا، وبغيرِ تعليمٍ مُعَلِّمٍ أحكمها وأتقنها.

﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ؟﴾: لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافي آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة.

ويقال: ما ترى فيها تفاوتاً، في استغنائه عن الجميع... ما ترى فيها تفاوتاً في الخَلْقِ؛ فَخَلَقَ الكثيرَ واليسيرَ عنده سيَّان، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشْقُ عليه الكثيرُ؛ لأنه مُتَنَزَّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به.

فَأَنْعِمِ النظرَ، وَكُزِّرِ السَّبْرَ والفِكرَ... فلن تجد فيها عيباً ولا في عِزِّه قصوراً^(١).

(١) الآية (٤) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

زَيَّنَ السماء بالكواكب والنجوم، وزَيَّنَ قلوب أوليائه بأنواع من الأنوار والنجوم؛ فالْمُؤْمِنُونَ قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بالتصديق والإيمان ثم بالتحقيق بتأمل البرهان، ثم بالتوفيق لطلب البيان. والعارفون قلوبهم مُزَيَّنَةٌ بشمس التوحيد، وأرواحهم مُزَيَّنَةٌ بأنوار التفريد، وأسرارهم مزينة بآثار التجريد... وعلى القياس: «لكل طائفة أنوار».

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾: فمن النجوم ما هو للشياطين رجوم، ومنها ما هو للاهتداء به معلوم... فأخبر أن هذا القدر من العقوبة بواسطة الرجوم لا يكفي، وإنما يُعَذِّبُهُمْ مُؤَبِّدِينَ فِي السَّعِيرِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّعِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾. أخبر: أنهم يختج عليهم بإرسال الرسل، فتقول لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ...﴾: فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول، فاستوجبوا العقوبة لأجله، لم يسمعو نصيحة الناصحين ولا وُغْظَ الواعظين، ولا ما فيه لقلوبهم حياة.

وفي الآية للمؤمنين بشارة؛ لأنهم يسمعون ويعقلون ما يسمعون؛ فَإِنَّ مَنْ سَمِعَ بِالْحَقِّ سَمِعَ كُلَّ مَا يَقَالُ عَنِ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ مَنْ يَقُولُ عَنِ الْحَقِّ، فيحصل له الفهم لما يسمع، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُهُ مِنَ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَفِي اللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَاغْرَقُوا بِذُنُوبِهِمْ لَمَسَاحًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. اعترفوا بذنوبهم ولكن في غير وقت الاعتراف... فلا جَرَمَ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿فَسَحَقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. الخشية توجب عدم القرار فيكون العبد أبداً - لانزعاجه - كالحب على المقلَى؛ لا يَقْرَ لَيْلَهُ أَوْ نَهَارَهُ، يتوقَّعُ العقوبات مع مجاري الأنفاس، وكلما ازداد في الله طاعة ازداد لله خشية.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

خَوْفَهُمْ بِعِلْمِهِ، وَنَذَبَهُمْ إِلَى مِرَاقِبَتِهِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَسْمَعُ الْجَهْرَ
وَالنَّجْوَى... ثُمَّ قَالَ مُبِينًا:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ .

ووفي كل جزءٍ مِنْ خَلْقِهِ - من الأعيان والآثار - أدلةٌ على علمه وحكمته .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

أَيُّ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا فِي الْأَرْضِ سَهْلٌ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ.

كذلك جعل النفس ذلولاً؛ فلو طالبتها بالوفاق وجذتها مساعدةً موافقةً، مُتَابِعَةً مُسَابِقَةً . . . وقد قيل في صفتها:

هِيَ النَّفْسُ مَا عَوَّدَتْهَا تَتَعَوَّدُ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تُذَمُّ وَتُخَمَدُ

قوله جل ذكره: ﴿أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمِزُونَهُ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾.

﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء، فهم مُوَكَّلُونَ بالعذاب. وخوفهم بالملائكة أن يُنْزِلُوا عليهم العقوبة من السماء، أو يخسفوا بهم الأرض، وكذلك خوفهم أن يُرْسِلُوا عليهم حجارة كما أرسلوا على قوم لوط. وَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ كيف كانت عقوبتهم، ثم زاد في البيان^(١) وقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْعَلَمِيقِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقَرُنَ مَا يُمْسِكُهُمْ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ .

أو لم يروا كيف خَلَقَ الطيور على اختلاف أجناسها، واختصاصها بال طيران لأن لها أجنحة - بخلاف الأجسام الأخر... مَنْ الذي يمسكهن ويحفظهن وهن يقبضن ويبسطن أجنحتهن في الفضاء؟ وما الذي يوجبه العقل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأخر؟.

﴿أَمِنْ هَذَا أَلَيْسَ هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُوبٍ﴾ .

إِنْ أَرَادَ الرَّحْمَنُ بِكَ سُوءًا . . فَمَنْ الَّذِي يُوسِّعُ عَلَيْكُمْ مَا قَبَضَهُ، أَوْ يَمْحُو مَا أَثْبَتَهُ، أَوْ يُقَدِّمُ مَا أَخَّرَهُ، أَوْ يُؤَخِّرُ مَا قَدَّمَ؟^(٢)

(۱) الآية (۱۸) لم ترد.

(۲) الآية (۲۱) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يَمِشُ مِكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾.

وَحُصِّصَكم بالسمع والبصر والأفئدة، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمِهِ^(١).
﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ؟﴾.

وأجاب عنه حيث قال: لا تستعجلوا العذاب، وبين أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا...﴾.
وإليه أمورنا - جملة - فَوَضَّنا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلٍّ مَّعِينٍ﴾.

مَنْ الذي يأتيكم بالماء إذا صار غائراً في الأرض لا تناله الأيدي.

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم... ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب.

(١) الآية (٢٤) لم ترد.

(٢) الآيتان (٢٦، ٢٧) لم تردا.

سورة القلم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَهُ لم يتذللْ بعده لمخلوق، ولم يستعِنْ فيما نابَه من ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بمُحدَثٍ مرزوق.

إن أعطاه قابله بالشُّكرِ، وإن منعه استجابَه بجميل الحمد.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْطُورُنَّ﴾.

﴿تَوَالَّفَ﴾ قيل: الحوت الذي على ظهره الكون، ويقال: هي الدواة.

ويقال: مفتاح اسمه ناصر واسمه نور.

ويقال: إنه أقسم بضرة الله تعالى لعباده المؤمنين.

وأقسم بالقلم - وجواب القسم قوله:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه:

إنه مجنون، أزاله عنه بنفيه، ومحققاً ذلك بالقسم عليه... وهذه سُنَّةُ الله تعالى

مع رسوله ﷺ؛ فما يقوله الأعداء فيه يرُدُّه - سبحانه - عليهم بخطابه وعنه بنفيه.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غير منقوص... لَمَّا سَمَتْ هِمَّتُهُ ﷺ عن طلبِ

الأعواض أثبت الله له الأجر، فقال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ - وإن كُنتَ لا

تریده.

ومن ذلك الأجر العظيم هذا الخُلُق، فأنت لست تريدُ الأجرَ - وبِئْسَ لستَ تريدُ؛

فلولا أنْ خَصَصْنَاكَ بهذا التحرُّرِ لَكُنْتَ كَأَمْثَالِكَ فِي أَنَّهُمْ فِي اسْرِ الْأَعْوَاضِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

كما عرّفَه الله سبحانه أخباراً مَنْ قَبْلَهُ من الأنبياء عرّفَه أنه اجتمعت فيه متفرقات

أخلاقهم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ويقال: إنه عَرَضَ عليه مفاتيح الأرض فلم يقبلها، ورقاه ليلة المعراج، وأراه

جميع المملكة والجنة فلم يلتفت إليها، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:

[١٧] فما التفت يميناً ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. . . ويقال: ﴿على خلق عظيم﴾: لا بالبلاء تنحرف، ولا بالعطاء تنصرف؛ احتتمل صلوات الله عليه في الأذى شج راسه وثغره، وكان يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١). وغداً كلُّ يقول: نفسي نفسي وهو صلوات الله عليه يقول: «أمتي أمتي»^(٢).

ويقال: علّمه محاسن الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

سأل صلوات الله عليه جبريل: «بماذا يأمرني ربي؟ قال: يأمرك بمحاسن الأخلاق؛ يقول لك: صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَغِطْ مَنْ حَرَمَكَ واعف عَمَّن ظَلَمَكَ»^(٣)، فتأدّب بهذا؛ فأنى عليه وقال: ﴿وَلَئِكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسْتَبِصِّرْ وَنُبَيِّرْ وَبَيِّنْ بَيِّنَاتٍ لِّأَيِّكُمْ أَلْفَقْتُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

المفتون: المجنون لأنه فتن أي مجن بالجنون.

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

معبودك واحد فليكن مقصودك واحداً. . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكن مشهودك واحداً.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

من أصبح عليلًا تمنى أن يكون الناس كلهم مرضى. . . وكذا من وسم بكبي الهجران ود أن يشاركه فيه من عاداه.

(١) أخرجه البخاري في (المصحح ٢١٤/٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤٤١/١)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١١٧/٦)، والطبري في (التفسير ١٣/١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤١٩/٣)، والقرطبي في (التفسير ١٩٩/٤، ٤٧٣/٨، ١٥٦/١٤)، والقاضي عياض في (الشفاء ٢٢٢/١)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١٨٩/٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣١٣/١، ٦٨/٣، ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشرعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٩٥/٣)، والطبراني في (التفسير ١٤٦/٦، ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٤/٥، ٩٣/٧، ١٠٨، ٣٦٠، ٢٥٨/٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣، ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩، ٩٨٧٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٧٣/٧، ٢٨٢/١٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢١٥/٣).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٨٢/١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٥١٠/٤) والسيوطي في (الدر المنثور ٦٤/٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٨٧/١٠)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٢٨/١١، ٤٤٣)، وابن أبي عاصم في (السنة ٣٨٠/٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣١/١١).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١٤٨/٤، ١٥٨).

﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ سَلَافٍ مِّنْهُنَّ﴾ .

وهو الذي سقط من عيننا، وأقميناه بالبعد عنا .

﴿هَٰذَا مَثَلٌ مِّمَّا يَتَّبِعُونَ﴾ .

محجوب عنا مُعَذِّبٌ بخذلان الواقعة في أولياتنا .

﴿مَنَاعٌ لِلْعَذَابِ﴾ .

مُهَانٍ بالشُّعْ، مسلوب التوفيق .

﴿مُعْتَدٍ أَيْمٍ﴾ .

ممنوع الحياء، مُشْتَبِّهٌ في أودية الحرمان .

﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٌ﴾ .

لثيم الأصل، عديم الفضل، شديد الخصومة بباطله، غير راجع في شيء من الخير إلى حاصله .

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

أي : لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين . . . ثم استأنف الكلام فقال : إذا تتلى . . .
قابلاً بالتكذيب، وَحَكَّمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ .

﴿سَيَسْمِعُ عَلَى الْغُرُورِ﴾ .

أي سنجعل له في القيامة على أنفه تشويهاً لصورته كي يُعْرِفَ بها .

قوله جلّ ذكره : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ .

أي امتحناهم . . . حين دعا عليهم النبي ﷺ، فابتلاهم الله بالجوع، حتى أكلوا الجِيفَ - كما بلونا أصحاب الجنة، قيل : إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مشمرة وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تَعَدَّاهُ المِثْجَل فلم يجده من الكَرَم، فإذا طُرِحَ على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فما أخطأه القُطَافُ من نخله وكَرَمه يَدَعُه للمساكين، وكان يجتمع منه مال، فلما مات هو قال وَرَثَتُهُ : إِنَّ هَٰذَا الْمَالَ تَفَرَّقَ فِينَا، وليس يمكننا أن نفعل ما كان يفعله أبونا، وأقسموا ألا يُعْطُوا للفقراء شيئاً، فاهلك الله جَنَّتَهُمْ؛ فَنَدَمُوا وتابوا .

وقيل : أَبْدَلَهُمُ اللَّهُ جَنَّةً حَسَنَةً، فأقسموا ليصرمُنَّ جَنَّتَهُمْ وقت الصبح قبل أن تَفْطِنَ المساكين، ولم يقولوا : إن شاء الله ^(١) :

﴿فَلَمَّا عَلِمُوا لَدَيْهِ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَآيِبُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالْعَصَرِ﴾ .

أرسل عليها من السماء آفة فأحرقت ثمارهم. وأصبحت ﴿كَالْعَرِيِّ﴾ أي كالليل المسود، فنأدى بعضهم بعضاً وقت الصبح: أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام، فانطلقوا لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعون أحدًا. وقصدوا إلى الصرام ﴿عَلَى حَرْبٍ﴾ أي: قادرين عند أنفسهم، ويقال: على غضبٍ منهم على المساكين.

فلما رأوا الجنة وقد استوصلت قالوا: ليست هذه جنتنا!!

ثم قالوا: بل هذه جنتنا... ولكننا حرّمنا خيرها.

قال أوسطهم: أي أعدلهم طريقة وأحسنهم قولاً^(٢):

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ؟﴾.

أي: تستثنون وتقولون: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٧٠].

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، ويقولون^(٣):

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَلْقَيْنَا لِلْهَلِكِ لِأَهْلِ مَكَّةَ﴾ وَلَقَدْ أَتَى الْآخِرَةَ أَكْبَرُ

وهكذا تكون حال مَنْ له بداية حسنة ويجد التوفيق على التوالي، ويجتنب المعاصي، فيَعُوْذُ بِاللَّهِ فِي الْوَقْتِ نَشَاطًا، وتلوح في باطنه الأحوال... فإذا بَدَرَ مِنْهُ سُوءٌ دَعَا أَوْ تَرَكَ أَدَبٌ مِنْ آدَابِ الْخِدْمَةِ تَشَدُّ عَلَيْهِ تِلْكَ الْأَحْوَالُ وَيَقَعُ فِي قَرْصَةٍ^(٤) مِنْ الْأَعْمَالِ فَإِذَا حَصَلَ مِنْهُ بِالْعِبَادَاتِ إِخْلَالٌ، ولبعض الفرائض إهمال - انقلب حاله، ورُدَّ مِنَ الْوَصَالِ إِلَى الْعِبَادِ، وَمِنِ الْإِقْتِرَابِ إِلَى الْإِغْتِرَابِ عَنِ الْبَابِ، فَصَارَتْ صِفَوْتُهُ قَسْوَةً. وَإِنْ كَانَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَوْبَةٌ، وَعَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ نَدَامَةٌ - فَقَدْ فَاتَ الْأَمْرُ مِنْ يَدِهِ، وَقَلَّمَا يَصِلُ إِلَى حَالِهِ.

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله، فيقبله بعد ذلك رعاية لما سَلَفَ فِي بَدَايَتِهِ مِنْ أَحْوَالِهِ... فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَؤُوفٌ بِعِبَادِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾.

الذين يتقون الشرك والكفر، ثم المعاصي والفسق، لهم عند الله الثواب والأجر.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَتَجْمَلُ السُّلَيْمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾.

(١) الآيات من (٢١ حتى ٢٤) لم ترد. (٢) الآيات (٢٦ - ٢٧) لم ترد.

(٣) الآيات (٣٠، ٣١) لم ترد.

(٤) قرة جلده: تقشر أو اسود من شدة الضرب. (اللسان ١٣/ ٥٣٠ مادة: قرة).

كيف تحكمون؟ هل لديكم حجة؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أم لكم منا عهدود فيها تحكمون؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿عَنْ سَاقٍ﴾: أي عن شدة يوم القيامة.

ويقال في التفسير عن ساق العرش.

يؤمنون بالسجود؛ فأما المؤمنون فيسجدون، وأما الكفار فتشدد أصلابهم فلا تنحني.

وقيل: يكشف المريض عن ساقه - وقت التوفي - ليُبصِرَ ضعفه، ويقول المؤذن: حي على الصلاة - فلا يستطيع.

وعلى الجملة فقد خوفهم بهذه القالة: إنا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتدائهم في الآخرة.

﴿... وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾.

يذكرهم بذلك ليزدادوا حسرة، ولتكون الحجة عليهم أبلغ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ رَفِئَ وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِنَا السَّبِيلَ سَتَنَجِّيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

سنقربهم من العقوبة بحيث لا يشعرون.

والاستدراج: أن يريد الشيء ويطوي عن صاحبه وجه القصد فيه، ويذريه إليه شيئاً بعد شيء، حتى يأخذه بغتة.

ويقال: الاستدراج: التمكين من النعم مقروناً بنسيان الشكر.

ويقال: الاستدراج: أنهم كلما ازدادوا معصية زادهم نعمة.

ويقال: ألا يعاقبه في حال الزلة، وإنما يؤخر العقوبة إلى ما بعدها.

ويقال: هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم.

ويقال: الاغترار بطول الإمهال.

ويقال: ظاهر مغبوط وباطن مشوش.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْلِ لَمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

أنهلهم... ثم إذا أخذتهم فأخذي أليم شديد.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْراً فَهُمْ مِنْ مَفْرَرٍ مُتَّقُونَ﴾.

أي: ليس عليهم تكلفة مقابل ما تدعوهم إليه، وليست عليهم غرامة إن هم اتبعوك... فانت لا تسأل أجراً... فما موجبات التأخر وترك الاستجابة؟

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾ .

أم عندهم شيء من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا؟ .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا لِلنَّارِ رَيْثُكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ .

صاحب الحوت: هو يونس عليه السلام: ﴿نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوء بالغَيْظ على قومه. فلا تستعجل - يا محمد - بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقي ما لقي، وتثبت عند جريان حكمنا، ولا تُعارض تقديرنا.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُمُ يَمَنَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَكُنْتُمْ بِالْعَرَاءِ وَهُمْ ذَمُّومٌ﴾ .

أي: لولا أن الله رَحِمَهُمَ بِقَضِيلِهِ لَطَرِحَ بالفِضَاء وهو مذموم ولكن:

﴿فَأَجَبْنَاهُ رَبُّهُمُ فَجَعَلَهُمُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

فاصطفاه واختاره، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلُقُنَّكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ .

كانوا إذا أرادوا أَنْ يُصِيبُوا شَيْئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام، ثم جاؤوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أحسنه من شيء! فكان يسقط المنظور في الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه، فقالوا: ما أفصحه من رجل! ولكن الله سبحانه حفظه، ومن بذكره عليه^(١).

سورة الحاقة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة تحتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتَعْمَلْ في سماع الغيبة، وتحتاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبَدَّلْ في الغفلة والغبية، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رُتْبة، ولم تتبع نَفْسُهُ اللُّبْسَ والطَّبَّةَ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

«الحاقة»: اسمٌ للقيامة لأنها تَحُوقُ كُلَّ إنسانٍ بعمله خَيْرُهُ وشرُّه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ استفهام يفيد التعظيم لأمرها، والتفخيم لشأنها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾.

ذَكَرَ في هذه السورة: الذين كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ من الأمم، وأَصْرُوا على كُفْرِهِمْ، ولم يقبلوا النصيحة من أنبيائهم، فأهلكهم، وانقَمَ لأنبيائه منهم.

والفائدة في ذِكْرِهِمْ: الاعتبار بهم، والتحرُّرُ عما فعلوا لئلا يُصِيبَهُمْ ما أصابهم. وعقوبة هذه الأمة مُؤَجَّلَةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتهم مُعَجَّلَةٌ؛ فقومٌ من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا، أو أضاعوا أدبًا يعاقبهم بريح الحجة، فلا يَبْقَى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للذِّين، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات، ويصيرون على خَطَرٍ في أحوالهم بأن يُمْتَحِنُوا بالاعتراض على التقدير والقِسمة.

وأما فرعون وقومه فكان عذابهم بالغَرَقِ... كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشغولٌ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ - فإذا لم يشكر النعمة، وأساء أدبه، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم الله به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مشربُه، ويصير على خَطَرٍ بأن يُذْرَكَ سُخْطُ الحقِّ وغضبه^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ﴾.

وكذلك تكون مِثْنُهُ على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم في أمواجِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها، فيكونون بوصف السلام، لا

(٢) الآيات من (٥ حتى ١٠) لم ترد.

(١) الطب: الحلق والمهارة.

مُنَازَعَةً وَلَا مُحَاسِبَةً لَهُمْ مَعَ أَحَدٍ، وَلَا تَوَقَّعَ شَيْءٍ مِنْ أَحَدٍ؛ سَالِمُونَ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ مِنْهُمْ سَالِمُونَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾.

بدأ في وصف القيامة والحساب^(٢)...

قوله جلّ ذكره: ﴿...يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وفي كلّ نفسٍ مع هؤلاء القوم محاسبة ومطالبة، منهم من يستحق المعاقبة، ومنهم من يستحق المعاقبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِرِسَالِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي إِنْى ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي﴾.

يسلم له السرورُ بنعمة الله، ويأخذ في الحمد والمدح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

القوم - غداً - في عيشة راضية أي مرضية لهم، وهؤلاء القوم - اليوم - في عيشة راضية، والفرق بينهما أنهم - غداً - في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم، وارتفعت مآربُهم، وحصلت حاجاتهم، وهم - اليوم - في عيشة راضية إذ كَفَوْا مآربَهم فَدَفَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حَوَائِجَهُمْ؛ فليس لهم إرادة شيء، ولا تَمَسُّهُمْ حاجة. وإنما هم في رُوح الرضا... فعيش أولئك في العطاء، وعيش هؤلاء في الرضاء؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال. ويقال لأولئك غداً^(٣).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّائِيَةِ﴾.

ويقال لهؤلاء: اسمعوا واشهدوا... اسمعوا مثلاً... وانظروا إلينا، واستأنسوا بقربنا، وطالعوا جمالنا وجلالنا... فأنتم بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ: يَلَيْتَنِي لَوْ أَوْتُ كِتَابِي وَلَوْ أَدْرِمَا حِسَابِي يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْفَاصِيَةُ﴾.

هناك - اليوم - أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتهم، ويتضاعف أُنْيُهُمْ - ليلهم ونهارهم - فليلهم ويل ونهارهم بَعَاد؛ تكدّرت مشاربهم، وخربت أوطانُ أنسهم، ولا بكأؤهم يُرَحَم، ولا أنيئهم يُسَمَع... فيندمهم أنهم مُبْعَدُونَ... وهم في الحقيقة من اللّه مرحومون، أسبل عليهم السترَ فَصَغَّرَهم في أعينهم - وهم أكرم أهل القصة! كما قالوا^(٤):

لا تُشْكِرُنَّ جحدي هوأك فلإنما ذاك الجحودُ عليك سترٌ مُسَبِّلُ

(١) الآية (١٢) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٤) حتى (١٧) لم ترد.

(٣) الآيات (٢٢ - ٢٣) لم تردا.

(٤) الآيات من (٢٨) حتى (٣٧) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

«لا»: صلة والمعنى: أقسم؛ كأنه قال: أقسم بجميع الأشياء، لأنه لا ثالث لما يبصرون وما لا يبصرون. وجواب القسم:

﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أي وجيه عند الله. وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن^(١).

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أي أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.

أي لو كان محمداً يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه، ولو تعمّد لعذبناه. والقول بعصمة الأنبياء واجب. ثم كان لا ناصر له منكم ولا من غيركم، وهذا القرآن^(٢):

﴿وَإِنَّمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَةٌ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّمَا لِحَسْرَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّمَا لِحَقِّ الْيَقِينِ﴾.

حقّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء.

وعلم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين، وخفاء الطريق وجلائه، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً، ثم ما يكون مع الإدراكات^(٣).

(١) الآيتان (٤١، ٤٢) لم تردا.

(٢) الآية (٤٧) لم ترد.

(٣) انظر حديث القشيري عن علم وعين وحق اليقين برسائله ص ٨٥.

الآية (٥٢) لم ترد.

سورة المَعَارِجِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من قالها وَجَدَ جمالها، وَمَنْ شهدا شهد جلالها.

وليس كُلُّ مَنْ قالها نالها، ولا كُلُّ مَنْ احتالها عَرَفَ جلالها.

كلمة رفيعة عن إدراكِ الألبابِ منيعة، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة، كلمة لا بُدَّ للعبد من ذكْرِها في كل حالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن، أي سأل سائلٌ عن هذا العذاب لِمَنْ هو؟ فقال

تعالى:

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾؛ فهذا العذاب من الله.

ومعنى ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبْلَغُ إليها أولياءه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنَزَّجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل، في يومٍ كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم

القيامة.

ويقال: معناه يحاسبُ الخَلْقَ في يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسيرٍ ما لو كان الناسُ

يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة، واللَّهُ يُجْرِي ذلك ويُمضيه في يومٍ واحد.

ويقال: من أسفل المخلوقات إلى أعلاها مسيرة خمسين ألف سنة للناس؛

فالملائكة تخرج فيه من أسفلهِ إلى أعلاه في يومٍ واحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

فاصبر - يا محمد - على مقاساة أذاهم صبراً جميلاً. والصبرُ الجميلُ ما لا

شكوى فيه.

ويقال: الصبر الجميل ألا تَسْتَقِيلَ الصبرَ بل تستعذبه.

ويقال: الصبرُ الجميلُ ما لا يَتَنَطَّرُ العبدُ الخروجَ منه، ويكون ساكناً راضياً.

ويقال: الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبلي.

ويقال: الصبرُ الجميل ما تجرد عن الشكوى والدُّعوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

إنّ ما هو آتٍ فقريب، وما استبعد مَنْ يستبعد إلا لأنه مُرتاب؛ فأما الواثق بالشيء فهو غير مُستبعد له.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمْو نخوته وَتُبُو صولته يلين ويستكين ويضعف مَنْ كان يَشْرَفُ، ويذلّ مَنْ كان يُذِلُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

لا يتفرّع قريب إلى قريب؛ فلكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه.

ولا يتعهّد المساكين - في ذلك اليوم - إلا الله.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَجْرِمُ لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بَيْنِيهِ وَصَحِيَّتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُجِيبُهُ﴾.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾ أي يعرفون أقاربهم، ولكن لا ترقّ قلوب بعضهم على بعض.

ويتمنى المجرم يومئذ أن يفقد من عذاب جهنم بأعزّ مَنْ كان عليه في الدنيا من قريب ونسيب وحميم ووليد، وبكلّ من الأرض حتى يخلص من العذاب.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى﴾.

اسم من أسماء جهنم.

﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾^(١).

قُلَاعَةٌ للأطراف. تكشف الجلد عن الوجه وعن العظم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾.

تقول جهنم للكافر والمنافق: يا فلان... إلني إلني.

والإشارة فيه: أنّ جهنم الدنيا تعلق بقلب المرء فتدعوه بكلام الجزص إلى نفسه وتجبره إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكلّ أحد له؛ حتى لقد يَنخُلُ بدنياه على أولاده وأعزّته... وقليل مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها^(٢).

(١) الشوى: البدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وجلدة الرأس يقال لها: شواة وما كان

غير مقتل فهو شوى، وقيل: الشوى: (ج) الشواة: وهي جلدة الرأس. (الرسالة القشيرية ص ٤٤٧

مادة: شوا).

(٢) الآية (١٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.

وتفسيره ما يتلوه:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

والهلعُ شِدَّةُ الجَرِصِ مع الجزع. ويقال هلوعاً: متقلّباً في غمرات الشهوات.

ويقال: يُرْضِيهِ القليلُ ويُسْخِطُهُ اليسير.

ويقال: عند المحنة يدعو، وعند النعمة ينسى ويسهو.

﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾.

استثنى منهم المصلين - وهم الذين يُلَازِمُونَ أبداً مواطنَ الافتقار؛ مِنْ صِلَيِّ بالمكان^(١).

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَرْغُورِ﴾.

وهم الْمُتَكَفِّفُ وَالْمُتَعَفِّفُ.

وهم على أقسام: منهم مَنْ يُؤْثِرُ بِجَمِيعِ مَالِهِ؛ فَأَمْوَالُهُمْ لِكُلِّ مَنْ قَصَدَ، لَا يَخْصُونُ سائلاً مِنْ عَائِلٍ. ومنهم مَنْ يَعْطِي وَيَمْسِكُ - وهؤلاء منهم - ومنهم مَنْ يَرَى يَدَهُ يَدَ الْأَمَانَةِ فَلَا يَتَكَلَّفُ بِاخْتِيَارِهِ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُشَارُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ؛ إِمَّا بِالْإِمْسَاكِ فَيَقِفُ أَوْ بِبِذْلِ الْكُلِّ أَوْ الْبَعْضِ فَيَسْتَجِيبُ عَلَى مَا يُطَالَبُ بِهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْوَقْتِ... وهؤلاءِ أَتْمُهُمْ.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الْيَوْمِ﴾.

وأما رتبتهم الاستعدادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِهِ، وَأَنْ يَكُونُوا كَمَا قِيلَ:

مُسْتَوْفِزُونَ عَلَى رَجُلٍ كَأَنَّهُمْ فَقَدْ يَرِيدُونَ أَنْ يَمْضُوا فَيَرْتَحِلُوا^(٢)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَقْرَبِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمِنْ أَتَقَى وَرَدَّ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وإنما تكون صحبتهم مع أزواجهم لِلتَّعَفُّفِ وَصَوْنِ النَّفْسِ، ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِنْ صِلْبِهِ يَذْكُرُ اللَّهَ. وَشَرَطُ هَذِهِ الصَّحْبَةِ: أَنْ يَعِيشَ مَعَهَا عَلَى مَا يَهُونُ، وَأَلَّا يَجْزَّهَا إِلَى هَوَى نَفْسِهِ وَيَحْمِلَهَا عَلَى مَرَادِهِ وَهَوَاهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْثَلِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾.

(١) أصلت الناقية: إذا وقع ولدها في صلاها وقُرْبِ تاجها. (اللسان ٤٦٦/١٤ مادة: صلا).

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

يحفظون الأمانات التي عندهم للخلق ولا يخونون فيها. وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة - فلا يُدَسُّونها بالخطايا؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق، والأسرار التي بينهم وبين الله أمانات عندهم. والفرائض واللوازم والتوحيد... كل ذلك أمانات.

ويقال: من الأمانات إقرارهم وقت الدُّر. ويقال: من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها الله في قلبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِم قَائِمُونَ﴾.

شهادتهم لله بالوحدانية، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض - يقومون بحقوق ذلك كله^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِينَ عَنِ الْإِيمَانِ وَعَنِ الشِّمَالِ عَزِينَ﴾.

والإهطاع أن يُقبل ببصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي ﷺ ﴿عَزِينَ﴾: أي خلقاً خلقاً، وجماعة جماعة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

كلا... إنك لا تدعو عن هذا! وليس هذا بصواب؛ فإنهم - اليوم - كفار، وغداً يعاملون بما يستوجبون.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ لا - هنا صلة، والمعنى أقسم. وقد مضى القول في المشارق والمغارب - ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ على ذلك^(٢).

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيُلْبُوا﴾ غاية التهديد والتوبيخ لهم.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءًا﴾ كأنهم يسرعون إلى أصنامهم، شبه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى التَّصَبُّبِ - اليوم - كي يقوموا بعبادتهم إياها^(٣).

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

(٢) الآية (٤٤) لم ترد.

(٣) الآية (٤١) لم ترد.

سورة نوح

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ اللَّهِ» اسْمٌ لِمَنْ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِقُدْرَتِهِ وَاسْتَقَامَتِ الْأَسْرَارُ وَالْقُلُوبُ بِنَصْرَتِهِ.. ذَلَّتِ الْأَفْعَالُ عَلَى جَلَالِ شَأْنِهِ، وَذَلَّتِ الرُّقَابُ عِنْدَ شَهَادَةِ سُلْطَانِهِ. أَشْرَقَتِ الْأَقْطَارُ بِنُورِهِ فِي الْعُقْبَى، وَأَشْرَقَتِ الْأَسْرَارُ بِظَهْوَرِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ الْمُقَدَّسُ بِالْوَصْفِ الْأَعْلَى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أرسلنا نوحاً بالنبوة والرسالة. ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أنذرهم وإرسال الرُّسُل من الله فضلٌ، وله بحق مُلكه أن يفعل ما أراد، ولم يجب عليه إرسال الرُّسُل لأن حقيقته لا تقبل الوجوب.

وإرسال الرسل إلى مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ جَائِزًا، وتكليفهم من ناحية العقل جائز
فَنُوحٌ - عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ . . ومع ذلك بَلَّغَ الرِّسَالَةَ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمُ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَاتَّقَوْهُ وَأَطِيعُوا يَغْيِرَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ مِنْ هُنَا لِلْجَنَسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

ويقال: ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراء لهم.. وذلك لا يجوز. فأبوا أن يقبلوا منه، فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

بَيَّنَ أَنَّ الْهَدَايَةَ لَيْسَتْ إِلَيْهِ، وَقَالَ: إِنَّ أَرَذْتُ إِيْمَانَهُمْ فَقَلْبُهُمْ بِقُدْرَتِكَ -
مِسْحَانِكَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْرُواْ وَأَسْكَبُواْ أَمْتِكَبَارًا﴾.

وإني ما ازددتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً.
ويقال: لما دام بينهم إصرارُهم تَوَلَّدَ من الإصرار استكبارُهم، قال تعالى:
﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْكَ عَاقِرًا يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبْسُغُ بِهَا وَجْهَكُمْ وَيَبْسُغُ بِهَا لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾.

ليعلم العالمون: أنَّ الاستغفار قَرُغَ أبوابِ النعمة، فمن وقعت له إلى الله حاجةٌ فلن يصل إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار.
ويقال: مَنْ أَرَادَ التَّفَضُّلَ فعليه بالعُذْرُ والتَّضَلُّلُ.

قوله: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾: كان نوح عليه السلام كلما ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان.
قوله جل ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمنون على توكيركم للأمر من الله لطفاً ونعمة؟^(١).

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.
ثم نبَّههم إلى خَلْقِ السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وعلى أنَّ خالقها يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزَّةِ^(٢).

ثم شكَا نوح إلى الله وقال:
﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهَمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّا يَزِدُّهُم مَّا لَمْ يُولَدُوا إِلَّا خَسَارًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾.
يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة^(٣).
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وذلك بتعريف الله تعالى إياه أنه لن يؤمِّنَ من قومك إلا من قد آمن. فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم^(٤).

(٣) الآيات من (٢٣، ٢٥) لم ترد.

(٤) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٧، ٢٠) لم ترد.

سورة الجن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز به أَقَرُّ مَنْ أَقَرَّ بِرَبوبيته، وبه أَصَرَّ مَنْ أَصَرَّ عَلَى معرفته، وبه استقرَّ من استقرَّ من خليفته، وبه ظَهَرَ ما ظهر من مقدوراته، وبه بَطَّنَ ما بَطَّنَ من مخلوقاته، فَمَنْ جَحَدَ فبخذلانه وحرمانه، ومن وَحَدَ فبإحسانه وامتنانه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

قيل: إن الجن كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قول الملائكة، فيحفظونه، ثم يلقونه إلى الكهنة، فيزيدون فيه وينقصون. . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبينا ﷺ وبين عيسى عليه السلام. فلَمَّا بُعِثَ نَبِيُّنَا ﷺ وَرُجِمُوا بِالشُّهْبِ عَلِمَ إبليس أنه وقع شيء ففر جنوده، فأتى تسعة منهم إلى بطن نخلة واستمعوا قراءته ﷺ فآمنوا، ثم أتوا قومهم وقالوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ. . . إلى آخر الآيات^(١).
(وجاء سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

الْجِنِّ . . .﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

الجدُّ العظمة، والعظمة استحقاق نعوت الجلال. . .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾.

أراد بالسفيه الجاهل بالله يعني إبليس. والشطط السرف.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

في كفرهم وكلمتهم بالشرك.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أي ذلة وصغاراً؛ فالجن زادوا للإنس ذلة ورهقاً فكانوا إذا نزلوا يقولون: نعوذ برَبِّ هذا الوادي فيتوهم الجن أنهم على شيء ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ حيث استعاذوا بهم.

(١) الآية (٢) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُمْ ظُنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ .

أي ظنوا كما ظن الكفار من الجن ألا بعث ولا نشور - كما ظنتم أيها الإنس .

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثِثَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ .

يعني حين مُنِعُوا عن الاستماع .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدُ اللَّسَعِ فَمَن يَسْتَمِعُ الْآنَ يَحِدْ لَهُ شَهَابًا رَّصَدًا﴾ .

فالآن قد مُنِعْنَا^(١) .

﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ .

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمال النعمة وإكثار الراحة . والإعراض عن الله يُوجب تَنْعُصُ العيش ودوام العقوبة^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ .

للمسجد فضيلة ، ولهذا خصه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع ؛ فهو محلُّ العبادة . . وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلُّ قَدَمِهِ ؟!

ويقال: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تعبدوا بما لِلَّهِ غَيْرَ اللَّهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ .

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخلق إلى الله كاد الجن والإنس يكونون مجتمعين عليه ، يمنعون عن التبليغ^(٣) قل يا محمد :

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ .

لا أقدر أن أدفع عنكم ضرراً ، أو أسوق لكم خيراً . فكل شيء من الله . ولن أجد من دونه ملتحداً :

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً﴾ .

فلن يُنجيني من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره .

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمَن رَّزَىٰ أَمْدًا﴾^(٤) .

(١) الآيات من (١١ حتى ١٥) لم ترد .

(٣) الآية (٢٠) لم ترد .

(٤) الآية (٢٤) لم ترد .

(٢) الآية (١٧) لم ترد .

أي: لا أذري ما تُوعَدون من العقوبة، ومن قيام الساعة أقرب أم بعيد؟ فكونوا على حذر. ويجب أن يتوَقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجاري الأنفاس لِيَسْلَمَ من العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾. فيطلعه بقَدْرٍ ما يريد.

﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولِي رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامه وخلفه.. هم ملائكةٌ حَفَظَته، يحفظون الوحي من الكهنة والشياطين، حتى لا يزيّدوا أو ينقصوا الرسالات التي يحملها... والله يعلم ذلك، وأحاط عِلْمُهُ به.

سورة المزمل

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: الحادثات بالله حصلت، فقلوب العارفين بالله عرفت ما عرفت وأرواح الصديقين بالله ألفت من ألفت وفهوم الموحدين بساحات جلاله وقفت، ونفوس العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتصفت وعقول الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ فَرِّ آلَيْلًا قَلِيلًا﴾.

أي: المتزمل المتلفف في ثيابه. وفي الخبر: «أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ^(١) من شَعَرٍ وَبَرٍ، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان نصفه علي وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي، وطول المِرْط أربعة عشر ذراعاً».

﴿نُصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿فَرِّ آلَيْلًا قَلِيلًا﴾ نصفه بدل منه؛ أي: قم نصف الليل، وأنقص من النصف إلى الثلث أو زد على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُحْخِرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل قَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة - وإن كانت بقيت واجبة على الرسول ﷺ.

ويقال: يا أيها المتزمل بأعباء النبوة.. ﴿فَرِّ آلَيْلًا﴾.

ويقال: يا أيها الذي يُخَفِّي ما خصصناه به قُمْ فأنذِر.. فَإِنَّا نَصْرُنَاكَ.

ويقال: قُمْ بنا.. يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كل الناس.. قُمْ أنت.

فليسكن الكل.. وَلْتَقُمْ أَنْتَ.

ويقال: لَمَّا قَرْضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نفسه لأجل أمته وإكراماً لشأنه وقدره.

(١) المِرْط: كساء من خَزٍّ أو صوف أو كتان. (لسان العرب / ٤٠١ مادة: مرط).

وقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مروط.

وفي الخبر: «أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا...»^(١) ولا يُدْرَى التأويل للخبر، أو أنَّ التأويل معلوم... وإلي أن ينتهي إلى التأويل فللأحبابِ راحات كثيرة، ووجوه من الإحسان موفورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ وَرَبِّ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا﴾.

ارتفع بِسِرِّكَ في فهمه، وتأنَّ بلسانك في قراءته.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

قيل: هو القرآن. وقيل: كلمة لا إله إلا الله.

ويقال: الوحي؛ وسمّاه ثقيلاً أي خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان.

ويقال: ثقیل أي: له وزن وخطر. وفي الخبر «كان إذا نزل عليه القرآن - وهو على ناقته - وضعت جرائنها»^(٢)، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه»^(٣).

وروى ابن عباس: أن سورة الأنعام نزلت مرة واحدة فبركت ناقة رسول الله ﷺ من ثقل القرآن وهيته.

ويقال ﴿ثَقِيلًا﴾ سماعه على مَنْ جحدته.

ويقال: «ثَقِيلًا بِعَيْنِهِ - إلا على من أُيد بقوة سماوية، وزُيِّي في جِجْرِ التقريب».

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

أي: ساعات الليل، فكل ساعة تحدث فهي ناشئة، وهي أشد وطناً أي: موطأة أي: هي أشد موافقة للسان والقلب، وأشد نشاطاً.

ويحتمل: هي أشد وأغلظ على الإنسان من القيام بالنهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أثبت قولاً.

ويقال: هي أشد مواطأة للقلب وأقوم قِيلاً لأنها أبعد من الرياء، ويكون فيها حضور القلب وسكون السرّ أبلغ وأتم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

أي: سبْحاً في أعمالك، والسبح: الذهاب والسرعة، ومنه السباحة في الماء.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٥٠٤، ٨١/٤)، وصاحب (الإتحافات السنية ٣٢٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٢٢١).

وللحديث رواية أخرى «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله...» أخرجه ابن أبي عاصم في (السنن ٢١٨/١).

(٢) الجران: باطن العنق. (اللسان ١٣/٨٦ مادة: جرن).

(٣) أخرجه الترمذي (وصايا، ٥) وأحمد بن حنبل (٤/١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩).

فالمعنى: مذهبك في النهار فيما يشغلك كثيرة - والليل أخلى لك .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَبَيِّنْ لَهُ تَبَيُّلاً﴾ .

أي: انقطع إليه انقطاعاً تاماً .

﴿رَبُّ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ .

الوكيل مَنْ تَوَكَّلَ إِلَيْهِ الْأُمُورُ؛ أي: تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَكَلَّ أُمُورَكَ إِلَيْهِ، وَثِقَ بِهِ .

ويقال: إنك إذا اتخذت من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالك وطالبوك بالأجرة، وإذا اتخذتني وكيلاً أوفّر عليك مالك وأعطيتك الأجر .

ويقال: وكيلك ينفق عليك من مالك، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي .

ويقال: وكيلك مَنْ هُوَ فِي الْقَدَرِ دُونَكَ، وَأَنْتَ تَتَرَفَّعُ أَنْ تَكَلِّمَهُ كَثِيراً . وَأَنَا رَبُّكَ سَيِّدُكَ وَأَحَبُّ أَنْ تَكَلِّمَنِي وَأَكَلِّمَكَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ .

الهِجْرُ الْجَمِيلُ: أَنْ تَعَاشِرَهُمْ بظَاهِرِكَ وَتُبَايَنَهُمْ بِسِرِّكَ وَقَلْبِكَ .

ويقال: الهجرُ الجميل ما يكون لحقَّ رَبِّكَ لَا لِحَظِّ نَفْسِكَ .

ويقال: الهجرُ الجميلُ أَلَا تُكَلِّمُهُمْ، وَتَكَلِّمَنِي لِأَجْلِهِمْ بِالْإِعْدَاءِ لَهُمْ .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله جل ذكره: ﴿وَذَرَىٰ الْكَافِرِينَ أُولَىٰ الْقَعَمَةِ وَهَلْهُمْ قَلِيلاً﴾ .

أي: أُولَى الْقَعَمَةِ وَأَنْظَرَهُمْ قَلِيلاً، وَلَا تَهْتَمُّ بِشَأْنِهِمْ، فَإِنِّي أَكْفِيكَ أَمْرَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً﴾ .

ثم ذكر وصف القيامة فقال:

﴿يَوْمَ تَرُفُّهُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ .

ثم قال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ .

يعني: أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مُحَمَّدًا ﷺ شَاهِداً عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا،

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ ثَقِيلاً .

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ مِنْ هَوْلِهِ يَصِيرُ الْوِلْدَانُ شِيبًا - وهذا على ضربٍ

المثل .

﴿الْأَسْمَاءُ مِنْفَطِرٌ يَدٌ﴾ أي بذلك: اليوم لهوله .

ويقال: مُتَفَطِّرٌ بالله أي: بأمره.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾: فما وَعَدَ اللَّهُ سيصده.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾: يعني هذه السورة، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ؛ فَمَنْ اتَعِظَ بِهَا سَعِدَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي إِلِيلٍ وَيَصِفُّهُ وَيُلْثِمُ وَطَافَةًٍ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ من المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فهو خالقهما ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ وتطيعوه.

﴿فَنَابَ عَلَيْكَ﴾ أي: خَفَّفَ عنكم ﴿فَاقْرَأُوا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ من خمس آيات إلى ما زاد. ويقال: من عشر آيات إلى ما يزيد.

﴿عَلِمَ أَنَّ سَبْكُوكُمْ مِنْكُمْ مَرْحَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون، ويعلم أصحاب الأعدار، فَتَسَخَّ عَنْهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مضى معناه.

﴿وَمَا تَقْرِبُوكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ﴾ أي: ما تقدّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا.

سورة المدثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها نزهة قلوب الفقراء، كلمة سماعها بهجة أسرار الضعفاء، راحة أرواح الأحياء، قوة قلوب الأولياء، سلوة صدور الأصفياء، قرة عيون أهل البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

يا أيها المتدثر بثوبه.

وهذه السورة من أول ما أنزل من القرآن. قيل: إن رسول الله ﷺ ذهب إلى جرّاء قبل النبوة، فبدأ له جبريل في الهواء، فرجع الرسول إلى بيت خديجة^(١) وهو يقول «دثروني دثروني»^(٢) فدثّر بثوب فنزل عليه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيل: أيها الطالب صرّف الأذى عنك بالدثار اطلبه بالإنذار.

ويقال: قُمْ بنا، وأسقط عنك ما سوانا، وأنذر عبادنا؛ فلقد أقمناك بأشرف المواقع، ووقفناك بأعلى المقامات.

ويقال: لَمَّا سَكَنَ إلى قوله ﴿قُمْ﴾ وقام قطع سِرّه عن السكون إلى قيامه، ومن الطمانينة في قيامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾.

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى (٦٨ - ٣ ق هـ = ٥٥٦ - ٦٢٠ م) من قریش زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أمّ من خمسة عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرة فمات عنها وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، فلما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصري وعاد رابحاً، فدست له من عرض عليه الزواج بها فأجاب وتزوجها فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما بعث رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. توفيت بمكة.

الأعلام ٣٠٢/٢، وطبقات ابن سعد ٧/٨ - ١١، وصفة الصفوة ٢/٢، والدر المشور ١٨٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) وابن أبي شيبه في (المصنف ٣/٧٤)، والطبري في (التاريخ ٢/٣٠٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

كَبَّرَهُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ، وَوَضِلَ وَفَضِلَ، وَعِلَّةٌ وَخَلَقِي .
﴿وَيَا بَاكَ فَطَعِرْ﴾ .

طَهَّرَ قَلْبَكَ عَنِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِ، وَعَنِ كُلِّ صِفَةٍ مَذْمُومَةٍ .
وَطَهَّرَ نَفْسَكَ عَنِ الزُّلَّاتِ، وَقَلْبَكَ عَنِ الْمَخَالَفَاتِ، وَسِرِّكَ عَنِ الْاِلْتِفَاتَاتِ .
ويقال: أَهْلَكَ طَهَّرَهُمْ بِالرَّعْظِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ لِيَأْسَ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]،
فَيَعْبُرُ عَنْهُمْ - أحياناً - بِالثِّيَابِ وَاللِّبَاسِ .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالْأَرْجَ فَأَهْجُرْ﴾ .

أي: المعاصي . ويقال: الشيطان . ويقال: طَهَّرَ قَلْبَكَ مِنَ الْخَطَايَا وَأَشْغَالَ
الدُّنْيَا .

ويقال: مَنْ لَا يَصِيحُ جِسْمُهُ لَا يَجِدُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ كَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِيحُ قَلْبُهُ لَا يَجِدُ
حَلَاوَةَ الطَّاعَةِ .
﴿وَلَا تَمْنَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ .

لَا تُعْطِ عَطَاءً تَطْلُبُ بِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا تَعْطِيهِ .
ويقال: لَا تَسْتَكْثِرُ الطَّاعَةَ مِنْ نَفْسِكَ .
ويقال: لَا تَمْنَنَّ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْثِرَ عَمَلَكَ، وَتُعْجَبَ بِهِ .
﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ .

أي: أَنْتَ تُؤَذِّي فِي اللُّو . فَاصْبِرْ عَلَى مَقَاسَةِ أَذَاهُمْ .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ فَذَلِكَ يَوْمَ عَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ .
يعني: إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ هَيِّنٍ .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾ .

أي: لَا تَهْتَمُ بِشَأْنِهِمْ، وَلَا تَحْتَفِلْ؛ فَإِنِّي أَكْفِيكَ أَمْرَهُمْ .
إِنِّي خَلَقْتُهُ وَحْدِي؛ لَمْ يَشَارِكْنِي فِي خَلْقِي إِثْنَاءَ أَحَدٍ .
وَيَحْتَمِلُ: خَلَقْتُهُ وَخَذَهُ لَا نَاصِرَ لَهُ .
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالًا مَمْدُودًا وَيَبْنَ شُهُودًا﴾ .

حُضُورًا مَعَهُ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى السُّفَرِ .
﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْجِيدًا﴾ .

أَرَادَ: تَسْهِيلَ التَّصَرُّفِ، أَي: مَكَّنْتُهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأُمُورِ .
﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ .

يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَهُ فِي النِّعْمَةِ :

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَن لَّابِلَيْنَا لَعِندَا﴾ .

جحدوا .

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ .

سأحملة على مشقة من العذاب .

﴿إِنَّمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ .

أي : لَمَعَنَ كَيْفَ فَكَّرَ، وكيف قَدَّرَ، ويعني به : الوليد بن المغيرة^(١) الذي قال في النبي ﷺ : إنه ليس بشاعر ولا بمجنون ولا بكذاب، وإنه ليس ساحر، وما يأتي به ليس إلا سحر يزرى :

﴿ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا يَقْبِ وَلَا تَذَرُ لَوَاسِعُهُ اللَّبَنُ﴾ .

لا تبقي لحمًا، ولا تذر عظمًا، تحرق بشرة الوجه وتسودها، من لاحت الشمس ولوحت .

﴿عَلَيَّآ سِتْعَةَ عَشَرَ﴾ .

قال المشركون : نحن جَمَعُ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر؟ ! فأنزل الله سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّانَا وَلَا يَرْآبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ .

فيزداد المؤمنون إيمانًا، ويقول هؤلاء : أي فائدة في هذا القدر؟ فقال تعالى :

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ .

ثم قال :

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ .

أي : تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلّق إلا بمقدار دون مقدار، والذي أحاط بكل شيء علماً هو الله - سبحانه

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ .

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (٩٥ هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م) أو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها . يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها، كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته . هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون وهو والد سيف الله خالد بن الوليد .
الأعلام ١٢٢/٨، والكمال لابن الأثير ٢٦/٢، ورغبة الأمل ٢٩/٥، واليعقوبي ٢١٥/١ .

كَلَّا - حرف ردع وتنبيه؛ أي: ارتدعوا عما أنتم عليه، وانتبهوا لغيره.
وأقسم بهذه الأشياء ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾: أي بالقمر، أو بقدرته على القمر.
﴿وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ﴾ وقُرِء «وَدَبَرَ» أي: مضى، ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ﴾ أي: تجلّى.
﴿إِنِّهَا لَأَحْدَى الْكُبَرِ﴾.

أي: النار لإحدى الدواهي الكُبرى.

ويقال في ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ إشارة إلى أعمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين، فإنها تزداد، ثم إذا صارت إلى حد التمام في العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة، فالعلم يأخذ النقصان، وتطلع شمس المعرفة، فكما أنه إذا قُرِبَ القمرُ من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً - كذلك إذا ظهر سلطانُ العرفانِ تأخذ أعمارُ العلوم في النقصان لزيادة المعارف؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار. ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ﴾ أي إذا انكشفت ظلمُ البواطن، ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ﴾ وتجلّت أنوار الحقائق في السرائر.. إنها لإحدى العظائم! وذلك من باب التخويف من عودة الظلم إلى القلوب.
﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾.

في هذا تحذير من الشواغل التي هي قواطع عن الحقيقة، فيحذروا المساكنة والملاحظة إلى الطاعات والمواقفات.. فإنها - في الحقيقة - لا خطر لها.
﴿لَئِنْ شَأْنَكُمْ أَنَّ يَفْقَهُمْ أَوْ يَنْفَرُ﴾ عن الطاعات.. وهذا على جهة التهديد.
قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾.
أي: مرتهنة بما عملت، ثم استثنى:
﴿إِلَّا أَصْحَابَ آيَاتٍ﴾.

فقال: إنهم غير مرتهنين بأعمالهم، ويقال: هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»!
وقيل: أطفال المؤمنين.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ﴾
﴿لَئِنْ شَأْنَكُمْ أَنَّ يَفْقَهُمْ أَوْ يَنْفَرُ﴾ عن الطاعات.. وهذا على جهة التهديد.

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين، ويقولون لأهل النار إذا حصل لهم إشراف عليهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟﴾ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أَلَمْ نَكُنْ نَاطِقِينَ الْمُسَكِّينَ؟
وهذا يدل على أَنَّ الكفار مُخَاطَبُونَ بتفصيل الشرائع.

﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِبِينَ﴾: نَشْرَعُ فِي الْبَاطِلِ، وَنَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ.
﴿حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾.

وَهُوَ مَعَايِنَةُ الْقِيَامَةِ.

﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

أَي: لَا تَنَالُهُمْ شَفَاعَةُ مَنْ يَشْفَعُ.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

وَالتَّذْكَرَةُ: الْقُرْآنُ:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ نَافِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ أَسَدٍ.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾.

بَلْ يَرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يُعْطَى كِتَابًا مَنشُورًا.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أَي: كَلَّا لَا يُعْطَوْنَ مَا يَتَمَنُّونَ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ.

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾.

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ - لَا أَنْ تَشَاوَرُوا.

﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرَى﴾.

أَهْلٌ لِأَنْ يَتَّقَى.

﴿وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾.

وَأَهْلٌ لِأَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ يَتَّقِي - إِنْ شَاءَ.

سورة القيامة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العلم استبصر، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحير. . فالعلماء في سكون برهانه، والعارفون في دهش سلطانه. . أولئك في نجوم علومهم، فأحوالهم صَحَوْ في صَحْو، وهؤلاء في شمسِ معارفهم: فأوقائهم محو في محو. . فشتان ما هما!!

قوله جل ذكره: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

أي: أقسم بيوم القيامة.

﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾.

أي: أقسم بالنفس اللوامة، وهي النفس التي تلوم صاحبها، وتعرف نقصان حالها.

ويقال: غداً. . كل نفس تلوم نفسها: إمّا على كفرها، وإمّا على تقصيرها - وعلى هذا فالقسم يكون بإضمار «الرّب» أي: أقسم برّب النفس اللوامة. وليس للوم النفس في القيامة خطر - وإن حُجِلَ على الكلّ ولكنّ الفائدة فيه بيان أن كلّ النفوس غداً - ستكون على هذه الجملة. وجواب القسم قوله: ﴿بَلَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عَظَامُهُ﴾.

أيظن أنا لن نبعثه بعد موته؟

﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ﴾.

﴿قَدِيرِينَ﴾ نصب على الحال؛ أي بلى، نسوي بنانه في الوقت قادرين، ونقدر أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف^(١) البعير وظلف^(٢) الشاة. . فكيف لا نقدر على إعادته؟!

(١) الخفّ للبعير: كالحافر للفرس (ج) أخفاف.

(٢) الظلف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجتزئ كالبقرة والشاة والظبي ونحوها، وهو بمنزلة الحافر للفرس (ج) أطلاف. وظلوف.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَ أَمَانَةً﴾ .

يُقَدِّمُ الزَّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته ، وبهذا لا تَنَحُلْ - في الوقت - عقدة الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصح توبته ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل . فإذا كان استحلاء الزَّلَّةِ في قلبه ، ويفكر في الرجوع إلى مثلها - فلا تصح ندامته .

قوله جل ذكره : ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ إِلْيَاسَ﴾ .

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

﴿إِذَا رَءَى الْبَصَرَ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ .

﴿بَرَقَ﴾ بكسر الراء معناها تحير ، ﴿وَبَرَقَ﴾ بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقَى مَلَكٌ ولا رسول إلا وهو يقول : نفسي نفسي !

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ كأنهما ثوران عقيران .

ويقال : يجمع بينهما في ألا نور لهما .

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ وَالْمَفَرُّ مَوْضِعُ الْفِرَارِ إِلَيْهِ ، فيقال لهم :

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾^(١) .

اليوم ، ولا مَهْرَبَ من قضاء الله .

﴿إِن رَّيَاكَ يَوْمَئِذٍ اتَّتَفَرُّ﴾ .

أي : لا مَجِيدَ عن حُكْمِهِ .

﴿يُنَادُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ .

أي : يَعْرِفُ ما أَشْلَفَهُ من ذنوب أحصاها اللَّهُ - وإن كان العبد نسيها .

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْفَ مَعَادِيرٍ﴾ .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجَّةٌ على نفسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكل حجة فلن تُسمع منه ولن

تنفعه .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ .

(١) الْوَزَرُ : المُلَجَأُ يُعْتَصَمُ بِهِ .

لا تستعجل في تَلْقُفِ الْقُرْآنِ عَلَى جبريل، فَإِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ فِي قَلْبِكَ وَحِفْظَهُ، وكذلك علينا تيسيرُ قراءته على لسانك، فإذا قرأناه أي: جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقراءك جَمْعَهُ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

نُبَيِّنُ لَكَ مَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهَا. وكان رسول الله ﷺ يستعجل في التلقفِ مخافة النسيان، فنهي عن ذلك، وضمن الله له التيسير والتسهيل.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أي: إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا، أي: يحبون البقاء في الدنيا.

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾: أي: تتركون العمل للآخرة. ويقال: تكفرون بها.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ نَافِثَةُ إِنْ رَأَيْهَا نَافِثَةٌ﴾.

﴿نَافِثَةٌ﴾: أي مشرقة حسنة، وهي مشرقة لأنها إلى ربها «ناظرة» أي رائية لله. والنظر المقرون بـ «إلى» مضافاً إلى الوجه لا يكون إلا الرؤية، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قلوب العادة، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى. ويقال: العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله.

ويقال: الوجه لا ينظر ولكن العين في الوجه هي التي تنظر؛ كما أن النهر لا يجري ولكن الماء في النهر هو الذي يجري، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]. ويقال: في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ نَافِثَةُ﴾ دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا تتداخلهم حيرة ولا ذهش؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء.

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي، وعندهم استهلاك العبد في وجود الحق أتم؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ نَافِثَةُ﴾ تَقُلُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرَةٌ﴾.

﴿بَافِرَةٌ﴾: أي كالحلة عابسة. ﴿بَافِرَةٌ﴾ أي: داهية وهي بقاؤهم في النار على التأيد. تظن أن يخلق في وجوههم النظر.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿تَقُلُّ﴾: أي يخلق ظناً في قلوبهم يظهر أثره على وجوههم.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّارَ قَبِيلٌ مِّنْ رَّاوٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالنَّارُ السَّائِي السَّائِي إِلَى رَيْكَ يَوْمَئِذٍ السَّائِي﴾.

أي ليس الأمر على ما يظنون؛ بل إذا بلغت نفوسهم التراقي^(١)، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ؟﴾ أي يقول من حوله: هل أحد يزقيهم؟ هل طبيب يداويه؟ هل دواء يشفيه؟ ويقال: من حوله من الملائكة يقولون: من الذي يزقي برُوحه؛ أملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟.

﴿وَعَلَىٰ أَنَّهُ يُفَرَّقُ﴾: وعلم الميت أنه الموت!.

﴿وَالْقَبْرِ أَلْسَانُ﴾: ساقا الميت. فتتحرر شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

﴿إِن رَّبَّكَ يُؤْمِرُ أَلْسَانُ﴾ أي الملائكة يسوّمون روحه إلهي الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه: إما إلى عليين - ثم لها تفاوت درجات، وإما إلى سجين^(٢) - ولها تفاوت درجات.

ويقال: الناس يكفنون بدن الميت ويغسلونه، ويصّلون عليه.. والحق سبحانه يلبس روحه ما تستحق من الحلل، ويغسله بماء الرحمة، ويصلي عليه وملائكته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَّلَ﴾.

يعني: الكافر ما صدق الله ولا صلى له، ولكن كذب وتولى عن الإيمان. وتدل الآية على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع.

﴿ثُمَّ دَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَكْوِينٍ﴾.

أي: يتبختر ويختال.

﴿أَوَّلًا لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾.

العرب إذا دعيت على أحد بالمكروه قالوا: ﴿أُولَٰئِكَ لَكَ﴾ وهنا أتبع اللفظ اللفظ على سبيل المبالغة.

ويقال: معناه الويل لك يوم تحيا، والويل لك يوم تموت، والويل لك يوم تُبعث، والويل لك يوم تدخل النار.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

مهملاً لا يكلف؟! ليس كذلك.

﴿أَوَّلَٰكَ نَفَقَةً مِّن مَّوْنٍ يَّمْنُ تُمْ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقَ فَسَوَّىٰ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

(١) التراقي: (ج) الترقوة: هي عظم وصل بين ثغره النحر والعاتق من الجانبين. (لسان العرب ١٠/٣٢ مادة: ترق).

(٢) سجين: واد في جهنم.

﴿يَنْ مَيِّتَنَّ﴾ أي تُلْقَى فِي الرَّحْمِ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَتُهُ﴾ أي: دَمًا عَبِيطًا^(١)، فسَوَّى أَعْضَاءَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَرَكَّبَ أَجْزَاءَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْقَةِ، وَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ: إِنْ شَاءَ خَلَقَ الذَّكَرَ، وَإِنْ شَاءَ خَلَقَ الْأُنْثَى، وَإِنْ شَاءَ كِلَيْهِمَا. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

أليس الذي قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى؟ فهو استفهام في معنى التقرير.

(١) العبيط: من اللحم: الطري غير النضيج. (لسان العرب ٧/٣٤٧ مادة: عبط).

سورة الإنسان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ جبارٌ تَوَحَّدَ في آزاله بوصف جبروته، وتَفَرَّدَ في آباده بنعت ملكوته؛ فَأَزَلَهُ أَبَدُهُ، وَأَبَدَهُ أَزَلُهُ، وجبروته ملكوته، وملكوته جبروته.

أحدِي الوصفِ، صَمَدِي الذاتِ، مُقَدَّسُ الثَّغَتِ، واحدُ الجلالِ، فَرُدُّ التعالي، دائمُ العِزِّ، قديمُ البقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

في التفسير: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار. قيل: كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُهُ بين مكة والطائف. ثم من صلصال^(١) أربعين سنة، ثم من حملاً مسنون أربعين سنة، فتمَّ خَلْقُهُ بعد مائة وعشرين سنة.

ويقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾: أي لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إليّ.

ويقال: هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِكَ؟ هل أَلْقَيْتُ - لحظةً - حَبْلَكَ على غارِبِكَ؟ هل أخْلَيْتُكَ - ساعةً - من رعاية جديدة وحماية مزيّدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي من قطرة ماء، ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط من بين الرجل والمرأة.

ويقال: طوراً نطفة، وطوراً علقّة، وطوراً عَظْماً، وطوراً لَحْماً.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نمتحنه ونختبره. وقد مضى معناه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

أي: عَرَفْنَاهُ الطريق؛ أي طريق الخير والشر.

(١) الصلصال: الطين اليابس، أو الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل (يصوت) إذا جف فإذا طبع بالنار فهو الفجار.

وقيل: إمّا للشقاوة، وإمّا للسعادة، إمّا شاكراً من أوليائنا، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا؛ فإن شَكَرَ فبالتوفيق، وإن كَفَرَ فبالخذلان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَآغْلَلْنَا وَسَمِيرًا﴾.

أي: هيأنا لهم سلاسل يُسحبون فيها، ﴿وَآغْلَلْنَا﴾ لأعناقهم يُهانون بها، ﴿وَسَمِيرًا﴾: ناراً مستعرة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

قيل: البرُّ: الذي لا يُضمِرُ الشرَّ، ولا يؤذي الذرَّ.

وقيل: ﴿الْأَبْرَارَ﴾: هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُم عن المستحققات، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فاتقوا عن مُساكنة الدنيا.

﴿يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ رائحتها كرائحة الكافور^(١)، أو ممزوجة بالكافور.

ويقال: اختلفت مشاربهم في الآخرة؛ فكلُّ يُسقى ما يليق بحاله... وكذلك في الدنيا مشاربهم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يُسقى مِزْجاً، ومنهم مَنْ يُسقى صِرْفاً، ومنهم مَنْ يسقى على الثوب، ومنهم مَنْ يُسقى بالثُجْب ومنهم مَنْ يُسقى وحده ولا يُسقى مما يُسقى غيره، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً.. وقالوا:

إن كنت من ندماي فبالأكبر اسقني ولا تُسقني بالأصغر المتثلّم

وفائدة الشراب - اليوم - أن يشغلهم عن كل شيء فيريحهم عن الإحساس، ويأخذهم عن قضايا العقل.. كذلك قضايا الشراب في الآخرة، فيها زوال الأرب، وسقوط الطلب؛ ودوام الطرب، وذهاب الحرب، والغفلة عن كل سبب.

ولقد قالوا:

عاقز عقارك واضطبخ واقذخ سرورك بالقُدَح

واخلع عذارك^(٢) في الهوى وأرخ عذولك واسترخ

وافرخ بوقيتك إنما عُمرُ الفتى وقتُ الفَرَح

قوله جل ذكره: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

(١) الكافور: هنا قيل: نبات له نور أبيض كنور الأفيون. والكافور عين ماء في الجنة طيب الريح، والكافور من أخلاط الطيب. (لسان العرب ١٤٩/٥، ١٥٠، مادة: كفر).

(٢) يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهلك في الفجاء ولم يستح منه واتبع هواه.

يُشَقِّقُونَهَا تَشْقِيقًا، ومعناه أن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون. واليوم - لهم عيون في أسرارهم من عين المحبة، وعين الصفاء، وعين الوفاء، وعين البسط، وعين الروح. . . وغير ذلك، وغداً لهم عيون. ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال: يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجه مخصوص:

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

قاسياً، منتشرأ، ممتدأ.

﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ وَنَيِّمًا وَآيِسًا﴾.

أي: على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه. ويقال: على حُبِّ الله، ولذلك يُطْعَمُونَ.

ويقال: على حُبِّ الإطعام.

وجاء في التفسير: أن الأسير كان كافراً - لأنَّ المسلم ما كان يُستأسر في عهده - فطاف على بيت فاطمة رضي الله عنها وقال: تأسرونا ولا تطعمونا!

﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله، لا نريد من قبلكم جزاء ولا شكراً.

ويقال: إنهم لم يذكروا هذا بالسنتهم، ولكن كان ذلك بضمايرهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾.

أي: يوم القيامة.

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾.

﴿وَلَقَدْهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾.

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

كافأهم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنةً وحريراً.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

واحدما أريكة، وهي السرير في الحجال^(١).

﴿لَا يَرْوَدُ فِيهَا شَمْسًا وَلَا ذَمَهْرًا﴾.

(١) الحجال: (ج) الحجلة: مثل القبة، وحجلة العروس: بيت يُزين بالثياب والأسرة والستور. (لسان العرب ١٤٤/١١ مادة: حجل).

أي: لا يتأذون فيها بحر ولا بر.
﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا﴾.

يتمكنون من قطفها على الوجه الذي هم فيه من غير مشقة؛ فإن كانوا قعوداً تدلى لهم، وإن كانوا قياماً - وهي على الأرض - ارتقت إليهم.
﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِدَانِيَةٍ مِّنْ فَضَّةٍ﴾.

الاسم فضة، والعين لا تشبه العين.
﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَدَرُهَا قَدِيرًا﴾.

أي: في صفاء القوارير وبياض الفضة.. قَدَرُ ذلك على مقدار إرادتهم.
﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾.

المقصود منه الطيب، فقد كانوا (أي العرب) يستطيون الزنجبيل^(١)، ويستلذون نكهته، وبه يشبهون الفاكهة، ولا يريدون به ما يقرص اللسان.
﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾.

أي: يُسَقَوْنَ من عين - أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحق - سبحانه - بلا واسطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا﴾.

أي: يخدمهم ﴿وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ﴾ وصفا لا يجوز واحد منهم حدّ الوصائف.
وجاء في التفسير: لا يَهْرَمُونَ ولا يموتون. وجاء مَقْرَطُونَ.

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منشوراً.

وفي التفسير: ما من إنسان من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ﴾: أي في الجنة.

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: في التفسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول.

وقيل: هو قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥] ويقال: أي لا زوال له.

﴿عَلَيْهِمْ ثَابَتْ سُدُودٌ خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَطُلُوعٌ أَسَاوِرٌ مِّنْ فَضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

(١) الزنجبيل: مما ينبت في بلاد العرب بأرض عُمان، وهو عروق تسري في الأرض، ونباته شبيه بنبات الراسن وليس منه شيء بريء، وليس بشجر، يוכל رطباً كما يוכל البقل، ويستعمل يابساً وأجوده ما يؤتى به من الزنج وبلاد الصين.

وقيل: الزنجبيل: العود الحزيف الذي يحلّي اللسان. (لسان العرب ١١/٣١٢ مادة: زنجبيل).

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار. ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى،
والاسم يوافق الاسم دون العين.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: الشراب الطهور هو الطاهر في نفسه المُطَهَّرُ لغيره.

فالشراب يكون طهوراً في الجنة - وإن لم يحصل به التطهير لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير.

ولكنه - سبحانه - لما ذَكَرَ الشراب - وهو اليوم في الشاهد نجس - أخبر أن ذلك الشراب غداً طاهر، ومع ذلك مُطَهَّر؛ يُطَهَّرُهم عن محبة الأغيار، فمن يَحْتَسِبُ من ذلك الشراب شيئاً طَهَّرَهُ عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات.

ويقال: يُطَهَّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ، ولا يَبْقَى لبعضهم مع بعض خصيصة ولا عداوة ولا دَعْوَى ولا شيء.

ويقال: يُطَهَّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين.

ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا مِنْ هؤلاء، فإذا هم بكاساتٍ ثَلَاثِي أَفْوَاهَهُمْ بغير أَكْفٍ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ.

ويقال: اليوم شرابٌ وغداً شرابٌ. . اليوم شرابُ الإيناس وغداً شرابُ الكاس، اليوم شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكَفِّ.

ويقال: مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّتِهِ آنَسَهُ وشَجَّعَهُ؛ فلا يستوحش في وقته من شيء، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذَل. ومن مقتضى شُرْبِهِ بكأسٍ محبته أن يجودَ على كُلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار.

ومن آثارِ شُرْبِهِ تذُلُّهُ لكلِّ أحدٍ لأجل محبته، فيكون لأصغرِ الخدمِ تُرَابِ القَدَمِ، لا يتحرَّكُ فيه للتكبرِ عِزٌّ.

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً في بعض الأحيان أن يَتِيَهُ على أهل الدارين.

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أن يَمْلِكَهُ سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار والقاء قناع الحياء ويظهر ما هو به من المواجهيد:

يخلع فيك العذار قومٌ فكيف مَن ماله عذار؟

ومن موجبات ذلك الشراب سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لفظ الشكوى، وبما لا يَسْتَخْرِجُ منه - في حال صَخْوه - سفية

بالمناقش^(١) . . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى: ﴿رَبِّ أَوْفِّيْ أَنْظَرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقالوا: سَكِرَ من سماع كلامه، فَتَنَطَّقَ بذلك لسانه. وأما مَنْ يسقيهم شراب التوحيد فيُنْفِي عنهم شهوة كلِّ غَيْرٍ فيهيِّمون في أودية العزِّ، ويتيهون في مفاوز^(٢) الكبرياء، وتتلاشى جملةُهم في هواء الفردانية. . فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك. . فكلُّ هذه المعاني ساقطة.

فالعبدُ يكون في ابتداء الكشف مُستوعباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصير مُستهلكاً. . ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

يقال لهم: هذا جزاء لكم، ﴿مَشْكُورًا﴾: وشكره لسعيهم تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل - هذا على طريقة العلماء، وعند قومٍ شكرُهم جزاؤهم على شكرهم.

ويقال: شكره لهم ثاؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

في مُدَّةِ سنين.

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾.

أي: ارضَ بقضائه، واستسلم لحُكمه.

﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾: أي: ولا كفوراً، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربِّه بطاعته.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

الفرَضُ في الأول، ثم الثقل.

﴿إِنَّكَ هَتُّؤَلَاءَ...﴾.

أي كفار قريش:

﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.

أي: لا يعملون ليوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾.

(١) المناقش: (ج) المناقش: ما يُنقَش به.

(٢) المفاوز: (ج) المفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وهي كذلك الموضع المهلك.

أعدمناهم ، وخلقنا غيرهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق .

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ...﴾ .

أي : القرآن تذكرة .

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ .

بطاعته .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنََّّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

أي : عذاباً أليماً موجعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم .

سورة المرسلات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها بسمع الوجد وفي له فلم ينظر إلى أحد، ومن سمعها بسمع العلم جاد له فلم يبخل بروحه على أحد.

ومن سمعها بسمع التوحيد جرد سره عن إثارة ما سواه في الدنيا والعقبى عيناً وأثراً فما كان هذا كله إلا حاصلًا به كائناً منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾.

﴿المرسلات﴾: الملائكة، ﴿عرفاً﴾ أي: أرسلوا بالمعروف من الأمر، أو

كثيرين كعرف الفرس.

﴿فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا﴾.

الرياح الشديدة (العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه).

﴿وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا﴾.

الأمطار (لأنها تنشر النبات. فالنشر بمعنى الإحياء). ويقال: السحب تنشر

الغيث. ويقال: الملائكة.

﴿فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا﴾.

الملائكة؛ تفرق بين الحلال والحرام.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عَذْرًا أَوْ تَنْذَرًا﴾.

الملائكة: تلقى الوحي على الأنبياء عليهم السلام؛ إعداراً وإنذاراً..

وجواب القسم:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

فأقسم بهذه الأشياء: إن القيامة لحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾.

إنما تكون هذه القيامة. و ﴿طمست﴾: ذهب ضوؤها^(١).

(١) الآية (٩) لم ترد.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾.

ذَهَبَ بِهَا كُلُّهَا بِسَرْعَةٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُنْفِثَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُبْلِثَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾.

أَي: جَعَلَ لَهَا وَقْتًا وَأَجَلًا لِفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَيَقَال: أُرْسِلَتْ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾.

عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ لَهُ.

﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

مَضَى تَفْسِيرُ مَعْنَى الْوَيْلِ.

وَيَقَال فِي الْإِشَارَاتِ: فَإِذَا نَجُومُ الْمَعَارِفِ طُمَسَتْ بِوُقُوعِ الْغِيَةِ.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ الْقُلُوبُ السَّاكِنَةُ بِبَقِيَّةِ الشُّهُودِ حُرُكَتْ عَقُوبَةً عَلَى مَا هَمَّتْ

بِالَّذِي لَا يَجُوزُ. فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِأَرْيَابِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ ذَوِي الْقُلُوبِ

الْمُطَبَّقَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْمَعَانِي.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ نُهَبِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنَعِّمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾.

الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، وَجَحَدُوا آيَاتِنَا؛ فَمَثَلَمَا أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ

بِالْمُجْرِمِينَ إِذَا فَعَلُوا مِثْلَ فَعْلِهِمْ^(١).

﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يَسْتَوِي ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ فِي التَّصْدِيقِ.

وَهَكَذَا كَانَ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الزَّلَّةِ وَالْفَتْرَةِ فِي الطَّرِيقَةِ، وَالْخِيَانَةِ فِي أَحْكَامِ

الْمَحَبَةِ فَعُدُّبُوا بِالْحَرَمَانِ فِي عَاجِلِهِمْ، وَلَمْ يَذُوقُوا مِنَ الْمَعَانِي شَيْئًا.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾.

أَي: حَقِيرٍ. وَإِذْ قَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فَلِمَ لَمْ تَقِيسُوا أَمْرَ الْبَعْثِ عَلَيْهِ؟

وَيَقَال: ذَكَّرَهُمْ أَصْلَ خَلْقَتُمْ لثَلَا يُعْجَبُوا بِأَحْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَا جِنْسَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ

وَالْمَخْلُوقَاتِ أَشَدَّ دَعَاوَى مِنْ بَنِي آدَمَ. فَمَنْ الْوَاجِبُ أَنْ يَتَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي أَصْلِهِ...

كَانَ نَظْفَةً وَفِي انْتِهَائِهِ يَكُونُ جِيْفَةً، وَفِي وَسَائِطِ حَالِهِ كَنِيفٌ^(٢) فِي قَمِيصٍ!! فَبِالْحَرِيِّ

أَلَّا يُدِلَّ وَلَا يَفْتَحِرَ:

كَيْفَ يَزْهَوُ مَنْ رَجِيعُهُ أَبَدَ الدَّهْرِ ضَجِيعُهُ

(٢) الْكَنِيفُ: السَّاتِرُ أَوْ الْمَرَحَاضُ.

(١) الْآيَةُ (١٨) لَمْ تَرُدَّ.

فهو منه واليه وأخوه ورضي عنه
وهو يدعو إلى الحُـ ^(١) شُ بصغر فيطيعه!!
ويقال: يُذكرهم أصلهم.. كيف كان كذلك... ومع ذلك فقد نقلهم إلى
أحسن صورة، قال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾، والذي يفعل ذلك قادرٌ على أن يُرقِّيكَ من
الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَأَمْواتًا﴾.

﴿كِفَاتًا﴾ أي: ذات جَمْع؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتاً؛ فهم
يعيشون على ظهرها، ويودعون بعد الموت في بطنها..
﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسٍ شَلْجِدَتِ وَأَنْفِيتُكُم مَّاءَ فُرَاتًا﴾.

أي: جبلاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم. يُذكرهم عظيم مِنِّتهِ بذلك
عليهم. والإشارة فيه إلى عظيم مِنِّتهِ أنه لم يخسف بكم الأرض - وإن عملتم ما عملتم ^(٣).
﴿أَنْطَلِقُوا لِمَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾.

يقال لهم: انطلقوا إلى النار التي كذبتُم بها.

﴿أَنْطَلِقُوا لِمَا ظَلَمْتُمْ ذِي ظُلُمٍ لَا ظُلُمٍ وَلَا يَغْنَى مِنَ اللَّهِ﴾.

كذلك إذا لم يعرف العبد قدرَ انفتاح طريقه إلى الله بقلبه، وتعزُّره بتوكله.. فإذا
رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاء الغفلة نزعَ اللُّهُ عن قلبه الرحمة، وانسَدَّتْ عليه طُرُقُ
رُشيدِهِ، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا.

ويقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. والاستقلال بالله جنة المأوى،
والرجوع إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم.. وفي معناه أنشدوا:

ولم أرَ قبلي مَنْ يُفارقُ جنةً ويقرَعُ بالتطفيل بابَ جهنم ^(٤)

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصُّل والاعتذار:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْهَرُونَ وَلَا يُؤَدُّنَ لَكُمْ فَعَنْدَرُونَ﴾.

فإلى أن تنتهي مُدَّة العقوبة فحينئذٍ: إن استأنفت وقتاً استؤنف لك وقت. فأمّا
الآن.. فصبراً حتى تنقضي أيام العقاب ^(٥).

(١) الحُسْنُ: البستان: أو مكان قضاء الحاجة.

(٢) الآيات من (٢١ - ٢٤) لم ترد.

(٣) الآية (٢٨) لم ترد.

(٤) الآية (٣٧) لم ترد.

(٥) الآيات من (٣٢ - ٣٤) لم ترد.

﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾.

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾.

اليوم... في ظلال العناية والحماية، وغداً... هم في ظلال الرحمة والكلاءة.

اليوم... في ظلال التوحيد، وغداً... في ظلال حُسن المزيد.

اليوم... في ظلال المعارف، وغداً... في ظلال اللطائف.

اليوم... في ظلال التعريف، وغداً... في ظلال التشريف^(٢).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

اليوم تشربون على ذكره... وغداً تشربون على شهوده، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء^(٣).

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسان من العبد ترك الكل لأجله! كذلك غداً: يجازيك بترك كل الحاصل عليك لأجلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا فَلَيْلًا إِنَّا نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

هذا خطاب للكفار، وهذا تهديد ووعد، والويل يومئذ لكم^(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾.

كانوا يَصْرُفُونَ على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم.

[ذكر في التفسير: أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار، وقصور الدرّ مع الأبرار، وعيون جارية وأنهار، وألوان من الفاكهة والثمار... من كل ما يريدون من الملك الجبار. ويقال لهم في الجنة: كلوا من ثمار الجنات، واشربوا شرباً سليماً من الآفات. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ من الكرامات. قيل: كلوا واشربوا ﴿هَنِيئًا﴾: لا تبعة عليكم من جهة الخصومات، ولا أذية في المأكولات والمشروبات.

وقيل: الهنيء الذي لا تبعة فيه على صاحبه، ولا أذية فيه من مكروه لغيره^(٥).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

(٤) الآية (٤٧) لم ترد.

(١) الآيتان (٣٩، ٤٠) لم تردا.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

(٥) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

سورة النبأ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَلِكٍ تَجَمَّلَ عِبَادُهُ بِطَاعَتِهِ، وَتَزَيَّنَ خَدَمُهُ بِعِبَادَتِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَجَمَّلُ بِطَاعَةِ الْمُطِيعِينَ، وَلَا يَتَزَيَّنُ بِخِدْمَةِ الْعَابِدِينَ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم، وزينة العارفين حُلَّةُ معرفتهم، وزينة المحبين تاجُ ولايتهم. . . وزينة المذنبين غَسْلُ وجوههم بِصُوبِ عِبَرَتِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ﴾.

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث، ولالتباسِ ذلك عليهم، وكثرة مُساءلتهم عنه، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول ﷺ في معناه.

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث، وكم استدلَّ عليهم في حوازه بوجوه من الأمثلة. . . فهذا من ذلك، يقول: ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾: عن الخبر العظيم الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْتَلَفُونَ قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم^(١):

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

دَلَّلْنَاهَا لَهُمْ حَتَّى سَكَنُوهَا.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

أَوْتَادًا لِلْأَرْضِ حَتَّى تَمِيدَ بِهِمْ.

﴿وَخَلَقْنَاهُمْ أَزْوَاجًا﴾.

ذَكَرْنَا وَأُنْثَى، وَحَسَنًا وَقَبِيحًا. . . وَغَيْرَ ذَلِكَ.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

أَي رَاحَةً لَكُمْ، لِتَقْطِعُوا عَنْ حَرَكَاتِكُمْ الَّتِي تَعْبَتُمْ بِهَا فِي نَهَارِكُمْ.

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِيَاسًا﴾.

تُغْطِي ظُلُمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَتَسْكُنُوا فِيهِ.

(١) الْآيَتَانِ (٤، ٥) لَمْ تَرِدَا.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ .

أي وقت معاشكم .

﴿وَبَيَّنَّا فَوَاقِكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ .

أي سبع سموات .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ .

أي الشمس ، جعلناها سراجاً وقاداً مشتعلاً .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ .

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ الرياح التي تغصّر السحاب .

﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ مطراً صَبَّابًا .

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ .

﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير ، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين يَلْتَفُّ بعضها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاً علمتم أنني قادرٌ على أَنْ أُعِيدَ الْخَلْقَ وأُقيمَ القيامة؟

فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوه إنعامه ، وتمكينهم من منافعهم . . قال :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ .

مضى معناه .

﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ .

أي في ذلك اليوم تأتون زُمرًا وجماعاتٍ .

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ .

أي : تَشَقَّقَتْ وانفطرت .

﴿وُسِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ .

أي كالسراب .

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ .

أي ممرًا . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

﴿لِلظَّالِمِينَ مَقَابًا﴾ .

أي مرجعاً .

﴿لِيُبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ .

أي دهوراً ، والمعنى مُؤَبِّدِينَ .

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حِيمًا وَعَسَاقًا﴾ .

مضى معناه . ثم يُعَذِّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَر من العذاب .

﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ .

أي : جُوزُوا على فرق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى به الحكم .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ .

لا يؤمنون فيرجعون الثواب ويخافون العقاب .

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ .

أي : تكذَّبوا .

﴿وَكُلُّ شَقٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ .

يأي : كتبناه كتاباً ، وعلمناه علماً .

والمسبُحُ الزاهدُ يحصي تسبيحه ، والمهجورُ البائسُ يحصي أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحبُ وصالٍ لا يتفرَّغ من وُضْله إلى تذكُّرِ أيامه في العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكةُ يُحصون زَلَّاتِ العاصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول :

﴿وَكُلُّ شَقٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ فكما أحصى زَلَّاتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أحصى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ مِحْنِ الممتحنين ، وإنَّ لهم في ذلك لَسَلْوةً ونَفْساً :

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما في الصبرِ فضلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ! وأزبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَضْر!

قوله جلَّ ذكره : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

يا أيها الْمُتَعَمِّونُ في الجنة . . افرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون . . احترقوا في النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً .

ويا أيها المطيعون . . افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل .

يا أيها المساكين . . ابكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلا عَزْلاً على عَزَل .

قوله جلَّ ذكره : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدِيدًا وَعَتَبًا وَكُؤِيبًا آثَارًا وَكَلِمًا وَهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

وَلَا كِذَابًا جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ .

مُسَلِّمٌ للمتقين ما وعدناهم به . . فهنيئاً لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْيَةِ

وَالظَّفَرِ بِالسُّؤْلِ وَالْمُنْيَةِ: من حدائق وأعنان، ومن كواعب أترابٍ وغير ذلك .
 فيا أيها الْمُهَيِّمُونَ الْمُتَيِّمُونَ هنيئاً لكم ما أنتم فيه اليوم في سبيل مولاكم من
 تجرؤ وفقر، وما كلّفكم به من توكل وصبر، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر .
 أخرى الملابس ما تَلَقَّى الحبيب به يوم التزاور في الشوب الذي خَلَعَا
 قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ آذانهم مصونة عن سماع الأغيار، وأبصارهم محفوظة
 عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ .
 وكيف تكون للمُكُونِ المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةً أَنْ يملك منه خطاباً؟ أو
 يتنفس بدونه نفساً؟ كلا . . بل هو الله الواحدُ الجبار .
 قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ
 صَوَاباً﴾ .

إنما تظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأما الخواص
 وأصحابُ الحضور فهم أبدأ بمشهد العز بنعت الهيبة، لا نفس لهم ولا راحة؛ أحاط
 بهم سرادقها واستولت عليهم حقانها .
 قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ آمَنَ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَاباً﴾ .
 هم بمشهد الحق، والحكم عليهم الحق، حكم عليهم بالحق، وهم مجذوبون
 بالحق للحق .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَرْنَكُمْ عَبْدًا قَرِيباً﴾ .
 وهو عند أهل الغفلة بعيد، ولكنه في التحقيق قريب .
 ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ .
 مضوا في ذل الاختيار والتعني، وبُعِثوا في حسرة التمني، ولو أنهم رضوا
 بالتقدير لتخلّصوا عن التمني .

سورة النازعات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز لرب عزيز، سماعه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز، وذكره يحتاج إلى وقتٍ عزيز، وفهمه يحتاج إلى قلبٍ عزيز.

وأنتي لصاحبِ سَمْعٍ بالغية مُبْتَدَل، ووقتٍ مُعْطَل في الخسائس مُسْتَعْرَق، وقلبٍ في الاشتغال بالأغيار مستعمل. . أنتي له أَنْ يَصْلُحَ لِسَمَاعٍ هذا الاسم؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾.

أي الملائكة؛ تنزعُ أرواحَ الكفار من أبدانهم.

﴿غَرَقًا﴾: أي إغراقاً كالْمُغْرِقِ في قَوْسِهِ.

ويقال: هي النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان.

﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا﴾.

هي أنفس المؤمنين تَنَشِطُ للخروج عند الموت.

ويقال: هي الملائكة تَنَشِطُ أرواحَ الكفار، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها.

ويقال: هي الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

ويقال: هي الأوهاق^(١).

ويقال: هي النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى

المشارق.

﴿وَالسَّيِّحاتِ مَهِمًا﴾.

الملائكة تسح في نزولها.

ويقال: هي النجوم تسح في أفلاكها.

ويقال: هي السفن في البحار.

ويقال: هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله.

﴿وَالسَّيِّقاتِ سَبَّاقًا﴾.

(١) الأوهاق: (ج) الوهق: الحبل المُفَارِيقُ من فيه أنشودة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان. (لسان العرب ٣٨٥/١٠ مادة: وهق).

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار.

ويقال: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول.
﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾.

الملائكة تنزل بالحرام والحلال.

ويقال: جبريل بالوحي، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات، وإسرافيل بالصُور، ومَلَكُ الموت يَقْبِضُ الأرواح.. عليهم السلام.

وجوابُ القسم قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَفْ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾.

تتحرك الأرض حركةً شديدة.

﴿تَتَّبِعَهَا الرّادِّةُ﴾.

النفخة الأولى في الصُور. وقيل: الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

خائفة.

﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾.

أي إلى أول أمرنا وحالنا، يعني أيّذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا)؟. قالوه على جهة الاستبعاد.

﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا خَجَرًا﴾.

أي بالية.

﴿قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

رَجَعَتْ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.

جاء في التفسير إنها أرض المحشر، ويقال: إنها أرض بيضاء لم يُغصَّ الله فيها.

ويقال: ﴿الساهرة﴾ نَفْخَةُ الصُور تذهب بنومهم وتسهرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

أي الأرض المطهرة المباركة. ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي هناك.

﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِيْهِنَّ إِنَّهُ طُوًى فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ أَن تَزَكَّى﴾.

قلنا له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، فقل له: هل يقع لك أن تؤمنَ وتتطهر من ذنوبك.

وفي التفسير: لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول، وشبابك لا يهرم، وتعيش أربعمئة سنة في السعادة والنعمة.. ثم لك الجنة في الآخرة. ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

أَقْرُرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول، وأعرفك صحة الدين.. فهل لك ذلك؟ فلم يَقْبَلْ.

ويقال: أظهر له كل هذا التلطف ولكنه في خفي سِرِّه وواجب مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبه عن إرادة هذه الأشياء، وإيثار مراده على مراد ربِّه، وألقى في قلبه الامتناع، وتَرَكَ قبول التَّضَحُّج.. وأيُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعدوية هذا اللفظ؟ وأي كِبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر؟ قوله جلَّ ذكره: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكُتُبَ﴾.

جاء في التفسير: هي إخراج يده بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس. فقال فرعون: حتى أشاورَ هامانَ، فشاورَه، فقال له هامان: أبعد ما كُنْتُ رِبًّا تكون مربوباً؟! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك، وعَصَى، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ، ونادى^(١): ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

ويقال: إن إبليس لما سَمِعَ هذا الخطاب فرَّ وقال: لا أطيق هذا! ويقال قال: أنا أَدْعِيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت.. وهذا يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾^(٢).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. أي في إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لمن يخشى.

قوله جلَّ ذكره: ﴿وَأَن تَأْتِيَنَّهُمُ الْغَاسِقُ إِذْ ظَنَنُوا أَنَّهَا عَزَابٌ مِّن رَّبِّهِمْ فَيَقُودُونَ فِي الْمَصَاجِدِ فَذُكِّرُوا فِيهَا لَمَّا جَاءُوا ۚ وَفِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَخْشَىٰ ۖ وَفِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَكْفُرُ ۚ﴾. جعلها مستوية. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلم ليلها. ﴿مُصْنَهَا﴾ ضوؤها ونهارها. ﴿دَحْنَهَا﴾ بَسَطَهَا وَمَدَّهَا^(٣). ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾.

(٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(١) الآيات من (٢١ - ٢٣) لم ترد.

(٣) الآية: (٣٠) لم ترد.

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء، وأخرج النبات . .
﴿وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا﴾ .

أثبتها أوتاداً للأرض .

﴿مَنَا لَكُمْ وَلَاقَمِكُمْ﴾ .

أي أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع، وكذلك لأنعامكم .
﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ .

الدهاية العظمى . . وهي القيامة .

﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ .

وبرزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى وكفر وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له
المأوى والمستقر والمشوى^(١) .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ : وقوفه غداً في محل الحساب . ويقال : إقبال الله عليه وأنه راءٍ
له . . وهذا عين المراقبة، والآخر محل المحاسبة .

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي لم يتابع هواه .

قوله جلَّ ذكره : ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسَهَا﴾ .

أي متى تقوم؟

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ .

مِنْ أَيْنَ لَكَ عِلْمُهَا وَلَمْ نَعْلَمْكَ ذَلِكَ .

﴿إِلَّا رَبُّكَ مُنْهَبَهَا﴾ .

أي إنما يعلم ذلك ربُّك .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ .

أي تخوف، فيقبل تخويفك مَنْ يخشاها ويؤمن .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ .

كانهم يومَ يَرَوْنَ القيامة ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ فلشدة ما يرون تقل عندهم
كثرة ما لبسوا تحت الأرض .

(١) الآيات من (٣٦ - ٣٩) لم ترد .

سورة عبس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده، اسم عزيز انسَدَّ على الأولين والآخرين طريقَ وُجُودِهِ. . . وأتَى بذلك ولا حَدَّ له؟ مَنْ الذي يدركه بالزمانِ والزمانُ خَلَقَهُ؟ ومن الذي يحسبه في المكانِ والمكانُ فِغْلَهُ؟ وَمَنْ الذي يعرفه - إلا وبه يعرفه؟ وَمَنْ الذي يَذْكُرُهُ - إلا وبه يذكره؟

قوله جل ذكره: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾.

نَزَلَتْ في ابن أم مكتوم^(١)، وكان ضريراً. . . أتى النبي ﷺ وكان عنده العباس بن عبد المطلب^(٢) وأمية بن خلف الجُمُحِي^(٣) - يرجو الرسول ﷺ إيمانهما، فَكَّرَهُ أَنْ يَقْطَعَ حديثه معهما، فأعرض عن ابن أم مكتوم، وَعَبَسَ وَجْهَهُ، فأنزل الله هذه الآية.

وجاء في التفسير: أن النبي ﷺ خرج على أثره، وأمرَ بطلبيه، وكان بعد ذلك يَبْرُهُ وَيُكْرِمُهُ، فاستخلفه على المدينة مرتين.

(١) هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (.... - ٢٣ هـ = - ٦٤٣ م) ابن أم مكتوم، صحابي شجاع كان ضريح البصر. أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة، مع بلال، وكان النبي يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس، في عامة غزواته وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة، فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب.

الأعلام ٨٣/٥، وابن سعد ١٥٣/٤، وصفة الصفوة ٢٣٧/١.

(٢) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (٥١ ق هـ - ٣٢ هـ = ٥٧٣ - ٦٥٣ م) أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجدّ الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي ﷺ كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى ٧٠ عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين. ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، كانت وفاته في المدينة، وله في كتب الحديث ٣٥ حديثاً.

الأعلام ٢٦٢/٣، ونكت الهميان ١٧٥، وصفة الصفوة ٢٠٣/١، وذيل المذيل ١٠.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٢٢/٢، وسيرة ابن هشام ٥٢/٢، والكمال لابن الأثير ٤٨/٢ وعيون الأثر ٢٥٩/١.

وجاء في التفسير: أنه ﷺ لم يغْبَسْ - بعد هذا - في وجه فقيرٍ قط، ولم يُعْرِضْ عنه .
ويقال: في الخطاب لُطْفٌ . . . وهو أنه لم يواجهه بل قاله على الكناية، ثم
بعده قال:

﴿وَمَا يَذْكُرُكَ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

أي يتذكر بما يتعلم منك أو .

﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرُ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنَّهُ لَمْ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ﴾ .

أما مَنْ استغنى عن نفسه فإنه استغنى عن الله .

ويقال: استغنى بما له فأنته له تصدَّى، أي تُقِيلُ عليه بوجهك .

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ فأنته لا تُؤَاخِذُ بالآلاتِ يتركى هو وإنما عليك البلاغ .

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ .

لَطَلَبَ الْعِلْمَ، ويخشى الله فأنته عنه تَتَلَهَّى، وتتشاغل . . . وهذا كله مِنْ قبيلِ
العتاب معه لِأَجْلِ الْفُقَرَاءِ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذْكُرُهُ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ .

القرآن تذكرة؛ فَمَنْ شَاءَ الله أن يذكَّره ذَكَّرَهُ، وَمَنْ شَاءَ الله ألا يذكَّره لم يذكَّره؛

أي بذلك جرى القضاء، فلا يكون إلا ما شاء الله .

ويقال: الكلامُ على جهة التهديد؛ ومعناه: فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره،

ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره! كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] .

وقال سبحانه: ﴿ذَكَّرْهُ﴾ ولم يقل «ذَكَّرَهَا» لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ .

أي صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك، وفي اللوح المحفوظ .

﴿تَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ .

مرفوعة في القدر والرتبة، مطهرة من التناقض والكذب .

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ .

أي: الملائكة الكتبة .

(١) الآيتان (٩، ١٠) لم تردا .

﴿كَرِّمٌ بَرَّ﴾ .

كرام عند الله بَرَّة .

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ .

لَعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْرُه!..

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُ﴾ .

خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَقَدَّرَهُ أَطْوَاراً: من نطفة، ثم عَلَقَةٍ، ثم طوراً بعد طور .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُ﴾ .

يَسْرَ عليه السَّيْلُ في الخير والشر، وألهمه كيف التصرف .

ويقال: يَسْرُ عليه الخروج من بطن أمه يخرج أولاً رأسه منكوساً .

﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُهَا فَكَرُمُ﴾ .

أي: جعل له قَبْرًا لثلاث تَفَرَّسَهُ السَّبَاعُ والطيور ولثلاثا يفتضح .

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُ﴾ .

بَعَثَهُ من قبره .

﴿كَلَّا لَنَا بَعْضٌ مَا أَمَرُ﴾ .

أي: عصى وخالف ما أَمَرَ به .

ويقال: لم يقض الله له ما أمره به، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه .

قوله جل ذكره: ﴿فَنَنْظُرُ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا

حَبًّا وَنَبَاتًا وَفَضًّا وَزُيْتُونًَا وَأَنْجَلًا وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ .

في الإشارة: صَبَبْنَا ماء الرحمة على القلوب القاسية فَلَانَتْ للتوبة، وصَبَبْنَا ماء

التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد .

﴿وَفَضًّا﴾ أي القَتَّ^(١) .

﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ متكاثفة غلاظاً .

﴿وَالْزَيْتُونَ﴾ .

الفاكهة: جمع الفواكه، و ﴿وَالْأَنْجَلُ﴾: المرعى .

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ...﴾ .

(١) القَتَّ: الفصفصة، وخص بعضهم به اليابسة منها، وقيل: الفسفة، ويكون رطباً ويكون يابساً .

(لسان ٧١ / ٢ مادة: قَت).

﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَٰةُ﴾ أي: القيامة؛ فيومئذ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، ثم بين ما سبب ذلك فقال (١).

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُ﴾.

لا يتفرغ إلى ذاك، ولا ذاك إلى هذه. كذلك قالوا: الاستقامة أن تشهد الوقت قيامه، فما من ولي ولا عارف إلا وهو - اليوم - بقلبه يفر من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه.

فالعارف مع الخلق ولكنه يفارقهم بقلبه - قالوا:

فلقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحث جسمي من أراد جلوسي

قوله جل ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ ضَٰئِكَةٌ مُّنتَبِرَةٌ﴾.

وسبب استبشارهم مختلف؛ فمنهم من استبشاره لوصوله إلى جنته، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته. . ومنهم ومنهم، وبعضهم لأنه نظر إلى ربه فرآه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَٰبَرَةٌ رُّغْمُهُمْ أَفْزَرَةٌ أُلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

وهي غبرة الفساق. ﴿رُّغْمُهُمْ أَفْزَرَةٌ﴾. وهي ذل الحجاب.

سورة التَّكْوِيْرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيْمِ﴾.

«بسم الله» كلمة أُلْجِثَتْ من قوم قلوباً، وأوهجت من آخرين قلوباً؛ من المطيعين أُلْجِثَتْهَا، ومن العاصين أَوَهَجَتْهَا، ومن المريدين أبهَجَتْهَا، ومن العارفين أزعَجَتْهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

ذَهَبَ ضَوْؤُهَا.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا الْبِلَآءُ سَوَّيَتْ﴾.

أَزِيلَتْ عنها مناكِبُهَا.

﴿وَإِذَا الْمَآءُ غُطِلَتْ﴾.

وهي الثَّوْقُ الحواملُ التي أتى حَمْلُهَا عَشْرَةُ أَشْهُرٍ... أهملت في ذلك اليوم لشدة أهواله، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها).

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

أُخِيطَتْ، وَجُمِعَتْ فِي الْقِيَامَةِ لِيُفْتَنَ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ؛ فَيَقْتَصِرَ لِلْجَمَاءِ^(١) مِنَ الْقَرْنَاءِ - وهذا على جهة ضَرْبِ الْمَثَلِ؛ إِذْ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا.

ولا ينبغي أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الأَلم - اليوم - على الْعَوَاضِ... جوازاً لا وجوباً على ما قاله أَهْلُ الْبِدْعِ.

﴿وَإِذَا الْإِنْحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

أَوْقَدَتْ - مِنْ سَجَرَتِ النَّوْرِ أَشْجُرُهُ سَجَرًا، أَي: أَخْمَيْتُهُ.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

بِالْأَزْوَاجِ.

(١) شاة جماء: إذا لم تكن ذات قرن بينة الجمم. (اللسان ١٠٨/١٢ مادة: جمم).

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتَ وَإِذَا الشُّفُفُ تُشِيرَتْ﴾ .

تُشِيرَتْ، أي: بُسِطَتْ.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ .

أي: تُزْعَثُ وَطَوِيَتْ.

﴿وَإِذَا الْجَبِينُ مُسَوَّرَتْ﴾ .

أُوقِدَتْ.

﴿وَإِذَا اللَّيْنَةُ أُنْفِثَتْ﴾ .

أي: قُرِئَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ .

هو جوابٌ لهذه الأشياء، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة.

وفي قيام هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم، وتجلي

هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء.

فمن اختلاف أحوالهم: أَنَّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما

يُرْدُون.

ونجومٌ علوهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريرين في بعض الأحوال،

فعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَا أُقِيمُ لِلنَّفْسِ لِلْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ .

أي: أُقِيمُ، والخُئْسُ والكُنُوسُ هي النجوم إذا غربت.

ويقال: البقر الوحشي.

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَأَلِيلٌ إِذَا عَسَمَسَ وَالْفُتَيْجُ إِذَا نَفَسَ﴾ .

عسَمَسَ: أي جاء وأقبل. ﴿نَفَسَ﴾: خرج من جوف الليل.

أقسم بهذه الأشياء، وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ .

إن هذا القرآن لقولُ رسولٍ كريمٍ، يعني به جبريل عليه السلام.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ .

﴿مَكِينٍ﴾ من المكانة، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آل لوط وقلبها^(١).

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ .

وهذا أيضاً من جواب القسم .

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ .

رأى محمد جبريل عليه السلام بالافق المبين ليلة المعراج .

ويقال : رأى ربه وكان ﷺ بالافق المبين .

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ .

بمُتَّهِمٌ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ .

إلى متى تتطوحون في أودية الظنون والحسبان؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة؟

وهلأ رجعتم إلى مولاكم فيما سركم أو أساءكم؟

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ .

ما هذا القرآن إلا ذكرى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ . . . وقد مضى القول في الاستقامة .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أَنْ يَشَاءُوا .

سورة الانفطار

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة منيعة ليس يسمو إلى فهمها كل خاطر؛ فإذا كان الخاطر غير عاطر فهو عن علم حقيقتها متقاصر.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.

أي: انشقت.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَزَتْ﴾.

تساقطت وتهافتت.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

أي: فُتِحَ بعضها على بعض.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾.

أي: قُلِبَ ترابها، وبُعث الموتى الذين فيها، وأُخرج ما فيها من كنوز وموتى.

﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

جواب لهذه الأمور؛ أي إذا كانت هذه الأشياء: عِلِمَتْ كل نفس ما قدمت من خيرها وشرها.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

أي: ما خدعَكَ وما سَوَّلَ لَكَ حتى عَمِلْتَ بمعاصيه؟

ويقال: سألَه وكأنما في نفس السؤال لَقْنَه الجواب يقول: غَرَّبَنِي كَرَمُكَ بِي، ولولا كَرَمُكَ لَمَّا فَعَلْتُ؛ لَأَنَّكَ رَأَيْتَ فَسْتَرْت، وَقَدَّرْتَ فَأَمَهَلْتَ.

ويقال: إن المؤمن وثق بِحُسْنِ إفضاله فاغتر بطول إمهاله فلم يرتكب الزلة لاستحلاله، ولكن طول جلعه عنه حَمَلَه على سوء خصاله، وكما قلت:

يقول مولاي: أَمَا تَسْتَحْيِ مِمَّا أَرَى مِنْ سُوءِ أَفْعَالِكَ

قلت: يَا مَوْلَايَ رَفَقًا فَقَدْ جَرَّأَنِي كَثْرَةُ أَفْضَالِكَ

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

أي: رُكِبَ أعضائك على الوجوه الحكيمية ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ﴾، من الحُسْنِ والقُبْحِ، والطولِ والقِصَرِ. ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصُفَّةِ، و «في» بمعنى «على»؛ فيكون معناه: على أي صفة شاء رُكِبَكَ؛ من السعادة أو الشقاوة، والإيمان أو المعصية...

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾.

أي: القيامة.

﴿وَلَئِنْ عَلَيْنَا لَخُوفُظِينَ كِرَامًا كَنِينٍ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال. وقد خُوفَهُم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر حشمتهم من اطلاع الحق، ولو علموا ذلك حق العلم لَكَانَ تَوْفِيَهُم عن المخالفات لرؤيته - سبحانه، واستحيائهم من اطلاعه - أَتَمَّ من رؤية الملائكة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾.

﴿الْأَبْرَارَ﴾: هم المؤمنون؛ اليوم في نعمة العصمة، وغدا هم في الكرامة والنعمة ﴿الْفُجَّارَ﴾: اليوم في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشُرْكِ الموجِبِ للفرقة، وغدا في النار على وجه التخليد والتأييد.

ويقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. في رَوْحِ الذِّكْرِ، وفي الأُنْسِ في أوان خَلْوَتِهِمْ.

﴿وَلِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. في ضيق قلوبهم وتَسْخُطِهِمْ على التقدير، وفي ظُلُمَاتِ تدبيرهم، وضيق اختيارهم.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ وَمَا عَنْهَا بِمَأِينٍ﴾.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ أي النار. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾. يوم القيامة.

﴿وَمَا عَنْهَا﴾ عن النار. ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ قالها على جهة التهويل^(١).

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

الأمر لله يومئذٍ، والله من قبله ومن بعده، ولكن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنقطع الدعاوى، إذ يتضح الأمر وتصير المعارف ضرورية.

سورة المطففين

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز رداؤه كبرياؤه، وسناؤه علاؤه، وعلاؤه بهاؤه، وجلاله جماله، وجماله جلالة. الوجود له غير مُستفتح، والموجود منه غير مُستفتح. المعهود منه لطفه، المأمول منه لطفه... كيفما قسم للعبد فالعبد عبده؛ إن أقصاه فالحكم حكمه، وإن أدناه فالأمر أمره.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: الويل كلمة تُذكر عند وقوع البلاء، فيقال: ويل لك، وويل عليك! و«المطفف»، الذي يُنقص الكيل والوزن، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلى ذلك في: الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء؛ فمن لم يرض لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فليس بمنصف. وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكل من لهم معهم معاملة - والصدق عزيز، وكذلك أحوالهم في الصُحبة والمعاشرة... فالذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه فهو من هذه الجملة - جملة المطففين - كما قيل:

وَتُبْصِرُ فِي الْعَيْنِ مَنِي الْقَذَى^(١) وفي عينك الجذع لا تُبْصِرُ

ومن اقتضى حق نفسه - دون أن يقضي حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه - فهو من جملة المطففين.

والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحد لنفسه حقاً.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحاسبون غداً، وأنهم مُطالبون بحقوق الناس؟

ويقال: من لم يذكر - في حال معاملة الناس - معاينة القيامة ومحاسبتها فهو في خسرانٍ في معاملته.

(١) القذى: ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرهما.

ويقال: مَنْ كَانَ صَاحِبَ مِرَاقِبَةٍ لِّلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اسْتَشْعَرَ الْهَيْبَةَ فِي عَاجِلِهِ، كَمَا يَكُونُ حَالُ النَّاسِ فِي الْمَحْشَرِ؛ لِأَنَّ اِطْلَاعَ الْحَقِّ الْيَوْمَ كَاطْلَاعِهِ غَدًا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَزْكَبُكَ مَا هَيِّئْنَا؟ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾.

﴿سِجِّينَ﴾ قيل: هي الأرض السابعة، وهي الأرض السفلى، يُوَضَّعُ كِتَابُ أَعْمَالِ الْكَفَّارِ هُنَاكَ إِذْ لَا لَهُمْ وَهَانَةٌ، ثُمَّ تُحْمَلُ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى مَا هُنَاكَ.

ويقال: «السَّجِّين» جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ. وقيل: صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَفِي اللُّغَةِ السَّجِّينُ: فَعِيلٌ مِنَ السَّجَنِ.

﴿وَمَا أَزْكَبُكَ مَا هَيِّئْنَا﴾. اسْتَفْهَامٌ عَلَى جِهَةِ التَّهْوِيلِ.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾. أَي مَكْتُوبٌ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَا هُمْ عَامِلُونَ، وَمَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ. وَإِنَّمَا الْمَكْتُوبُ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ فَهُوَ عَلَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي عِلْمُ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ، وَكَمَا عِلْمُ أَنَّهُ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ. ثُمَّ إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَمْ يُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى أَسْرَارِ خَلْقِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ بِالْقَدْرِ الَّذِي أَرَادَهُ؛ فَإِنَّهُ يُجْرِي عَلَيْهِمْ فِي دَائِمِ أَوْقَاتِهِمْ مَا سَبَقَ لَهُمْ بِهِ التَّقْدِيرُ.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

وَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بَيِّومَ الدِّينِ، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُجَاوِزٍ لِلْحَدِّ الَّذِي وُضِعَ لَهُ؛ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كَفَّرَ بِهِ^(١).

﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمُحْجَرُونَ﴾.

أَي: غَطَّى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الْمَعَاصِي... وَكَمَا أَنَّهُمْ - الْيَوْمَ - مَمْنُوعُونَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ فَهُمْ غَدًا مَمْنُوعُونَ عَنْ رُؤْيَيْهِ. وَدَلِيلُ الْخُطَابِ يَوْجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَهُ غَدًا كَمَا يَعْرِفُونَهُ الْيَوْمَ^(٢).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾.

﴿عِلِّيَّينَ﴾ أَعْلَى الْأَمْكَنَةِ، تَحْمِلُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُ الْأَبْرَارِ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَإِجْلَالًا.

ويقال: إِنَّهَا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى^(٣). وَيُقَالُ: فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ فِيهِ

أَعْمَالُهُمْ مَكْتُوبَةٌ يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٤).

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

(٣) سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ.

(٤) الْآيَاتُ (١٩، ٢٠، ٢١) لَمْ تَرُدَّ.

(١) الْآيَةُ (١٣) لَمْ تَرُدَّ.

(٢) الْآيَتَانِ (١٦، ١٧) لَمْ تَرُدَا.

اليومَ وغداً: اليومَ في رَوْحِ العرفان، وراحةِ الطاعة والإحسان، ونعمةِ الرضا وأنسِ القربةِ وبَسْطِ الوصلة. وغداً - في الجنة وما وُعدوا به من فنون الزلفة والقربة.
قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ﴾.

أُثْبِتَ النَّظَرَ ولم يُبَيِّنِ المنظور إليه لاختلافهم في أحوالهم؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره. ومنهم من ينظر إلى حُوره، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواص فهم على دوام الأوقات إلى الله - سبحانه - يَنْظُرُونَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ عَلِمَ أَنَّ أَثَرَ نَظَرِهِ إِلَى مَوْلَاهُ مَا يُلَوِّحُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النِّعَمِ؛ فَأَحْوَالُ الْمُحِبِّ شَهُودٌ عَلَيْهِ أَبَداً. فَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ وَصَالٍ فَاحْتِيَالُهُ وَدَلَالُهُ، وَسُرُورُهُ وَحُبُورُهُ، وَنَشَاطُهُ وَانْبِسَاطُهُ. وَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ غِيْبَةٍ وَفِرَاقٍ فَالشَّهَادَةُ عَلَيْهِ نَحْوُهُ وَذُبُولُهُ، وَحَيْنُهُ وَأَنْيَتُهُ، وَدُمُوعُهُ وَهَجُوعُهُ... وفي معناه قلت:

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صَوْرَتِي لَمَّا بَدَا - لجميع ما ظنونا بنا - تحقيق
وقلت:

وَلَمَّا أَتَى الْوَاشِينَ أَنِّي زُرْتُهَا جَحَذْتُ حَذَاراً أَنْ تُشِيعَ السَّرَائِرُ
فَقَالُوا: نَرَى فِي وَجْهِكَ الْيَوْمَ نَضْرَةَ كَسَتْ مُحْيَاكَ^(١). . . وَهَازَكَ ظَاهِرُ!
وَبُرْذُكَ لَا ذَاكَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ بِهِ طَيِّبٌ نُشِرَ لَمْ تُشِغْهُ الْمَجَامِرُ
فَمَا كَانَ مَثِي مِنْ بَيَانٍ أَقِيمَهُ وَهِيَّاهُ أَنْ يَخْفِيَ مُرِيبٌ مَسَاتِيرُ!
قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِثْمُهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.
﴿مَخْتُومٍ﴾ أَي رَحِيقٌ لَا غِشٍّ فِيهِ.

ويقال: عَتِيقٌ طَيِّبٌ.

ويقال: إِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ شَرَاباً آخِرَهُ مِنْكَ.

ويقال: بَلْ هُوَ مَخْتُومٌ قَبْلَ حُضُورِهِمْ.

ويقال: ﴿خِثْمُهُمْ مِنْكَ﴾. مَمْنُوعٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، مُعَدُّ مُدْخَرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ بِاسْمِهِ.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. وَتَنَافُسُهُمْ فِيهِ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّبَاقِ إِلَى الْقُرْبِ، وَتَعْلِيقِ الْقَلْبِ بِاللَّهِ، وَالْانْسِلَاحُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الدُّنْيَا، وَجَوْلَانِ الْهِمَمِ فِي الْمَلَكُوتِ، وَاسْتِدَامَةِ الْمَنَاجَاةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَنْزِيلٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

(١) الْمُحْيَا: جَمَاعَةُ الْوَجْهِ أَوْ حُرُّهُ، يُقَالُ: فَلَانٌ طَلَقَ الْمُحْيَا؛ أَي: بِشَوْشِ الْوَجْهِ.

﴿تَنْبِيْرٌ﴾: أي: عينٌ تَسْنُمُ عليهم من علُوٍّ.

وقيل: ميزابٌ يَنْصَبُ عليهم من فوقهم.

ويقال: سُمِّيَ تسنيمًا؛ لأن ماءه يجري في الهواء مُتَسَنِّمًا فينصبُ في أواني أهل الجنة؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجًا، ومنهم مَنْ يُسْقَى صِرْفًا... الأولياء يُسْقَوْنَ مَزْجًا، والخواصُّ يُسْقَوْنَ صِرْفًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾.

كانوا^(١) يضحكون استهزاء بهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾!

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَىٰ آلَائِكَ يَتْلُونَ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿هَلْ...﴾ استفهام يراد منه التقرير.

ويقال: إذا رأوا أهل النار يُعَذَّبُونَ لا تأخذهم بهم رافة، ولا ترقُّ لهم قلوبهم، بل يضحكون ويستهزئون ويُغيرونهم.

(١) الآيات (٣١ - ٣٣) لم ترد.

سورة الانشقاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال، وجماله لا على احتذاء أمثال، وأفعاله لا بأغراض وأعلال، وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال، فهو الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.

﴿انْشَقَّتْ﴾: انصدعت.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

أي قابلت أمر ربها بالسمع والطاعة... وحق لها أن تفعل ذلك.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾.

بُسطت باندكالك آكامها وجبالها حتى صارت ملساء، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلّت عنها... وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة^(١).

وجواب هذه الأشياء في قوله: ﴿فَمَلَقِيهِ﴾ أي يلقي الإنسان ما يستحقه على أعماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾: يأتيها المكلف... إنك ساعٍ بما لك سعيًا ستلقى جزاءه؛

بالخير خيراً وبالشرّ شرّاً.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتَبٍ يَمِينِهِ﴾.

وهو المؤمن المحسن.

﴿فَسَوْفَ يَحْصِبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾.

أي حساباً لا مشقّة فيه. ويقال: ﴿حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ أي يُسمّعه كلامه - سبحانه - بلا واسطة، فيُخفّف سماعُ خطابه ما في الحساب من عناء.

ويقال: ﴿حِسَابًا يَّسِيرًا﴾: لا يُذكّره ذنوبه. ويقال: يقول: ألم أفعَل كذا؟ وألم

أفعل كذا؟ يُعَدُّ عليه إحسانه... ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يُذكّره عصيانه.

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا..

﴿وَنَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ .

أي بالنجاة والدرجات، وما وَجَدَ من المناجاة، وقبول الطاعات، وغفران الزَّلَّات.

ويقال: بأن يُشَفِّعَهُ فيمن يتعلَّق به قلبه. ويقال: بألا يفضحه.

ويقال: بأن يَلْقَى رَبَّهُ وَيُكَلِّمَهُ قبل أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فَيَلْقَى حَظِيَّتَهُ من المحور العين.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ وَرَأَاهُ ظَهْرًا﴾ .

وهو الكافر.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ .

أي وَنِلًا.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ .

جهنم.

﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ .

من البَطَرِ والمدح.

﴿إِنَّكُمْ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَحُورَ﴾ .

أنه لن يرجع إلينا، ولن يُبْعَثَ^(١).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ .

بالحُمْرَةِ التي تعقب غروب الشمس.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ . .

وما جَمَعَ وضمَّ.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ .

تَمَّ واستوى واجتمع.

ويقال: الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم، وأذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم، وذلك زمانٌ قبضٍ بعد بَسْطٍ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبٍ جَمْعٍ^(٢). ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: ليالي غيبتهم وهم بوصف الاستيقاظ؛ أو ليالي وصالهم وهم في روح التلاقي، أو ليالي طَلَبِهِم وهم بنعت القلبِ والاحتراق.

(١) الآية (١٥) لم ترد.

(٢) انظر حديث القشيري (عن الجمع والغرق) في رسالته ص ٦٤ - ٦٧.

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا انْشَقَّ﴾ : إِذَا ظَهَرَ سُلْطَانُ الْعُرْفَانِ عَلَى الْقُلُوبِ فَلَا بَخْسَ وَلَا نَقْصَانَ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ .

أي حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةٌ بعد شِدَّةٍ .

ويقال : تَارَتْ الْإِنْسَانِ طِفْلاً ثُمَّ شَاباً ثُمَّ كَهْلاً ثُمَّ شَيْخاً .

ويقال : طَالِباً ثُمَّ وَاصِلاً ثُمَّ مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغنى ، والصحة والسقم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ في الآخرة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟﴾ .

أي فما الكُفَّارِ أُمْتِكَ لَا يُصَدِّقُونَ . . . وقد ظهرت البراهين؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ .

﴿يُوعُونَ﴾ أي تنطوي عليه قلوبهم - من أَوْعَيْتُ الْمَتَاعَ فِي الظَّرْفِ أي جعلته

فيه .

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أَجْرٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ .

سورة البروج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ مَنْ لا عقل يَكْتَنِبُهُ، اسمٌ مَنْ لا مِثْل يُشَبِّهُهُ، اسمٌ مَنْ لا فَهْمٌ^(١) يرتقي إليه بالتصوير، اسمٌ مَنْ لا علم ينتهي إليه بالتقدير، اسمٌ مَنْ لم يَرَهُ بَصَرٌ إِلَّا واحدٌ - وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه، اسمٌ مَنْ لا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يتكلّمَ بغير ما إِذْنٌ فيه، اسمٌ مَنْ لا قُطَرَ يحويه، ولا سِرٌّ يُخْفِيهِ، ولا أَحَدٌ يصل إلى معرفته إِلَّا مَنْ يرتضيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾.

أراد البروج الاثني عشر^(٢).

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾.

يوم القيامة.

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

يقال: الشاهدُ اللهُ، والمشهودُ الخَلْقُ.

ويقال: الشاهدُ الخَلْقُ، والمشهودُ اللهُ؛ يشهدونه اليوم بقلوبهم، وغداً بأبصارهم.

ويقال: الشاهدُ محمدٌ ﷺ، والمشهودُ القيامة، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال في القيامة: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة^(٣).

(١) ربما كانت: لا وهم أو لا خيال. فمن أقوال ذي النون المصري: وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في خيالك فالله بخلاف ذلك. (الرسالة القشيرية ص ٤٣).

(٢) قيل: ذات الكواكب؛ وقيل: ذات القصور في السماء، وقيل: هي النجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً، وقالوا: هي القصور في السماء، والله أعلم بما أراد. (اللسان ٢١٢/٢ مادة: برج).

(٣) يوم عرفة: عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة ويوم عرفة غير منون ولا تدخله الألف واللام.

ويقال: الشاهد المَلَكُ الذي يكتب العمل، والشاهد الإنسان يشهد على نفسه، وأعضاؤه تشهد عليه؛ فهو شاهد وهو مشهود.

ويقال: الشاهد يوم القيامة، والمشهود الناس.

ويقال: المشهود هم الأمة لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم.

ويقال: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم.

ويقال: الشاهد الحجر الأسود^(١) لأن فيه كتاب العهد.

ويقال: الشاهد جميع الخلق؛ يشهدون لله بالوحدانية، والمشهود الله.

ويقال: الشاهد الله؛ شهد لنفسه بالوحدانية، والمشهود هو لأنه شهد لنفسه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَتَحِبُّ الْأَخْدُودَ أَلَنَارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾.

أي لعنوا. والأخدود: الحفرة في الأرض إذا كانت مستطيلة، وقصبتهم في التفسير معلومة و«الوقود» الحطب.

وهم أقوام كتموا إيمانهم فلما عَلِمَ مَلِكُهُمْ بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة، وألقاهم فيها. وَأَخِرُ مَنْ دَخَلَهَا امرأةٌ كان معها رضيعٌ، وهَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ، فقال لها الولد: قُفِّي واصبري... فأنت على الحق.

وألقوها في النار، واقتحمتها، وبينما كان أصحاب الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النار من الأخدود وأحرقتهم جميعاً، ونجا من كان في النار من المؤمنين وسَلِمُوا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما غَضِبُوا مِنْهُمْ إِلَّا لِإِيمَانِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: نوع من العذاب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: نوع آخر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

(١) الحجر الأسود: حجر في الكعبة يستلمه الحجاج عند طوافهم. يُقال: ما بيدك غير الحجر ويكنى به عن الحرمان والخيبة.

(٢) الآيتان (٦، ٧) لم تردا.

﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْكَبِيرُ﴾: النجاة العظيمة.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

البطش الأخذ بالشدة.

﴿إِنَّهُمْ هُمْ بِهَيْئٍ وَيُحْيِي﴾.

يُحْيِي الخلق ثم يُعيدهم بعد البعث.

ويقال: يبدى بالعذاب ثم يُعيد، وبالثواب ثم يُعيد.

ويقال: يبدى على حُكم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه، ويبدى على الضعف ويعيدهم إلى الضعف.

ويقال: يبدى الأحوال السنية فإذا وقعت حجة يعيد ثانية.

ويقال: يبدى بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه، فإذا نَقَضَ توبته فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله.

ويقال: يبدى لطائف تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً، فلا يزال يبدى ويعيد إلى آخر العمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾.

«الغفور» كثير المغفرة، «الودود» مبالغة من الواد، ويكون بمعنى المودود؛ فهو يغفر له كثيراً لأنه يودهم، ويغفر لهم كثيراً لأنهم يودونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

ذو المُلْكِ الرفيع، والمجد الشريف.

﴿قَمَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

لأنه مالِك على الإطلاق؛ فلا حَجَر عليه ولا حَظَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾.

الجموع من الكفار.

﴿فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ﴾.

وقد تقدم ذكر شأنهما.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مُشْرِكِي مكة؛ ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ للبعث والنشر.

﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي السُّحُوفِ﴾.

عالم بهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ مكتوب فيه . وجاء في التفسير: أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء، دِفَّتَاهُ^(١) من ياقوتة حمراء عَرَضُهَا بين السماء والأرض، وأعلىاه متعلّق بالعرش، وأسفله في حِجْرِ مَلِكٍ كريم.

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْزِلُ فِي صُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهو في اللوح مكتوب، وفي القلوب محفوظ.

(١) الدقة من كل شيء: جنبه أو صفحته.

سورة الطارق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وفقه لعرفانه، ثم زينه بإحسانه، ثم استخلصه بامتثانه؛ فعصمه من عصيانه، وقام بحسن التوليّ - في جميع أحواله - بشأنه، ثم قبّضه على إيمانه، ثم بوّأه في جنانه، وأكرمه برضوانه، ثم أكمل عليه نعمته برؤيته وعيانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

أقسم بالسماء، وبالنجم الذي يطرق ليلاً.
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم.
﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

المضيء العالي. وقيل: الذي ترمى به الشياطين.

ويقال: هي نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيء بنورها ويهتدي بها أولو البصائر.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عليه عمله ورزقه وأجله، ويحمله على دوام التيقظ وجميل التحفظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

يخرج من صلب الأب، وتربية الأم.

وهو بذلك يحثه على النظر والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته - سبحانه.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجَائِهِ لَقَائِدٌ﴾.

إنه على بعثه، وخلقه مرة أخرى لقائده؛ لأنه قادر على الكمال - والقدرة على الشيء تقتضي القدرة على مثله، والإعادة في معنى الابتداء.

﴿يَوْمَ يُبْلَى الشَّرَافُ﴾ .

يوم تُمتَحَنُ الضمائر .

﴿فَأَلَّوْا مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ﴾ .

أي ما لهذا الإنسان - يومئذ - من مُعين يدفع عنه حُكْمَ الله .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ .

أي المطر .

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْثِ﴾ .

«الصدع» : الانشقاق بالنبات للزرع والشجر .

﴿إِنَّا لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ .

أي : إن القرآن لقول جَزْم .

﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزِيلِ﴾ .

الهزل ضد الجِدَّة ، فليس القرآن بباطل ولا لَعِب .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ .

أي يحتالون حيلة .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ .

هم يحتالون حيلة ، ونحن نُحَكِّمُ فِعْلًا وَنُبْرِمُ خَلْقًا ، ونجازيهم على كيدهم ، بما

نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ رُؤْيَا﴾ .

أي أنظرهم ، وأمهلهم قليلاً ، وأزودهم رويداً .

سورة الأعلى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَهُ وَجَدَهُ، وَمَنْ اسْتَسَعَفَهُ حَمِدَهُ. مَنْ طَلَبَهُ عَرَفَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ لَا طَفَقَهُ، فَإِذَا وَجَدَ لُطْفَهُ أَلْفَهُ، وَإِذَا أَلْفَهُ أَنْفٌ أَنْ يَخَالِفَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

أَي سَبِّحْ رَبِّكَ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ، وَاسْبِحْ بِسِرِّكَ فِي بَحَارِ عِلَالِهِ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْ جَوَاهِرِ غُلُوبِهِ وَسَنَائِهِ مَا تَرْضَعُ بِهِ عِقْدَ مَدْحِهِ وَثَنَائِهِ.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾.

خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ فَسَوَّى أَجْزَاءَهُ، وَرَكَّبَ أَعْضَاءَهُ عَلَى مَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ النِّظَمِ الْعَجِيبِ وَالتَّرَكِيبِ الْبَدِيعِ.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.

أَي قَدَّرَ مَا خَلَقَهُ، فَجَعَلَهُ عَلَى مِقْدَارٍ مَا أَرَادَهُ، وَهَدَى كُلَّ حَيَوَانٍ إِلَى مَا فِيهِ رَشْدُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَيَأْخُذُ مَا يُضْلِحُهُ وَيَتْرَكُ مَا يَضُرُّهُ - بِحُكْمِ الْإِلَهَامِ.

وَيَقَالُ: هَدَى قُلُوبَ الْغَافِلِينَ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا فَعَمَرُوهَا؛ وَهَدَى قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِلَى طَلَبِ الْعَقْبَى فَأَثَرُوهَا، وَهَدَى قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ إِلَى فَنَاءِ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا، وَهَدَى قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِمَصْنُوعَاتِهِ فَعَرَفُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلَا زَمَوَهَا.

وَهَدَى قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ إِلَى عِزِّ وَضْفِهِ فَأَثَرُوهَ، وَاسْتَغْرَعُوا جُهْدَهُمْ فَطَلَبُوهَ، وَهَدَى الْعَارِفِينَ إِلَى قُدْسِ نَعْتِهِ فَرَأَقِبُوهَ ثُمَّ شَاهِدُوهَ، وَهَدَى الْمُوَحِّدِينَ إِلَى عِلَاءِ سُلْطَانِهِ فِي تَوْحِيدِ كِبَرِيَّاتِهِ فَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهَجَرُوهَ، وَخَرَجُوا عَنْ كُلِّ مَأْلُوفٍ لَهُمْ وَمَعْهُودٍ حَتَّى قَصَدُوهَ. فَلَمَّا ارْتَقَوْا عَنْ حُدِّ الْبِرْهَانِ ثُمَّ عَنْ حُدِّ الْبَيَانِ ثُمَّ عَمَّا كَالْعَيَانِ عَلِمُوا أَنَّهُ عَزِيزٌ، وَأَنَّهُ وَرَاءَ كُلِّ فَضْلٍ وَوَضِلٍ، فَارْجِعُوا إِلَى مَوْطِنِ الْعَجْزِ فَتَوَسَّدُوهَ.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾.

أَي النَّبَاتِ.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾.

جعله هشيماً^(١) كالغشاء، وهو الذي يقذفه السيل. و «أحوى» أسود.

﴿سَتَرْتُكَ فَلَا تَنسَى﴾.

سنجمع القرآن في قلبك - يا محمد - حفظاً حتى لا تنسى لأننا نحفظه عليك.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه.

وهو - سبحانه - يعلم السر والعلن^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَذَكِّرْ لِنَقَمَتِ الذِّكْرِ﴾.

والذكرى تنفع لا محالة، ولكن لمن وفقه الله للاتعاظ بها، أما من كان المعلوم

من حاله الكفر والإعراض فهو كما قيل:

وما انتافع أخى الدنيا بمُقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْفَى﴾.

الذي يخشى الله ويخشى عقوبته.

﴿وَسَجَّيْنَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

أي يتجسب الذكر الأشقى الذي يصلى النار الكبرى، ثم لا يموت فيها موتاً

يربحه، ولا يحيا حياة تُلذذ له.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾.

من تطهر من الذنوب والعيوب، ومشاهدة الخلق وأدى الزكاة - وجد النجاة،

والظفر بالبغية، والفوز بالطلبة.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.

ذكر اسم ربه في صلاته. ويقال: ذكره بالوحدانية وصلّى له.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

تميلون إليها؛ فتقدمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

والآخرة للمؤمنين خير وأبقى - من الدنيا - لطلابها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى

وغيرهما؛ لأن التوحيد، والوعد والوعيد... لا تختلف باختلاف الشرائع.

(١) الهشيم: الثبت اليابس المتكسر. أو المتكسر من كل شيء.

(٢) الآية (٨) لم ترد.

سورة الفاشية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها وفي قلبه عرفائه تلالات أنوار قلبه، وتفرقت أنواع كُربِه، وتضاعفت في جماله طوارق حُبِه، وتحيرت في جلاله شوارق لُبِه.

كلمة مَنْ عَرَفَهَا - وفي قلبه إيمانه - أَحَبَّهَا من داخل الفؤاد، وهَجَرَ - في طَلَبِهَا - الرُّقاد، وَتَرَكَ - لأجلِهَا - كُلَّ هَمٍّ ومراد.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ﴾.

«الفاشية» الْمُجَلَّلَةُ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ، تَغْشَى وجوه الكفار.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾.

وجوه - إذا جاءت القيامة - خاشعة أي ذليلة. عاملة ناصبة: النَّصَبُ التعب.

جاء في التفسير: أنهم يُجْزَوْنَ على وجوههم.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ تلزم ناراً شديدة الحر.

ويقال: «عاملة» في الدنيا بالمعاصي، «ناصبة» في الآخرة بالعذاب.

ويقال: «ناصبة» في الدنيا «عاملة» لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان، وفي

معناه عمل أهل النفاق.

﴿تُثْقَلْنَ مِنْ عَيْنِ آيَةٍ﴾.

تناهى حرُّها.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ لَا يُسْنِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾.

نَبَتْ ينمو بالحجاز له شوك، وهو سم لا تأكله الدواب، فإذا أكلوا ذلك في النار

يُقْضَوْنَ، فَيَسْقَوْنَ الزُّقُومَ.

وإن اتصاف الأبدان - اليوم - بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواح وجدان

المكاشفات (وفقد^(١)) الأسرار أنوار المشاهدات، (وفقد) القلب الإخلاص

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

والصدق في الاعتقادات لا يجدي خيراً، ولا ينفع شيئاً - وإنما هي كما قال: ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُجْزَىٰ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾.

أي: مُتَّعَمَةٌ، ذات نعمَةٍ ونضارة.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

حين وَجَدَتْ الثَّوَابَ على سعيها، والقبول لها.

﴿فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ﴾.

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها. هم بأبدانهم في درجاتهم، ولكن بأرواحهم.

مع الله في عزيز مناجاتهم.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةٌ﴾.

لأنهم يسمعون بالله؛ فليس فيها كلمة لغو.

قومٌ يسمعون بالله، وقومٌ يسمعون لله، وقومٌ يسمعون من الله، وفي الخير:

«كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمعُ وبني يُصِرُّ»^(١).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

أراد عيوناً؛ لأن العين اسم جنس، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة.

ويقال: تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له - اليوم - عيونٌ جارية بالبكاء، وغداً

لهم عيونٌ ناظرةٌ بِحُكْمِ اللِّقَاءِ.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَوَاجٌ مَبْثُوثَةٌ﴾.

النمارق المصفوفة في التفسير: الطنافس المبسوطة.

الزواجر المبثوثة في التفسير: البُسُط المتفرقة.

وإنما خاطبهم على مقادير فهمهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيدة قالوا: كيف يصعدُها المؤمن؟

فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها

تنزل؟ فكَذَلِكَ تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الوليُّ.

(١) رواية الحديث: «ما يزال عبيدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها،

وسمعه الذي يسمع به...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٤٧٧، ٩/٦١٠)، وابن

حجر في (فتح الباري ١١/٣٤١).

والحديث بالرسالة القشيرية ص ٣١٨ بغير هذه الرواية انظره.

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته - سبحانه.

فالقوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئاً إلا السماء والأرض والجبال والجمال... فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء.

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه؛ منها: ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحمْلِ والركوب، ثم بنسْلِها، ثم بلحمها ولبنها ووبرها... ثم من سهولة تسخيرها لهم، حتى ليستطيع الصبي أن يأخذ بزمامها، فتتجر وراءه. والإبل تصبر على مقاساة العطش في الأسفار الطويلة، وهي تقوى على أن تحمِل فوق ظهورها الكثير من الحمولات... ثم جزائها إذا حققت، واسترواحها إلى صوت من يحدوها عند الإعياء والتعب، ثم ما يُعَلِّل المرء بما يناط بها من برّها^(١).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

لست عليهم بمُسلِّطٍ؛ فذكّر - يا محمد - بما أمرناك به، فبذلك أمرناك.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

إلا من تولى عن الإيمان وكفر فيعذبه الله بالخلود في النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

إن إلينا رجوعهم، ثم نجازيهم على الخير والشر.

سورة الفجر

قوله جل ذكره: ﴿يَسِّرْ لَكَ الْيُسْرَى﴾.

بسم الله كلمة ما استولت على قلب فقير فأقلقته، وما تمكنت من سرٍّ مُتَّيَّم فَشَتَّتْهُ، وما استولت على روح محبٍّ فرحمته. كلمة قهارة للقلوب.. ولكن لا لكل قلب، كلمة لا سبيل لها لكل عقل، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببذل أرواحهم فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

الفجر انفجار الصبح وهو اثنان: مستطيل وقصير؛ ففي التفسير: إنه فجر المحرم لأنه ابتداء السنة كلها، وقيل: فجر ذي الحجة.

ويقال: هو الصخور ينفجر منها الماء.

ويقال: أقسم به لأنه وقت عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل: هي عشر ذي الحجة، ويقال: عشر المحرم؛ لأن آخرها عاشوراء. ويقال: العشر الأخيرة من رمضان.

ويقال: هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ثم به ميعاده بقوله: ﴿وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ﴾.

ويقال: هو «فجر» قلوب العارفين إذا ارتقوا عن حد العلم، وأسفر ضبح معارفهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان بما تجلّى في قلوبهم من البيان. ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.

جاء في التفاسير: الشفع يوم النحر^(١)، والوتر يوم عرفة.

ويقال: آدم كان وترأ فشفع بزوجه حواء.

وفي خبر: إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الضبح.

ويقال: الشفع الزوج من العدد، والوتر الفرد من العدد.

(١) يوم النحر: اليوم العاشر من ذي الحجة لنحرهم فيه.

ويقال: الشفع تضادُ أوصافِ الخَلْق: كالعلم والجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت. والوتر انفراطُ صفاتِ الله سبحانه عمّا يضادّها؛ علم بلا جهل، وقدرة بلا عجز، وحياة بلا موت.

ويقال: الشفعُ الإرادة والنية، والوتر الهمة؛ لا تكتفي بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله - لتَقْدُسِهِ عن الوُضَلِ والفُضَلِ.. فبقيت الهمة غريبة.

ويقال: الشفع الزاهد والعابد، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً، والوتر المرید فهو كما قيل:

فريدٌ من الخِلانِ في كل بلدةٍ إذا عَظَمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ
﴿وَأَتَّبِعْ إِذَا بَرَّ﴾

«يسري» يمضي.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾.

«حِجْرٍ». لُبٌّ. وجوابُ القَسَمِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِذْ دَاوَتْ أَلْعَمَادُ﴾.

ذكر^(١) قصص هؤلاء المتقدمين.. إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. أي: شدة العذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

لا يفوته شيء.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾.

﴿فيقول ربي أكرمني﴾: أي: شكره.

﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾. أي: ضيق، ﴿فيقول ربي أهانني﴾. أي: أذلني. كلا..

ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلانِ للعصيان.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة؛ فلا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ.

﴿وَلَا تَحْصُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ الْكُرَاتِ أَكْلاً لَمًّا﴾.

لماً. أي شديداً.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ .

جمًّا أي كثيراً .

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ .

أي: قامت القيامة .

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي الملائكة بأمره .

ويقال: يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ .

يقال: تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام^(١) .

وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان . . ولا يتفقه التذكُّر، ولا يُقْبَلُ منه العذرُ .

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ .

أي: أطعْتُ رَبِّي ونظرت لنفسي .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ .

أي: لا يعذب في الدنيا أحدٌ مثلما يعذبه الله في ذلك اليوم . . إذا قرئت الذال

بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح ﴿لا يعذب﴾ فالمعنى: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا

الكافر .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال: المطمئنةُ بالمعرفة: ويقال: المطمئنة بذكر الله .

ويقال: بالبشارة بالجنة . ويقال: النفس المطمئنة: الروح الساكنة .

﴿أَرْجِئِ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْثِيَةً﴾ .

راضيةٌ عن الله، مُرْضِيَةٌ من قِبَلِ الله .

﴿فَأَدْخِلْ فِي عِلْدِي وَادْخِلْ جَنَّتِي﴾ .

أي: في عبادي الصالحين .

(١) «تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده . . » أخرجه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين ١٠/

سورة البلد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة تُخبر عن جلالِ أزلِّي، وجمالِ سرمدِّي، جلالِ ليس له زوال، وجمالِ ليس له انتقال، جلالِ لا بأغيارِ وأمثال، جمالِ لا بصورةٍ ومثال، وجلالِ وهو استحقاقه لجبروته وجمالِ وهو استيجابه لملكوته، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافه فناء في فناء، وجمالِ مَنْ لاطَفَه به فأحواله بقاء في بقاء.

قوله جل ذكره: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

أي: أقسم بهذا البلد، وهو مكة.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

وإنما أُجِلْتُ له ساعةً واحدةً.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

كلُّ والدٍ وكلُّ مولود. وقيل: آدم وأولاده.

وجواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

ويقال: أقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به.. ويلدُ الحبيبُ حبيباً.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

أي: في مشقة؛ فهو يقاسي شدائد الدنيا والآخرة.

ويقال: خَلَقَه في بطن أمه (منتصباً رأسه) فإذا أَدْنَى اللهُ أن يخرج من بطن أمه

تنكَّس رأسه عند خروجه، ثم في القِمَاط^(١) وشُدُّ الرِّبَاط.. ثم إلى الصُّرَاط هو في الهياط والمِياط^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

أي: لقوته وشجاعته عند نفسه يقول:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾.

(١) القِمَاط: خرقه عريضة يُلف بها المولود (ج) أقمطة وقمط.

(٢) يقال: ما زال في هياط ومياط أي في ضجاج وشر وجلبة، وقيل: في دنو وتباعد. (لسان العرب ٤٢٤/٧ مادة: هيط).

﴿لَبَدَأْ﴾ كثيراً، في عداوة محمد ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

أليس يعلم أن الله يراه، وأنه مُطْلِعٌ عليه؟

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

أي: ألم نخلقه سمياً بصيراً متكلماً.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

ألهمناه طريق الخير والشر.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَتِيمًا ذَا مَقَرَبَةٍ أَوْ

مُسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ﴾.

أي: فهلاً اقتحم العقبة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ استفهام على التضمين لسانها.

ويقال: هي عَقَبَةُ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله: وهو فكُّ رَقَبَةٍ؛

أي: إعتاقُ مملوك، والفكُّ الإزالة. وأطعم في يوم ذي مجاعةٍ وقحطٍ وشدةٍ يتيمًا ذَا

قَرَابَةٍ، أو ﴿أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ﴾: لا شيء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: من الذين يرحم بعضهم بعضاً.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

أي: أصحاب اليمين والبركة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهْنَ أَمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾.

هم المشائيم على أنفسهم، عليهم نارٌ مُطَبَّقَةٌ؛ يعني أبواب النيران (عليهم مغلقة).

والعقبة التي يجب على الإنسان اقتحامها: نفسه وهواه، وما لم يَجْزُ تلك العقبة

لا يفلح و﴿فَكَ رَقَبَةٍ﴾ هو إعتاق نفسه من رِقِّ الأغراض والأشخاص.

ويكون فك الرقبة بأن يهدي مَنْ يَفْكُهُ - من رق هواه ونفسه - إلى سلامته من

شَحْ نفسه، ويرجعه إليه، ويخرجه من ذلِّه.

ويكون فك الرقبة بالتحَرُّزِ من التدبير، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة

الرضا.

ويقال: يطعم من كان في متربة ويكون هو في مسغبة^(١).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي تكون خاتمة على ذلك.

(١) المتربة: الفقر الشديد والمسكنة، والمسغبة: المجاعة.

سورة الشمس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» إخبار عن وجود الحق بنعت القِدم. «الرحمن الرحيم»: إخبار عن بقاءه بوصف العلاء والكُرم.

كاشف الأرواح بقوله: «بسم الله» فهيئها، وكاشف النفوس بقوله: «الرحمن الرحيم» فتيمها؛ فالأرواح ذهت في كشف جلاله، والنفوس عطش إلى لطف جماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَهَا﴾.

ضحا الشمس صذر وقت طلوعها.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾.

أي: تبعها؛ وذلك في النصف الأول من الشهر.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾.

إذا جلى الشمس وكشفها.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.

أي: يَغشى الشمس (فيذهب بضوئها).

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾.

أي وبنائها. ويقال: ومن بناها.

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَعْنَاهَا﴾.

أي: وطعنها. ويقال: ومن طحاها (أي بسطها أو قسمها أو خلقها).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

ومن سوى أجزائها وأعضاءها.

﴿فَأَلَمَسَهَا جُورَهَا وَتَقَوَّاهَا﴾.

أي: بأن خذلها ووقَّها.

ويقال: فجورها: حركتها في طلب الرزق، وتقواها: سكونها بحكم القدير.

وقيل: طريق الخير والشر.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

هذا جواب القسم. أي «لقد أفلح من زكّاها».

ويقال: مَنْ زَكَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

أي: دسّاها الله. وقيل: دسّها في جملة الصالحين وليس منهم.

وقيل: خاب مَنْ دَسَّ نَفْسَهُ بمعصية الله. وقيل دسّاها: جعل خسيصةً حقيرةً.

وأصل الكلمة دسساها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا﴾.

﴿يَطْغَوْنَهَا﴾: لطغيانها، وقيل: إن صالحاً قد مات، فكفّر قومه، فأحياه الله،

فدعاهم إلى الإيمان، فكذبوه، وسألوه علامةً وهي الناقة، فأناهم صالح بما سألوا.

﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا﴾.

«أشقاها» عاقرها.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾.

أي: احذروا ناقةَ اللَّهِ، واحذروا سقياها: أي لا تتعرضوا لها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

أي كذبوا صالحاً، فعقروا الناقة.

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَوَّاهَا﴾.

أي: أهلكهم بجُزُمِهِم «فسواها»: أي أطبق عليهم العذاب.

ويقال: سَوَّى بينهم رَبُّهُمْ في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَخَافُ عَذَابَهَا﴾.

أي: أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة.

ويقال: قد أفلح مَنْ دَاوَمَ على العبادة، وخَابَ مَنْ قَصَرَ فيها.

وفائدة السورة: أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَهُ عن الذنوبِ والعيوبِ، ثم عن الأطماعِ

في الأعواض والأغراض، ثم أَبْعَدَ نَفْسَهُ عن الاعتراض على الأقسام، وعن ارتكاب

الحرام. وقد خَابَ مَنْ خَانَ نَفْسَهُ، وأهملها عن المراعاة، ودَسَّاهَا بالمخالفات؛ فلم

يرضَ بِعَدَمِ المعاني حتى ضَمَّ إلى قَفْرِهَا منها الدعاوى المظلمة. . . ففرقت في بحرِ

الشقاء سفينته.

سورة الليل

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة تُخْبِرُ عن إلهية الله؛ وهي استحقاقه لنعوتِ المجد والتوحد، وصفاتِ العِزِّ والتفرد؛ فَمَنْ تَجَرَّدَ في طَلَبِهِ عن الكسلِ، ولم يستوطن مركبَ العجزِ والقسلِ، وَوَضَعَ النظرَ موضِعَهُ وَصَلَ بِدليلِ العقلِ إلى عرفانه، وَمَنْ بَدَّلَ رُوحَهُ وَنَفْسَهُ وَوَدَّعَ في الطَلَبِ راحته وأَنَسَهُ، ولم يُعَرِّجْ في أوطانِ الوقفة ظفرَ بحكمِ الوصولِ إلى شهودِ سلطانه، والناسُ فيه بين مُؤَفِّقٍ ومخذولٍ، أو مؤيِّدٍ ومردودٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنشَقُّ﴾.

يغشى الأفقَ، وما بين السماء والأرض فيستره بظلمته.
والليل لأصحاب التحيرِ يستغرق جميعَ أقطارِ أفكارهم فلا يهتدون الرشداً.
﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾.

أَنَارَ وَظَهَرَ، وَوَضَحَ وَأَسْفَرَ.

ونهارُ أهلِ العرفانِ بضياءِ قلوبهم وأسرارهم، حتى لا يَخْفَى عليهم شيءٌ، فسكنوا بطلوعِ الشمسِ عن تكلُّفِ إيقادِ السراجِ.
﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾.

أي: «من» خَلَقَ الذكر والأنثى؛ وهو الله سبحانه:
﴿إِنْ سَأَلْتَهُ لَشَقٌّ﴾.

هذا جوابُ القَسَمِ، والمعنى: إِنَّ عَمَلَكُمْ لمختلف؛ فمنكم: مَنْ سَعَى في طلبِ دنياه، ومنكم مَنْ سَعَى في شهواتِ نَفْسِهِ واتباعِ هواه، ومنكم مَنْ سَعَى في شهواتِ، ومنكم مَنْ في طَلَبِ جَاهِهِ وَمُنَاهِ، وآخر في طلبِ عقباه، وآخر في تصحيحِ تقواه، وآخر في تصفيةِ ذكراه، وآخر في القيامِ بِحُسْنِ رضاه، وآخر في طلبِ مولاه.

ومنكم: من يجمع بين سعيِ النَّفْسِ بالطاعة، وسَعْيِ القلبِ بالإخلاص، وسعيِ البدنِ بالقُربِ، وسعيِ اللسانِ بذكرِ الله، والقولِ الحَسَنِ للناسِ، ودعاءِ الخَلْقِ إلى الله والنصيحةِ لهم.

ومنهم مَنْ سَعِيهِ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهِ هَلَاكُ دُنْيَاهُ . . . ومنهم . . . ومنهم .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ من ماله، ﴿وَاتَّقَى﴾ مخالفةً ربّه . .

ويقال: ﴿أعطى﴾ الإنصاف من نفسه، ﴿واتَّقَى﴾ طَلَبَ الإنصافِ لنفسه . .

ويقال: «اتقى» مساحِطَ الله . ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: بالجنة، أو بالكرّة الآخرة،

وبالمغفرة لأهل الكبائر، وبالشفاعَة من جهة الرسول ﷺ، وبالخلف من قِبَلِ الله . . .

فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى: أي تُسَهِّلُ عليه الطاعات، وتُكَرِّهُ إليه المخالفات، وتُشْهِي إليه

القُرْبَ، وتُحِبُّ إليه الإيمان، وتُزَيِّنُ في قلبه الإحسان .

ويقال: الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته .

﴿وَأَمَّا مَنْ يَكْذِبْ وَاسْتَفْتَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ .

أما من مَنَعَ الواجب، واستغنى في اعتقاده، وكَذَّبَ بالحسنى: أي بما ذَكَّرْنَا،

فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى؛ فيقع في المعصية ولم يُدَبِّرْها، ونوقف له أسباب المخالفة .

ويقال: «أعطى» أَعْرَضَ عن الدارين، «واتَّقَى» أن يجعل لهما في نفسه مقداراً .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ .

يعني: إذا مات . . فما الذين يغني عنه ماله بعد موته؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ .

لأوليائنا، الذين أَرشدناهم . ويقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ بنصيب الدلائل .

﴿وَلَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ .

مُلْكاً، نعطيهِ من نشاء .

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ .

أي: تتلظى .

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ .

أي: لا يُعَذَّبُ بها إِلَّا الْأَشْقَى، وهو:

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ .

يعني: كَفَرَ .

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلُفَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ .

يُعْطَى الزكاة المفروضة .

ويقال يَتَطَهَّرُ من الذنوب .

ونزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه . والآية عامة .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نَقْمَةٍ تُجْزَى﴾ .

حتى تكون هذه مكافأة له . ولا يفعل هذا لِيَتَّخِذَ عند أَحَدٍ يَدًا ، ولا يطلب منه مكافأة :

﴿إِلَّا أَنْفَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ .

أي : لِيَتَقَرَّبَ بها إلى الله .

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ .

يَرْضَى اللَّهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سورة الضحى

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم لا يُشبهه كُفُو في ذاته وصفاته، ولا يستفزه لَهْو في إثبات مصنوعاته، ولا يعتريه سَهْو في علمه وحكمته، ولا يعترضه لَغْو في قوله وكلمته.

فهو حكيم لا يلهو، وعليم لا يسهو، وحليم يُثبِت ويمحو؛ فالصدق قَوْلُه، والحق حُكْمُه، والخلق خَلْقُه والمُلك مُلْكُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾.

«والضحى»: ساعة من النهار. أو النهار كله يُسمَى ضُحَى. ويقال: أقسم بصلاة الضحى.

ويقال: الضحى الساعة التي كَلِم فيها موسى عليه السلام.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: ليلة المعراج، و«سجا»: أي سَكَن، ويقال: هو عامٌ في جِسْرِ الليل.

ويقال: «الضحى» وقت الشهود. ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ الذي قال: إنه لِيُغَاثَ على قلبي^(١).

ويقال: «الليل إذا سجا» حين ينزل اللُّهُ فيه إلى السماء الدنيا - على التأويل الذي يَصُحُّ في وصفه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَ﴾.

ما قَطَعَ عنك الوحي وما أبغضك.

وكان ذلك حين تأخر جبريل - عليه السلام - عنه أياماً، فقال أهل مكة: إن محمداً قد قلاه ربه. ثم أنزل اللُّهُ هذه السورة.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/ ٢١١ - ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥٢/ ٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٨٠/ ١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٧/ ٥، ٢٩٩/ ٨، ٥١٧، ٥٩/ ٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣/ ٢) (البغوي ١٨٠/ ٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦٣/ ٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠١/ ١١) والمثني الهندي في (كتر العمال ٢٠٧).

وقيل: احتبس عنه جبريل أربعين يوماً، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً.

ويقال: سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف، فوَعَدَ الجواب ولم يقل: إن شاء الله.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

أي: ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لك مما يعطيك في الدنيا.

ويقال: ما أعطاك من الشفاعة والحوض، وما يُلبسُك من لباس التوحيد - غداً - خيرٌ مما أعطاك اليوم.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

قيل: أفترضى بالعطاء عن المُعْطِي؟ قال: لا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾.

قيل: إلى عمِّه أبي طالب.

ويقال: بل آواه إلى كَتَفِ ظِلِّهِ، وربَّاه بلطف رعايته.

ويقال: فأواكَ إلى بساطِ القربة بحيث انفردت بمقامك، فلم يُشاركك فيه أحدٌ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

أي: ضللت في شعاب مكة، فهَدَى إليك عمَّكَ أبا طالبٍ في حال صباك.

ويقال: «ضالًّا» فينا متحيراً.. فهديناك بنا إلينا.

ويقال: «ضالًّا» عن تفصيل الشرائع؛ فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها.

ويقال: فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك.

وقيل: «ضالًّا» للاستنشاء فهذاك لذلك.

ويقال: «ضالًّا» في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا.

ويقال: «ضالًّا» عن محبتي لك فعرفتكَ أني أُحِبُّكَ.

ويقال: جاهلاً بمحلِّ شرفك، فعرفتكَ قَدْرَكَ.

ويقال: مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك.

﴿وَوَجَدَكَ عَالِمًا غَافِقًا﴾.

في التفسير: فأغناكَ بمال خديجة.

ويقال: أغناكَ عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد.

ويقال: أغناك بالنبوة والكتاب. ويقال: أغناك بالله.

ويقال: أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداءً؛ بلا سؤالٍ منك.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

فلا تُخَفِّه، وارفق به، وقرِّبه.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

أي: إما أن تُعْطِيَه.. أو تَرُدَّه بِرِفْقٍ، أو وعدٍ.

ويقال: السائلُ عثاً، والسائلُ المتحيرُ فينا - لا تنهرهم، فإننا نهديهم، ونكشف

مواضع سؤالهم عليهم.. فلا طِفْهم أنت في القول.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فاشكُرْ، وصرِّحْ بإحسانه إليك، وإنعامه عليك.

سورة ﴿الم نشرح﴾

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ عَزَّ مَنْ التَّجَا إليه، وَجَلَّ مَنْ تَوَكَّلَ عليه، وفاز في الدنيا والعُقبَى مَنْ تَوَسَّلَ به إليه؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ قَرَّبَهُ وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ حَقَّقَ لَهُ مَطْلَبَهُ، وَمَنْ رَفَعَ قِصَّتَهُ إِلَيْهِ قَضَى مَارَبَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

أَلَمْ نُوسِّعْ قَلْبَكَ للإسلام؟ أَلَمْ نُلَيِّنْهُ للإيمان؟
ويقال أَلَمْ نوسِّعْ صدرك بنور الرسالة؟ أَلَمْ نوسِّعْ صدرك لقبول ما نوردُ عليك.
﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ أَلَيْسَ أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ﴾.

أي: إثنك قبل النبوة.

ويقال: عصمتك عن ارتكاب الوزر؛ فَوَضَعَهُ عَنْهُ بَأْنُهُ لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ قَطُّ.

ويقال: خففنا عنك أعباء النبوة وجعلناك محمولاً لا متحملًا.

ويقال: قويناك على التحمل من الخلق، وقويناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحفظت، وحرسانك عن ملاحظة الخلق فيما شرفناك به.
﴿أَلَيْسَ أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ﴾: أثقله، ولولا حَمَلُنَا عَنْكَ لَكُنَّيْرَ.
﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾.

بِذِكْرِنَا؛ فكما لا تَصِحُّ كلمة الشهادة إلا بي، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك.

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وفي الخبر: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ»^(١) ومعناه: أن العسر بالآلف واللام في

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرک ٥٢٨/٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/٧١٢)، والطبري في (التفسير ١٥١/٣٠)، والقرطبي في (التفسير ١٠٧/٢٠) والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢١٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المنتشرة ١٣٢).

الموضعين للعهد - فهو واحد، واليُسْر مُنْكَرٌ في الموضعين فهما شيثان. والعُسْر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا في الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذا فُعُسِرُ جميع المؤمنين واحد - وهو ما نابهم من شدائد الدنيا، وَيُسْرُهُم اثنان: اليوم بالكشف والصرف، وغداً بالجزاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾.

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانصَبْ في الدعاء.

ويقال: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الشفاعة.

ويقال: فإذا فرغت من عبادة نفسك فانصَبْ بقلبك.

﴿وَلِكِنَّ رَبَّكَ فَاَرْغَبْ﴾.

في جميع الأحوال.

ويقال: فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب في الشفاعة.

سورة النين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

اسم «الله» يدلّ على جلال مَنْ لم يَزَلْ، ويُخْبِرُ عن جمال مَنْ لم يَزَلْ، ينبه على إقبال مَنْ لم يَزَلْ، يشير إلى إفضال مَنْ لم يَزَلْ؛ فالعارف شهد جلاله فطّاش، والصفّي شهد جماله فعاش، والوليّ شهد إقباله فارتاش، والمريدُ يشهد إفضاله فلا يطلب مع كفايته المعاش.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾.

أقسم بالتين لما به من عظيم المِنَّة على الخلق حيث لم يجعل فيه الثوى، وخَلَصَه من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللُّقمة لتكمل به اللذة. وجعل في «الزيتون» من المنافع مثل الاستصباح والتأدّم والاصطباغ به. ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾.

الجبل الذي كَلَّمَ الله موسى عليه. ولموضع قَدَمِ الأحبابِ حُرْمَةً.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

يعني: مكة، ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلدُ الحبيب، وفيها البيت؛ ولبيتِ الحبيبِ وبلدِ الحبيبِ قَدَرٌ ومنزلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

في اعتدال قامته، وحُسن تركيب أعضائه. وهذا يدلّ على أَنَّ الحقَّ - سبحانه - ليس له صورة ولا هيئة؛ لأنَّ كُلَّ صفةٍ اشترك فيها الخلقُ والحقُّ فالمبالغة للحقِّ.. كالعلم، فالأعلمُ اللهُ، والقدرة: فالأقْدَرُ اللهُ فلو اشترك الخلقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسنُ في الصورة اللهُ... فلما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ عَلِمَ أَنَّ الحقَّ - سبحانه - مُتَرَفِّعٌ عن التقويم وعن الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

أي: إلى أرذل العمر وهو حال الخَرْفِ^(١) والهَرَمِ.

(١) الخَرْفُ: فساد العقل من الكبير أو المرض.

ويقال: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾: إلى النار والهاوية في أقبح صورة؛ فيكون أول الآية عامًا وآخرها خاصًا بالكفار.. كما أن التأويل الأول - الذي هو حال الهَرَم - خاص في البعض؛ إذ ليس كل الناس يبلغون حال الهَرَم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي: غير منقوص.

ويقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾.

أيها الإنسان.. مع كل هذا البرهان والبيان؟

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لَلْمُنْكَرِينَ﴾.

سورة العلق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها يوجب أحد أمرين: «إِمَّا صَخَوًا وَإِمَّا مَخَوًا؛ صَخَوًا لِمَنْ سَمِعَهَا بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه، أو مَخَوًا لِمَنْ سَمِعَهَا بشاهد المعرفة لأنه يتحير في جلال سلطانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

هذه السورة من أوّل ما نَزَلَ على المصطفى ﷺ لما تعرّض له جبريل في الهواء، ونَزَلَ عليه فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فالنَّاسُ كُلُّهُمْ يريدون - وهو ﷺ كان مُرَادًا. فاستقبل الأمر بقوله: «ما أنا بقارىء»، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فقال له: «اقرأ كما أقول لك؛ ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»^(١) أي خلقهم على ما هم به.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

العَلَقُ جمع عَلَقَةٍ؛ كشَجَرٍ وشَجَرَةٍ.. (والعَلَقَةُ الدَّمُ الجامد فإذا جرى فهو المسفوح).

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

«الأكرم»: أي الكريم.

ويقال: الأكرم من كلِّ كريم.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

عَلَّمَهُمْ ما لم يعلموا: الضروري، والكسبي.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/١٣، ٦/٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٨/٥٩، ٩/٣٧)، ومسلم في (الصحيح الإيمان ب٧٣ رقم ٢٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/٥١، ٩/٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ٩٧١٩)، (البغوي ٧/٢٦٨)، والحاكم في (المستدرک ٣/١٨٣)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/٣١٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/١١٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/١٣٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/٣٦٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/٢٢، ٨/٧١٥)، وأبو نعيم في (دلائل النبوة ١/٦٨)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/١١٨) وابن كثير في (التفسير ٨/٤٥٨).

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَلْفَوْفٌ ﴿١﴾﴾

أي: يتجاوز جَدَّه إذا رأى في نفسه أنه استغنى؛ لأنه يَغْمَى عن مواضع افتقاره.
ولم يقل: إن استغنى بل قال: ﴿أَنْ رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه، وكان مشاهداً لمحل افتقاره - لم يكن طاعياً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾.

أي: الرجوع يوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾.

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له؟ ففي الآية هذا الإضمار.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمَذْهَبِ أَوْ أَمَرَ بِالْقُوَّةِ﴾.

لكان خيراً له؟

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. كَذَّبَ بالدِّينِ، وتولَّى عن الهداية.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾.

أي: ما الذي يستحقُّه مَنْ هذه صفته؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة - وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ حَالَ المراقبة لَمْ يَزَلْ مِنْهُ

إلى حال المشاهدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾.

لَنَأْخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ (وهي شَعْرُ مُقَدِّمِ الرَّأْسِ) أَخَذَ إِذْلالٍ. ومعناه لَنَسْوَدَنَّ وَجْهَهُ.

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَدَّحُ الزَّيْبَانِيَةِ﴾.

فليدعُ أهلَ نادِيهِ وأهلَ مجلسه، وسدعو الزبانيةَ ونامرهم بإهلاكه.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا تُلْفَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

أي: اقترب من شهود الربوبية بقلبك، وقِفْ على بساط العبودية بتفكيرك.

ويقال: فاسجدْ بنفسك، واقتربْ بغيرك.

سورة القدر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة تُخَضِّرُ قلوب العلماء لتأمل الشواهد، وتُشكِّرُ قلوب العارفين إذا وردوا المشاهد... فهؤلاء أحضرهم قَبَضَرَهُمْ، وعلى استدلالهم نصرهم. وهؤلاء بشراب محابّه أسكّرهم، وفي شهود جلاله خيّرهم. قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

في ليلة قَدَرٍ فيها الرحمة لأوليائه، في ليلة يجد فيها العابدون قَدَرَ نفوسهم، ويشهد فيها العارفون قَدَرَ معبودهم... وشتان بين وجود قَدَرٍ وشهود قَدَرٍ! فلهؤلاء وجود قَدَرٍ ولكن قدر أنفسهم، ولهؤلاء شهود قَدَرٍ ولكن قدر معبودهم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

استفهام على جهة التفتيح لشأن تلك الليلة. ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

أي: هي خير من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر. هي ليلة قصيرة على الأحياب لأنهم فيها في مسامرة وخطاب... كما قيل:

يا ليلة من ليالي الدهر قابلت فيها بذرها ببذر
ولم تكن عن شفق وفجر حتى تولت وهي بكر الدهر
قوله جلّ ذكره: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: قيل جبريل. وقيل: ملك عظيم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: أي بأمر ربهم

﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ﴾: أي مع كل مأمور منهم سلامي على أوليائي.

﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: أي هي باقية إلى أن يطلع الفجر.

سورة البينة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم عزيز تنصّل إليه المذنبون فغفّر لهم وجبرهم: وتوسّل إليه المطيعون فوصلهم ونصّرهم.

تعرّف إليه العالمون فبصّرهم، وتقرّب منه العارفون فقرّبهم... لكنه - سبحانه - في جلاله خيرهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

«منفكين»: منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيّنة: وهي رسول الله ﷺ، أي لم يزالوا مجتمعين على تصديقه؛ لما وجدوه في كتبهم إلى أن بعّثه الله تعالى. فلما بعّثه حسدوه وكفروا.

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ الْقِيَمَةُ﴾.

أي حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كتباً مطهّرة عن تبديل الكفار.

﴿فِيهَا كُتِبَ الْقِيَمَةُ﴾: مستوية ليس فيها اعوجاج.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾.

يعني: القرآن.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي موحدين لا يشركون بالله شيئاً؛ فالإخلاص ألا يكون شيء من حركاتك وسكناتك إلا لله.

ويقال: الإخلاص تصفية العمل من الخلل.

«حنفاء»: مائلين إلى الحق، عادلين عن الباطل.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ... وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾: أي دين الملة القيمة، والأمة القيمة، والشريعة القيمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين. ﴿الْبَرِيَّةِ﴾: الخليفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

أي: خير الخلق، وهذا يدل على أنهم أفضل من الملائكة.

قوله جل ذكره: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: أي ثوابهم في الآخرة على طاعاتهم.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

فلم تبق لهم مطالبة إلا حَقَّقَهَا لَهُمْ.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

أي: خافه في الدنيا.

والرضا سرور القلب بمر القضا.

ويقال: هو سكون القلب تحت جريان الحكم.

سورة الزلزلة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من تأملها بمعانيها ووقف على ما أودع فيها رتعت أسرارها في رياض من الأنس موبقة، وأينعت أفكاره بلوائح من اليقين مشرقة، فهي على جلال الحق شاهدة، وهي على ما يحيط به الذكر ويأتي عليه الحضر زائدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا﴾.

أي: أمواتها، وما فيها من الكنوز والدفائن.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾.

يعني الكافر الذي لا يؤمن بها أي بالبعث.

﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَنْبَارَهَا﴾.

يومئذ تخبر الأرض:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

أي: إنما تفعل ذلك بأمر الله.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَشْتَاتًا﴾: متفرقين. ﴿لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾: ليحاسبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُ﴾.

فيقاسي عناه.

سورة العاديات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة غيور لا يصلح لذكرها إلا لسان مصون، عن اللغو والغيبة، ولا يصلح لمعرفتها إلا قلب محروس عن الغفلة والغيبة^(١) ولا يصلح لمحببتها إلا روح محفوظة عن العلاقة والحجة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾.

﴿وَالْمَدْيَنَ﴾: الخيل التي تعدو^(٢).

﴿صَبَاحًا﴾ أي إذا ضَبَحْنَ ضَبْحًا، والضبح: هو صوت أجوافها إذا عَدَوْنَ. ويقال: ضَبَحَها هو شدة نفسيها عند العدو.

وقيل: ﴿وَالْمَدْيَنَ﴾؛ الإبل.

وقيل: أقسم الله بأفراس الغزاة.

﴿فَالْمُورِيَّ قَدًّا﴾.

تورى بحوافرها النار إذا عَدَتْ وأصابَتْ سَنَابِكُهَا^(٣) الحجارة بالليل.

ويقال: الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب.

ويقال: هي الأسيئة.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾.

تُغِير على العدو صباحاً.

﴿فَأَنْزَلْنَاهُنَّ نَقْعًا﴾.

أي: هَيَّجْنَ به غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا﴾.

أي: تَوَسَّطْنَ المكان، أي: تتوسط الخيل بفوارسها جَمَعَ العدو.

(١) انظر حديث القشيري عن الغيبة برسالته ص ٦٩، ٧٠.

(٢) العدو: الجري. (٣) السنابك: (ج) السنبك: طرف مقدم الحافر.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ .

هذا هو جواب القسم .

﴿لَكَنُودٌ﴾ : أي لكفور بالنعمة .

﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾ .

أي : وإنه على كنوده لشهيد .

﴿وَإِنَّكُمْ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ .

أي : وإنه لبخيل لأجل حب المال .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ .

أي : بُعث الموتى .

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ .

يُنَّ ما في القلوب من الخير والشر .

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

أفلا يعلم أن الله يجازيهم - ذلك اليوم - على ما أسلفوا، ثم قال على

الاستئناف : ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

ويقال في معنى الكنود : هو الذي يرى ما إليه من البلوى، ولا يرى ما هو به من

النعمى .

ويقال : هو الذي رأسه على وسادة النعمة، وقلبه في ميدان الغفلة .

ويقال : الكنود : الذي ينسى النعم ويعتد المصائب .

وقوله : ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾ ، يحتمل : وإن الله على حاله لشهيد .

سورة القارعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة إذا سمعها العاصون نُسُوا زَلَّتْهُمْ في جنب رحمته، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتْهم في جنب إلهيته.

كلمة مَنْ سمعها ما غادَرَتْ له شُغْلاً إِلَّا كَفَّتْهُ، ولا أمراً إِلَّا أَصْلَحَتْهُ، ولا ذنباً إِلَّا غَفَرَتْهُ، ولا أرباباً إِلَّا قَضَتْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

القارعة: اسمٌ من أسماء القيامة، وهي صيغة «فاعلة» من القَرَعَ، وهو الضرب بشدة. سُمِّيَتْ قارعة لأنها تقرعهم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

تهويلاً لها.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

أي: الْمُتَفَرِّقُ . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضاً.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

أي: كالصوف المصبوغ.

والمعنى فيه: أن أصحاب الدعاوى وأرباب القوة في الدنيا يكونون - في القيامة إذا بُعِثُوا - أضعف من كل ضعيف؛ لأن القوى هنالك تسقط، والدعاوى تَبْطُلُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

مَنْ ثَقُلَتْ موازينه بالخيرات فهو في عيشة راضية؛ أي مَرْضِيَّة.

ووزن الأعمال يومئذ يكون بوزن الصحف. ويقال: يخلق بَدَل كل جزء من أفعاله جوهراً، وتوزن الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات - وهم الكفار - فمأواه هاروة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ هَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

سؤال على جهة التهويل. ولم يَرِدْ الخبرُ بأن الأحوال توزن، ولكن يُجَاوِزُ كلُّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له، أو وَصَلَ إلى أسبابها بِكَسْبٍ منه.

سورة النكاثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تقدّسَ في آزاله عن كل مكان، ولم يَحْتَجْ في أباده إلى زمانٍ أو إلى مكان؛ لا يقطعه حدٌّ فأنتى يجوز في وَضْفِهِ المكان؟ ولا يقطعه عَدُّ فأنتى تجوز في وَضْفِهِ الزيادة والنقصان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿الْهَنَكُ الْكَافِرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

أي: شَغَلَكُم تَفَاخُرُكُمْ فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أنْ مِتُّم. ويقال: كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء، وبمن مضى من أسلافهم.

فقال لهم: شَغَلَكُم تَفَاخُرُكُمْ فيما بينكم حتى عَدَدْتُم أَمْوَاتِكُمْ مع أحيائكم. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةً الله.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

على جهة التهويل.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

أي: لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عما أنتم فيه من التكذيب.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

أراد جميع ما أعظاهم الله من النعمة، وطالبهم بالشكر عليها.

ومن النعيم الذي يُسأل عنه العبد تخفيفُ الشرائع؛ والرُّخْصُ في العبادات.

ويقال: الماء الحار في الشتاء، الماء البارد في الصيف.

ويقال: منه الصَّحَّةُ في الجسد، والفراغ.

ويقال: الرضاء بالقضاء. ويقال: القناعة في المعيشة.

ويقال: هو المصطفى ﷺ.

سورة العصر

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْمِعُ أَقْوَمَ الْكَلِمَةِ﴾.

كلمة مَنْ سَمِعَهَا لم يَدْخُرْ عنها مَالُهُ؛ لَأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ - سبحانه - يُحْسِنُ مَالَهُ، وَمَنْ عَرَفَهَا لم يُؤْثِرْ عليها نَفْسَهُ؛ لَأَنَّهُ لم يجد بدونها أَنْسَهُ.
كلمة مَنْ صَحِبَهَا لم يمنع عنها روحه؛ إِذْ وَجَدَ الحياةَ الأبدية له ممنوحة.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.
﴿العصر﴾: الدهر - أقسم به.

ويقال: أراد به صلاة العصر. ويقال: هو العشي.

﴿الْإِنْسَانُ﴾: أراد به جنس الإنسان. «والخُسْرُ»: الخسران.

والمعنى: إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه. ثم استثنى المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حق، وتواصوا بما هو حسنٌ وجميلٌ، وتواصوا بالصبر.

وفي بعض التفاسير: قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ يعني أبا بكر، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يعني عمر.

و ﴿تواصوا بالحق﴾ يعني عثمان، و ﴿تواصوا بالصبر﴾ يعني علياً - رضي الله عنهم أجمعين.

والخسران الذي يلحق الإنسان على قسمين: في الأعمال ويتبين ذلك في المال، وفي الأحوال ويتبين ذلك في الوقت والحال؛ وهو القبضُ بعد البسط، والحاجة بعد القربة، والرجوعُ إلى الرخص بعد إيثار الأشتى والأولى.

﴿وتواصوا بالحق﴾: وهو الإيثارُ مع الخلق، والصدقُ مع الحق.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: على العافية... فلا صبرَ أتم منه.

ويقال: بالصبر مع الله.. وهو أشدُّ أقسام الصبر^(١).

(١) انظر حديث القشيري عن الصبر برسالته ص ١٨٣ - ١٨٩.

سورة الهمزة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ مَنْ لا غَرْضَ له في أفعاله، اسمٌ من لا عِوَضَ عنه في جلاله وجماله. اسمٌ مَنْ لا يصِيرُ العبدُ عن مختاراً، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ الفقير من دونه قَراراً، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِهِ فراراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

يقال: رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ: أي كثيرُ الهمزِ واللُّمَزِ للناس وهو العيب والغيبة.
ويقال: الهمزة الذي يقول في الوجه، واللُّمزة الذي يقول مِنْ خَلْفِهِ.
ويقال: الهمزُ الإشارةُ بالرأس والجفن وغيره، واللُّمزُ باللسان.
ويقال: الهمزة الذي يقول ما في الإنسان، واللُّمزة الذي يقول ما ليس فيه.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

«جمع» بالتشديد على التكثير، وبالتخفيف.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

أي: يَتَّقِيهِ في الدنيا.. كلاً ليس كذلك:

﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ﴾.

لِيُطْرَحَنَّ في جهنم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ؟﴾ على جهة التهويل لها.

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ ألمها الفؤاد.

﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾.

مُطَبَقَةٌ.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾.

«عمد»: جمع عماد. وقيل: إنها عُمْدٌ من نارٍ مُمَدَّدَةٌ وتُضْرَبُ عليهم؛ كقوله:

﴿أَحَاطَ بِهُمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقال: الغنى بغير الله فقر، والأنس بغيره وخشة، والعز بغيره ذل.
 ويقال: الفقير من استغنى بماله، والحقير: من استغنى بجاهه، والمفلس: من استغنى بطاعته، والذليل: من استغنى بغير الله، والجليل: من استغنى بالله.
 ويقال: بين أن المعرفة إذا اتقدت في قلب المؤمن أحرقت كل سؤل وأرب فيه، ولذلك تقول جهنهم - غداً - للمؤمن: «جز، يا مؤمن..» فإن نورك قد أطفأ لهبي!!

سورة الفيل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ غنيٌّ من أطاعةٍ أغناه، ومن خالفه أضلّه وأعماه.

اسمٌ عزيزٌ من وافقه رفاه إلى الرتبة العليا، ومن خالفه ألقاه في المحنة الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

أَلَمْ يَنْتِه إِلَيْكَ فيما أنزل عليك عِلْمٌ ما فَعَلَ رَبُّكَ بأصحاب الفيل؟

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص اللّه البيت العتيق^(١) بالحفظ والكلاءة^(٢). وذلك: أَنَّ أبرهة^(٣) - مَلِكُ اليمن - كان نصرانياً، وبنى بيعةً لهم بصنعاء، وأراد هَدمَ الكعبة ليصرف الحجَّ إلى بيعتهم.

وقيل: نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشي، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم، ثم تغافلوا عنها ولم يُطْفِئوها، فهبَّت الرِّيحُ وحَمَلَتْ النَّارَ إلى الكنيسة وأحرقتها، فَقَصَدَ أبرهةُ الكعبةَ لينهدمها بجيشه.

فلَمَّا قَرَّبَ من مكة أصاب مائتي جَمَلٍ لعبد المطلب، فلَمَّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم، فَعَرَفَهُ رجلان، فقالا له:

ارجع.. فَإِنَّ الْمَلِكَ غَضَبَان.

فقال: واللاتِ والعزى لا أَرْجِعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

فقيل: لأبرهة: هذا سَيِّدُ قريشِ ببابِكَ؛ فَأَذِنَ له، وسأله عن حاجته؛ فأجاب

أبرهة: إنها لك غداً، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت.

فعاد عبد المطلب إلى قريش، وأخبرهم بما حدث، ثم قام وأخذ بحلقه باب

الكعبة، وهو يقول:

(١) البيت العتيق: الكعبة.

(٢) الكلاءة: الحراسة والحفظ.

(٣) هو أبرهة بن الصباح من ملوك اليمن في الجاهلية، حبشي لا صلة له بالعرب، ذكر ابن الأثير - في

خبر الفيل - أنه حين تكلم مع عبد المطلب كان بينهما ترجمان.

الأعلام ٨٢/١.

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمُ نَعُ زَخْلَهُ فَاَمْنَعُ حَلَالِكَ
لَا يَسْغَلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ عَذْوًا مِحَالِكَ
إِنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرَا مَ فَأَمْرٌ مَا بَدَالِكَ
فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَخْضَرَ مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ طَوَالَ الْأَعْنَاقِ، فِي مَنَاقِرِ كُلِّ طَائِفٍ حَجَرٌ وَفِي مَخْلَبِهِ حِجْرَانٌ.

قيل: الحَجَرَةُ منها فوق العَدَسِ دون الحمص.
وقيل: فوق الحمص دون الفستق، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها.
وقيل: مُخَطَّطَةٌ بالسَّوَادِ. فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ، وَمَاتُوا كُلُّهُمْ.
وقيل: كَانَ الْفِيلُ ثَمَانِيَةً؛ وَقِيلَ: كَانَ فَيْلًا وَاحِدًا.
وفي رواية: إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ مَوْلَدِهِ ﷺ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً.
وقيل: بِثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ سَنَةً. وفي رواية «وُلِدْتُ عَامَ الْفِيلِ»^(١).
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ﴾.

أَي: مَكْرَهُمْ فِي إِبْطَالِ.
﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.
﴿أَبَابِيلَ﴾: مَجْمَعَةٌ وَمَتَفَرِّقَةٌ.
﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾.
قيل بالفارسية: سَنَگَلْ أَوْ گَلْ - أَي طِينٌ طَبَخَ بِالنَّارِ كَالْأَجْرِ.
﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُوِلٍ﴾.
﴿كَعَصِفٍ﴾: كَأَطْرَافِ الزَّرْعِ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ. «مَأْكُولٌ» أَي ثَمَرُهُ مَأْكُولٌ.

ويقال: إِذَا كَانَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ - وَهُوَ كَافِرٌ - أَخْلَصَ فِي التَّجَانُّهِ إِلَى اللَّهِ فِي اسْتِدْفَاعِ الْبَلَاءِ عَنِ الْبَيْتِ - فَاللَّهُ لَمْ يُخَيِّبْ رَجَاءَهُ...، وَسَمِعَ دُعَاءَهُ... فَالْمُؤْمِنُ الْمَخْلُصُ إِذَا دَعَا رَبَّهُ لَا يَرُدُّهُ خَائِبًا.
ويقال: إِنَّمَا أُجِيبَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا لِأَجْلِ الْبَيْتِ... وَمَا كَانَ اللَّهُ لَا يَضِيعُ.

(١) أخرجه الترمذي (مناقب، ٢)، وأحمد بن حنبل ٢١٥/٤.

سورة قريش

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم»: الباء في «بسم» تشير إلى براءة سير الموحدين عن حسابان الجدثان^(١)، وعن كل شيء مما لم يكن فكان، وتشير إلى الانقطاع إلى الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء.

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب.

والميم تشير إلى مئة الله عليهم بالتوفيق لما تحققوا به من معرفته، وتخلقوا به من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ لَإِلَهِهِمْ رَحِلَةٌ الْبَيْتِ وَالصَّيْفِ﴾.

«الإيلاف»: مصدر آلف، إذا جعلته يألف.. وهو آلف إنفاً.

والمعنى: جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، أي ليألفوا رحلتهم في الشتاء والصيف.

وكانت لهم رحلتان للامتيار^(٢): رحلة إلى الشام في القيظ^(٣)، ورحلة إلى اليمن في الشتاء والمعنى: أنعم الله عليهم بإهلاك عدوهم ليؤلفهم رحلتهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كأنه أعظم الجئة عليهم وأمرهم بالعبادة:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾.

فليعبدوه لما أنعم به عليهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسول ﷺ^(٤).

(١) الجدثان: حدثان الأمر والشباب: أوله وابتدأه.

(٢) امتار لأمله: تطلب لهم الميرة، أتاهاهم بالميرة وهي الطعام من الحب والقوت.

(٣) القيظ: شدة الحر أو صميم الصيف.

(٤) قال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/٢٣، ٨/٥٥ =

﴿وَأَمَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ .

حين جعلَ الحرَمَ آمناً، وأجازهم من عدوهم .

ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

وَوَجْهِ الْمِنَّةِ فِي الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله ؛ فَإِنَّ مَنْ لم يكن مكفياً الأمور لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعدُه القوة ولا القلبُ - إلا عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة : ١٥٥] فقدَّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

= (١٠٤) ، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢/١٩٨) ، وابن كثير في (التفسير ٢/٣٤٤) والقرطبي في (التفسير ٣/٢٦٤ ، ٧/٢٦٣ ، ٢٠/٢٠٩) ، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥٨٠ ، ١١/١٩٤) .

سورة الدين

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها غذاء أرواح المحبين، ضياء أسرار الواصلين، شفاء قلوب المؤمنين؛ بلاء مهبج المساكين، دواء كل فقير مسكين.

قوله جل ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾.

نزلت الآية على جهة التوبيخ، والتعجب من شأن تظلم اليتيم من الكفار.
فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾، وبالحساب والجزاء؟

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَيْتِيْمَ﴾.

يدفعه بجفوة، ويقال: يدفعه عن حقه.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾.

أي: لا يحث على إطعام المسكين، وإنما يدع اليتيم؛ لأن الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبه «ولا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي»^(١).

وهو لا يحث على طعام المسكين، لأنه في شح نفسه وأمر بخله.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ

يُرَآهُمْ﴾.

الساهي عن الصلاة الذي لا يصلي. ولم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون.. ولو قال ذلك لكان الأمر عظيمًا.

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٢٣)، وأبو داود في (السنن ٤٩٤٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣١٠/٢، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٣/٢)، والبخاري في (الأدب المفرد ٣٧٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٩/٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٦٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٠٣/٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٧٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٧٨/١١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٨٣/٧)، والمجلوني في (كشف الخفا ٥٢٧/٢).

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاكَوْنَ﴾: أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس - لا إخلاص لهم.
﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

الماعون: مثل الماء، والنار، والكلا، والفأس، والقِذْر وغير ذلك من آلة البيت.
ويدخل في هذا: البخل، والشُّح بما ينفع الخلق مما هو مُمكنٌ ومُسْتَطاع.

سورة الكوثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجلّ هو إلا باستحقاقِ عُلُوّه في آزاله.

اسمٌ عزيزٌ أعزّ مَنْ شاءَ بأفضاله وإقباله؛ وأذلّ أعداءه بسلاسله وأغلاله، والتخليدُ في جحيمه وأنكاله.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾.

﴿الْكَوْثَرَ﴾: أي الخبر الكثير. ويقال: هو نهرٌ في الجنة.

ويقال: النبوة والكتاب. وقيل: تخفيف الشريعة.

ويقال: كثرة أمته.

ويقال: الأصحاب والأشياء. ويقال: نورٌ في قلبه.

ويقال: معرفته بربوبيته.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾.

أي صلّ صلاة العيد ﴿وَأَنْحَرْ﴾ التَّسْكُ.

ويقال: جمع له في الأمر بين: العبادة البدنية، والمالية.

ويقال «وانحر» أي استقبل القبلة بنحرك. أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك.

ويقال: ضغ يمينك على يسارك في الصلاة واجعلها تحت نحرك.

﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

أي: لا يُذكرُ بخيرٍ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير.

سورة الكافرون

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذَ الْنَّاسُ نِسْجًا﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ آمَنَ بها آمِنَ مِنْ زوال النعمى، وَحَظِّيَ بنعيم الدنيا والعُقبى، وَسَعِدَ سعادة لا يَشْقَى، وَوَجَدَ مُلكاً لا يَفْنَى، وَبَقِيَ في العزِّ والعُلَى.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

من أصنامكم:

﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

«ما» أعبد أي «من» أعبد.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾.

في زمانكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

أي: لكم جزاؤكم على دينكم، ولي الجزاء على ديني.

والعبودية^(١) القيام بأمره على الوجه الذي به أَمَرَ، وبالقَدَر الذي به أَمَرَ، وفي الوقت الذي فيه أَمَرَ.

(١) القشيري هنا يشير إلى العبودية لكن الآيات تتحدث عن العبادة لكن هناك صلة وثيقة بينهما وبين العبادة وهذا يتضح من خلال حديث القشيري بالرسالة عن العبودية قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص وسمعت يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له حق عين اليقين، والعبودة لمن حق اليقين وسمعت يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابذات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يضل عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة. (الرسالة القشيرية ص ١٩٧، ١٩٨).

ويقال: صِدْقُ العبودية في تَرْكِ الاختيار، ويظهر ذلك في السكون تحت
تصاريف الأقدار من غير انكسار.
ويقال: العبودية انتفاء الكراهية بكل وجه من القلب كيفما صَرَّفَكَ مولاك.

سورة النصر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم كريم يُنصَرُ وَيُسْتَرُ، وَيَغْلَمُ وَيَخْلُمُ، ويمدح ولا يَفْضَحُ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبد ويصفح؛ يَغْضَى العبدُ على التوالي، وَيَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبالي.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

النصرُ الظَّفَرُ بالعدو، و﴿الفتح﴾ فتح مكة.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

يُسْلِمُونَ جماعاتٍ جماعاتٍ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾.

أَكْثِرْ حَمْدَ رَبِّكَ، وصلِّ له، وَقَدِّسه.

ويقال: صَلِّ شكراً لهذه النعمة.

﴿وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ وسلِّ مغفرته.

﴿إِنَّمَا كَانَ تَوَّابًا﴾.

لِمَنْ تاب؛ فإنه يقبل توبته.

ويقال: نصره الله - سبحانه - له بأن أفناه عن نَفْسِهِ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية، وصفَّاه من الكدورات النفسانية. وأما «الفتح»: فهو أن رَقَّاه إلى محلِّ الدنو، واستخلصه بخصائص الزلفة، وألبسه لباسَ الجمع، واصطلمه عنه، وكان له عنه، ولنَفْسِهِ - سبحانه - منه، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ، وعَرَفَه - من كمال معرفته به - ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشاً إليه.

سورة المسد

قوله جل ذكره: ﴿يَسِّرْ أَقْرَبَ الْغَنَىٰ وَالْفَيْسِ﴾.

«بسم الله» كلمة جَبَّارة للمذنبين، تجبر أعمالهم، وتحقق آمالهم، وهي للعارفين تُصَغِّرُ في أعينهم أحوالهم، وتُكَمِّلُ - عن شواهدهم - امتحاءهم واستئصالهم، وتحقق لهم - بعد فناءهم عنهم - وصالهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أي: خَسِرَتْ يداه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

ما أغنى عنه ماله ولا كسبه الخبيث - شيئاً.

وقيل: ﴿ما كسب﴾: وَلَدَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

يلزمها إذا دخلها؛ فلا براح له منها. وامراته أيضاً ستصلى النار معه.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

«مَسَدٌ» شيء مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريق رسول الله عليه

الصلاة والسلام.

ويقال: سُخِّقاً لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قُدْرَكَ - يا محمد. وَبُعْدًا لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا

خَصَصْنَاكَ بِهِ مِنْ رَّفْعِ مَحَلِّكَ، وإكبار شأنك. . . وَمَنْ نَاصَبَكَ كَيْفَ يَنْفَعُهُ مَالُهُ؟ والذي

أَقْمِنَاهُ لِأَجْلِكَ وَقَدْ (أَسَاءَ) ^(١) أَعْمَالَهُ. . . فَإِنَّ إِلَى الْهُوَانِ وَالْخِزْيِ مَالَهُ، وَإِنَّ عَلَى أَقْبَحِ

حَالٍ حَالِ امْرَأَتِهِ وَحَالِهِ.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيه السياق.

سورة الإخلاص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة عزَّ لسانَ ذَكَرَها، وأَعَزُّ منه قلبَ عَرَفَها، وأَعَزُّ من هذا رُوحَ أَحَبَّها، وأَعَزُّ من هذا سِرُّ شَهِدَها.
ليس كُلُّ مَنْ قَصَدَها وَجَدَها، ولا كُلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها.
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

لَمَّا قال المشركون: أَنَسِبَ لَنَا رَبُّكَ. أَنزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾
فمَعْنَى «هُوَ» أَي: الَّذِي سَأَلْتُمْ عَنْهُ «هُوَ» اللهُ. وَمَعْنَى «أَحَدٌ» أَي: هُوَ أَحَدٌ.
وَيَقَالُ: «هُوَ» مُبْتَدَأُ، «وَاللهُ» خَبَرُهُ وَ«أَحَدٌ» خَبَرُ ثَانٍ كَقَوْلِهِمْ: هَذَا حَلَوٌ حَامِضٌ.
﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

﴿الصَّمَدُ﴾: السَّيِّدُ الَّذِي يُضَمَّدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، وَيُقَصَّدُ إِلَيْهِ فِي الْمَطَالِبِ.
وَيَقَالُ: الْكَامِلُ فِي اسْتِحْقَاقِ صِفَاتِ الْمَدْحِ.
وَيَرْجِعُ تَحْقِيقُ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ إِلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا... (١)

﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ﴾.

ليس بوالدٍ ولا مولود.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

تقديره لم يكن أحدٌ كفواً له.

و«أحد» أصله وَخَدٌ، وَوَحْدٌ، وَوَاحِدٌ بِمَعْنَى، وَكَوْنُهُ وَاحِدًا: أَنَّهُ لَا قَسِيمَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ.

وَيَقَالُ: السُّورَةُ بَعْضُهَا تَفْسِيرٌ لِبَعْضٍ؛ مَنْ هُوَ اللهُ؟ هُوَ اللهُ. مَنْ اللهُ؟ الْوَاحِدُ، مَنْ الْوَاحِدُ؟ الصَّمَدُ، مَنْ الصَّمَدُ؟ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، مَنْ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؟ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

(١) بياض في الأصل.

ويقال: كاشَفَ الأسرارَ بقوله: «هو». وكاشَفَ الأرواحَ بقوله: «الله» وكاشَفَ القلوبَ بقوله: «أحد». وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة.

ويقال: كاشَفَ الوالهيين بقوله: «هو»، والموحدِين بقوله: «الله» والعارفين بقوله: «أحد» والعلماء بقوله: «الصمد»، والعقلاء بقوله: «لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَكِدْ».. إلى آخره.

ويقال: لَمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أَمَرَ نَبِيَّنَا بِأَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. أي دُبَّ عني ما قالوا، فانت أولى بذلك. وحينما بسطوا لسانَ الذمِّ في النبي ﷺ تولى الحقُّ الردَّ عليهم، فقال: ﴿تَوَّابٌ وَأَلْفَ لَيْلٍ وَمَا يَشْكُرُونَ مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٌ فِي هَٰؤُلَاءِ﴾ [القلم: ١، ٢] وقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] أي أنا أذبُّ عنك؛ فأنا أولى بذلك منك.

ويقال: خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله: «هو» فاستقلوا، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال: «الله»، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم. فقال: «أحد» ثم لمن نزل عنهم فقال: «الصمد».

ويقال: الصمدُ الذي ليس عند الخلقِ منه إلا الاسم والصفة.

ويقال: الصمدُ الذي تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهِمْ له، وعن إشرافِ معارفهم عليه.

ويقال: تقدَّس بصمديته عن وقوف المعارف عليه.

ويقال: تنزَّه عن وقوف العقول عليه.

سورة الفلق

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا تجلّى لقلبٍ فإن لاطفَهُ بجماله أحياء، وإن كاشفَهُ بجلاله أباده وأفناه؛ فالعبدُ في حالتي: بقاءٍ وفناءٍ، ومحورٍ وإثباتٍ، وَجِدٍ وفَقْدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

أي امتنع واعتصم برَبِّ الْفَلَقِ. والفلقُ الصُّبْحُ.

ويقال: هو الْخَلْقُ كُلُّهُمْ وقيل الْفَلَقُ وادٍ في جهنم.

﴿وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي من الشرور كلها.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

قيل: الليلُ إِذَا دَخَلَ. وفي خبر، أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ عَائِشَةَ وَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ فَقَالَ:

«يَا عَائِشَةُ، تَعُوذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّهُ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»^(١).

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وهن السواحر اللواتي ينفخن في عُقَدِ الْخِيَطِ (عند الرُّقِيَةِ)^(٢) ويوهمنُ إدخالَ الضررِ بذلك.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وَالْحَسَدُ شَرُّ الْأَخْلَاقِ.

وفي السورة تعليمٌ استدفاع الشرور من الله. وَمَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي صَحَّ تَحَقُّقُهُ بِاللَّهِ، فَإِذَا تَوَكَّلَ لَمْ يُؤَفِّقْهُ اللَّهُ لِلتَّوَكُّلِ إِلَّا وَالْمَعْلُومُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَكْفِيهِ مَا تَوَكَّلَ بِهِ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى دَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ - فَإِنْ أَخَذَ فِي التَّحَرُّزِ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَخَوَلَهُ وَقُوَّتُهُ، وَفَهَّمَهُ وَبَصِيرَتُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ اسْتِرَاحَ مِنْ تَعَبِ تَرُدُّدِ الْقَلْبِ فِي التَّدْبِيرِ، وَعَنْ قَرِيبٍ يُرْفَى إِلَى حَالَةِ الرِّضَا. كُفِّي مُرَادَهُ أَمْ لَا. وَعِنْدَ ذَلِكَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ، فَهُوَ بظَاهِرِهِ لَا يَفْتَرُ عَنِ الْإِسْتِعَاذَةِ، وَيَقْلِبُهُ لَا يَخْلُو مِنَ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٠٦/٦)، والطبري في (التفسير ٢٢٧/٣٠).

(٢) الرقية: كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه (ج) رُقِيَ.

سورة الناس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله الذي قصرت عنه العقول فوقفت، وعجزت العلوم فتحيرت، وتقاصرت المعارف فخرجت، وانقطعت الفهوم فدهشت... وهو بنعت علائمه ووصف سنائه وبهائه وعز كبريائه يُعلم ولكن الإحاطة في العلم به مُحال، ويُرى ولكن الإدراك في وصفه مستحيل، ويُعرف ولكن الإشراف في نعته غير صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

اعتصم برّب الناس خالقهم وسيدهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

أي مالِكهم جميعهم.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾.

القادر على إيجادهم.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَّاسِ﴾.

من حديث النفس بما هو كالصوت الخفي.

ويقال: مِنْ شَرِّ ذي الوسواس.

ويقال: مِنْ شَرِّ الوسوسة التي تكون بين الجنّة والناس.

«والخنّاس» الذي يغيب ويخنس عن ذكر الله. وهو من أوصاف الشيطان.

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

قيل: «الناس» يقع لفظها على الجن والإنس جميعاً - كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فسماهم نفراً، وكما قال:

﴿يُودُونَ بِهَآءِ مِنَّا وَلَآئِن لَّمْ يَآئِمْ لَّآ يَنَالِكُم مِّنَّا شَيْءٌ﴾ [الجن: ٦] فسماهم رجالاً... فعلى هذا استعاذ من

الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، والشيطان الذي له تسلط على الناس كالوسواس؛ فللنفس من قبلي العبد هواجس، وهواجس النفس ووساوس الشيطان يتقاربان؛ إذ إن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة في الدين أو

إلى ارتكاب المعصية، أو إلى الخصال الذميمة - فهو نتيجة الوسواس والهواجس .

وبالعلم يُمَيِّزُ بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوسواس^(١) .
(ومما تجب معرفته)^(٢) أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإن خالفته يَدْعُ ذلك
(ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . .)^(٣) غير
مختلفة .

تم الكتاب بعونه تعالى

(١) قال القشيري عند حديثه عن الخواطر بالرسالة: والخواطر خطابات ترد على الضمائر، وقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاءه في القلب فهو خاطر حق وجملة ذلك من قبيل الكلام، فإذا كان من الملك فإنما يُعلم صدقة بموافقة العلم. (الرسالة القشيرية ص ٨٣، ٨٤).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) يياض في الأصل.

فهرس المحتويات

تفسير الآيات : ٢٤ - ٢٩ ٢٩

تفسير الآية : ٣٠ ٣٠

سورة الأحزاب

تفسير الآيات : ١ - ٣ ٣١

تفسير الآيات : ٤ - ٦ ٣٢

تفسير الآيتين : ٧ و ٨ ٣٣

تفسير الآيات : ٩ - ١٣ ٣٤

تفسير الآيات : ١٥ - ١٩ ٣٥

تفسير الآيات : ٢٠ - ٢٣ ٣٦

تفسير الآيات : ٢٤ - ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ ٣٧

تفسير الآيات : ٣٠ - ٣٥ ٣٨

تفسير الآية : ٣٦ ٣٩

تفسير الآيات : ٣٧ - ٤٠ ٤٠

تفسير الآيات : ٤١ - ٤٤ ٤١

تفسير الآيات : ٤٥ - ٥٠ ٤٢

تفسير الآيات : ٥١ - ٥٣ ٤٣

تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٩ ٤٤

تفسير الآيات : ٦٠ - ٦٢ و ٦٩ و ٧١ ٤٥

تفسير الآية : ٧٢ ٤٦

تفسير الآية : ٧٣ ٤٧

سورة سبا

تفسير الآيات : ١ - ٣ ٤٨

تفسير الآيات : ٤ و ١٠ و ١١ ٤٩

تفسير الآيتين : ١٢ و ١٣ ٥٠

تفسير الآيتين : ١٤ و ١٥ ٥١

تفسير الآيات : ١٦ - ١٩ ٥٢

تفسير الآيات : ٢١ و ٢٤ - ٢٦ ٥٣

تفسير الآيات : ٢٧ - ٣١ ٥٤

تفسير الآيات : ٣٤ و ٣٥ و ٣٧ - ٤٠ ٥٥

سورة الروم

تفسير الآيات : ١ - ٥ ٣

تفسير الآيات : ٦ - ٩ ٤

تفسير الآيات : ١٠ - ١٨ ٥

تفسير الآيات : ١٩ - ٢٢ ٦

تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٧ ٧

تفسير الآيات : ٢٨ - ٣٠ ٨

تفسير الآيات : ٣١ - ٣٤ ٩

تفسير الآيات : ٣٥ - ٣٩ ١٠

تفسير الآية : ٤٠ ١١

تفسير الآيات : ٤١ - ٤٣ و ٤٦ ١٢

تفسير الآيات : ٤٧ و ٤٨ و ٥٠ ١٣

تفسير الآيات : ٥١ - ٥٥ ١٤

تفسير الآية : ٦٠ ١٥

سورة لقمان

تفسير الآيات : ١ - ٥ ١٦

تفسير الآيات : ٦ - ١١ ١٧

تفسير الآيات : ١٢ - ١٥ ١٨

تفسير الآيات : ١٦ - ١٩ ١٩

تفسير الآيات : ٢٠ - ٢٢ ٢٠

تفسير الآيات : ٢٣ و ٢٦ و ٢٨ و ٣٠ و ٣١ .. ٢١

تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٤ ٢٢

سورة السجدة

تفسير الآيات : ١ - ٤ ٢٣

تفسير الآيات : ٥ - ١٠ ٢٤

تفسير الآيات : ١١ - ١٤ ٢٥

تفسير الآيتين : ١٥ و ١٦ ٢٦

تفسير الآيتين : ١٧ و ١٨ ٢٧

تفسير الآيات : ١٩ و ٢١ - ٢٣ ٢٨

تفسير الآيات: ٤٢-٤٤ ٥٦	تفسير الآيات: ٣٦-٤٧ ٨٩
تفسير الآيات: ٤٦ و ٤٨-٥٢ ٥٧	تفسير الآيات: ٤٨-٥٠ و ٥٦ و ٥٧ ٩٠
تفسير الآية: ٥٤ ٥٨	و ٦٠-٦٢ و ٧٥ و ٧٦ ٩٠

سورة فاطر

تفسير الآيتين: ١ و ٢ ٥٩	و ٨٧-٨٩ ٩١
تفسير الآيات: ٣-٥ ٦٠	تفسير الآيات: ٩٧-١٠٢ ٩٢
تفسير الآيات: ٦-٨ ٦١	تفسير الآيات: ١٠٣-١٠٥ و ١١٤ ٩٤
تفسير الآيتين: ٩ و ١٠ ٦٢	و ١١٧-١٢٠ و ١٢٣ ٩٤
تفسير الآيتين: ١١ و ١٢ ٦٣	تفسير الآيات: ١٣٣ و ١٣٩ و ١٤٢-١٤٦ ٩٥
تفسير الآيات: ١٣-١٥ ٦٤	تفسير الآيات: ١٤٩ و ١٦١ و ١٦٤ ٩٥
تفسير الآيات: ١٦-٢٤ ٦٦	و ١٧١-١٧٦ ٩٦
تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧ و ٢٩ ٦٧	تفسير الآيات: ١٨٠-١٨٢ ٩٧
تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٢ ٦٨	
تفسير الآيات: ٣٣-٣٧ ٧١	
تفسير الآيات: ٣٨-٤١ ٧٢	
تفسير الآيات: ٤٢-٤٥ ٧٣	

سورة يس

تفسير الآيات: ١-٩ ٧٤	تفسير الآيات: ١-٦ ٩٨
تفسير الآيات: ١٠-١٣ ٧٥	تفسير الآيات: ٧-٩ و ١٢ و ١٤-١٦ ٩٩
تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ١٨-٢١ ٧٦	تفسير الآيات: ١٧-٢٠ ١٠٠
و ٢٦-٣٠ ٧٦	تفسير الآية: ٢١ ١٠١
تفسير الآيات: ٣١-٣٣ و ٣٦ ٧٧	تفسير الآيات: ٢٢-٢٥ ١٠٢
تفسير الآيات: ٣٧-٤٠ ٧٨	تفسير الآيات: ٢٦ و ٢٧ و ٢٩-٣١ ١٠٣
تفسير الآيات: ٤١-٤٥ و ٤٧ ٧٩	تفسير الآيات: ٣٢-٣٤ ١٠٤
تفسير الآيات: ٤٩-٥٢ و ٥٤ و ٥٥ ٨٠	تفسير الآيات: ٣٥-٣٩ ١٠٥
تفسير الآيتين: ٥٦ و ٥٧ ٨١	تفسير الآيات: ٤١ و ٤٢ و ٤٤ ١٠٦
تفسير الآيات: ٥٨-٦١ و ٦٥ ٨٢	تفسير الآيات: ٤٥-٥٠ ١٠٧
تفسير الآيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧١-٧٣ ٨٣	تفسير الآيات: ٥٥ و ٥٧ و ٥٩ و ٦١ ١٠٧
تفسير الآيات: ٧٤-٨٠ ٨٤	و ٦٢ و ٦٤-٦٦ ١٠٨
تفسير الآيتين: ٨٢ و ٨٣ ٨٥	تفسير الآيات: ٦٧-٧٢ ١٠٩

سورة الصافات

تفسير الآيات: ١-٥ ٨٦	تفسير الآيات: ١-٣ ١١١
تفسير الآيات: ٦ و ٧ و ١٠-١٣ و ١٦-١٩ ٨٧	تفسير الآيتين: ٤ و ٥ ١١٢
تفسير الآيات: ٢٠-٢٧ و ٣٣-٣٥ ٨٨	تفسير الآيتين: ٦ و ٧ ١١٣

سورة الزمر

تفسير الآيات: ٢٦-٣٠	١٤٨
تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٢	١٥٠
تفسير الآيتين: ٣٣ و ٣٤	١٥١
تفسير الآيات: ٣٥-٣٧	١٥٢
تفسير الآيات: ٣٨-٤٠	١٥٣
تفسير الآيات: ٤١-٤٤	١٥٤
تفسير الآيات: ٤٥-٤٩	١٥٥
تفسير الآيات: ٥٠-٥٤	١٥٦

سورة الشورى

تفسير الآيات: ١-٥	١٥٨
تفسير الآيات: ٦-٨	١٥٩
تفسير الآيتين: ١٠ و ١١	١٦٠
تفسير الآيات: ١٢-١٥	١٦١
تفسير الآيات: ١٦-١٩	١٦٢
تفسير الآيتين: ٢٠ و ٢١	١٦٣
تفسير الآيتين: ٢٢ و ٢٣	١٦٤
تفسير الآيات: ٢٤-٢٦	١٦٥
تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨	١٦٦
تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠	١٦٧
تفسير الآيات: ٣٢ و ٣٦-٣٩	١٦٨
تفسير الآيات: ٤٠-٤٤ و ٤٧	١٦٩
تفسير الآيات: ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٥٢	١٧٠
تفسير الآية: ٥٣	١٧١

سورة الزخرف

تفسير الآيات: ١-٧	١٧٢
تفسير الآيات: ٨-١٣	١٧٣
تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ٢٠-٢٤	١٧٤
تفسير الآيات: ٢٦ و ٢٩ و ٣٢	١٧٥
تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٦ و ٣٨	١٧٦
تفسير الآيات: ٣٩-٤٧	١٧٧
تفسير الآيات: ٥١ و ٥٢ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٧	١٧٨
تفسير الآيات: ٥٨-٦٣	١٧٩
تفسير الآيات: ٦٧-٧١	١٨٠
تفسير الآيات: ٧٢-٧٨	١٨١

تفسير الآيات: ١٩-٢٢	١١٧
تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤	١١٨
تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧ و ٣١	١١٩
تفسير الآيات: ٣٢-٣٤	١٢٠
تفسير الآيات: ٣٥ و ٣٦ و ٣٨-٤١	١٢١
تفسير الآيات: ٤٢ و ٤٣ و ٤٥	١٢٢
تفسير الآيات: ٤٥-٤٩ و ٥٢	١٢٣
تفسير الآيتين: ٥٣ و ٥٤	١٢٤
تفسير الآيات: ٥٦-٦١	١٢٥
تفسير الآيات: ٦٢-٦٥ و ٦٧ و ٦٨	١٢٦
تفسير الآيات: ٦٩-٧١ و ٧٣	١٢٧
تفسير الآيتين: ٧٤ و ٧٥	١٢٨

سورة غافر (سورة المؤمن)

تفسير الآيات: ١-٣	١٢٩
تفسير الآيات: ٤-١٣	١٣١
تفسير الآيتين: ١٤ و ١٥	١٣٢
تفسير الآيات: ١٦-١٨	١٣٣
تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠	١٣٤
تفسير الآيات: ٢١-٢٤	١٣٥
تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ و ٣٤	
٣٦ و ٣٧	١٣٦
تفسير الآيات: ٣٨-٤٣	١٣٧
تفسير الآيات: ٤٤-٥١	١٣٨
تفسير الآيات: ٥٢-٥٦	١٣٩
تفسير الآيات: ٥٧-٦٠	١٤٠
تفسير الآيات: ٦١ و ٦٢ و ٦٤	١٤١
تفسير الآيات: ٦٥-٦٧ و ٦٩ و ٧١	
٧٢ و ٧٧	١٤٢
تفسير الآيات: ٧٨-٨٢	١٤٣

سورة فصلت

تفسير الآيات: ١-٧	١٤٤
تفسير الآيات: ٨-١١	١٤٥
تفسير الآيات: ١٢-١٨	١٤٦
تفسير الآيات: ١٩-٢٥	١٤٧

٢١٣	تفسير الآيتين: ١٦ و ١٧
٢١٤	تفسير الآيتين: ١٨ و ٢٠
٢١٥	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤
٢١٦	تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦
٢١٧	تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨
٢١٨	تفسير الآية: ٢٩

سورة الحجرات

٢١٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٢٢٠	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٢٢١	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٢٢٢	تفسير الآيتين: ١١ و ١٢
٢٢٣	تفسير الآيات: ١٣ - ١٥
٢٢٤	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨

سورة ق

٢٢٥	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٢٦	تفسير الآيات: ٥ - ١٠
٢٢٧	تفسير الآيات: ١١ - ١٦ و ١٩
٢٢٨	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٧
٢٢٩	تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٢
٢٣٠	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦
٢٣١	تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩
٢٣٢	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٥

سورة الذاريات

٢٣٣	تفسير الآيات: ١ - ٦
٢٣٤	تفسير الآيات: ٧ - ١٤
٢٣٥	تفسير الآيات: ١٥ - ١٨
٢٣٦	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢
٢٣٧	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
٢٣٨	تفسير الآيات: ٢٥ - ٣٧
٢٣٩	تفسير الآيات: ٣٨ و ٤٧ - ٥٥
٢٤٠	تفسير الآيات: ٥٦ - ٦٠

سورة الطور

٢٤١	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٤٢	تفسير الآيات: ٥ - ١٨

١٨٢	تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٦
١٨٣	تفسير الآيات: ٨٧ - ٨٩

سورة الذخان

١٨٤	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٨٥	تفسير الآيات: ٧ - ١٢
١٨٦	تفسير الآيات: ١٣ و ١٥ - ١٨ و ٢٣ - ٢٩
١٨٧	تفسير الآيات: ٣٠ - ٤٢
١٨٨	تفسير الآيات: ٤٣ - ٥٢ و ٥٤ و ٥٦ و ٥٨

سورة الجاثية

١٨٩	تفسير الآيات: ١ - ٥
١٩٠	تفسير الآيات: ٦ - ١٠ و ١٢
١٩١	تفسير الآيات: ١٣ - ١٦ و ١٨
١٩٢	تفسير الآيات: ١٩ - ٢١ و ٢٣ و ٢٤
١٩٣	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٨ و ٣٦ و ٣٧

سورة الأحقاف

١٩٤	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٩٥	تفسير الآيات: ٧ - ٩ و ١١ و ١٣
١٩٦	تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ٢٠
١٩٧	تفسير الآيات: ٢١ و ٢٩ و ٣١
١٩٨	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥

سورة محمد ﷺ

١٩٩	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٠٠	تفسير الآيات: ٥ - ١١
٢٠١	تفسير الآيات: ١٢ - ١٤
٢٠٢	تفسير الآيات: ١٥ - ١٩
٢٠٤	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٤
٢٠٥	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٩ - ٣٢
٢٠٦	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٥ - ٣٨

سورة الفتح

٢٠٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٠٩	تفسير الآيات: ٣ - ٥
٢١٠	تفسير الآيات: ٦ و ٨ و ٩
٢١١	تفسير الآيتين: ١٠ و ١١
٢١٢	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥

سورة الواقعة

٢٧٣	تفسير الآيات: ١-٦
٢٧٤	تفسير الآيات: ٧-١٢
٢٧٥	تفسير الآيات: ١٣-١٩ و ٢٥ و ٢٦
	تفسير الآيات: ٢٧-٣٢ و ٣٤-٤٧

٢٧٦	و ٥١-٥٥
٢٧٧	تفسير الآيات: ٥٦-٥٩
٢٧٨	تفسير الآيات: ٦٠-٧٠
٢٧٩	تفسير الآيات: ٧١-٨٠
٢٨٠	تفسير الآيات: ٨١-٨٥
٢٨١	تفسير الآيات: ٨٦-٩١
٢٨٢	تفسير الآيات: ٩٢-٩٦

سورة الحديد

٢٨٣	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٨٤	تفسير الآية: ٣
٢٨٥	تفسير الآية: ٤
٢٨٦	تفسير الآيات: ٦-١٠
٢٨٧	تفسير الآيتين: ١١ و ١٢
٢٨٨	تفسير الآيتين: ١٣ و ١٤
٢٨٩	تفسير الآيتين: ١٥ و ١٦
٢٩٠	تفسير الآيات: ١٧-٢٠
٢٩١	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢
٢٩٢	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
٢٩٣	تفسير الآيات: ٢٥-٢٧
٢٩٤	تفسير الآيتين: ٢٨ و ٢٩

سورة المجادلة

٢٩٥	تفسير الآية: ١
٢٩٦	تفسير الآيات: ٢ و ٣ و ٥
٢٩٧	تفسير الآيتين: ٦ و ٧
٢٩٨	تفسير الآيات: ٨-١٢
٢٩٩	تفسير الآيات: ١٤-١٦ و ١٨-٢٠
٣٠٠	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢

سورة الحشر

٣٠١	تفسير الآيتين: ١ و ٢
-----	----------------------

٢٤٣	تفسير الآيات: ١٩-٢٣
٢٤٤	تفسير الآيات: ٢٤-٣٤
٢٤٥	تفسير الآيات: ٣٥ و ٤٨
٢٤٦	تفسير الآية: ٤٩

سورة النجم

٢٤٧	تفسير الآيات: ١-٤
٢٤٨	تفسير الآيات: ٥-١١
٢٤٩	تفسير الآيات: ١٢-٢٢
٢٥٠	تفسير الآيات: ٢٣-٢٨
٢٥١	تفسير الآيات: ٢٩-٣٢
٢٥٢	تفسير الآيات: ٣٣-٤٢
٢٥٣	تفسير الآيات: ٤٣-٤٥ و ٤٨
٢٥٤	تفسير الآيات: ٤٩-٦٢

سورة القمر

٢٥٥	تفسير الآية: ١
٢٥٦	تفسير الآيات: ٢-٥
٢٥٧	تفسير الآيات: ٦-١٣
٢٥٨	تفسير الآيات: ١٤-٢٠
	تفسير الآيات: ٢٢-٢٤ و ٣٣-٣٥
٢٥٩	و ٣٧ و ٤٥ و ٤٨
٢٦٠	تفسير الآيات: ٤٩-٥٥

سورة الزمر

٢٦٢	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٦٣	تفسير الآيات: ٣-٦
٢٦٤	تفسير الآيات: ٦-١٢
٢٦٥	تفسير الآيات: ١٣-١٨
	تفسير الآيات: ١٩ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٤

٢٦٦	و ٢٦ و ٢٩
٢٦٧	تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٣
٢٦٨	تفسير الآيات: ٣٥ و ٣٧ و ٣٩ و ٤١
	تفسير الآيات: ٤٣ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٨-٥٠
٢٦٩	و ٥٢ و ٥٤
٢٧٠	تفسير الآيات: ٥٦ و ٥٨ و ٦٠
٢٧١	تفسير الآيات: ٦٢ و ٦٤ و ٦٦ و ٦٨ و ٧٠
٢٧٢	تفسير الآيات: ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨

سورة التحريم

٣٣٢	تفسير الآية: ١
٣٣٣	تفسير الآيتين: ٢ و ٤
٣٣٤	تفسير الآيات: ٥-٨
٣٣٥	تفسير الآيات: ٩-١١
٣٣٦	تفسير الآية: ١٢

سورة الملك

٣٣٧	تفسير الآيات: ١-٣
٣٣٨	تفسير الآيات: ٤-١٢
٣٣٩	تفسير الآيات: ١٣-١٧ و ٢٩ و ٢٠
٣٤٠	تفسير الآيات: ٢٢ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠

سورة القلم

٣٤١	تفسير الآيات: ١-٤
٣٤٢	تفسير الآيات: ٥-٩
٣٤٣	تفسير الآيات: ١٠-١٧ و ١٩ و ٢٠
٣٤٤	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٢-٣٧
٣٤٥	تفسير الآيات: ٤٢-٤٦
٣٤٦	تفسير الآيات: ٤٧-٥١

سورة الحاقة

٣٤٧	تفسير الآيات: ١-٤ و ١١
	تفسير الآيات: ١٣ و ١٨-٢١
٣٤٨	٢٤-٢٧ و
	تفسير الآيات: ٣٨-٤٠ و ٤٣-٤٦
٣٤٩	٤٨-٥١ و

سورة المعارج

٣٥٠	تفسير الآيات: ١-٥
٣٥١	تفسير الآيات: ٦-١٧
٣٥٢	تفسير الآيات: ١٩-٢٦ و ٢٩-٣٢
	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٦-٣٨ و ٤٠
٣٥٣	٤٢ و ٤٣

سورة نوح

٣٥٤	تفسير الآيات: ١-٧
	تفسير الآيات: ٨-١٣ و ١٥ و ١٦
٣٥٥	٢١ و ٢٢ و ٢٦

٣٠٣	تفسير الآيات: ٣-٥
٣٠٤	تفسير الآيات: ٦-٨
٣٠٥	تفسير الآيتين: ٩ و ١٠
٣٠٦	تفسير الآيات: ١١ و ١٣-١٥
٣٠٨	تفسير الآيات: ٢٠-٢٣
٣٠٩	تفسير الآية: ٢٤

سورة الممتحنة

٣١٠	تفسير الآية: ١
٣١١	تفسير الآيات: ٢-٤
٣١٢	تفسير الآيات: ٥ و ٧-٩
٣١٣	تفسير الآيات: ١٠ و ١٢ و ١٣

سورة الصف

٣١٤	تفسير الآيات: ١-٤
٣١٥	تفسير الآيات: ٥ و ٦ و ٨ و ٩
٣١٦	تفسير الآيات: ١٠-١٤

سورة الجمعة

٣١٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣١٩	تفسير الآيات: ٣-٧
٣٢٠	تفسير الآيات: ٨-١١

سورة المنافقون

٣٢١	تفسير الآيات: ١-٤
٣٢٢	تفسير الآيات: ٥-٨
٣٢٣	تفسير الآيتين: ٩ و ١٠

سورة التغابن

٣٢٤	تفسير الآيات: ١-٣
٣٢٥	تفسير الآيات: ٦-٩
٣٢٦	تفسير الآيات: ١١ و ١٢ و ١٤-١٦
٣٢٧	تفسير الآيتين: ١٧ و ١٨

سورة الطلاق

٣٢٨	تفسير الآية: ١
٣٢٩	تفسير الآيات: ٢-٤
٣٣٠	تفسير الآيات: ٧-١١
٣٣١	تفسير الآية: ١٢

سورة العجن

٣٥٦	تفسير الآيات: ١ و ٣ و ٦
	تفسير الآيات: ٧-١٠ و ١٦ و ١٨
٣٥٧	١٩ و ٢١-٢٣ و ٢٥
٣٥٨	تفسير الآيات: ٢٦-٢٨

سورة المزمل

٣٥٩	تفسير الآيات: ١-٤
٣٦٠	تفسير الآيات: ٥-٧
٣٦١	تفسير الآيات: ٨-١٨
٣٦٢	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠

سورة المدثر

٣٦٤	تفسير الآيات: ١-١٥
٣٦٥	تفسير الآيات: ١٦-٣٢
٣٦٦	تفسير الآيات: ٣٣-٤٦
٣٦٧	تفسير الآيات: ٤٧-٥٦

سورة القيامة

٣٦٨	تفسير الآيات: ١-٤
٣٦٩	تفسير الآيات: ٥-١٧
٣٧٠	تفسير الآيات: ١٨-٣٠
٣٧١	تفسير الآيات: ٣١-٣٩
٣٧٢	تفسير الآية: ٤٠

سورة الإنسان

٣٧٣	تفسير الآيات: ١-٣
٣٧٤	تفسير الآيات: ٤-٦
٣٧٥	تفسير الآيات: ٧-١٣
٣٧٦	تفسير الآيات: ١٤-٢١
٣٧٨	تفسير الآيات: ٢٢-٢٨
٣٧٩	تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠

سورة المرسلات

٣٨٠	تفسير الآيات: ١-٨
٣٨١	تفسير الآيات: ٩-١٧ و ١٩ و ٢٠
	تفسير الآيات: ٢٥-٢٧ و ٢٩-٣١
٣٨٢	٣٥ و ٣٦
	تفسير الآيات: ٣٨ و ٤١ و ٤٣ و ٤٤
٣٨٣	٤٦ و ٤٨

سورة النبا

٣٨٤	تفسير الآيات: ١-٣ و ٦-١٠
٣٨٥	تفسير الآيات: ١١-٢٣
٣٨٦	تفسير الآيات: ٢٤-٣٦
٣٨٧	تفسير الآيات: ٣٧-٤٠

سورة النازعات

٣٨٨	تفسير الآيات: ١-٤
٣٨٩	تفسير الآيات: ٥-١٨
٣٩٠	تفسير الآيات: ١٩ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٦-٣١
٣٩١	تفسير الآيات: ٣٢-٣٥ و ٤٠-٤٦

سورة عبس

٣٩٢	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣٩٣	تفسير الآيات: ٣-٨ و ١١-١٥
٣٩٤	تفسير الآيات: ١٦-٣٢
٣٩٥	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٧ و ٤٢

سورة التكوير

٣٩٦	تفسير الآيات: ١-٧
٣٩٧	تفسير الآيات: ٨-٢٠
٣٩٨	تفسير الآيات: ٢٢-٢٤ و ٢٦-٢٩

سورة الانفطار

٣٩٩	تفسير الآيات: ١-٨
٤٠٠	تفسير الآيتين: ١٧ و ١٩

سورة المطففين

٤٠١	تفسير الآيات: ١-٦
٤٠٢	تفسير الآيات: ٧-١٥ و ١٨ و ٢٢
٤٠٣	تفسير الآيات: ٢٣-٢٨
٤٠٤	تفسير الآيات: ٢٩ و ٣٠ و ٣٤-٣٦

سورة الانشقاق

٤٠٥	تفسير الآيات: ١-٣ و ٦-٨
٤٠٦	تفسير الآيات: ٩-١٤ و ١٦-١٨
٤٠٧	تفسير الآيات: ١٩-٢٥

سورة البروج

٤٠٨	تفسير الآيات: ١-٣
-----	-------------------

تفسير الآيتين: ٧ و ٨ ٤٣٣

سورة التين

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٣٤

تفسير الآيات: ٦ - ٨ ٤٣٥

سورة العلق

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٣٦

تفسير الآيات: ٦ - ١٩ ٤٣٧

سورة القدر ٤٣٨

سورة البينة

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٣٩

تفسير الآيات: ٦ - ٨ ٤٤٠

سورة الزلزلة ٤٤١

سورة العاديات

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٤٢

تفسير الآيات: ٦ - ١١ ٤٤٣

سورة القارعة ٤٤٤

سورة التكاثر ٤٤٥

سورة العصر ٤٤٦

سورة الهمة ٤٤٧

سورة الفيل

تفسير الآية: ١ ٤٤٩

تفسير الآيات: ٢ - ٥ ٤٥٠

سورة قريش ٤٥١

سورة الماعون (سورة الدين)

تفسير الآيات: ١ - ٦ ٤٥٣

تفسير الآية: ٧ ٤٥٤

سورة الكوثر ٤٥٥

سورة الكافرون ٤٥٦

سورة النصر ٤٥٨

سورة المسد ٤٥٩

سورة الإخلاص ٤٦٠

سورة الفلق ٤٦٢

سورة الناس ٤٦٣

تفسير الآيات: ٤ و ٥ و ٨ - ١١ ٤٠٩

تفسير الآيات: ١٢ - ٢٠ ٤١٠

تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢ ٤١١

سورة الطارق

تفسير الآيات: ١ - ٨ ٤١٢

تفسير الآيات: ٩ - ١٧ ٤١٣

سورة الأعلى

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤١٤

تفسير الآيات: ٦ - ٨ و ٩ - ١٩ ٤١٥

سورة الغاشية

تفسير الآيات: ١ - ٧ ٤١٦

تفسير الآيات: ٨ - ١٧ ٤١٧

تفسير الآيات: ٢١ - ٢٦ ٤١٨

سورة الفجر

تفسير الآيات: ١ - ٣ ٤١٩

تفسير الآيات: ٤ - ٧ و ١٣ - ١٩ ٤٢٠

تفسير الآيات: ٢٠ - ٣٠ ٤٢١

البلد

تفسير الآيات: ١ - ٦ ٤٢٢

تفسير الآيات: ٧ - ٢٠ ٤٢٣

سورة الشمس

تفسير الآيات: ١ - ٨ ٤٢٤

تفسير الآيات: ٩ - ١٥ ٤٢٥

سورة الليل

تفسير الآيات: ١ - ٤ ٤٢٦

تفسير الآيات: ٥ - ١٨ ٤٢٧

تفسير الآيات: ١٩ - ٢١ ٤٢٨

سورة الضحى

تفسير الآيات: ١ - ٣ ٤٢٩

تفسير الآيات: ٤ - ٨ ٤٣٠

تفسير الآيات: ٩ - ١١ ٤٣١

سورة الشرح (الم نشرح)

تفسير الآيات: ١ - ٦ ٤٣٢